

الدكتور أحمد ديدات

تاريخ سوريا القديمة

تصحيح وتحريّر





سوريا وعودة الزمن العربي
الكتاب الاول

تاريخ سوريا القديمة

« تصحيح وتحديث »

جميع الحقوق محفوظة للمؤلف

١٤٢٤ هـ — ٢٠٠٣

صورة الغلاف

تمثال محشّار أنطاكية ونمر العاصي

لقد مثل الفنان السوري نمر العاصي بصورة شباب متمرّد
مفتول العضلات ، يرفض أن يتوجه إلى البحر ، فأرغمته
عشتار على ذلك بعد أن داست على كتفه لتتقذ الأرض
الزراعية من أن تتحول إلى مستنقعات .

الطبعة الثالثة

منشورات دار الصفدي

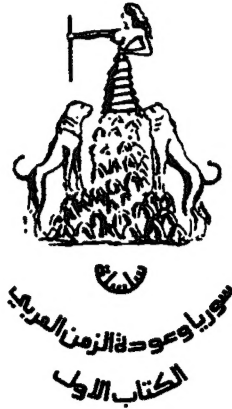
طباعة . نشر . توزيع

دمشق — شارع سعد الله الجابري — مقابل البريد

ص.ب ٣٤٧٧٦ هاتف ٢٢١٨٠١٦ فاكس ٢٢٣٥٤٤٤

Emial : Alsafady@scs-net.org

الدكتور أحمد داود
تاريخ سوريا القديمة
« تصحيح وتحديث »



AHMAD DAOUD
THE ANCIENT HISTORY
OF SYRIA

«Correction & liberation»

كتاب الصفدي

إلى روح فيلون الجبيلي
إن صيحاتك في وجوه مزوري تاريخ وطنك
منذ ألفي سنة بلغت أسماعنا ،
ولن نتركها تذهب هدرًا .
إننا نعيد الألق إلى وجه هذا الوطن
الخالد .

أحمد داوود

((إن على كل إنسان متمدن في العالم
أن يقول : إن لي وطنين
وطني الذي أعيش فيه .
وسوريا))

أندريه بارو
مدير متحف اللوفر سابقاً

مقدمة الطبعة الثالثة

حين دفعت هذا الكتاب إلى المطبعة لأول مرة عام 1985 كنت واعياً مسبقاً لحجم التحدي وخطورة المهمة . فالتاريخ العربي الحضاري القديم كومة من أنقاض هرم كبير ، سرقت خزائنه ، وهربت نفائسه ، وقطعت أوصاله تقطيعاً بلغت حد التفتيت ، ثم ألصقت كل قطعة منه بقبيلة همجية مجاورة ، أو بشعب لم يكن قد امتلك وجوداً حقيقياً بعد على مسرح التاريخ أو الحضارة . ونتيجة لذلك بقي الوجود العربي في الأرض العربية منحصراً ببعض القبائل والعشائر البدوية المتخلفة في صحراء شبه جزيرة العرب ، و ألغي اسم " سوريا " في التاريخ القديم كله لتحل محلها عشائر التوراة البدوية الممعة في تخلفها ، وجرى تغييب الهوية العربية عن كل الإنجازات الحضارية الرائعة في سوريا القديمة ووادي النيل .

إن هذه العملية الرهيبة من التزوير والتفتيت المعتمد في كتابة تاريخنا العربي القديم على أيدي خصومه هي التي ظلت سائدة في الغرب بدءاً مما دعي بـ " عصر النهضة " إلى اليوم ، وقد أسهم العرب أنفسهم في ترسيخها حينما ارتضوا لأنفسهم أن يكونوا متلقين وناقلين ، فصاروا امتداداً للآخر ولتزوير هذا الآخر طيلة القرون الخمسة المنصرمة . إن هذه الظاهرة هي التي أخذت تثير غضب كثير من الباحثين المنصفين في الغرب نفسه حيث العقل الآن فاعل ، ولم تثر ، للأسف ، حمية نقله التاريخ من " الأساتذة " العرب حيث العقل الآن معطل . إنما الظاهرة نفسها التي جعلت باحثاً مثل الفرنسي بيير روسي يكتب قائلاً :

" إن فن التفتيت قد ذهب بعيداً جداً بحيث أن الحضارات قد انتهت بالتقطيع تحت مجهرنا القاتل إلى فتات ، لأنه في الوقت نفسه الذي كان فيه سيرنا التحليلي يتقدم بسرعة كان ميلنا التركيبي يتراجع ، ذلك التركيب الذي لا يمكن بدونه أن يكون هناك تاريخ ممكن ، وإن من غير الممكن تصويره وإدراكه بالنسبة لنقادنا أن يحكموا على تاريخ الشرق والغرب انطلاقاً من هذا البلد المنعزل أو ذاك ، أو اعتماداً على هذا الحادث

المعترض أو ذاك ، ولكن انطلاقاً من وحدة ثقافية واجتماعية تظهر فيها الوثائق الالتحام الذي لا يناقش . إن الحدود التي رُسمت عسكرياً أو سياسياً حسب مقتضيات آراء الأساتذة أو علماء الآثار لا يتجاوز في الحقيقة رغباتهم ، وإننا عندما نؤكد من خلال نظرة شاملة أن الشرق يتعين من خلال ثقافة عربية في محيط عربي فإننا لا نخترع شيئاً . إننا لا نفعل شيئاً جديداً سوى جمع وإحكام العناصر الموطدة والراسخة ، لكنها مطموسة حتى الآن بإرادة التحليل الزائد عن كل حد ، تلك الإرادة نفسها هي المسؤولة الأولى عن نفي علمنا الحقيقي ...

والمذنب الثاني هو التعليم الجامعي المضلل منذ النهضة ، والذي كان وحده لصالح أثينا وروما ... فمنذ القرن الخامس عشر توقفت البلدان الأوروبية عن الاهتمام بالعرب لكي ينهاروا في الرمل ، ولكي ينسحبوا شيئاً فشيئاً إلى حيث يغدون من قبل الغرب في القرن العشرين مختصين بالجمل والقبيلة والتأثر والبداوة ...⁽¹⁾

إنه هوسنا المحب للخصام الذي أخذ يمزق الشعب إلى شعوب أقرباء كالمؤابيين والعمونييين والعموريين والكنعانيين والآراميين والسوريين ... الخ ولماذا ؟ لأننا معنيون بأن نغمر فيهم خصوصيات عرقية أو طائفية تجبرنا على أن نضع بينها العبرانيين ، وذلك لكي نقدم الدليل بكل ثمن على صحة العهد القديم ... إننا نلمس هنا سجلاً يحمل أفدح أنواع التزوير والتخريب ، وليس هناك أصعب من تصحيح مقولات أوضحت مسلمات في مسيرتنا العقلية حصينة منيعة ضد الحقائق "⁽²⁾

إنها الصعوبة نفسها التي عانيتُها في هذا الكتاب الذي كان عليه منذ البداية ، ليس التصدي لكل الركام الهائل من التزوير فحسب ، بل وكان عليه أيضاً أن يعيد مخطط الهرم المتهدم بعد أن ضاع بين الأنقاض ، ويعيد الخطوط الرئيسية في هيكلته على أساسه الراسخ من جديد .

● فقد دحض هذا الكتاب نهائياً البدعة التزويرية حول ما دعي بالسامية

(1) بيير روسي: مدينة إيزيس التاريخ الحقيقي للعرب، ترجمة فريد جحا، إصدار وزارة التعليم العالي ، دمشق ، 1980 ، ص 30 — 31 .
(2) المرجع نفسه ، ص 65 — 66 .

وبالهجرات السامية وأسقطها وأثبت بالبرهان العلمي القاطع أن حركة الشعب العربي لم تكن سوى جولان الشعب الواحد في أرضه الواحدة .

● وأسقط نهائياً البدعة التزويرية حول الدولة العشرة ودولة المدينة ، وأثبت بالبرهان القاطع أن الدولة العربية السورية كانت أول دولة عرفها التاريخ البشري بالمفهوم السياسي والحقوقى والإداري والاقتصادي والثقافي والعسكري ، وكانت حدودها منذ الألف الرابع قبل الميلاد تمتد من البحر الأعلى (البحر الأسود) إلى البحر الأسفل (بحر العرب) ومن وادي السند شرقاً إلى جزر اليونان غرباً طيلة فترة العصور التي أطلق عليها المؤرخون اسم الأكادي والبابلي والأشوري نسبة إلى عاصمة تلك الدولة .

يقول ول ديورانت بهذا الخصوص :

" إن حكومة آشور بانيبال أقامت في غربي آسيا حكماً كفل لهذا الإقليم قسطاً من النظام والرخاء أكبر مما استمتع به هذا الجزء من الأرض فيما تم قبل ذلك العهد ذلك أن حكومة آشور بانيبال التي كانت تضم تحت جناحيها بلاد آشور ، وبابل ، وأرمينيا وميديا وفلسطين وسوريا وفينيقيا وسومر وعيلام ومصر كانت بلا جدال أوسع نظام إداري شهدته عالم البحر المتوسط أو عالم الشرق الأدنى حتى ذلك العهد ولم يدان آشور بانيبال فيه إلا حمورابي " (1)

ويؤكد جيمس بريستد ذلك بالقول :

" وفي سنة 700 ق.م كانت آشور تضم إلى أملاكها جميع أراضي الهلال الخصيب ، ولم تكف بذلك بل وسعت نطاق سلطانتها حتى البلاد الجبلية الشمالية وما وراءها إلى مدى بعيد ، وبفتحتها لمصر بسطت حمايتها على الجهة الغربية من وادي النيل الأسفل .. وصارت أعظم مملكة رآها العالم منذ وجد ، ولم تكن دولة في العالم تجرؤ على مناوأتها " (2)

(1) ول ديورانت قصة الحضارة ، المجلد الأول ، ص 272

(2) جيمس بريستد ، العصور القديمة ، ترجمة داود قربان ، ص 166

● وأسقطنا في هذا الكتاب ما أمكن إسقاطه من الخرافات التي حيكت عبر القرون حول عشيرة بني إسرائيل ودولتها المزعومة في التاريخ القديم ، علماً أن اليهودية اليوم دين ، وليست نسباً أو عرقاً أو جنساً أو أرضاً أو شعباً أو أمةً ، وبالتالي فليس لليهود العالم اليوم أية علاقة نسبية بسام بن نوح ، أو بإبراهيم ، أو بيعقوب (الذي هو إسرائيل) بله بالأرض التي عاش عليها أولئك الأباء العرب الأقدمون أيا كانت وأينما كانت . إن الكيان الصهيوني في الأرض العربية هو استعمار استيطاني ، بل هو الاستعمار الاستيطاني الوحيد الذي مازال قائماً إلى اليوم، وقد نهض على ساقين : تزوير التاريخ ، والإرهاب المدعم بإرهاب القوى الاستعمارية من الخارج .

إن دوائر الاستعمار الغربية والصهيونية ، إدراكاً منها ما للتاريخ من دور توحيدى ونضالي في أية لحظة ينحو فيها الجدل منحى الصراع ، فقد عمدت إلى تسديد سهامها نحو صدر التاريخ العربي القومي باذلة كل ما تستطيع في سبيل محو الذاكرة وتشويه الهوية من خلال تشويه صورة الأمة الثقافية والحضارية في التاريخ . لهذا فقد عمدت إلى تقطيع الجسد التاريخي للأمة بكل عروقه البشرية وأنساعه الثقافية والحضارية أفقياً وعمودياً . فعلى الصعيد الأفقي تم بتر العربي عن ماضيه الحضاري العريق وصار ما يدعى بـ " جاهلية ما قبل الإسلام " هو بداية هذا التاريخ .

والنتيجة كانت ارتباط الوجود الحضاري العربي بالفترة الإسلامية فقط ، وبالتالي فقد صار العرب جماعات من البدو ، تسلطوا على حضارات الشعوب الأخرى كالفرس واليونان والرومان ، فكانوا ناقلين للحضارة لا مبدعين لها . وصارت تسمية " الحضارة الإسلامية " هي السائدة عند العرب أنفسهم وفي الخارج . وإن سقوط المثقفين العرب في هذا الفخ كانت له نتائج خطيرة ومدمرة على الواقع العربي الثقافي والسياسي نذكر منها:

إن بتر التاريخ العربي عن عصور ما قبل الإسلام ألغى الوجود العربي الثقافي والحضاري بكل كثافته الكمية والنوعية والمشهودة آثارياً والمعروفة كتابياً لعدة آلاف من السنين في كل من سوريا الطبيعية ووادي النيل ، مما فتح الباب واسعاً أمام كل مدّع بالأرض وبالثقافة معاً ، وترك الساحة خالية أمام التزوير الصهيوني الذي طمس الهوية العربية في

المشرق العربي القديم ، وألقى اسم سوريا من التاريخ القديم كله ، لتحل محله عشائر التوراة البدوية المتخلفة والتي لا ذكر لها خارج مدونات التوراة .

إن الحديث عن حضارة إسلامية يخلق الذريعة للحديث عن حضارة مسيحية وأخرى يهودية ، علماً أن الدين لم يكن في يوم من الأيام غير واحد من مكونات الثقافة والحضارة وليس كلها. وإن هذا من شأنه أن يخلق بدوره غطاءً دينياً زائفاً لطبيعة الصراع الدائر اليوم بين المشروع العربي النهضوي التحرري من جهة وبين المشروع الإمبريالي الصهيوني من جهة أخرى .

وإن هذا أدى أيضاً إلى ظاهرة اصطناعية أخرى تجلّت في الانقسام العمودي ما بين العروبة والإسلام فكراً وثقافةً وحضارةً وبالتالي انتماء وهوية ، والتي لعبت فيها وتلاعب الشعوبية دوراً كبيراً .

إن التاريخ هو اشدّ العلوم التصاقاً بالسياسة . وإن التاريخ لا ينفصل عن الجغرافيا ، وإن الصراع الدائر اليوم مع العدو الصهيوني هو صراع في التاريخ وعلى التاريخ والجغرافيا ، ومن لا يعرف تاريخه لن يعرف كيف يدافع عن جغرافيته .

وإن استسلام النخبة المثقفة من معظم المثقفين العرب لهذا العدوان على التاريخ ، وتقاعسهم عن دراسة التاريخ الصحيح لأمتهم وحمايته والدفاع عنه جعلهم امتداداً للخارج في الداخل يرسخون التاريخ المزور في المؤسسات الثقافية والإعلامية والتعليمية ، ومن ثم في أذهان الناشئة جيلاً بعد جيل .

إن انقطاع المثقف عن معرفة الماضي لأتمته أفقده المصادقية في الراهن ، لأن جهله بتاريخية الراهن أفقده الفعل الاستراتيجي فيه. إنه المثقف المأزوم الذي يندب هويته الضائعة دون أن يكذّب في البحث عنها واسترجاعها من أجل تفعيلها واستيلائها في الراهن والمقبل .

واليوم ، إذ يكثر الحديث عن حوار الحضارات أو صراعاتها ، لن يكون مهماً هذا الخوض اللاهوائي في المفاهيم من قبل المثقف العربي ، حتى صارت تبدو هذه المفاهيم وكأنها هي ساحتها الوحيدة. ومعروف أن المفاهيم هي أدوات ثقافية فقط وليست ثقافة في حد ذاتها ومن ينتج الثقافة ينتج المفاهيم معها . أما المثقف العربي ، فهو بجهله لتاريخه الصحيح ،

واعتماده الدائم على تعريف الآخر الخارج به ، فقد تحول إلى جزء من الواقع الاستهلاكي السائد ، إنه مستورد للثقافة وليس منتجاً لها . وليس أدل على ذلك من ظهور كوكبات لامعة من المثقفين والباحثين المنصفين في الغرب نفسه الذين أخذوا على عاتقهم مهمة التصدي لكل ذلك التزوير الحاصل في التاريخ العربي ، ولكل ذلك التشويه لصورة العربي .

ولم يقفوا عند حدّ الشجب والاستنكار ، بل بادروا إلى تصحيح التاريخ المزور المتداول ، وأصدروا الكثير من الكتب في هذا المجال نذكر منهم : غوستاف لوبون ، سيديو ، بير روسي ، جان غومليه ، لوسيان لوكليز ، بريس دافين ، جاك روبسler ، ماكس فانتاجو ، جورج مارسيه من فرنسا ، وريتشارد إيتنكهاوزن ، وسيغريد هونكه ، وسودهوف ، وبروكلمان من ألمانيا ، وبوتلر وفارمر وبراون وجورج ساتورن من بريطانيا وغيرهم الكثير

بينما نرى في المقابل كيف أن المثقفين العرب ، في معظمهم ، وكأنما فقدوا كل الثقة بأنفسهم ، ظلوا ينتظرون الوقت الذي يتم فيه التصحيح كاملاً في الخارج ، ثم يجري استيراده من هذا الخارج ، فيصبح تاريخاً جديراً بالثقة ، عندها فقط يمكن أن يحشمو أنفسهم عناء نسخه وتقليده .

إن نظرة واحدة إلى المؤسسات الثقافية ومديريات الآثار والمتاحف وغيرها كفيلة بأن تعرّفنا على فداحة الواقع الثقافي وبؤس مؤسساته الذي يكاد يدمر ما تبقى من نبض التاريخ في عروق الأمة .

د. أحمد داوود

دمشق — 22 أيلول 2002

مقدمة الطبعة الثانية

في الوقت الذي يقر فيه كثير من المؤرخين والباحثين المنصفين في الغرب بان تاريخ العرب هو تاريخ التمدن البشري على هذا الكوكب نجد أن هذا التاريخ تعرض لضروب من التشويه والتقزيم والتزوير على أيدي خصومه من استشراقيين استعماريين وصهاينة ومغرضين ما لم يتعرض لمثله تاريخ أي شعب من الشعوب .

ولقد أسهم العرب أنفسهم على مدى هذين القرنين في عملية ترسيخ ذلك التزوير بطرق مختلفة نذكر منها :

1. فهم لم يبحثوا في هذا التاريخ ، ولم ينشئوا المؤسسات التي تضطلع بدور الكشف عن الآثار ودراستها ، بل تخلوا عن هذا الدور بكامله إلى المؤسسات وبعثات الاستكشاف والدراسة الأجنبية التي تشكلت أساسا ، في معظمها ، لتحقيق أغراض سياسية استعمارية تهدف إلى إلغاء الهوية القومية للمكتشفات ، وطمس الطابع العربي الأصيل لحضارة المنطقة منذ آلاف السنين .

2. لقد عمد بعض العرب إلى التنكر لتاريخ الوطن العربي قبل الإسلام بحجة انه تراث وثني ، وصار تاريخ العرب يبدأ من عرب ما دعي بـ " الجاهلية " مما رتب آثارا جد فادحة : فقد صارت كلمة " عربي " مرادفة لكلمة " بدوي " وطمست الهوية الحضارية لإنجازات الشعب العربي على أرضه على مدى اثني عشر ألف عام قبل الإسلام والمسيحية ، وألصقت بأقوام غرباء عن المنطقة لم يكونوا قد تجاوزوا طور الهمجية وسكنى الكهوف وأكل لحوم البشر ، وأصبح ذلك التاريخ نهباً لكل طامع أو مدع من الخارج كما أضحي حقلاً مشاعاً لأيدي العابثين والمزورين ، وأصبح العرب غزاة في أرضهم يتساوى حقهم فيها مع حق أي غاز آخر ، وكانت محصلة ذلك كله أن تحول الوطن العربي إلى أشلاء مبعثرة بعد أن مزقت وحدته التي هي الطابع الحقيقي الأصيل لوجوده منذ الزمن الموهل في القدم .

3. إن جميع دول العالم تنظر إلى تاريخها القومي نظرتها إلى أمنها القومي ، والعرب هم اليوم الوحيدون في هذا العالم الذين يرسلون أبناءهم إلى خصومهم والطامعين فيهم ليتعلموا على أيديهم تاريخهم . لقد جعلوا ، جراء ذلك ، من أنفسهم وسطاء دون أجره لنقل كل ما يصنع من تزوير إلى الداخل ، فيرسخونه عن طريق التعليم في أذهان أبناء شعبهم وأمتهم جيلا بعد جيل ، وتحولت مؤسسات التعليم والثقافة والسياحة في معظمها في الوطن العربي إلى امتدادات للخارج تمسك بعقول الناشئة لتجمدها عند الحدود المرسومة لها وتحبسها ضمن الأطر التي أعدت لها بإحكام وتمنعها من الحركة أو الفعل .

إننا في هذا الكتاب نعيد للممة أشلاء الهيكل العظمي المبعثرة لتاريخنا العربي القديم منطلقين من إيماننا الراسخ بوحدة الشعب العربي أرضا ولغة وسكانا وثقافة وتراثا وحضارة منذ الزمن الموهل في القدم . وقد اعتمدنا في ذلك كله منهجا علميا قائما على الأسس والمبادئ والمنطلقات التالية :

1) لما كان التاريخ في أبسط تعريف له ، سجلا لنشاط الإنسان المادي والروحي معا ، فإنه بالتالي يتناول الإنسان المجتمعي في تطوره ضمن شروط وجوده الطبيعية في تطورها . إنه الفكر والفن واللغة والاقتصاد والسياسة والدين والإنتاج وأدواته ، إنه الطبيعة والجغرافيا والمناخ في علاقتها التبادلية الشمولية والجزئية مع هذا الإنسان المجتمعي أو ذاك في هذه المرحلة التاريخية أو تلك من الزمن ، إنه العلم الموسوعي الشمولي الوحيد الذي تناول الإنسان سيرورة وصرورة ، فعلا وانفعالا في الزمان والمكان .

2) بناء على هذا فقد اعتمدنا كل العلوم المساعدة لعلم التاريخ في التحقق من صحة وثيقة أو حدث أو قول أو فرضية . فمن المعلوم أن الوثيقة أو الأثر ليسا هما التاريخ ، بل على المؤرخ أو الباحث أن يضع كلا منهما على محك العلوم المساعدة ليستنبط منها المادة التاريخية في إطار حدوثها الموضوعي الصحيح . وهذه العلوم المساعدة المعتمدة هي بالدرجة الأولى :

علم الآثار ، علم اللغات أو الألسنيات ، علم المنطق بكل فروعها ، علم الجغرافيا

والمناخ ، بل ومنجزات العلوم التطبيقية الأخرى .

(3) لقد عمدنا إلى استعراض بعض أو كل ما قيل حول هذا الحدث أو هذا الموضوع أو ذاك ، وأجرينا المحاكمة على محك العلوم المساعدة الأخرى لعلم التاريخ ، وكانت النتائج مذهلة حينما رأينا كيف تنهاوى كل تلك الأكوام المتراكمة من التزوير ليعود إلينا تاريخنا بحقيقته الناصعة ولوجهه العربي الأصيل . وكان من بين أهم هذه النتائج :

- كشف الكثير من مواقع التزوير الاستشراقي الاستعماري أو الصهيوني وإسقاطها وإعادة الألق إلى الحقيقة التاريخية الحضارية لشعبنا العربي .
- الكشف عن وحدة السكان والأرض واللغة والحضارة والتراث منذ عدة آلاف من السنين قبل ميلاد المسيح .
- إسقاط الكثير من الفرضيات أو النظريات المتهورة والمغرضة والمناقضة للعلم والحقيقة مثل ما دعي بـ " النظرية السامية " و " الهجرات السامية " وأثبتنا أن الأمر في حقيقته لم يكن غير جولان أبناء الشعب الواحد في أرضه الواحدة .
- لقد أسقطنا من الحساب ومن التعامل كل تلك التسميات المغرضة التي لا تمت إلى روح العلم والموضوعية بأية صلة ، وكشفنا الأغراض التجزيئية التي كانت ترمي إليها .

ولابد لي من الإشارة هنا إلى أنني حينما دفعت بهذا الكتاب للطبعة الأولى في بداية عام 1985 كنت أحس بفداحة وبحجم ذلك التزوير الذي ألم بتاريخنا حتى كاد يغيبه عن الوجود ، كما كنت أدرك استحالة إمكانية إسقاط كل ذلك التزوير وتصحيحه في كتاب ، وأشارت إلى ذلك منبها القارئ إلى أنني سوف أتعامل مع الكثير من المقولات والتسميات والمعلومات المتداولة والشروحات كما هي من أجل التمكن من الملمة ما أمكن من الأجزاء المبعثرة وإعادة رسمها ضمن مواضعها الحقيقية بحيث تكون بمثابة المخطط الحقيقي والأصيل للعمارة الذي لا بد من إعادة بنائها من جديد . واليوم وبعد أن أصدرت الكتاين الثاني والثالث من السلسلة وبرزت جليلة للعيان ، من

خلالهما، صورة وملامح البناء ، أو ما سيكون عليه ، فقد كان لابد من العودة إلى هذا الكتاب (الأول) ، وتصحيح ما كنا قد أبقينا عليه دون تصحيح أو إسقاطه ، بعد أن تم تناوله في كتابينا التاليين .

د. أحمد داوود

دمشق — 1 كانون الثاني 1997

مقدمة الطبعة الأولى

منذ أن بدأت عمليات التزوير في التاريخ العربي بدأت عملية إقحام هذا التاريخ في المعركة السياسية والفكرية ، ولم يعد ثمة خيار أمام كل دارسي هذا التاريخ والباحثين فيه من أبناء الأمة العربية غير أن يخوضوا هذه المعركة بكل أبعادها .

لقد دأبت السلطات الاستعمارية المتعاقبة على تشويه هذا التاريخ وضربه في صميم وحدته التي هي جوهر وجوده منذ آلاف السنين وحتى اليوم وبدأت عملية تهريبه وتسريه لإحاقه بأقوام وقبائل همجية نكرة في مضمار التمدن:

فقد قسموا حضارة سوريا إلى حضارات مواقع ، ثم ألحقوا كلا منها بجهة ما غريبة عن المنطقة وعن الحضارة عموماً . ففي المنطقة الشرقية أنكروا على السومريين — رغم كل الدلائل والمكتشفات الأثرية — أصلهم العربي ، والحقوهم بقبائل من أسلاف المغول دون أن يعرفوا كيف يبررون إلصاق الحضارة بحسد الهمجية دونما أي حرج ، وربطوا حضارة الشمال الغربي الممتد من كيليكيا إلى أدنة وشمال غرب مرسين بقبائل هندو أوريسية مجهولة الاسم والأصل والهوية ، أطلقوا عليها أسماء عربية من مدونات التوراة بعدما تم التبديل في الأسماء والمواقع على أيدي المستشرقين والتوراتيين ، فصار العرب الحاميون بعشائرتهم من كنعانيين وحثيين وحوريين ، الذين كانوا يعيشون في وسط وجنوب شبه جزيرة العرب ، هم سكانا هندو أوروبيين يشغلون تلك المناطق ويقيمون الحضارة ، رغم كل التناقضات والارباكات السكانية واللغوية والحضارية التي أحدثتها مثل هذه العمليات المحجفة والمسرقة في تزوير وتشويه حقائق التاريخ .

وفوق هذا ، ومنذ بداية الغزو الإمبريالي الصهيوني الحديث للمنطقة ، جرت عملية تزوير لم يسبق لها مثيل : إن أشتات العشائر العربية البدوية من أبناء يعقوب العربي الآرامي الذين لم يتجاوزوا مرة سكنى الخيام وحياة الرعي البدوي والسطو ، ولم يلبغوا شكل القبيلة في التجمع ، إذ بقي التناحر بين زعماء الأسر والعشائر هو السائد حتى في عهد

داود وسليمان وابنه رجبام ، و لم تعد مساحة الرقعة التي انتشروا بين أهلها بضعة كيلو مترات تضم بعض القرى والسفوح والوديان — دون المرتفعات — في بلاد غامد من جبال السراة في غرب شبه جزيرة العرب ، نراهم وقد تحولوا ، بفعل المقدرة الصهيونية والكهنوتية اليهودية على التزوير إلى دولة ومملكة كانت تسيطر على جنوب سوريا ووسطها وتطمح للسيطرة من الفرات إلى النيل ! وجاءت الحركة الصهيونية مدعومة بأعنى قوة إمبريالية في العالم اليوم تطالب بـ " إعادة الحياة " إلى تلك " الدولة " الخرافة الوهم ، فيكون بذلك تاريخ سوريا الذي هو تاريخ حضارة البشرية كلها — كما صار يؤكد كثير من الباحثين المنصفين — قد " هرب " بأجمعه من الشرق ، والشمال ، والوسط ، وقد ألصق ما تبقى منه في جانبه الغربي بحضارة اليونان .

ومن هنا بالذات كانت الكتابة في هذا التاريخ لا تنفصل عن عملية الصراع الدائر اليوم في المنطقة بشتى الوجوه وعلى مختلف الصعد ، بعد أن صار هذا التاريخ في صميم المعركة السياسية والعسكرية والجغرافية والحضارية والثقافية واللغوية ... وبكلمة ، إنه جزء لا يتجزأ من جسد الصراع الدائر اليوم بكل حدته وشراسته ومصيريته ، ولن يستغرب كل من يدرك هذه الحقيقة أن نبدأ دراستنا لتاريخ سوريا القديم بهذه المقدمة السياسية . إن تحرير الأرض مرتبط بتحرير التاريخ ، والعكس أيضا صحيح . وليس تحرير الأجزاء المحتلة من الأرض بأكثر أهمية وشأنا من تحرير تلك البوابات الفكرية المحتلة في كتب التاريخ وفي أذهان الكثيرين ممن يقفون حراسا لتلك البوابات ، وعن وعي منهم أم عن غير وعي فالنتيجة في الحالين سواء .

إن الصراع ، إذن ، في التاريخ والجغرافيا لم يعد مقتصرا اليوم على ما فعلته قوى الاستعمار والإمبريالية بالواقع العربي الراهن من تفتيت وقهر ، وقسر على المرواحة وبقاء التخلف ، بل يتعداه إلى مدى آلاف من السنين بعد أن جرت عملية زج ذلك التاريخ القديم الطويل كله في معركة الصراع الدائر اليوم ، وصار جزءا من الصراع الفكري والأيدولوجي والعقائدي والسياسي . هذا الصراع الذي نجد لزاما هنا أن نصصح بعض ملامح النظرة السائدة إليه .

إن الصراع الدائر اليوم في المنطقة العربية هو الصراع نفسه الذي كان يدور بالأمس . إنه الصراع بين الأمة العربية بجماهيرها التائفة إلى تحرير أرضها وبناء دولتها العربية الواحدة من جهة ، وبين قوى الغزو والاستعمار والإمبريالية وكل رموزها وأدواتها من جهة أخرى . وإن تضيق الصراع وجعله عربياً — إسرائيلياً ليس إلا نوعاً من الإسهام العفوي أو المقصود في عملية إخفاء وتبرئة أطرافه الرئيسية توطئة للدور المزدوج الذي على تلك الأطراف أن تلعبه في إحدى حلقات تطور هذا الصراع ، ولقد تجلّى ذلك في أوضح صورة له إبان مؤامرة كعب ديفيد عندما انسلت الإمبريالية الأمريكية من تحت ملابس الميدان والحرب ضد العرب لتجلس في ثياب " الحكم " و " الوسيط " الذي يقف على " الحياد " ، وتتوسط من أجل فرض الاستسلام على العرب .

إن الصراع هو نفسه ولو اختلفت رموزه وأدواته . وإسرائيل ، في أقصى حالاتها ، لن تعدو كونها أداة استعمارية في هذا الصراع . فمنذ أن كانت بريطانيا تتزعم النظام الاستعماري كان الصراع قائماً بين الجماهير العربية التواقفة إلى التحرر والوحدة ، وبين الاستعمار البريطاني بكل ما يمثله من قوى ورموز وأدوات وأساليب . لقد ضربت بريطانيا محاولة محمد علي في إقامة دولة عربية مركزية قوية ومتطورة ، وضربت الثورة العربية التي حاول إقامتها الشريف حسين وغدرت بها وسحققتها في المهدي . وإن من ينظر ، قبل ذلك كله ، إلى التقرير الذي وضعته اللجنة التي شكلها كاميل بترمان رئيس وزراء بريطانيا عام 1907 من أجل الحصول على جواب للمسألة الأساسية التي تقض مضجع بريطانيا الاستعمارية : وهي كيف يمكن الحؤول دون سقوط الإمبراطوريات الاستعمارية ، لن يبقى بحاجة إلى أي شيء آخر من أجل الكشف عن حقيقة وجوه هذا الصراع الذي لم يكن خلق الكيان الصهيوني وزرعه في قلب الوطن العربي إلا أحد أسلحته الفاعلة .

يقول التقرير :

" إن الخطر المهدد يكمن في البحر المتوسط ، صلة الوصل بين الشرق والغرب وفي حوضه مهد الديانات والحضارات ، وفي شواطئه الجنوبية والشرقية بوجهه أخصّ .

فعلى طول ساحله الجنوبي من الرباط إلى غزة ، وعلى الساحل الشرقي من غزة حتى مرسين وأضنة ، وعلى الجسر البحري الضيق الذي يصل آسيا بإفريقيا وتمر فيه قناة السويس شريان حياة أوروبا ، وعلى جانب البحر الأحمر ، وعلى طول ساحلي الهندي وبحر العرب وحتى خليج البصرة ، حيث الطريق إلى الهند والإمبراطوريات الاستعمارية في الشرق .

" في هذه البقعة الشاسعة الحساسة يعيش شعب واحد تتوفر له من وحدة تاربخه ودينه ووحدة لسانه واصلاته كل مقومات المجتمع والترابط والاتحاد وتتوفر في نزعاته التحررية وفي ثرواته الطبيعية ، ومن كثرة تناسله ، كل أسباب القوة والتحرر والنهوض . " كيف يمكن أن يكون وضع هذه المنطقة إذا توحدت فعلاً آمال شعبها وأهدافه ، وإذا اتجهت هذه القوة كلها في اتجاه واحد ؟ ماذا لو دخلت الوسائل الفنية الحديثة ، ومكتسبات الثورة الصناعية الأوروبية إلى هذه المنطقة ؟ ماذا يمكن لو انتشر التعليم وعممت الثقافة في أوساط هذا الشعب ، ماذا سيكون إذا تحركت هذه المنطقة واستغلت ثرواتها الطبيعية من قبل أهلها ... عند ذلك ستحل الضربة القاضية بالإمبراطورية الاستعمارية وعندها ستبخر أحلام الاستعمار بالخلود ، تقطع أوصاله ، ثم يضمحل وينهار ، كما انهارت إمبراطوريات الرومان والإغريق .

إن الخطر على كيان الإمبراطوريات الاستعمارية كامن في الدرجة الأولى في هذه المنطقة في تجمعها واتحادها حول عقيدة واحدة ، وهدف واحد ، فعلى كل الدول ذات المصلحة المشتركة أن تعمل على استمرار وضع المنطقة الجزأ المتأخر ، وعلى إبقاء شعبها على ما هو عليه من تفكك وجهل وتأخر وتناحر وكوسيلة أساسية مستعجلة لدرء الخطر يجب العمل على فصل الجزء الأفريقي من هذه المنطقة عن جزئها الآسيوي ، وذلك بإقامة حاجز قوي غريب على الجسر البري الذي يربط آسيا بإفريقيا ، ويربطهما معاً بالبحر المتوسط ، بحيث يشكل في هذه المنطقة ، وعلى مقربة من قناة

السويس قوة صديقة للاستعمار ، وعدوة لسكان المنطقة ⁽¹⁾

إن هذا التقرير يكشف حقيقة وجوه وأطراف الصراع . وإن ما يسميه البعض اليوم بالصراع العربي — الإسرائيلي إنما هو في حقيقته كالصراع بين الجسد ورأس الحربة ، إذا ما صرف النظر عن جسم الحربة ككل وعن كل من يقف خلف الحربة ويمسك بها ويدفعها بقوته إلى داخل الجسد .

وإن تقزيم هذا الصراع وجعله عربيا — إسرائيليا فقط إنما هو تقزيم للنضال العربي ، وحرف له عن توجهه الصحيح ، وتغطية للأطراف الاستعمارية والإمبريالية الرئيسية ، وخلق ستار من الدخان على أدوارها وتحركاتها وتضليل للجماهير العربية عن أهداف نضالها وعن أعدائها الرئيسيين والحقيقيين، وتهويل فيه كثير من المبالغة للعدو الصهيوني . إن على كل منا أن يدرك أن جميع الحروب والمعارك التي خاضتها جماهير شعبنا العربي ضد الكيان الصهيوني ، منذ بداية زمره وحتى اليوم ، إنما كانت في حقيقتها حربا مباشرة مع الدول الاستعمارية ذاتها التي أوجدت هذا الكيان المصطنع ، وتكفلت بحمايته وتقويته والدفاع عنه . إن حديد الحربة الإسرائيلية إنما كان حديدا بريطانيا ثم صار أمريكيا ، وإن التفوق الإسرائيلي ليس إلا تفوقا بريطانيا ثم تفوقا أمريكيا ، أكان ذلك بالعتاد أم بالسلاح أم بالرجال .

وإذا كانت الدول الاستعمارية قد نجحت في تعويم وجودها على مناطق مصالحها ونفوذها في المنطقة العربية كطرف خارج عن الصراع ويقف على الحياد ، حريصا على صداقته لكلا الجانبين ، فإن ذلك في حد ذاته ، كان أكبر انتصار استطاعت أن تحققه على الساحة . لقد أسفر ذلك عن جعل الصراع صراعا عربيا إسرائيليا خالصا ، جندت له مع الصهيونية الفكر والإعلام والدعاية ، كما جندت له التاريخ ، غير عابئة بكل ما مارست فيه من أعمال القسر والتشويه والتزوير ، كل ذلك من أجل أن تنهض صورة

(1) أنظر : Khaled Mohieddine, <Temps Modernes> p.22

و : الترجمة الكاملة لنص التقرير الصادر عن القيادة القومية لحزب البعث العربي الاشتراكي ،

في دمشق 1978

و : قاسم الشواف ، " مع الكلمة الصافية " ص 358 — 386 .

الصراع على الساحة وفي كل الأذهان عربياً — إسرائيلياً بحثاً ، لا علاقة للآخرين به إلا كعلاقة الصديق المخلص لطرفي الصراع كليهما ، الحريص على إنثائه بالصورة التي تضمن "حقوق" كل طرف ، وهذا من شأنه أن يطمس حقيقة النهب الاستعماري والإمبريالي لثروات المنطقة إلى أطول مدى ممكن ويتركها في الظل بعيداً عن أضواء ذلك الصراع الذي كلما حي وطيسته كانت تلك الأطراف تجد الذرائع لأن تثبت أقدامها أكثر ، وتحكم من ربط هذا الجزء أو ذاك بعجلة نفوذها واستعمارها وماكانت معامل السلاح لديها أكثر ، كما يضمن لها متسعاً من الوقت من أجل التصدي لعمليات النهوض الثورية ، التي قد تنزع على الساحة العربية في هذا المكان أو ذاك. ولقد بذلت جهود كبيرة من أجل إظهار هذا الصراع في هيئة صراع دولي أمريكي — سوفيتي على مناطق النفوذ ، ودخلت إسرائيل ضمن عناصر الصراع كـ "جزء من المنطقة" يسهم في "صد النفوذ السوفيتي" عنها في محاولة مفضوحة من الإمبريالية والصهيونية لأن تسبغ بذلك على وجود إسرائيل المصطنع صفة الأصالة والثبات والديمومة .

وبعد عملية خلط للأوراق جديدة ، هذه اللعبة التي أتقنتها الجهات الإمبريالية جيداً ، ثم إعادة فرزها ، سرعان ما ظهرت مفاهيم جديدة مثل "الدول المعتدلة" و "الدول المتطرفة" وغير ذلك من التسميات التي كان عليها أن تضفي على التناقض شكلاً جديداً آخر تتبدل فيه المواقع كما يتبدل فيه طابع الصراع ذاته ، ويصبح زئبقياً رجراجاً ، ما إن تحاول ضبط أحد أجزائه في جانب حتى تراه يتزلزل ، كما من بين أصابعك ، إلى الجانب الآخر ، والكل يدرك أن هذه الصيغة الجديدة التي دعيت بـ "الاعتدال" قمينة في السياسة بأن يفيد منها الطرف القوي وحده ، إذ يجعل منها مجالاً حقيقياً ، وعمقاً إضافياً لتحركاته ومناوراته ، التي تتراوح عادة ما بين الفعل اللين والفعل العنيف ، كما أن أي "اعتدال" أو تظاهر بـ "الحياد" في معركة الأمة العربية من أجل تحررها ليس ، في البدء وفي النهاية ، إلا جزءاً من هذه المعركة ، لكن في الخندق الآخر .

إن سوريا ، هذه التي تستحق بجدارة أن تسمى "ماسة الأمة العربية" والتي حيرت كل الرؤوس البعيدة والقرية ، وأصحاب المخططات الكبيرة ، قد تواصلت ، وبدأ بـ منقطع

النظير ، محاولات سحقها وإزالة اسمها عن خارطة الصراع الدائر بين الأمة العربية وأعدائها .

● فقد اجتزئ منها جناحها الشرقي المطل على الخليج العربي وأحدثت فيه دولة ، وفصل شمالها — كيليكيا واسكندرون ومن شمال مارسين حتى ديار بكر — وضم إلى تركيا ، واجتزئت فلسطين وزرع فيها الكيان الصهيوني المصطنع كأداة لحراسة المصالح الإمبريالية في قلب المنطقة العربية ، وعلى الجانب الشرقي لنهر الأردن أحدثت إمارة ثم دولة ، وفصل لبنان عن الجزء الملاصق للقلب وأحدثت فيه دولة ... أما البقية الباقية فقد بذلت دوائر الاحتلال التركي جهوداً محمومة من أجل تكريس التقسيم الطائفي فيها ، وإثارة نعراتها ، محدثة ما دُعي بمجالس الملل ، وأخذت تتعامل مع المنطقة من خلالها ، ثم جاء الاستعمار الفرنسي وحاول تثبيت ما بدأه الأتراك وتجسيده في كيانات على أرض الواقع ولم يفلح ، وتركزت بالأمس كل جهود الإمبريالية الأمريكية والصهيونية والرجعية عسكرياً واقتصادياً وإعلامياً في حملة مركزة موحدة من أجل إنجاز مهمة تفتت سوريا إلى كيانات طائفية هزيلة ، إلى شظايا ، مستخدمين كل الوسائل ، والرموز والقوى والأدوار ، وبتكثيف هذه المرة لم يسبق له مثيل ، وببرز رد الفعل السوري عملاقاً بحجم التحدي ، وتجسدت الأمة العربية كلها في هذا البلد ، كما تجسد التاريخ العربي كله ، وآمال الجماهير العربية كلها ، في حزب البعث العربي الاشتراكي الذي قدم للأمة العربية في أحلك أوقاتها واحداً من أعظم قادتها التاريخيين — الرئيس حافظ الأسد .

لقد كن هذا القائد العربي السوري من أن يلوي عنق الزمن الإمبريالي الصهيوني ويعلن بدء الزمن العربي ، معيداً إلى الأذهان حكمة ، وشجاعة ، ووفاء ، وحكمة أولئك القادة العظماء من أسلافنا أمثال : سرجون وحمورابي وهانبيال وعمر وعلي وخالد وطارق وموسى بن نصير وصلاح الدين وغيرهم .

● أما سوريا التاريخ الحضاري القديم فقد عمل على طمسها ومحو ذكرها كلياً من التاريخ العربي ، وذلك من خلال اختزالها واختزال حضارتها الكلية في حضارات مواقع

وأسماء جزئية كثيرة ، نذكر منها على سبيل المثال لا الحصر : حضارة ما بين النهرين ، وحضارة وادي الرافدين ، وحضارة ماري ، ومملكة تدمر ، وحضارة إيبلا ، ومملكة أوغاريت ، و سومر ، و أكاد ، و بابل ، و آشور ، و نينوى ، و أور ، و فينيقيا و صور ، و عمور (أمورو) ، و آرام ، و بلاد الشام ، و بلاد كنعان ، وغيرها مرة ، أو من خلال إقحامها ضمن أطر وتسميات استعمارية غريبة عن المنطقة لطمس مضمونها الحضاري وهويتها العربية مرة أخرى ، كالشرق الأوسط ، والشرق الأدنى ، وشرق المتوسط وغيرها .

لقد جعل من كل بقعة من الأرض ، أو من كل مدينة مكتشفة ، اسماً لحضارة "مختلفة" ولشعب "مختلف" . فما هي حقيقة تلك "الشعوب المختلفة" وما هي ملامح الحضارة العربية السورية في التاريخ ؟ تلکم هي المسألة الأولى التي نطمح إلى الإجابة عنها في هذا الكتاب .

أما المسألة الثانية ، فهي تتعلق حصراً بالنضال ضد الصهيونية ، وبالعمل من أجل إسقاط الواجهة "العقائدية" القائمة في أساسها على الوهم ، ثم جرى نفخها وتضخيمها ، ثم حشيت بها عقول اليهود بحيث باتت تشكل في حد ذاتها ، أحد مقاتل الصهيوني إذا ما أحسن استثمارها .

إن الكيان العنصري الصهيوني ، في أقصى حالاته وكيفما نظر إليه ، ليس في النتيجة إلا اختراعاً استعمارياً لمهاجمة حركة التحرر الوطني العربية . وقد مرت تجسيد هذا المشروع الاستعماري على أرض الواقع في ثلاث مراحل رئيسية ، كان نظام استعماري ما يرضى قيامه ويتعهد بالرعاية والحماية في كل منها وهذه المراحل الثلاث هي :

1 — المرحلة التأسيسية : وتمثل في تهجير اليهود من جميع أنحاء العالم إلى فلسطين وإقامة المستوطنات في شتى أرجاء الأرض العربية الفلسطينية مما خلق القاعدة أو الأساس لقيام الكيان الصهيوني فيما بعد ، ومهد لكل الخطوات من إعلان وعد بلفور ، إلى قرار التقسيم ، إلى إعلان قيام ما دعي بـ "دولة إسرائيل" إلى اصطناع الحرب العربية الإسرائيلية عام 1948 .

ويمكن تحديد هذه المرحلة بالفترة الممتدة من الربع الأخير من القرن التاسع عشر إلى الحرب العالمية الأولى، وقد أنجزت بكاملها تحت إشراف ومساهمة الاحتلال العثماني التركي وفي ظل حكم السلطان عبد الحميد الثاني تحديداً*.

2 — المرحلة الثانية : وهي التي تمتد ما بين الحربين العالميتين الأولى والثانية وصولاً إلى إعلان قيام دولة الكيان الصهيوني في فلسطين عام 1948 وقد تم تنفيذ هذه المرحلة بحماية ورعاية الاستعمار البريطاني المباشر.

3 — المرحلة الثالثة : وتمتد من بداية الخمسينات من هذا القرن وحتى اليوم. فبعد الحرب العالمية الثانية برزت الولايات المتحدة كأعنى قوة إمبريالية في العالم، وأخذ نجم الاستعمار البريطاني في التراجع أمام تقدم الإمبريالية الأمريكية التي شرعت تملأ كل الأمكنة التي تخليها دوائر الاستعمار البريطاني ، فانتقل تحالف الاحتكارات الصهيونية إلى الولايات المتحدة الأمريكية ، وسرعان ما أخذت عملية الصراع العربي — الصهيوني طابعاً جديداً بعد أن أخذت الإمبريالية الأمريكية تزج في ميدانه بآخر مبتكرات تكتيكها الحربي .

لقد اتبعت الإمبريالية الدولية المتحالفة مع الصهيونية العالمية سياسة الوجود الإسرائيلي ككيان مرن في قلب الوطن العربي ، قابل للتحرك والانتشار والانتساع في الوقت الذي تجدد فيه تلك الأطراف ضرورة لذلك ، وبالتحديد ، عندما تبرز مقدرة الأمة العربية في هذا الجانب من ساحة الصراع ، أو ذاك . ومن أجل ضمان كبح أية خطوة على طريق النهوض العربي كان لا بد من السير في عدة خطوط متوازية ومتواكبة في آن معاً:

فقد كان لا بد من ضمان التفوق العسكري والتقني الإسرائيلي الدائم الذي يحول دون هزيمة هذا الكيان ، لأن في هزيمته مرة واحدة القضاء عليه ، وبالتالي على كل المخطط الاستعماري في المنطقة العربية الذي لن يقدر على الدفاع عن مواقعه دون تدمير مصالحه كلها في المنطقة .

* من أجل التعرف على تفاصيل ذلك راجع : دراسة للمؤلف حول الصهيونية عنوانها " إسرائيل والصراع العربي الإسرائيلي " إصدار منظمة طلائع البعث في القطر العربي السوري .
و : الدكتور عبد العزيز محمد الشناوي في كتابه " الدولة العثمانية دولة إسلامية مقترى عليها " ص 990 — 993

وإن هذا التفوق من شأنه أن يدفع إلى استثماره إعلاميا ونفسيا ، بحيث يزيد من هيبة العدو في نفوس العرب ، ويزرع روح اليأس في أوساط المقاومة العربية .

إن تكفل " الكيان الصهيوني " بالتصدي والمجاهمة بصورة يبدو فيها مستقلا عن الإمبريالية الدولية وعلى رأسها الإمبريالية الأمريكية ، يخلق مجالا واسعا أمام أوساطها من أجل التنكر والمخاتلة والمناورة على الأرض العربية ، مما يساعدها على أن تظهر في مظهر الدولة الصديقة لطرفي النزاع كليهما والساعية إلى إيجاد "الحلول العادلة" التي تضمن لكل منهما "حقوقه" . إن هذا يزيد من عمر الابتزاز الإمبريالي للثروات العربية ويزيد من إمكانية مراقبة وكبح وتجميد الطاقة العربية وضرب فاعليتها ، كما أن من شأن هذا أن يطوق أي توجه نحو توثيق علاقة العرب مع أصدقائهم الحقيقيين لتبقى الأمة العربية مكبلة بأغلال الإمبريالية ، يمارس عليها كل صنوف الاذلال ، ليس أولها أن ثلاثة ملايين من الصهاينة قادرون على إلحاق الهزيمة بعشرات الملايين من العرب كلما فكروا بالحرب ضد إسرائيل .

لكن الأمور في الواقع ليست هي في هذا الجانب من الصورة الذي تؤلفه التصورات الإمبريالية الصهيونية فقط . إن معالم أخرى حقيقية لصورة الصراع يمكن أن نحددها ضمن إطار النقاط الرئيسية التالية :

1 — إن الصهيونية هي حركة رأسمالية استعمارية صرفة ، تحالفت مع الإمبريالية الدولية ضمن تبادل مصالح معينة ، وقد وقع اختيارها على فلسطين نتيجة لمتطلبات مصالح الاستعمار البريطاني الذي تحالفت معه وليس لأن فلسطين " أرض الميعاد " التوراتية كما جرت " أدلة " العملية فيما بعد تشهد على ذلك كل وثائق الصهيونية بما فيها كتاب هرتزل " الدولة اليهودية " الذي لم يحدد أية أرض . يقول يوي افنوي عضو الكنيست الإسرائيلي :

"إن تيودور هرتزل وضع مشروع كتابه في إناء مغلق ، فرسم " يوتويا " الخطوط العريضة لبلد يجب أن يخلق بدون أي ارتباط بأرض معينة . وفكرته كان يمكن تحقيقها في الأرجنتين وفي كندا ، وفي أوغندا ، أو في أي مكان آخر ... وكتابه " الدولة

اليهودية " الذي نشر عام 1896 يؤكد بشكل مسهب على ساعات العمل ومساكن العمال ، وحتى على حكم الدولة ، وليست هناك أية إشارة إلى مجاهدة الصدام مع أي شعب آخر ، والسبب في ذلك بسيط وهو أن هرتزل ، حين ألف كتابه لم يفكر بأي بلد معين " (1)

2 — لقد اعتمد " التفوق الإسرائيلي في الصراع على عوامل ثلاثة رئيسية : التفوق التكنيكي الإمبريالي الموضوع في خدمة أحد طرفي الصراع المتمثل في " إسرائيل " ، واعتماد واقع التجزئة في الوطن العربي وتكريسه وتعميقه ، وعزل الأمة العربية عن أصدقائها الأقوياء القادرين على إمدادها بالسلاح الفاعل القادر على مجاهدة التكنيك الحربي الإمبريالي رفيع المستوى المقحم في ميدان الصراع .

3 — إن الجيل الصهيوني الحالي هو الجيل الذي حشي ذهنه وأفعمت روحه بالخرافات الصهيونية التوراتية الجذابة المريضة : من " تفوق " الشعب اليهودي ، وفكرة " شعب الله المختار " إلى فكرة " الجيش الصهيوني الذي لا يقهر " إلى فكرة " وعد الرب " بتسليم الشعب اليهودي أرضا لم يحرثوها وكروما لم يغرسوها ودورا لم يبنوها ... إن كل هذه العناصر التي عايشته الإسرائيلي في مرحلة إنشاء ذلك الكيان الشائه ، فيها نفسها تكمن مقاتله أيضا .

إن أول من تنبه إلى حقيقة الصراع الدائر في المنطقة هي سوريا بقيادة الرئيس حافظ الأسد الذي تسنم إدارة الصراع في مرحلتين :

الأولى : بالاشتراك مع مصر في خوض حرب تشرين التحريرية التي كان مقدرها لها أن تقلب كل الموازين والحسابات والمعادلات والمفاهيم السائدة على أرض المنطقة . إن أقل ما يمكن أن يقال عن حرب تشرين أنها كشفت للإنسان الصهيوني العادي مدى هشاشة المفاهيم التي حشي بها ذهنه وروحه طيلة ربع قرن ، وأنه لولا التدخل الإمبريالي الأمريكي المباشر لما تمكن من الصمود أسبوعا واحدا أمام إصرار المقاتل العربي ، الذي لم تتح له فرص القتال قبل تشرين ولم يتمكن من الوصول إلى خصمه الذي كان مسيحا

(1) انظر : قاسم الشواف ، " مع الكلمة الصافية " ص 370 — 371

دائما بالتفوق التكنيكي الهائل والكبير . والثانية : هي إعلان شعار التوازن الاستراتيجي مع العدو ، والسير خطوات جدية كبيرة في درب تحقيقه ، بعد أن سدت كل الأبواب التي يتسلل منها العدو للحؤول دون قيام علاقات نضالية وطيدة بين العرب وبين أصدقائهم .

وهنا بدأت المرحلة الجديدة والثالثة تبرز فعليا على ساحة الصراع ، مظهرة كل تلك الأبعاد والتصورات الكبيرة لما صار يمكن أن يحدث على أرض الواقع . ولأول مرة بدأ عامل الزمن يدخل كأحد عناصر الصراع الرئيسية ولصالح العرب ، ولأول مرة بكلمة أخرى ، صار في الإمكان القول ، إن السباق من أجل تحقيق الانتصار الحاسم صار يجري ضمن الزمن وضمن كل برهة من هذا الزمن ، وبدأ فعلا الشعور بالخطر القاتل يتكشف على الجانب الآخر :

— إن أية عملية تقوم بها المقاومة الوطنية العربية سوف تجد لنفسها غطاء رادعا يتمثل في القوة السورية ، وبالتالي سوف تضع الآلة الإسرائيلية في موقف الثبات والعجز عن الفعل .

— وإن أية مجاهدة شاملة أو محدودة سوف يلغى فيها دور التفوق التكنيكي الذي كان يصدّم جندينا العربي دون أن يترك له مجالا لرؤية خصمه ، بله للاشتباك معه ، وبالتالي ، فلن تتمكن قوة ما من الحؤول دون وصول هذا الجندي إلى خصمه في أية اشتباكات مقبلة بعد أن ظل مكبوتا عن تحقيق هذه الرغبة طيلة ربع قرن .

إن أية مجاهدة حقيقية سوف تسقط كل الأقنعة التي غطيت بها حقيقة الجندي الصهيوني المختبئ حتى الآن خلف آخر مبتكرات التكنيك الحربي الأمريكي في المواجهات ، وسوف يكون لذلك وقع الكارثة ، إذ إن عملية " نفخ " ذلك الجيش الكاذبة تبقى من أخطر الأسلحة فتكا به إذا ما تسنى له في أية مجاهدة أن يكتشف حقيقته . — إن هذا بالتالي سوف ينعكس على المجتمع الإسرائيلي برمته ، هذا المجتمع الذي يعج بالمتناقضات ، والذي لم تعرف كل وسائل و "صفات " الصهيونية والإمبريالية كيف تجعله مجتمعاً متجانساً حتى اليوم . إن مثل هذا المجتمع الذي وضع وجمع بكل

تناقضاته في جرة فولاذية مدرعة ، ما إن تضرب على جدار تلك الجرة ضربة حقيقية حتى تذهلك الأصوات والصرخات المتناقضة التي قد تنبعث من داخلها ، والتي قد توذي وتفتك به من الداخل أكثر من أي سلاح آخر ، إنك قد تكسر الجرة وتنظر وتدهش لأنك لن ترى شيئا حقيقيا.

— إن ملامح صراع المستقبل بدأت منذ حرب تشرين ، وترسخت ومضاتها في ذهن العدو في المواجهات مع الجنود العرب السوريين في حرب لبنان رغم كل ذلك الفارق الكبير في شروط وظروف وعناصر تلك المواجهات ثم مع رجال المقاومة الوطنية اللبنانية التي أفصحت عن الإنسان الجديد الذي على إسرائيل أن تتعامل معه من الآن فصاعدا .

<< الوحش >> الصهيوني يبلغ << قمة الجبل >>

في حكاية يتناقلها الجبل القديم من أبناء ريفنا العربي السوري في الساحل ، إن وحشا كاسرا حير رؤوس سكان إحدى القرى ، وكاد يفنيهم عن بكرة أبيهم واحدا بعد آخر دون أن يفكروا جديا بالقضاء عليه . ولم يكن ذلك الوحش يفترس غير الأطفال حتى كاد يأتي الوقت الذي يشيخ فيه الكبار ، ويموتون ثم لا يكون بعد صغار فينتقل إلى قرية أخرى ، وهكذا ، إلى أن جاء يوم تمكن أحد الشبان من أن يجمع سكان القرية من حوله ويقرورا جميعا مهاجمة الوحش في مساربته بين صخور الجبل المرتفع ، وما إن رآهم الوحش حتى تملكه الذعر وأخذ يتسلق الجبل والناس في إثره إلى أن بلغ قمة الصخرة المشرفة على جرف في واد سحيق . لم يبق ثمة مكان يصعد إليه ولم يعد أمامه غير أحد طريقين : إما أن يواجه الجموع الزاحفة إليه فيقاتل حتى يموت ، أو أن يلقي بنفسه من فوق الصخرة ليتحطم على صخور المنحدر العميق . ولم يكذب يقرر المواجهة معتمدا على مخالبه وبرائنه حتى روعه منظر إحدى أمهات الأطفال الضحايا وقد مدت إلى وجهه يدين مثل كلابتين من الفولاذ وأمسكت به من حنجرته ... ثم لم بعد يعرف كيف سقط وارتطم على الصخور القاسية على المنحدر في طريقه إلى الوادي العميق . لقد ركضت إسرائيل في التسليح صعودا إلى القمة ، حتى وصلت إلى القنبلة الذرية ، وإن ما يربعها اليوم أنها ترى إلى العرب السوريين وقد حفزتهم إرادة واحدة في الصعود إلى " الوحش الصهيوني " حتى القمة ، حيث لن يجد أمامه أكثر من أحد خيارين : إما المواجهة وجها لوجه ، وإما أن يلقي بنفسه إلى الهاوية .

إن العدو الصهيوني يدرك ، كما ندرك ، أن الزمن لن يبقى في صالحه طالما بدأنا الصعود ، وليس من شيء يمكن أن يثنينا عن ذلك . وهناك ، حيث يتحقق التوازن الاستراتيجي في التكنيك على القمة ، سوف يكون الخنجر العربي الصغير أكثر فعلا من أية قنبلة ذرية ، كما أن أصابع الأم المقهورة كانت أقوى من كل المخالب .

إن الدور الأساسي سوف يعود ، في سلم حلزون التطور الجدلي ، إلى الإنسان مرة أخرى ليحتل مكانة العامل الحاسم في أية عملية صراع طويل. إنها المرحلة الأرقى من مرحلتين ماضيتين . إنها مرحلة الإنسان الواعي الذي يدافع عن قضية وقد وفر لنفسه عامل الردع الاستراتيجي ضد أية محاولة للانتقام التكنيكي من جانب واحد .

وليست التحركات المحمومة الكثيرة والمكثفة التي يقوم بها العدو الصهيوني اليوم وحماته الإمبرياليون إلا شاهدا أكيدا على الشعور الأكيد بخطورة المرحلة القادمة .

لقد بدأت عملية العد التنازلي لتعلن نهاية الدور الذي أنيط بالكيان الصهيوني من أجل التصدي لعملية التطور والنهوض العربي .

لقد امتطت سوريا بالفعل صهوة الزمن العربي الذي نزل الميدان ، وإحساس متعاضم كثيف بالزمن تعيشه المنطقة لأول مرة .

إن الجهود المحمومة التي يبذلها اليوم صانعو الكيان الصهيوني هي من أجل مكافأته بعد انتهاء دوره ، وقبل أن يتحول إلى عبء حقيقي يثقل كاهل صانعيه ، إذ إن حمايته والدفاع عنه مستقبلا سوف تكلف الإمبريالية التضحية بكل مصالحها في آسيا وإفريقيا دفعة واحدة. وإذا ما صح أن يكافأ على حساب العرب أنفسهم ويبقى في المكان الذي اغتصبه من سكانه العرب ، وعمل طيلة خمسين عاما على تدمير كل منطلقاتهم نحو النهوض والتحرر يكون ذلك أكبر إنجاز تحققه الدول الإمبريالية على الأرض العربية .

الزمن يركض فعلا لأول مرة ، وقد أوشك الإنسان الصهيوني المنوم بالخرافات أن يفيق ويطل من وهمه على الواقع ، فيكون في استيقاظه هلاكه ، لأنه لن يقدر على التكيف مع الواقع الحقيقة ، الواقع الذي لم يخطر له ببال من ذي قبل .

إن من جملة هذه الخرافات التي جعلت الصهيونية الإنسان اليهودي العادي يؤمن بها فعلا معتمدة على الانتصارات التي حققتها حتى الآن ، خرافة " أرض الميعاد " التي تمتد من " الفرات إلى النيل " والتي وعد بها وباركها " الأجداد " .

فمن هم أولئك الأجداد ، وهل عرف أحدهم حقا أرض فلسطين ؟ وبصرف النظر عن عدم وجود أية علاقة يمكن أن تربط يهود اليوم بأولئك الأجداد العرب الآراميين فإن

هذه هي الخرافة التي سوف نسقطها ، والتي في تقديرنا لا تقل فعلا في توجيه الصفعة التي توقظ أولئك المنومين من أي سلاح آخر ، إذا ما أحسن استخدامها كأجد أسلحة الإعلام الفكرية المتقنة . إننا في إظهارنا لحقائق التاريخ والجغرافيا التي زورها كهنة التوراة ، ثم المؤرخون الذين أفرزتهم عصور الاستعمار ، سوف نسقط أكبر الأقنعة التي اعتمدها الصهيونية في استعمار فلسطين ، وطمعت بها إلى استعمار المنطقة العربية كلها . إن المجاهدة لا تتجزأ ، وكما أن الانتصار واحد ، فإن السقوط ينبغي أن يكون سقوطا مرة واحدة ، وإلى الأبد .

ذاكم هو موضوع هذا الكتاب الذي نحاول فيه مناقشة كل المفاهيم التي فرضت على تاريخنا إمعانا في تجزئته وتشويهه ، ساعين إلى الكشف عن تلك الحقائق المطمورة تحت ركام من الصدا والإهمال ، وإلى فرز كل تلك النظرات الدخيلة والمغرضة ، لنسهم قدر المستطاع في عودة الألق إلى خطوط التواصل الحضاري لأمتنا الخالدة . إنه جهد بسيط نضيفه إلى باقي الجهود الساعية اليوم بدأب وإخلاص إلى إعادة النظر في ما كتبه الآخرون زمن الأحقاب الاستعمارية المديدة . إنه جهد يضاف إلى الجهود العاملة من أجل إعادة كتابة تاريخنا من جديد ، بل نقول ، وبكل جرأة ، من أجل كتابة تاريخنا . إنه لم يكتب بعد .

د. أحمد داوود

دمشق — 1985

مدخل إلى دراسة التاريخ

بما أن السياسة لم تعد تنفصل اليوم عن الحياة اليومية للناس فإنها ، بالأحرى ، لا يمكن أن تنفصل عن سائر فروع المعرفة الأخرى سواء ما يتعلق منها بالعلوم الإنسانية والاجتماعية أو التطبيقية. ولم يعد يكفي العاملين بالسياسة اليوم أن يتابعوا الأحداث المحلية والدولية ويحاولوا تفسيرها من خلال علاقاتها الظاهرة وما قد يظهر عبر وسائل الإعلام من أسباب مباشرة أو غير مباشرة ، ثم يجدون موقعا لهم بين تشابك تلك العلاقات في انسجامها أو تناقضها قد تنعكس معطياته وآثاره عليهم شخصيا أو على بلدانهم أو عليهما معا ، سلبا أو إيجابا ، بهذه الدرجة أو تلك من النجاح أو الفشل. فالسياسة اليوم لا تنفصل إطلاقا عن ضروب المعرفة الأخرى التي تشمل الاقتصاد والتاريخ والجغرافيا والفلسفة ومنجزات العلوم الطبيعية التي لا بد منها جميعا من أجل تكوين أرضية ثقافية خصبة وغنية وثابتة جذيرة بأن تجعل السياسي يقف بقدمين راسختين في مجاهته لتحديات العصر الكبيرة والمعقدة .

والسياسة ، مثلها مثل كل العلوم الأخرى ، سلكت في تطورها الخط الحلزوني التطوري الصاعد من جهة ، كما بقيت وضمن مسيرة ذلك الخط بكل تعرجاته ومنحنياته ، لصيقة بالبنية الطباقية للمجتمع ، معبرة عن نزعات هذه الطبقة أو تلك في هذه المرحلة التاريخية أو تلك ، كما تعبر ، وبدرجات متفاوتة أيضا ، عن مطامح أمة بكاملها وعن حركتها في مواجهة تحديات العصر المفروضة عليها من الخارج ، في الوقت نفسه الذي تعبر فيه عن حركتها الداخلية أيضا في مواجهة عوامل ضعفها وتخلفها وعلى طريق حل المسائل الأساسية التي تحدد إمكانية انبعاثها ونهوضها وتطورها .

من المعلوم أن المعرفة مرت في إحدى حلقات الحلزون الديالكتيكي الصاعدة بمرحلة اندماج العلوم جميعها بالفلسفة حينما دعت الفلسفة " أم العلوم " . فكان على الفيلسوف أن يحيط بالأدب ، واللغة ، والتاريخ ، واللاهوت ، وعلم النفس ، والمجتمع ، والسياسة ، كما يحيط بعلم الفلك ، والطب والرياضيات والنبات والحيوان

والكيمياء وغيرها ... وبكلمة فقد كان العالم موسوعة أو مجموعة من العلماء في شخص واحد . ولن يستطيع أحد ، بالطبع ، أن يتصور أن مجموعة تلك المعارف كان يمكن أن تسكن عقل وتفكير وإرادة ووعي هذا العالم أو ذاك في هيئة تراكمية جامدة ، إذ الحقيقة عكس ذلك تماماً . فهي لا يمكن أن توجد إلا في شكلها الحي المتفاعل في علاقة جدلية دائمة تنبثق منها ودونما توقف ، عناصر جديدة ، ومواقف جديدة وعلائق جديدة ضمن التأثير الموضوعي للقوانين الجدلية التبادلية ، فتم عملية الاستقطاب بين قطبي عناصر التآلف الواحد ، وتصطرع المتناقضات في وسط من التراكمات الكمية التي لا تنقطع ، فيتغلب عنصر على آخر أو عامل أو جهة أو موقف أو ظاهرة على أخرى ، لتبرز في صيغة نوعية جديدة تحمل في ذاتها بعضاً من تقاسيم وملامح الماضي التي تتفاعل هي الأخرى بدورها مع عناصر المولود الجديد مؤكدة عملية التواصل والاستمرارية وتعود إلى عملية الفرز الجديدة ، والاستقطاب الجديد ، والصراع الجديد ، والتراكمات الجديدة ، والنفي الجديد ، والولادة الجديدة ، كل ذلك في عملية كلية لا تقف ولا تتجزأ ، وليس بين جوانبها أية حدود في الزمان إلا بقدر ما تتقدم بكليتها من صيغة قديمة إلى أخرى جديدة وهكذا .

ولقد شكل ذلك في حد ذاته خطوة عملاقة خطتها عملية المعرفة على طريق مسيرتها التاريخية الطويلة ، كان لها شأن عظيم في ظهور عدد كبير من العلماء الموسوعيين الشموليين الذين أرسوا قواعد إنسانية عالمية للمعرفة جمعت بين الحكمة والعقل والقيم الخلقية والإنسانية إلى جانب المعارف العلمية الطبيعية البحتة ، وهذا مما أدى إلى خلق مناخ علمي ، تربوي ، ثقافي ، إنساني ، متكامل ، كان له أكبر الأثر في دمج عمليتي التعليم والتربية معاً في عملية واحدة ، مما أدى ، بالتالي ، أيضاً إلى خلق كوكبات لامعة من القادة السياسيين والعسكريين ، الذين برزوا على الصعيد العالمي كله واحتلوا صفحات مرموقة وخالدة في تاريخ البشرية بما عرف عنهم من براعة في فن السياسة والقيادة ، وفي المناقبة وسمو النفس والمطامح معاً . ولسنا نغالي في ذلك إذا ما قلنا بأن العرب كانوا أول من أرسى دعائم هذه المدرسة وأجزل من أعطى من أمثال هؤلاء

القادة المناقبين العالمين على مر العصور بدءاً من سرجون العربي الأكادي ، مروراً
بجموراي ، وهانيبال ، وعمر ، وعلي ، وموسى بن نصير ، وصلاح الدين ، وغيرهم .
وإذا كانت الفلسفة تعتبر " أم العلوم " في هذه المرحلة فإن السياسة هي الأخرى كانت
تتويجاً لكل المعارف . ولقد كان على القائد السياسي أن يجد نفسه مضطراً في أية لحظة
لأن يكون حكماً بين علماء قومه وأدبائه وشعرائه ولغوييه وفلاسفته ومفكره ، كما
كان يجد نفسه أن من الواجب عليه أن يمثل أعلى مستويات الثقة بالنفس وعلو الهممة
وعدم التنازل أمام الخصم متمثلاً في ذاته كل قيم شعبه وطموحاته ، كما يتمثله في
كبرائه وعزته ، وهذا ما كان ليتأتى له لولا وعيه الكبير لواقع وتاريخ ومتطلبات
تطوره ، مما يشد من ثقته بنفسه ويجعله يضعها دائماً في المرتبة والمكان الذي يتطلبه
الدفاع عن مصالح جماهير أمته ، ويصير تاريخ شعبه وأمه جزءاً من شخصيته ،
كما تصبح شخصيته جزءاً من تاريخ شعبه وأمه ، يسقط بسقوطها ويعتز بعزتها .
إن هذا هو ما أفضى ببعض مفكري اليونان القديمة إلى البحث عما سموه —
" جمهوريات فاضلة " في مجالات نشاط حكمائهم الوحيدين — في زعمهم — القلدرين
على تمثل روح الأمة والدفاع عنها ، والسير بها قدماً في مضمار التقدم والرفي . ولسنا
هنا في صدد مناقشة هذه الفكرة أو غيرها من حيث صحتها أو صوابها ، إذ كل ما
يهمنا هنا هو التذكير بذلك الجانب المتعلق بشخصية الفرد القائد ، وما يمكن أن يكون
له من آثار عظيمة في تاريخ أمة من الأمم ، الجانب الذي ما انفك يلفت أنظار الناس
المهتمين بمصائر شعوبهم وبلدانهم عبر القرون .

ثم إنه مع انتصار الثورة البورجوازية في أوروبا بدأت حركة التطور السريعة
تنعكس على مؤسسات المجتمع الجديد مقوضة أسس الإنتاج الإقطاعي المتخلف ، وصار
كل شيء يوحى بمستقبل باهر للبشرية تغمره وفرة في الإنتاج ، وينعم بنحو من الحرية
والمساواة والعدل . لكن الانتصار البورجوازي سرعان ما استفد دوره التقدمي الذي
تمثل في قفزة الإنتاجية العملاقة متخطياً كل أسوار القرون الوسطى الإقطاعية ليسفر عن
بدايات دوره الرجعي العتيد المتمثل بالاستغلال الجشع لشغيلة بلده ، ولثروات وخيرات

الشعوب والبلدان الأخرى . ولقد ترافق ذلك بالسعي الحثيث إلى التطور المادي السريع والبحث مهمة لا تكل عن كل ما من شأنه أن يقرب المسافة ويختصر الطريق في الركض اللاهث خلف الربح بصورة لم تعهدها البشرية مطلقا ، مما خلق شروطا جديدة ، وولد الحاجة الماسة إلى الحصول على المواد الأولية بكميات وفيرة وأسعار زهيدة ، كما زاد من حاجته إلى أسواق أخرى لتصريف إنتاجه الكبير الفائض عن حاجة استهلاك سوقه المحلية ، وبدأت عمليات السباق على الأسواق الخارجية ومن أجل السيطرة على الثروات المواد الأولية في الخارج ، لقد بدأ عصر الاستعمار .

ومع بداية عصر الاستعمار بدأت " قصبات جبيرة " المعرفة تنفك واحدة عن الأخرى لتصبح كل منها علما مستقلا بذاته ينخرط في غماره الطامحون بحثا واستشرافا ومتابعة . وبدلا من أن يسخر كل علم منجزاته من أجل الصالح العام ، والتطور العام ، والنهوض بالمعرفة العامة ، رأينا كيف أن الفلسفة نفسها أفلتت " فراخها " من تحت جناحيها ، وأخذت تراكضها مرة خلف هذا العلم ومرة خلف ذاك في اتجاهات تخصصها الضيقة . وكلما حقق هذا العلم أو ذاك انتصارا ما أو إنجازا ما ، كانت الفلسفة تهرع إلى " الوليمة " متوهمة أنها قد تختصر كل المسافات التأملية لتقبض على الحقيقة بكلتا يديها دفعة واحدة ودوغما عناء .

وهكذا فما أن كان يتحقق إنجاز ما على صعيد الفيزياء أو الميكانيك ، مثلا ، حتى تهرع الفلسفة إليه ، وتسقط على ركبتيها لتنهض بعد فترة وقد لازمها شعور مريب بالخيبة . وحينما توزعت العلوم في عصر التخصص ، وأخذ كل علم يتناول الإنسان من أحد جوانبه في معزل عن جوانبه الأخرى ، صارت الصورة على الشكل التالي : بقدر ما يتعمق هذا العلم في التعرف على هذا الجانب أو ذاك من الشخصية الإنسانية مثلا ، ويحقق إنجازاته الخاصة ، بقدر ما يتعد عن الصورة الحقيقية الجملة للإنسان الذي هو ، في البدء وفي النهاية ، ليس إلا مجموعة هذه الجوانب كلها في علاقاتها الجدلية المتفاعلة والمتناغمة .

وليس هذا فحسب ، بل حينما أخذت العلوم تتناول الإنسان — على سبيل المثال —

مرة كجسم وبيولوجيا ، ومرة أخرى كنفس ، أو كروح ، أو كعقل ، أو كجنس ، أو ككائن اجتماعي ، كنا نرى كيف أن كل فرع من هذه الفروع كان يجر وراءه مجموعة خليطا من المفكرين والأدباء والفنانين والسياسيين الذين ينتظرون النتائج خلف الباب بفارغ الصبر ، ثم ما أن يعلن العلماء المتخصصون بهذا الجانب أو ذاك عن شيء من منجزاتهم في ذلك المضمار حتى يهتف أولئك المنتظرون بأنهم قد عثروا أخيرا على الحقيقة الفلسفية التي تخدم مصالح الطبقة الجديدة والمعبرة عن القمة في تقدم المجتمع وتطوره ، والتي لا بد أن تنفرع عنها كل الحقائق الأخرى ، ثم تنبثق على الفور من أرضية المجتمع أو من سقفه — لا فرق هنا — المدارس الأدبية أو الفنية التي تضم جهدها إلى جهود الفلسفة وتعلن في تصميم وبجراً وتسرع لم تعدهما الفلسفة أبداً ، أن الإنسان جنس ، أو أن الإنسان عقل ، أو أنه جهاز بيولوجي ووظائف ، أو أنه روح ... إلى آخر هذه الجوانب التي كانت في أحسن أحوالها ، لا تعدو كونها إعلانات باهرة لمنجزات هذا العلم أو ذاك ، تبتعد بنا عن جوهر حقيقة الإنسان العامة كلما أوغلت في السعي خلف الحقائق المنعزلة ، ودأبت على تعميمها على بقية جوانب الإنسان كفرد ، ثم على المجتمع أو الطبيعة ككل في أحيان أخرى .

ولما كانت السياسة في جوهرها تنويعا لكل شيء ، وتعبيرا في صورتها العامة ، عن مرحلة تاريخية معينة ، وفي صورتها الخاصة عن واقع وتطلعات الطبقات الاجتماعية ، بعد انقسام المجتمع إلى طبقات ، فقد كان لابد لذلك كله من أن يجد له انعكاسا حقيقيا في السياسة . فقد تهشمت تلك الأطر القديمة وسقطت معها كثير من القيم التي لم تعد تلي متطلبات الطبقات البورجوازية الصاعدة إلى سدة القيادة على أكتاف الآلات الحديثة ومنجزات العلوم التطبيقية الجديدة ، مدمرة في طريقها كل ما يمكن أن يقف حائلا دون سيطرتها وتحقيق الأرباح الكبيرة وتحولها إلى الاستعمار ، إلى السيطرة على أسواق ومقدرات الشعوب الأخرى . وتقلصت أطر السياسة ضمن حدود مصالح الطبقات البورجوازية المتنافسة على التوسع وعلى المستعمرات من جهة وعلى حدود الصراع بين الطبقات في المجتمع الواحد من جهة أخرى . وعلى صعيد الصراع من أجل المستعمرات

والتوسع استخدمت كل الأساليب الوحشية والطرق اللاإنسانية ضد شعوب البلدان الأخرى ، فكسرت حدودها ، ومزقت وحدتها القومية ، وهشم تاريخها القومي ، وأذلت كبرياؤها ، وأسقطت قيمها وتقاليدها ، وشوهت شخصيتها ، وابترزت ثرواتها ، وأقيمت حدود ونظم ، وسنت قوانين ، وفرضت قيم غريبة ودخيلة كلها كان من شأنها فقط أن تكرر عجزها وتخلفها وتساعد على استمرار عمليات السلب والنهب بدرجة من السعار لم يشهدها تاريخ الشعوب من قبل .. حتى إنها لم تتورع عن محاولات إبادة شعوب بأكملها (الهنود الحمر) وإخراج شعب بكامله من أرضه (الشعب العربي الفلسطيني) وزرع أقوام آخرين مكانه يكونون خداما لمصالحها الاستعمارية وحراسا لها .

في ظل هذه الممارسات الممحيّة التي مارستها البورجوازيات الأوربية الاستعمارية على مدى قرنين مستخدمة كل منجزات العلوم في سبيل تكريس وحشيتها في تعاملها مع الأمم الأخرى سقطت كل مناقبية الإنسان البورجوازي العتيد التي تجلت في قضائه على الاقطاع المتخلف العفن وأفرغت ما يسمى اليوم بـ "الحضارة الغربية " من أي مضمون إنساني ، وتركت ذلك الإنسان المنتصر الجديد النظيف الظاهر ، الأنيق الملبس ، الذي يفتح باب سيارته الفارهة للسيدة ، ويخلع قبعته أمامها ، ويتحاشى أن يقطف زهرة أو غصنا من حديقة ، أو يخلدش شعور كلب أو هرة ، ويحرص على دقة مواعيده ، تركته مشوها من الداخل ، مزدوجا في شخصيته. فهو أنيق ، ناعم ، نظيف ، مهذب من الخارج وفي الأمور الصغيرة ، وذو جلد سميك مليء بالشعر ، وجبين أشوه ، متغضن ، وأنياب صفراء وزرقاء طويلة ومخالب لا يتورع عن انشائها في أي طفل ، في أية امرأة ، في أي شعب ، في أية أرض ، في أي تاريخ ، من أجل تحقيق مآربه الجشعة في تحقيق الربح والنمو على حساب غيره من الشعوب .

إن هذا الوحش الحضاري الذي أنتجته البورجوازية الأوربية ترك آثاره الدامية عميقة في أجساد الشعوب عامة ، وفي الأرض العربية والتاريخ العربي وعلى الشخصية العربية بشكل خاص ، وخلف في العقل العربي ركاما من المفاهيم التي فرضها حماية لأطماعه

ولمصلحه ما نزال نعاني منها ونصطدم بها في كل مجال من مجالات حياتنا الثقافية والاقتصادية والسياسية والاجتماعية ، في الجامعة والمؤسسة ، في البيت والشارع ، مما يحمل قضية نضالنا اليوم أعباء أخرى وأبعادا أكثر ، ويشد ممارساتنا السياسية إلى الجهة الأكثر شمولية ووعيا ودراية بالواقع ، وبالتاريخ ، وبحقيقة شعبنا ، من أجل أن تتمكن مجدية من كشف كل تلك البقع المظلمة والمفاهيم المضادة لحركة نهوض أمتنا ، ومن أجل الكشف عن الجوهر ، جوهر هذه الأمة الذي لن يلبث أن يملأ العين بوميض الحضاري الأصيل .

فإذا كانت البورجوازية الأوروبية قد خطت في مضمار تقدم العلوم والتكنولوجيا وتوفير أسباب السيطرة إلى حد كبير على الطبيعة وقواها ، فشكلت بذلك نقلة تقدمية هائلة في مجال التطور ، وقفزت إلى الحلقة التالية الأعلى وعلى الطرف المقابل للحلقة الماضية في سلم التطور ، فإنها ، في الوقت نفسه ، أحبطت كثيرا من الآمال المعلقة على صناعة وخلق الإنسان الجديد . لقد عجزت عن صياغة قيم مناقبية جديدة في فترة لهاثها ، وسعيها خلف الأرباح السريعة ، ودفع فروع العلوم إلى اقتناص المنجزات واستثمارها بأسرع وقت ولو كان ذلك عن طريق استخدامها في إبادة شعب بأكمله . وفي زحمة هذا السعار لم تتمكن قطعا من خلق ذلك الانسان ، بل لم تتعد في مسيرتها هذه شكل ومضمون الإنسان الآخر المزدوج القادر على إخفاء أنيابه الزرقاء الراجعة بدماء الشعوب . لن نسهب طويلا في رسم ملامح هذه المرحلة التي برزت تقاطيع وجهها السياسي واضحة على أرضنا العربية ، فكل هنا هنا هو الوصول إلى الربط بين أهداف نضالنا السياسي في هذه المرحلة وبين الحقيقة التاريخية لأمتنا العربية ، هذه الحقيقة التي تضافرت عليها كل قوى الاستعمار وإمكاناته قرونا طويلة من أجل طمسها وتغييبها عن الوعي العربي .

لقد رحل الاستعمار عن رقعة كبيرة من الوطن العربي ، لكن آثاره ماثلة في كل مكان وعلى كل صعيد . وإن النضال من أجل بعث الأمة العربية لتنهض من جديد بحمل رسالتها الحضارية الإنسانية الكبيرة ، لاشك مرير وشاق ومحفوف بالآلام والتضحيات ،

ولن يضطلع به إلا خيرة أبنائها . إن نضالنا اليوم لا يقتصر على طرد غاصب محتل من الأرض العربية فحسب ، بل هو متعدد الجوانب والمجالات ، ويشمل كافة الصعد العسكرية والسياسية والاجتماعية والثقافية والتاريخية والحضارية وكل ما يمت إلى النشاطات الإنسانية بصلة ، وبكلمة : إنه نضال شمولي ومصيري ، وبقدر ما يدرك أبناء أمتنا ، أو الطليعة منها ، حقيقة هذا الصراع وأبعاده وأطرافه بقدر ما تندفع إلى زج إمكاناتها في الطريق والاتجاه الصحيحين ، بقدر ما تقترب من حدود النجاح والحسم .

إن الأمة العربية التي ظهرت على مسرح التاريخ الإنساني الحضاري الفاعل منذ ستة آلاف عام ، وشهدت فصولا طويلة من القوة والعظمة والعطاء العالمي ، كما شهدت فصولا أخرى من الظلام والانحطاط والضعف والتفكك والقهر ، كانت تطول أو تقصر ، تمكنت من المحافظة على وجودها العربي المستمر طيلة هذه الآلاف الطويلة ، رغم ما شهدته من شتى صنوف محاولات الغزو والإبادة من قبل أمم كبيرة وصغيرة ، وشعوب وأقوام همجية كانت تحوم من حولها مثل الجوارح الجائعة . لقد دحرت عن أرضها كل الغزاة من القبائل الهمجية القديمة ، إلى الفرنجة ، والمماليك ، والتتار ، والأتراك ، والإنكليز ، والفرنسيين ، وهي لن تقصر اليوم عن إثبات حقيقتها التاريخية الكبيرة فتقضي على الغزو الصهيوني المدعم بقوى الإمبريالية العالمية والرجعية كما تقضي على مخلفات الاستعمارين القديم والحديث سواء ما كان منها ماديًا متجسداً على الأرض العربية ، أو ما كان في هيئة مفاهيم وأفكار لا بد من اقتلاعها واجتثاثها حتى لا تبقى عائقاً أمام أجيالنا الناهضة .

إن أمة عمرها أكثر من ستة آلاف عام من التاريخ المسجل تبوأَت خلالها صدارة العالم أكثر من مرة بجدارتها ، وبحيوية أبنائها ، وعطاءاتهم الحضارية الرائعة التي عمت حتى شملت شعوب الأرض كافة ، وجاهت خلال مراحل حياتها ما لم تواجهه أية أمة أخرى ، فهزمت همجية الأمم الغازية ، وهشمت مخالب الشعوب الجوارح ، وامتنعت كثيراً من الصدمات والتحديات الكفيلة بتصديع كل الحقائق ، وكانت في كل مرة تخرج من تحت

الأنقاض لتنفذ عن كاهلها ركام الخراب ومخلفات الغزو ، وتنهض بعزيمة جديدة لتعيد
عن وجودها الحضاري الشامخ من جديد ... إن أمة كهذه لن يستغرقها الخمول إلى
الأبد ، وهي لن تشهد ما يسمى بالهزيمة الحاسمة . قد تخسر جولات قبل أن تنهض
إلى ممارسة رد فعلها العملاق ، لكنها ما أن تستوعب حقيقة الخطر حتى تنهض بكل
عظمتها إلى تصحيح مسيرة الزمن وتتولى صناعة تاريخها بنفسها من جديد . وهكذا فإن
في إمكاننا أن نلاحظ :

1 — أن التجزئة والانقسام ظاهرة لا زمت وتلازم الأمم في أزمان ضعفها ، وتخلّفها
إبان عمليات الغزو والاحتلال والاستعمار .

2 — أن رد فعل الأمة الكبيرة الممزقة — ولاسيما في ظروف دولية قاهرة ومعقدة
كالتي تسود العالم اليوم — لن ينتظر حدوثه في الأقطار أو الأجزاء جميعا في آن واحد ،
إذ لابد من أن نأخذ باعتبارنا فاعلية كل الأسلحة التي استخدمها ويستخدمها الاستعمار
والإمبريالية ، وما توفر ويتوفر له من إنجازات تقنية وصناعية هائلة ، تمكنه من كبّح
جماح جماهير الأمة في هذا القطر أو ذاك إلى حين ، محدثا بذلك خلخلة في نظام النبض
الإيقاعي المنسجم مع حركة الجماهير العربية قي شتى أقطارها ، ليسيج عليها ، بعد ذلك
بمفاهيم من صنعه هو ، يكون من شأنها أن تسمر الحركة ، وتخلق الحدود بين المفاهيم ،
ومن ثم التناقض .

إن رد الفعل ، إذن ، لن يكون على هيئة طفرة كبيرة تحتاج الأجزاء جميعا بل ، لابد من
أن تبدأ نبضاته في الجانب الأكثر تعبيرا عن روح الأمة ، وأشد استعدادا لقبول
التحدي والمقاومة ، والأكثر وعيا لطبيعة الصراع ولعناصره وثقة بالإمكانات
الكامنة لدى الجماهير ، وأرقى درجة في التطور الاجتماعي والاقتصادي ، وفي التنظيم
الكفؤ ذي الفاعلية .

3 — أن تواتر هذه النبضات واستمرارها سرعان ما ينبئان بعافية الأمة ، رغم ما قد
يظهر على السطح من طفوح وأعراض قد تعكس روحا مرضية تحليلية أكثر مما تعكس
من ملامح الصحة والتجدد ، كما تنبئ عن مكان وجود القلب القادر فعليا على ضخ

روح الجلال والمقاومة ، عبر قنوات كثيرة ، إلى بقية أجزاء الجسد ، ليعث فيها الحركة بعد أن كاد إيقاعها يخمد تحت وطأة القهر والعسف والقتل وظلام القرون الطويلة . إن ليل الاحتلال التركي الطويل تمكن فعلا ولأول مرة في تاريخ أمتنا ، من أن يدمر معظم مكامن الضوء والإبداع لديها زهاء أربعمئة عام ، معملا فيها كل الأساليب من نهب للخيرات والمقدرات ، إلى تكريس التجزئة الطائفية وتسعير النعرات العشائرية والعائلية ، إلى أفضع أشكال القتل والتنكيل وأكثرها انحطاطا ، إلى إطلاق ستارات دخانية كثيفة من الفكر الديني الشائه المزور التعصي لتقوم بدور التغطية على كل ما يقوم به على أرض الواقع الوجود الاستعماري الدخيل . إن ذلك كله أتاح الفرصة سانحة وواسعة للبلدان الأوروبية في أن تنهض وتتخطى الأمة العربية في التطور إلى مسافات بعيدة ، لتتقض فيما بعد على المنطقة المنهكة المتهالكة تحت وطأة الممجية التركية الطويلة الأمد .

لقد تمكن الاستعمار بشكليه القديم والجديد ، من العثماني التركي ، إلى الإنكليزي — الفرنسي ، إلى الإمبريالية المعاصرة ، من أن يخلق مجموعة من المفاهيم الشائثة ، ويفرضها على الذهن العربي معتمدا على أدوات تسلطه ونفوذه من جهة ، وعلى تفشي الجهل والأمية العلمية من جهة أخرى .

ولقد تمكنت هذه المفاهيم من احتلال واجهات ضخمة من حياتنا الفكرية والثقافية حتى كادت تصبح تقليدا ، وجزءا من التراث لا ينفصل . وصار الخروج عليها يشكل ، في حد ذاته ، خروجا على مقدسات أبواب مقدسة . ولم يكن ليتيسر ذلك كله لولا أن تمكن المستعمر من أن يقيم على تلك البوابات حراسا حقيقيين في مختلف المواقع من السلطة وفي بعض أهم مواقع صناعة الأفكار والثقافة .

ولقد أثبتت تجارب جميع الأمم والشعوب ومن بينها تجارب الأمة العربية ، أن مسألة النهضة والانبعث إنما هي مسألة شاملة كلية متكاملة لا تشمل حيزا دون آخر ، ولا مؤسسات دون أخرى . وإن الاعتماد على تحرير وتطوير قطاعات دون أخرى إنما كان دائما من أهم أسباب الانهيارات والانفلاشات التي قد تبدو في ظاهرها مفاجئة لكنها ،

في حقيقة الأمر ، تأتي نتيجة عمليات بطيئة لمعوقات مضادة تنخر في الأذهان ببطء كما تنخر في جسم المؤسسات ، وتقضم كل ما تستطيع من نقاط الضوء في عقل الأمة وتفكيرها وفي وجدانها ، كما تدمر قواعد السلوك ، وتثبت روح التقاعس والأنانية وتشيع روح الفرقة والخمول والفساد واللامبالاة ، حتى إذا ما استغرقت القمة زمن وجودها سقطت على فراغ مخيف ، ما تلبث أن تلوح في عتمته أشباح الديدان الكبيرة والصغيرة التي فعلت كل ذلك الفعل ببطء ومثابرة ، ملمعة طريقها بالنفاق الظاهري ، ومستندة في السر إلى تكاتف ضمني يضمن لها مصالحها الأنانية ، ويهبط بالبناء في اللحظة الحرجة إلى أدنى درك من الانحطاط ، مما يكلف الأمة جهودا مضنية إضافية من أجل النهوض إلى أي مستوى جديد آخر . ومع تكرار العملية تستغرق كثير من بلدان العالم الناهضة والنامية زمن هوضها في سلسلة متعاقبة من البدايات ، وليس يخفى ما في ذلك من تمكين النظم الاستعمارية والإمبريالية من الحفاظ على مناطق تسلطها وابتزازها إلى أطول حقبة زمنية ممكنة .

إن الزمن المعاصر أخذ يسقط من حساباته كل الإنجازات المؤقتة التي ليس لها صفة الديمومة . فالانتصار الحق اليوم هو ذلك الذي يأتي تجسيدا للحظة التحول النوعي في عملية شاملة ومتكاملة لتطور الدولة والمجتمع من جهة ، ويخدم كقاعدة انطلاق جديدة نحو تطور أكبر دون أن يخشى عليه من الجمود والتآكل ، ثم التصدع والسقوط على فراغ . ومن هنا فقد صار ينظر إلى الإنجازات والانتصارات التي تحققها الدول ، لا بمعزل عما يحيط بها وما يوجد تحتها من بني اقتصادية واجتماعية وثقافية وفكرية وعسكرية ، بل ضمن عملية البناء الشاملة للمجتمع ، ليتكشف ما إذا كان هذا الإنجاز أو النصر قد تحقق بتجميع عناصره الآنية دون الاستناد إلى قاعدة حقيقية تفضي حتما إليه ثم تتابع الاندفاع من بعده أم لا .

إن مثل هذه الإنجازات مهما بدت في حقيقتها عظيمة ومجيدة ، سواء أكانت تحرير أرض أو بحر أو نهر أو جزيرة أو قناة أو مضيق ، ليس من الضرورة أن تعبر عن بنية داخلية صحيحة ومعافاة ، كما أن انتزاع كأس البطولة بفريق كرة جيد ليس تأكيدا على

مستوى رياضي متطور ورفيع لدى هذا الشعب أو ذاك. فالعدو لا تغيب عنه مثل هذه الحقائق أبداً. إنه يراقب البنية الداخلية الكلية وصحة الجسم العامة، ويوليها اهتماماته أكثر بكثير من اهتمامه بهذا الإنجاز المنعزل أو ذاك. إن العدو، أي عدو عصري اليوم يعرف كيف يظهر استعداداته الدائم لأن يتربص وينتظر، ويستثمر الزمن حتى تأتي مراحله الجوفاء، فتكون فرصته الدائمة.

إن الانتصار الحقيقي، والإنجاز الحقيقي، لم يعد ذلك الذي تحقق على أرض الواقع فحسب، بل وارتبط أيضاً ارتباطاً عضوياً بمؤسسات المجتمع الأساسية كلها من سياسية واجتماعية واقتصادية وفكرية وعسكرية، والقادرة، بناءً عليه، على دفع المجتمع إلى مرحلة أرقى لتحقيق انتصارات جديدة دون أن يتهدهه أي خطر بالانهيار أو الارتباك أو التوقف. إن الإنجاز الحقيقي هو الذي تحقق على أرض الواقع اليوم مستنداً على كل دعائم هذا الواقع الممتدة من الأمس ومنتشراً على المستقبل كجزء لا يتجزأ من عملية التطور الشاملة والتكاملة. إنه الإنجاز اليوم الذي يعيش غداً دون أن ينتكس.

ولقد نجحت سوريا في بناء قاعدة مادية اقتصادية كبيرة على طريق توجيهها، كما نجحت في إقامة مختلف أنواع المؤسسات الراسخة في المجتمع العربي السوري والداعمة لنجاحاته من سياسية، وتنظيمية، وثقافية، ورياضية، وفنية. إن من شأن هذه المؤسسات أن تعضد حياة المؤسسات الاقتصادية الأخرى في عملية الإنتاج الكبرى. وتقضي على كل إمكانية للعودة إلى الوراء. ولقد قطعت شوطاً بعيداً في عملية تنظيم وتأطير الأجيال الصاعدة وإعدادها إعداداً سياسياً، وعلمياً، وتربوياً، وعسكرياً، ضمن الخط القومي الاشتراكي الذي ينتهجه حزب البعث العربي الاشتراكي في بناء المجتمع وصولاً به إلى مجتمع عربي، متحرر، منتج، متعلم، منظم، ملتزم، مقاتل، تسوده الحرية والعدالة الاجتماعية. وإن في ما أنجزته وتوصلت إليه منذ الحركة التصحيحية التي قادها الرئيس المناضل حافظ الأسد عام 1970 لأكبر ضمانات مستقبلية من أجل استمرار مسيرة البناء على الطريق الواحد جيلاً بعد جيل دون توقف أو نكسات، كما أنه يشكل القاعدة الحقيقية لانطلاقة الجماهير العربية في شتى أرجاء الوطن الكبير.

ولقد أخذت ملامح النجاحات تتبلور على الطريق كبيرة وعملقة ومتقدمة في خطى راسخة بدءا من حرب تشرين التحريرية ، ومرورا بالتصدي الكبير لحجم التآمر الهائل المتمثل في التحام الإمبريالية والصهيونية والرجعية العربية في مؤامرة كامب ديفيد وفي التمكن من محاصرتها ووقف ذلك الانهيار المريع في التراب العربي .

إن دورا في مثل هذا الحجم ، أخذت سوريا على عاتقها الاضطلاع به ، بعد أن تنصلت وابتعدت عنه معظم الحكومات العربية الأخرى ، لابد وأن يحمل في ثناياه ضراوة الصراع وشراسته ، إذ إن أحدا لم يعد يجهل أن مستقبل المنطقة ، بل والأمة العربية كلها ، يتوقف على نوعية النتائج التي سوف يتمخض عنها هذا الصراع .

وإذا كانت سوريا ، كما أسلفنا ، قد سارت بعيدا على طريق تحقيق التوازن الاستراتيجي مع العدو ، وتمشي بثبات وبثقة من خطوة منتصرة إلى أخرى دون أن يغرها الانتصار فتتوقف لاغتنام لحظاته يقينا منها بأن الدرب ما زال في أوله ، ودون أن تغفل لحظة عن الأسس الحقيقية والواقعية التي يعول عليها بناء تلك الانتصارات حتى نهاية الطريق ، وأقصد بناءها المؤسسي الداخلي ، أعود فأقول : إن سوريا هذه ، التي حزمت أمرها على أن تخوض باسم الأمة العربية كلها معركة الأمة العربية ومستقبلها ، لابد وأن تحسم كل المعارك الجانبية الأخرى ، ودعما تردد ، ضد كل ما من شأنه أن يعرقل مسيرة المواجهة المتصاعدة أو يفث من عضدها ، أو يسيء إلى وحدة بنائها وتماسكها .

وإذا كانت سوريا قد تفوقت في بناء وتنظيم وإعداد الجيل الجديد إعدادا وطنيا وقوميا ، كفاحيا ومقاتلا ، تربويا وعلميا ، عصريا ومتقدما كضمانة عظيمة لاستمرار صمودها وكفاحها على الأمد الطويل ، فإنه قمين بها اليوم أن تبادر دون غيرها ، واليوم قبل غد ، إلى تحرير تلك المفاهيم التي مازالت محتلة وقابعة في زوايا كل طرقات تقدم العقل العربي والوحدة العربية حرصا منها على سلامة ووحدة التفكير لدى شبيبة الأمة في شتى أرجاء وطننا الكبير .

إن مثل هذا الدور يتطلب أن نتيح لهذه الشبيبة اليوم فكرا حرا متحررا ومعرفة حقيقية صحيحة بالتاريخ ، ونخلو كل طبقات الزيف والتزوير التي صنعها المستعمر ومازال في

صفوفنا وفي أعلى مستوى من مؤسساتنا التعليمية في كل البلدان العربية من يقف على حراستها والدفاع عنها ، كما لو أن المعارك الخارجية توجب الغفلة وصرف النظر عن امتداداتها المتشعبة إلى ميادين الفكر أو المؤسسات في الداخل .

إن عملية تحرير بوابات الفكر ، التي مازالت محتلة في معظمها ، وهدم كل مخايفها القائمة في الجامعات أو مؤسسات التعليم والثقافة والإعلام ، إنما هي في حد ذاتها خطوة كبيرة على طريق إنجاز المهمة الكبيرة التي أخذتها سوريا على عاتقها ، ومن شأنها ليس فقط أن توفر مناخا فكريا ، متحررا موحدا ، منسجما ، فاعلا ، لأجيالنا التي سوف تنهض بالجزء الأكبر من المهمة ، بل ومن شأنها أيضا أن تغدو هي نفسها سلاحا من أشد الأسلحة فعالية في معركة المصير المرتقبة . إن العمل السياسي اليوم يجمع بين جوانحه — أو هكذا ينبغي على الأقل — كل منجزات العلوم الإنسانية والتطبيقية على السواء ، فيغني بها كما تغني بتوجيهه وإداراته في عملية جدلية لا تنقطع . وإن سياسي اليوم يجد نفسه في أمس الحاجة إلى أن يكون ملما بكل منجزات العلوم ، وإلى فهم حركة المجتمع في التاريخ ، ومعرفة كل القوى الفاعلة فيه والمؤثرة على خط تطوره ، ومعرفة القوانين الناعمة لهذا التطور ، من أجل إدارة العملية السياسية بكل أبعادها وقطاعاتها وجوانبها الاقتصادية والاجتماعية والثقافية والعسكرية وغيرها بصورة متكاملة لا متناقضة .

من هنا تبرز أهمية المفاهيم وتأثيرها على السياسة ، كما تبرز أهمية الوعي الصحيح لتاريخ الأمة انطلاقا من مفاهيم صحيحة ليتسنى للسياسة العربية أن تأخذ كامل أبعادها في الدفاع عن قضايا هذه الأمة تاريخيا وحاضرا ومستقبلا .

ومن هنا أيضا تطل علينا — أو نطل على — الحلقة الأرقى من خط التطور الصاعد حيث تحل السياسة محل الفلسفة وتصبح " أما للعلوم " .

وليس يهنا في هذا البحث أن نتطرق إلى العلاقة بين السياسة والمعرفة ككل بل إن ههنا كله ينحصر في فرز بعض المفاهيم التي فرضت علينا فرضا كي يبقى وعي العربي لذاته ناقصا ومشوها ، وكما تبقى السياسة العربية هي الأخرى ، تائهة ممزقة ، ومن أجل

ألا نلمح أمامنا طريقا حقيقية فيها مسوغ للنضال من أجل استرجاع وحدتنا وبناء دولتنا العربية الحقيقية القادرة على النهوض بكل آمالنا في الحياة والبناء والإبداع .

السياسة والتاريخ

ليس هنالك علم أشد التصاقا بالسياسة من علم التاريخ ولا سيما في بلدان احتلت أراضيها ، وشرذ قسم من شعبها وزور تاريخها ، وتخوض ، في الوقت نفسه ، صراعا مصيريا من أجل وجودها كله . وليس ثمة علم أجدر بتحريك المشاعر الوطنية والقومية لدى الشعوب المقهورة ، وتأجيج نار العداوة للغاصب والمستعمر عن طريق استعادة الصفحات الجيدة من نضال الأجداد وبطولاتهم ، وتركبة الثقة بالنفس ، والشعور بالذات ، وبالعزة الوطنية والقومية ، وبث روح التضامن والمودة بين أبناء الشعب الواحد والأمة الواحدة ، من التاريخ .

ولهذا السبب ، لم يعد غريبا أن نلاحظ أن جميع القوى الاستعمارية ما أن تضع أيديها على مقدرات شعب من الشعوب حتى تعتمد إلى عملية مصادرة تاريخه ، إدراكا منها لما له من دور توحيدى نضالى قد يؤدي في أية لحظة إلى صراع دام ومريسر مع القوى الغاصبة المستعمرة . وإن الدول الاستعمارية جميعا كانت تسلك الطريق ذاته في محاولات إذلال الشعوب ومحو شخصياتها ، وطمس كل معالم الشعور بالذات . فما أن تنهي سيطرتها العسكرية على بلد من البلدان حتى تبدأ عملية الاستيلاء على مقومات الوجود والوحدة ، وفي مقدمتها التاريخ ، فتبدأ في تسديد سهامها نحو صدر التاريخ القومي وتعمل فيه تمزيقا وتشويها وتحريفا ، وتبذل كل ما تستطيع في سبيل تعطيل ذاكرة الأمة وإبعادها عن تذكر تاريخها الخاص .

إن تفكك شخصية الأمم ، وانحطاطها ، وقعودها عن النضال ، تبدأ جميعا مع بداية نسيان تاريخها ، مع بداية فقدان ذاكرتها . ومن أجل تحقيق ذلك تلجأ كل الدول الاستعمارية إلى فرض المناهج التعليمية التي من شأنها أن تبتز الشعب عن ماضيه أولا ، ثم تغرس في أذهان الجيل المعلومات الجاهزة الصالحة لأن تجعل منه أطرافا متناحرة لا يجمع

فيما بينها غير الإدارة الاستعمارية . وباعتبار اللغة عاملا من أهم عوامل الشعور بالوحدة القومية وبالاحتفاظ بالذاكرة ، فكثيرا ما كانت تلجأ إلى محاولات قتل اللغات القومية وفرض لغة المستعمر نفسه بعد أن تقدمها إلى الوعي العام في ثوب لغة حضارية علمية متقدمة ، تفرض في المدارس ، كما يتسابق إليها أبناء الفئات المتفسخة قوميا جاعلين منها وسيلة للتقرب من الأوساط الاستعمارية الحاكمة والمتنفذة تأمينا لمصالحهم على حساب مصالح أبناء أمتهم الواحدة من جهة ، وياظفة للوجاهة " الحضارية " أمام أبناء وطنهم " المتخلفين " الذين لا يتقنون غير لغتهم " الوضيعة " . " المتخلفة " من جهة أخرى .

ومن هنا تبرز أهمية التاريخ في الصراع الوطني والقومي بالنسبة لغيره من العلوم . ومن هنا لم يكن تاريخ الشعوب في يوم من الأيام إلا سجلا لنضالها من أجل توفير الحياة الكريمة وضد نزعات التسلط والقهر والاحتلال .

إننا لا نغالي إذا ما قلنا إن حركات الانبعاث القومية والتحرر الوطنية لا تستيقظ ولا تبدأ إلا مع العودة إلى استذكار التاريخ واستلهم أحداثه ولاسيما تلك التي تذكر مشاعر أبنائه تجاه الاعتزاز بمنجزاته وتحفزهم إلى وحدته .

وإن نظرة واحدة إلى جميع الأمم المتقدمة اليوم ، في الشرق والغرب ، تكشف لنا ذلك الاهتمام الكبير الذي توليه تلك الدول لدراسة تاريخها والكشف عن كل إيجابياتها وإبرازها في أذهان الأجيال الناشئة ، وتوظيفها سياسيا وقوميا وإنسانيا في سبيل إنشاء جيل متكاتف موحد ، يملأه الاعتزاز بتاريخه العميق الراسخ الجذور في الأرض ، والمتواصل عبر الزمن .

إنما لا تكفي بالتذكير بالماضي واستنباط حقائقه ، بل تسبغ على ذلك الماضي ثوبا من المجد النضالي المتواصل على الأرض القومية ، وتسعى إلى إبراز كافة إيجابياته مهما كانت بسيطة ، وتنتهز جميع الفرص لإقامة الاحتفالات من أجل إحياء ذكرى ، أو إقامة نصب أو تمثال أو متحف أو معرض ، كما تستثمر كل الإمكانيات التي تقدمها العلوم الأخرى ، ولاسيما الآداب والفنون بما فيها النحت والتصوير والسينما من أجل تكبير

صورة المجد المقصودة ، سواء على صعيد النضال السياسي القومي أو الإبداع الحضاري ، لتغرس في ذاكرة الناس وتصبح جزءا من شعورهم الوطني والقومي ، جزءا من شعورهم بالعزة والكبرياء والثقة بالنفس ، جزءا من شخصيتهم .

إن الأمم المتخلفة والمتقدمة تتساوى جميعا في تكييف علم التاريخ لمتطلبات التربية الوطنية والسياسية ، ولا فرق بينهما إلا بدرجة النجاح أو الإخفاق في هذا المضمار وتوفر الوسائل .

لكن هذا التكييف لا يعني التغيير أو الاختلاق أو التزوير إطلاقا . إنه يعني أول ما يعني الأمور التالية :

1— الكشف عن ملامح خطوط التواصل لوجود الأمة عبر العصور ، وإبراز معالم هذه الخطوط بحيث تصبح دراسة تاريخ هذه الأمة أو تلك إنما تمر عبر خطوط تواصلها هي على أرضها ، وتبيان عملية وأسباب شحوب تلك الخطوط وهزائها وكمونها أحيانا في وجدان الشعب ونضاله السري ، الفكري أو المادي أو الاثنين معا ، في فترات القهر أو الاحتلال ، إذ إن ظهور شعب آخر أو أمة أخرى على مسرحها أو أرضها ومنصة صناعة أحداثها لا يعني إطلاقا انقطاع وجود الأمة ، إنها تظل — كما قال لينين — " الموجودة في نضال أبنائها المتوجهين إلى الهدف " .

ومن هنا ، فإن دراسة التاريخ من الناحية الوطنية في فترة كهذه يعني التركيز على دراسة الأمة الموجودة " في القبو " أو " تحت أرض الأحداث " أو خلف المسرح ، والكشف عن كل نضالات أبنائها في مثل هذه المرحلة واعتبار كل من قعد على " منصتها " غازيا ، طارئا ، غريبا ، سيندحر بعد فترة طالت أم قصرت ، لتتوهج خطوط التواصل من جديد ، بعد أن يكون المحتل أو المستعمر قد بذل كل جهوده من أجل طمسها .

2 — إبراز الإيجابيات الفردية والجماعية في تاريخ الشعب والأمة ، ومزجها بالعملية التربوية تغذية للمشاعر الوطنية ، وتنمية للثقة بالنفس ، وإذكاء لروح البذل والتضحية في كل وقت تتطلبه الأمة أو الوطن . ويجب أن نعلم علم اليقين أن تكييف

دروس التاريخ بمقتضيات القومية والوطنية ، من الخطط التي تعمل بها جميع الأمم من غير استثناء ، وأن البلدان المتخلفة هي أقل البلدان قاطبة استثمارا لتاريخها .

لقد لجأت البلدان الاشتراكية (سابقا) إلى إبراز ، ليس البطولات الواقعية التاريخية فحسب ، بل وتلك البطولات التي تحدثت عنها الحكايا والأساطير الشعبية في أعمال النحت ، والتصوير ، والسينما ، والباليه وغيرها ، وصارت تدرس جميعا ليس كجزء من التراث الوطني والقومي فقط ، بل وكجزء من مكونات شخصية الإنسان المعاصر بعد دمجها في العملية التربوية سياسيا وفنيا وأخلاقيا .

3 — انتخاب الوقائع التاريخية الأقدر على التأثير في عملية خلق الإنسان الجديد بالنسبة لكل مرحلة من مراحل تطور المجتمع ، والتركيز عليها ، والإفادة منها في بناء السياسات المرحلية أو البعيدة المدى على السواء .

إن هذا هو ما يمارس على نطاق العالم كله. ولقد أقرت المؤتمرات الدولية لتدريس التاريخ جميعها عملية استخدام التاريخ كوسيلة للتربية الوطنية والقومية ، وكل ما كانت ترجمه هو ألا يبلغ الأمر حد إثارة الضغائن وتأثيرها بين الدول مما قد يؤدي إلى إشعال نار الحروب .

وإن نظرة واحدة على كتب التاريخ الدراسية في أوروبا الشرقية والغربية وفي أمريكا تبين لنا كيف ألها مؤلفة وفق غايات قومية بوجه عام ، بل ومشبعة بالروح القومية إشباعا تاما ، وما أجري عليها في العقود الأخيرة من تنقيحات لا يعدو كونه عملية " تنقيح " من الروح العدائية الصرفة وذلك بعد أن استتب أوضاع تلك الدول ، وابتعدت عن أحداث الحرب العالمية الثانية .

إن أهدافنا السياسية ، الوطنية والقومية ، التحررية النبيلة تتطلب منا :

- الكشف عن حقيقة تاريخنا في وجوده المتواصل .
- الكشف عن مواضع التزوير والتشويه التي ألحقت به من قبل أعدائنا .
- تحرير كل المواقع والبوابات الفكرية في هذا التاريخ ، ونقض كل المفاهيم الخاطئة والمفروضة عليه من الخارج .

• توحيد التصور التاريخي المتكامل لأمتنا في أذهان الجيل العربي الصاعد وإزالة كل الالتباسات والتناقضات التي وضعت من أجل شل فاعلية هذا التاريخ في عملية نهضة الأمة وانبعاثها .

ولابد لنا هنا من أن ننوه بالأمر التالية :

1— ليس في إمكان أي منا أن يكتب في التاريخ العربي إذا لم يستوعب حركة هذا التاريخ من خلال الوعي الحقيقي للقوانين العامة النازمة لهذه الحركة في اتجاهها التقدمي أبداً ، إنه لابد من المنهج العلمي الواضح والهادف إلى الكشف عن خطوط مسيرة التاريخ التقدمية والتركيز على عوامل توهجها أو تلاشيها في هذه المرحلة أو تلك . وكما أن السياسة هي قاعدة لكل القطاعات الأخرى : الاجتماعية والاقتصادية والثقافية والعسكرية ، تعكس واقعها وتفاعلها وتؤثر بها وتوجهها وتقود تطورها ، وكما أن تلويخ أي شعب إنما هو ، في النهاية ، سجل لسياساته التي تعكس خلاصة نشاطاته المادية والروحية معا ، فإن من يدعي إمكانية الوقوف في التاريخ على " الحياد " لا يكون " مؤرخا " بلا قضية فحسب ، بل ومفتقرا إلى أدنى درجات الفهم للتاريخ ، وإنه ، شاء أم أبى ، اعترف أم لم يعترف ، لابد من أن يجد نفسه ملتزما أحد طرفي الصراع في العملية السياسية لهذا الشعب أو ذاك ، سواء تجلت تلك السياسة عملا عسكريا أو اقتصاديا أو فكريا محضا .

إن المؤرخ الذي يتحاصر على وصف الصراع العربي — الإمبريالي الصهيوني بأنه صراع بين مجموعة أو مجموعات من الدول ، يأخذ تارة طابعا عسكريا وأخرى سياسيا وثالثة اقتصادية ، لا ينتمي إلى هذا العالم مطلقا . إن أي تاريخ لهذا الصراع لا يضع الأمور في نصابها ويسمي الأمور بتسمياتها ، إنما يلتقي في واقع الأمر مع المخططات الإمبريالية الصهيونية العدوانية ذاتها .

2 — إن المؤرخ الحقيقي لا يؤخذ بظواهر الأمور ، بل يغوص خلف الحقائق حيث تكمن القضايا الحقيقية للشعوب ، وحيث يتجلى الصراع على حقيقته : ظاهرا حيناً ومستترا أحيانا ، حادا عنيفا صاحباً حيناً ، ولينا هادئا أحيانا ، دون أن يترك الهدف

يضع منه — وهو القبض دائما على حقيقة الصراع ودوافعه وأطرافه .
إن هذه الحقيقة هي الحقيقة العلمية في التاريخ ، كما أن اكتشاف العلاقة بين مادتين في
الكيمياء ، وصياغتها في معادلة هي حقيقة علمية كيميائية .

فعلى المؤرخ ، إذن ، ألا يكتفي بالعموم بين الفقااعات الطافية من الأحداث ، بل عليه
الغوص خلف الحقيقة التاريخية — خلف القضية الحقيقية التي يكافح من أجلها
شعب من الشعوب أو أمة من الأمم بكل مظاهر هذا الصراع ومهما تنوعت أشكاله
ودوافعه ومستلزماته. وإن في كل قضية وجهين : الحق والباطل ، العدل والظلم ، التقدم
والجمود . ولما كان الصراع في جوهره سياسة فإن القضية ذاتها لا تفصل عن السياسة ،
كما أن التاريخ كدراسة لتلك القضية ولكل ما يحيط بها من مقدمات ومرافقات ونتائج
هو أيضا سياسة إلى درجة كبيرة . ولما كانت القضية في وجودها الموضوعي لا تحتل في
أحشائها غير قطبيها الاثنين : الظلم والعدل ، الحق والباطل ، ولا يمكن أن تتسع لجانب
محايد في عملية الصراع ، فإن تسجيل الحادثة أو الظاهرة ، أو كل الحوادث والظواهر
التي تكتنف القضية وتؤلفها لا يمكن أن يتم إلا من خلال الولوج الواعي إلى وجودها
الموضوعي ، وحيث منطقها وجانبها النير في تناقضه مع الجانب المظلم . إن أي زعم
لتصوير الحقائق التاريخية خارج هذا الفهم بدعوى الوقوف على الحياد إنما هو كذب
على الحقيقة التاريخية وتشويه لها ، سواء أكان الأمر متعمدا أم نتيجة لأمية ثقافية
علمية وتاريخية . إن مثل هذا الحياد المزعوم ليس — في أفضل حالاته — إلا امتدادا
للموقف الآخر ، للطرف الآخر في قطبي الصراع : الطرف الظالم ، الباطل .

إننا حينما نقرأ بعض من أروخا للحركات الثورية في الوطن العربي ، بدءا من الثورة
الإسلامية الكبرى التي قادها وفجرها الرسول العربي ، ومرورا بثورة القرامطة ، والثورة
العربية ، والثورة السورية الكبرى وحتى اليوم ، لا يسعنا إلا أن نرثي لتاريخ أمتنا الذي
سطا عليه مثل أولئك المؤرخين الذين قلبوا الحقيقة عقبا على رأس ، وشوهوا قضية
النضال التاريخية ، وتبنوا مواقف الأعداء عن قصد منهم أم عن جهل ، فالأمر في النتيجة
سواء .

ومن الأمثلة القرية لموضوعنا هذا اشتراك القبائل العربية البدوية في مقارعة قوى الاحتلال التركي والفرنسي في سوريا مما أكد قومية الصراع إلى أعظم جذوره . لكن كثيرا من المؤرخين أخذوا يصورون هذه الظاهرة كما يصورها المؤرخون الاستعماريون أنفسهم : إنها صراع بين العلم والجهل ، بين التقدم والتخلف ، بين الحضارة والفوضى وانعدام القانون .

لقد كتب أحمد وصفي زكريا في كتابه " عشائر الشام " واصفا ظاهرة المقاومة التي أبدتها القبائل العربية البدوية للاستعمارين الفرنسي و التركي :

" فساق الفرنسيون عليهم قوة من الهجانة في آذار 1924م يعضدها مدفع جبلي وسيارات رشاشة ، وضربتهم على مقربة من جبل سيس ، كبدتهم عشرين قتيلًا ، لكن هذه الضربة والضربتين اللتين أعقبتهما خلال ثورة سنة 1925م لم تؤثرا ، وظل " الغياث " يقطعون الطريق على السيارات العاملة بين دمشق وبغداد ، ونهبوا مرة يريد بغداد وفازوا بثلاثين ألف دينار ، وانضم إليهم زرافات من النجاد والرييدات والبدو هم من فرق العمور ... ثم اشتركوا بالثورة السورية وصاروا يؤوون العصابات الدرزية والدمشقية وفلسول الثوار الزاحفة من الجنوب أي شرق الأردن والأزرق إلى غوطة دمشق ، واستطالوا في هذه البرهة كثيرا ، وبلغت شرورهم جبل قلمون ، ونهبوا نحو 5000 رأس من ماشية النبل وجيروود وغيرهما ، كما نهبوا بيادر بعض قرى الحرج شرقي دمشق وحاول الفرنسيون وقتئذ رد بائقتهم ، فقام الرئيس كاربتيه قائد سرية الهجانة بحرس قافلة سيارات بغداد ، لكنه أصيب في 12 أيلول 1925 في تلعة المساعي حديد أحد المساعيد المنضمين إلى الغياث ، فشاد الفرنسيون له وسط شارع بغداد في دمشق قبة تحتها سبيل ماء وسجلوا عليها اسمه وتاريخ وفاته ، ومن ثم صارت الطائرات إنسراوح الغياث القصف وقوى الهجانة تحاصرهم إلى أن عجزوا واستأمنوا ...⁽¹⁾

" وخلال الحرب العالمية الأولى أعدم الترك الشيخ محمد الملحم (رئيس قبائل الأحسنة) وقالوا : إن ذلك لشقاوته ونزواته العديدة ، وقد أدى إعدام محمد الملحم المذكور إلى أن

تنحاز الأحسنه وقتئذ إلى القضية العربية ⁽¹⁾

" بينما المعروف أن سبب الإعدام هو " عزم محمد الملحم على اللحاق بالأمير فيصل بن الحسين حينما نهض بالثورة العربية ، فعلمت الحكومة التركية بذلك ، فألقت القبض عليه وصلبته ⁽²⁾

إن في مثل هذا التسجيل للتاريخ إجحافا بل وعدوانا على قضية الأمة العربية ونضالها : لقد أبرزت المستعمر الفرنسي كقوة حضارية ساهرة على استتباب الأمن وتأمين جري الحياة في ظل الحماية الصارمة لأمن المواطنين ضد السطو والنهب وأعمال الفوضى . كما أظهرت بعض أجنحة الثورة على الاستعمار ممثلين للتخلف والسطو والفوضى والعث بأمن المواطن والدولة .

إن المؤرخ ، على جهله المريع بقضايا الشعوب والسياسة والصراع الدائر ، لم يعرف كيف يميز بين أمن السلطات الاستعمارية وأمن البلد المستعمر ، بين مصالح المستعمر في البلدان ومصالح المواطنين العرب في إخراجهم بشئ الوسائل ولو أدى ذلك إلى إحراق الأرض بكل خيراتها كي يحرم منها الغاضبون .

إنه ، وهو الجاهل بمثل هذه البديهيات الأولية ، لن يتمكن ، بالطبع ، من إدراك المعنى العظيم لانضمام أولئك البدو الرحل إلى قوافل الثوار ضد الاحتلال التركي والفرنسي ، وتقديمهم كثيرا من شبابهم شهداء على مذابح الاستقلال الوطني ، إن أول معاني ذلك الانضمام هو بلوغ الصراع بين الشعب وأعدائه ليه القومي الصريح.

3 — إن من يبحث عن الحقيقة التاريخية الموضوعية سوف يجدها في عملية الصراع نفسها . ومنطق الحياة في التاريخ هو أن الظلام ، والقهر ، والاستغلال ، والاستعمار ، والاحتلال قوى سوداء تقف ضد إنسانية الإنسان وقيمه وتقدمه وينبغي النضال ضدها مهما كلف ذلك من ثمن . وإن محاولات كبج اندفاع الشعوب نحو حريتها وتقدمها وتحقيق رخائها وإنسانيتها على أساس من الحرية والعدل إنما هو فعل رجعي ينبغي

(1) المصدر نفسه ، ص 437 — 439 .

(2) المصدر نفسه .

التصدي له والإطاحة به . وإن منطق التاريخ هو أن الحياة حركة ، والحركة دائماً إلى الأمام ، أو هكذا ينبغي أن تكون ، وتاريخ شعب في النهاية ليس إلا مسيرة نضال هذا الشعب من أجل تحقيق حريته وسيادة العدالة والتقدم بين أبنائه ، كما أن تاريخ الإنسانية ليس إلا مسيرة نضالها الطويل عبر دروب الآلام الكبيرة إلى مستقبل الإنسان الحقيقي ، الزاخر بالقيم ، الضامن للعدل والأمن والرخاء .

ومن هنا فإن المؤرخ الواعي لا يسقط في مناهات الجهل والتحريفات ، بل يتلمس طريق القضية الكبرى التي يندلع بها ومن حولها الصراع . وإن القادة العظماء يزعجون عظماء ، ويقعون عظماء بقدر ما يمثلون ، في ذواتهم ، وفي قيادتهم لذلك الصراع ، مصالح هذه الجماهير الطامحة دائماً إلى التقدم والحرية والعدل .

وهكذا فإن دراسة التاريخ تعلمنا :

● الإيمان العميق بمقدرة الشعوب التي لا حدود لها حينما تناضل من أجل قضاياها العادلة .

● أن الصراع بين طرفين لم يكن في يوم من الأيام يتقرر بحولة ، أو بمعركة وأن الأمم ذات الإمكانيات الكبيرة كالأمة العربية استهككت كثيراً من غزوات الأقوام وجائحات الشعوب دون أن يؤثر ذلك على عملية تواصل وجودها القومي الراسخ والطويل على الأرض العربية . إن حقيقة الأمم والشعوب تكمن دائماً في خبرة أبنائها الواعين لمصالحها وظروف تطورها ، والمناضلين من أجل قضيتها وانتصارها ، والمعبرين عن صمودها أيام النكبات والحن .

● إن كل الفقاعات التي تعلو سطح التخلف الآسن لا يمكن أن تكون تعبيراً عن جوهر الأمة ، وإن كل السطوح الجامدة الراكدة التي تشد أقدام التطور إلى الأرض لن تصمد أمام تيارات الحياة الحقيقية المتدفقة من أعماق الجماهير .

● إن مواقع التعبير عن ضمير الأمة وحيويتها ليست في مواقع الكم المنفصل عن النوع ، بل في النوع الفاعل المتفاعل مع " الكم " بصورة لا تنفصل .

● إن صمود الأمم بجماهيرها هو الذي يفقد انتصارات الخصوم كل بريقها ثم يحولها إلى هزائم . وإن لنا من تاريخنا دروساً بليغة في هذا الشأن . إن إلمامة سريعة بحروب هانيبال أحد أبطال شعبنا العسكريين والسياسيين الخالدين ضد الإمبراطورية الرومانية وانتصاراته الأسطورية الخاطفة المتتالية زهاء ستة عشر عاماً دون أن يتمكن من فرض الصلح على روما رغم كل الجهود المضنية التي بذلها من أجل تحقيق ذلك مما أدى أخيراً إلى رجحان كفة روما ذات القدرة الأوسع على الصمود ومتابعة الصراع نظراً لإمكاناتها البشرية المتفوقة ، إن إلمامة كهذه تكفي لتبين لنا مدى أهمية وعي السياسي لعامل التفوق الاستراتيجي والمؤقت ولمدى تحالف كل منهما مع الزمن مما لا بد أن تنعكس نتائجه سلباً أو إيجاباً في صناعة التاريخ لهذه الأمة أو تلك .

4 — ومن هنا نجد لزماً علينا القول إن على المؤرخ أن يعرف كيف يدرس مثل هذه الظواهر التاريخية ويستخلص منها العبر والنتائج ، ويقدمها للسياسة ، لأن التعاون بين التاريخ والسياسة أمر بديهي ولا بد منه .

5 — إن فهمنا للتاريخ لا ينفصل عن إيماننا العميق بأن العمل يفرض على الإنسان مسائل تؤدي إلى تغيير أدوات العمل ، وبتغيير أدوات العمل يتغير الإنسان نفسه أيضاً كقوة منتجة ، وبأن الجماهير هي صانعة التاريخ في كل أدواره . إلا أن ذلك لا يقلل من إيماننا بدور الفرد في صناعة التاريخ . إن قيادة الفرد المتميزة هي التي تتيح فرص استثمار الإمكانات وعامل الزمن إلى الحد الأقصى من أجل تحقيق النجاح في نضال الجماهير .

إن درجة فعالية الجماهير الشعبية تختلف في حل هذه المهمات الاجتماعية والسياسية أو تلك باختلاف مستوى وعيها وتنظيمها ، وإنه في حركة الجماهير ونضال الطبقات وكفاح الشعوب والأمم وتنازع الدول تنشأ دائماً الحاجة إلى الأفراد الذين يتميزون في وعيهم المتفوق للمرحلة ولتطلبات الفوز في الصراع ، ويرعون في إدارة عملية هذا الصراع ، فيضعون المهمات أمام جماهيرهم أو شعوبهم ، ويقودون نضالها ويرأسون هذه الحركات أو تلك ، ويزجون هذا الجيش أو ذاك في خضم المعركة . إن دور الشخصيات

البارزة عظيم وضروري عندما تعبر هذه الشخصيات تعبيراً واعياً عن الحاجات الاجتماعية للتطور ، وتقوم بدور المنظم والأيدولوجي والقائد للجماهير . إنها بمقدورها على فهم الوضع ، والنفوذ إلى جوهر العمليات السياسية والاجتماعية واتخاذ القرارات المناسبة في اللحظة المناسبة ، وبمبادرتها الخلاقة ، يكون لها تأثير جد عظيم وخطير على عملية صناعة التاريخ ، بل يمكن القول إن دورها في هذه الحال لا ينفصل عن دور الجماهير إلا إذا جازت الحياة بانفصال الرأس عن الجسد .

إن على المؤرخ أن يتمتع بفهم صحيح وعميق لمثل هذه العلاقة دون أن يسيء أو ينتقص من أهمية دور كل من الشخصية والجماهير .

6 — إن معرفة التاريخ لا تعني مطلقاً معرفة أحداثه وتسلسلها في الزمان والمكان ، كما أنها لا تعني الإحاطة بما قد وضعه بعض المؤرخين من تحليلات وتفسيرات لتلك الأحداث . إنها أبعد من ذلك بكثير . إن مهمة المؤرخ قد تكون أصعب وأخطر من أية مهمة علمية أخرى .

إن التعمق في علم التاريخ لا ينفصل بأية حال عن التعمق في الثقافة بكل وجوها وأبوابها . والثقافة شيء والتعلم شيء آخر . ثمة كثيرون ممن يلمون بالأحداث وتسلسلاتها وتاريخ وقوعها ، لكن الواحد من هؤلاء ليس إلا نوعاً من الإنسان " الأرشييف " إذا صحت التسمية . أما الثقافة فهي تتطلب الإلمام بشئ وجوه المعرفة والفكر البشري ، الإلمام بالقوانين العامة الشاملة النازمة لعمليات الفكر والمعرفة في شئ فروعها ومجالاتها وبالتالي معرفة الخطوط الحقيقية لمسار العملية التاريخية لدى شعب من الشعوب أو أمة من الأمم في تفاعلاتها الجدلية الكثيرة والمعقدة الداخلية والخارجية ، الذاتية والموضوعية ، ومن هنا ، ومن خلال هذا الفهم الشامل الذي ينفذ إلى صميم الأحداث ، من خلال المعرفة الحقيقية للقوانين النازمة لعمليات تطور المجتمع والطبيعة على حد سواء تتحدد المعرفة الحقيقية بمجريات الأحداث التاريخية ضمن أوساطها البيئية والمحيطية ، ويتكون الحكم الصحيح الواضح .

إن المعرفة الحقيقة إذن ، التي من خلالها ينبثق شعاع أو طيف واضح وقويم يخدم كمعيار

للحكم على الأحداث دونما عوج أو تناقض ، هو ما توفره الثقافة الحقيقية ، وإن كلمة " ثقافة " العربية هي خير ما يعبر عن العملية ، إذ إنها اشتقت من الفعل " ثقف " بمعنى " قوّم " وثقف الرمح قومه ، والمتقف هو الرمح ، والفعل " قوّمه " يحمل المعنيين معاً : قدّره ، وجعله مستقيماً وكما تعني الإتقان أيضاً .

والثقافة هذه هي سلاح المؤرخ ، ويدونها لا يمكن أن يكون شيئاً في حقله ، وهي لا تأتي منحة أو هبة من مدرسة أو جامعة أو أية جهة ، إنها تكتسب بالجهد وهي أرقى مرحلة في عملية المعرفة . فمن المعروف أن الإنسان يتعلم الأسس والمبادئ العامة لهذا العلم أو لكل العلوم ، ثم ما يلبث أن تقتز أمام نظريته كل تلك الحدود المصطنعة بين علم وآخر ، وتبدأ عملية التعرف على الواقعين الاجتماعي والطبيعي من خلال تداخل الظواهر ، وتفاعلها وتغلغلها كل واحدة داخل حدود الأخرى مما يتيح تلمس أهم العناصر المشتركة في الفعل ، وأهم القوانين النازمة لعمليات الفعل تلك ، وهنا تبدأ المرحلة الثانية ، أما المرحلة الثالثة فهي تشمل العودة إلى الحدث ، إلى الواقع ، إلى الموضوع المتعرف عليه ، بعد التسلح بمعرفة تلك القوانين العامة ، من أجل تقويمه والحكم عليه أو توجيهه ، والتأثير على مساره ، بحيث يندمج مع الخطوط العامة لعملية التطور المطلوبة . ومن هنا كانت عملية التاريخ أبعد الأمور عن عملية تسجيل الوقائع والأحداث حسب أعوام حدوثها ، أو نقل الأحكام والتقويمات كما هي من الخارج ، مهما قد تظهر للوهلة الأولى في ثوب علمي محض ، لأن المرحلة الثالثة من عملية المعرفة ، كما أشرنا ، تتيح التوجه إلى الحدث بعد أن تمت عملية التعرف عليه لتقويمه وتفسيره وللتأثير فيه أيضاً . لكن لا ينبغي هنا أن نفهم من كلمة " التأثير " ما قد يخطر لأول وهلة كال تغيير مثلاً ، إذ من المعروف أن أحداً لا يقدر على تغيير حدث قد حدث ، لكن التأثير هنا قد يعني نقل ساحة فعل هذا الحدث من مكان إلى آخر ، ومن اتجاه إلى آخر وبالتالي قد تتم في ذلك عملية حرفه عن أداء دوره الحقيقي في خط التطور العام ليؤدي دوراً بناءً آخر أو تعويقاً تخريبياً . إن كل من يعرف واقع المنطقة العربية معرفة حقيقية ، وطبيعية الصراع الإمبريالي الصهيوني وسمات المرحلة التاريخية التي بلغها هذا الصراع ، بصرف النظر عن

كل ما قد يطفو على السطح وفي أجهزة الإعلام العربية والدولية ، سوف يكون من اليسير عليه مثلا فهم أسباب انسحاب القوات الإسرائيلية الغازية من لبنان وكل الآثار والنتائج التي تراكبها ، ما كان منها متعلقا بمجتمع الكيان الصهيوني نفسه ، وبالبنية النفسية للانسان الصهيوني ، أو ما كان منها يتعلق بمعادلات القوى العربية المتصاعدة ، التي تصدت لهذا الغزو وأفشلته ودحرته ، مدخلة الصراع في مرحلة جديدة ، لا نشك في أنها ستكون بمثابة نقلة نوعية ، لن تنتظر طويلا حتى تفرض نفسها واقعا جديدا في ساحة الصراع على الأرض .

إن مسيرة التطور مؤلفة من سلسلة لا نهاية لها من الحقائق الحلزونية المتصاعدة بأقواسها الثلاثة : القوس الأولى القاعدة ، ثم القوس الثانية الأعلى والمناقضة تماما في الاتجاه السقي تنفي الأولى ، وتمثل المرحلة الانتقالية في التطور ، ثم القوس الثالثة الأعلى من الأثنين ، وفوق الأولى مباشرة من حيث الاتجاه وتنفي بالتالي الثانية ، لأنها نفي النفي . ولا بد من التذكير بأن القانون التبادلي " صراع الأضداد أو المتناقضات " يعمل في الأقواس الثلاثة دون انقطاع ، وإذا افترضنا أن من يقف في القوس الأولى إنما يمثل الماضي الساذج بنظراته ومثله وبساطة قيمه ومعتقداته ، فإن من يقف في القوس الثانية إنما يمثل التمرد على تلك القيم البدائية البسيطة ونفيها وبناء شبكة من القيم وقواعد السلوك الحياتية الانتهازية المعقدة المناقضة للأولى ، إنه يرفض الماضي رفضا كليا ويعتبره ساحة للتخلف ، كما يعتبر نفسه قمة التطور ، ثم إن من يقف في القوس الثالثة يجمع بين المرحلتين في خطوط توصلهما الإيجابية ، إنه يتبنى القيم الماضية وكل إيجابيات الماضي بدراية منبثقة عن الوعي . إنه الصادق عن وعي ، المحب للماضي كجزء من تاريخ الأمة تمتد خطوط توصلها منه إلى الحاضر إلى المستقبل . إنه يرى استمرار البذور الإيجابية في نسغ التطور الصاعد من الماضي إلى الحاضر إلى المستقبل ، هذا النسغ الذي يحمل نكهة ، ورائحة وسمات وخصائص وميزات كل أمة ، المتشكلة تاريخيا والتي تميزها عن غيرها من الأمم . إنها الأصالة الحقبة التي لا تقتصر على الماضي ولا تتعارض مع الراهن والمستقبل لأنها جسد واحد هو العروق الحية في الجذع التاريخي المستمر . إنه في هذا الموقع ينفي كلا

من الحالتين السابقتين كلاً منهما على حدة ، ويتحد في موقعه مع جميع عناصر التطور الإيجابية المتواصلة في المرحلتين السابقتين.

ومن الصعب حقاً على من لم يتجاوز بوعيه مرحلة القوس الثانية (النفي) أن يميز بين التعلق البسيط الساذج بالتاريخ الماضي ، وبين الدراسة الواعية لأحداثه واستنباط عبره ودروسه ، والتزويد بكل إيجابياته مما يشكل المعنى الحقيقي للتراث وللأصالة .

إن كلا من الاثنين يتعامل معه بمحبة ، لكن الفرق بين التعاملين جد كبير . إن الفرق بين من يتغنى بالماضي ، يتعشقه ، ويندب أطلاله دون أية مقدرة على الحركة في الراهن إلى المستقبل ، وبين من يجلو الغبار عن حقائق ذلك الماضي ليتلمس خطوط تواصلها الناشئة في الحاضر والمستقبل معاً ، فيستشف ملامح المستقبل ، ويسهم في رسم توجهاته الحقيقية ، جدّ كبير .

إن من يقفون في القوس الثانية (مرحلة النفي ، المرحلة الانتقالية) هم دائماً أخطر الفئات شأناً على عملية التطور ، سواء أكان ذلك في مجال الفكر والثقافة أو سواهما . وبقدر ما يتشبثون بموقعهم فإن المرحلة الانتقالية في التطور من أدنى إلى أعلى تطول أو تقصر . فهم دائماً يتصورون أنفسهم في موقع القمة من التطور ، ويخلطون بين الفئة التي تجاوزتهم إلى المرحلة الأعلى وبين الفئة التي عرفوها أو ما تزال في المرحلة الأدنى . فالإنسان الصادق ، مثلاً ، الطيب بالفطرة ، هو طيب لكنه ساذج ويمكن خداعه بسهولة ، وهو يقف في الحلقة البداية ، القاعدة ، لكنه ، في نظرهم ، كالإنسان الذي اجتاز مرحلة التطور الثلاثية إلى القوس الأعلى واختار أن يكون طيباً عن دراية منه ووعي كاملين بعد تجاوز المرحلتين الأدنى كليهما : الطيبة الساذجة و " الشطارة " الانتهازية . إن هذه الفئة التي يمكن أن نسميها فئة القوس الثانية هي التي تعاني منها المجتمعات في مراحلها الانتقالية إلى مرحلة الوعي الشمولي الأرقى على مستوى الفئات والأفراد معاً ، إنها الفئة التي تصدت في التاريخ لكل المصلحين والأنبياء والقادة المميزين والعباقرة . واجتماعياً كانت دائماً صاحبة المصلحة الحقيقية في الاستغلال لجهد الآخرين .

لكننا نريد التأكيد على أن المجتمع ، أي مجتمع ، ما ينفك تعمل فيه وتتوالد هذه الأقواس الثلاثة بصورة دائمة أيا كانت درجة تطوره ، كما أن هذه القوانين الثلاثة : صراع المتناقضات ، والنفي ، ونفي النفي لا تعمل الواحدة منها في معزل عن الآخر ، إنها موجودة دائماً في كل مرحلة في عملية جدلية تبادلية متكاملة لا تنفصم بالرغم مما قد تسفر عنه من نتائج مختلفة في كل مرحلة .

8 — إن هذا هو أيضاً ما ينبغي على المؤرخ أن يتبينه في موقع السياسة التي يريد أن يتحدث عنها أو يؤرخ لها ، فكما يمر الصدق في تطوره في الوعي الإنساني من الساذجة البدائية ، إلى الكذب الانتهازى ، إلى الصدق المبدئي الواعي الذي ينفي المرحلتين السابقتين ، فإن السياسة تسلك هي الأخرى في الوعي خط الشعارية الصادقة الساذجة في البداية ، وهي المرحلة الطيبة والهشة في آن معاً ، إنها المثالية في التقييم الأخلاقي والسريعة العطب غير المسلحة بالعلم وبالتخطيط أيضاً ، ثم تمر بمرحلة التخطيط السياسي الصرف في معزل عن الشعار في معظم الأحيان وتأخذ طابعها الانتهازى الضيق ، ثم تنوج بحلقة التطور الأرقى : مرحلة الفهم الحقيقي والعلمي للسياسة والشعار معاً ، والتعامل معهما في وحدة جدلية تبادلية آخذة بالاعتبار سمات وطابع كل منهما ، إذ تتكامل قيمتهما الأخلاقية ، ولا تسمح الواحدة للأخرى بأن تتناقض معها تناقضاً حقيقياً ، بل تحافظ على سمات كل منهما وتبرزها* .

فإذا كان الجمود من أبرز سمات الشعار فإن الديناميكية والحركة من أبرز صفات السياسة . إذا كان الشعار هو الهدف فإن السياسة هي الطريق إلى تحقيقه . إذا كان الشعار بلوغ قمة الجبل ، فإن السياسة هي عملية التسلق ذاتها بكل ما قد تلاقيه من عقبات ومصاعب قد تعطل ، أو تعرقل ، أو تسرع ، وتجعل شكلها يبدو مستقيماً ، أو منحنيّاً ، أو متكرساً ، أو متراجعاً — متقدماً في آن معاً ، وفي مرحلة واحدة من مراحلها .

* ينبغي ألا يفهم من هذا أن هذه المراحل توجد الواحدة في معزل عن الأخرى ، ونفصل فيما بينها حدود واضحة ، وإن على السياسة أن تمر فيها واحدة بعد الأخرى ، فكما سبق أن أشرنا إلى أن في كل مرحلة بقايا من التي سبقتها ومظاهر وليدة وجديدة تتغالب وتتفاعل معها من أجل صياغة ملامح المرحلة التي سوف تأتي . وتتحدد الملامح العامة لكل مرحلة من خلال قوة فعل ووجود وتفاعل ونسبة عناصر هذه المراحل جميعاً في كل مرحلة على حدة .

ومن هنا كان على المؤرخ أن يفهم السياسة في موقعها ومن خلاله ، لا بصورتها المجزأة ، بل بصورتها الشاملة الكلية المتكاملة المتناغمة مع الشعار في وحدة جدلية تبادلية ، أو منفصلة كلياً عنه .

إن على المؤرخ أن يعرف كيف يميز بين التراجع الجزئي القسري الذي قد يحدث في طريق السياسة إلى الهدف الشعار دون أن تضيعه وبين التراجع الحقيقي الكلي الذي ينقطع فيه الجبل الذي يربط بين السياسة والشعار ، بين المتسلق وقمة الجبل .

ولابد من التنويه هنا ، في صدد علاقة السياسة بالتاريخ ، بأن بعض كتبة التاريخ العرب وقعوا في أخطاء قاتلة حينما عزفوا عن فهم هذه الرابطة التي تربط بين السياسة والتاريخ ، فتلقفوا كل ما دونه مؤرخو الحقب الاستعمارية بسداجة منقطعة النظير ، ومن هذه الأخطاء الرئيسية :

1— ربط العروبة والوجود الحضاري العربي كله بالإسلام ، بحيث تنتزع الهوية العربية عن حضارة سكان المنطقة قبل الإسلام من جهة ، وتجعل من العرب المسلمين غزاة لها ، مما يجعل حقهم في الوجود فيها يتساوى مع حقوق أي غزاة آخرين .

2 — الابتعاد كلياً عن دراسة اللهجات العربية القديمة من سومرية وأكادية و بابلية وآرامية ومصرية وغيرها ، حتى لا يكتشف العرب اليوم وحدة اللغة والحضارة والوجود الذي يعود إلى زهاء ستة آلاف عام من السنين تم العثور على آثارها وشواهدا .

3 — عزوفهم عن محاولة فهم تاريخ المنطقة من خلال فهم سكانها العرب أنفسهم في مراحل تطورهم . فمن المعروف أن لكل شعب خصائص وسمات تميزه عن غيره من الشعوب . ومن السمات التاريخية البارزة لدى العرب مثلاً اهتمامهم بأنسابهم وبمحافظة عليهم عليها اهتماماً مناقبياً لا عرقياً وإجلالهم لأبطالهم التاريخيين وسرد بطولاتهم في قصص تجري المحافظة عليها ويتم تناقلها من جيل إلى جيل . وليست قصص التوراة إلا نقلاً لمسوخا لبعض تلك القصص والأنساب . علماً أن المؤرخين الغربيين رغم كل ادعائهم العلمية والموضوعية ، بنوا كل دراساتهم ومعارفهم عن المنطقة على مدونات التوراة ، ثم لم يعودوا قادرين على التخلص منها بعد ظهور المكتشفات الأثرية في

المنطقة العربية رغم المحاولات الكثيرة والمضنية التي يقوم بها البعض منهم . وبقي بعض " نقله " التاريخ من " الأساتذة " العرب مصرين على عدم الاهتمام بكل ما يجري من حولهم وعلى أن يترجموا لنا كل أخطاء التاريخ الاستعماري ويفرضوه على الأجيال العربية جيلا بعد جيل .

إن اعتماد النسب كمصدر في التاريخ لا يعتمد عليه سواء من حيث دقته أو موضوعيته ، لكن ليس في وسع المؤرخ أن يغفل دلالاته . لقد اعتمده المؤرخون في الغرب حيث يكثر الحديث عن العلمية والموضوعية طالما أنه قادم من التوراة ، ورفضوه في الشرق ولو كانت التوراة نفسها ليست إلا نزرا جد يسير من بعض هذا الشرق . وما يصح قوله عن جداول الأنساب يصح في القصص والأساطير أيضا . لقد اعتمدت قصص التوراة في الغرب كمصدر أساسي في التاريخ لمنطقة " شرق المتوسط " في فترات ما قبل المسيح ، ويفرض حتى اليوم بعض " المؤرخين " العرب التعامل مع قصص وأساطير المنطقة التي اكتشف مؤخرا أن قصص التوراة ليست إلا جزءا يسيرا منها منقولاً عنها بشيء من التحريف .

إن الجهل بالواقع العربي ، وبالحياة العربية القبلية وتقاليدها ، وبتراث المنطقة التاريخي الضخم الذي لا يضاهيه تراث أمة أو شعب من الشعوب ، وباللغة العربية القديمة بكل لهجاتها من سريانية وعرباء ، وبالتالي بأسماء الناس والمدن والقرى التي تعود في معظمها إلى آلاف السنين ، وفوق هذا وذاك ، فإن الجهل بالمعرفة الحقيقية لعلم التاريخ الذي لا يصير علما إلا من خلال التعرف على كل القوانين العامة الناظمة والشاملة للعملية التاريخية ذاتها في تواصلها من الماضي إلى المستقبل ، كل ذلك يجعل الحاجة ملحة وماسة إلى إعادة النظر في كل ما بين أيدينا اليوم من الكتب التي تؤرخ لشعبنا العربي .

وإننا في كتابنا هذا سوف نسعى ، ومن خلال ذلك كله ، إلى أن نقرب أكثر من كل المواقع المهدمة في الذاكرة العربية ، من كل البوابات الفكرية التي ما زالت محتلة في تاريخنا العربي . إن عملية تحرير الأرض ينبغي أن تواكبها عملية تحرير أخرى لا تقل عنها أهمية ، إنها تحرير كل المفاهيم التي أورثنا إياها وفرضها علينا مؤرخو الحقب الاستعمارية.

وللهمة لا شك كبيرة ، لكنها تقع على عاتقنا نحن أبناء هذا الجيل ، علنا في ذلك نكون
حذيرين بالعيش في الزمن الذي بدأ .



الفصل الأول

الأرض العربية

الأرض العربية والشعب العربي

المؤرخون وفكرة الأرض العربية والشعب العربي

إن الحديث عن الأرض التي يشغلها شعب من الشعوب أو أمة من الأمم ليس حديثا عن منطقة أو رقعة أو عقار ، تنتقل ملكيتها من جماعة إلى أخرى ، ومن شاغل إلى آخر ، إنه الحديث عن الرحم والجنين ، بكل ما بينهما من وشائج التنفس والغذاء ، الهواء والدم ، والنمو والولادة ، والمحبة والحنين. إنه الحديث عن وعاء نشاط الشعب أو الأمة ، مسرح حركتهما وحيويتهما في شتى مجالات العيش والتطور والعطاء .

ومن هنا كان لا يمكن الحديث عن الأرض في معزل عن الشعب كما لا يمكن الحديث عن الشعب أو (الأمة) في معزل عن الأرض ، لما لكل منهما من أثر بالغ في تحديد ملامح الآخر وسماته التاريخية. فكما أن الشعب يطبع الأرض بطابعه ، يغير شكل وجهها زراعيًا وصناعيًا وعمرانيًا ويترك عليها بصمات ثقافته ، وفنه ، وفكره ، ومراحل تطوره ، بحيث تصبح مرآة لشخصيته ، بل جزءا منها ، فإن الأرض أيضا ، موقعا ، وتضاريس ، ومناخا ، وثروات ، ومياها .. تترك هي الأخرى آثارها واضحة في تقاسيم إنسانها وملاحمه ، وتطلعاته ومزاجه ونشاطاته وتوجهاته .

ولو أحببنا التعرف على الرقعة من الأرض التي شغلها الشعب العربي منذ أكثر من ستة آلاف سنة وحتى اليوم لوجدنا أنها الممتدة من البحرين الهندي والعربي ، صعودا إلى شواطئ الخليج العربي وجمال زغروس من الشرق ، ثم تنقوس باتجاه الغرب إلى ما بين هضبة أرمينيا إلى المضائق، وينحدر الخط جنوبا على طول الشاطئ الشرقي للبحر المتوسط ، ثم يطوق مصر كلها ويجعل من البحر الأحمر بحرا عربيا بأكمله ويمتد على

طول الشاطئ الجنوبي للبحر الأبيض المتوسط حتى الأطلسي .

وكما نلاحظ فإن هذا الخط الحدودي الذي يعود إلى أكثر من ستة آلاف عام يشمل كل المناطق التي اسمها شبه جزيرة العرب ، ودول منطقة الهلال الخصيب الممتدة من طرفه الشرقي على الخليج العربي ، إلى المتوسط ، إلى وادي النيل ، ثم تابع العرب السوريون (الفينيقيون منهم خاصة) توسيع تلك الرقعة لتتلاءم مع حيويتهم التجارية المتدفقة ، وجعلوها تمتد من أوغاريت وصيدا وصور إلى زرع ثمانين محطة — مدينة عربية فينيقية منتشرة من قبرص إلى شواطئ الأطلسي .

ومنذ ذلك الحين كان نشوء الوطن العربي .

إن نظرة واحدة على جغرافية هذه المنطقة تجعلنا نميز ما يلي :

1- من حيث تنوع المناخ والتضاريس :

منطقة عالية الخصوبة : حوض شمال سوريا ومنطقة النهرين دجلة و الفرات والساحل السوري ، ووادي النيل والشواطئ الجنوبية الغربية لشبه جزيرة العرب .

● منطقة سلاسل الجبال : على طول الساحل السوري في سلسلتين متوازيتين يحصران بينهما وادياً خصيباً ، وجبال الجليل والخليل في فلسطين وتمتد بموازاة البحر الأحمر حتى اليمن جنوباً ، ثم تمتد من اليمن بمحاذاة الساحل متجهة نحو الشرق حتى تنتهي في عمان حيث ترتفع هناك قمم الجبل الأخضر ، وتكون هذه السلاسل من المرتفعات حاجزاً يمنع السحب المحملة ببخار الماء من البحار من التوغل في الداخل وخاصة في شبه الجزيرة العربية ، وبذا تحول دون سقوط الأمطار بوفرة في أواسط بلاد العرب .

وفي وسط شبه الجزيرة تقع هضبة نجد وفيها جبل ثمر وجبل طويق وبعض ينابيع المياه الجارية تحت طبقات الرمال .

● مناطق من السهول الملائمة لزراعة الحبوب ، منطقة الحوض الأدنى لدجلة والفرات ، وسهول الجزيرة السورية وحوران والجولان وقحمة ووادي النيل .

● مناطق من السهوب والمراعي وهي متاخمة لمناطق السهول الزراعية وتنتهي إلى البادية

● مناطق البادية والصحارى القاحلة وهي تتفاوت في درجة الجذب من أدناه في البادية السورية إلى أقصاه في صحراء الربع الخالي في قلب شبه جزيرة العرب بعد التصحر. أما توزع المناخ فكما هو واضح من التوزيع الجغرافي والتضاريس ، هي موزعة بين عدة مناخات من المتوسطي المعتدل الماطر شتاء ، إلى الجبلي ، إلى الصحراوي . ونحن إذا استثنينا الأرض المتاخمة للشاطئ السوري وأودية الأنهار فإننا لا نجد بقاعا واسعة تتساقط فيها الأمطار وتتوفر فيها الحياة الكافية للأعمال الزراعية وللتخفيف من حدة حرارة الصيف . والصحراء السورية التي يحيط بها طرفا الهلال الخصيب هي في تكوينها الطبيعي امتداد للصحراء في شبه جزيرة العرب ، كما أن صحراء سيناء وصحراء مصر الشرقية امتداد لها أيضا ، أما المناطق الجبلية المرتفعة في شبه جزيرة العرب فتمتد على محاذة البحر و يبلغ ارتفاعها قرابة أربعة عشر ألف قدم في الجبال التي تبعد ثلاثين ميلا إلى الغرب من صنعاء ، ويكاد استنزاف الرطوبة من الرياح الغربية وهي في طريقها إلى الجزيرة العربية يكون استنزافا تاما ، مما يجعل داخل البلاد جافا لا يسقط فيه مطر، بل إن المناطق الساحلية ذاتها لا يسقط فيها من المطر أكثر من عشر بوصات سنويا . والمنطقة الوحيدة التي يسقط فيها المطر في فترات معينة من السنة تكفي للزراعة هي القسم الجنوبي الغربي ، أي اليمن ، بينما قلب الداخل من نجد فهو مكان يصلح لرعي الماشية .

أما أودية النيل ودجلة والفرات فإن فصلي الربيع والخريف فيهما فترتان انتقائيتان قصيرتا الأمد ، وتقعان بين فصل الصيف الشديد الحرارة وفصل الشتاء القليل المطر ، مما يجعل الأراضي النائية عن إمكانات الري الاصطناعي مناطق جافة لا تصلح للسكن . إن سطح الأرض في سوريا والعراق أقل تجانسا في تركيبه من سطح الأرض في مصر ، كما أنه أكثر تعرضا وانفتاحا بحكم موقعه مرا بين ثلاث قارات مما هي عليه الحال في مصر . إن وادي النيل مصر يكاد يكون معزولا من جميع جوانبه ، أما سوريا بما فيها العراق فمفتوحة من جميع جوانبها ، ولم يكن ذلك ليمر دون أن يترك بصماته على واقع الحياة في الإقليمين وعلى مزاج السكان وتوجهاتهم .

2 - الموقع والطرق الدولية :

إن الموقع الذي شغلته الأرض العربية منذ القدم كان له تأثير كبير على تاريخها على مر العصور . فالموقع الاستراتيجي العظيم كحلقة اتصال بين القارات التاريخية الثلاث كان أحد العوامل التي بوأها أهمية خاصة في تاريخ الحضارة العالمية ، كما أنه جعل قسما منها هو سوريا ، معرضا للأخطار والغزوات من جميع الجهات .

فبسبب اتصال سوريا بصورة دائمة وسهلة بالعالم الخارجي بواسطة الطريق الدولي العظيم جعلها أكثر مناطق العالم قاطبة تعرضا للأخطار طيلة فترة تاريخها الطويل .

وهذا الطريق الدولي يمكن تتبعه من مبدأه في دلتا النيل وعلى ساحل سيناء حيث يتفرع إلى مناجم النحاس والفيروز في شبه الجزيرة ، كما يتفرع إلى أراضي البخور في جنوبي شبه جزيرة العرب ، ومن سيناء يتحول الطريق شمالا نحو ساحل فلسطين حتى الكرمل على مسافة من البحر ، هنا يتفرغ إلى طريقين يتجه الواحد إلى الساحل فيصل صور وصيدا وجبيل وسائر الموانئ السورية ، ويسير الآخر إلى الداخل فيختار السهل ويعبر الأردن في واديه الشمالي، ثم يتجه رأسا إلى دمشق في الشمال الشرقي ، ويتفرع من هنا طريق يعبر بادية الشام بواسطة تدمر ويربط مركز سوريا مع قلب العراق الذي تمثله بالتالي بابل والمداين وبغداد ، أما الطريق الرئيسي فإنه يتجه من دمشق نحو الغرب ، ويعبر لبنان الشرقي بواسطة ممر الزبداني ، ويصعد شمالا عبر سوريا المخوفة متبعا لنهر العاصي إلى شمال سوريا ، ويتفرع في سيره باتجاه الغرب ليتصل بالبحر المتوسط بواسطة وادي النهر الكبير ، وتتبع السكة الحديد اليوم هذا الطريق نفسه ، وبعد أن يتفرع في شمال سوريا إلى البحر بطريق الأبواب السورية في جبل أمانوس ، ويتفرع أيضا إلى الشمال الغربي بطريق الجسر السوري نحو الفرات ، ومن هنا نحو الدجلة وجنوبا إلى الخليج العربي .

أما الميزة التي وفرها الموقع على أهم البحار التي تتوسط العالم القديم (الخليج العربي ، وبحر العرب ، والمحيط الهندي ، والبحر الأحمر ، والبحر المتوسط) فقد جعلهم يسيطرون على الطرق الدولية التجارية البرية والبحرية معا من الهند والشرق الأقصى من

جهة ، إلى عالم البحر المتوسط والغرب من جهة أخرى ، ومن أواسط غربي آسيا إلى أفريقيا ، فكانت السفن تنقل البضائع من الهند والشرق الأقصى إلى الخليج أو اليمن لتسير بعدها في قوافل تسلك الطرق جنوب الجزيرة وغربها إلى الشام ، أو من الخليج العربي إلى الشام على الفرات ثم عبر بادية الشام ، أو عبر وادي الرمة إلى تيماء أو دومة الجندل إلى الشام .

ولقد أدت هذه الطرق التجارية الدولية إلى تنامي الشعور القومي عند تلك الجماعات وتعرفها على مناطق انتشار أصولها وفروعها على امتداد الأرض ، كما حافظ على وحدة اللغة ولو ضمن لهجاتها المتعددة ، مما رسخ الشعور بالانتماء إلى أصل واحد أيضا . وهكذا ، فإن تنوع البيئة والتضاريس والمناخ والمواقع لم يكن ليستطيع إلا أن يحقق تنوعا في أنماط العيش ، ونشاطات السكان ، وأشكال الدول التي أقاموها ، وفي بعض مظاهر الحضارة أيضا ، وخاصة أن مسافات شاسعة كانت تفصل كل منطقة نشاط حضاري عن الأخرى ، وتحتاج من أجل الحفاظ على جميع أطراف المناطق كلها والدفاع عنها جميعا ضد كل الغزوات الكثيرة ، إلى جهود جبارة لم تكن لتتوفر إلا في فترات نهوض معينة ومتباعدة .

لقد ملأت الجماعات العربية القديمة ذلك العالم المتنوع ، موطنها الأصلي، بشتى أنواع نشاطاتها من حياة الرعي المتنقلة إلى الحياة الزراعية المستقرة والمتقدمة ، إلى التجارة البرية والبحرية المزدهرة ، إلى صناعة التعدين .

وإن ذلك التنوع نفسه ، وذلك التآرجح الدائم ، بين دولة مركزية قوية وبين عدة دول وكيانات ، كان من السمات المميزة لتاريخ الشعب العربي وللوطن العربي على مر العصور . وإن ذلك لم يكن لينفي إطلاقا وحدة هذا الشعب الروحية في أية فترة من تاريخه ، بل إن سعيه الدائب والمتواصل إلى بناء دولته الموحدة المركزية القوية ، ونجاحه في ذلك في كثير من الأحيان كان في حد ذاته برهانا قاطعا على أن تلك الوحدة تعيش في مشاعره منذ أقدم العصور .

3 - المؤرخون وفكرة الأرض العربية والشعب العربي :

لقد بدأ المؤرخون في الغرب يهتمون بتاريخ المنطقة العربية في وقت متأخر نسبيا وكانوا قد درسوا اليونان بكل تفاصيلها واعتبروها مرصعة الحضارة للعالم بأسره . ولما بدأت بعثات التنقيب والاستكشاف الأثرية أعمالها في زمن السيطرة الاستعمارية الإنكليزية والفرنسية على المنطقة ، وحققت ما حققته من النتائج المذهلة التي فتحت عيون العالم على حقائق جديدة كان لابد أن تطوى بها صفحات كاملة من تاريخ البشرية وتكتب صفحات جديدة بديلة بدأت أنظار العلماء والمؤرخين جميعا تتجه وجهة واحدة صوب المنطقة العربية .

وبالرغم مما قدمته تلك البعثات من خدمات جلى لمن يريد أن يتصدى من مؤرخينا لدراسة هذا التاريخ بتوفير المواد والأدلة المادية على قدم وغنى وتنوع حضارتنا ، وسبقها لحضارات الشعوب الأخرى فإنها — أي تلك البعثات — قدمت تلك المكتشفات في صيغ تاريخية مغلوبة .

1— فهي أولا ، لم تتمكن من فهم الوحدة الحضارية للمنطقة ، فأخذت تطلق عليها أسماء ومصطلحات لا تتناسب مع شيء إلا مع الرقعة الضيقة التي تمت فيها عمليات التنقيب والكشف ، ومع واقع التسلط الاستعماري القائم آنذاك الذي لا يجهل بالطبع أن من مصلحته عدم إيقاظ المشاعر القومية وأحاسيس الوحدة القومية الحضارية لدى السكان ، فطلعت علينا بمسميات كـ " ما بين النهرين " والشعوب السامية ، واللغات السامية ، واللال الخصب ، والشرق الأدنى ، والشرق الأوسط وغيرها .

2 — درج هؤلاء الباحثون على فصل منطقة الجزيرة العربية ، واعتبروها وطنا للعرب الساميين ، عن منطقة " اللال الخصب " التي تشمل العراق وسوريا الطبيعية وحتى أواسط مصر ، واعتبروا هذه الأخيرة هدفا دائما للهجرات السامية الكبيرة المتعاقبة المنطلقة من بادية الجزيرة العربية لتتخذ شكل غزوات وفنوحات واغتصاب للأرض .

3 — وعلى هذا فإن ما أطلقوا عليه اسم دول أكادية ، وبابلية ، وآشورية ، وكلدانية وكنعانية ، وآرامية ، ومصرية إنما كانت ، في مثل تصورات أولئك الباحثين ، تظهر

وكأنها خلقت فجأة ، بشكل غزوات بدوية ، وسرعان ما تسيطر على مقدرات الأقوام الذين يشغلون الأرض وتتغلب عليهم لتأخذ منهم حضارتهم وتمثلها وتستوعبها ، كما تفرض لغتها على المنطقة لتتابع الدورة الحضارية التي كانت قد بدأها الأقوام المغلوبة ، كل ذلك هكذا ويمثل هذا البساطة ، بما فيه من منافاة للعلم ، وجهل بقوانين تطور المجتمع .

فما هي حقيقة تلك " الهجرات " أو " النزوحات السامية " إذن ؟

قبل الإجابة عن السؤال لابد من ملاحظة الأمور التالية :

أولا ، لقد بدأ الباحثون التعرف على حضارتنا القديمة في فترة متأخرة جدا ومنذ مطلع هذا القرن عن طريق المكتشفات الأثرية التي أسفرت عنها جهود البعثات الاستكشافية . ثانيا ، بدأت دراساتهم للمنطقة تتطور مع تطور المكتشفات الأثرية وتتسع مع اتساعها دون أن يتمكنوا من وضع تصور تاريخي عام لذلك الشعب ، أو أنهم لم يريدوا وضع مثل ذلك التصور ، أو أن السلطات الاستعمارية القائمة على المنطقة آنذاك لم تسوغ لهم ذلك ، ثم يعملون على إثبات أو دحض ذلك التصور — الفرضية من خلال متابعتهم لعمليات الاستكشاف كما هي الحال في بقية العلوم الأخرى .

ثالثا ، إن ذلك أخذ يوقعهم في سلسلة من التناقضات لا نهاية لها ، ذلك أنهم كانوا يضطرون في كل مرة إلى أن يغيروا النتائج والأحكام التي كانوا قد وضعوها من قبل .

رابعا ، ونحن سوف نتبع آثار أولئك الباحثين الذي انطلقوا في البداية من جعل كل منطقة حضارية أثرية منطقة حضارية مستقلة لشعب مختلف فأطلقوا أسماء المناطق التي تجري فيها أعمال الحفر على الحضارات ، ثم ألصقوا تلك الحضارات بأسماء المدن الحضارية المكتشفة ثم أطلقوا أسماء المدن على أسماء الشعوب ، مع الاحتفاظ بالتأكيد على وجود الاختلافات والفروق الجوهرية فيما بينها ، ثم جعلوا تلك الشعوب جميعا تنحدر من أصل لغوي واحد هو " السامي " ، وذلك بعد اكتشاف الرقم التي دونت عليها النصوص القديمة ، ثم ما لبث بعضهم أخيرا أن اعترف بأن هذه التسمية " الشعوب السامية " ما هي إلا تسمية حديثة فرضت على الماضي نتيجة لدونات التوراة العشائرية ،

ثم أخذ بعضهم يقرّ بأن جميع تلك الشعوب التي أطلقوا عليها هذه التسمية إنما ترجع إلى أصل واحد ، وبالتالي فإن جميع تلك " الشعوب السامية " إنما هي شعوب شقيقة تنحدر من أرومة واحدة هي الأرومة العربية ، كان موطنها الأصلي شبه جزيرة العرب وما يحيط بها من الهلال الخصيب .

خامساً ، إن الطريق التي سلكوها في " نسخ الحقائق " مع تقدم مكتشفاتهم تثبت في النهاية شيئاً واحداً هو أن العرب وحدهم هم الذين شغلوا هذه الأرض التي نطلق عليها اليوم اسم الوطن العربي منذ أقدم الأزمنة المعروفة ، وإن كل شعب آخر كان يشغلها إنما كان يشغلها بصورة الاستثناء الطارئ ، لا بصورة القاعدة الدائمة ، والدليل هو انتصار العنصر العربي في كل المرات ، وانحسار كل وجود طارئ أو دخيل ، أو ذوبانه في الشعب الأصيل فلقد سلك العلماء طريقاً عجيباً في دراسة المنطقة العربية بالفعل دون أن يتمكنوا من استخلاص النتائج الكبيرة العامة التي تستوعب ظاهرات كل تلك المكتشفات الحضارية المتكاملة ، فهم ما أن يؤكدوا مرة أن الحضارة " السامية " تعود إلى ألفي عام قبل الميلاد نتيجة لاكتشافات معينة حتى يعودوا بعد فترة ونتيجة لاكتشافات أخرى ليرجعوا بتلك الحضارة إلى ثلاثة آلاف عام قبل الميلاد ، ثم إلى أربعة آلاف عام قبل الميلاد ، ثم إلى خمسة آلاف عام قبل الميلاد ، ثم ما يلبثون أن يؤكدوا أن المنطقة هي أول منطقة في العالم عرفت الاستقرار الزراعي وبناء البيوت ... ثم يجزمون بأن وجود الإنسان في منطقة الهلال الخصيب يعود إلى ما قبل 150 ألف عام .

يقول فيليب حتي : " إن أقدم قطع الفحم المكتشفة حتى الآن قد أتت من إحدى الطبقات الدنيا في كهف من كهوف الكرمل (مغارة الطابون) وترجع إلى نهاية الدور الأول للعصر البايوليثي أي نحو (150 ألف عام) ، وهناك قطع أخرى ترجع إلى الدور الأخير من العصر الحجري القديم (الدور الأورغناسي) وقد اكتشفت في كهف مجاور (مغارة الوادي قرب الطرف الغربي للكرمل) وتشير في تركيبها إلى نماذج السنديان والطرفاء والزيتون والكرمة ، ويبدو أن الإنسان البدائي في تدرجه البطيء الشاق من

المستوى العقلي المنخفض قد عثر صدفه لا قصدا على اكتشافات أعطته بعض التفوق وأثرت على قدرته الكامنة على الاختراع وزادتها قوة ، ومن أقدم هذه الاكتشافات اكتشافات النار " (1)

ونحن هنا نذكر بما يلي :

1— إن كل شعب ، مثله مثل أي ظاهرة أخرى في هذا العالم ، لا يمكن أن يوجد فجأة ، إنما يعبر عن وجوده التاريخي في حقبات الازدهار عندما ينشط عسكريا وسياسيا وحضاريا ، وفي حقبات الانحطاط يدخل ظلمات التاريخ ، فيكون الميت الحي ، وقملمه كتابات الشعوب المتحضرة . وبما أن الإنسان كان في الهلال الخصيب من 150 ألف عام دون أن يعطي هوية حيث لم تكن قد اخترعت الكتابة بعد ، أفليس بالأحرى أن يكون العرب (أو من أسموهم بالساميين) امتدادا طبيعيا ومنطقيا لتلك الشعوب القديمة اتضحت لنا هويتهم اللغوية فقط بعد بدء الكتابة ؟

2 — ثم ألا تدل عملية ذوبان تلك الأقوام الأخرى في هذا الشعب أو انحسار وجودها نهائيا عن المنطقة ، على أن الوجود الغالب والمتغلب إنما هو للعرب ، وأن وجودهم كان هو القاعدة ، ووجود غيرهم من قبائل وأقوام وشعوب غازية من الزمن القديم هو الطارئ هو الاستثناء ؟

3 — لقد أكد علم التاريخ الحديث وأكدت المادية التاريخية ، أن الشعوب لا توجد بشكل طفرات تخلق من عدم وتقوم فجأة على فراغ ، وإنما تأتي نتيجة لعملية تاريخية طويلة تستغرق فيها أزمانا ومراحل متعاقبة ، وتستنفد فيها أشكالا اجتماعية ، وتطوي نظما وأعرافا ومعارف بما قد لا يمكن رصده إلا في خطوط سيره العريضة وصولا إلى الشعب ، ولذلك فإنه من الواجب القول إن الشعب (الأكادي مثلا) الذي اكتشف الباحثون أن حضارته تعود إلى الألف الرابع قبل الميلاد لم ينشق فجأة من تحت الأرض ، ولم يهبط فجأة من السماء ولم يقيم على فراغ ، وإنما كان في أفضل التصورات المنسجمة

(1) انظر فيليب حتي " تاريخ سوريا ومن ضمنها لبنان وفلسطين " الجزء الأول ، ص 31 .

مع التحليل العلمي والموضوعي للتاريخ ، حالة من حالات التوهج لواقع الشعب العربي الموجود أصلاً في تلك المنطقة منذ أقدم العصور .

4 — إن القول بقدم ذلك الشعب من شبه جزيرة العرب بشكل هجرة أو نزوح بدوي ليستوطن المنطقة وليقيم حضارته عليها في الوقت نفسه ، مناقض لروح العلم والمنطق وما مليء بالثغرات . فمن هو الشعب إذن الذي كان يشغل تلك المنطقة من قبل ، وما هي هويته ؟ ثم أي علم ذاك الذي يتقبل مثل هذا التصور : جماعة كبيرة من البدو الرحل تغزو أرضاً ، تستقر بها وتنتج أعظم الحضارات ، فمتى كان البدوي ينتج الحضارة ، أو ينتجها فجأة ، أو ينتجها فور استقراره ؟ إن عملية الحضارة عملية معقدة هي الأخرى ، مثلها مثل كل الظواهر الاجتماعية الأخرى ، وهي أيضاً نتيجة لعملية تاريخية طويلة بعد الاستقرار ، ولا يمكن أن تتم في مثل تلك الصورة البسيطة والمبسطة .

5 — إذا كان ثمة من يقول بأن وجود السومريين دليل على وجود ذلك الشعب الآخر من غير العرب في المنطقة قبل قدوم العرب ، وإن العرب فعلاً جاؤوا كقوم غزاة من البادية ، فتغلبوا على السومريين ، وأخذوا منهم حضارتهم الرفيعة المدهشة ، وأقاموا دولتهم الأولى التي سميت بالدولة الأكادية فيما بعد ، أعود فأقول : إذا كان ثمة من ما يزال يقول بمثل ذلك فإن هذا لا يدل على شيء إلا على جهل القائلين به .

لقد قلنا إن من الأخطاء الفادحة للباحثين في دراستهم للمنطقة الأسلوب العدائي الذي اتبعوه سلفاً والذي كان يتحرك جنباً إلى جنب مع الآثار المكتشفة ، فصار نوعاً متسارعاً من " الناسخ والمنسوخ " في علم التاريخ . فهم حينما اكتشفوا ما دعوه الحضارة السومرية واللغة السومرية ظنوا أنهم وضعوا أيديهم على المفتاح السحري لحل اللغز القائم في المنطقة قبل " الشعوب السامية " وهتف كريمر هتافه الشهير " العالم يبدأ من سومر " وجعله عنواناً لمؤلفه الكبير .

فما أن بدأت المكتشفات الآثارية تظهر للقي وبعض التماثيل السومرية حتى صاح العلماء وكأنما بفرحة : " إنها ذات تقاطيع لا تشبه الساميين وإن لهم لغتهم الخاصة " لكن تلك التفاصيل المعدودة لم تكن لتقدر على أن تشير وحدها إلى الحقيقة بمثل هذه

القوة ، إذ من المعروف أن نقاوة العرق خرافة أكثر منها حقيقة في كل بقعة من بقاع هذا العالم المترامي وخاصة منطقة سوريا الممتدة من الخليج العربي إلى المتوسط التي كانت ، وما تزال ، قلب العالم ، ومركزه ، وممره ، حتى كاد تاريخها يتحول إلى سلسلة من المعارك الطاحنة بينها وبين الأقوام والشعوب والأمم الغازية التي لم تنقطع .

ثم إن السومريين كانوا مجموعة من المدن — الدول المستقلة الواحدة عن الأخرى ، وبالتالي فإن ما قد يكتشف في هذه المدينة من ملامح هذا الحاكم أو ذاك قد لا يصح تعميمه على باقي المدن انتروبولوجيا ، ولو صح في مظاهر العيش والحضارة الأخرى .

فقد يختلف الحكام بين المحليين والغزاة بينما يبقى الشعب واحدا وإن التماثيل النادرة بوجه عام لم تكن تصنع في أي وقت لجماهير السكان أو لعينات منها بل للحاكم أو الحكام ، سواء أكانوا من الشعب الأصيل أو من الغزاة المحتلين .

إن السومريين هم السكان العرب الأصليون كما يدل عليهم اسمهم⁽¹⁾ (سوف نتناول بحث السومريين لاحقا وبالتفصيل) وإذا كان ثمة عنصر طارئ وغريب في تلك المرحلة فليس بالسومري ، بل هو الذي لم يعثر له المؤرخون على هوية حقيقية لأصله بعد ، لكنه ، أيا كان ، فقد كان هو البدائي المتخلف الذي ينخرط بعضه إبان كل غزو في خضم الحياة العربية ، ثم ما يلبث أن يتلاشى خارجا أو يذوب داخلا في غمرة هذا الوجود المتعاضم في مرحلة تالية دون أن يترك وراءه أي أثر يدل عليه .

4 — "الصجرات السامية"

أشرنا إلى أن تنوع تضاريس ومناخ الأرض العربية وموقعها الاستراتيجي الفريد المتوسط على أهم طرق التجارة الدولية كان لابد من أن تنعكس على أنماط معيشة السكان في الرعي والزراعة والتجارة والصناعة ، وفي تمايز هذه الأنماط من البادية ، إلى الواحات ، إلى القرى والتجمعات الزراعية الكبيرة إلى المدن — المحطات على الطرق التجارية

(1) سومر تعني في اللغة العربية ظل القمر، ومنها اشتقت: أسمر، وسمرة، وسامر، والسمر : أي السهر في ضوء القمر ، أما الأصل العربي القديم للكلمة فهو " شومر " ويعني في القاموس السرياني: المخلص، المنقذ، الشجاع، ثم جرى الإبدال الشائع بين السين والشين .

الدولية ، إلى المراكز التجارية المزدهرة على شواطئ البحر المتوسط وبحر العرب والخليج العربي .

وذكرنا كيف أن أولئك السكان الذين أطلق عليهم المؤرخون أسماء مناطقهم أولاً ، ثم " الشعوب السامية " ثم أطلق بعضهم اسم " العربية " عليها ، كانوا يشغلون تلك الرقعة الجغرافية الفريدة من نوعها طيلة الفترة التاريخية المعروفة للعالم حتى يومنا هذا . وتطرقنا إلى أن هذه التسمية " الهجرات السامية " لا تمت إلى منطقتي القرن العشرين ولا إلى العلم بصله ، فما هي حقيقة هذه التي أسموها بـ "الهجرات السامية " إذن ؟ لقد درج الباحثون والدارسون على الحديث عن " هجرات سامية " متتالية من شبه جزيرة العرب إلى منطقة ما دعي بـ " الهلال الخصيب " الممتد من الخليج العربي في أحد طرفيه إلى دلتا النيل في الطرف الآخر ، وقد عمدوا إلى تحديد تلك الهجرات الكبيرة وأزمان حدوثها معتمدين فيها جميعاً على شكل الطفرة السكانية المتكررة خلال فترات زمنية معينة ومقاربة . فلقد أجمعوا تقريباً على أنه في حوالي 3500 ق.م اتجهت " هجرة سامية " من شبه جزيرة العرب نحو الشمال الشرقي ، وزعت أفرادها الرحل بين السكان (السومريين) في بلاد الرافدين الذين كانوا مستقرين منذ أكثر من ألف عام ، وعلى جانب رفيع من الحضارة ، وبذلك شكلت الدولة الأكادية التي عرفت فيما بعد بالبابلية ، وسادت اللغة السامية التي جعلوها معهم وأصبحت الوساطة التي عبرت بها حضارة الفرات عن نفسها خلال أجيال عديدة .

" بعد الهجرة الأولى بنحو ألف سنة حصلت هجرة أخرى من البادية وأتت بالأموريين وزرعتهم في سهول سوريا الشمالية ، وشملت هذه " الهجرة " الشعب الذي احتل فيما بعد السهل الساحلي وسمى نفسه بالكنعانيين وأطلق عليهم اليونان الذين تاجروا معهم اسم الفينيقيين "

" وبين 1500 و 1200 ق.م خرجت جماعات أخرى من بلاد العرب فدخل الآراميون سوريا المخوفة ومنطقة دمشق "

" وحوالي 500 ق.م أدت هجرة جديدة من بلاد العرب إلى استقرار الأنباط شمالي

شرقي شبه جزيرة سيناء ، حيث كانت عاصمتهم البتراء ، وبلغت درجة رفاعة مدهشة من الحضارة ، حتى في ظلال الاحتلال الروماني "

" وكان آخر اندفاع من شبه جزيرة العرب على مقياس واسع ذلك الذي حصل في القرن السابع الميلادي تحت راية الإسلام ، وانتشر هذا السيل ليس إلى سوريا فحسب ، بل شمل مناطق الهلال الخصيب ، ومصر ، شمالي أفريقيا ، وفارس ، واندفع حتى في أسبانيا وبعض أجزاء آسيا الوسطى. وهذه الهجرة الأخيرة اعتمدها الكثير من الباحثين في دراسة الهجرات التي سبقتها حتى بالشكل الذي تمت به اعتمادا على حقائق أخرى لا جدال فيها ، وهي أن شبه جزيرة العرب هي الموطن الأصلي للساميين ، وأن اللغة العربية هي أكثر اللهجات السامية تشابها باللغة السامية الأم ، وأن سكان شبه جزيرة العرب ، وخاصة سكان البادية قد احتفظوا بأنقى الصفات السامية ⁽¹⁾.

لقد اخترنا هذا النص بالذات لما فيه من عناصر جامعة لمجمل التصورات السائدة لدى قسم كبير من المؤرخين والدارسين ، وناقلي المعلومات عن هؤلاء وأولئك* فكما نلاحظ ، فإن عملية سكانية ، حسب هذا التقرير التاريخي ، تحدث مرة كل ألف عام ، إذ تقوم جماعة كبيرة من البدو الرحل ، فتحزم أمتعتها وتسوق مواشيها ، وتنطلق من شبه جزيرة العرب باتجاه الشمال ، إلى منطقة الهلال الخصيب ، فتتنزل كيفما اتفق (أو لم يتفق لا ندري !) في هذه البقعة أو تلك ، سرعان ما تسيطر عليها وعلى الشعب الذي يشغلها ، فتفرض لغتها ، وتقيم دولتها وتبدأ عطاءها الحضاري الفريد .

إن في مثل هذا التصور من السذاجة ما يذهل ، ونستغرب كيف أن أحدا من المؤرخين العرب لم يحشم نفسه عناء التوقف عنده ، فهو :

1 — لم يتطرق إلى الحديث عن زمن ما قبل "الهجرة" المزعومة من شبه جزيرة العرب ، ولو أن المؤرخين ، وفي أماكن أخرى ، لا ينسون أن يدعموا ذلك القول بالسبب الذي كان يدفع السكان إلى الهجرة ، وهو الجفاف ، فكيف يمكن أن يحدث مثل ذلك التجمع القبلي البدوي الهائل مثل ذلك الدوي الحضاري فور وصوله إلى منطقة

(1) فيليب حتي " تاريخ سوريا ومن ضمنها لبنان وفلسطين الجزء 1 ص 67 .
• انظر : الدكتور نبيه عاقل " تاريخ العرب القديم وعصر الرسول " ، ص 15 .

الهلال الخصيب ، دون أن نسمع بذكره في مكان وجوده السابق ، وعلى طريق هجرته.

كيف تحدث مثل تلك المفاجأة — الزلزال التي لم تخضع لقانون غير "قانون" الجفاف ؟

2 — ثم أي جفاف ذلك الذي كان يختفي طيلة ألف عام ، ثم يظهر فجأة ويدفع بموجة أخرى من قلب الجزيرة العربية إلى منطقة الهلال الخصيب لإقامة صرحها الحضاري من جديد ؟

3 — لقد حافظ هذا التصور على خط الاتجاه الثابت الذي كانت تسلكه تلك "الهجرات" في طريق نزوحها من الجنوب إلى الشمال ، وليس في تاريخ حركات بدو المنطقة أو حضرها مثل ذلك الخط الثابت في الاتجاه طيلة تاريخها .

4 — إن أصحاب ذلك التصور ظلوا يتغافلون عمدا عن إثارة مسألة هوية السكان الذين كانوا يشغلون منطقة "الهلال الخصيب" قبل بدء "الهجرة" الأولى أي قبل 3500 سنة ق.م ، لكنهم حينما ظهرت مكتشفات العهد السومري عادوا بنا للحديث عن السومريين ، واعتبروا أن ليس ثمة علاقة تربطهم بالساميين ، وأنهم هم السكان الأصليون للمنطقة ، ثم لما تبينت الملامح "السامية" في العهد السومري أخذوا يتحدثون عن الشعب الخليط من الساميين والسومريين ، ثم ظهرت المكتشفات الجديدة في منطقة الدجلة تبين أن وجود "الساميين" كان سابقا للمرحلة السومرية بزمان طويل ، وهكذا نرى كيف تنسحب حلقات السلسلة .

5 — إن هذه الأحكام الساذجة أو المتسرعة ، والمغرضة أحيانا ، (إذ تجعل دائما ربط العرب بالبداءة وبشبه جزيرة العرب ، ومنطقة الهلال الخصيب ومصر بسكان آخرين حضاريين لا تكل عن البحث عنهم دون جدوى) تسقط في تناقضات كثيرة . فهي تقدم لنا أولئك البدو الرعاة الرحل الهاربين من شح الطبيعة يبدأون منذ سيطرتهم على البلاد دورة حضارية متكاملة متناسين أن البدوي لا ينتج حضارة قبل الاستقرار ، وأن الاستقرار عملية طويلة ومعقدة بكل جوانبها الاقتصادية والاجتماعية والثقافية والنفسية ، ولا تتم بين ليلة وأخرى ، وإذا صح أن أولئك البدو كانوا يقفون على درجة معينة من الحضارة منذ ييئتهم الأولى فكيف كان يتسنى لمثل هؤلاء البدو أن

يجعلوا حضارتهم وعسكريتهم هي المنتصرة دائماً في كل مرة وهي الباقية ، مع العلم أن القانون العلمي يؤكد على أن الأقوام الطارئة ، مهما كانت درجة قوتها وتطورها وحجمها البشري ، إنما هي التي تنحسر دائماً ويبقى الشعب الأصيل .

6 — إن علم الجغرافيا والمناخ يؤكدان أن الجفاف — كظاهرة طبيعية — لا يمكن أن يحدث فجأة ، وهو لما ضرب منطقة شبه الجزيرة العربية ، كما يحلو للكثيرين أن يؤكدوا ، لم يضرها بغتة ، بل كان ذلك يجري في عملية بطيئة طويلة استغرقت آلاف السنين .

7 — وإذا كانت عملية الجفاف قد استغرقت مثل هذا الزمن الطويل ، فإنه لمن الطبيعي جداً أن يكون تكيف الأرض وتغيرها بكل ما فيها من تربة ومياه وحيوان ونبات ، كان هو الآخر يتم تدريجياً ، ثم إن ذلك كله كان لابد وأن ينعكس وبالتوازي في الزمن أيضاً ، على الإنسان نفسه طيلة تلك الآلاف من السنين كذلك .

8 — ومن هنا ، فالجفاف إذن لم يحدث فجأة ودفعة واحدة ، بل وصل ، وعبر تراكم كمي على مدى آلاف السنين ، إلى لحظة تحول نوعية أسمينها جفافاً بالنسبة لما كان يسود المنطقة قبل ذلك بزمان طويل . فالحقل الذي غاضت مياهه ، وجفت تربته ، وابتعدت السحب عن الوصول إليه ، وتقدمت إليه رمال الصحراء ، ونشفت عروق أشجارها وأصاها اليباس ، كان يخلو من ساكنيه ، أو زراعيه ، في عملية بطيئة وخفية وتدرجية ولا تلاحظ . إن تقلص السكان كان يتم بتقلص حجم الزرع والماء ، حتى غدا ذلك الزرع صفراً ، فغدا ذلك المكان قفراً ، فحدث بذلك التحول النوعي تنوياً لتراكم كمي بطيء وطويل . ومما يؤكد صحة وجهة نظرنا هذه هو أن عملية التقلص البطيئة هذه ما تزال سارية في شبه الجزيرة العربية ، وتدل التحريات على تلك التحولات البطيئة التي أصابت المنطقة ، أن ثمة ودياناً لم يمض على غيابها وقت طويل ، كما أن ودياناً أخرى كانت قد ذكرت في التاريخ اليوناني والروماني ، وهنالك وديان الآن ، وينابيع ، وأنهار ، غائصة تحت الرمال ، فالعملية البطيئة ما تزال على استمراريتها حتى يومنا هذا .

لقد تمكن العلماء من تحديد أربع دورات جليدية تفصل بينها دورات دفيئة ، وقد أطلقوا عليها الأسماء الأربعة التالية :

1 — دورة جليد جتر(?)

2 — دورة جليد مندل 430000 — 370000 ق.م

الدورة الدفيئة الأولى 370000 — 130000 ق.م

3 — دورة جليد ريس 130000 — 100000 ق.م

الدورة الدفيئة الثانية 100000 — 4000 ق.م

4 — دورة جليد فورم 4000 — 14000 ق.م

هذا مع العلم أن التحول من الدورات الجليدية إلى الدوائر الدفيئة وبالعكس كان يتم بصورة بطيئة وتدرجية بصورة لا تكاد تلاحظ ، إذ كان الجليد يستغرق مثل هذا الزمن الطويل في تحركه نحو الجنوب أو تقلصه باتجاه الشمال .

ولقد جاء في النصوص القديمة ما يدل فعلا على أن جزيرة العرب كانت من مناطق الغابات المكتظة بالأشجار ، فكانت جبال الطائف تمون مكة بالأحشاش الصالحة للبناء والوقود ، كما أن المنطقة الواقعة بين العلا و " معون " أو " معان " من المناطق الصحراوية في الوقت الحاضر في أراضي ثمود قديما قد كانت من مناطق الغابات المكتظة بالأشجار ، وكانت مملوءة بالحيوانات المفترسة ، وكذلك المنطقة بين مكة وعرفة حتى القرن السادس عشر الميلادي مغطاة بالأشجار والعوسج والسلم ، حتى أن اللصوص كانوا يتخذونها مخابئ يهاجمون منها القوافل ، ذلك ما أورده كثير من المؤرخين ، كما أورده الدكتور أحمد سوسة في كتابه "مفصل العرب واليهود في التاريخ" وذكر بالإضافة إلى ذلك اكتشاف بقايا بحيرة في الربع الخالي عند منخفض (ابو بحر) ، كما لا تزال بقايا بحيرات مليئة بالمياه في بعض المناطق الصحراوية من الجزيرة العربية ، ففي منطقة الخرج عدة بحيرات في وسط الصحراء تستغل الحكومة السعودية مياهها في الوقت الحاضر لزراعة الأراضي المجاورة ، وتقع منطقة الخرج جنوب شرقي الرياض ، وتوجد فيها خمس بحيرات منها أربع بحيرات إلى الجنوب من اليمامة ، أما الخامسة فتقع في

الأراضي الصحراوية الواقعة إلى الجنوب من منطقة الخرج على بعد زهاء مائة كيلو متر منها وتسمى " خفس دغري " وأهم هذه البحيرات ثلاث تبلغ مساحة كل منها أكثر من أربعة آلاف متر مربع ، أما عمق الماء فيها فيناهر أربعمائة قدم ، وتتصل هذه البحيرات بعضها ببعض عن طريق مجاري المياه الجوفية .

أما الدكتور جواد علي الذي قام بدراسات مستفيضة في تاريخ العرب قبل الإسلام فيقول : " وتدل آثار السدود والنواظم التي ترجع إلى ما قبل الإسلام على أن العرب كان لهم علم واسع بتنظيم فن الارواء والاستفادة من مياه الأمطار والسيول والأنهار ، وتدل كثرة المصطلحات في اللهجات العربية الشمالية والجنوبية على معرفة القوم بأنواع الآبار والسدود والمسالك والنحيات ، وغير ذلك من الوسائل التي استخدمت للحصول على الماء ، وقد عثر رجال شركة النفط العربية السعودية الأمريكية حديثاً على صهاريج أرضية متصلة بعضها ببعض بأنفاق ، وعليها فتحات من مواضع متعددة لاستقاء الماء منها ، عثروا عليها في القطيف والاحساء وفي الفلج وأواسط نجد وأماكن أخرى تعد اليوم من المناطق الصحراوية ، كما وجدوا على مقربة منها آثار قرى كانت عامرة ومزارع واسعة ، ولم يكن يعرف العلماء سابقاً أن أواسط شبه جزيرة العرب والأقسام الشرقية منها كانت تستخدم هذا النوع من نظم الري ، بل كان المعروف أن الصهاريج المربوطة بأنفاق إنما كانت تستخدم في الشام وفلسطين وإيران والأقسام الشمالية من العراق .

وفي البحرين اكتشف العلماء عدداً من مواد الصخور قدر بعض الباحثين أن عمرها يتراوح بين عشرة آلاف واثني عشر ألف سنة ، وهي ترجع إلى أواخر أيام الرعي وابتداء عهد الاستيطان والاستقرار والاشتغال بالزراعة ، كما أن ساحل الخليج كان مزدحماً بالسكان في العصور البرونزية أي حوالي 3000 — 2500 ق.م .

أما المنطقة الجنوبية والجنوبية الغربية من عمان إلى اليمن وهامة فأمر خصوبتها معروف حتى وقتنا الحاضر .

مما تقدم نريد أن نؤكد :

أن شبه جزيرة العرب كانت في فترة من تاريخها ذات مناخ معتدل وتوزع فيها المناطق الزراعية والواحات والسهوب والصحاري كما تتوزع في باقي أقاليم المنطقة من العراق إلى سوريا إلى مصر ، وهذا التوزع في المناطق المناخية كان يفرض حركة معينة للسكان الذين بدأ يشدهم الاستقرار والعمل بالأرض ، وينتزعهم من حياة الرعي والتنقل ، بينما بقي الآخرون ينتقلون في كل الاتجاهات . فهم يدورون حول المناطق المزروعة ، ويملاؤن بحركتهم باقي الفراغ — المرج . أو السهب ، أو البادية . ولما كانت شبه الجزيرة العربية لا تخلو من الأثمار الكبرى ، كما ورد في الروايات اليونانية والرومانية القديمة ، فإن في وسعنا الافتراض بأن حركة أولئك السكان العرب كانت متشابهة في الجزيرة العربية والعراق وسوريا ومصر ، فهناك مراكز زراعية تمتص كل العناصر التي نضجت لديها إرادة الاستقرار ، وحركة دائمة محلية داخلية تدور مرة حول تلك المراكز ، ومرة أخرى تجوب المناطق كلها في دوائر أوسع من الجزيرة العربية ممتدة إلى العراق وسوريا ومصر .

ولقد كانت هذه الحركة تتصف بطابع الديمومة والاستمرارية في هذه الأقاليم جميعاً مما أكسبها طابعاً واحداً ، إذ إن الري والخصب والسهل والبادية كانت مراكز دفع وجذب لحركتها وفي كل الاتجاهات .

ثم لما بدأت تلحظ آثار تقدم الجفاف على المدى الطويل في شبه الجزيرة العربية جازاً معه لفحات الصحراء صوب الأراضي الزراعية والمراعي أخذ ينعكس ذلك على البؤر الزراعية المركزية الكثيرة ذات الدوائر الضيقة بالنسبة لحركات البدو فأخذت تقل تدريجياً لحساب الجولان الكبير في كل الاتجاهات .

إن جولان البدو الرحل يتحدد بالأمور التالية :

— قرب أو بعد المناطق الزراعية ، وبالتالي اتساع الفراغ الرعوي فيما بينها وهذا ما ندعوه بالجولان الصغير .

— قرب أو بعد المناطق الرعوية ، وبالتالي اتساع الفراغ الصحراوي فيما بينها وهذا ما ندعوه بالجولان الكبير .

— نوعية المواشي المحددة سلفاً بطبيعة مناطق الرعي والتي تحدد نوع الجولان وأمديته ،
فرعاة الأغنام يكون تحركهم بطيئاً ضيقاً وضمن مناطق المراعي القريبة نسبياً من بعضها
من ناحية ومن المناطق الزراعية والمدن من ناحية أخرى ، بينما يكون جولان رعاة الإبل
متميزاً بالأمدية البعيدة والواسعة مما جعلهم أقرب إلى التطور نحو ممارسة التجارة والنقل
منهم إلى ممارسة الزراعة والاستقرار ، بينما كان رعاة الشياه والأغنام من البدو أقرب
إلى الاستقرار الزراعي في تطورهم منه إلى أي اتجاه آخر .

إن هجرة لم تحدث بالمعنى الصحيح لهذه الكلمة : فتخرج موجة بشرية من مكان
لتحط رحالها في مكان آخر ، وإنما كانت العملية تأخذ منحى آخر يمكن أن نخده
خطوطه كما يلي :

• بؤر زراعية كثيرة ، جماعات مستقرة كثيرة حول الأنهار ومراكز المياه تتوزع بكثرة
في شبه الجزيرة العربية كما تتوزع في العراق وسوريا ومصر ، مع الاختلاف في شكل
التجمع الكبير أو الصغير وتوزع التجمعات فيما ينسجم مع توزع الأراضي الصالحة
للزراعة وللري .

• قبائل وجماعات بشرية رعوية تجوب ذلك " الفراغ الرعوي " — إذا صحت التسمية
— الذي يحيط بالمناطق الزراعية نسبياً والكثيرة عددياً ، في دوائر ضيقة ، ومن منطقة
زراعية — رعوية كبرى إلى أخرى مثلها (من الجزيرة إلى العراق أو سوريا أو مصر
مثلاً) في جولات أو دوائر واسعة .

• إن هذا الجولان الدائم المستمر دون انقطاع جعل تلك الجماعات المتحركة بمثابة
مستودع بشري متحرك وعلى تماس دائم ومباشر مع تخوم المناطق المستقرة ، مما أتاح
الفرصة دائماً لعملية " الارتشاح " الاجتماعية من خلال جدران تلك التخوم المتخلخلة
على الدوام ، بحيث تمتص منها كل العناصر التي نضجت فيها إرادة الاستقرار
والتخلي عن حياة الرعي والتنقل ، في عملية يومية تكاد لا تلاحظ ، سهلة حيناً ،
وصعبة عسيرة أحياناً أخرى ، نتيجة لما يخلقه اقتراب المواشي من الأراضي المزروعة من
تناقض أبدي بين البدوي والفلاح . فكما أن تلك الجماعات المتحركة تقوم بتغذية

المناطق المستقرة بعناصر جديدة ، فإن المناطق المستقرة تثابر على عملية امتصاص تلك العناصر وهضمها واستيعابها ببطء ودونما توقف .

• ليس هذا كل ما كان يحدث ضمن دوائر تحركات تلك الجماعات بالطبع . فلو تعمقنا في رصد هذه الظاهرة أكثر لوجدنا أشكالا أخرى من الحركة ضمن وحول البؤر الزراعية الصغيرة كان لها تأثيرها أيضا على مجمل الحركة .

فحينما أخذت الصحراء تزحف على المناطق الزراعية تدريجيا ، أخذت تحذف منها بعض البؤر الزراعية المستقرة لتلقي بها شيئا فشيئا بين أحضان البادية من جديد ، مما يتيح للمجتمعات الرعوية أن تسترد بعض ما فقدته من قبل لصالح الزراعة والاستقرار ، بينما يمكن أن نرى البعض الآخر ممن هجروا مزارعهم ، بعد أن ينسوا نهائيا من إمكانية إحيائها ، وقد توجهوا إلى مناطق زراعية جديدة دون أن يسلموا للعودة إلى البادية مرة أخرى ، مما يزيد من كثافة السكان في منطقة على حساب أخرى ، وأرث سعي التناقض القبلي وزاد في احتدامه وتفاقمه ، وهذا بدوره كان يخلق شعورا بضرورة التوجه إلى جمع شمل فروع القبيلة الواحدة ، ثم إلى تشكيل حلف بين القبائل المختلفة أو أحلاف ، فظهرت نتيجة لهذا كله أشكال جديدة من التجمعات البشرية في المنطقة الزراعية الدائمة الاستقرار بفضل ثبات العوامل كالأنهار أو ماء المطر دون أن تنقطع عملية " الارتشاح " البطيئة إلى جسم هذا التجمع أو ذاك .

• وهكذا ، فإن هذه الظاهرة التي دأب المؤرخون على تسميتها بـ " الهجرة " كانت تتم بعدة طرق ، بل وبكل الطرق ، إلا الطريقة التي صورت بها وغرست في الأذهان :

— كانت تتم ، وبصورة لا تنقطع ، عن طريق " الارتشاح " السكاني من المستودع البشري الرعوي المتحرك على التخوم ، وغير هذه التخوم — المسام ، إلى داخل جسم الجماعات المستقرة .

— كانت تتم عن طريق انتقال الجماعات الزراعية الصغيرة من منطقة زراعية أجديبت تدريجيا إلى منطقة زراعية أخرى أكثر ثباتا في الماء والمناخ . وهذا الانتقال كان إما أن

يتم سلميا ، ويفضل أن تنضم فروع القبائل الواحدة إلى بعضها ، لتتماسك في وحدة كبيرة في مستقرها الجديد ، أو أنه كان يكلف نزاعات دامية بين قبائل مختلفة يؤدي إلى تحالفات قبلية كبيرة، ثم إلى سيطرة تحالف من التحالفات على هذه المنطقة أو تلك ، فتكون عملية التغذية و الامتصاص قد أخذت في هذه الحال شكلا آخر أكثر سرعة وحسما في عملية تشكيل الجماعة من العملية البطيئة الرتيبة ضمن الظروف الاعتبارية .

● الصورة الآن أضحت على الشكل التالي :

منطقة الهلال الخصيب الممتدة من الخليج العربي ، إلى دجلة والفرات ، إلى الشاطئ السوري ، إلى دلتا النيل ، تعج بالأراضي الزراعية والأقوام المستقرة التي تضم عينات كثيرة من كل القبائل العربية المتحركة ودون توقف على التخوم الداخلية للهلال الخصيب ومنطقة جنوب وغرب شبه الجزيرة العربية ولاسيما اليمن ، أما ما تبقى من شبه الجزيرة العربية فقد أخذ يحدث فيه الجفاف تدريجيا تحويفا كبيرا يضم بعض البؤر الزراعية والواحات المتناثرة .

كل ذلك جعل حركة القبائل البدوية ترسم مجالات أوسع وأمدية أبعد ، كما صارت في حركتها الدائمة الملاصقة لجدار الهلال الخصيب وجنوب وغرب الجزيرة بمثابة وسادة بشرية مرنة ضمن ذلك الإطار .

ولما لم يكن — بطبيعة الحال — ذلك الجدار خطا مرسوما محددا أو سدا لا يمكن تجاوزه ، فقد كانت حركة تلك القبائل الرعوية المتنقلة تملأ كل المناطق والثغور و " الخللجان " والمنافذ الممكن التغلغل من خلالها إلى داخل جسم الهلال نفسه ، كلما لمست فراغا ، أو ضعفا لدى السكان المحليين المستقرين .

وإن هذه الحركة ذاتها أو جدت عوامل وظواهر وعلاقات جديدة كان لها أثرها الفاعل في قلب الأحداث الكبرى التي صارت تعم المنطقة :

أولا — إن حركة هذه " الوسادة البشرية " الدائمة على تماسها المباشر والمتغلغل مع الأقوام المستقرة الكبيرة والدول القائمة في كل من العراق وسوريا ومصر وجنوب الجزيرة العربية وفرت لها فرصة الإطلاع والتعرف والتعلم ، كما أتاحت لها إمكانية

تجميع خبرات ومعارف غنية وكبيرة كان لها شأنها اليومي في عملية التحول النوعية من حياة البداوة إلى حياة الاستقرار ، وذلك عبر فترة زمنية طويلة تستغرق عددا كبيرا من الأجيال المتوالية .

ثانيا — إن ذلك الوضع كان يوفر لها درجة كبيرة من الدراية اليومية بدرجة تحمل وصلابة وقوة ضغط هذا " الجدار " أمام أية اندفاعات من أجل الاستيلاء على المدن والأراضي ، أو لمعرفة مدى تحمل وتقبل واستيعاب عمليات استقرار كبيرة نسبيا جنبا إلى جنب مع السكان المحليين .

ثالثا — إن هذه الحركة الدائمة والدائبة كانت تجعل كل قبيلة تعرف مناطق ومواقع استقرار فروعها ، أو بطونها ، أو أفخاذها ، أو أصولها ، أو أية مجموعة تمت إليها بوشائج القرى ، فتعتمد إلى إعادة تمتين أو اصرها بها وتشد الواحدة من أزر الأخرى ، وتبقى على الصلة بها رغم كثرة التنقل واتساع أمدائه ، ثم لا تلبث الفروع الضعيفة المستقرة أن تنضوي تحت جناح الجماعات الأكبر المتنفذة والمدعومة من القبائل الأخرى المتنقلة ، والتي لا تتوانى عن إثبات دعمها ومساندتها من فترة لأخرى ، وكلما دعت الضرورة .

رابعا — إن هذه الحركة كان من شأنها أن تخلق علاقات تبادل تجارية نشيطة بين البدو المتنقلين من جهة ، وبين الفلاحين الزراعيين وسكان المدن والقرى من ناحية أخرى ، مما خلق شعورا عاما بحاجة كل طرف إلى الآخر وبماجتهما معا إلى جو من التآلف والمسالمة تأمينا للمصالح التجارية المتنامية يوما بعد يوم ، كما أن ذلك نفسه أوجد مناخا من التسامح وضد العصبية القبلية أو الدينية ، مما ساعد فيما بعد ، ولعب كعامل رئيسي في تنامي الشعور القومي الجماعي الذي يتطلب إسقاط كثير من العوائق التعصبية القبلية أو الدينية والسعي إلى توحيدها ، ومما يلفت النظر هو أن تاريخ القبائل العربية لم يشهد أي حرب نشبت بين تلك القبائل لأسباب دينية على الإطلاق .

خامسا — إن هذه الحركة ما لبثت أن أصبحت أداة حقيقية وفعالة في مجال نقل المعلومات الاقتصادية والسياسية والثقافية والعسكرية والدينية ، وواسطة إعلامية لنقل

أخبار الأقوام والمناطق والغزوات ، ونقاط الضعف والقوة ولتبادل التجارب والخبرات ، مما ساعد وبصورة أساسية ، على تكون أرضية للثقافة المشتركة الواحدة .

سادسا — إن هذه الحركة بكل علاقاتها وتفاعلاتها أخذت تقرب اللهجات المتباعدة من بعضها بحيث أصبح بإمكان بدوي من جنوب شبه جزيرة العرب أن يخرج إلى العراق وسوريا ومصر ويعود إلى مركز قبيلته دون أن يجد أية صعوبة في التفاهم ، مما رسخ وحدة اللغة العربية في جميع أصقاع الأرض العربية وحمى لهجاتها من العزلة ، كما حال دون تطور هذه اللهجات فيما بعد إلى لغات مستقلة .

إن حقيقة واقع الأرض العربية والشعب العربي منذ آلاف السنين ، تؤكد لنا :

1 — أن الأرض العربية واحدة مكشوفة ومفتوحة لكل أبناء الشعب العربي وأن الحركة فيها — في جوهرها — وكذلك الاستقرار ، لم تكن نتيجة حرب أو غزو أو اغتصاب بقدر ما كانت نتيجة ظروف تملئها شروط البيئة وأنماط الحياة ، وأن هذه الحركة لم تكن لتتعدى حدود تلك الأرض التي بقيت حتى يومنا هذا تسمى الوطن العربي .

2 — أن كل سكان هذه المناطق إنما هم من أصل واحد هو العنصر العربي وينتمون إلى قومية واحدة هي القومية العربية ، تربطهم وشائج اللغة والقربى والتراث ، لا يعترضهم ولا يزاخمهم في تلك الحركة أي عنصر غريب . وكان مجرد اقتحام أي عنصر غريب لهذه الأرض في جانب من جوانبها من شأنه أن يحدث صدمة تنتشر في جسد الشعب كله ، يبدوه وبخضره ومدينييه ، بحيث تقود بعد فترة ، وبردة الفعل العفوية والطبيعية في كثير من الأحيان ، إلى توحيد مجموعة من الجهود الكفيلة بدحر الغازي الدخيل وإخراجه من المنطقة . وكانت تحركات القبائل وتوطناتها خاضعة لحكم قبلي عشائري يتولاه رؤساؤها وشيوخها ، إذ كانت ، كدويلات المدن ، لها احكامها الخاصة بها ، وهذه مستمدة من الأعراف والتقاليد المتوارثة من المجتمع البدوي ، فقد كان يقوم شيخ القبيلة ومجلس مشايخها في ممارسة السلطة .

3 — إن من شمائل العرب الأصيلة ، منذ أن عرفوا وحتى يومنا هذا احترامهم للبادية ،

واعترازهم بتقاليدها ، وإجلالهم لزعمائها وشيوخها وذلك لما كان يشترط من توفر كل شيم الحكمة والرجولة والشهامة والكرم والنجدة والتضحية في أولئك الرؤساء والشيوخ ، وإذا كان إبراهيم الخليل ينتمي في نسبه إلى عشيرة آرامية في حران في الجزيرة العربية ، ثم ارتحل مع قسم من عشيرته إلى كوثا وأور ، ثم ارتحل إلى مركز العشيرة في حران من جديد ثم إلى ذومسك في بلاد زهران و مغارة حبرون ، ثم إلى منازل مصرام (المصريين) ، وفلشتيم (الفلسطينيين) في المنطقة نفسها ، إنما كان ذلك أكبر دليل على وحدة المشاعر والأعراف والتقاليد حيث كان إبراهيم يقابل بالإعزاز والاحترام في كل مكان يحل فيه كواحد من شيوخ القبائل العربية .

سابعا — لأن عملية التغذية من الجانب المتحرك ، والامتصاص والاستيعاب من الجانب المستقر المستمرة البطيئة حيناً ، السريعة العنيفة حيناً آخر كان من شأنها أن تحدث ، مع الزمن ، تراكماً كمياً ، سواء على صعيد الأفراد والقبيلة ومجموعة القبائل ، أو على صعيد الخبرات والمعارف ، لا يلبث أن يؤدي إلى تحول نوعي تحقيقاً للقانون التبادلي : " إن التراكم الكمي لابد وأن يؤدي إلى تحول نوعي " ، فتظهر الغلبة لهذه المجموعة أو تلك ، فتذهب لاستلام زمام الأمور في أيديها ، فتقيم دولتها ، وتطبق كل ما تراكم لديها من معارف وخبرات ومطامح وأحلام حملتها معها أو اكتسبتها خلال زمن استقرارها الطويل ، فتظهر في أعين الباحثين وكأنها ولدت فجأة من فراغ لأنه في أمس فقط كانت ثمة جماعات أخرى لها دولتها ومؤسساتها الإدارية والحضارية ، إن العملية أشبه ما تكون بالانقلاب الداخلي الذي تنتقل فيه السلطة من فئة إلى أخرى ، ضمن إطار الشعب الواحد . وإن تغير المركز أو العاصمة لا يعني تغير الشعب أو الهوية القومية ، والأمثلة كثيرة.

ثامنا — إن تلك الوسادة السكانية المتحركة كانت دائماً — إلى جانب ذلك كله — تخدم كقوة احتياطية ، وكبريد لنقل الأخبار ، وكواسطة لنقل الدعم العسكري والاقتصادي الخفي أو العلني إبان الوقوف في وجه غزوات القبائل الهمجية و جائحات الشعوب الهائلة التي غالباً ما كانت تنقض من الشمال والشرق لتدمر وتنهب وتسلب

وتقوض أسس البنيان قبل أن تعود إلى معاقليها الجبلية من جديد . ولقد أثر ذلك تأثيرا كبيرا في تنمية مشاعر الارتباط القومي لدى جميع سكان المنطقة العربية ببلدوهم وبحضرهم معا .

وهذا بالضبط ما كان يتم حتى يومنا هذا ، إذ لم يعد أحد يجهل دور القبائل في محاربة الاستعمارين التركي والفرنسي في سوريا رغم محاولات شراء زعمائها المتكررة التي كانت تبذل من قبل هذا الفريق أو ذاك .

تلكم هي إذن عملية ما درج المؤرخون على تسميته بـ "الهجرات السامية" ، إنها لم تكن تحدث بشكل طفرات إطلاقا ، ومن اتجاه محدد إلى اتجاه آخر ، وإنما كانت تتم وتكامل في عملية بطيئة يومية وعبر مئات السنين من مختلف المناطق وفي مختلف الاتجاهات أيضا ، تخضع لظروف المنطقة المتنوعة كلها ، فتتسبب حيناً وتفتقر حيناً آخر ، تتكشف حيناً وتندثر حيناً ، لكن الزمن يستمر ، وتستمر معه عملية الارتشاح بقطبيها : التغذية البدوية والامتصاص الزراعي والمديني ، في تراكم مستمر وصولاً إلى " اللحظة الحرجة " — لحظة التحول النوعي العظيم .

إن تلك الفترات الزمنية التي كانت تتم فيها تلك العملية وتبلغ ذروتها إنما هي لحظات التحول العظيم التي دأب المؤرخون على تسميتها بـ " زمن الهجرات السامية " مغفلين بذلك كل العوامل الأخرى المؤثرة والفاعلة في حياة الشعوب وما فيها من تراكم للعناصر الاقتصادية والثقافية والسياسية والنفسية ومن تفاعل جذلي فيما بينها ، تراكما يصل في لحظة ما إلى حد التحول — الانفجار — الولادة .

وإننا نجد ألا مندوحة لنا من السؤال هنا :

أية ظاهرة تلك التي كانت تسكن شبه جزيرة العرب لتدفع بموجه بشرية من أبنائها كل ألف عام ؟ و " الجفاف " يحدث مرة واحدة وبالتدريج ، ولا يحدث دفعة واحدة ومرة كل ألف عام ؟

والجواب : إن ذلك التراكم الكمي البطيء نتيجة لعملية الارتشاح اليومية الدائمة في ظروف بيئية رتيبة ومتشابهة هو وحده الذي كان يظهر بمثابة القانون الفاعل في تلك

الحركة والناظم لها ، ولقد ظل يفعل ما فعله بمثل تلك الرتبة لأن الظروف الموضوعية ، سواء ما كان منها يتعلق بالطبيعة أم بالمجتمع ، لم تكن لتخرج عن تلك الرتبة في استمراريتها . فمنذ أن بلغ الميلان من المناخ المعتدل إلى الجاف أوجه فبلغ الجفاف لحظته الحرجة ، وحدث ذلك التحول النوعي تجلى فيما بعد في هيئة انقلاب في مناخ شبه الجزيرة العربية ، لم يعد يحدث أي ما من شأنه أن يخل بصورة كبيرة أو جذرية برتابة الأرض والمناخ ، كما أن قوانين التطور المجتمعي ظلت محصورة في إطار العلاقات الرعوية والزراعية والتجارية بوجه الخصوص والتي كانت تتطور ببطء دون أن تحدث أية إنجازات هامة وخطرة في مجال الإنتاج يمكن أن تؤثر على سرعة تطوره أو تحدث طفرة في مسيرته ، مما كان يجعل الفاصل بين دورة حضارية عربية تتوهج فيها الدولة العربية وبين أخرى يبدو ثابتا تقريبا .

5 - الجولان وليس الهجرة :

إن الحركة السكانية التي ما فتئت تملأ الأرض العربية منذ أن عرفت التاريخ أو عرفها التاريخ هي حركة جولان القبائل العربية إذن في كل الاتجاهات وضمن رقعة الأرض العربية ، دون أن تتعداها إلى أراض أخرى، راسمة بذلك حدود الوطن العربي منذ آلاف السنين ، محافظة على عروبتة ووحدته ، دون أن تتمكن أية غزوة ، مهما كانت عاتية ، من أن تنتقص من هويته العربية ، كما لم يتمكن ، مع كل الجهود التقسيمية التي زرعت كيانات ، وأقامت حدودا لدول ودويلات بكل وسائل القمع المعروفة ، ومع كل الحدود والسدود والحواجز الوهمية التي أقيمت لتفصل كيان دويلة عن أخرى ، من أن تقف حائلا دون هذه الحركة الداخلية التي بقيت على مدى العصور بمثابة الدم الجوال في كل عروق البدن الواحد .

وإن على كل من يريد دراسة تلك الحركة من الباحثين والمؤرخين ، التي دعوا ظملا وخطأ بـ "الهجرات" ، أن يقترب من البيئة البدوية العربية اليوم ليتمكن من فهم الحياة في هذه البيئة بكل مظاهرها ، لا أن ينقل التصورات الغربية والمغرضة في معظمها ليفرضها

فرضا على الواقع بكل غرابتها وفظاظتها . وإذا ما علمنا أن الحياة البدوية في جوهرها بقيت هي نفسها كما كانت منذ آلاف السنين ، ولم يطرأ عليها أي تغير يذكر ، فإن ذلك سوف يساعدنا في إدراك سبب تركيزنا على دراسة هذا الواقع في بيئته ذاتها .

فمن المعروف لنا جميعا أن تطور الإنتاج إنما هو الأساس الذي ينهض عليه كل تطور اجتماعي ، ولما كانت الحياة البدوية قائمة في أساسها على الرعي والصيد ، أو على الإنتاج الرعوي وملكية الثروة الحيوانية دون غيرها ، فإن شكل العلاقات الاجتماعية بقي محدودا ضمن إطار هذا الشكل من الملكية. إن البدوي لا ينظر إلى الأرض إلا بقدر ما تحمل من كلاً لرعي مواشيه ، ولا يشعر بأية حدود على الأرض غير حدود الكلاً والمرعى . إن هذا الشكل البسيط للعلاقة بين البدوي ووسيلة الإنتاج فرض أشكالاً محددة من العلاقات الاجتماعية بقيت ضمن حدود القبيلة دون أي تطور يذكر طالما أن شكل العلاقة الإنتاجية لم يتغير إلى الإنتاج الزراعي أو الصناعي أو غيرهما .

ولهذا ، فنحن حينما نتعرف على حياة القبائل البدوية الرحل اليوم فإن معالم الصورة لن تكون مختلفة بنقاط بارزة عن صورة البدو الرحل الآراميين والعماليق أو غيرهم قبل استقرارهم .

يقول أحمد وصفي زكريا في كتابه "عشائر الشام" :

" البدو ، ويقال لهم الأعراب بالفتح هم أهل البادية من العرب ، والواحد بدوي أو أعرابي بالفتح أيضا . ولفظة العربية يراد بها في اللغات السامية معنى البدو .. قال الأزهري : رجل عربي ، إذا كان نسبه في العرب ثابتا وإن لم يكن فصيحاً ، وجمعه العرب ، ورجل أعرابي ، إذا كان بدويا صاحب نجعة وانتواء وارتياك الكلاً، وتتبع مساقط الغيث ، سواء كان من العرب أو من مواليهم . فمن نزل البادية ، أو جاور البادين فنطق بنطقهم وانتوى بانتوائهم فهم أعرا ب أهل وبر ، ومن نزل بلاد الريف ، واستوطن المدن والقرى العربية وغيرها ممن ينتمي إلى العرب فهم عرب أهل مدر ، أو أهل حضر ، وإن لم يكونوا فصحاء .

ومن أوصاف البدو أنهم يتزلون البادية ، ويسكنون بيوت الشعر ، ويرحلون من مكان

إلى آخر وهذا الترحال يدعى " انتواء " أو " تبديا " وفي كتب اللغة نوى القوم بمكان وانتووه بمعنى قصدوه ، وأما التبدي فهو بمعنى الإقامة في البادية ومنه تبدي الحصري وتبادى تشبه بأهل البادية ، ومنها بدا القوم إلى باديتهم ، أي خرجوا وفي الحديث " من بدا جفا " أي من نزل البادية صار فيه جفاء الأعراب .

والتبدي يؤتى على درجات متفاوتة ، فمن الأعراب من يتبدي بلا انقطاع مهما كان الموسم ، ومنهم من يستقر في مكانه أغلب أيام السنة ولا يتبدي إلا ضمن دائرة قصيرة المدى ، وبين هؤلاء وأولئك بدو تختلف بداوتهم حسب القسم الذي هم منه وفي التبدي تشريق وتغريب حسب المواسم ، فالبدو يقطنون في الصيف (منطقة الاضططاف والتقيظ) وفي اللغة : قاط أو يقيظ القوم بمكان كذا تقيظا ، وتقيظوا المكان أقاموا به زمن القيط والقيظ (أو القيض بلهجة البدو) شدة الحر — أو هو صميم الصيف من طلوع الثريا إلى طلوع سهيل ، والمقيظ والمقاط : الموضع الذي يقام فيه وقت القيط ، وفي موسم الشتاء يذهبون إلى منطقة أخرى بعيدة جدا عن الأولى تدعى منطقة التشتية ، أو المشاتي جمع مشتي والمشتاة ، والانتقال من منطقة إلى أخرى يدعى أيضا الظعن أو النجعة ، وظعن في اللغة بمعنى سار تقول : ظعنوا عن ديارهم والظعينة : الهودج فيه امرأة أم لا ، وجمعه ظعون وأظعان ، والظعينة أيضا المرأة في الهودج ، أما النجعة فهي طلب الكأ وارتباد مساقط الغيث في مواضعها ، وهي قسم من النجوع ، يقال خرجوا للنجعة ، أو ينجع القوم الكأ ، وانتجعوا الكأ : ذهبوا لطلبه في مواضعه .

والنجعة على نوعين إحداها تتجه من الشرق الجنوبي إلى الغرب الشمالي في بادية الشام ، وفيها انتقال من منطقة التشتية إلى منطقة التقيظ ، وتدعى "التغريب" أو "نجعة الربيع" وتقع في نيسان أو أيار ، والثانية تتجه على عكس الأولى وتنتقل من منطقة التقيظ إلى منطقة التشتية ، وتدعى " التشريق " أو " نجعة الخريف " وتقع في تشرين الأول والثاني . ومسلك النجعة هو الطريق الذي تسلكه العشيرة في سيرها والمنتجع هو المكان الذي تقصده العشيرة للنجعة وتحط فيه . ومسلك النجعة والمنتجع لكل عشيرة مستقران ، إلا أنهما قد يتبدلان عند الضرورة وحصول المقدرة على تبديلهما .

ومزايا النجعة هي أنها قبل كل شيء محتمة ، إذ إن ضرورة الحياة والعيش من وراء الماشية حتمت على البدو أن يضربوا في البراري والبادي ، ويطلبوا الكلاء الذي لا ينبت في كل مكان وزمان بالقدر المطلوب. ومن مزايا النجعة أيضا أنها ممتنعة التغير والتقلب أي أن مناطق النجعة لكل عشيرة هي ثابتة غير متغيرة ، وقد حصلت على هذا الثبات من وضع اليد على مكان النجعة بالسيف ، أو بتوالي استعماله على كر السنين ومروور الزمن ، أو بعد اتفاق وتراض مع غيرها . وإذا جاءت عشيرة جديدة وهمت أن تتبدى في منتجعات غيرها تعرض نفسها فوراً للمهاجمة والمطاردة ، ومن هنا كان أكثر العداوات والحزازات بين البدو من جراء التنازع على المنتجعات ، وطمع القوي وتعديه على الضعيف فيها ، على أن الأمر قد يمكن تسويته بالتراضي ...⁽¹⁾

"ويمكن أن تقسم البدو حسب عراقتهم بالبادوة وأطوارها وبعدهم عن الحضارة ومنازلها إلى ثلاثة أقسام :

القسم الأول — العشائر الجمالة ، أو أهل الإبل ، ويسمون في الدراسات بالبدو الرحل ، أو البدو الأقحاح ، أو البدو ذوي النجعة البعيدة ، ويوصفون بأهل الوبر ، لأنهم يتخذون بيوت الشعر لسكنائهم ، كما يتخذون الخيل لركوبهم والإبل لمعاشهم ، فالإبل سفنهم في البر يحملون عليها أحمالهم ، وينقلون أثقالهم ، ويأكلون ، ويقتاتون بألبانها ، وينسجون أروقة بيوتهم من أوبارها ، ويقايضون عليها في المبيعات ، ويعطون منها في الغرامات والديات والمراهنات ومهر الزوجات ، فهي في الحملة مصدر غناهم ، دأهم الظعن بين قفار البادية وبراري الحاضرة ارتيادا لمواقع القطر وانتجاعا لمنابت الكلاء والمراعي الصالحة للإبل ، فيخيمون هنالك ما ساعدتهم الخصب وأمكنهم الرعي ، ثم يتوجهون لطلب الكلاء ، وابتغاء المياه والدفء في أماكن أخرى .

القسم الثاني — العشائر الغنامة أو رعاة الشياة أو أهل الغنم ، وهم بدو نصف رحل أو نصف بدو أو نصف حضر ، أو هم البدو ذوو النجعة المحدودة ويسمون في سوريا بعربان الديرة تمييزا لهم عن عربان القسم الأول ، ويسمون "الرعية" (الرعاة) بحكم

(1) أحمد وصفي زكريا "عشائر الشام" الجزء الأول ص 116 .

ارتزاقهم من رعي الماشية . وهذه التسمية إما لأنهم أنقاض العشائر القديمة وبقاياها التي تمزق صدعها وتشنت شملها ، وإما لأنهم من عشائر متباينة ومنابت مختلفة تجمعوا حول بعض العائلات القوية والشخصيات النافذة وتبعوها بحكم النزعات العشائرية أو الحاجات الاقتصادية واستعاضوا بهذه الروابط عن روابط الدم وصاروا رعايا لهم ، ويسمون في أنحاء دير الزور " شوايا " ومفردها شاوي هي النسبة من الشاء . بمعنى الشياه⁽¹⁾ ، فالشاوي هو راعي الشاء أو الشياه وهؤلاء أيضا فريقان فريق لا يرتزق إلا بالضرع أي بإرعاء الماشية من الغنم والمعز فقط والمتاجرة بمنتجاتها التي تدر عليهم وعلى شركائهم من أهل المدن في سني الخير ثروات كبيرة ، وهم يقطنون بيوت الشعر ويقتنون الخيل والإبل بمقدار أقل من أهل القسم الأول ، وبمقدار يكفي للظعن وراء الماشية فقط وفريق ثان يضم إلى الضرع امتلاك الضياع والأرضين واستثمارها بالحرث والزرع ، فهم يقبلون من جهة على الزرع خوفا من أن تقضي أعوام الصقيع على الماشية أو ينقض عليها مرض يهلكها أو غزو يذهب بها ، ويظلون متعلقين بأهداب الضرع إما لصغر مساحة الأرض التي يملكونها ، أو لكثرة ما ينتاب الزروع من الآفات كالجراد والمحل ومضايقة أهل القسم الأول وغير ذلك ، أو لأنهم لم يتجردوا بعد عن أطوار البداوة وهوى الحل والترحال ، ورؤية ربيع البادية واستنشاق شيحها وقيصومها ، وهم بعد أن ينتهوا من بذر الزروع الشتوية يرحلون في أواخر الخريف إلى البادية انتجاعا لمرعى غنمهم ويعودون في أواخر الربيع إلى منازلهم وضياعهم ليلحقوا أعمال الحصاد والرجاد والدراس للزروع الشتوية ، والبذر والري والتعهد للزروع الصيفية وهؤلاء يقطنون بيوت الشعر أو قباب اللبن .

وليس للتقسيم المذكور حد محدود ، فالعشيرة الواحدة قد تكون من الفريق الأول أو الثاني وحدهما أو من الفريقين كليهما . وسبب تسمية أهل هذا القسم بعربان الديرة لأنهم مرتبطون بديار خاصة في أطراف الحاضرة ومستقرون ولاسيما أهل الفريق الثاني

(1) أنهم " السيتو " في الزمن الأكادي والبابلي والآرامي وتعني رعاة الشياه أيضا ، وليس في اللفظتين سوى الإبدال بين السين والشين من لهجة إلى أخرى .

فيها ، وأنهم ينجعون في الشتاء إلى مسافات محدودة في براري الشامية من البادية ، وهم لا يوغلون فيها أكثر من 300 — 400 كيلو متر مراعاة لمقدرة الغنم ، ولقرب المناهل والآبار الصالحة لورودها . فأعراب ديار حمص وحماة يشتون حول جبل البلعاس وجبل العمور ، كما أن أعراب وادي الفرات يشتون حول جبل البشري ، وأعراب أنحاء دمشق يشتون في ديرة التلول ، وأعراب الجزيرة الفراتية في شرقي نهر البليخ وجبل عبد العزيز وجبل سنجار وقرب وادي عجيج ، ويشذ بعض هؤلاء وخاصة من كان عنده ما يكفي من الأبل فيبلغ منطقة الخبرات في الحماد ، أو منطقة الوديان في الشامية . وبعض هؤلاء لا ينجعون البادية أبداً بل إنهم لضعف حولهم أو قلة عددهم أو ضعة أرومتهم ومكانتهم يبقون حول القرى والمدن ينتقلون حسب الفصول في الهضاب والأودية الخالية والبراري والحقول البائرة الممتدة قرب منازلهم أو ضمن حدودها حدود مواطن شركائهم ، ولا يخلو قضاء من أقضية بلاد الشام من هؤلاء الأعراب الرعاة .

القسم الثالث — العشائر المتحضرة المستقرة ، أهل المدن ، وهم الأعراب الفلاحون (أو الفلاحين كما يسميهم البدو) ، الذين أيقنوا أن العيش الثابت خير من المتقلقل ، وأن من يلجأ لحمى الدولة أنما بالامن يتكل في حمايته على نفسه وعصبيته ، فتركوا الأباعر والظعون وعمرؤا الخرب الدائرة وهجروا بيوت الشعر إلا قليلا منهم ، وتحضروا وقطنوا بيوت الحجر والطين أو القباب أو الأكواخ ، وتعرفوا على الحرث والزرع أكثر من تربية الماشية وأهل هذا القسم أيضا، وإن كانوا يغشون دائما المدن والقرى ويشاركون أهلها ويعاشروهم ويتصلون بمرافقها ومراتعها وقد صاروا فلاحين وقرويين، لكنهم ما برحوا محتفظين بقسم غير يسير من خصال البداوة⁽¹⁾ .

وإذا ما أدركنا أن أفراد القبيلة الواحدة يتوزعون بين هذه الأقسام الثلاثة ويخضعون في مجملهم للقانون الاجتماعي العام الناظم لحركة تطور البدو ، والذي يتمثل في دفع أفواج جديدة من البدو الأتفاح عن طريق التكاثر الطبيعي في القسم الأول ليخضع في حركته الدائمة إلى عملية الشد والجذب التي يمارسها واقع الريف والمدينة باتجاه الاستقرار سهل

(1) المصدر السابق نفسه .

علينا فهم هذه العملية التاريخية البطيئة والطويلة التي تحمل البدوي من طوره الأول ليمر بالطور الانتقالي من حياة الرعي والتنقل إلى حياة الزراعة والحراث والاستقرار في عملية ارتشاح اجتماعية بقطبيها : الدفع والامتصاص .

وإن هذا التقسيم البسيط قد يترك انطبعا في الذهن لأول وهلة بأن ثمة وجودا جديا محدود لهذه القبيلة أو تلك على تخوم البادية أو الأراضي الزراعية لكن الأمر غير ذلك تماما . فوجود القبيلة بأقسامها النمطية قد يغطي جميع بقاع الوطن العربي دون أية مبالغة . وهذا الأمر هو ما كان يغيب ، في كثير من الأحيان ، عن أذهان المؤرخين والدارسين ، فيسقطون في مفاهيم المحجرات المفاجئة ، ولإقامة الدول المباشرة من قبل القبيلة أو تلك . وإن في استكشاف تواجد وتوزيع القبائل العربية اليوم ما يلقي الضوء كله على هذه المسألة ، علما أن طريقة التوزيع والتواجد والتحرك وغط العيش ما تزال هي نفسها منذ العصور الأولى للتاريخ ، ولم يتغير شيء غير ما أخذ زعماء القبائل يستخدمونه من وسائل التكنيك المعاصرة في حياتهم الخاصة وتنقلاتهم . وكما أن دولة سرجون أو حمورابي أو نبوخذ نصر أو زنبوبيا أو غيرهم لم تكن لتؤثر على حركة انتقال القبائل بين أرجاء الوطن العربي الكبير كله فإنه لم يؤثر على ذلك أيضا فترات الاحتلال الطويلة والقصيرة التي مر بها هذا الجزء من الوطن العربي أو ذاك . فإن كل الحدود الوهمية بما يستتبعها من أجهزة ومخاطر على هذه الحدود لن تغير شيئا في أذهان أبناء القبائل العربية الذين يسقطون كل الحسابات في تحركاتهم الحرة على أرضهم ولا يقرون إلا بحقيقة واحدة : هي أن سوريا الطبيعية كلها وشبه جزيرة العرب وشمال أفريقيا إنما هي أرض هذه القبائل ومنتجها ومقائظها ومسرح تحركاتها ومعانها بكل أفراحها وأتراحها منذ آلاف السنين، وهكذا هي ، وستبقى .

إن نظرة واحدة على تواجد وتوزيع وانتشار وتحرك و جولان قبيلة مثل عترة أو شمر ، أو عرب النعيم ، أو غيرها من القبائل العربية اليوم تعطينا الصورة واضحة عن تحرك وانتشار القبيلة العربية بوجه عام وفي كل حين .

مثال " عنزة " :

" يرتقي نسبها إلى عنز بن وائل بن جديلة بن أسد بن ربيعة بن نزار بن معد بن عدنان ، والمعروف بين البدو أن جد عنزة هو عنز بن وائل أخو بكر بن وائل وتغلب بن وائل ، وأن بني وائل هم بطن من ربيعة من العدنانية ومن هنا كانت تسميتهم ببني وائل ، ويخطئ من ينسبهم إلى قبيلة تغلب المعروفة في الجاهلية .. إن مواطن عنزة في الأصل بين أواسط نجد وشمالي الحجاز ، وفروع عنزة الآن كثيرة انتشرت في سائر البلاد العربية واستقرت أقسام منها في الشام والعراق وشمالي الحجاز ، ومنها فروع تحضرت واستقرت في بلاد معينة من نجد وساحل خليج البصرة ، وأكثر عنزة ما زال على بداوته الصرحاء مثل الروالة والإحلف والولد علي والعمارات والاسبعة والفدعان والأحسنة وبعضها قد انتقل إلى حياة الحضارة ، ففي نجد وساحل الخليج عائلات حاكمة من أصل عتري ، آل السعود في نجد ، وآل الصباح في الكويت ، وآل خليفة في البحرين⁽¹⁾ .

ويقول فؤاد حمزة في كتابه " قلب جزيرة العرب " : " إن من عنزة بعض العشائر المتحضرة في نجد ، وأهمها في العارض والحريق والحوطة والافلاج والسدير والداخلقة وفي القصيم وبريدة ... "

ويضيف أحمد وصفي زكريا : " وكانت هجرة من وفد من عنزة إلى بلاد الشام طبيعية وبالتتابع على مثال الهجرات البدوية العديدة التي ذكرناها أن سيلها لم ينقطع ، وقد اختلفت الأقوال في تاريخ وفود عنزة إلى بلاد الشام فمن قائل أنهم قدموا في القرن الثاني عشر في حدود سنة 1112 على ما جاء في كتاب " تاريخ شرقي الأردن وقبائلها " إلا أنه تبين لنا فيما بعد من مراجعة كتاب " تاريخ الأمير فخر الدين المعني " طبع بيروت سنة 1936 أن مجيء عنزة أقدم من ذلك بما لا يقل عن قرن ، فقد أورد مؤلف هذا الكتاب الشيخ أحمد الخالدي ، اسم عنزة في سياق حوادث سنة 1030هـ ، ولما

(1) أحمد وصفي زكريا " عشائر الشام " ص 357 .

جاء بركها ردت وجد عشائر عترة ولاسيما الأحسنة منها منبسطة في بلاد الشام منذ زمن بعيد لم يستطع هو تحديده .

واختلفت الأقوال أيضا في من كان أول عترة في القدوم إلى بلاد الشام والغالب إنها عشيرتا الأحسنة والولد علي ، ثم بعد مدة لحقتها عشائر الفدعان والأسبعة والعمارات وآخر من جاء الروالة . وفي تاريخ شرقي الأردن وقبائلها " إن عترة حينما جاءت مرت شمالا في طريقها بالجوف ، فاصطدمت بالسرхан إحدى عشائر الشام القديمة ، وقد كانت السرхан نزحت من حوران على أثر حربها مع السردية وانكسارها ، وجاءت قبيل ذلك وتديرت الجوف ، فدحرت عترة السرхан وبني صخر الذين هرعوا إلى نجدتها بحكم عداوتهم القديمة لعترة ، ومازالت حتى أخرجت السرخان من الجوف وأكرهتها على الرجوع إلى حوران عدا نفر قليل منهم لا يزال لهم هناك أعقاب .

وبعد أن مكثت طلائع عترة في الجوف زمنا يصعب تحديده ، رأت أن الجوف يضيق بها ولا يكفيها فاستأنفت زحفها نحو الشمال ، وبلغت براري البلقاء و حوران ، وهناك اصطدمت بعشيرة السردية إحدى عشائر الشام القديمة أيضا .. وزحفت " الولد علي " (من عنزة) نحو حوران والجولان واتخذت لنفسها منازل و مقايظ وزحفت " الأحسنة " شمالا وبلغت ديرة الشنبل حيث المجال أوسع والمرعى اخصب وكانت عشيرة الموالي ذات المجد والبأس رابضة هناك منذ قرون، إلا أنها كانت تبة من مدافعة شمر القادمة من نجد ومن مدافعة طيء التي كانت تغير من الجزيرة السورية ، ومن مدافعة بني خالد القادمة من الاحساء .

ولما بلغت الأحسنة ديرة الشنبل في حدود سنة 1171هـ على ما يظن احترقت حد الموالي ونازعته على مناطقها وأكرهتها على الجلاء عن مواطنها القديمة في أنحاء سلمية وعلى التراجع نحو ناحية العلا حيث استقرت فيها ، كما نازعت بقية عشائر ديار حمص وحماه وأخضعته ثم توالى أمواج عترة المتدفقة ونعني بها عشيرتي الفدعان والأسبعة وقاتلت الأحسنة واحتلتا براري حماة ، وحلب ، وقد عجز ولاية الترك في تلك الحقبة

عن صد هذه التحركات ، فأصبحت عترة سيدة بادية الشام دون منازع حتى وادي الفرات وأطراف العراق .

وكانت شمر قد رجعت وقتئذ من نجد ثانية في نفس الوقت الذي بلغت فيه عترة براري الشام الشمالية وللسبب نفسه الذي خرجت به عنزة ، وهو الضيق واستفحال الحركة السعودية ، ووصلت شمر إلى منطقة الوديان كوادي حوران ووادي عامج ، بدأ التزاحم بين القبيلتين العظيمتين على المراعي والمناهل ، فاضطرت شمر ازاء خصومها الكثر إلى أن تعبر الفرات وتنتقل إلى الجزيرة الفراتية .

وفي حدود سنة 1236هـ / 1822م كانت شمر قد أقلقت الحكومة في العراق أي إقلاق ورأت عجزها عن دفعهم فاضطر والي بغداد علي باشا على أن يستدعي عترة لتعينه على شمر وتردهم ، فهرعت عترة (الروالة منها) بعدد عديد ، جعل الوالي يستوحش منها، ويخشى شرها ويندم على ما أقره . وبعد أن سوى هذا الوالي أمره مع شمر حاول أن يرد عترة بحجة عدم لزومها ، فطلبت منه عترة أجرا جزيلا لقاء " ما تكبدته " من المشاق في قدومها ، من مكان سحيق كبادية الشام ، وضربت خيامها في ضواحي بغداد بانتظار ذلك ، فأهاج الوالي شمرًا على عترة ، وجرت معركتان كبيرتان كان النصر في الأولى لشمر وفي الثانية لعترة على شمر ومعها جيش الدولة النظامي ، وراحت عترة على أثر هذا النصر تخرب وتحاصر بغداد إلى أن استنجد الوالي بعشائر العراق الريفية ، فنهدت هذه لمقارعة عترة ونجحت في ردها على أعقابها ، وتحرك قسم منها جنوبا باتجاه نجد فيكون بذلك قد أكمل الدائرة التقليدية الكبيرة في حركة القبائل العربية .

أقسام عنزة ومنازلها :

عنزة العراق : العمارات (الجبل والدهامشة)

عنزة الفرات والجزيرة : الفدعان (الولد والخرصه)

عنزة حماء : الأسبعة (البطينيات والأعبدة)

عنزة حمص : الأحسنة

عنزة دمشق و حوران : الرولة والولد على والمخلف .

عنزة الحجاز : الأيدة والفقرا

الروالة :

عشيرة عنزية من ضناً مسلم ومن بطن الجلاس ، وهي تعد أكبر عشائر عنزة عددا وأعظمها قوة ، وهي آخر من هاجر ووصل إلينا من عشائر عنزة ، وإن منها بقية لاتزال في مواطنها في شمال الحجاز . و الروالة أهل إبل أقحاح لا يربون الغنم ما عدا فرقتي الفرجة و الشعلان ، وتربية الإبل تجعل أماكن نجعتهم شاسعة ، بعيدة عن مفاوز الحماد التي لا تلائم تربية الغنم ومقدرتها ، وهو ما أبقاهم حتى الآن على الفطرة البدوية القديمة حتى إن أكثر طعامهم من التمر وحليب النوق .

وهم — فيما عدا عناصرهم الأصلية — يجرون وراءهم ويضمون عددا من العشائر ذات المكانة المتوسطة ، وهذه العشائر تسمى "المخلف " لأنها حالفت الروالة وأذعنت إليها في كل ظروف الحياة البدوية .

ولما كان الروالة أهل إبل في الأكثر فإن حاجة الإبل تضطرهم في فصل الصيف إلى عدم النفوذ إلى المعمورة ، بل إلى البقاء في أكنافها . ولما مال بعضهم إلى تربية الغنم صاروا يدخلون بها وبابلهم إلى غربي درعا وإلى قضاء الزوية في حوران ، ثم صاروا يقيظون في قرية عدرا شرقي دمشق ، وتكاد هذه القرية تصبح عاصمة رؤساء الروالة بعد أن تملكوا حول خمس مساحتها ، ودفنوا فيها عميدهم الأمير نوري الشعلان . وأهل الغنم منهم ما زال يقيظ في غربي حوران حول قرى الشيخ سعد والمزيريب ونوى وتل الجابية . وفرقة محجم الشعلان تتقدم إلى قضاء الزوية ، وتنتشر في قرى الجوخدار وخسفين وعال و فيق ، وبعض الروالة يذهبون شمالا إلى أنحاء حمص حول الفرقلس وحسية وبحيرة قطينة وأنحاء القمقوم وأمثاله من آبار سهل الدو ، أما شتاؤهم ففي الحماد ، وهم يدخلون الحدود العراقية والحدود الأردنية . ويلغون في شرقي وجنوبي جبل عنزة مداخل الحدود السعودية خيرات البساتين و الرويشيد وخفايا اللاهة والمحم والبر ودويل و الطريفاي . وإذا ما طاب لهم المرعى وزخر الماء ربما انحدروا جنوبا وبلغوا حدود الجوف والنفوذ . تلتقي الفرق القادمة من حمص مع فرق حوران والجولان في القريتين

حيث يكون مخيم العشيرة الكبير، فتأتي الأولى من ناحية الفركلس وسهل الدو ، والثانية من الجولان و الجيدور وضاف نهر الأعوج وشرقي مرج الغوطة ، وتقف برهة في ضواحي قرية عدرا وفي سهل رمدان شرقي بحيرة العتيبة ، فإذا قحطت إبلهم مراعي هذه الأنحاء تقدمت نحو خان أبو الشامات وتل الدكوة وجبل سيس وتل هدلة والبساتين ، أو تقدمت نحو الضمير وجيروود والناصرية والقريتين والبصري والهلبا والتنف والبساتين ومن ثم ترحف العشيرة كالجراد المنتشر انتشارا رائعا يستحق النظر والتصوير وتتجه نحو الجنوب إلى أن تلتقي في الحماد في الأودية والخبرات التي ذكرناها التقاء تختلف كثافته بين قلة وكثرة ، وفي الربيع تعود من المسلك نفسه وتقدم نحو أماكن التقيظ ريثما ينتهي الحصاد والرجاد في المعمورة ، ويأمن أهل القرى على زروعهم من مدهمة إبل الروالة .

وتنقسم الروالة إلى أربعة بطون كبيرة هي : الجمعان ، والكواكبة ، والتعاقلية والفرجة ، وكل واحد من هذه البطون ينقسم إلى أفخاذ وكل فخذ إلى فصائل وكل فصيلة إلى بيوت أو فروع جديدة .

المحلف :

بتسكين الميم وفتح الحاء واللام ، هؤلاء هم الفرع الثاني من عشائر الجلاس ومن ضناً مسلم ، وفي هذا الفرع ثلاث عشائر صغيرة ، وقيل أن سبب تسميتهم بـ " المحلف " إثم تحالفوا أن يكونوا مع الروالة على خصام ضناً مسلم .

الأشاجعة :

عشيرة صغيرة أهم فرقها الخليفات ، والبلاعيس والبدور ، والمهوب . يقيظ الأشاجعة في حوران ، وخاصة في غربي قضاء درعا ، فإذا قضوا على مراعي هذه الأنحاء انتقلوا إلى المراج (قضاء دوما) حول قرى تل مسكن والغزلانية والهيجانة . أما في النجعة فلبتحقون بالروالة بنفس المراعي والمناهل في الحماد حول جبل عترة ، والغنامة منهم يبلغون حرة الراجل ووادي السرحان .

السؤالمة :

عشيرة صغيرة ، وهم أيضا مبعثرون ، والقسم الأكبر منهم مع آل الشعلان والقسم الأقل في شرقي الأردن . وفرقهم هي الفرايدة والمنهاج و الهيب و الجندل ، وهم كالارولة من أهل الإبل وهم يقيظون في أنحاء بير القمقوم و بير حجار و بير جزل في براري حمص ، ثم ينتقلون إلى حوران والجولان ، وفي الخريف إلى مرج الغوطة حول قرية العتيبة أما في النجعة فهم كالأشاجعة أهل الأبل في الحماد مع الروالة وأهل الغنم في حرة الراحل ووادي السرحان ، وإذا كانت المراعي مبدولة في البادية لا يدخل هؤلاء ولا الروالة المعمورة ، بل يقون حول آبار بادية حمص .

العهد الله :

وفرقتها هي الناجي و الحرزة و المشاطرة و الشاهين والقشوش . ويقول الدكتور أحمد سوسة في كتابه "مفصل العرب واليهود في التاريخ" : " من قبائل العرب الكبرى التي تصور لنا مثلاً حياً للهجرات القبائلية من الجزيرة العربية وارتباطها بوادي الرافدين قبيلة " عنزة " وأصل وطن هذه القبيلة الحجاز في أنحاء المدينة المنورة ، ويرجع تاريخها إلى العهد الجاهلي حيث أورد ذكرها كل من ابن خلدون وابن سعيد ، وبيت آل سعود ملوك نجد والحجاز اليوم منها ، وكذلك آل صباح وآل خليفة في الكويت والبحرين . إن مجيء جماعات من هذه القبيلة إلى العراق يصادف زمن مجيء " شمر الجربا " وتقسم إلى فرعين رئيسيين (في العراق) الأول ومركزه الرطبة ويدعي بقبائل " العمارات " والفرع الثاني ويسمى بـ " الهامشة " (الظفير) ومركزه نقرة السلطان⁽¹⁾ .

(1) الدكتور أحمد سوسة " مفصل العرب واليهود في التاريخ " ص 105 .

الولد علي :

عشيرة عنزية صغيرة ، وهي من ضناً (أولاد) مسلم وبطن الوهب ، وهم يفدون ويروحون بين بلاد الشام ونجد ، وكثرهم الغالبة اليوم في المملكة السعودية . ويبدو أن وهبا جدهم الأعلى أعقب ولدين منه وعلي ، فمن الولد الأول منه جاء آل نيهان أو المنابهة المنقسمون إلى المساليخ أعقاب حسن بن منه الذين منهم الملوك السعوديون ، وإلى الأحسنة أعقاب حسين بن منه ، وإلى خمعل الذي منه الخماعلة والفقراء ، ومن الولد الثاني علي جاءت عشيرة " الولد علي " المنقسمة إلى الأمشظة والأيدة ، والأيدة قسمان : الشماليون في بلاد الشام مع الأمشظة ، ويسمون أيضا ضناً مفرج ، والقبليون في الحجاز ونجد .

وقد كان العداء والتناحر قديما متواصلا بين الولد علي و الرولة رغم قرابتهما ، وسببه فيما قيل أن الولد علي هم من طلائع عترة الذين جاؤوا قبل غيرهم مع الأحسنة في القرن الحادي عشر الهجري ، ونازعوا عشائر أهل الشمال (السرحان والسردية والصقور وبني صخر) ، واستطاعوا أن يشقوا لأنفسهم طريقا إلى الجولان ، كما شقت الأحسنة طريقا إلى ديرة الشنبل ، ولما جاءت الرولة بعدهم بـ 60 — 70 سنة أو أكثر لبثت مدة مديدة بين الجوف ووادي السرحان وأطراف البلقاء لا تستطيع التقدم نحو حوران والجولان من صولة الولد علي . وفي النجعة تلتحق فرق الولد علي بالروالة حيثما ذهبت فتسير وراء ساقتها إلى جبل عترة في الحماد أو إلى الجوف ، أما في الصيف فيمكث أكثرها حول عين دكر ، وأحيانا تفد في الربيع إلى أنحاء الصيقل شرقي خان أبي الشامات .



إن هذا الاستعراض البسيط لإحدى قبائل العرب الحديثة التي — كما أسلفنا — لا تكاد تتميز عن غيرها من القبائل العربية القديمة في شيء ، لا في شكل الانتماء ولا في شكل التواجد والحركة ، أو الجولان ، أو نمط المعيشة ، أو العلاقة الإنتاجية ، أو الاجتماعية ، يكشف لنا النقاط الرئيسية التالية :

1 — أن نسبة القبيلة العربية وفروعها (البطون والأفخاذ والفضائل أو الفرق) إنما هي نسبة لأحد الأجداد ، وإن تمسك القبيلة بهذه النسبة تقليد عربي جرت المحافظة عليه منذ آلاف السنين وحتى اليوم .

2 — إن بعض القبائل أو العشائر الصغيرة الضعيفة ، أو التي ضعفت فجأة نتيجة لظروف معينة أو أحداث طارئة تنضم إلى القبائل الكبيرة وتنتمي إليها ، كما تنضم مجموعات بشرية أخرى متساقطة من مختلف القبائل مكونة شكلاً من التجمع القبلي اسمه " الأحلاف " وهذا الشكل من التجمع يختلف عن غيره من الاتحادات القبلية التي تبرز على الساحة لأسباب سياسية — على الأغلب — كاتحاد كندة ، واتحاد القبائل العربية في معركة ذي قار .

3 — إن تحرك القبائل العربية البدوية الصغيرة والكبيرة كان يتم بصورة طبيعية بشكل جولان قريب أو بعيد ، تتحكم في سعته وضيقه ، سرعته وبطئه ، كبره وصغره ، عوامل واحدة هي : مساقط الغيث ، ووجود الكأ والمراعي ، استثمار الطرق التجارية الدولية ، وقوة الدفع في الموطن الأصلي الناجمة عن طغيان طبيعي (كشدة القحل مثلاً) أو طغيان بشري وسكاني (كالضغط الذي يمكن أن تمارسه هذه الدولة أو تلك ، أو طغيان قبائل أخرى على مناطق رعي الأولى) ونوع الماشية .

4 — إن هذا الجولان لم تكن تقوم به القبيلة ككل ، بل كانت كل عشيرة أو فصيلة أو فخذ تطلق " روادها " في اتجاه آخر غير الذي سلكته غيرها ، لكن ذلك لا يمنع أنهم كانوا جميعاً يقعون تحت عامل الانجذاب نحو بقاع الهلال الخصيب الممتدة من الخليج العربي إلى وادي النيل في بعض فصول السنة ليعودوا إلى متجعاتهم في بقية الفصول .

وكانت هذه الفروع القبلية تنتشر في عملية جولانها بحثاً عن المراعي والمقائظ والمنتجعات فتسرع تارة تحت ظروف التنافس في السابق إلى مراعي أكثر غنى واتساعاً ، أو هروباً من الصدام عند الوقوع في مناطق رعي قبائل أشد سطوة وأكبر نفوذاً ، وتبطئ تارة أخرى إذا ما توفرت لها ظروف الرعي الدائم دون منغصات .

5 — كان جولان فروع القبيلة يستغرق منها أجيالاً كثيرة ومتعاقبة من أجل تأمين نقلة نوعية في التواجد المكاني ، وهكذا فقد كانت عملية الدفع والارتشاح والامتصاص السكاني في موقع الاستقرار الزراعي تستغرق مئات كثيرة من السنين دون أن تلاحظ في مراحلها الأولى ، ثم ما أن تبلغ مرحلة متقدمة من التراكم الكمي حتى يبرز على ساحة الفعل زمن اللحظة الحرجة — بداية التحول النوعي في شكل تواجد هذه القبيلة أو تلك .

6 — إن هذا الجولان كان دائماً وأبداً ينطلق في كل الاتجاهات على امتداد رقعة الوطن العربي كله دون أن يتعداه إلى غيره ، فحددت حدود الوطن العربي منذ آلاف السنين ، كما أنها أكدت وحدته أيضاً على مر العصور دون أن تتمكن من أن تقف في طريقها أو تحد منها كل الحدود المصطنعة التي أقامها المحتلون والمستعمرون بين أقطاره .

7 — كانت عملية الجولان هذه تخضع لعمليتين متناقضتين في طرفيها : ففي الطرف الأول يتمثل المنبع البدوي حيث تتكاثر أصول القبائل البدوية وتقذف بالسكان البدو إلى حركة التنقل والجولان دافعة أمامها موجة سكانية أخرى في اهتزازات بطيئة هادئة أو عنيفة واسعة بصورة تتناسب وكل الظروف المحيطة بحركة السكان في النبع ، وفي الطرف الآخر تشد مواقع الاستقرار كل من فضجت لديه الظروف والإرادة وعملية التحول النفسية الطويلة إلى حياة الزراعة والاستقرار .

فقد ذكر أحمد وصفي زكريا في كتابه " عشائر الشام " كيف أن شدة ضغط آل سعود على القبائل العربية في نجد والحجاز من أجل موالاتهم أدت إلى تحرك بعض "عشائر عترة" كالفدعان والأسبله والعمارات من شمالي الحجاز ، وللسبب نفسه الذي خرجت به شمر . وقد نفذت هذه العشائر إلى براري حمص وحماه وحلب ودير الزور وصارت تصل في نجعتها إلى وادي عامج ووادي حوران ، وتزاحم شمرًا على المراعي والمناهل ، ورأت شمر

قلتها أمام خصومها الكثر فاضطرت إلى أن تعبر الفرات وتنساح في سهول الجزيرة الفراتية وتستولي عليها تدريجيا من نصيبين حتى قرب بغداد ، وقد زاحمت وقتئذ وأزاحت العشائر القديمة المستقرة في تلك الأنحاء كطيء والعبيد والبيات وجيس وغيرها ، وصار أكثر هؤلاء يدفع لها " الخوة " ويعزف عن البداءة ، ويمتد في الحويجة بين جبل حمريد والدجلة ، وبحرث ويزرع" (1) .

إن في ذلك مثالا واضحا على فعل الظروف المحيطة بالطرف الأول (المنبع) في تسريع عملية الحركة والجلولان ، فتدفع الموجة موجة أخرى في طريقها إلى منتجعات أخرى قصية ، كما تسرع في عملية التخلي عن البداوة من قبل البعض واختيار حياة الاستقرار الزراعي والانضواء تحت ظل القانون المدني بعيدا عن عسف اجتياح الكثرة البدوية في مراعي البراري المفتوحة .

لكن هذه العملية في شكلها الطبيعي الاعتياري كانت تتم ببطء كبير ، وتمر في مراحل اجتماعية ونفسية وعقلية ومعرفية طويلة ، تذكرنا بأقسام المعمل الواحد التي تتسلم المواد الخام من طرف لتسلمها موادا جاهزة ومصنعة من الطرف الآخر ، فإن الأنسال البدوية تجتاز مراحل عديدة من منبعها إلى مصبها عبر جولانها الطويل من منطقة إلى أخرى ، وعلى تخوم الأرياف والمدن ، فتتلقى كل عناصر التأثير والتغيير في الدهن والنفس معا ، بحيث ما إن تحل لحظة التحول النوعي في عقل هذا البدوي حتى يجد نفسه مستسلما لاغراء الجذب الزراعي والاستقرار ، ثم تندفع من خلف الأفواج المستقرة أفواج أخرى لتستغل أدنى فرجة قد يحدثها ذهاب أولئك إلى الزراعة والحياة الريفية ، وتتجمع العناصر المستقرة عنصرا في إثر عنصر وجماعة في إثر أخرى من جيل إلى جيل ، ويفضل أولئك عادة النزول بين الأقارب بشكل يؤمن القوة والمنعة ، وقد تمضي قرون جد طويلة دون أن تتمكن العشيرة من بلوغ الاستقرار بكامل أفرادها .

(1) أحمد وصفي زكريا " عشائر الشام ، الجزء 2 ، ص 615 .

8 — إن كل منطقة تحل فيها العشيرة تصبح ، و لفترة ما ، مركزا للجولان الصغير ، حتى تأتي على مراعيها كلها ، أو تتغير الظروف والشروط التي جعلتها تتمركز فيها فتتخذ من المركز وما يحيط به مقائظ ومنتجعات تتحرك فيها بين الفصول لفترة زمنية قد تطول وقد تقصر .

9 — إن الصراع بين العشائر هو صراع على المرعى والكأ بالدرجة الأولى ، فمأ أن يسبق رواد عشيرة ما إلى منتجع وافر الكأ حتى يستتفر أفراد القبيلة تحسبا لاجتياح قبلي كثير العدد لمنطقة الرعي تلك مما يضطر الأولى إلى التروح لارتياذ أماكن أخرى بكل ما في ذلك من العناء ، والجهد للناس وللماشية .

10 — قد يتوصل بعض من فروع القبيلة إلى القبض على زمام السلطة في هذه الدولة أو المنطقة أو تلك ، لكن هذا لا يعني أن السلطة أو الدولة إنما هي سلطة القبيلة أو دولتها ، أو أن وجود هذه القبيلة سوف يتركز حول الدولة التي يقبض فيها بعض أبنائها على زمام الأمور. فكما أن السعودية أو البحرين أو الكويت التي يحكم فيها بيوت من فصائل عشائر عترة، ليست دولا عنزية ، توجد فيها بطون القبيلة وتمحور من حولها ، وتتخلى بقية فصائل القبيلة عن حياتها البدوية لتتجمع حول " دولتها " وتحيا حياة المدن المستقرة ، فإن الدولة السومرية أو الأكادية أو البابلية أو الآشورية أو غيرها لم تكن دولا لقبيلة في حدود الفهم الحرفي لذلك ، كما اعتاد المؤرخون على القول ، وكما أن وجود قبيلة عترة اليوم الذي يكاد لا يخلو منه مكان ما من الأصقاع العربية المترامية ما بين ديار بكر وبحر العرب والخليج العربي والبحر المتوسط ، لا يكاد يلاحظه المؤرخون بالمقارنة مع وهج السلطة في كل من الكويت والبحرين والسعودية ، وكما أن وجود تلك الأسر من عنزة في قمة السلطة في هذا البلد أو ذاك تحت هذا الاسم أو ذاك لا ينفي عن البلد والحكام هويتهم العربية كما لا يحجب الوجود المتناثر للقبيلة العربية التي ينتمون إليها في الأصل ، فإن حكم بعض الأسر أو الفروع القبيلة العربية في أوروك أو بابل ، أو أعادة (أكاد) ، أو أشور ، أو دمشق ، أو ماري ، أو إيبلا ، أو حلبو (حلب) ، أو تدمر ، أو البتراء ، أو سبأ ... الخ لا ينفي عنهم صفة العروبة ، كما لا يحجب وجود بقية فروع

القبائل العربية متناثرا على رقعة الوطن العربي الكبير بكل امتداداته ، وكما كان الصراع بين الدويلات — المدن، والدولة القومية المركزية قائما على قدم وساق، فإن الصراع بين التبدي والتحضر كان الآخر قائما ، لكن بصورة أكثر مدى واتساعا واستمرارية ، وأقل سخبا وضوءاء .

11— أن تواجد قبيلة حديثة نسبيا مثل " عزة " طبق مناطق الدائرة الكبرى الممتدة من الكويت ، إلى البحرين ، إلى نجد والحجاز ، والجوف ، والتنف ، والحماة ، ووادي السرحان ، والبلقاء ، وحوران ، والجولان ، وبادية الشام ، وبراري حمص ، ودمشق ، وحماه ، وحلب ، والجزيرة ، والفرات ، والرطبة ، وبغداد ، والبصرة ، التقاء بالكويت ، ولقد مضى على هذا التواجد عشرات المئات من السنين ، لكن المؤرخ لا يشعر به إلا بقدر ما يصطدم هذا الوجود بمراكز تقاطع الأحداث الكبرى في تاريخ المنطقة ، فإن تطبيق هذه الدائرة نفسها كان هو الأمر المألوف لدى القبائل العربية الكبيرة القديمة .

12— إن تواجد " عزة " هذا ليس وحيداً في هذه المناطق ، ولا يوجد بشكل شريحة قبلية " عنزية " خالصة من هذا الامتداد ، بل إن شكل هذا التواجد إنما هو متقطع ومتداخل ومتشابه مع تواجد القبائل العربية البدوية الأخرى في جولاها حول مراكز الرعي الصغيرة والكبيرة ، وبأقسامها الثلاثة البدو الرحل والبدو نصف الرحل والبدو الذين استقروا أو الآخذين في الاستقرار ، ولقد تحدثنا عنه كمثال فقط دون الإسهاب في تواجده بين بقية القبائل الأخرى .

ويكفي أن نذكر هنا أن من يتبع وجود القبائل العربية الرحل الدائمة في بادية الشام وبراري القطر العربي السوري وحدها لاشك سوف تذهله الكثرة في أسماء تلك القبائل والعشائر التي تتقاسم المراعي مع عشائر عنزة ، وبعضها كبير يشغل الدوائر الكبرى من نجد إلى أطراف الهلال الخصيب مثل شمر ، وبعضها أقل شأناً . فهناك ، على سبيل المثال لا الحصر : الموالي ، وشمر ، وعرب النعيم ، والحديديون ، وآل فضل ، والمساعد ، والشرافات ، والشنابلة ، والسردية ، والجوابرة ، واتواس ، والبريدات ، والفواعرة ، والعقيدات ، والعمور ، والبدور ، والنحور ، والصليب ،

و الجماجمة . و السفارنة ، و الغساسنة ، و الجحيش و القرعان ، و طيء ، و حرب ، و البقارة ، و قيس وغيرها كثير مما يصعب حصر أفخاذه وفصائله .

إن مثل هذه الوسادة البشرية العجيبة والفريدة من نوعها في تاريخ الشعوب ظلت محافظة على وجودها ذاته ، ونمط معيشتها وتحركها وجولاتها وتكاثرها وتنازعها واستقرارها آلاف السنين . وإذا كانت الحكومات في البلدان العربية هي التي تبرز على مسرح الأحداث التاريخية ، فإن ثمة عملية نسج خفي للناس والمجتمع تتم بصمت ودونما أية ضجة ، وبدأب متواصل تصعب ملاحظته ورصده إلا لمن يتبع العملية قلصدا . وإن في إمكان أي منا أن يتخيل هذه الصورة ذاتها قبل ألف ، وألفين ، وثلاثة آلاف وأربعة آلاف من السنين . فإن قيام حكومة هنا في ماري ، أو دمشق ، أو ايلا ، وهناك في بابل ، أو أكاد ، أو سومر ، لم يكن يعني مطلقا خلو بقية الأرض . بل كانت تبقى تعج بحركات تلك القبائل وجولاتها ضمن إطار الوطن العربي الكبير الذي رسمته في حركتها وجولاتها وحافظت عليه وعلى عروبه .

6 — الشعب العربي السوري والتسميات :

تبين فيما سبق كيف أن الدارسين والباحثين ما فتئوا يستخدمون مصطلحات وتسميات أطلقت عشوائيا ودونما تبصر ، على الأرض العربية السورية و على الشعب العربي السوري ، بفعل ظروف معينة يمكن أن نحمل بعضها بما يلي :

1 — الجهل المطبق بتاريخ المنطقة قبل القرن التاسع عشر وبدء بعثات التنقيب الأثرية بالعثور على المكتشفات .

2 — ارتباط التسميات عموما بأسماء المناطق التي أجريت فيها الحفريات ، ثم العثور على أجزاء من الحضارات القديمة .

3 — الانطلاق في التعامل مع التاريخ القديم من خلال واقع التجزئة الإقليمي المفروض على الوطن العربي السوري في ظل الاستعمارين التركي والإنكليزي — الفرنسي .

4- التمسك بتسميات بعيدة كل البعد عن كل ما من شأنه أن يذكر الشعب العربي السوري بوحدة أراضيه وشعبه من جهة ، وبانتمائه العربي العريق الضارب الجذور في أعماق الأرض والتاريخ ، من جهة أخرى .

5 - جهل الباحثين والدارسين من العرب باللغة العربية القديمة ولهجاتها المتعددة مما يجعلهم يقفون مشدوهين أمام سيل الأسماء المكتشفة للمناطق والدول والأشخاص ، ويقوي من شعورهم بالغربة عن واقع وأحداث ذلك التاريخ القديم .

ونحن حينما نقرب من هذه التسميات التي لا تستند إلى أي أساس علمي وموضوعي ، مثلها مثل ما دعي بـ " الهجرات السامية " لا يسعنا إلا أن ننبه ، ونكرر تنبيهاتنا ، بأنه لا شأن لنا بهذه التسميات كلها ، وإننا نتعامل معها مؤقتا مع طرح البدائل لها مباشرة ، فاستعمالنا لها لا يؤكد جهلنا بحقيقة تاريخنا فحسب ، وإنما يكرس أيضا ذلك الأسلوب الذي يريدنا به أعداؤنا ان ننظر إلى هذا التاريخ ونتعامل معه من خلاله .

لا شك في أن الشعب العربي السوري ، مثله مثل كل الشعوب ، كان في كل مراحل تطوره مؤلفا في أساس تكوينه من أفراد وجماعات وقبائل واتحادات قبائل، لكن ذلك التقسيم الذي فرضه علينا الدارسون منذ أن شاؤوا هم ، وحتى تتحرك مشيئتنا نحن في تغييره ، يكرس أخطاء تاريخية وقومية ووطنية بحق شعبنا وقوميتنا ووطننا كله .

إن هذا ليس هو التعصب كما قد يظنه بعضهم ، إنه التشبث بالكشف عن الحقائق المطمورة والمزورة من قبل الجهات المتعصبة له ، فالتمسك بالحقائق إنما هو خدمة للحقيقة وللعلم ، والتشبث بالأوضاع والمفاهيم المشقة المقلوبة والمغلوبة إنما هو ، في لب جوهره ، تعصب أعمى ، لأن الجهل هو أرسخ قاعدة للتعصب و للعمى أيضا .

فكما لا يمكن اليوم أن نتحدث عن الأمة الفرنسية مثلا ، أو الشعب الفرنسي ، بالعناصر التفصيلية التي يتألف منها الشعب الفرنسي ، فإنه لا يمكن لأي إنسان في العالم أن يتحدث بنقاوة العرق في شعب ، أو قبيلة ، أو عشيرة ، أو أسرة . وبعد أن تشكلت الأمم واستنفذت الحاجة إلى كل المفاهيم التي وضعت لتخدم عملية ذلك التشكل فإنه لم يعد من الممكن أيضا أن نسمح بإخضاع " تاريخنا لأية تجارب مخبرية " لتكشف عن

نقاوة الدم وترتبية عظام الفك والجمجمة ، كلما دعا الداعي إلى وجوب تمزيقه وتحزته ، ولن نقبل ما يصدره لنا صناع المفاهيم والعلوم الاستعمارية من قوالب وأشكال تافهة وقيمة لنلبسها تاريخ شعبنا ونقرم بها حقيقته العظيمة : فتارة يربطون وجوده الدائم بمرحلة البداوة ويفصلونه عن كل الحضارات التي تشكلت في أطراف الوطن العربي الكبير سوريا ومصر ، وتارة أخرى يعتبرونه غازيا من البادية لتلك الحضارات القائمة التي " لا علاقة له بها " وطورا يستخدمون تسميات لا تمت إليه بصلة ، فمن تسميات مكانية ضيقة ، (ما بين النهرين ، وادي الرافدين ، حوض الفرات ، حوض الدجلة ، الشرق الأدنى ، شرق المتوسط ... الخ) إلى تسميات سكانية قبلية ، بعد حصر وجود تلك القبائل في بقع معينة، تظهر فيها فجأة نتيجة لـ "هجرة " ، أو " غزوة " فتقيم دولة ثم تترك الساحة لتظهر غيرها ، والمهم هو أنها جميعا ليست شعبا واحدا في النهاية ، وإن الواحدة تقوم بغزو الأخرى وتحل محلها ، مثلها في ذلك مثل أي تجمع سكاني غريب آخر ، مما يبرر الفعل ذاته للغوتيين و الكاشيين ، ثم للتتار ، وللأتراك ، و للفرس ، وللروم ، وللأوروبيين المستعمرين.من فيهم الصهاينة ... فطالما أنه في النتيجة ليس ثمة شعب ثابت يشغل تلك الأرض فإن حق الغزو والاحتلال مشروع للجميع !

إن ما يحز في النفس حقا هو أن بعض الدارسين العرب ، يتلقفون تلك الصيغ كما تتلقف الأرض الواطئة كل أنواع المياه ، دون أن يجهدوا أنفسهم قليلا بشيء من التروي والبحث. إنهم يتلقونها كحقائق علمية لا تقبل الجدل ،يملي ذلك عليهم إحساسهم المروع بالنقص الثقافي ، وبالنقص عموما أمام كل ما هو غربي أو أجنبي ، فيصبح الجدل معهم أشد خطرا من غيرهم لأن الجدل في مثل هذه الأحوال لا يهشم قواقع المفاهيم ويكشف هشاشة مضامينها بقدر ما يهشم قواقع الناس أنفسهم ، فيكون الدفاع مستميتا لأن وراء القوقعة جهلا وفراغا مطبقين .

إن خوف أولئك من العلم اشد من الجهل بكثير. ولو علموا أن بينهم وبين تجاوز عقدة الخوف تلك ، عقدة النقص تلك قيد أصعب ، لما تردد كثير منهم في التخلي عن

جهله واللاحاق بالمواكب المتقدمة . إن الأمر يتطلب إرادة فقط ، وبعض الإقدام على الرؤية بعين الفاحص المتبصر لا بعين مغمضة استسلمت سلفا لما قد يلقي على المائدة ، وسوف يرون كيف يكبر فجأة هذا الوطن العربي السوري ليتحول إلى قاعدة الوطن العربي كله ، ووطن لكل المتمدنين في العالم كما قال مرة أندرية بارو مدير متحف اللوفر في فرنسا ، بعد إطلاع العالم على المكتشفات الحضارية المذهلة التي تم العثور عليها في سوريا : " إن على كل إنسان متمدن في العالم أن يقول إن لي وطنين ، وطني الذي أعيش فيه وسوريا " .

ويمكن أن أورد هنا ، على سبيل المثال فقط ، ما كتبه المؤرخ الأمريكي ول ديورانت في كتابه قصة الحضارة : " وقصارى القول إن " الآريين " لم يشيدوا صرح الحضارة ، بل أخذوها عن بابل ومصر ، وإن اليونان لم ينشئوا الحضارة إنشاءً لأن ما ورثوه منها أكثر مما ابتدعوه ، وكانوا الوارث المدلل المتلاف لذخيرة من الفن والعلم مضى عليها ثلاثة آلاف من السنين وجاءت إلى موائلهم مع مغامرات التجارب والحرب ، فإذا درسنا الشرق الأدنى وعظمتنا شأنه ، فإننا بذلك نعترف بما علينا من دين لمن شادوا بحق صرح الحضارة الأوروبية والأمريكية ، وهو دين كان يجب أن يؤدي من زمن بعيد " ⁽¹⁾ هذا ما يضطر المؤرخ الأمريكي ول ديورانت إلى قوله بعد أن أذهلته بعض حقائق تاريخ العصور القديمة ، علما أن كتابه مليء بالمغالطات في كثير من الأحيان .

إننا نورد هذا المثال هنا لكي نلفت أنظار أمثال أولئك " الدارسين " العرب إلى أن الأمر في كثير من الأحيان لن يتطلب منهم جهدا كبيرا ، فتحت كلمة " بابل " هذه غطى ول ديورانت الدولة العربية السورية منذ عهد صارغون إلى حمورابي إلى نبوخذ نصر ، وخبا المحار : الشعب العربي وكذلك الأمر بالنسبة لمصطلح " الشرق الأدنى " . وما على الدارسين المنصفين سوى أن يرفعوا هذه " الطاقية السحرية " — الكلمة — ليجدوا أنفسهم يتعاملون مع الشعب العربي وجهها لوجه .

(1) ول ديورانت " قصة الحضارة ، الجزء 1 ص 10 .

ونحن ، حينما نريد دراسة " دولة حمورابي " كما تعودنا أن نسميها ، وكما علمنا إياها بعض " مؤلفي " كتب التاريخ ، إذ كل شيء يرتبط بفرد ، ينهض به ويزول بزواله ، فإنه لا يسعنا إلا أن نتعرف على الشعب العربي الذي انتج مثل هذا الـ " حمورابي " ودفع به إلى مسرح الأحداث التي صنعت أو ساهمت في صناعة تاريخ العالم القديم إلى درجة كبيرة . إننا نقر دور الفرد البارز في التاريخ ، كما لا ننفي تلك الوفرة الهائلة من الأفراد البارزين المتفوقين الذين قدمتهم الأمة العربية في عصور تاريخها فصنعوا ركائز العالم الحضارية كله دون مبالغة . وما على أي إنسان يحاول أن ينكر ذلك سوى أن يتخيل البشرية بتاريخها من دون أولئك الرجال العرب الأوائل أمثال سرجون ، وحمورابي ، وإبراهيم ، موسى ، وعيسى ، ومحمد ، وعمر ، وعلي ، أو أمثال زينون ، ومارينوس و الكندي ، وابن سينا ، وابن رشد ، وابن الطفيل ، وابن النفيس ، والبتاني ، والخوارزمي ، والحسن بن الهيثم ، وغيرهم ... لكننا مع ذلك ، نربط تفوق تلك العبقريات الخالدة والبارزة على مر العصور بخصوبة الرحم — الأمة بكل تلك العناصر والأوليات التي تساهم في إنتاج العبقرية ، من جهة ، كما إن الشروط التاريخية التي تتفاعل معها هذه الأمة في علاقة جدلية مستمرة و متواصلة لا بد وأن تملئ حاجتها الموضوعية في ظهور وإبراز مثل هذه الشخصية أو تلك . إن أيًا من أولئك الأفاضل لم يكن نيزكا هبط من السماء على الأرض فتوهج ثم انطفأ ، إنه جزء لا يتجزأ من الطينة البشرية العربية المشكلة تاريخيا ثقافيا و سياسيا و اقتصاديا و عسكريا و بيثيا و ارثيا ... وبكلمة إنهم عناوين بارزة في صفحة الأمة الكبيرة التي مارست صنع الحضارة منذ آلاف السنين .

من هذا المنطلق فنحن لن نأخذ بتلك التسميات إلا بقدر ما تساعد القارئ على الالتفاف مع المعلومات التي كان قد تلقاها من قبل . فإذا ما ألقينا نظرة واحدة على واقع الشعب العربي قبيل ظهور حمورابي لتبينت لنا حقيقة أخرى أكبر وأشمل من تلك " الحقائق " المجزأة التي اعتبرت حمورابي هذا ينتمي إلى القبائل الأمورية ، ومن هي تلك القبائل الأمورية ؟ لا أحد يدري سوى أن السومريين كانوا يطلقونها على جيرانهم

وأشقاؤهم الذين يسكنون إلى جوارهم في المنطقة الممتدة غربا فاسموهم بـ " الأموريين " أو " الغربيين " أحيانا ، تماما كما يطلق أهالي المنطقة الوسطى من الساحل السوري اسم " القبالي " لمن يليهم قبلة أي جنوبا و" الشمالي " لمن يليهم شمالا من جيرانهم حتى الحدود مع تركيا ، فهل كانت تسمية " الغربيين " تعبر عن حقيقة مجموع تلك القبائل الغربية وانتشارها . ثم هل كانت تعبر عن أصولها وارتباطاتها الأصولية مع غيرها من القبائل الأخرى ، بل هل تدل هذه التسمية على أصل أو جنس أو انتماء كي نبرر وضع تلك الحواجز والسدود المصطنعة التي وضعها الدارسون فيما بينها ، فتصطرع مع الدول القائمة وتقضي عليها وتقيم دولها ، ثم تختفي فجأة ؟

إن متابعة بسيطة لما أسموه " أموريا " أو عموريا مثلا ، تكشف لنا كيف أن ذلك الأموري ليس إلا ذلك العربي الموجود منذ آلاف السنين قبل حمورابي في الأراضي السورية الممتدة من الخليج العربي إلى البحر المتوسط ، والسوري أو السرياني شعب واحد .

أصول التسميات القبلية عند العرب :

من المعروف إن العربي كان منذ نشأته أشد الناس اعتدادا بنفسه وبمناقبه الفردية. فقد وضع نفسه منذ البداية ومنذ ان بدأ يعي وجوده ، في مركز العالم. لقد عبر عن نفسه في أساطيره الأولى ، حينما جعل من أحد آبائه الأوائل آدم أبا لجميع البشر ومن إحدى الأمهات العربيات حواء أما لجميع البشر ، فهبطت حواء في جدة ، وازدلفت للقاء آدم في (المزدلفة) وتعارفت في (عرفات) ، هذا إلى جانب اسميهما العربيين اللذين فرضوهما على العالم بأسره : فآدم ، هو الأسمر المشرب بياضا ، أو الأبيض المشرب سمرة وفي العربية القديمة يعني الشبيه ، المثل ، النظير ، وهذا يطابق فكرة أن الله خلق آدم على صورته ، كما ينطبق على أن أصله من تراب من أديم الأرض . وحواء ، وهي السمراء أيضا والخصيبة ، ثم إن لقاء آدم بحواء أنتج الأصول الأولى لكثير من البشر الذين نعرفهم .

إن ذلك الاعتداد بالنفس كان لا يترك فرصة إلا ويجد لنفسه تعبيرا لها على مر العصور ، مما لفت أنظار الدارسين جميعا ، وأخذ كثيرون منهم يتقرب إلى البيئة البدوية العربية ليدرس تلك الخصال التي تميز هذا الإنسان عن كثر ، وتجعل منه شخصية ساحرة . فقد أجمع جميع العلماء على اعتباره زائرا بمجموعة من المزايا والقيم التي يجدر بالبشرية أن تحافظ عليها وتحميها ، لأن في ذلك ضمانا حقيقية للإنسان المستقبل ، الذي قد يبحثون عن ملامحه طويلا فلا يجدونها إلا مفككة بين أجزاء الآلات الجامدة المعاصرة ، ومن تلك القيم التي ميزت وتميز هذا العربي في صحرائه : الشجاعة النادرة ، الرشاقة ، والوسامة ، والدهاء ، والذكاء الوقاد ، والكرم ، والنجدة ، وحب المرأة ، والقناعة ، وتقديس الحكمة ، واحترام الشيوخ والعلماء ، إلى جانب عشقه لغته العربية الأخاذة ، وللشعر ، وللحرية ، ثم يضيف المؤرخ ول ديورانت إلى هذا كله إن هذا "البدوي" حذر وشجاع ومهما يكن فقيرا فإنه يواجهه العالم بمهابة وأنفة ، يزهو بنقاء دمه ، ويولع بأن يضيف إلى اسمه سلسلة نسبه" (1) .

من هذه الخصال التي كان يعتد بها وبالمحافظة عليها ذلك العربي نبع اعتداده بنفسه ، ومن عشقه لهذه الخصال كان بصر على أن يربي عليها أولاده فصار الإبن يحرص عليها في نفسه حرصه على نسبه ، لأنها جزء من شخصية هذا النسب وحرصه على بقائه في قبيلته .

كانت التربية البدوية العربية تتوجه دائما إلى الأمام ، إلى المستقبل ، من خلال التركيز على الابن ، دون أن تفرط بشيء من شخصية الماضي المتمثل بالآباء والأجداد ، فألى جانب الاعتزاز بهم ، لابد من دفع العملية المناقبية في التربية إلى الأبناء من خلال إبرازهم على الساحة فوراً متمثلين لكل تلك القيم . ومن هنا كانت الأسرة العربية تركز على استبدال أبي فلان وأم فلان بالأسماء الحقيقية للآباء ، ومن هنا بقيت الأسرة العربية تحرص على تلبية رغبة المرأة بالاحتفاظ باسم عائلتها بعد الزواج . لكن ذلك لم يكن ينفي حرص الأبناء على الاعتداد بانتمائهم لأولئك الآباء ، هذا الحرص الذي بقي يؤكد

نفسه من خلال عملية الأنساب والمحافظة عليها لدى العرب بصورة لم يعرفها غيرهم ، حتى صارت ، في حد ذاتها ، لديهم ، وبصورة من الصور، تاريخاً أو علماً قائماً بذاته ، أو جزءاً من التاريخ .

إن اعتداد الناس بالحفاظ على تسلسل النسب لم يكن في جوهره إلا اعتداداً بانتمائهم إلى أصلهم العربي ، وقناعتهم بشرف الانتماء إليه . وليس يعني ذلك أن نحمل هذا الشعور معاني سلبية تميل به إلى نوع من التعصب العرقي ، واحتقار الأجناس الأخرى ، بل قد يكون قائماً في أساسه على الشعور بالسبق إلى التمسك بالقيم الإنسانية العامة وبمكارم الأخلاق . تلك القيم التي كان ما ينفك العربي يرددها في كل مجالات فخره شعراً أو نثراً . فهو ما أن يكاد يذكر نسبته إلى أحد من الأجداد حتى يسارع إلى التغني بشمائل ومناقب ذلك الجد الذي لا تنطفئ ناره ، ويقصده الشريد والطريد والملهوف ، واليتامى ، والضعفاء ، والغرثى ، والفقراء ، والمحتاجون ، والمظلومون ... وإذا كان الشعر " ديوان العرب " فإن التغني بتلك الشمائل جميعاً يشكل لب مضمون ذلك الديوان على مر العصور . وكثيراً ما كانت تلك المناقب تطير كالطيور المجنحة من بقعة إلى أخرى حتى تطبق شهرة صاحبها الأرض العربية والقبائل كلها . وكثيراً ما كنا نسمع ونقرأ عند مبارزة فارسين من فرسان العرب أن يطلب أحدهما من الآخر أن ينتسب ثم ما يلبث أن يهتف بجذل : كفؤ وكریم ، أو أخ كريم ، أو ابن أخ كريم .

كما إن الاعتداد بتلك المفاخر التي يعلق كالأوسمة على صدر الأجداد واحداً بعد آخر لم تكن تعني عند العربي سوى أن يجعل منهم قدوة ويرتفع بنفسه إلى مستوى أولئك الأجداد أو يفوقهم حتى يكون جديراً بالانتماء إليهم . والشعر العربي ، وكتب علم النفس ، والاجتماع ، والتاريخ عندهم أيضاً حافلة بالشواهد والأمثلة :

لسنا وإن كرمنا أوائلنا يوما على الأحساب نتكل
نبني كما كانت أوائلنا تبني ونفعل كالذي فعلوا

وهذا ما يؤكد المثل العربي " الشرف يدعو إلى الشرف " وأكثر المدوحين مدحوا بأعمالهم لا بأنسابهم وها هو عامر بن الطفيل أحد سادة الأنساب يقول :

وإني وإن كنت ابن سيد عامر في السر منها والصريح المذهب
فما سودتني عامر عن وراثة أبى الله أن أسمو بأب ولا أب

لقد كان شعور العربي بالتفوق نابعا من إدراكه لمضمون هذا التفوق الإنساني في التعامل مع الآخر. لقد وعى ذلك منذ آلاف السنين ، أبدع خلالها مجموعات من النظم والتشاريح مارسها في الواقع ، في الوقت الذي كانت تحيط به قبائل وشعوب لم تتجاوز درك الهمجية مما جعله يدفع الثمن جد فادح ، ونهضت في نفسه إرادة أن يكون رائدا ومعلما ، وأن يهدم بالسيف الحدود أمام الكلمة المضيفة ، وأن يغزو بتلك القيم أذهان العالم القديم كله. ومن هنا نبع إيمانه القديم بأنه صاحب رسالة إلى العالم ، وأثبت ذلك عمليا أكثر من مرة وعلى مدى التاريخ .

إن اهتمامه بالنسب لم يكن إلا من قبيل تعلقه بمكارم ذلك النسب الإنسانية التي تتحدث بها العرب . فكما أن اهتمامه بنسب فرسه يثبت له أنه جواد (معطاء) ، وأنه كريم (معطاء) ، فإن اهتمامه بنسبه هو كان من قبيل هذا الجود وهذا الكرم ، حتى صارت صفة الكرم ملازمة له ولفرسه معا، فيقول : فرس كريم ، وفارس كريم النسب .

ولقد تطور هذا الاهتمام بالنسب حتى أصبح تقليدا وشبه عام ملازما للوجود العربي منذ أقدم العصور وحتى اليوم . ولم يضعفه ويحد من سعة انتشاره إلا نتائج العلوم الطبيعية التطبيقية منذ القرن التاسع عشر التي ضيقّت المسافات بين الشعوب والناس من شتى الأجناس ، وجعلت عملية العيش على هذا الكوكب تتم ضمن شبكة معقدة ومتداخلة من كل النواحي : البشرية والاقتصادية والفكرية وغيرها .

ولقد كان الرسول العربي ممن يحافظ على هذا التقليد ، حتى أنه كان كثيرا ما يردد عبارة " أبونا إبراهيم " ، وروي أنه كان يقر صحة التسلسل في النسب حتى معد بن عدنان بن أود ثم بمسك موضحا أن ثمة ضياع بعض حلقات السلسلة ما بين أود وإبراهيم ثم بين إبراهيم وآدم . وقد ورد في "سبائك الذهب في معرفة قبائل العرب " أن العلماء من الأئمة درجوا على المحافظة على ذلك التقليد بعد عهد الرسول تمثلا بأسلافهم : " وقد ذهب كثير من الأئمة المحدثين والفقهاء كالبخاري وابن اسحق والطبري إلى جواز الرفع

في الأنساب احتجاجا بعمل السلف ، فقد كان أبو بكر الصديق رضي الله عنه في علم النسب بالمقام الأرفع والجانب الأعلى ، وذلك أدل دليل وأعظم شاهد على شرف هذا العلم وجلالة قدره ، وقد حكى صاحب الريحان و الريعان عن أبي سليمان الخطابي رحمه الله تعالى أنه قال : كان أبو بكر رضي الله عنه نسابة فخرج مع رسول الله ﷺ ذات ليلة فوقف على قوم من ربيعة فقال : ممن القوم؟ قالوا : ربيعة ، قال : وأي ربيعة أنتم ، أمن هامتها أم من لهازمها ؟ قالوا : بل من هامتها العظمى ، قال أبو بكر : ومن أيها ؟ قالوا : من ذهل الأكبر ، قال أبو بكر : فمنكم عوف الذي يقال لا حر بوادي عوف ؟ قالوا : لا ، قال فمنكم البسطام بن قيس أبو القرى ومنتهى الأحياء ؟ قالوا : لا ، قال : فمنكم الهوفزان قاتل الملوك وسالباها أنعمها ؟ قالوا : لا ، قال فمنكم المزدلف صاحب العمامة المفردة ؟ قالوا : لا ، قال : فمنكم أحوال الملوك من كندة ؟ قالوا : لا ، قال : فمنكم أصهار الملوك من لخم ؟ قالوا : لا ، قال : فلستم بذهل الأكبر ، بل ذهل الأصغر . فقام إليه غلام من شييان يقال له دغفل وقد بقل وجهه فقال : إن علي سائلنا أن نسأله ، والفتى لا يعرفه أو تحمله ، يا هذا ، انك قد سألتنا فأخبرناك ولم نكتملك شيئا من خبرنا . فممن الرجل ، قال أبو بكر : أنا من قريش ، قال الغلام : بخ بخ ، أهل الشرف والرياسة ، فمن أي القرشيين أنت ؟ قال : من ولد تيم بن مرة ، قال الفتى أمكنت والله من سواء الثغرة ، فمنكم قصي الذي جمع القبائل كلها ، وكان يدعى جمعا ؟ قل : لا ، قال : فمنكم هاشم الثريد لقومه ؟ قال : لا ، قال : فمن أهل الندوة أنت ؟ قال : لا ، قال : فمن أهل السقاية أنت ؟ قال : لا ، قال : فمن أهل الحجابة أنت ؟ قال : لا ، واجتذب أبو بكر رضي الله عنه زمام ناقته ، فقال الفتى :

صادف درء السيل دراء يدفعه يهيضه حيننا وحيننا يصدعه

أما والله يا أخا قريش لو تثبت لأخبرتكَ أنك من رعيان قريش ولست من الذوائب . فأخبر رسول الله ﷺ بذلك فتبسم ، فقال علي رضي الله عنه : يا أبا بكر لقد وقعت من الغلام على باقعة ، قال : أجل ، يا أبا الحسن ، ما من طامة إلا فوقها طامة .

و دغفل هذا هو دغفل بن حنظلة النسابة الذي يضرب به المثل في النسب " (1)
إن هذا يبين مدى استمرار العرب في المحافظة على هذا التقليد الذي أصبح لديهم علما
أو شبيها بالعلم يتخصص ويبرع به أناس في كل العهود ، كما يوضح بجلاء كيف تقترن
معرفة الأنساب بمعرفة الشماثل والمكارم الحميدة التي تصبح جزءا من النسب ، وبالتالي
جزءا من الشخصية العربية .

وإن شبه جزيرة العرب ، الموطن الأساسي لهذا البدوي العربي ، ظلت أقدم مناطق
الأرض سكنا ونقاء في العنصر، على حد تعبير العلماء والمؤرخين ، نتيجة لتضافر مجموعة
من الظروف أهمها : كونها غارقة حتى العنق في مياه البحار مما لم يدع مجالا للغزو أن
يصل إليها ، كما أن تجويفها الصحراوي الكبير الذي يعتبر ميدانا أوسع صحارى العالم
وأشدها قحلا وجفافا (الربع الخالي) فإنه لم يشكل في يوم من الأيام مركزا يغري
الآخرين بالغزو ، أما الجانب الشمالي المفتوح فهو مفتوح على مناطق عربية صحيحة
تشكل الدرع الواقي في حمايته والدفاع عنه ، نعود فنقول : إنه بالرغم من توفر هذا
الظرف الذي يجعل العنصر العربي في شبه جزيرة العرب قد حافظ على نقاوته أكثر من
أي منطقة أخرى في العالم فإن ذلك لم يجعل منه متعصبا لجنسه إلا بقدر ما يمثل هذا
الجنس من قيم إنسانية رفيعة ومكارم في الأخلاق وحسن التعامل . وقد ظل هذا
الواقع ينعكس في تشريعاته التي سنّها لنفسه ولل البشرية كما انعكس في تعامله مع
جيرانه ، ولاسيما سكان إفريقيا ، مما جعل الأفريقيين ينحذبون إلى العربي ويمنحونه
ثقتهم في كل العصور . ومن الغريب والملفت للأنظار حقا أن نرى اليوم في عصرنا هذا
أمة كالأمة الأسبانية تقيم تمثالا لحاكم أجنبي ظل شعبه يحكمها سبعة قرون من الزمن* .
إن كلا من فيليب ولورانس اللذين تطوعا للعيش في البادية بين هؤلاء العرب عقودا من
السنين فيعيشان حياتهم بكل دقائقها وتفصيلها من أجل التوصل إلى مفاتيح الشخصية
العربية الغامضة بالنسبة للإنسان الغربي ، والأسرة في وقت معا ، لتتمكن بريطانيا

(1) سبائك الذهب في معرفة العرب - للبغدادي ، بيروت ص5 - 6 .
• أقامت الحكومة الإسبانية مؤخرا تمثالا لعبد الرحمن الداخل في مدينة " المنكب " الأسبانية التي
كانت أول مدينة دخلها عبد الرحمن ، كما أطلقت اسم دمشق على أحد شوارعها الرئيسية .

الاستعمارية من ترويض هذا الإنسان و" تدجينه " ولتحسن أمر قيادته ، لم يتمكنوا في النهاية من أن ينكروا شدة جاذبية تلك الشخصية التاريخية الفريدة وتميزها .

لقد كتب لورانس يقول : إن في الإمكان أن تربط العرب بفكرة كأثما قيد يقيدهم .. وهؤلاء العرب ما أن يشاهدوا في طريقهم رسول فكرة دون مأوى يجئ في رأسه ، ودون أي وسيلة للبقاء سوى الصيد والصدقة ، ما أن يشاهدوا ذلك الرسول حتى يتبعوه تاركين كل ما في الأرض من ثروات وفي الدنيا من مباحج . إنهم أتقياء طيبو القلب في أيديولوجيتهم ، يتعاملون عن كل لون وتلون ، ويتشبثون بالاعتقاد ... وإن روحهم غريبة وغامضة وغنية بالهبوط إلى الدرك الأسفل والارتقاء إلى السماء الأعلى دون قياس . إنها أكثر حيوية وخصبا في المعتقدات من أي شعب آخر في العالم . والعربي شعب الانطلاقات البديعة يسير بجنون وراء مفهوم من أكثر المفاهيم غموضا ، ويستخدم في معركته شجاعة وخلقا لا حد لهما دون النظر لما ستكون عليه النتائج . إنهم شعب أقل استقرارا من الماء ، لكنه كالماء بالضبط ، متأكد في النهاية من النصر . منذ فجر الحياة ، وموجاته المتتالية تتكسر على حواجز وكل منها تعود مع ذلك جارفة في طريقها بعض الغرائث الذي يعيقها ... العرب شعب فخور وصعب المراس ، متعشق للحرية التي انتزعها منه على التوالي عدد من الغزاة ، من مغول وأتراك وإنجليز وفرنسيين وإيطاليين واسبان " (1) .

هذه الشخصية الفريدة التي لم يتمكن من إنكار سحرها حتى أعداؤها كانت اللغة العربية من أهم مقوماتها : إن اللغة العربية هي اللغة الوحيدة في العالم التي واكبت مسيرة البشرية منذ طفولتها وحتى اليوم ، فحملت في ذاتها سحر كل تلك الرؤى والمطامح الإنسانية ، الخيالية ، الأسطورية ، والواقعية . حملت واحتضنت البيئة الروحية للإنسانية آلافا من السنين ، دون أن تبدد حيويتها وتنضب ينباع شخصيتها المتفجرة من أعماق الشخصية العربية ذاتها ، اللغة التي أكد السيد ماسينيون على " طاقات البناء الداخلي فيها ، والمستقبل العالمي لبنيتها اللغوية " ، هذه الطاقة التي فسرها جان وولف بـ " قوة

التعبير عن عدة أحوال معينة ، وتحقيق اتفاق منسجم بين الفكرة ولحظة تأسيسها ، هذه الطاقة الداخلية الخاصة بالعربية عبثا تبحث عن مثيلها في اللغات الأخرى المستعملة في العالم " (1) إنها اللغة التي وصفها المفكر البريطاني راسل بـ " التأثير الساحر الذي لا يقاوم حتى بالنسبة لأعدائها " ووصف تلك الأمسيات التي كان قضاها في فلسطين المحتلة ، فأدهشه كيف أن الإسرائيليين كانوا يهربون ليلا من بيوتهم ليسهرُوا مع جيرانهم العرب ، لا شيء إلا " للتمتع بسماعهم وهم يتحدثون ويسمرون بتلك اللغة الأخاذة " .

والمراد من حديثنا هذا كله هو أن العرب حينما اهتموا بتسلسل أنسابهم وحافظوا عليها جيلا بعد جيل ، وتناقلوها شفوية ومكتوبة في الشعر وفي النثر ، وبرز من بينهم في كل الأجيال من برعوا في هذا المجال حتى صار اختصاصا قائما بذاته ، لم يكن ذلك نابعا من تعصب عرقي ، بقدر ما كان تأكيدا على تسلسل المكارم والقيم التي يعتز بها العربي والحرص على تسلسلها ودوام بقائها . فإذا كان من بين أشهر النسابين العرب أبو بكر الصديق خليفة الرسول الأول ، مع الأخذ بالاعتبار جهاد أولئك المسلمين الأوائل مع الرسول من أجل تطبيق أحكام الشريعة السمحاء ، التي لم تفرق بين عربي وغير عربي ، بين أبيض وأسود ، بين قوي وضعيف ، بين غني وفقير إلا بالمضمون الإنساني الحقيقي لكل إنسان ، وبالتقوى ، وبالتقوى خشية الله والحذر من الوقوع فيما يغضبه من الخطأ ، فهذا في حد ذاته ، كان شاهدا حقيقيا على المضمون الإنساني الرفيع للاعتزاز بالنسب عند العرب الذي تميزوا به وحدهم عن بقية الشعوب . إن الأفضلية بين إنسان وآخر هي بمكارم الأخلاق ، وإن مكارم الأخلاق كانت هي الراية التي يرفعها كل عربي فوق نسبة حين ينتسب . إنها هي التي جعلت جميع العرب يرحبون بإبراهيم الخليل في جولانته ، وهي التي جعلت عليا بن أبي طالب يشير إلى بنت حاتم الطائي حينما وقعت بين السبايا لدى المسلمين أن تعرف عن نفسها حين مرور الرسول بهن ، وإنها هي التي جعلت الرسول العربي يفك أسرهما ويرسلها معززة مكرمة إلى أهلها ويقول : " رحم الله أباك ،

(1) المرجع نفسه ، ص 25 .

فقد كان يحض على مكارم الأخلاق " . إن مكارم الأخلاق هي التي جعلت الرسول العربي وعليا يشعلان بأن حاتم الطائي كان " مسلما " في سلوكه ومناقبته دون أن يسلم .

فالنسب إذن ، وحرص العربي على الاحتفاظ بصحة نسبه لم يكن من قبيل التمييز العنصري ، وإنما كان من قبيل التأكيد والاعتزاز بتلك المفاخر التي لا تنفصل عن شخصيته . ومن هنا كانت كل التسميات القبلية تحرص على الاحتفاظ بتلك الأنساب أصولا وبطونا وأفخاذا .

لقد كان وعي العربي لنسبه لا ينفصل عن وعيه لوجوده نفسه . إنه نوع من التربية على مناقب ، والمحافظة عليها ، لأن في ذلك محافظة على الذات العربية ، على مقومات الشخصية العربية وميزاتها معا ، محافظة على الروح القومية البعيدة عن العنصرية ، والمرتبطة بالقيم الإنسانية العامة من توح للعدل والحرية للجميع .

إن هذه الروح القومية ذاتها هي التي جعلت الرسول العربي المضطهد من بني قومه الذين عذّبوه وهجروه ، يهتف يوم ذي قار بين بكر بن وائل والفرس " هذا أول يوم انتصفت فيه العرب من العجم ، ونصرت عليهم بي " إن ظلم بني قومه وتعدياتهم عليه لم تمس في وعيه حقيقة مشاعره القومية العربية العامة الطامحة إلى التحرر والوحدة ، ولم تكن قبيلة بكر بن وائل التي هزمت جيش كسرى قد دخلت الإسلام ، إذ أن معركة ذي قار حدثت في العام الأول لظهور الإسلام ، لكن الرسول العربي كان يشعر بوحدة الهدف : إنه التحرير من الداخل والخارج .

والأمثلة لا حصر لها تلك التي تدل على اعتزاز الرسول العربي بنسبه وبقوميته ، علما أن أحدا لا يستطيع أن ينكر تلك القيم الإنسانية الرفيعة التي واكبت عملية التربية القومية التي أسسها محمد ، " فقد روى هشام عن أبيه عن ابن عباس ، ورواه الهيثم عن الكلبي عن أبي صالح أن النبي ﷺ مر على فتية من الأنصار يتناضلون ، فقال : " ارموا يا بني

إسماعيل ، فإن أباكم كان راميا ، ارموا وأنا مع ابن الأدرع" وهو رجل من خزاعة ، فرمى الفتية بنابهم ، وقالوا : " يارسول الله ، لقد كنت معه فقد نضل (1) " .

ولو ألقينا نظرة على تسلسلات الأنساب العربية في التواريخ العربية القديمة لوجدنا أصول تلك التسميات القبلية هناك وليس في أي مكان آخر . إن العربي لا يمكن أن يسمى نفسه أو قبيلته بالمكان الذي يحل فيه ، لكنه يسمى كل الأمكنة باسمه هو . وإن نظرة واحدة على تسلسل الأنساب الذي أورده كتاب التوراة نقلا عن العرب هناك ، كما نسخوا ونقلوا وشوهوا باقي مواضع التوراة من قصص التكوين إلى الطوفان ، إلى جمع الأمثال ، إلى المزامير ، إلى نشيد الإنشاد ، إلى سفر الجامعة ، إلى قصة أيوب (وهذا ما سوف نتحدث عنه مفصلا فيما بعد) تبين لنا كيف أن أسماء القبائل العربية تعود في أصلها إلى أسماء الأجداد صعودا عبر آلاف السنين . فكما أن القبائل تميم ، ومضر ، وعدنان ، وأسد ، وربيعة ، ونزار ، وهوازن ، وهمدان ، و تيم ، و غطفان ، و قيس ، و عبس ، و ذبيان ، وغيرها من كل قبائل العرب المعروفة سميت بأسماء آبائها ، فإنه إلى سام ، وحام ، وكوش ، وكنعان ، وصيدون ، وحث (ولدي كنعان) ، و عيلام ، و أشور ، و لود ، و آرام ، و حضرموت ، و إسماعيل ، وقدمه ، و مديان ، و عماليق ، و كلدة ينبغي أن تعود أصول تسميات القبائل السامية و الحامية و الكوشيين ، والكنعانيين و الصيدونيين و العيلاميين و الآشوريين و اللوذين ، والآراميين و الاسماعيليين ، و القدميين ، و المديانيين ، و العماليق ، و الكلدانيين ، وغيرهم كثير .

إن علينا نحن لا على الدارسين الغرباء تقع مهمة فهم الواقع العربي وكيف تتشكل القبيلة العربية بكل نظمها على أساس من تفرعات النسب . وقد ينضوي تحت جناح هذه القبيلة أو تلك أفراد أو جماعات ، لأسباب مختلفة ، كان من أهمها دائما شعورهم بالضعف في محيط من الأقوياء ، ثم كانت تتطور الأمور في كثير من الأحيان إلى تحالفات قبلية ، أو اتحادات يغلب عليها عادة الطابع السياسي والحربي ، ومثال على ذلك دولة

(1) المسعودي "مروج الذهب " الجزء 2، ص 70 .

كندة وسط جزيرة العرب ، التي كانت تؤلف في واقع الأمر نوعاً من التحالف القبلي الكبير ، ضم أسدا وربيعة ، في كيان سياسي واحد استمر حوالي القرن . إن طبقات الأنساب عند العرب كانت كما يلي : الشعب ، القبيلة ، والعمارة ، والبطن ، والفخذ ، والفصيلة ، والعائلة ، والأسرة ، وزاد بعضهم العشيرة قبل الفصيلة وعشيرة الرجل هم رهطه الأدنون .

وقد فسر القلقشندي في كتابه (نهاية الأرب في معرفة انساب العرب) هذا الترتيب فقال : وكأهم رتبوا ذلك على بنية الإنسان ، فجعلوا الشعب بمثابة أعلى الرأس ، والقبائل بمثابة قبائل الرأس ، وهي القطع المشعوب بعضها إلى بعضها ، والعمارة العنق والصدر ، وجعلوا الفخذ تلو البطن ، لأن الفخذ من الأنساب بعد البطن ، وجعلوا الفصيلة تلو الفخذ ، لأنها النسب الأدنى الذي يفصل عنه الرجل ، بمثابة الساق والقدم ، إذ المراد بالفصيلة العشيرة الأدنون بدليل قوله تعالى " وفصيلته التي تؤويه " أي تضمه إليها ، ولا يضم الرجل إلا أقرب عشيرته ، وأعلن أن أكثر ما يدور على الألسنة من الطبقات الست المتقدمة القبيلة ثم البطن ، وقل أن تذكر العمارة والفخذ والفصيلة ، وربما عبر عن واحدة من الطبقات الست بالحلي ، إما على العموم مثل أن يقال : حي من العرب ، وإما على الخصوص مثل أن يقال : حي من بني فلان .

أما اليوم فإن أكثر ما يدور على ألسنة البدو في بلادنا من المصطلحات في تقسيم الأنساب هو كما يلي : " إن العنصر الأول في المجتمع البدوي هو " البيت " ويعنون به العائلة أو الأسرة . فالبيوت أو الأسر القريبة بعضها من بعض تؤلف " الفخذ " أو " الآل " مثل آل مشهور من فئدة الشعلان في الأرولة ، ومثل آل مهيد من فئدة المنيع في الفدعان . وتجتمع الأفخاذ فتؤلف " الفرقة " أو " الفئدة " وجمعها فرق أو أفناد مثل فئدة الشعلان و فئدة المنيع المذكورتين . والفئدة في الأصل عدة أفخاذ من جد قريب ، لا يكاد يتجاوز الخامس في الغالب . وتجتمع الفرق أو الأفناد فتكون " العشيرة " مثل عشيرة الأرولة وعشيرة الفدعان في عزة . وتجتمع العشائر فتكون " الضناً " مثل ضناً مسلم و ضناً بشر في عزة ، وتجتمع الضناعات فتؤلف القبيلة مثل قبيلة شمر وقبيلة عزة .

وقد يتساهل في التعبير فتسمى العشيرة قبيلة أو الفخذ فصيلة أو الفندة فرقة ، ويزعم رواة البدو أن القبيلة إنما تنشأ من جد عام يورث اسمه إلى قبيلته كبني صخر وبني خالد وغيرهم. والعشيرة تعترف بشيخ واحد (1) .

وقال القلقشندي أيضا في بيان أمور تحتاج الناظر في الأنساب إليها :

1— إذا تباعدت الأنساب صارت القبائل شعوبا ، والعماثر قبائل ، والبطون عمائر.. الخ .

2 — القبائل هم بنو أب واحد ، والأب الواحد قد يكون أباً لعدة بطون ، ثم أبو القبيلة قد يكون له عدة أولاد ، فيحدث بعضهم قبيلة أو قبائل ، فينسب إليه من هو منهم ، ويبقى بعضهم بلا ولد أو يولد له ولم يشتهر بولده فينسب إلى القبيلة الأولى .

3 — إذا اشتمل النسب على طبقتين فأكثر كهاشم وقريش ومضر وعدنان جاز لمن في الدرجة الأخيرة من النسب أن ينتسب إلى الجميع ، فيجوز لبني هاشم أن ينسبوا إلى بني هاشم وإلى قریش وإلى مضر وإلى عدنان ، فيقال في أحدهم الهاشمي ويقال فيه القرشي أو المضري و العدناني ، بل قال الجوهري : إن النسبة إلى الأعلى تغني عن النسبة إلى الأسفل ، ويرى بعضهم تقديم العليا على السفلى ، وبعضهم يرى العكس مثل أن يقال في النسب إلى عثمان بن عفان : الأموي العثماني ، أو العثماني الأموي .

4 — وقد ينضم الرجل إلى غير قبيلته بالحلف والموالة فينتسب إليهم ، فيقال فلان حليف بني فلان أو مولاهم .

5 — إذا كان الرجل من قبيلة ثم دخل في قبيلة أخرى جاز أن ينتسب إلى القبيلة الأولى ، وأن ينتسب إلى القبيلة التي دخل فيها مثل أن يقال التميمي ثم الوائلي ، أو ما أشبه ذلك .

6 — القبائل تسمى في الغالب بإسم الأب الولد للقبيلة ، كربيعة ومضر و الأوس والخزرج و نحو ذلك ، وقد تسمى القبيلة بإسم أم القبيلة ، كخندف و بجيلة و نحوهما . وقد تسمى القبيلة بغير هذا وربما وقع اللقب على القبيلة بحدوث سبب كغسان حيث نزولوا على ماء يسمى غسان ، وهم بنو مازن .

(1) أحمد وصفي زكريا " عشائر الشام " ص 177 .

7 — أسماء القبائل في اصطلاح العرب على خمسة أضرب ، أولها أن تطلق على القبيلة لفظة الأب كعاد وثمرود ومدين وما شاكلهم وبذلك ورد القرآن كقوله تعالى " إلى عاد " و" إلى ثمود " و" إلى مدين " يريد بني عاد وبني ثمود ونحو ذلك ، وأكثر ما يكون في الشعوب والقبائل العظام ، ولاسيما في الأزمنة المتقدمة بخلاف البطون والأفخاذ ونحوها. وثانيهما أن يطلق على القبيلة لفظ البنوة فيقال بنو فلان ، وأكثر ما يكون ذلك في البطون والأفخاذ و القبائل الصغار لاسيما في الأزمنة المتأخرة . وثالثها أن ترد القبيلة بلفظ الجمع مع الألف واللام كالطالبين والجعافرة ونحوهما ، وأكثر ما يكون ذلك في المتأخرين دون غيرهم . ورابعها أن يعبر عنها بـ " آل " كآل مدين وآل ربيعة وآل الفضل وآل علي وما أشبه ذلك ، وأكثر ما يكون ذلك في الأزمنة المتأخرة لاسيما في عرب الشام في زماننا . وخامسها أن يعبر عنها بأولاد فلان ، ولا يوجد ذلك إلا في المتأخرين من أفخاذ العرب على قلة .

8 — غالب أسماء العرب منقولة عما يدور في خزانة خيالهم مما يخالطونه ويجاورونه ، إما من الحيوان كأسد وغر وحية وحنش ، وإما من النبات كنبت و حنظلة ، وإما من أجزاء الأرض كفهر وصخر ونحو ذلك .

9 — الغالب على العرب تسمية أبنائهم بمكرهه الأسماء ككلب و حنظلة وضرار وحرب وما أشبه ذلك ، وتسمية عبيدهم بمحجوب الأسماء كفلاح ونجاح ونحوها ، والمعنى في ذلك ما يحكى أنه قيل لأبي الدقيس الكلبي : لم تسمون أبناءكم بشر الأسماء نحو كلب وذئب وعبيدكم بأحسن الأسماء نحو مرزوق و رباح ، فقال إنما نسمي أبناءنا لأعدائنا وعبيدنا لأنفسنا ، يريد أن الأبناء معدة للأعداء فاختاروا لها شر الأسماء ، والعبيد معدة لأنفسهم فاختاروا لها خير الأسماء .

ومما يزيد في تمسك العربي بنسبه إلى الجد الخامس على الأقل هو ارتباط ذلك ارتباطاً عضوياً بحياته اليومية وما تتطلبه من تكافل وتضامن على مستوى الفرد أو الجماعة ، ومن المعروف أن قوانين البدو تفرض الاشتراك في دفع دية الدم حتى الجد الخامس .

لقد أوردنا ذلك لنضع أمام القارئ تصورا صحيحا إلى درجة كبيرة عن كيفية تشكل القبيلة العربية ، هذا التشكل لم يتغير منذ آلاف السنين وحتى اليوم ، وبالتالي فإن على كل من يتصدى للبحث في أصول التسميات القبلية العربية أن يلجأ إلى الواقع القبلي العربي أولا ، لا إلى المعاجم الأجنبية لبحث عن معاني هذه التسمية أو تلك .

أحمد وحواء في النسب عند العرب :

إن معرفة العربي بنسبه تقف منذ أقدم العصور عند آدم ، لكن الوقوف عند آدم الذي نعرفه ترك ما وراءه فراغا خفيفا مبهما جعله يطلق لخياله العنان في رسم البداية ، وطالما أن تلك البداية سدت من حيث التسلسل في النسب فلا بد إذن من بداية مع آدم نفسه لها سماتها ومواصفاتها ، بحيث جعلت من هذا الجد العربي مزيجا من الواقع والرمز في آن معا ، كما لا بد وأن يتحمل كل ما يمكن تصوره عن بداية الإنسان أو الإنسان البداية . وقبل الحديث عن " آدم " لابد من التنبيه إلى الأمور الأساسية التالية :

1— إن كلمة " آدم " التي يقصد بها ما نعرفه اليوم بالإنسان العاقل الأول هي اسم جنس وليست اسما لشخص ، فالرب الخالق حينما خلق الإنسان العاقل الأول من ذكر واثني لم يخلقه فردا بل " فرادى " وإلا لكان حتما على ذرية هذا الزوج الفرد والزوجة الفرد أن يتكاثروا منذ البداية عن طريق التزاوج بين الأخوة ، وهذا هو الحال بعينه من كل الجوانب الإنسانية والإلهية .

2 — إن التراث العربي ميز بين " آدم " الإنسان العاقل الأول وبين آدم الرسول ، فإذا كان عمر الإنسان العاقل الأول يعود ربما إلى مئات الآلاف من السنين ، فإن آدم الرسول لا يتعدى الألف السادس قبل الميلاد . إن " آدم " الرسول هذا هو الذي عناه القرآن الكريم في الآية ﴿ إن الله اصطفى آدم ونوحا وآل إبراهيم وآل عمران على العالمين ، ذرية بعضها من بعض والله سميع عليم ﴾ (آل عمران 33 — 34) ، وهو الذي أشار إليه الحديث الشريف فقد جاء في تاريخ الطبري : " حدثنا أحمد بن عبد الرحمن بن وهب قال : حدثني عمي قال : حدثني الماضي بن محمد عن أبي سليمان عن

القاسم بن محمد عن ابن إدريس الخولاني عن أبي ذر الغفاري قال : قال رسول الله ﷺ يا أبا ذر أربعة (يعنى من الرسل) سريانئون آدم وشيت ونوح وأخنوخ (الذي هو إدريس) وهو أول من خط القلم ، وأنزل الله تعالى على خنوخ ثلاثين صحيفة " (1) .

3 — لكن الذاكرة الشعبية العربية ، رغم هذا التمييز ، خلطت بين " آدم " كاسم لجنس الإنسان العاقل الأول وبين آدم الرسول . إن هذا الخلط بين الاثنين ضيع كثيرا من جوانب الحقيقة التاريخية لكل منهما ، واستطرادا جعل من الكائن " المخلوط " الجديد أقرب إلى الخرافة منه إلى الحقيقة التاريخية .

4 — إن جهل وتخلف الكهنة الذي كتبوا أسفار التوراة بعد موسى بألف عام أضافوا بتفسيراتهم ونظراتهم المتخلفة إلى الموضوع إشكالات أخرى جديدة أوقعه نهائيا موقع الخرافة حينما قرروا أن عملية الخلق تمت لآدم الفرد الذكر وحده أولا وقد جبله الخالق من الطين بيديه كما يجبل المثال تمثالا ، ثم نفخ فيه نسمة الحياة ومن " ضلعه " خلق له أنثاه حواء !

5 — وأخيرا إن الخلط بين آدم الإنسان العاقل الأول وبين آدم الرسول سبب عمليات خلط أخرى نذكر منها :

- فالعربي الذي يحفظ سلسلة نسبه وبخاصة ذلك النسب الخاص بالأنبياء والرسل والذي ينتهي عند آدم الرسول لم يعد يميز بين " الآدمين " .
- ولما كان الناس في زمن آدم الرسول قد توزعوا بين أنماط العيش المتعددة ما بين الصيد والرعي والزراعة يدل على ذلك التنافس ما بين ابني آدم هابيل الراعي وقايل الزراع ، فقد أسقط ذلك بسهولة على آدم الإنسان العاقل الأول
- لما كانت البشرية قد تحركت في تطورها من حياة العطالة المعتمدة على ما تقدمه الطبيعة نفسها من كساء و غذاء ، عندما كانت بعض المناطق مزيجا من الغابات والبساتين والحقول ، فتتوفر فيها الأشجار المثمرة والنباتات وبعض البقول البرية ، إلى حياة الصيد ، ثم تدجين الحيوان وتربيته والانتقال بالتالي ، إلى حياة الرعي ، ثم إلى تدجين النباتات

وزراعتها والانتقال إلى حياة الاستقرار الزراعي ، فقد كان على أبنينا آدم أن يتحمل بنفسه وطأة كل هذه العملية ، وتقع على عاتقه وحده كل مراحل الانتقال تلك ، إذ إنه في زمن آدم وأبنائه ، كما يستدل من كل المصادر والآثار المكتشفة ، كان الناس يمارسون حياة الصيد والرعي والزراعة معا في مجتمعاتهم ، وهكذا فقد تحول أبونا آدم ، بفعل وقوعه آخر سلسلة النسب في الذاكرة العربية ، إلى رمز وواقع معا . لقد عاش مرحلة " الجنة " (والجنة في كل اللهجات العربية القديمة تعني الحديقة ، والأرض التي تحوي كل أنواع الشجر من الحراجي إلى المثمر إلى النباتات الأخرى) حينما كان الإنسان يعتمد على ما تقدمه له هذه الأرض — الجنة دوئما عناء ، فأين كان موقع هذه الأرض — الجنة ؟

إذا ما رجعنا إلى المصادر العربية لنتعرف على مكان وجود آدم فإننا نعثر على رواية واحدة يكاد يجمع عليها كل المؤرخين والأخباريين العرب ... فقد جاء في تاريخ ابن الأثير أن آدم " أهبط على جبل يقال له نود من أرض سرنديب ، وحواء بجدة .. وأهبطت الحية بأصفهان و إبليس بميسان " (1) .

وجاء في تاريخ الطبري : " عن السلف الصالحين عن ابن عباس قال أهبط آدم بالهند وحواء بجدة فجاء في طلبها حتى اجتمعا فازدلفت إليه حواء فلذلك سميت جمعا ، قال وأهبط آدم على جبل بالهند يقال له بوذ .. وقال آخرون بل أهبط آدم بسرنديب على جبل بوذ وحواء بجدة من أرض مكة وإبليس بميسان والحية بأصفهان .. وقيل أهبط إبليس بساحل بحر الأبله " (2) . (الأبله : بضم الأول والثاني وتشديد اللام وفتحها بلدة على شاطئ الدجلة في زاوية الخليج الذي يدخل إلى مدينة البصرة ، وهي أقدم من البصرة وكان فيها مسالخ وقرى قبل أن تمصر البصرة) *

(1) الكامل في التاريخ لابن الأثير الجزء 1 ص 22 .

(2) تاريخ الطبري الجزء 1 ص 81 .

• إن كلمة " نود " أو " بوذ " كانت تكتب " ند " أي بدون تنقيط أو تصويت ، إذ من المعروف أن الأحرف الصوتية ، وكذلك نظام التنقيط أدخلوا على الكتابة العربية في فترة متأخرة ، ومن هنا ظهرت عدة احتمالات لقراءة الكلمة ، أما أصل التسمية فهو " ناد " أو نعد وهو جبل " النعد " (أو كلب النعد حاليا جنوب الطائف) وهو من جبال السراة ، وكلمة " السراة " هي صيغة

ولو أننا عدنا إلى المصادر العربية السورية حيث تتوفر لنا أقدم المدونات العربية المكتوبة بعد اختراع الكتابة ، أي بعد بدء التاريخ ، وفتشنا عن الأرض — الجنة في مدونات أولئك العرب السومريين لعثرنا على الحقيقة التالية : لقد عثر على لوح نقشته عليه قصيدة سومرية فيها تشابه بين المدونات التوراتية والقصة الرمزية ، وكان موضع الفردوس بموجب القصة السومرية في أرض " دلمون " التي رأى بعض الباحثين أنها كانت في الجهة الجنوبية الغربية من بلاد فارس (الشاطئ الشرقي للخليج) بينما يرى البعض الآخر أنها كانت في الجهة الغربية من ساحل الخليج العربي ، وقد عيّن هؤلاء الباحثون المحققون مكانها في البحرين ، وتذهب القصة السومرية إلى أن بلاد " دلمون " كانت جزيرة تتمتع بقدرسية خاصة ، وكانت فيها آلهة تعبد لها أهل العراق ، وقد وصفت بأنها " أرض الخلود " إلا أنه كان ينقصها الماء العذب اللازم لحياة الحيوان والنبات فأمر إله الماء السومري العظيم " أنكي " إله الشمس أن يملأها بالمياه العذبة التابعة من الأرض وهكذا تحولت دلمون إلى حديقة إلهية غناء مملوءة بالأنهار والمروج والرياح والكلمة في العربية السريانية هي " دعلمون " ، فالدال للتعريف و " علمون " تعني الخلود في

الجمع الحديثة من " سر " التي تعني الجبل ، المرتفع وكان يقابلها " سرن " وهذا ينسجم مع القول بأن جبل " ند " هو في منطقة " سرن ديب " التي تعني " سراة ديب " وكلمة " ديب " هي في المنطقة التي تحمل اسمها اليوم " الديبان " (ديبين) في منطقة الطائف غير بعيدة عن أم الياب ، وإذا ما قرأت كلمة — سرنديب على وجه آخر ، أي " سر — ند — يب " فلن يتغير من الأمر شيء ، فهو " جبل نعد الياب " أما كلمة " هند " فهي مؤلفة من " ه — ند — أي " الند " (النعد) ، لأن مقطع " ه — " كان أداة التعريف في العربية القديمة السورية (نسبة إلى " سرن " في جبال السراة) ولا علاقة لها ببلاد الهند المعروفة والتي سميت تيمناً بهذه المنطقة المقدسة .

وبذلك يكون آدم من منطقة الطائف ، ومن جبل النعد تحديداً (جبل كلب النعد حالياً) وتكون حواء — كما أجمعت كل الروايات — من جدة ، وكان لقاؤهما في عرفات ، أي في منتصف المسافة التي تفصل فيما بينهما وتعتبر هذه المنطقة الممتدة من شمال زهران إلى شمال مكة منذ العهود الأولى الموعلة في القدم موطن أولئك الآباء العرب المقدسين ومنطقة بيت الله الحرام ، ودبانات التوحيد الأولى في العالم ، وأحد المراكز الرئيسية للهجة العربية العاربة (العرياء) منذ أقدم العصور ، كما أن جبال السراة مركز اللهجة العربية السريانية (سرن) التي تحدث بها آدم ، وأمتدت إلى منطقة الخليج العربي بفضل الشريان الرئيسي الرابط ما بين المنطقتين في تلك العهود ، وهو وادي الدواسر ، الذي كان ينبع من السراة وينحدر كالبحر إلى الشمال والشرق موزعاً الخصب من حول ضفافه حتى يصب في منطقة الخليج العربي الحالية .

العريبة السريانية أي أرض الخلود ، ثم سقطت العين في اللفظ والنقل إلى اللغات الأخرى .

ومما يثير الدهشة أن المكتشفات الأخيرة قد دلت على أن قصة آدم وحواء بما فيها قصة جنة عدن قصة قديمة جدا تعود جذورها إلى ما قبل ظهور الكتابة بزمان طويل. إن قصة آدم وحواء التي تشير إلى إغراء الحية لحواء التي أغرت بدورها آدم بتناول ثمرة شجرة معرفة الخير والشر بالرغم من كونها محظورة ، إن هذه القصة ذاتها نجدها مصورة على نقش سومري⁽¹⁾ يشاهد فيه رجل على رأسه قلنسوة ذات قرنين وامرأة حاسرة الرأس جالسين الواحد أمام الآخر وقد نبتت شجرة بينهما تشبه شجرة النخيل تدلى عذقان من التمر من طرفيها ، وهذه الشجرة " قطوفها دانية " ويشاهد الرجل ماذا يده اليمنى أمامه ليقطف الثمر ، كما تشاهد المرأة وهي مادة يدها لتقطف من الثمر الذي أمامها ، وتشاهد الحية وهي تقف على ذنبها خلف المرأة وتمس في أذنها تغريها بالأكل من هذا الثمر المحرم عليها ، ومما يذكر أن هذا النقش التاريخي يعود إلى زهاء ألفي عام قبل التوراة .



قصة آدم وحواء في نقش على خاتم سوري من العصر البابلي

(1) انظر : الدكتور أحمد سوسة ، مفصل العرب واليهود في التاريخ ص 427 .

أما التوراة فتذكر أنهار جنة عدن منقولة عن التراث العربي القديم على النحو التالي :
"وكان نهر يخرج من عدن فيسقي الجنة ومن ثم يتشعب فيصير أربعة رؤوس اسم أحدها
فيشون وهو المحيط بجميع أرض الحويلة ، حيث الذهب ، وذهب تلك الأرض جيد ،
هنالك المقل وحجر الجزع ، واسم الثاني جيحون وهو المحيط بجميع أرض كوثا ، واسم
النهر الثالث حداقل ، وهو الجاري شرقي آشور ، والنهر الرابع هو الفرات" (التكوين ،
10:2 — 14) فالجنة التوراتية منقولة إذن عن الجنة السومرية التي سنتحدث عنها
مفصلا في كتابنا الثالث .

أما الجنة السومرية والمحيطة بموقع البحرين حاليا كما يفترض بعضهم هل هي تقتصر على
البحرين الحالية ، أم تتسع لتشمل حوض منطقة الخليج بصفته الشرقية والغربية
وكذلك الشمالية ؟ هل هي قابعة تحت مياه الخليج اليوم ؟

وجوابا عن هذا السؤال يقولون : لقد قيض لسفينة الأبحاث الألمانية ميتيور Miture
أن تلقي المزيد من الضوء على هذا الموضوع الهام في سلسلة من الدراسات الميدانية
أجرتها علم 1965 على قاع الخليج العربي ، وبفضل مسح لأغوار الخليج ، والحصول
على عينات من قاعه درست مخبريا وبتضافر الدراسات الجيولوجية و الجيومورفولوجية
والجغرافية — التاريخية أمكن التوصل إلى معلومات كبيرة الأهمية ، ولأول مرة أمكن ،
من جهة ، تحديد طبيعة العلاقة التي قامت وما زالت مستمرة منذ 14000 سنة قبل
الميلاد بين منطقة الخليج ونهري دجلة والفرات والبر العراقي الجنوبي ، ومن جهة أخرى :
اتضحت الأبعاد الحقيقية للتأثيرات التي مارسها العوامل الجيومورفولوجية على تطور
مجتمعات الجنوب الرافدي ، ويمكن تلخيص نتائج البحوث الي غيرت تغييرا حاسما
الوضع الجغرافي — التاريخي بما يلي :

نتيجة لانخفاض مستوى مياه البحر خلال عصر الفورم Wuerm الجليدي إلى حوالي
110 أمتار عما هو عليه اليوم ، كان الخليج العربي أرضا يابسة تتكون من منخفض يبلغ
طوله حوالي 1100 كيلومتر ، وسطي عرضه 180 كيلو مترا ولا يتجاوز عمق غوره
30 — 800 مترا ، وتشق قاع الخليج قناة حفرها مياه النهرين تبدأ قرب الفاو لتصب في

خليج عمان . ومن الجدير بالملاحظة أن تضاريس قاع منطقة الخليج تشبه إلى حد كبير طبيعة الأرض التي يجتازها نهر الفرات في سوريا إلى درجة دفعت الباحثين إلى الاعتقاد بأن حوض الخليج يكاد يكون استمرارا للأرض السورية فلا يفصل المنخفضين إلا السهول الرسوبية الرافدية المنبسطة المعالم . واعتبارا من أواخر العصر الجليدي الرابع (الفورم) أي منذ حوالي 14000 سنة قبل الميلاد تأخذ مياه البحر بالارتفاع بفعل مناخ دافئ يسود الكرة الأرضية خلال عصر الهولوسين Holocene الجاف وباستثناء انقطاعين عارضين حدث الأول حوالي 10.000 سنة قبل الميلاد والثاني 8000 سنة ق.م بفعل التذبذبات المناخية تابع ماء البحر الارتفاع ، واستمر يغمر منطقة الخليج ، حتى استقر مستواه تقريبا اعتبارا من حوالي 4000 سنة ق.م على وضعه الراهن في القرن العشرين ، وبذلك انعزلت المرتفعات التي ستعرف فيما بعد باسم البحرين وفيلكا وبوبيان ... وغيرها من الجزر عن الأرض العربية التي تحولت بدورها إلى شبه جزيرة كبيرة ، وبلغ ارتفاع منسوب المياه 120 مترا

ولقد سجلت بحوث سفينة الميثير أن أراضي قاع الخليج المجاورة للقناة — أي للمجرى الأصلي لمياه الرافدين — كانت أرضا صالحة للاستيطان .

وعلاوة على ذلك تشكلت خلال الفترة الواقعة بين حوالي 14000 و 4000 سنة قبل الميلاد مساحات جديدة من الأراضي الرسوبية، تمكن علماء الميثير من تحديد مواضع بعضها قرب رأس الخليج ، وذلك على مرحلتين : فقد تكونت أراضي المرحلة الأولى في حوالي 10000 سنة قبل الميلاد ، وتقع على عمق 50 مترا من سطح الماء ، بينما تكونت أراضي المرحلة الثانية في حوالي 8000 سنة قبل الميلاد وتقع على عمق 30 مترا ويقابل هذه التوضعات رسوبيات مماثلة على بر الجنوب الرافدي . تشكلت في الفترة الواقعة بين 7000 و 4000 سنة قبل الميلاد ، وهي الفترة المعاصرة لمرحلة ازدهار ثقافات تل حسونة وتل حلفا في الشمال الرافدي ، وبموجب الدراسة الجيومورفولوجية يتضح أن ظاهرة التوضعات الرسوبية في المنطقتين متعاكسة : تيار وحجم مياه دجلة والفرات المندفعة ، والدلتا التي تشكلها ، من جهة ، وحركة مياه البحر المرتفعة من الخليج من

جهة أخرى وبمقدار ما كانت الأخيرة تحد من قوة اندفاع مياه النهرين بمقدار ما كانت قدرة التيار على قذف ما يحمله من طمي تنعكس إلى الوراء ، وهكذا شكل النهران الكبيران مساحات واسعة من الأراضي الرسوبية الخصبة للاستيطان وللإستثمار الزراعي ومن المحتمل جدا العثور على هذه الأراضي الزراعية الخصبة وما احتوته من مستوطنات وعمران بشري (تلال أثرية) ، ولكن ينبغي البحث عنها على عمق يتراوح بين 5 إلى 20 مترا تحت السوية الحالية لأراضي الجنوب الرافدي ، إذ غطتها توضعات تالية من الطمي ، وهذا ما تؤكد الملاحظات التي سجلها المنقبون في قلعة حاجي محمد و الوركاء ، و في مدينة أور (المقير) وغيرها . بفضل النتائج التي قدمتها بحوث سفينة الميثور يمكن القول إن الحوضه الثالثة والأخيرة لنهر الفرات كانت أرضا يابسة تصل بين البلاد المجاورة وتشكل امتدادا طبيعيا للبر العراقي تماما مثلما يشكل الأخير الامتداد الأرضي الطبيعي للحوضه الأولى السورية . ومن المرجح جدا أن ضفاف مجرى النهر الأصلي في قاع الخليج كانت موطن لجماعات من صيادي الباليوليتي ، وإن تكون الأراضي الرسوبية الخصبة المجاورة لها قد سكنت من قبل مزارعين صيادين يشاهدون في عيشهم وفي تطورهم غط تطور جيرانهم النطوفيين سكان قرى المريط وأبي هريرة وبقراص في حوض الفرات الأعلى في الجزيرة السورية . وقد يكشف علم الآثار الغارقة تحت المياه فصلا جديدا وهاما في تاريخ منطقة متممة لما بين النهرين ، إذ من المحتمل أن تكون مراكز الاستيطان الباكورة في الأراضي المنخفضة التي لا نعرف حاليا إسمها والتي اقترح لتسميتها اصطلاح منطقة ما قبل الخليج قد شكلت المرحلة التحضيرية التي ستمهد لنشوء حضارات مدن الجنوب الرافدي المزدهرة اعتبارا من الألف الرابع قبل الميلاد . وهناك احتمال آخر لا يقل رجحانا في أن منطقة ما قبل الخليج كانت جزءا من ثقافة كبيرة معاصرة انتشرت مراكزها في الجنوب الرافدي وجواره قبل أن تجر مياه البحر الصاعدة أهلها على الرحيل تدريجيا إلى مواطن جديدة ، هذا الاحتمال يؤكد عثور الآثاريين على فخارات العبيد في 32 موقعا

أثريا على شواطئ شبه الجزيرة العربية الشرقية مقابل جزيرة البحرين ، كما وعلى بعد كيلو متر إلى الداخل ⁽¹⁾ .

وقد ذهب بعض الباحثين إلى أن صحراء الجزيرة العربية كانت في تلك الأزمان عامرة بأنهارها الدائمة الجري وبمستوطناتها الزاخرة بالسكان ، ومن بين هذه الأنهار وادي السرحان الذي كان ينبع شرقي جبال حوران و يخترق سهول الجزيرة الشمالية ويصب في الخليج العربي ، ونهر الدواسر ، وهو أكبر أنهار الجزيرة العربية ، ويقع منبعه شرقي بلاد اليمن ، ويتجه شمالا مخترقا سهل الربع الخالي ، ثم يتصل بوادي الرمة بالقرب من شواطئ خليج البصرة ، وفي هذا الدور الجيولوجي الذي كانت الجزيرة العربية تتمتع فيه بأمطار غزيرة كان وادي الأردن بحيرة عظيمة تبدأ من جبل الشيخ وتمتد حتى وادي العربة ، ولربما اتصلت مياهه عند مدينة العقبة بالبحر الأحمر ⁽²⁾ .

كما وأكد آخرون أن جزيرة البحرين كانت مأهولة بالناس أيام العصور الجليدية المتأخرة في أوربا ، أي قبل خمسين ألف سنة ، وأن ساحل الخليج ولاسيما المنطقة الواقعة بين الدمامي وشمال القطيف كان مزدحما بالسكان في العصور البرونزية أي حوالي 3000 — 2500 ق.م وقد عثر في البحرين أيضا على عدد من مواد من الصخور الصوانية قدر بعض الباحثين أن عمرها يتراوح بين عشرة آلاف واثني عشر ألف سنة ، وهي ترجع إلى أواخر أيام الرعي وابتداء عهد الاستيطان والاستقرار والاشتغال بالزراعة ⁽³⁾ .

وهنا تبرز صحة المقولة التي سبق أن أكدناها والتي توجب النظر إلى أية مرحلة من التطور في منطقة ما كمرحلة خليط من ثلاث مراحل : إن فيها الماضي والحاضر وبذور المستقبل ، ولم يكن آدم قبيل انتقاله إلى منطقة السريان إلا ممثلا للمرحلة البدائية السابقة. أما بالنسبة إلى التطور التاريخي في الجنوب الرافدي فقد أصبح من المؤكد أن المنطقة لم تكن مهجورة في الفترة السابقة للألف الرابع قبل الميلاد ، بل إن الشروط الطبيعية الملائمة التي وفرها النهران وشبكات من جداول فروع الأنهار الوحشية نتيجة

(1) الدكتور هشام الصفدي ، الوجيز في تاريخ حضارات أسية الغربية ص 81 .

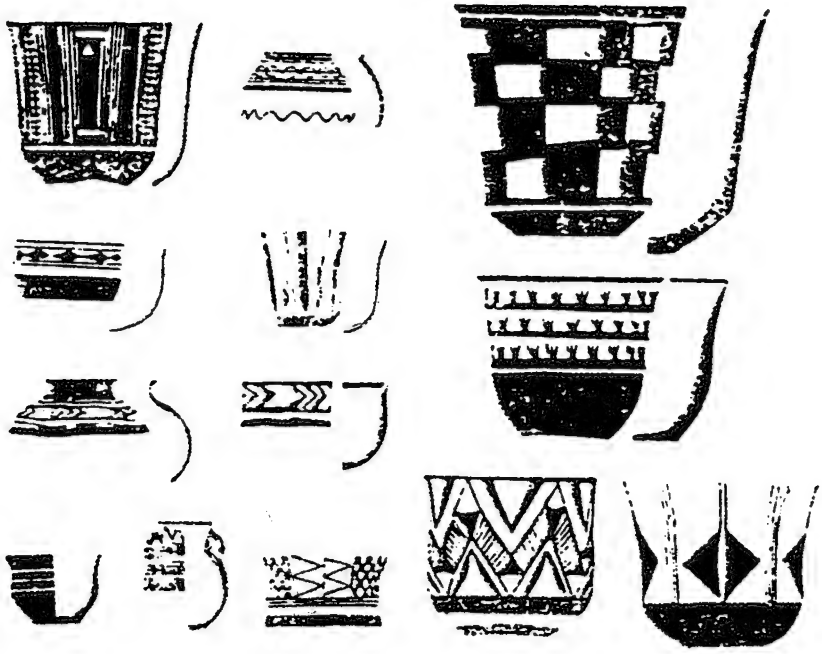
(2) المصدر السابق .

(3) الدكتور جواد علي " تاريخ العرب قبل الإسلام " ج 1 ، ص 97 — 102 .

لارتفاع منسوب المياه في الخليج تحتم استيطان الإنسان فيها مثلما تحتم اعتماده على الري الاصطناعي بمياه الأنهار الوفيرة بدلا من مياه الأمطار الشحيحة ، وبذلك يتعاصر نظامان رئيسيان لانتقال الإنسان في الشرق القديم من الصيد إلى الزراعة ، وهما : الزراعة البعلية في الشمال والري الاصطناعي في الجنوب الرافدي .

وليس من الصعب تصور ما قد تنتجه مثل هذه الأرض من شتى أنواع الأشجار والثمار والنباتات في الوقت الذي يجري من تحتها ، وفي قاع أرض الخليج ، نhra دجلة والفرات ويؤمنان وجود الحياة الزراعية أيضا .

لقد بدأ الارتفاع في منسوب مياه البحر قبل 14000 سنة قبل الميلاد ، واستقر في 4000 ق . م . و لابد أن يكون مجتمع ذلك الزمن ما زال في جزء غير يسير منه يعتمد في عيشه على ما تنتجه له الطبيعة دونما كدح من شدة خصوبتها وكثرة وتنوع أشجارها . وعند بدء المرحلة الدافئة وذوبان الجليد ، فقد اضطر السكان إلى الانتقال تدريجيا إلى المناطق الأخرى المجاورة حيث بدأ الاستقرار الزراعي يأخذ طابعا جديا ، وبدأت الزراعة تتطور منذ مراحلها المبكرة الأولى على استخدام نظم الري من الأنهار الكثيرة في الجنوب الرافدي ولقد استغرق ذلك التحول من منطقة إلى أخرى مع ارتفاع منسوب مياه البحر حوالي عشرة آلاف عام تقريبا.



فخاريات مزينة من حضارة العرب العبيدين ، نهاية الألف الخامسة قبل
الميلاد (حسب تولير)

ومن هنا أيضا لابد أن يكون آدم وزوجته يتكلمان العربية بلهجتها الأم قبل
خروجهما إلى مناطق السريان (سرن) بعد غياب الأرض — الجنة فحواء هي من
صميم جزيرة العرب ، فضلا عن أنهما لم يعملوا بالزراعة وهذا ما تؤكد المصادر العربية
أيضا . ففي كتاب سبائك الذهب في معرفة قبائل العرب للبغدادي نقرأ في الحديث عن
آدم :

" وكان لغته في الجنة العربية ، فلما عصى وأخرج من الجنة سلبه الله العربية فتكلم
بالسريانية " (1) .

(1) أبو الفوز البغدادي " سبائك الذهب في قبائل العرب ص 10 .

إن هذا يعني أن آدم حينما غادر الأرض — الجنة إلى بلاد " سرن " (السرواة) ووادي " دواسر " أي الرب " سار " جد السوريين ويعني السيد ، حيث العرب السوريون الذين يعيشون معتمدين على الزراعة والرعي وجد نفسه مضطرا إلى التكلم بالعريية بلهجتها السريانية (الجبلية) والسهلية، وتخلّى عن النمط البدائي في العيش الذي كان يعتمد على ما تقدمه الأرض في المأكل وعلى أغصان الشجر في الملابس وتحول إلى غط العيش السائد لدى سكان المنطقة . فقد جاء في تاريخ ابن الأثير : " إن الله أرسل إليهما (آدم وحواء) ملكا يعلمهما ما يلبسانه من جنود الضأن والأنعام ، وقيل كان ذلك لباس أولاده ، أما هو وحواء فكان لباسهما ما كان خصفا من ورق الجنة ، فلما رأى الله عري آدم وحواء أمره أن يذبح كبشا من الضأن من الثمانية الأزواج التي أنزلها الله من الجنة ، فأخذ كبشا فذبحه وأخذ صوفه فغزلته حواء ونسجه آدم فعمل لنفسه جبة وحواء درعا وخمارا فلبسا ذلك " (1)

وجاء في تاريخ الطبري : " وقد حدثنا أحمد بن عبد الرحمن بن وهب قال حدثني عمي قال حدثني الماضي بن محمد عن أبي سليمان عن القاسم بن محمد عن ابن إدريس الخولاني عن أبي ذر الغفاري قال : قال رسول الله صلى الله تعالى عليه وآله وسلم يا أبا ذر أربعة (يعني من الرسل) سريانيون آدم وشيت ونوح وخنوخ وهو أول من خط القلم وأنزل الله تعالى على خنوخ ثلاثين صحيفة " (2)

وإن هذا الحديث ترويه كل المصادر المعتمدة لرواية الحديث دونما استثناء ، كما أن أبا ذر الغفاري واحد من أخلص صحابة الرسول العربي وأصدقهم وهو الذي قال فيه الرسول العربي :

" ما أظلت الخضراء وما أقلت الغبراء من ذي لهجة أصدق من أبي ذر " (3)

وهذا دليل آخر على أن المنطقة كانت مسكونة قبل آدم الرسول بالعرب السريانيين ،

(1) تاريخ ابن الأثير، الجزء 1 ، ص 23 .

(2) تاريخ الطبري ، الجزء 1 ، ص 116 .

(3) الحاكم النيشابوري محمد بن عبد الله ، " المستدرک على الصحيحين الرياض مكتبة ومطابع النصر الحبيثة ، الجزء 3 ، ص 312 — 316 .

لكن الذاكرة العربية — كما سبق أن نوهنا — لم تتمكن من أن تتجاوز آدم الرسول هذا في الرجوع إلى الوراء ، ولهذا فقد كان على آدم وزوجته أن يتحملا كل أعباء التصورات عن الإنسان الأول كما صار على أولادهما أن يتحملا كل صراعات المجتمع الإنساني . فكما صار آدم رمزا للانتقال من الحياة السهلة اللينة في الأرض — الجنة* — دوغما كد ، والهبوط إلى حياة الكدح والشقاء في زراعة الأرض من أجل تأمين العيش ، فقد صار على ولديه قابيل وهابيل أن يصبحا رمزا للصراع بين حياة الزراعة وحياة الرعي ، بين الفلاح والراعي البدوي ، بين الحضارة والبداءة . وليس مقتل هابيل الراعي على يد أخيه قابيل الزارع إلا رمزا للانتقال في المجتمع العربي من حياة البداءة إلى حياة أرقى في سلم التطور هي حياة الزراعة .

إن الجديد ينتصر على القديم وينفيه ، والقتل هنا لا يتجاوز معنى النفي . وكما أن مفارقة أية عادة أو تقليد أو نمط للعيش يحمل في ذاته عناصر درامية فكذلك فإن مغادرة آدم لأرضه — الجنة جعلت من تلك الأرض مثالا يستدر الحنين والمبالغة في عظمة الشيء المفقود . إن عظمة الجنة التي فقدتها آدم وزوجته ومثالياتها تحاكي مثالية جنسة دلمون السومرية أرض الخلود " التي لا يوجد فيها مرض أو موت أو حزن ولا ينعب فيها غراب ، ولا ترفع الطيور أصواتها بعضها فوق بعض ، ولا تفترس أسودها ، ولا يأكل ذئب فيها حملا وكذلك هي حياة البداءة التي يغادرها أهلها إلى حياة الزراعة والاستقرار ، تتحول فجأة إلى مثال ، فقدانه يعني دراما فاجعة يكيه ويندبه الناس كما

* اختلف علماء تفسير القرآن في الجنة التي كان فيها آدم وطرده منها أم هي جنة من جنات الأرض ، وقال فريق من هؤلاء العلماء إن الجنة التي سكنها آدم وحواء كانت من جنات الدنيا ، لأنه كلف فيها ألا يأكل من الشجرة ، ولأنه نام فيها وأخرج منها ودخل عليه إبليس فيها ووسوس إليه ، وأضل آدم وعصى ربه فيها ، وهذا ينافي أن تكون جنة الصفاء والمأوى الخالد وقد حكى هذا القول كثيرون عن عبد الله بن عباس ، وهب بن متبه ، وسفيان بن عيينه ، كما اختاره وحكاه عن الإمام أبي حنيفة وأصحابه القاضي منذر بن سعيد البلوطي قاضي الجماعة في تفسيره وأفرد له مؤلفا على حدة ونقله أيضا ورواه أبو عبد الله محمد بن عمر الرازي ابن خطيب الري في تفسيره عن أبي البلخي وأبي مسلم الأصفهاني ، ونقله أيضا القرطبي في تفسيره عن المعتزلة والقدرية ، وقد حكى عن الخلاف في هذه المسألة أيضا أبو محمد بن حزم في " الملل والنحل " ومن أراد تفصيلا أوفى فليرجع إلى ص 75 وما بعدها من الجزء الأول من كتاب البداية والنهاية لابن كثير .

يندبون قتيلا عزيزا على قلوبهم .

إن قصة هابيل وقابيل ولدي آدم — الراعي والفلاح — هي نفسها قصة عميش وعينتين العربية السومرية التي ينتصر فيها عينتين الفلاح أيضا ، وهي نفسها قصة لهار رب الماشية وانشان رب الحبوب ، وهي نفسها قصة تموز الراعي وأنكىمدو الفلاح ، وتنافسهما على حب أنانا التي تختار في الاختيار أولا فيما بينهما ، ثم تفضل أنكىمدو وتقرر التضحية بتموز . إنها باختصار ترمز إلى التنافس بين مجتمعين : الرعوي والزراعي ، تنتهي دائما بانتصار الأكثر تقدما في مضمار التطور الاجتماعي وهو الفلاح .

ولن يعود سرا بعد ذلك أن جميع المجتمعات الزراعية السورية كانت تعتبر الفلاح في هذه القصص جميعها رمزا للتقدم ، وأن الإله يختاره هو ويفضله دائما على أخيه الراعي الذي ينبغي أن يضحي بنفسه من أجل بقاء الآخر بينما نجد في المجتمعات الرعوية البدوية تفضيل الراعي هو السائد ، واعتباره رمزا للخير ، واعتبار أخيه الفلاح رمزا لكل الشرور والعدوان . مما تقدم نستنتج أن المنطقة المسماة اليوم بالخليج العربي كانت منطقة مأهولة بالسكان العرب من قبل آدم الرسول ، وأن منطقة الجنوب الرافدي كانت هي الأخرى مأهولة بالسكان من العرب الزراعيين (السريان) أو السوريين "آ — سر " (أبناء " سر " السيد العلي) الذين أنتجوا فيما بعد ، وفي البقعة الممتدة من البحر الأعلى إلى البحر الأدنى ، أرفع وأرقى حضارة عرفتها البشرية .

وإن هذا يعني أن ما دعي فيما بعد بـ " حضارة سومر " لم تكن إلا استمرارا للحضارة السورية الأولى التي أخذت تتوضح معالمها مع المكتشفات الأثرية يوما بعد يوم . وإذا ما أردنا تحديد الفترة التي وجد فيها آدم الرسول لقلنا إنها فترة العصر الحجري — النحاسي (الكالكويتي) ، عصر البدء باستعمال المعادن ، حوالي 5500 — 3500 ق.م وفي هذا العصر برزت حضارة المنطقة في حسونة — سامراء ، وتل حلف وتل العبيد ، وحبوبة الكبيرة ، ودور الوركاء الباكر والوسيط قبل بدء التاريخ . ولو عدنا إلى حسابات المؤرخين والإخباريين العرب لعثرنا على ما يلتقي مع هذه الفترة أيضا على وجه التقريب . فقد أورد الطبري في تاريخه " وكان بين الطوفان ومولد

إبراهيم ألف سنة وتسع وسبعون سنة ... وذلك بعد خلق آدم بسـ 3337 سنة " وإذا ما افترضنا أن وجود إبراهيم كان في القرن الخامس عشر أو السادس عشر قبل الميلاد (وليس في القرن التاسع عشر أو العشرين كما درج المؤرخون على القول ، وكما سوف نبين لاحقا) ، فإن حدوث الطوفان المقصود الذي أصاب تلك المنطقة كان في حوالي 2500 — 2600 ق.م ، وإن زمن آدم كان في حوالي 4800 — 5000 ق.م . المهم في الأمر أن آدم الرسول عاش في فترة الألف الخامس أو السادس قبل الميلاد ، حيث سوريا العربية تعج بالمسكن المزدهرة من أريحا ودمشق وأوجاريت غربا ، إلى أور ونيبور وأريدو شرقا ، إلى جبوبة والمريبط وشتال هيوك شمالا ..

وجاء في تاريخ ابن الأثير ما يلي : " فنكح خنوخ أخته عذب فولدت ثلاثة بنين وامرأة .. ونكح أنوشيل بن خنوخ أخته موليث وولدت له رجلا اسمه لامك فكان أول من سكن القباب واقتنى المال ، وتوبلين فكان أول من ضرب بالونج والصنج ، وولدت رجلا اسمه توبلقاين وكان أول من علم النحاس والحديد ، وكان أولادهم فراعنة وجبابرة ، وكانوا قد أعطوا بسطة في الخلق " (1) .

فالمرحلة إذن هي مرحلة الانتقال إلى اكتشاف النحاس واستخدامه ، إنه العصر الحجري — النحاسي (الكالكوليتي) .

ولم تقتصر كلمة سريان (" سرن " ، سورين) على السكان العرب في الجنوب الرافدي السومري لاحقا ، ومنطقة الخليج العربي وعلى جبال السراة ، بل تعدتها لتمتد من شواطئ الخليج ، مرورا بخوضي الدجلة والفرات الأدنى والأوسط ، وعمت كل العرب الزراعيين المنتشرين على طول امتداد مناطق الهلال الخصيب الشرقية والشمالية الشرقية من أبناء " سر " و " مر " وأبناء قابيل والعمالقة ، والجبابرة .

ففي المصادر العربية نرى أن ما دعي بحضارات الأكاديين والبابليين والآشوريين إنما كانت جميعها تنتمي إلى شعب واحد ولغة واحدة ، إنها حضارة العرب السريان الزراعيين (السورين) . فقد جاء في " مروج الذهب ومعادن الجوهر للمسعودي " ما

(1) تاريخ ابن الأثير الجزء 1 ص 32 .

يلي "ثم ملك أهل نينوى عليهم بعده امرأة يقال لها " سميرام " (سمير اميس) فأقامت عليهم أربعين سنة تحارب ملوك الموصل ، وملكها من شاطئ دجلة إلى بلاد أرمينيا ، ومن بلاد أذربيجان إلى حد الجزيرة و الجودي ، و جبل التيتل* إلى بلاد الزوزان ، و كان أهل نينوى ممن سمينا نبطا وسريانيين ، والجنس واحد واللغة واحدة ، وإنما بأن النبط عنهم بأحرف يسيرة في لغتهم ، والمقالة واحدة " (1) .

ثم يعدد ملوك النبط ويقول عنهم انهم ملوك بابل المعروفون بالكلدانيين . وفي حديثه عن ملوك الفرس يقول : " والفرس لا تعرف طوفان نوح ، والقوم الذين كانوا بين آدم ونوح عليهما السلام كان لسانهم سريانيا " (2) .

وفي تاريخ الطبري نجد أن نمرود بنى الصرح وأسنده إلى السماء ثم ارتقى فوقه ينظر بزعمه إلى إله إبراهيم ، فأخذهم الله من أساس الصرح ، فتنقض ثم سقط ، " فتبلبلت ألسن الناس من يومئذ من الفزع ، فتكلموا بثلاثة وسبعين لسانا فلذلك سميت بابل ، وإنما كان لسان الناس قبل ذلك السريانية " (3) . وفي مكان آخر نجد " حدثنا محمد بن سعد قال حدثنا هشام بن محمد عن أبيه عن أبي صالح فلما عبر الفرات من حران غير الله لسانه فقيل عبراني أي حيث عبر الفرات " ، أي إنه غير لهجته من السريانية الشرقية إلى الجبلية الغربية والحد بينهما الفرات الذي في شبه جزيرة العرب وليس الفرات السوري .

وأما إسماعيل جد العرب العدنانيين جميعا فقد شب على لهجته السريانية الشرقية ، ثم تزوج امرأة من جرهم وهم من أصول العرب العاربة الخالصة من الشوائب ، (الشديدة العروبة) ، فصار يتحدث بالعربية الأم وليس باللهجة السريانية ، فقد جاء في تاريخ ابن الأثير : " وكانت جرهم بواد قريب من مكة ولزمت الطير الوادي حيث رأت الماء ، فلما رأت جرهم الطير لزمت الوادي قالوا : ما لزمته إلا وفيه ماء فجاءوا إلى هاجر فقالوا : لو شئت لكنا معك فأنسنك والماء مأوك ؟ قالت : نعم فكانوا معها حتى شب

* على سفح هذا الجبل ، وعلى ارتفاع 1000م عن سطح البحر اكتشفت أطلال مدينة " شتال " السورية القديمة في سهل قونية شمال شرق مرسين ، وهي شتال حيوك ، مزرعة حيوك .

(1) المسعودي " مروج الذهب ومعادن الجوهر " الجزء 1، ص 214 .

(2) المسعودي " مروج الذهب ومعادن الجوهر " الجزء 1، ص 320 .

(3) تاريخ الطبري ، الجزء 1 ، ص 218 .

إسماعيل وماتت هاجر ، فتزوج إسماعيل امرأة من جرهم فتعلم العربية منهم هو وأولاده فهم العرب المتعربة " (1)

أما زوجة إسماعيل العربية الجرهمية أم أولاده الأثني عشر فهي السيدة بنت مضاض بن عمرو الجرهمي .

وهكذا ينقسم العرب منذ ما قبل آدم في لهجاتهم إلى : 1— عرب سريان * (اسرن ، سورين ، أبناء "سر") كانوا يشغلون في الأصل جبال السراة ، ثم انتشروا منها إلى مناطق الهلال الخصيب في الشرق والشمال الشرقي . لقد تطورت لهجتهم الجبلية في أصلها نتيجة لمعايشتهم كثيرا من الأقوام الأخرى على تخوم الوطن العربي ، وتعرضهم للكثير من الغزو واحتكاكهم عن طريق ممرات التجارة الدولية الواقعة في منطقتهم بكل الفئات النشيطة من الشعوب الأخرى عبر آلاف السنين 2 — عرب عموريين (أموريين) أبناء "مر" ولهجتهم العربية العمورية الغربية ثم انقسمت اللهجة الغربية بدورها إلى شمالية غربية وجنوبية غربية . 3 — عرب برية شبه الجزيرة العربية ، سكان العربي (البادية)** الذين حافظوا على نقاء اللغة لقلّة اختلاطهم بالشعوب الأخرى ، ولعدم وصول غزوات هذه الشعوب إليها لوجود المنطقة العربية السورية الأولى الفاصلة من كل الجهات التي يمكن أن يأتي منها مثل هذا الغزو من جهة ، ولعدم وجود ما يغري الغزاة في مناطق البادية بوجه عام بعد أن ظهر فيها التصحر ، من جهة أخرى .

أما الاسمان المرادفان الاخران للسكان الزراعيين فهما أبناء قابيل ، والجبابرة أيضا . ففي الحديث عن مهلائيل بن قينان بن أنوش بن شيث بن آدم أنه " في زمنه نزل بعض ولد آدم عليه السلام الجبل المقدس واشتغلوا باللهو ومخاطبة بنات قابيل ، ومن بعده تفرقت

(1) تاريخ الطبري ، الجزء 1 ، ص 59.

* سريان هنا من "سر" والأصح أن نقول "سوريين" والمضمون واحد ، إذ المقصود أبناء سر أحد الآباء العرب القدامى .

** إن "البادية" لم تكن تعني الصحراء ، وإنما الأرض الظاهرة المكشوفة . السهول الواسعة ، بعكس "السراة" المشتق من "سر" والتي تعني الأرض المرتفعة ، ثم لما أصيبت سهول شبه الجزيرة العربية بالتصحر صارت كلمة "البادية" مرادفة لـ "صحراء"

الكلمة وتحزبت الناس أحزابا وقد قسم الدنيا على خمس فرق فجعل أربع فرق منهم في مهب الريح الأربع ونواحيها الشمال والجنوب والصبا والدبور ، وخص ولد شيت بأخصب الأرضين وأفضلها وأكثرها خيرا " (1)

أما لماذا كان قسم من أولاد آدم ينهى قومه عن الاندماج بأولاد آدم الآخرين فلأنه الصراع نفسه ، والتنافس نفسه ، بين مجتمع الرعي ومجتمع الزراعة ، بين البداوة والحضارة ، بين المثل البدوية من الصدق والنقاء والشرف والعفة والزهد في المتاع ، وبين القيم الأخرى التي تسود حياة المدن الحضرية ، والتي تبقى غريبة ومستنكرة بالنسبة للبدوي.

وفي تاريخ ابن الأثير نجد : " إن أول من اتخذ الملاهي من ولد قابيل رجل يقال له ثوبال بن قابيل ، اتخذها في زمن مهلائيل بن قينان ، اتخذ المزامير و الطنابر و الطبول و العيذان والمعازف ، فأنهمك ولد قابيل في اللهو ، وتناسى خيرهم إلى من بالجبل من ولد شيت ، فهم منهم مائة رجل بالتزول إليهم وبمخالفة ما أوصاهم به آبائهم ، وبلغ ذلك يبارد ، فوعظهم ونهاهم ، فلم يقبلوا ، ونزلوا إلى ولد قابيل ، فاعجبوا بما رأوا منهم ، فلما أرادوا الرجوع حيل بينهم وبين ذلك لدعوة سبقت من آبائهم ، فلما أبطأوا ظن من بالجبل من كان في نفسه زيع أنهم أقاموا اعتباطا ، فتسللوا يتزلون من الجبل ورأوا اللهو فاعجبهم ووافقوا نساء من ولد قابيل متشرعات إليهم ، وصرن معهم وأنهمكوا في الطغيان ، وفشت الفحشاء وشرب الخمر فيهم ...

وقال هشام بن الكلبي (في مهلائيل بن قينان) : إنه أول من بنى البناء واستخرج المعادن وبنى مدينتين كانت أول ما بني على ظهر الأرض من المدائن وهما مدينة بابل — وهي بالعراق — ومدينة السوس " بخوزستان " وقال غيره : هو أول من استنبط الحديد ، وعمل منه الأدوات للصناعات ، وقدر المياه في مواضع المنافع ، وحض الناس على الزراعة واعتماد الأعمال ، وأمر بقتل السباع الضارية واتخاذ الملابس من جلودها والمفارش ... (1)

(1) " سبائك الذهب في معرفة قبائل العرب " للبغدادى ، ص 10 .

وفي عهد إخنوخ (ادريس) " دعا ادريس قومه، ووعظهم وأن لا يلبسوا ولد قابيل فلم يقبلوا منه " .

" وفي عهد ملك كثرت الجبابرة من ولد قابيل " (2) ، وكان ملك يعظ قومه وبنهاهم عن مخالطة ولد قابيل فلم يقبلوا حتى نزل إليهم جميع من كان معهم في الجبل " (3)

وهكذا انتصر سكان المدن والأرياف الزراعيون نهائيا بعد أن اجتذبت حياة المدينة إليهم قلوب أولئك البدائيين . لقد لخصت لنا قصة آدم وأولاده مسيرة الحياة إذن من الحياة في أحضان الطبيعة — الجنة حيث كان كل شيء مشاعا للجميع ، وليس ثمة ملكية خاصة — أو كدح من أجل إنتاج القوت ، إلى حياة الرعي والصيد ، إلى حياة الزراعة والمدينة . وقد رأينا ، ومن خلال هذه الخطوط البسيطة ، كيف أن كل شيء ، لم يكن ليتم دفعة واحدة وفي شكل طفرة ، بل تدريجيا . إنه ، كما تحدثنا حول ما دعي به " الهجرات السامية " عملية تحول بطيئة وطويلة تنتاب الأفراد أو الجماعات كلما نضجت لديهم شروط الانتقال من نمط حياتي إلى آخر أرقى منه .

لكن ، هل كان كل من خرجوا تدريجيا على مدى عشرة آلاف عام من تلك الأرض الجنة إلى الجنوب الرافدي أو إلى مناطق الجبال جماعات بدائية مثل آدم ؟ بالطبع لا ، إذ إن في إمكان كل إنسان أن يفترض تواجد الأنماط الحياتية الثلاثة دائما في كل مرحلة من مراحل التطور : المرحلة السابقة تتعايش مع المرحلة الراهنة التي تحضن بذور مرحلة المستقبل . إن هذا هو من الخصائص الحقيقية والملازمة لكل عملية اجتماعية أو طبيعية وإلا لما كانت القوانين الجدلية التبادلية تتمكن من أن تمارس فعلها في الطبيعة أو في المجتمع .

فإذا كان آدم يمثل نمطا حياتيا معيناً قبيل انتقاله من غرب شبه جزيرة العرب بعيداً عن جنته الطبيعية ، فإن عينات اجتماعية أخرى، لاشك ، كانت تمثل الأقواس الأخرى على السلم الحزوني في التطور ، إذ من المعلوم أن ليس ثمة مرحلة نقية وخالصة من كل ما.

(1) تاريخ ابن الأثير ، الجزء 1 ص 32 — 33 .

(2) سبائك الذهب ومعادن الجوهر للبغدادي ، ص 12 .

(3) تاريخ ابن الأثير الجزء 1 ص 36 .

سبقها ومما سبيلها ، إن هذا ، وبكل بساطة ، يعني أن تلك الجماعات التي تخلت عن أراضيها في منطقة الخليج العربي الذي ترتفع فيه المياه لتحتل الأراضي الزراعية يوما بعد يوم ، إنما كان قسم منها ، ربما ليس بالقليل ، قد مارس نط الحياة المتقدم ونقله معه .
إن ذلك هو ما يؤيده المؤرخ البابلي الشهير " برعوثا " الذي عاش حوالي 250 ق.م حين حديثه عن السومريين . لقد كتب يقول : " إن جيلا من الجبابرة يقودهم واحد منهم يسمى "عوان " خرج من الخليج العربي وأدخل في البلاد فنون الزراعة وطرق المعادن والكتابة " ثم يقول : " وقد ترك إلى بني الإنسان كل الأشياء التي تصلح أمور حياتهم ، ولم يخترع من ذلك الوقت شيء ما حتى الآن " (1) .

ومن المفيد أن نذكر بأن تسمية " الجبابرة " كانت مرادفة دائما للسكان الزراعيين المستقرين الذين بنوا المدن والأبراج وسوروا الأسوار ، وانتجوا مختلف المنتجات الغذائية بأيديهم . إن هذه التسمية شملت كل قطاعات المجتمع الزراعي العربي من الخليج إلى جنوبي سوريا الحالية . ولقد أطلقت التوراة هذا الاسم على الكنعانيين في أكثر من موضع . " ثم رجعوا من تجسس الأرض بعد أربعين يوما ، فساروا حتى أتوا إلى موسى وهرون وكل جماعة بني إسرائيل إلى بركة فاران إلى قادش وردوا إليهما خيرا وإلى كل الجماعة وأروهم ثمر الأرض وأخبروه وقالوا قد ذهبنا إلى الأرض التي أرسلتنا إليها ، وحقا إنها تفيض لبنا وعسلا وهذا ثمرها ، غير أن الشعب الساكن في الأرض معتر والمدن حصينة عظيمة جدا ، وأيضا قد رأينا بني عناق هنالك ، العمالقة ساكنون في أرض الجنوب ، و الحثيون و البيوسيون و الأموريون ساكنون في الجبل والكنعانيون ساكنون عند البحر وعلى جانب الـ " يردن " ... وأما الرجال الذين صعدوا معه فقالوا لا نقدر أن نصعد إلى الشعب لأنهم أشد منا ، فأشاعوا مذمة الأرض التي تجسسوها في بني إسرائيل قائلين الأرض التي مررنا فيها لتجسسها هي أرض تأكل سكانها وجميع الشعب الذي رأينا فيها أناس طوال القامة ، وقد رأينا هناك الجبابرة بني عناق من الجبابرة فكنا في أعيننا كالجراد وهكذا كنا في أعينهم " (عدد 13:16 — 33) .

(1) ول ديورانت " قصة الحضارة " الجزء 2 ص 14 .

ولابد هنا من الإشارة إلى وجوب التمييز بين لفظة الجبابة أو العماليق التي أطلقت منذ القدم على الزراعيين بناء المدن ومسوري الأسوار ورافعي القلاع والأبراج لتمييزهم عن البدو والرعاة منذ أن بدأ الاستقرار الزراعي وتميزت حياة الحضر في الأرياف والمدن وبين لفظة العماليق أولاد عمليق (أو عريب) بن لاوذ بن سام بن نوح ، الذين انقسموا أيضا بدورهم إلى زراعيين جبابة ، سكان مدن ، وبدو رعاة سكان البادية ، وصار عمليق نفسه أبا لفرعين : عمليق أبي الزراعيين سكان المدن وعريب أبي البدو سكان عريبي أو البادية .

وفي الوقت نفسه فإننا نجد لازما علينا أيضا أن نذكر بوجوب التمييز بين لفظة السريان التي استخدمت منذ ما قبل آدم ، حسبما أكدت المصادر ، للدلالة على العرب السورين ("سرن" أبناء "سر") الذين استخدموا نظم الري في زراعتهم وبين لفظة السريان التي جاءت فيما بعد لتدل على بني سوريان بن نبيط بن ماش بن آرم بن سام بن نوح (1) .

فقد قال الكلبي : إن منهم النبط (بفتح الباء) وهم أهل بابل (المحطة على طريق القوافل شرقي عسير) في الزمن القديم ، وقال ابن الكلبي : هم بنو نبيط بن ماش بن آرم بن سام ، وقال ابن سعيد : هم من بني نبيط بن آشور بن سام (2) .

ومن هنا تبرز حقيقة لابد من الإشارة إليها : وهي التأكيد من خلال آدم وحواء على أن أبناءهما من أولئك السكان الزراعيين الذين ينتشرون من شواطئ الخليج العربي الشرقي والغربي ، إلى شواطئ دجلة والفرات الدنيا والعليا ، إلى شواطئ المتوسط وجنوبي نهر الأردن ، إلى ضفاف النيل ، كما أن جميع سكان شبه جزيرة العرب الممتدة جنوبا إلى شواطئ البحرين الهندي والعربي إنما هم عرب أيضا ، إن أحد آبائهم آدم عربي سرياني أو سوري ، ممن صار يطلق عليهم اسم العرب المتعربة أو المستعربة ، وأممهم حواء العربية العاربة (النقية في عروبتها) من جدة في أرض مكة ، إن في آدم وحواء إذن رمزا لعروبة ووحدة الوطن العربي السوري الذي يضم الهلال الخصيب وشبه جزيرة العرب .

(1) انظر سبائك الذهب في معرفة قبائل العرب - البغدادي ص 13 .

(2) سبائك الذهب في معرفة قبائل العرب - البغدادي ص 13

كما أن ثمة رمزا آخر ، وهو أن شبه جزيرة العرب هي الرحم الأم الذي ينبج العنصر العربي ويزود المنطقة به منذ أقدم العصور ، وقد توفرت له حماية ومناعة طبيعيتان لم تتوفر لأي مكان آخر ، كما أنه يتصل بوشائج مشيمية مع عالم التغذية الطبيعية الذي ينتشر من ثلاثة أتحائه كالمظلة هي قوس منطقة الهلال الخصيب. وكما أن شبه جزيرة العرب هي الرحم العربي والأم العربية ، فإن إنسان المنطقة العربية السورية هو الأب العربي المحامي والمدافع والذائد ضد كل غزوات الأمم والشعوب التي أتت في معظمها من الجهات الثلاث : الغرب والشمال والشرق ، كما أنه هو المطعم والمعليل .

وليس بعد هذا غريبا أن يشيع بين عرب العراق منذ أقدم العصور أيضا المثل القائل " نجد الأم والعراق الداية " ⁽¹⁾.

إن المنطقة الشاملة لأطراف الهلال الخصيب ولشبه جزيرة العرب هي منطقة عربية إذن منذ ما قبل آدم الرسول ، وبإمكاننا أن نلمح وحدة الشعب الثقافية والروحية ثم اللغوية منذ ما قبل الألف الخامس قبل الميلاد وحتى اليوم .

إن نظرة واحدة على أسماء أبناء آدم وحواء وأحفادهم المقرونة باسم الإله إيل (الذي هو الله) تؤكد لنا انتشار عبادته في ديانة توحيدية منذ ذلك الزمن امتدت من شواطئ الخليج العربي إلى ساحل البحر المتوسط في الغرب وشرقي دلتا نهر النيل في أقصى الجنوب .

الوطن العربي السوري والوطن العربي :

إن البقاع التي شغلها العرب السوريون الزراعيون منذ أن عرف أول استيطان زراعي في العالم هي تلك الأرض الممتدة من الخليج العربي بشاطئيه الشرقي والغربي ، إلى حوضي دجلة والفرات الأدنى والأعلى ، إلى الأرض الممتدة على طول الشاطئ الشرقي للبحر المتوسط ، إلى ضفاف الأردن ثم إلى دلتا نهر النيل .

(1) انظر الدكتور أحمد سوسة " مفصل العرب واليهود في التاريخ " ص 321 .

لقد أكدت جميع المكتشفات الأثرية أن عرب هذه المنطقة الذين أطلق عليهم اسم السورين نسبة إلى الأب " سر " كما دعوا بالسريان ، انما كانوا أول من دجن النباتات ، وبني الأكواخ ، وأقام المستوطنات الزراعية ، وعرف المعدن والتعدين ، وبني السفن و اخترع الكتابة . وقد عمت تسميتهم حتى شملت أشقاءهم الأموريين أبناء "مر" في الشمال والغرب ، وصار اسم " سري " (سوريا) أو "سرت"(سورية) شاملا للمنطقة كلها، لكنه ينبغي ألا يغيب عن ذهن أحد بأن الصورة الممتدة من الخليج العربي إلى البحر المتوسط ليست ولا يمكن أن تكون ، صورة واحدة رتيبة ومتناسقة .

إننا حينما نقول إن سكان المنطقة كانوا أول من هجر حياة الرعي وانتقل إلى الحياة الزراعية فإن هذا لا يمكن أن يعني ، إطلاقا ، أن المنطقة كلها زراعية ، وأن الناس جميعا زراعيون .

لقد سبق أن أوضحنا في مدخل هذا الكتاب كيف أنه ليس ثمة مرحلة نقية في التطور بل إن كل مرحلة من مراحل التطور توجد ، وبصورة دائمة ، في حالة من التعايش الطبيعي بين المرحلة التي سبقت وطلائع المرحلة التالية بصورة خاصة ، كما تتعايش ، ولو بصورة متناقضة ، مع بقايا كل المراحل السابقة الأخرى . إن انبثاق الثورة الزراعية ، وظهور نمط جديد للعيش في هذه المناطق لم يكن يعني ، بأية حال ، أن الناس جميعا تحولوا إلى زراعيين في الأرض وكأنما امرؤ ففعلوا ، لكن طلائع الجماعات السكانية التي نضجت لديها شروط التطور والانتقال من مرحلة إلى أخرى أرقى منها هي التي تمثل حتما هذا التحول ، وتصبح أحد قطبي الصراع الجديد في الحياة الجديدة الذي يجاذب نمط الحياة الآخر سكان المنطقة ، فيمتص كل من نضجت فيه ظروف وشروط الانتقال إلى نمط الحياة الجديد . إن وجود حياة زراعية في هذه المنطقة أو تلك كان يكتنفه نمط حياة الرعي والتنقل من كل أنحائه . لقد كان جولان السكان البداءة والرعاة بمواشيهم خلال المساحات والفرج والممرات الرعوية يشكل الجزء الآخر المتمم لحياة المنطقة ، والمرتبط به ارتباطا عضويا لا تنفصم عراه . إن مما يميز حياة المجتمع العربي منذ بدايات تشكله وحتى اليوم هو ذلك الترابط العضوي بين البدو والحضر . لقد بقي العرب البداءة يجولون

في شتى أنحاء هذا الجسد على مر العصور ، ويزودونه بالدم ، بالعنصر العربي ، كما كانت هذه الظاهرة من أهم الظواهر التي حافظت على عروبة جميع أجزاء الوطن العربي على مر القرون . وفي الوقت الذي كانت فيه المجتمعات الزراعية ودولها تصاب بالهزائم أحيانا ، أو تخضع لسلطان الغزو والاحتلال ، كان ذلك الجولان البدوي العربي يحافظ على دورته وحركته الطبيعية ، كما يتحرك الدم في الجسد الواحد ، دون أن تمنعه أو تحول دون حركته حدود قائمة أو سلطان لأجنبي محتل ، والأمثلة كثيرة وقائمة حتى اليوم .

ومن هنا كان الترابط العضوي التاريخي العظيم بين نشوء وتشكل الوطن العربي السوري ونشوء وتشكل الوطن العربي الكبير .

الفصل الثاني

الوطن العربي السوري

وحدة الحضارية في مراحل تشكله

إن المناطق التي شدت طلائع الجماعات العربية إلى حياة الاستقرار والزراعة إنما هي أحواض المياه الدائمة التي تؤمن لها حاجتها من مياه الشرب ، كما تضمن حاجة مواشيتها وأراضيها وزروعها أيضا ، وإن هذه المناطق عينها إنما هي وحدها المهيأة لاستقبال نشاطات هذه الجماعات المتفوقة واحتضان إبداعاتها وإخصاب نتاج عمل الإنسان فيها وضمان حياته ونموه وتطوره .

وهذه المناطق ، إذا ما أردنا الإشارة إليها ، هي تلك الممتدة من شواطئ الخليج العربي حيث الأراضي الرسوبية الخصيبة ومصببات الأنهار الكثيرة إلى حوضي دجلة والفرات الأدنى والأعلى ، إلى حوض العاصي ، وبردى والشريرة ، ودلتا نهر النيل .

لقد صعب على كثير من المؤرخين — ولاسيما بعد المكتشفات الأخيرة في سوريا — أن يقرروا بأن العرب السوريين كانوا المؤسسين لأول حضارة زراعية في العالم فحاولوا ، ضد كل منطق ، أن يجعلوا من مناطق الجبال المحيطة بسوريا مهدا لتلك الحضارة دون أن يتمكنوا من تقديم دليل واحد يدعم مثل تلك الفرضيات الغريبة . لقد كتبوا التاريخ كما تريده الجهات الاستعمارية الحاقدة والطامعة بهذا الوطن وبمقدراته فعمدوا إلى خلق نظريات وفرضيات ، وابتدعوا شعوبا وطمسوا وجود أخرى ، وكان ديدهم في ذلك كله تهريب التاريخ العربي والحضارة العربية ، وإصاق كل ما أنتجه الإنسان العربي وأبدعه عبر آلاف السنين بشعوب أخرى سواء أكان وجودها وهما أم حقيقة .

إن الحضارة والاستقرار لم تبدأ في الشعاب بين الجبال ، كما يحاول البعض أن يقنع نفسه هربا من الاعتراف بفضل العرب في بناء الأسس الأولى لصرح الحضارة ، وإنما البداية

كانت حول أحواض المياه الدائمة ، وقد جاءت الاكتشافات الآثارية لتؤيد هذه النظرة العلمية المنطقية بالشواهد والأدلة التي باتت تحرس كل الأقلام المغرضة قي كتابة التاريخ . وإن الوجود العربي حول مصادر المياه وأحواضها من الفرات إلى الأردن إلى النيل كان هو الوجود السابق لأي وجود سكاني آخر في المنطقة كلها . فقد بدأت عمليات الاستقرار هناك مع عمليات بناء البيوت وتدجين النبات والحيوان وزراعة الأرض ، وصيد الأسماك ، وتأمين عملية الري والملاحة والنقل ، تلك أهم مظاهر الاستقرار في مدارج التمدن والرقى .

ومن هنا يمكننا أن نتصور كيف أن آلاف من السنين مرت على وجود الإنسان العربي حول تلك المجاري المائية قبل أن تتمكن من الوصول إلى المستوى الحضاري الذي تعرفنا على بعضه في المرحلة السومرية والأكادية ، سواء أكان على مستوى بناء الدولة ومؤسساتها ، أم على مستوى البنيان الفوقي الفكري والإيديولوجي ، أم على مستوى الإنتاج المادي .

إن المحاولات التي يبذلها بعض المؤرخين من أجل عزل بعض أجزاء سوريا عن بعضها الآخر ، منذ بدايات تشكل الوطن العربي السوري ، تبوء اليوم جميعها بالفشل . إن ما دعي بالحضارة النطوفية (نسبة إلى وادي النطوف في فلسطين) ومحاوله عزل فلسطين عن باقي أجزاء الوطن العربي السوري بحضارة متميزة ، ما لبثت أن سقطت أمام البراهين المادية القاطعة التي أظهرتها الأرض العربية السورية من أقصى شمالها إلى أقصى جنوبها .

الحضارة السورية في وأدي نطوفه :

لقد أطلق العلماء اسم الحضارة النطوفية على الحضارة التي ظهرت للوجود في حوالي 10000 قبل الميلاد في الغرب السوري ودامت حتى حوالي 8300 ق.م وتتمتع هذه الحضارة بأهمية كبيرة بالقياس لموضوع الخروج من الكهوف . وتتجلى الخاصة الرئيسية لتلك الحضارة في وجود الأدوات الصوانية ذات الأشكال الهندسية أو في هيمنة

الشظايا الصوانية ، يضاف إلى ذلك نسب مختلفة من الأدوات الصوانية مثل
المثلثات مختلفة الأضلاع أو متساوية الساقين ، والنصال المحدبة ، والمنقاش الدقيق ،
وأدوات مثل نصل المنجل والمكشط والمنقاش والخرز والمثقاب المسنن .

إن هذه الصناعة الحجرية ليست إلا جزءا من جملة متكاملة من الخصائص الحضارية
التي تشمل صناعة الأدوات المنزلية الثقيلة للطحن والجرح والسحق وصناعة الأدوات
العظمية ، وأحيانا الأعمال الفنية المصنوعة من الحجر أو من العظم ، وقطع مختلفة
لأدوات زينة ، أو حلي مصنوعة من الحجر أو العظم أو الصدف ، إلى جانب الوجود
المتكرر للبقايا المعمارية (أكواخ مستديرة وصوامع للخبز) ثم المدافن الفردية أو
الجماعية .

يرى الباحث الآثاري بار يوسف أن الحضارة النطوفية هي حضارة فلسطينية بحتة ، لأن
القسم الأعظم من خصائص تلك الحضارة يتجلى في الشواهد المكتشفة في فلسطين ، في
حين أن الشواهد المماثلة التي اكتشفت في سوريا ولبنان وصحراء النقب تمثل حضارة
مختلفة أطلق عليها اسم (الكيباريان الهندسي المرحلة — ب —) . لقد سقط الباحثون في
تلك الأخطاء نفسها الناجمة عن إصرارهم على دراسة المنطقة كأجزاء جغرافية منفصلة
ومستقلة ، وبالتالي عن دراسة حضارة المنطقة الواحدة على أنها حضارات
منفصلة ومستقلة . وكلما ألحوا في الابتعاد عن الاعتراف بوحدة المنطقة الجغرافية
والسكانية والحضارية كلما غرقوا في الأخطاء والتناقضات التي تظهر هزال آرائهم وعدم
جديتها .

فبالنسبة للحضارة النطوفية ما أن عثر الباحثون على الأدوات الحجرية الخاصة بها
بمراحلها الموسمية والانتقالية حتى قرروا أن الحضارة النطوفية هي فلسطينية بحتة ، وأن
فلسطين — بالتالي — كانت دائما منفصلة ومتميزة ، بل ومختلفة عن جيرانها ، لكن
الدكتور جاك كوفان أستاذ آثار ما قبل التاريخ في جامعة ليون ما لبث أن دحض هذه
النظرة معتمدا على مكتشفاته ، فأكد " الوحدة الحضارية في بلاد الشام " قائلا حول
وجهة النظر تلك :

" لكن وجهة النظر هذه تضععت أمام سيل الاكتشافات الأخيرة في كل من لبنان وسوريا حيث تم العثور — بجانب تلك الأدوات — على أدوات أخرى للسحق والطحن في موقع الطيبة بحوران⁽¹⁾ وفي سعيده في لبنان⁽²⁾ وفي جعيتا بلبنان⁽³⁾ وفي وادي الفرات ، يضاف إلى ذلك أننا واجهنا في موقعي أبو هريرة⁽⁴⁾ والمريبط⁽⁵⁾ على الفرات الأوسط وجود عمائر من صنع الإنسان ، وأدوات مصنوعة من العظام ، إلى جانب أدوات مشهورة من قبل وكانت مألوفة في الحقبة النطوفية ، مثل الأدوات مزدوجة الرأس وقفازات الأصابع المثقوبة ، وبذلك بدأ التاريخ يسجل بعض الأدلة على قيام تطور متشابه جداً للحضارة النطوفية في كل من فلسطين ومنطقة الفرات في أعقاب مرور مشترك. بمرحلة الكيباريان ، كذلك تأكدت الآن النظرية التي طرحها كل من أور و كوبلاند و أورانش ، و القائلة بأن بوتقة حضارية واحدة امتدت خلال هذه الحقبة من النيل إلى الفرات ، بصرف النظر عن الخصائص الفردية التي جعلت للحضارة النطوفية سمات إقليمية متميزة⁽⁶⁾ . "

إن مثل هذا القول المبني على الشواهد الأثرية المكتشفة من شأنه أن يبين لنا الأمور الأساسية التالية :

1 — إن الحضارة العربية السورية لما قبل سومرية لم تأت دفعة واحدة ، بل جاءت نتيجة لعملية طويلة استغرقت آلاف السنين من بدء الإنسان العربي لحياة الاستقرار عند أحواض المياه .

2 — إن الوجود العربي هو الوجود الأصيل الوحيد الذي شغل الأرض العربية منذ الألف العاشر قبل الميلاد بدءاً من ضفاف الخليج العربي ومروراً بحوض دجلة والفرات إلى

(1) انظر Cauvin 1975(B)

(2) انظر Schroeder 1970

(3) انظر Hours 1966

(4) انظر Moore ,Hillamnet Legge

(5) انظر Cauvin ,M.C.aparaitre (a)

(6) (لدكتور جاك كوفان ، " القرى الأولى في سوريا " ما بين الألف التاسع والألف السابع قبل الميلاد " ترجمة قاسم طوير تحت عنوان " الوحدة الحضارية في بلاد الشام " دمشق 1984 ،

سوريا الغربية ووادي النيل على الأقل . وإن الاكتشافات لم تجد أي ما من شأنه أن يدل على أي وجود غريب عن وحدة هذه المنطقة بشريا وجغرافيا وحضاريا . وكلما عمد بعض الباحثين إلى تجزئة هذه المنطقة حضاريا وسكانيا جاءت الاكتشافات لتدحض هذا السعي ولتؤكد وحدة المنطقة الحضارية .

3 — إن هذا من شأنه أيضا أن يؤكد صحة وجهة نظرنا في مسألة ما دعي بـ "الهجرات السامية" ويؤكد أن الوجود العربي هو وجود شامل للمنطقة العربية كلها منذ الزمن السحيق ، وإن ما دعي بالهجرات من شبه جزيرة العرب لا يعدو كونه مجرد افتراض بائس ولا أساس له ، وإن حركة السكان العرب في الأرض العربية إنما هي حركة جولان دائمة ، يتجاوزها التنقل والاستقرار على الدوام

وبناء على ذلك فقد أكد الأستاذ بينفورد على " أهمية الوقوع على ضفاف بحرى ماء ، دائم الانسياب في ترسيخ الاستقرار والتوطن البشري ، وذلك لأن صيد الأسماك يعتبر مصدرا غذائيا دائما لاسيما وأن التنقيبات الأثرية أبانت أن النطوفيين كانوا من صيادي الأسماك . ففي موقع عين الملاحه على بحيرة الحولة عثر المنقبون الأثريون على كميات كبيرة من بقايا عظام الأسماك والقواقع والحلزون ، وكذلك استفادت المواقع المكتشفة على ضفاف الفرات من الميزة نفسها . ففي موقع المريط عثر المنقبون الأثريون على كميات كبيرة من الطبقة (I) والطبقة (B1) على كميات كبيرة من سمك السلور والبارنو وعلى مواقع المياه الحلوة ..."

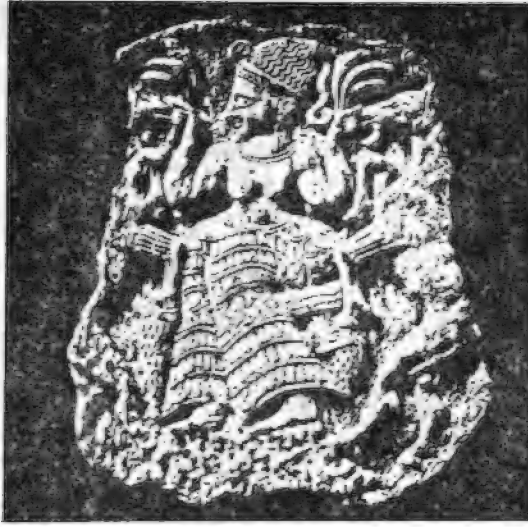
وطريف هنا أن نشير إلى أن حرف "الصاد" في اللغة العربية الفصحى (لهجة قريش) وفي اللهجات العربية الأخرى : الفينيقية والسريانية إنما هو (صودي) ويعني " الصائد " ويرمز له بصنارة لصيد الأسماك ، مما لا يدع مجالاً للشك في أن العرب — كما تؤكد نتائج أبحاث الحضارة النطوفية — كانوا ينجذبون في بداية عهدهم بالاستقرار والتجمع

• إن هذا لا ينفي حدوث هجرات جماعية أو شبه جماعية بين فترة وأخرى لظروف سياسية أو طبيعية طارئة ومفاجئة ، كالطوفان أو الزلازل أو البراكين ، أو الغزو ، أو غيرها ، لكن هذا يبقى موضوعا آخر لا علاقة له بالظاهرة التي اعتمدها الباحثون والمؤرخون ودعوا بها بالهجرات السامية وأرجعوها إلى عامل الجفاف

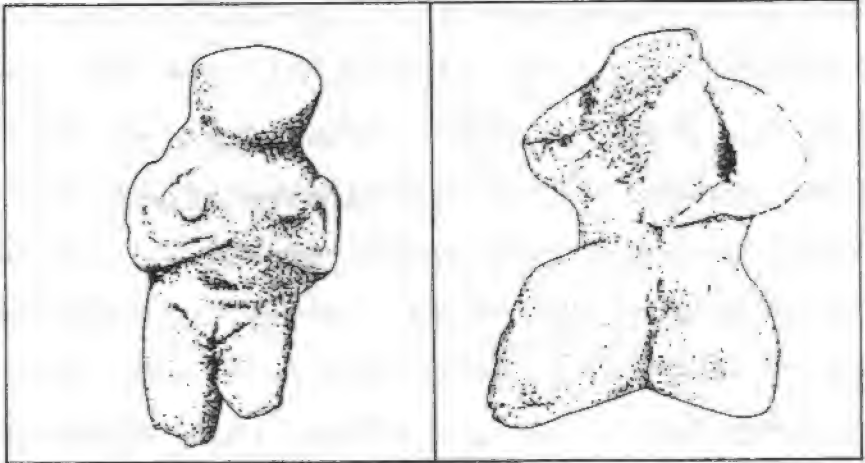
إلى عند مجاري المياه . وكان الصيد السائد بينهم جميعا حينما فكروا باختراع الكتابة الذي ترك انعكاسا له في لغتهم بشق لهجاءها ، إنما هو صيد الأسماك . وهذا دليل آخر على وحدة السكان واللغة والتطور الحضاري يضاف إلى الأدلة الأخرى التي جعلت الباحثين يؤكدون النتيجة القائلة بأن " بوتقة حضارية واحدة امتدت خلال هذه الحقبة من النيل إلى الفرات " .

إن الاستقرار ، إذن ، كان يتم حيث تتوفر الشروط الملائمة لتأمين الحياة الدائمة دونما حاجة إلى التنقل والارتحال . وليس من مكان أكثر حظا في توفير مثل هذه الشروط من مواقع مجاري الأنهار ، حيث تتكفل المياه بتأمين الغذاء من الأسماك ، وري البشر وقطعان الماشية والأراضي المزروعة . كما أن تدجين النباتات يجد نجاحا فوريا ونتائج ملموسة لاتعتمد على الصدف ، علاوة على ما تؤمنه الأنهار من وسائل للنقل والملاحة . وفي الفترة الممتدة بين الألفين الثامن و السادس قبل الميلاد ظهرت مجموعة كبيرة من القرى — المدن في جميع مناطق سوريا من الشرق إلى الغرب ، ومن أقصى الشمال إلى أقصى الجنوب ، نذكر منها ما اكتشف في المواقع التالية :

تل أسود على البليخ ، و المريط ، وأبي هريرة ، وقرص على الفرات ، و توتال (شوتال) في سهل قونيا ، والكوم في جنوب شرق أبي هريرة ، و رأس شمرا ، و وادي فلاح ، وفارة ، و أبو غوش على الساحل ، و لبوة ، و الغريقة ، و أسود ، و بيسمون ، و الشيخ علي ، و المنحطة ، و أريحا ، و البيضاء في سوريا الجنوبية ، و الرماد جنوب دمشق .

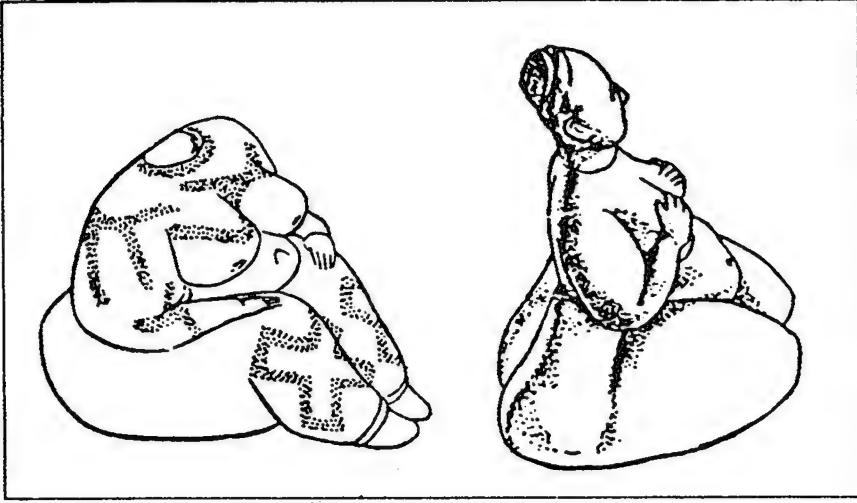


عشتار أوجاريت



الأم السورية الكبرى
تل المريبط على الفرات 8000 ق.م

الأم السورية الكبرى
تل أسودقرب دمشق 8000 ق.م



الأم السورية الكبرى شتال . حيوك (مشتل أو مزرعة حيوك)جنوب الأناضول 6000ق.م

" لقد أثبتت النتائج الأولية في موقع أبي هريرة أن الماشية (الماعز والغنم) تشكل السواد الأعظم بين البقايا الحيوانية (70.5 %) في الألف السابع ق.م ... وكان أهالي موقع أبي هريرة على الفرات من المزارعين أيضا ، وكما في تل الرماد فقد استمرت الجماعة البشرية على نهج سابقتها في زراعة الأنواع الأليفة (الحبوب ، والقمح النشوي) وزرعت أنواعا جديدة ، كالشعير المؤلف من ستة صفوف ، والحمص ، والعدس ، والفل ، وربما العنب أيضا ... وإذا تمكنا بالأدلة الناتجة عن تحليل العمارة ... فإننا سنميل إلى تثبيت الاعتقاد بوجود درجة جديدة من درجات التنظيم الاجتماعي اتاحت للجماعات البشرية ، كما في الألف الثامن ، أن تتكاثر وينمو عددها محليا . فالانتظام المترص للمساكن " الشوارع " (في أبي هريرة وفي الرماد) دليل على وجود نمط جديد من ترابط النسيج القروي ، كذلك فإن الدليل (الضعيف حتى الآن) على وجود بحار وقنوات للمياه في بقرص يمكن أن يطرح أمامنا مسألة التوزيع البلدي للمياه ، وهو وجه من أوجه التنظيم البلدي الذي أراد الأستاذ تشايلد أن يرى فيه نقطة الانطلاق نحو التمدن . إن مجرد وجود أي نظام للري والاسقاء يكفي — دون

الابتعاد عن المجال الزراعي — للتكهن بوجود مؤسسة اجتماعية متكاملة تتخذ القرارات وتسهر على تنفيذها "(1)

ومن الأدلة الواضحة على وحدة التكون النفسي الجماعي والتصور الديني في المناطق السورية عموماً في تلك الأزمنة الموعلة في القدم ظهور تماثيل الربة عشتار ، بمختلف أسمائها التي تنضوي جميعاً تحت اسم " الأم الكبرى " في تلك المواقع جميعاً . يقول الدكتور جاك كوفان بهذا الصدد : " إن تشكيل أو نحت تلك الأعمال الفنية لم يكن هدفاً لذاته ، كما لم يكن ضرباً من اللهو والعبث ، ولا ضرباً من ضروب الفنون بلطعني الحديث للكلمة . فالشكل البشري وبخاصة شكل المرأة ، لم يمر تشخيصه فنياً إلا لأنه يحمل مغزى ، ونابع عن " تصميم مسبق " ومما يؤكد على هذه القيمة الدلالية Semantique أن التماثيل المنفذة بأسلوب تبسيط أو مجرد تقريبا لا تحاكي الواقع إلا من بعيد .

" ومن ناحية ثانية فإن هذه "الوصفة" برهان على "إجماع" عام يتخطى الحدود المكانية والحضارية ، إنه تعبير مشترك ، كأى تعبير آخر . فهو ينطلق من ذلك الإجماع مستهدفاً ذاته . ولهذا السبب نستطيع التأكيد بأن الأمر لا يتعلق بـ "تشخيص المرأة" بقدر ما هو يتعلق بالتعبير من خلال شكل المرأة عن النفسية الجماعية لعصر بكامله . " وفي الحقيقة تصبح دمية المرأة فيما بعد الشكل الذي يجسد " الربة الكبرى " التي تظهر للوجود في بلدان المشرق منذ مطلع الألف الثامن ، ثم تأخذ أشكالها المتبدلة في العصور التاريخية .

" وإنه لمن المحتمل أن يكون التمثالان الملتحيان المكتشفان في أريحا وفي السوية الرابعة بالمربيط قد مهدتا الطريق لنظيرهما الملتحي في شتل هويوك حيث اقترن دوماً مع الثور المشخص . وإنه لمن الأكيد ، في كل الأحوال ، أن تقديس الثور كان موجوداً في المربيط جنباً إلى جنب مع تقديس الربة الكبرى ، إن لم نقل قبلها بعدة قرون . ويدعو أن الفرات الأوسط قد سبق العصر الحجري الحديث في الأناضول في التعبير عن هذا الزوج الإلهي

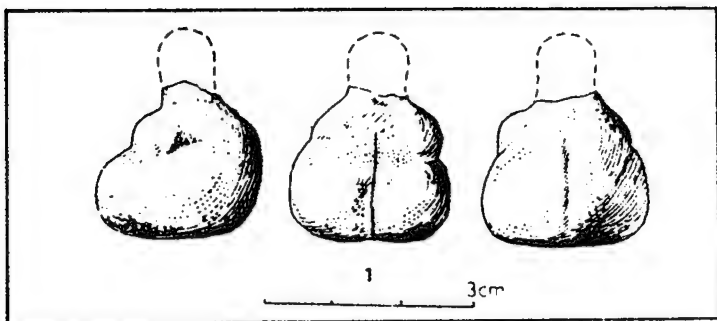
(1) الدكتور جاك كوفان " المصدر السابق " ص 107 — 108 .

تعبيراً صادقاً من خلال التقديس الثنائي للثور وللمرأة في وقت واحد ...

" وفي الفترة التي عمت فيها الزراعة بكل نتائجها التي أشار إليها الأستاذ فلانري ، والتي تجلت في امتلاك الأرض ، وفي خلق قيمة لمساحات الأراضي من خلال استغلالها زراعياً ، وفي انتقال الملكية من شخص لآخر بالوراثة ، نجد في الحضارة غير المادية لتلك الفترة آثاراً ملموسة لإيديولوجية الأنساب " (1)

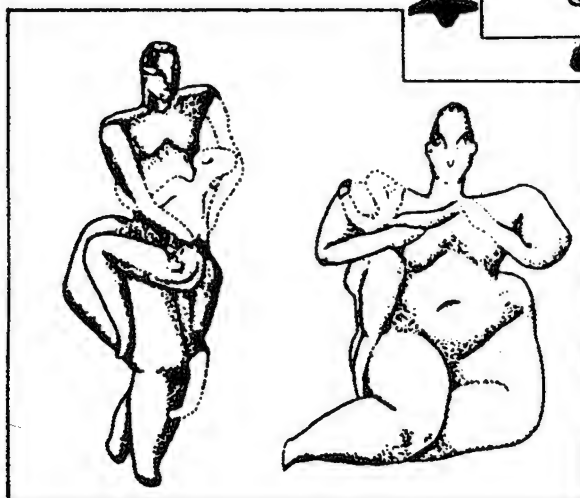
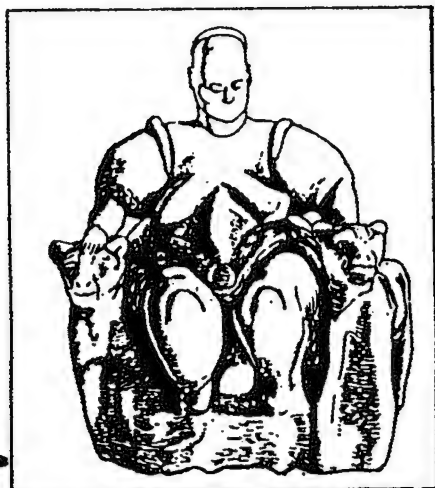
تلك هي بعض ملامح الحضارة العربية السورية الواحدة ، كما أظهرتها المكتشفات الأثرية الحديثة ، منذ عشرة آلاف سنة على الأقل .

" وفي ظل هذه الأجواء الجديدة ظهر في العصر النطوفي الاستقرار كما ظهرت القرية ، وكلاهما كان السبب في نشوء تحولات لا يمكن لغيرهما أن يحققها .



دمى طينية في موقع البيضا

الأم الكبرى تضع وليدها الإلهي بين
أسدين . شتال حيوك
(مزرعة حيوك ، جنوب الأناضول)



الأم السورية الكبرى مع
وليدها الإلهي ، شتاك حيوك
الألف السادس قبل الميلاد

وقد تجلت تلك التحولات في البلوغ بالسكن إلى الكمال ، وفي قيام شكل جديد من أشكال الفعالية البشرية ، وقد تمثل هذا الشكل في ممارسة الإنسان للزراعة لأول مرة " (1)

وفي هذا ما يسكت كل مزاعم كريم وغيره حول أن آخرين هم الذين " حملوا الزراعة إلى سكان الرافدين في الألف الرابع قبل الميلاد " !

ولقد توصل الآثاريون الذين اجروا تنقيبات في بعض المدن التي تحمل أسماء عربية أصيلة مثل " أريحا " إلى إرجاع تاريخ هذه المدن بواسطة الكربون المشع إلى فترات زمنية موعلة في القدم . فقد " أرجعوا تاريخ بلدة أريحا إلى ما قبل سبعة آلاف سنة قبل الميلاد " وهذا ما حمل بعضهم على اعتبارها أقدم مدينة في العالم ما تزال باقية حتى الآن (2) وقد عثر في حفائر " تليلات غسول " الواقعة شمال شرقي البحر الميت في سنة 1929 وما بعدها على آثار أقدم مدينة في فلسطين ، أي أقدم من أريحا ، كان لها حضارة راقية ، وقد ضربت في أوائل العهد الحجري المعدني أو البرونزي (5000 — 3000 ق.م) نتيجة حريق حولها إلى رماد (3) .

فالمناطق العربية السورية إذن عامرة بالمدن الحضارية منذ الألف السابع قبل الميلاد على الأقل ، وتنتشر على طول الساحة العربية السورية الممتدة من ضفاف الخليج إلى شاطئ المتوسط ، تمتد حضارة واحدة من عمر واحد تقريبا ، لشعب واحد لم تعرف هذه الأرض قبله أو بعده أي شعب منذ آلاف السنين وحتى اليوم . وإن هذا هو ما حدا ببعض الباحثين أمثال موسكاتي وكيلر وغيرهما إلى التأكيد بأن ما يعرف بمنطقة الشرق الأدنى كلها إنما عرفت وحدة قومية واحدة ترجع إلى أصل واحد ، الأصل السامي العربي . يقول موسكاتي مؤيدا الوحدة القومية للشعب العربي في تلك العصور : " إن المناطق الثلاث — الجزيرة العربية وسوريا ومن ضمنها فلسطين وبلاد ما بين

(1) الدكتور جاك كوفان " الوحدة الحضارية في بلاد الشام " ص 32 .

(2) Keller , {The Bible as History } 1957, P, 180

(3) Ricciotti , {Histoire d Israel} Vol, 1, pp, 70-104

النهرين — كلها تكون وحدة جغرافية متماسكة الأجزاء كانت في تلك الأزمان مسرحاً رئيسياً للنشاط البشري ، وإن الأقوام الذين مثلوا هذه الأحداث المسرحية لعبور الدور المعد لهم بحكم طبيعة أحوالهم ، وقد صهرتهم هذه الوحدة الجغرافية في مصير مشترك بحيث أن أية صدمة أو حركة تصيب القطاع الواحد يمتد انعكاسها إلى الأقطار الأخرى ... وإن الأقوام الذين استوطنوا هذه الأصقاع هم وحدهم الذين رسموا شكل تاريخها وحضارتها في ضوء أحوال بيئتهم الطبيعية ⁽¹⁾ .

فالحضارة، إذن ، لم تأت إلى المنطقة من الخارج ، بل العكس كان دائماً هو الصحيح . وإن كل الغزوات التي نكبت بها المنطقة من الشمال والشرق إنما كانت غزوات همجية تدميرية ، لا غزوات حضارية تنقل أسباب المدنية من أوطانها التي لم تعرف بعد ، باعترا ف صموئيل كريب و ول ديورانت نفسيهما . فكيف يحق لهما ، بعد ذلك ، أن يزعموا بأن الحضارة بدأتها قبائل بدائية غير سامية أطلقوا عليها زورا اسم " السومرية " ، في حين أن السومريين جزء من الشعب العربي السوري ، وحضارتهم في حوض الفرات والدجلة الأدنى تشكل مع حضارة أكاد الحقل الشرقي من المزرعة الحضارية العربية السورية في تاريخ سوريا ! ثم كيف يمكن لمؤرخ مثل صموئيل كريب أن يدعي بأن الإيرانيين هم الذين حملوا الزراعة إلى المنطقة في الوقت الذي تزخر فيه هذه المنطقة بالمكتشفات الآثارية التي تؤكد حقيقة أن الاستقرار الزراعي الأول في العالم كله إنما كان في هذه المنطقة وقبل أن يظهر إيران نفسه وفارس إلى الوجود بعدة آلاف من السنين .

خامساً ، إن المكتشفات الآثارية أخذت تسد يوماً بعد يوم كل الثغرات التي كان يعول عليها كثير من مؤرخي الحقبة الاستعمارية فأظهرت أن المنطقة العربية السورية منطقة واحدة مملأها إنتاج العقل الحضاري العربي ذي المستوى الواحد . إن هذا لما يؤكد أصالة الفعل الحضاري ووحدة الشعب . يقول الدكتور مورتغات في هذا الصدد : " لقد أكدت المكتشفات وجوب إضافة حقبة حضارية سامية قائمة بذاتها تعود إلى عصور فجر

(1) Moscati "Ancient Semetic Civilizations ",London 1957,pp,13,21,108

التاريخ وتسبق عهد الإمبراطورية"⁽¹⁾ . وقد سمي هذه الحقبة الحضارية العربية السامية البحتة " عصر مسيلم " نسبة إلى مسيلم أحد الملوك العرب الساميين الأوائل في مدينة كيش العربية السامية ، وهذا الاسم كما هو واضح اسم عربي ، ويعتقد أن زمن مسيلم هذا يرجع إلى أواخر سلالة كيش الأولى الذي يتفق مع زمن أوائل سلالة أور الأولى (حوالي آخر النصف الأول من القرن السابع والعشرين قبل الميلاد) . ويرى الدكتور مورتغات أن عصر مسيلم يمثل نقطة تحول مركز ثقل الحضارة إلى مدينة كيش العربية السامية عاصمة مسيلم التي تعتبر — على حد تعبيره — الأم القديمة لمدينة بابل الشهيرة عاصمة الحقبة الكلاسيكية . ويمضي مورتغات في حديثه عن عصر مسيلم فيقول :

" ويعود الفضل في كل ما نعرفه بشكل ملموس عن هذا العصر في النواحي المادية والفكرية كليا إلى المكتشفات الآثارية وهذا ما دعانا بحق إلى ضم هذه الحقبة والحقبتين السابقتين (الوركاء وجمد نصر) إلى عصور فجر التاريخ " ويضيف : " من المؤكد أن الساميين قد نزلوا البلاد قبل أن يكون هناك إمبراطورية أكادية أصلا ... وإننا نملك منحوتات من مدينة ماري تحمل كتابة سامية أقدم من سلالة أور الأولى ، ناهيك بعصر مسيلم الذي يشكل الفصل الأخير لعصر فجر التاريخ ، تلك الحضارة التي تجعلنا نفترض وجود مساهمة سامية قوية في بنائها"⁽²⁾ " ولن نتوقف هنا عند تسمية " السامية " التي قرروا استخدامها بدلا من " العربية " .

كما أن اكتشاف إيبلا في سوريا سد ثغرة كبرى في التاريخ الحضاري الكبير للمنطقة برمتها . " لقد حققت وثائق إيبلا ثورة في معارفنا التاريخية عن الشرق الأدنى في الألف الثالثة قبل الميلاد ، هذه الفترة التي شهدت بناء الأهرامات في مصر أو ما يسمى بعصر الملوك .

فإلى جانب أكبر مصدرين للمعلومات التاريخية وهما مصر وبلاد الرافدين أصبحت سوريا بفضل اكتشافاتنا هذه المصدر الرئيسي الثالث للتاريخ الحضاري والسياسي في

(1) الدكتور مورتغات " تاريخ الشرق الأدنى " ص 84

(2) المصدر السابق

الشرق الأدنى" (1) .

ويقول الأستاذ باولوماتيه : " كانت إيبلا مركزا لقوة سياسية كبرى هيمنت على بلدان آسيا الأمامية بوسائل مختلفة ولفترة طويلة من الزمن ، وذلك إما بالطرق المباشرة أي بتنصيب الولاة من الوجهاء المحليين كما كان الحال أكيدا بالنسبة لمدينة مارى (تل الحريري على الفرات) وربما بالنسبة لمدينة جبيل (على الساحل اللبناني أيضا) ، أو عن طريق عقد التحالفات السياسية كما كان الأمر بالتأكيد مع مدينة آشور عاصمة الآشوريين في شمال الرافدين ، هذه المدينة التي كانت في جميع الأحوال مرتبطة مع إيبلا في معاهدة دولية وكانت إيبلا في هذه المعاهدة تحتل المكانة الممتازة والمفضلة على آشور" (2)

وقد كانت إيبلا تستمد قوتها السياسية من حيوية اقتصادها ، فتجار إيبلا كانوا يجوبون البلاد من الأناضول إلى فلسطين ، ومن ساحل البحر المتوسط إلى الخليج العربي ، أي أنهم كانوا يحتضنون عالم الجهات الأربع (الوطن العربي السوري) ، هذا ، وتتضمن النصوص التجارية المكتشفة في إيبلا أسماء مئات المدن القديمة ، وهذا ما سيغني معارفنا عن جغرافية الشرق الأدنى في الألف الثالث قبل الميلاد بشكل لا مثيل له من قبل . ومن بين المدن التي يأتي ذكرها نورد على سبيل المثال مدنا حية هي مدينة أرمان ومدينة إيميشا و مدينة إيمات ، ثم مدينة ديماشكي ، و من بين المدن القديمة الأخرى يأتي ذكر كل من إمار ، و توتول ، و كركميش ، و حران ، و أوغاريت ، و قطنة ، و جبيل . ويقول الأستاذ باولوماتيه : " تتجلى أهمية وثائق تل مريدخ (إيبلا) في إنها تضيف صفحة ناصعة للغاية إلى تاريخ سوريا وحضارتها الرفيعة في فترة سحيقة في القدم ، خاصة وإننا كنا نعتقد في السابق بأن سوريا لم تصل إلى هذا المستوى من الرقي الذي

(1) الدكتور عفيف بهنسي " وثائق إيبلا " ص 28

(2) الدكتور عفيف بهنسي " وثائق إيبلا " ص 28 .

• إننا نرجح - بعكس ما يفترض الباحثون والمشفرون على مديرية الآثار في القطر العربي السوري إن يكون معظم هذه الأسماء على طريق القوافل الدولي في شبه جزيرة العرب ولاسيما في منطقة غامد وزهران

أصبحت تؤكد لنا وثائق تل مردوخ الآن ، فمثلا كانت إيبلا بين 2400 — 2250 ق.م
مركزا لقوة كبرى هيمنت فترة طويلة من الألف الثالث قبل الميلاد على آسيا الأمامية
ووصل الأمر إلى أن دولة آكاد العظمى قد اضطرت يوما إلى دفع الجزية إلى ملوك إيبلا ،
كذلك كانت إيبلا عاصمة حضارة رفيعة ومدنية راقية ... إن لاكتشاف الأرشيف
المركزي للقصر في إيبلا أهمية بالغة جدا للتاريخ ، وإن الوثائق الجديدة تبرز إيبلا في
حوالي 2300 قبل الميلاد كمركز لأهم دولة في الشرق الأدنى ، فقد كانت تسيطر على
مناطق واسعة جدا من حوض البحر المتوسط وحتى بلاد ما بين النهرين ...
إن صفحة جديدة كانت مجهولة قد فتحت أمامنا لأول مرة في القطر العربي السوري ،
بحيث تبين أن هذا القطر لعب في الألف الثالث قبل الميلاد الدور الأول في تاريخ الشرق
الأدنى ، وإن بدايات حضارته وثقافته والتي تشهد عليها فنونه وطرازه الهندسي وتطوره
الأدبي ، تبرز ، في الوقت نفسه ، أن إيبلا لعبت دورا رئيسيا إلى جانب مصر وما بين
النهرين " (1)

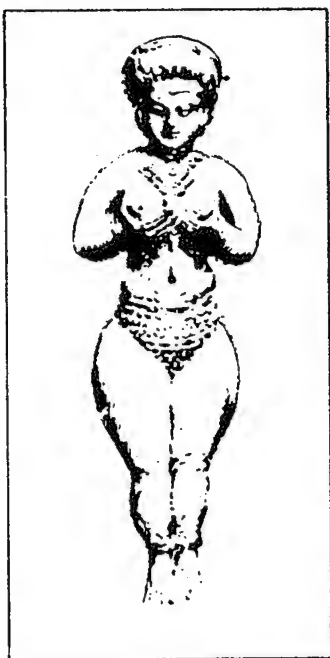
وجدير بنا أن نذكر أن لغة أهالي إيبلا تعتبر أقدم لغة عربية غربية وصلت إلينا
مكتوبة حتى الآن ، " وتمتثل هذه اللغة تماثلا تاما مع اللغة التي جرت العادة على
تسميتها بالكنعانية وبالأخص مع الأوغاريتية التي نملك عنها شواهد ترقى إلى 1400 —
1200 ق.م ومع اللغة الفينيقية التي ترقى شواهدا إلى ما بعد 1200 ق.م فضلا عن هذا
تماثلها مع اللغة العربية التي تعتبر أحدث لغة سامية أدبية كبيرة بين مجموعات اللغات
السامية الغربية . فمثلا نجد بين مفردات أهل إيبلا في الألف الثالث الكلمات ذاتها التي
ما تزال حية كما هي في العربية الحديثة مثل (كتب) و (ملك) و (يد) الخ " (2)
إن هذا من شأنه أن ينسف كل أقوال مؤرخي الحقبة الاستعمارية ومن سار خلفهم
حول الهجرات السامية وأزمان حدوثها ، وتقسيم الشعب الواحد إلى شعوب متناحرة لا
علاقة للواحد منها بالآخر ، والحضارة الواحدة إلى حضارات ، واللغة الواحدة إلى لغات

(1) المصدر السابق نفسه ص 30 — 31 .

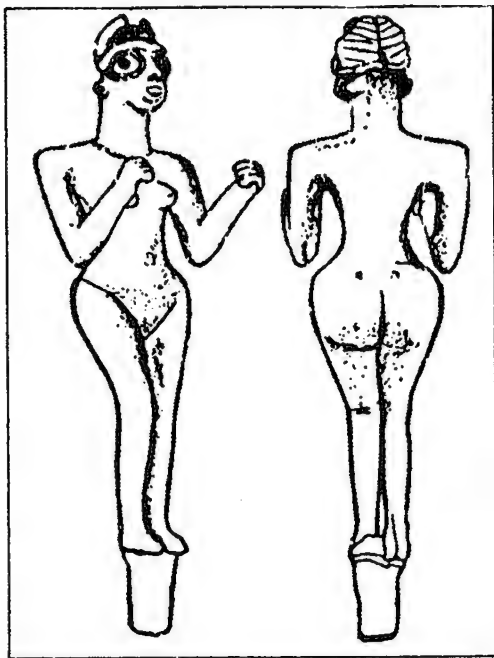
(2) المصدر السابق نفسه ص 24

منفصلة ومستقلة ، كما ينسف في الوقت نفسه تلك المساعي الدؤوبة إلى التركيز على بؤرة حضارية معينة في مدينة ما أو بقعة ما وفصلها عما حولها ، إذ دلت المكتشفات على أن المنطقة برمتها إنما هي منطقة حضارية واحدة ، يسكنها الشعب العربي السوري الذي يتكلم لغة واحدة هي اللغة العربية بلهجاتها الشرقية والغربية والعرباء منذ آلاف السنين . وقد دحضت المكتشفات الحضارية كل ما يمكن أن يتصوره أو يتدعه أولئك الحاقدون على تاريخ الأمة العربية ، وهضمت بنفسها على الساحة لتتكلم عن نفسها دونما حاجة إلى أية فرضيات أو نظريات أو تصورات وافدة من وراء حدود المنطقة لأغراض لم تعد تخفى على أحد .

لقد ظل مؤرخو الحقبة الاستعمارية يعتمدون التوراة لفترة طويلة في دراستهم لتاريخ المنطقة ، هذا الكتاب المشوه الذي وضع بعض انسال العشائر العربية البدوية المتخلفين من دعوهم " عبرانيين " في مقدمة الشعوب .



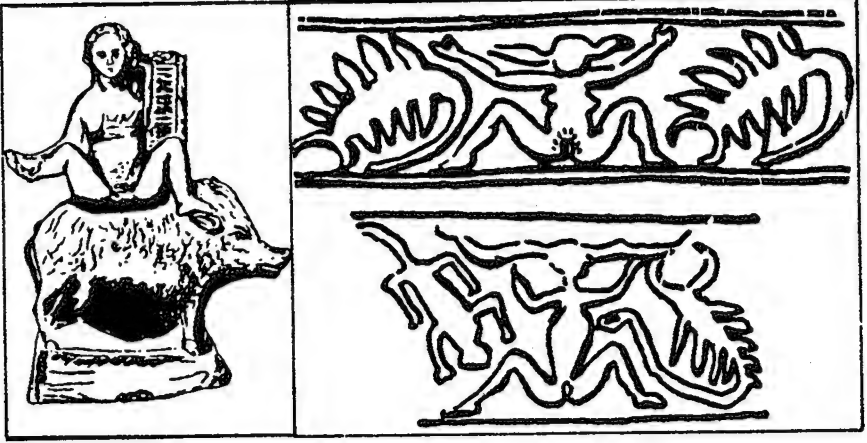
الأم السورية الكبرى
عشتار البابلية



الأم الكبرى عشتار



عشتار ترضع شهاريو وشلامو ، أوجاريت



عشتار ختم اسطواني من أور

عشتار والخنزير البري عدو الخصب

يقول الباحث الفرنسي بيير روسي بهذا الصدد :

" إنه هوسنا بالخصام الذي أخذ يمزق الشعب الواحد إلى شعوب أقرباء كالمؤاييين والأموريين والكنعانيين والأراميين والسوريين ... إلخ ، ولماذا ؟ لأننا معنيون بأن نميز فيهم خصوصيات عرقية أو طائفية تجربنا على أن نضع بينها "العبرانيين" ، وذلك لكي نقدم الدليل بكل غن على صحة العهد القديم ... ⁽¹⁾ وإن فن التفيت هذا قد ذهب بعيدا جدا بحيث أن الحضارات ، تحت مجهرنا القاتل ، قد انتهت إلى فئات . وبينما أخذت رغبتنا في التحليل كل أبعادها كانت رغبتنا في التركيب تتراجع ، ذلك التركيب الذي لا يمكن بدونه أن يكون هناك تاريخ ممكن ... إن الحدود المرسومة عسكريا أو سياسيا حسب مقتضيات آراء الأساتذة أو علماء الآثار حتما لا تتجاوز دواخلهم . وإننا عندما نؤكد من خلال نظرة شاملة أن الشرق يتعين من خلال ثقافة عربية في مساحة عربية فإننا لا نخترع شيئا ، إننا لا نفعل شيئا سوى جمع وإحكام العناصر الجغرافية والثقافية الموطدة

(1) بيير روسي ، مدينة إيزيس التاريخ الحقيقي للعرب ، ترجمة فريد جحا ، الطبعة الثانية ، دمشق 1996 ، ص 69 .

الواحدة إلى الآخر ، تلك العناصر الراسخة لكنها المخرجة بإرادة تحليل زائد عن الحد ، تلك الإرادة التي هي المذنب الأول في نفي الحقيقة . والمذنب الثاني هو التعليم الجامعي المتفرق منذ النهضة والذي كان الوحيد لصالح أثينا وروما .. واللذين غدا الأوروبي من خلالهما ، منذ القرن الخامس عشر ، ظانا أنه اكتشف ذروة مثالياته ، واعتبارا من هذا القرن توقفت الثقافة الأوربية عن الاهتمام بالعرب لكي ينهار وافي الرمل ، ولكي ينسحبوا شيئا فشيئا إلى حيث يغدون من قبل الغرب في القرن العشرين مختصين بالجمل والقبيلة ، والثأر والبدواة "(1)

إنه ما أن بدأت التنقيبات الآثارية في المنطقة، ولاسيما في منطقة حوضي الفرات والدجلة ، حتى أخذت الاكتشافات تتوالى لتترك العالم يقف مذهولا أمام لغة الأرض نفسها التي أخذت تتحدث عن نفسها، وعن عظمة الشعب العربي السوري الذي عمرها وسكنها ودافع عنها ، وأنجز أروع حضارة عرفها تاريخ البشرية منذ آلاف السنين . وقد تأكد للباحثين ونتيجة للمكتشفات الآثارية " أن أقدم آثار لوجود الإنسان في الجزء الشرقي من الوطن العربي السوري يعود إلى نحو 120 ألف عام وقد وجدت في بدة — بلكا في الشمال بين كركوك والسليمانية عام 1999 (وفي الجزء الغربي تعود إلى 150 ألف عام) ، أقدم هياكل بشرية هي أربعة وجدت في كهف شانيدار ، أقدمها يرقى إلى 60 ألف عام وثلاثة إلى 45 ألف عام (بينما في سوريا إلى 100 ألف عام) ، كشفها الدكتور سوليكي عام 1951 وتعود لإنسان العصر الحجري القديم . ثم بدأ العصر الحجري الوسيط نحو 10 آلاف ق.م وأعقبه العصر الحجري الحديث نحو 7 آلاف ق.م . لقد بدأ العصر الحجري الحديث بزراعة الأرض وتدجين الحيوانات ، وليس بابتداع أدوات حجرية جديدة ، وقد انتهى بظهور المعادن ، وبدأ العصر الحجري النحاسي ثم تبعه البرونزي نحو 3500 ق.م .

" فبالنسبة للعصر الحجري الوسيط كان إنسان المنطقة سباقا إلى الانتقال إليه من العصر الحجري القديم . فقد امتد تعاقب الطبقات الآثارية للعصر الحجري القديم في كهف

(1) المرجع نفسه ، ص 36 — 37 .

شانيدار الواقع في جبال زاغروس الشرقية حتى 8500 سنة قبل الميلاد ... وإن كافة مواقعها المكتشفة حتى الآن في العراق وإيران وحول بحر قزوين هي كهوف وملاجئ " بينما تتوافق الفترة الواقعة بين 14000 و 12000 سنة قبل الميلاد في سوريا الغربية من الناحية الزمنية مع صناعات أواخر العصر الحجري القديم التي أعقبت أواخر حقبة الأورانيسيان ، وتعرف تلك الفترة باسم الكيباريان ، وهي تتميز بكثرة الأدوات الصوانية الصغيرة الحجم ، أو بمهنة نصال السكاكين المطروقة وغير المطروقة ، فضلاً عن المثاقب الدقيقة والقطع الحكيمة . ويعثر الأثريون على هذه الأنواع في مختلف أرجاء سوريا الطبيعية مثل النقب ولبنان وضياف الفرات" ⁽¹⁾ وهذا يعني أن إنسان سوريا القديم سبق غيره من سكان المنطقة في الانتقال إلى العصر الحجري الوسيط. مما يقرب من سبعة آلاف سنة .

وفي الوقت الذي كان إنسان المناطق الأخرى ما يزال يعيش في الكهوف ويقتات على ما تقدمه له الطبيعة من ثمار ونبات وصيد " ظهرت للوجود في حوالي 10000 ق.م في غربي سوريا حضارة جديدة يطلق عليها اسم الحضارة النطوفية ودامت حتى حوالي 8300 ق.م ، وتتمتع هذه الحضارة بأهمية كبيرة بالقياس لموضوع الخروج من الكهوف ⁽²⁾ إذ أنه ولأول مرة في تاريخ البشرية ، ظهر في العصر النطوفي الاستقرار ، كما ظهرت القرية ، وكلاهما كانا السبب في نشوء تحولات لا يمكن لغيرهما أن يحققها . وقد تجلّت تلك التحولات في البلوغ بالسكن إلى الكمال ، وفي قيام شكل جديد من أشكال الفعالية البشرية ، وقد تمثل هذا الشكل في ممارسة الإنسان للزراعة لأول مرة ⁽³⁾ أما العصر الحجري الحديث فقد بدأه إنسان سوريا منذ 7000 سنة قبل الميلاد ، وهذا أقدم من أي مكان آخر في العالم ، بل وإن إنسان منطقة الفرات بدأه منذ 9000 سنة ق.م ، حيث اكتشفت أقدم قرى زراعية في العالم حتى الآن .

(1) الدكتور جاك كوفان ، ص 18

(2) المصدر نفسه ، ص 19

(3) المصدر نفسه ص 32 .

وما بين العصر الحجري الحديث وبدء التاريخ توجد مرحلة انتقالية اكتشفت بعض آثارها في حوض الفرات الأدنى، منها منطقة "سومر" أو "شومرو". وإذا لم يكن باستطاعة العلماء أن يبتوا في هوية إنسان المنطقة في هذه المرحلة التي دعيت بمرحلة فجر التاريخ لعدم توصلهم إلى الكتابة بعد، وهوية الإنسان تحددها آثاره المكتوبة بالدرجة الأولى، فإن مما لا شك فيه أن المرحلة التي تلت مرحلة فجر التاريخ، وهي مرحلة بدء التاريخ، كشفت عن وجود العرب السوريين بلهجتهم الشرقية والغربية، وهذا يعني أن التراكم الكمي السابق لإنسان المنطقة الذي أنتج ما عُرِف بالحضارة السومرية ثم الأكادية كان هو الحمل الذي حبلت به المنطقة لتنفرج عنه مع بدء التاريخ — حضارة للإنسان العربي السوري السومري و الأكادي معا.

وحضارة فجر التاريخ إنما هي — كما صوروها لنا — مجموعة من العصور الحضارية التي أعطيت — كالعادة — أسماء المواقع المكتشفة، وهي ما تزال تنتظر من يتصدى لدراساتها بروح علمية وموضوعية جديدة يضعها في موقعها الصحيح بين شقيقتها الأخريات التي ما زالت في طور الاكتشاف، أو تنتظر دورها الطويل. ونحن حينما نقدم هذه "العصور" هنا كما اعتاد أن يقدمها الباحثون فليس لأننا نؤمن بصحة هذا الأمر، بل لأن ذلك — حتى في شكله الحالي — لا يغير الهدف الذي نسعى إليه: وهو إبراز الأصالة الحضارية للمنطقة في كل أطرافها.

وهذه العصور هي:

عصر تل حسونة — سامرا

عصر تل حلف.

عصر تل العبيد.

عصر أوروك.

عصر جمدة نصر.

بدء الكتابة.



عشتار السيدة
عرشها الأسد رمز السيادة (فينيقيا)



عشتار الجبل يحرسها أسدان (كريت)



عشتار الأم السورية الكبرى في ميسينا



السيدة العزى "إيزيس"
والطفل الإلهي



عشتار وقموز الطفل الإلهي

تل حسونة :

يقع تل حسونة على بعد 36 كم جنوب الموصل ، وقد نقب فيه عام 1943 — 1944 ، و وجد فيه أرضيات بيوت فلاحية العصر الحجري الحديث ، وبيوت سكنية شبيهة جدا ببيوت شمال العراق الحالية ، مصنوعة من الطوب ومفروشة أرضها بالطين والتبن ، وتحتوي خواحي للحبوب مغروسة في أرض البيت ، وتنانير (جمع تنور) للخبز ، وجرونا لدق الحبوب ، ومناجل صوانية ، ومعاول حجرية ، وثمانيل بدائية الصنعة ، وجرارا كبيرة في البيوت تضم عظام أطفال ومعهم بعض الأوعية ، بينما عظام الكبار قد وضعت في الزوايا ، وأنواع الفخار المستوردة من شمال سوريا تمثل مرحلة حضارية واحدة تمتد من البحر الميت حتى نهر دجلة ، وأن دراسة البقايا العظمية قد بينت نوعا واحدا من البشر في كل الهلال الخصيب .

وفي الطبقات العليا وجد نوع من الفخار وجد منه بكثرة في سامراء مدهون وعليه صور وهذا النوع محصور في شمال الجزيرة السورية .

فإذا كان كل من أور ، و كوبلاند ، وأوراننش قد طرح النظرية القائلة " بأن بوتقة حضارية وحيدة امتدت خلال الحقبة النطوفية (10000 سنة ق.م) من النيل إلى الفرات بصرف النظر عن الخصائص الفردية التي جعلت للحضارة النطوفية سمات إقليمية متميزة " وقد أثبتها فيما بعد وأكدها الدكتور جاك كوفان⁽¹⁾ فإن حضارة فجر التاريخ المكتشفة في تل حسونة تأتي هي الأخرى تعبيرا آخر في مرحلة أخرى عن وحدة الحضارة التي تمتد من البحر الميت حتى نهر دجلة .

تل حلفه :

قرب رأس العين في سوريا على الخابور . البيوت ما زالت من الطوب ، ولكن لأول مرة يظهر القرميد والمقابر وأدوات الزينة والأختام المسطحة وثمانيل من الفخار . وفخار تل

(1) الدكتور جاك كوفان ص 21 .

حلف من نوعية جيدة جدا بلغت درجة من الكمال لم يزد عليها لا قبل ولا بعد .
جدران الجرار رقيقة ، أشكالها متعددة ومزخرفة ، تلوينها ممتاز مع رسوم الزهور
والطيور والحيوانات ورؤوس الثيران وهذا النوع من الفخار منتشر من كيليكيا في أقصى
الغرب من سوريا حتى إيران .

تل العبيد :

يبدو أن حضارة تل حلف قد انتهت فجأة بعد قرون من وجودها ، وبرزت حضارة تل
العبيد في الجنوب قرب أور كما في الشمال ، وكأن بلاد حوض الفرات قد توحدت
حضاريا ، مع العلم أن النصف الجنوبي من العراق كان مسكونا في عصر تل حلف في
مواقع أور و أريدو ، التي وجد فيها معابد و زقورة من عصر فجر التاريخ ، وفي ذلك
دليل آخر على مسيرة الإنسان المتوازنة في كل أنحاء الوطن العربي السوري القديم من
" البحر الأعلى إلى البحر الأدنى " . فالمعابد متراكمة في 17 طبقة ، الثماني العليا منها
تعاصر عصر تل العبيد و أوروك ، و هي دقيقة التصميم ، وأما معابد الطبقات
السفلى فتتكون من غرف مربعة فيها مذابح مقابل المداخل مبنية من القرميد . و تعاصر
تل حلف في الشمال . هذه الآثار تبين أن الحضارة العربية السورية التي عرفناها إنما هي
حضارة عميقة الجذور عظيمة القدم في جنوب العراق ، وفخار تل العبيد من نوعية
جيدة ، دهانه غير لا مع وعليه بعض الطيور .

استعمل العبيديون القرميد في بعض البيوت ، ولكن وجد كوخ في أريدو من عصر تل
العبيد مصنوع من الطين والقصب ، وأما معابد أريدو فكانت مبنية من الطوب ومؤلفة
من غرفة مستطيلة تبنى في زواياها غرف صغيرة وفيها تمثال للإله ومذبح وطاولة
تقدمات ، وكانت المعابد أهم الأبنية في قرى عصر تل العبيد . إن المدينة السومرية
قد نمت حول المعبد وليس حول قصر أو قلعة . ومرحلة تل العبيد هي بدء الحضارة
السومرية . إن ظاهرة كون المعبد هو المركز هي ظاهرة عامة لكل مدن سوريا القديمة.

بدء التاريخ :

يرجح أن عصري تل حسوثة وتل حلف يشغلان الألف الخامس قبل الميلاد بينما عصر تل العبيد 4000 — 3000 ق.م ، وعصر أوروك 3300 — 3100 ق.م وجمدة نصر 3100 — 2800 ق.م .

في هذه الخمسمئة سنة الأخيرة تطورت الحضارة السومرية تطورا كبيرا جعل الشمال يتخلف عن الجنوب فتوسعت المدن حول المعابد ، وظهر التنظيم والسلطة الإدارية التي تمكنت من حفر أقيية الري وزيادة الإنتاج الزراعي ، وظهور الصناعات ، ودولاب الخزف ، والختم الاسطواني ، واختراع الكتابة قبل الألف الثالث قبل الميلاد ، كان هذا التقدم نتيجة التطور الداخلي في الهلال الخصيب ، والسومريون جزء من شعبه الذي ظل يشغله وليسوا نتاجا لهجمة غريبة . إن هذا التطور الذي دام آلافا من السنين ، كان يحدث نتيجة للعملية التاريخية ذلت القوانين الثابتة . وإذا كانت سوريا القديمة بأجمعها من " البحر الأدنى إلى البحر الأعلى " قد ثبت أنه كان يشغلها شعب واحد عبر التاريخ ، سباق إلى درجات التطور ، يتنافس كل جزء منه مع الآخر في أن يكون هو الشكل التعبيري الآتي لمرحلة من التطور جديدة ، فإن هذا الشعب — كما ثبت للباحثين مؤخرا — استطاع بمجموعه ، وفي كل مواقعه ، أن يكون تعبيرا حيا عن كل مرحلة متقدمة من مراحل التطور في التاريخ القديم .

أوروك :

تقع أطلال أوروك (الوركاء) ما بين بغداد والبصرة . كانت المدينة في القديم مكرسة للإلهين " أنو " و " أنانا " . وفي وسط المدينة حول زقورة من الطين يقع معبد " أي — أنا " أي بيت الزوجة ، العروس ، وهو معبد أنانا أو عشتار السورية ، وفي جهة أخرى من المدينة يقع معبد أنو . وقد كشفهما المنقبون الألمان عام 1928 ، وهندستهما مثل معبد

تل العبيد في أريدو ، إلا أن مصاطبهما أعلى أو ربما هذا هو أساس الزقورة التي تميز معابد العصور التاريخية في الشرق السوري ، ونرى أن المصطبة في معبد أنو ترتفع 16 متراً فوق سطح السهل . وفي أعلاه " المعبد الأبيض " وعمره خمسة آلاف سنة .

في عصر أوروك حلت الأختام الاسطوانية تماماً مكان المسطحة ، وكانت تصنع من الأحجار الكريمة بطول 3 — 8 سم ، مخروقة طولانياً ، وقد نقش عليها ما يمكن طبعه على ألواح الطين كالنباتات والحيوانات والصور الميثولوجية والمعارك والطقوس الدينية ، ويبدو الكهنة عراة فيها .

في عصر أوروك أيضاً اخترع الدولاب والفيسفساء ، و فوق ذلك وجد في معبد " آي — آنا " في أوروك أول كتابة وكانت تصويرية ، هذه الكتابة التصويرية هي التي تطورت مع الزمن إلى الكتابة السمارية ، إلى أن اختفت الصورة المقصودة فيها وأصبحت صوتية ، واكتملت في أواسط الألف الثالث قبل الميلاد . وأقدم لغة كتبت هي اللغة العربية بلهجتها السريانية وبالرموز السومرية في الشرق والأمورية في الغرب في الألف الرابع قبل الميلاد .

جمحة نصر :

هذا آخر عصور فجر التاريخ وامتداد لحضارة أوروك بنفس المواضيع والصور والأختام ، إلا أن الكتابة أصبحت أكثر انتشاراً ، كما فقدت قيمتها التصويرية وأصبحت تعبر عن أصوات . وكان الدولاب والمحراث قد اخترعا سلفاً ، ولكن في هذه المرة ظهر فن النحت ، وبسرعة بلغ درجة عالية لإبراز عدة مظاهر من الحياة . إن التقدم التكنيكي والفني والكتابي كله سوري كما يعتقد الكثيرون ، وإن الكتابة التصويرية السومرية قد سبقت مثيلتها المصرية ⁽¹⁾ .

(1) انظر : هنري فرانكفورت ، فجر الحضارة في الشرق الأدنى ص 104، 136 و: ول ديورانت ، " قصة الحضارة " الجزء 1 ص 182

كنا قد بينا أن الحضارة لا يمكن أن تنشأ دفعة واحدة ومن فراغ ، بل لا يمكن أن تحدث بصورة قفزة من الحياة البدوية الرعوية والتنقل ، إلى الدولاب والمحراث والكتابة دفعة واحدة . إن هذا لا بد وأن يجتاز زمنا طويلا من التدجين النفسي مع تدجين الحيوان ، والتطور العقلي مع زراعة الأرض وابتكار الأدوات اللازمة والرعي وجمع المحصول وتخزينه وإعداد القوت والغذاء الضروريين ونقلهما من مكان لآخر ، وحساب مواسم وقايت الزراعة والجني ، وبالتالي الفصول .

وإذا كانت الزراعة ، في حد ذاتها عملا انقلابيا بالنسبة لتقدم الإنسان بعد تربية المواشي ، وبتطورها أخذ الإنسان يعيش في أكواخ مبنية من الطين أو في بيوت من اللبن ، ففي وسعنا القول بأن منطقة سوريا الطبيعية كلها من " البحر الأدنى إلى البحر الأعلى " كانت تسير في هذا المضمار على درجة واحدة من التطور تقريبا ، وقد سبقت جميع بقاع العالم الأخرى . وإذا كان الباحثون — كعادتهم — يركزون على كل بقعة يكتشفون فيها سوية حضارية جديدة على العلم ، فيجعلون منها مركزا للحضارة المنطقة كلها ، فقد ثبت لنا عدم جدوى مثل هذه النظرات المتسارعة إلى الأمور ، ولاسيما فإن عمليات التنقيب في المنطقة ما تزال في بدايتها ، وأن آلافا من التلال الأثرية ما تزال تملأ سهول سوريا كلها بانتظار من ينبري للكشف عن مخبوءاتها من أسرار الحضارة التي لا نشك في أنها لن تقل أهمية عن شقيقاتها في كل من ماري ، وأوغاريت ، وإيبلا ، وبابل ، و أوروك ، و نيبور ، وغيرها

"لقد وجدت بقايا المساكن البدائية في أقدم الطبقات التي سكنها الإنسان في المدن السورية مثل أريحا ، وترجع إلى ما قبل 7000 ق.م وفي طبقات تل الجديدة * و رأس شمرا وجبيل التي أتت بعدها ، ولم توجد مساكن بشرية أقدم من هذه في أي مكان آخر. وقد يكون لأريحا أقدم تاريخ متواصل من أية مدينة أخرى في العالم ... وإن المناجل الصوانية وسائر الأدوات التي تركها النطوفيون بكميات كبيرة تظهر أنهم و معاصريهم في سوريا الشمالية كانوا أول من مارس شكلا من أشكال الزراعة في الشرق الأدنى ،

• في شمال سوريا ولا يزال اسمها القديم مجهولا

وكان الناس لا يزال أكثرهم من سكان الكهوف ويعيشون على الصيد البري وصيد الأسماك ، وبعضهم كانوا يعيشون على الرعي⁽¹⁾ ، وليس لدينا دليل على ممارسة أي شعب آخر للزراعة في مثل هذا العصر البعيد ... ويبدو أن المهاجرين الساميين الأوائل إلى مصر إنما أتوا من سوريا وأدخلوا معهم القمح وزراعة الكرمة⁽²⁾ ، والكلمة التي تعني القمح " قمحو gmhw وكذلك الكلمة التي تعني الكرمة " كرمو Krmu — في اللغة المصرية القديمة هي بلا ريب مشتقة من العربية وبالأخص من الكنعانية ، وتبدو صور المحارث من بلاد بابل في سوريا ومن مصر متشابهة بشكل يلفت النظر"⁽³⁾ .

ولقد كانت إحدى النتائج الهامة للحياة الجماعية المستقرة دونما شك ، أنها عملت بصورة قوية على تطور ملكات الانسان العقلية والابداعية نتيجة لما فرضته مجاهدة التحديات اليومية في حياته الجديدة . وقد انعكس ذلك — وقبل كل شيء — على تطور اللغة كوسيلة للتفاهم بين الجماعات الكبيرة المستقرة ومناقشة التحديات والحلول المقترحة ، ومع زيادة وتائر العمل الذهني المجرد في السعي خلف إيجاد الحلول للمسائل اليومية التي تطرحها الحياة الجديدة جرى أيضا تطوير اللغة في هذا الاتجاه ، وأوجدت الكتابة التصويرية في البدء ، ثم كان لابد لها ، من أحل مواكبة سير الحياة ونقل التعبير عنها من مجموعة إلى أخرى ومن جيل إلى جيل ، من أن تتطور إلى مراحل أكثر تقدما: إلى الكتابة المقطعية ، ثم إلى الأبجدية الحرفية .

إن نظرة واحدة شاملة للوطن العربي السوري القديم من حدود الخليج وزاغروس مروراً بالفرات حتى مرسين ، وبلبنان وفلسطين إلى جنوب سينا ووادي النيل ، ترينا كيف أن هذه البقعة الحضارية المترامية كانت تسير بصورة متواكبة تقريبا . وإذا كان لا يمكن لأي اختراع قد يمثل قفزة حضارية لدى شعب من الشعوب أو مجتمع من المجتمعات أن يوجد في عقول الناس جميعا دفعة واحدة ، فإنه لابد من أن يجد مستوى التراكم الكمي الذي

(1) Strabo { Geography}BK.Xvii,ch s2.

(2) H.R.Hall, " The Ancient History of the Near East" ,8th ed , (NEW YORK),pp,89-90

(3) فيليب حتي " تاريخ سوريا ومن ضمنها لبنان وفلسطين " الجزء 1 ص 17

بلغة هذا الشعب متنفسا له بصورة تحول نوعي لدى فرد أو مجموعة أفراد ، إنه لابد من وجود العقل الاجتماعي الطبيعي الذي يتمثل مستوى هذا التطور ويفسح له مسرب الخروج إلى الدرجة الأكثر تطورا .

وإذا كانت الكتابة التصويرية قد وجدت ربما لأول مرة على أيدي العرب السوريين في سومر فإن شكلا آخر موازيا لها ، إن لم يكن قد سبقها في الظهور ، من أشكال التعبير في الكتابة كان قد ظهر لدى أشقائهم التجار السوريين في الغرب والتي تعتبر أقدم الرموز التصويرية المعروفة لدينا . لقد اكتشفها فليندرز بتري على قطع الفخار وآنيته في سوريا ومصر وإسبانيا ولقد حدد عمرها بسبعة آلاف عام .

" وهذه الرموز الكتابية التي وجدت في حوض البحر المتوسط تبلغ ما يقرب من ثلاثمائة رمز ، معظمها متشابه في جميع الأرجاء ، مما يدل على علاقات تجارية قامت بين طرفي البحر الأبيض المتوسط في عهد يرجع في التاريخ إلى سنة 5000 قبل الميلاد . ولم تكن الرموز صورا ، بل كان معظمها علامات تجارية ، علامات تدل على الملكية والكمية وغير ذلك من معلومات يقتضيها التبادل التجاري .. ولم تكن العلامات حروفا ، لأن العلامة الواحدة كانت كلمة كاملة أو فكرة بأسرها ، ومع ذلك فمعظمها كان شديد الشبه بأحرف الهجاء الفينيقية " (1) .

ويستنتج فليندرز بتري من ذلك " أن مجموعة كبيرة من الرموز قد استخدمت شيئا فشيئا في العصور الأولى لأغراض شتى . فقد تبودلت مع التجارة وانتشرت من قطر إلى قطر .. حتى كتب النصر لتحو ستة رموز فأصبحت ملكا مشاعا لطائفة من هيئات التجارة ، بينما أخذت سائر الأشكال التي اقتصر استعمالها على قطر واحد دون بقية الأقطار ، تموت في عزلتها شيئا فشيئا " (2) وقد وضع الأستاذ بتري نظرية مبنية على أساس هذا الاكتشاف مفادها أن هذه العلامات الرمزية إنما هي أصل الأبجدية الفينيقية الأولى في العالم .

(1) ول ديورانت " قصة الحضارة " الجزء الأول ص 182 .

(2) المصدر نفسه

وليس الموضوع هنا أيهما أسبق ، كما قد يخطر لذهن القارئ لأول وهلة . إن كل ما نبغيه من هذا البحث هو العكس من ذلك تماما : إنه التركيز على المسيرة الحضارية المتوازية لشعب شغل هذه الأرض منذ آلاف السنين ، مما يدحض كل محاولات التشويه والتزوير المغرضة الرامية إلى جعل الشعب العربي شعبا بدويا متطفلا على حضارات غيره من الشعوب ، التي " تفضلت " بغزوه فانتزع منها حضارتها ، أرسلها إلى حيث جاءت وقد فقدت هذه الحضارة .

إن اختراع الكتابة في سومر العربية السورية هو شيء منطقي جدا ، كما أنه منطقي أيضا أن نكون قد عثرنا على أول كتابة في العالم في ماري أو إيبلا أو حلبو (حلب) أو أوغاريت أو صور ، أو صيدا ، أو جبيل ، أو سيناء ، أو دلتا النيل ...

ولما كنا لندهش من هذا قطعا ، لأن كلا منها لم تكن لتقل في ركضها الحضاري عن شقيقاتها . ويكفي أن نشير هنا إلى أنه إذا كانت أول كتابة تصويرية ومقطعية مكتشفة حتى الآن قد وجدت في سومر فإن أول تطوير لهذه الكتابة من المقطع إلى الحرف ، أي إلى اختراع أبجدية مبسطة للكتابة قدمت للعالم بأسره ، إنما جاءت على أيدي أشقاء السومريين في الغرب — على أيدي السوريين في أوغاريت وجبيل .

لقد أوجد العرب السوريون في أوغاريت أول أبجدية صوتية في العالم . وقد كتبوها بالخط المسماري . ثم إن أشقاءهم في جبيل توصلوا في القرن الثالث عشر قبل الميلاد إلى تطويرها وكتابتها بالعلامات التي هي الأبجدية الفينيقية الخالدة التي غطت العالم كله فيما بعد ، و أصبحت أم الأبجديات المستعملة في العالم أجمع .

إن منطق التاريخ والعلم الحديث يجعلنا ننظر من خلال ذلك إلى المنطقة نظرة حضارية شمولية متكاملة . فكما أن ابتكار الكتابة التصويرية لا يمكن أن يقوم به الشعب كله دفعة واحدة مثله مثل أي ابتكار آخر ، فإن تطوير هذه الكتابة إلى الأبجدية ، لا يمكن أن يقوم به الشعب أيضاً في كل مناطق إقامته دفعة واحدة كذلك . إن اختراع الكتابة التصويرية ثم المقطعية كان حدثاً هاماً نقل العالم إلى مرحلة جديدة في التاريخ لاشك ، لكن اختراع الأبجدية كان ، في حد ذاته ، ثورة ما يزال العالم كله يدين بها للعقل العربي

السوري . وإذا كانت منطقة سومر قد شهدت و ابدعت الخطوة الأولى فإن هذا لم يكن يعني ، في منطق العلم والتاريخ ، أن مناطق الوطن الأخرى كانت بعيدة عن إنجاز هذه الخطوة ، ثم لما تمكنت منطقة أخرى مثل فينيقيا أو سوريا الغربية من إنجاز الخطوة التالية المتقدمة والأكثر إهمارا فإن في ذلك وحده دليلا كبيرا على أن مستوى هذه المناطق الأخرى كان مواكبا بل ومتقدما أحيانا لمسيرة سومر التي لم تخرج منها المرحلة الإبداعية التالية .

ونحن ، إذا كنا قد بينا السبق السوري الحضاري ككل لأية بقعة أخرى من العالم حينما تحدثنا عن الحضارة النطوفية وحتى بدء التاريخ واختراع الكتابة ، فإننا لا نعني بذلك أن الأمر كان كذلك ليتوقف عند هذا الحد. وإذا كانت الزراعة تشكل انقلابا حقيقيا في حياة الشعوب ، وتنقلها إلى درجة من التطور هي ، في حد ذاتها ، ثورة كبرى تشمل قوى ووسائل الإنتاج والبنى الفوقية والتحتية معا ، وكذا كانت الكتابة ، ثم اختراع الأبجدية هما ، في الواقع ، ثورة أخرى لا تقل أهمية عن الانقلاب الزراعي . وإذا كان كل من هذا وذاك قد تم بصورة متوازية تقريبا على امتداد الوطن العربي السوري " من البحر الأدنى إلى البحر الأعلى " كله ، فإن ذلك كان يدل بصورة لا تقبل الجدل ، على مسيرة الشعب الحضارية الواحدة ، وفي كل بقاع وطنه المترامية . ولو أن ذلك لم يحدث فعلا على أرض الواقع لوجدنا مبررا للآخرين الذين جعلوا دأهم بذل الجهود المضنية ودون جدوى من أجل الخروج بدليل واحد يؤكد أن هذه الحضارة إنما قد تكون وافدة إلى هذه الأرض ولم تنبع منها ، بصرف النظر أكان ثمة بقعة أخرى في الجوار قادرة على أن تهبها مثل هذه الحضارة أم لا .

لذلك وقبل أن نترك هذا البحث إلى غيره ، لابد من أن نتابع بعض خطى السبق والإبداع الحضارية الشاملة للمنطقة بأسرها لنؤكد عملية التواصل التاريخية في حضارتنا العربية السورية ، التي نبعت من أرضنا نحن وصنعها إنساننا نحن وحافظ عليها عبر آلاف السنين .

عصر المعدن :

بعد العصور الحجرية التي رأينا بعض ملامح السبق الحضاري العربي السوري فيها جاء عصر المعدن ، وبالأصح ما دعي بعصر النحاس . فلقد بدأت باكتشاف المعدن مرحلة جديدة هامة في تدرج الإنسان نحو الرقي حل فيها المعدن محل الحجارة كمادة رئيسية لصنع الأدوات . قد يكون هذا الاكتشاف قد حصل بعد اختراع الخزف بمدة وجيزة ، غير أن استعمال النحاس ، وهو أول المعادن ، على صورة واسعة قد تأخر غالبا . أما في سوريا ومنها فلسطين ، فقد أخذ الناس يستعملون المعدن بشكل متسع حوالي 4000 ق.م ولكنه لم يأخذ مكان الحجارة كمادة رئيسية لصنع الأدوات والأسلحة إلا بعد 3000 ق.م ويمكن تسمية هذا الألف الرابع بالعصر النحاسي الحجري حيث كان النحاس يستعمل في الأوساط الراقية ، بينما كان الصوان لا يزال يشكل دون منازع المادة الرئيسية . وتكثر آثار الحضارة النحاسية الحجرية في أوغاريت وسائر المواقع في شمالي سوريا ، وفي تليلات الغسول (التي أتت منها أدوات تعد من أقدم الأدوات المعدنية التي اكتشفت حتى الآن) وسائر المراكز في فلسطين وفي حوالي 3000 ق.م يبدأ العصر النحاسي ويعم استخدام النحاس وكثيرا ما يدعى خطأ العصر البرونزي ...

" وتظل سوريا الشمالية في العصر النحاسي الحجري كما في العصر الحجري الحديث المركز الحضاري الرئيسي للشرق الأدنى بأسره .. وقد أصبح الإنسان ، بعد اكتشاف المعدن وإدراك خواصه ، على عتبة عصر جديد استمر حتى الأزمنة الحديثة . وأتى البرونز بعد النحاس ، ثم تبعه الحديد . وصادف بدء عصر البرونز اختراع الأبجدية ، وهكذا تنتهي حضارات سوريا السابقة لعصر الكتابة ، وتبدأ حضارة عصر التاريخ .

" وانتشرت معرفة النحاس من سوريا إلى جميع الجهات ، ومن المحتمل جدا أن تكون مصر قد تلقتها في عصر ما قبل السلالات من هذا المصدر عن طريق الغزوة السلمية⁽¹⁾ ، وكذلك يمكن أن تكون منطقة نينوى قد اكتسبت هذه المعرفة من جارتها في الغرب . وهكذا فإن الجسر السوري الذي يمتد فوق المنطقة الواقعة بين خليج اسكندرون ومنحنى

الفرات يبرز في أهميته كمسرح لتدجين القمح واختراع الخزف واكتشاف المعدن⁽¹⁾ .
" وفي نهاية الألف الرابع كان فن الطلاء الزجاجي قد وصل كريت في بدء العصر
المنيوسي ، ومصر في أول عصر السلالات من شمالي سوريا ، وتبدو الأواني المزخرفة
بطلاء زجاجي حسب تقاليد سوريا الشمالية كمواد مستوردة في قبور الملوك الأولين في
ايبيدوس ، وقد أتت من تل الجديدة في شمالي سوريا مجموعة مختزنة من التماثيل النحاسية
الصغيرة المصبوغة وبينها إله وإلهة للخصب يعتقد أنها أول تمثيل معروف للشكل
البشري بواسطة المعدن⁽²⁾

" وقد أدى نمو صنع المعادن والخزف الذي يتصف به أواخر العصر النحاسي الحجري
وأوائل العصر النحاسي إلى ظهور حرف مختلفة وزيادة في العلاقات التجارية بين القرى
والمدن . ونتج عن ذلك اختصاص أكثر في العمل ، وازدهرت مدن آهلة بالسكان في
السهول والأودية وفي أماكن لم تكن مأهولة حتى ذلك الوقت ، وبدأت التجارة تتخذ
شكلا دوليا ، وكان توسع الاتصالات التجارية والثقافية بين أجزاء سوريا من جهة ،
وبين مصر من جهة أخرى ، عاملا أساسيا في حياة هذه البلاد في العصور التالية . وقد
نشطت الحياة في جميع مظاهرها نشاطا عظيما "كما نشطت في العصور الحديثة بعد
اكتشاف البخار والقدرة الكهربائية"⁽³⁾.

ويقول ول ديورانت حول النحاس : " كان النحاس أول معدن يلين لاستخدام الإنسان
فيما نعلم ، فنجدته في أرض الجزيرة بين دجلة والفرات من عهد ما قبل التاريخ ، ويرجع
إلى سنة 4500 ق.م تقريبا ، ثم نجده في مقابر البداري في مصر ويرجع عهده إلى ما
يقرب من سنة 4000 ق.م ، ونجده كذلك في آثار أور التي ترجع إلى سنة 3100 ق.م
... فكان نقيا حينا ، مشوبا في معظم الأحيان ، ثم حدث بعد ذلك بزمان طويل —
وربما كان ذلك حول سنة 3500 ق.م — في المنطقة التي تحيط بالطرف الشرقي من
البحر المتوسط أن وقع الناس على فن صهر المعادن واستخراجها من مناجمها ، ثم بدأوا

(1) الدكتور فيليب حتي " تاريخ سوريا ومن ضمنها لبنان وفلسطين " الجزء 1 ، ص 24-25
(2) المصدر السابق .
(3) المصدر السابق

في صيها نحو 1500 ق.م ، فكانوا يصبون النحاس المصهور في إناء من الطين أو الرمل .
ثم يتركونه يبرد على صورة يريدونها مثل رأس الرمح أو الفأس ، فلما أن كشف الإنسان
عن هذه العملية في النحاس استخدمها في مجموعة متنوعة من المعادن الأخرى ، وهذا وفر
للإنسان من العناصر القوية ما استطاع به أن يبني أعظم ما يعرف من ضروب الصناعة ،
وتهيأ له فيما بعد الطريق إلى غزو الأرض والبحر والهواء . ومن الجائز أن تكون كثرة
النحاس في شرقي البحر الأبيض المتوسط هي التي سببت قيام ثقافات جديدة قوية في
الآلاف الرابع من السنين قبل الميلاد في عيلام وما بين النهرين ومصر ، ثم امتدت من
هاتيك الأصباع إلى سائر أجزاء المعمورة فبدلتها حالا بعد حال " (1) .

ومن الواضح أن ديورانت — كغيره — يدأب على استخدام التسميات العامة مثل
" شرقي المتوسط " حينما يتعلق الأمر بحضارة سوريا ، وحينما يجد نفسه مضطرا إلى
تحديد أكثر يهرب إلى استخدام البقع الضيقة كلا على حدة . لكن القارئ العربي يدرك
أن المقصود بأرض الجزيرة هو شمال سوريا ومن المعروف لدى جميع المؤرخين أن السبق
العربي السوري في صناعة المعادن كان لا يضاهيه شيء ، وقد تحدث عن ذلك كثير من
المؤرخين ومن بينهم الدكتور فيليب حتي و شيفر و دانييل لو كينييل . فقد كتب شيفر
يقول : " وكان الكنعانيون* على الغالب ، لا يبارون في صنع المعادن في عصر البرونز
المتوسط والأخير فقد كانوا يصنعون البرونز والنحاس بكثرة .

وقد اظهر التحليل الكيميائي لنصل فأس من أوائل القرن الرابع عشر اكتشف في رأس
شمرا ، ليس معرفة إذابة الحديد فحسب ، وإنما معرفة مزجه بمعادن أخرى لصنع مزيح
الفلواذ ، وكان هذا الأمر مجهولا حتى ذلك الوقت ، واهتم الكنعانيون بالبحث عن
المعادن لجعل الحديد قاسيا وعن القصدير لأجل مزجه مع النحاس لصنع البرونز ، وعن
الذهب والفضة ، ولذلك قاموا برحلات طويلة خارج بلادهم ، ووجدت صحنون الفضة

(1) ول ديورانت " قصة الحضارة " الجزء الأول ص 178 — 179
• يقصد بهم سكان سوريا الغربية بعد أن شاعت هذه التسمية اعتمادا على الجغرافيا التوراتية
المزورة .

بين غنائم الفراعنة من سوريا ، واكتشف ميزان أحد الصاغة وأوزانه في رأس شمرا ⁽¹⁾ .
وتشيد أشعار هوميروس بصناعة المعدن و بالفنون الفينيقية ، وقد ذكرت أن صحنًا من
الفضة " عمله بدهاء الصيادايون الحاذقون في الصناعات اليدوية الدقيقة هو في جماله
أحسن شيء من نوعه في العالم كله " ⁽²⁾ .

مصر الكتابة :

" والكنعانيون هم الذين اخترعوا السفينة ، واهتدوا إلى عمل الزجاج ، ووضعوا نظام
الحساب ، وهم الذين اخترعوا أبجدية الكتابة المختزلة بالنسبة للخط المسماري
والهيريغلوفي ، فلا غرو أن أصبح الخط الكنعاني أساسا لجميع خطوط العالم المتمدن في
الشرق والغرب " ⁽³⁾

" وأعظم عمل قام به الكنعانيون للحضارة هو اختراعهم الأبجدية الهجائية الذي يعتبر من
أهم الاختراعات ، في تاريخ الحضارة البشرية ، ويتفق الباحثون على أن أصل الحروف
الهجائية في العالم بدأ في كتابات الأقوام السامية الغربية الذين تمتد مناطقهم من طور
سيناء إلى أقصى حدود بلاد الشام شمالا وغربا ، إذ وجدت في هذه المناطق أنواع كثيرة
من النقوش السامية بالحروف الأبجدية ، وقد حمل الآراميون فيما بعد الحروف الأبجدية
من سواحل البحر المتوسط شرقا إلى آسيا حتى الهند ، كما نقلها الفينيقيون غربا إلى
أوروبا ، وهكذا تغلبت الكتابة بالحروف الأبجدية على الكتابة بالمقاطع المسمارية التي
كانت شائعة آنذاك " ⁽⁴⁾

"وقد قلب اليونان اتجاه بعض الحروف لأنهم كانوا يكتبون من اليسار إلى اليمين ، ولكن
حروفهم في جوهرها هي الحروف التي علمهم إياها الفينيقيون والتي علموها هم
أوروبا، وهذه الرموز العجيبة هي بلا جدال أثمن ما ورثته الحضارة عن الأمم القديمة" ⁽⁵⁾ .

(1) راجع : Schaeffer , Ugaritica,P,110.no2

(2) الياذة هوميروس ، الكتاب 23 ، 740 — 745

(3) الدكتور ولنفسون ، " تاريخ اللغات السامية " ص 52

(4) الدكتور أحمد سوسة ، مفصل العرب واليهود في التاريخ ، ص 119 — 120

(5) ول ديورانت ، " قصة الحضارة " الجزء الثاني ص 316

وليس هذا فحسب ، فقد كانت صناعة الغزل والنسيج من الصناعات الاعتيادية ومكانها المنزل ، وقد وجدت آثار مغازل من الحجر والعظم وأثقال من الحجر والطين لأجل الأنوال ، وترجع إلى أوائل الألف الثالث قبل الميلاد ، ولاشك أن الصوف كان أقدم المنسوجات ، وأدخل الكنعانيون القطن الذي أسماه اليونانيون " الصوف الفينيقي " إلى بلاد اليونان ومعه اسمه العربي السامي ، وكانوا ينتجون الكتان ، وكانت صناعة استخراج نقط السائل القليلة من الحيوان الصدي وتقطير الصباغ يتطلبان أعمالا واسعة وصعبة وتراكما في المهارات مما جعل ثمنها مرتفعا جدا . وبما أن الأغنياء فقط كان بإمكانهم دفع ثمنها فقد أصبحت الثياب الأرجوانية اللون عنوان التفوق ، وأدت فيما بعد إلى التعبير المتعلق بالملوك " مولود في الأرجوان " ⁽¹⁾ .

لم يكن السوريون أول أمة بحرية فحسب ، بل كانوا أول أمة في التاريخ تاجرت في البر والبحر ، وكانت محطاتهم التجارية في الداخل تضم أوديسا ونصيبين بحيث تصل موانئهم على البحر المتوسط بمراكزهم على الخليج (العربي) ⁽²⁾ .

والفينيقيون حسب مروياتهم المتأخرة أتوا إلى ساحل سوريا بالأصل من منطقة الخليج (العربي) حيث كانت لهم مدن تحمل الأسماء نفسها مثل أرواد وصور وصيدا ⁽³⁾ .

إن الموقع الذي شغله عرب سوريا منذ أقدم العصور وحتى اليوم ألقى على عاتقهم مهمتين رئيسيتين : الأولى — تجسيد عبقرية الأمة العربية وإمكاناتها إنجازات وإبداعات حضارية على أرض الواقع ، حيث الشروط ملائمة للاستقرار الزراعي ، والتفوق التجاري ، والإبداع الحضاري ، والثانية — إن وجود السوريين في هذه البقعة المترامية شواطئ الخليج العربي وحدود وادي السند شرقا ، إلى البحر الأعلى (الأسود) شمالا ، إلى البحر المتوسط غربا ، جعلهم في مهب جميع رياح وأعاصير الغزو الممحي للأرض العربية التي كانت تأتيها في معظمها من الشرق والشمال والغرب ، فألقى على كاهلهم مهمة الدفاع عن حياض هذه الأرض المترامية ، وأرغمهم على أن يعملوا بيد ويقَاتلوا

(1) فيليب حتي " تاريخ سوريا ومن ضمنها لبنان وفلسطين " الجزء 1 ص 102

(2) المصدر السابق ص 107

(3) Strabo XVI, ch, & 4

باليد الأخرى منذ بدء التاريخ جاعلين من أنفسهم المصد التاريخي ضد غزوات كل الشعوب والأقوام والأمم الجائحة والجائعة : فمن الأقوام والقبائل الهائمة المتوحشة كالغوتيين في الشرق والكاشيين في الشمال الشرقي ، والقبائل الممجيّة المسقودية في الشمال ، إلى غزوات الفرنجة فيما بعد ، ثم المغول ، والتتار ، والأتراك ، والإنكليز والفرنسيين ، إلى الغزو الإمبريالي الصهيوني الحديث للأرض العربية .

لقد شكل الوطن العربي السوري منذ بدايات تشكله المصد الطبيعي عن باقي بقاع الوطن في شبه جزيرة العرب ومصر ، ولقد أكدت كل أحداث التاريخ أن وطننا عربيا سوريا قويا منيعا في الشمال كان يعني استقرار ورخاء كل أطراف الوطن الأخرى من شبه جزيرة العرب إلى مصر والشمال الأفريقي ، وأن ضعف الدولة العربية السورية وتفكك الوطن العربي السوري كان يتيح للغزو أن يخترق في العمق جنوبا حتى مصر التي لم يتمكن الغزاة ، الذين هم في معظمهم من شمالي الوطن العربي وشرقه وغربه ، من الوصول إليها إلا عبر الجسد العربي السوري .

ومن هنا فقد كان على هذا الشعب الذي شغل المنطقة الممتدة من الخليج العربي ، إلى البحر المتوسط ، أن يتفوق في مجالين العسكري ، والبناء الحضاري المادي والروحي معا . إن المسافات الشاسعة التي تتخللها البوادي ، والتي تفصل بعض بقاع هذا الوطن في الشرق عن بعضها الآخر في الغرب والجنوب ، في زمن كانت الجمال أو الحمير هي واسطة النقل الوحيدة عبر تلك البراري الشاسعة ، جعل مهمة إقامة دولة مركزية موحدة قوية والحفاظ عليها لفترة طويلة مهمة عسيرة وفي غاية الصعوبة . لذلك فقد كنا نرى ذلك التناوب الدائم بين قيام الدولة المركزية الواحدة وبين تفككها إلى الدويلات — المدن يشكل ظاهرة عامة طبعت تاريخ المنطقة حتى كادت تصير ملازمة له . إن وجود المنطقة على تخوم الأقوام الممجيّة من الشمال والشرق حيث تؤمن لهم الجبال الوعرة والعميقة حماية طبيعية ، ينقضون فيدمرون ويقتلون راجعين إلى مكانهم المنيعه خلف تلك الجبال يتربصون متحينين زمنا آخر ، وفرصة أخرى ، تضعف فيها أركان الدولة من أجل القيام بغزوة أخرى ، تدمر وتنهب كل شيء من جديد ، إن هذا الواقع

هو الذي ظل يواجهه عرب سوريا طيلة فترات تاريخهم الطويل ، ولما كان من المستحيل على أية دولة أن تبقى سكانها في حالة استنفار عسكري دائم من أجل صد مثل تلك الغزوات الكثيرة والمتكررة والتي تهب على المنطقة من جهات ثلاث فقد كان لابد للمنطقة من أن تشهد مراحل متناوبة من النهوض والسقوط ، من القوة والانحطاط . إلى هذه الظاهرة انتبه المؤرخ هنري فرانكفورت حيث كتب يقول :

" لقد كانت البلاد بلادا متحضرة ومزدهرة ، إنما كانت تعوزها الحدود الطبيعية ، لذلك كانت تغري الجلبين وسكان البطاح بإمكانية النهب الهين . وهكذا فقد تعهد ملوك أكاد بواجب شغل جميع خلفائهم من حكام البلاد . حتى أنه في الألف الأول كان اقتحام الجيش الأشوري السنوي جبال أرمينيا ، ثم اتجأه نحو الغرب ، محاولة سنوية منظمة مركزة لصد الجلبين عن حدود الدولة ، لأن إخضاعهم بصورة دائمة ، وعندهم هذه الإمكانية غير المحدودة للانسحاب إلى وديانهم البعيدة ، كان مستحيلا . ومنذ عهد سرجون الأكادي أدرك الملوك ضرورة الاحتفاظ بدولة موحدة مركزية . لقد كان لابد من السيطرة على الحدود سيطرة تكفي لمواجهة العدوان هناك " (1) .

لكن ذلك لم يكن ليؤثر إطلاقا على بقاء الهوية الحضارية السائدة في كل أرجاء هذا الوطن من شرقه إلى غربه ، ومن شماله إلى جنوبه ، هي الهوية العربية التي لم يتمكن ذلك الغزو المتعاقب من أن يضعفها أو ينتقص منها أو يؤثر فيها .

لقد كانت مناطق هذا الوطن ، التي دعت فيما بعد ، وبعد قيام الدولة المركزية ، بالمناطق الأربع تتنافس في عطاءاتها الحضارية العربية إبان تفكك الدولة ، كما تتنافس في إطار الدولة المركزية الواحدة دون أن يغير ذلك شيئا من هوية وطبيعة ذلك العطاء الذي أخذ يدحض ادعاءات بعض المؤرخين ويفشل مساعيهم في جعل كل منطقة من تلك المناطق الأربع تنتمي إلى عرق أو جنس أو شعب لا يمت الواحد منها إلى الآخر بصلة .

إن المناطق الأربع التي ألفت الوطن العربي السوري هي : الشمال أو الفرات الأعلى بدءا من منطقة بابل إلى شواطئ المضائق والبحر الأسود ، والجنوب التي تشمل من السواحل

(1) هنري فرانكفورت ، فجر الحضارة بين الشرق الأدنى ، ص 94 .

الشرقية للبحر الأحمر وحدود اليمن حتى وادي النيل ، والشرق وهي إقليم سومر وعيلام (عربستان اليوم) والغرب وهي أرض الأموريين الذين دعي البحر المتوسط باسمهم "بحر أمورو" طيلة العهد القديم سوريا المجوفة .

ما يقابله بالاكادية	الرمز	الرمز الصوتي	ما يقابله بالاكادية	الرمز	الرمز الصوتي
	𐎠, 𐎡, 𐎢	z	A	𐎠	a
	𐎣	n	BE	𐎤	b
	𐎥	z	GA	𐎦	g
	𐎧	s	HA	𐎨	h
	𐎩	c	DI	𐎪	d
[P]U	𐎫	p	Ū	𐎬	h
šA	𐎭	s	WA	𐎮	w
QU	𐎯	q	ZI	𐎰	z
RA	𐎱	r	KU	𐎲	h
šA	𐎳	t	TI	𐎴	t
HA	𐎵, 𐎶, 𐎷, 𐎸	g		𐎹	y
TU	𐎺	t		𐎻	k
I	𐎼	'i		𐎽	š(š)
Ū	𐎾	'u		𐎿	i
ZU	𐏀	š		𐏁	m

أبجدية أوغاريت

الفصل الثالث

الوطن العربي السوري

1- الجناح الشرقي

السومريون — عرب سومريون

بلاد ، سومر ، أو الأصح " شومر " هو الاسم القديم الذي أطلق على جنوب العراق ، واسم " شومرو " كلمة عربية قديمة ، وهي في القاموس السرياني تعني المخلص ، المنقذ ، الشجاع ، وكتبت بالخط المسماري " جي أنجي " أي أرض المخلص ، المنجي . وسومر هي المنطقة الممتدة من بابل (جنوبي بغداد) إلى الخليج العربي ، مساحتها تقدر بنحو 25 ألف كم². تشكلت سهولها الخصبة من تراكم الطمي الذي حمله النهران دجلة والفرات عبر آلاف السنين . في القدم كان الخليج العربي يمتد شمالا حتى جنوب أور ، وكان دجلة والفرات يصبان فيه من جانبيه كل على حدة ، وبالتالي فلم يكن النهران يلتقيان ، ولم يكن المجرى المشترك الذي اسمه اليوم شط العرب . ومع مرور آلاف السنين تراكم الطمي والمواد اللحية في منطقة مصب النهرين مما خلق سهلا جنوبيا تراجعت أمامه مياه الخليج ، والتقى النهران قبل المصب .

سومر محمد صموئيل كريم :

في كتابه " التاريخ يبدأ في سومر " يؤكد المؤرخ صموئيل نوح كريم العالم بالآثار السومرية أن هناك عصرا حضاريا عربيا — إيرانيا سبق العصور السومرية ، وأن الوجود العربي كان متغلبا بلغته وقوته السياسية والعسكرية فضلا عن قابليته المتميزة للتفاعل والتعامل مع البيئة الطبيعية والثقافية . وقد تولد من امتزاج العنصرين — على حد زعم كريم — إيراني الشرق وعرب الغرب ، ومن تلاقح

حضارتيهما ، حضارة مدينية شملت ، كالحضارة السومرية اللاحقة ، عددا من المدن التي كانت تتنازع السلطة باستمرار على البلاد بكاملها . ويبدو أن وحدة البلاد واستقرارها كان هدفا دائما لدى كثير من حكام المدن العربية آنذاك ، وقد تحققت مرات متعددة عبر القرون ، خلال مراحل قصيرة على الأقل . ولا ريب أن تلك الدولة التي كان يسيطر فيها العنصر العربي قد توصلت في تلك الأزمنة إلى ممارسة سيطرتها الفعلية على كثير من المناطق المجاورة ، فأُسست ما لا يستبعد أبداً عن أن يكون أول إمبراطورية في آسيا الغربية ، بل أول إمبراطورية في العالم . وطبيعي ألا يصلنا شيء عن مستوى تلك الدولة الثقافي إذ أن الكتابة لم تكن قد وجدت بعد .

يضيف كيرمر : " أما الأراضي التي تمكنت هذه الإمبراطورية أحيانا من السيطرة عليها ثقافيا وسياسيا في آن واحد ، فكانت تشمل ضمن ما تشمل أطراف المرتفعات الإيرانية الغربية ، تلك المنطقة التي سميت عيلام فيما بعد . وفي أثناء هذا التوسع والحروب التي رافقته اصطدم سكان وادي الرافدين للمرة الأولى بالسومريين ، هذا الشعب البدائي ، أو المحتمل أن يكون بدويا ، قد يكون أتى من وراء القفقاس أو بحر قزوين ، كان يضغط على المناطق الإيرانية الغربية ، وكان سكان وادي الرافدين يراقبون هذا الضغط إذ كان عليهم أن يدافعوا عن تلك المناطق بكل ثمن ، لأنها كانت تكون دويلات فواصل بين إمبراطوريتهم وبلدان البرابرة .

في المعارك الأولى لم يكن على جيوش وادي الرافدين المتفوقة عسكريا أن تجهد نفسها كثيرا لتتغلب على القبائل السومرية ، لكن لم يكن هناك بد لهذه القبائل البدائية السريعة التحرك من أن تتوصل أخيرا إلى التفوق على خصومها الحضريين والأكثر تمدنا منها . وقد توصل المحاربون السومريون كمرتزقة في جيوشها ، إلى أن يقتبسوا عن غالبيتهم مقومات الفن العسكري الذي يفتقرون إليه . وعندما ضعفت إمبراطورية وادي الرافدين وتزعزعت ، اجتاز السومريون الدويلات — الفواصل في إيران الغربية واجتاحوا وادي الرافدين الأسفل ، وصاروا أسياده .

خلاصة ذلك هي أن مرحلة العراق الماقبل سومرية بدأت بحضارة زراعية وقروية حملها الإيريانيون ، ثم مرت في مرحلة وسطية بعد نزوح العرب واحتياحهم ، وبلغت ذروتها في أثناء مرحلة من الحضارة المدنية ، تغلب فيها العرب ، على الأرجح ، وقد أدت هذه المرحلة إلى إقامة إمبراطورية خربتها القبائل السومرية⁽¹⁾ .

إن هذا النص الذي نقتطعه من كتاب صموئيل كريمير " التاريخ يبدأ في سومر " هو — لاشك — نص مثالي ونموذجي لما يمكن أن يكتبه جهازة التاريخ من خلف الحدود ، ويتلقفه كثير من " أساتذتنا " دون أن يجهدوا أنفسهم في التوقف لحظة عند تناقضاته ومغالطاته الصارخة .

ولقد اخترنا نصا لصموئيل كريمير بالذات لأنه يعتبر أبا في التاريخ عن " السومريات " . فلتتوقف إذن مع كريمير عند هذا النص قليلا ، لنرى ماذا يمكن أن نستخلص من نتائج :
1 — يعترف كريمير صراحة بقيام ما أسماه " إمبراطورية عربية " قبل المرحلة السومرية في بداية النص ، إذ يتحدث عن توسع هذه الإمبراطورية السياسية والثقافي ، وفي نهايته إذ يقول إن القبائل (السومرية) هي التي خربتها . وفي هذا الاعتراف تبرز — لا شك — عدة حقائق كبيرة وهامة لا يمكن المرور بها مرور المجانب :

فالحقيقة الأولى هي أن التواجد العربي كان تواجدا كبيرا ، وحقيقيا ، وحضاريا ، ووحيدا بفعاليته على الأرض العربية قبل المرحلة السومرية بزمان طويل ، أي قبل الألف الخامس قبل الميلاد ، وهذا الوجود كان يعبر عن نفسه بوجود دولة عربية أسماها كريمير " إمبراطورية " . إنه لمن المعروف أن الدولة الإمبراطورية تعتبر مرحلة من أكثر المراحل تقدما في الأشكال القديمة للدولة التي مرت بها الشعوب . إذ على هذه الشعوب التي تطمح إلى بناء الدول أو الإمبراطوريات أن تتجاوز حواجز كثيرة وصعبة في طريقها إلى تحقيق هذا الهدف . إن عليها أن تسلك طريقا طويلا وشاقا ، بدءا من مرحلة الانتقال من البداوة ، إلى الاستقرار والزراعة وبناء المدن والأرياف ، إلى تكوين الدولة — المدينة الإقطاعية ، إلى ضرب نظام الدويلات المدن ومؤسساتها الإقطاعية الضيقة ، وإقامة

الوحدة السياسية والثقافية ، التي تتطلب بدورها ، وجود مؤسسات أخرى قوية ومتطورة وقادرة على ضرب أجهزة الأمراء الإقطاعيين وحكام الدويلات — المدن الانفصالية ، وفرض مؤسسات الدولة الجديدة المركزية الموحدة بكل مؤسساتها الجديدة . وإذا ما سلمنا — جدلا — بتسمية كريمير " الإمبراطورية " فإن هذا يعني أن مرحلة أخرى من التوسع الإقليمي قد حدثت ، وهذا يتطلب ، بالطبع ، توفر إمكانات أخرى لدى الدولة المركزية . وإذا ما تذكرنا أن مثل هذه المسيرة التي تبدأ من مرحلة التخلي عن حياة البدو والتنقل ، إلى مرحلة الاستقرار والعمل في زراعة الأرض ، وبناء المدن والقرى ، وإقامة المدن — الدويلات ، ثم الدولة المركزية الواحدة ، ثم "الإمبراطورية " على حد تعبير كريمير ، إنما تتطلب قرونا طويلة جدا ، بل وآلاف من السنين بوتيرة تطور ذلك الزمان ، فإن هذا يعني أن الوجود العربي على شواطئ دجلة والفرات العليا والدنيا إنما هو وجود موغل في أعماق الزمن السحيق دون أن تبدو لبدائياته بداية .

2 — إن هذه الحقيقة هي التي كان من المفروض أن تثير لدى المؤرخين الخيال العلمي من أجل وضع الفرضيات المعقولة من التاريخ المدون والآثار التي تكتشف يوما بعد يوم ، والعمل على محاولة إثباتها من خلال عمليات الاستكشاف الآثارية في مناخ من التجرد التزيه الخالص من أية نزعة تعصبية ضد العرب . بينما الذي نراه أمامنا هو انسياق كثير من المؤرخين خلف فرضيات عجبية مفادها أن العرب قوم من البدو ، موطنهم صحراء الجزيرة العربية ، وأنهم اغتصبوا هذه المناطق الحضارية الهائلة في موجات متعاقبة ، ثم تبنوها لأنفسهم ، وإن على المؤرخين أن يكشفوا النقاب عن حقيقة تلك " الأمم " الحضارية التي أعطت البشرية وعلمتها وأرضعتها لبن الحضارة الأولى . ولو خلصت النيات منذ البداية في دراسة هذا التاريخ لما وقعنا اليوم على مثل هذا الركام المتناقض الذي ما انفك يؤثر سلبا بدرجة مخيفة على التكوين الفكري والعقائدي لأجيالنا العربية الصاعدة .

3 — إن مما يدهشنا حقا هو أن نرى إلى عالم ومؤرخ كبير مثل صموئيل كريمير يضع نفسه في مشادة حقيقة مع المكتشفات الآثارية ما تلبث أن تنعكس تناقضات تزل

بصاحبها إلى أدنى الدرجات في سلم البحث العلمي . إن كريم الذي اعتبر أكبر المتخصصين بالمرحلة السومرية يبدو وكأنه يقف في خندق آخر سلفاً لكل ما قد تأتي به المكتشفات ، ثم ما أن تخرج هذه المكتشفات لتمثل أمام ناظره وتجعل الأساس الذي كان يقف عليه ينهار حتى يتشبث بأمر آخر ، بفرضية أخرى أوهى خيطاً من الأولى . فهو ما أن أظهرت الاكتشافات اللغوية بعض الآثار التي " لا تشبه السامية " في حوض الفرات الأسفل حتى هتف هاتف في أعماقه ، كاد يطغى على هتاف أرخميدس في حمامه ، واستبشر خيراً عميقاً ، إذ أن مثل هذه المكتشفات لا بد وأن تحسم الأمر ، وتقرر نهائياً للباحثين جميعاً بأن العرب أمة من البدو لم ينتجوا حضارة ، بل اقتاتوا على حضارات غيرهم من الشعوب ، وأن مهد الحضارة لا شك سومر ، طالما أنه اكتشف آثار لغة هناك ليس لها أية علاقة بالسامية ، وأن السومريين ، لاشك ، من الشعوب " الآرية " وأن " التاريخ يبدأ من سومر " .

وقد غفل عالم السومريات ، أو تغافل عن كون " سومر " لفظة عربية ظلت تحافظ على مجموعة كبيرة من الاشتقاقات حتى يومنا هذا . وإذا كان الإبدال بين السين والشين مسن الأمور الاعتيادية والمألوفة جداً في اللسان العربي بين لهجة وأخرى فإن السومرية والشومرية كتسمية أيضاً لا تزال تحافظ على وجودها حتى اليوم .

إن من يعدّ من واحد إلى العشرة بالآرامية (السريانية) أو الكنعانية مثلاً يجد أن كل سين في العربية الفصحى تقابلها " شين " هناك وكل شين أبدلت سيناً وكلمة " سلام " مثلاً هي " شلام " أو " شلومو " والأمثلة لا تحصى .

وإننا نجد اليوم الأغلبية الساحقة من قرانا ومدننا ومناطقنا وجبالنا قد حافظت على أسمائها العربية القديمة ولم يشذ في ذلك جبل عمور وجبل الشومرية المحافظين حتى اليوم على اسميهما في القطر العربي السوري⁽¹⁾ .

وأن ما حسبه كريم وغيره لغة أخرى غريبة عن المنطقة لم تكن سوى الكتابة " الشيفرة " التي ابتدعها رجال المعبد السومريون المشرفون على عمليات الإنتاج من أجل

تسجيل حساباتهم اليومية وتلاوة صلواتهم بصورة جعلتهم مميزين عن بقية أفراد الشعب ،
(ونحن سوف نفرد لذلك بحثا خاصا عند حديثنا عن اللغة والكتابة) .

إن العثور على بعض التماثيل القليلة أو النادرة ذات التقاطيع غير الواقعية لم يكن مبررا لجعل أول حضارة من نوعها في العالم هجينة . وبرزت الحضارة السومرية على حقيقتها عربية الوجه والمضمون . فالآلهة ، والطقوس والعبادات والتقاليد والقوانين والشرائع وأسماء الكهنة والملوك والأشخاص والمدن والأنهار والكتاب والأساطير والقصائد ... إنما كانت جميعا استمرارا لحضارة عربية وحلقة في سلسلة التواصل الحضاري العربي لما جاء بعدها دونما أي انقطاع .

4 — يصير كريم على إلصاق التسمية " السومرية " بتلك القبائل البدائية الغازية بعد أن ينتزعها (أي التسمية) من أصحابها الأصليين الذين يسميهم " سكان الرافدين " فيعكس بذلك الصورة ليرك القارئ في حيرة أمام اسم هؤلاء السكان تاركا المجال لكل الاحتمالات ، كما يترك الباب مفتوحا لأي باحث آخر في أن يسمي سكان الرافدين بالاسم الذي يريد غير اسمهم الحقيقي . وأما تلك القبائل البدوية التي لا يعرف كريم أو غيره لها إسما أو موطنًا والتي يقول عنها بالحرف : " هذا الشعب البدائي ، أو المحتمل أن يكون بدائيا ، قد يكون أتى من وراء القفقاس أو بحر قزوين " فقد خلج عليها الاسم العربي لبعض سكان الرافدين إمعانا في التشويه ورغم أنف كل الحقائق العلمية والتاريخية الموضوعية . فطالما أن المكتشفات الآثارية قد كشفت حضارة عربية سوريّة عريقة في سومر أرفع شانا من أية حضارة أخرى في كل المجالات ، وقد تخللتها " لغة عربية " في بعض المواقع وبعض اللقى والتماثيل* ذات السحن المختلفة فقد كان لابد من تهريب هذه الحضارة من خزائن التاريخ العربي وإلقائها لأي شعب كان ، بصرف النظر عن التناقض الحاصل من جراء هذا التزوير والتشويه المقصودين . فلا بأس من تهريب هذه الحضارة إلى أي شعب آخر خارج المنطقة العربية ... لكن استمرار المكتشفات وتوالي

* عثر على رأس من الاسفلت في مدينة " سوسة " عاصمة عيلام ، قيل إنه لا يشبه الساميين ، فاتخذة كثير من المؤرخين والدارسين ذريعة لربط حضارة المنطقة بشعوب غريبة عنها (انظر ول ديورانت ، قصة الحضارة ، الجزء 2 ص 15

أعمال التنقيب ما لبث أن أظهر الحضارة العربية السومرية كجزء لا ينفصل من التاريخ العربي السوري ، كما أظهر حقيقة تلك القبائل الهمجية البدوية الغازية التي استطاعت أن تدمر وتخرب وتسيطر على بعض المدن السومرية ردحا من الزمن ، ما لبثت فيما بعد أن طردت على أيدي أبناء البلاد الأصليين دون أن تترك أي ما من شأنه أن يدل على معالم حضارية غريبة عن المنطقة شكلا ومضمونا . وعادت سومر وأكاد أرضا عربية يحميها الحاكم العربي ويشملها بتشريعاته المتقدمة ويحملها في قلبه : " أنا الحاكم الحفيظ الأمين عليها ، في قلبي حملت أهل أرض سومر وأكاد ، وبحكمتي قيدتهم ، حتى لا يظلم الأقوياء الضعفاء ، وحتى ينال العدالة اليتيم والأرملة " (حمورابي)

5 — إن كريمو لم يسعه أن يهرب من الاعتراف بـهمجية تلك القبائل الغازية القادمة من الشمال وببدايتها وسلوكها التخريبي المدمر للحضارة القائمة في المنطقة ، ثم لا يتورع ولا يتردد ، في الوقت ذاته ، في أن يخلع عليها التسمية السومرية .

فهو يقول :

" في أثناء التوسع والحروب التي رافقته (التوسع العربي) اصطدم سكان وادي الرافدين للمرة الأولى بالسومريين : هذا الشعب البدائي ، أو المحتمل أن يكون بدويا قد يكون أتى من وراء القفقاس أو بحر قزوين ... " ، وفي مكان آخر من النص نفسه نقرأ :

" وفي المعارك الأولى لم يكن على جيوش وادي الرافدين المتفوقة عسكريا أن تبذل نفسها كثيرا لتغلب على القبائل السومرية ، ولكن لم يكن هناك بد لهذه القبائل البدائية السريعة التحرك من أن تتوصل أخيرا إلى التفوق على خصومها الحضريين والأكثر تمدا منها .

فقد توصل المحاربون السومريون الذين كانوا يقيمون في مدن وادي الرافدين كرهائن ، أو الذين كانوا يخدمون كمرتزقة في جيوشها ، إلى أن يقتبسوا عن غالبيتهم مقومات الفن العسكري الذي كانوا يفتقرون إليه . وعندما ضعفت إمبراطورية وادي الرافدين وتزعزعت ، اجتاز السومريون الدويلات — الفواصل في إيران الغربية واجتاحوا وادي الرافدين الأسفل وصاروا أسياده " . إن صموئيل كريمر لم يفته التعرف على حقيقة تلك القبائل الهمجية ، كما لم يفته التعرف على الواقع الحضاري لسكان المنطقة الأصليين ،

وقد ذكر ذلك كله بكل صراحة ، وكما دلت عليه كل المكتشفات الاثرية ، وإن صموئيل كرىمر يعرف ، كما يعرف غيره بالطبع ، أن الحضارة هي للسكان الأصليين في كل مجالاتها ، وأن البداوة والهمجية هي للأقوام الغازية الوافدة ، وأن المرحلة الحضارية العربية إنما هي مرحلة سومر نسبة إلى الشعب العربي الذي خرج من قاع الخليج بفعل تقدم مياه البحر وسكن منطقة سومر ، كما أن المرحلة الأكادية بعدها هي منسوبة إلى الشعب العربي السوري وللمدينة العاصمة أغادة " أكاد " ، كما أن المرحلة البابلية إنما هي الحضارة العربية السورية البابلية حينما صارت بابل العاصمة ، فالحضارة إذن هي عربية سورية ، والشعب الحضاري هو الشعب العربي الأصلي المقيم في المنطقة منذ آلاف السنين ، والبداية هي صفة تلك القبائل التي غزت حضارة المنطقة منذ آلاف السنين وليسوا سومريين ، فكيف يوفق كرىمر ، إذن ، بين الحضارة السومرية الرائعة ، وبين تلك القبائل الهمجية التي دعاها بالسومرية والتي غزت المنطقة ودمرت حضارتها وإمبراطوريتها ثم دحرت دون أن تبقي ما يدل عليها سوى بعض الأسماء الغريبة !

كيف تكون الحضارة سومرية والهمجية سومرية في آن معا ؟ ثم كيف يتخلى سكان المنطقة لأول مرة عن اسمهم ، فيبحث كرىمر وأمثاله لهم عن اسم ولا يجد ؟ كيف ركبت مثل هذه المعادلة : المنطقة الحضارية منطقة الرافدين والسكان الحضاريون سكان الرافدين ، القبائل الغازية قبائل بدوية همجية متخلفة مخربة ، الحضارة القائمة هي سومرية ، والقبائل البدائية الغازية المدمرة للحضارة سومرية ! كيف جمعت الحضارة والهمجية على جسد واحد هو جسد القبيلة البدائية ، بينما يبقى الشعب الحضاري المعترف له بالحضارة ، وبأنه المتقدم والمتحضر ، بلا حضارة وبلا اسم ؟ الجواب بكل بساطة : لقد خلعوا عن الشعب العربي السوري ثوبه وألبسوه للقبائل الهمجية فتتج مثل هذا الاختلاط الذي لا يدين أحدا غير كرىمر وأمثاله من الباحثين . فهذا هو ول ديورانت في كتابه " قصة الحضارة " حول السومريين ، يقول :

" وليس في وسعنا رغم ما قام به العلماء من بحوث أن نعرف إلى أية سلالة من السلالات البشرية ينتمي هؤلاء السومريون أو أي طريق سلكوه حتى دخلوا بلاد سومر

(لاحظ المفارقة : إنهم سومريون ودخلوا بلا سومرا) ومن يدري ، لعلهم جاؤوا من آسيا الوسطى ، أو من بلاد القفقاس أو من أرمينيا ، واخترقوا أرض الجزيرة من الشمال متبعين في سيرهم مجري دجلة والفرات ... أو لعلهم جاؤوا من السوس حيث يوجد بين آثاره رأس من الأسفلت فيه خواص الجنس السومري ، بل إن في وسعنا أن نذهب إلى أبعد من هذا كله فنقول إنهم قد يكونون من أصل مغولي قديم موغل في القدم ، ذلك بأن في لغتهم كثيرا من التراكيب الشبيهة بلسان المغول .

وتدل آثارهم على أنهم كانوا قصار القامة ممتلئي الجسم ، لهو أنوف شم مصفحة ليست كأنوف الأجناس السامية ، وجباه منحدره قليلا إلى الوراء وعيون مائلة إلى أسفل ، وكانوا يتخذون ملابسهم من جلود الغنم ومن الصوف الرفيع ⁽¹⁾ .

وكان حسب ول ديورانت أن يحذف كلمة " السومريين " من قوله ليصبح صحيحا لا ثغرة فيه ولا تناقض .

إن كل من يقرأ هذا الوصف لن يتردد في الحكم فورا على وصف لقبائل رعوية بدائية هائمة ، هي أقرب ما تكون إلى قبائل المغول ، وأبعد ما تكون عن الحضارة ، سسلكت إلى المنطقة العربية السومرية طريقا غير معروف قد يكون ذلك نتيجة لتجوالها الرعوي وتسلسلها البطيء ، وتربصها لفترة ضعف معينة ألت بحسم الدولة العربية الحضارية آنذاك . وهذا ما أكدته صموئيل كريمر نفسه ، تماما كما فعل أحفادهم فيما بعد إبان انحلال الدول العربية في أواخر حكم بني العباس وتسلسل العناصر التركية إلى داخل الدولة . وكما أن قبائل المغول التي انقضت على الدولة العربية العباسية في فترة ضعفها وقوضت بنيانها دون أن تترك في طريقها ما يدل على أية علائم غير آثار الدمار ، فإنه في إمكاننا أن نتصور غياب كل الآثار في الطرقات التي سلكتها تلك القبائل إلى منطقة الرافدين ، وغياب أية علائم حضارية تركتها في المنطقة يمكن أن تدل على ملامح حضارية معينة قدمت من خلف جبال الشمال غير الدمار الذي ألحقوه بالمدن ولاسيما أور و لغش ، لغش هذه التي شهدت أول ثورة شعبية ديمقراطية في العالم على يد ملكها الثائر العظيم

أور كاجينا . لقد أصدر هذا الملك الناصر المراسيم التي تحرم استغلال الأغنياء للفقراء واستغلال الكهنة لكافة الناس ، ويقول ول ديورانت عنه " وكان مما يباهي به الملك أنه وهب شعبه الحرية وما من شك في أن الألواح التي سجلت فيها مراسيمه تكشف عن أقدم القوانين المعروفة في التاريخ وأقلها ألفاظا وأكثرها عدلا " (1) .

أما أور فقد كانت في هذه الأثناء تنعم بعهد من أكثر عهودها الطوال رخاء وازدهارا امتد من عام 3500 ق.م إلى عام 700 ق.م وأخضع أعظم ملوكها أور — أنجور جميع بلاد آسيا الغربية ونشر فيها لواء السلام ، وأعلن في جميع الدولة السورية السومرية أول كتاب شامل من كتب القانون في تاريخ العالم وفي ذلك يقول : "لقد أقيمت إلى أبد الدهر صرح العدالة المستندة إلى قوانين شمس الصالحة العادلة " . ولما زادت ثروة أور بفضل التجارة التي انصبت إليها صبا عن طريق نهر الفرات فعل فيها ما فعل بركليز بأثينا من بعده فشرع يجعلها بإنشاء الهياكل ، وأقام فيها وفي غيرها من المدائن الخاضعة له أمثال لارسا و أورك ونيبور كثيرا من الأبنية . وواصل ابنه دنجي طوال حكمه أعمال أبيه ، وحكم البلاد حكما عادلا حكيما عادلا جعل رعاياه يتخذونه من بعد موته ربا ويصفونه بأنه الرب الذي أعاد إليهم جنتهم القديمة .

لكن سرعان ما أخذ هذا المجد يزول ، فقد انقضى على أور التي كانت تنعم وقتئذ بالرخاء والدعة والسلم أهل عيلام* ذوو الروح الحربية من الشرق ... وأسروا ملكها وغبوها ودمروها شر تدمير⁽²⁾ وأنشأ شعراء أور القصائد التي يندبون فيها انتهاك تمثال أمهم عشتار الربة المحبوبة التي انتزعها من ضريحها الغزاة الآثمون ... يقول الشاعر السومري :

لقد انتهك العدو حرمتي بيديه النجستين

انتهكت يده حرمتي وقضي علي من شدة الفزع

(1) ول ديورانت " قصة الحضارة الجزء 8 ص 17

• كان الأجدر به أن يقول : الغزاة القادمون من الشرق بعد أن دمروا عيلام ، إنهم هم الذين اجتاحتها أور وليس أهل عيلام .
(2) المصدر نفسه ص 21 .

آه ، ما أتعس حظي ! إن هذا العدو لم يظهر لي شيئا من الاحترام
بل جردني من ثيابي وألبسها زوجته هو
وانتزع مني حلبي وزين بها أخته

وأنا (الآن) أسيرة في قصوره — فقد أخذ يبحث عني
في ضريحي — واحسرتاه ، لقد كنت أرتجف من هول اليوم الذي أخرج فيه
فقد أخذ يطاردني في هيكلي ، وقذف الرعب في قلبي
هناك بين جدران بيتي ، وكنت كالحمامة ترفرف ثم تحط
على رافدة ، أو كالبومة الصغيرة اختبأت في كهف
وأخذ يطاردني في مدينتي كما يطارد الطير
طاردي من مدينتي كما يطارد الطير وأنا أتحسر وأناادي
" إن هيكلي من خلفي ، ما أبعد المسافة بينه وبينني " ⁽¹⁾

إن ول ديورانت يتفق ، إذن — كما تبين لنا من وصفه للسومريين — مع صموئيل كيرمر
بأنهم قوم همج جفاة مخربون للحضارة ، ويرجح انتماءهم إلى أصول قبلية مغولية ،
لكنه يقع معه في الخطأ ذاته إذ يلصق اسم " السومريين " بتلك القبائل الهمجية بينما
السومريون عرب سوريون من منطقة قاع الخليج ، وتسميتهم تسمية عربية ، والحضارة
حضارة عربية أيضا ، والأرض هي أرض سومر وأكاد العربية ، وإن المؤرخين كليهما
يتفقان على همجية تلك القبائل الوافدة ، فكيف يصح بعد ذلك إلصاق ما دعي
بـ " الحضارة السومرية " الرفيعة بهم ؟

ولابد أخيرا من أن نذكر بأن تسميات المنطقة بمدنها وقرائها إنما هي تسميات عربية لا
يجادل فيها أحد . إن أور تعني المغارة المقدسة والمدينة ، كما تعني النور باللهجات العربية
القديمة التي امتدت إلى شطآن المتوسط غربا . وإن أوروك أو " أوروخ " أو الوركاء ،
تعني الشرف والسمو ، وأن أريحا تعني الاستراحة وإن " نيبور " تعني الوفرة والخصب
وهي في الأصل " نيفر " .

(1) Wooley , 140 ; Maspero , " Dawn of Civilization " , P.637

أما أريدو " وجمدة نصر " فلا حاجة للإشارة إلى اشتقاقها الواضح وقد استمرت صيغة " نصر " في أسماء الملوك العرب السوريين حتى ما قبل الميلاد بقرون قليلة ، وجميع هذه المدن عربية سورية موجودة قبل صعود سكان قاع الخليج إلى المنطقة نتيجة لتقدم مياه البحر وغمرها لأراضيهم هناك .

سومر في المصادر العربية القديمة

لنأخذ مدونات السوريين أنفسهم في قصصهم واساطيرهم

1— لقد عثر بين الألواح السومرية على لوحة تصف الفردوس وكمال البدء لما كانت السعادة كاملة غير منقوصة ، يوم كان البشر يعيشون بلا كد ولا كفاح أو جهد ، وقبل سقوط الإنسان . إن تلك اللوحة تصف تلك الفترة من الرخاء الأول والسعادة المطلقة في واحد وعشرين خطا قبل أن تغضب الآلهة على البشر ، وتزل بهم عقابها العظيم المدمر الذي تمثل بالطوفان . لنقرأ مضمون اللوحة :

في غابر الزمان لم يكن ثمة حية ولا عقرب

لم يكن ثمة ضبع ولا أسد

لم يكن ثمة كلب متوحش ولا كان ذئب

لم يكن هناك خوف ولا إرهاب

ولم يكن للإنسان منافس

في غابر الزمان كانت بلاد " شوفور " و " همازي "

وبلاذ سومر المتعددة الألسن

البلاد العظيمة ذات النواميس الإلهية الخاصة بالإمارة .

وبلاذ أوربي التي حوت على كل ما هو لائق

وبلاذ مارتو⁽¹⁾ كانت آمنة مطمئنة

(1) مارتو هو الاسم الآخر لسوريا الغربية ، وتعني بلاد السيدة ، وهي مرادفة لـ " سوريا " التي تعني أيضا السيدة ، فكما أن "مرت" و"مارتا" هما مؤنث "مار" بمعنى السيد ، فإن "سارة"

وجميع الكون والبشر في وحدة وإلفة
بمجدون الرب " انليل " بلسان واحد
ولما تشكلت البلدان لم يقم حرب ولا تناحر بل سلام وإلفة وكان الإنسان يسكن
في جنة أرضية اسمها دلون ، إنه بلد طاهر ومشع ، إنه أرض الأحياء الخالدين حيث
لا مرض ولا موت لا ألم ولا شيخوخة :
في " دلون " لا ينق الغراب الأسود
وطير " العتيديو " لا يصيح ولا يصرخ
الأسد لا يفترس
والذئب لا يخطف الحمل
لم يعرف الكلب المتوحش الذي يلتهم الجدي
ولم يعرفوا (الكوارث) التي تدمر الغلة
لم توجد الأرملة
والطير من الأعالي لا يسقط
والحمامة لا تحني رأسها
ما من أرمد يقول " عيني مريقة "
ولا مصدوع يقول " في رأسي صداد "
عجوز " دلون " لا تقول " أنا عجوز "
وشيوخها لا يقول " أنا طاعن في السن "
العدراء ليست بحاجة إلى أن تغتسل
ولا يهدر الماء الرائق في المدينة
من يعبر نهر (الموت) لا يتفوه بالموت
والكهنة النائحون لا يدورون حوله

و"سرت" و"سوريا" و"سورية" هي مؤنث "سار" بمعنى السيد . وقد أطلق اسم "مارتا" على سوريا
زمن الأموريين وأطلق عليها اسم سوريا زمن الميريان أو السوريين .

المنشد لا يعول بالثناء
وفي طرق المدينة لا ينوح ولا يندب

إن هذا النص يثبت ثلاث حقائق هامة هي :

1— خصوبة المنطقة وغناها مما يوفر للإنسان سعادته دون كبير جهد . إن صورة هذا " الرعاء " هي التي تحولت في ذاكرة الناس فيما بعد إلى فردوس حقيقي . وليس من الصعب أن نفهم هذا العنصر النفسي الذي يكون دائما وراء المبالغة في تمجيد ما نفقد .

2 — وحدة شعب المناطق الأربع : سومر و أور و مارتو (سوريا الغربية والشمالية الغربية) وشوفور (بلاد الشمس المشرقة) وهمازي أي أرض الجبابة (منطقة الخليج قبل الغمر) هذه الوحدة التي تجلت في سيادة الإلفة والمحبة والأمن فيما بينها ، كما تجلت في وحدة الدين واللغة " وجميع الكون والبشر في وحدة وإلفة يمجدون الرب " انليل " بلغة واحدة .

3 — إن بلاد سومر " المتعددة الألسن " حيث ملتقى جميع اللهجات العربية القديمة كما يستدل من الأسماء ، وحيث يجذب كثير من أبناء الشعوب الأخرى لم تشذ عن تمجيد الإله باللغة الواحدة نفسها ، وهذا يعكس حتما الصورة التي سبق أن أشرنا إليها وهي أن تعدد الأقوام واللغات في منطقة كالخليج العربي لا يغير من هويتها وطابعها اللغوي والحضاري والثقافي العام وينبغي أن نشير إلى أنه كان يقصد بكلمة "ألسن" اللهجات وليس اللغات .

إن جلعامش ملك أوروك ، على سبيل المثال ، لقب ويعني كاشف سر الحوض ، ففي القاموس السرياني نجد أن " جلعج " تعني كشف السر أو الستر أو الحجاب و " أميش " تعني الغدير ، الحوض ، وهذا اللقب لحق بملك أوروك بفترة رحلته الشهيرة إلى الحوض حيث عين الخلد ، ومقر الأبرار لاكتشاف سر الخلود وبقي مفهوم " الحوض " مستمرا في التراث حتى فجر الإسلام إذا أورده النبي العربي محمد ﷺ في كثير من الأحاديث .

وهذا الرب هو أحد الآباء السوريين الذي انتشرت مراسيم تقديسه من أوروك إلى إيبلا إلى بلاد موآب على سفوح جبال السراة في غرب شبه جزيرة العرب " وبناء على ذلك يتألف مجمع الآلهة في إيبلا من الرب " دجن " والرب " حدد " والرب " أميش " والرب " كورا " والرب " ايداجول " والرب " رشف "

وفيما يتعلق بالرب " أميش " فهو من الأرباب السورية الغربية القديمة .

4 — ثمة مصدر تاريخي آخر ، إنه برعوشا المؤرخ البابلي الشهير ، الذي عاش حوالي 250 ق.م . لقد ورد في كتابة عن السومريين " إن جيلا من الجبابرة يقودهم واحد منهم يسمى عوان أو (عوانس) خرج من الخليج وأدخل في البلاد فنون الزراعة وطرق المعادن والكتابة " ثم يقول : " وقد ترك إلى بني الإنسان كل الأشياء التي تصلح أمور حياتهم . ولم يخترع منذ ذلك الوقت شيء ما حتى الآن " (1)

إن الزراعيين العرب ، إذن ، خرجوا من منطقة الخليج العربي (" ه — مازي " أو بلاد الجبابرة) إلى سومر ، وجلبوا معهم فنون الزراعة والكتابة وطرق المعادن ، ولقد كنا قد أوضحنا كيف تم ذلك الخروج التدريجي من منطقة الخليج منذ أن بدأ العصر الديني وأخذ منسوب مياه البحر يرتفع تدريجيا ويغمر الأراضي الزراعية أيضا خلال فترة زمنية استمرت عشرة آلاف عام ، أي حتى الألف الرابع قبل الميلاد .

سومر في بعض المصادر الأخرى

يؤكد الباحث التاريخي رشتون كولبورن في كتابه " أصل المجتمعات المتحضرة " أن سكان المنطقة الجنوبية من حوض الدجلة والفرات بمدنها التي سبقت حضارتها بدء التاريخ إنما هم سكان المنطقة الأصلية الذين لا يعرف زمن لبداية سكانهم فيقول : " إن المجتمع المتحضر قام في جنوب العراق ، وقد كشفت أعمال التنقيب هناك عن بعض منشأته الأولى ، وأقدم هذه المنشآت المعروفة كانت عند أريبدو المعروفة الآن باسم (أبو شتهرين) ، إلا أن أولئك الذين كانوا في الموضع الذي يعرف الآن باسم

(تل العبيد) وعند أور الكلدانيين فهم من المستوطنين الأصليين ، شأنهم في ذلك شأن غيرهم من المستوطنين الذين جاؤوا من بعدهم ، " تل العبيد " و " أور " و " أريدو " كانت كلها مستوطنات بجموار الفرات الذي كان يتجه وقتذاك إلى غرب مجراه الحالي " (1).

إن في هذا التأكيد دلالة واضحة على أن العرب السوريين سكان المنطقة الأصليين هم مؤسسو الحضارة في فجر التاريخ . الحضارة التي اكتشفت ودعيت باسم عصر تل العبيد ، وعصر أور ، وغيرها ، وذلك قبل بدء التاريخ . وحينما يقول المؤلف إن " أولئك الذين كانوا في الموضع الذي يعرف الآن بـ " تل العبيد " وعند أور الكلدانيين فهم من المستوطنين الأصليين ، شأنهم في ذلك شأن غيرهم من المستوطنين الذين جاؤوا من بعدهم " فهو لا يدع مجالا للشك في الأصل العربي لسكان المنطقة الأصليين ، إذ من المعروف أن من جاء بعدهم من المنطقة إنما هم العرب الساميون ، وزيادة في الإيضاح ، ولانعدام الخلط بين هؤلاء وأولئك الذين سيفدون من المناطق الأخرى يتابع المؤلف قائلا :

" وإن أولى الهياكل القديمة التي اكتشفت مؤخرا ، والمنتشرة من أعالي الفرات في الجزيرة السورية إلى نيبور في جنوبي حوض الرافدين هي هياكل لشعب واحد ، ذي تصور واحد ، ونظرة واحدة إلى الكون والآلهة وحياة البشر ، كما دلت النقوش والزخرفة التي ضمتها على وحدة في درجات التطور الفني والعماري . ففي العهود الشبيهة بالكتابية كانت الحضارة السومرية قد انتقلت نحو الشمال على محاذة النهرين كما فعلت ثقافة العبيد (وربما السومرية أيضا) في أزمنة ما قبل التاريخ ، وكما أن النفوذ الروماني في أوروبا البربرية يمكن تعقبه بواسطة انتشار النفوذ فإن نفوذ الفترة الشبيهة بالكتابية في ما بين النهرين ، وفي جميع أنحاء الشرق ، يمكن تعقبه عن طريق الأختام الأسطوانية المميزة

(1) رشتون كولبورن " أصل المجتمعات المتحضرة " ص 71

للفترة ، فإننا نجد نماذج من هذه الأختام شمالا حتى طروادة وجنوبا حتى مصر العليا ،
وشرقا حتى أواسط فارس (حدود عيلام الشرقية) أو حتى إلى الشمال الشرقي منها " (1)
وإن هنري فرانكفورت ، بتعقبه انتشار الأختام الأسطوانية للمرة الأولى من حوض
الرافدين إلى كل البقاع السورية الأخرى قد وضع يده على حدود الوطن العربي
السوري دون أن يشعر . وكيفا يخطر بالذهن أن مثل ذلك الانتشار كان يخرج من أرض
سومر أو العموريين في الغرب إلى أرض أجنبية وغريبة فقد كان قد سبق وأشار إلى أنه
ليس من مكان هنا لمثل هذا الاعتقاد حينما تحدث عن نظريته إلى سرجون القادم من
سوريا الغربية ليوحد المنطقة نظريته إلى قائد من الشعب ذاته لا إلى فاتح " أجنبي " فقد
جاء في كتابه " فجر الحضارة في الشرق الأدنى " عن سرجون ما يلي :

" وبالرغم من أن وصول سرجون إلى السلطة لم يكن يختلف كليا عن النموذج القديم
أي إخضاع المدن الأخرى واحدة بعد واحدة ، فإنه شق طريقا جديدة في توطيد
مركزه ، فإن الدولة التي أسسها استمرت هذه المرة بضعة أجيال بعد موت مؤسسها .
وقد تعود جدة وسيلته إلى أنه يمثل عنصرا شماليا من سكان ما بين النهرين الذي أصبح
الآن صاحب السيطرة للمرة الأولى وهذا بين من النقوش . فقد بدأت النقوش
الملكية والوثائق التجارية الكثيرة تكتب باللغة السامية التي تدعى أكادية ، وهذا
التغيير بالذات كان السبب في شيوع الرأي الذي يأخذ به بعض العلماء والقائل بأن
سرجون يمثل فتحا أجنبيا ، وظاهر أن اللغة تشير إلى الفرات الأوسط والمناطق المجاورة ،
إنها البلاد الأصلية التي ظهرت فيها هذه اللغة ، وهذه المنطقة كانت قد دخلتها ثقافة ما
بين النهرين منذ قرون دون أن يكون ذلك فتحا كذلك ، ولا يمكن أن ندعو الناس من
هذه المناطق أجناب بالمعنى العادي للكلمة " (2) .

إن هنري فرانكفورت يعتبر المنطقة في سوريا والعراق منطقة واحدة لغويا وسكانيا
وثقافيا وحضاريا وإداريا وسياسيا . وحينما يخرج سرجون من سوريا الغربية إلى سوريا

(1) هنري فرانكفورت ، " الأختام الاسطوانية " ص 227 ومابعد .

(2) هنري فرانكفورت " فجر الحضارة في الشرق الأدنى " ص 90

الشرقية فإنه لا يخرج عن كونه قائدا يوحد أجزاء بلده الواحد وشعبه الواحد في دولة مركزية واحدة ، جريا على ما كان يجري في السابق قبل سرجون . فوصله إلى السلطة لم يكن يختلف كليا عن النموذج القديم ، أي إخضاع المدن الأخرى واحدة بعد الثانية من أجل توحيدها .

ولقد كان ثوركيد جاكوبسن قد سبق فرانكفورت في تأييد هذه النظرة في مقاله " الصراع المزعوم بين السومريين والساميين في تاريخ ما بين النهرين " الذي نشره في مجلة الجمعية الشرقية الأمريكية ⁽¹⁾ ، حينما رفض بصورة قاطعة فكرة هذا الصراع واعتبر المنطقة كلها تعيش ضمن بوتقة من الثقافة العربية السامية المشتركة القائمة على وحدة الأصل لدى السكان الأصليين منذ القدم .

ولتأكيد وحدة الثقافة والشعب والنظرات لدى سكان المنطقة يستشهد مالوان بالهياكل الدينية الأولى المكتشفة في المنطقة فيقول : " وفي براك على الخابور في شمال سوريا ، وعلى مسافة 500 ميل من أوروك ، اكتشف هيكل مبني على خطة الهياكل الجنوبية يحتوي على أشياء مشابهة لها وزخرفة بالفسيفساء المخروطية ⁽²⁾ وبعد ذلك ، في أزمنة الأسر القديمة كانت هياكل عشتار على الفرات في ماري ، وفي آشور على دجلة ، مجهزة بتمائيل من النموذج السومري تمثل رجالاً بألبسة سومرية ⁽³⁾ وهكذا يتضح أنه قام على النهرين العظيمين استمرار ثقافي منذ ما بدء التاريخ ، كان الناس ينتقلون داخله بدون أن يسببوا اضطراباً في أساس المدينة " ⁽⁴⁾ .

ولا بأس أن نختتم هذه الفقرات — الشواهد بنتيجة حاسمة يثبتها هنري فرانكفورت بعد تأثره بالمكتشفات الأخيرة في المنطقة إذ يقول :

" فعندما كانت معرفتنا بالشرق الأدنى القديم جزئية كان مألوفاً أن تفسر التغيرات بصيغ الفتح والهجرة من منطقة مجهولة ، لكن الاكتشافات الواسعة التي تمت بين الحربين

(1) نوركيلد جاكوبسن ، " الصراع المزعوم بين السومريين والساميين في تاريخ ما بين

النهرين القديم "مجلة الجمعية الشرقية الأمريكية عدد 59 سنة 1939 صفحات 458-495 .

(2) م.ل مالوان " حفريات في براك " وشاغار بازار " العراق عدد9 (لندن 1947) .

(3) ولتر أوندي " آثار هيكل عشتار القديم في آشور " ليبزع ، 1922 .

(4) هنري فرانكفورت " فجر الحضارة في الشرق الأدنى ص 91

العالميتين قضت على هذا النوع من التعليل. فقد ثبت أن مواطن تلك الشعوب " النازحة " من وجهة ثقافية هي المناطق القائمة على تخوم المركزين العظيمين في مصر وفي بلاد ما بين النهرين . وقد ثبت من جهة ثانية ، أن هذين المركزين كانا إلى درجة غير عادية يقاومان النفوذ الخارجي ، وكان باستطاعتهما أن يفرضا على القادمين حضارتيهما "(1) .

أليس المقصود في السطرين الأولين إدانته لتلك النظرة التي تعتبر السومريين شعبا مجهول الهوية والأصل والمنشأ ؟

وبعد . هل مازال بعض أساتذتنا من " نقلة " التاريخ يصرون على العيش في زمن ما قبل الحرب العالمية الأولى ؟ وإلى متى سوف يبقى بعض " المثقفين " العرب يجترونها تلك المقولات القديمة الشوهاء على صفحات الكتب جاعلين من أنفسهم أدوات صماء لا واعية في أيدي مزوري تاريخ هذا الشعب العظيم ؟

(1) المصدر السابق 127-128
• يصير " شوقي عبد الحكيم " في كتابه " الفولكلور والأساطير العربية " على أن يقرن كلمة " السومريين " بكلمة " اللاساميين " أينما وردت .

الفصل الرابع

الوطن العربي السوري

2 - الجناح الغربي

كنا قد أشرنا إلى أن منطقة حوض الفرات الأعلى : الجزيرة السورية و الجنوب الرافدي (منطقة سومر) وشواطئ الخليج إنما كانت المستقر الأول للعرب الزراعيين في الشرق الذين أطلق عليهم اسم السريان . وقد كانوا يدعون أيضا باسم الجبابرة أو العماليق (همازي) . وكانت هذه التسمية قد شاعت منذ بداية عهد الإنسان العربي بالاستقرار الزراعي و بناء القرى و المدن و الحصون و القلاع . و كان السكان من البدو الرحل ينظرون إليهم كبشر متفوقين ، كما كان أولئك " السكان المتفوقون " أنفسهم يغذون هذه الفكرة عند البدو عن طريق إطلاق الحكايا الإخبارية حول أصولهم المتفوقة كأبناء للآلهة ، والناجمة عن اتحاد الآلهة السماويين بنساء من البشر الأرضيين .

ولما كانت التوراة المعروفة والمتداولة قد كتبت على مدى أكثر من ألف عام بعد موسى ، أي في حوالي القرن الثالث قبل الميلاد وهي ما دعي بـ " الترجمة السبعونية " : فقد أحدثت تحريفات وتشويهات كثيرة في أسماء المناطق والمدن والأعلام ولاسيما في التفسير الاستشراقي والصهيوني لها ، مما رتب نتائج جد خطيرة بالنسبة لجغرافيا المنطقة التي أخذ يرسمها الدارسون بناء على ما قدمت تلك " الترجمة " والتفسيرات من معلومات . فلقد أقحمت وبصورة قسرية على خارطة جنوب سوريا مجموعة من المناطق والبلدان والقرى والجبال والأنهار لم تعرفها في تاريخها ، وصار " الباحثون " يضعون الفرضيات حول أسماء تغيرت ، ثم يبحثون عن مناطق أخرى أو مدن أخرى في الاتجاهات التي حددتها " التفسيرات " دون أن يعثروا على ما يشبه الأسماء التوراتية فيعمدون إلى وضع الأسماء على خارطة المنطقة عشوائيا ويضعون إلى

جانبا علامات استفهام ، وكأننا يشيرون بذلك إلى أن مثل تلك البلدان أو المناطق كان ينبغي أن توجد في تلك النقاط المحددة . لكن شيئا ما لا يشير إلى أي شيء من هذا القبيل ، ولا بد من الإشارة إلى أن اسم " فلسطين " ذاته أقحم على المنطقة في سوريا الجنوبية مع غيره من الأسماء نتيجة للتزوير الجغرافي الذي قام به كهنة التوراة بعد الميلاد . وبالرغم من كل هذا الواقع الواهي والضعيف لما يمكن أن نطلق عليه اسم " جغرافيا التوراة " فقد أقيم على أساسه كل ذلك البناء التاريخي لشعب المنطقة العربي السوري الأموري أو السرياني ، فاختلطت حقيقة هذا الشعب العريق بفرضيات أقحمت في تاريخه وواقعه وجغرافيته قسرا دون أن تستند إلى أية حقيقة أو إثبات ودون أن تتعرض لأدنى درجة من درجات الفحص أو النقد أو تحري الدقة أو إعادة النظر ، علما أن أي متتبع لجريات المعلومات التاريخية التي بنيت على أساسها ، لا يسعه إلا أن يدهش للتناقضات والمستحيلات الجغرافية والتاريخية معا . والأدهى من ذلك هو أن جميع أولئك " العلماء " المؤرخين الذين صنعوا لنا تاريخنا خلف الحدود لم تستوقف أحدا منهم أي من تلك الوقائع .

لذا وقبل أن نبدأ حديثنا عن الكنعانيين والفينيقيين فإننا سوف نلفت نظر القارئ إلى أننا سوف ندع جانبا كل معطيات التوراة الجغرافية وكل المعلومات التاريخية القائمة على أساس التفسير الصهيوني المزور لهذه الجغرافيا التوراتية بصورة مؤقتة لنعود إليها لاحقا ، ونفند مواقع الزيف والخطأ التي اعتمدتها الدراسات الأجنبية والعربية حتى اليوم.

العرب الكنعانيون في المصادر العربية

لقد عانت المصادر الوفيرة والغزيرة التي خلفها لنا المؤرخون والأخباريون العرب من الإهمال العفوي أو المقصود زمنا طويلا دون أن يجرب أحد الدارسين الأجانب التعامل معها ، مما جعلها في نظر البعض من " نقله " التاريخ من الأساتذة العرب ضربا من الحكايات المسلية أو الخرافات التي لا تفيد شيئا في معرفة تاريخ المنطقة .

إن مما يثير العجب فعلا هو اعتماد كل أولئك الدارسين شجرة النسب العربية التي أوردتها التوراة ، في الوقت الذي أهملوا فيه كل الشجرات الأخرى ، والتي لا تشكل أنساب التوراة إلا فرعا منها ، وقد نقلها مدونو التوراة عن المؤرخين والاعباريين والنسابين العرب سواء في شبه جزيرة العرب أو في بابل المحطة بعد أن عرضوها لضروب من الحذف أو التشويه .

إن حرص العربي على معرفة تسلسل نسبه ، كما سبق أن بينا ، يشكل إحدى السمات البارزة التي ميزته ودخلت في بنية شخصية الاجتماعية والتاريخية والنفسية . وهو حينما كان يتخطى في نسبه المعروف بعض الأسماء أو الحلقات فلأن تلك الأسماء — كما تؤكد كل الشواهد — كانت تخرج أحيانا عما يتيح له من مجالات الفخر والاعتزاز ، وتفتقر إلى الصفات والمناقب التي يجلبها الإنسان العربي ويجهد في أن يجعلها تستمر من بعده . كما أن الاعتماد على الروايات والسرد الشفهي كان لابد من أن يصيب السلسلة بضياح حلقات وبإضافة أخرى ، وتقدم وتأخير ، علاوة على أن قدرة الذاكرة الإنسانية المحدودة على الحفظ لابد من أن تصاب بالعجز في نقطة ما وتقطع تتابع حلقات السلسلة . ولهذا فإن الاعتماد على الأنساب كما حفظت لنا ليس يعني كمصدر لا يتطرق إليه الشك بقدر ما يعني في اعتباره عنصرا مساعدا في تصور النسيج العام لهذا الهيكل السكاني العربي الذي شغل الوطن العربي منذ آلاف السنين وحافظ عليه حتى اليوم .

فلسنا هنا لنؤكد ضرورة الأخذ بواقع الأنساب العربية أو لنؤكد دقة ما تقدمه لنا من معطيات ، إذ من المعروف أن ثمة ثغرات كبيرة وصغيرة لابد وأن تتخللها ، كما لابد أيضا من خضوعها لعوامل وظروف وشروط ذاتية وموضوعية تحد ، بهذا القدر وذاك ، من دقتها . لكن ذلك أيضا يجب ألا يحول دون النظر إليها بعين العالم المتفحص المقارن ، فيستنبط من بقايا خيوطها الصحيحة والمتماسكة بعض ملامح حقيقة ما قد يتعذر العثور عليها من مكان آخر أو بطريقة أخرى .

إن الحقيقة التي ينبغي التأكيد عليها هي :

1— إن العرب أول من عنى بعلم التاريخ وتحرى الدقة في تسجيل أحداثه ومجرياته . وكلمة " تاريخ " ذاتها أكبر شاهد على ذلك . فهي مشتقة من كلمة " يرحو " بمعنى الهلال أو الشهر فالتاريخ عند العرب هو تسجيل الأحداث في زمن حدوثها ، وقد سبق أن أوردنا شواهد لما تركه السومريون والبابليون من أكداس في التاريخ أتت عاديّات الزمن على قسم كبير منها ومازال القسم الأعظم ينتظر تحت آلاف التلال الأثرية على امتداد رقعة الوطن العربي السوري من الخليج العربي إلى البحر المتوسط . لقد بدأ المؤرخون السومريون من عام 2000 ق.م يكتبون ماضيهم ويسجلون حاضرم ليخلفوه لمن يجيء بعدهم " (1)

أما أشقاؤهم في سوريا الغربية فقد اشتهر عنهم واقعتهم ودقتهم في تسجيل وتاريخ الأحداث والشخصيات مما أثار نقمة وغضب جميع الأوساط الدينية فيما بعد التي لم تتورع عن تدمير تلك الكنوز الهائلة من المؤلفات كما حدث لسخونياتن ولمولفاتن . لقد بين هذا المؤرخ البيروتي منذ القرن الرابع عشر قبل الميلاد حقيقة الآلهة السوريين ، وكشف عن أنهم ليسوا إلا بشرا حقيقيين واقعيين قدموا خدمات جلّى للإنسانية ساعدتها على تطوير عيشها ، ودفعت بها من مرحلة إلى أخرى تالية أرقى في مدارج التطور ، كما فضح كل تلك الخرافات التي أضافها الكهنة حول تلك الشخصيات بصورة أساءت إليها كثيرا . فكان بذلك أول مؤرخ علمي واقعي نقدي في العالم . لقد عمدت الأوساط الدينية المتعصبة إلى إخفاء تلك المؤلفات وتدميرها والتشهير بها وذلك بعد ميلاد المسيح بأربعة قرون من الزمن . ولولا أن أوزيب اليهودي المتعصب والمتنصر ظاهريا رأى أن يشهر بما كتبه ساخنوياتن مستشهدا ببعض النصوص التي ترجمها فيلون الجبيلي إلى اليونانية لا ندر كل أثر عن هذا المؤرخ والأديب العظيم .

2 — إن مما يثير الاعتزاز هذه المصادر هو أن تتابع المكتشفات الآثرية يؤكد يوما بعد يوم صحة خطوطها الأساسية وتوجهاتها في تصوير الأحداث وأزمائها .

3— إن المؤرخ العربي بعد الإسلام لم يكن مؤرخا لأحداث وأخبار ملوك وحكام فقط ،

بل كان يسعى دائما إلى أن يسجل كل ما يتجمع بين يديه من أمور وأحداث سواء أكانت سياسية أو اجتماعية ، أو دينية ، أو فكرية ، أو أدبية ، أو أخبار وروايات أسطورية أو طرائف لها صلة بعيدة أو قريبة ، مباشرة أو غير مباشرة بالشخصية التاريخية. التي يرصدها أو بالحدث التاريخي . وليس صعبا على أي باحث أن يفرز الغث من السمين من بين ذلك الركام الأخباري الذي لا بد أن يتوخى فيه مدونه تدوين كثير من المعتقدات والأعراف ، ويراعي مشاعر عامة الناس في زمانه ولاسيما الدينية منها .

4 — لقد أكد المؤرخ العربي الكلاسيكي القديم أنه أكثر الناس دراية بالواقع العربي وبالبيئة العربية ، كما أنه أكثرهم خبرة في معرفة الأصول القبلية والسكانية مهما بدت موزعة على الرقعة المترامية للوطن العربي . ولقد ساعد في ذلك تجوال مثل أولئك العلماء والمؤرخين في سبيل الدرس والتحقيق ، ما بين العراق وسوريا ومصر والمغرب ، دون أن يحد من نشاطهم صعوبة النقل والمواصلات ، أو المسافات الشاسعة . فما هي ، بعد ذلك كله ، حقيقة العرب الكنعانيين والفينيقيين في تلك المصادر من

حيث تسميتهم وأماكن توزيعهم وانتشارهم ؟

آ — في " الكامل في التاريخ " لابن الأثير نجد :

"فكانت امرأة سام بن نوح صلب ابنة بتوايل بن محويل بن خنوخ ، بن قين بن آدم ، فولدت له نفرا : ارفخشاد ، وآثور ، وآرام ، قال : ولا أدري آرام لأم ارفخشاد وأخوته أم لا ، فمن ولد لاوذ بن سام : فارس وجرجان وطسم وعمليق وهوابو العماليق ومنهم كانت الجابرة بالشام* الذين يقال لهم الكنعانيون والفرعنة بمصر ، وأهل البحرين وعمان منهم ويسمون جاشم ، وكان منهم بنو أميم بن لاوذ أهل وبار بأرض الرمل وهي بين اليمامة والشحر ... وكان طسم ساكني اليمامة إلى البحرين ، فكانت طسم والعماليق وأميم وجاشم قوما عربا لسانهم عربي ، ولحقت عييل يثرب قبل أن تبني ، ولحقت العماليق بصنعاء قبل أن تسمى صنعاء ، وانحدر بعضهم إلى يثرب

• كانت كلمة " شام " التي تعني اليسار أو الشمال تطلق على كل ما هو على يسار المركز في شبه جزيرة العرب ، كما كانت كلمة " يمن " أي اليمين ، الجنوب تطلق على كل ما هو على يمينه .

فأخرجوا منها عبيلا ، فترلوا موضع الجحفة " (1)

فالكنعانيون هنا هم الجبابرة ، وهم غير العمالقة أولاد عمليق بن لاوذ بن سام بن نوح ، انتشروا في البحرين و عمان وصنعاء (قبل أن تسمى صنعاء) ومنطقة يثرب (قبل أن تبني يثرب) ومنهم فراعنة عشيرة مصر ، وهم العماليق أو الجبابرة في كل هذه المناطق ، أما في الشام فاسمهم الجبابرة ويقال لهم الكنعانيون وقد كانوا قوماً عرباً لسانهم عربي . ولا بد من الإشارة هنا إلى أنه كان المقصود بالشام كل ما هو على شمال المركز الواقع في بلاد غامد من جبال السراة في شبه جزيرة العرب تحديداً ، كما هي معروفة لدى كل المؤرخين و الإخباريين و الجغرافيين العرب ، وفي مكان آخر نقرأ : وأما حام فولد له كوش ومصرام وقوط وكنعان ... وصارت بقية ولد حام بالسواحل من النوبة والحبشة والزنج ، ويقال إن مصرام ولد القبط والبربر ، وأما قوط فقبل إنه سار إلى الهند والسند وأهلها من ولده وأما الكنعانيون فلحق بعضهم بالشام (2) .

وهكذا يظهر أماننا كنعانيون حاميون لا ساميون صاروا بالسواحل من النوبة و الحبشة والزنج (أي على الشاطئ الجنوبي الغربي للبحر الأحمر) لأن المنطقة محددة في بقعة واحدة . أما " مصر " المقصودة فهم عشيرة مصر بن حام وليس بلاد وادي " النيل " .
ب — أما الطبري فنقرأ في تاريخه :

" فنكح لاوذ بن سام بن نوح شبكة ابنة يافث بن نوح فولدت له فارس وجرجان واجناس فارس ، وولد للاوذ مع الفرس طسم وعمليق ولا أدري أهو لأم الفرس أم لا ، فعمليق أبو العماليق كلهم أمم تفرقت في البلاد ، وكان أهل المشرق وأهل عمان وأهل الحجاز و أهل الشام و أهل مصر منهم ، ومنهم كانت الجبابرة بالشام الذين يقال لهم الكنعانيون ، ومنهم كانت الفراعنة بمصر ، وكان أهل البحرين وأهل نجد منهم ... و أهل تيماء وكان ملك الحجاز منهم بتيماء ... فكانت طسم والعماليق وأميم وجاسم قوماً عرباً لسانهم الذي جبلوا عليه لسان عربي " (3)

(1) الكامل في التاريخ "لابن الأثير " الجزء 1 ص 44 .

(2) المصدر السابق .

(3) تاريخ الطبري الجزء 1 ص 14 .

فالرواية عند ابن الأثير والطبري واحدة ، ومنقولة عن ابن اسحاق ، الذي لم يعط أي تحديد جغرافي للكلمة " الشام " .

ونجد أيضا : " وكانت امرأة حام بن نوح نخلب بنت مارب بن الدرمسيل ابن محويل بن خنوع بن قين بن آدم ، فولدت له ثلاث نفر : كوش بن حام وقوط بن حام ، وكنعان بن حام ... ونكح قوط بن حام بخت ابنة بتاويل بن ترس ابن يافث بن نوح فولدت له القبط قبط مصر فيما يزعمون ، ونكح كنعان بن حام أرسل ابنة بتلويل بن ترس بن يافث بن نوح فولدت له الأساود : نوبة وفزان والزنج والزغاوة وأجناس السودان " (1) .

وفي مكان آخر : " وأما حام بن نوح فولد له كوش ومصرام وقوط وكنعان فمن ولد كوش ، ولد المتجر الذي كان ببابل وهو نمروذ بن كوش بن حام وصارت بقية ولد حام بالسواحل من المشرق والمغرب والنوبة والحبشة وفزان ، قال ويقال إن مصرام ولد القبط والبربر ، وأن قوطا صار إلى أرض السند والهند فترها وأن أهلها من ولده " (2) .

وفي مكان آخر " وعمليق وهو عريب ، وهو أبو العمالقة ومنهم البربر وهم بنو ثميلا بن مارب بن فاران بن عمرو بن عمليق بن لاوذ بن سام بن نوح ماخلا صنهاجة وكتامة فإثما بنو أفريقيش بن قيس بن صيفي بن سبأ ، ويقال إن عمليق أول من تكلم بالعربية حين ظعنوا من بابل ، فكان يقال لهم ولجرهم العرب "العاربة" (3) ... وولد للاوذ أيضا عمليق بن لاوذ وكان منزله الحرم وأكناف مكة ولحق بعض ولده بالشام فمنهم كانت العماليق ومن العماليق الفراعنة بمصر " . وحديث أن نذكر أن اسم أفريقيش بن قيس هو الذي أطلق على القارة " أفريقيا " فيما بعد . أما الكنعانيون الحاميون أولاد كنعان بن حام فقد تركز وجودهم على السواحل الجنوبية للبحر الأحمر .

وهناك كنعان آخر ، إنه ابن نوح وأخو سام ، وتحدث عنه الأخبار بأنه لقي حتفه غرقا

(1) المصدر نفسه ص 140 .

(2) المصدر السابق ص 142 .

(3) المصدر السابق .

أثناء الطوفان ، ويقول الطبري : " ولد لنوح سام وفي ولده بياض وأدم ، وحام وفي ولده سواد وبياض قليل ، ويافث وفيهم الشقرة والحمرة ، وكنعان وهو الذي غرق والعرب تسميه يام وذلك قول العرب " إنما هام عمنا يام " ... وكان بعضهم (الفرس) يقر بالطوفان ويزعم أنه كان في إقليم بابل " (1) .

في هذا القول نلاحظ :

1— إن الأسماء سام وحام ويافث وكنعان تدل على قبائل لا على أفراد ويبدو ذلك واضحا في قوله " ويافث وفيهم الشقرة والحمرة " .

2 — إن قبيلة كنعان بن نوح كان موضعها في منطقة بابل حيث حدث الطوفان ، وهي المحطة على الفرات في قلب شبه جزيرة العرب ، وليس على الفرات السوري .

3 — إن الطوفان أصاب القبيلة ، الجماعة السكانية التي كانت تشغل منطقة بابل المحطة أثناء حدوث الطوفان ولم يصب فردا واحدا هو كنعان ، وبالتالي فلا بد أن يكون قد ذهب ضحية ذلك الطوفان قسم كبير من السكان ونجا القسم الآخر .

4 — ورد في بعض الروايات أن العماليق (الجبارة) حينما ظعنوا من بابل كانوا أول من تكلم بالعربية ، أي باللهجة العربية وتخلوا عن لهجتهم العربية الزراعية المشوبة (السريانية) .

5 — أفهم لولا حدوث أمر جلل (كالطوفان مثلا) لما تخلوا عن أراضيهم الخصبة ونزحوا إلى أطراف شبه الجزيرة العربية وغربها على سواحل البحر الأحمر . إن ذلك التروح من أرض بابل الخصبة ملتقى الأنهار في جوف شبه جزيرة العرب ، وهي بابل الأخرى هناك وليست بابل العاصمة التي لم تكن قد وجدت بعد ، يدل على دمار أراضيهم وممتلكاتهم تحت الغمر الذي سوف يبقى المنطقة المنكوبة زمنا طويلا قبل أن تعود صالحة للسكن والزراعة من جديد .

ولابد من أن نلاحظ كيف أنه في الوقت الذي كان فيه أولئك العرب السوريون يبدعون ويتفوقون على شواطئ الخليج العربي شرقا والبحر المتوسط غربا فقد كانوا يمتزجون مع

أشقائهم من أبناء المرحلة الانتقالية (الرعوية — الزراعية) الممتدة من سهل قونية شمالاً إلى شواطئ البحر الأحمر وبحر العرب جنوباً وقيمون دولهم العربية في هذه المنطقة التي اتفق على تسميتها بـ " سوريا المحوفة " . لقد حدث أن أقيمت دول عربية قوية وعديدة كان من شأنها أن تملأ هذا الفراغ الداخلي وتستثمر ميزات المواقع والخطوط والعقد والطرق التجارية الدولية التي تربط ما بين المنتجات الزراعية في سومر وأكاد وماري وحوض الفرات الأعلى، بمنتجات منطقة اليمن وشرقي البحر الأحمر في الجنوب، وبشاطئ المتوسط في الغرب ، كما تسيطر على حركة النقل التجاري الدولي ما بين متوجات بلاد الهند وإفريقيا ومصر والأناضول وبلدان البحر المتوسط .

إن أول مملكة توصل الآثاريون إلى اكتشافها في هذه المنطقة هي المملكة العربية التي اتخذت من إيبلا* عاصمة لها ولم تكن الدولة العربية النبطية وعاصمتها (البتراء) أو العربية التدمرية وعاصمتها (تدمر) فيما بعد سوى تجسيد لتلك الظاهرة في سوريا المحوفة .

إن كل الدلائل تشير إلى أن حركة السكان في الغالب لم تتخذ أي صورة من صور العنف . فكما كان ينتقل أولئك السريان الزراعيون من منطقة بابل وسومر والخليج إلى شواطئ المتوسط الشرقية ، وإلى أواسط وغربي شبه الجزيرة العربية ، دون أن يسجل أي صدام دموي عنيف بين من كانوا يشغلون تلك البقاع وبين أشقائهم الوافدين ، في الوقت الذي لم تغفل المصادر الأثرية عن ذكر أي صدام كان يحدث بين القبائل الغازية للمنطقة وبين سكانها الأصليين سواء من جهة الشمال أو الشرق ، فقد كانوا أيضاً ينتقلون وبالسهولة نفسها ، من شمال حوض الفرات (التراث) إلى الشواطئ الشرقية للبحر الأحمر ويؤسسون المدن أو الأرياف ، ويكثرزون دوماً أي دوي دموي في

* يعتقد الباحثون في وثائق إيبلا إن اسمها مشتق من الكلمة العربية عبلاء وتعني الصخرة البيضاء (انظر كتاب إيبلا — عبلا ترجمة قاسم طوير) لكننا نرى أن العرب اعتادوا على أن يسموا المناطق بأسمائهم وليس بالعكس ، وعلى هذا الأساس فإننا — مع تأكيدنا على الاشتقاق العربي الخالص للكلمة — نعتقد بأن الاسم ربما يعود إلى قبائل عبل التي بنت بعض فروعها مدينة يثرب وهناك " عبلاء " أخرى شرق بلاد غامد في شبه جزيرة العرب ما تزال آثارها ماثلة إلى اليوم .

التاريخ . أو من الشواطئ الشرقية للمتوسط إلى شواطئه الجنوبية كما حدث فيما بعد مع السيدة العربية الفينيقية إليسار وحزبها بعد أن اختلفت مع حزب شقيقها الحاكم في مدينة صور ، وانتقلت إلى قرية عربية في الشمال الأفريقي لتخلق منها مدينة جديدة هي قرطاجنة ⁽¹⁾ تكثفت فيها عبقرية ونشاطات شعبها حتى ظلت زهاء ستة قرون أقوى منافس للمدن السورية الأخرى في البحر المتوسط كله .

ولما كانت تلك التحركات ، التي تأخذ في معظم الأحيان طابع جولان الشعب الواحد في أنحاء أرضه الواحدة ، تتم بمثل تلك الصورة السلمية فإن ذلك وحده كان دليلا لا يضاھيه أي دليل آخر على أن جميع السكان الذين كانوا يشغلون تلك المناطق إنما ينتمون معهم لأرومة واحدة ، ولشعب واحد هو الشعب العربي ، ذاك أولا .

ثانيا : لما كانت جميع المصادر قد أكدت على أن آدم وحواء اللذين وقفا على رأس سلسلة النسب العربي المحفوظة لنا حتى اليوم إنما وجدا وعاشا في فترة حوالي الألف الخامس قبل الميلاد ، هما آدم الرسول وزوجته ، ولما كانت جميع المصادر تؤكد على أن حواء كانت عربية عرباء (أي تتكلم العربية النقية ومن سكان قلب شبه جزيرة العرب) وأن آدم الرسول عربي سرياني (أي يتكلم العربية بلهجتها الجبلية أو الشمالية الشرقية في منطقة الخليج العربي) فإن في ذلك دليلا على وجود العرب العاربة والعرب السريان في شبه الجزيرة وفي منطقة الخليج ، التي هي جزء من منطقة الهلال السوري الخصيب ، قبل آدم وحواء بأزمان موعلة في القدم . وهذا يعني ، بالتالي ، أن هؤلاء الجبابرة الذين أتوا بعد الطوفان ، كما تزعم الروايات ، (أي بعد الألف الثالث قبل الميلاد) ، إنما كانوا يدركون أنهم يتزلون أرضا يشغلها قوم من أبناء جنسهم ويتكلمون بلسانهم العربي الواحد ، وأن هذا يعني أنهم لم يكونوا أول " العمالق " الذين " كوروا الكور وبنوا المدن وسوروا الأسوار " على حد تعبير المؤرخين العرب .

ثالثا : لقد دلت الأبحاث المخبرية على المكتشفات الأثرية لمدينة أريحا على أن بناءها يعود

(1) قرطاجنة هي " قرت حدثت " أو " المدينة الحديثة " .

إلى الألف الثامن قبل الميلاد ، وقد أجمع الباحثون على أن من أكمل وأجمل ما تركه لنا ذلك الإنسان العربي القديم هو مدينة أريحا النيوليتية (الألف الثامن قبل الميلاد) بطابعها العمراني المتقدم .

يقول الباحث والمؤرخ أولبرايت : " لقد أثبتت الحفريات الأثرية أن أريحا كانت منذ معظم الألف السابع قبل الميلاد ، مدينة جيدة البناء ، ومحاطة بأسوار حجرية ... وقد ظهرت فيها مرحلتان من مراحل ما قبل الفخار في العصر النيوليتي ، وتميزت المرحلة الأولى باستعمال لبنات طينية ذات شكل محدب خاص ، كما قدمت الثانية مجموعة من التأسيسات المتتابعة التي لم يكن عددها يقل عن أربع عشرة في نفس الموقع ، وحدد ، بواسطة الكربون المشع ، تاريخ هذه التأسيسات المتتالية على مر الزمن ، واتضح أن الثانية منها قد هجرت في أواسط الألف السادس قبل الميلاد ... وأريحا هي مركز نبوليتي قبل فخاري ذو طابع عمراي ، تم اكتشافه في العالم القديم مع الإشارة إلى أن هناك مراكز مماثلة تم كشفها بشكل واسع في الشرقيين الأدنى والأوسط تعود إلى ما بين 7000 و 5000 قبل الميلاد ، في كل من العراق (قلعة جرمو) وفي مركز جيرو كيتا في قبرص الذي هو أحدث بألف عام ...

وفي أريحا تم العثور على أقدم ما عرف من بيوت ثابتة ، ومعابد بنيت جدرانها بواسطة التربة المدقوقة ، أو بلبنات طينية مستديرة ، ولم يعثر داخل هذه المنشآت أو حولها على مقتنيات منزلية عادية ، ولكن عوضا عنها ، كانت تماثيل عديدة لحيوانات (غنم ، بقر ، ماعز ، خنازير)⁽¹⁾

ويشير أولبرايت إلى أن الاكتشافات الأهم والأكثر إثارة في عصر ما قبل الفخار النيوليتي في أريحا هو مجموعات التماثيل البشرية التي كانت تمثل ، كل مجموعة منها على ما يظهر ، رجلا وامرأة وطفلا ، وهذه التماثيل كانت مصنوعة من الحوارة المثبتة على هيكل من القصب يقوم مقام هيكلها العظمي . وحتى اليوم فإن هذه التماثيل لم يظهر

مثيلها لا في العصور السابقة ولا في العصور اللاحقة⁽¹⁾ ، أما غوردون تشايلد فإنه يقدم لنا وصفا مختصرا لأريحا ذلك العصر نوره كما يلي :

" وبذلك (أي بواسطة الكربون المشع) تم التوصل إلى أرجاع تاريخ قرية أريحا في وادي الأردن إلى 7000 سنة قبل الميلاد ، وهو أول تركز مزارعين حدد بواسطة الكربون 14 . ولوحظ أن هذه القرية كانت منتشرة نسبيا (أكثر من ثلاثة هكتارات) وكانت محمية ، في الوقت نفسه ، بواسطة خندق محفور في الصخر ، عرضه 8 أمتار وعمقه 1.5 متر وبواسطة سور من الحجر ، وكان سكان أريحا القدماء يعيشون بشكل رئيسي على الصيد وعلى جمع الغذاء . ولكن ينبوعا لا ينضب مكنهم أيضا من زراعة الأرض ، وتربية الغنم والماعز⁽²⁾ .

إن ذلك يعني أن العرب الجبارة " الذين كوروا الكور وبنوا المدن وسوروا الأسوار " إنما كانوا يشغلون المنطقة قبل قدوم أحفاد آدم وحواء الآخرين بعد الطوفان ، بل وقبل وجود جددهم الأعلى آدم الرسول وجددهم حواء في حوالي الألف الخامس قبل الميلاد ، وهذا ما يؤكد مرة أخرى أن آدم وحواء لم يكونا سوى حلقة من حلقات الآباء العرب الأولين انقطعت عندها سلسلة النسب في الذاكرة .

وإن أولئك " الجبارة " الأقدمين هم الذين انتشروا على الشاطئ الغربي والجنوبي للبحر المتوسط بدءا من مرسين إلى دلتا النيل وانتهاء بموريتانيا على شاطئ الأطلسي .

إن مثل هذا الافتراض هو وحده الذي يفسر انتشار أحفادهم السوريين والفينيقيين فيما بعد على امتداد هذا الشاطئ دون أن يعترضهم أي حدث تاريخي كبير كان يمكن أن يؤثر على هوية المنطقة العربية منذ ذلك الزمن السحيق وحتى اليوم . ولقد تحدثنا قبلا كيف أن الاحتلال مهما طال زمنه يبقى هو الطارئ ، وأن الشعب الأصيل لا بد وأن يعود ليفرض على التاريخ استمراره هو في أرضه تراثا وثقافة ولغة ، لا استمرار غيره . إن هذا هو ما جعل عروبة هذا الشاطئ كله هي الثابتة رغم انتصار مرتزقة جيش

(1) Ibid .

(2) Cordan Shild " de la Prehistoire a, L Histosire " PP.75-67 .

روما قرونا طويلة وتدمير قرطاجة وإزالتها من الوجود . إن الوجود العربي لم يكن يتمركز في قرطاجة إذن ، وإلا لزال بزوالها . وإن تقدم الجيوش العربية بقيادة موسى بن نصير فيما بعد لم يكن إلا عملية تحرير لتلك المناطق العربية من البيزنطيين ، يدل على ذلك انضمام السكان إلى جيوش التحرير ضد البيزنطيين المحتلين رغم وحدة الدين معهم واختلافه مع أشقائهم المحررين القادمين بدين جديد .

كنعانيون أم أموريون في سوريا الغربية

إن الباحث ما أن يقترب قليلا من التاريخ القديم لسوريا الغربية ، التي تشمل اليوم سوريا ولبنان وفلسطين وشرقي الأردن ، حتى يتملكه العجب أمام هذا الاختلاط ، وذاك الركam الهائل من المتناقضات . وأعترف بأنني كنت ما أن أعزم على انتهاج خط للسير في البحث أحسبه واضحا ويضيء كل المكنبات حتى أتعث دائما بفجوة هنا أو رجمة هناك . ومن كثرة تعثري فقد صرت أشعر بأن طابعا معيناً يلف تلك العقبات جميعاً ، وكأن لها وحدة في اللون والرائحة . كنت ما أن أشعر بصدمة تاريخية أو جغرافية حتى أفرزها جانبا علي أحد قاسما مشتركا يجمع كل هذه العقبات أو الفجوات . ولم تمض فترة طويلة حتى تبين لي أنها فعلا ، تعود جميعها إلى أرضية واحدة ، بل إلى مصدر واحد : إنه مدونات التوراة وتفسيراتها الكهنوتية والاستشراقية والصهيونية المزورة والمعممة .

وانكبت مرة أخرى ، قد تكون الخامسة ، على هذا الكتاب التوراة ، ووضعت على ورقة بيضاء الخطوط الجغرافية العامة للمنطقة ، ثم بدأت أتابع تحركات جماعة موسى من مصر وأحرك القلم معها أين تتجه ، وأضع الأسماء على الخارطة التي أمامي — وكانت المفاجأة : إن أحدا من موسى أو جماعته لم يقترب من مصر وادي النيل أو من فلسطين ، بل تبين أن جميع الأحداث المدونة في التوراة إنما كان مسرحها منطقة جدد ضيقة ومحدودة من بلاد غامد وزهران في شبه جزيرة العرب وصولا إلى عمان الحالية على الخليج العربي .

فكيف إذن تمت عملية تغيير الجغرافيا والتاريخ ؟ ذلك هو الموضوع الذي سوف نتناوله بالبحث مفصلا بعد أن نفرغ من التعرف على السكان الأصليين للمنطقة الغربية من سوريا والتي تمتد من حوض المضائق شمالا وحوض الفرات الأعلى ، إلى جنوبي سيناء وأعالى شواطئ البحر الأحمر جنوبا .

ومن أجل ذلك ، وبعد أن تبين خطئ معظم تفاسير المدونات التوراتية التي كتبت على مدى ألف عام ، فقد صار من اللازم والواجب معا أن توضع جانبا كل الدراسات التي اعتمدت على التوراة وتفسيراتها المزورة ، تاريخا وجغرافيا ، لإجلاء الحقيقة ، وإزاحة ما تراكم فوقها من ركام طيلة هذه الأحقاب الطويلة . وبقدر ما يبدو الأمر في غاية من الصعوبة فإنه يبدو أيضا في غاية من السهولة في آن معا ، لأن أساس جميع تلك الركامات المتراكمة من الأخطاء إنما هو أساس واحد يكمن في التفسير المزور لمدونات التوراة من جهة ، ولأن المكتشفات الآثارية في سوريا اليوم تتوالى لتدحض يوما بعد يوم كل تلك الأباطيل التاريخية التي اخترعها واعتمدها مؤرخو الحقب الاستعمارية ، ونقلها الكثير من أساتذتنا ، دون أن يجهدوا أنفسهم مرة واحدة في بحوث جديّة لهذا التاريخ الذي يئن تحت جبال من أنقاض القرون وأكاذيب الخصوم . علما بأن كلمة سوريا الآثارية لم تنضب بعد ، حيث أن آلاف التلال ، التي يخفي كل منها مدينة أثرية ، ما تزال تنتظر استكشافها وإظهارها إلى عين الحقيقة .

إن استعراضا بسيطا لما قاله المؤرخون الأجانب عن " أرض الكنعانيين " يكشف لنا كيف أن أحدا منهم لم يعتمد على أي مصدر آخر غير مدونات التوراة من أجل إقحامهم في سوريا الغربية كلها . وأكثر من هذا ، فقد خلطوا بينهم وبين الأموريين والفينيقيين مرة ، ومرة أخرى صاروا ينكرون وجودهم في سوريا الغربية ليجعلوا من هذه المنطقة مسرحا لنشاطات شعوب غريبة أخرى لا تمت إلى العروبة بصلة ، ولا تخفي المقاصد الاستعمارية الكامنة خلف مثل هذه المساعي على أحد اليوم .

إنه لمن المفيد هنا أن نستعرض نماذج من أقوال أولئك المؤرخين عن الكنعانيين كسكان لسوريا لتبين كيف أن أحدا منهم لم يعتمد أي مصدر في كلامه عنهم ، بل اعتبر أن

مدونات التوراة وتفسيرها الاستشراقي والصهيوني من المسلمات التي لا تحتاج إلى نقاش ويمكن أن يبيّن عليها كل بناء حول ما يتعلق بتاريخ المنطقة .

إنه لم يعثر على أي مكتشف في المنطقة يؤيد تسمية السكان الكنعانيين ، بل إن كل المكتشفات أخذت تبين أن السكان إنما هم العرب السوريون من أموريين وسريان وفينيقيين ، ولم يعثر على أي ما من شأنه أن يشير إلى وجود العرب الكنعانيين في سوريا بما فيها لبنان وفلسطين . وبدلاً من أن يعيد أولئك المؤرخون النظر بمدونات التوراة ، وبتفسيراتها وترجماتها ، والجغرافيا التي وضعت بناء عليها ، فقد عمدوا إلى تصحيح الخطأ عن طريق تغطيته بأخطاء أكبر ، فأخذوا يبحثون عن أصل التسمية خارج المنطقة كلها ، وفي لغات الشعوب الأخرى ، بل ذهب بعضهم إلى حد إنكار وجود أي شعب في سوريا ذلك الزمن حينما تبين له أن وجود الكنعانيين كان يقف على أرضية واهية ومسألة تحتاج إلى دليل .

الكنعانيون في المصادر الأجنبية

1— يقول سميث في كتابه " الجغرافيا التاريخية " ويشاركه في ذلك كلود كوندر ، وواتران ، ولويس باتون ، وكثيرون غيرهم : " إن اسم بلاد كنعان هو تسمية سلمية ويعني الأرض المنخفضة ، وهو مشتق من فعل كنع أي انخفض أو سكن السهل المنخفض " (1) .

إن هذا القول يفترض سلفاً صحة المعلومات التوراتية وتفسيراتها من قبل الحاخاميين دون أن يكون ثمة حاجة إلى التأكد من حقيقة تلك المعلومات . وحينما لم يعثر على ما يدل على وجود الكنعانيين في سوريا فقد كان لابد من تبرير لهذه التسمية التي لحقت بسكان سوريا الأصليين من خلال ما تدل عليه اللغة العربية ذاتها . وقد كنا قد أشرنا إلى أن

(1) انظر :

Smith " Historical Geography" PP.4-5 ;
Cloude R. Conder " Syrian Stone . Lore" London " PP,2-3
C. Aytran" Pheniceans " Paris" P.4;
Lewis B. Paton , The Early History of Syria and palestine " Newyork.

العرب لم يكن من عادتهم أبدا أن يسموا أنفسهم بأسماء الأمكنة التي يحلون فيها ، بل العكس كان دائما هو الصحيح ، وأن على كل باحث أن يتوجه في البحث عن أصول التسميات القديمة للمناطق الجغرافية و " القرى " والمدن ، والجبال ، وغيرها ، ناحية أسماء المجموعات السكانية التي كانت تشغل تلك الأمكنة وليس العكس .

2 — يقول الدكتور فيليب حتي نقلا عن أولبرايت " إن اسم بلاد كنعان أصبح الآن مشكوكا في أصله السامي ، ويظن أنه من أصل غير سامي والاشتقاق الجديد يجعله حوري الأصل Knaggi . بمعنى الصباغ الأرجواني وهذا أعطى الصيغة الأكادية في نوزي كيناخني Kinakhni ، وفي مسمارية رسائل تل العمارنة كيناجي Kinakhi وبالفينيقية كيناع 'Kena والعبرية كنعان أي بلاد الأرجوان"⁽¹⁾ . فالاسم العربي " كنعان " المعروف منذ ما بعد الطوفان وحتى اليوم ، والذي لم تغفل عن ترديده مدونات التوراة عشرات المرات ، كما لم تغفل عن أن تكيل له الشائعات ، يصبح عند بعض المؤرخين بدعة لم يسمع بها من قبل ، ولا بد من البحث عن صيغة قريبة في لغة شعب ما ولو كان ذلك لدى قبائل هندو أوروبية مزعومة ومختلقة أو قفقازية ! فبدلا من أن يتوجه أولئك المؤرخون إلى الوطن الحقيقي للكنعانيين لجأوا إلى استحداث البدع في اللغة والتاريخ والجغرافيا معا ، لأن في العودة إلى البحث عن موطن الكنعانيين الحقيقي فضيحة لنصوص التوراة ، ولمفسريها ، ولواضعي الجغرافيا للمنطقة بناء على كل هذا ، ولكل من كتب التاريخ ، وما يزال يكتب ، بناء على تلك الجغرافيا أيضا .

إنه لم يحدث في التاريخ العربي أن بقيت القبائل بلا أسم تنتظر من يتفضل عليها بلقب ما من الخارج لتعرف به ، وهي — كما اشتهر عنها — من أشد الجماعات السكانية تشبها بالنسب .

3 — يقول بونفانت : " لقد اشتق اسم فينيقي من اليونانية Phoinix أي أحمر أرجواني ، ليشير إلى صناعة الأرجوان التي اشتهر بها الفينيقيون ، وبعد أن أطلق اليونان هذا الاسم على الكنعانيين الذين تاجروا به معهم فإن كلمة فينيقي أصبحت بعد حوالي

(1) انظر فيليب حتي : " تاريخ سوريا ومن ضمنها لبنان وفلسطين " الجزء 1 ص 85 .

1200ق.م مرادفة لكلمة كنعاني " (1) .

إن هذا القول كسابقه ، خلو من أية نظرة علمية ، ولا يستحق الوقوف عنده .

4 — ويقول روجرز : " ولقد ورد ذكر كنعان في رسائل العمارنة التي تعود إلى القرن الخامس عشر قبل الميلاد باسم Knakhni وكانت هذه التسمية تطلق حينذاك على القسم الجنوبي من بلاد الشرق المشتملة على أرض فلسطين والتي كان قد استولى عليها تحوتمس الثالث في القرن الخامس عشر قبل الميلاد ، أما القسم الشمالي فكان يسمى " أمورو " أو عمورو " وكان يشمل منطقتي لبنان وشرقي الأردن " (2) في هذا القول تستوقفنا عدة أمور على غاية من الأهمية :

1— إننا لأول مرة نعثر على قول لأحد المؤرخين يستشهد بالمكتشفات الآثارية عند تحقيقه في أصل التسمية الكنعانية . لقد وردت هذه التسمية إذن في رسائل تل العمارنة التي هي بقايا مدينة " أحنو أتون " ، المدينة التي أسسها الملك المصري امنحوتب الرابع الذي عرف باسم أخناتون (1375—1368 ق.م) والتي وجدت في خرائبها سنة 1887م حوالي 1300 حرة أو قرميد تشتمل على السجلات الملكية الشهيرة ومن بينها الرسائل المرسلة إلى أخناتون وإلى أبيه امنحوتب الثالث من حكام بعض المخططات التجارية الخاضعة لنفوذ ملك مصر على طريق القوافل التجاري الدولي في جنوب جزيرة العرب .

2 — في قول العالم والمؤرخ روجرز إشارة واضحة لا تقبل الجدل أو التأويل إلى المنطقة التي هي أرض كنعان أو بلاد كنعان : " إنها القسم الجنوبي من بلاد الشرق والتي كان قد استولى عليها تحوتمس الثالث في القرن الخامس عشر قبل الميلاد " . إن بلاد الشرق بالنسبة لمصر ليست في سوريا ولبنان وفلسطين ، إنما شرقي البحر الأحمر دون ريب ، فالشمال يوضحه روجرز نفسه في قوله " أما القسم الشمالي فكان يسمى

(1) G. Bonfante " the name of the Phoinicians " Classieal Philology vol.XXXVI ,PP,1 .

(2) Rogers , Cuneiform Parallels to the old Testament " 1942 , p. 68

"أمورو" أو "عمورو" وكان يشمل منطقتي لبنان وشرقي الأردن " فالشمال هو لبنان وشرق الأردن ، أما فلسطين ففي الشرق !... أي تناقض هذا إذن ؟ وأي فلسطين تلك التي في الشرق ، وفي الشرق بالنسبة لمن ؟ لو لم تكن فلسطين على شاطئ البحر لقلنا إنها في الشرق من الأردن مثلا ، لكنها ليست في شرق أحد .

إن حل هذا التناقض هو في أن أرض كنعان المقصودة إنما هي بقعة ما من جنوب شبه جزيرة العرب ، وأن في تلك المنطقة بالذات توجد بلدة الفلثة وسكانها هم الفلشتيم باللهجة الكنعانية القديمة ، والباء والميم تعادل الياء والنون في اللغة العربية الحديثة ، وإن الإبدال ظاهرة عامة بين الكنعانية القديمة والعربية الأم بين الشين والسين ، وإن أولئك " الفلشتيم " إنما هم العرب الفلسطينيون الكنعانيون الحاميون أبناء كنعان بن حام بن نوح وقد حافظوا على تسميتهم القديمة بعد أن دخل قسم منهم في الدين اليهودي وطردها من بلدهم على يد نبوخذ نصر إلى الحبشة وعرفوا بيهود الفلاشة .

3 — إن رسائل تل العمارنة تؤكد إذن أن الشمال يسكنه الأموريون ، وهذا الشمال هو الذي يشمل لبنان وفلسطين التي بدوها المؤرخ روجز بشرقي الأردن ، على أنه لم يكن ثمة شيء اسمه شرقي الأردن ، فلماذا سمح المؤرخ لنفسه بأن يقع في مثل هذا التناقض إذن ؟ لماذا تؤكد رسائل تل العمارنة أن فلسطين هي في الشرق من مصر ، ويصر هو على أن يتحدى حتى الاتجاهات الجغرافية ، ويخلط فيما بينها ، ويجعل فلسطين ، التي هي في الشمال بالنسبة لمصر هي المقصودة بهذا الشرق ؟ إن الأمر واضح : إن جميع مؤرخي الحقب الاستعمارية يتعاملون عن مثل هذه التناقضات الفاضحة ، ويتحملون مسؤولية مثل هذه الأخطاء العلمية القاتلة من أجل تمرير الأهداف الاستعمارية للمنطقة وإنجاحها وإطالة زمن وجودها إلى أقصى أمد ممكن .

4 — ويقول لودز في كتابه " إسرائيل " ، و أ. بيرثوليت في كتابه " تاريخ حضارة إسرائيل " : " إنه مما لاشك فيه أن الكنعانيين هم أقدم الأقوام الذين استقروا في أرض فلسطين ، وإليهم يعود تأسيس حضارة فلسطين القديمة ، والأرجح أن لغتهم كانت في

الأصل اللغة التي اعتبرت أقرب لغة إلى أم اللغات السامية ، وترجع الحضارة الكنعانية إلى عصور موعلة في القدم ، فمنذ العصر الحجري الحديث أو العصر النيوليتي ، (7000 — 5000ق.م) بدأت هذه الحضارة تنمو وتتقدم في مجال التمدن ، فكان الكنعانيون أول من اكتشف النحاس الطري ، ثم اهتموا إلى الجمع بين النحاس والقصدير في إنتاج البرونز ، وبذلك كانوا السابقين في استخدام صناعة التعدين ، مما أعطى تلك الشعوب البدائية أدوات وأسلحة فتاكة ، وقد أصبح استعمال البرونز شائعاً في المدن الكنعانية منذ أواسط الألف الثانية قبل الميلاد . ومن الجائز أن يكونوا قد أخذوا بصناعة الحديد من العرب الذين كانت لهم مناجم هذا المعدن في لبنان وفي الأردن ... ويتجلى لنا مدى تقدم صناعة المعادن في بلاد كنعان أوضح ما يكون في وصف الغنائم التي أخذها تحوتمس الثالث (1504 — 1450ق.م) من المدن الكنعانية ، إذ نجد أن بين المصنوعات المعدنية عربات مطعمة بالذهب ، وأوتاداً لتثبيت الخيام مطعمة بالفضة ، وغمائل من الذهب ومن خشب الأبنوس ، وفي القائمة ، علاوة على ما تقدم 207.000 كيس من القمح جلبها تحوتمس من كنعان (1) .

يلاحظ في قول لودز ما يلي :

أ — أن لودز يعترف بوجود شعب حضاري في فلسطين قبل مجيء " اليهود " بآلاف السنين (مع تحفظنا لعبارة " مجيء اليهود ") ومنذ العصر الحجري الحديث (7000 — 5000ق.م) وذلك لأن المكتشفات والبحوث العلمية وقفت شاهداً شامخاً على ذلك دون أن تترك مجالاً لأحد في أن يدحض أو ينكر . وكنا قد شرحنا كيف أنه تم فحص آثار أريحا بالكربون 14 وتبين أن عمرها يعود إلى الألف السابع قبل الميلاد على الأقل علماً أن كنعان بن حام بن نوح يعود زمنه إلى الألف الثالث قبل الميلاد ، وفي هذا تناقض صارخ .

ب — إن لودز يطلق على العرب من سكان سوريا الأصليين اسم " الكنعانيين " حتى لا

(1) انظر : "Lods," Israel" P.59

و : "A. Bertholt, "Histoie de la Civiliztion d'Israel" fr.tr.,P.70

يخرج عن مرامي التفسير الصهيوني لدونات التوراة . فخلط بذلك بين سوريا الأمورية ، بما فيها سوريا الحالية ولبنان وفلسطين وشرقي الأردن ، وبين بلاد كنعان الواقعة على السواحل الجنوبية الشرقية للبحر الأحمر .

ج — لقد أكد الباحثون أن منطقة السواحل الشرقية للبحر الأحمر بقيت من أخصب المناطق ، كما شهدت حضارة زراعية وتجارية وصناعية على غاية من التقدم مما جعلها تبقى مواكبة للمسيرة الحضارية العربية الممتدة من سومر شرقا إلى فينيقيا غربا ، وسوف نفرد لذلك بحثا خاصا . لكنه تجدر بنا الإشارة هنا إلى أن المكتشفات أخذت تؤكد يوما بعد يوم أن بدايات الحضارة المصرية سواء أكان ذلك في الحكم ، أو الإدارة ، أو بناء المدن أو القصور ، أو في فنون الزراعة والنحت والتصوير والتعدين ، إنما جاءتها من تلك المنطقة تحديدا . كما جاءت العربات والرياضيات المتطورة منها أيضا ، كما أنها هي الموطن الأصلي إيزيس وأوزيريس .

د — إن غنائم تحوتمس الثالث تؤكد الوحدة الحضارية للوطن العربي السوري من أقصى شرقه إلى أقصى شماله إلى أقصى جنوبه . وتشير مدونات تحوتمس الثالث إلى خصوبة أرض كنعان مؤكدة " أن النبيد عند الكنعانيين كان موجودا بكثرة تفوق وجود الماء " وكانت زراعة الكروم والتين من أهم المزروعات القديمة في كنعان ، توجد شواهد على أن هذه الزراعة كانت مزدهرة في عهد بيبى الأول (حوالي 2500 ق.م) إذ وجدت هناك معاصر للزيت والعنب من تلك العصور مصنوعة بمتهى الدقة والإتقان ⁽¹⁾ .

5 — ويقول الدكتور ولنفسون في كتابه " تاريخ اللغات السامية " : " والكنعانيون هم الذين اخترعوا السفينة ، واهتدوا إلى عمل الزجاج ، ووضعوا نظام الحساب ، وهم الذين اخترعوا أبجدية الكتابة المختزلة بالنسبة للخط المسماري والهيريوغليفي ، فلا غرو إن أصبح الخط الكنعاني أساسا لجميع خطوط العالم المتمدن في الشرق والغرب " ⁽²⁾ .

(1) فيليب حتي " تاريخ سوريا ومن صنعها لبنان وفلسطين " الجزء 1 ص 94 ، 142

(2) الدكتور ولنفسون " تاريخ اللغات السامية " ص 52

واضح أن الدكتور ولنفسون يتحدث هنا عن سكان سوريا الطبيعية وقد درجت العادة على تسميتهم بالكنعانيين بناء على كل ما سبق وذكرناه ، ويكفي أن نستبدل العرب السوريين بالكنعانيين ليزول كل أشكال في هذا القول.

6 — ويقول الدكتور مورنغات بخصوص الكنعانيين : "إننا نعلم من خلال الحفريات التي أجريت في جيبيل " بيلوس القديمة " في وسط ساحل بلاد سوريا ، وبلاستناد إلى المراسلات الملكية في مدينة ماري ، ومن موجودات الطبقات السفلى في تل العطشانة (تل ألخ) بالقرب من إنطاكية ، أن أناسا ساميين غربيين قد قطنوا سوريا على الأقل منذ نهاية الألف الثالثة قبل الميلاد ، وأن هؤلاء كانوا على قرابة مع تلك الفئة السامية التي حكمت بلاد ما بين النهرين منذ سلالة حمورابي ... أما من ناحية التسمية الخاصة فنطلق على هؤلاء الساميين في سوريا اسم الكنعانيين ، ولغتهم يجب أن تكون نفس اللغة التي اقتبسها أولئك الذين نرحوا إلى الأرض المقدسة من السكان الأصليين قبلهم هناك ، أي من الكنعانيين ، وكذلك ينتسب الفينيقيون الأوائل ، أي سكان السهل الضيق ما بين لبنان والبحر ، إلى هذه المجموعة السامية الغربية ⁽¹⁾ .

يلاحظ أن الدكتور مورنغات يؤكد هنا على وحدة الشعب واللغة والحضارة والأرض لسوريا منذ الألف الثالث قبل الميلاد استنادا على الوثائق الآثارية المكتشفة في مدينة ماري وألخ ، ومن خلال النصوص والمراسلات التي عثر عليها في محفوظات المدينتين ، لكنه يكشف أيضا ، في الوقت نفسه ، أن تلك الوثائق الآثارية لم تأت على أي ذكر للكنعانيين وأنه وغيره من الباحثين هم الذي يطلقون هذه التسمية على الشعب العربي السوري الذي يشغل الأموريون جناحه الغربي من أعالي الفرات إلى أعالي البحر الأحمر .

7— ويقول سميت أيضا : " وقد اشتهرت بلاد كنعان بنشاطها التجارية التي كانت تمارسها بكفاءة منقطعة النظر مستفيدة من موقعها الجغرافي الفريد الذي يقع على الطرق الرئيسية التي تربط بلدان آسيا عبر الصحارى العربية مع بلدان أوروبا وشمال إفريقيا

(1) انطون مورنغات " تاريخ الشرق الأدنى القديم " ص 250 .

عبر البحر المتوسط في تنمية الحركة والعلاقات التجارية ، فاحتكروا أشهر الطرق البحرية ، وأقاموا لهم مستعمرات تجارية في قبرص ، وصقلية ، وسردينيا ، وكورسيكا ومالطا ، وفي شمالي إفريقيا ، وفي اسبانيا ، وأنشأوا المستودعات والمصارف في مرسيليا وروما وكولونيا ، وبريطانيا ، ومصر ، وأورشليم ، وتدمر . وكانت قرطاجة الواقعة في جوار تونس الحالية أهم المستعمرات التجارية الفينيقية ⁽¹⁾ فقد اتسع نفوذها في البحر المتوسط حتى قيل " لا يقوى الرومان على غسل أيديهم بماء المتوسط إلا بإذن من قرطاجة " وكان القرطاجيون مثل الفينيقيين يسمون بالكنعانيين ⁽²⁾ .

وقد اشتهرت صور بتراتها حتى قال المؤرخون : إن الفضة كانت مكدسة في أسواقها مثل التراب ، والذهب كوحل الطرقات ، وإن بيوتها أعلى من بيوت روما ، على حد قول سترابو ، وقد حافظت ببسالة أهلها على استقلالها حتى قضى عليها الاسكندر الكبير بعد حصار دام زهاء عشر سنوات .

ليس صعبا أن ندرك كيف أن الحديث كله يدور حول السوريين الفينيقين ، وهم سكان بعض مدن الساحل السوري الممتد من صور إلى جنوبي إنطاكية ، وبرعوا في الملاحة وتجارة البحار وانتشروا على كل شواطئ البحر المتوسط وفي جزره حتى جعلوا منه بحق بحيرة عربية أخذ منهم الاسم ثلاث مرات: بحر أمورو، البحر السوري، والبحر الفينيقي.

من كل ما استعرضناه من نماذج لأقوال المؤرخين يمكننا أن نستخلص النتائج التالية :
أولا : إن أحدا من المؤرخين لم يعثر على أي دليل في المكتشفات الأثرية يمكن أن يشير إلى العرب السوريين الغربيين ككنعانيين ، بينما المكتشفات أشارت إلى أن أولئك السكان هم السوريون ، الذين يشكل الفينيقيون جزءا منهم وشغلوا بعض الساحل السوري الممتد من إنطاكية حتى جنوبي غزة .

ثانيا : إن بعض هؤلاء المؤرخين وجد نفسه يطلق هذا الاسم " بلاد كنعان " على سوريا

(1) R.B.Smith, " Carthage and the Carthaginians"

(2) Universal Jewish ene .Vol.H,P.103

و: فيليب حتي " تاريخ سوريا ومن ضمنها لبنان وفلسطين " الجزء 1 ، ص 116 .

بصورة آلية ، وتمشيا مع التيار التزويري التوراتي ، دون أن يجهد نفسه في السؤال : لماذا ؟

ثالثا : إن جميع المصادر اليهودية والصهيونية بوجه عام ، تصر على ربط جميع السكان السوريين بالتسميات العشائرية التوراتية في سعيها المحموم من أجل توظيفها في النزعة الاستعمارية للصهيونية الدولية المتحالفة مع الإمبريالية العالمية والسيطرة على الوطن العربي ، علما أن اليهودية دين وليس لها علاقة بأولئك العرب الأقدمين سواء بالنسب أو الجغرافيا . وإن هيروودوت الذي يعتبرونه في الغرب أبا التاريخ لم يذكر في تاريخه أيا من تلك العشائر التوراتية عند الحديث عن سكان المنطقة ، ولم يأن على ذكر أحد غير السوريين ، والعرب ، والفينيقيين الذين ذكر أنهم يسكنون سوريا . وأنه كثيرا ما كان يستخدم اسم "سوريا" كبديل لكلمة "آسيا" معتبرا أن عرب آسيا جميعا هم السوريون الذين يشغلون المنطقة الممتدة من المضائق شمالا إلى البحر الأحمر جنوبا ⁽¹⁾

رابعا : إن من الواضح أن أولئك المؤرخين لم تكن لتغيب عنهم مثل تلك التناقضات السافرة الصارخة كأن تكون فلسطين في الشرق وشرقي الأردن في الشمال (لودز) أو أن يكون السومريون هم القبائل الهمجية المتوحشة وهم صانعوا أول وأرقى حضارة في العالم (كريمر) معا ، لكنهم لم يتمكنوا من أن يتجاوزوا كونهم مؤرخين للحقبة الاستعمارية وأدوات فيها .

إنه ليس في وسعنا أن نتجاوز ظاهرة أخرى أملت بتاريخ العرب السوريين وهي نكران وجودهم كلية بعد أن بدأت تتكشف الحقائق عن مدى الزيف والتزوير في تفسير مدونات التوراة .

يقول الدكتور فيليب حتي في كتابه "تاريخ سوريا" فبصد حديثه عن الحوريين ما يلي :

"وقد بلغ من سعة انتشار الحوريين في سوريا في القرنين الخامس عشر والرابع عشر أن المصريين أخذوا يطلقون اسم "خورو" على بلاد كنعان ... والعديد الكبير من الألواح المكتشف في نوزي في القرن الخامس عشر قد كتبه باللغة الأكادية كتبة حوريون

(1) تاريخ هيروودوت ، ترجمة عن الفرنسية حبيب أفندي بسترس بيروت ، مطبعة القديس جورجيوس ، 1886 — 1887 ، المجلد الأول ص 160 ، 154 ، 113 .

استعملوا بعض كلمات حورية هنا وهناك ، وقد عرفت معاني هذه الكلمات في النص الأكادي الذي وجدت فيه ، وتلقي محفوظات نوزي ضوءا جديدا على طرق المعيشة في عهد أسلاف الشعب العبراني ، وإن كان هذا الأمر يبدو مستغربا ، من ذلك أن عقود الزواج في نوزي كانت تتطلب من الزوجة العاقر أن تزود زوجها بجارية تلد له أولادا والحوريون Horites المذكورون في العهد القديم الذين كانوا يعتبرون حتى فترة حديثة من القبائل الضئيلة الأهمية لم يكونوا سوى هؤلاء الحوريين (Hurrians) وقد اتضح أن ترجمة هذا الاسم بـ " ساكني الكهوف " هو ترجمة خاطئة ، وكان الحويون Hivites غالبا هم أنفسهم الحوريون ⁽¹⁾

خلطة مدهشة ! إننا ، إذ نكبر الدكتور حتي عن الوقوع في مثل هذه الكتابة التافهة المتنافرة ، وهو صاحب الفضل الكبير في تفتيح كثير من العيون المغمضة عن تاريخ سوريا ، فإننا نلمح أصابع أخرى خلف مثل هذه الكتابات ، تذكرنا بالتي ألمح إليها ول دورانت في مقدمة مؤلفه الضخم " قصة الحضارة " ⁽²⁾ إنها ظاهرة تدخل الأيدي الصهيونية في كل مؤلف يصدر في الخارج حول تاريخ المنطقة من أجل أن يمنح المؤلف جواز مرور إلى أن يصدر وينتشر .

إن المدهش في الأمر هو أنه حتى أولئك الذين اعتمدوا التوراة كأساس لكل علم في تاريخ المنطقة ، ومع كل ما يحمل هذا الأساس من الكذب والزيف في أساسه ، وفي ترجماته وفي شروحاته ، وفي الجغرافيا التي وضعها المزورون أنفسهم بناء على تزويراتهم ذاتها ، فإنهم ما ينفكون يجدون أنفسهم في مأزق كبيرة رغم كل شيء . إن كل الأباطيل التي نسجوها وروجوها وبنوا على أساسها علوما في الجغرافيا والتاريخ لم تتمكن من أن تسد عليهم كل الثغرات التي يمكن أن تهب منها الرياح في كل لحظة ، فتمزق خيوط نسيجهم ، وتقلب صروح ما بنوه على أسسها .

(1) فيليب حتي " تاريخ سوريا ومن ضمنها لبنان وفلسطين " الجزء 1 ص 164 ، 165 .

(2) لقد ألمح ول ديورانت إلى تدخل الصهاينة في ما كتب عن تاريخ المنطقة بصورة غير مباشرة حينما قال : " ولقد صحح الأستاذ هاري ولفسن في جامعة هارفرد بعض أخطاء الجزء الخاص بالدولة اليهودية " انظر : ول دورانت " قصة الحضارة " الجزء 1 ص/ى .

وهكذا نرى كيف أنهم يعتمدون مدونات التوراة في الوقت الذي يرونه مناسباً ويتغافلون عما فيها في الوقت الذي يرونه مناسباً أيضاً لإخفاء الحقيقة .

إن من يقرأ التوراة ويتمسك بمدوناتها لن يكون غافلاً بالتأكيد عما ذكرته التوراة عن الأمراء العرب الحوريين أبناء عيسو (أدوم) الذين نزلوا في المنطقة الجنوبية الغربية من شبه الجزيرة العربية ، " هؤلاء بنو عيسو هو أدوم وهؤلاء أمراؤهم بنو سعي الحوري سكان الأرض ، لوطان وشوبال وصبعون وعني وديشون وايسر وديشان ، هؤلاء أمراء الحوريين بنو سعي في أرض أدوم وكان ابنا لوطان حوري وهيمام ، وكانت تمناع أخت لوطان ، وهؤلاء بنو شوبال علوان ومناحة وعييال وشفوا وأونام ، وهذان ابنا صبعون أبي وعني ، هذا هو عني الذي وجد الحمائم في البرية إذ كان يرعى حمير صبعون أبيه ، وهذا ابن عني ديشون ، وأهوليامة هي بنت عني ، وهؤلاء بنو ديشان حمدان واشبان ويثران وكران ، هؤلاء بنو ايسر بلهان وزعوان وعقان هذان أبناء ديشان عوض وأران ، هؤلاء أمراء الحوريين ، أمير لوطان وأمير شوبال وأمير صبعون وأمير عني ، وأمير ديشون ايسر وأمير ديشان هؤلاء أمراء الحوريين بأمرائهم في أرض سعي " (1)

فهل بعد هذا ثمة مجال لنقل عشائر الحوريين أمراء بني سعي الحوري العربي من الجزء الجنوبي الغربي من شبه الجزيرة العربية إلى شمال سوريا ؟

لكننا لن نتجاوز هذا النص إلى غيره قبل أن نؤكد النقاط التالية :

أولا : إن الحوريين الموجودين في أرض كنعان إنما هم أبناء سعي الحوري قوم عرب ، سكنوا بعض جبال غامد من شبه جزيرة العرب وتحركوا في جنوبها .

ثانيا : وحينما يقول المؤرخون " وقد بلغ من سعة انتشار الحوريين في سوريا في القرنين الخامس عشر والرابع عشر أن المصريين أخذوا يطلقون اسم " خورو " على بلاد كنعان " فإن في ذلك تأكيداً على أمرين : الأول أن الحوريين المقصودين إنما هم أولئك العرب الحوريون أنفسهم ، والثاني أن أرض كنعان هي في جنوب شبه جزيرة العرب و (هذا سيكون موضوع كتابنا الثاني) .

أما كلمة " سوريا " الواردة هنا فهي نتيجة للخلط بينها وبين بلاد كنعان ، إذ ليس من المعقول أن يسيطر الحوريون على سوريا بعد أن سبق وتعرفنا على حقيقتهم العشائرية التاريخية في مدونات التوراة في وقت كانت الدولة البابلية والآشورية أعظم امبراطورية شهدها تاريخ العالم القديم .

ثالثاً : وحينما يقرر المؤلف بأن الحوريين هم أسلاف الشعب العبراني في الوقت الذي يعتبرهم هندو أوروبيين قادمين من وراء القفقاس فإن في ذلك ما يلفت النظر بصورة جديدة إلى فداحة وشدة المأزق الذي أقحمت فيه الصهيونية نفسها حينما تحاول الربط بين شتى الأكاذيب التي افتعلتها من أجل تشويه حقيقة تاريخ الشعب العربي السوري . فـ " الحوريون " إذن صاروا أسلافاً للعبرانيين ! ... لماذا ؟ .. لأن الزوجة العاقر كانت تزود زوجها بجارية تلد له أولاداً ! أليس هذا ما فعلته سارة مع إبراهيم ؟ إن المؤلف هنا لا يغفل عن الإشارة إلى المصدر التوراتي (تك ، 16 : 2-3) ، إن ذلك إن دلّ على شيء فإنما يدل على شدة إفلاس الصهيونية وأساسها من التاريخ .

لقد اشتتهر العرب منذ بدايات وجودهم بتقديسهم للخصب ، وكان فهمهم للحياة سواء في الطبيعة أو المجتمع على أنها صراع دائم بين الحياة والموت تنتصر فيها الحياة دائماً عن طريق تجدها بفعل قوة الخصب الكامنة في الطبيعة ، ومن هنا كانت نظرهم للنسل والذرية كجزء من نظرهم العامة إلى الحياة بمضمونها المقدس ، ومن هنا فقد انتشرت عادة كسر طوق العقم بأية صورة إما عن طريق تدخل البشر (كأن تمنح الزوجة زوجها جارية تنجب له نسلأ ، أو تمنح نفسها لأول عابر سبيل أو راغب بها في معبد عشتار يوم عيد عشتار قطعاً لدابر أي عقم قد يأتي من جانب الزوج) ، أو عن طريق تدخل "الآلهة" مباشرة ، أو بواسطة " ملائكة الرب " التي تحفل بها قصص العرب البابليين والعموريين والآراميين في الزمن القديم . فليس ، بعد هذا ، يبقى انتشار مثل هذه العادة بين العرب الحوريين في غرب شبه جزيرة العرب من الأمور المستغربة ... وإذا كان بعض ما يشير إلى ذلك قد حفظ في وثائق نوزي ، فقد كان من السهل على المؤلف تفسير سبب ذلك بعد أن كان قد ذكر هو نفسه ، وفي بداية الصفحة ذاتها ، أن من

" أقدم وثائقها (اللغة الحورية الميتانية) هي ست ألواح دينية من ماري ، وألواح قليلة أخرى من الألخ (تل العطشانة) في سهل إنطاكية، وقد بنيت المؤسسة الحورية في الألخ على مؤسسة أمورية سبقتها ، وترجع هذه الألواح إلى نحو أربعمئة سنة قبل المواد الحورية التي وجدت في بوغازكوي ⁽¹⁾ فإذا كانت ماري والألخ قد احتفظتا بوثائق تحكي بعض العادات والتقاليد العربية الأمورية ، فإن ذلك سوف يعبر — لاشك — عن تقاليد شعب واحد يشغل المنطقة الممتدة من شمال الفرات إلى جبال البحر الأحمر وبحر العرب جنوبا ، ومن زغروس شرقا إلى البحر المتوسط غربا وليس إقحام تسمية الحورين على الشمال السوري سوى تزوير .

رابعا : أما قوله والحوريون Horites المذكورون في العهد القديم الذي كانوا يعتبرون حتى فترة حديثة من القبائل الضئيلة الأهمية لم يكونوا سوى هؤلاء الحورين Hurrians ، وقد اتضح أن ترجمة هذا الاسم بـ " ساكني الكهوف " هي ترجمة خاطئة ، فإن ذلك هو الخطأ عينه . إن من المعروف أن الحورين العرب كانوا يتوزعون بين جبال سعيّر شرقي البحر الأحمر ، ولقد كانت هذه الجبال منذ الزمن السحيق وحتى اليوم تعج باللصوص والقتلة والفارين من وجه العدالة ، لما تحوي من كهوف ومغاور من جهة ، ولمنعها من جهة ثانية ، وسوف نتعرض إلى تفصيل ذلك عند الحديث عن خروج جماعة موسى من مصر إلى أرض كنعان التي هي في بلاد غامد وزهران ، حيث خصص لكل عشيرة " مدينة ملجأ " يهرب إليها القاتل أو المجرم أو الفار من وجه العدالة ⁽²⁾ ، و " المدن الملاجئ " لم تكن غير تلك الكهوف الصخرية في جبال السراة . أما من الناحية اللغوية فإن الكلمة هي من " حورا " التي تعني في القاموس السرياني " المغارة ، وحوريون بالسريانية ساكن المغارة ، ومنها كلمة " حوارري " و " حواريون " بالفصحى أي الرهبان سكان المغاور .

(1) فيليب حتي " تاريخ سوريا " ومن ضمنها لبنان وفلسطين الجزء 1 ص 164 .

(2) " وكلم الرب موسى قائلا : كلم بني إسرائيل وقل لهم إنكم عابرون الأردن إلى أرض كنعان فتعينون لأنفسكم مدنا تكون مدن ملجأ لكم ليهرب إليها القاتل الذي قتل نفسا سهوا ، فتكون لكم المدن ملجأ من الولي لكيلا يموت القاتل " (عدد 35 : 9-12) .

خامسا : أما أن يكون الحويون هم أنفسهم الحوريون ، فهذا أمر تجيب عنه مدونات التوراة ذاتها . وما انطبق في حديثنا عن الحورين ينطبق على الحوين ثم على الحثيين أيضا ، فقد جاء في التوراة : " وكنعان ولد صيدون بكره ، وحثا ، واليوسى ، والأمورى ، والجرحاشي ، والحوي ، والعرقى ، والسني ، والأروادي ، والصماري ، والحمي ، وبعد ذلك تفرقت قبائل الكنعاني ، وكانت تخوم الكنعاني في صيدون حينما تجئ نحو جرار إلى غزة ، وحينما تجئ نحو سدوم وعمورة وأدمة وصوبيم إلى الأشع ، هؤلاء بنو حام حسب قبائلهم كألستهم بأراضيهم وأمهم " (1)

فالحويون والحثيون هم بنو حو وبنو حث الكنعانيين على الساحل الشرقي الجنوبي للبحر الأحمر ، أي هم أسرتان أو عشيرتان من أبناء كنعان بن حام بن نوح . أما تفاصيل أسماء القبائل والمواضع المتبقية فسوف نعالجها في حينها .

ولنتابع الآن أقوال أولئك المؤرخين الاستعماريين الذين ينقل عنهم فيليب حتي أمثال كارلتون كون ، ووليم شانكلين ، وكارل سيلتزر وغيرهم ، لنقرأ معا :

" ويعتقد أن الحورين هم الذين أعطوا الآشوريين تلك الملامح التي تميزهم عن أبناء عمهم الساميين في الجنوب ، أي البابليين ، واللامح السامية المزعومة التي يتصف بها اليهود هي بالحقيقة حثية حورية ، وبعد الفتح الحثي لميتاني أصبحوا مشمولين باسم " حثي " المبهم . وفي شرقي سوريا امتص الآراميون بقايا الحورين . وتوجد قرب زحلة في لبنان قرية تسمى الفرزل ، وتحفظ بالكلمة التي معناها الحديد Brzl وترد في نص من رأس الشمرة . ولا يزال النوع السائد حتى اليوم بين اللبنانيين من موارنة ودروز هو النوع ذو الرأس القصير العريض حسب نتائج الأبحاث الانتروبولوجية ، وينطبق الأمر نفسه على النصرية في شمال غربي سوريا ويختلف ذلك اختلافا عن النموذج الطويل الرأس الذي يسود بين البدو في بادية الشام وبين سكان الجزيرة العربية (2)

(1) Carl C.Seletzer ,((the Racial Characterisities of Syrians and armenians)) PP.10seq .

(2) Carleton s. Coon , ((the Races of Europe)) PP.632 –642 .

و : فيليب حتي ، " تاريخ سوريا ومن ضمنها لبنان وفلسطين " الجزء 1 ، ص 165 .

في هذا النص يمكن أن نحدد النقاط التالية :

أولا : إن ادعاء اليهود الصهاينة بالانتماء إلى السامية ليس إلا ذريعة استعمارية يمتطونها للوصول إلى المنطقة .

ثانيا : إن هذا الادعاء سرعان ما يتخلون عنه هم أنفسهم من أجل تمرير خيط آخر فتصبح " الملامح السامية التي يتصف بها اليهود " ملامح " مزعومة " وليست في الحقيقة إلا ملامح " حثية حورية " . لقد أصبح الحوريون ، إذن ، أسلافا للعبرانيين وأورثوهم ملامحهم " ، ولكن كيف ؟ لابد أن يكون ذلك من خلال إبراهيم نفسه الذي يدعون الانتماء بالنسب إليه ، قبل رحيله من حران ، التي زعموا أنها الواقعة في شمال سوريا ، إلى أرض كنعان حسب ما تسرده التوراة . لكننا ، إذا ما سلطنا ، وحسب أقوالهم هم ، بأن الميتانيين (الحوريين) غزوا شمال سوريا وأسسوا " مملكتهم " في القرن الخامس عشر ، وقضي عليها في القرن الرابع عشر ، بينما تشير مصادرهم ذاتها إلى تاريخ هجرة إبراهيم من حران في القرن العشرين أو التاسع عشر ، فكيف حدث ذلك التأثير الحوري المزعوم إذن قبل وجود الحوريين بعدة قرون ؟ ولو أننا افترضنا جدلا أن " ميتانيي " القرن الخامس عشر حكموا مصر لا وادي الفرات الأعلى ، واجتمعوا بجماعة موسى هناك طيلة فترة حكم مملكتهم المزعومة (أي حوالي قرن من الزمن) فإن ذلك لن يكون كافيا لمنح قوم موسى ذلك الشرف الميتاني — الحثي " ، ويورثهم ملامح آباء حثيين أو ميتانيين من الجنس الهند أوروبي المختلق .

وعلى أية حال فإن انتماءهم إلى الميتانيين أو الحثيين ليس أبعد من انتمائهم إلى قوم إبراهيم العرب ، ولن يزيدهم انتماءهم إلى الدين اليهودي قربا من النسب العربي إلى إبراهيم إلا كما يقرب الإسلام أبناء الصين وأندونيسيا والفيليبين من الانتساب بالحث إلى محمد بن عبد الله .

ثالثا : لكن الأمر لا يقف بنا عند هذا الحد وحسب ، بل فجأة أخذت تطل علينا النزعات العنصرية والاستعمارية الكامنة خلف كل هذه المساعي والدراسات . لقد وضعت على الرف ، وعلى حين غرة ، كل النظريات الحديثة في علم التاريخ التي تبنتها

البشرية بعد أن أسقطت من حسابها كل النظريات العرقية في دراسة هذا التاريخ لتطلع علينا بأبحاث انثروبولوجية مزعومة عن سكان المنطقة المعاصرين ، والتي لا يلجأ إليها اليوم إلا العرقيون العنصريون ، أصحاب النزعات الاستعمارية .

لنتأمل جيداً هذا الدرك الذي انحط إليه مزورو التاريخ من أجل تمرير المشاريع الاستعمارية — الصهيونية في المنطقة ، وكأن المذاهب الدينية تغير السحنة ، وشكل الرأس والجمجمة ، وربما ، قريباً ، سوف تترك الأحزاب السياسية آثارها هي الأخرى على أشكال الجماجم وسحن كل الأفراد بصورة تجعلك تميز الانتماءات من قصر الجماجم أو من طولها لدى جميع الناس ! كل هذا من أجل جعل اليهودية قومية لا ديناً .

رابعاً : لقد أخذ بعض الدارسين العرب ، نتيجة لعملية الخلط بين الحوريين العرب من أقصى الجنوب وقبائل القفقاسيين في أقصى الشمال ، يعممون مرادفات الشماليين على الجنوبيين أيضاً . فالأمراء الحوريون العرب في سراقا شبه جزيرة العرب ، الذين اشتركوا في الزحف على أرض المصريين في جنوب زهران فترة طويلة من العاصمة أفليس (أوار) ، وأطلق عليهم اسم الهكسوس ، يتحولون إلى قفقازيين . فكما شاع الخطأ الكبير والفادح في الخلط بين أرض كنعان في الجنوب من جزيرة العرب وفينيقي (الساحل السوري على المتوسط) ، صار هذا الخلط بين العرب الحوريين في المرتفعات الشمالية لبلاد غامد غرب شبه جزيرة العرب والقبائل القفقاسية في أقصى الشمال الشرقي من سوريا والعراق . ولم ينبج الأستاذ أسد الأشقر من هذا الخطأ الفادح ، إذ نجد في كتابه " الخطوط الكبرى في تاريخ سوريا ونشوء العالم العربي " : " وقد وضع الفرعون أحمس الأول ، مؤسس السلالة الثامنة عشرة حداً نهائياً لسيطرة الهيكسوس ، ولما قهرهم في معارك " أفاريس " الفاصلة ، ردهم إلى الساحل السوري ، وتابع زحفه فأخضع فينيقياً ، ثم تابع تحوتمس الثالث (1503 — 1449 ق.م) مخطط أسلافه ، وبعد انتصاره على الكنعانيين في مجدو ، أذعن له القسم الأكبر من المدن الفينيقية ، ولم تقاومه إلا سيميرا وأرواد ، فأخذتا عنوة ، وأمست فينيقياً دويلات تابعة لمصر .

" لم يبق من أثر الهيكسوس في سوريا ، بعد هزيمتهم في مصر ، إلا مملكة ميتاني التي أقاموها في أقصى الشمال ، والميتانيون الحوريون هم من الأقوام التي انضمت إلى الهيكسوس في حملتهم على الساحل السوري ، وعلى مصر"⁽¹⁾

فكيف غاب عن المؤلف مثل هذا التناقض: أحس يقهر الهيكسوس في عاصمتهم أفارس على الدلتا ، ويردهم إلى الساحل السوري ، ويتابع زحفه وراءهم ، ويخضع فينيقيا . وفينيقيا ، كما هو معلوم ، تمتد من جنوب صور إلى إنطاكية ، لقد وقع في خطأ المترادفات الشائعة القائمة على أساس " جغرافيا التوراة " المزورة ، فاستبدل الساحل السوري تلقائيا بأرض كنعان علما أن أرض كنعان هي في جزيرة العرب كما عاد واستخدم كلمة " فينيقيا " كمرادف ثالث لها ، فكيف يكون الفرعون أحس قد أخضع فينيقيا (أي الساحل السوري اللبناني كله اليوم) قبل أن يمر بـ " مجدو " التي من المفروض أنها في فلسطين ؟ ثم يأتي خلفه تحوتمس الثالث ويخوض معركة مجدو مع الكنعانيين فيخضع له " القسم الأكبر من المدن الفينيقية " !

فمن هم سكان المنطقة الغربية من الوطن العربي السوري ؟

(1) أسد الأشقر - " الخطوط الكبرى في تاريخ سوريا ونشوء العالم العربي " القسم الأول ، الجزء 1 ، ص 158 .

الفصل الخامس

الوطن العربي السوري

الأماوريون

كنا قد أسلفنا عند الحديث عن ما دعي بـ " الهجرات السامية " إلى أن هذا المصطلح الحديث الدخيل ينافي العلم والمنطق ، ويناقض وجه الواقع والحقيقة ، ويوقع الباحث في مجموعة من الأخطاء الفادحة في فهم تاريخ الشعب العربي والمنطقة العربية .

ولقد بينا كيف أنه ما من سبب على الإطلاق يمكن أن يدفع بموجه بشرية عارمة كل ألف عام من شبه جزيرة العرب إلى مناطق الهلال الخصيب ، فتحتل مواقع ، وتسقط دولا ، وتقيم على أنقاضها حضارة جديدة . وشرحنا كيف أن حركة المجموعات السكانية العربية إنما كانت تتم على شكل " جولان " وليس في شكل " موجات مهاجرة " . والجولان هو تحرك الشعب الواحد في أرضه مما ثبت وحدة الأرض والشعب واللغة والتاريخ . ولما لم يكن هذا الجولان يحمل في معناه اتجاها محددًا أو تجمعًا سكانيًا بالذات فقد كان ذلك من الأسباب الأساسية التي جعلت العرب يتجاوزون بشكل مبكر مرحلة القبيلة إلى الشعب في تطورهم التاريخي . وإن الأسماء التي أطلقت على السدول التي أقيمت منذ بدء التاريخ وحتى القرن الأول قبل الميلاد كانت أكبر دليل على ذلك . فلا السومريون كانوا قبيلة ، كما لم تكن دول الأكاديين ، والبابليين ، والابلايين ، والآشوريين ، والفينيقيين والقرطاجيين والأنباط ، والتدمريين دولا لقبائل أيضا .

وحينما تحدثنا عن وجود وانتشار قبيلة عربية تعتبر حديثة هي قبيلة عذرة ، على الأرض العربية اليوم ، وفي شيء من التفصيل ، فإن ذلك لم يكن إلا لإظهار حقيقة وجود القبائل العربية المتداخلة قبلًا من جهة ، والمتشابكة تطوريا ، من جهة أخرى ، إذ إن في القبيلة جميع الأنماط المعيشية للسكان من رعاة الإبل أصحاب الجولان البعيد والأمدية البعيدة

، إلى رعاية الأغنام إلى البدو أنصاف المستقرين ، إلى المستقرين الزراعيين ، إلى العاملين بالتجارة ، إلى الحكام وأصحاب الشأن وبناء المدن والأرياف وملوك الدول . وعلى هذا الأساس من الفهم وحده يمكننا أن نتحدث عن القبائل أو السكان في الوطن العربي ، وشكل حركتهم وتواجدهم .

فإذا كان الباحثون قد اعتبروا أن الأموريين هم سكان المنطقة الغربية من سوريا ، أكان ذلك استنتاجا من دلالة التسمية ، أو نسبة إلى جدهم القدم إله الحرب والصيد ⁽¹⁾ ، فإن ذلك لم يكن ليعني بأية حال أن تواجد الأموريين كان مقتصرًا على المنطقة الغربية من سوريا ، وإنما شمل الوطن العربي السوري بجميع مناطقه وأقاليمه من حدود عيلام شرقًا ومرورا بسومر ، وحوض الفرات الأوسط (بابل وأكاد) وحوض الفرات الأعلى (ماري) ، إلى حوض قونيا شمال مرسين ، إلى سوريا المخوفة (عبالا — إيبلا) وحلبو (حلب) إلى أوغاريت ، وعمريت ، وجبيل ، وصيدا ، وصور ، ودمشق ، وأريحا ، إلى الشواطئ الشرقية للبحر الأحمر وغرب شبه الجزيرة العربية إلى دلتا النيل ومنه غربًا على امتداد الشمال الإفريقي كله ، وبكلمة : إنهم يكادون يكونون السكان الأصليين للوطن العربي السوري القدم الذي يشمل اطراف شبه جزيرة العرب والهلال السوري الخصيب وشمال إفريقيا . فدعي البحر الأبيض المتوسط " بحر أمورو " ، ويمكن القول إنهم والسوريين أو السريان Syrians شبيء واحد .

الأموريون في سومر — اللغة والكتابة

لقد وجدت حضارة زراعية في جنوب الرافدين منذ 5500 ق.م وتطورت خلال آلاف السنين ، وتردد الباحثون كثيرا في إعطاء هوية لأصحابها قبل عهد الكتابة ، لأن الهوية لغوية ثقافية وليست عنصرية أو عرقية.

ولما كانت بداية العلاقات الكتابية هي علامات حسابية خاصة بقيود الكنهة ، من صادر ووارد إلى المعابد ، في الجناح العربي السوري الشرقي (سومر) وبحسابات التجار

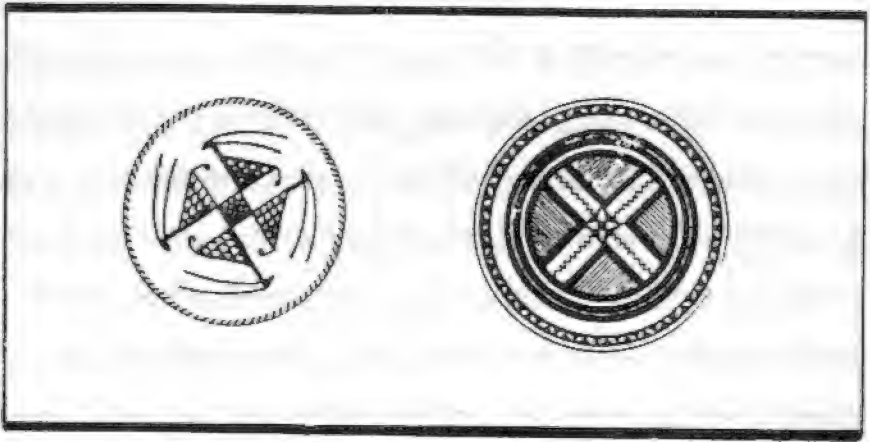
(1) انظر : فليب حتي " تاريخ سوريا ومن ضمنها لبنان وفلسطين " الجزء 1 ص 70

العرب السوريين في الغرب قبل الألف الرابع قبل الميلاد ، فقد تطورت هذه العلاقات فيما بعد إلى صور ورسوم معقدة لأشخاص في أوضاع وحركات معينة ، ولطيور وحيوانات أخرى ، ثم ما لبثت أن اختصرت هذه الصور إلى خطوط بسيطة ترمز إليها كما ترمز إلى أفكار معينة .

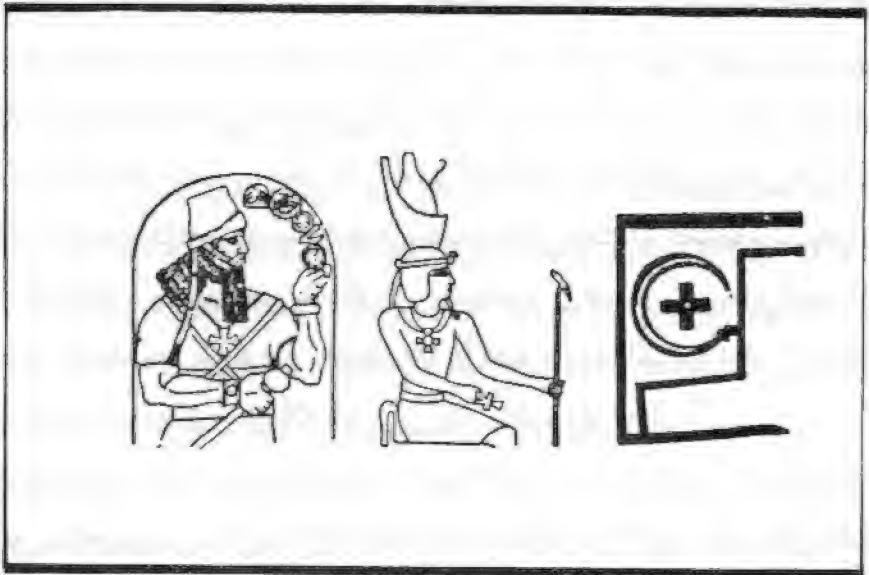
وكانت آخر مرحلة تطورت إليها الكتابة ما قبل الأحرف الأبجدية هي الكتابة المقطعية المسمارية في القسم الشرقي من الوطن العربي السوري ، في سومر . لقد صارت الفكرة أو الكلمة توجز في مقطع لفظي ، أو مقاطع ، وضعها رجال المعبد وتعارفوا عليها فيما بينهم ، كما تعارفوا على رسمها (أي كتابتها) ، وأخذوا يستخدمونها في حساباتهم كما صاروا يستخدمونها في صلواتهم وعبادتهم ، وذلك في مرحلة نشوء الطبقات في المجتمع السوري . إن الموظفين والقائمين على المعابد ، الذين كانوا في البدء يقومون بوظائف محددة في مؤسسة اجتماعية عامة ، اعتبرها بعض المؤرخين نوعا من الاشتراكية الدينية الأولى ، أخذوا يثرون على حساب جهود الآخرين ، ثم ما لبثوا أن شعروا بالحاجة إلى إقامة حواجز وظيفية دينية تميزهم عن بقية أفراد الشعب ، وتقرهم من الآلهة ، مما يضمني على تميزهم في الثروة طابع المشروعية . وهنا ظهرت الحاجة إلى تلك الرموز السرية الخاصة التي أخذوا يسجلون بها الحسابات ، كما يتلون بها الصلوات ، مما يجعل تلك الوظائف حكرا على فئة معينة من الناس يتوارثونها جيلا بعد جيل ويكرس ، بالتالي ، الطبقية ونمو النظام الطبقي في المجتمع .



الصلب رمز الخصب والزوجة رمز القدرة الإخصابية الكونية الأولى
فخاريات سامراء الألف الخامس قبل الميلاد



تصوير طبيعي ، الانتقال من التصوير الطبيعي إلى التجريد



الصليب رمز الخصب يحل محل الطفل ، من اليسار إلى اليمين :

بابل ، مصر ، عيلام

لكن هذا لم يكن ليعني ، بأية حال ، أن عموم السكان في المجتمع السومري تخلوا عن لغتهم العربية المحلية وأخذوا يتكلمون بتلك الرموز المبتكرة ، بل على العكس من هذا ، فقد بقيت العربية بلهجتيها الرئيسيتين : السريانية والعرباء التي هي الفصحى هي لغة التخاطب اليومية ، وبقي استخدام تلك الرموز الصوتية — الكتابة المبتكرة منحصرًا في نطاق المعابد والموظفين القائمين عليها سواء من الناحية الاقتصادية ، أو الدينية ، أو الثقافية . ولما كانت مهمة تسجيل الأحداث اليومية منوطة بأولئك الموظفين فقد كان من الطبيعي أن يعثر على جميع سجلات ذلك الزمن ، التي سلمت من التلف أو الضياع ، في أروقة المعابد ومستودعاتها مسجلة بتلك الرموز التي سرعان ما اعتبرها الدارسون والمؤرخون لغة قائمة بذاتها لشعب آخر . وطبيعي ، بعد هذا ، أن تنشأ المدارس الخاصة الملحقة بالمعابد ، وأن ينتقي طلبتها من بين أبناء القائمين عليها لتعليم أساليب فن الكتابة بتلك العلامات التي كانت كل علامة فيها ترمز إلى كلمة ، أو كلمات ، أو مقطع ، أو مجموعة مقاطع ، وهكذا بدأ " تعليم أساليب فن الكتابة في المعبد عن طريق مدارس تعلم فيها الكتابة بالاستعانة بقوائم لكلمات تعطى للمبتدئين لتعلمها ونسخها . ومن هذه القوائم عشر على نص يعود إلى دور حمدة نصر في شمال بابل أيضا ، واستمر استعماله مدة طويلة حتى عهد السلالة الأكادية . وهذه القوائم تشكل " أوائل كتب التعليم المعروفة في كافة بلاد بابل وفي عيلام وآشور وفي العالم " ⁽¹⁾

إن السومريين ، إذن ، وكذلك سكان مناطق بابل وآشور وعيلام ، كانوا قبل فجر التاريخ وأثناءه وبعده ، يتكلمون لغة واحدة . أما " اللغة " في شكلها المكتوب فلم تكن غير نوع من " الشيفرة " بالمفهوم الحديث ، بل إنها أول " شيفرة " قد يكون ابتكرها الإنسان في التاريخ . إنه لمن المعلوم أن جميع الدول اليوم تستخدم لغة كتابية وبرقية مرموزة في مراسلاتها الدبلوماسية والسرية ، لا يعرفها أو يطلع عليها غير أصحاب الشأن فيها ، لكن ذلك ليس يعني أبداً أن شعبا ما جديدا يكون قد أحدث مع اللغة " الشيفرة " .

ولما كانت تلك " اللغة المكتوبة " قد استخدمت في أوساط اجتماعية خاصة ومعينة ، فقد كان لابد من أن تكتسب طابعها الطبقي المميز ، كما لابد وأن يسبغ عليها طابع القدسية لعلاقتها بالمعابد والصلاة ورجال الدين والآلهة ، وبالتالي فقد كان لابد للحاكم أو الملك من أن يتخذ لنفسه لقباً قدسياً يميزاً بتلك الرموز المستحدثة ، كما أن ذلك كله ما كان ليمنع تسرب بعض كلماتها أو رموزها إلى صفوف العامة الذين لابد وأن يتعاملوا مباشرة مع رجال المعبد ، ويقدموا لهم منتوج الأرض التي يملكها وفقاً عليه ، ويأخذوا منهم نصيبهم .

إن هذه الظاهرة هي التي وقف عندها الدارسون دون أن يحاولوا فهمها ، ربما لعدم الرغبة في فهمها وتوضيحها ، ككون ذلك يساعد على كشف وحدة الشعب العربي اللغوية والثقافية منذ ما قبل فجر التاريخ وحتى اليوم .

لكن ذلك الشعب الذي أسميناه تارة سومريا ، وتارة أخرى أكاديا أو بابليا ، والذي ميزناه حسب لهجته اللغوية ، فيما سلف من كتابنا ، إلى سرياني جبلي وزراعي ، وإلى أموري ، وإلى عربي بدوي (في الأرض البادية ، أي السهبية الظاهرة) ، كان لابد وأن يتميز بشيء آخر يجمع فيما بين فصائله ، خاصة وأنه كان قد تجاوز مرحلة القبيلة في تطوره إلى مرحلة الشعب منذ بدء التاريخ على الأقل . هذا الشيء الآخر لابد وأنه كان يحمله معه ، ويعيشه ضمناً في جولانه واستقراره ، في باديته وفي حواضره ومدنه ، فيجعل الناس ينجذبون بعضهم إلى بعض في صورة تفاعلية تكاملية ، لا صراعية تدميرية ، إنه الشيء الذي تجلّى في كل مراحل الصراع في المنطقة ضد الغزاة ، وإنه الشيء الذي حافظ على بقاء الشعب الأصيل على الأرض وجلا كل الغزاة عنها ، إنه الشيء — الرابطة التي كانت تربط أولئك الناس بعضهم إلى بعض ، وتربطهم جميعاً بالأرض التي تمكنوا دائماً من حمايتها والاحتفاظ بها .

فهل يعني هذا أن أولئك السومريين والأكاديين والبابليين والعيلاميين والآشوريين ، والأموريين والسريان والآراميين ، والفينيقيين ، والكنعانيين ، لم يكونوا إلا أسماء متعددة لشعب واحد ؟

كنا قد أشرنا إلى أن اللغة المكتوبة هي الدليل المادي الأهم الذي يعتمد في تحديد هوية الشعب . ولما كانت كل مدونات السومريين هي باللغة الكتابية الرمزية التي ابتدعها رجال المعابد ، فإن ما وصلنا عن السومريين بقي رهن تلك الأشكال الرمزية التي تختلف اختلافا جذريا عن الكتابة بالأحرف الأبجدية التي ابتدعها أشقاؤهم في الغرب على ساحل المتوسط . ولما كانت الكتابة السومرية الرمزية المقطعية الملصقة لا تعبر عن أصوات الكلمات في اللغة ، بل تعبر عن مجموعة أصوات بصوت واحد وعلامة واحدة ، فقد كان يستحيل إيجاد التشابه اللفظي بينها وبين اللغة المحكية ما عدا بعض الكلمات القليلة أو الكثيرة ، التي تتسرب من واحدة إلى أخرى بفعل المعاشة اليومية بين جميع فئات السكان وطبقاتهم .

وبالرغم من أن الكتابة بقيت شأنا من شؤون المعبد وحده بهيتها الرمزية السرية لفترة طويلة . قبل ظهور الكتابة الأبجدية ، فقد بقي المؤرخون يصرون على اعتبار هذه الكتابة " الشيفرة " هوية لشعب غريب ، لجنس لا يمت إلى العرب بصلة .

يقول الدكتور هشام الصفدي في كتابه " تاريخ الشرق القديم " : " أما نشوء الكتابة السومرية فإنه يدين إلى المعبد ، الذي تطلبت العمليات الاقتصادية التي كان يمارسها تثبيت المعاملات الواسعة والعقود ، رغبة في تنظيم العمل . وفي الحقبة تم العثور على أقدم الرقم الفخارية في نطاق أبنية المعبد كلية مما يدل على أن هذه الرقم كانت مجرد وثائق اقتصادية الطابع . وهذا ما يؤيده محتوى الرقم نفسها ، وبالتالي يمكننا أن نستنتج أن الكتابة وجدت في بدايتها لخدمة مصالح المعبد السومري الاقتصادية . ويتضح أيضا أن الكتابة كانت على ما يبدو ، غير ضرورية لغير هذه الحاجات ، أي أنها لم تكن لازمة خارج اقتصاد المعبد " (1)

لكنه ، ورغم تأكيد هذه الحقيقة التي تجعل تلك " اللغة الكتابية " محصورة في إطار المعبد الضيق وحده ، لم ينتبه إلى أن ذلك كان كافيا لتفسير وجود لغة " أخرى " غير السامية في سومر ، لأن " اللغة السامية الأكادية " المحكية لم تظهر إلا من خلال

(1) الدكتور هشام الصفدي ، " تاريخ الشرق القديم " الجزء 1 ، ص 130 .

مدوناتها بعد ابتكار الأبجدية ، ولا يمكن لغير الأبجدية أن يعكس أصوات اللغة المحكية كما هي ، بل نراه يقع ، كما وقع غيره ، في خطأ افتراض وجود شعب آخر في سومر ، ينتمي إلى عرق آخر لا علاقة له بالعرب ، حيث يقول : " إن هذه الحقيقة لا تعني بأن هذا الشعب (السومري) كان يعيش آنذاك بمفرده في المنطقة ، أولاً توجد إلى جواره مجموعات عرقية أخرى ، بل يجب علينا أن نتوقع وجود مستوطنين آخرين يتكلمون لغة سامية ، نعرف عليهم عن طريق بعض الكلمات القديمة التي استعارتها اللغة السومرية ، وإذا التفتنا بأبصارنا إلى بلاد بابل لوجدنا أن التقاء السومريين والساميين على أرض هذه المنطقة قد أدى — كما هي الحال دوماً في لقاء شعبين ولغتين مختلفتين — إلى تبادل استعارة الكلمات، وفي هذا المقام بقيت اللغة السومرية بالارباب الطرف الأكثر عطاء ⁽¹⁾ لقد عرضنا هذا القول كنموذج لأقوال كل المؤرخين العرب الذين أخذوا ما كتبه المؤرخون الأجانب عن السومريين بدون أن يمنحهم حقهم من الدراسة والتمحيص . وكنا في حديثنا عن السومريين قد فندنا الادعاءات القائلة بأن السومريين ليسوا عرباً ، أما ما يهمننا هنا فهو تسليط الضوء على ذلك الشعب الذي شارك السومريين أرضهم ، كما ذكر أولئك المؤرخون ، وأطلقوا عليه اسم " الشعب السامي "

إذا كانت اللغة في فجر التاريخ لم تسجل لنا شواهد على وحدة ثقافة الشعب الذي سكن مناطق سومر ، عيلام ، وبابل ، وأكاد ، وآشور ، قبل اختراع الكتابة ، فإن شواهد أخرى تركها إنسان ذلك الزمن لا تقل في أهميتها عن الكتابة بكثير ، وقد مررنا على بعض منها :

1 — ذلك التشابه في بناء المعابد بين منطقة سومر وحوض الفرات الأعلى منذ عصر ثقافة العبيد (قبل فجر التاريخ) مما جعل المؤرخين في حيرة من أمرهم إزاء تحديد من الذي نقل فن بناء تلك المعابد إلى الآخر : الجنوب أم الشمال ، وهذا ما يؤكد المسيرة الثقافية الواحدة لذلك الشعب منذ تلك العصور السحيقة الموهلة في القدم .

يقول الدكتور هشام الصفدي : " أما الإنجاز الضخم الذي أرسيت نواته في دور العبيد الباكر في الشمال ، فإنه يتمثل في المباني العامة الضخمة المخصصة للعبادة ، وتتميز المعابد بمخطط هندسي فريد ، يتألف البناء بموجبه من ثلاثة عناصر : قاعة مركزية ، يحيط بها من الجانبين عدد من الغرف الفرعية (المعبد الشمالي) ، وسنرى أن هذا المخطط يشابه مخطط المعابد المبنية في الجنوب ، وخاصة معابد السويات الثمانية في مدينة أريدو . وبرغم اختلاف الآثارين حول أصل هذا المخطط الهندسي في عمارة الشرق القديم ، ومدى تأثير المنطقة الشمالية على الجنوبية في تنفيذه ، وفي ذلك تضارب مع الرأي القائل بأن إشعاع ثقافة العبيد اتجه من الجنوب إلى الشمال ، يميل الأستاذ هينريش في دراسته الشاملة لتطور العمارة الشرقية إلى اعتبار معابد تبه جورا ، بمخططاتها وتصميم جدرانها المستمد من فن بناء البيوت الخشبية ، إنجازا معماريا فريدا أثر على فن العمارة الرافدية في الجنوب ، وشكل النماذج الأولية التي قادتها معابد الوركاء السومرية في مرحلة فجر التاريخ " (1)

2 — ولم تقتصر سهول الجنوب الرافدي على تقديم أراض خصبة أمنت إنتاجا وفيرا في المحاصيل الزراعية ، ساهم بدوره في تزايد عدد سكان المنطقة ، وفي اتساع مستوطناتهم منذ النصف الثاني من الألف الخامس قبل الميلاد ، بل تتابع مدن الجنوب تمثّل وتطوّر عناصر حضارية اكتشفت مخلفاتها سابقا في مناطق الشمال الرافدي . وكما تقدم ، لم تقتصر المؤثرات على ميدان العمارة عامة ، والعمارة الدينية خاصة ، التي لم تعبر فقط عن أفكار محددة حول مبادئ بناء بيوت العبادة ، وعن العلاقة المستمرة الوثيقة بين الآلهة والبشر ، بل شملت مجالات أخرى كالفنون والصناعات . فهناك الاختتام المسطحة ومواضيع الصور المنقوشة عليها ، والمراوات الحجرية ، والقلادات والتمائم ، وتقنيات وزخارف الأواني الفخارية ، يضاف إلى ذلك أفكار دينية رئيسية كموضوع الخصب والتكاثر التي عبر عنها في دمي طينية مثل الإلهة الأم وفق أوضاع ستصبح تقليدية لقرون عديدة ، كوضع اليدين تحت الثديين ، وإظهار الخصائص الأنثوية ... الخ ، وتكاد هذه

العناصر تشكل تراثا مشتركا شمل المنطقة منذ أواخر النيوليتي ، وانتقلت عناصره وتطورت عبر ثقافات الكالكوليتي ، (حسونة — سامراء — تل حلف — العبيد) وهذه الحقيقة تؤيد ، من جهة ، ما توصلت إليه الدراسات الجغرافية — التاريخية حول احتمال وجود مستوطنات في الجنوب الرافدي معاصرة لنظائرها الكالكوليتية في الشمال ، وتنفي ، من جهة أخرى ، الرأي القائل بأن مبادئ التحضر وفنون العمارة والتصوير والتشخيص أرسيت أسسها في مدن الجنوب الرافدي في النصف الأول من الألف الثالث قبل الميلاد ، وانتشرت إشعاعاتها من هناك لتؤثر في مناطق واسعة من عالم الشرق العربي القديم .

3 — تتميز الرقم الطينية المخففة بأنها تحمل علامات تمثل أرقاما حسابية تشابه نظائرها المكتشفة في تل حوبة مثلما تشبه الرقم المكتشفة في الوركاء والمزودة أيضا بطبعات ختم إسطواني . وعلى الرغم من أنه لم تحدد ماهية البضائع التي تشير إليها العلامات الحسابية المدونة على الرقيم فإن هذه العلامات كانت بمثابة المرحلة الأولى من اختراع الكتابة . وهذا يعني أن المنطقة السورية ، من الفرات الأعلى ، إلى الأوسط ، إلى الجنوب ، كانت تشكل وحدة ثقافية كتابية في المرحلة الأولى من نشوء الكتابة .

4 — وتشير طبقات الأختام المسطحة التي عثر عليها في السوية 12 من حرم معبد " ايانا " إلى استخدام الأختام المسطحة في الجنوب أيضا ، وإلى الشبه القائم مع سوزا (السوس) — ب — عاصمة عيلام ، مما يؤكد تعاصر وتشابه هاتين المدينتين . وهذه الملاحظة تجد ما يؤكدتها في التشابه الكبير بين أختام الوركاء الأسطوانية السوية الرابعة — ب — وأختام سوزا السوية — CA — وفي هذه السوية تظهر طبقات أختام على الرقم الفخارية عثر عليها في مدينة سوزا ، وفي كلتا الحالتين يلاحظ تطور طبيعي في مواضيع الختم المسطح إلى مواضيع الختم الأسطواني ، وهذه الأخيرة تضمنت قصصا ومواضيع إخبارية لا ريب في أنها تشكل المرحلة التحضيرية لنشوء الكتابة التصويرية (1) .

5 — وحينما أوجدت الكتابة المسمارية تم العثور عليها في أبكر مراحلها في مدينة كيش التي يعتبرها المؤرخون عاصمة الساميين الأولى ، الواقعة شمال مدينة بابل ، وأن قوائم الكلمات التي كان الناس يتعلمون الكتابة المسمارية بواسطتها كانت موحدة في بلاد بابل ، وهذا كله يدل على تماسك أجزاء البلاد المختلفة .

6 — وعلى العموم تنتسب هياكل السكان العظمية في أدوار أريدو — الوركاء ، شأن هياكل أهل ثقافة تل حلف في الشمال ، إلى العرق المتوسطي Mediterranean ذلك العرق الذي ينسب إليه فضل إنجاز أوائل الحضارات في بلاد بابل ⁽¹⁾ .
وهناك أمور أخرى على جانب كبير من الأهمية أيضا :

1 — أن أسماء الملوك مؤسسي السلالات في سومر كانوا من أصل عربي أيضا كما دلت المكتشفات . فمن بين أسماء 23 ملكا من ملوك السلالة الأولى في كيش تم التعرف على 12 اسما " ساميا " ، وستة أسماء باللغة الرمزية الدينية وتبقى بعض الأسماء غير مقسومة ، وهذا أمر مهم كونه يبين سيطرة العنصر العربي في سومر منذ 2800 ق.م ، وبرز في ذلك التاريخ الملك ايتانا الراعي الذي نجح في توحيد المدن السومرية حوله بزعامة كيش إلى حد معقول .

ومن ملوك هذه السلالة عرف ملك باسم موسيليم (وقد تكون الموصل سميت باسمه) ، ونحو عام 2750 ق.م أسس الملك " مس كي أجاشر " سلالة أوروك الثانية ، ويبدو واضحا أصله العربي السامي من اسمه . وهناك أسماء كثيرة للملوك آخرين في بقية مدن سومر مثل أنمارجان ، شوسين ، شولجي ، اوتوهيجال ، جلجاميش ، أمارسين ، أبي سين ، نبلانوم ... الخ ، لاداعي لذكرها جميعا هنا ، وتؤكد جميعها الوجود العربي الكثيف والغالب دائما في سومر كما في غيرها منذ أقدم العصور .

2 — إن النظرة إلى العالم هي نفسها في كل أرجاء الوطن العربي السوري والمتمثلة في ديانات الخصب . وأن شمش ، وحدث ، وعشتار ، وتموز ، وبعل ، ودجن ، وإيل ، وجاشر ، وأميش ، وأدون هي الآلهة الأكثر شعبية في جميع المناطق مع مختلف أسمائها

وألقيها ، وطريف هنا أن نشير إلى أن الوثائق المكتشفة في " عبالا " (إيبلا) أظهرت كيف أن الإيبلايين كانوا يقدمون الذبائح لدجن كنعان (في غرب شبه الجزيرة العربية) في شهر عشتار (الشهر الحادي عشر) ، كما يقدمون الذبائح للرب " أنكي " وهو رب الحكمة لدى السومريين في الشهر السابع ، وللرب " أنو " السومري وإيـل الإله العربي الشامل في الشهرين السادس والحادي عشر ، كما تقدم الذبائح لالهة " إيبلا " نفسها ولجميع بقية أنحاء الوطن العربي (1) .

3 — ثم ما أن حلت الكتابة بالأحرف الأبجدية التي ترسم أصوات اللغة محل الكتابة المقطعية حتى تبين أن أولئك السكان إنما ينتمون لشعب واحد ، ويتكلمون لغة واحدة هي اللغة العربية بلهجاتها المختلفة .

4 — لقد حافظ الحكام والملوك في سومر ، وأكاد ، وبابل ، وماري ، وإيبلا ، وأوغاريت ، وصور ، وأرض كنعان على الشاطئ الجنوبي الشرقي للبحر الأحمر ، على تقليد الشهرة باللقب لا بالاسم الحقيقي ، وهذا اللقب كان غالبا يتخذ طابعا دينيا فيقترن باسم أحد الآلهة ، واجتماعيا ، أو عسكريا ، ليدل على مناقب إنسانية فذة كالعدل أو القوة أو الشجاعة أو غيرها .

إن " أوتوهيجل " تعني (السيد الجليل ، مقام الإله الجليل) ، و " أمارسين تعني (مقام السيد سين " رب القمر ") ، و " جلجامش " تعني " كاشف السر ، وسرجون باللهجة الشمالية هو " شاروكين " باللهجة البابلية وتعني الملك العادل ، و " نارام سين " تعني نور الإله سين رب القمر . أما أول ملك بارز في مصر فاسمه " زوسر " وتعني رب السراة أو المرتفعات ، وهو من أصل عربي أموري (2650 ق.م) ، وهو مؤسس السلالة الملوكية الثالثة ، وباني الهرم المدرج في "سقارة" الحالية التي كانت فيما مضى مقبرة ممفيس عاصمة مصر . أما الملك الذي أسس السلالة الرابعة (حكم حوالي 2600 ق.م) فهو " سنفرو " وتعني (ثمة الرب القمر أو القمر أخصب وأثمر) ومن ذلك جاء الاسم العربي الصميم الشنفرى . ثم إن الملك " سنوستر " الثالث (حكم في حدود 1878 — 1849 ق.م)

(1) انظر : " إيبلا — عبالا " تأليف باولو ماتيه ومجموعة من الباحثين . ص 100 — 101

والذي يرجع إليه الفضل في تأسيس طرق الملاحة بين البحر المتوسط والبحر الأحمر وتنشيطها وذلك عبر قناة تربط بين النيل والبحر الأحمر ، كان لقبه يعني (ابن عشتار) أو ربة القمر عشتار الخ .

وهذا التقليد العربي القديم نراه يمتد عبر العصور التاريخية مروراً بفترة الممالك التدمرية والنبطية والسبئية والمعينية والحمرية ، ثم يستمر بعد الإسلام ليغطي الخلافتين الأموية والعباسية حتى العصور الحديثة . وإن كثيراً منا اليوم بدءاً من طلبة المدارس وانتهاء بالأساتذة المتخصصين في التاريخ لا يعرفون من أسماء كثير من الخلفاء غير ألقابهم مثل : أبي العباس السفاح ، والمنصور ، والرشد ، والأمين ، والمأمون ، والمعتصم ، والمتوكل ، والواثق ، والمستنصر ، والمعتضد ، وناصر الدولة ، وسيف الدولة ، والمعز لدين الله ... وغيرهم .

السوريون (الأموريون) — أصل التسمية لمناطقهم

يقول الدكتور فيليب حتي :

" إن أول شعب سامي هام بحث عن موطن له في البلاد السورية وأقام فيها هو الشعب الذي أسماه جيرانه السومريون في الشرق بالأموريين ، ولاندرى الاسم الذي كان يطلقه على نفسه ، فكلمة " أموريين " إذن غير سامية ، وتعني " الغربيين " ، والعاصمة الأمورية ماري الواقعة جنوبي مصب الخابور (وهذه أيضاً كلمة سومرية) هي من جهة الاشتقاق شبيهة باسم البلاد امورو ومارتو أي بلاد الغرب ، وكان هذا أيضاً اسم إلههم القديم ، وهو إله الحرب والصيد " (1) .

الغريب أن الدكتور حتي ، الذي لا يبحث بل ينقل عن غيره دائماً ، لم يلحظ في هذه التسميات واشتقاقاتها الأصل العربي أو " السامي " بل يقرر فوراً أن التسمية غير سامية ، لأن الذي أطلقها — في رأيه — هم السومريون . وإنطلاقاً من الخطأ الشائع بين جميع المؤرخين بأن السومريين ليسوا من الجنس السامي فطبيعي أن يكون من المحتمل لديهم أن

(1) فيليب حتي ، " تاريخ سوريا ومن ضمنها لبنان وفلسطين " ، الجزء 1 ، ص 70 .

التسمية غير سامية أيضاً .

إن الأصل العربي للكلمة هو " مر " بعد تجريدتها من الحروف الصوتية التي أدخلت عليها لاحقاً ، وهذا الأصل يعني بجميع اللهجات العربية " السيد " كما أن مؤنثه " مروت " و " مري " وتعني " السيدة " . ولما كان الخيار امام القارئ يبقى في القراءة مفتوحاً بإضافة الأحرف الصوتية التي يريد فقد تقرأ " مار " أو " مور " . ولفظ " السيد " و " السيدة " في التقليد العربي القديم كان يطلق على الأب ، أو الآباء المتميزين ، الذين برعوا في مجال ما كان فيه خدمة جلّى للبشرية ، ثم صار يطلق على الحاكم ، ثم على الإله ، وإن مسيرة تطور هذا المعنى تحكي قصة تقديس جميع الآباء عند العرب الأولين ، ثم الحكام ، ثم تحويلهم إلى أرباب ، وإن كلمة " رب " ما تزال تحافظ على هذا الخط من التطور في معناها ، من رب البيت إلى الإله الخالق ، فهي مرادفة لكلمة " مَرَّ " ومن المرادفات الأخرى " دم " و " تو " و " عل " أو " عل " ، إذ الإبدال بين الهمزة والعين من أكثر الإبدالات استخداماً وانتشاراً في العربية منذ أول نشأتها ، و " رم " و " دن " و " سر " . وهكذا فإن " مر " مثلها مثل باقي مرادفاتها في اللهجات العربية الأخرى ، تعني السيد ، والأب ، وأب القبيلة ، والحاكم أو الملك الذي على شاكلة " أو في صورة " الرب الحاكم الديان .

وليس صدف أن جميع الآباء الذين عرفوا في المنطقة ، وتحولوا إلى آباء مقدسين ثم إلى أرباب ، كان يطلق عليهم اسم " السيد " أو " السيدة " ومن " مر " جاءت في العربية الحديثة المؤسسة على الثلاثي كلمة " مرء " ومؤنثه " مرأة " .

ومن " مر كانت العاصمة " مري " أي السيدة ، أما المقطع " آ " أو آي (أو " عَ " أو " عِ ") فإنه يعني مقام ، أو بيت ، أو صورة ، أو نسخة ، أو مثل ، بجميع الكتابات العربية الرمزية القديمة ، (وما تزال اللغة العربية اليوم تحافظ على هذا المعنى في الفعل " أيا " أي توقف في المكان وأقام) . وهو بداية كلمة " أرسو " و " أرشو " أو " عرسو " أو " عرشو " ، أو " عرصو " ومعناها المقام ، والعرش ، والأرض ، والتزل ، ومنها جاء الفعل " عرس " أي نزل للاستراحة . وقد ورد في القرآن الكريم " وهو الذي خلق لكم

من أنفسكم أزواجاً لتسكنوا إليها " وهذا المعنى كان " عرس الرجل " تعني زوجته ،
و" عرس المرأة " أي زوجها ، ومنها أيضاً " عرّش بالمكان أي أقام " ، و" عرّش " البيت
أي سقفه ، والعرش سرير الملك ، والعزّ ، والخيمة ، والبيت ، وركن الشيء ، والعرش
بيوت مكة ، والعرش البيت الذي يستظل به ، ومكة ، ومنها أيضاً بمعنى عرّس والمعرّص
هو المعرّس ، ومنها جاءت العرصة أي ساحة الدار ، والعراص ، أي السحب وهو
العرش لإله المطر ، والعرص والعرس عمود في وسط الخيمة .

وهكذا فإن " آمار " أو " أمور " (وبالإبدال تصبح عمار أو عمور) تعني مقام السيد ،
مقام الرب ، بيت السيد ، بيت الرب ، عرش السيد ، عرش الرب ، أبناء السيد ، أبناء
الرب ، ومن هنا أيضاً كان ارتباط كلمة "بيت" بمعنى "مقام" كما صارت أيضاً تعني "
أولاد " ، لأن الأولاد ، حسب التصور القديم ، خلقهم الأب السيد على شاكلته ،
وصارت عبارة " بيت فلان " تعني جميع أولاده ، وهكذا ارتبطت كلمة " بيت " دينياً
بـ "مقام" ودينياً بـ "أولاد " ، كما صار حرف الباء الذي يعني " بيت " ينوب
مناب الكلمة ، لكن " بيت " أو الباء " لا تعني ، في أصل معناها ، المنزل ، بل البيت
الديني أو المقام ، الذي قد يكون نصباً أو مجموعة حجارة ترمز إلى معنى ديني معين ،
وتسمى " بيت الله " أو " مقام الرب " الذي هو ، في جوهره ، يرمز إلى عرش الرب
عن طريق خلق ما يرمز إليه أو يجسده بصورة من الصور .

وهكذا صارت "أمرو" ، أو "عمرو" باللهجة السريانية التي تضيف الصوت " و " (O)
إلى نهاية الاسم وأحياناً " وم " (om) ، تعني مقام السيد مقام الرب ، بيت
الرب ، ومنها اشتقت " ماري " عاصمة الأموريين وتعني " السيدة " ، كما اشتقت اسم
مدينة " أمريت " أو " عمريت " جنوبي طرطوس في القطر العربي السوري ، وتعني
" مقام السيدة " أو " مقام الربة " وكذلك بيت مري في لبنان ، ومنها أيضاً اسم " مريم "
وتعني السيدة أو الربة باللهجة السريانية أو العمورية ، ومنها أيضاً كلمة " العُمرّة " وتعني
زيارة مقام السيدة أو بيت الرب ، كما اشتقت كلمة " لعمرى " أي " وحقّ مقام
السيدة ، الربة " كقسم ... الخ .



عشتار ربة الشعلة المقدسة
(الحب) فينيقيا .

الأرض العربية - الأرض المقدسة

لقد توارث العرب هذا المفهوم عن وطنهم الذي يشغلونه منذ أقدم العصور . وقد أكد القرآن الكريم هذا المفهوم ، إذ جاء في الآية الكرمة :

﴿ إن أول بيت وضع للناس للذي ببكة مباركاً وهدى للعالمين ﴾

(آل عمران : 95)

فالقرآن الكريم يؤكد هنا على مفهوم البيت المقدس كما سبق أن أوضحنا على انه ليس منزلاً للسكن أو الراحة ، إنه مقام ، والدليل هو أن بيوتاً كثيرة بمعنى " منازل " كانت موجودة منذ آلاف السنين قبل وجود آدم الرسول . ثم إن البيوت (المنازل) ترفع رفعاً ولا توضح وضعاً . أما البيت الذي ببكة فقد وضع وضعاً ، وبالتالي فقد كان مقاماً ، رمزاً ، يعبد الله حوله وليس فيه . والدليل هو أن العبادة بدأت طوافاً حول البيت الذي كان مجموعة حجارة مكومة وموضوعة ، ثم استمر الطواف كأحد مناسك العبادة . فالبيت هو تجسيد في صيغة الرمز لعرش الله ، والطواف حوله محاولة للارتفاع بالبشر إلى مستوى الملائكة عن طريق استنساخ صورة الملائكة الذين يحفون بعرش الله من حواليه . إنه تمثيل الأصل بصورة عنه مهما بدت الثانية ممسوخة ومقزومة وبعيدة عن الأولى . ألم يخلق الله آدم على صورته ؟

وقد جاء في تاريخ الطبري عن الحارث عن ابن سعيد عن هشام بن محمد عن أبيه عن أبي صالح عن عبد الله بن عباس قال : " لما حطَّ (الله عز وجل) من طول آدم عليه السلام إلى ستين ذراعاً أنشأ يقول : رب كنت جارك في دارك ليس لي رب غيرك ولا رقيب دونك ، أكل فيها رغداً واسكن حيث أحببت ، فأهبطتني إلى هذا الجبل المقدس فكنت أسمع أصوات الملائكة وأراهم كيف يحفون بعرشك وأجد ريح الجنة وطيبها ، ثم أهبطتني إلى الأرض وحططتني إلى ستين ذراعاً فقد انقطع عني الصوت والنظر وذهب عني ريح الجنة .. فأوحى الله تعالى إلى آدم إن لي حرماً بحيال عرشي ، فانطلق فابن لي فيه بيتاً ، ثم حفَّ به كما رأيت ملائكتي يحفون بعرشي ، فهناك أستجيب لك ولولدك من كان منهم في طاعتي ، فقال آدم : أي رب كيف لي بذلك لست أقوى عليه ولا أهتدي له فقيض الله له ملكاً ، فانطلق به نحو مكة ، فكان آدم إذا مرَّ بروضة ومكان يعجبه قال للملك : انزل بنا ههنا ، فيقول له الملك : مكانك ، حتى قدم مكة فكان كل مكان نزل به صار عمراناً ، وكل مكان تعداه صار مفاوز وقفاراً ، فبنى البيت من خمسة أجبَل (جبال) : من طور سيناء وطور زيتون ، ولبنان والجودي وبنى قواعده من حراء . فلما فرغ من بنيه خرج به الملك إلى عرفات فأراه المناسك كلها التي تفعلها الناس اليوم ، ثم قدم به مكة فطاف بالبيت أسبوعاً ثم رجع إلى أرض الهند فمات " (1) .

فالبيت الذي " وضع بكة " إذن ، هو مقام عرش الرب .

ولكن لو أخذنا اسم آدم نفسه ، فإننا نجد الصورة نفسها . لقد قلنا إن " دم " بجميع اللهجات العربية القديمة تعني الأب ، السيد ، الرب ، الصورة ، الشخص ، المثل ، الشبيه وتصبح كلمة " آدم " تعني بيت السيد ، ابن الرب ، مقام السيد ، هيكل الرب ، صورته — ، الشخص الخ ، ومنها أتت كلمة "دمية " العربية التي هي استنساخ للشيء في صورة مصغرة عنه . ولما كان الله الخالق قد خلق الإنسان على صورته ، كما تقول كل المعتقدات القديمة ، فإن آدم تعني المثل ، الشبيه ، مثال الصورة ، مقام الصورة ، هيكل صورة السيد ، هيكل الرب ، ومن هنا جاء التقديس للجسد (هيكل الروح) ،

ومن هنا أيضا صارت " آدم " تعني بيت السيد ، أو بيت الرب ، والآدميون هم أبناء الرب ، لأن بيت تعني هنا أبناء .

وما ينطبق على الجذر " مر " و " دن " و " دم " ينطبق أيضا على " تو " و " نو " الأبوين العتيقين في كتابة سومر الدينية واللذين يعينان السيد أو الرب ، كما ينطبق على " عل " و " من " و " رب " في شبه جزيرة العرب .

فإن " تو " التي هي السيد أو الرب ⁽¹⁾ تصبح " أتو " وتعني بيت السيد أو الرب أو أرضه أو مقامه أو عرشه ، وكذلك الأمر في " أنو " أو " عانو " أو " عينو " (عين الشمس) ومؤنثه " نوت " وهي ربة السماء في مصر ، نقلا عن السوريين في سومر وبلاد زهران ، ومقامها هو أنات أو عناة وهي الاسم الآخر لعشتار في الساحل السوري ، والشيء نفسه يمكن قوله فيما يتعلق بالجذر " عل " أو " عل " وتعني : السيد، الرب العلي .. ولما كان من الصعب إضافة همزة ثانية في أولها فقد استعوض عنها بمعناها — بمردافاتها ، بكلمة بيت ، فصارت " بيت أيل " وتعني مقام السيد ، أو بيت الرب ، أو أبناء الرب ، ثم استعوض أحيانا بحرف الباء عن كلمة " بيت " وصارت " بئل " و " بل " التي هي بعل " بعد إبدال الهمزة عينا ، والبعل هو السيد ، والزوج ، والمخصب ، والرب ، وابن الرب ، مقامه ، وعرشه .

ويتضح معنى " بيت ايل " في رواية التوراة كيف أن يعقوب " بنى بيت المرتفعات ... وأوقف في بيت ايل كهنة المرتفعات التي عملها " ⁽²⁾ وكانت بيت ايل قبلا تسمى لوز ، ولما كانت عبادة " عل " كإله قد انتشرت في جميع أنحاء الوطن العربي وزاحمت بفعالية كبيرة عبادة الآلهة الأخرى منذ عهد آدم ومرورا بإدريس ، ونوح ، وزكريا وهود ، وصالح ، ويحيى ، وموسى ، وعيسى ، ومحمد وغيرهم من الأنبياء والرسل الذين جاهدوا في سبيل توطيد عبادة الإله الواحد ، فقد ارتبطت الأرض العربية به ، وصارت أرض التوحيد الأولى في العالم ، فدعيت بأرض الله ، أو الأرض المقدسة ، كما صار أبناؤها

(1) انظر : ايبلا — عيلاء ، ترجمة قاسم طوير ، ص 101 ، حيث نجد أن " تو " هو أحد الأرباب المقدسين في ايبلا .

(2) الملوك الأول 12 : 28 — 33 .

هم أبناء أرض الله ، أو الأرض المقدسة .

وكذلك الأمر مع الجذر "رم" المرادفة لـ"عل" أو "عل" وتعني الأب البعيد ، العالي ، وبالتالي : السيد العلي ، ومؤنتها "رمت" أو رمت " ، رمتا ، رمتا ، وتعني السيدة ، العالية ، وما تزال بعض المدن والقرى في سوريا الطبيعية تحتفظ بهذا الاسم . ثم لما أضيف إليها مقطع "أ" أو "عـ" صارت "أرم" أو "عرم" ومعناها مقام ، أو بيت ، السيد الأب البعيد ، أب القبيلة ، أو السيد العلي ، وبالتالي : بيت أو مقام أو عرش السرب ، ومنها أيضاً جاءت الكلمة العربية "أرومة" وتعني الأصل البعيد ، أو الأب الأول ، وما تزال بعض القرى في الساحل السوري تحتفظ بهذا الاسم (عرمتا ، عرمي ...) .

ولما أضيفت في اللفظ (لا في الكتابة) الأحرف الصوتية إلى هذه الكلمات صارت تختلف بين العربية الأمورية التي تضيف "آ (a)" ، والسريانية التي تضيف الصوت "و (O)" إلى نهايات الأسماء ، وأحياناً "م (Om)" مثال : "تاج" وهو "تاجا" في الغرية تصبح "توجو" باللهجة الشرقية وتعني "تاج" وجذرها "تج" ، وهكذا صار في الإمكان أن نتعرف على لفظ أمورو (عمورو) ، أدومو ، أدونو ، أروممو ، باللهجة الشرقية ، وعلى أمار ، أدام (آدم) ، أدان (أدن أو عدن) ... الخ ، في لهجة ظاهرة (بادية) شبه الجزيرة العربية التي لا تضيف شيئاً إلى نهايات الأسماء بل تلفظ التنوين ولا تكتبه ، وهي التي أطلقنا عليها اسم " اللهجة العرباء " .

أما كلمة "رب" نفسها فليست بحاجة إلى إيضاح لما تعنيه مباشرة فهي تعني : صاحب ، السيد ، المالك ، المعلم ، الإله . وإذا ما أضيف إليها المقطع "عـ" (أو "أ") تصبح "عرب" أو "أرب" بمعنى بيت الرب أو أبناء الرب ، كما صارت الـ"عربة" أرض أبناء الرب ، أو أرض مقام الرب ، وهي برية شبه جزيرة العرب ، إنما باختصار ، الأرض المقدسة .

بقي أن ننظر إلى "سر" وهي تعني السيد ، العالي ، وآ — سر تعني مقام السيد ، أو بيته أو أبناءه ، ومؤنت الكلمة "سرت" أو "سري" ، ومؤنت "آ — سر" أو "سرت" وتعني مقام السيدة أو بيتها أو أبناءها ، ويرجح أن هذا الأب هو الأب البعيد للسوريين

الذين سموا باسمه ، كما سميت بلادهم " سري " (سوريا قبل دخول الصوتيات إلى الكتابة) نسبة إلى السيدة زوجته الأم الكبرى سري (مثل مر ومري) ومن " سرت " اشتقت الصيغة الثانية " سورية " لاسم البلاد ، كما اشتق مقام وبيت الأم السورية الكبرى أسرت ، عسرت ، عثرت ، أثرت ، أترت ، عاشرة ، عشيرة ، عشروت ، هشتر ، أشتر ، وهي نفسها سرا ، وسرت ، وشعري ، وهي سارة ، وشارة (بمعنى الملكة السيدة) ، وباسمها صار ذو الشرى ، وجبال السراة ، وسوريد (سيد الوادي ، الذي هو اسم خوفو ملك مصر) ، وباسمها دعي خليج سرت في ليبيا ، ومن " سرت " (السيدة) جاء اسم مسراتة في ليبيا أيضا والذي يعني السيدة المبجلة ، ومن " سر " أيضا جاء اسم " أسر حدون " (بيت السيد حدد ، أو أدون) .

والنقطة الثانية التي نود أن نلفت الأنظار إليها هنا والتي تؤكد وحدة الشعب العربي السوري منذ أقدم العصور هو أن جميع هؤلاء الآباء الأوائل اقترنت عملية تقديسهم بتقديس الخصب . فالأب الأكبر والأم الكبرى تجسيد لعملية الإخصاب الكونية العظمى المقدسة . ولإيضاح ذلك يكفي أن نضيف إلى أسماء أولئك الآباء أول حرف بالأبجدية السورية العربية وهو الهمزة ، التي كثيرا ما تتبادل مع العين العمل والموقع والوظيفة ، لنلتقي فوراً بالصورة الكونية الأولى المقدسة لدى السوريين القدماء : صورة الخصب الكوني . والطريف في الأمر أن لغتنا العربية ماتزال تحفظ لنا في صدرها هذا الكنز العقائدي الأصولي الصميم منذ آلاف السنين وحتى اليوم ، كما أن حرف الألف الهمزة . كان يرمز له برأس ثور كرمز لهذه القوة الإخصابية .

إن كلمة " سر - أ " تعني أخصب ، وسرأت السمكة باضت ، والمرأة كثر أولادها ، وأسرات أيضا أخصبت وحن أن تبيض .

وكلمة " مر - أ " أخصب وألقح وجامع ، والمروءة في أصلها كمال الفحولة الإخصابية ، وكمال الرجولية ، والمرء هو الذكر ، والمرأة الأنثى ، أما " مر - ع " فتعني أخصب أيضا ، ومرع الوادي أكلاً وأخصب بكثرة الكلأ ، وأمرع القوم كانت مواشيهم في خصب ، والمرع الخصب ، والأمروعة الخصب ، والمرع الخصب ،

ورمعت المرأة أيضا ولدت . (وذلك بالإبدال بالقلب) وكلمة " ربا " تعني كثر ، زاد ،
خصب .

وكلمة " رب — ع " تعني أيضا أخصب وأربع فلان أكثر من الجماع ، وربيع رابع
أي مخصب ، وكذلك ربغ وربغ نتيجة للإبدال بين العين والغين وكلمة " دن — أ "
أيضا تعني الإخصاب والإكثار في الجماع ، والدانئ الكثير الجماع ، الخبيث الفرج ،
الماجن .

إن العرب السوريين ، إذن ، هم " آ — سر " أي أبناء السيد " سر " وأمهم هي " سرت "
أو " سري " وتعني السيدة ، الملكة ، وليست آ — سرت (أو عاشرة أو عشتار) إلا مقام
هذه الأم السيدة التي قدسها أبناؤها وملأوا بها ساحة ما دعي فيما بعد بالوطن العربي
منذ أقدم العصور ، ثم نقلوا عبادتها إلى اليونان والرومان تحت اسم " استر " و " ستار " .
إن هذه الكلمات ذات المدلول الواحد والجذور المختلفة تدل دلالة قاطعة على وحدة
الشعب العربي من جهة ، وعلى وحدة مفهوم الربوبية عند العرب من تقديس الآباء ،
إلى عبادة الآرباب ، إلى عبادة الإله الواحد ، كما أنها ، بالتالي ، تؤكد على الوجود
القوي للآباء الأوائل المتفوقين في حياة الجماعات السكانية العربية . ويفهم من هذا أن
أمار أو أمارو ، أو أعمارو ، أو عموروا ، أو عمرو ، وأدن أو (عدن) ، وأدوم أو
(آدم) ، وأرام أو (أرم) ، وأمون أو (عمون) ، وإيل (أو آل ، أوعل) و " آنو "
(عونو ، عون) ... إلخ ، إنما كانوا آباء حقيقيين في سلسلة نسب القبيلة العربية ، وقد
برزوا بتميزهم عن غيرهم من الآباء في مجالات معينة ، مما جعل القبائل تسمى بأسمائهم
لا بأسماء غيرهم . وذلك التميز هو الذي استدعى ، مع الزمن ، الإجلال ، ثم المبالغة في
الإجلال والتعظيم ، ثم ما لبث أن أضفي عليه طابع القداسة ، كما صارت تقدم لهم
الذبائح في مناسبات سنوية معينة ، وهذا التقليد ما زال شائعا في المنطقة العربية حتى
اليوم ، إذ تقدم الذبائح " عن روح " الأب ، البعيد أو القريب في مناسبات معينة من
كل عام .

وهكذا يتضح من ذلك كله أن المنطقة الممتدة من شواطئ الخليج العربي الشرقية شرقاً إلى البحر المتوسط غرباً ، ومن شمال طوروس شمالاً حتى بحر العرب جنوباً إنما كانت أرضاً واحدة يشغلها شعب واحد أطلق على نفسه اسم " أبناء السيد " أو " أبناء السيدة " بكل اللهجات ، كما أطلق على أرضه اسم " أرض بيت السيد " أو " الأرض المقدسة " ومن الصعب أن يدرس السكان على أساس التجمع القبلي خلال الفترة التاريخية التي أضحت شبه ظاهرة أو مكتشفة . إن ملامح الوجود العربي منذ ستة آلاف سنة ، على الأقل ، هي ملامح وجود الشعب لا القبيلة . وعلى هذا الأساس وحده يمكن أن نفهم حركة هذا الشعب ضمن إطار أرضه التي اتخذت مفهوم الوطن منذ بدايات تشكل الدول في سوريا الطبيعية ، وعلى هذا الأساس وحده أيضاً يمكن أن نتلافى الوقوع في أخطاء التناقضات الفادحة نتيجة افتراض صراع غير موجود أصلاً في المنطقة ، من حروب عرقية مرة ، إلى صدامات حضارية مرة أخرى ، بينما الواقع غير ذلك تماماً . إن التناقض لا يعدو كونه أحد التناقضات التالية : صراع الشعب العربي ضد الغزاة الخارجيين ، من جهة ، وصراع ضمن تشكيلة الشعب العربي ذاته الاجتماعية والاقتصادية ، بين البداوة والتحضر ، بين الجمود والتطور ، بين القدم والجديد ، بين الجماهير الشعبية المنتجة والطبقات الاستغلالية النامية ، سواء من بين أروقة المعابد ، أو من مواقع الحكم في القصر ومراكز المقاطعات وبين نظام الدولة — المدينة التي يحكمها أمراء إقطاعيون أو ليغارشيون ونظام الدولة المركزية صاحبة التزعة التطورية الرأسمالية من جهة أخرى .

وإن نظرة جدية متمعنة واحدة كفيلة بأن ترينا ملامح هذا الشعب الذي أخذ يغطي كل أصقاع الوطن العربي ، بعد أن حطم أشكال الوجود القبلي في تعامله مع التاريخ ، وظهر بمظهر الشعب المتقدم ، الطامح إلى شكل الأمة في وقت جد مبكر ، وإن الأمورين (أو العمورين) أكبر شاهد على ذلك .

الأموريون في سوريا ومرحلة تأسيس الدولة

لقد اتضح لنا كيف أن السوريين هم العرب الذين ينتمون إلى الأب السيد "سر" وإلى الأم السيدة "سري" أو "سرت" ، لقد أقاموا لهما المقامات ، فتقدس "سر" بمقامه وبيته وأبنائه "آسر" (آشر ، آثر ، آشور ، آثور الخ) وتقدست الأم الكبرى السيدة "سرت" بمقامها وبيتها وأبنائها "آسرت" (عاسرت ، عاشرة ، عشيرة ، عشيرة ، أثيرة ، عشتار ، أسرت ، أستارت ، عشتارت ... الخ) . وسرعان ما طغى تقديس مقام الأم السورية الكبرى عشتار على ما عداها منذ ما قبل بدء الكتابة بأمد طويل يقدر بعدة آلاف من السنين ، تشهد على ذلك قوائم عشتار المنتشرة في تلك الفترة ما بين " شتال هيوك " في سهل قونيا شمال شرق مرسين وحتى نهر الليث أو (الكلب) غرب زهران في شبه جزيرة العرب ، ومن الخليج العربي في جيبيل حتى امتداد الشمال الافريقي غربا إلى غرب طنجة .

ثم إن ظهور الكتابة ما لبث أن كشف لنا حقيقة أن السكان العرب السوريين (سكان سوريا التي هي " سرت" أو "سري" وتعني السيدة) كانوا قد تجاوزوا شكل القبيلة في تجمعهم منذ أمد طويل إلى شكل الشعب ، وظهرت عندهم صيغ اجتماعية واقتصادية وسياسية وإدارية وحقوقية متقدمة جدا ، سواء على صعيد الزراعة أو الصناعة أو التجارة ، أو على صعيد تنظيم مؤسسات المجتمع وإدارتها .

وقبل أن نبحث في شكل تواجد هذا الشعب نجد من المفيد إعطاء صورة سريعة عن الجغرافيا التي هي مسرح نشاطه ، وعلى الأخص في شبه جزيرة العرب ، حيث تركزت جميع العوامل الفاعلة في إعطاء هذا الشعب ملامح حركته ووجوده وشكل انتشاره .

لحظة سريعة :

1— تحدثنا عن نهاية عصر الجليد الأخير وبداية العصر الديفئ الحديث في حوالي الألف الرابع عشر قبل الميلاد . ففي حدود هذه المرحلة يمكننا أن نتصور كيف أن زحف الجليد المتقدم من الشمال إلى أواسط أوروبا جمد من فعالية المياه المتحركة على الأرض وقلل

من شأنها فبدت مياه البحار متراجعة إلى حدها الأقصى . وفي هذه المرحلة بالذات كانت منطقة الخليج العربي امتدادا أرضيا للحوض السورية الأولى الممتدة من أعالي الفرات . وبفضل النتائج التي قدمتها بحوث سفينة الأبحاث الميثور الألمانية فإن " أرضا يابسة في قاع الخليج تشكل امتدادا طبيعيا للبر العراقي تماما مثلما يشكل الأخير الامتداد الأرضي للحوض الأولى السورية . ومن المرجح جدا أن ضفاف مجرى النهر الأصلي في قاع الخليج كانت موطنًا لجماعات من صيادي الباليوليتي ، وأن تكون الأراضي الرسوبية الخصبة المجاورة لها قد سكنت من قبل مزارعين — صيادين يشابهون ، في عيشهم وفي تطورهم ، نمط تطوّر جيرانهم النطوفيين سكان قرى المريط وأبي هريرة وبقراض في حوض الفرات الأعلى . وقد يكشف علم الآثار الغارقة تحت المياه فصلا جديدا وهاما من تاريخ منطقة متممة لما بين النهرين ، إذ من المحتمل أن تكون مراكز الاستيطان الباكرة في الأراضي المنخفضة التي لا نعرف حاليا اسمها ، والتي اقترح لتسميتها اصطلاح منطقة ما قبل الخليج Per-Gulf Region قد شكلت المرحلة التحضيرية التي ستمهد لنشوء حضارات مدن الجنوب الرافدي المزدهرة اعتبارا من الألف الرابع ق.م . وهناك احتمال آخر لا يقل رجحانا في أن منطقة ما قبل الخليج كانت جزءا من ثقافة كبيرة معاصرة انتشرت مراكزها في الجنوب الرافدي وجواره ، قبل أن تجبر مياه البحر الصاعدة أهلها على الرحيل تدريجيا إلى مواطن جديدة ، هذا الاحتمال يؤكد عثور الآثاريين على فخاريات العبيد في 32 موقعا أثريا على شواطئ شبه الجزيرة العربية الشرقية مقابل جزيرة البحرين ، كما وعلى مبعدة 65 كم إلى الداخل ⁽¹⁾ .

إن نتائج أبحاث البعثة الألمانية على سفينة الميثور في أعماق مياه الخليج العربي تؤكد :

أ — إن الضفاف الشرقية لمنطقة الخليج إنما كانت جزءا من المنطقة العربية السورية القديمة حيث جنة السومريين المفقودة .

ب — في مرحلة بدء العصر الديني الحديث أي منذ حوالي 14000 ق.م كان سكان تلك المنطقة من صيادي الباليوليتي ، وأن الأراضي الرسوبية الخصبة المجاورة قد سكنت من

(1) الدكتور هشام الصفدي " تاريخ الشرق القديم " الجزء 1، ص 80 — 81 .

قبل مزارعين صيادين يشاهمون في عيشهم وتطورهم نططور جيرانهم النطوفين سكان قري المريط وأبي هريرة وبقراس في حوض الفرات الأعلى .

ولما كان "مرو" أو "مارو" الجد الأكبر لأولئك السكان فلاشك في أنه رب القبيلة (سيدها) في مرحلة الصيد ، وهذا هو ما يؤكد المؤرخون ، فقد ربط الدكتور فيليب حتي نقلا عن آخرين اسم بلاد أمورو بإسم إلههم القديم ، وهو إله الحرب والصيد ⁽¹⁾ ، وهذا يعني أن فترة وجود العرب الأموريين تعود إلى 14000 عام قبل الميلاد ، وكلمة "إله" هنا ترجمة خاطئة لكلمة "رب" بمعنى سيد .

2 — في الوقت الذي كانت فيه منطقة الخليج العربي تحت المياه تتألف من مناطق خصيبة ، ويجري في قرارها دجلة ، والفرات ، ووادي الرمة ، بعد أن يتحد بوادي الدواسر ، ومجموعة غيرها من الأنهار والجداول الأخرى ، كانت منطقة شبه جزيرة العرب منطقة أمطار موزعة على جميع فصول السنة ، وبالتالي فقد كانت تلك الوديان أنهارا غزيرة دائمة الجريان .

ومن المعروف أن منطقة كنعان ، وجميع المنطقة الممتدة من عدن في أقصى جنوب اليمن إلى حدود بلاد الشام على سواحل البحر الأحمر الشمالية إنما كانت من أخصب بقاع الأرض ، كما أنها كانت تسمى "أرض اللبن والعسل" وهي آخر موقع اقترب منه الجفاف في شبه جزيرة العرب ، وكانت غنية بالأنهار ومساقي المياه . وقد دلت آخر الأبحاث على أنه "في الوقت الذي كان فيه شمال أوروبا مغطى بطبقات الجليد إلى مسافات بعيدة ، وكانت جبال الألب والبيرنه مغطاة بكتل الجليد ، كان ضغط القطب الشمالي الشديد يسوق أعاصير الأمطار التي تهب على أوروبا الوسطى ، ويجعلها تحتازها وتعبير إلى حوض البحر المتوسط ، وتستمر في سيرها دون أن تسترفها الجبال السورية ، فتصل إلى العراق وجزيرة العرب ، وحتى إلى بلاد فارس والهند ، فكانت الصحارى التي يلفحها العطش ، الآن ، تتمتع بأمطار منتظمة . ولم تكن الأمطار الذاهبة إلى جهة الشرق أكثر مما هي عليه الآن فحسب ، بل إنها كانت موزعة على جميع فصول السنة

(1) فيليب حتي "تاريخ سوريا ومن ضمنها لبنان وفلسطين" الجزء 1 ، ص 71 .

بدلاً من أن تكون مقصورة على فصل الشتاء .. وكان يعيش في شمال إفريقيا (وربما في جزيرة العرب أيضاً) حيوانات من نوع ما يوجد الآن في زمبابوي وروديسيا ⁽¹⁾ .

" ولقد جاء في النصوص القديمة ما يدل على أن جزيرة العرب كانت من مناطق الغابات المكتظة بالأشجار ، فكانت جبال الطائف تمون مكة بالأخشاب الصالحة للبناء والوقود ، كما أن المنطقة الواقعة بين العلا و"معون" أو "معان" هي من المناطق الصحراوية في الوقت الحاضر ومن أراضي ثمود قديما ، وقد كانت من مناطق الغابات المكتظة بالأشجار ، وكانت مملوءة بالحيوانات المفترسة ، وكذلك المنطقة بين مكة وعرفة كانت حتى القرن السادس عشر الميلادي (أي قبل 500 سنة فقط) مغطاة بالأشجار والعوسج والسلم ، حتى أن اللصوص كانوا يتخذونها مخبئاً يهاجمون منها القوافل " ⁽²⁾ .

وقد جاء في نصوص القرآن الكريم ما يؤكد صراحة على وجود الأجواء الممطرة والأثمار لدى سكان شبه جزيرة العرب القدماء ، كما قد ذهب إليه الباحثون المحدثون . وقد جاءت كلها في معرض التذكير والدعوة إلى الاعتاض بمن تقدم من الأقوام الذين تمتعوا بوفرة العيش ورغده ، وذلك بتوافر المياه والمزارع والجنان ، والعمران .

فبالنسبة إلى قوم شعيب ، وهم المديانيون ، الذين كانوا يسكنون شرقي بلاد زهران شمال العقيق ، فقد كانت منطقتهم ما تزال تحف بها المياه والكروم ﴿ فأخرجناهم من جنان وعيون ، وكنوز ومقام كريم ﴾ (الشعراء 56)

وأما قوم عاد الذين كانوا في جنوب المنطقة ذاتها تقريباً فقد ﴿ كذبت عاد المرسلين ، إذ قال لهم أخوهم هود ألا تتقون ، إني لكم رسول أمين فاتقوا الله وأطيعون ، وما أسألكم عليه من أجر إن أجرى إلا على الله رب العالمين أتبنون بكل ريع آية تعبثون ، وتتخلفون مصانع لعلكم تخلدون ، وإذا بطشتم بطشتم جبارين ، فاتقوا الله وأطيعون ، واتقوا الذي أمركم بما تعلمون ، أمدكم بأنعام وبنين وجنان وعيون ﴾ (الشعراء 123 — 136) .

وعن منطقة ثمود إلى الجنوب قليلاً :

(1) تشايلد ، " الشرق القديم " طبعة 1964 ، ص 15 — 16
(2) انظر : الدكتور جواد علي ، " تاريخ العرب قبل الإسلام " ج 1 ، ص 97 — 102 .

﴿ أتركون في ما ههنا آمنين في جنات وعيون ، وزروع ونخل طلعها هضيم ،
وتنحتون من الجبال بيوتا فارهين ﴾ (الشعراء 146 — 147) .

أما قوم سبأ فلقد ﴿ كان لسبأ في مسكنهم آية ، جنتان عن يمين وشمال كلوا من رزق
ربكم واشكروا له ، بلدة طيبة ورب غفور ، فأعرضوا فأرسلنا عليهم سيل العرم
وبدلناهم بجنتهم جنتين ذواتي أكل حط وأثل وشيء من سدر قليل ﴾ (سبأ 15 — 17)
وقد جاء أيضا ، حول طبيعة المنطقة في ذلك الزمان ، أن بحرا أو بحيرة ذات مياه حلوة
كانت موجودة في المنطقة ، ولا تبعد كثيرا عن البحر ذي المياه المالحة : ﴿ وما
يستوي البحران هذا عذب فرات سائغ شرابه وهذا ملح أجاج ، ومن كل تأكلون لحما
طريا وتستخرجون حليا تلبسوها ، وترى الفلك فيه مواخر لتبتغوا من فضله ولعلكم
تشكرون ﴾ (فاطر 12 — 13) .

ولقد أكد برترام توماس صاحب كتاب " العرب " بقايا بحيرة في الربع الخالي عند
منخفض "ابو بحر" كما لاحظ أن وادي الرمة لا يزال مليئا بالصخور الرسوبية والحصي
مما يدل على أنه كان في القدم مجرى نهر غزير المياه ، ولا تزال بقايا بحيرات مليئة بالمياه
في بعض المناطق الصحراوية من الجزيرة العربية . ففي منطقة الخرج عدة بحيرات في
وسط الصحراء تستغل الحكومة السعودية مياهها في الوقت الحاضر لزراعة الأراضي
الزراعية المجاورة . وتقع منطقة الخرج جنوب شرقي الرياض ، وتوجد فيها خمس
بحيرات ، منها أربع بحيرات إلى الجنوب من اليمامة ، أما الخامسة فتقع في الأراضي
الصحراوية الواقعة إلى الجنوب من منطقة الخرج على بعد زهاء مائة كيلو متر وتسمى "
خفس دغري" وأهم هذه البحيرات ثلاث تبلغ مساحة كل منها أكثر من أربعة آلاف
متر مربع ، أما عمق الماء فيها فيناهر أربعمئة قدم ، وتتصل هذه البحيرات بعضها ببعض
عن طريق مجاري المياه الجوفية ⁽¹⁾ .

وإذا علمنا أن نهر "الدواسر" وهو أكبر أنهار شبه جزيرة العرب ، تبدأ منابعه في جبال
"عسير" (السراة) فقد كان يتجه إلى الشمال والشرق مخترقا سهل الربع الخالي ، ثم يتصل

(1) الدكتور أحمد موسى ، "ري سامراء" ج 2 ، ص 539 .

بسوادي الرمة قرب شواطئ الخليج العربي جنوب موقع البصرة الحالي وشمالى البحرين ، أدر كنا تلك الرابطة العضوية المتينة بين شرق الوطن العربي وغربه ، وأهمية ذلك السوادي فى ربط جناحي الوطن من الجانبين ، كما تتكشف لنا أسرار تلك التحركات من الشرق إلى الغرب وبالعكس ، أى من الجنات الشرقية فى منطقة الخليج العربي وبمحاذاة الوديان العامة بالخصوبة والكأ والمراعي ، إلى جنات عدن الغربية فى باد كنعان وعلى السفوح الشرقية لبلاد غامد .

3 — ومع تقدم مرحلة العصر الديئ ، وذوبان كتل الجليد الأسطورية الضخمة التى تجثم على المنطقة الممتدة من أواسط أوروبا إلى القطب المتجمد الشمالى أخذت مياه البحر فى التقدم والارتفاع تدريجياً ، كما بدأت كميات الأمطار التى تتساقط على المنطقة بالتراجع ، وأخذ الجفاف يتقدم تدريجياً ليقفل من تجمعات المياه الحلوة ومن غزارة الأنهار ذات الينابيع المحلية ، كما زادت ، فى الوقت نفسه ، غزارة كل من دجلة والفرات اللذين تنحدر مياههما من هضبة أرمينيا فى أقصى الشمال .

4 — مع اقتراب عصر الجليد من نهايته ، (وقد استمرت هذه المرحلة فى تقدير العلماء قرابة عشرة آلاف سنة ، أى حتى حوالى الألف الرابع قبل الميلاد) ، كان وادي الرمة يشكل شريان الاتصال المباشر ما بين منطقة الخليج ، التى أخذت عملية انغمارها بمياه البحر تكتمل لتتصير إلى ما هي عليه اليوم ، وبين المنطقة الزراعية الخصيبة فى غربى شبه الجزيرة العربية على سواحل البحر الأحمر الشرقية .

5 — إن فترات سقوط الأمطار المتواصلة الغزيرة التى تكررت أكثر من مرة على المنطقة ، نتيجة لتغير المناخ فى المنطقة الشمالية من الكرة الأرضية ، وقيل استقراره ، من جهة ، واستمرار ذوبان الجليد وانحساره ، من جهة أخرى ، كانا يؤديان إلى حدوث فيضانات كبيرة فى الشرق فى نهري الدجلة والفرات تتسبب فى تغيير مجريهما أحياناً ، وكانا يلتقيان عند نقاط اقترابهما شمالى بابل ليغمرا المنطقة الممتدة من بابل إلى أور على شاطئ الخليج ، كما أن ذلك يؤدى إلى ارتفاع منسوب المياه فى وادي الرمة نفسه ، وفى البحيرات الداخلية التى تمتد على طول الأراضي المنخفضة بدءاً من جنوب منطقة

البصرة الحالية (مصب نهر الرمة قديما) وجنوبا ، وبمحاذاة السواحل الشرقية ، إلى المنطقة الجنوبية الشرقية من الربع الخالي حيث ما تزال بقايا هذه البحيرات العظيمة ، أما وادي الرمة نفسه قبيل مصبه فإنه يتحول إلى جزء من ذلك التجمع المائي والمتصل شمالا بيباب ، والممتد جنوبا حتى شرقي ظفار على شاطئ بحر العرب .

إن شريان وادي الرمة الممتد من الخليج إلى شرقي يثرب كان يمثل خط سير الاتصال البري بين السكان في الخليج وعلى ساحل البحر الأحمر حيث ، بالتالي ، تنمو خطوط متوازية في أنماط العيش والتطور . ولسنا نشك في مثل هذه الحال أن نوحا كان يعرف جيدا وجهة مسيره بعد حدوث الطوفان في مناطق قومه في الشرق .

مما تقدم نخلص إلى القول بأن " أمرو " أو (أمورو) تعني مقام السيد بيت السيد ، بيت الرب ، عرش الرب ، أرض الرب ، الأرض المقدسة ، وأن الأمرين أو (الأمرين) هم أبناء السيد " مر " الذي عاش في مرحلة البابليوثي .

فقد بدأت كلمة "بيت" في العربية ، إذن ، بمضمون ديني ، مقدس ، مما جعل فهم الإنسان العربي لوطنه منذ البداية يقترب بتمسكه بآبائه المتميزين الذين تتحلى أفعالهم الحميدة على هذه الأرض . فكانت الأرض العربية هي " الأرض المقدسة " لأولئك الآباء المقدسين الذين ما انفك العربي يعتز بالانتساب إليهم ، ويحفظ هذا النسب .

إن هذا كله هو ما يفسر قول صموئيل كريبز بأن هناك إمبراطورية "عربية — إيرانية " سبقت الإمبراطورية الأكادية — السومرية ، وأن الوجود العربي كان متغلبا في تلك الإمبراطورية بلغته وقوته العسكرية والسياسية ، وقد كانت ثقافة الماقبل سومرية ثقافة زراعية — قروية ، دخلت جنوب وادي الرافدين مع النازحين القادمين من جنوبي غربي إيران " (1) .

وقد أوضحنا من قبل معنى حضارة "عربية — إيرانية " قلنا إنها الحضارة العربية في سومر وعيلام التي جاء بها العرب من منطقة الخليج العربي حيث كانت "جنة السومريين" قبل

(1) أنظر : أسد الأشقر ، " الخطوط الكبرى في تاريخ سوريا ونشوء العالم العربي " الجزء 1 ، القسم 1 ، ص 83 — 84 .

أن يبلغ منسوب ارتفاع مياه البحر حده الأقصى ويغمرها تدريجياً مجراً سكاتها على التحرك شمالاً إلى حوض الرافدين الأدنى الذي كان قد تشكل من الطمي اللحيي المترسب على مدى عشرة آلاف عام من بدء ذوبان الجليد وبدء العصر الديني الحديث ، كما جعل قسماً من السكان يسلكون ضفاف نهر الدواسر (غرباً حتى السواحل الشرقية للبحر الأحمر) .

وقد حدث هذا قبل أن يولد إيران نفسه ، إذ إنه في خارطة النسب هو إيران بن آشور بن سام بن نوح .

وكان قد أكد لنا ذلك المؤرخ البابلي "برعوشا" حين كتب يصف لنا جيلاً من الجبابرة يقودهم واحد منهم يسمى (عوان) (أو "عون" أو "آن" أو "آنو" وقد يكون هو نفسه الذي قدسه السومريون فيما بعد) خرج من منطقة الخليج العربي وأدخل في البلاد فنون الزراعة وطرق المعادن والكتابة ، ثم يقول : " وقد ترك إلى بني الإنسان كل الأشياء التي تصلح أمور حياتهم ، ولم يخترع من ذلك الوقت شيء ما حتى الآن " (1) .

إن عون هذا أو (آنو)* ليس إلا أحد الأجداد العرب الذين كانوا يخرجون بجماعتهم بين فترة وأخرى من منطقة الخليج إبان تقدم مياه البحر ، وقدم تلك الخدمات الجلي لشعب الجنوب الرافدي الذي ما لبث أن يجله وقدسه كعادة جميع العرب الآخرين في باقي مناطقهم ، إنه الأب ، والسيد والرب (يعني الصاحب المالك السيد لا بمعنى الإله) .

> P.189 "The Sumeians" Wooley, C.D. (1)

• و"عن" تعني العين ، الوجيه ، السيد ، الرقيب ، الراعي ، الحارس . ومن هذه المعاني فقد أطلقت على الشمس التي ترقب النجوم وترعى حركة الكون كالعين الساهرة ، ومن هنا فقد بقي تعبير " عين الشمس" حياً إلى يومنا هذا ، وبهذا الاسم دعت المدينة القديمة في مصر ، وقرنت باليونانية "أون" وبالسريانية "عين" وهي مدينة عين شمس الباقية حتى اليوم . ومن كلمة "عن" أيضاً جاءت "ايتا" السومرية ، أو " أعيانا" وهي " الأعيان" حيث شكل أول مجلس للأعيان في العالم ، ويعني مجلس السادة الوجهاء ، وكان إلى جانبه مجلس آخر هو مجلس الصوم ، أو مجلس الشباب .

مسألة عبادة الأجداد عند العرب السوريين :

ولكن هل كان العرب الأموريون وغيرهم يعبدون أولئك الأجداد بحق ، ويجعلونهم في مرتبة الآلهة ؟

إن كل الدلائل تشير أن لا ... إن تعظيم وتقديس الآباء الذين يتفوقون في مجال ما قد يكون فيه خير للبشر ، أو يمتازون بشمائل إنسانية وأخلاقية معينة ، تصلح لأن تتخذ قدوة للناس جميعا ، كانوا يحتلون مراتب خاصة ، وتبنى لهم قبور خاصة متميزة ، أو مقامات ، تقدم عندها الذبائح وتوزع على الفقراء تعبيرا عن الاقتداء بإحسانهم وإنسانيتهم . ثم تطورت تلك العادات بعد استغلالها من قبل أناس معينين وجدوا فيها مكاسب خاصة معينة ، فكرسوا أنفسهم لخدمة مقام هذا الجد أو ذاك ، يذبجون الذبائح بالطرق التقليدية الصحيحة ، وقيمون مراسم الصلاة ، يأخذون النذور من أموال أو حلي أو زيت أو خمر أو أضحيان ، ويشرفون على التوزيع ، ويضفون على تلك المقامات مواصفات معينة متميزة ، تحقيقا لأهداف خاصة يسعون إليها : كأن يجعلوها تتفوق على غيرها ، فتجذب الناس إليها أكثر من غيرها ، ثم يضيفون عليها نوعا من الأعمال الخارقة والمعجزات ويجعلونها تخصص بأعمال معينة ، كأن تشفي مرضى العيون أو المشلولين ، أو تجعل العواقر من النساء ينجن الأولاد ، إلى آخر ما هنالك من الأعمال الأخرى .

إن هذا كله هو ما كان ، وهو بالضبط ما نجده اليوم منتشرا في شتى بقاع الوطن العربي بعد المسيحية والإسلام . إن تقديس قبور الآباء القديسين ، أو قبور الأولياء ليس إلا استمرارا لتلك العادات القديمة السورية الأمورية ذاتها التي تعود إلى ستة آلاف عام قبل الميلاد على الأقل . وإن استمرار تسمية " الأب فلان " و " مار فلان " في المسيحية ليس إلا استمرارا حرفيا لتلك العادات التي كانت سائدة قبل المسيح بآلاف السنين . إن " مار إلياس " و " مار جرجس " و " مار يعقوب " وغيرهم ، ليست إلا تعبيرا أموريا قديما " السيد إلياس " و " السيد جرجس " و " السيد يعقوب " ... وإن هذا يشجعنا أكثر على القول بأنه ليس صحيحا ما يقال عن العرب الأقدمين من أنهم كانوا يعبدون آباءهم ، إلا إذا صح

ذلك على العرب اليوم مسيحيين ومسلمين ، لأن الظاهرة هي نفسها . ولسنا نظن في أن عدد الذبائح التي كانت تقدم عند مقامات أولئك الآباء الأقدمين أمثال "أمرو" و"بعلو" و"أدمو" و"أذنو" وغيرهم كانت تفوق كثيرا ما يقدم من ذبائح ونذور عند مقامات الأنبياء ، والآباء القديسين والأولياء اليوم . كما أننا نؤكد أن اختصاصات أولئك الآباء قديما بالمناطق أو بالمدن أو القرى ، أو بنوع الفعل والخدمة المرجوة للبشر ، لم تكن أكثر ، بأية حال ، منها اليوم . ولذلك فلسنا نعتقد في صحة ما نسب إلى العرب الأقدمين من تألية للآباء ، لأن الأمر لم يتعد وضعهم في مرتبة متفوقة أعلى من مرتبة سائر البشر وفي مكان وسط بينهم وبين الله ، أو كبير الآلهة ، وإن في إمكاننا أن نفترض أن الناس ، بعد ألف سنة ، حينما يعثرون على هذه المقامات الكثيرة المنتشرة في كل بقاع الوطن العربي لعدد لا يحصى من الأنبياء والقديسين والآباء والأولياء ، بمذابحها ومباخرها ، سوف يكون لديهم العذر لأن يقولوا عنا تماما ما نقوله نحن اليوم عن آبائنا . إن الأمر كله أمس واليوم وغدا ، لا يعدو كونه تعظيما لأولئك الآباء المتفوقين وإحياء لذكرهم ليبقى خالدا مدى الدهر . إن ذلك عينه هو ما توصل إليه الفكر العربي السوري منذ أن رحل الملك جلعاميش رحلته المعروفة بحثا عن الخلود ، ثم لم يجد ما يخلد الإنسان أخيرا غير ما يقوم به من أعمال مجيدة ، فدعا شعبه في اوروك إلى العمل من أجل مجد أوروك لأن عمل الإنسان هو وحده الذي يخلده .

• يجد القارئ تفصيلا وافيا حول هذا الموضوع في كتابنا الثالث " تاريخ سوريا الحضاري القديم " 1 - المركز .

العرب الأموريون في نسيج الشعب العربي السوري العاء وليسوا قبيلة :

لقد سبق ان أشرنا إلى تأكيد الباحثين على وحدة الثقافة والتطور الحضاري في تلك المناطق ، كما أكدت الأبحاث الانتروبولوجية أيضا على أن " الهياكل العظمية للسكان المحليين التي عثر عليها في مقبرة من أواخر فترة العبيد في مدينة " أريدو" إنما تنتسب عموما في ادوار اريدو — الوركاء ، شأنها شأن هياكل أهل ثقافة تل حلف (ماري) في الشمال ، إلى العرق المتوسطي Mediterranean العرق الذي ينسب إليه فضل إنجاز أوائل الحضارات في بلاد بابل ، وتحويل المجتمعات القروية الأولى في الشرق الأدنى القديم إلى مدن مزدهرة (1) .

ولما كان من المؤلف عند العرب ، منذ أقدم العصور وحتى اليوم ، أن يسمى الأبناء على أسماء الأجداد ، وعلى الأخص بأسماء المتفوقين من الأجداد ، فإنه بإمكاننا أن نفترض أن أولئك المارين ، أو الأمرين أو العمرين ، إنما ينتسبون إلى أحد الأجداد الكبار الذي اسمه " أمرو" أو "عمرو" وأن بنية الاسم اللغوية — كما سبق وفصلناها — وانعدام وجود الأحرف الصوتية في الكتابات العربية الأولى بدءا من التصويرية ، إلى الرمزية المقطعية ، إلى الأبجدية المسمارية ، إلى أبجدية الحروف كان يجعل هذا الاسم يكتب بإحدى الصيغتين "أمرا" أو "عمرا" باللهجة الغربية ، و"أمرو" أو "عمرو" باللهجة الشرقية ، ويعني الاسم "بيت مارو". ولما كانت أول الدراسات لمكتشفات المنطقة الآثارية قام بها باحثون أجانب ليس لهم إلمام بطبيعة بنية اللغة العربية التي ما زالت مستمرة حتى اليوم ، ولعدم مقدرتهم على تصور استمرار مسيرة هذا الشعب الحضاري طيلة هذه الآلاف الطويلة من السنين ، ولدوافع أخرى كثيرة ، جعلتهم يتعدون عن دراسة اللغة العربية أو الإشارة إلى أوجه القرابة بينها وبين اللغات أو اللهجات التي كانت سائدة في ذلك الزمن السحيق ، فقد صاروا يفترضون افتراضات صوتية لفظية تضاف إلى تلك الأحرف الصامتة التي يعثرون عليها ، فيعمدون إلى إضافة الأحرف الصوتية بالطريقة التي يرونها هم مناسبة ، لا بالطريقة التي قد تكشف عن المعنى الحقيقي

لجذر الكلمة ، وهكذا صار في الإمكان أن يلفظوا كلمة "عمرو" Amr بأوجه كثيرة حسب الأحرف الصوتية المضافة مثل : عامارا ، عامورا ، عامورو ، عاموري ، عيمارو ...الخ ، وإن نظرة واحدة إلى تسلسل الأنساب في ولد نوح ترينا كيف يعود هذا الاسم ليتكرر من فترة إلى أخرى ، ونذكر على سبيل المثال الفرع العربي السامي ، فقد ولد السام لاوذ وآخرون وولد للاوذ عمليق وآخرون ، وولد لعمليق عمرو وكنعان وآخرون ، وولد لعمرو حاران وآخرون ... وهكذا .

إن اسم "عمرو" إذن ليس جديدا ، كما أنه ليس بالضرورة أن يكون جديدا في عهد عمليق ، خاصة وأن سلسلة النسب التي احتفظ بها النسابون هي خط واحد ينتهي إلى شيث بن آدم دون باقي إخوته جميعا ، كما أن هذا الخط كان يحافظ على تسلسل أحادي حتى نوح ، أي أنه لم يكن يذكر سوى ولد واحد من أجل المحافظة على تسلسل نسب إبراهيم ، ثم عيسى ومحمد .

أما الفترة التي هي قبل آدم الرسول ، والتي تمتد من خلال الآثار والمدن المكتشفة إلى آلاف السنين قبله ، فإن أحدا لم يتمكن من سير محيطها في مجال دراسات تفرعات السكان والقبائل ، وذلك لأن الكتابة لم تكن قد اخترعت بعد من جهة ، ولأن كثيرا من المصادر ، بعد الكتابة ، عفا عليها الزمن سواء بالكوارث الطبيعية ، أو بالحروب ، أو لعدم مقاومتها لعوامل الزمن ، خاصة ما كان مسجلا منها على أوراق البردي ، كما أن قسما منها كبيرا ، لاشك مازال مطمورا تحت آلاف التلال الأثرية المبعثرة في كل أرجاء الوطن العربي السوري بوجه خاص .

لذا فإن في إمكاننا بعد هذا ، ولكل الأسباب التي ذكرناها ، أن نقول إن أولئك الذين سمو "أموريين" ليسوا إلا العرب المنسوبين إلى جدهم الأكبر "عمرو" الذي حافظ على شكله القديم حتى يومنا هذا للتمييز بينه وبين "عمر" وبقي يكتب باللغة العربية اليوم بصيغته نفسها "عمرو" .

ذلك أولا .

ثانيا : بفضل حملة التنقيبات الآثرية الدولية التي رافقت إنشاء سد الفرات أمكن العثور

على مستوطنات هامة من دور الوركاء في موقعي "تل حبوبة"، الكبيرة وتل قناص. وفي "جبل عرودة". وتبين أنها تشكل مجموعة عمرانية من المرجح أنها كانت جزءا من وحدة كبيرة قد تمتد إلى غرب نهر الفرات. ومما لا ريب فيه أن وجود هذه المستوطنات أو المدن في زمن الوركاء السومري يكشف عن المستوى الحضاري العربي الكبير في الفترة السومرية الشرقية، كما يبين الصلات الحضارية الوثيقة التي تربط ما بين مشرق الوطن العربي وشماله وغربه، ويعكس بشكل وثيق الفعاليات التجارية والملاحية على نهر الفرات أيضا. لقد أكدت الدراسات اليوم أن تلك المستوطنات العمرانية التي ازدهرت في سوريا الشمالية خلال دور الوركاء "لم تكن مجرد محطات تجارية، بل كانت مراكز استيطان بشري" ⁽¹⁾، وليست مدينة ماري في تلك المنطقة لتغيب عن الأذهان. وقد لعبت دورا في تاريخ سوريا استمر زهاء ألف وخمسمائة عام.

فإذا كان العرب موجودين في شتى أطراف الوطن العربي السوري من سومر وعليلام شرقا، إلى ماري وأعلى الفرات شمالا، إلى أوغاريت وجبيل ودمشق وأريحا غربا، قبل بدء التاريخ بزمان طويل، تدل على ذلك آثارهم المكتشفة ذات الطابع الحضاري والسكاني والثقافي الواحد، كما تدل على ذلك أسماء مدغمهم القديمة الأولى، فقد كان من المؤكد أن القاعدة السكانية العامة في كل من هذه المناطق كانت تتمتع بمواصفات عامة مشتركة في انتمائها إلى أصل واحد، ولغة واحدة، وأنماط معيشية واحدة تتراوح بين البداوة العربية، أو المدينة العربية، بكل تراث وتقاليد الأولى، وإبداعات وتفوق الثانية.

وقد لاحظ جميع المؤرخين المتتبعين للمكتشفات الأثرية في المنطقة أن عصرا عربيا (سموه ساميا) كان سابقا بالفعل للمرحلة السومرية، وليس هذا فحسب، بل إن "أباطورية" عربية كانت سابقة لتلك المرحلة، وأن العرب (أو الساميين كما يدعونهم) كانوا يتمتعون بتواجد مميز وملحوظ على المستوى الشعبي وفي السلطة أيضا في المرحلة السومرية (لاحظ أنهم يفرقون دائما بين العربي والسومري) وكانت كثير من

(1) الدكتور هشام الصفدي، "تاريخ الشرق القديم" الجزء 1، ص 110.

سلالات الحكام في مدن سومر ، مثل أوروكيش والوركاء ، من أصل عربي (سامي) كما تدل عليهم أسماؤهم.

إن العرب الذين أطلق عليهم المؤرخون اسم "الأكاديين" نسبة إلى المدينة التي أنشأوها وجعلوها عاصمة لهم ليسوا إلا حالة من توهج الوجود العربي الذي يعم الوطن العربي السوري من البحر الأعلى إلى البحر الأدنى.

وحينما ظهر "الأكاديون" على مسرح الأحداث في المنطقة بفضل أعمال سرجون الباهرة على نطاق الدولة ، والحكم ، والجيش ، والاقتصاد ، وغيره ، كان الشعب الذي انبثق منه سرجون هو الشعب نفسه الذي كان يشغل المناطق جميعا ، ولم يولد مع سرجون الذي اعتبره جميع المؤرخين عموريا . إن كثيرا من المؤرخين يتحدثون عن "الأموريين" وكأننا انبثقوا فجأة من لا مكان مع إطلالة قائدهم العظيم. رغم ما في ذلك كله من بدائية في التعامل مع التاريخ .

يقول فيليب حتي في كتابه " تاريخ سوريا ومن ضمنها لبنان وفلسطين " نقلا عن مؤرخين غيره ، منهم " أرموبويل " : " وتظهر أول إشارة إلى أرض الأموريين منذ عصر سرجون (حوالي 2250 ق.م) ، وهو أول شخصية كبرى في تاريخ الساميين .. وفي ذلك العهد أصبحت سوريا سامية لأول مرة — باستثناء بعض جيوب سكنها الحوريون وآخرون من غير الساميين — واحتفظت بصبغتها السامية خلال العصور حتى الوقت الحاضر " (1) .

هكذا يكتب تاريخنا في الخارج ! .. لقد جاء سرجون إلى المنطقة يجر من خلفه شعبا بحبل ، من أين ؟ لا ندري ، كل ما ندرية هو أن هذا الشعب وجد فجأة مع سرجون فأصبحت بذلك سوريا سامية "لأول مرة" ثم احتفظت بهذه الصبغة إلى الأبد ! .. ويتابع المؤلف :

(1) انظر فيليب حتي ، " تاريخ سوريا ومن ضمنها لبنان وفلسطين " الجزء 1، ص 70 .

و: Armo Poebel, " Hestorical Texts", P.177

" وقبل أن يحتاج سرجون بلاد أمور كانت عاصمتها ماري قاعدة إحدى السلالات السومرية .. وفي خلال القرن العشرين أصبحت مدينة ماري والبلاد المحيطة بها أمورية في سكانها وحضارتها وحكومتها " (1) .

قبل قليل لاحظنا كيف أن المؤرخ يعتبر ظهور الأموريين مقترنا بظهور سرجون ، وفي عهده تصبح سوريا سامية لأول مرة لأن الأموريين طبعوها — لاشك — بطابعهم السامي ، ثم لم يتبدل أبداً ، لكننا نجد فجأة — وبعد سطرين فقط — أن سرجون يحتاج بلاد أمور التي كانت عاصمتها ماري .. ! فالأموريون موجودون إذن قبل سرجون ، وبلادهم كذلك موجودة ، وعاصمتهم ماري الشهيرة موجودة ، ونحن لا نشك في ذلك ، وقد بينا كيف أن اسم ماري يعني السيدة ، لكننا ما نكاد نبدأ اندهاشنا من هذه المفاجأة حتى تصدمنا مفاجأة أخرى ، وبعد سطرين فقط أيضا : إذ إن مدينة ماري والبلاد المحيطة بها تصبح في القرن العشرين أمورية في سكانها وحضارتها وحكومتها ، وذلك — في رأي المؤلف — يعود ، لاشك ، إلى أن الحاكم كان سومريا !

شيء محير فعلا ! مرة نجد أن السومريين ليسوا عربا أو (ساميين) ، ومرة نراهم يطبقون المنطقة بالطابع العربي (السامي) ، هذا علاوة على ما تتضمنه فكرة أن جنسية السكان تتغير بتغير حكاهم من سداجة .

لقد كانت ماري ، إذن ، أمورية قبل سرجون ، وكان يحكمها سومريون ، وإذا كان السومريون الذين أتوا من جنوب النهرين من أوركيش ولغش ونيبور وغيرها ليحكموا ماري هم أنفسهم أموريين فهل يبقى ثمة مجال للشك في عروبة المنطقة كلها ، وفي الوجود العربي الأموري الذي يشمل هذه المنطقة ؟

يقول ول ديورانت : " في هذه الأثناء كانت أور مدينة الكلدان تنعم بعهد من أكثر عهودها الطوال رخاء وازدهارا امتد من عام 3500 ق.م (وهو على ما يبدو عهد أقدم مقابرها) إلى عام 600 ق.م وأخضع أعظم ملوكها أور انجور جميع بلاد آسيا الغربية ونشر فيها لواء السلام ، وأعلن في جميع الدولة السومرية . أول كتاب شامل من

كتب القانون في تاريخ العالم ، وفي ذلك يقول : " لقد أقمت إلى أبد الدهر صرح العدالة المستندة إلى قوانين شمس الصالحة العادلة " ، ولما زادت ثروة أور بفضل التجارة التي انصبت إليها صبا عن طريق نهر الفرات فعل فيها ما فعل بركليز بأثينا من بعده ، فشرع يجمّلها بإنشاء الهياكل ، وأقام فيها هي وغيرها من المدائن الخاضعة له أمثال لارسا وأوروك ونيبور كثيرا من الأبنية ، وواصل ابنه "دنجي" : (أي المخلص ، فالدال أداة تعريف ، و"أنجي" تعني المنجي ، المخلص ، المنقذ) طول حكمه الذي دام ثمانية وخمسين عاما أعمال أبيه ، وحكم البلاد حكما عادلا حكيما ، جعل رعاياه يتخذونه من بعد موته إلها يصفونه بأنه الإله الذي أعاد إليهم جنتهم القديمة .

لكن سرعان ما أخذ هذا المجد يزول ، فقد انقض على أور التي كانت تنعم وقتئذ بالرخاء ، والفراغ والسلم ، أهل عيلام ذوو الروح الحريية في الشرق ، والعموريون الذين علا شأنهم وقتئذ من الغرب وأسروا ملكها ، ونهبوها ، ودمروها شر تدمير " (1) . من هذا القول يتضح أن أور " السومرية هي " أور الكلدان " والكلدانيون — كما هو معروف — من صميم شجرة النسب العربي ، وقد كانت مزدهرة قبل عام 3500 ق.م ، أي قبل قدوم سرجون . بما يقرب من ألف عام ، ثم إن ملوكها السومريين هم سومريون عرب تدل عليهم أسماءهم ، لكن العموريين " الذين علا شأنهم وقتئذ في الغرب " انقضوا عليها ، والمقصود هنا جيش سرجون .

إن المؤرخ مع إصراره على فصل العيلاميين أولا عن العروبة ، ثم السومريين ، يخلط بين العرب العيلاميين الحضاريين ، وبين القبائل الكاشية التي اجتاحت عيلام ودمرتها ثم تقدمت إلى مدينة أور العربية الموجودة قبل السومريين واجتاحتها أيضا ، ولم ينقذها من براثن الغزاة غير سرجون ، الذي لم يأت غازيا بل محررا وموحدا لأجزاء وطنه الواحد ، كما دلت كل الأحداث التي جرت على صعيد المنطقة كلها فيما بعد .

إن ول ديورانت ، مثله مثل كثيرين غيره من المؤرخين ، الذين يسوقون الروايات والأحداث بحيث تجعل صورة العرب الساميين تنطبع في ذهن القارئ كأقوام من البداية

الجفأة الغزاة المدمرين للحضارة مثلهم مثل باقي القبائل المتوحشة التي عرفتها الأمم المتحضرة .

ففي الوقت الذي كان هذا المؤرخ نفسه قد ذكر العيلاميين بأنهم شعب "لا يعرف أصله ولا الجنس الذي ينتمي إليه أنشأ إحدى المدينيات الأولى المعروفة في العالم ⁽¹⁾ بالرغم من كونه " في صقع ضيق " تحف به الجبال من جهات ثلاث ، فقد وجدناه يضعه والهمج المتوحشين في خانة واحدة ، ثم يدمج الاثنين معا مع العموريين (الساميين) القادمين من الغرب ليشتروا معا في تدمير حضارة سومر .

" وهكذا ظلت بلاد سومر خاضعة لحكم العيلاميين والعموريين مائتي عام " ⁽²⁾ ، لكن الوثائق التاريخية تثبت عكس كل ما قاله وتوخاه أولئك المؤرخون . لقد احترم سرجون اللغة السومرية الكتابية الرمزية ، واحترم المؤسسات الدينية والمعتقدات السومرية ، وجعل ابنته كاهنة نانا ربة القمر في مدينة أور ، ولقب نفسه " كاهن أنو المسيح " (المسوح بالزيت) ، و " إنزي إنليل العظيم " أي وكيل الرب إنليل ، ثم انقض على معاقل القبائل الهمجية الغازية التي اجتاحت أور في الجبال الشمالية والشرقية وأمن طرق المواصلات التجارية لبلادهم ، وتوحدت جمع أطراف الوطن العربي السوري في الشمال من عيلام ، إلى سومر ، وأكاد ، وآشور ، إلى ماري ، وتوتول ، وعبلا (إيبلا) . ثم إن كلمة "عيلام" نفسها تعني بالسريانية الأرض العالية .

والجدير بالذكر أن سرجون العموري هذا ولدته إحدى الأمهات الفقيرات من مومسات المعبد في كيش (في سومر) ، ثم ارتقى حتى أصبح ساقيا للملك ، ثم أحد الأمراء أتباع الملك ، ثم يستولي على السلطة وينقل العاصمة من كيش إلى أجادة (أكاد) وهذا دليل على أن العرب الأموريين جزء من السكان العرب في كل مكان .

وقبل سرجون أيضا فإننا لا نغثر في عهد سلالة أور الثالثة على أثر التمييز في التصنيف الاجتماعي بين السومريين والأكاديين ، إذ لم يقتصر الأمر على تسمية الملكات

(1) ول ديورانت ، " قصة الحضارة " الجزء 2 ص 12 .

(2) المصدر السابق ص 22 .

السومريات بالأسماء الأكادية ، بل كان الملوك السومريون ، وخاصة آخر ملوك هذه السلالة شوسين وأبي سين ، يتخذون أيضا أسماء أكادية . كذلك كانت وظائف الإدارة تضم نسبة عالية من الموظفين أسماؤهم أكادية .. وكان الأموريون يستأجرون حقول الملك ، ولم يحجب عنهم بحال الارتقاء في وظائف الإدارة من حيث الأساس ، وتذكر المصادر أن أموريا كان رسولا للملك ، وفي كثير من الحالات نسمع عن الأموريين بأنهم يتلقون جمالات من الأغذية أو أنهم يقدمون الأضحيات .

ثالثا : لقد صار في إمكاننا تحديد مواقع أولئك السكان الرئيسية من خلال لهجاتهم المحلية التي تنعكس في أسمائهم . إن الملم باللهجات العربية القديمة يستطيع أن يميز فيها ثلاث لهجات رئيسية وهي : السريانية في الشرق وفي جبال السراة ، والغربية ، ولهجة شبه الجزيرة العربية . فالعربية السريانية بلهجتها الشرقية تضيف الصوت "و" إلى نهاية الأسماء عموما ، بينما السريانية الغربية (العمورية) تضيف الصوت " أ " و "وم" (Om) إلى نهايات الأسماء ، أما العربية العرباء النقية في شبه جزيرة العرب فتبتر هذا الصوت عادة لتحوله إلى حركة وتنوين فيما بعد ، مثال ذلك جبرو Gabro (بمعنى رجل) في السريانية ، في الغربية تصبح "جبرا Gabra" ، و "جبر Gabr" بالعربية العرباء في شبه الجزيرة . ومثلها "عمرو Amro أو عمورو Amoro في الغربية تصبح عمرا Amra أو عمارا Amara وعمرو Amr في عرباء شبه جزيرة العرب .

ومن الاسم أيضا ولهجة انتشاره يتبين أن أولئك الأموريين أو العموريين ينتمون في الأصل إلى المنطقة الغربية من سوريا ، وهذا ما يفسر بالتأكيد جعل كلمة " الغريين " مرادفة للعموريين عند أشقائهم في المنطقة الشرقية ، وليس لأن كلمة " أمورو " أو "عمورو " و "مارتو" تعني الغرب كما يزعم بعض المؤرخين ولذلك دعي البحر المتوسط باسمهم "بحر أمورو" .

يقول انطون مورتغات في كتابة " تاريخ الشرق الأدنى " : " من المؤكد أن الساميين قد نزلوا البلاد قبل أن يكون هناك امبراطورية أكادية أصلا ومن المؤكد أيضا أنهم تصاهروا مع السومريين واختلطوا بهم وتعاونوا معهم في جميع المجالات الفكرية بعد أن دخلوا البلاد

مسالمين على هجرات متتالية وبأعداد متزايدة حتى أصبح تفوقهم على السومريين حقيقة واقعة منذ قرون عديدة كما حدث في ماري وكيش خاصة ، وإننا نملك منحوتات من مدينة ماري تحمل كتابة سامية أقدم من سلالة أور الأولى ، ناهيك بعصر مسيلم الذي يشكل الفصل الأخير لعصر فجر التاريخ " (1)

يقول هنري فرانكفورت الباحث في آثار ما قبل التاريخ بصدد الشعب الذي أطلق عليه المؤرخون الغربيون هذه التسمية "السومري" لأنه وجد في منطقة سومر من جنوب العراق ما يلي :

" ويجب أن نعلم أن كلمة "السومرية" لا يمكن إطلاقها إذا تكلمنا بدقة إلا على الكتابة فقط . ولا وجود لشكل إنساني يمكن تسميته بهذا الاسم . ومن زمن العبيد (أيدو) حتى الوقت الحاضر ظل سكان بلاد ما بين النهرين يتألفون بالدرجة الأولى من بشر ينتمون إلى جنس البحر الأبيض المتوسط ... إن القضية التي كثر النقاش حولها ، قضية نشأة السومريين ، قد تكون أقرب إلى الجري وراء الخيال مما هي إلى قضية تاريخية" (2)

فإذا ما أدر كنا أن السومريين ليسوا إلا مزيجاً من الأموريين القادمين من الغرب وبعض السريان الصاعدين من منطقة الخليج تتضح لنا وحدة ذلك الشعب في عروبه وحضارته وثقافته وأرضه ، ومن ثم في دولته الموحدة التي فُض بها سرجون وجمع شمل الوطن الواحد حول عاصمته .

رابعا : لقد أدى قيام الدولة العربية السورية العمورية إلى وضوح في الهوية الجغرافية والسكانية للمنطقة برمتها ، مما ساعد على قيام سلالات ملكية حاكمة من الأسرة العربية العمورية قرابة خمسمائة عام من آشور في الشمال حتى لارسا في الجنوب ، وحتى القرن السابع عشر قبل الميلاد . ولقد برزت سلالة بابل بينهما جميعا ، وانتسب إليها حمورابي أول مشرع عظيم في تاريخ البشر . وقد ساعد على هذا الوضوح الكبير في

(1) انطون مورنفت ، " تاريخ الشرق الأدنى " ص 44 - 54 .

(2) هنري فرانكفورت ، فجر الحضارة في الشرق الأدنى ، ترجمة ميخائيل خوري ، منشورات دار مكتبة الحياة ، بالاشتراك مع مؤسسة فرانكلين للطباعة والنشر ، بيروت ، نيويورك ، 1959 ، ص 61 .

الهوية السكانية والحضارية لشعب المنطقة انتشار الكتابة الأبجدية المسمارية التي عكست الهوية اللغوية للشعب العربي من عيلام شرقاً إلى أواسط البحر المتوسط غرباً ومن المضائق شمالاً إلى بحر العرب جنوباً ، لأن الكتابة الأبجدية — كما لا يخفى — تعكس الكلمات بأصواتها ، بينما كانت الكتابة المقطعية في سومر من قبل رموزاً لأفكار وللمجموعة أصوات في صوت مقطعي واحد ، مما جعل كثيراً من المؤرخين يصرون على عدم فهم الحقيقة كما هي ، وعلى أن السومريين لا يمتنون إلى العرب أو الساميين بصلة .

خامساً : إن الاكتشافات التي عثر عليها نتيجة أعمال التنقيب في تل الحيري أظهرت أن ذلك التل ليس إلا مدينة "ماري" العمورية القديمة ، تضمنت أكثر من عشرين ألف لوح مسماري ، وهو عدد لم يخرج أي موقع آخر باستثناء نينوى قبل وبعد ذلك . ولقد تبين من خلال لغة تلك الألواح أن المفردات والمميزات الصرفية والتحوية لا تترك مجالاً للشك بأن "الذين كتبوا تلك الألواح تكلموا الأمورية أو اللغة السامية الغربية ، المتميزة عن الأكادية أو السامية الشرقية" ⁽¹⁾ ، وإن اللغة كانت مزيجاً من عناصر اللهجتين السريانية الشرقية والعمورية الغربية مما يؤكد وحدة الشعب ما بين جناحي الوطن الشرقي والغربي . وقد ظهرت في هذه الألواح أسماء المدن أمثال حلبا Halba ، وجبله (جبل) Gubla وقطنه Qtna وحرانو* Harano (حران) كإمارات عمورية ومحطات على طريق القوافل في شبه جزيرة العرب ، كما تظهر الوثائق أن جميع هذه الإمارات كانت مراكز لسلالات عمورية أو تحت حكم أمراء عموريين . وليس ذلك فقط ، بل إن كل المنطقة الواقعة بين البحر المتوسط غرباً ، ومرتفعات عيلام شرقاً ، كان يسيطر عليها أمراء عموريون في القرن التاسع عشر ، ويشير اسم أحد أمراء جبيل وهو ينتن عمّو (السيد عمّو يعطي أو يرزق ولداً) إلى أصله العموري ، إذ إن كلمة "عمّو" معناها القبيلة وسيدها ورها ، وهو بالتالي ، أحد الآباء الذين انتسب إليهم .

(1) Bulletin "American Schools of Oriental Research" No99, PP.9-10

• نرجح أن المقصود بها تلك الواقعة على خط التجارة والقوافل الدولي شرقي غامد وزهران في شبه جزيرة العرب .

سادسا : لقد جاءت وثائق مكتشفات إيبلا (عbla) في سوريا الغربية الأمورية لتؤكد أن أصول التمدن في إيبلا ترقى إلى فترة أوروك (3100 — 2900 ق.م) على الأقل ، وأن دولة "إيبلا" كانت تحكم الفرات الأوسط والأعلى حكما مباشرا . وهناك شواهد على امتداد هيمنتها الأكيدة حتى كركميش ** وأن العرب الأموريين انطلقوا من بادية الشام ، من المنطقة المحاذية لجبل البشري ، كما تؤكد على وحدة الخصائص المعمارية وتفرداها في المنطقة السورية الممتدة من الفرات إلى صحراء جزيرة العرب بصورة لم تعرفها في تاريخها ، كما تؤكد على حسن العلاقات مع جميع ممالك وإمارات الوطن العربي السوري ، تشهد على ذلك مراسم العبادة في إيبلا لجميع آلهة تلك الإمارات بدءا من عيلام شرقا ، ومرورا بسومر حتى الساحل السوري وقبرص غربا وإلى شواطئ البحر الأحمر العليا جنوبا . ويكفي أن نورد بعضا من أسماء هذه "الأرباب" لتتضح لنا الصورة بكامل أبعادها : آداما (آدم) ، والربة أدمتا (آدما) ، والرب حدد ، وآن ، وأيل ، وبردو ، وشمش ، ودجن ، وعشتار ، وانكي ، وعيلام ، وكوشر ، ورشف ، وتموز ، وأوتو ، وأنو (عانو) وعناة وجاميش وغيرهم ..

سابعا : إن السهل السوري الشهير الممتد من ضواحي نينوى ليضم كلا من تل حلف ، وحران ، وماري ، وحلب ، ول يصل خط المواصلات الذي يصعد من الخليج العربي على الدجلة حتى نينوى ، بالمر السوري في سفح جبال طوروس بالساحل السوري الذي يربط غربي آسيا بعالم البحر المتوسط ، بالطريق النازل إلى سواحل البحر الأحمر الشرقية ليربط إفريقيا ومصر والجزيرة العربية وخطوط التجارة الدولية مع الهند وشرق إفريقيا ، إن هذا السهل التاريخي الرائع هو الذي يسميه الدارسون بالسهل السوري العظيم بعد أن صاروا يطلقون على البلاد كلها الممتدة " من البحر الأعلى إلى البحر الأدنى " ومن الشمال عند المضائق إلى شواطئ البحر الأحمر اسم " سوريا " ولاسيما بعد أن أقام أحفاد "مار" الدولة البابلية العظيمة التي غطت تلك الرقعة كلها . لكن تسمية

** هي كركميش (حصن جاميش) على نهر الفرات شرقي زهران في شبه جزيرة العرب ، وليس جرابلس على الفرات في شمال سوريا كما يفترض .

أخرى أخذت تحل محل هذا الاسم تدريجياً لدى سكان المنطقة العربية من شبه جزيرة العرب ، ولاسيما المنطقة الممتدة شمال الحجاز فقد صاروا يطلقون على سوريا اسم "بلاد الشام" وتعني بلاد الشمال ، وهي تمتد من منطقة تخومهم في الحجاز شمالاً إلى أعلى الفرات . فالشام باللغة العربية تعني "الشمال" ، وشاءم به مشاءمة أخذ به إلى الشمال ، وتشأم الرجل أخذ نحو شماله ، وانتسب إلى الشمال أو الشام ، والشام أيضاً اليسار وعكس اليمين ، ومن هنا كان الشمال في اللغة مرادفاً لليساار ، وذلك لأن من يقف في المركز في قلب شبه جزيرة العرب وظهره إلى الغرب تكون سوريا إلى شماله ويساره ، وتكون اليمن إلى يمينه وجنوبه ، ومن هنا أيضاً كانت اليمن تعني الجنوب وتعني اليمين أيضاً ، ومن هنا جاءت التسميات لكل من اليمن والشام .

ولقد روى عن النبي العربي محمد (ص) " أن سائلاً سأله عن سبأ ، أرجلا كان أو امرأة ، أو واديا ، أو جبلا ، فقال له " كان رجلا ، ولد له عشرة فتشأم أربعة وتيامن ستة ، فالذين تشأموا ، لحم ، وجذام ، وعاملة ، وغسان ، والذين تيامنوا ، حمير والأزد ، ومذحج ، وكنانة ، والأشعريون وأنمار (الذين م بجيلة) وخثعم⁽¹⁾

وفي هذا السهل بالذات يبدأ التاريخ العربي السوري حكاية الدولة التي كانت وما زالت حجر الزاوية في تاريخ الوطن العربي كله . وإن أول ممثلي هذا التاريخ هم الأموريون . ولقد لفت تاريخ هذا السهل أنظار جميع الباحثين من شتى بقاع العالم . وأخذوا يتسابقون إلى استكشاف التلال المبعثرة في أرجائه بوفرة لم تعرفها أية أرض أخرى في العالم . وإن ما اكتشف من تاريخ الشعب العربي السوري في هذا السهل اليوم جعل كثير من المؤرخين يعيدون النظر في كل ما كتب عن تاريخ المنطقة العربية ، وها هو أولبرت كيلبي يصرح بأن " حضارة البابليين الساميين إذا لم يكن أصلها في بلاد الأموريين فإن نشوءها خلال مدة طويلة على الأقل كان في تلك البلاد ، وأنه كان للأموريين إمبراطورية واسعة منذ الألف الرابع والخامس قبل الميلاد" وأن النظرية التي

تقول بأصل الساميين من جزيرة العرب لا أساس لها " (1) .

وسواء أكان أولبريت كيلبي على حق أم لا ، فإن ذلك ليس يعنيننا هنا ، لأنه ليس مهما لدينا أن يكون الوطن الأصلي للعرب الساميين شبه جزيرة العرب أو سوريا ، بل كل ما يهمنا هو أن نعرف القارئ بمدى الحيرة التي تنتاب المؤرخين عقب كل اكتشاف آثاري جديد في المنطقة العربية السورية التي جهد كثير منهم وزمنا طويلا على طمس معالمها الحضارية والتاريخية . وإن هذه الحيرة في حد ذاتها تؤكد صحة وجهة نظرنا في أن العرب لم يأتوا إلى سوريا في شكل غزوات بدوية متخلفة ، بل كانوا على الدوام يجولون في أرضهم العربية ، يتجاذبهم في ذلك طرفا الصراع الرئيسي : البداوة والمدنية ، وكلما حاول المؤرخون وضع بداية زمنية للوجود العربي المدني المستقر في هذا الجزء من الوطن العربي السوري أو ذاك ، ما تلبث أن تطلع عليهم أعمال التنقيب بمفاجآت كبرى جديدة ، حتى صار الأمر المنطقي المعقول الوحيد هو الانطلاق من اساس عروبة المنطقة ككل منذ أن عرفت أرضها الانسان في شكل الجماعة البشرية الأولى .

إن سوريا لم تقل كلمتها الآثارية بعد ، وإن ما اكتشف حتى الآن في أوغاريت ، وأفاميا ، وتدمر ، وماري ، وغيرها لا يشكل إلا جزءا جد يسير مما لا يزال مخبوءا تحت الأرض في تلك المدن ، وإن مخطوطات " إيبلا " لا تزال قيد الدرس ، وإن آلاف من التلال والمواقع الأثرية الأخرى ، التي يخفى كل منها مدينة قديمة ، ما تزال تنتظر .

ثامنا : إن أولئك العرب الأموريين هم الذين شغلوا جبال وسهول سوريا الساحلية أيضا ، تشهد على ذلك ، آثارهم ، ومدنهم ، وقراهم ، التي ما تزال تحمل أسماءهم والتي تملأ ثنيات الجبال والسهل الساحلي الممتد من مرسين شمالا إلى أقصى الجنوب في سينا جنوبا . وليست عمريت (جنوب طرطوس) ، وبيت مري (في لبنان) ، والعمورية ، وعمورين ، وبعمر ، وغيرها من القرى الكثيرة الأخرى سوى بعض الشواهد على ذلك الباقية حتى اليوم . وليس الفينيقيون القدماء غير أو بعض العموريين الذين شغلوا الساحل

(1) انظر : Albret T.Clay , "Amuru: The land of the Northern Semites"

"The Empire of the Amorites"

السوري في المنطقة الممتدة من غرب انطاكية وحتى جنوبي صور قبل قدوم الفينيقيين الكنعانيين الجدد من صور على الخليج العربي (في عمان الحالية) بزم من طويل .
لقد أدى ذلك الارتباط العضوي بين مشرق الوطن العربي في منطقة الخليج العربي مع سومر واعيالي الفرات من جهة ، ومع أطراف البحر الأحمر من جهة ثانية عن طريق وادي الرمة والدواسر ، إلى قيام تجانس حضاري ، بين أطراف الوطن الأربعة ، رفيع المستوى منذ ما قبل الألف الثالث قبل الميلاد ثم استمر مع الزمن دون أن ينقطع رغم كل العوامل التي طرأت فيما بعد على المنطقة سواء أكانت جغرافية ، أو مناخية ، أو سياسية ، أو استعمارية في الزمن الحديث .

وإن هذا الاندفاع الحضاري العربي هو الذي عبر البحر الأحمر غربا إلى وادي النيل ليقيم هناك مركزا آخر ، وشاهدا آخر على تفوق الحضارة العربية منذ طفولة البشرية .
لقد بقي المؤرخون زمنا طويلا يعتمدون على عروبة البناء الحضاري في مصر جاعلين منها جزيرة حضارية منفردة لا تمت إلى الحضارة العربية بصلة ، شأنهم في ذلك شأن ما صنعوا بالنسبة إلى سومر . فكما كانت " سومر " مطوقة من جوانبها الأخرى بالقبائل الهمجية المتخلفة وليس لها أي اتصال مع الحضارة إلا من خلال أجزائها الملازمة ، والمتصلة ، والمرتبطة عضويا بالجسد الأم ، بالوطن العربي ، فكذلك هو شأن مصر . لكن المكتشفات الحديثة ما لبثت أن أرغمت كثيرا من مؤرخي الحقبة الاستعمارية على الاعتراف ، ولو جزئيا ، بالهوية الحضارية العربية في مصر منذ خطوات الحضارة الأولى على أرض مصر . وإن إصرار بعض المثقفين المصريين اليوم ممن أتخمت عقولهم بالتركيز الاستعماري المقصود على تفرد مصر الحضاري لم يغير من الأمر شيئا ، ولن يفعل أكثر من إبرازهم كبقايا أصوات من الحقبة الاستعمارية تدوي في وادي الأمس المظلم الذي مد عالم اليوم من فوقه جسور الضوء لتعبير الحقيقة ، ولتملاء كل بقاع الوطن .

يقول ول ديورانت : " وما من أحد يعرف من أين جاء هؤلاء المصريون الأولون " . إن ذلك هو ما قاله بالنسبة للسومريين أيضا ، لكنه ما لبث أن يدعن لما تقوله المكتشفات ، والدراسات العلمية لمخلفات الماضي ، فيقول مع وولي ، وماسبرون ودون : " ويرجح

أن الغزاة أو المهاجرين الذين وفدوا من غرب آسيا قد جاؤوا معهم بثقافة أرقى من ثقافة أهل البلاد ، وإن تزواجهم مع هؤلاء الأهلين الأقوياء قد أنجب سلالة هجينة كانت مطلع حضارة جديدة كما هو الشأن في جميع الحضارات ، وأخذت هذه السلالات تمتزج امتزاجا بطيئا حتى تألف من امتزاجها فيما بين عام 4000 و 3000 ق.م شعب واحد هو الشعب الذي أوجد مصر التاريخية ⁽¹⁾ . وليس عسيرا أن نكتشف كيف أنه كغيره يستخدم " طاقية الأخفاء " ليتجنب ذكر اسم " سوريا " مستخدما مصطلحا جغرافيا هو " غرب آسيا " نزولا عند الرغبة الصهيونية لتبقى عشائر التوراة في الصدارة من الأحداث التاريخية في المنطقة .

(1) ول ديورانت " قصة الحضارة " الجزء 2 ص 65 .

العرب الأموريون مؤسسو الدولة العربية السورية

نواة الدولة العربية الكبرى

ذكرنا كيف أن هذه المنطقة التي أطلق عليها اسم "سوريا" كانت تمتد من البحر الأدنى "بحر العرب" إلى البحر الأعلى "البحر الأسود" إلى شواطئ البحر الأحمر الشمالية الشرقية ، ومرورا بحوض وادي الرمة والدواسر إلى الخليج العربي . ولقد تميزت هذه المنطقة بـ :

1 — وجود قبائل وشعوب بدائية عند حديها الشمالي والشرقي تهدد أمنها واستقرارها بين فترة وأخرى ، وتنقض على مدنها ومراكزها الحضارية فتدمر وتقتل وتنهب ، ثم تعود إلى معتصماتها ومعقلها خلف الجبال المنيعه .

2 — تتميز هذه البقعة بالمسافات الشاسعة المتنوعة في تضاريسها وطبيعتها الجغرافية ومناخاتها ، مما يجعل المراكز الحضارية المكثفة في أحواض الفرات الأعلى والأوسط والأدنى وسواحل المتوسط والبحر الأحمر وفي السهل السوري الداخلي بقاعا متطرفة ومنعزلة أمنيا وجغرافيا إحداها عن الأخرى ، إما بموانع جبلية ، (كما في الساحل السوري الممتد إلى جنوب سيناء) ، أو ببراري شاسعة ومغاويز يصعب اجتيازها إلا من خلال معابر وطرق معروفة تسلكها القوافل ، وتستغرق زمنا طويلا يحد من فعالية سيطرة الدولة على شتى أجزاء مقاطعاتها مهما بلغت فعاليتها في ذلك الزمن حيث الجمال ثم الخيول كانت ما تزال واسطة النقل والاتصال الوحيدة .

3 — إن موقع سوريا موقع فريد في قلب العالم ، وعلى ملتقى القارات التاريخية الثلاث آسيا وأوروبا وأفريقيا ، وفي الموقع المسيطر على أهم شطآن بحار العالم التجارية : المتوسط ، والخليج العربي ، والبحر الأحمر ، وفي أغنى بقاع العالم ، وأكثرها خصوبة ، وتنوعا في المناخ والنباتات والمزروعات ، وتتضمن أراضيها أهم الطرق الدولية البرية التجارية بين أصقاع العالم القديم قاطبة . فهناك الطريق الدولي الذي يمكن تتبعه من دلتا

النيل إلى شبه جزيرة سيناء ، حيث مناجم الفيروز والنحاس ، حيث يتفرع عند العقبة إلى فرعين : يذهب أحدهما بمحاذاة الساحل الشرقي للبحر الأحمر إلى بلاد البخور والعاج والأبنوس ، ثم يذهب شرقا إلى عمان حيث النحاس أيضا ويصعد إلى الخليج ، ومنه يتفرع إلى فرعين ، أحدهما يذهب عبر السواحل إلى الهند ، والآخر يصعد مع الدجلة إلى نينوى ومنها إلى ماري وأعلى الفرات ثم يتقدم غربا إلى الممر السوري حيث يلتقي بالطريق الدولي الآخر الذي يصعد من خليج العقبة نحو الساحل السوري الجنوبي حتى الكرمل على مسافة من البحر ، ثم يتفرع إلى طريقين يتجه الواحد بمحاذاة الساحل فيصل صور وصيدا وجبيل وسائر الموانئ السورية ، ويسير الآخر إلى الداخل ليعبر نهر الأردن في واديه الشمالي ، ثم يتجه رأسا إلى دمشق في الشمال الشرقي ، ومن هنا يتفرع عنه طريق آخر يعبر بادية الشام بواسطة تدمر ، ويربط القلب السوري بأطراف الوطن الشرقية ومراكزه الحضارية من سومر إلى بابل إلى بغداد . أما الطريق الرئيسي فإنه يتابع سيره من دمشق نحو الغرب فيعبر ممر الزبداني إلى سهل البقاع ، ثم عبر سوريا المخوفة مع نهر العاصي إلى شمال سوريا ، ويتفرع عنه فرع يتجه نحو الغرب مع وادي النهر الكبير إلى الساحل ، ثم يتابع سيره ليلتقي بالخط الآخر في الأبواب السورية في الأمانوس وكيليكيا القادم من الخليج العربي ووادي الدجلة ونيوى من الشرق .

4 — إن ذلك الموقع الفريد ، وتلك الطرق الدولية الفائقة في أهميتها بالنسبة إلى كل الدول والشعوب الطامحة إلى التوسع جعلت من تلك المنطقة مركز جذب لكل القادة والفاثحين ، كما كانت تغري كل القبائل والشعوب البدائية الأخرى بالغزو لكثرة ما تحمله من سلع ومنتجات الزمن القديم كالعاج والذهب من أفريقيا ، والمر والبخور والتوابل من الهند وجنوبي بلاد العرب ، والكهرمان وشرائق الحرير من آسيا الوسطى والصين ، والقمح والأخشاب والخمر والزيت والمنسوجات والأرجوان والأسلحة والقصدير والنحاس والبرونز والفخار من سهول سوريا وجبالها .

5 — إن ذلك كله لم يكن ليمر دون أن يترك آثارا لا تمحى على تكوين شخصية الإنسان العربي السوري . لقد خلق منه إنسانا متنوع المواهب والامكانيات ، سريع

التأقلم والتكيف لكثرة تنوع بيئته وغناها ، مجداً ومجتهداً من جانب ، ومحباً لحياة البذخ من جانب آخر ، مادياً ، بارعاً في استغلال إمكاناته وموقع بلاده في سبيل جني المكاسب والأرباح الطائلة وجمع الثروات ، وكرهما مسرفاً في جانبه الآخر ، يقدس المناقب الروحية الرفيعة ، وينظم لها طقوس التعظيم ويتمسك بذلك ، مسالماً وديعاً ، وجسوراً مغامراً ، مفرطاً في حبه لارتياح المجاهيل ، محباً لذاته ، فردياً إلى درجة الأنانية من جانب ، وشهماً غيوراً وطنياً لا يعرف حداً تقف عنده وطنيته . وفوق هذا كله وذاك ، فقد خلقت هذه الشروط لديه حساً استراتيجياً متفوقاً كان له أكبر الأثر في عملية نشوء الوطن العربي الكبير والحفاظ عليه كل هذه الآلاف من السنين .

العرب السوريون والعقل الاستراتيجي

إن شعور العرب السوريين بغنى بلادهم ، وبأهمية موقعها ، وبفوقهم في مجال الإبداع الحضاري ، وبالأخطار المحدقة بهم ، ولد لديهم رد فعل طبعياً ، تجلّى بنمو ذهنية استراتيجية متطورة ، كانت هي الأساس في نشوء الوطن العربي ، وفي انبثاق الشعور القومي وتطوره على مدى الزمن التالي حتى عصرنا الراهن . ولقد تجلّى العقل الاستراتيجي لدى العرب السوريين في النواحي التالية :

أولاً : لقد أكد الأموريون (أو العرب السوريون) منذ الألف الرابع قبل الميلاد ، على الأقل ، أن نظام المدن — الدويلات الذي انتشر في سومر ، وفي حوض الفرات الأعلى ، وعلى الساحل السوري الغربي ، كان أعجز من أن يتصدى لتلك الأخطار المحدقة ، والتي تترصد به من خلف الجبال في الشمال والشرق بين كل فترة وأخرى ، مهما بلغت تلك الدويلات من الرقي والتقدم الحضاريين. بل وأكثر من ذلك، فقد كانت تلك المدن تتحول إلى مراكز إغراء بالغزو كلما تقدمت في المجالات العمرانية والاقتصادية ، وكلما تمكنت من أن تحقق مستويات متقدمة من العيش لأبنائها كلما زادت احتمالات غزوها ونهبها وتدميرها من الخارج . ولقد أدى ذلك إلى نحو شعور متعاظم بوجوب قيام دولة قومية مركزية قوية تكون قادرة على خلق كل مجالات النمو والإبداع والتطور لشعبها ،

وتأمين الأمن لكل الطرق التجارية الدولية التي تسلكها القوافل لتنقل منتوجات العالم القديم كله ، من خلال أراضيها الشاسعة المتوسطة والمترامية ، وتوجيه الضربات الماحقة — إذا أمكن — لكل قوى الغزو المتربصة في معاقلها الجبلية ، وردع القوى الطامعة بثروات الوطن .

ثانياً : لقد أدرك الأموريون أو السريان (أو العرب السوريون) الأهمية الاستراتيجية الفائقة لمنطقة البحر الأحمر التي تربطهم بإفريقيا عن طريق ممر القوافل الدولي الذي يدور حول أطراف البحر الأحمر الشمالية عبر سيناء ، وعن طريق البحر الأحمر نفسه ومضيق باب المندب ، في الوقت الذي كانت فيه السفن ما تزال شرعية وأعجز من أن تذهب بعيداً إلى أعماق البحار الكبرى كما يجعلها تتحكم بطريق القوافل المحملة بمنتوجات جنوب شبه الجزيرة العربية والهند أيضاً .

لقد كان البحر الأحمر والمنطقة المطلة عليه من شبه الجزيرة العربية ، بفضل هذه الميزات ، يشكل موقعاً استراتيجياً لا يضاهيه أي موقع آخر ، بالإضافة إلى أن عالم الشمال الإفريقي الذي ينفتح من خلفه يشكل مسرحاً سهلاً عميقاً وبعيد المدى لممارسة النشاطات العربية السورية المتفوقة .

وإن نظرة واحدة إلى باقي مناطق التخوم الأخرى ترينا حدوداً شبه مغلقة تقريباً من الشمال والشرق بموانع جبلية صعبة ، باستثناء بعض المسالك التي كان يمكن أن تتسلط عليها عصابات القبائل الجبلية وتهدد طرق التجارة والمواصلات فيها في الزمن الذي تريد ، كما أنه لم يكن خلف تلك الجبال ما يغري بمغامرات اقتحامها ، في ذلك الزمن ، إلا من أجل تأمين خطوط التجارة عبر تلك الممرات ، وذلك لصعوبة الاحتفاظ بها والدفاع عنها ، من جهة ، ولانقطاعها عن العالم المتمدن من جهة أخرى .

أما الحُد الغربي المتمثل بالبحر المتوسط فقد ظل نداء سحرياً يغري العرب السوريين ، المفعمة نفوسهم بحب المغامرة ، بارتياحه . لكن السفن الشراعية العاجزة عن تلبية متطلبات الأسفار الطويلة بقيت عقبة حقيقية زمنياً طويلاً إلى أن عززت بالمحاذيف ذات الصفوف من الجانبين .

لكن ذلك لم يكن ليوقف أولئك السوريين الساحليين عند حدود الاستسلام للظرف ، بل سرعان ما انطلقوا بمحاذاة سواحلهم الجنوبية إلى مصر ، ثم اندفعوا غرباً على طول الشواطئ الجنوبية للبحر المتوسط حتى المحيط الأطلسي مستخدمين في ذلك أسلوباً فريداً من نوعه لم يسبقهم إليه شعب من الشعوب . فلما كانت سرعة سفنهم في بادئ الأمر لا تتجاوز بضعة أميال ، ولم تكن هذه السفن بقادرة بعد على تحمل السفرات الطويلة في عرض البحار ، فقد لجأوا إلى أسلوب الإنحار على مسافة قريبة من الشاطئ ، وبناء "العساقل" على طول الشواطئ البعيدة التي تمتد غرباً إلى المحيط الأطلسي . لقد ابتدعوا هذه الطريقة نتيجة لظروف السفن وإمكاناتها المتحكمة بهم من جهة ، ولشدة توقعهم إلى تلبية نداء المتوسط الذي يحثهم كقوة إغراء سحرية إلى ركوبه واستجلاء مجاهيله في جانبه الغربي من الطرف الآخر . ولقد كان غرضهم من إقامة مثل تلك "العساقل" على الشواطئ أن تجد سفنهم مساء كل يوم من السير شاطئاً صلباً متماسكاً ملائماً لأن تأوي إليه تلك السفن ليستريح بحارتها من أعباء التجديف اليومي ، وليتزودوا بالمؤن اللازمة لمواصلة الرحلة .

لكن هذه "العساقل" ما لبثت أن تحولت إلى مستوطنات ، يتواجد فيها أولئك الأموريون السوريون بصورة دائمة ، لتأمين متطلبات مواطنيهم المأبرين على تطوير تجارتهم وملاحتهم البحرية بكفاءة منقطعة النظر . ثم ما لبثت أن ظهرت المدن وانتشرت على طول الشواطئ الجنوبية ، ثم الغربية والشمالية للمتوسط ، ثم ما لبثت أن تحولت جميع جزر هذا البحر إلى محطات ومستوطنات عربية سورية أمورية ، وصار يدعى "بحر أمورو" .

لقد صار واضحاً الآن أن قيام أية دولة عربية سورية إنما كان يعني تحقيق المهمات التالية :

• ما تزال هذه الكلمة الأمورية تحافظ على معناها حتى اليوم فالعساقل في اللغة تعني الموقع من الأرض أو الشاطئ المتميز بصلابته وتماسكه ، ومنها كانت تسمية عسقلان على الساحل فسي سوريا الجنوبية .

1— تحرير الداخل من حكم الأمراء الاقطاعيين والدينيين المستغلين في الدويلات — المدن ، والقضاء على نفوذهم ، وتحرير المواطنين من سيطرة رجال المعبد والأمراء سياسياً واقتصادياً ، وتوحيد تلك الإمارات في دولة مركزية واحدة تعين حكاماً للمقاطعات من موظفين مركزيين .

2 — بناء جيش قوي قادر على فرض هيبة الحكم المركزي في الداخل من جهة ، وردع كل قوى الغزو الخارجية من جهة أخرى .

3 — إحكام السيطرة الاستراتيجية على جميع مغاليق ومداخل الطرق التجارية الدولية ، ولاسيما منطقة السواحل الشرقية للبحر الأحمر وجنوب شرق الأناضول .

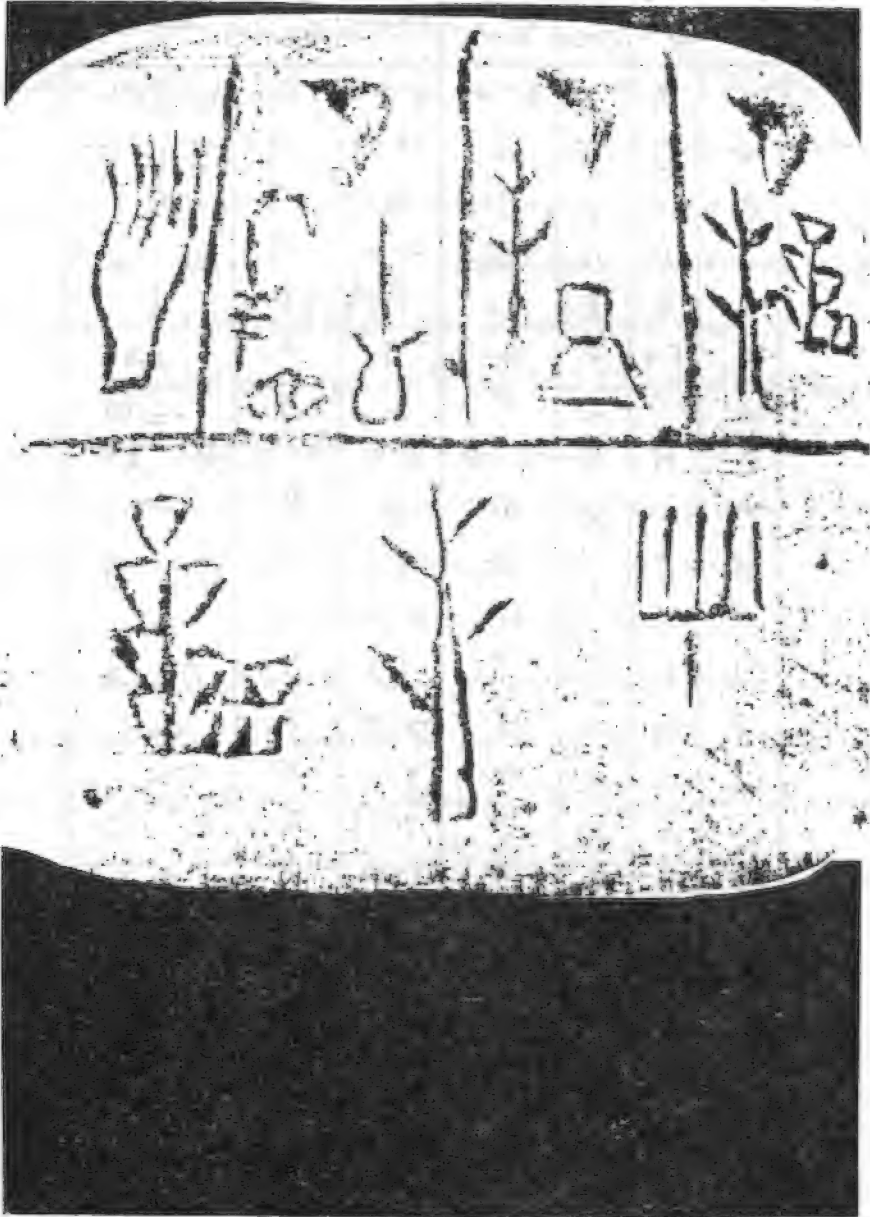
4 — تأمين المناطق الخلفية للسوريين الذين يشغلون منطقة الساحل السوري الطويل ، وحماية ظهرهم من غزوات الأقوام التي قد تنقص من الشمال بوجه خاص ، ليتمكنوا من تكريس جهودهم السلمية البناءة على شطآن البحر المتوسط وجزره ، وتحويله إلى بحيرة عربية سورية اقتصاديا وثقافيا .

تلك كانت باختصار المهمات الرئيسية التي كانت تتصدى لها كل دولة مركزية حاول العرب السوريون إقامتها في الزمن القديم . وقد أخذ الصراع من أجل تحقيق هذه الأهداف يحتل العناوين البارزة في تاريخ المنطقة ، بصرف النظر عن النجاحات أو الفشل التي كانت تحققها هذه الدولة أو تلك ، في إنجاز هذه المهمات كلها أو بعضها .

المصرية	الفينيقية	البرزانية	البرزانية	البرزانية	المصرية	المصرية
ا	A	A	𐤀	𐤀	𐤀	𐤀
ب	B	B	𐤁	𐤁	𐤁	𐤁
ج	CG	𐤂	𐤂	𐤂	𐤂	𐤂
د	D	𐤃	𐤃	𐤃	𐤃	𐤃
هـ	E	𐤄	𐤄	𐤄	𐤄	𐤄
و	FV	𐤅	𐤅	𐤅	𐤅	𐤅
ز	...	𐤆	𐤆	𐤆	𐤆	𐤆
ح	H	𐤇	𐤇	𐤇	𐤇	𐤇
ط	...	𐤈	𐤈	𐤈	𐤈	𐤈
ي	I	𐤉	𐤉	𐤉	𐤉	𐤉
ك	...	𐤊	𐤊	𐤊	𐤊	𐤊
ل	L	𐤋	𐤋	𐤋	𐤋	𐤋
م	M	𐤌	𐤌	𐤌	𐤌	𐤌
ن	N	𐤍	𐤍	𐤍	𐤍	𐤍
...	X	𐤎	𐤎	𐤎	𐤎	𐤎
ع	O	𐤏	𐤏	𐤏	𐤏	𐤏
ف	P	𐤐	𐤐	𐤐	𐤐	𐤐
ص
ق	Q	𐤑	𐤑	𐤑	𐤑	𐤑
ر	R	𐤒	𐤒	𐤒	𐤒	𐤒
س	S	𐤓	𐤓	𐤓	𐤓	𐤓
ت	T	𐤔	𐤔	𐤔	𐤔	𐤔

جدول بعض الأبجديات للدلالة على تسلسلها

نماذج من تطور الكتابة العربية من التصويرية إلى المسمارية إلى أبجدية الحروف



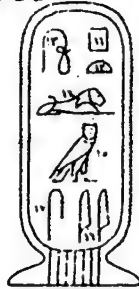
بدايات الكتابة التصويرية في سوريا ، مدينة الوركاء السوية الرابعة — آ —

نماذج من تطور الكتابة العربية من التصويرية إلى أبجدية الحروف

پ = ١٠	□	ك = ١	△
ت = ١١	○	ي = ٢	∩
و = ١٢	⊙	ا = ١٠١	🦅
ل = ١٣	🦅	ت = ٧	—
م = ١٤	🦅	ر = ٨	—
آي = ١٥	∩	١٠ بجد لا ينظ	⊙
س = ١٦	∩		

حجر رشيد والهيروغليفية المصرية

پتولمايوس



PTOLEMAIOS














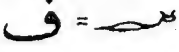





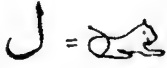




كليوباترا



KLEOPATRA

المعنى	اللفظ	الصورة	الكتابة الصورية الوركاء IV حوالي ٣٢٠٠	الكتابة السومرية العتيقة على الحجر على الطين ٢٥٠٠ - ٢٤٥٠ - ٢٤٠٠	الملاحظات المسمارية في حوالي	هشيرة البابلية الكتابة القديمة ١٨٠٠ - ١٧٠٠
سماء إله	an dingir	نجم				
أرض	ki	أرض				
رجل إنسان	lu	جسم إنسان				
فرج امرأة	sal munus	فرج				
جبل	kur	جبل				
عبد امرأة حيلة	munus + kur + gema	جبل + فرج				
رأس	sag	رأس				
يتكلم	ka = dug	رأس = فم				
طعام	ninda	وعاء				
يأكل	ka + ninda	فم + وعاء				
ماء في	a	بحري ماء				
يشرب	ka + a = nag	فم + ماء				
يذهب يقوم	du gub	قدم				
طائر	muschen	طائر				
سكة لعل	ha	سكة				
ثور	gud	ثور				
بقرة	ab	بقرة				
شعير حبوب	sche	سنبلة				









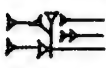































"نماذج" من مراحل نشوء ، وتطور الكتابة المسمارية

خ = 	ا =  راجع الشرح بشأن استعماله حرف علة
خ = 	ى =  استعمال حرف علة على عهد اليونان
س = 	ع = 
س =  كان التلفظ به يختلف أولاً بعض الاختلاف عن الحرف السابق	و =  راجع الشرح بشأن استعماله حرف علة
ش = 	ب = 
ق =  كذلك ان على عهد اليونان	پ = 
ك = 	ف = 
ج =  كما يلفظه المصريون في القاهرة	م =  كذلك العلامة بعدئذ
ت = 	ن = 
ث = 	ل =  في الازمنة المتأخرة ولكهما استعملت قبلاً للدلالة على ر
د = 	لا = 
ح =  كما يلفظه العامة في شمال سوريا	ح = 

اللغة العربية القديمة بالخط الهيروغليفي المصري

كل واحد من هذه الحروف كان يدل على حرف صحيح ، ولامراء في أن المصريين
كبكية أشقائهم العرب كانوا يلفظون كلماتهم بحركة لكنهم — كما في العربي غير

المشكل — لم يكتبوا الحركات ، وفي الأعصر المتأخرة استعملوا ثلاثة من الحروف الصحيحة كحركات ، الأول والثاني والرابع على القائمة .

معنى أصلي أو مشتق	آشوري	بابلي قديم	وسماري متأخر	الأصل
طير				
سمكة				
حار				
نور				
شمس يوم				
حبوب				
شجر				
يفلح بحرث				
يرمي				
يقف يذهب				

Α	Α	Α	Α	Α
Β	Β	Β	Β	Β
Γ	Γ	Γ	Γ	Γ
Δ	Δ	Δ	Δ	Δ
Ε	Ε	Ε	Ε	Ε
Ζ	Ζ	Ζ	Ζ	Ζ
Η	Η	Η	Η	Η
Θ	Θ	Θ	Θ	Θ
Ι	Ι	Ι	Ι	Ι
Κ	Κ	Κ	Κ	Κ
Λ	Λ	Λ	Λ	Λ
Μ	Μ	Μ	Μ	Μ
Ν	Ν	Ν	Ν	Ν
Ξ	Ξ	Ξ	Ξ	Ξ
Ο	Ο	Ο	Ο	Ο
Π	Π	Π	Π	Π
Ρ	Ρ	Ρ	Ρ	Ρ
Σ	Σ	Σ	Σ	Σ
Τ	Τ	Τ	Τ	Τ

لقد صار في إمكاننا الآن أن نقول ، وعلى درجة كبيرة من اليقين ، بأن السكان العرب الذين خالطوا " السوريين " (ابناء "سر") في سومر في مدغم ومعابدهم ، وفي السلطة وإدارة شؤون المواطنين ، إنما كانوا من العرب الأموريين الذين ما لبثوا أن عبروا عن وجودهم بقوة طاغية ومباشرة وأهم والسومريين شعب واحد . كما أن الكتابة السومرية لم تكن تعني لغة محكية ، بل كتابة مقطعية رمزية فيها إيجاز كبير لأصوات اللغة المحكية اقتصر على موظفي المعابد وعلى حساباتهم التجارية وصلواتهم وأسرارهم الدينية ، وأن الكتابة الأبجدية حينما ظهرت أظهرت معها حقيقة اللغة المحكية اليومية

وكشفت عن هوية السكان العامة ، وأن سرجون مؤسس أول دولة عربية سورية ، بل وأول دولة في العالم ، كان سوريا ، ربي ونشأ وترعرع في سومر ، وجعل ديدنه تحرير البلاد العربية السورية كلها من الغزاة الخارجيين وأمراء الإقطاع الداخليين ، من عيلام إلى المتوسط ، مما أكد مرة أخرى وحدة هذا الشعب في كل مناطقه ، بصرف النظر عن كل التسميات التي أطلقت عليه . ولقد تأكد أيضا أن تلك التسميات المختلفة التي واكبت مرحلة نشوء الدويلات — المدن ، ثم الدول المركزية التي كانت تغير العاصمة من فترة لأخرى ، لم تكن لتغير شيئا من حقيقة هوية الشعب العامة . إن نظرة واحدة على الواقع العربي الراهن ترينا من كثرة أسماء الدول والحكومات ، والعواصم ، والأسر ، أكثر بكثير مما كانت عليه الحال في زمن العرب الأموريين . لكن هذا ليس يعني للمؤرخ إطلاقا أن السعوديين عرق ، والعراقيين ، أو الجزائريين ، أو التونسيين ، أو غيرهم أعراق أخرى ، أو أمم أخرى ، وأنه ليس ثمة قضايا عربية كبيرة على مستوى جماهير الشعب العربي كله وفي جميع أقطاره ، تبقى هي الأساس والمحرك ، والموجه ، لحركة التطور الاجتماعية ، والسياسية ، صوب الأزمان المقبلة .

وإذا كان الزمن السومري إنما هو جزء من زمن عربي سوري — أموري فإن مما لا شك فيه أن ما دعي بـ "الإمبراطورية العربية" السابقة للمرحلة السومرية لم تكن إلا حضورا بارزا آخر لأولئك العرب الأموريين الذين ملأوا أنحاء الوطن العربي آنذاك من منطقة الخليج إلى شبه جزيرة العرب وسواحل البحر الأحمر ، إلى دلتا وادي النيل ، إلى سوريا الطبيعية الممتدة من شواطئ البحر الأحمر إلى أعلى الفرات .

لقد شكل أولئك العرب الأموريون أبناء "مر" مع أشقائهم أبناء "سر" قاعدة السكان الأصليين في الوطن العربي ، ولما جاء من بعدهم نسل آدم الرسول الذي احتفظ ببعض فروعه النسابون العرب منذ القدم ، وتوارثوا حفظه جيلا بعد جيل ، لم يكن في الأمر أكثر من عملية استمرار للعرب الأولين السابقين لآدم ، فانضافت الفروع إلى الأصل ، وتكاثرت فروع الأصل وفروع الفروع وتعاقت الأجيال ، فامتزج أبناء آدم بأبناء شعبهم من الأجداد الآخرين الذين تميز من بينهم "سر" و"مر" في سوريا الممتدة

من الخليج إلى حوض الفرات الأعلى ومن المضائق إلى ساحل البحر المتوسط ، و"رب" في شبه جزيرة العرب ، وسمي بيت الأول (قبيلته وأبناؤه) "أسرا" كما سمي بيت الثاني (قبيلته وأبناؤه) أمر ، عمرو ، عمورو ، كما سمي بيت الثالث (قبيلته وأبناؤه) عرب .
ومن هذا فإن العرب والأموريين والسوريين أشقاء في بيت واحد .
لقد أنشأ الأموريون مدنهم منذ الألف السابع قبل الميلاد في مناطق الخليج الشرقية وفي الساحل الغربي المطل على البحر المتوسط وإذا كانت مدن الشرق الأولى قد اختفت تحت مياه بحر الخليج فإن بعض المدن الأخرى ظلت قائمة دهرا طويلا ، كما ظل بعض منها قائما حتى يومنا هذا . ومن المدن الأمورية التي تعود إلى ما قبل الألف الرابع قبل الميلاد : أريدو ، ونيبور ، وكيش ، ولغش ، وأور ، وأوروك ، ولارسا ، وسوسا ، وماري ، وإيلا ، وحلب ، وحماه ، وحمص ، ودمشق ، وأوغاريت ، وأريحا ، وجيبيل ، وعمريت ، وأفاميا (في سوريا المتوسطة) وغيرها

الفصل السادس

الدولة العربية الأمورية الأولى في سوريا

سرجون العظيم رجل التحرير والتوحيد

لقد شق على مؤرخي الحقبة الاستعمارية أن يروا في العرب منذ آلاف السنين رجالاً جسدوا مضامين التحرير والوحدة والعدالة ، فعمدوا إلى تشويه الوجه الناصع لأمثال هؤلاء بعد أن هربوا التاريخ الحضاري العربي ليلصقوه بغيرهم من القبائل الهمجية . فانتزعوا السومريين من الشرق والفينيقيين من الغرب ، والمصريين من الجنوب من هويتهم العربية ليجعلوا منهم جزراً بشرية لا علاقة لها بمن حولها ، بل ولا بأية بقعة أخرى على هذا الكوكب .

لقد أصر أولئك المؤرخون على اعتبار السومريين شعباً لا علاقة له بالمنطقة العربية ، أنزل مع "حضارته" وكأئنا من السماء ، ثم لما برز العرب الأموريون فجأة على مسرح أحداث المنطقة كلها، ومن بينها "سومر" ، لم يترددوا في اعتبارهم غزاة مغتصبين للحضارة . لقد اعتدنا أن نرى العرب غزاة من البدو في تاريخ أولئك المؤرخين .

فهم مرة يجتاحون مناطق الهلال الخصيب بأسرها ويأخذون منها حضارة شعوبها ويفرضون عليها لغتهم كما يردد "نقله" التاريخ من العرب عن كتب بعض المؤرخين والمستشرقين المغرضين ⁽¹⁾ ، ومرة يجتاحون عيلام عسكرياً ويفرضون عليها حضارتهم وثقافتهم (صموئيل كرىمر) ، ومرة ثالثة يجتاحون بلاد سومر ، ويأخذون منهم حضارتهم بكليتها (تويني وغيره) .

يقول الدكتور نبيه عاقل في كتابه " تاريخ العرب القديم وعصر الرسول " (دون أن يشير إلى المصدر الذي استقى منه هذه الأقوال مما يجعلنا نفترض أنه يؤيدها ويتبناها

(1) انظر : نبيه عاقل " تاريخ العرب القديم وعصر الرسول " ص 16 .

لنفسه) في حديثه عن الهجرات السامية : " ولما حل الساميون في وادي الرافدين الذي كان يسكنه السومريون المتحضرون ، كانوا في حالة بداءة وجهل ، ولكنهم ما لبثوا أن تعلموا من السومريين في بناء المنازل ووسائل الري والكتابة وغير ذلك ، ومن اختلاط السومريين غير الساميين بالموجة السامية الجديدة نتج البابليون الذي قدموا للحضارة الانسانية الكثير من ميراثها الثقافي .

وحوالي منتصف الألف الثالثة ق.م (2500ق.م) حدثت هجرة سامية أخرى حملت الأموريين إلى الهلال الخصيب والفينيقيين غربي الشام وفلسطين .

وبين سنتي 1500 — 1200ق.م هاجر العبرانيون إلى جنوب بلاد الشام أي فلسطين ، والاراميون (السريان) إلى الشمال وحلوا في منطقة سهل البقاع بين جبلي لبنان الشرقي والغربي .

ولقد أدت هذه الهجرات إلى نتيجتين : أولاً : تخلي هؤلاء المهاجرين البداة عن بداهتهم واستقرارهم ثانياً : اصطدام مؤسساتهم الحضارية ونظمهم الاجتماعية بنظم الأمم الجديدة التي عاشوا إلى جوارها . وقد نتج عن هذا التصادم ظهور مدنيات جديدة مزدهرة متقدمة على حضارة الصحراء التي اندفع منها الساميون . ولا بد لنا هنا من أن نذكر أن الدراسة العميقة لهذه الهجرات تبين لنا بوضوح قوة اللغة السامية وقدرتها على البقاء إذ إنه في كل مرة تصطدم فيها هذه اللغة بلغة أخرى كانت تثبت أنها أقدر على البقاء منها وأنها أكثر ملاءمة لحاجات الحياة " (1) .

هكذا يكتب تاريخنا في الخارج ، وينقل ويدرس إلى أجيالنا في الجامعات : العرب الساميون أمة من البدو المتخلفين ، والحضاريون في المنطقة غير ساميين ، وحسب البدوي أن يرى الحضارة حتى يستقر ويتعلم وينتصر . والبدو دائماً هم المنتصرون في عملية " تصادم مؤسساتهم الحضارية ونظمهم الاجتماعية بنظم الأمم الجديدة التي عاشوا إلى جوارها " و " الدراسة العميقة " لهذه الهجرات " تبين لنا بوضوح قوة اللغة السامية وقدرتها على البقاء ، إذ إنه في كل مرة تصطدم فيها هذه اللغة بلغة أخرى كانت

(1) الدكتور نبيه عاقل " تاريخ العرب القديم وعصر الرسول " ص 15 — 16 .

تثبت أنها أقدر على البقاء منها وأنها أكثر ملاءمة لحاجات الحياة " .

لقد نسي المؤلف أن سبعمائة عام من الحكم والوجود العربي الحضاري المكثف في إسبانيا لم يجعل اللغة العربية تنتصر . ولولا رسوخ الوجود العربي منذ الألف الثالث قبل الميلاد ، على الأقل ، في الوطن العربي الممتد من المحيط إلى الخليج لما تمكنت اللغة العربية من الصمود على امتداد هذه الرقعة خلال هذه الآلاف الطويلة من السنين رغم كل ظروف الاحتلال والتتريك والفرنجة التي مرت بها .

أما أن يجعل من دعوا بـ " العبرانيين " ، الذين لا يشكلون إلا إحدى العشائر الضعيفة بين الآراميين ، أصحاب " موجة " تشغل " جنوب بلاد الشام أي فلسطين " ، وجعل الآراميين ينحسرون في منطقة ضيقة هي سهل البقاع ، فهذا أمر آخر سوف نبحثه مفصلاً مع الحديث عن الآراميين .

يقول أرنولد توينبي في كتابه " تاريخ البشرية " : " وعلى كل فإن حملة نارام سين السرجوني إلى جبال زاغروس لا رية في أمرها .. وإذا كان عمله دفاعياً فهو لم يكن يدافع عن أكاد فحسب ، بل كان يدافع عن سومر وعن المدينة السومرية ، فقد أسرت هذه المدينة الأكاديين الذين قهروها ، وقبسوها بكليتها تقريباً ، بما في ذلك كتابتها ، وحتى ديانتها ، فأكثر الآلهة الأكادية كانت آلهة سومرية تخفيها غلالة رقيقة من الأسماء السامية ، واللغة الأكادية دونت في حروف سومرية ، مع أن هذه كانت آله غير ملائمة للتعبير عن لغة من الأسرة السامية ، من حيث أن جذر الكلمة السامية ليس سلكاً ينتظم مقاطع ، بل مجموعة من ثلاثة حروف صامتة " (1) .

إن في قول توينبي هذا نموذجاً حقيقياً لما يكتبه جهابذة تاريخ العصر الاستعماري ، ففيه : إصرار على أن السومريين ليسوا عرباً .

وأن السومريين شعب حضاري مستقل عن المنطقة ووافد إليها .

وأن العرب (الأكاديين) غزاة من الساميين المتخلفين .

وهذا ما كان قد أكدته حرفياً في الصفحة ذاتها بقوله " وقد كان الأكاديون متطفلين شبه

(1) أرنولد توينبي ، " تاريخ البشرية " الجزء 1 ، ص 97

برابرة" وكان سرجون وأحفاده ، مثل لوجال زغيزي* سلف سرجون رجال حرب " وأن هؤلاء الساميين (ويعني العرب) البرابرة "قهروا المدينة السومرية وقبسوها بكليتها تقريبا بما في ذلك كتابتها وحتى ديانتها " .

وأن أولئك "الغزاة البرابرة" لم يدمروا "سومر" بل دافعوا عنها كما دافعوا عن "أكاد" بلادهم ...!

هل كان مؤرخ مثل تويني غافلا عن الحقائق حينما كتبها في مثل هذه الشعوذة الصبائية ؟

إن تويني المحاصر يشغفه بأن يرى الغرب وحده متفوقا منذ أن وجد لم يلق بالا لكل ما أحدثته المكتشفات الأثرية في المنطقة من زلزلة في البناء الغربي للتاريخ الذي ساد فيه منذ عصر النهضة إلى اليوم . وعن هذه النقطة بالذات يتحدث فرانكفورت فيقول : " إن تويني ملم بالعهد القديم الكلاسيكي وبورثته الغربي فقط . وإنسانه القديم هو اليوناني أو الهندو — آري " ويقول في مكان آخر : " إن تلك الدراسات السابقة لعبت فيها الأفكار المقررة سلفا دورا هاما ... فعندما كانت وهناك ظروف أخرى أيضا كانت تحول دون وزن البراهين وتقييمها بتجرد ونزاهة . وعندما كانت معرفتنا بالشرق الأدنى القديم جزئية كان مألوفاً أن نفسر التغيرات بصيغ الفتح والهجرة من منطقة مجهولة . لكن الاكتشافات الواسطة بين الحربين العالميتين الأولى والثانية قضت على هذا النوع من التقليل . فقد ثبت أن مواطن تلك الشعوب النازحة ، من وجهة ثقافية هي المناطق القائمة على تخوم المركزي العظيمين في مصر وسوريا . وقد ثبت ، من جهة ثانية ، أن هذين المركزين كانا إلى درجة غير عادية يقاومان النفوذ الخارجي ، وكان باستطاعتهم أن يفرضا على القادمين حضارتهم"⁽¹⁾

* لوجال تعني الرجل الجليل ، و"زغيزي" هي زا — جيزي وتعني رب جانب الوادي ، وما زالت كلمة "الجيزة" في العربية الحديثة تعني جانب الوادي ، وقد دُعيت "الجيزة" بهذا الاسم انسجاما مع هذا المعنى القديم الحديث ذاته ، إذ تقع على جانب وادي النيل .
(1) هنري فرانكفورت ، المرجع السابق ، ص 21 ، 127 ، 128 .

فقد كنا قد بينا كيف أن الكتابة السومرية الرمزية لا تعني لغة شعبية محكية وإنما هي "شيفرة" خاصة بأوساط معينة دينية وسلطوية تسربت منها كلمات أو رموز كثيرة ، ولا سيما ما كان منها متعلقا بأسماء الآلهة ، والمناطق ، والمعابد ، ومراتب القائمين عليها ، وغلال المحاصيل التابعة لها ، وألقاب الملوك والحكام المقترنة بأسماء الأرباب ومقاماتها .

وحينما يقول توينبي إن أكثر الآلهة الأكادية كانت سومرية تخفيها غلالة رقيقة من الأسماء السامية ، فإنه كان أحرى به لو يقول العكس تماما: إذ إن الآلهة السومرية هي جميعها آلهة عربية سورية أمورية مغلفة بغلالة رقيقة من الرموز الدينية ، وبالنتيجة ، فإن الآلهة في منطقة سومر هي نفسها آلهة الأكاديين ، وكذلك الأمر نفسه فيما يتعلق باللغة وليس هناك شعب اسمه السومريون بل منطقة في جنوب العراق اسمها سومر .

أما أن يكون الأكاديون " متطفلين شبه برابرة " ، وأن يكون سرجون وأحفاده "رجال حرب فقط" فهذا أمر آخر سوف ننظر إليه .

الأحوال الاجتماعية والسياسية السائدة قبل سرجون :

المرحلة الأولى : مجتمع المدينة — الدولة شبه الاشتراكي:

إن الفكرة الأساسية التي أوجدها واعتنقها العرب منذ مراحل تطوّرهم الأولى هي أن الإنسان وجد ليعمل ، فالرب إنليل ، أكثر الأرباب شعبية ، هو الذي شق قشرة الأرض بفأس وخلق منها كل شيء ⁽¹⁾ ، وهو الذي سلم تلك الفأس للـ "إنسي" وجعله يقدسها ويستخدمها في عبادته . وإذا علمنا أن كلمة " إنسي" تعني وكيل السيد أو الحاكم أو المالك وهي بالسريانية من الفعل إنس = ألزم ، حكم ، أجز ، قهر . وأن الفعل "عبد" بجميع اللهجات العربية القديمة تعني : عمل ، اشتغل ، أبدع ، خدم ، أطاع و"عابد" أو عوبد " تعني عامل "فإننا ندرك أن الـ "إنسي" التي صارت تطلق على الناس

(1) نقول أسطورة سومرية إن إنليل شق قشرة الأرض بفأس حتى ينبثق الناس منها كالنبات . ثم تحيط الآلهة الأخرى ببقيل (الفلاح) ويرجونه أن يخصص لهم عاملين من السومريين الذين يطلعون من الأرض (مجلة دراسات الشرق الأدنى، جزء 5، 1946، ص137) .

العاملين عموماً ، ومنها جاءت "الإنس" بمعنى الناس ، هم وكلاء السيد في أرضه الذين يشتغلون فيها ، وأن كلمة "معبد" لم تكن تعني مكان الصلاة وتقديم الذبائح وحسب ، بل إنها كانت تعني كلمة "مشغل" الحديثة تماماً ، ومن هنا كان على المؤرخين أن يفهموا معنى نشوء العبادة وتطورها لدى أولئك السوريين الأقدمين .

إن هذا الاعتقاد لدى أجدادنا السوريين الأقدمين كان له نتائج خطيرة في تركيب وتنظيم المجتمع من جهة ، وفي فهم أسباب التطور السريع لذلك المجتمع . إن الاعتقاد بأن الإنسان وجد ليحقق الغرض من وجوده بالعمل (بالعبادة) كان أول ثورة على صعيد الفكر في تاريخ البشر . فقد قامت وانبثقت على أساس هذا التفكير مؤسسات بدت في غاية التطور منذ مراحل التشكل الأولى لمجتمع المدينة ، فيما أن "على الناس جميعاً أن يعملوا فقد اتخذت (العبادة) شكل جهد تعاوني منظم إلى أبعد دقائق التنظيم ، وكانت النتيجة مجتمعا منظماً" (1)

لقد صار في إمكاننا الآن أن نبدأ بالتفريق بين مؤسستين اجتماعيتين متشابكتين ، لكنهما متميزتان كانت الوحدة السياسية هي المدينة ، وكانت الوحدة الاقتصادية الدينية هي المجتمع الهيكلي . كان كل هيكل يملك أراضي هي أملاك الدولة ، وكان كل مواطن ينتمي إلى أحد الهياكل . وكان جميع أهل الهيكل : الموظفون والكهنة ، الرعاة وصيادو السمك ، الجنائنيون والمهنيون ، قطاعو الحجارة والتجار ، حتى العبيد المسترقون من أقوام أخرى ، يشار إليهم بأنهم "عباد السيد الفلاني" أي شغيلته . وفي وسعنا ، من حيث المبدأ ، أن نتصور أن كل مجتمع معبدي كان النواة الأصلية لكل مدينة ، لكننا لا نعلم ما إذا كانت هذه الوضعية قد سادت أبداً ، إذ إن الألواح التي وصلتنا في عهد الأسر الأولى تطلعنا على مدن تحتوي على عدة هياكل بامتلاكها . لقد كان رب المدينة ، لغايات سياسية ، ولأهمية المعبد أحياناً ، هو أكبر الأرباب فيها ، وقد كان الرب في المدن الرئيسية يملك أرض معبده فقط . وكانت علاقته بالأرباب الآخرين ، في الغالب ، أشبه

(1) هنري فرانكفورت "فجر الحضارة في الشرق الأدنى" ، ص 72 .

بعلاقة رئيس القرية بالملاكين الآخرين وبعملكاظم فيها ⁽¹⁾ .

" كانت المجموعة البشرية التي تنتمي إلى معبد ما تشغل جزءا من أراضي الهيكل لصالح المجموع ، وهذا الجزء ، الذي — كما تأكد — لا يتجاوز الربع ، يدعى البستان أو الأرض المشاع أو المشتركة " في جنة Ni-ganna " لأن هذه الأرض كانت تحترق من قبل المجموعة كلها ، وكان المشتغل فيها يسمى * Murabi (المرايع) ، وهناك قسم آخر هو الأرض المقطعة إلى قرى أو مزارع والموزعة على أعضاء المجموعة لسد حاجاتهم وتدعى كور Kur وقد حافظت على وجودها في اللغة حتى اليوم ، وهناك قسم ثالث يدعى أرض " الغلال " (أرعو جلال) Ar'gilal التي تؤجر للمستأجرين بأجر يتراوح ما بين ثلث المحصول وسدسه ، ويخزن هذا المعبد في مستودعات الغلال حتى تحين الحاجة ، ويمكن دفع القسم الأكبر من الأجرة حبا ، لكنه ينبغي دفع قسم صغير منها بالفضة .

" كان الهيكل ، أو المعبد ، يقدم الحب . البذار والحيوانات والأدوات لحرثة الأرض المشتركة (كما أخذت تفعل الدول الاشتراكية إلى وقت قريب) وكان القوم الأعلى منهم والأدنى يعملون كل سنة في الحقول التي تخص " السيد الرب " . وكان الكاهن " سن جي " القائم على رأس جماعة المعبد يحدد نصيب كل واحد من الواجبات المشتركة فكأنه وكيل السيد ، ويساعده معاون أو نائب هو " ناب عند " Nab-and يراقب العمل والمخازن والإدارة ، ولم تكن مخازن الحب المقدس تستعمل للبذار وحسب ، ولم تكن تحت تصرف الكاهن بمفرده لاستخدامها في القرابين أو لغذاء أهل المعبد . كان لرجال المعبد ، كما ولأي شخص آخر ، نصيبهم لتأمين قوتهم ، بينما ترد بعض ثمار العمل المشترك إلى المواطنين على شكل حصص من الشعير والصوف ، توزع عليهم بانتظام ، وعلى شكل حصص إضافية ، أيام الأعياد .

(1) ثوركيلد جاكوبسن ، " الأصول البشرية " دراسة تمهيدية عامة في الانثروبولوجيا ، سلسلة القراءات المختارة ، رقم 2 ، شيكاغو 1946 ، ص 255 .

• هي اللفظة العربية "المرايع" نفسها ، الذي يشتغل بالربع أو المربعة .

• كانت تلفظ "ارعا غلالا" أو " أرعو غلولو" لأن حرف الضاد لم يكن ضمن الأبجدية السريانية إلى اليوم وكانت (العين) تحل محله .

"ومع أن الحصص لم تكن متساوية ، ولا كانت الواجبات المفروضة على كل الناس شاقة بنفس المقدار ، فإننا نلاحظ هنا حقيقة لا مثيل لها من العالم القديم ، وهي أن جميع أعضاء المجموعة كانوا ، من حيث المبدأ متساوين⁽¹⁾ كان كل واحد منهم يتناول حصة وقطعة أرض لتأمين حاجاته وكان الجميع يعملون في الأرض المشتركة وفي الاقنية والسدود . ولم يكن هنالك وجود لطبقة عاطلة ، وكذلك لم يكن هنالك وجود لأقنان محليين . كان بعض الأغراب أو بعض أسرى الحرب يقتنون كعبيد (كعمال) لكن الأفراد قلما كانوا يملكونهم . كان العبيد يعملون في المعبد إلى جانب الأحرار كحمالين وجنائين ، أما البنات السبايا فكن يوجدن بأعداد كبيرة كحائكات ، دون أن يمتلكهن أحد ، وكن يساعدن في المطابخ ، وفي مصانع الجعة ، وفي الزرائب حيث كن يسمن الخنازير⁽²⁾ .

كانت الأرض قطعا تختلف من حيث الحجم ، حتى وإن كان توزيعها يجري على رجال ينتمون إلى المهنة نفسها . إننا لا نستطيع تعليل الفروقات ، وليس لدينا إثباتات على وجود أراض واسعة في أيدي أفراد من جماعة المعبد، لكنه يوسعنا أن نفترض أن وجود عدة جماعات هيكلية في المدينة السواحدة أتاح للبعض أن يتصرفوا بقطع من الأرض في أكثر من مجموعة واحدة . ونحن نعلم عن معاون كان يملك حوالي 120 فداناً ، وعن مراقب لمخازن الخشب كان يملك نحو 80 فداناً⁽³⁾ ، لكن هذه الحالات تمثل خروجاً على النظام الأساسي ، وأهم من هذه الحقيقة بأن القطعة الصغرى المسجلة في كشوف المعبد وهي جان Gan أو سبعة أثمان الفدان كانت تكفي لسد حاجات المرء ، وأن الزواج بامرأة واحدة ، وندرة وجود الجواري كانت من الأمور التي تحدد المساحة التي يمكن لعائلة واحدة أن تحرثها .

(1) هنري فرنكفورت ، " فجر الحضارة في الشرق الأدنى " ص 76.

(2) المصدر السابق

(3) A.Smith, " Staats Wissens Cchaftliche Beitrage, Die Sumeriche Templestadt " , No 4, 1920

وقد ورد ذكر النساء أيضا كمالكات لقطع الأرض ، وهذا يدل على أنهن كن يخدمن المجموعة بشكل ما ، إذ إن القاعدة الأساسية في المجموعة الهيكلية كانت أن الشخص يملك الأرض لكسب عيشه ، لأنه كان يضع مهارته في التخصيص لخدمة المجموعة . فالراعي ، والسماك ، والنجار ، والحداد ، جميعهم يقدمون لمخازن المعبد كميات إنتاجهم ، أو يكرسون أوقاتهم كلها للعمل في ممتلكات المعبد ، (أو ليس هذا هو ما طبقه أحفادهم بعد أربعة آلاف عام إبان الحركة الاسماعيلية الاشتراكية التي دعيّت بـ"القرمطية"؟) .

" كان العمل في الحقول موسميا في الغالب . ففي وقت البذار كان قوي الجسم بغير ريب ، يعمل في الحقل ، كما كانت الحالة في انكلترا في القرون الوسطى . لكن الفلاحين لم يكونوا طبقة منفصلة أو منبوذة . فكل مواطن سواء أكان الكاهن أم التاجر أم المهني ، كان ، في الواقع ، فلاحا يعمل في قطعه لتأمين قوته وقوت المتوجب عليه إعالتهم . وبعد البذر ، وجمع الحصاد ، يبقى متسع كبير من الوقت لتطوير المهارات الخاصة وتعليمها واستغلالها . وهناك شبه طريف بين هذه الحالة وبين القرى في زمننا هذا ، حيث الفلاح أو العامل في أحيان كثيرة يتخصص في مهنة معينة . إن هذه الحالة آخذة بالزوال في أوروبا بسرعة ، وهي لم تنتظم أبدا" (1)

ولقد أشار م. دافيد في مجلة " تاريخ الحقوق " (الجزء 14 ص 3 — 6) في مقلل إلى أن " اشتراكية الدولة " في عصور سومر الأولى لم تستبدل تماما باقتصاد حر إلا تحت ظل السلالة البابلية الأولى حوالي 1800 ق.م . وفي ظل السلالة الثالثة في أور أمكن للملكية الخاصة ان تتألف من منازل وحدائق تابعة لها ، لا من الحقول الصالحة للزراعة التي كانت تخص المعبد أو الملك .

لقد كان — على هذا النحو — اقتصاد الهيكل ملكا للناس كمجموعة ، وفي سنوات تدني الانتاج عندما يقل المتسلم من بعض البضائع المستحقة للمعبد كل شهر تنشأ

(1) ب . ب . هويل Howell مجلة " الانسان " عدد 144، 1947 .
• وهذا ما يذكرنا بنظام الملكية الخاصة في البلدان الاشتراكية .

الديون وتسجل على أن تدفع فيما بعد . ولكن تنظيم الاقتصاد الهيكلي ، كان على وجه الإجمال ، يستهدف البساطة أكثر مما يستهدف الدقة ، وفي المدينة العمورية السومرية كان الناس ، إلى جانب كونهم مجتمعاً منظماً ، يجدون مجالاً كبيراً للأشغال الفردية . إن الفرق بين القيم المحددة المستعملة في المعاملات مع المبد من جهة ، والغلة الفعلية للحقول والقطعان والمعامل ، من جهة ثانية ، كان لا بد من أن يفسح المجال لشيء من تكديس الثروة الخاصة ، وبالتالي للمقايضة ، كان بوسع المهنيين أن يستخدموا مهاراتهم الخاصة لقاء عمولة شخصية طالما أنهم كانوا يستخدمون مواد لا تعود إلى مخازن الهيكل .

" وبوسع الراعي أن يتصرف بأية زيادة من القطيع عن الرقم المحدد له في القانون ، وباستطاعة الصياد أن يتصرف ببقية الصيد بعد أن سلم الهيكل نصيبه الشهري ، وكان التجار يسافرون إلى الخارج للحصول على الحجارة الكريمة والذهب والفضة والنحاس والرصاص والخشب والروائح العطرية للهيكل ، ويقدمون مقابل ذلك الحبوب والبلح والبصل وما أشبه ذلك . لكن فرحتهم الحقيقية كانت ناتجة عن إنتاج مهارة الناس لا من التربة الغنية للبلاد . وكانت البضائع المرسلة إلى الخارج تحتوي ، قبل كل شيء ، على المنسوجات — الأقمشة الصوفية والستائر والسجاد — وعلى الأسلحة والمجوهرات والأشياء المعدنية المصنوعة في السهل السومري من المواد المستوردة .

" كان التاجر يحصل على قطعة أرض كمكافأة له على جهوده التي يبذلها لصالح المجموع في عملية الاستيراد والتصدير .

" وإذا قيل — بعد ذلك — إن جماعة "الرب" الفلاني (المجموعة الهيكلية) كانت تعيش في ظل نظام من الاشتراكية الدينية ، فينبغي لنا أن نضيف إن هذا الاقتصاد المنظم كان يشكل نواة قاسية محافظة بمجال واسع من تجارة خاصة نصف حرة " (1)

كان العرب الأموريون قد نجحوا ، ولأول مرة في تاريخ البشرية ، في إقامة أول مجتمع اشتراكي من نوعه يتحلى نظامه بمرونة منقطعة النظير .

كما أنهم وضعوا الأسس الحقيقية ، ولأول مرة أيضا في تاريخ البشرية ، لتضافر جهد الفرد وجهد المجموع ، كما وضعوا في صلب مفهوم العبادة الدينية وعيا اجتماعيا حياتيا متقدما جعل المعبد والمؤسسة الاجتماعية يندمجان في كل واحد لا تكاد تميز فيه حدود الواحد عن الآخر ، كما أن الوظيفة الدينية اندمجت بالوظيفة الاجتماعية — الاقتصادية ولم يعد ثمة حاجز بين الوظيفتين ، وقد يبدو مثل هذا الأمر ، وبعد ستة آلاف عام غريبا علينا نحن الذين كنا نتصور بدائية تلك الشعوب .

يقول هنري فرانكفورت عن المجتمع السوري الأموري في سومر : " إنه مؤسسة من صنع الانسان يعلو على الانقسام الطبيعي الأولي لمجتمع تألف من العائلات والقبائل ، وهو يؤكد أن المكان لا القرابة هو الذي يحدد علاقات المرء ، والمدينة فوق ذلك ، لا تعترف بالسلطة الخارجية ، قد تخضع لجار ، أو لحاكم ، لكن ولائها لا يمكن أن يكسب بالقوة ، لأن السيادة فيها تكمن في مجلسها الذي يتألف من مواطنيها ، وهكذا كانت المدن القديمة في ما بين النهرين تشبه مدن اليونان ومدن الرابطة التجارية في ألمانيا ، ومدن إيطاليا في عصر النهضة في نواح كثيرة . ففي كل هذه الحالات نصادف استقلالا محليا ، ونلاحظ أن كل مواطن مسؤول عن المصلحة العامة ، هذا إلى جانب جماعة صغيرة من الرجال المتنفذين الذين يعنون بالمسائل العامة " ⁽¹⁾ ، فكيف — بعد هذا — يصح أن نتعامل مع تلك الشعوب على أساس عشائري وقبلي ، ونقبل بتعميم مدونات التوراة التي لم تتجاوز حدود مجموعة قرى ومضارب خيام موزعة بين عدة بلدات في ثنايا وديان بلاد غامد وزهران ، وجنوب شبه جزيرة العرب على هذا التاريخ العربي السوري الحضاري العظيم بمجمله !

أما عن المؤسسات الديمقراطية ، فقد كان ثمة مجلسان : مجلس الأعيان (الشيوخ) ومجلس للشباب ، ويقول هنري فرانكفورت : " لقد كان للمجلس سيئة كبيرة ، وهي أن الحرية

(1) هنري فرانكفورت ، " فجر الحضارة في الشرق الأدنى " ص 85 .

كانت تبلغ درجة غير مألوفة* . وكان الخضوع لإدارة الأكثرية ، كما يعبر عنها في الاقتراع ، غير معروف . وقد كان المجلس يستمر في المناقشة تحت إرشاد الكبار حتى يتوصل إلى الإجماع العملي ، وقد يكون هذا نتيجة للاتفاق الحقيقي ، أو العاطفة الجماهيرية ، أو بسبب توافق حذر بين المتخاصمين على خطة للعمل تدعو إليها جماعة قوية ، وعلى كل حال لم يكن يتوصل إلى هذه بسهولة . وفي حالة الطوارئ عندما تدعو الحاجة إلى قرار سريع أو عمل له غاياته الخطيرة ، كانت المدينة في ما بين النهرين (والجمهورية الرومانية فيما بعد) تضع نفسها في يدي دكتاتور ، وفي سومر كان هذا الحاكم المطلق يسمى "لوجال" أي الرجل الجليل (العظيم) ويقصد بها عادة " الملك " (1) ومن الأمثلة الحية التي وصلتنا والتي تشهد على الدور الذي يلعبه كل من المجلسين " مجلس الأعيان (الشيوخ) " و " مجلس المواطنين الأحرار (الشباب) " ما حدث أيام الملك جلجامش بين مدينتي أوروك وكيش . فقد كانت مدينة أوروك في الجنوب تسعى إلى توسيع رقعة حقولها الزراعية ومصادر مياه الري على حساب أملاك مدينة كيش ، فأكد ملكها (واسمه عقا) جدية الخطر وهدد سكان أوروك بإعلان الحرب إن لم يعلنوا ولاءهم له ، في ذلك الوقت العصيب بالنسبة لمدينة أوروك استدعى جلجامش مجلسي أوروك إلى الاجتماع ومناقشة الموضوع واتخاذ القرار المناسب .

وتصف لنا القصيدة الملحمية كيف أن الملك جلجامش توسل إلى مجلس الشيوخ بشدة وحرارة من أجل رفض الخضوع لملك كيش ، والموافقة على حمل السلاح والقتال حتى انتزاع النصر ، لكن الشيوخ رفضوا توسلاته ، وآثروا السلام على الحرب .

استاء جلجامش من قرار مجلس الشيوخ ، ولجأ إلى مجلس أحرار المدينة المؤلف في معظمه من الشباب الأحرار الأقوياء . فقرر هؤلاء عدم الخضوع وأجمعوا على القتال .

* إن هذا يدحض الزعم الراجح في الغرب الاستعماري عن " استبداد الشرق وغيببائه " هذه الفكرة التي نجمت عن هيمنة الحكم التركي العثماني الإقطاعي المتخلف على المنطقة زهاء أربعة قرون .

(1) المصدر السابق ص 86 .

لقد كان ذلك في أوائل الألف الثالث قبل الميلاد ، حينما لم تكن بقية شعوب العالم قد توصلت إلى أية صيغة اجتماعية مقبولة للعيش سواء على صعيد الفكر ، أو على صعيد المؤسسات الاجتماعية . إن نظام ديمقراطية المجالس في المدينة — الدولة الذي ابتدعه العرب السوريون الأموريون في سومر شرقا وفي الساحل الأموري غربا منذ بداية الألف الثالث قبل الميلاد هو الذي نقلوه إلى اليونان فيما بعد ، ثم أخذ العالم الغربي يتغنى بالديموقراطية اليونانية ، معتبرا ذلك إبداعا يونانيا ، إلى أن أظهرت المكتشفات الأثرية كنوز سوريا الحضارية المخبوءة تحت الأرض الممتدة من أوغاريت على ساحل البحر المتوسط إلى أريدو على شاطئ الخليج العربي .

وقد كانت هذه السلطة الملكية التي تمنح للحاكم في ظروف طارئة سلطة مؤقتة تسمى "بعالة" أي سيادة وقد كتبها المؤرخون الأجانب Baala ثم ترجمت إلى العربية "بعلة" خطأ ، فعند انتهاء الطوارئ كانت السلطة تعود إلى المجلس ، لكن الواقع الذي تعيشه المدن السومرية كان يتطلب مثل تلك السلطة بين فترة وأخرى ، نتيجة لوجود القبائل الهمجية المتربصة بصورة شبه دائمة في مناطق الجبال القريبة في الشرق والشمال ، كما أن الحقول القريبة من المدن ، ومسائل الري ، والحصاد ، وتخفيف المحاصيل ، ونقلها ، وتأمين سلامة النقل ، كل ذلك كان يتطلب وجود سلطة مباشرة ، تبادر إلى اتخاذ التدابير والقرارات الصارمة في الوقت المناسب .

إن ضرورة تأمين الدفاع المتواصل من جهة ، وتأمين سلامة سير الأعمال والمؤسسات في المدينة — الدولة ، من جهة أخرى ، أدت إلى ظهور سلطة دائمة للحاكم المطلق "لوجل" ، أو لوغل " في هذه المدينة أو تلك . أما في بعض المدن الأخرى ، فقد كانت تمنح مثل هذه السلطة المركزية التي تقتضيها طبيعة الأخطار إلى زعماء آخرين أدنى مرتبة من "لوجل" لكنهم يشغلون وظائف هامة دائمة في الأعمال الإدارية داخل المعبد أو خارجه ، ثم يصبح الواحد منهم يسمى "إناسي" ، وتعني وكيل السيد ، وكيل الرب على الأرض ، إن كلمة "لوجل" مؤلفة من "لو" بمعنى الرجل ، (وقد احتفظ بها في الوطن العربي السوري كله في اللغة اليومية الدارجة حتى اليوم في صيغة "ولو" و"ولو"

أي (يا رجل) ، و"جل" أو "غل" وتعني الجليل ، العظيم ، الكبير ، الضخم ، المسارد ، ومنها كلمات جل ، جليل ، جلل ... ومنها جاءت كلمة "غول" في الحكايات العربية القديمة أيضا ، وهذه اللفظة تتكرر عند العرب الأموريين كثيرا سواء في سومر ، أو في منطقة الساحل الغربي .

وهكذا يصبح معنى "إنسي" أو "إنسو" أو "إنزي" أو "إنزو" ، بحسب اللهجة الشرقية أو الغربية ، نائب السيد أو وكيله ، ثم أطلقت على الناس جميعا "الإنس" جميعا ، كوكلاء للسيد الرب في ملكه .

وكانت مهمة "الإنسي" في الأساس أن ينسق المجموعات الهيكلية داخل المدينة ، فيعيد لكل منها نصيبها من الواجبات المشتركة في الأبنية والأقنية والسدود ، وكانت هذه الأعمال توزع بين النقابات والأفراد والأعضاء بواسطة الكاهن أو معاون . ثم إن الإنسي كان يتولى ، فوق ذلك ، شؤون الدفاع وتنظيم التجارة ، وشؤون العلاقات مع المدن الأخرى ، ولقد كان الجنود النظاميون تحت قيادته الشخصية المباشرة ، ويشكلون بذلك مصدرا هاما لقوته داخل المدينة . وكان ككل مواطن آخر ، يتلقى قطعة أرض لمعيشته ، لكن حقوله كانت جزءا من الأرض المشتركة ، وكان يرثها بعض الناس كجزء من واجب المجموعة ، وهنا ، تبرز الفرصة مهيأة من أجل إساءة استعمال السلطة . وبالإضافة إلى ذلك فقد صار من المألوف أن يعترف بعظمة مركزه وقوة نفوذه ، والحاجة إلى عطفه وعنايته ، عن طريق تقديم الهدايا له ولأقاربه في المناسبات العامة والخاصة ، كما صار يتقاضى أجرا من أجل اتخاذ خطوات أو قرارات أو تدابير معينة من أجل الأفراد من الناس ، كتنفيذ طلاق ، أو إلغاء عقوبة ، أو فرض ضريبة ، أو غير ذلك من الأمور الأخرى . وفي أثناء إدارته للهيكل الرئيسي للمدينة صار يبحث عن أقاربه والمقرين منه لتعيينهم في رئاسة المجموعات الهيكلية الأخرى .

وهكذا بدأت النظم الاجتماعية الأولى تنحو منحى آخر ، متجاوزة كل الأطر التي نظمتها في البداية ، والغايات التي أحدثت من أجلها لتسير بالمجتمع في طريق التمايز الطبقي .

لقد بدأ الحكام ، "الإنسي" ، يستغلون الظروف التي أتاحت لهم مثل تلك السلطات من أجل إحكام قبضاتهم على مرافق المدينة وثرواتها . فصاروا يعمدون إلى افتعال الصراعات بين مدينة وأخرى ، كما يعمدون إلى مصادرة الحقول الجماعية لينبؤوا عليها قصورا أو قلاعا إقطاعية ، ويزيدون من الضرائب المفروضة على أفراد الشعب . ثم أخذوا يطورون الواقع الاجتماعي الروحي للمعبد الذي كان قد تأسس منذ البداية على الواقعية ، وحب العمل ، وعلى الروح الجماعية ، و التعاون ، والمحبة ، ومساعدة الآخرين .

فصار القائمون عليه يتكرون وسائل غيبية تربطهم مباشرة بالآلهة ، جاعلين من أنفسهم وكلاءها على الأرض ، كما أخذوا يروجون بأن سلطتهم مستمدة من السماء مباشرة ، وليس لأحد أن يعارض أو يعترض . إن ذلك كله أدى إلى إلغاء تلك المؤسسة ودورها الديمقراطي ، الاجتماعي ، التعاوني ، الإنساني كلية ، كما صارت ملكية الهيكل مقدسة ، وإرادة القائمين عليه مقدسة أيضا وبالتالي ، فإن في إمكانهم ابتزاز كل ما يرغبون به من ثروات المعبد الجماعية . وهنا ظهرت الحاجة الماسة إلى طرق وأساليب لإخفاء حسابات المعبد عن عامة أفراد الناس العاملين في حقوله وفي تجارته من جهة وإضفاء تلك الصيغة الخاصة المقدسة التي تتميز جماعة الهيكل عن غيرهم من بقية أفراد الشعب من جهة أخرى . وتكرس ذلك التمييز عن طريق خلع رموز وألقاب دينية ، وتنظيم أدعية وصلوات خاصة لا يفهمها ولا يقدر على أن يشارك فيها غير أوساط معينة تقررها جماعة الهيكل نفسها . فبدأت أول خطوات الكتابة الرمزية " الشيفرة " التي تطورت إلى رموز مكتوبة ومنطوقة يتبادلها أفراد تلك " الطبقة " الناشئة ، والتي جعل منها المؤرخون فيما بعد لغة حقيقية لشعب آخر لا تمت إلى العروبة بصلة وأسموها اللغة السومرية . كما بدأت فترة " الربوبية " في سومر تنفصل عن معناها الواقعي الحقيقي الذي بدأت به في السيادة والحكم والملك على الأرض في الواقع ، وتنقل إلى مضمونها الغيبي ، وكأنما خلع ذلك الواقع قشرته أو جلده الذي كان يلبسه ، وتركه يرتفع في الفضاء ويغيب .

التناقضات الطبقيّة وتحديد وجهة سير التطور :

ان نشوء فئة هيكلية متسلطة جديدة في المجتمع العربي السوري ، سواء أكان ذلك في منطقة سومر ، أو في السهل السوري ، أو على السواحل العربية ، وإصرارها على توجيه دفعة تطور المجتمع في خط التطور الطبقي الاستغلالي ، خالقة في سبيل ذلك وسائل ، ومبدعة أساليب سلطوية مادية ، وفكرية عقائدية دينية معينة ، لم يكن ليمر دون أن يترك آثاره على بقية فئات المجتمع الأخرى ، محدثا ردود فعل تتراوح بين رد الفعل اللين أو الفعل العنيف .

وإذا كان نظام المدينة — الدولة الذي ابتدعه العرب السوريون قد تمكن من الصمود طويلا في منطقة سومر والسواحل الغربية ، فإن احتدام التناقضات في الشرق بين المدن — الدويلات وبين الغزاة من القبائل الهمجية ، قد عجل في تفاقم الشعور بالخطر نتيجة للصرعات الداخلية بين المدن التي أخذ يفتعلها الحكام ورؤساء الهياكل من أجل استمرار سلطاتهم الطارئة المطلقة ، ومن أجل توسيع رقعة موارد ثرواتهم المكدسة . ولقد برزت مصالح اجتماعية متناقضة تمثلت في جماعة الهيكل الذين أصرّوا على جمع السلطتين الدنيوية والدينية في أيديهم وعلى تغليفهما بغلاف من " الإرادة الإلهية " من جهة ، وفي فئات الصناع من جميع الحرف ، والفلاحين والرعاة ، والبحارة ، والتجار ، ويقف على رأس هؤلاء جميعا ملك المدينة ، من جهة أخرى .

لقد شعر بعض ملوك المدن بأن عهدا من الاضطراب الدموي قد ينشأ نتيجة لإسراف جماعة الهيكل في استخدام سلطاتهم من أجل تنمية ثرواتهم ونفوذهم على حساب مصالح باقي فئات الشعب ، كما أن وحدة هذا الشعب داخل كل مدينة على حدة ، وضمن المدن كمجموع في وجه الغزاة الخارجيين ، صارت مسألة يشك فيها ، مما قد يجر نتائج وخيمة على المنطقة بأسرها . ضمن تلك التفاعلات برزت اتجاهات ثلاثة للخروج من المأزق الذي أخذ خطره يستفحل يوما بعد يوم .

الاتجاه الأول : وهو أن يبادر أحد الملوك إلى إيقاف الهيكل عند حده وإعادة الأمور إلى نصابها عن طريق القيام بإصلاحات اجتماعية واقتصادية هامة تلغي كل مكاسب

الهيكلي ، وتعيد لجمهير الشعب ثقته بنفسها وبحكامها وبمؤسساتها الاجتماعية والاقتصادية ، أي إن هذا الاتجاه أعطى الأولوية لعملية الإصلاح داخل المدينة - الدولة ، صارفا النظر عن الأخطار الخارجية المحدقة ، أو أنه دفع بها إلى المرتبة الثانية ، وكان يمثل هذا الاتجاه " الإنسي " الملقب بـ "أورو كاجينا" في لغش .

الاتجاه الثاني : وهو الذي رأى ضرورة وحدة جميع المدن والاستعداد لمجاهة الأخطار الخارجية المحدقة ، بصرف النظر عن كل ما يجري في الداخل من تناقضات وأخطاء قاتلة فغفل بذلك عن أن تلك التناقضات المحتدمة في الداخل لا يمكن أن تجتمع في وحدة متراسة أمام أي غزو محتمل من الخارج . وقد يؤدي إغفال الحلول الداخلية إلى تفاقم حدة الصراع ، مما يؤدي إلى انهيار المجتمع الموحد الجديد برمته فور سقوط الحاكم الدكتاتور الذي وحده بالقوة في قبضته . وقد مثل هذا الاتجاه الحاكم المطلق في مدينة أما الملقب بـ " لوجال زاغيوزي " (السيد الجليل رب الغزو والسلب) .

والاتجاه الثالث : وهو الذي كان يرقب الأمور بيقظة وترصد ، عاملا على تجميع قواه من أجل الانقضاض في اللحظة المناسبة على نظام الدويلات - المدن - حاملا معه نظاما إصلاحيا في الوقت نفسه ، دون أن يترك مجالا للتناقضات كي تستفحل وتتفاقم إبان سقوط نظام الدولة المدينة . إنه برنامج التوحيد التحريري ، الذي بدأه العرب الأموريون منذ الألف الثالث قبل الميلاد ، وصار من بعدهم برنامج عمل لكل تنظيم وطني أو قومي ثوري مازال يخبو ويصعد حتى وقتنا الحاضر . وقد مثل ذلك الاتجاه سرجون (شروكين) الملقب بالأكادي .

حركة أورخا جينا الإصلاحية

ولقد شاء منطق تطور الأحداث أن يبدأ ملك لغش الملقب بـ "أورو كاجينا" التحرك . فقد أعلن أنه تعاقد مع "نجرسو" (رب مدينة لغش) على " ألا يتخلى عن اليتيم والأرملة للرجل القوي " ، ووضع حدا للكثير من المساوئ " . لقد استرجع المراكب من سيد البحار ، واسترد الغنم والحمر من رئيس الرعاة ، واستعاد الضريبة التي كان

يدفعها الكاهن إلى القصر " بعد أن كان قد أبطلها رجال الهيكل ، وهذه " التغييرات " والكثير مما يشبهها ، مما هو مسجل فيما يدعى بالنصوص الإصلاحية ، تعني أن الصلاحيات التي اغتصبها الرؤساء والموظفون أبطلت ، وأن هذه الحقوق أعيدت مرة أخرى إلى الهيكل وحده كعضو حيوي في المجموعة .

وقضى أوركا جينا على المساوى التي ارتكبتها أسلافه أيضا . فتدخل في تنظيم حتى الجزئيات اليومية التافهة ، ومنع (ولنستعمل كلماته نفسها) "ثيران الرب من حراثة حقل البصل الخاص بالحاكم (لوجال)" ، كما أنه خفض أجور الدفن وخدمات الصلوات ، وأعاد لرجل الطبقة الدنيا حقه باملاكه عندما يولد حمار جيد لجندي ويقول له رئيسه " أنا اشتريه منك " فإذا سمح له بأن يشتريه يقول له : " زن لي من الفضة مقدار ما تسمح به نفسك ، وإذا لم يسمح له بالشراء ليس للرئيس أن يتعرض له " .

يقول المؤرخ ول ديورانت حول هذا الموضوع : " وكان واحد من هؤلاء الملوك وهو أوركا جينا ملك لغش ملكا مصلحا ، مستبدا مستنيرا ، أصدر المراسيم التي تحرم استقلال الأغنياء للفقراء واستغلال الكهنة لكافة الناس ، وينص أحد هذه المراسيم على أن الكاهن الأكبر يجب " ألا يدخل بعد هذا اليوم حديقة الأم الفقيرة ويأخذ منها الخشب ، أو يستولي على ضريبة من الفاكهة " ، وضغطت رسوم دفن الموتى إلى خمس ما كانت عليه ، وحرم على الكهنة وكبار الموظفين أن يقتسموا فيما بينهم ما يقربه الناس قربانا للآلهة من أموال أو ماشية ، وكان مما يباهي به الملك أنه " وهب شعبه الحرية " وما من شك في أن الألواح التي سجلت فيها مراسيمه تكشف عن أقدم القوانين المعروفة في التاريخ ، وأقلها ألفاظا ، وأكثرها عدلا ⁽¹⁾ .

ويضيف في مكان آخر قائلا : " فلما أسرف الكهنة في ابتزاز أموال الناس نهض أوركا جينا ، كما نهض لوثر فيما بعد ، وأخذ يندد بنهمهم وجشعهم وبتهمهم بالرشوة في توزيع العدالة ، وبأنهم يتخذون الضرائب وسيلة يبتزون بها الزراع والصيادين ثمرة كدهم ، وأفلح وقتا ما في تطهير المحاكم من هؤلاء الموظفين المرتشين الفاسدين ، وسن

(1) ول ديورانت ، " قصة الحضارة " الجزء 2 ، ص 17

قوانين لتنظيم الضرائب والرسوم التي تؤدي للمعابد، وحمى الضعفاء من ضروب الابتزاز، ووضع الشرائع التي تحول دون اغتصاب الأموال والأموال " (1).

لقد فصل أوركاجينا بين الدين الذي تكون حديثا لغايات ومصالح طبقية بحتة ، وبين الدولة ومؤسساتها ، وربط جميع الفئات وأفراد الشعب بسلطة الملك ، ولكنه لم يتمكن من القضاء على ما أنتجه الكهنة من فكر ديني جديد ، بل ظل ذلك الفكر الغيبي يفعل في بعض الأوساط فعل السحر وجنبا إلى جنب مع المؤسسات الاجتماعية الأخرى ، مما خلق بداية جديدة للتطور الروحي الاجتماعي في خطين : اجتماعي واقعي علمي مادي ، وروحي غيبي ديني يقوم عليه وعلى تطويره ودفعه رجال الهيكل .

" ثم رافق أوركاجينا إصلاحاته الجذرية بشريعة أعلنها على شعبه ، وكانت الشريعة الأولى ، وهي التي عرفت به شريعة لبث عشتار " وأوحت لحمورابي ، بدون شك ، كتاب الشرائع الذي كان هدية سوريا الأولى للعالم القديم وللحضارة العالمية " (2).

إن أهمية الانقلاب الإصلاحية الذي قام به أوركاجينا تتجلى بصورة خاصة في الصراع الأبدي القائم بين الفكرة المثلى الكامنة في جوهر الأديان جميعا ، والمعبرة عن خير وسعادة وصالح جميع البشر ، بعيدا عن الظلم والزيغ والاستغلال والكذب ، وبين استغلال رجال الدين للدين من داخله ليوجهوه أداة ووسائل وسلاحا إلى الخارج ، تحقيقا لغايات شخصية ، ومصالح أنانية ضيقة وشريرة ، فيبتدعون أمورا وأفكارا وطقوسا ما تلبث أن تطفئ على مجموعة الفضائل البدئية الأولى لتي بها ومن أجل إحيائها في نفوس البشر وجد الدين ، وكما قيل " إن شر ما ابتليت به الأديان هو رجال دين بلا دين " فإن هذا بالضبط هو ما ابتلي به المجتمع العربي السوري الأول حينما اضطرب الملك الكاهن أوروكاجينا إلى القيام بالثورة على رجال الدين من بين صفوفهم ذاهبا ، فكانت حركته أول تعبير عن هذه الظاهرة التي ما انفكت تلازم جميع الأديان فيما بعد .

(1) المصدر السابق ص 30

(2) أسد الأشقر ، " الخطوط الكبرى في تاريخ سوريا ونشوء العالم العربي " الجزء 1 القسم 1 ص 105 .

ولقد دون لنا حقيقة هذا الانقلاب مؤرخ سومري منذ حوالي 4500 عام على ثلاث مخروطيات من الطين ولوح بيضاوي . ولقد وجد المنقبون الفرنسيون هذه الوثيقة في خرائب لغش عام 1878 ، وترجمها لأول مرة فرنسوا تورودانجان ، ثم أرموبوبل ، وهي أول وثيقة في التاريخ تذكر كلمة "الحرية" .

يقول المؤرخ الذي يروي لنا وقائع الأحداث بلغته البسيطة الخاصة : " وضع ناظر الملاحين يده على المراكب ، وقبض ناظر الماشية على الماشية ، كبيرها وصغيرها ، واستحوذ ناظر صيد السمك على مصايد السمك ، وإذا المواطن من لغش أحضر غنمه إلى القصر لجز الصوف عليه أن يدفع خمسة شقيقات إذا كان الصوف أبيض وإذا طلق رجل امراته يأخذ الإيشاكو خمسة شقيقات ووزيره شيقلا واحدا ، إذا صنع عطار نوعا من الزيت حصل الإيشاكو على خمسة شقيقات والوزير على شيقل واحد ، وناظر القصر على شيقل واحد وأما عن المعبد وأملاكه فقد استحوذ عليه الإيشاكو وكأنه ملكه الخاص .

استعملت ثيران الأرباب لحرث أراضي الإيشاكو لزراع البصل ، كما خصصت أفضل حقول الرب لزراعة البصل والخيار العائد إلى الإيشاكو ، وفوق ذلك فإن موظفي المعبد البارزين ، وخصوصا السينجي اغتصبت حميرهم وثيرانهم والكثير من جبوهم . حتى الموت لم يخلص الناس من الجبايات والضرائب . فعندما يؤتى بالميت إلى المقبرة ليدفن يحضر عدد من الموظفين والطفيليين ، ديدهم الاستحواذ من أهل الميت على مقادير من الشعير والخبز والجة والمؤن المختلفة . من أقصى الدولة إلى أقصاها انتشر جباة الضرائب ، فلا عجب إذا تضخمت ثروة القصر ورخاؤه حتى أصبحت أراضيهم وأملاكه تشكل عقارا واسعا متصلا .

" بيوت الإيشاكو وحقول الإيشاكو ، بيوت حریم القصر ، وحقول حریم القصر ، بيوت أطفال وحقول أطفال القصر ، ازدحمت الواحد إلى جانب الآخر .

في هذه الفترة من انحطاط الشؤون السياسية والاجتماعية في لغش برز حاكم جديد يخاف الله ، هو أوركاچينا الذي أعاد العدل والحرية إلى المواطنين المظلومين ، رفع يد

ناظر الملاحين عن المراكب ، ويد ناظر الماشية عن الماشية كبيرها وصغيرها ، أزاح ناظر صيد السمك عن مصائد السمك ، وأزاح جابي الفضة التي فرض دفعها من أجل جز الغنم الأبيض . وإذا ما طلق رجل امراته لن يحصل الإيشاكو ولا وزيره على أي شيء ، وإذا ما جرى بميت إلى المقبرة للدفن تقاضى الموظفون أقل بكثير من ممتلكات الميت مما كانوا يتقاضونه في السابق ، وفي بعض الحالات أقل من النصف بكثير . وأصبحت أملاك المعبد موضع احترام كبير ومن أقصى البلاد إلى أقصاها لم يعد هناك جاب للضرائب ، فإن أورو كاجينا قد " حقق الحرية " للمواطنين في لغش " .

" فإذا كان بيت الوضع بجوار بيت الثري الكبير ، وقال له الرجل الكبير أريد أن أبتاعه منك ، فإذا عزم الرجل الكبير أن يشتريه منه وقال الرجل الوضع : أدفع لي الثمن الذي أراه مناسباً ولم يوافق الرجل الكبير فلا يحق لذلك الرجل الكبير أن يملك بيت الرجل الوضع " .

" وطهر أورو كاجينا المدينة من المرايين واللصوص والقتلة ، فإذا هب الرجل الفقير بركة لصيد السمك فلا يجزأ أحد الآن أن يسرق سمكها . ولا يجزأ الموظف الثري أن يعتدي على بستان أم الفقير بأن يقطع الأشجار أو يغتصب الثمار كما كان يجري سابقاً . لقد قطع أورو كاجينا عهداً مع تنجرسو رب لغش بأنه لن يسمح بأن يقع الأرامل واليتامى فريسة لظلم الأقوياء " . ولقب " أركاجينا " مؤلف من كلمتين سريانييتين هما " أركا " وتعني السيد الزعيم ، وهي " أركو " و " أركو " و " أرخون " ، و " أجيناً وتعني المخلص ، المنجي ، المنقذ .

لكن أورو كاجينا لم يحكم سوى ثماني سنوات ، إذ قام ممثل الاتجاه الثاني لوجال زاجيسي انزي (ملك) أوما نحو 2375 ق.م، واحتل لغش ، وأوروك ، وأور ، وكيش ، فأطاح بأورو كاجينا المصلح ، ونهب المدينة ، وذبح أهلها في الطرقات مستخدماً العنف المطلق وحده في توحيد بلاد عمورو كلها شرقاً وغرباً حتى البحر المتوسط ، وحكم مدة 25 عاماً ، وكان تحت إمرته خمسون حاكماً لذا يسمى بعض المؤرخين عصره " عصر بدء الامبراطوريات " .

لقد استخدم لوجال زاجيسي في جيشه مقاتلين مرتزقة ممن أسروا من الجماعات والقبائل الهمجية الغازية ، واعتمد أسلوب التقتيل والارهاب في سبيل بسط سيطرته ونفوذه على الشعب في المدن دون أن يحمل معه أي برنامج أو خطة مستقبلية لبناء دولته التي جمع أطرافها بالعنف بين يديه ، فسرعان ما أحس الشعب بخيبة أمل مريرة ، إذ كان فقدته لمثالين ماضيين يتمثلان في الديمقراطية الاجتماعية التعاونية الأولى وفي إصلاحية أوروكاجينا ، دافعا عظيما إلى تزايد الشعور بالنقمة ضد الوضع الجديد من جهة ، كما فتح الأبواب واسعة أمام رجال الهيكل لأن يستعيدوا نشاطهم مستغلين نقمة عامة الناس من جراء أعمال القتل والعنف دوغما مبرر التي مارسها لوجال زاجيسي فيما بينهم من جهة أخرى . إن ذلك كان من شأنه أن يجعل قطاعات هامة من السكان تفضل الإذعان لمشيئة الأرباب والكهنة في المعابد على الانقياد الأخرس للموت على أيدي جنود لوجال زاجيسي السفاحين لمجرد فرض السيطرة .

في خصم هذه الأحداث المتأرجحة ما بين دعاة الإصلاح ودعاة العنف المطلق في الداخل ، وأمام الأخطار المحدقة بالوطن ككل من الخارج ، يتمخض الشعب العربي السوري عن ولادة أحد أكبر عظمائه : إنه سرجون السوري الأموري الملقب بالأكادي .

سرجون ونحصر الوحدة والتحرير

ميلاد سرجون ونشأته (2350 – 2300 ق.م) :

أجمعت كل الروايات على أن "سرجون" ولدته إحدى خادמות المعبد وعلش دون أن يعرف أباه . وككل الملوك والحكام العرب الأوائل لم يصلنا اسمه . "سرجون" هو لقبه باللهجة الأمورية — السريانية ، والكلمة مؤلفة من "سار" وتعني الملك والسيد ، و"غن" هي تحوير "كن" التي تلفظ "كينو" وتعني العادل أيضا ، ومن "سار" كان الاسم "سارة" وتعني الملكة والسيدة .

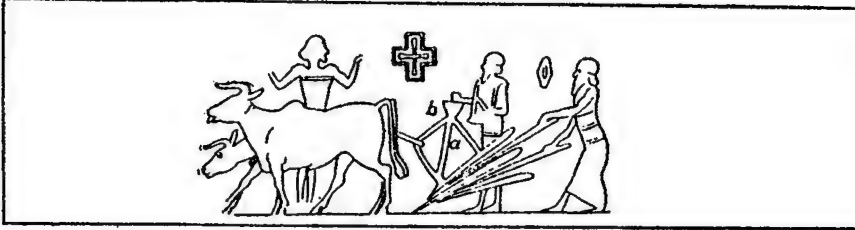
ولد "سرجون" إذن في زمن احتدام الصراعات وتفاقم الأزمات السياسية ، والعسكرية ، والاقتصادية ، والاجتماعية ، والدينية . وليس من شك في أن المعبد كان أحد مراكز تكشف ذلك الصراع ، ففيه تناقش يوميا مختلف وجهات النظر ، ويجري فيه تقييم حقيقي لمختلف وجهات النظر ولما يحدث على الساحة الخارجية والداخلية معا . كما أنه ليس من شك أيضا في أن "سرجون" تلقى علومه في المعبد أيضا ، وتعرف على حقيقة حياة رجاله ، وعلى كل التناقضات ، ونقاط الضعف والقوة التي تكتنف تلك المؤسسة . لقد أتاح له ذلك فرصة عظيمة لا يمكن أن تتاح لغيره في التعرف عن كثب على كل ما يجري في بلاده من أحداث على شتى الصعد . وحينما رقي إلى وظيفة ساق للملك كان مناسبة أخرى جعلته يقبع في مركز الدوام ، فيتعرف على واقع جماهير الشعب من فلاحين ، ورعاة ، وصناع ، وبحارة ، وتجار . كما تعرف على جميع الأساليب التي يبتز فيها أفراد شعبه من قبل حكامهم والقائمين على أمورهم في المعابد . وفوق هذا وذاك ، فقد ألهمت فيه حماسته الوطنية والقومية تلك التذمرات المتكررة من الأوضاع السائدة ، وذلك الشعور بالقلق والضيق من احتمال عجز الحكام عن الدفاع أمام أية غزوة قد تقوم بها القبائل المتربصة على مقربة خلف الجبال . إن ذلك كله — ، بالإضافة إلى

• إن اختيار الملوك لألقابهم كلن يكشف انتماءهم لأحد الآباء ، إن دخول الأب "سر" في اللقب يعني أن الملك ينتمي إلى هذا الأب فهو سوري من أبناء "سر" (آ — سر) ومن هنا تبرز قرابته مع أبناء عمومته السريان الذين سكنوا في الجبال ، بينما سوف نرى كيف أن حمورابي (أمورابي) ينتمي إلى الأب (مر) وهو بالتالي من "أمورو" ومن الساحل السوري تحديدا .

مواهب "سرجون" الشاب القيادية والسياسية والعسكرية ، جعلته يتحجن الفرصة الملائمة للظهور على مسرح أحداث بلاده ، وهو مازال يعمل ساقيا للملك "أورزبابا"⁽¹⁾ ملك كيش قي قصره. لقد تمكن "سرجون" الشاب بحنكته من أن يحوز على ثقة الملك القصوى مما جعل هذا يقربه إليه ويزيد في نفوذه وسلطانه ، ويعينه أميرا لإحدى المدن التابعة له . ثم وفي الوقت الذي رآه مناسبا خرج على سيده ، وخلعه عن العرش وجلس هو على عرش كيش .



الزراعة في مصر وادي النيل في عصر الأهرام



محراث بابلي والصليب رمز الخصب . يلاحظ تطور الآلة في سوريا ودرجة الاتقان التي بلغتها ، إذ يقوم المحراث بعمليتين في آن معا : رش البذار وحرارة الأرض .

(1) "أورزبابا" لقب لملك كيش ، يعني "نور الخصب" لأن "زبابا" باللهجة الأمورية هي "زببو" بالسريانية وتعني الخصب .

أما قصة نشأته هذه منذ ولادته وحتى لحظة وصوله إلى الحكم فقد احتفظ له بها شعبه في شكل قصة جذابة ، كعاداته في تمجيد قاداته وأبطاله الذين يحضهم حبه على مدى التاريخ العربي الطويل . فقد خلد هذه القصة شاعر آشوري من القرن السابع قبل الميلاد ، إذ أخذ يسرد أحداثها شعرا على لسان "سرجون" نفسه فقال :

"أمي كانت تتقلب بين الرجال ووالدي لم أعرفه

أعمامي أحبوا التلال وسكنوها
ازويراتو مسقط رأسي تقع على الفرات
حبلت بي أمي المتقلبة ، وبالسر ولدتني
في سلة القصب وضعتني ، وبالقير طيبتني
في النهر ألقت بي ، ومياهه لم تبتلعني
بل حملني ، وإلى "عاكي" البستاني أخذني
عني "عاكي" بتريتي ، وكابن له اتخذني
ثم جعلني "عاكي" البستاني لديه بستانيا
وأنا بستاني منحتني عشتار المحبة والنعمة
فمارست الملك تلك السنين " •

ويبدو من القصة أن أم سرجون حاولت التخلص منه بعد ولادته فقذفت به في النهر ، ثم أنقذه أحد المزارعين ، ورباه في بيته وحقله مما أتاح لسرجون الصبي فرصة التعرف على حياة الفلاحين والزراعيين بكل دقائقها ، ونما لديه حبه الفطري لأولئك الناس المنتجين الطيبين المستغلين .

فمن موقع الفقر والعمية لدى أمه ، إلى بيت الفلاح وحقله ، إلى المعبد ، إلى قصر الملك ، كانت مسيرة "سرجون" الشاب قبل أن يتسلم زمام الأمور في وطنه ، وكأن مصائر الشعوب تتدخل أحيانا في صناعة أبنائها القادة لتخرج بهم إلى مواجهة التحديات

• إن قصة "سرجون" هي قصة موسى نفسها التي روتها التوراة ، وإن يكن "سرجون" قبل موسى بألف عام ونيف .

المصرية حين تتطلب مثل هذا الأمر الضرورة أو الحتمية التاريخية التي تؤكد حتمية انتصار قضايا الشعوب في نهاية المطاف .

إن "سرجون" يبدو ، من خلال قصة نشأته ، وكأنه يعرف من هو أبوه الذي قد يكون تخلى عن أمه في اللحظة الحرجة ، وابتعد عنها ليصعد إلى منطقة الجبال الشمالية دون أن تتاح للابن فرصة رؤيته ، لأنه ، على ما تؤكد أبيات القصيدة ، يعرف من هم أعمامه الذين "أحبوا التلال وسكنوها" فمن هم يا ترى أولئك الأعمام ؟ أيمن أن يكونوا أبناء باسل أو (باشل)⁽¹⁾ بن آشور بن سام بن نوح الذين سكنوا المرتفعات ما بين آشور ونيوى التي هي في منطقة الموصل ؟ أم أنهم السريان (أو السوريون) من أبناء "سر" الذين صعدوا شمالا وملأوا منطقة الفرات الأعلى ؟ إننا نرجح هذا الاحتمال الأخير .



وجه سرجون (شاروكينو) مؤسس الدولة العربية السورية

(1) انظر :سبائك الذهب في معرفة قبائل العرب البغدادي ،ص 13 .

ما إن قبض سرجون على زمام الأمور في كيش حتى بدأ يعد العدة لمواجهة التحديات الكبيرة التي يواجهها شعبه :

1 — فعلى النطاق الداخلي ، كان على سرجون أن يجمع بين عنصرين صار كل منهما في جانب يناقض الآخر . فمن جهة أولى كان عليه أن ينقذ تلك المنجزات التحريرية والديمقراطية التي حققها شعبه من قبل ، وأن يحرر فلاحيه وحرفيه وفقراءه من سطوة أصحاب السلطة المتحكمين بهم وبأرزاقهم ، كما أن عليه ، في الوقت نفسه ، أن يضرب الإطار السياسي الذي نمت وتحققت فيه مثل تلك المنجزات ، ألا وهو إطار المدينة — الدولة ، ويعمل على توحيد البلاد جميعها حول عاصمة مركزية واحدة . كان شعار تحرير الفقراء والمظلومين وإعادة حقوقهم إليهم يكمن في أذهان الناس ضمن إطار النظام القديم ، نظام المدينة — الدولة . وكان شعار الدولة المركزية الموحدة الكبرى يرتبط أيضا في أذهان الناس بسلطة الملك السفاح لوجال زاجيسي . كان على سرجون أن يستخلص ما يريد من كلا الجانبين ويقنع شعبه بأنه إنما يريد به الخلاص . كانت المهمة عسيرة في زمن ليس فيه أية واسطة للاتصال المباشر مع الجماهير غير الفعل والسيطرة على الأحداث . كان سرجون يدرك جيدا أنه لا بد من الصدام مع رجال الهيكل الذين أخذوا ينشطون لصالحهم ، طامحين إلى استرجاع نفوذهم وتسلطهم ، مستغلين نقمة الشعب على لوجال زاجيسي السفاح ، كما كان لا يخامره أي شك في أنه من أجل أن ينجح في مسعاه ويحقق هدفه ، لا بد له من أن يسحق سلطة لوجال زاجيسي أو أن يسقط في قبضته .

أما على الصعيد الآخر فقد كان سرجون يتمتع بحس استراتيجي قل أن يتمتع به قادة آخرون في ذلك الزمن. كان يقف وكأنما من فوق مسرح الأحداث ، ويرى من خلال عين طموحه إلى وطنه الموحد من شواطئ الخليج العربي إلى البحر المتوسط ، ومن البحر الأسود إلى شواطئ بحر العرب ، فيرى كما لا يرى غيره أهمية البحر الأحمر الاستراتيجية بالنسبة لخطوط مواصلاته التجارية مع مصر وإفريقيا والهند ومن أجل إيصال منتجات شبه الجزيرة العربية إلى عاصمته . فأيقن بما لا يقبل الشك أو الجدل بأن عليه

أن يبذل كل ما في وسعه من أجل الحفاظ على منطقة البحر الأحمر ، ولاسيما الشرقية منها ، في يده . ومن ناحية أخرى فقد كان يدرك بحسه الاستراتيجي المتقدم كل الميزات الاستراتيجية التي يتمتع ويمتاز بها وطنه في قلب العالم القديم وحيث تتقاطع كل خطوط تجارته وبضائعه وأفكاره . فكان لابد من استثمار هذه الميزة الفريدة في وطنه إلى أقصى مدى . ومن أجل ذلك ، فقد كان لابد له من توجيه ضربة قاصمة للقبائل الهائلة خلف جبال زغروس شرقا وطوروس شمالا ، بما يضمن انصراف شعبه وبلاده إلى البناء الحضاري السلمي ، فتزدهر تجارته ، وتمتلئ مخازنه ، ويعم الرخاء أرضه ، وتتوفر الفرص والشروط اللازمة لتحقيق مطامح شعبه في السواحل الغربية من أجل الاندفاع عبر شطآن المتوسط لتحويله إلى "بحر أمورو" قولا وفعلا .

ولم يغفل سرجون لحظة عن أن تحقيق ذلك كله ليس بالأمر اليسير على شاب ليس في يديه من مقدرات وطنه الكبرى غير مدينة كيش ، وكل ما في جعبته في بداية طريقه ثقة بالنفس لا حدود لها ، وإيمان بصحة وسلامة الهدف لا يتزعزع ، وثقة بإمكانات شعبه العظيمة إذا ما أتيح لها أن تتوحد .

أحس سرجون بأنه في سباق مع الزمن . فهو إن لم يغتنم كل لحظة في الإعداد للتصدي لمهامه القادمة سوف يجد نفسه وشعبه وبلاده وكل طموحاته نهباً لسنايك خيل خصومه في الداخل والخارج . وبدأ سرجون العمل .

أوحى لغريمه لوجال زاجيسي بأنه لا يطمع بشيء ، وليست لديه أية مطامح تتعدى حدود كيش . وأقنعه بصدافته وبحسن نواياه . وفي الوقت نفسه انصرف إلى إعداد جيش جدير بأن يحمل معه تلك المهمات الجسام ويحقق لها النصر . وهنا تجلت عبقرية سرجون القيادية والعسكرية . لقد استطاع أن يميز في شعبه العربي عناصر الشجاعة ، وسرعة البديهة ، والخفة ، والمرونة ، والانقضاض الصاعق ، والإبداع الفردي ، والإحساس بالتفوق . فعمل على تربية هذه العناصر جميعاً وتنميتها وإبرازها في نفس كل جندي من جنوده . لقد عمد إلى تدريب جنوده تدريباً خاصاً يجعل كل هذه

الذي يفسح المجال لخصال جنوده أن تظهر وتتفوق . وهكذا عشقه جنوده ، وصار لدى سرجون جيش فتي مدرب ، يمتاز باللياقة والمرونة وسرعة الحركة . كما أبدع في استثمار براعة العربي في الحرب الصاعقة إلى أقصى مدى . وتخلص من كل الأساليب التقليدية في القتال التي كرسها أمراء الاقطاع من قبل . وأدخل القوس والرمح بدل الفأس والحرية ، واستخدم طريقة القتال الفردي " رجل يقابل رجلا " بدلا من نظام الكراديس ، فأتاح للجندي العربي فرصة استخدام كافة عناصر تفوقه التي زودته بها الطبيعة إلى جانب تدريبه العنيف والمتقن الذي بذل سرجون جهودا جبارة من أجل أن يبلغ بها المستوى الذي يطمح إليه .

بعد أن وثق من إمكانات جيشه الذي بين يديه ، وطد أمور الاستقرار لصالحه في كيش ثم انتقل شمالا على الفرات ، واختار موقعا لقرية اسمها "أجدة" Agada فجعلها مقرا له واختارها عاصمة للملكه . ولعله في ذلك يدرك أنه لابد من مواجهة حاسمة وضارية مع لوجال زاجيسي الذي يهيمن على جميع مدن سومر في الجنوب ، وليس يفصل بينهما ذلك المدى الذي يحقق له سرية المناورة والتحرك والاستعداد قبل أن يكشف خصمه حقيقة نواياه . كما أنه أراد أن تكون عاصمته قرية من مراكز انتشار الأموريين الكثيف في الغرب ، ومن أماكن تواجد أعمامه السريان في الشمال الذين سكنوا التلال والجبال ، فيحقق لنفسه عمقا سكانيا استراتيجيا كبيرا ، يشاركه العداء لخصمه في الداخل وللقبائل الموجودة خلف الجبال الشرقية في الخارج . ثم إنه لم يضع كبير وقت حتى انتقل ، ودونما إبطاء ، إلى مجال الحركة والفعل مظهرا براعة فائقة في استخدام عنصر الزمن لصالحه إلى أقصى حدود الاستخدام . لقد تحرك سرجون ، بادئ ذي بدء ، شمالا على طول وادي الدجلة ، فحير بذلك خصومه . لقد توجه إلى آشور بجيشه لكن أحدا لم يذكر أنه خاض معارك هناك ، ويرجح أنه صعد إلى السورين الآشوريين في مناطقهم لينسق الأمور مع زعمائهم ، وليحاول إقناعهم بمشروعه الوحدوي التحريري ، وإن كل الدلائل تشير إلى نجاحه في ذلك وإلى أن أعمامه من السريان ضموا جهودهم إلى جهوده وبقيادته . ثم ، وباستخدام غاية في البراعة للحرب الصاعقة التي درب عليه جيشه ،

انقض شرقا على مواقع القبائل من غوتين ولولوبي في جبال زاغروس ، فشنت شمل
تجمعاتهم ، وفرض على زعمائهم الجزية ، وحرر طرق التجارة من تحت سيطرتهم ، ثم
توجه إلى عيلام وحررها وضمها إليه . وقبل أن يفسح لخصمه لوجال زاجيسي في
سومر مجال التفكير فيما يدور حوله ، ارتد عليه كالصاعقة ، فسحق جيشه وساقه
أمامه مقيدا بالأغلال إلى نيبور ، ثم مال على مدن سومر ، وانتزعها بصورة مذهشة ،
وبسرعة أدهشت كثيرا من المؤرخين الذين أرجعوا ذلك إلى عبقرية الفذة في إدارة
المعارك ، إلى جانب تمكنه من خلق جيش قوي ، مدرب ، مرن ، صاعق ، يستجيب
لمتطلبات قائده في اللحظة المناسبة ، وبالمستوى الأكمل من الأداء والتنفيذ ، حتى غدا
كثير من المؤرخين يدعونه "سرجون الأعظم" لشدة انبهارهم بعبقريته الدبلوماسية
والعسكرية ، إذ إنه ، منذ بداية انطلاقته وحتى موته ، لم يعرف الفشل أو الهزيمة في أية
خطوة أقدم عليها سياسية كانت أم عسكرية .

عاد سرجون إلى عاصمته "أجادو" على الفرات بعد أن وحد آشور ، وعيلام ، وسومر
في دولته وغسل يديه من مياه "البحر الأدنى" ، وقضى على الخطر المحدق في الشرق ،
وحرر طرق التجارة من سطوة القبائل هناك ، وأخذ يحتفل في الظاهر ، ببناء القصور
والمعابد في العاصمة ، بينما هو ، في الواقع ، يعد كامل العدة للخطوة التحريرية التالية .
لقد أطلق اسم "أجادو" على مدينة ، ومنطقة ، وشعب ، وعلى الجزء الشمالي من
حوض الفرات والدجلة ، وسمى نفسه "شاروكين" أي "الملك أو السيد العادل" وغين
حكاما من المخلصين إليه على المدن الرئيسية ، وأصبحت اللهجة السورية (الغربية) هي
اللهجة المسموعة في القصر بعد أن كانت اللهجة السورية (الشرقية) هي
السائدة ، كما بقيت لغة سومر الكتابية الرمزية رسمية أيضا . لقد احترم سرجون
المؤسسات الدينية السومرية ، فجعل ابنته كاهنة لـ "نانا" ربة القمر في أور ، كما أنه
لقب نفسه بـ "كاهن أنو المسيح" (أي الممسوح بالزيت) و"انسي إنليل العظيم"
فملك قلوب السوريين جميعا ، شرقيين وغربيين ، في آن واحد . ثم ما لبث ، وفي غمرة
احتفالات شعبه بالانتصارات ، أن تحرك شمالا حيث خلائط من الشعوب والقبائل تهدد

الطرق التجارية للتجار السوريين إلى مناجم النحاس فأخضعها جميعا. لكنه ما لبث أن تمردت عليه من جديد ، فدمرها تدميرا شاملا "حتى أن العصفير لم تعد تجدد لنفسها مأوى فيها " وبالسيطرة على طرق التجارة في الشمال فقد أمن لمواطنيه إمكانية إيصال إنتاج البلاد الأجنبية الذي تحتاجه بلاده وخاصة الحجارة والمعادن والأخشاب .

ثم توجه بجيشه عبر الفرات إلى "بلاد مهبط الشمس حتى نهايتها" فوحد في قبضته جميع مدن أمور (سوريا الغربية) حتى بحر أمورو (المتوسط) ، ثم صعد إلى غابلت الأرز في جبال اللكام (الأمانوس) ، وجبال الفضة في الشمال (طوروس) وعبر إلى قونية وحرر توتال ، ثم عبر البحر إلى قبرص ، وقد عثر في قبرص على أختام أسطوانية تعود لعهد ، وأكد أنه سيطر على جزيرتي قبرص وكريت وضمهما إلى دولته ، كما جعل دلمون (البحرين) مركزا لتجارته مع الهند .

وقبل أن يعود إلى عاصمته بلغه أن فرعون مصر تقدم إلى منطقة خط القوافل ليستأثر في السيطرة على ذلك المركز الاستراتيجي الذي لم يكن يعادله أي مركز آخر ، فاتجه سرجون بجيشه جنوبا ، من أجل السيطرة على منطقة الطرق التجارية الدولية في غرب شبه جزيرة العرب شرقي البحر الأحمر ، ما لبث على اثره أن تراجع الفرعون يبيي إلى وراء حدوده ، فضمن سرجون بذلك السيطرة على جميع مفاتيح وطرق التجارة الدولية ، ووجه ضربات صاعقة إلى القبائل الممجية في مكانها خلف الجبال ، وحرر ووحد جميع أجزاء وطنه وحول عاصمته الجديدة ، ثم عاد إلى "أجادا" وانصرف إلى تحرير الانسان من الداخل .

لكن هل تحقق له إتمام ذلك ؟ وهل استكانت القوى الإقطاعية الانفصالية في المدن وسلمت بالأمر الواقع الوحدوي الجديد في إطار حكومة مركزية واحدة ، أم أنها أخذت تغتتم فرص انشغال سرجون بحروبه التحريرية على كل الجهات لتقوم بحركات العصيان هنا وهناك ولتفسح المجال لقوى الغزو الخارجي بان تهيب نفسها للانتقام لهزائمها الماحقة على يد سرجون ؟

كل الوقائع بعد ذلك تؤكد أن سرجون اضطر إلى أن يتابع برنامجا في البناء والإصلاح الداخلي بيد ، ويدافع عن الحدود الصعبة المترامية باليد الأخرى .

يقول هنري فرنكفورت : " إن البلاد كانت في كل الأوقات معرضة لأخطار جسيمة ، لقد كانت بلادا متحضرة ومزدهرة ، إنما كانت تعوزها الحدود الطبيعية ، لذلك كانت تغري الجبليين وسكان البطاح بإمكانيات النهب الهين . كانت المدن تستطيع أن ترد غائلة الغزوات ، أما الهجمات الكبيرة التي كانت تتكرر كل بضعة قرون ، فقد كانت تحتاج إلى حكومة مركزية قوية تردها ، كذلك كان تأمين سلامة الطرق التجارية أيضا فوق إمكانية المدن المنفردة . وقد يتوقع المرء أن يرى هذه المدن تتعاون معا في جهد وطني مشترك ، إنما بالفعل نجد ملحمة عن "ملك المعارك" تصف كيف أن سرجون الأكادي ، حينما توسل إليه تجار ما بين النهرين الذين كانوا يتاجرون مع الأناضول ، ذهب إلى هناك على رأس جيش للدفاع عن قضيتهم . وقد تعكس القصة حدثا فعليا لأن حفيد سرجون "نارام" بنى قلعة قوية في "براك" على الخابور ، ولم يكن الخشب المستعمل في بنائها من الحور والدلب فقط لكنه كان أيضا من البلوط والسنديان والصنوبر مما لا بد أنه كان مستوردا . وهكذا تعهد ملوك أكاد بواجب شغل جميع حلفائهم من حكام البلاد ، حتى إنه في الألف الأول كان اقتحام الجيش الآشوري السنوي جبال أرمينيا ، ثم اتجأه نحو الغرب محاولة منظمة مركزية سنويا لصد الجبليين ، لأن إخضاعهم بصورة دائمة ، وعندهم هذه الإمكانيات غير المحدودة للانسحاب إلى وديانهم البعيدة ، كان مستحيلا . ومنذ عهد سرجون الأكادي أدرك الملوك ضرورة الاحتفاظ بدولة موحدة مركزية . لقد كان لا بد من السيطرة على الحدود سيطرة تكفي لمجابهة العدوان هناك ..

" وقد يتوقع المرء أن يجد الناس أيضا مؤيدين للنظام الجديد الذي فرضه ملوك أكاد ، لاسيما وقد كان الشعور بالانسجام القومي موجودا . كانت للسومريين عبارة " الشعب

ذو الرأس الأسود " • للتدليل على أنهم وحدة جنسية ، وكان الإلهان إنليل وأنو وغيرهما يعبدان في جميع أنحاء البلاد ، لكن هذا الشعور لم يجد أبدا تعبيراً عن ذاته في شكل سياسي معين ، لقد ظل بدون تأثير ، فيما يبدو ، على تاريخ البلاد . إن فردية المدن لم تمنح على الإطلاق . وعند تولي كل ملك في أكاد كانت المدن تقوم بثورة . وبدلاً من الاتحاد ضد العدوان حاول الناس أن يعودوا إلى الاستقلال الذاتي المحلي الذي كان الأساس قبل ظهور سرجون " (1) .

إن هذا الواقع الذي لم يتمكن سرجون خلال مرحلة حكمه التي امتدت خمسة وخمسين عاماً من كسر قواعده المحلية ، وتأطيره ضمن نظام واحد في النظام المركزي المتطور المتحرر الذي كان يطمح إليه ، هو الذي أخذ يتألب عليه في أواخر أيام حكمه ، ويظهر على امتداد الساحة مدى احتدام الصراع بين قوى الثورة البورجوازية التحررية الصاعدة الجديدة من جهة ، وقوى الرجعية الاقطاعية الدينية (الأوليغارشية) من جهة أخرى .

إن في إمكاننا أن نميز ثلاث حالات للأوضاع في البلاد السورية التي وحدها سرجون :
الحالة الأولى : وتمثلها منطقة سومر وعيلام ، حيث كانت قد تكونت طبقة من الاقطاع الديني المتفوق على مصالحه الأنانية الضيقة في نظام المدينة - الدولة ، وقد رتبت هذه الطبقة أمورا عقائدية كهنوتية غطت بها عمليات استغلالها لأرزاق المواطنين وجهودهم ، كما أضفت على ذلك مسحة من مشيئة الآلهة . ولقد تمكنت خلال الفترة السابقة لسرجون من أن تكون نوعاً من القوات المرتقة تستخدمها حين اللزوم في تصفية منازعاتها ، دون أن تأخذ في اعتبارها خطورة مثل هذه الأعمال عليها نفسها ، وعلى مستقبل المنطقة وعروبتهما ككل . لقد حافظت هذه الطبقة بكل امتداداتها ومؤسساتها على بقائها إبان حكم الدكتاتور لوجال زاجيسي الذي لم يضع في حسابه سوى التسلط وابتزاز الأثاوات والأرباح . ولم تكن مثل تلك الفئة لتبخل عليه ، كما

• إنها ترجمة خاطئة لعبارة "شعب السواد" وهي منطقة جنوب العراق السواد ، وقد احتفظت بتسميتها منذ العصر السومري وحتى اليوم (المؤلف) .
(1) هنري فرنكفورت "تجبر الحضارة في الشرق الأدنى" ، ص 96 - 97 .

أنها لم تكن لتبخل على أتباعها من المقاتلين المرتزقة سواء أكانوا من أبناء البلاد أم من أبناء القبائل الذين تسللوا إلى المنطقة سلماً ، أو بقوا فيها من أسرى الحروب .

و حينما قهر سرجون غريمه لوجال زاجيسي ووحده سومر وعيلام ضمن الدولة العريية السورية التي شملت جميع أطراف سوريا رأى الاقطاعيون والكهنة كيف أن امتيازاتهم باتت مهددة ، ونظامهم يكاد أن يدمر دون أن يتمكنوا من القيام بأي عمل كبير يحول دون ذلك مباشرة ، فلجأوا إلى إحناء الرأس في وجه العاصفة ، وتركوا موجة سرجون تمر في طريقها لتكتسح جهات أخرى وملوكاً آخرين . لكنهم أبقوا على مؤسساتهم الدينية والعسكرية كما هي ، وركنوا إلى الانتظار يتحينون فرصة غياب سرجون عن الساحة أو موته لبدأوا التحرك ، إذ إن الفراغ الذي سوف يتركه قائد عظيم مثله سوف يجعل كل الكيانات الهزيلة تتحرك ، لتملأ ذلك الفراغ إن لم يقض عليها من قبل ، ويستعاض عنها بكيان منظم يركز على قاعدة شعبية واسعة ممن لهم مصلحة حقيقية في التغيير .

إن الثغرة التي بقيت في مشروع دولة سرجون كانت تتمثل ، هنا ، في إغفاله تصفية المؤسسات الأوليغارشيية القديمة . لقد ظن أن الإصلاحات الاجتماعية والاقتصادية ، والرخاء والازدهار الذي بدأ يتسع في عهده ليعم أوسع الأوساط الشعبية انتشاراً كانت كافية لتجعل تلك المؤسسات الرجعية الضيقة تتخلى عن مشاريعها الاستغلالية ، وتندمج مع عملية التغيير البورجوازية الوحدوية الكبرى . لكن الواقع أثبت عكس مثل هذه التوقعات . فقد تبين أن تلك الدوائر الرجعية الضيقة لم تمتنع عن الاندماج في دورة الحياة الجديدة فحسب ، وإنما أعدت في الخفاء كامل العدة للانقضاض على مؤسسات الدولة السرجونية الجديدة في اللحظة المناسبة ، كما أن بعضها لم يتورع عن التعامل مع القبائل الهمجية ، أشد الجهات وحشية وعداء لكل ما فيه بصيص من الحضارة ، من أجل تدمير الدولة القومية الجديدة بكل مؤسساتها ، وإرجاع حركة التاريخ إلى الوراء من جديد .

الحالة الثانية : هي منطقة أمورو الغربية (سوريا الغربية) حيث كانت مملكة "إيلا" تسيطر نفوذها على المنطقة ، وتسيطر على حركة التجارة البرية ، كما كانت

أوغاريت وصيدا وصور ، تسيطر على حركة التجارة البحرية . ولم تكن أي منها ، على ما يظهر ، لتشد عن الانضواء في دولة سرجون الموحدة . إن أحدا من المؤرخين لم يذكر أن سرجون تكلف القيام بأية معركة في سوريا الغربية التي تضم اليوم ما يسمى بلبنان وفلسطين والأردن . أما في الشمال فهو نفسه يقول إنه سجد أمام "داجان" (إله القمح) في توتول فأعطاه داجان (دجن) الأقاليم العليا ، ماري ، ويرموتي ، وإيلا حتى غابة الأرز ، والجبل الفضّي (الأمانوس وطوروس) لقد ذكر المؤرخون أنه ضم الأشلا (قبرص) إلى دولته ووصل إلى كريت، لكن أحدا لم يذكر شيئا عن أي صدام مع ملوك أوغاريت ، أو جيبيل .

نستنتج من ذلك أن جميع الأوساط الأمورية الأخرى التي تمتد من آشور إلى البحر المتوسط كانت متفهمة لهذا المشروع السرجوني الهادف إلى إقامة دولة عربية متقدمة في سوريا ، تجمع شمل الجميع ، وتؤمن خطوط التجارة ، كما تضمن حركة العمل والتنقل والزراعة ، وتتمكن من الدفاع ضد كل الجهات الطامعة بثروات المنطقة .

لقد كانت هذه المنطقة متمتعة بحالة من الازدهار الزراعي والعمراني والتجاري والصناعي وكانت قادرة على أن تمد جيش سرجون بالمال والسلاح المتطور . وكانت معظم مدن الساحل قادرة على الدفاع عن نفسها فترة طويلة ضد أعنى الغزاة ، ولم يتمكن أحد طيلة تلك الفترة من أن يوقعها في قبضته ، بل على العكس ، فقد كانت تتقدم على طول شواطئ المتوسط وفي جزره لتنتشر ثقافتها ، وتجسد تفوقها التجاري والاقتصادي .

لقد أدرك سرجون ذلك ووضع في اعتباره أن يضمن لها حماية كل خطوطها التجارية البحرية والبرية الممتدة من الأناضول شمالا إلى أواسط البحر الأحمر جنوبا .

الحالة الثالثة ، منطقة البحر الأحمر : تعتبر منطقة البحر الأحمر ، ولاسيما منطقة شرقي البحر الأحمر ، أهم المناطق قاطبة بالنسبة للإنسان العربي في الزمن القديم . لقد كان البحر الأحمر ، في حد ذاته ، بحرا مثاليا للصيد والملاحة والتجارة بالنسبة للسفن البدائية الشراعية وذات المجاذيف ، التي لا تحمل الإبحار مسافات بعيدة في عمق البحار الكبرى . ولقد كانت منطقة ما بين مكة وجدة ملتقى لأهم عقدة مواصلات تجارية

للقوافل في ذلك الزمن . ففيها يمر خط القوافل القادمة من الأناضول وتواصل مروراً بإنطاكية وحلب ، ودمشق ، وبصرى ، والبتراء ، وتيماء ، ومدائن صالح ، ويثرب ، إلى جدة ، ثم يتابع سيره جنوباً بمحاذاة الساحل إلى عدن مروراً بازول (صنعاء فيما بعد) ، وفي مكة يلتقي بالطريق القادم من الشرق ، والذي يتوحد فيه طريقان أحدهما قادم من منطقة الخليج العربي محاذياً لوادي الرمة ، والآخر من طريق الحرير القادم من الصين إلى اكينان إلى شمال "أجادة" على الدجلة ، ومنها إلى سوزا في عيلام ، ثم تتجه إلى الجنوب — غرب إلى الأبله عند نيبور ، ومنها إلى وادي الرمة جنوب غربي نجد حيث يلتقي بالطريق القادم من منطقة الخليج العربي وينتهيان معاً إلى جدة . وهناك خط رابع يأتي من شواطئ البحر الأسود إلى حران في الجزيرة السورية ، ومنها إلى تدمر حيث عقدة الطرق القادمة من بابل وحلب ودمشق ، ومنها يكمل سيره جنوباً مروراً بدمشق ، وبصرى ، والبتراء ، وصولاً إلى جدة . وفي جدة تلتقي الطرق القادمة من الشرق أيضاً ، من صحار* على شاطئ الخليج ، ثم إلى بيرين شمال الربع الخالي ، ومنها يتفرع إلى فرعين : أحدهما يلتقي بالخط القادم من جرها على الخليج على وادي الرمة ، أما الثاني فيدور في شبه قوس وسط شبه جزيرة العرب ماراً بليلي ، وسليل والفاو** إلى ييشة حيث يلتقي بالخط الصاعد من مأرب ، ثم يتابع إلى الطائف ثم إلى جدة .

أما الطريق البحري القادم من الطرف الشمالي للبحر الأحمر فإنه يلتقي في جدة بالطريق القادم من عدن ، حيث تلتقي الطرق الثلاثة الرئيسية القادمة من شواطئ إفريقيا الشرقية ومن الهند ومن شواطئ الخليج العربي وبحر العرب .

وهكذا تكون جدة أهم ملتقى عقدة مواصلات تجارية في الزمن القديم .

أما من حيث المناخ والبيئة الجغرافية والزراعية ، فإن منطقة شرقي البحر الأحمر بقيت من أخصب المناطق الزراعية ، وأكثرها مياهًا وتنوعاً في زراعتها ، كما أن سلاسل جبال السراة المحاذية لشاطئ البحر ظلت تعتبر من أمتع المواقع التي يمكن أن يلجأ إليها

* ورد ذكر مدينة "صحار" في وثائق إيبلا .

** هي غير مدينة "الفاو" العراقية على الخليج العربي .

الجماعات أو الأفراد المنبوذون من مجتمعاتهم دون أن تهدد حياتهم الأخطار أو الموت جوعاً ، وهي ما تزال حتى اليوم تعج بالكهوف والمغاور التي تصلح للسكن . أما السكان فإنهم ينقسمون بشكل رئيسي إلى عرب أموريين يشغلون النصف الشمالي من المنطقة الممتدة من شمالي صنعاء جنوباً إلى عدن ، وهم في المنطقتين كليهما وفي منطقة محاذة وادي الرمة وصولاً إلى الخليج العربي يعتبرون أنفسهم امتداداً طبيعياً للأموريين السوريين الذين يشغلون سوريا الطبيعية كلها من شواطئ الخليج العربي إلى البحر المتوسط ، ومن شمال طوروس إلى وادي الرمة في شبه جزيرة العرب وصولاً إلى عدن . أما المنطقة الوسطى الممتدة من جدة إلى جيزان جنوباً فيسكنها العرب الكنعانيون الحاميون أبناء عم المصريين الحاميين في الغرب .

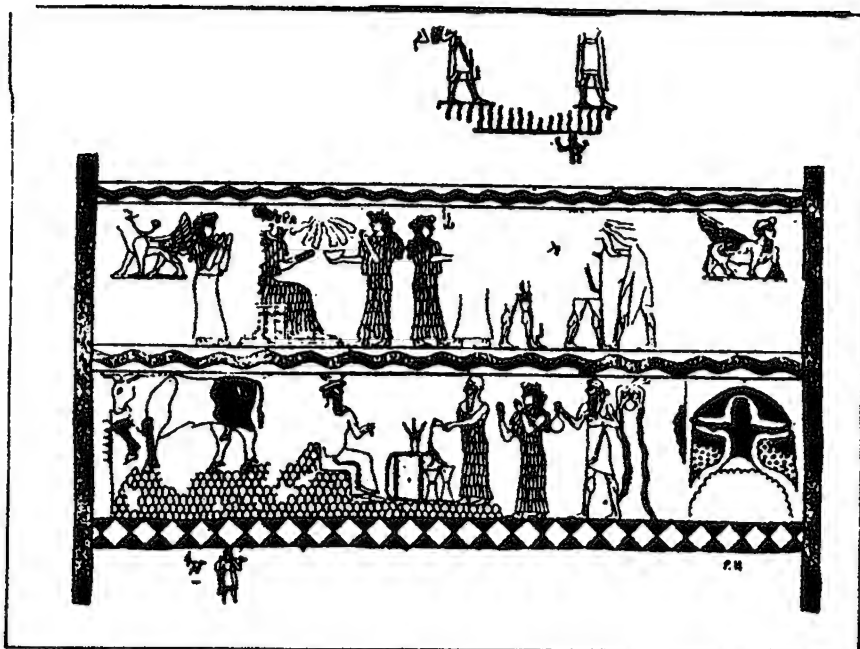
إن لحظة سريعة كهذه على المنطقة تجعلنا ندرك بسهولة أهميتها الاستراتيجية . إن سرجون الذي حرر أجزاء الوطن وثغوره من تحت تسلط القبائل الغازية . كما حرر جميع المدن في الداخل من قيود العسف الاقطاعي — الديني ، ووحدها في دولة واحدة ، إنما جاءت تنويعاً لعملية تاريخية بعيدة الجذور في الزمن الماضي ، ولتراكمات كمية كبيرة لم يكن لها متنفس حقيقي يعبر عن طبيعة توجهها بغير الدولة البورجوازية الواحدة وهو بذلك ، يكون قد أرسى دعائم أول دولة عربية بمفهومها المتقدم ، كما أنها أول دولة في العالم بهذا المفهوم عينه ، وهي الدولة العربية السورية ، التي ستكون فيما بعد ورغم كثافة الصراعات الداخلية بين القدم والجديد الذي لم تحسم معركته بعد ، النواة الحقيقية للوطن العربي الكبير .

سرجون ومسيرة الإصلاح الاجتماعي — الاقتصادي :

لم يشأ سرجون أن يؤلب عليه — كما اتضح — قوى الخارج والداخل معاً ، بل تمكن ، بدهاء السياسي البار ، من أن يفرز أهدافه ، ويحدد خصومه ، ويعين شكل وزمن التعامل مع أولئك الخصوم . ولما كانت نيبور هي مدينة إنليل المقدسة ، وبالتالي ، هي بؤرة التمركز الرجعي المناوئ لحركة التجديد والإصلاح التي يقودها سرجون ، فقد

كان عليه أن يسلك أحد طريقين : إما أن يضرب الرجعية في الصميم ويقضي على عقدة اتصالاتها وتنظيماتها المالية والعسكرية ، السرية والعننية ، أو أن يلجأ إلى مهادنتها ، وكسب ودها ، طمعا في أن تنخرط في خضم التيار العام الجديد ، وتضيق فيه ، لأن شكل الحياة الجديد ، وما سوف يفتح من آفاق للشراء وللرخاء أمام كل الطامحين إلى الثروة ، قد ينسي أساطين العهد البائد التفكير في التكتل ، والتمرد ، والانتقام . وقد اختار سرجون أن يسلك السبيل الثاني ، وهنا كانت بداية مأساة نظامه الجديد .

لقد قصر تقدير سرجون عن فهم طبيعة وإمكانات الطبقة الإقطاعية — الهيكلية ، رغم ما كان يتمتع به من ذكاء وقاد وعبقريّة سياسية وعسكرية فذة . إن طغيان مشاعره الوطنية القومية جعله يتعد قليلا أو كثيرا عن فهم طبيعة وحقيقة الخصوم في الداخل ، الذين اختطوا لأنفسهم — منذ البداية — طريقا ليس فيه أي جامع يجمعهم بيني شعبهم ، بل يكرس كل شيء من أجل استغلال جهود مواطنيهم ، وسرقة القوات من أفواه أطفال فلاحهم ورعايقهم وحرفيهم ، واستعانوا على ذلك بأدوات غريبة من المرتزقة أبناء القبائل الغربية عن المنطقة ، والتي لا يهمها إلا تدمير مدن سومر وأكاد على من فيها إذا ما قيض لها أن تتأثر لهزائمها من جيش سرجون . إن نبيل المشاعر الوطنية والإنسانية التي كان يكنها سرجون لبني قومه عموما جعله يترلق في عدم تقدير الأمور على أرض الواقع كما هي . فقد بقيت نيبور المقدسة مركزا لأعنى عتاة الفئة الرجعية ، وبقيت تستحوذ على كافة أسلحتها الدينية والسياسية ، كما كان لها من الأرصدّة المالية ما يجعلها قادرة على الاستمرار في تمويل أزمائها من المقاتلين المرتزقة ، وتبقى الأمور على ما هي عليه في هيئة كمون مؤقت ، منتظرة عاصفة سرجون كي تمر لتنتقل بكل قواها إلى الميدان وتدمر تلك المكاسب التي منحها سرجون لجماهير شعبه . لقد تصرف سرجون ، وهو في أوج قوته ، بفروسية ونبيل مع تلك الفئات ، وأبقى على مركز نيبور الديني ، كما أبقى على كل المراكز الأخرى .



قاعة الجلسات في قصر زمري ليم . ماري . الألف الثالث قبل الميلاد

وزيادة في الإيحاء بالود وكسب الثقة فقد بنى معابد لإنليل وعشتار في عاصمته ، ولقب نفسه "كاهن آنو المسيح" وجعل ابنته كاهنة "نانا" ربة القمر في أور ، لكن ذلك لم يغير من واقع الأمر شيئا . فقد كان قد مضى زمن ليس بالقليل منذ أن قضى رجال الدين على مؤسسة المعبد التعاونية الاجتماعية . كان المعبد مشغلا اجتماعيا اشتراكيا بصورة ما بالفعل ، ولم يكن ثمة من يشعر بفارق بين فلاح في حقل المعبد وبين موظف أو كاهن في المعبد . كان كلاهما يعمل ، وكلاهما يحرق الأرض ، وكلاهما يقدم إنتاجه بنسبة معينة للمجموع ، وكلاهما يأخذ نصيبه من عمله ، كما يأخذ المعونة عند المحن أو الضرورة . هكذا نشأ الدين في بدايته ثورة اجتماعية حقيقية ، اقتصادية وتربوية ، ولم يكن ثمة من يشعر بالحاجة إلى وجود أشخاص ينصبون أنفسهم واسطة بين العباد والرب ومنذ أن وجد على الساحة رجال دين حولوا كل شيء عن حقيقته ، ونسجوا من

خيالهم أفكارا وهمية لا تصلح لشيء إلا لتكريس سيطرتهم وهيمنتهم على الناس وابتزاز جهودهم وثرواتهم ، وصار كل شيء يتم باسم الآلهة ، ووقفوا أنفسهم حلقة تتوسط المكان بين الآلهة والناس . ثم ما لبثوا أن جمعوا في أيديهم السلطتين الدينية والدينيوية — كما يقال ، وتحول المعبد إلى مؤسسة إقطاعية جبرية قاسية لا حيلة لأحد في التصدي لها إلا إذا قامر بأن يتلقى على جسده وروحه غضب جميع الآلهة . ولما كانت تلك الفئة غير مستعدة للتنازل عن مكاسبها التي امتدت لتشمل الأراضي الجماعية ، وأرباح التجارة ، وإنتاج المشاغل ، كما أنها لم تكن على استعداد لأن تقامر بمصير تلك المكاسب ، فقد عمدت إلى خلق جماعات من المرتزقة لتعمل على تصفية مناوئتها سرا ، وترغم أن ذلك كان نتيجة لغضب من الآلهة فتزيد من هيبتها وهيبة الفكر الذي تكرسه في آن معا ، حتى أضحت على أرض الواقع قوة لا يستهان بها .

إن تلك القوة هي التي لم يكن سرجون يقدرها حق قدرها في غمرة إنجازاته القومية وخطواته المستقبلية ، إزاء شعبه وبلاده .

وإذا ما أردنا أن نضع تلك الإنجازات ضمن خطوط رئيسية رأينا أن سرجون :
أولا : ألغى جميع محاكم الهيكل الدينية ، وأنشأ محاكم مدنية ، يؤمن العدالة فيها قضاة ملكيون مركزيون ، واتخذ لنفسه لقب " الملك أو السيد العادل " وجعل جميع القضاة تحت مراقبة الحكومة المركزية .

يقول هنري فرنكفورت : " ويبدو أن سرجون قام أيضا بمحاولة لاكتساب ولاء عامة الناس ، وهذا يظهر من التعديل في نص اليمين أي القسم . فلقد أصبح الآن بإمكان ذكر اسم الملك إلى جانب اسم الآلهة . ولهذا مغزاه العملي الواضح . فإنه إذا حولت اتفاقية أقسم الطرفان على احترامها ، وإذا جرى حث باليمين كان للملك شأن في ذلك ، إذ أصبح يتوجب عليه أن يؤيد حق الطرف المتضرر . كانت لهذا أهمية قصوى ، إذ أن القاضي كان في الزمن الأول مجرد حكم ، واجبه الأول أن يوافق بين الطرفين أو يرضيهما ، لم يكن له سلطة لينفذ قراراته ، وإذا لم تكن للإنسان الذي لا يتمتع بمركز مرموق من يسنده ويحميه فإن إمكانيات الحصول على حقوقه المهضومة أمام المحاكم

كانت ضئيلة . فالنص الجديد للقسم جعل الملك في وضع أصبح فيه شفيعا لجميع الذين أقسموا باسمه ، إنه في الواقع مرجع استئناف لجميع البلاد بغض النظر عن المدن وهذه خطوة ذات أهمية عظمى في تطور القانون والمجتمع في ما بين النهرين ⁽¹⁾ .

إن في وسع أي منا أن يلاحظ أن سرجون بذل جهودا كبيرة ومكثفة من أجل أن يجعل " العدالة " عنوانا كبيرا لحكمه ، فهو قد اتخذ لقب " شاروكين " أو " سرجون " أي " السيد أو الملك العادل " ، وصار جميع مؤيديه يسمون بهذا الاسم . ثم إنه جعل من هيئته وقوة حكمه أداة حقيقية تشارك عمليا في رفع الحيف عن المظلومين ، وفي أخذ الحق من الظالمين ، بعد أن ألغى هيئة وسطوة القضاة الدينيين ، وقد وحد نظام القضاة وأقام نظاما قضائيا واحدا في جميع المناطق .

ثانيا : رفع أيدي الكهنة عن الملكية العامة للهيكل من حقول ومشاعل ومصارف ، بعد أن كانوا قد وضعوا الأيدي عليها وصاروا يتوارثون ملكيتها خالقين بذلك أول تناقض طبقي حقيقي في المجتمع العربي السوري القديم ، " وحرر الفلاحين من التزاماتهم ، وكذلك العمال والصناع العاملين في مشاعل الهياكل الصناعية ، وأنشأ إدارات خاصة للأراضي والمشاعل الأكليريكية تشرف عليها الدولة مباشرة ، كما أنشأ دائرة تعيين للكهنة ميرتبات تدفعها لهم الدولة " ⁽²⁾ فيكون بذلك أول من طبق شعار علمانية الدولة في التاريخ .

ثالثا : حرر الفلاحين من استعباد الأمراء الإقطاعيين في المدن ، فألغى النظام الإقطاعي الأميري للملكية الأرض ، ووزعها على الفلاحين في ملكيات صغيرة خاصة ، وأنشأ لذلك دائرة خاصة لتسجيل الأملاك تسجيلا قانونيا ، ولم يبق على الفلاح أي التزامات إلا للمراجع الملكية المركزية مباشرة ⁽³⁾ ، فيكون بذلك قد طبق أول برنامج للإصلاح الزراعي في التاريخ وذلك منذ 4500 عام .

(1) هنري فرانكفورت ، " فجر الحضارة في الشرق الأدنى " ص 92 - 93 .

(2) أسد الأشقر ، " الخطوط الكبرى في تاريخ سوريا ونشوء العالم العربي " الجزء 1 القسم 1 ص 112 .

(3) المصدر السابق .

رابعا : من الناحية الإدارية ميز سرجون بين مدن الأقاليم الشرقية في سومر وعيلام ، ومدن الأقاليم الغربية والشمالية الغربية على المتوسط . ففي الوقت الذي ضم إلى حكمه المركزي جميع مدن ما يدعى اليوم بسوريا ولبنان وفلسطين والأردن وجعلها تتابع مسيرتها الحضارية المتنامية ، في ميادين الزراعة والصناعة والتجارة وارتداد شواطئ المتوسط وجزره ، بعد أن أمن لها حمايتها، وضمن الأمن على خطوط تجارتها ، نراه وقد أبدى نوعا من التراخي أو التساهل مع مدن الجنوب السومري حيث قوة النفوذ الهيكلي الديني ، فترك للمدن هناك بعض الاستقلال الداخلي ، وبقيت كل مدينة تدير شؤونها بنفسها تقريبا ، كما كانت عليه الحال من قبل ، فكرس بذلك نزعتها الانعزالية الاستقلالية عن جسم الدولة ككل ، كما أمن بذلك استمرار نفوذها على الأوساط التي كانت تهيمن عليها من قبل ، واكتفى بتعيين مراقبين من قبله يشرفون على سير الأمور فيها . فكان أن سقط أولئك المراقبون بسهولة في دائرة الهيمنة الدينية للهيكل في نيبور بعد أن صاروا يعتقدون بأن الملك نفسه لم يجرؤ على أن يمسه به . ومع ذلك فقد تمكن سرجون ، ولأول مرة ، من أن يكسر قواقع الكيانات المدنية الاقطاعية الهزيلة ، ويتيح للشعب كله فرصة الانخراط في دورة حياتية اجتماعية — اقتصادية وسياسية جديدة ، كان لها شأنها في تطور نظم الحكم فيما بعد في العالم أجمع . لقد حقق سرجون انتقالا حاسما من نظام المدينة والإمارة الاقطاعية الدينية إلى نظام الدولة المركزية بمفهومها المعاصر . ولولا قسوة الظروف المحيطة بجسم هذه الدولة من الشمال والشرق التي فرضت عليها استنفارا وقتالا دائمين ، لما جرؤت حتى دوائر المدن القديمة في الداخل ، التي أسبغ عليها سماحته ومنحها ثقته ، على أن تفكر بالعصيان ضده والتمرد عليه . وقد أثبتت الوقائع أنها كانت تعقد التحالفات السرية مع تلك الشعوب القبلية الرابضة في معاقلها خلف الجبال من أجل الانقضاض على نظام الدولة الجديد . ويعتقد الباحثون في سياسة سرجون أنه ارتكب خطأ قاتلا حينما أبقى على بؤر الخصوم قوية في الداخل في الوقت الذي أيقن أنه غير قادر على تصفية خصومه القبليين الرابضين في الجبال على الحدود في الخارج ، وعلى مرمى حجر من مدن سومر وعيلام . لقد أتاح بذلك المجال

مفتوحا للطرفين كليهما في أن يستمد الواحد شجاعته من وجود الآخر ، ويقرر العمل ضد النظام السرجوني الجديد . لقد كان على سرجون ، بعد أن أيقن بعجزه عن القضاء على الغوتيين والكاشيين المتربصين به في جبال زاغروس ، أن يطهر بلاده من الداخل نهائيا من كافة الجيوب التي تكن له العداء ، وتفكر بالانقضاء عليه ساعة تحين فرصتها المناسبة .

أما في منطقة البحر الأحمر ، أي الطرف الغربي لشبه جزيرة العرب ، فقد كان لها دائما وضعها الخاص الذي سوف يستمر طويلا بعد عهد سرجون . فمند أن أرغم سرجون فرعون مصر على الانكفاء إلى ما خلف حدود محطته ، اكتفى سرجون بتعيين الفرعون هناك من الحكام المحليين الذين يشرفون على سير الأمور ، ويرقبون تحركات كافة الأطراف ويسهرون على حماية أمن الطرق التجارية الدولية وسير القوافل ، ويعثون بالتقارير الدورية إلى الملك .

خامسا : لقد ألغى سرجون الوكلاء الإقطاعيين الذين كانوا في السابق ينشئون الجيوش في المدن ويقدمونها للملك حسب أهوائهم ، وارتكز في تنظيم جيشه على الأوساط الشعبية مباشرة ، ولأول مرة في التاريخ أيضا . لقد شل بذلك أيدي الأمراء الإقطاعيين والدينيين ، الذين كانوا كثيرا ما يستبدون ويرتشون وينظمون لأنفسهم العصابات المقاتلة الخاصة إلى جانب من يجمعون من المقاتلين من أجل جيش الملك ، فقطع بذلك دابر نفوذهم على أبناء مناطقهم في المدن ، وأخذ يبعث المفوضين من قبله للتعامل مع أوساط الشعب مباشرة من أجل تنظيم وتعبئة المقاتلين في صفوف جيش الملك دونما واسطة من أحد ، وكان لذلك أثره الكبير في تخلي كثير من الجهات عن "سادتها السابقين" كما أخذ أفراد الشعب يلقون عن كواهلهم كابوس الخوف من أولئك الأمراء المستبدين المستغلين .

سادسا : لقد حقق سرجون خلال سني حكمه تجسيدا حقيقيا لوحدة الشعب العربي السوري بكافة مناطقهم ، وجمع "جهاته الأربع" في عمل قومي تحريري وحدوي رائد ، وجعل اللغة العربية بلهجتها السريانية الشرقية والعمورية الغربية لغة الدولة الرسمية

في كل أنحاء الوطن ، الذي انتقل إلى مرحلة اجتماعية وسياسية واقتصادية قل ان يحلم بها بلد من البلدان في ذلك العصر ، بل وفي العصور التالية .

سابعا : " والخطوة الأخرى لتوحيد البلاد كانت إدخال تقويم موحد ، إذ إنه حتى هذه الفترة كان لكل مدينة تقويم خاص بها وفيه أسماء شهور وأعياد خاصة . وأخيرا صار وجود حاكم فرد يدعو نفسه " ملك أنحاء العالم الأربعة " يذكر الناس دوما بوحدة الدولة " (1) .

هذا ما يؤكد الباحث والعالم والمؤرخ هنري فرانكفورت في كتابه " فجر الحضارة في الشرق الأدنى " عند حديثه عن سرجون العظيم الذي أدهش المؤرخين جميعا بمنجزاته الرائعة الفريدة التي تستحق أن تنتسب ، وبتفوق أكبر من الجدارة ، إلى قرننا العشرين بعد المسيح .

ويضيف هنري فرانكفورت : " ... ومنذ عهد سرجون الأكادي أدرك الملوك ضرورة الاحتفاظ بدولة موحدة ومركزية " .

" لقد حققت بلاد ما بين النهرين انتصاراتها في جو من القلق العميق ، والسروح التي تتخلل أهم كتاباتها هي الشك في قدرة الإنسان على تحقيق السعادة الدائمة . ولم تكن فكرة الخلاص عندهم فكرة لاهوتية ، بل كانوا يشعرون بها أو لنقل إنهم كانوا يحبوها عاطفيا أثناء ممارستهم أعيادهم الدينية السنوية " (2) .

ثامنا : إن ثورة سرجون البورجوازية المتقدمة على ثورات أوروبا البورجوازية بما ينوف عن أربعة آلاف وخمسمائة عام لم تكن لتمر دون مصاعب قاسية ، كونها تنهض في تلك المنطقة مثل فردوس حضاري منعزل يحيط به الأقوام الممججون على طول الحدود في الشمال والشرق . لكنها ، مع هذا ورغم هذا ، بقيت الأساس الحقيقي ، والأرضية التي صار كل حاكم يطمح أن يقيم من عليها دولته . ولقد تمكنت ، رغم كل المحن والانتكاسات التي ألمت بها ، من أن ترسخ تقاليد ومفاهيم جديدة بقيت حية لدى

(1) هنري فرانكفورت ، " فجر الحضارة في الشرق الأدنى " ص 93 .

(2) هنري فرانكفورت ، المرجع نفسه

الشعب العربي السوري قرونا طويلة فيما بعد ، واقتبستها عنه البشرية .

إن في الغاء سرجون للمحاكم الدينية الهيكلية المستبدية ، وتعميم المحاكم الملكية المدنية التي تعتمد ، بالدرجة الأولى ، على قضاة أكفاء متخصصين وعلى مجالس أحرار الشعب الديمقراطية ، منعت تعسف الحكام الدينيين وعبثهم بمصائر الفقراء من مواطنيهم ، مما جعل الشعب يتمسك بهذه المحاكم حتى بعد سقوط " أجادة " (أكاد) واجتياحها على أيدي قبائل الغوتيين فيما بعد .

إن في ذلك وحده أعظم رد على مؤرخ استعماري متحيز مثل أرنولد توينبي الذي يقول في كتابه "تاريخ البشرية" حول العرب الأكاديين : " وقد كان الأكاديون متطفلين شبه برابرة ، وكان سرجون وأحفاده ، مثل سلفه لوجال زاجيسي ، رجل حرب " (1) .

إننا نفهم جيدا لماذا يصير مؤرخ مثل أرنولد توينبي ، بعد كل ما ذكرنا عن سرجون ، والذي لم تكن معرفته لتغيب عن توينبي قطعاً ، على جعل الأكاديين " متطفلين شبه برابرة " ، إنما النغمة ذاتها التي يرددها كورس التاريخ في دول الاستعمار العظمى ضد العرب ، ليلصقوا بهم الهمجية وبغيرهم التمدن ، يعد أن أصروا ، وبصورة تدعو إلى العجب والرتاء معاً ، على أن السومريين ليسوا عرباً ، وليسوا ساميين ، وأنهم مبدعو الحضارة ! .

ونحن سوف نورد هنا نموذجاً لمحاكمة حدثت بعد سرجون بما يزيد عن ألف عام كدليل على تمسك شعب سرجون العربي في " سومر وأكاد معاً " بمنجزاته المتقدمة كثيراً ، ليس على محاكمات الكهنة في سومر من قبل سرجون فقط ، بل وعلى المحاكمات في لندن نفسها في بداية هذا القرن .

ففي عام 1950 اكتشفت بعثة مشتركة من المؤسسة الشرقية في جامعة شيكاغو ومتحف الجامعة التابعة لجامعة بنسلفانيا في الولايات المتحدة لوحتين لدعوى بجريمة قتل حصلت نحو 1850 ق.م في سومر :

• يرجع أن "أجادة" دمرتها الزلازل مع كثير غيرها من المدن قبل اجتياح القبائل .
(1) أرنولد توينبي " تاريخ البشرية " الجزء 1 ، ص 97 .

ثلاثة رجال : حلاق وبستاني وآخر لم يذكر صنعته ، قتلوا أحد موظفي المعبد واسمه أو بالأحرى لقبه " لوعنانا " أي " رجل عنانا " . ولسبب ما قام القتل بإبلاغ زوجة القاتل واسمها " نين — دادا " (السيدة دادا) بمقتل زوجها ، لكن الزوجة نين داد كتمت سرهم ، ولم تبلغ السلطات .

لكن السلطات علمت بطريق آخر ، وأبلغت الملك " أورنينورتا " في العاصمة ايسين ، فرفع الملك الدعوى أمام " مجلس المواطنين الأحرار " في نيبور الذي صار منذ أيام سرجون بمثابة محكمة عدل . وفي هذا المجلس قام تسعة رجال بدور الاتهام ، وقالوا إن الرجال الثلاثة القاتلين ليسوا هم المجرمين فقط بل إن الزوجة كاتمة السر يجب أن تعدم معهم أيضا ، لأن تسترها على الجريمة وصمتها عنها كان متما لها . لكن رجلين آخرين في المحكمة قاما بالدفاع عن الزوجة على أساس أنها لم تشترك في جرم قتل زوجها . وقبل المجلس دفاعهما عندما علم أعضاؤه أن الزوج القاتل كان محجما عن إعالة زوجته . و انتهوا إلى الحكم بأن " معاقبة الذين ارتكبوا فعلا جريمة القتل تكفي " وهكذا حكم مجلس نيبور على الرجال الثلاثة بالإعدام ، وبرئت الزوجة .

وهاكم موجزا من النص كما ورد في اللوحتين اللتين ترويان المحاكمة : " نانا — سيخ بن لوسين " ، وجو — إنليل بن جو — نانا الحلاق ، إنليل — أنام عبد أدا جلا البستاني ، قتلوا لو أنانا بن لوجال عين — آدو المستخدم في المعبد .

وبعد أن قتل لو — أنانا بن لوجال عين — آدو أخبروا نينا دادا ابنة لو نينورتا زوجة لو أنانا أن زوجها لو أنانا قد قتل ...

لكن نينا دادا ابنة لونيورتا لم تفتح فاهها وبقيت شفتاها مغلقتين . عندئذ رفعت قضيتهم إلى مدينة ايسين أمام الملك ، والملك اورنينورتا أمر بأن ترفع دعواهم إلى مجلس نيبور .

هناك نهض كل من أور جل (نور الجليل) بن لوجال .. ودودو صياد الطيور ، وعلي عيلاني الخادم ، وبوزو بن لوسين ، وايلوتي بن ايا ، وشيش جلا الحاجب ، ولوجال جان البستاني ، ولوجال أزيذا بن سين عند إيل وشيش جلا بن شاره .. وواجهوا المجلس

وقالوا :

إن من قتلوا إنسانا لا يستحقون الحياة أولئك الرجال الثلاثة وتلك المرأة يجب قتلهم أمام كرسى لوعنانا بن لوجال عين أدو موظف الشاكو (نلاحظ وجود أموريين غربيين وعموريين شرقيين في المحكمة من وجود الأسماء التي تجمع اللهجتين حيث الألف أو الواو في نهاية الأسماء)

ثم واجه شو .. ليلوم الموظف التابع لنيورتا وعبر سين البستاني المحكمة ، وقال :
مع الاعتراف بأن زوج نينا دادا ابنة لونيورتا قد قتل ، ولكن ماذا فعلت المرأة حتى تستحق القتل ؟

ثم التفت إليهم أعضاء محكمة نيبور وقالوا :

إن زوجة لم يرق زوجها بإعالتها ولو كانت تعرف أعداء زوجها ، وإن كان بعد مقتل زوجها قد سمعت أن زوجها قد قتل فعلا لا تظل ساكنة عنه ؟
هل هي التي قتلت زوجها ؟ إن معاقبة الذين فعلوا قتله يجب أن تكون كافية .

وبموجب قرار مجلس نيبور سلم كل من نانان سيخ بن لوسين ، وجو إنليل بن جونانسا الحلاق ، وإنليل أنام البستاني عبد أدا جلا إلى الجلا ليقتلوا . هذه قضية نظرت فيها محكمة نيبور " .

وبعد ، أليس في هذه الدعوى ما يفضح دعاوى مؤرخي النظم والإمبراطوريات الاستعمارية ضد العرب السوريين وابنهم العظيم سرجون ؟ أما في عهد خلفه العربي السوري الأموري الآخر " حمورابي " فقد كان " في مدينة بابل محاكم استئناف يحكم فيها قضاة الملك . وكان في وسع المتقاضين أن يرفعوا قضاياهم إلى الملك نفسه .. وإذا لم تتمكن السلطات من القبض على الجاني أو السارق كان على المجني عليه أو المسروق منه أن يدلي في حضرة الرب ببيان مفصل عن خسائر . وعلى المدينة التي ارتكبت السرقة في داخل حدودها والحاكم الذي ارتكبت في دائرة اختصاصه أن يعوضه عن كل ما فقده . وإذا أدى السطو إلى خسارة في الأرواح دفعت المدينة ودفع الحاكم الدية إلى ورثة القتيل . فهل ثمة في هذه الأيام مدينة بلغ صلاح الحكم فيها درجة تجرؤ فيها أن تعرض على من تقع عليه جريمة بسبب إهمالها مثل هذا التعويض ؟ وهل ارتقت الشرائع

حقا عما كانت عليه زمن حمورابي ؟ " (1) .

لقد قوض سرجون دعائم نظام المدينة — الدولة الاقطاعي الديني الذي طبقتة اليونان فيما بعد بصورة مقرمة ، وظلت رهن اساره طيلة العصور اللاحقة . وأقام على أنقاضه نظام الدولة البورجوازية الناهض المتحرر من كل سلبات الاقطاع الديني وتحجره واستبداده وانعزاليته . يقول بهذا الصدد المؤرخ موسكاتي : " وسع سرجون امبراطوريته فشملت بابل وآشور وسوريا (يعني سوريا الغربية) ، ودخل آسيا الصغرى ، وامتدت تجارتها إلى قبرص . وكان للدولة أكاد في عهده إدارة منظمة ومركزية أصبحت فيما بعد مثالا للأنظمة اللاحقة . ومنذ ذلك العصر ظهرت بوضوح نزعة إلى الملكية الشاملة طبعت كل تاريخ آسيا الأمامية بطابعها حتى عصر الإسلام " (2)

لقد حكم سرجون حكما قرابة خمسة وخمسين عاما ، كما أن ابنه ريموش وحفيده نارام سين حكما من بعده قرابة نصف قرن ، دافعا خلالها عن ميراث أبيهما الثوري الجديد بكفاءة نادرة . إن قرنا من الزمن كان كافيا لأن تتغلغل الأفكار التي رسخها سرجون في ذهن جيل جديد من العرب السوريين الذين سوف يتصدون فيما بعد بضراوة لكل محاولات إسقاط الدولة المركزية السورية الواحدة رغم تكاتف كل القوى المضادة من الخارج والداخل .

لقد أقام سرجون ، وبمضمون متقدم جديد ، أول دولة عربية سورية شملت الهلال الخصيب كله ، من الخليج العربي إلى المتوسط وقبرص ، ومن شمال طوروس إلى وادي الرمة وسواحل البحر الأحمر الشرقية وجنوبي سيناء . ولقد كان حكم وإدارة رقعة شاسعة كهذه من اصعب المهمات التي يمكن أن يواجهها حاكم أو ملك بسبب مواصلات تلك الأيام ، وكثرة الأعداء ، وطول خطوط الحدود ، وصعوبة الدفاع عنها . ففي أواخر أيامه ثارت ضده كثير من الأقاليم في سومر وعيلام ، لكن " الأسد الشيخ " كما أسمته الملاحم ، سار إلى المعارك وقهر خصومه جميعا . ولقد خلد الشاعر السوري

(1) ول ديورانت ، قصة الحضارة ، الجزء 1 ، ص 210 .

(2) موسكاتي ، " تاريخ وحضارة الشعوب السامية " ص 49 .

الآشوري في القرن السابع قبل الميلاد حكم سرجون ، وحملته على سكان السواد
(السومريين) وعلى أهالي عيلام ، وإخضاعهم ثلاث مرات متتالية . إن الشاعر الذي
نقل لنا بشعره قصة ولادة ونشأة وحكم سرجون يضيف عن لسانه قائلاً :

" أنا شروكين ملك أجادا القوي

حكمت أهل السواد وملكيت عليهم

بيلطات البرونز قهرت الجبال العظيمة

تسلقت السلاسل العليا

وعبرت السلاسل الواطئة

جبت بلدان البحر (سومر وعيلام والبحرين) ثلاث مرات

قبضت على دلمون بيدي

وإلى "دير" العظيمة صعدت ...

وأي ملك يأتي من بعدي

فليحكم أهل السواد ويملك عليهم

ليقهر الجبال العظيمة بالبيلطات

ليتسلق سلاسل الجبال العالية

وليعبر سلاسل الجبال الواطئة

وليدبر في بلدان البحر ثلاث مرات

وليضع دلمون في قبضة يده

وليصعد إلى مدينة دير العظيمة

من "أجادا" مدينتي " .

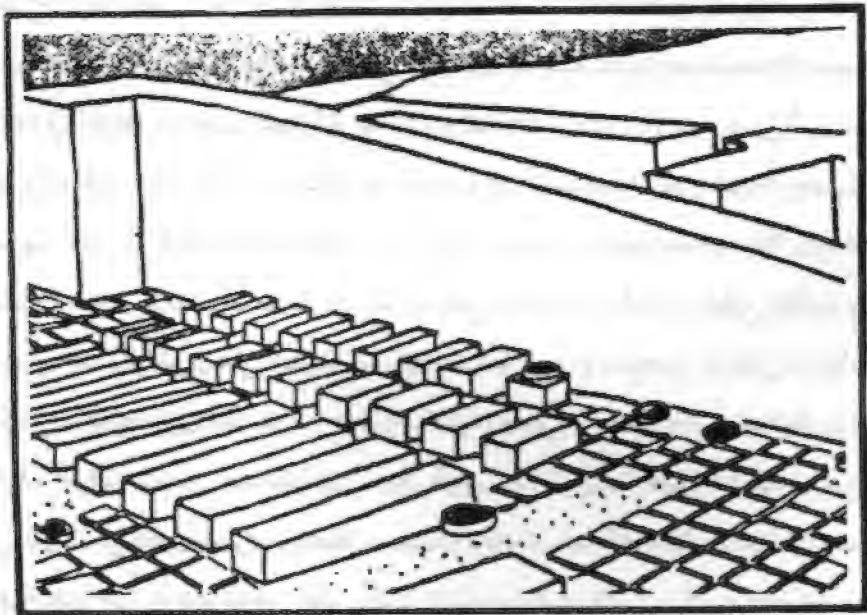
فهل كان حقاً هؤلاء السوريون الآموريون القادمون من الغرب "برابرة متطفلين على
الحضارة في سومر " كما يريد هم " تويني " وسادته رغم أنف كل الحقائق ! وبماذا
يمكن أن نرد ومكتشفات "ماري" السورية الأمورية أدهشت جميع الباحثين بما كانت
عليه حضارة سوريا في الغرب أيضاً قبل عهد سرجون بما يقرب من ألف عام ؟

فقد ذهل المنقبون والدارسون أمام المستوى الحضاري الراقى الذي بلغه السوريون في المنطقة الغربية أيضا بما يكاد لا يصدق . فقد أوجدوا نظام المدارس المجهزة بالتجهيزات المخبرية ، والمزودة بنظم الامتحانات ، والتدريس ، والمكتبات ، والوظائف والموظفين . كما عثر على المساكن الراقية لاستقبال الضيوف المزودة بكل ما تحتاجه المساكن الحديثة تقريبا من ملاحق ومنفعات . يقول أندريه بارو في كتابه "ماري" : لقد عثر في قصر زمري ليم في ماري " بين الجناح الملكي والجناح الرسمي على مدرستين . تتميز هاتان القاعتان بتجهيزات لم نر مثيلا لها قط حتى الآن .. ونحن لم نزل في حيرة تامة فيما يتعلق باستعمال ووظيفة هذه التجهيزات ويجب أن نعيد إلى الأذهان أننا هنا على مقربة مباشرة من المعامل والأفران التي يمكن التعرف عليها بكل وضوح ، ولها مظهر " افران " (بوتقات كبيرة) لمعالجة فلزات المعادن الثمينة ، وكان لا يزال فيها بقايا من الرماد والفحم الخشبي . وكانت القاعة الأولى تضم 45 مقعدا مختلفة في أطوالها ، وتضم الثانية 23 مقعدا ، والقاعتان مبلطتان بالآجر الجميل . ويشغل جناح الموظفين جزءا هاما من المنطقة الغربية في القصر ، وقد لقي عناية خاصة في التجهيز لأن كل غرفة مبلطة وبعضها مرفق بغرف حمام ، وتقدم إحداها مثالا ممتازا عن منشآت صحية كاملة : مغطسين من الخزف على قاعدة من الآجر المطلي بالبيتوم وفي الزاوية مרחاض (على الطريقة الشرقية السائدة اليوم) صنع من كومتين من الآجر المكحل بالبيتوم ، وفي الجدران خزن (صناديق) صغيرة وجد في واحد منها طاسة من الخزف لغرف الماء من أحد المغطسين ، وفي الزاوية الجنوبية الغربية مدخنة مصنوعة من أنابيب من الطين المشوي ومتصلة ببعضها وتزداد اتساعا باتجاه الأسفل وتطل على قاعدة تدل على موضع الموقد ، فقد يكون الشتاء في ماري قاسيا ، كانت هذه المجموعة المعمارية إنجازا مذهلا " (1) .

" أما بالنسبة للزلاء ، والضيوف والمسافرين الغرباء ، والسعاة المتغيرين على الدوام فقد كانوا " يؤلفون عددا كبيرا إذا استندنا في تقديره إلى آلاف الرسائل التي تلقاها الملك

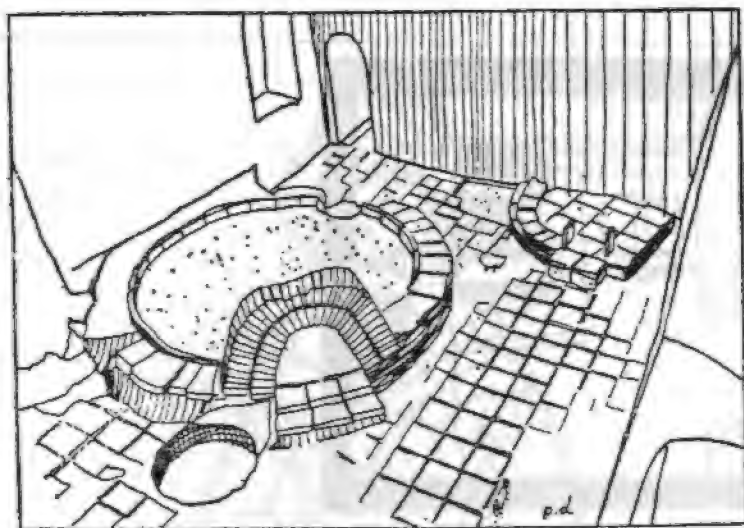
زيمري ليم وحده . وبكلمة أخرى ، كان يجب إيواء مجموعة مستخدمين متغيرة دوماً ، أي يجب أن يقدم لهم المسكن والمأكل مع دورات مياه . فكان يوضع تحت تصرف الضيوف غرف ، ودوشات ، ومطابخ (وهي لا تزال مزودة بالفحم الخشبي وجهازه للاستخدام) .

بتمتع هذا الجناح بالاستقلال . وكانت تجهيزاته ، وإن لم تبلغ درجة الترف والبلذخ التي رأيناها في الأجنحة الأخرى ، لائقة وملائمة لنوعية الضيوف ووجدنا في مكان آخر مجموعة من أكثر من خمسين قالباً خزفياً لصنع المعجنات " (1) .

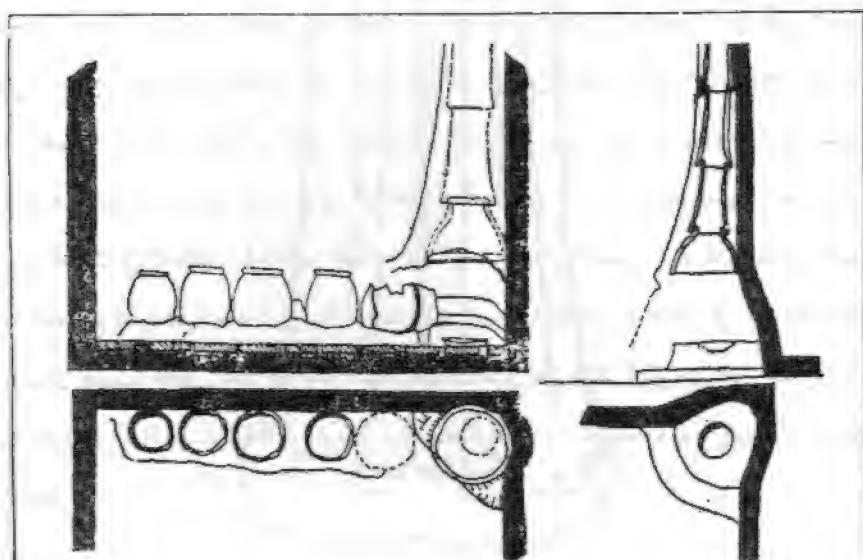


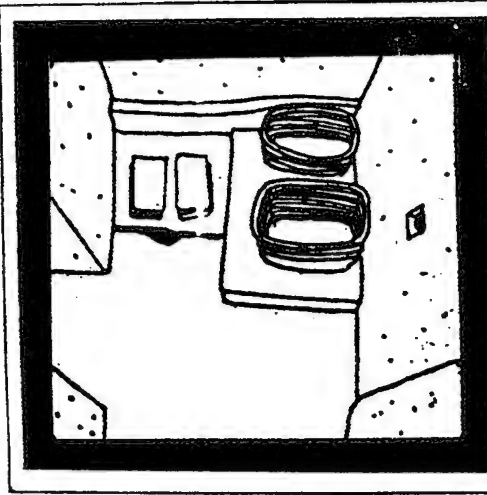
المدرسة في ماري

(1) اندرية بارو ، "ماري" ص 141 - 142 .



المطابخ والمخابز التابعة لمدرسة ماري





قصر زوي ليم . ماري
حمام الملكة .

وأما الحكمة اللاتينية الغربية " الرئيس لا يهتم بصغائر الأمور ، فلم يكن لها مكان عند الملوك السوريين الذين تعلموا أن يجعلوا من العبارة المأثورة لديهم " وفي قلبي حملت شعبي " ، أو " وفي قلبي حملت أهل سومر وأكاد ، ومن البحر الأعلى إلى البحر الأدنى " شعارا لهم في الحكم . هؤلاء الذين اعتاد المؤرخون الغربيون على أن ينعتوهم بالاستبداد، نرى مكتشفات ماري تؤكد على أن العاهل السوري " كان يسهم إسهاما مباشرا في كل ما يحدث في مملكته . فكانت المحكمة الملكية تنعقد في القصر ... وكان الملك يتلقى دوما انقطاع طلبات كهذه : إرسال أحد بنائين بسرعة لإصلاح جدار في ساغاراتيم " أو إرسال طبيب مختص لعلاج حالة التهاب أذن على بعد مائة كيلو متر من ماري ، أو يجب تعزيل قناة مسدودة ، أو ترميم سد متصدع ... ، أو إعادة ثور يتبين أنه مريض إلى البيطري " (1)



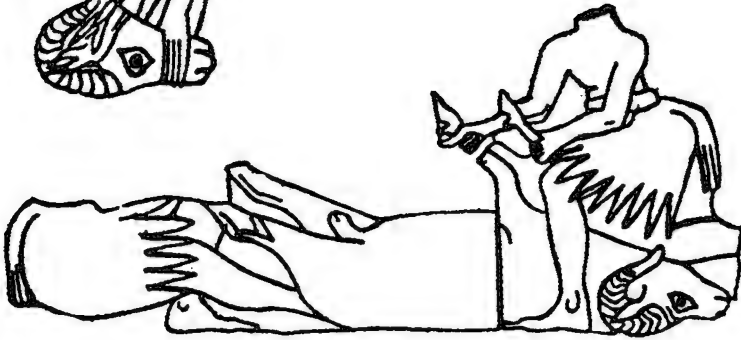
عشتار ربة الينبوع . ماري

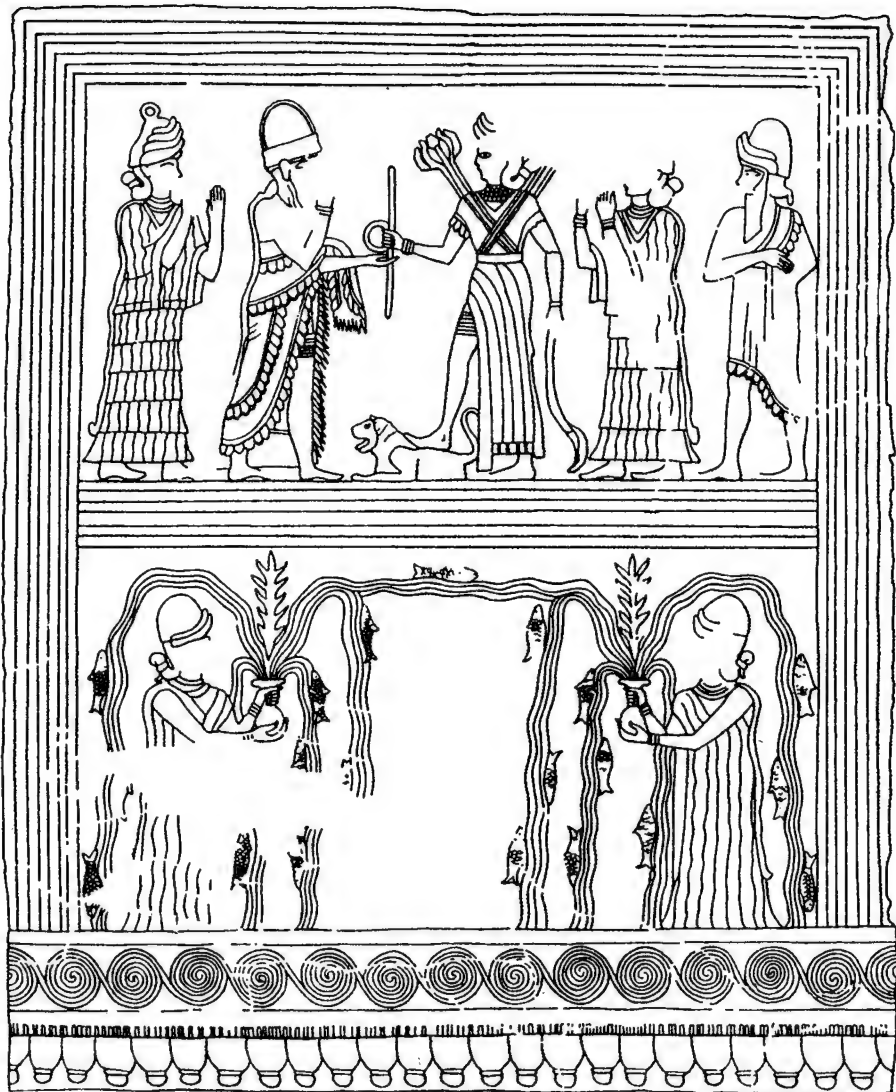


سيدة تشم وردة . قصر زمري ليم . ماري

ماري، مشهد تضحية
نحر كبش ، معبد شمش
الألف الثالث قبل الميلاد

ماري ، حامل جدي للتضحية
معبد نين كورساج .
الألف الثالث قبل الميلاد





صورة جدارية تمثل عين الخلد التي تسقي جنة عدن . ماري

إن سرجون ، وحمورابي ، وغيرهما من الملوك السوريين الذين بقيت أسماؤهم باهرة على صفحات تاريخ البشرية على مدى آلاف السنين كانوا أبناء تلك البيئة الحضارية ، ولم يیزغوا من فراغ . وما أوردناه يتضح أن سرجون لم يكن "محارباً" فقط كما زعم أرنولد تويني ، لقد تحرك ضمن وطنه الذي تملأه المنجزات الحضارية المتقدمة من كل جوانبه بالنسبة لذلك الزمن وأقام دولة وطنية قومية على أسس نهضوية جديدة وحد فيها شعبه السوري كله الذي نعتة تويني بـ "البربرية وبالتطفل على الحضارة" .

• إن مفهوم " الحضارة " و " البربرية " لدى تويني مازال بحاجة إلى شرح واف . ولنا نجد في سبيل ذلك أجدى من أن نعرض لوحة أخرى في المقابل عن حضارة أوروبا عموماً ، وبريطانيا بوجه خاص بعد حوالي 4500 سنة من أولئك السوريين الأمورين الذين عرضنا بعض ما تحدثت به مكتشفاتم الآثارية الحضارية .

لنقرأ معا بعض ما يورده أحد المؤرخين الأمريكيين المعاصرين ، وهو ول ديورانت ، مقابل اهتمامات قدامى السوريين بالنظافة والطعام وبالعاية بالمرضى من الإنسان والحيوان على حد سواء ، وبالتعليم ، والأخلاق ، والمعادلة منذ الألف الثالث قبل الميلاد ، بينما نرى إلى أوروبا القرنين الحادي عشر والثاني عشر الميلاديين وهسي لم تتجاوز بعد مرحلة أكلة لحوم البشر : " ذلك أن أكل اللحوم البشرية كان يوماً ما شائعاً بين الناس جميعاً ، فقد وجدناه في كل القبائل البدائية تقريباً ، كما وجدناه بين الشعوب المتأخرة تاريخياً مثل سكان إيرلندا وإيبيريا (إسبانيا) وجماعة الجملت ، بل بين أهل الدانمارك في القرن الحادي عشر . وأما في جزيرة بريطانيا الجديدة فقد كان اللحم البشري يباع في دكاكين كما يبيع القصابون اللحم الحيواني اليوم " (1)

وبينما لم يشهد تاريخ سوريا العربي على امتداد آلاف السنين أي نزاع ديني ، وفي الوقت الذي يسود التسامح والحرية في المعتقد منذ ما قبل عهد سرجون ، ومروراً بعيسى المسيح وبمحمد ، وفي الوقت الذي كانت رسالة البعل لشعبه تتضمن من جملة ما تتضمنه : "حطم سيفك ، تناول فأسك ، واتبعني ، وأزرع السلام والمحبة في كبد الأرض" ، ويقول عيسى المسيح في مسألة المرأة الخاطنة " من منكم لم يخطئ فليرجمها بحجر " وبينما ينص القرآن الكريم على " لا إكراه في الدين " ويؤكد محمد على أن " الدين المعاملة " نرى إلى أوروبا القرون الوسطى من خلال بعض اللوحات التي يوردها ديورانت وغيره :

" لقد قدر يورانت عدد ضحايا محاكم التفتيش الدينية خلال ثمان سنوات فقط بأنهم " بلغوا بين عامي 1480 و 1488 ثمانية آلاف وثمانمائة أحرقوا ، وستة وتسعين ألفاً وأربعمائة وتسعين عوقبوا ، وحتى عام 1508 بواحد وثلاثين ألفاً وتسعمائة واثني عشر أحرقوا ، ومائتين وواحد وتسعين ألفاً وأربعمائة وأربعة وتسعين حكم عليهم بعقوبات صارمة (2) .

(1) انظر : Sumner , " Falkway , 329; Westes march E, " Origin and Development : of the Moral Ideas " I,P.62

و : ول ديورانت ، " قصة الحضارة " الجزء 1 ، ص 19-20 .

(2) ول ديورانت ، " قصة الحضارة " ، الجزء 24 ، ص 89 - 90 .

وفي القرن الثامن عشر كان وضع المرأة في بريطانيا كما يلي : " كان للزوج كل السيطرة على زوجته ، كما يتحكم حتى في الصداق الذي أتت به إليه ، وفي كل الطبقات كانت مشيئة الزوج قانونا .. وقد استعمل الزوج حقوقه المشروعة في ضرب زوجته ، ولكن القانون حرم عليه استعمال عصا يجاوز سمكها سمك إبهامه " (1)

" ولم تأخذ القانون بمن رحمة ، فإذا أمسكت إحداهن وهي تتحرش برجل زج بها في السجن وضربت بالسوط ووضعت في المشهرة (آلة التعذيب) وقد وصفت مجلة "جرب ستريت " في عدد 6 أيار 1731 مصر إحدى هؤلاء " المدامات " فقالت " وقفت أمس الأم نيدهام في المشهرة ببارك بليس قرب شارع سانت جيمس ، ونكل بها الجمهور تنكيلا شديدا ، وقد اشتد بها الإعياء حتى استلقت لطول المشهرة ، ورغم ذلك ظلوا يرحلونها بقسوة ، ويظن أنها ستمرت بعد يوم أو يومين " (2)

ومن مظاهر " الإنسانية و" الحضارية " المنقوقة لدى الإنكليز في القرن التاسع عشر أن الرجال المحكومين بالإعدام كانوا يجذبون من على المشتقة وهم بعد أحياء ، وتخرج أمعاؤهم ، وتحرق أمام أعينهم ، ثم تفصل رؤوسهم ، ويقطعون أرباعا ، وقد علقت المشائق في كل أحياء لندن . وكانت الأجساد تترك على كثير منها لتتفدى عليها الطيور ، وقد يظل الرجل مشنوقا نصف ساعة قبل أن يموت ، وأضفت قسوة المتفرجين والمجرمين على مناظر الشنق طابع المهرجان ، فالناس يصطفون على جانبي الطريق ليشهدوا المحكوم عليهم ، وتبيع الأكشاك والباعة المتجولون الجن والخبز المخلوط بالنرجيل والجوز والفاح للجمهور اغتشد ، وينشد المغنون الجوالون الأغاني الشعبية " (3)

أما عن قذارة سكان لندن في القرنين السابع عشر والثامن عشر فقد بلغ حدا أن أحدا لم يكن يصرف الاستحمام خلال عام كامل " وبلغ تنن العفونة والمرض مبلغا كان يحمل القضاة (في المحاكم) والمخلفين والشهود والمتفرجين على أن ينشقوا مرارا نشقات من الكافور أو الخل أو الأعشاب العطرية لتغلب على الرائحة الخبيثة ، وفي مايو 1750 جيء بمائة سجين من نيوجيت ليحاكموا في "الأولد بيلي " وهي محكمة جنابات لندن الكبرى ، وبلغ من خبث الحمى التي أفسوها أن أربعة قضاة من الستة الذين نظروا القضية ماتوا ، ومات من المخلفين وصغار الموظفين أربعون ، وأمرت المحكمة بعد هذا الدرس بان يفصل جميع القادمين للمحاكمة بالخل ، وأن توضع أعشاب زكية الرائحة في قفص المتهمين " (4)

" أما الارستقراطيون فكانوا يفضلون مدينة باث فهناك ، وسط أرقى البريطانيين يشرب الرواد ويستحمون في مياه خبيثة الرائحة موصوفة لشفاء أوصاب من اتخموا بالغذاء الطيب " (5)

لكنه ما أن استفاقت أوربا على الثورة التكنيكية والصناعية التي كان العرب قد وضعوا أسسها العلمية حتى أشهر هذا الإنسان الصاعد من قاع ذلك المستنقع الوحشي سلاحه الجديد وبدأ سلسلة من عمليات القتل والابادة

(1) المصدر السابق ، الجزء 32 ، ص 148 .

(2) المصدر السابق ، الجزء 35 ، ص 92 .

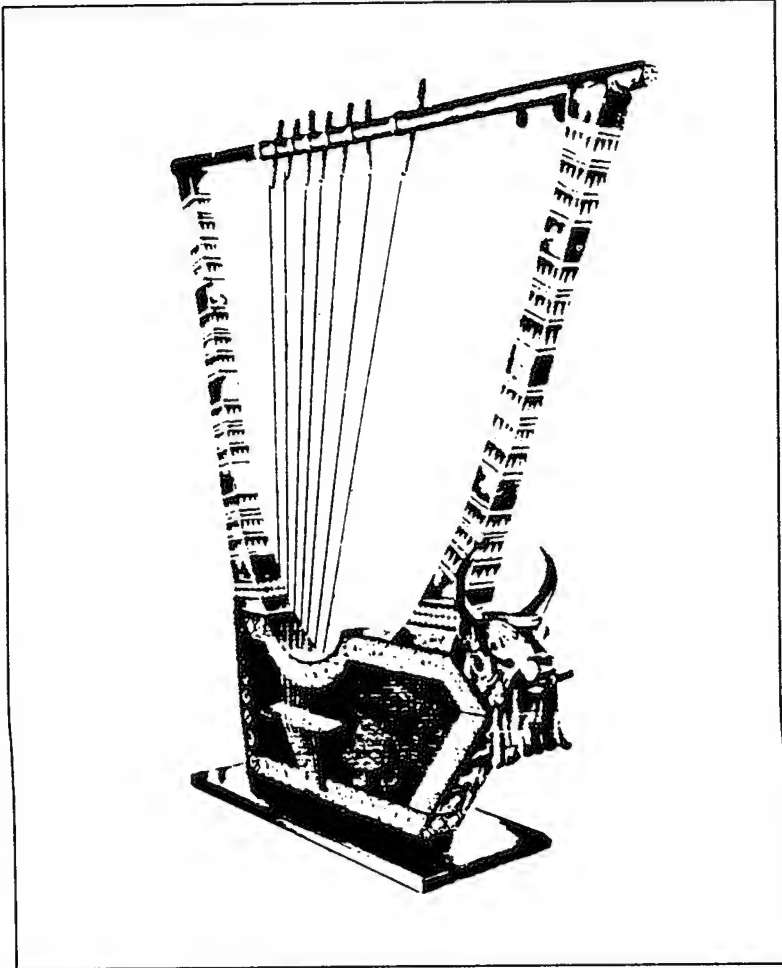
(3) المصدر السابق ، ص 101 .

(4) المصدر السابق ، ص 106 .

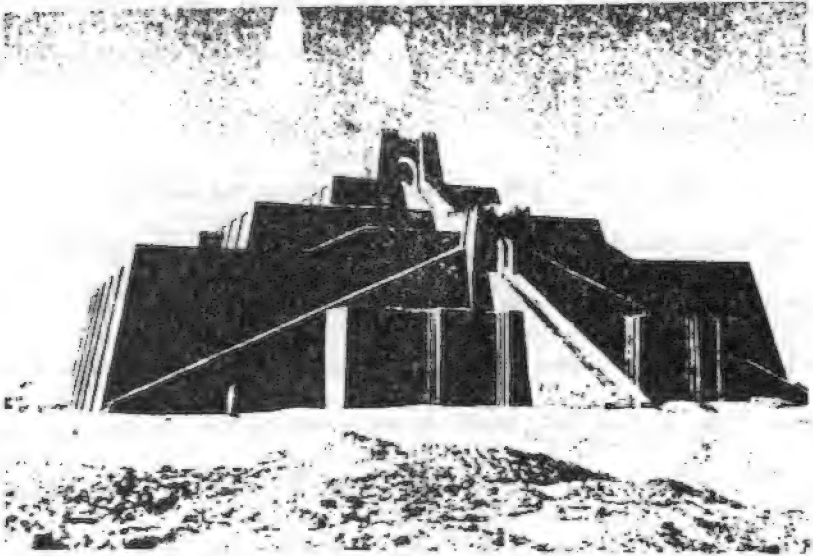
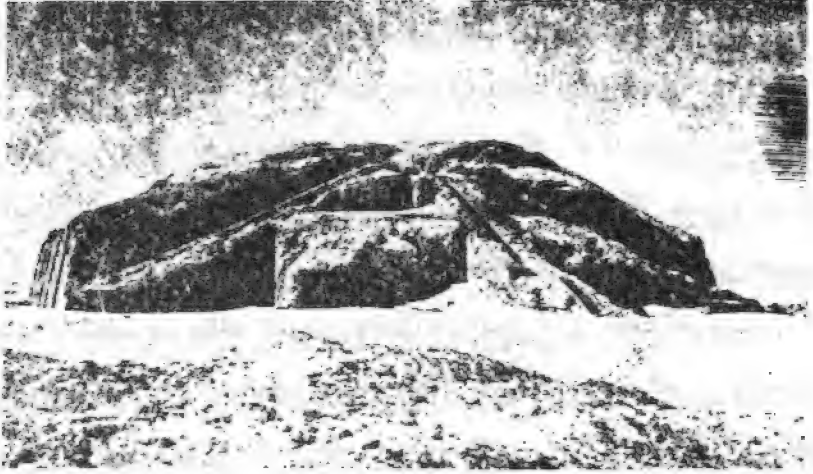
(5) المصدر السابق ، ص 117 .

والاستعباد والاسترقاق والنهب بصورة لم يعرفها تاريخ البشر ، ويكفي أن نشير إلى أن " حضارة " بريطانيا توينسي جعلت دائماً تدمير الشعوب وإبادتها نفسياً وجسدياً . فأشاعت الحشيش في مصر ، والقات في اليمن ، وأرغمت الهند على تكريس خيرة أراضيها لزراعة الأفيون ، كما أرغمت مئات الملايين من شعب الصين المريق بمحضارته الانسانية على شراء هذا الأفيون وتدخينه مستخدمة في ذلك ثلاثة حروب مدمرة وهي حتى اليوم لا تتورع عن استخدام آخر مبتكرات التكنولوجيا من أجل فرض حرب دينية بالقوة ، أو فرض عبودية أو تخلف ، أو من أجل إبادة شعب يسمى إلى الحرية .

إنه لم يدخل "متسللا" أو غازيا لأراضي الآخرين مثل كورش ، أو جنكيزيان ، أو نابليون ، أو غيرهم ، فهو لم يتعد حدود وطنه القومية إلا في ضربات وقائية صاعقة للقبائل الرابضة في معاقلها خلف الجبال المنيعة شمال سهل قونيا وتوتال ومرسين في الشمال ، وشرق جبال زغروس في الشرق ، والتي كانت تقطع ، أو تهدد سلامة الطرق التجارية الدولية المزدهرة للدولة السورية .



قيثارة من أور



معبد آور القرن 22 ق.م

إنه ليس ثمة مجال لمقارنته بأي من أولئك الغزاة الدوليين ، الذي لم يكن لديهم ما يدفعهم سوى شهوتهم الجائعة إلى الغزو ، مستغلين ، في أغلب الأحيان ، خلو الأرض من حولهم من وجود أي جيش قوي يمكن أن يتصدى لهم ويوقفهم عند حدهم في فترة بروزهم . إنهم ام ينشروا أفكارا ، ولم يؤسسوا نهضة سواء في بلدانهم أو في البلدان التي غزوها واجتاحوها ونهبوا ثرواتها ودمروا مظاهر عمراتها وحضارتها . ثم لما تصاب عزيمتهم بالإفهاك ، وترتوي شهوتهم إلى الغزو والتدمير ، سرعان ما ينطفئ كل شيء دون أن يترك أي أثر يذكر ، فينحسر المحارب ، وتنحسر معه ظلاله تاركا المنطقة ، ومن جملتها بلاده نفسها ، تتخبط بين مظاهر الفوضى والضياع والدمار الذي خلفته الحروب .

أما سرجون فقد انطلق من استراتيجية قومية ، وتحرك على أرض واقعه القومي في حركة تحريرية توحيدية هي الأولى في سلسلة هذه الحركات التي سوف تأتي بعضا في إثر بعض فيما بعد ، من عهد حمورابي ، إلى عهد زنوبيا ، ومرورا بالدولة العربية الإسلامية ، الأموية والعباسية ، وصولا إلى عصرنا الحاضر .

الفصل السابع

الدولة العربية السورية بعد سرجون

لمحة مختصرة

قبل أن نتابع تطور الدولة العربية السورية التي أقام دعائمها سرجون ، وجعل منها منطقة الحضارة الأولى وفتح أبواب التطور الرأسمالي على مصراعيه في البلاد ، بعد أن ضبط كل بوابات الإثراء الفاحش تحت رقابته ، وحرر الانسان العربي لأول مرة من استبداد النظم الاقطاعية الدينية ذات المصالح الجامدة الضيقة وذات النظرات البليدة إلى الحياة والمستقبل ، لابد لنا من وقفة قصيرة نعيد بها إلى ذهن القارئ صورة التوزع السكاني ، حتى لا يقع مرة أخرى ، كما عوده المؤرخون ، فها بين مجموعة من الأسماء المتزاحمة على خارطة المنطقة .

إننا ، إذ نتحدث الآن عن العرب الأموريين ، فليس هذا يعني أن هؤلاء الأموريين لم يكونوا موجودين من قبل ، وقد بينا كيف أن السومريين هم أيضا أموريون وسريان ، ثم إن هذا لا يعني إطلاقا أن الأموريين سوف يزولون عن الخارطة بانتهاء حكم سرجون وبنيه ، وتدمير عاصمته "أجادة" (أكادة) واجتياح قبائل الغوتيين لها .

إن في إمكان القارئ أن يتصور وجود الأموريين قبل آدم هذا الذي نعرفه في خارطة النسب ، وهو أبو شيث الذي أخذنا منه خطأ واحدا لتفرعاته يبدأ بآنوش ، وينتهي عند نوح الذي نبدأ عنده بذكر أكثر من فرع له بين الأبناء لأول مرة ، إن ذلك يعني أن العرب الأموريين كانوا ينتشرون في الأرض العربية مثلهم مثل السريان (أبناء "سر") والعرب (أبناء "رب") وهذا مما جعل الرسول العربي محمدا يقول عن آدم إنه أحد الرسل الأربعة السريان (آدم وملك ونوح وخنوخ) ، لأن لفته كانت عربية سريانية ، وهو من أبناء "سر" ثم إن بإمكان القارئ أن يتصور جميع ولد آدم الآخرين بجميع فروعهم وقد استمروا يتناسلون ويتكاثرون منذ الألف الخامس قبل الميلاد ، إلى زمن

سرجون ، أي خلال ما يقرب من 2500 عام ، إلى جانب تفرعات الخطوط الأخرى التي احتفظنا منها بخط واحد : أي إلى جانب تفرعات شيث وأولاده إخوة أنوش ، وأولاد أنوش الآخرين إخوة قينان ، وأولاد قينان الآخرين إخوة مهلائيل ، وأولاد مهلائيل الآخرين إخوة اليارد ، وأولاد اليارد الآخرين إخوة اخنوخ ، وأولاد اخنوخ الآخرين إخوة متوشالخ ، وأولاد متوشالخ إخوة سام وحام ويافت ، ثم أولاد سام الآخرين إخوة ارفحشاد وآرام وآشور وعيلام ولاوذ ... وهكذا

فلو أخذنا أولاد جاشم مثلا ، ممن عرفوا وثبتتهم قوائم خطوط الأنساب (علما أن جاشم هذا هو ابن عمليق بن لاوذ بن سام بن نوح) ، لوجدنا بني الأزرق ، وغفار ، ولفا ، وبديل ، ، وراحل ، وهزان ، وجرهم ، ، ومطر ، والأرقم جميعهم من بني جاشم هذا . إن عملية دفع الخطوط السكانية من خلال تكاثر فروعها وأجيالها عملية مستمرة ولا يمكن أن يحيط بها أحد ، ولذلك فمن العبث ، بل والسذاجة أيضا ، الحديث عن قبائل وأصول قبلية ، حتى في زمن سام بن نوح* ، في وجود وقيام هذه الدولة العربية أو تلك . إن السومريين ليسوا قبائل سومرية ، وإن الأكاديين ، أو البابليين ، أو الفينيقيين ، ليسوا قبائل أو دولا لقبائل . إن العنصر العربي يملأ الأرض العربية بجميع فروعها . ومن البديهي أن تتصدى هذه المجموعة السكانية أو تلك لمهمة الحكم ، بناء على مجموعة من الشروط والعوامل والظروف التي جعلتها هي ، دون غيرها ، مهياة لأن تقوم بهذا الدور ، وبهذه الدرجة أو تلك من النجاح أو الفشل ، لكن ليست ، بأيّة حال ، مجموعات عشائرية .

إن العرب الأموريين يملأون الساحة العربية من الخليج العربي شرقا إلى البحر المتوسط غربا وإلى جبال عسير والحجاز وشواطئ بحر العرب جنوبا . وإن في إمكاننا أن نلاحظ في فترة سرجون هذه ، كيف أن العرب الساميين بجميع فروعهم يحتلّطون بأولئك الأموريين والسريان منذ عهد سام نفسه ، ويكونون معهم في عملية تاريخية متواصلة

• إن مدونات التوراة هي التي عممت هذه المعرفة العشائرية لبعض فروع سكان المنطقة نتيجة للمستوى البدوي العشائري الذي لم تكن قد تجاوزته العشيرة زمن موسى ويشوع ثم داود وسليمان فيما بعد .

ظاهرة الشعب والأمة من خلال الأرض الواحدة واللغة الواحدة ، بل والأصل الواحد ، والثقافة والتراث والتاريخ الواحد . فإذا كنا قد صرنا نتحدث فيما بعد عن العرب الساميين المتواجدين في كل مكان من الأرض العربية فإن هذا لا يعني مطلقاً أن هؤلاء بدأوا من سام ، كما أننا إذا ما أردنا التحدث اليوم عن العرب الحاكمين في أقطار عربية متفرقة ، نجد أن عروبة المنطقة لا تحددها فعلاً عروبة أسرهم التي ينحدرون منها . إن العروبة أو السورية هي الأصل ، وهي الموجودة منذ أن عرف الإنسان على هذه الأرض من العالم . إن هذا ، على الأقل ، هو ما تؤكده كل المكتشفات يوماً بعد يوم . والعروبة هذه تجلت وتجلت ، قبل كل شيء ، في اللغة بلهجاتها الثلاث الرئيسية : السريانية في الشرق (منطقة الخليج وسومر) ، والأمورية في الغرب (ما يدعى اليوم بالعراق وسوريا وفلسطين والأردن والحجاز وعسير) ، والعربية الأم النقية في وسط شبه الجزيرة العربية . وإذا ما أردنا أن نتجاوز ذلك إلى تحديد سكاني أكثر أيام سرجون ، لقلنا إن العرب الكنعانيين أبناء حام أشقاء الساميين ، نزلوا السواحل الممتدة من البحرين شرقاً إلى عمان ، وحضرموت ، والحبشة ، وأرتيريا ، وشواطئ البحر الأحمر الوسطى والجنوبية ، وجنوبي مصر ، أما ما تبقى فقد شغله العرب الأموريون والساميون* ، وإن في ذلك دلالة كبيرة على نضج ثمرة العملية التاريخية في شكل التجمع السكاني الذي هو الشعب ، سيرا إلى تكون الأمة منذ الألف الثالث قبل الميلاد في الوطن العربي .

وإن في إمكاننا أن نتصور الآن كيف أن أولئك العرب أو السوريين يتدفقون من عدة نوافير أو ينابيع قوية لاحصر لها في شتى أرجاء الأرض العربية . فهناك ، إلى جانب الينابيع الثلاثة القديمة القوية العملاقة بكل فروعها السكانية المتدفقة على الدوام (أسر ، عمرو ، عرب) ، ثمّة ينابيع متفرعة جديدة بدأت تلفت الأنظار إليها ، وتمثل في العرب الآشوريين الجدد أبناء سام في الشمال على نهر الدجلة ، والاراميين الذين يكادون يغطون كل مناطق الوجود السرياني في جوف شبه جزيرة العرب ، والكنعانيين على سواحل البحار الجنوبية التي أشرنا إليها .

* يبقى هذا القول مجازياً إلى حد ما ، وبنسبة عامة فقط

وكما تأكد لنا فإن الآشوريين المنتسبين إلى الجد الأكبر آشور هم سوريون ويتكلمون السريانية ، وهم والأموريين شعب واحد . وإن ما كان يورق سرجون الأموري كان يورق الطلائع الواعية من بين السوريين الذين لم تؤمن حمايتهم نظم الدويلات — المدن الإقطاعية المهترئة الضعيفة أمام أي غزو من الخارج . لقد اعتصم بعض السوريين صعدا على وادي الدجلة في تلال الشمال ، وكأنما أحسوا مسبقا بمقدمات الصراع . وحينما صعد إليهم سرجون كانوا أول من بارك له مخططه وانضم إليه تحت لوائه ، دون أن يكلفوه في ذلك إراقة نقطة دم واحدة . إن الآشوريين ساميون ، وآشور هو أخو آرام وارفخشاد وعيلام ولاوذ ، وهم جميعا أبناء سام بن نوح ، وإن الساميين والحاميين هم جميعا عرب : فإما هم عرب شرقيون (سريان) أو عرب غربيون (أموريون) ، أو عرب من وسط شبه الجزيرة العربية . فالساميون جميعا، إذن من آشوريين وأراميين وغيرهم ، عرب وسوريون ، وليس من شأن تسمياتهم أن تنفي عنهم صفة العروبة أو السورية بل أن تعضدها وتؤكددها ، كما أن المضربة والعدنانية والتغلبية والقرشية ، والقحطانية ، ثم الشمرية ، حديثا، والعنزية ، والحديدية وغيرها لا تنفي صفة العروبة عن تلك القبائل بل تؤكددها .

الصراع بين الاتجاہین : الوجودی الرأسمالی المרכזی الجدید ، ونظام المدن - الدویلات الإقطاعی البائد

إن سرجون العربی السوری لم یضرب النظم الإقطاعیة الّتی تجلّت فی نظم الدویلات - المدن ، بدءاً من سومر شرقاً إلى الشاطئ الفینیقی غرباً ، لأن سكان تلك المدن لم یكونوا أموریین ، أو لأن حکامها لم یكونوا أموریین كما یجب کثیر من المؤرخین أن یلاحظوا. لقد ثبت . كما بینا ، کیف أن جمیع سكان مدن سومر وحکامها كانوا أموریین وسریاناً من أور جنوباً ، إلى کیش ولارسا وأورك ، إلى ماری فی أعلى الفرات ، كما أن سكان وحکام اییلا (عبلأ) ، وأوغاریت ، وجبیل ، وحلب ، وحمص ، وحمّاه ، ودمشق ، وبیروت ، وأمريت ، وغزة ، وأریحا كانوا أيضاً جمیعهم كذلك . إن الصراع الّذي خاضه سرجون العظیم لم یکن لیتقزم إلى هذا المستوى القبلی المنحط الّذي یشاء کثیر من المؤرخین المغرضین تثبیته بمسامیر علی صفحات التاریخ . إن سرجون کان یمثل فی ذاته خطوط التطور الکبری الأكثر تقدماً فی واقع مجتمعه وبلاده . لقد مثل صراعاً بین النظام البورجوازی،الصاعد و بین نظام الإمارات الإقطاعیة البلیدة المہترئة الجامدة. إنه صراع ینحوضه الجدید بكل ما یمثل من نزوع إلى الوحدة، وفصل الدین عن الدولة ، و سیادة الأمن والقانون لجمیع المواطنین ، وتحریر جمیع فئات الشعب العاملّة والکادحة من ابتزاز واستبداد الإقطاع ورجال الدین ، من أجل سیادة حرّیة التملک والعمل لحساب الإنسان وأسرته لا لحساب الآخرین ، وازدهار فکرة المواطن والدولة، بعیدا عن شعوذات رجال الدین وقیودهم الروحیة الکاذبة الموجهة حصراً للحفاظ علی مصالحهم ومصالح حلفائهم من أمراء الطبقة الإقطاعیة المتنفذة فی المدن والمقاطعات ، وبعیدا عن الاستبداد وظلم أولئک الأمراء والحکام .

ذلك کله جوهر الصراع الّذي خاضه سرجون ضمن حدود وطنه . لقد کان یهدف إلى تقویض أسس وأطر النظام البالی القلیم الّذي لم یعد یتستجیب لمتطلبات تطور الإنسان العربی وإمكاناته الإبداعیة المتوثبة ، وإقامة نظام جدید علی أنقاضه ، ونظام الدولة المרכזیة ، الموحدة ، القویة ، القادرة علی حمایة جمیع المواطنین وحمایة ممتلكاتهم ،

وتوفير كل شروط الإبداع لهم ، وردع كل القوى الطامعة في الاعتداء عليهم من الخارج . فهل انتهت هذه الدولة الجديدة مع نهاية سرجون ، كما يحب كثير من المؤرخين أن يقولوا أو يؤكدوا ، أم أنها ظلت حية في مواطني سرجون من بعده ؟ هذا ما سوف نستعرضه الآن ولو في لحات موجزة .



كنا قد أسلفنا القول إن ثمة الكثير من الرجال في التاريخ الذين أحدثوا دويا كبيرا نتيجة لسيطرة نزعتهم القوية إلى الحرب والغزو والفتوح ، دون أن يكون في ذلك أي مضمون آخر فكري أو روحي يقدمونه للبشرية في هذه المرحلة من التاريخ أو تلك ، أو يقنعوا العالم بأنهم إنما خاضوا تلك الحروب والصراعات الدامية الرهيبة من أجل اجتثاث قوى تخلف معوقة لتقدم البشر ككل ، وفرض نظم إنسانية واجتماعية أكثر تقدما . وأوردنا أمثلة على هذا النموذج من الرجال أصحاب الدوي : الاسكندر ، وقورش ، وجنكيزخان ، ونابليون ... وغيرهم .

أما سرجون العربي الأموري فقد وضع في حسبانه أشياء أخرى مغايرة تماما لما يمكن أن يضعه رجل الحرب للحرب ، علما أنه لم يعرف طعم الهزيمة في يوم من الأيام ، ولم يكن من حوله ثمة قوة قادرة على الوقوف في وجهه إذا ما أراد التوسع خلف حدود وطنه . لقد كانت سيوف سرجون أدوات لرسم عالم حضاري جديد ، العالم النموذج ، الرائد في الحضارة والبناء ، بناء الأرض وبناء الانسان المستقبلي الجديد .

إن المفاهيم الجديدة التي حملها سرجون ، ونضجت لديه عبر مسيرة طويلة من التراث الحضاري العربي العريق والأصيل ، مروراً بشرائع العدل والحرية لدى كل من لبث عشتار وأوركاجينا ، ونزعة التوحيد لدى لوجال زاجيسي هي الرسالة التي تمثلها جيدا سرجون واقتبسها من شعبه وبسطاء مواطنيه ليحسدها على درب التطور مرحلة جديدة أرقى في دولة موحدة قوية مشبعة بروح الحرية والعدالة وسيادة القانون لجميع المواطنين

في زمن كان ما يزال الانتقال من الحصول على القوات إلى جمعه وتكديسه مسألة تحتلج إلى حل لدى كثير من شعوب العالم الأخرى .

إنه لضروري أن يتخلص القارئ من متاهات المؤرخين المغرضين الذين جعلوا من قضية التسميات مسألة بالغة التعقيد طمسوا بها حقيقة وجوهر تاريخ الشعب العربي على مر عصوره، وجعلونا لا نعرف حدود مفهوم " السومرية " وأين تبدأ أو تنتهي حدود "الأمورية" في المدينة الواحدة ، ففراهم يؤكدون أن السومريين كانوا هم الحكام حتى عهد سرجون ، وأن الشعب كان شعبهم ، ثم نجد في مكان آخر أن أسماء جميع أولئك الحكام هي أسماء (هي في الحقيقة ألقاب) عربية سامية أصيلة ، ثم نجدهم يتحدثون عن استقلال هذه المدينة "السومرية" من جديد ، وكل ذلك في عملية معقدة خاطئة لا تمت إلى العلم أو المنطق بأية صلة . لقد بينا طبيعة الصراع الذي خاصه سرجون ، وشرحنا مضمون الدولة الجديدة التي بناها سرجون ، وأن هذا لاشك ، لم يكن ليحذف "القديم" كله بكل تراثه ومؤسساته وتشابكاته ، ومنعرجاته النفسية ، والاجتماعية ، والثقافية ، والسياسية والدينية ، وتشابك أسلحته وأدواته ، بل على العكس ، كان لابد من أن يثير فيه ردة فعل ما في هذا الوقت أو ذاك . إن القديم لم يكن ليستسلم ويلقي كافة أسلحته فور انتصار الجديد ، والتاريخ حافل بالأمثلة التي تؤكد جميعها هذه الحقيقة . وليس ثمة أي حادث من شأنه أن يؤكد العكس . إن تمرد بعض المدن على نظام دولة سرجون الجديد لم يكن تمردا عرقيا ، أو حتى قبليا ، كما يردد أولئك المؤرخون . إنه لم يعد كونه حلقات في ذلك الصراع الكبير بين نظامين اجتماعيين سياسيين اقتصاديين متناقضين : نظام الدولة البورجوازية الموحدة الناهضة من جهة ، ونظام الدويلات — المدن الاقطاعية الدينية المتخلفة ، من جهة أخرى .

ومنذ أن نضع في اعتبارنا هذا الأساس لفهم أحداث تلك المرحلة من التاريخ تزول كافة الاشكالات ، وتتجلى كل تلك البقاع المظلمة التي تعتمد المؤرخون أن يقفوا عليها بعيدا عن النور .

لقد رأينا أن عمدة النظام القديم وأنصاره ، ممن ضربت مصالحهم في عهد الدولة الجديدة بكل ما تمثله من بوابات عملاقة للتحرر والتقدم الرائدتين في ذلك الزمان ، لم ينتظروا موت سرجون ليتحركوا ضده بعد أن طال زمن انتظارهم (حكم سرجون 55 عاما) . ففي آخر أيامه ثارت كل تلك الكيانات الهزيلة داعية إلى الانفصال عن الدولة المركزية الواحدة . لكن ، وكما يذكر المؤرخون ، " انطلق الأسد الشيخ إلى المعارك جميعا ، وقهر كل خصومه موطدا دعائم دولته من جديد " .

إن العظماء في التاريخ يرون أحداث الزمن في المستقبل أيضا . وعلى أساس ذلك يبذلون كل جهودهم من أجل حل معضلات المستقبل القريب على الأقل إبان حياتهم هم . ونحن ، إذ لا نشك في عبقرية سرجون وذكائه الوقاد الذي كان يسبق الزمن بكل ما يقوم به إبان حياته ، إلا أن ظروفنا كثيرة كان لا يمكن التغلب عليها بمثل هذه البساطة . لقد صارت " أكاد " عاصمة الدولة العربية السورية التي قامت ، لأول مرة ، وشملت الهلال الخصيب كله من شواطئ البحر الأسود إلى شواطئ البحر الأحمر وبحر العرب ، ومن زغروس إلى البحر المتوسط ، ومعه قبرص أيضا . ولقد كانت إدارة مثل هذه الرقعة الشاسعة والسيطرة عليها في زمن ليس فيه من واسطة للنقل أو الاتصال غير أقدم المشاة أو الجمال أو الحمير أو الخيول من الأمور الشاقة إن لم نقل المستحيلة . ثم إن سرجون ، أو غيره من قادة ذلك الزمان ، مهما بدا في عين التاريخ عظيما ، فإن عظمتهم هذه كانت سلاحا ذا حدين ، وكثيرا ما تدفع الشعوب ثمنا فادحا لها . إن قائدا عظيما مثل سرجون كان لابد من أن يحدث فراغا عظيما بعد موته لدى شعبه وفي المنطقة التي كان يملأها بسياسته وممارساته وأفكاره الجديدة . وإذا ما تذكرنا أنه لم يكن ثمة أحزاب أو تنظيمات شعبية تبادر فورا إلى ملء الفراغ والدفاع عن المكتسبات التي حققها المجتمع فإن الحقائق كانت تفرض واقعا آخر مغايرا : وهو أن يبقى أمر استمرار التطور مرتكنا بمن سيخلفون هذا القائد العظيم أو ذاك ، إلى درجة كبيرة . وكثيرا ما كنا نرى المجتمعات والدول تتخبط لفترات قد تطول أو تقصر . أحيانا تترلق العجلات بها إلى الخلف وكأنا

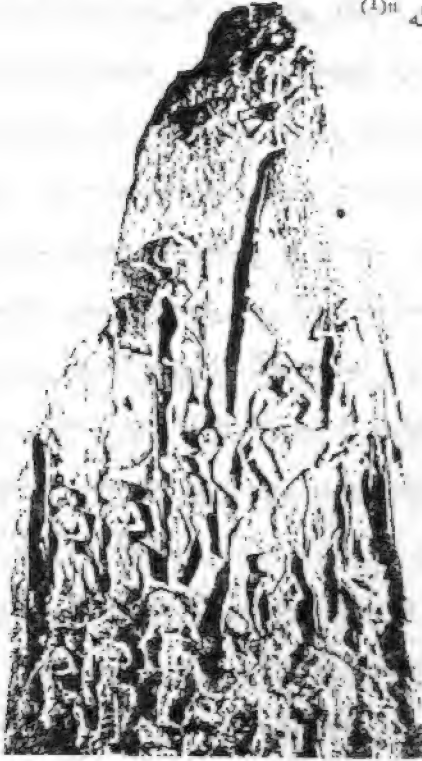
انقطع فجأة الخيط الوحيد الذي كانت معلقة به ويشدها إلى أمام . وهذه المراحل ، مع تصور وجود العدو المتربص ، تبقى في حياة الشعوب أخطر المراحل على الإطلاق .

لما مات سرجون ، وخلفه ابنه "ريموش" (2300 — 2291 ق.م)، وكان عليه أن يوجه الضربات الساحقة لبؤر التمرد المتمثلة في تحالف رجال الهيكال والأمراء الاقطاعيين ، ويثبت فصل سلطة الدين عن الدولة التي بدأها أبوه . لكن ريموش أبدى من الضعف ما شجع تلك الأطراف المتمركزة ، خاصة في مدن سومر وعيلام ، على التمرد . وحينما بدأ بإخماد تلك الفتن كانت قد استشرت لتحط من هيئته وهيبة جيش أبيه الذي لم يعرف طعما للهزيمة ولا للتردد في سحق أعداء الدولة دونما إبطاء . إن هذا هو ما أفضى ببعض جنوده إلى اغتياله وهو في إحدى حملاته على مدن عيلام . وخلفه أخوه مانيشتوزو بن سرجون الذي أدرك — على ما يبدو — كيف أن الأعداء الخارجيين أخذوا يتحفزون للانقضاض على الدولة مغتتمين فرصة انشغال الجيش بإخماد الفتن والثورات الداخلية . لقد كانت قبائل اللولوبي والكاشيين والغوتيين ترصد اللحظة المناسبة لتنقض من خلف مكانها في جبال زغروس على أكاد الفتية . فلم يكن لدى مانيشتوزو ثمة وقت يضيعه . فسرعان ما أنزل جيشه في الخليج وعبر إلى سواحله الشرقية إلى أرض عيلام ، وضرب الجيوش التي كانت قد أعدتها المدن المتمردة لملاقاته .

ويذكر المؤرخون أنه دمر جيشا لـ 32 حاكما ، ثم توغل إلى جبال الفضة في شرق شمال زغروس متحديا تلك القبائل الهمجية في معاقبتها . ولقد حكم مانيشتوزو 15 عاما ، ثم خلفه من بعده ابنه "نارام سين" (نور سين رب القمر) الذي حكم في الفترة ما بين 2275 — 2240 ق.م .

لقد وجد نارام سين نفسه أمام طريق لا خيار فيه : إنه الحرب . كان جده سرجون قد أسس مدرسة عسكرية متفوقة ما تزال قائمة بجيشها وبالروح القتالية المتوفر لديه ، فقرر أن يغتنم الفرصة ويقود ذلك الجيش المتفوق ليقضي على كل الأخطار التي تهدد الدولة التي نهض بها جده من قبل وترك لهم مهمة إكمال المسيرة . فتوجه إلى جزيرة العرب لتأمين أمن القوافل وضرب عشائر الآراميين في عبلا شرقي بلاد غامد ثم ضرب عشائر

الحوريين هناك . وثارت ماجان في عيلام ، وانقض عليها كما سحق في طريقه قبائل اللولوبي في جبال زغروس ، وأقام تخليداً لذلك نصبا أقامه في در بندي جور في شرق عيلام مازال موجودا حتى اليوم في متحف اللوفر ، يظهر عليه نارام سين بعمامة ذات قرنين رمزا للقوة التي يحتفظ بها القادة السوريون ، يتسلق جبلا وهو يمشي فوق جثث الأعداء المتناثرة وقد لقب بـ "شار كيرات أربعيم" أي ملك المناطق الأربع . وأشار كشاطي أي (رب الرماة بالسهام) ، وهذا لقب الرب "داجان" وصار يسبق اسمه في الكتابات بصورة النجمة علامة الربوبية التي تقرأ بالسومرية "دنجر" ومعناها الخالد الدائم . لكن المؤرخين الأجانب لم يفهموا معنى الكلمة ، وفسروها بلغاتهم هم ونقلها عنهم بعض النقلة العرب كما توهموها ، يقول الدكتور وديع بشور "وقد أطلقوا اسم جنس على الآلهة هو "دنجر" أي إله" (1)



نارام سين حفيد سرجون يجهز على القبائل الممجية في مكانها خلف الجبال

(1) وديع بشور ، " سومر وأكاد " ص 181 .

لقد تمكن نارام سين من تثبيت أركان الدولة طيلة فترة حكمه ، لكن استمرار تواطؤ الخصوم في الداخل والخارج جعل حروب الدفاع عن الدولة لا تنقطع قرابة قرن من الزمان ، مما أزهق الجماهير الشعبية التي كانت بمثابة العمود الفقري للجيش السوري الأموري منذ عهد سرجون الذي تخلّى عن أسلوب الاعتماد على الأمراء الاقطاعيين في تشكيل الجيوش ، واعتمد على لجان من الشعب تعود في تنظيمها إلى القصر مباشرة . وصار الوضع مرتبطا أكثر بمدى قدرة حكام النظام الجديد على المثابرة والصمود في الخط الذي كان قد رسمه واعتمده واختطه سرجون . وقد تبين أن تلك الجماهير المرهقة بسبب ما تكلفته على امتداد مئة عام من البذل والقتال ، هي نفسها التي ظلت مثابرة حتى النهاية على التمسك بمبادئ الحياة الجديدة متكاتفه في ذلك مع الجيش الذي خلقه سرجون جديدا بنظامه ، وتربيته ، وتسليحه ، واندفاعه ، وارتباطه بجماهير الشعب ، وحقده على نظام الاقطاعية البائد .

وهكذا نرى أنه ما إن مات "نارام سين الذي سار على منوال جده ، حتى خلفه ذاك الذي لقب بـ "شار كل شاري" (أي ملك كل الملوك) على العرش وكان ضعيفا ، انحطت الدولة في عهده ، وطمع بها كل خصومها من جديد في الداخل والخارج على السواء ، وبدأت حركات العصيان تذر بقرونها في مدن سومر وعيلام ، كما بدأت قبائل اللولوبي والغوتيين تتحفز للانقضاض على "أكاد" .

إن احتدام تحركات الأعداء من جهة ، وضعف الملك من جهة أخرى ، أوقع الجماهير وقوات الجيش في جو من البلبلة . ومرة أخرى يلجأ الجيش إلى قتل الملك ، لكن في قصره هذه المرة ، ودون أن يوفق في قائد حقيقي قادر على أن يسد الفراغ الذي كان يملأه سرجون أو حفيده نارام سين . إن هذا جعله يعمد إلى قتل الملك وتغييره خلال أقل من عام تقريبا . وسادت فترة من الفوضى حكم خلالها أربعة من الملوك مدة ثلاث سنين فقط ، في جو من نفمة جماهير الجنود والشعب معا . فكان الجنود يعبرون عن تلك النفمة بقتل الملوك وكانت جماهير الشعب ، وحتى موظفو القصر يعبرون عن ذلك بطرقهم الخاصة أيضا .

لقد جاء قي ثبت الملوك الأموريين عن هذه الفترة تحديدا :

" من كان ملكا ؟ "

" من لم يكن ملكا ؟ "

" هل كان اجيسي ملكا ؟ "

" هل كان نانوم ملكا ؟ "

" هل كان ايمي ملكا ؟ "

" هل كان ايلولو ملكا ؟ "

" الأربعة كانوا ملوكا وحكموا ثلاث سنين ! "

وعلى أية حال ، فقد لعب في ذلك الصراع على أرض سوريا عاملان وكان لهما تأثير بالغ على مجريات الأحداث في ذلك الزمن ، وحالا ، بصورة من الصور ، دون تمكن القادة من حسم الأمور كلية ، لصالح النظام الجديد . أول هذين العاملين ، وقد أشرنا إليه ، هو اتساع رقعة الدولة ، والمساحات الشاسعة التي تفصل منطقة عن أخرى في وقت تنعدم فيه أية واسطة للنقل والاتصال . والعامل الثاني هو أن العدو الخارجي لم يكن في شكل دولة ما ، أو جيش منظم يمكن قهره وتحسم الأمور . لقد كانت البلاد — كما قال هنري فرانكفورت — "بلادا متحضرة ومزدهرة ، إنما كانت تعوزها الحدود الطبيعية ، لذلك كانت تغري الجبليين وسكان البطاح بإمكانيات النهب الهين .. وهكذا تعهد ملوك أكاد بواجب شغل جميع خلفائهم من حكام البلاد ، حتى إنه في الألف الأول كان اقتحام الجيش الآشوري السنوي جبال أرمينيا ، ثم اتجاهه نحو الغرب محاولة سنوية منظمة مركزة لصد الجبليين عن حدود الدولة ، لأن إخضاعهم بصورة دائمة ، وعندهم هذه الإمكانية غير المحدودة للانسحاب إلى وديانهم البعيدة ، كان مستحيلا . ومنذ عهد سرجون الأكادي أدرك الملوك ضرورة الاحتفاظ بدولة موحدة مركزية . لقد كان لابد من السيطرة على الحدود سيطرة تكفي لمجابهة العدوان هناك " (1)

(1) هنري فرانكفورت ، " فجر الحضارة في الشرق الأدنى " ص 94 .

إن في هذا القول ، الذي سبق أن توقفنا عنده من قبل ، تأكيداً لعدة حقائق يهمنا أن نثبتها هنا ، وهي : أولاً : قوة العامل المتمثل بنوعية الخصم الخارجي ، الذي هو بمثابة قبائل هائمة لا أرض لها ولا مقرات أو عواصم ، وبالتالي فإنه حينما ينسحب من منطقة إلى أخرى لا يفقد شيئاً ، ويستنفد بذلك جهد الجيش النظامي وطاقته في تعقبه أو انتظاره . ثانياً : لقد كان الناس وجماهير الشعب ، بالدرجة الأولى ، وليس الملوك وحدهم ، أشد وعياً لضرورة الاحتفاظ بالدولة المركزية القوية القادرة على درء كل الأخطار عن حدود الوطن ومدنه الداخلية ، ثالثاً : إن في هذا القول لأحد المؤرخين تأكيداً على ما سبق أن أوضحنا وهو أن الآشوريين ، مثلهم مثل الأموريين ، جعلوا دأهم الاستمرار في النهج الذي اختطه سرجون في إقامة الدولة المركزية وتوجيه ضربات منتظمة للأعداء المتربصين بها من خلف الحدود . إن ذلك يؤكد على استمرار نهج سرجون من بعده لدى كل الحكام الآخرين بغض النظر عن مدى النجاح أو الفشل في تطبيق نهجه وسياسته .

إن مرحلة الفوضى التي دخلت فيها البلاد والدولة عموماً منذ نهاية حكم نارام سسين كانت تعكس حدة الصراع ، وصعوبة التحديات . وإن المقاومة التي أبدتها تلك الدولة الناهضة الجديدة ، رغم كل تلك التحديات الجديدة والصعبة ، والتي استمرت زهاء قرن من الزمن دون أن تستسلم للضعف أو للانهيار ، لدليل كبير على مدى رسوخ تقاليد وأفكار الحياة الجديدة التي غرسها سرجون في نفوس مواطنيه . إن عنف ، وقساوة ، وجدية الخصوم الداخليين في عدائهم للنظام الجديد لم يكن ، مع تألب كل قوى الغزو على الحدود أيضاً ، لينهزم على مدى قرن كامل لولا جدية القوة المدافعة عن النظام الجديد أيضاً . إن طول زمن واحتدام ذلك الصراع كان شاهداً حقيقياً على قوة النظام الجديد وليس العكس .

صحيح لقد انفصلت أوروك في أواخر حكم نارام سسين ، ثم حذت حذوها عدة مدن سومرية وعيلامية أخرى ، لكن ذلك الانفصال لم يمكن الحكام الجدد لتلك المدن من أن يعيدوا الزمن إلى الوراء ، ويحكموا بالأسلوب نفسه الذي كانوا يحكمون به من قبل .

لقد ثبت أخيرا أن النظام والأفكار التي أقامها سرجون في أرجاء دولته الجديدة وجدت طريقها إلى قلوب شعبه مباشرة فتلقفها ، ورعاها ، ودافع عنها ، ولم يسمح للأمرء الإقطاعيين — الدينيين أن يعودوا إلى ابتزازه بالأساليب القديمة ، بل ظل متمسكا بالمكتسبات التي منحه إياها العهد الجديد . ولقد شعر أولئك الحكام الانفصاليون الصغار بأن ناقوس الخطر قد دق فعلا ليعلن نهاية نظام المدينة — الدولة ، وأن عهد الدول المركزية الكبرى قد بدأ فعلا لا قولا ، وأن دولة سرجون لن تنتهي هكذا بالسهولة التي يتصورون ، إذ إن لها جذورا أخذت تعيش وتنتشر في نفوس الشعب ، وكان الطريق الوحيد أمام تلك القوى الرجعية الاستغلالية المتعفنة هو أن تستجد بقوى الغزو الهمجية في الخارج .

كان نارام سين قد وضع يده على الجرح، وقضى فورا على كل النزعات الانفصالية في إيبلا وماري ، ثم ارتد ليضرب قيادة ذلك التجمع الإقطاعي الديني في مركزه الرئيسي ، في نيبور المقدسة ، حيث لم يكن يخطر في ذهن تلك القوى أن نارام سين أو غيره يمكن أن يجرؤ على القيام بمثل هذه الخطوات . لقد دمر نارام سين التجمع الديني في " نيبور المقدسة " وفيها الـ "ايكور = الوقور ، الجليل ، المهيب " معبد انليل . لذلك اتجه رجال الدين إلى الغوتين الهمجيين في الجبال ، وتواطؤوا معهم من أجل توجيه الضربة الانتقامية الماحقة إلى " أكاد " تنفيذا — في زعمهم — لرغبة انليل في الانتقام . لقد ثبت أن تلك الفئة الرجعية ، التي أعمتها مصالحها الأنانية الضيقة عن رؤية أي ما من شأنه أن يجمعها بالوطنية والوطن ، كانت لا تتورع عن فعل أي شيء والتعامل مع أشد خصوم الوطن همجية وحقدا من أجل الانتقام من أولئك الذين كشفوا حقيقة استغلالها وابتزازها للمواطنين تحت ستار الدين وقطعوا كل دابر لأسباب بقاء تسلطها واستغلالها . لقد تجلّى حقد تلك الفئة على أبناء الوطن الناهضين في القصيدة التي نظمها باسمهم شاعر الهيكل وسجل أحداث الفترة بعد أن قرر زعماء المعابد في مدن سومر وعيلام أن يربطوا مصيرهم بانتصار قبائل الغوتين المتوحشة في غزوها لوطنهم ، وتدميرها لمدنه ، ولمستقبل تطوره . لقد استعانوا علانية بالغوتين مستنزلين كل صنوف الشر والدمار بأبناء الوطن

وعلى "أكاد" خاصة عاصمته ، ورمز نهوضه وانطلاقه في الزمن المشرق الجديد . لقد نظمت تلك القصيدة بعد اجتياح "أجادة" (أكاد) على أيدي الهمجيين الغوتيين إلى جانب تلك الفئة المتخلفة التي حولت الدين من مؤسسة تعاونية اجتماعية اقتصادية ، كانت أول مؤسسة اشتراكية من نوعها في العالم ، إلى بؤرة للبدع الفكرية والروحية ، لاستغلال وابتزاز جهود المواطنين ، ضاربة عرض الحائط بكل القيم الدينية الأولى التي بها انتظم المجتمع ، وانتشرت فيه من خلالها مشاعر التعاون والمحبة والفرح ، من أجل ضمان مصالح أفراد قلائل صاروا عالة متطفلين على المجتمع وتطوره . لقد أسقطوا تلك المؤسسة الدينية الاجتماعية والوطنية ، وصاروا ألد أعداء الوطن أكثر قربا إليهم حينما يضمن لهم استمرار عملية الاستغلال والكذب والتسلط من أولئك المواطنين . لقد كانت تجربة دولة سرجون القومية بكل تطلعاتها وصراعاتها التجربة الأولى اللازمة، واللازم استيعابها ، على طريق تطور البشرية كلها من نظام الإقطاع إلى الثورة الرأسمالية العقلانية .

لقد جاء في تلك القصيدة :

"ايتها المدينة ، يا من تجرأت على مهاجمة إيقور ، وتحديث إنليل ، عسى أن تتكـدس غاباتك في أكوام التراب

عسى أن يعود أجرك إلى "الهاوية"

وليكن أجرا ملعونا من "أنكي"

عسى أن تعود أشجارك إلى غاباتها،

ولتكن أشجارا ملعونة من "نينالدو"

ثيران الذبح — عساك تذبحين زوجاتك بدلا منها ،

أغنام الذبح — عساك تذبحين أبناءك بدلا منها ،

فقراؤك — عسى الجوع يجبرهم على إغراق أطفالهم الأعداء

يا أجادة ، قصرك المشيد بالفرح عساه يتحول خرابا محزنا

وحيث كنت تقيمين شعائرك

الثعلب الذي يسكن الخرائب عساه يهز ذيله

عسى قنوات مراكبك لا ينبت فيها سوى الأعشاب الضارة،
وعسى طرق مركباتك لا ينمو فيها سوى "القصب المسيل للدمع"
وفوق ذلك ، في مكان جر القوارب والرسو
عساه لا يقدر إنسان أن يسير بسبب الماعز الوحشي والديدان والأفاعي وعقارب الجبل
وسهولك حيث تنمو النباتات المسرة للقلب
عساه لا ينمو سوى "قصب الدموع"
يا أجادة ، بدل مياهك العذبة الجارية عساها تجري المياه المرة ،
ومن يقول "أريد أن أسكن تلك المدينة" لا يجد مكانا صالحا للسكن
ومن يقول "سأضطجع في أجادة" لن يجد مكانا صالحا للنوم
ثم يختم المؤرخ الشاعر قصيدته بأن يؤكد لنا أن كل ذلك قد حدث لـ "أجادة" فعلا،
وأن لعنة الألهة قد حلت بها ، معلنا تشفي ذلك الحلف الاقطاعي الديني وشماتهم
بدمار أول عاصمة للعدالة ، والحكم "الشرعي العادل" ولأول دولة عربية مركزية ناهضة
موحدة :

"لم ينبت في مكان جر القوارب سوى الأعشاب الضارة
وطرق العربات لم تنبت سوى النبات الباكي
ولا إنسان يستطيع أن يعيش
بسبب الماعز الوحشي والديدان والأفاعي وعقارب الجبل
وفي السهول ، حيث نما النبات المفرح للقلب ، لم ينم سوى "القصب المسيل للدمع"
وفي أكاد ، بدل المياه العذبة الجارية جرت المياه المرة
ومن قال سأسكن تلك المدينة لم يجد موقعا صالحا للسكن
ومن قال سأضطجع فيها لم يجد للنوم مكانا صالحا"
لقد اجتاحت الجوتيون القادمون من الجبال في الشرق بلاد سومر وأكاد ، وارتكبوا فيها
كل أنواع الفظائع الوحشية ، وصبوا جام غضبهم على "أجادة" خاصة ، ودمروها،
وقضوا فيها على كل أفراد السلالة الحاكمة التي أسست دولة الوحدة الأولى ، كل ذلك

بمساهمة ومشاركة الحلف الرجعي الداخلي المتمثل في زعامات المدن الاقطاعية ورجال الدين .

لقد عم الخراب والفوضى أنحاء سومر وأكاد زهاء قرن من الزمن ، انحسرت فيها هبة القوى الجديدة التي ظلت تفتقر إلى قيادة قوية حازمة تفرض نفسها وتشدد أشتات الجماهير المبعثرة إلى تحت جناحيها ، بينما كانت كل الشروط قد أصبحت مهياة لقوى الاقطاع الديني شبه البائدة من أجل أن تجمع فلولها تحت مظلة الاحتلال الغوتي المتواطئة معه ، وتنبعث على الساحة من جديد لتعمل أسلحة انتقامها في كل القوى التي ناصبتها العداء في الزمن الماضي .

في غمرة تلك الصراعات الدامية كان ممثلو العهد الجديد في كثير من المدن يتشبثون بمفهوم الدولة القومية السرجونية ، ويعضون بالنواجذ على مكتسباتها ، متحينين الفرصة للانتفاضة من جديد في وجه خصومهم الذين لم يكن ليسترعي انتباههم شيء في تلك الفترة غير التعجيل في استرجاع ما فقدوه من الثروات ، والانتقام من تلك القوى الظاهرة في مقاومتها على الساحة .

لقد أبقى الفلاحون في كثير من المقاطعات على ملكيتهم الصغيرة للأرض ، وتشبثوا بها ، يشجعهم في ذلك نمو الروح الوطنية والقومية التي أشاعها سرجون وحفيده نارام سين ، وعدد من حكام المقاطعات .

وفي حوالي 2130 ق.م تمكن حاكم أوروك الملقب بـ "أوتوهيجال" * (أوتو الجليل أو العظيم) من أن يكسر نير الاحتلال الغوتي ويحرر مدينته ، ثم تبعه عدة أمراء من حكام

* "أوتو" أو "أوتو" هو أحد الآباء العرب في مرحلة الخصب وصارت الشمس رمزا له ويعني المخصب ومونته " أثينا "ومن صفاته الملازمة له أنه "الراعي" فهو رب الشمس الذي ينضج المحاصيل ، وهو بالتالي مرادف لـ "رع" (الراعي) أو أصله الأول . وفي صلاة مرفوعة إلية نقراً :

" إيه أوتو يا راعي البلاد ، وأب سكان السواد
عندما تذهب إلى النوم يذهب معك الشعب لينام
يا أوتو القدير ، عندما تنهض ينهض الشعب أيضا معك
بدونك يا أوتو الأمير لا يرتحل والعيد لا يسافر
ولن يسافر وحده ، أنت الشفيق التوأم
والرجل في رحلته يا أوتو أنت معه

مدن الجنوب ، وتمكن "أوتو هيجال" من أن يضرب الغوتين في منطقتهم ويأسر ملكهم "تيريفان"

"جلس أوتو هيجال ، وتيريفان يتمدد عند قدميه

برجله داس على رقبته واستعاد سيادة سومر بيديه".

ومن الخطأ الاعتقاد بأن حكام المدن إنما كانوا يعملون بمفردهم وفي معزل عن المد الجماهيري الكبير ، الذي بدأ يتخذ في تصاعده طابعا قوميا تحرريا . إن التركيز على دراسة تلك الفترة بالذات يعتبر — في نظرنا — من أهم الواجبات التي يمكن أن يضطلع بها المؤرخون العرب المحدثون ، المتحررون من زيف الادعاء الثقافي والعلمي ، والمسلحون بالمعرفة الحقة ، وبروح البحث العلمي الموضوعي ، وبالروح الوطنية والقومية الصادقة ، من أجل سبر حقيقة وجوهر ذلك الصراع الذي خاضه الشعب العربي منذ آلاف السنين ليكسب نزعته إلى بناء دولته القومية مضمونا تحريريا على صعيدين : داخلي ضد النظم القديمة الاستغلالية البالية ، وخارجي ضد الغزاة المهيمنين المحتلين لأرض الوطن مرسيا — ولأول مرة في تاريخ البشر — دعائم الفهم الصحيح للقومية والوطن ، بعيدا عن أية نزعة عصبية استغلالية متطرفة .

فبينما كان المحتلون الغوتيون وحلفاؤهم يعيشون ضروب الفساد في الداخل كانت جماهير السوريين تغلي ، وتتحرك ، وتتمحور حول قادة حقيقيين سوف تخرجهم إلى ساحة الصراع في الوقت المناسب . ولم تكن انتفاضات بعض الحكام هنا أو هناك سوى بداية العاصفة القومية التي تهب دائما من الغرب السوري حاملة الخير للأمة كلها ، كما تحمل الرياح الغربية السحب المحملة بالخير والمطر لشئ بقاع الوطن .

أما كيف يفهم مؤرخو الاستعمار والتوسع الاستعماري مثل تلك الظاهرة فأمر آخر . يقول أرنولد توينبي : "وأثناء فترة سيطرة الغوتيان تسلل العموريون المتكلمون بالسامية

وللأعشى أنت العين التوأم

الفقير والباقس والعريان

تلفهم إشراقة نورك مثل حلة من الصوف الطويل

والمحتاج تقطيه بحلة من الصوف الأبيض

أيها البطل ابن الربة ، السيدة نرجال ، إني أشد مجنك"

إلى أكاد من الجهة الجنوبية الغربية ، وأنشأوا مدينة بابل تبعا لذلك . وقد قضى على الغوتيان أو لعلهم أخرجوا من البلاد في آخر المطاف ، وذلك لأن الأكاديين والسومريين كانوا يكرهوهم ، أما العموريون الذين انتهكوا حرمة الأراضي الأكادية فقد استمروا هناك ، وكان أن قاموا بدور رئيسي في التاريخ السومري الأكادي في ما بعد ⁽¹⁾

انظر كيف تتم الأمور ببساطة لدى المؤرخين الاستعماريين ! .. لقد قضى على الغوتيان أو أخرجوا ليس لأنهم غزاة محتلون ، بل لأن الشعب لم يحبهم ، كرههم !.. ولو تمكنوا من أن يجعلوا هذا الشعب يحبهم لتنازل لهم عن أرضه وكل مقدساته وثرواته ، ولغفر لهم كل جرائم القتل الوحشي والتدمير الذي فعلوه ببلادهم وبأبنائهم ! إن الاحتلال لدى أولئك المؤرخين الاستعماريين لا يستحق أن يحمل في جنيبه حقدا أو تناقضا قوميا ووطنيا ، إنه مجموعة عواطف يمكن تشذيبها من الكراهية إلى التحابب . إنه "حاجز نفسي" يمكن كسره وينتهي الأمر !.. أما العرب العموريون سكان المنطقة الأصلية فقد "انتهكوا حرمة الأراضي الأكادية" .

وأما أولئك العرب الأموريون الذين انتفضوا في وجه المحتلين وعملائهم من الداخل وحرروا المنطقة كلها ، وأعادوا أجماد الدولة العربية المركزية الموحدة المتحررة فقد "جاؤوا متسللين" ، ورغم "انتهاكهم حرمة الأراضي الأكادية فقد استمروا هناك" . إن هذا يخالف كل شريعة الاستعمار البريطاني الذي لم يكن توينبي إلا أحد جياده المؤطرة عيوها من الجانبين .

إن توينبي كان يعرف — دون شك — أن الأموريين هم العرب سكان المنطقة الأصلية ، وأن ما دعي بالسومريين أو الأكاديين أو البابليين ليس إلا تسميات جغرافية محلية لأولئك السكان الأصليين كما نقول اليوم : بغداديون وحلبيون وبحرانيون وشاميون .. الخ ، وهو ، على الأقل ، لا يمكن أن يكون بعيدا عن كل ما كتبه غيره من باقي المؤرخين الغربيين وبلغته الإنكليزية نفسها عن الأموريين . لقد وضع المؤرخ الكبير "كليي" ، على سبيل المثال ، وحده مؤلفين عن الأموريين هما "أمورو" ، وطن السليمين

(1) أرنولد توينبي ، "تاريخ البشرية" ، الجزء الأول ، ص 98 .

الشماليين" وإمبراطورية الأموريين " وقال فيهما : " لقد أطلق البابليون تسمية " أمورو " (أو عمورو) على جميع بلاد سوريا ، كما أطلقوا على البحر المتوسط اسم "بحر أمورو العظيم" ويرى "كليي" أن الأموريين "كانوا قد انتشروا في جميع المنطقة الممتدة من ساحل البحر المتوسط إلى الفرات ومن ضمنها فلسطين منذ الألف الرابعة أو الخامسة قبل الميلاد " ⁽¹⁾ ويؤكد كثير غيره من الباحثين والمؤرخين حقائق أخرى أشد عمقا وإهارة مما يذكره " كليي " عن قدم وجود العرب الأموريين الذي يعود إلى ما قبل الألف السابع قبل الميلاد ، مما يجعلهم السكان الأصليين للمنطقة إلى ما يقرب من عشرة آلاف سنة جرى إثباتها بالمكتشفات الأثرية .

لقد ثبت للدارسين أن مدن عبلا (ايلا) وأريحا ، وحماه ، وأوغاريت ودمشق ، وماري وكيش ، وأور ، وأريدو ، وغيرها كثير من المدن التي يصعب حصرها إنما هي مدن عربية أمورية ، ومن المعلوم أن بعض تلك المدن يعود تاريخها إلى ما قبل الألف السابع قبل الميلاد كما أكدت فحوصات الكربون المخبرية لآثارها مؤخرا ، ومن بينها مدينة أريحا . ويشاهد اليوم مقابل " تل الحريري " على الجانب الأيسر من نهر الفرات في شمالي سوريا تل أثري يسمى " تل باغوز " يرجع تاريخه إلى الألف السادس قبل الميلاد ، ويقول الخبراء إنه " من المرجح أنه يمثل بقايا إحدى المستوطنات التي أقامها الأموريون على ضفاف الفرات الشرقية بعد نزوحهم من شبه جزيرة العرب ، ويبدو أن هذه المستوطنات السامية كانت تمارس الزراعة التي تعتمد على الري مستمدة مياه الإرواء من الضفة اليسرى لنهر الخابور " ⁽²⁾ هذا بالإضافة إلى كل ما قد مر معنا من قبل ، وهذا دليل آخر ، يصرف النظر عن استخدام كلمة "سامية" بدلا من "عربية" أو "سورية" إذ أنها موجودة قبل أن يوجد سام نفسه بثلاثة آلاف عام على الأقل .

وفي لغش ، وفي حوالي 2150 ق.م قام الحاكم الطيب "جودي" بتثبيت معالم القيم التي يدافع عنها الشعب في وجه خصومه الداخليين والخارجيين ، ولم يسمح بسقوط

(1) A.T.Clay , "Amuru: The Home of Northern Semites ; The Empire of Amorites "1919 .

(2) الدكتور أحمد سوسة ، "مفصل العرب واليهود في التاريخ" ص154 .

المكتسبات الجديدة في أيدي الأمراء الاقطاعيين والدينيين الذين اندفعوا لاقتلاع الجديد من جذوره وإعادة الأمور إلى الوراء ، إلى ما كانت عليه إبان تسلطهم قبل سرجون . لقد حافظ على التراث القومي التحرري الاقتصادي والاجتماعي والحقوقى ، الذي تمثل في محطاته الرائعة في شرعة لبث عشتار ، وأوركاجينا ، وسرجون ، واعتبر ذلك إنجازات قومية وإنسانية عظيمة ينبغي التمسك بها والدفاع عنها مع جماهير الشعب ، مما جعل تلك الجماهير ترى فيه أحد دعائم مقاومتها ، ورمزا من رموز وجودها وتقدمها ، فتجمعت من حوله ، ورفعت من شأنه ، وأبرزته في كل إنتاجها الأدبي والفني ، وصار أحد السادة المقدسين ، أو الآباء المقدسين ، الذين فهمهم المؤرخون الغربيون على أنهم آلهة . يقول ول ديورانت : لقد ازدهرت مدينة لغش .. في عهد ملك آخر مستنير يدعى "جوديا " تعد تماثيله القصيرة المكتترة أشهر ما بقي من آثار فن النحت السومري . وفي متحف اللوفر تثال له من حجر الديوريت يمثل في موقف من مواقف التقوى ، ورأس ملفوف بعصابة ثقيلة كالتي نشاهدها في التماثيل المقامة في مسرح الكلوسيوم ، ويسداه مطويتان في حجره ، وكتفاه وقدماه عارية .. وتدل ملامحه القوية المتناسقة على أنه رجل مفكر ، عادل حازم ، دمث الأخلاق ، وكان رعاياه يحلون له ، لا لأنه جندي محارب ، بل لأنه فيلسوف مفكر أشبه ما يكون بالإمبراطور ماركس أوريلوس الروماني ، يختص بعنايته الشؤون الدينية والأدبية والأعمال النافعة الإنشائية ، شاد المعابد ، وشجع دراسة الآثار القديمة بالروح التي تدرسها بها البعثات التي كشفت عن تماثله ، ويحد من سلطان الأقوياء رحمة بالضعفاء ، ويفصح نقش من نقوشه التي عثر عليها عن سياسته التي من أجلها عبده رعاياه واتخذوه ربا لهم بعد موته : " في خلال سبع سنين كانت الخادمة ندا لمخدومتها ، وكان العبد يمشي بجوار سيده واستراح الضعيف في بلدي بجوار القوي" (1)

تلك هي بذور الأفكار التي لم يعد في الإمكان اقتلاعها من أعماق تكوين الإنسان العربي السوري (والعموري إن شئت !) وتلك هي ملامح دولة الوحدة بمضمونها القومي

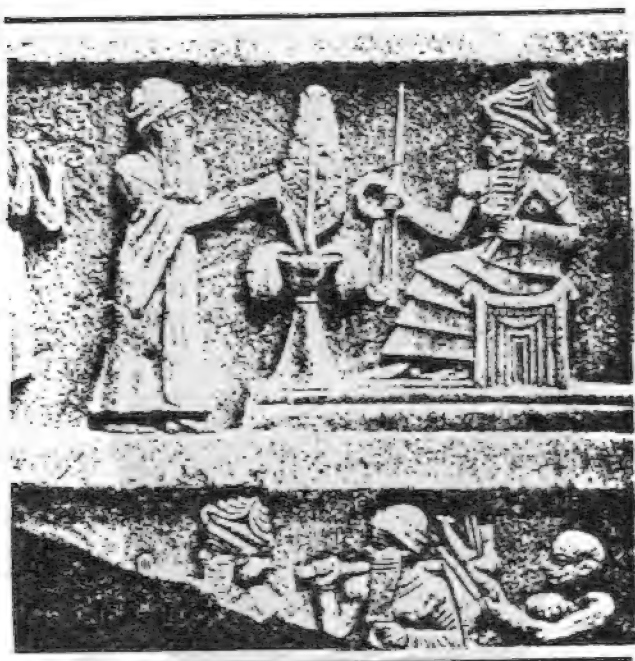
التحرري والإنساني معا :دراسة للتراث والمحافظة على جوهر كل العناصر الإيجابية فيه
كما فعل "جوديا" ، وإقامة مجتمع العدل والحرية والمساواة ، وتلك هي السمات
البارزة التي رسخها سرجون والعرب السوريون عموما (أو العموريون !) قبله وبعده ،
الذين نعتهم تويني بقوله : " إنهم دخلاء متطفلون شبه همج " ! فهل توصلت حضارة
لندن الاستعمارية بعد أربعة آلاف عام من سرجون العربي السوري الأموري إلى القول
بأن الخادمة في بريطانيا اليوم صارت ندا لمخدومتها ، وأن العامل الأجير يعيش بجوار
سيده ، وأن الضعيف يستريح بجوار القوي ولا يخشى غائلته ؟ .. "

بعد أن قام أوتوهيجال حاكم أوروك في الجنوب على رأس جيش يدعمه أمراء سومر
الآخرون ، وهزم الجوتيين ، تزعمت أوروك باقي سومر ، ثم جاء "أورنامو" من بعده
بعد أن أطاح به ، ووحّد مدن سومر وأكاد في مدة وجيزة ثم كرس بقية حكمه (2113
— 2096 ق.م) للبناء الداخلي ، وإعادة النظام والرخاء والاهتمام بالقيم الدينية
الحقيقية ، كما حرر البلاد من اللصوص وقطاع الطرق والخارجين على القانون الذين
كانوا قد وجدوا في الفوضى والصراعات ، التي غرقت فيها البلاد طيلة فترة تسلط
الغوتيين والاقطاعيين المتحالفين مع رجال الهيكل ، فرصة سانحة لأن يسرحوا في ربوعها
كالدبابات الهائمة تقنص في طريقها كل شيء .

لقد أراد "أورنمو" من جهته أيضا أن يثبت ذلك التقليد الذي أصبح قوميا وذلك بأن
يربط مفهوم الوطن القومي بالوطن المتحرر الذي تسوده العدالة والقانون والنظام . فنظم
وثيقة تشريعية هي الأولى من نوعها في التاريخ بعد وثيقة أوركاجينا .لقد عثر عليها
في نيبور على لوحة تالفة ، ولم يترجم منها إلا حديثا ، وما تبقى من التشريع على
غاية من الأهمية إذ ألغى القانون البدوي الذي ينص على العين بالعين والسن بالسن ،
وأجاز التعويض عن الجرم بالفضة .

وإلى جانب ذلك فقد أحيا الزراعة ، وحفر شبكة من الأبنية وحصن المدن ورمم ما
تهدم . وإن أعظم أعماله بناء الزيقورات في أور وأوروك وأريدو ، ونيبور ، ومدن

أخرى ، و لا تزال أقدم الآثار هناك وأكثرها حفاظا زيقورة أور . وقتل أورنمو في إحدى المعارك .



جزء من نصب الملك أورنمو — باني المعابد —

ثم خلفه ابنه "شولجي" (2095 — 2048 ق.م) الذي حكم 48 عاما ، قضى شولجي الصف الأول من حكمه في البناء السلمي ، فأكمل الزيقورات والمعابد التي أسسها والده ، وأقام أبنية جديدة ، ورفع تماثيل للآباء المقدسين في مزارقهم . وأصلح التقويم ووحد المكاييل على أساس الجور الملكي للحبوب بدل المكاييل المحلية ، وأعاد تنظيم البلاد سياسيا واقتصاديا وإداريا . وفي العام الرابع والعشرين من حكمه أخذ يقوم بحملات عسكرية سنوية ضد أعداء البلاد مشيا على التقليد الذي استنه سرجون ثم نارام سين ، ومثل نارام سين سمي نفسه "ملك الجهات الأربع" . ثم جرى تعظيمه وتقديسه

كواحد من أعظم الآباء في حياته وبعد موته باسم "شولجي المقدس" وأطلق اسمه على
أحد الشهور .



قفا لوحة الملك أمارسين

وهكذا ، وبسرعة نموذجية ، بالنسبة لذلك الزمن ، تمكنت فصائل الانتفاضة الجديدة ، أنصار الدولة المركزية المتحررة الواحدة ، من أن يطردوا الغزاة ويحرروا الأرض من المحتلين وعملائهم المتسلطين ، ويعيدوا الوحدة بمضوئها السياسي الاجتماعي التحرري إلى أرجاء الوطن كله . أما بقية الأرض السورية الممتدة إلى شواطئ المتوسط غربا وشواطئ البحر الأحمر وبحر العرب جنوبا فلم يحدث فيها ما يخل بتلك الوحدة إطلاقا ، بل أخذت تضفر جهودها تضمها إلى جهود الأموريين والسريان في مرتفعات شمال الدجلة من أجل تثبيت الأوضاع في مناطقها وإرسال الدعم إلى مناطق سومر وأكاد من أجل أن تتمكن في أقصى سرعة من أن تقف على أقدامها وتنصير لنظام الدولة الجديد .

لقد أدرك شولجي هذه الأوضاع جيدا ، فانصرف إلى تثبيت دعائم الدولة في منطقة سومر وعيلام حيث تتجلى أعظم المخاطر في الاتصال الجغرافي ما بين رموز النظام القديم والأعداء المتربصين في معاقلهم في الجبال . لقد أثبت شولجي بالفعل أنه استمرار حقيقي لأولئك القادة العظام الحضاريين من آباءه . فقد كان قائدا عسكريا ، ورجل دولة ، وراعيا للعلم والأدب ، وفي عهده ازدهرت سومر ، وصارت أور عاصمة بحق للدولة العربية السورية الجديدة ، دولة أمور المحررة .

ثم خلفه ابنه "أمارسين" (2047 — 2039 ق.م) وحكم لمدة تسعة أعوام قضاهما في البناء والدفاع عن الوطن ، مما صار سنة لا يمكن تجاوزها من قبل أي حاكم إلا بالاستسلام لتدمير البلاد وخرابها أمام زحف الأعداء .

لقد تمكن كل من شولجي وابنه أمارسين من أن يحافظ على حدود الدولة ويزيد من منجزات البناء في الداخل ، مما جعل استمرار دولة سرجون القومية الواحدة وبمضمونها التحرري سياسيا واجتماعيا واقتصاديا أمرا واقعا وحقيقيا ، بخلاف ما دأب المؤرخون الاستعماريون على تأكيده والقول بأن سرجون لم يكن غير رجل حرب ، وأن دولته انتهت بنهايته . لقد صار كل من يحاول أن يستقل بمدينة أو منطقة منذ عهد سرجون خارجا على قانون التطور الطبيعي للمنطقة ، وعلى حق السكان الذين وعوا جيدا وأدركوا أن لا حياة ولا مستقبل لكل منجزاتهم الحضارية وتاريخهم الحضاري العريق إلا

ضمن إطار الدولة القومية التي تضمن لهم الحماية والأمن ، كما تضمن كل فرص النمو والإبداع وممارسة الشعب لعبقريته في الخلق والإنتاج والعطاء.

ولقد لجأ كل من شولجي وابنه أمارسين إلى انتهاج خطة جديدة في إدارة المقاطعات الكثيرة في المناطق المترامية والنائية ، بأن نصبوا حكاما محليين يتبعون للملك مباشرة . وفي منطقة سومر وأكاد كان الحكام ينتقون من السومريين والأكاديين دون تمييز ، مما يؤكد وحدة الأصل السكاني رغم كل مساعي بعض المؤرخين المغرضة . أما الأقاليم النائية والمتطرفة والتي تمتد من أقصى عيلام في الشرق إلى الأقاليم الغربية على شاطئ المتوسط ، فقد عين الحكام فيها من سكان الأقاليم ذاتها . إن تلك السياسة الفيدرالية قد تكون سياسة حضارية متطورة بالنسبة لذلك الزمن . لكنها ، وفي ظروف وجود الأعداء الدائمين على الحدود الشرقية والشمالية الذين لا يمكن حسم الأمور معهم والذين يمثلون خطرا يتهدد الدولة في كل وقت ، فإن هذا الظرف بالذات كان يجعل مثل تلك السياسة الحضارية المتطورة ذات حدين ، لأنها تتيح لذوي النفوس الضعيفة من حكام الأقاليم المتطرفة والملاصقة لوجود العدو فرص التواطؤ والزورع إلى الاستقلال بتشجيع من الخارج ، وهذا ما كان يحدث على الدوام . لكن ذلك أتاح في الوقت نفسه فرص النمو والازدهار الاقتصادي ، كما ساد الأمن جميع مواصلات الدولة الممتدة من أقصى الشرق في عيلام إلى أقصى الغرب على شواطئ المتوسط ، ومن المضائق إلى شواطئ البحر الأحمر وبحر العرب ، وصار في الإمكان القول مع جميع المؤرخين بأن ذلك الزمن كان زمن تضامن ورخاء وسلام ، وكان القطاع الخاص في الاقتصاد ينمو على حساب قطاع المعابد ، وكان نفوذ العلمانيين يتزايد على حساب نفوذ الكهنة ، وظهرت طبقة من ملاك الأراضي والمواشي والبيوت والقصور ، واختلفت الأسعار حسب النوع والزمان والمكان ، ويعبر عن القيمة بموازين الفضة أو بمكاييل الحبوب ، أما التعرفة أو الوحدة القياسية فكانت شافل الفضة الذي يعادل 1.60 مينا أي حوالي 9 غرامات فضة ويساوي

جورا من الشعير⁽¹⁾ ، والـ "جور" يساوي 225 ليترًا ، ومساحة سار الأرض نحو 10 أمتار مربعة ، والمراع يقدم ثلث المحصول للمالك* .

وكان للحكومة أراضيها ومخازنها ، وورشاتها ، وكتابها ، وصناعها ، وجيشها ، وعبيدها ولم يك التاج والمعد في حالة تناقض لأن الملك هو نفسه رئيس الكهنة وهو الذي يبني المعابد ، ويعين كبار الكهنة ، ويؤم الاحتفالات الدينية ، والمعابد تدفع ضرائب للدولة ، وعند الأزمات تضع ثروتها تحت تصرف الدولة .

وقد بنى شولجي في بزوريش داجان* قرب نيبور أهراء كبرى للحبوب وزرائب للأبقار والأغنام والماعز ، ومستودعات للبيرة وغيرها من المتاع المتجمعة في الامبراطورية كهبات أو كجزية أو كضرائب من الأنزية (الايشاكو) بنظام دوري دقيق يسمى "بعالة" (أي لقاء الحكم والسيادة ، كضريبة الميزة أو الامارة) ، وكان الكتاب المختصون يسجلون الصادر والوارد من الدخول إلى الخزينة .

لقد أصبحت تلك البلاد الشاسعة موحدة إداريا ، وسياسيا ، واقتصاديا ، وعسكريا ، وثقافيا ، ومرة أخرى ، صارت جميع المناطق السورية الممتدة من عيلام إلى المتوسط تدار من أور عاصمة الدولة العتيدة .

لكن تطوّر تلك الدولة واستمرارها كان مرتهنا بمجموعة من العوامل القديمة والجديدة . إنه لمن المعروف أن كل مرحلة من التطور تحمل في ذاتها تناقضاتها الجديدة ، وبالتالي تحدياتها الجديدة ، مما يستدعي توليد ردود فعل جديدة . إن الدولة العريية السورية في عهدها الجديد الموحد حول عاصمتها "أور" لم تكن قادرة على أن تتخطى نمو طبقات جديدة من الأغنياء والمستغلين سواء عن طريق ملكية الأراضي الزراعية الواسعة ، أو العقارات ، أو المصالح التجارية الدولية والداخلية الكبيرة ، كما لم تقدر على الحؤول

(1) انظر : الدكتور هشام الصفدي ، تاريخ الشرق القديم ، الجزء 1، ص 234 .

• كلمة المراع القديمة — كما سبق أن أوضحنا — جاءت من تسلم الزراع لربع هذه الأرض التابعة للمعد أو تلك وليس لأن حصته من المحصول هي الربع فقط كما صار سائدا في القرن العشرين بعد المسيح .

• لاحظ استمرار هاتين الكلمتين في سوريا إلى اليوم . إن كلمة "بزوريش" هي اليوم "بزورية" أي حبوب ، وكلمة "دجن" تعني الخبز والطعام عموما .

دون خلق طبقة واسعة من الفقراء والمستغلين الذين يضطرون ، ليس إلى بيع عملهم فحسب ، بل إلى بيع أطفالهم ونسائهم وأنفسهم للملاكين الاقطاعيين أو للهيكل أيضا. وإن في إمكان أي منا أن يتصور حكاما كأولئك الذين يتولون أمور المناطق المتطرفة كعيلام ، والذين يتمتعون باستقلال ذاتي ، وينظرون إلى جموع الشعب الأمورية الفقيرة والبدوية المتعازمة كتلتها يوما بعد يوم في المدن والأرياف وعلى التخوم مع أطراف البادية ، إنما يرون في ذلك خطرا مهددا لمصالحهم هم بالدرجة الأولى إذا لم يعتمدوا قوى احتياطية معينة تضمن لهم الحفاظ على مكاسبهم الخاصة . إن ذلك كله من الأمور الطبيعية ، كما أن من الأمور الطبيعية أيضا أن يجد كل مجتمع في مثل هذه الأحوال الحلول التي يعتبرها ناجعة . لكن الأمر غير الطبيعي هو بقاء عوامل قديمة متراكمة تضاف إلى عوامل التناقض والتحديات الجديدة التي تخلفها كل مرحلة ، ونعني بها تلك الأخطار الثابتة المحدقة بسلامة الدولة ككل ، والمتمثلة بوجود القبائل البدائية المتنقلة والمعتصمة في مواقعها بين سلاسل الجبال المنيع . إن كل الدول والمجتمعات لابد وأن تمر في فترات متعاقبة من التوتر والاسترخاء ، من القوة والضعف ، من التحفز والتواكل . وهي في مسيرتها الطبيعية تتجاوز المرحلة إلى غيرها عادة دونما كوارث قومية حقيقية . أما أن يوجد ذلك العامل الثابت الدائم الذي لا يمكن حسمه ، ولا يمكن تفاديه ، والذي يترصد دائما الاسترخاء ليدمر كل شيء ، فإن ذلك هو ما ابتليت به الدولة العربية السورية منذ بداية عهد نشوئها القومي وحتى اليوم . إن طبيعة التطور الاجتماعي لا تسمح ، ولا يمكن أن تسمح ، بظهور القادة الأفذاذ متسلسلين واحدا في إثر آخر ، ولذلك فإن عظمة كل منهم كانت تقاس دائما بمقدار إدراكه لهذا القانون الختمي الطبيعي ، ولمدى تعامله معه ، بحيث يتمكن في مرحلة حكمه ووجوده من أن يغطي كل فترة "الهوة" التي سوف تليه من أجل أن يمضي مطمئنا إلى أن مجتمعه أو شعبه سوف يعبر تلك "الهوة" دونما أي قلق من أن يتهدده السقوط مرة أخرى ، قبل أن تتاح له فرصة ولادة قائد عظيم آخر .

إن سرجون ، ونارام سين ، وشولجي ، وأمارسين ، لم يكونوا مجتمعين أو منفردين ، غير أولئك القادة التاريخيين الأفاضل ، الذين صنعوا لأمتهم ولل بشرية من بعدهم تاريخا حقيقيا. امتد لا ليغطي مراحل حكمهم وحسب بل وليضمن استمرار خطوط التواصل التاريخية الإيجابية في امتدادها القوي عبر زمنهم إلى المستقبل القادم من بعدهم دون أي خوف من الالتواء أو السقوط . لكن ظروف وطنهم كانت تضع كل تلك الانجازات في كثير من الأحيان الانتقالية على كف الأقدار القادمة مع رياح الغزو الوحشي التي تهب على المنطقة دائما من الشمال والشرق . لقد كانت تلك العوامل ، بالتضافر مع حجم المسافات الشاسعة بين الأقاليم ، وانعدام وسائط النقل والاتصال السريع في ذلك الزمن ، من النقاط القاتلة لولا شدة بأس هذا الانسان وشدة ثقته بنفسه ، التي أنقذت وطنه العربي السوري ، ثم العربي الكبير ، في أحلك أوقاته عبر تاريخه وعلى مدى خمسة آلاف عام من تأسيس دولته .

حكم "شوسين" واستشراء الفساد

الصراع بين الوحدة والتجزئة يبلغ مداه

لقد خلف "امارسين" أخوه "شوسين" (رسول رب القمر) وحكم في الفترة 2038 — 2030 ق.م وقاد حملة ضد تحالف القبائل في شمال زغروس . ولما مات شوسين خلفه ابن أبي سين 2029ق.م ، الذي كان يفتقر إلى الحس الاستراتيجي وإلى مواهب القيادة معا . وسرعان ما بدأت تظهر نقاط ضعفه لخصومه . كما عمد خصومه الداخليون إلى تطويقه بأدوات حكم نفعية بليدة لا تفقه شيئا من أمور إدارة مثل تلك الدولة الحساسة البالغة الدقة في موازين قوتها وضعفها ، سهرها ونومها ، عملها وراحتها ، فأحاطوه بأجواء من الأهمة الزائفة ، وأخذوا يعملون سرا على تفكيك أوصال الدولة ، وتغذية الحركات الاستقلالية ، وبدأت تستشري حركة السباق نحو الاثراء الفردي السريع بشتى السبل ، مما جعل كل الأبواب مفتحة أمام جيوش الفساد الإداري والاجتماعي والخلقي .

وأمام ملل القادة العسكريين ويأسهم من الملك في القيام بالإصلاح الإداري ، ومع تزايد نفوذ الحكام في المقاطعات وزيادة ملاحقتهم للضباط المخلصين الذين بادروا إلى التصدي لعملية التدهور التي أخذت تستسلم لها البلاد بسرعة متقطعة النظر ، فقد أخذ كبار قادة الجيش يسقطون أيضا في دوامة الاثراء ، وراحوا ، مثل غيرهم ، يتنافسون في امتلاك الدور والقصور والأراضي ، متعامين عن كل ما يدور حولهم في السر والعلن ، مما ترك المؤسسة الوحيدة الفعالة القادرة على استلام زمام المبادرة تصاب هي الأخرى بالعجز المطلق وبالشلل . وأخذت صورة الجيش السرجوني تنقزم في نظر الجماهير ، وتتحول إلى مؤسسة عبء على تلك الجماهير ، بدلا من أن تكون — كما عرف عنها دائما — الأداة الحقيقية الحاسمة في يد قوى التقدم والتطور . وما إن اطمأنت قوى الردة في المجتمع العربي السوري إلى عجز الجيش تماما عن التحرك ، وإلى انغماس شوسين بين زمرة من بطانته في تحقيق مصالح انانية ضيقة لا تمت إلى عظمة شعار الدولة القومية التي بدأها سرجون ، وحافظ عليها نارام سين ، وشولجي ، وأمارسين حتى بادرت إلى إعلان نواياها دونما خوف هذه المرة .

فلم يكف يستقر بأبي سين المقام في الحكم قليلا حتى بدأت نتائج أسلوبه في الإدارة والحكم تظهر على الساحة : لقد أعلنت عدة مدن في الشرق وفي سومر ذاتها استقلالها مثل اشنونا وسوزان (وهي سوسان أو سوسة عاصمة إقليم عيلام) ، وظهرت بوادر التواطؤ مرة أخرى بين حكام المقاطعات الشرقية المتطرفة المعينين من السكان المحليين ، والتمتعين بالاستقلال الذاتي مع تحالف القبائل في جبال زغروس .

وبلغ الشعور بالخطر اطراف الدولة السورية في الغرب ، والشمال ، مما جعل العرب السوريين يدفعون بحشود بشرية ضخمة ويزجون بها على حدود العاصمة والمدن الشرقية تحفزا لأي طارئ .

لقد صار من السهل على أي إنسان بسيط من عامة الشعب العربي السوري ، من أقصى الشرق إلى أقصى الغرب أن يلاحظ أن البلاد أضحت حبلى بأحداث كبرى ، وأن الصراع قد بلغ حدا لا يمكن التوقف عنده أو الرجوع عنه : فإما أن يسقط شعار

الدولة المركزية القومية الواحدة ، وتعود البلاد القهقرى إلى حلبة من الشطايا المتصادمة تحركها مصالح وأنانيات فردية ضيقة ، أو أن تعود الجماهير لتؤكد تشبثها بوحدة المصير ، وتمسكها بمستقبلها المتمثل بدولتها القومية المتحررة الواحدة .

لقد كان تعاضم الدفق السكاني من الغرب والشمال إلى مركز تكاثف الخطر في سومر وعيلام يدل دلالة قاطعة على مدى تجذر الدولة السرجونية في نفوس العرب السوريين حتى أقصى الغرب . لقد بذلت مدن الغرب السوري الأمورية : حلب ، وماري ، وجبل ، وأوغاريت ، ودمشق الأموال والأسلحة بوفرة لا مثيل لها ، وزودت زحوف السكان بأحدث أسلحة ذلك الزمن بعد أن شهد لها التاريخ بتفوقها في استخدامها وطرق المعادن على جميع الشعوب .

ما أن أعلنت عدة مدن في الشرق وفي سومر استقلالها حتى رمى الأموريون الغربيون بثقلهم على حدود المدن الشرقية ، وفي السنة الخامسة من حكم أبي سين اخترقوا التحصينات ، وتغلغلوا في قلب سومر ، وقطعوا الطرق المؤدية إلى أور ، واستعدوا لغزو نيبور وايسين .

وفي أعالي الشمال الفراتي كان الأموريون الغربيون يتحفزون للانقضاض على مدينة ماري لينتزعوها من سلطة حكام أبي سين ، ثم ليتقدموا من هناك على ضفة الفرات إلى مناطق تتركز الصراع حول العاصمة في أور .

وفي الشمال في أعالي الدجلة كان الأموريون والسريان ، الذين عايشوا أحداث الدولة القومية بتعاطف كبير منذ بدايتها في عهد سرجون ، يقلقهم تنافس الخصوم في الداخل وتزاحم الأعداء على الدولة من الخارج فأسرع شمسي حدد ، وبسط سلطانه على المناطق الوسطي من الدجلة والفرات ، ثم دخل ماري وانتزعها من الحاكم التابع للملك أبي سين ، أراد أن يتابع زحفه إلى المناطق الغربية ليضمها في قبضته ثم ينطلق بها إلى سومر وعيلام ويعيد للدولة وحدتها ، لكن ملك حلب أوقفه عند حدود مملكته ، فاضطر إلى الرجوع ثم التبرص من جديد بعد أن أوقفه ملك اشنونا في جنوب مملكته وتقدم

ملك حلب وساعد ماري في الخروج من تحت سلطة شمشي حدد من جديد لتتحالف معه .

وفي الشرق انقض الأموريون واستلموا زمام الأمور في ايسين ولارسا فقد أعلن "ايشي ارا" نفسه ملكا في ايسين ، كما أعلن الشيخ الأموري "نبلان" نفسه ملكا على لارسا ، ثم غزا العيلاميون سومر في فترة ضعفها ، وحاول أبي سين أن يحارب حتى النهاية من أجل الحفاظ على حكمه محاولا أن يوحد الصفوف مع الأموريين المتقدمين من الغرب ، لكن خططه باءت بالفشل ، وكان قد خسر ثقة جميع الأطراف بجدارته ، وفي عام 2006 ق.م حطم العيلاميون أسوار أور التي بناها أورنامو "عالية كجبل مشع" واحتلوا المدينة ، ونهبوها وأحرقوها بالاشتراك مع قوات القبائل المرتزقة المقاتلة في صفوفهم وانسحبوا تاركين خلفهم حامية صغيرة ، وسبق أبي سين أسيرا إلى عيلام حيث مات هناك قهرا — كما يقال — حينما فوجئ بأن أحدا لم يحاول القتال إلى جانبه والدفاع عنه حتى أقرب المقرين إليه ، فقد سارعوا إلى الفرار من ساحة الصراع ضمانا لبقائهم وبقاء الثروات التي نهبوها وكدسوها مغتنمين وجودهم في قمة السلطة حول أبي سين .

في هذه الأثناء تحرك الأموريون الغربيون من مدينة ماري وأعالى الخابور ، وانحدرت زحفهم على مجرى الفرات إلى الجنوب حتى استقرت في منطقة بابل وسرعان ما أعلن سومو أبوم الأموري نفسه ملكا على بابل ، قاطعا بذلك الطريق على تقدم شمشي حدد جنوبا من أجل تسلم السلطة المركزية كلها .

وهكذا بدأ الصراع على السلطة في الدولة العربية السورية ، وظهرت مراكز القوى جميعا في أوضح صورة ، وكانت أبرزها قوتان : الأموريون المتقدمون من سوريا الغربية ، والأموريون والسريريان الزاحفون من الشمال . أما العيلاميون فكان الطرفان يعتبرهما قوة انفصالية لا هم لها غير الاحتفاظ بنفوذ حكام المدن فيها وإطلاق العنان لابتزازهم . ولقد تمكن سومو أبوم من أن يبقى حاكما في بابل مدة 13 سنة ، جاعلا منها عاصمة له ، فكان بذلك أول ملوك السلالة الأمورية التي حكمت الدولة من بابل . وكانت بابل

حينذاك بلدة صغيرة لم تشتهر بعد ، وكان يقطنها بعض العموريين الغربيين وبقايا الأكاديين الذين فروا من العاصمة " أجادة " بعد تدميرها بالزلازل واجتياحها من قبل الغوتيين ، وكانت على مقربة منها .

ولقد حاول ايلوشوما* (لاحظ وحدة الأسماء) الزحف جنوبا فاصطدم مع سومو أبوم** في معركة غير فاصلة ، لكن هذا الأخير تمكن في إثرها من أن يضم إلى منطقة نفوذه كلا من مدينتي سيبار وكيش .

وهكذا تمركزت قوتان مؤهلتان لتوحيد جميع المناطق وتسلم قيادة الدولة هما القوتان المتمركزتان في بابل وآشور ، وقد انقسمت باقي المناطق في تأييدها ما بين هاتين المدينتين .

لقد تميز العرب السوريون الأموريون منذ القدم بحسهم الاستراتيجي المتفوق . فهم حينما تقدموا إلى بابل وسبقوا كل القوى المتنافسة الأخرى ، كانوا بذلك قد حسموا نصف المعركة لصالحهم وذلك نظرا لموقع بابل الاستراتيجي في منتصف الدولة وعند نقطة اقتراب نهري الدجلة والفرات من بعضهما بحيث يسهل قطع خطوط المواصلات ما بين أور وباقي المناطق . وقد تمكنوا من الدفاع عن وجودهم في بابل ببراعة فائقة لفترة طويلة درسوا خلالها كل أمور المنطقة وتناقضاتها عن كثب ، وجعلهم ذلك يتخذون قرارات سريعة صحيحة وحاسمة إزاء كل مسألة تبرز لهم . وقد بلغ عدد ملوك هذه السلالة أحد عشر ملكا ، حكموا جميعا زهاء ثلاثة قرون ، اشتهر من بينهم جميعا بسمعته العالمية المدوية الملك السادس الملقب بـ "حمورابي" والذي حكم لمدة 42 سنة .

* ايلوشوما يعني إيل السماء ، رب السماء أو الرب السامي ، العلي .
** سومو أبوم ومعناه العلي الأب .

الفصل الثامن

حمورابي المشرع والقائد العربي السوري العظيم

يقول ول ديورانت : " تطل علينا شخصية قوية هي شخصية حمورابي (2123 — 2081 ق.م) * الفاتح المشرع الذي دام حكمه ثلاثا وأربعين سنة . وتصوره الأختام والنقوش البدائية بعض التصوير ، فنستطيع في ضوءها أن نتخيله شابا يفيض حماسة وعبقريّة ، عاصفة هوجاء في الحرب ، يقلم أظافر الفتن ، ويقطع أوصال الأعداء ، ويسير في شعاب الجبال الوعرة ، ولا يخسر في حياته واقعة ، وحد الدويلات المتحاربة المنتشرة في الوادي الأدنى ، ونشر لواء السلام على ربوعها ، وأقام فيها منار الأمن والنظام بفضل سفر قوانينه التاريخي العظيم " (1) .

في غمرة الصراع الفاصل بين حياة الدولة العربية السورية المركزية ، أو انخراطها إلى الهياكل المقزّمة في الدويلات — المدن الاقطاعية الدينية المتخلفة ، دفعت حركة التطور التاريخية بقمة من قمم لحظات التحول النوعي ، عبر تراكم كمي استمر قرونا ، فكان القائد العربي السوري العملاق — حمورابي ** ، القائد الذي تمثل جيدا طبيعة الصراع وأبعاده ، وزودته الطبيعية بحس ستراتييجي متفوق ، وبمقدرة فائقة على السيطرة على الأحداث وإدارتها ، علاوة على ما كان يتمتع به من صفات فردية وخلقية نادرة ، فكان

* من الملاحظ أن ول ديورانت أعطى تاريخا لفترة حكم حمورابي تختلف عن غيره من المؤرخين. فقد اجمع كثير منهم على اعتبار فترة حكمه ما بين 1792 — 1750 ق.م أما الأستاذ أسد الأنشقر فقد قدم تاريخا آخر في كتابه " الخطوط الكبرى في تاريخ سوريا " واعتبرها ما بين 1728 — 1685 ق.م (الجزء الأول ، القسم الأول ، ص143) ، وقد مال معظم الباحثين اليوم إلى اعتماد 2081 — 2081 ق.م كفترة أقرب إلى الدقة .

(1) ول ديورانت ، " قصة الحضارة " الجزء 2 ، ص 189 — 190 .

** حمورابي ، أو أموري ، يعني أمورو هو الإله الآب . وهذا الإله (أحد الآباء العرب الأقدمين) كان يلفظ باللهجة الشرقية " آبا " وبالغربية " أبو " وبالغربية العرباء " آب " وقد ظل اسمه على أحد الأشهر (آب) في التقويم السوري القديم . وكان هو الرب المفضل لدى نآرام سين حفيد سرجون (انظر حول هذا الإله : الدكتور هشام الصفدي : تاريخ الشرق القديم ، الجزء 1 ، ص 199) .

بروزه على ساحة الأحداث انتصارا لا ريب فيه لقوى الثورة المتجددة الناهضة في بناء
الدولة القومية المركزية الواحدة .



حمورابي

إننا حينما نقول إن حمورابي جاء تنويجا للحظة تحول نوعي في حياة تطور الأمة والمجتمع أو تعبيرا عنها فإننا نقصد ما نقول ونعني جيدا ، إذ إن حمورابي لم يأت رقما في سلسلة ملوك تلك السلالة الأمورية الأولى التي حكمت من بابل ، رغم أنها كانت تضم عظماء لا جدال في حقيقة ذلك ، ولم يأت محاربا ليخوض مجموعة معارك وينتصر ، ولم يأت مشرعا ليضع مجموعة من النظم والقوانين يدير بموجبها شؤون دولته ، ولم يأت مصلحا اجتماعيا ، أو رجل دولة فحسب ، لقد جاء حمورابي ليمثل ذلك كله . لقد جاء تعبيرا حيا عن مسألة الصراع التاريخية التي ظل شعبه يخوض غمارها ببسالة منقطعة النظير أكثر من خمسمائة عام دون أن يترك رايتها تسقط ، أو يكف عن الصراع ضد الخصوم من أجل تحقيق انتصارها الحاسم . لقد جاء تعبيرا عن التوق التاريخي لدى شعبه إلى تحقيق دولته المركزية القومية بمضمونها التحرري على الصعيدين الاجتماعي — الاقتصادي في الداخل ، والسياسي والعسكري من الخارج . لقد جاء تعبيرا عن الرسالة التي برعمت في أعماق الزمن السحيق في ضمير شعبه الحضاري ، وأعطت أولى تباشيرها مع عهد سرجون ، واستمرت تدور في خلايا مواطنيه مع الدم وتقارع الخصوم زهاء خمسة قرون ونيف إلى أن أطل حمورابي شكلا جديدا ومتطورا من أشكال وجود تلك الأفكار ، ليجسدها مرة أخرى على أرض الواقع ، فتتغرس في الذاكرة ، وتتابع الأجيال ، فيما بعد ، حمل رايتها والدفاع عنها ، في سلسلة من عمليات النهوض والنكسات حتى عصرنا الحاضر .

لقد شن حمورابي منذ بداية حكمه حربا على مدن سومر وعيلام ، فضمها إلى مملكته وأسرع إلى إخضاع الدويلات المهمة الأخرى في أعلى النهرين ، ثم صعد إلى ماري فدخلها وألحقها بمملكته ، وتقدم شمالا على الفرات ، ثم إلى توتال ومرسين وتابع عملية ضم المدن ، ثم نزل إلى مملكة حلب القوية التي كانت تبسط سلطانها على المنطقة الشمالية الغربية من سوريا ، ولم يذكر أحد من المؤرخين أن حمورابي دخل أيا من حلب أو المدن السورية الغربية الأخرى فاتحا ، بل يكادون يجمعون على أن حمورابي ترك لدول المنطقة الغربية كامل حريتها واستقلالها النسبي مما يؤكد حسن العلاقات والتعاون معه

من أجل تنفيذ مخططه في إقامة الدولة القومية الواحدة منذ البداية ، كما دل على ذلك
تقديم تلك المدن جميع وسائل الدعم بالأموال والسلاح لحشود الأموريين الغربيين التي
زحفت شرقا من حلب وماري إلى بابل لتسلم زمام سلطة الدولة ودعمت السلالة التي
حكمت هناك والتي خرج من بينها حمورابي .
وتأكيدا لذلك يقول المؤرخ ج. كونتو " في رسالة من حلب يطلع حمورابي ملك ماري
على رغبة ملك أوغاريت بزيارة مدينته " (1)



رسالة كتبها حمورابي

(1) جورج كونتو ، " الحضارة الفينيقية " ص 55 .

حمورابي المصلح ورجل الدولة

لم يكد حمورابي يفرغ من توحيد كافة أجزاء وطنه ، وطرده الغزاة بعيدا خلف حدود بلاده ، حتى عكف على تثبيت أركان دولته من الداخل مستفيدا من كل التجارب السابقة التي مر بها أسلافه مؤسسو الدولة القومية الواحدة .

1 — فعلى الصعيد الديني ، تنبه حمورابي إلى الخطأ الذي وقع فيه سلفه سرجون حينما نقل العاصمة إلى " أجادة " وأبقى على السلطة الدينية المتحالفة مع الإقطاع الانفصالي الرجعي بكامل نفوذها واستطالاتها في نيبور . وليس هذا فحسب ، بل عزز لها مواقعها في الوقت الذي كانت قد عملت فيه على ترسيخ مفاهيم دينية غيبية لا تصلح لشيء إلا لتكريس استغلالها للجماهير وتسلطها عليها محدثة من الدين ومؤسساته التي استحدثت من قلب العمل التعاوني الجماعي المفعم بروح الوفاق والمحبة ، مؤسسات فتوية طبقية استغلالية جديدة ، تتحالف مع أعداء الشعب في الداخل والخارج على السواء من أجل ضمان مصالحها الأنانية الضيقة . وانتبه أيضا إلى أن هذا بالذات هو الذي كلف نارام سين تلك الجهود الحربية الكبيرة ، وجعله يقرر تدمير نيبور بما فيها الايقور (معبد إنليل) بعد أن حوله رجال الدين إلى بؤرة للتآمر والفساد وعرقلة التقدم .

ثم بعد أن اجتاحت الغزاة الغوتيون " أجادة " عاصمة الدولة الفتية وجد أقطاب الرجعية الدينية في ذلك متنفسا لهم من أجل إرجاع سطوتهم وهيبتهم مع هيئة إنليل الذي استطاعوا أن يحولوه من فلاح وسيد ومعلم لفنون الزراعة وجمع الغلال وتوزيعها على الناس حسب الحاجة ، إلى قوة غيبية لا تهتم إلا بمصالح الهيكل ورجاله وتأمين الإذعان التام لمشيئته ، ولا تتردد في أن تنزل أشد العقاب بالشعب كله إذا ما أساء إلى رجال الهيكل أو تصدى لنزواتهم الأنانية الجشعة . وهذا ما حدث بعد تدمير أجادة . لقد تكرر إعلام رجال الدين كله من أجل أن تنغرس في أذهان الناس فكرة انتقام إنليل من شعبه مستعينا بالغزاة من الخارج .

لقد بقيت محاولة سرجون فصل الدين عن الدولة من خلال نقل العاصمة من نيبور المدينة المقدسة إلى " أجادة " ناقصة ، علاوة على أن ذلك ، مع إبقائه على هيمنة رجال الدين ،

لم يفعل في الواقع أكثر من إفلات رجال الهيكل من تحت رقابته المباشرة . ولقد أخذ دورهم ودور إنليل بصورته المستحدثة الجديدة يتعاظم بالتوازي مع دور الملك ثم يطغى عليه . ولكون إنليل رب القوة ومنفذ قرارات مجمع الآلهة كان له صلاحية منح سلطته لأي حاكم زماني في أية مدينة يشاء من مدن سومر . وفي الأزمنة المتأخرة صار يعطى قوته لمدن بابل وآشور مما يزيد من نزعة ملوك تلك المدن المتمردة على السلطة المركزية . وبالرغم من أن جيوش الملك كان يمكنها أن تخضع البلاد بالقوة فقد كان على كل ملك أن يستجدي إنليل في نيبور ليمنحه القوة الإلهية كي يحكم ، وهذا يعني استجداء رضى رجال إنليل في الهيكل ولضرورة الحصول على تأييد مجمع نيبور فقد أصبحت المدينة مقدسة ، وإرادة رجال الدين مقدسة ، وهيبتهم التي يستجدي رضاها الملوك صارت طاغية ومهيمنة لا يجزؤ أحد من العامة على أن ينس حولها بشر ، أو يفكر في الخروج على طاعتها .

ومن أجل أن يسقط حمورابي هبة ونفوذ رجال الدين كان لابد من إسقاط هبة إنليل بشكله الغيبي المزور الجديد الذي جعلوا منه مظلة لحماية أطماعهم ونزواتهم، فألغى نيبور كمركز ديني مقدس للدولة ، وألغى معها وجود إنليل كله ، وجعل من مردوك الفلاح سيداً جديداً لجميع الأرباب، معيداً بذلك صورة الرب إنليل عند بداية عمله بالأرض مع الفلاحين ، وجعل مقره بابل العاصمة نفسها ، وليس أي مكان آخر ديني أو غير ديني . ووحد كل الشرائع في شريعة دينية واحدة لجميع المناطق ولكل المواطنين ، مغلقاً بذلك الأبواب أمام أية حركات استغلالية انفصالية أخرى من خلال رجال الدين ، وأسقط عن نيبور ذلك الوشاح المقدس الذي بذل رجال الهيكل جهوداً كبيرة في حياكته . وأصبحت بابل قبلة الناس جميعاً بمضمونها التقدمي الجديد دونما منازع ، وصار مردوك* الرب الكبير لكل السوريين .

* "مردوك" تعني : الرب أو السيد الحامي ، الرقيب ، الزعيم "إذمر" تعني السيد كما سبق أن أوضحنا . أما "دوق" فهو أحد الآباء الأموريين القدامى الذين تسمت باسمه كل من جبل "دكا" جنوب الطائف ، ووادي ذقية المنحدر من جبل كلب النعد ودكا إلى الشرق ، ووادي دوقا منه إلى الشمال غرب شبه جزيرة العرب ، في منطقة العماليق العموريين ووادي ضيقاً في منطقة الطائف . كما أن اللادقية هي " إيل (أو ألا) ذقيا " أي الربة الحامية (ذق) = دوق ، ومونثه

ولما كان بعض أسلافه ، خاصة شولجي وأورنامو ، قد أعطوا المدن والأقاليم المتطرفة نوعا من الاستقلال الذاتي مما عزز الشعور لديها بالانفصال الدائم ، وبتطوير أحوالها وعبادتها في اتجاهات مختلفة تزيد من الاختلافات والفوارق مع الزمن لتصبح قضايا وحواجز حقيقية مستعصية ، فقد تنبه حمورابي إلى خطورة مثل هذه السياسة في بلد يواجه من الأخطار المحدقة الدائمة ما يتطلب وضع جميع الأقاليم في قبضة الحاكم بالسرعة واللحظة التي يشاء . فكان لابد من صيغة أخرى أكثر تقدما وملاءمة . إنها صيغة تكفل العدالة والوحدة معا ، وهذا بالضبط هو مضمون الرسالة القومية للدولة الوحدة التي أرادها سرجون منذ البداية . وتجسيدا لهذه الفكرة فقد ضرب حمورابي نفوذ رجال الدين في كل المناطق وجعل مردوك الرب الأوحد . ولم يعد يسمح لحكام المقاطعات بإقامة المعابد لأرباب آخرين إلا إذا كانوا صيغة من صيغ مردوك . ثم إن مردوك يسلم سلطانه المطلق إلى الملك بدون وساطة أحد . فشرعية الملك ، إذن ، هي التعبير عن الشريعة الشاملة ، الكونية . والسلطة الملكية هي إلهية وخيرة في آن واحد ، لأن مردوك رب بابل نفسه كان في الأصل ربا زراعيا يعمل في الأرض ويعلم الإنسان أصول الزراعة وتقديس الفأس مثله مثل إنليل في بدايته .

وهكذا يكون حمورابي قد قطع الطريق على حكام الأقاليم بسلوك أية نزعة انفصالية دينية أو غير دينية ، لقد جعل كل شيء مركزيا .

2 — وبعد أن يؤسس حمورابي — على ما يبدو — من إمكانية تربية مناقبية حقيقية فعالة متحركة غير جامدة من خلال الدين ورجال الهيكل ، فقد عمد إلى وضع تشريع اجتماعي حقوقي منظم ، فبعث بذلك الحياة في تراث العدالة الذي يشكل جوهر المضمون القومي للدولة القومية الواحدة من الداخل .

يقول المؤرخ جاك بيران في هذا الصدد : " .. في هذا الوقت بالذات وضعت مسألة

ذقيا. وفي ذلك دليل على وحدة شعب سوريا من أقصى الشمال إلى أقصى الجنوب ومن أقصى الشرق إلى أقصى الغرب. و"دوق" تعني: الإمام، المقدام ، الباسل، الحارس ، الحامي ، الرقيب ، الأمير ، وقد ذهبت الكلمة غربا حتى وصلت إلى الجزر البريطانية مع التوسع البحري السوري ، حيث مازال لقب "دوق" مستخدما إلى يومنا هذا .

الخير والشر على بساط البحث عند اللاهوتيين ، ولكن محاولة إقامة مناقبية على أسس العاطفة الدينية بقيت بدون صدى ، واستمرت العبادة وسيلة لمرضاة الأرباب ، ولعرفة النواميس والقوانين التي تسيّر العالم . إن الشعور الصوفي المرتكز في مصر على المفاهيم الدينية ، يقابله في بابل ميل فطري إلى العلم والواقعية . فالسومريون والبابليون ، من بعدهم ، يفهمون الكون نتيجة لتطور المادة ، وليس الألوهية ، في الحقيقة ، سوى القوة المشرفة على هذا التطور ، أما الأرباب فهم ، مثل البشر ، يخضعون لنواميس الكون ⁽¹⁾ وهكذا يكرس حمورابي نفسه معلناً لحقوق الإنسان وحامياً لها في صورة إنسانية باهرة مازال لها مفعول السحر في رجال الحقوق في العالم حتى اليوم .

لقد ملأت فكرة العدالة وجدان حمورابي كما ملأت نفوس أسلافه أمثال لبث عشتار ، وأوركاجينا ، وسرجون ، ونارام سين ، وشولجي ، وجوديا وأورنامو وغيرهم . فهو لم تكذب تمضي سنتان على عهده في الحكم حتى كان " قد نضج في وجدانه وعقله مشروعه التشريعي الكبير . فجمع قوانين بلاده وأعرافها ، وأكملها ، ومثل رب شمس ، رب العدالة ، (الذي هو مردوك نفسه) ، ليتسلمها منه شريعة كاملة يحكم بموجب نصوصها . فكان عمله الأول أن أعلن على الشعب تلك الشريعة المقدسة عهداً جديداً ، وكان أن حفر موادها على مسلات في الساحات العامة ليقراها الشعب ، ويعرف واجباته وحقوقه " ⁽²⁾ وقد كشف قانون حمورابي في أنقاض مدينة السوس* في عام 1902 ، ووجد هذا القانون منقوشاً نقشاً جميلاً على اسطوانة من حجر الديوريت ، وهي اليوم في متحف اللوفر . ويرى الملك حمورابي على أحد أوجه الأسطوانة يتلقى القوانين من شمس نفسه ، وتقول مقدمة القوانين :

" ولما أن عهد آنو الأعلى ملك الأنوناكي ، وبل رب السماء والأرض الذي يقرر مصير العالم ، لما آنو عهد حكم بني الإنسان كلهم إلى مردوك .. ولما أن نطق باسم بابل

(1) جاك بيران ، " الخطوط الكبيرة في التاريخ العالمي " الجزء الأول ، ص 32 - 33 .
(2) أسد الأشقر ، " الخطوط الكبرى في تاريخ سوريا ونشوء العالم العربي " الجزء 1 ، القسم 1 ص 137 .

• في هذا تأكيد آخر على أن أقليم عيلام كان جزءاً لا ينفصل من الدولة العربية السورية منذ أن بدأت حركة التوحيد .

الأعلى ، وأذاعا شهرتها في جميع أنحاء العالم ، وأقاما في وسطه مملكة خالدة أبد الدهر ، قواعدهما ثابتة ثبوت السماء والأرض — في ذلك الوقت ناداني آنو وبل ، أنا حمورابي الأمير الأعلى ، عابد الآلهة ، لكي أنشر العدالة في العالم، وأقضي على الأشرار والآثمين ، وأنزع الأقوياء من أن يظلموا الضعفاء .. وأنشر النور في الأرض ، وأرعى مصالح الخلق ، أنا حمورابي ، أنا الذي اختاره بل حاكما ، والذي جاء بالخير والخصب ، والذي أتم كل شيء في نيبور ودور ايلو ، والذي وهب الحياة لمدينة أوروك ، والذي أمد سكانها بالماء الغزير .. والذي جعل مدينة بارسا* .. والذي خزن الحب لاوراش العظيم .. والذي أعان شعبه في وقت المحنة ، وأمن الناس على أملاكهم في بابل ، حاكم الشعب ، الخادم الذي تسر أعماله انونيت "

يقول ول ديورانت : " إن للألفاظ التي أثبتناها هنا في هذه العبارات بالذات نغمة حديثة .. وإن هذه القوانين البالغ عددها 285 قانونا ، والتي رتبت ترتيبا يكاد يكون هو الترتيب العلمي الحديث ، فقسمت إلى قوانين خاصة بالأملاك المنقولة ، وبالأملاك العقارية ، وبالتجارة ، والصناعة ، وبالأسرة ، وبالأضرار الجسيمة ، وبالعمل ، نقول إن هذه القوانين تكون في مجموعها شريعة أكثر رقيا وأكثر تمدنا من شريعة آشور التي وضعت بعد أكثر من ألف عام من ذلك الوقت ، وهي من وجوه عدة لا تقل رقيا عن شريعة أية دولة أوروبية حديثة ، وقل أن يجد الإنسان في تاريخ الشرائع كله ألفاظا أرق وأجمل من الألفاظ التي يختتم بها البابلي العظيم شريعته "(1) .

أما العبارات التي يختتم بها حمورابي شريعته فهي :

" إن الشرائع العادلة التي رفع منارها الملك الحكيم حمورابي ، والتي أقام بها في الأرض دعائم ثابتة وحكومة طاهرة صالحة .. أنا الحاكم الحفيظ الأمين عليها ، في قلبي حملت أهل أرض سومر وأكاد .. وبحكمتي قيدتهم ، حتى لا يظلم الأقوياء الضعفاء ، وحتى ينال العدالة اليتيم والأرملة .. فليأت أي إنسان مظلوم له قضية أمام صورتي أنا ملك

* اكتشفت مؤخرا على الضفة اليسرى لنهر الفرات في القطر العربي السوري .
(1) ول ديورانت ، " قصة الحضارة " الجزء 2 ، ص 190 — 191 .

العدالة ، ليقرأ النقش الذي على أثري ، وليلق باله إلى كلماتي الخطيرة ! ولعل أثري هذا يكون هاديا له في قضيته ، ولعله يفهم منه حالته ! ولعله يريح قلبه (فينادي) : "حقا إن حمورابي حاكم كالوالد الحق لشعبه .. لقد جاء بالرخاء إلى شعبه مدى الدهر كله ، وأقام في الأرض حكومة طاهرة صالحة .

ولعل الملك الذي يكون في الأرض فيما بعد وفي المستقبل يرعى ألفاظ العدالة التي نقشتها على أثري !"

فعلى صعيد القضاء ألغى حمورابي جميع المحاكم الدينية في المدن، وجرّد السلطات الدينية، بالتالي ، من آخر نفوذ لها ، وأقام محاكم ملكية يقوم بالوظيفة فيها موظفون رسميون يصدرّون أحكامهم باسم الملك وليس باسم الآلهة ، مما جعل الملك قادرا على التدخل والإشراف من أجل تنفيذ شريعته وقوانينه بالصورة العادلة التي اختارها لشعبه . والقضاة الذين كانوا فيما مضى يستبدون بسلطانهم وأحكامهم دون خوف من رقيب ، إذ إن الآلهة التي يحكمون باسمها لم تكن لتتدخل صاروا الآن تحت رقابة الملك الشخصية الذي هو بمثابة القاضي الأعلى القادر على أن يأمر بتحويل جميع القضايا والمظالم إليه شخصيا لينظر فيها ، ويعيد الحق إلى نصابه ويعاقب كل من أساء استخدام سلطته ، وقد جعل من حق المتقاضين أن يطلبوا رفع قضيتهم إلى الملك مباشرة إذا ما شعروا بعدم توفر الشروط الملائمة لإنصافهم .

لقد أدى ذلك كله إلى نتائج ثورية أساسية في المجتمع العربي السوري آنذاك :

1— إن هذا قوى من شعور المواطنين بوحدهم جميعا ، إذ يشملهم قانون واحد ، ونظام مركزي واحد ، وسلطة واحدة هي سلطة الملك .

2 — لقد عزز السهر على العدل والإنصاف من شعور المواطنين بمواطنيتهم ومن عمق انتسابهم للنظام الجديد ، وللدولة المركزية الواحدة .

وشعورا من حمورابي بأهمية هذا الجانب فقد زاد من تعزيز شعور المواطن بحريته ، وبأمنه ، وطمأنينته على حياته وحقوقه ، وعلى ممتلكاته . فقد صار محافظ المدينة المعين من قبل الملك مباشرة هو الذي يسهر بنفسه على تطبيق شريعة حمورابي وعلى الأمن

والنظام وحقوق المواطنين . وإذا ما أفلت المجرمون من أيدي العدالة يحق للمواطنين المتضررين رفع قضاياهم على السلطات المسؤولة وتحصيل حقوقهم منها مباشرة . وحول هذه النقطة يقول جاك بيران : "لقد اتسعت في عهده (جورجي) فكرة المسؤولية حتى شملت مبدأ حق التعويض عن كل عطل وضرر ، فهي تلزم السلطات العامة نفسها بالتعويض عن أي عمل جنائي لم تقدر أن تمنعه ونقمعه " (1)



جورجي يتسلم الشريعة من الرب شمش

(1) جاك بيران ، "الخطوط الكبيرة في التاريخ العالمي" الجزء 1 ، ص 34 .

إن هذا بالذات هو ما تطمح إليه اليوم أكثر الدول تطوراً في هذا العقد الأخير من القرن العشرين بعد ميلاد المسيح ، وتعجز عن تحقيقه .

إن في ذلك عينه يكمن السر في جاذبية ومناقبية الإنسان العربي منذ أقدم العصور . لقد كان من شأن مثل هذه الشريعة والسهر على تطبيقها أن تجعل المواطنين جميعاً يشعرون وكأنهم جزء من النظام ، وأن النظام ليس إلا دورهم الحياتية التي يموتون بموتها . فيجعلهم يتمسكون به ويستمتعون في الدفاع عنه أمام كل الأخطار الداخلية والخارجية على السواء . إن ذلك تحديداً هو ما جعل كل تلك السلطة الهائلة الطاغية لإنليل ولرجال معابده تسقط دفعة واحدة دون أن تحدث أي صدى بين المواطنين بعد أن نجح رجال الهيكل في تزويره وتشويه صورته ، من جهة ، كما جعل الشعب السوري منذ أقدم العصور يؤمن بصورة شبه مطلقة بقدرة الإنسان الفرد على الفعل في التاريخ بعيداً عن كل تلك الصور الشوهاء التي فرضت على تاريخه . إن ذلك كان نتيجة لذلك العدد غير اليسير من القادة الأفذاذ الذين دخلوا العملية التاريخية من مداخل الشعوب الحضارية والإنسانية ، فتمثلوا بصورة صحيحة حاجات تطور مجتمعاتهم ، وعملوا بكل تفران وإخلاص من أجل تحقيق ذلك التطور بما ينسجم ومضمون التقدم البشري ككل ، فتحولوا بذلك إلى جزء من الشعب والوطن والتاريخ في عملية جدلية تبادلية تقدمية صحيحة ، تركت آثارها عميقة على خط سير الإنسانية في سيرها الحثيث الطويل .

3 — أما النقطة الثالثة ، فقد ربطت في ذهن المواطن فكرة قيام الدولة العربية السورية القومية الواحدة بمفهوم العدالة للجميع . إن أول دولة قومية في التاريخ كانت هي الدولة العربية السورية ، وكان أول تجسيد لعملية الدمج بين البناء القومي الوحدوي ولفكر العدالة والإنسانية والإخاء ونبد التعصب هو في مضمون تلك الدولة . إن ذلك كان يعكس ، لاشك ، مناقبية الإنسان العربي السوري ، وتفوقه في ميدان الرقي الحضاري والإنساني ، وإن ذلك بالذات هو ما صار في أساس كل الدعوات العربية التحريرية فيما بعد .

أما على الصعيد الاقتصادي فقد كسر حمورابي جميع الدوائر المغلقة على الشعب ، ودفعه إلى الخروج من سجنونه المتنوعة . عبودية الأملاك الأميرية والإقطاعية والكهنوتية ألغيت ، والفلاح حر نهائيا ، وأصبح قادرا على أن يترك الأرض التي ألصق بها مرغما مئات السنين ، وحر في أن يمتلك ما يريد . وبما أن حالته المادية والنفسية كانت تمنعه من ممارسة حقه بالمساواة مع الأحرار ، فقد كانت له في القوانين الجديدة امتيازات تشجعه على الوصول ماديًا ونفسيًا إلى مستوى الأحرار ، فهي تخوله أن يتزوج بدون أن يدفع مهرًا ، وأن يدفع نصف أتعاب الأطباء والمهندسين والأطباء البيطريين وغيرهم من أصحاب المهن الحرة .

" وهذا الوضع الاجتماعي الجديد يؤدي حتما إلى انتقال الملكيات الخاصة وتحرك الثروة الحرة ، وإلى نشوء رأسمالية ، كانت في ذلك الزمان مرحلة تقدمية جديدة . فالرأسمالية تستهدف الإنتاج ، وهي تتضمن رغبة في استثمار مكثف للأراضي ، وتختلف كليًا عن النظام الإقطاعي السابق الذي لم يكن يطمح إلا إلى اكتفاء شاغليها " .

" هذا الأسلوب الجديد في تثمير جميع المشاريع الزراعية والصناعية والتجارية حرك نشاط الشعب وطاقته الإنتاجية كما حرك الثروة التي يملك ، فكان نمو اقتصادي ورفاهية لم يسبق لهما مثيل في حياة الشعب .

" إن الثروة الشخصية التي نمت في يد الأفراد شجعتهم على استكمال تحررهم ماديًا ونفسيًا وعلى ممارسة حقوقهم الكاملة التي يعطيهم إياها القانون ، وعلى الشعور بواجباتهم نحو الدولة التي أوصلتهم إلى هذا المستوى من الحرية والمساواة والعدالة .

" ولم تكن الدولة نفسها غريبة عن الحركة الاقتصادية الجديدة ، بل كانت تستغل لحسابها مشاريع تجارية كبرى ، فالأمن المخيم في جميع أنحاء البلاد حرك التجارة العالمية من جديد ، وكان في ذلك موارد للثروة لا تحد .

إن مشاريع الدولة التجارية كانت ذات غايتين : الواحدة سياسية والأخرى اقتصادية . لقد رأى حمورابي بنظره البعيد أن كل ثروة ضخمة ستصبح في أيدي التجار والرأسماليين إذا ما ترك هذا المجال العالمي لهم وحدهم ، وقد تؤدي إلى نشوء خطر على الدولة .

فأراد أن يجنب الشعب ، بعد أن أنقذه من يد الإقطاعيين والأمراء والكهنة ، الوقوع في يد الأوليغارشيين الذين كانوا يحكمون بنفوذهم المدن السومرية " (1)

لذلك " سعى الملك للحد من قوة التجار والرأسماليين الاقتصادية بممارسة نوع من اشتراكية الدولة ، لم تلغ التجارة الخاصة ولكنها خضعت لرخص خاصة تسمح بالملاحة في مياه دجلة والفرات ، ولضرائب ملكية " (2)

لقد تجلّت في ذلك كله عبقرية حمورابي الاستراتيجية ، ليس في المجال السياسي والعسكري فحسب ، بل وفي المجالين الاقتصادي والاجتماعي أيضا . إنه لم يرفع مجالات التطور إلى مرحلة جديدة متقدمة هي مرحلة التطور الرأسمالي وثورته الإنتاجية فحسب ، بل وسبق هذه المرحلة بعبقرية مذهلة في تصوره لكل النتائج التي سوف تفضي إليها بعد مرحلة من الزمن . فبرز بذلك حمورابي الفيلسوف والمفكر ، والمتنبئ السياسي والاقتصادي ، والعالم بقوانين تطور المجتمعات والاقتصاد . لذلك فإن هذا القائد المفكر الفيلسوف ، المشرع ، المحارب العظيم ، لم يكن لتقعده الإنجازات الباهرة التي حققها لشعبه منذ بدايات حكمه ، ليركن إلى فترة من الحكم مجيدة ثم ليرك كل شيء لمن سيخلفه ، غير عابئ بكل تلك الصراعات التي يمكن أن تفجرها حقائق التطور الجديدة على الساحتين الاقتصادية والاجتماعية معا . فعمد إلى وضع الحلول بنفسه لكل ما يمكن أن ينجم في مجتمعه من أزمات ، وأسرع إلى وضعها موضع التطبيق غير متكل على ما قد تأتي به الصدفة ، وغير قانع بأن يترك مجتمعه من بعده رهينة بيد التيارات التي سوف يولدها واقع التطور الجديد . لذلك — وكما يقول جاك بيران — فقد بادر بنفسه مبكرا إلى " الحد من قوة التجار والرأسماليين الاقتصادية بممارسة نوع من اشتراكية الدولة " هذا الاتجاه في الاقتصاد الذي لم تعرفه البشرية إلا بعد مرور ما يقرب من أربعة آلاف عام .

ويقول جاك بيران : " لقد اتسعت في عهده فكرة المسؤولية حتى شملت مبدأ حق

(1) أسد الشقر ، " الخطوط الكبرى في تاريخ سوريا ونشوء العالم العربي " الجزء 1 ، القسم 1 ص 140 — 141 .

(2) جاك بيران : " حضارات قديمة " ص 119 .

التعويض عن كل عطل وضرر ، فهي تلزم السلطات العامة نفسها بالتعويض عن أي عمل جنائي لم تقدر أن تمنعه أو تقمعه ، هذا التشريع الذي حرك المعاملات العقارية ، وسهلها ، شجع على التجارة ، ورافقته تدابير اجتماعية معينة ، فعقد العمل أصبح خاضعا للقانون الذي يحدد المسؤولية المتبادلة بين الموظف والموظف ، وقد لحظ حدا أدنى للمرتبات في جميع الحرف ، وفرض على جميع المقاولين الصناعيين والزراعيين أن يعطّلوا موظفيهم ، شهريا ، عطلة ثلاثة أيام مدفوعة الأجور أما شؤون التدريب على المهن واستئجار السفن وأتاعب الأطباء والمهندسين ، فقد نظمت قانونيا بموجب قانون جزائي مدهش بالنسبة لقدمه ولما فيه من كمال المبادئ القانونية التي كان يستهدف حمايتها .

" وأخيرا أرغم الملك المعابد ، التي كانت تستغل ثرواتها الطائلة بالأعمال المصرفية ، على أن تقدم قروضا مجانية للمدينين العاجزين عن الدفع لتمكينهم من تجنب العبودية بسبب ديونهم ، وللمرضى الذين تعفى عيالهم من الدفع في حالة الوفاة .

" كان هذا الإنجاز القانوني مساهمة بابل العظيمة في الحضارة الإنسانية . وقد استمر هذا الإنجاز بعد خرابها ، وبقي أساسا لكل تطور في القانون التجاري حتى الإمبراطورية الرومانية " (1)

لقد ألغى حمورابي نظام العبودية في مناطق أملاك الملك والهيكل ، وأقام مكانها نظام تأجير الأرض للرأسماليين وتمليكها للفلاحين والمزارعين الصغار ، وحول قوة الأوقاف المالية والمصرفية لصالح الفقراء والمعوزين من أبناء الشعب .

في ظل ذلك النظام المتطور دائما عن الأساس الذي أرساه سرجون في التراب العربي السوري ، وجدت كل أنواع العلوم وفروع الاقتصاد مجالاتها الحقيقية من أجل أن تنشأ وتنمو وتزدهر وتثمر . إن حمورابي لم يكتف بذلك التشريع الجامع الذي لم يكن إلا عملا واحدا من أعماله الكبيرة . فقد حفر القنوات من أجل الري ، وأنشأ السدود التي تحمي المدن الجنوبية من أخطار الفيضانات ، " ولقد وصل إلينا من عهده نقش آخر يفخر بأنه أجرى في البلاد الماء (تلك المادة القيمة التي لا نقدرها اليوم ، والتي كانت

(1) جاك بيران " الخطوط الكبيرة في التاريخ العالمي " الجزء 1 ، ص 34 .

في الأيام الماضية إحدى مواد الترف) ، ونشر الأمن ، والحكم الصالح في ربوع البلاد . وإنا لنستمع من ثنايا هذا النقش ، ومن بين عبارات الفخر (وهو خلة شريفة من خلال الشرقيين) صوت الحاكم الماهر والسياسي القدير . وبلغ من حذق حمورابي أن خلع على سُلطانه خلعة من رضاء الآلهة بالرغم من أن قوانينه كانت تمتاز بصبغتها الدينية غير الدينية ، ومن ذلك أنه شاد المعابد كما شاد القلاع ، واسترضى الكهنة بأن أقام لمردوك وزوجته (ربي البلد القوميين) في مدينة بابل هيكلًا ضخماً وفخرياً واسعاً ليخزن فيه القمح للإلهين وللكهنة . وكانت هاتان الهديتان وأمثالهما في واقع الأمر بمثابة مال يستثمر أربح استثمار ، جنى منه ربحاً وفيراً هو الطاعة الممتزجة بالرهبة التي يقدمها لرب الشعب . واستخدم ما تبقى بعد ذلك في تجميل عاصمة ملكه ، فأُنشئت القصور والهياكل في جميع نواحيها ، وأقيم جسر على نهر الفرات حتى تمتد المدينة على كلتا ضفتيه ، وأخذت السفن التي لا يقل بحارتها عن تسعين رجلاً تمخر عباب النهر صاعدة فيه ونازلة ، وأضحت بابل قبل ميلاد المسيح بألفي عام من أغنى البلاد التي شهدتها تاريخ العالم قديمه وحديثه ⁽¹⁾

وحول هذه المرحلة التي بلغتها بابل في زمن حمورابي يقول كريستوفر دوس في كتابه "بحوث في الدين والحضارة" : "لقد وصلت بابل من حيث المقومات الأساسية للحضارة في عصر حمورابي ، بل فيما قبله أيضاً ، إلى درجة من الحضارة المادية لم يصل إليها غيرها من مدن آسيا إلى وقتنا هذا" ⁽²⁾

" وما من أحد ينظر الآن إلى موقع مدينة بابل القديمة ثم يخطر بباله أن هذه البطاح الموحشة ذات الحر اللاfach الممتدة على نهر الفرات كانت من قبل موطن حضارة غنية قوية كادت تكون هي الخالقة لعلم الفلك ، وكان لها فضل كبير في تقدم الطب ، وأنشأت علم اللغة ، وأعدت أول كتب القانون الكبرى ، وعلمت اليونان مبادئ الحساب ، وعلم الطبيعة والفلسفة ، وأمدت اليهود بالأساطير القديمة التي أورثوها

(1) ول ديورانت ، "قصة الحضارة" الجزء الثاني ص 193 .

(2) كريستوفر دوسن "بحوث في الدين والحضارة" الطبعة الأمريكية، نيويورك، 1933، ص 107

العالم ، ونقلت إلى العرب بعض المعارف العلمية والمعمارية التي أيقظوها بها روح أوروبا من سباتها في العصر الوسيط . وإذا ما وقف الإنسان أمام دجلة والفرات الساكنين فإنه يتعذر عليه أن يعتقد أنهما النهران اللذان روى سومر وأكاد وغديا حدائق بابل المعلقة .. لكن بابل قد أضحت بفضل مياه النهرين الغزيرة وكد الأهلين أجيالا طوالا جنة الساميين وحديقة بلاد آسيا " (1)

ويقول في مكان آخر : " إن قصتنا تبدأ بالشرق ، لا لأن آسيا كانت مسرحا لأقدم مدينة معروفة لنا فحسب ، بل كذلك لأن تلك المدن كانت البطانة والأساس للثقافة اليونانية والرومانية التي ظن " سير هنري مين " خطأ أنها المصدر الوحيد الذي استقى منه العقل الحديث (2) .. وفي هذه اللحظة التاريخية ، حيث تسرع السيادة الأوربية نحو الانهيار ، وحيث تنتعش آسيا مما يبعث فيها الحياة ، وحيث الاتجاه كله في القرن العشرين يبدو كأنما هو صراع شامل بين الشرق والغرب ، في هذه اللحظة نرى أن التعصب الإقليمي الذي ساد كتاباتنا التقليدية للتاريخ ، التي تبدأ رواية التاريخ من اليونان وتلخص آسيا كلها في سطر واحد ، لم يعد مجرد غلطة علمية ، بل ربما كان إخفاقا ذريعا في تصوير الواقع ، ونقصا فاضحا في ذكائنا . إن المستقبل يولي وجهة شطر الشرق ، فلا بد للعقل أن يتابع خطاه هناك . لكن كيف يتاح لعقل غربي أن يفهم الشرق ؟ إن ثمانية أعوام قضيتها في الدراسة والسفر لم يكن من شأنها سوى أن توضح لي هذه الحقيقة أيضا ، وهي أن العمر بأسره يخصص للبحث العلمي ، لن يكفي طالبا غريبا ليدمج نفسه في روح الشرق الدقيقة اللمحات وفي تراثه الغامض .

" .. وفي تلك البلاد (سومر ، وأكاد ، وبابل) — على قدر ما آل إليه علمنا في الوقت الحاضر — نجد أول ما أسسه الإنسان من دول وإمبراطوريات ، وأول نظم الري ، وأول استخدام للذهب والفضة في تقويم السلع ، وأول العقود التجارية ، وأول نظام للائتمان ، وأول كتب القوانين ، وأول استخدام للكتابة في نطاق واسع ، وأول قصص الخلق

(1) ول ديورانت " قصة الحضارة " الجزء 2 ، ص 188 .

(2) المصدر نفسه ، الجزء الأول ، / ط .

والطوفان ، وأول المدارس والمكتبات ، وأول الأدب والشعر ، وأول أصباغ التجميل والحلي ، وأول النحت والنقش البارز ، وأول القصور والهياكل ، وأول استعمال للمعادن في الترصيع والتزين ، وهنا نجد في البناء أول العقود والأقواس ، وأول القباب ، وهنا كذلك تظهر لأول مرة في التاريخ المعروف بعض مساوئ الحضارة في نطاق واسع: لقد كانت الحياة في تلك البلاد متنوعة ، مهذبة ، موفورة النعم معقدة ، وهنا بدأت الفوارق الطبقيّة بين الناس تنتج حياة جديدة من الدعة والنعيم للأقوياء ، وحياة من الكدح والعمل المتواصل لسائر الناس . وفي تلك البلاد كانت بداية ما نشأ في تاريخ العالم من تنوعات يخططها الحصر " (1).

إن مثل هذا القول يسقط كل أولئك " المؤرخين العرج " من أبناء الأمة العربية الذين يأخذون من العلم بعض قشوره ، ويلتحفون " بالموضوعية " الساترة لعقد النقص حينما يتحدثون بتلك الروح التقليدية الاستعمارية المتعصبة ذاتها نقلا عن أساتذتهم في الغرب ، الروح التي جعلت ول ديورانت يشعر بالذنب وبالتقزم نتيجة لما سببته من أخطاء فادحة في حق العلم وأجحفت في حق التاريخ العربي .

إن الكشف عن حقائق التاريخ والتمسك بها ليس تعصبا كما يطيب لأولئك أن يرددوا على مسمع كل من يحاول ذلك عن قناعة وإخلاص . إن التشبث بالحقيقة والكشف عنها هو العلم وهو الموضوعية ، وإن التشبث بما قرره الآخرون على أرضية من العداء السافر هو الجهل والتعصب معا .

وإننا بعد ذلك كله ، لن نجد ما يستحق أن نتوقف قليلا أو كثيرا عند ما يقرره الأستاذ هاري ولفسن في جامعة هارفارد الذي " زور " في كتاب ديورانت كل ما يتعلق بتاريخ المنطقة من جهة النظر الصهيونية البحتة تحت ستار " تصحيح بعض أخطاء الجزء الخاص بالدولة اليهودية " . وكم سوف يبدو قميئا مثل هذا التعصب ، والبعد عن أية روح علمية تليق بأي باحث عادي ، الذي تعج به " تصحيحات " كهذه : " .. ولكن الدهر لا يحتفظ بأسماء هذه الشعوب لما قامت به هي نفسها من الأعمال الجليلة بقدر ما يحتفظ

بها لأن أصحابها مثلوا دورا على مسرح فلسطين الفاجع . وعلينا الآن أن ندرس شعبا آخر بتفصيل أوفى وأدق من دراستنا لجيرانه ، ونعني به اليهود . وهم قوم إذا نظرنا إلى قلة عددهم وضيق بلادهم لا نكاد نراهم جديرين بهذه الدراسة ، ولكنهم أورثوا العالم أدبا من أعظم آدابه ، ودينين من أقوى أديانه ، وعددا عظيما من أذكي رجاله وأعمقهم تفكيراً " (1)

ماذا يمكن أن نعلق على مثل هذا القول الذي يقحم في ذروة انتشاء ول ديورانت وهو يتحدث عن فضل الشعب العربي السوري (ولو تحت أسماء أخرى) على الإنسانية بأكثر من أن نستمر مع ديورانت في بعض حديثه : " ... وقد استطاعوا منذ عام 2000 ق.م ، أن يسجلوا بالدقة شروق الزهرة وغروبها بالنسبة إلى الشمس ، وحددوا مواضع النجوم ، وأخذوا يصورون السماء على مهل ، فلما فتح الكاشيون بلاد بابل توقف هذا التقدم نحو ألف عام ثم واصلوه من جديد في عهد نبوخذ نصر ، فصور العلماء مسارات الشمس والقمر ، ولاحظوا اقترانهما ، كما لاحظوا الخسوف والكسوف وعينوا مسارات الكواكب ، وكانوا أول من ميز النجوم الثابتة من الكواكب السيارة تمييزا دقيقا . وحددوا تاريخ الانقلابين الشتائي والصيفي ، وتاريخي الاعتدالين الربيعي والخريفي ، وساروا على نهج السومريين قبلهم ، فقسموا دائرة فلك البروج (أي مسار الأرض حول الشمس) إلى الأبراج الاثني عشر . وبعد أن قسموا الدائرة إلى 360 درجة عادوا فقسموا الدرجة إلى ستين دقيقة والدقيقة إلى ستين ثانية ، وكانوا يقدرون الزمن بالساعة المائئة والمزولة. وأكبر الظن أنهم لم يعملوا على ترقية هاتين الآلتين فحسب ، بل اخترعهوهما اختراعا . وقسموا السنة إلى اثني عشر شهرا قمريا ، منها ستة في كل منها ثلاثون يوما ، والستة الأخرى في كل منها تسعة وعشرون يوما . ولما كان مجموع أيامها على هذا الحساب لا يبلغ سوى 354 يوما فإنهم كانوا يضيفون في بعض السنين شهرا آخر لكي يتفق تقويمهم مع الفصول . وقسموا الشهر إلى أربعة أسابيع ، تتفق مع أوجه القمر الأربعة ، وحاولوا أن يتخذوا لهم تقويما أسهل من هذا بأن قسموا الشهر إلى

(1) المصدر السابق ، ص 320 .

سته أسابيع كل منها خمسة أيام ، ولكن ثبت بعدئذ أن أوجه القمر أقوى أثرا من رغبات الناس ، وبقي التقسيم الأول كما كان .. ولم يكونوا يحسبون اليوم من منتصف الليلة إلى الليلة التي تليها ، بل كان عندهم من شروق القمر إلى شروقه التالي ، وقسموا هذه المدة إلى اثني عشرة ساعة ، في كل منها ثلاثون دقيقة . إذن فتقسيم الشهر عندنا إلى أربعة أسابيع ، وتقسيم أوجه ساعاتنا إلى اثني عشرة ساعة (لا إلى أربع وعشرين) وتقسيم الساعة إلى ستين دقيقة ، والدقيقة إلى ستين ثانية ، كل هذه آثار بابلية لا شك فيها باقية من أيامهم إلى عهدنا الحاضر وإن كان لا يخطر لنا على بال " (1)

وانتقل البابليون من رسم السماء إلى رسم الأرض ، وأقدم ما نعرف من الخرائط هي التي خطط فيها البابليون طرق إمبراطورية نبوخذ نصر ومدنها . ولقد عثر المتقبن في خرائب جاسور (التي تبعد عن بابل مائتي ميل شمالا على لوح من الطين يرجع إلى عام 1600 ق.م ، ويحتوي ، في مساحة لا تكاد تبلغ بوصة واحدة ، على خريطة لمقاطعة وادي أزل (قد تكون منطقة صنعاء القديمة) وقد مثلت فيها الجبال بخطوط دائرية ، والمياه بخطوط مائلة ، والأشجار بخطوط متوازية ، وكتبت عليها أسماء عدد من المدن ، وبين في هامشها اتجاه للشمال والجنوب . أو ليست هي الخطوط نفسها المتبعة اليوم في رسم الخرائط ؟

" إن بابل هي التي أنشأت ذلك القصص الساحر الجميل الذي أصبح بفضل براعة اليهود الأدبية الفنية جزءا لا يتجزأ من قصص أوروبا الديني . ومن بابل لا من مصر جاء اليونان الجوالون إلى دويلات مدتهم بالقواعد الأساسية لعلوم الرياضيات ، والفلك ، والطب ، والنحو ، وفقه اللغة ، وعلم الآثار ، والتاريخ ، والفلسفة ، ومن دويلات المدن اليونانية انتقلت هذه العلوم إلى روما ، ومنها إلى الأوروبيين والأمريكيين ، وليست الأسماء التي وضعها اليونان للمعادن ، وأبراج النجوم ، والموازين ، والمقاييس ، والآلات الموسيقية ، ولكثير من العقاقير ، ليست هذه كلها إلا تراجم لأسمائها البابلية ، بل إنها ، وفي بعض الأحيان ، لا تعدو أن تكون بديلا لحروفها من الأحرف البابلية إلى اليونانية " (2)

(1) ول ديورانت ، قصة الحضارة ، الجزء 2 ، ص 250 - 251 .

(2) المصدر السابق ، ص 262 .

الفصل التاسع

الدولة العربية السورية بعد حمورابي

الوضع العام في سوريا

مات حمورابي حوالي عام 2000 ق.م تاركا وراءه دولة مترامية ، جمعت كل مناطق الوطن العربي السوري الممتدة من شواطئ الخليج العربي إلى آسيا (قبرص) في البحر المتوسط ، ومن شمال المضائق وشواطئ البحر الأسود إلى جبال السراة وسواحل البحر الأحمر وبحر العرب ، تسودها علاقات سياسية واجتماعية واقتصادية جديدة ، تنظمها مجموعة من القوانين الحضارية المتقدمة ، ويسهر على حماية النظام والأمن فيها جيش فيقي قوي ، تسيطر على جميع خطوط التجارة الدولية القادمة من الصين (طريق الحرير) ، أو الأناضول (طريق الفضة) ، أو عقدة الخطوط والقوافل البرية و البحرية الدولية على الساحل الشرقي للبحر الأحمر ، حيث تمر وتلتقي كل طرق العاج والأبنوس ، والصندل ، والمر ، والبخور ، والتوابل ، والعطور ، والنحاس ، والذهب وجلود الحيوانات وغيرها ، كما تؤمن لها موانئها السورية الغربية الشهيرة على ساحل المتوسط السيطرة التجارية على حوض المتوسط كله ، فتجعل أكوام السلع ، والمعادن ، الواردة من كل الأنحاء تتراكم في أطراف الدولة ، مما جعل التجارة والصناعة الحرفية وحركة رؤوس الأموال تشهد نشاطا فريدا لا مثيل له ، في جو من الأمن المخيم على كل الأنحاء ، نتيجة لهيبة سلطة الدولة وقوتها . إن هذا كله جعل البلاد تدخل في مرحلة من الوفرة والتنعيم والرخاء لم تعرفها من قبل . "وزادت الثروة ، فأنتجت في بابل ما تنتجه في سائر العالم . وكان على الحدود الشرقية لهذه الدولة الجديدة قبيلة قوية من أهل الجبال هي قبيلة الكاشيين تحسد البابليين على ما أوتوا من ثروة ونعيم"⁽¹⁾.

(1) ول ديورانت ، " قصة الحضارة " الجزء 2 ، ص 194 .

وفي الجنوب ، وخلف الضفاف الشرقية للخليج العربي ، كان أقوام من الرعاية الهائمين يتحينون الفرص للتسلل إلى أراضي سومر وعيلام من الجنوب .

أما مدن سومر وعيلام ذاتها ، فكانت قد عقدت كل علاقاتها بالدولة الجديدة أعمال التمرد الكثيرة ، ومحاولات الانفصال والعودة إلى أحضان المدينة — الدولة الإقطاعية القديمة . لقد ظلت تلك الأسر الإقطاعية — الدينية تتمتع بنفوذ ظاهر ، وتعمل دائما على تقويته ، مستفيدة ، في كل مرة ، من حالات الضعف الطارئة التي قد تلتم بالدولة المركزية ، أو من حالات الغزو الخارجي . إن هذا خلق تناقضا حقيقيا في الدولة السورية الناهضة ما لبث أن أخذ يتمثل ، بعد الصدمات الدموية العنيفة ، في حقد شرس لا هوادة فيه ، كما صار يكتسب تدريجيا طابع الصراع المصيري بين اتجاهين : اتجاه الدولة القومية الرأسمالية المركزية الواحدة من جهة ، والدويلات — المدن الإقطاعية الدينية ، من جهة أخرى .

أما في المنطقة الوسطى والغربية التي تمتد من ماري ، وإيمار ، إلى حلب ، وإيلا ، وحماة ، وحمص ، ودمشق ، إلى أوغاريت ، وجبيل ، وصيدا وصور ، فقد كان الوضع مختلفا تماما .

لقد تميزت هذه المنطقة — على عكس ما يصوره لنا المؤرخون — بالاستقرار الدائم ، مما وطد الاعتقاد بمساهمتها الحقيقية والفاعلة في قيام الدولة القومية وتعظيمها بالمال والسلاح ، لقاء امتيازات يهبها قادة هذه الدولة لتلك المدن ، ولاسيما الغربية الساحلية منها ، فتضمن لها كثيرا من صيغ الحكم الذاتي ، وحرية التصرف ، عملا على إنجاز المهام الاستراتيجية الكبرى المتمثلة في الهيمنة التجارية على شواطئ المتوسط ، وجعله بحرا عربيا سوريا قولا وفعلا . وإذا كانت المكتشفات الآثارية لهذه المنطقة ما تزال في بداياتها الأولى ، إلا إن وحدة السكان العرب الأموريين في هذه الفترة بالذات أخذت تطل علينا من بدايات الدراسات الأولى لمكتشفات إيلا . ولقد أوضحت تلك المكتشفات أن إيلا كانت تعيش فترة ازدهار حقيقية هي فترة عطاءات دولة حمورابي ، وأنه لم يكن ثمة

تناقض بين السكان ، وتقاليدهم ، ونظمهم ، ولغتهم ، وعاداتهم ، وأهنتهم ، بل إن كل شيء كان يدل على متانة العلاقات ، واتساع الشعور بالوحدة في كل شيء .

لقد جاء في وثائق إيبلا التي صدرت تحت اسم "إيبلا — عبلا" على أيدي مجموعة من البحاثة الآثاريين الذين اكتشفوا إيبلا ، إن حضارة إيبلا "تراءت — دون حق — لأناس كثيرين من الوسط العلمي ومن خارجه ، وكأفها (معجزة) فريدة ، خارجة تقريبا عن مسار التاريخ ، أو طفرة من طفرائه ، لكن بعد سنوات قليلة فقط سيصبح لهذه الظاهرة — الطفرة إطارها التاريخي الثابت . ولو أن الصورة التي سيحيط بها ذلك الإطار ستبقى غير متكاملة لفترة طويلة من الزمن ، بيد أن التنقيبات الثرية الجارية في تل طوقان (شرقي إيبلا) ، وفي تل أم المرة (شرقي دير حافر) ، وفي تل حلاوة (الشاطئ الأيسر لبحيرة الأسد) ، وفي تل خويرة (قرب تل أبيض شمالي الرقة) ، وفي تل ليلان (شرقي القامشلي) ، كل هذه الأعمال قد جاءت بالتأكيد نتيجة للضجة العالمية التي أثارها مكتشفات إيبلا ، وستلقي نتائج التنقيبات الجارية في المواقع المذكورة أنفا مزيدا من الضوء على المسائل الأساسية لجذور الحضارة التي ازدهرت في إيبلا خلال النصف الأول من الألف الثاني قبل الميلاد ، كما ستكشف لنا علاقات إيبلا في ذلك الزمان مع المدن التي ازدهرت في شمالي سوريا .

"كانت المكتشفات الجديدة منهلا لمعلوماتنا عن فترة الازدهار الثانية التي شهدها تل مردوخ (إيبلا) ، وهي الفترة التي أصبحنا نطلق عليها اسم العصر السوري القديم ، أو العصر الأموري الذي انتهى في حوالي 1600ق.م " (1)

" ... من المرجح أن المنطقة الممتدة بين طوروس والصحراء العربية لم تعرف في تاريخها تلك الوحدة الحضارية الأساسية التي عرفتها بلاد الشام خلال الحقتين الأولى والثانية في عصر البرونز الوسيط " (2)

(1) إيبلا — عبلاء ، ص 44 — 4 .

(2) المصدر السابق

وتحت عنوان "عبادة الأجداد في إيللا الأمورية" نقرأ: "لابد أن كان دافع الاستمرار في التراث القديم هو الذي حتم وقوع المقبرة الملكية الأمورية في قلب إيللا ، ولعل هذه الظاهرة تقليد إيللائي منذ فجر تاريخها . وقد شاع هذا التقليد في جنوبي الرافدين ، وفي وسط الأناضول منذ منتصف الألف الثالث قبل الميلاد ، ونحن نواجه أمثلة ساطعة عليه في المقابر الملكية المكتشفة في أور (جنوبي العراق) ...

" لا يختلف طراز المدافن الملكية الثلاثة المكتشفة في إيللا عن طراز المدافن المعروفة في بلاد الشام ، والتي تؤرخ بالفترة لعصر البرونز الوسيط .. ويتنشر مثل هذا النوع من المدافن بين أريحا وفلسطين ، وجيبيل ، على سواحل الشام ...

" ونحن نجد أنفسنا أمام عبادة أجداد ملكيين لامعين ، وأبطال حققوا لمجتمعهم الفلاح والازدهار والرفاه . وهذا النوع من العبادة نعرفه في عبادة "راعوم" المنقوشة في نصوص أوغاريت التي تعود إلى عصر البرونز الحديث (حوالي 1400 ق.م) ، ولابد أن تمكن أصولها في تقاليد كانت شائعة خلال الحقبة الثانية من عصر البرونز الوسيط (حوالي 1800 ق.م) ونستفيد من لائحة الأنساب التي سطرها حمورابي في بابل أن تقديس الأجداد وعبادتهم كانت شائعة في بابل خلال الفترة نفسها " (1)

ولابد من أن نسجل هنا بعض الملاحظات قبل أن تنتقل من إيللا إلى غربي شبه الجزيرة العربية حيث الكنعانيون :

أولا : إن ما درج المؤرخون على اعتباره عبادة للأجداد عند العرب الأقدمين ، سواء أكانوا عربا سريانيين (أو سوريين أبنا "سر") أم أموريين ، أم في شبه جزيرة العرب ، لا يعدو كونه تعظيما وتقديسا لأولئك الآباء الأفاضل الذين تميزوا ، أو تفوقوا ، بإنجاز ما ، روحي أو مادي ، اعتبر إنجازا تقدما إنسانيا عاما ، وهذه النقطة بالذات هي التي كنا قد توقفنا عندها بعض الشيء عند حديثنا عن أصول التسميات القديمة ، وهي التي سوف نوضحها أكثر عند حديثنا عن العرب الكنعانيين .

* هو نفسه "رع" (الراعي) الذي نقل السوريون عبادته إلى مصر وادي النيل .
(1) المصدر السابق ، ص 56 - 58 .

ثانيا : إننا نذكر دائما أن الحديث حينما يدور عن الأموريين في سوريا لا يعني إطلاقاً أن الفروع العربية الأخرى ، التي نشأت وتفرعت بعد الأموريين ، غير موجودة على الخارطة السكانية للمنطقة، وكذلك الأمر مع جميع أنسال آدم الذي نعرف ، وكل تفرعات أبنائه وقبائلهم ، ولاسيما الحاميين والساميين .

إن من عرفوا بالعرب الساميين والحاميين ، والآراميين ، والآشوريين والكنعانيين ، والعماليق ، والفينيقيين ، وغيرهم يملأون ساحة الوطن العربي في تشابكات نمطية أكثر منها قبلية . إن المدينة تشد إليها — كما سبق أن أوضحنا عند الحديث عن الهجرات — كل النماذج البشرية التي نضجت لديها شروط الاستقرار المدني ، وصار سهلاً عليها ، إن لم نقل من المحتم ، التخلي عن نمط العيش السابق والانتقال إلى نمط معيشي آخر أرقى . إن هذا ، بالتالي ، سوف يعني لنا أن جميع النماذج السكانية من شتى القبائل سوف تلتقي إما في البادية أو في الأرياف أو في المدن . وإن نمط الحياة والشروط الخاصة بكل مرحلة من مراحل التطور هي التي سوف تطبع هذا التجمع السكاني أو ذاك ، وليس روابط الدم أو القبيلة . ومن هنا كان الخطأ في تلك التسميات الكثيرة للسدول العربية التي قامت ونشأت على أرض سوريا منذ القدم . لقد تعمد مؤرخو العصر الاستعماري أن ينظروا إلى سوريا بالذات — رغم قيام أول دولة قومية إنسانية في العالم على أرضها — نظرة من يريد الإجهاز نهائياً على دورها القومي العربي التاريخي الرائد ، لما له من الفعل في الواقع العربي ، بما ينعكس على تطور الأحداث في المنطقة كلها ، وبالتالي ، على واقع الإمبراطوريات الاستعمارية . ومن هنا فإننا نهيب بالأوساط المشرفة في القطر العربي السوري على عمليات البحث والاستكشاف الآثارية القائمة اليوم فيها على قدم وساق ، أن يعيروا هذه الناحية أقصى اهتمامهم ، وأن ينطلقوا في توجيههم لكل الدراسات والبحوث التي يمكن أن تنشأ مستقبلاً عن تلك المكتشفات التي لا بد أن تظهر في الزمن القريب ، من المنطلق الموضوعي الصحيح ، ألا وهو وحدة المنطقة التاريخية والسكانية والثقافية واللغوية والحضارية .

إن مما يحز في النفس هو استمرار تلك التوجهات التي تفترض مسبقاً أن في كل مدينة تكتشف لابد من " لغة " جديدة تضاف إلى قائمة اللغات القديمة في المنطقة ، وإذا كنا سوف نتحدث عن اللغة في بحث منفصل لاحق ، فإننا نجد أن من المفيد التذكير هنا بأن تلك التي دُعيت لغات ليست إلا لهجات ، بالمعنى الحرفي للكلمة ، لغة واحدة هي العربية . فمن المعروف أن وجود اللغة، أية لغة ، في مرحلتها الشفوية قبل الكتابية يمكن أن تبقى في طي المجهول حتى تظهر نفسها في صيغة أبجدية مكتوبة تصور نطق الأصوات كما هي ، فتحدد هويتها .

ولقد تحكم في تطور تلك اللهجات إلى ما صار الدارسون يعتبرونه — اليوم دوناً حق — لغات ، عدة عوامل نسوق منها الآن في لحظة سريعة ما يلي :

1— إن وجود لغة شفوية ، غير مكتوبة ، يفرز حتماً لهجات متعددة لا يمكن حصرها . ذلك أن أي إنسان اليوم يتعامل مع اللغة في شكلين ماديين لها هما : المسموع (أي أصوات اللغة) والمرئي (أي الأصوات المسموعة في أشكالها المرسومة كتابة) . وإذا ما انعدم الجانب المرئي من الصوت (في شكله المرسوم) ارتسم في الذهن في أشكال مختلفة كثيرة تختلف من إنسان لآخر. ثم إن أي رب أسرة — على سبيل المثال — ذا عاهة نطقية ، فإن عاهته هذه سوف تنتقل إلى أولاده السليمين عن طريق سماعهم له منذ طفولتهم ، وتعلمهم منه دون أن يدركوا أن لفظه لهذه الكلمة أو تلك ناقص ، أو زائد ، أو مقلوب ، أو فيه تحوير . وعند انتقال ذلك من جيل إلى جيل تنشأ لهجة جديدة ، إذ إنه ليس للغة في مثل هذه الحال غير شكل مادي واحد هو الصوت المسموع . إن الصوت المرئي هو الذي يحافظ على نقاوة اللغة وعلى عدد الأصوات في كل كلمة ، ونوع تلك الأصوات .

2— إن العزلة التي كانت تعيش فيها كل مناطق القرى والمدن ، سواء أكانت بسبب تضاريس الطبيعة من جبال وعرة تفصل منطقة عن أخرى ، أو بادية قفر لا يمكن اجتيازها بسهولة ، أو كانت بسبب عدم وجود طرق للمواصلات ووسائل للاتصال

كما هي اليوم ، جعل كل منطق للأصوات في هذه البقعة المنعزلة أو تلك يتطور بعد فترة من الزمن إلى لهجة .

3 — إن اختلاط ومجاورة أطراف الأرض العربية لشعوب مختلفة ، وتعرضها للغزو والاحتلال من شعوب مختلفة أيضا سوف يضيف كثيرا من الكلمات الغريبة الأخرى إلى رصيد الكلمات العربية السائدة في تلك المناطق بالذات مما سوف يميز ، مع تقادم الزمن ، لهجة عربية شرقية مجاورة للقبائل الشمالية عن لهجة في أقصى الجنوب الشرقي تتبادل مع الأفريقية أو الهندية أو غيرها .

وإذا كان علماء اللغة اليوم يرون ذلك التشابه المذهل بين لهجات إيليا وبابل وأوغاريت من جهة ، ولغتتا العربية السائدة اليوم من جهة أخرى ، رغم كل تلك الظروف التي ذكرنا بعضها والتي كان يعيشها أجدادنا العرب الأقدمون ، ورغم مضي آلاف السنين ، فإنه لن يكون من الموضوعية بعد اليوم قي شيء أن يصير الباحثون على دراسة " لغات سامية" في المنطقة . إن ما وجد وما يوجد ليس إلا لغة عربية بلهجاتها المختلفة .

ثالثا : إن القبائل التي دعت بالعبرائية لم تكن إلا عشائر بدوية عربية آرامية . وأن إبراهيم الخليل وأولاده وأحفاده ليس إلا أحد الفروع العربية الآرامية . ثم إن التوراة بكل قصصها ، وأمثالها وحكمها ، وأناشيدها ومزاميرها ليست إلا تسجيلا خطيا لبعض التراث العربي الكبير الشفوي والمكتوب الذي كانت تزخر به الساحة العربية كلها . وقد أثبتت ذلك مكتشفات مكتبة أوغاريت ، ومكتبة آشور بانيبال ، ورسائل تل العمارنة وغيرها . وإن مهمة الباحث العربي ليس إلا دراسة هذا التراث العربي ، ككل ، وتفنيد وفرز كل ما ألحق به من تزوير وتحريف خلال عمليات النقل والترجمة وغيرها . ومن هنا كان مأخذنا على ما ورد في كتاب " إيليا — عبلاء" حول ما دعو به " الممدن التوراتية" ، ثم أخذوا يدفعون فكرة وجود أي ذكر لتلك الممدن وكأن في وجود ذكر لها ما يثبت حقا ما في المنطقة لآخرين غير العرب . إن جميع الممدن وأسماء الأشخاص التي وردت في التوراة هي أسماء لممدن عربية صرفة كانت قبل التوراة . وإن الإله "إيل" كادت عبادته أن تغطي المنطقة العربية كلها منذ آلاف السنين قبل التوراة ، وليس أدل على

ذلك من أسماء أبناء آدم المقترنين باسم الإله "إيل" بدءاً من هايبيل وقايل ومهلثيل وغيرهم قبل عهد إبراهيم وإسماعيل العربيين الآراميين بآلاف السنين . إن وجود ذكر لكل تلك المدن في مكتشفات "إيبلا" منذ ثلاثة آلاف سنة قبل الميلاد على الأقل من شأنه أن يضيف إثباتاً آخر جديداً على عروبة المنطقة ووحدها منذ الألف الثالث قبل الميلاد . وإن أية نزعة أخرى في محاولة تفسير الأمور في غير هذا المنحى ، وإن أية محاولة لرفع أي ذكر لمدن أو أسماء ورد ذكرها في التوراة ، إنما هي تحكي عن الأمية في التاريخ العربي أكثر مما تحكي عن الغيرة عليه . ومثل هذه الأمية هي التي تجعل من أولئك العرب الآراميين الذين دعوا زورا "عبرانيين" شيئاً آخر ليس عربياً ، وهي ، في النتيجة ، لا تقل خطراً عن عملية التزوير فيه .

إن ما ينقصنا هو معرفة تاريخنا معرفة حقيقية وموضوعية ، وكشف كل ما لحق به من الغموض والتزوير . عند ذاك فقط يمكن أن تبهرنا صورة هذا التاريخ الكبيرة ، والأكثر بكثير مما قد يخطر في الذهن أو الخيال . عند ذاك فقط سوف ندرك أن كتبة التاريخ العربي إنما يتقاذفون بشرائح من التاريخ العربي نفسه واضعين الواحدة في طرف مناقض للأخرى ، بينما هي جميعاً ، في حقيقة الأمر ، كل واحد لا يتجزأ ، ولا ينفصل .

ومن هنا بالذات تأتي دهشتنا من حماسة المشرفين على مديرية الآثار وعلى المكتشفات ضد احتمال ورود أسماء تلك المدن الخمسة التي دعوها بـ "المدن التوراتية" في وثائق إيبلا . إن التوراة بنت المنطقة العربية ، وإن واضعيها ليسوا إلا شريحة من الشعب العربي ، بصرف النظر عما تتضمنه من تشويه أحياناً للقصص والتراث ولحقائق التاريخ ، ولما تعج به من الحقد العشائري والمرارة ضد هذه المدينة أو تلك وهذا الشعب أو ذاك . إن مدونات التوراة لم تذكر مدناً هندية أو فرنسية أو أمريكية . إن كل المدن أو المواقع أو مضارب الخيام التي ذكرت فيها إنما هي مواقع عربية من المنطقة العربية . وإن نصوص التوراة ليست إلا نتاجاً عربياً صرفاً ، لكن محاولة تحريف تلك المضامين واستثمارها لغايات استعمارية — كما تفعل الصهيونية اليوم — هو الأمر الآخر ، وتتم مجاهدته بطريقة أخرى ، أولها ، دمج العبرانيين الآراميين وكل ما خلفوه لنا من إنتاج روحي أو

مادي بالتراث العربي دجما كاملا بعد دراسته دراسة نقدية وتحليلية ترجع كل مضمونات التوراة إلى مصادرها العربية الحقيقية ، وإيضاح مواقع التشويه والتزوير فيها . إن ما يسرته لنا المكتشفات الآثارية حتى الآن ، سواء في أوغاريت أو نينوى أو تل العمارنة أو غيرها ، يتيح لنا أن نقوم بفرز الحقائق بكل يسر وسهولة . وثانيهما ، تعرية الحركة الصهيونية اليوم بكل مواقعها في العالم ، وتسليط الأضواء على كل مزاعمها وإدعاءاتها ، وعمليات التزوير الكبرى التي أحدثتها في التاريخ والجغرافيا على السواء .

إن المقال الذي نشر في كتاب "إيلا — عبلاء" للبروفيسور الفوسواركي تحت عنوان "الشواهد الكتابية في إيلا والتوراة" يلقي كثيرا من الضوء على مدى خطورة الصورة التي صارت تبحث فيها الأمور على المستويين الدولي والعربي من أجل دفع بعض المزاعم الصهيونية . إن الذي يفهمه القارئ العادي الأوربي والعربي على السواء من مثل هذا المقال هو أن كاتبه يرد على مزاعم صهيونية حول ورود ذكر للمدن التوراتية من جملة ما ورد في مكتشفات إيلا الوثائقية أو عدم ورودها ، وكأن في ورودها دعما للمزاعم الصهيونية ، وفي عدم ورودها دعما للحق العربي . إن هذا هو الانطباع الذي يمكن أن تتركه مثل هذه المحاولات القائمة على أسس مغلوطة . وهو مما يبعث على العجب والألم في آن واحد . وإن مثل هذا الوضع في مناقشته وقائع تاريخ المنطقة العربية يحكي مدى الضحالة والضيق اللذين نتعامل بهما مع تاريخنا من جهة ، ومدى الحرية واتساع المجال اللذين تمنحهما عن طيب خاطر للصهيونية في الحركة إزاء كل ما يتعلق بهذا التاريخ .

ونحن ، إذ نسجل تحفظنا على مثل هذه المجادلات التي لا تسقط دعوى ولا تثبت حقا ، يهمننا أن نسجل أيضا الدافع الإنساني والعلمي النبيل الذي حدا بمؤلف المقال وبغيره ممن لمسوا كذب المزاعم الصهيونية ، وانبروا للدفاع عن التاريخ العربي بالطريقة التي توفرها لهم حدود معرفتهم بهذا التاريخ ، وهم في ذلك غير ملومين . إن اللوم كله يقع على الدارسين العرب الذين لم يتجاوزوا ، في معظمهم ، حتى الآن مرحلة كونهم وسطاء بين ما يكتبه أعداء التاريخ العربي وبين أجيالنا الناشئة .

يقول المؤلف صاحب المقال : " يدعي جافاني بيثيناتو أن المدن الخمس الوارد ذكرها في التوراة موجودة في نصوص إيبلا .. مهما يكن من أمر ، فخلافا لقائمة أسماء المدن الواردة في التوراة ، فإن أسماء المدن مدار البحث ليست واردة في نص أدبي روائي يمكن أن يكون جزءا من تراث أدبي روائي ويستمر إلى عهد التوراة بل وردت في نص تجاري ، مع هذا فإن ظهور أسماء مدن له أهمية كبيرة ..

إن النص موضوع النقاش عبارة عن سجل لمنتجات مصدرة أشير إليها بالسومرية (كي) ، التي هي بالتأكيد اختصار لإشارة السومرية (اجانا — كشيذا — كي) وهي تعني منتوجا زراعيا ، لأن أرقاما (كذا ألف ، أو كذا مئة) تتقدمها في النص ، كما أنها في بعض الأحيان تأتي مرافقة للزيت والشعير والغنم والأبقار . لذا فإنه من الواضح أن مثل هذه النصوص تتعلق بالإدارة الزراعية في إيبلا . فأسماء المدن أو الأماكن ليست إلا مراكز صغيرة . وهي ليست متسلسلة حسب نفس النسق الذي تتسلسل فيه المدن التوراتية الخمس "

إن مثل هذا القول يوحي لأي قارئ ، أجنبي أو عربي ، بأن تلك المدن لو أوردتها وثائق إيبلا في "النسق" الذي أوردته التوراة لكان الحق كل الحق في المزاعم الصهيونية . وما هي تلك المزاعم ؟ إن القارئ لا يعرف ، إنه يعرف فقط بأن الجدل يدور حول شكل ورود أسماء تلك المدن ، وإن فريقا ينفي أن تكون قد وردت بالشكل الذي أوردته التوراة ليرد على مزاعم الصهيونية . إن الصهيونية لا تريد أكثر من ذلك ، في الحقيقة ، من خلال إثارتها لمثل ذلك الجدل . إن في ذلك تثبيتا في الذاكرة العامة بأن كل مدونات التوراة إنما هو ملك الصهيونية بالذات وليس جزءا من التراث العربي .

إن الصهاينة يعرفون ، كما يعرف القليلون منا ، أن ذكر تلك المدن وغيرها في وثائق إيبلا أو غيرها مما قد يكتشف ، لن يخدم قضية إدعاءاتهم في قليل أو كثير ، بل على العكس ، سوف يظهر وحدة قدم التراث العربي ، ووحدة الحضارة العربية .

وإن الصهاينة يعرفون ، كما يعرف القليلون منا ، أن ذكر سدوم وعمورة وآرام ونهرون وغيرها في أية وثائق ظهرت أو ستظهر ، إنما هو تدعيم لوجود هذه التسميات العربية

القديمة ، وتدعيم لوجود الشعب العربي ، وتدعيم لعروبة قوم إبراهيم وجماعة موسى من بعده .

إنهم يعرفون بالتأكيد ، كما قد يعرف القليلون منا ، أن إبراهيم وجماعته وأن موسى وجماعته ، لم يحدث أن جاؤوا إلى الأرض العربية التي سميت فيما بعد فلسطين ، وهي الجزء الجنوبي من سوريا الأمورية . وأكثر من هذا نقول : لقد استفد زعماء الكيان الصهيوني كل جهودهم في أعمال البحث والتفتيش والتنقيب من أجل العثور على دلالة واحدة ، مهما كانت بسيطة أو تافهة ، لدخول جماعة إبراهيم أو موسى تلك الأرض ، وعلى أي ما من شأنه أن يدل على وجود ما دعي بمملكة داود وسليمان .

إنهم يعرفون تماما ، كما قد يعرف القليلون منا ، أن أرض كنعان التي تحدثت عنها مدونات التوراة هي ذلك الحيز الضيق ما بين جنوبي بلاد زهران في منطقة الليث وبلاد غامد في المنطقة ذاتها ، والتي لا يتجاوز طولها عشرين كيلومترا ، كما لا يتجاوز عرضها عشرة كيلومترات على الساحل الشرقي للبحر الأحمر ، ولم تكن في يوم من الأيام في فلسطين أو غير فلسطين ..

وإن موسى خرج من مصر المدينة في جنوبي تلك الأرض وليس من مصر وادي النيل . وأن حاران ، وآرام ، ونهرن (النهرين ، والتي سميت فيما بعد ما بين النهرين) وقادش ، ودمشق ، وصيدون ، وصور ، وبثروت ، وأريحا ، وبيت شان ، وبين ايل ، وجلعاد ، وبيت لحم ، وجرار ، وعرار ، وسدوم ، وعمورة ، وآثور ، وكريت ، وغيرها من الأمكنة ، والبلدات ، والمدن ، والقرى ، والوديان ، والجبال الصغيرة والكبيرة ، التي دونتها التوراة بالتفصيل ، لا تتعدى حدود تلك المنطقة الضيقة . وأن كل الجغرافيا الأخرى والتاريخ الآخر إنما هو تجسيد للمؤامرة الكبرى على هذا البلد العربي الذي أقام أول دولة قومية ، وأنشأ أول حضارة إنسانية عالمية في التاريخ والذي اسمه سوريا .

وفوق هذا نقول : إن اليهودية دين وليس ليهود العالم اليوم علاقة بالنسب مع أولئك العرب الأقدمين . سواء أكانوا في سوريا المتوسطة أم في شبه جزيرة العرب أم في أية

منطقة أخرى ، فأولئك الآباء عرب وقبل اليهودية بأكثر من ألف عام ، واليهودية العالمية أعراق شتى تنتمي إلى كل الأجناس ما عدا العرب .

إن نظرة واحدة إلى الدولة العربية السورية زمن حمورابي وسرجون من قبل تبين كيف أن نظاما سياسيا ، وإداريا واقتصاديا ، وأمنيا ، وحقوقيا واحدا كان يعم تلك الرقعة الشاسعة الممتدة من أقصى شواطئ الخليج العربي الشرقية إلى المتوسط ، ومن أقصى المضائق إلى جنوب اليمن . وإن الطرق التجارية الدولية كانت تحت سيطرة الدولة العربية السورية . وقد خاض سرجون ونارام سين وشولجي ، وأورنامو ، وحمورابي حروبا كبيرة من أجل إزالة أية فكرة للهيمنة الغربية على تلك الطرق والممرات . ولقد رأينا كيف أن سرجون ما أن علم بتحريك فرعون (ملك) مدينة "نخو" المصرية صوب منطقة طريق القوافل في أرض كنعان شرقي البحر الأحمر حتى هب لملاقاته وإرغامه على الانكفاء إلى داخل حدود بلاده ، من أجل المحافظة على سلامة تلك الممرات التجارية التي كانت تعتبر أهم ممرات في التجارة العالمية في ذلك العصر .

إنه لمن الطبيعي ، بعد هذا ، أن تأتي القوافل من أقصى جنوب شبه الجزيرة العربية المحملة بمنتجاتها ومنتجات إفريقيا ، ومصر ، والهند أيضا وتصعد إلى أنحاء الدولة عبر طرق القوافل التجارية الدولية المعروفة : فيصعد أحد هذه الطرق من عدن وأوزل (صنعاء) إلى مكة وجدة وإلى مدائن صالح ثم إلى أيلة ، والبتراء ، وبصرى ، فدمشق ، حيث يتفرغ إلى طريقين يذهب أحدهما شمالا إلى أيبلا وحلب ، بينما يذهب الآخر إلى تدمر ومنها إلى الفرات ليتابع سيره معه حتى بابل .

إن مثل هذا التصور التاريخي الصحيح للدولة العربية أيام ازدهارها ينفي أي شك في صحة تعامل إيبلا مع محطات على طريق القوافل مثل سدوم وأرام نهرن ومصرم الواقعة جميعا على خطوط القوافل القادمة من الجنوب في عدن بمنطقة الطائف ومكة . ولم تكن في حاجة إلى مثل هذه المدن في صلب التاريخ العربي والجغرافيا العربية بعد تصحيح مواقعها ، التي أقحمها واضعو الجغرافيا التوراتية المغلوطة في أرض فلسطين تحقيقا لأغراض استعمارية معينة .

إن تعامل إيليا ، وغيرها من المدن العربية السورية الأخرى التي قد تكتشف فيما بعد يؤكد حقيقة وحدة الدولة . وإن الرد على أية إثارات جدلية صهيونية ينبغي أن ينطلق من هذا المنطلق ، لا من سواه ، إذ إن نفي وجود مثل تلك المدن في وثائق إيليا ، والرد بذلك على ادعاءات الصهاينة ، يؤكد في أذهان القراء الأجانب فكرة أن للصهيونية حقائق ما في المنطقة ، وكأن نفي ورود أي ذكر لتلك المدن يعتبر هدفا من أهداف الصراع القائم بين واقعين عربي ، وتوراتي يهودي ، وهذا بالضبط هو ما تبغيه الصهيونية من خلق مثل تلك الضجة المفتعلة .

إن أية دراسة لتاريخنا ينبغي أن تضع في اعتبارها عروبة هذا التاريخ ووحدته الحضارية والثقافية والسكانية والجغرافية . ولا يشذ عن ذلك قوم إبراهيم وموسى ثم الكهنة الذين صنعوا اليهودية وتوراتهم ، رغم ما فيها من تشويه وتزوير لبعض الإنتاج الأدبي العربي ولحقائق التاريخ .

ومن هذا المنطلق وحده يمكن تعرية الصهيونية ، التي تجند العالم في حركة استعمارية استيطانية للمنطقة ، وتزور حقائق التاريخ والواقع باعتمادها على الربط بين يهود اليوم وعرب الأمس الآراميين . إن ذلك ليس أقرب إلى الحقيقة من ربط مسلمي الفيلبيين ، والاتحاد السوفيتي ، وملايين المسلمين المنتشرين في أصقاع العالم ، بالنسب إلى محمد بن عبد الله القرشي الهاشمي . فأينما كانت جغرافيا الأحداث التوراتية وأيا كانت إنما هي جغرافيا عربية أنتجت كل الديانات وصدرتها إلى شتى أرجاء المعمورة ، وليس لليهود العالم اليوم أية علاقة بها ، كما لا علاقة لهم بالنسب إلى إبراهيم أو يعقوب (الذي هو إسرائيل) ولا يربطهم بأولئك الآباء العرب الموحدين إلا مثل ما يربط مسيحيي العالم اليوم بالنسب إلى عيسى المسيح ، ومسلمي العالم اليوم بالنسب إلى محمد .

الفصل العاشر

بوابة كنعان

إنني ، ما إن أفكر بالبداية في ولوج هذه البوابة حتى تملكني الحيرة ، ويستبد بي الهم والشعور بكم حجم المهمة ، وكل ذلك يعود إلى شعوري بأن أبوابا كثيرة ، قد يكون لا حصر لها ، سوف تطل علي من كل الأنحاء مثل المقل المعمية أو المعطلة ، حينما أُلج بوابة كنعان .

لقد اختلطت خلف هذه البوابة كل الأمور ، والتصقت وتشابكت كل الحقائق التاريخية والجغرافية على السواء ، وصار التاريخ من خلفها كائنا مشوها . لقد تراكمت كل المخلوقات العجيبة والتصقت بجسد التاريخ العربي ، وأصبح هو الضحية ، دون أن يتمكن من الفكك منها . فأنت ما تكاد تحاور جانبا من هذا التاريخ حتى يطل عليك مخلوق ليس له هوية ولا وجه ، بل وجوه كثيرة ، وأفواه كثيرة ، تحكي بلغات كثيرة ، حقائق كثيرة ومتناقضة .

إن على كل من يلج بوابة كنعان أن يتسلح بالعلم والصبر ، وأن يخوض معركة " فك ارتباط " جد قاسية ، من أجل تحرير هذا التاريخ العربي من كل ما ألصق به عمدا وجهلا من المخلوقات الطفيلية ، ثم ترك مرميا خلف البوابات المهجورة الرطبة . وقبل أن نعد العدة ، ونفتح بوابة كنعان ، نرى أنه لا بد لنا من هيئة القارئ لمثل هذا الجو الذي ينتظرنا خلف البوابة ، ونتركه يتمثل معنا ، الحقائق التالية :

1— من الطبيعي أن الشعب الواحد ، الذي يتكلم لسانا واحدا ، سوف يجد نفسه في شتى مناطق تواجده ، يتمثل ثقافة واحدة ، وحقائق واحدة ، تعيش وتحمل مع الكلمات . وإن حقيقة وحدة الأسماء ، سواء أكانت للأشخاص أم للمواقع أو المدن ، ليست إلا واحدة من أبسط هذه الحقائق المحمولة والمكرورة .

فكما أننا نجد زيدا وعمرا في العراق وشبه جزيرة العرب ، فإننا نجدهما في سوريا ،
ومصر ، وفلسطين ، والمغرب العربي . وكما نجد إيل ، وحدد ، وشمس ، وعشتار ،
وعناة ، هناك ، فإننا نجدهم ونجد أيضا بيت إيل ، وبيت شمس ، وعين شمس ، وبيت
عانا وغيرها في كل مكان من أرض العرب .

إن هذه البديهيّة ، إن كانت تؤكد شيئا ما ، فهي تؤكد ، قبل كل شيء ، وحدة
الشعب العربي منذ العصور التاريخية الأولى الموعلة في القدم .

ولهذا ، وعند دراسة مرحلة زمن التوراة وما بعدها ، ينبغي ألا نجرفنا — مثلما كان
يحدث حتى اليوم — ظاهرة تشابه الأسماء في المنطقة العربية لنسلم بما يبنى على هذه
الظاهرة من تاريخ مزيف وجغرافيا كاذبة ، دون أن نتحرى في البحث والتدقيق كل
ما يصل إلى أيدينا ويتعلق بتلك المرحلة تحديدا . إن تاريخنا — بكل بساطة وثقة نقول —
ينبغي أن يكتب من جديد بأيدي باحثين ثقافة منا ، يعتمدون على ما تقدمه المكتشفات
الاثارية والمصادر التاريخية العربية الوفيرة صارفين النظر عن كل ما كتبه المؤرخون
التوراتيون من جهة ، ومؤرخو الحقب الاستعمارية المتتالية ، الضالعون في تشويه تاريخنا
من جهة أخرى .

2 — ثمة حقيقة أخرى نريد أن نلفت الأنظار إليها ، وهي أنه مع توفر وحدة الشعب ،
وبالتالي وحدة اللغة ، فليس ضروريا أن نبحت عن التاريخ الزمني من خلال تلك الأسماء
أو التسميات . وبكلمة أخرى ، إننا حينما نعثر على إحدى المدن التي كانت تسمى
"صور" مثلا في عمان ، ثم على "صور" في غرب شبه الجزيرة العربية ، ثم على ثالثة على
ساحل البحر المتوسط ، وإن كل واحدة منها تسبق الأخرى في الزمن ، فإنه لن يكون
صحيحا دائما أن نفترض وجود هجرة أو حركة للشعب العربي من "صور" القديمة إلى
صور الأكثر حداثة في الزمن ، علما أن هذا الشيء ليس خطأ إن وقع ، وهو محتمل
الوقوع ، لكن هذا ليس إلا احتمالا جد ضئيل حينما نتحدث عن شعب كالشعب
العربي ، وأرض كالأرض العربية ، يمتد وجودهما المشهود آثاريا إلى أكثر من عشرة
آلاف عام في شتى مناطق وجود "صور" الثلاثة .

وقبل أن نشرع في دراسة هذه الاختلاطات ، نبدأ معها عملية "فك ارتباط تاريخية وجغرافية ، نرى ضرورة البدء من البوابة الأولى التي اختبأت من خلفها كل البوابات الفرعية الأخرى ، وأقصد بها "بوابة كنعان " . ومن أجل هذا فإنه لا مندوحة لنا من تحديد مواقع كل من العرب الحاميين (مصر وكنعان وكوش وفوط) ، والعرب الساميين من أبناء آرام تحديدا ، وهم بنو جدريس ، وعبيل ، وجاثر ، وعوص ، وثمود ، وعبد ضخم ، ومن العرب أبناء لاوذ ،الذين يهمننا أمرهم هنا العماليق .

أ - العماليق في المصادر العربية :

يقول الطبري في تاريخه :

" ولد للاوذ بن سام طسم وجدريس ، وكان منزلهما اليمامة . وولد للاوذ أيضا عمليق بن لاوذ ، وكان منزله الحرم وأكناف مكة ، ولحق بعض ولده بالشام فمنهم كانت العماليق ، ومن العماليق الفراعنة بمصر " (1)

" وولد للاوذ مع الفرس طسم وعمليق ، ولا أدري أهو لأم الفرس أم لا . فعمليق أبو العماليق كلهم ، أم تفرقت في البلاد ، وكان أهل المشرق ، وأهل عمان ، وأهل الحجاز ، وأهل الشام ، وأهل مصر منهم ، ومنهم كانت الجبابرة بالشام الذين يقال لهم الكنعانيون ، ومنهم كانت الفراعنة بمصر ، وكان أهل البحرين وأهل عمان منهم أمة يسمون جاسم ، وكان ساكنو المدينة منهم بنو هف ، وسعد بن هزان ، وبنو مطر ، وبنو الأزرق ، وأهل نجد منهم : بديل وراحل وغفار ، وأهل تيماء منهم ، وكان ملك الحجاز منهم بتيماء اسمه الأرقم ، وكانوا ساكني نجد مع ذلك . وكان ساكني الطائف بنو عبد ضخم حي من عبس الأول ... فكانت طسم والعماليق وأميم وجاسم قوما عربا لسانهم الذي جبلوا عليه لسان عربي " (2)

(1) تاريخ الطبري ، الجزء الأول ص142.

(2) المصدر السابق ، ص140.

فالعمالق إذن الذين كانت منهم الجبابة بالشام (ودعوا كنعانيين) والفراعنة. مصر ، هم عرب من أولاد عمليق بن لاوذ بن سام بن نوح ، وليسوا كنعانيين من أولاد كنعان بن حام بن نوح ، وكانت مناطق انتشارهم تغطي شبه الجزيرة العربية تقريبا ، مع قسم من الشام ، وحكموا مصر ، أي أن منهم الملوك الذين يحكمون في مصر ، ويتضح من قول الطبري أن هؤلاء العمالق عرب ساميون ، ينتسبون إلى لاوذ بن سام بن نوح ، وليس إلى كنعان بن حام بن نوح .

ويضيف الطبري : " فنزل بنو سام المجدل سرّة الأرض ، وهو ما بين سأتيديما* إلى البحر ، وما بين اليمن إلى الشام . وجعل الله النبوة والكتاب والجمال والأدمة والبياض فيهم " .

وإذا ما تابعنا مواقع هؤلاء العرب العمالق الساميين عند الطبري نجد أنه عند حديثه عن يوسف بن يعقوب ، مثلا ، يقول " إنه لما تمت له (ليوسف) ثلاثون سنة ، استوزره فرعون ملك مصر واسمه الريان بن الوليد بن ثروان بن أراشة بن فاران بن عمرو بن عملاق بن لاوذ بن سام بن نوح ، وأن هذا الملك آمن ثم مات ، ثم ملك بعده قابوس بن مصعب بن معاوية بن غير بن الليث (أو السلواس) بن فارن بن عمرو بن عملاق بن لاوذ بن سام بن نوح " (1)

وحين حديثه عن موسى يقول : " وخرج إلى مدين خائفا وله إحدى وأربعون سنة ، وكان فرعون مصر في أيامه قابوس بن مصعب بن معاوية صاحب يوسف الثاني ، وكانت امرأته آسية بنت مزاحم بن عبيد بن الريان بن الوليد فرعون يوسف الأول ... وتوارثت الفراعنة من العمالق ملك مصر "

من هذين القولين نستنتج أن مصر المقصودة هنا هي عشيرة المصريين أبناء مصر في شبه جزيرة العرب وليست مصر وادي النيل ، إذ في زمن خروج موسى من مصر حوالي القرن الثالث عشر قبل الميلاد كان الملك رعمسيس الثاني ملك مصر وادي النيل وليس

* تعني وادي الدم باللهجة السريانية الشرقية . وما تزال وادي الدم جنوب مكة إلى اليوم .
(1) المصدر السابق ، ص 255

قابوس بن مصعب بن معاوية . ثم إن استعراض بعض أسماء أولاد عمليق مثل عمرو ، وفاران ، وأراشه ، وليث ، يذكرنا بمنطقة جغرافية محددة في غرب شبه جزيرة العرب هي منطقة الليث ، وبلدة مراثة التي هي في سرة زهران ، وبرة فاران التي هي شمال شرق بني سار .. ومنطقة الريان قرب مكة .

أما عن الآراميين فيقول الطبري في تاريخه :

" وولد آرام بن سام بن نوح بن عوص بن أرم ، وحويل بن أرم ، فولد عوص بن أرم غاثر بن عوص ، وعاد بن عوص ، وعبيل بن عوص . وولد غاثر بن أرم بن ثمود بن غاثر ، وجديس بن غاثر ، وكانوا قوما عربا يتكلمون بهذا اللسان المضري ، فكانت العرب تقول لهذه الأمم العرب العاربة لأنه لسانهم الذي جبلوا عليه ، ويقولون لبني اسماعيل العرب المتعربة .. فعاد ، وثمرود ، والعماليق ، وأميم ، وجاسم ، وجديس ، وطسم هم الهرب العاربة " (1) .

أما اسم حويل فإن بلدة حويل ما تزال تحمله حتى اليوم ، وهي شرقي منطقة الليث ، وكذلك عبيل وبلدة عبيل الأثرية شرقي منطقة زهران على حوض نهر رنية ، أما اسم جدیس (بالجيم المصرية) فتحمله بلدة جدش ، أو قادش في بركة صين التي هي بين وادي عردة والبرية الواسعة التي هي سيناء وفيها وادي طوى يظهر حتى هذا اليوم واضحا على خارطة المنطقة .

وإذا ما عدنا إلى الطبري حول العرب الكنعانيين الحاميين فإننا نجد :

" وكانت امرأة حام بن نوح نخلب بنت مأرب بن الدرمسيل بن محوئيل بن خنوع بن قين بن آدم ، فولدت له ثلاثة نفر : كوش بن حام ، وفوط بن حام ، وكنعان بن حام ، فنكح كوش بن حام قرنييل ابنة بتاويل بن ترس بن يافث ، فولدت له الحبشة والسند والهند* ، ونكح فوط بن حام بخت ابنة بتاويل بن ترس بن يافث ، فولدت له القبط قبط مصر فيما يزعمون ، ونكح كنعان بن حام أرسل ابنة بتاويل بن ترس بن يافث ،

(1) المصدر السابق ، ص 140 — 141 .

* المقصود سكان تلك المناطق ممن هم من أصل عربي .

فولدت له الأساود : نوبة ، وفزان ، والزنج ، والزغاوة ، وأجناس السودان كلها .⁽¹⁾
ويضيف الطبري في مكان آخر : " وأما حام بن نوح فولد له كوش ومصرام و قـوـط
وكنعان . فمن ولد كوش نمرود المتجبر الذي كان ببابل ، وهو نمرود بن كوش بـن
حام ، وصارت بقية ولد حام بالسواحل من المشرق والمغرب والنوبة والحبشة وفزان ،
قال ويقال إن مصرام ولد القبط والبربر ، وإن قوطا صار إلى أرض السند والهند فترها ،
وأن أهلها من ولده "⁽²⁾

فالكنعانيون هؤلاء ، الذين هم أبناء كنعان بن حام ، إذن لم يتزلوا منطقة أواسط شبه
الجزيرة العربية والمناطق الغربية الشمالية منها الصاعدة إلى الشام ، بل هم الذين تبعوا
السواحل الشرقية وصولا إلى الهند ، والجنوبية وصولا إلى أواسط افريقيا ، ونزل قسم
منهم على السواحل الشرقية للبحر الأحمر وعلى الأخص بلاد غامد وزهران ، وهؤلاء
تحديدا هم الذين يقترون ذكرهم دائما ، في قصص التوراة وغيرها من المصادر القديمة ،
مع المصريين والكوشيين ، ويتأخوهم في سكناهم .

يقول الطبري :

" في خبر عن أبي صالح ، وعن أبي مالك ، عن ابن عباس ، عن مرة الهمداني ، عن ابن
مسعود ، وعن ناس من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم : أن أول ملك في الأرض
شرقها وغربها نمرود بن كنعان بن كوش بن حام بن نوح ، وكانت الملوك الذين ملكوا
الأرض كلها أربعة : نمرود وسليمان بن داود ، وذو القرنين وبخت نصر ، مؤمنان
وكافران "⁽³⁾

وليس من شك في أن هذا الحديث يستحق أن نتوقف عنده :

1 — فالرسول العربي كان أعلم الناس بأحوال العرب وتاريخ المنطقة في شبه جزيرة
العرب كلها، وهو حينما يقول " إن أول ملك في الأرض " لم يكن يعني الكرة الأرضية،
بل ولا الأرض العربية كلها : فنمرود لم يملك في مصر وادي النيل مثلا ، وسليمان —

(1) المصدر السابق ، ص 139.

(2) المصدر السابق ، ص 141.

(3) المصدر السابق ، ص 163 .

حتى في أوسع جغرافيا مزورة عن التوراة ، بقي ملكه محصورا في بقعة ضيقة من الأرض العربية المقدسة في شبه جزيرة العرب والتي تشمل المنطقتين غربي جبال عسير (السراة) وشرقيها . وقد حدثت من أجل السيطرة عليها منازعات كثيرة بين أولئك "الملوك" الذين هم ملوك عشائر على المحطات وبين حكام الدولة العربية السورية المركزية، كما سبق أن ذكرنا ، نتيجة لأهمية موقعها على خط القوافل التجارية الدولي .

2 — يتبين من نسب نمرود هذا أنه ابن كنعان الذي هو ابن كوش بن حام ، وهنا نصل إلى قصدنا من البحث عن أولئك الكنعانيين الذين يجاورون الكوشيين والمصريين ويتأخوهم في بقعة واحدة من الأرض ، وينتهي ذلك اللبس فيما بينهم .

3 — فالمصريون ، والكوشيون، والكنعانيون أبناء الكوشيين هم ، إذن ، في منطقة واحدة في جنوب شبه جزيرة العرب ، وفي المنطقة نفسها يوجد أيضا الكنعانيون والعموريون الساميون من العماليق ، وكذلك الآشوريون الذين هم من عشيرة أثوريم المجاورة من أبناء إبراهيم من زوجته قطورة وليسوا الدولة الآشورية التي مركزها على الدجلة .

أما كلمة "الشام" فلم يكن يقصد بها سوريا الطبيعية و المتوسطة كما قد يعتقد البعض، بل اليسار أو الشمال من الأرض المقدسة في مركز شبه جزيرة العرب .

بـ — في المصادر العربية القديمة :

1 — سانشونيان (أو بداية المؤامرة) :

لم تصلنا آثار حقيقية مكتوبة من زمن الفينيقيين عنهم ، رغم أنهم مبتكرو حروف الأبجدية ومعلمو الناس الكتابة لأسباب كثيرة ومختلفة ، وكل ما وصلنا منهم هو قطع مبعثرة في تراث هذا الشعب أو ذاك مما بقي بعد التلف أو التدمير الطارئ والمتعمد ، العفوي والمصطنع ، نتيجة لحسد وأحقاد كثير من غلاة التعصب العرقي أو الديني ، أو الاثنين معاً . وإن ما بقي عنهم ومنهم في تراث الآخرين ، ولاسيما البيزنطيين ، إنما كان نتيجة الحاجة إلى استشهاد عابر ، أو لاثبات حجة أو حادثة لا تخص العرب الفينيقيين ، أو لرغبة في الإساءة إليهم أو التشهير بهم . ومن المعلوم أن العرب عموماً ، وبكل

تسمياتهم ، سومريين ، وبابليين ، وأموريين ، وآشوريين ، وكنعانيين ، وفينيقيين ، وسوريين ، كانوا أول من اهتم بالتاريخ ، وتسجيل أحداثه بروح العلم والمنطق والموضوعية بعيدا عن كل أوهام رجال المعابد وغيبياهم . وكانت تلك التواريخ تحفظ في المعابد ، وتوضع تحت تصرف طالبيها من المهتمين بالتاريخ وبأحداثه . وكان ثمة لجان يلجأون إليها عند النظر في أي تسجيل للتاريخ يقدم إلى المعبد من أجل حفظه ، تكون مهمتها فحص هذا التاريخ وتدقيقه ، ولهذا فليس من السهل أن تتصور مدى فداحة الخسارة التي حسرتها البشرية نتيجة لتدمير التراث العربي السوري القديم في التاريخ السابق للمسيحية نتيجة للتعصب الديني ، تارة بحجة كونه تراثا وثنيا ، ونتيجة للحقد العنصري والقومي تارة أخرى ، كما فعل الغزاة .

أما سائخونياتن هذا فهو أحد أشهر المؤرخين العرب السوريين ، والعالم الذي يقول عنه معاصروه ومن أتى بعده بأنه مؤسس علم التاريخ .

يقول عنه المؤرخ السوري ملك (بورفيريوس) :

" سائخونياتن البيروتي يقص مع الحرص الكبير على الحقيقة ، جميع ماله علاقة باليهود ، لأنه لم يغير الأمكنة أو الأسماء ، وقد كانت بين يديه مذكرات ألفها جيروم بعل كاهن الإله "ايو" ، و جيروم بعل كان قدم تاريخه لأبيعل ملك بيروت ، فتلقاه هو وجماعة كلفت بفحصه والنظر إلى ما فيه من حقائق . وزمن هؤلاء الناس يعود إلى ما قبل حرب طروادة ، وهو ما يقارب الزمن الذي عاش فيه موسى كما يدل على ذلك تعاقب ملوك فينيقيا . أما بخصوص سائخوتيان الذي يعني لقبه طالب الحقيقة (Philelethe) فقد جمع جميع التاريخ القديم من المعابد الموجودة في كل مدينة ، وصنف تاريخه منها . وهو عاش في زمن سميرا ميس ملكة الآشوريين . ويقدر أنه في سنوات سابقة لها ، أو على الأقل تتوافق مع زمن حوادث اليون (طروادة) . وبالنهاية فإن فيلون الجبيلي ترجم إلى اللغة اليونانية كتابات سائخونياتن " (1)

(1) " التمهيد للحياة الانجيلية " ترجم الجزء الأول منه إلى العربية يوسف الحوراني تحت عنوان " نظرية التكوين الفينيقية وأثارها في حضارة الاغريق " ص 28 - 30 .

ومن أجل أن نتعرف على حقيقة المؤامرة ضد تاريخ سوريا منذ بدايتها رأينا أنه لا بد من التعريف بحقيقة هذا المؤرخ العالم الفيلسوف العربي السوري ساغونيان (أو ساكونياتن ، أو شكونيان = الإله سكو* — أو شكو يعطي) ، وحقيقة ما جرى لمؤلفاته من بعده .

إن "ساكونياتن" يكتب تاريخ سوريا في تسعة مجلدات . وهو لما كان معاصرا لأحداث حروب الموسويين في عنفوانها . ويسجل أحداثها بروح المؤرخ العالم الناقد الموضوعي ، بشهادة خصومه ، معتمدا على معاشة المعاصرين للأحداث من جهة ، وعلى سجلات الأحداث المحفوظة في المعابد ، ومذكرات غيره من المؤرخين الآخرين المعتمدة من قبل لجان الفحص والتدقيق ، من جهة أخرى ، فقد كان لا بد لمؤلفاته من أن تجد نفسها وجها لوجه أمام مدوني أحداث التوراة فيما بعد بكل ما افتعلوه من تحريفات ومبالغات في بعضها ، وما انتحلوه أو شوهوه وبدلوا فيه في بعضها الآخر . وليس هذا فحسب ، بل إن التعصب الخارجي فيما بعد كان لا يرضيه ذلك التفوق الحضاري السوري السابق للإغريق وللرومان ، والذي تشهد عليه بدقة وعلمية مؤلفات "ساكونياتن" . إن مما يرب الغري فعلا هو أن يجد نفسه تلميذا صغيرا عند أساتذته السوريين في كل المجالات . وليس أشد فعلا في نفسه وإثارة للغضب من أن يرى تراثه في معظمه ، من صنع السوريين . إن أسماء الآلهة والأمكنة ، والمدن ، والمواقع ، والعلماء ، والفلاسفة ، والأدباء ، ومخترعي الكتابة ، وغير ذلك من مجالات الحضارة الأخرى سوف تجد أصولها العربية السورية من خلال مؤلفات "ساكونياتن" مهما لقيت ، بفعل تراكم الزمن ، من تحريفات وإضافات على أيدي البيزنطيين الهمج الذي دمروا كل المعابد في سوريا بكل ما تحفظه من تراث زمن تيودوسيوس ، كي يجعلوا التراث السوري في الغرب تراثا إغريقيا لا علاقة فيه لأحد ، وذلك بعد أن فصلوا الإغريق عن جذورهم السورية تحديدا . وحينما اصطدم السوريون ، المتفوقون حضاريا ، بالشكل الحضاري الأغريقي ، الذي اعتبروه تقريبا للنسخة السورية الأصلية ، ضاقوا ذرعا بالمصير الذي آلت

* مازال يحمل اسمه " جبل سك " شمال شرق زهران في شبه جزيرة العرب . واسم "ساخو" مازال مستعملا بين العرب السوريين (السريان) على نطاق واسع حتى اليوم .

إليه هذه الحضارة في الغرب على أيدي النقلة . وفي الشرق كانت العملية قد تمت على أيدي مدوني التوراة من أبناء بعض القبائل العربية البدوية الذين مسخوا ، بطريقتهم الخاصة النابعة من طبيعتهم القبلية المتعصبة ضد الكنعانيين صورة الحضارة العربية السورية ، وعبثوا بكثير من حقائق التاريخ والجغرافيا والفكر والأدب التي كانت قد حققتها الحضارة العربية السورية قبل عشرات القرون . وكان من أبرو أولئك يوسفوس اليهودي في القرن الأول الميلادي .

في هذه المرحلة بالذات بدأ الشعور بالخطر يسيطر على المثقفين السوريين فانبرى أحد أولئك المثقفين من مواطني ملك (برفيريوس) إلى مهمة الدفاع عن الحضارة العربية السورية التي تألّبت كل قوى الخصوم من أجل طمسها وانتحالها . فكتب كتابا في نقد التاريخ الاغريقي في ثلاثة أجزاء كان يغتنم فيه كل فرصة من أجل التعريض بأولئك الذين حرفوا حضارة سوريا وعقائد السوريين ، إنه فيلون الجبيلي (حوالي 61 — 141م) .

ثم إنه — على ما يبدو — لم يجد أشد فعلا وتأثيرا في معركته مع خصومه ، من أجل الحفاظ على ثقافة وتراث بلاده، من أن يرجم إلى اليونانية أعمال مواطنه (ساكونياتن). لقد كان لظهور مؤلفات "سكونياتن" باليونانية وقع الصاعقة فعلا ، كما توقع فيلون . لقد رأى الآخرون بأم أعينهم كيف أن التراث الأغريقي برمته يقوم على أساس الحضارة السورية . ولقد تصدى كثير منهم ، ثم من البيزنطيين ، ثم الأوروبيين ، بوجه عام ، إلى ما قام به فيلون ، وأخذوا يشككون بصحة وجود مؤلف بهذا المضمون لمؤرخ اسمه " ساكونياتن " ، واعتبروا ذلك عملا مقصودا ضد الاغريق والغرب عامة . وقد وصلت مشاعر الضيق هذه إلى مفكرين من العصور الحديثة أمثال رينان ، ومولر ، وغروب وغيرهم ، فأخذوا يشككون بصحة الوقائع ، وصاروا يعتبرونها اقتباسا عن الحضارة الاغريقية . إن أكثر من ثلاثة آلاف عام ، بما راكمته من عوامل الترسخ لكل ما هو إغريقي والنسيان لكل ما هو سوري في الأذهان ، كانت تشفع لأولئك الباحثين المتشككين . لكنهم ، كلما كانوا يحاولون إزاحة فكرة الأساس الحضاري السوري

للتراث الاغريقي عموما كانت تصدهم حقيقة الأسماء :سواء أكانت للآلهة ، أم للمدن ، أم للجزر ، أم للمعادن ، أم لأحرف الأبجدية ، أم للأدوية والنباتات الطبية ، أم لغيرها . وإذا ما حذفت النصوص المكتوبة الشواهد على قوة تأثير الحضارة السورية في حضارة الغرب عموما فإن ما يبقى من أسماء المدن ، والجزر الكبرى والصغرى ، والآلهة ، كان وحده كافيا للدلالة على قوة ذلك التأثير . إذ من المعروف أن مثل تلك الأسماء لا يمكن أن يطلقها أحد غير أصحاب السلطة فيها . إن اسم القارة أوروبا ، وأثينا ، ومرسليا ، وسلاميس ، وترشيش ، وكريت ، وساموس ، وبيلو ، ومالطا ، وزيبوس ، وحيرا ، وفينيسيا (فينيقيا) ، وأدونيس (أدوني) ، وثيا (طيبا) ، واستر (عشتار — الكوكب ، الزهرة) وأتيكا (العتيقة) ، وغيرها كثير ... ليست جميعها إلا شواهد لا تمحى على عمق التأثير العربي السوري في حوض المتوسط عموما ، وعلى الإغريق بوجه خاص .

وهكذا وجد "فيلون" نفسه يتصدى لعدة خصوم دفعة واحدة في معركة الدفاع عن تراث سوريا وحضارتها .

لقد كان عليه أن يعيد ذلك التقليد العلمي في كتابة التاريخ الذي امتازت به بلاده إلى أصالته ، فكان لابد من التصدي لدونات التوراة بما فيها من تشويه وإجحاف وتبديل للمواقع والأسماء ، وتشويه للتراث .

وكان عليه أيضا أن يجابه هجوم الرعيل الأول من مؤسسي الكنيسة بما يحملونه من تعصب ضد كل ما هو سابق للمسيحية .

يقول يوسف الحوراني في مقدمة الترجمة للجزء الأول من كتاب أوزيب "التمهيد للحياة الإنجيلية " : " فالمسيحية الأولى لم تكن في موقفها من العقائد الفينيقية غير يهودية متحدة ، مفعمة بالحق على الكنعانيين وعقائدهم ومعطيات ثقافتهم ، حتى يخال المرء الذين حكموا على كتب الفلسفة بالحرق هم أحفاد الكهنة الذين حكموا على

يسوع بالصلب ، وعلى كهنة البعل بالقتل فوق الكرمل* في زمن إيليا التشي الذي كان لاجئا في لبنان** البلد الأصل للبعل وكهنته وعبادته " (1) .

وفي هذا الصدد يقول العلامة البطريك أفرام الأول برصوم في كتابه " اللؤلؤ المنشور في تاريخ العلوم والآداب السريانية " : " ... وكان جدودنا حين اعتناقهم الدين المسيحي المين وتذوقهم حلاوته ضحوا في سبيله بأعلى ما عندهم ، فأحرقوا كل الكتب والآثار المدنية والعلمية خشية أن توقع معالمها الوثنية أحفادهم في شرك التوثن " (2) .

لكننا نضيف أن المؤامرة كانت قد أحكمت خيوطها من الطرفين الغربي البيزنطي في تلك الفترة والكهنة التوراتيين الذين تستر بعضهم تحت قناع التنصر ، فذهبت جماهير السوريين من المسيحيين البسطاء ضحية لصدق إيمانها وصفاء طوبتها وأسلمت كل ما لديها من الكتب والآثار المدنية والعلمية للحرق والتدمير .

قبل أن نتحدث عن "أوزيب" وعن "منجزاته" في تدمير أغلى كنوز الحضارة العربية السورية ، ولا سيما في الفكر والتاريخ والفلسفة والدين ، نرى أن نمهد لذلك في لمحة تاريخية موجزة عن الفترة التي سبقت وأنتجت مثل "أوزيب" .

لقد حلت الكارثة بالدولة العربية السورية ، وسقطت بابل في أيدي الفرس . ورغم سقوطها العسكري فقد بقيت الثقافة العربية هي السائدة والمسيطرة وبقيت اللغة العربية هي اللغة الرسمية في الإمبراطورية الفارسية كلها ، وبني أسطول من أجل فتح خط بحري تجاري بين فارس ومصر ، وكان الفينيقيون عماد هذا الأسطول .

ولقد كانت التوراة التي دون كثير من أسفارها في حوالي القرن الثالث قبل الميلاد ، تعج بأسماء تفصيلية لقرى ، ووديان ، وآبار ، وأشجار ، وجداول صغيرة ، بل وبيوت ، ومضارب خيام ، وكلها تدور في بقعة جبلية ضيقة لا يعرف أحد من أولئك القادمين

* كرم إيل في بلاد زهران .

** جبل لبنان شرق غامد . والكلمة جمع لبنان أي الصنوبر أو البخور .

(1) انظر : الترجمة تحت اسم " نظرية التكوين الفينيقية وأثارها في حضارة الإغريق " ترجمة يوسف الحوراني ، ص 20 .

(2) اللؤلؤ المنشور في تاريخ العلوم والآداب السريانية ، للعلامة البطريك أفرام الأول برصوم ، ص 17 .

منها شيئا ، وبالتالي إن شيئا ما لم يكن ليشدهم إلى المكوث في تلك الأرض بين أناس أغراب يختلفون عما كانوا يتصورونه في أحلامهم التي حذرهم إرميا من الوقوع فيها والاستسلام لتكهنات من يسمون أنفسهم كذبا بالأنبياء " لا تغشكم أنبياءكم الذين في وسطكم وعرافوكم ولا تسمعوا لأحلامكم التي تتحلمونها "

وهنا بدأت لدى بعض أولئك عملية التحول والانتقال من شبه الجزيرة العربية إلى مواقع أخرى .

وفي هذه المرحلة بالذات بدأت عملية التحريف والتبديل في الأسماء الجغرافية التي تتضمنها مدونات التوراة . فمن المعروف أن الكتابة العربية القديمة بكل لهجاتها لم تكن نحوي أحرفا صوتية ، كما لم تكن قد وضعت الحركات ، مما سهل مهمة تزوير أسماء المواقع الجغرافية التوراتية على كهنة التوراة .

وفي المرحلة التي دخل الاسكندر المكدوني السوري الأصل فيها سوريا ، وقاد اتحاد المدن السورية ضد الفرس وخلف وراءه الملوك السوريين السلوقيين في سوريا والبطلمية في مصر ، ودب النزاع بين زعماء المملكتين ، بدأ كهنة التوراة تواجدهم الفعلي في سوريا الجنوبية ، ووجد اليهود الفرصة ملائمة لترسيخ الأقدام في المنطقة الجديدة . فقام 72 كاهنا يهوديا بترجمة التوراة إلى اليونانية في 72 يوما (لذلك سميت بالترجمة السبعونية) وذلك في أواخر ما دعي حديثا بالعصر الهيليني ، وأحدثوا في بعض مسمياتها الجغرافية تزويرا كبيرا بحيث حدثت عملية الخلط الكبرى التي سبق أن استعرضنا بعض ملاحمها . ثم جرى تدعيم ذلك على أيدي بعض المؤرخين اليهود أمثال " يوسف " (يوسيبوس) الذي وضع كتابه " أيام اليهود القديمة " بعد عام 70 م بوقت قصير ، وترك موضوع الجغرافيا ضبابيا عائما مما سهل للآخرين فيما بعد عملية التزوير في التفسير الجغرافي لكل أحداث التوراة .

ولما كانت مؤلفات " ساكونياتن " التي ترجمها فيلون الجبيلي إلى اليونانية ، وكذلك مؤلفات فيلون نفسه ، تفضح حقيقة التزوير في التاريخ والجغرافيا ، إذ إن ساكونياتن كان قد سجل أحداث معارك اليهود في شبه جزيرة العرب بالتفصيل ، وتشكل خطرا

حقيقيا على مشروع الديار المقدسة اليهودية الجديد ، فقد كان لابد من التصدي لتلك المؤلفات بكل الوسائل .

وهنا تبدأ المؤامرة الفعلية ، ويظهر دور أوزيب على حقيقته . وقبل أن نتحدث مفصلا عما وصل إلينا من شذرات من مؤلفات ساكونياتن وفيلون ، فإننا نجد من الضروري التعريف بـ " أوزيب " هذا .

أوزيب اليهودي المتنصر يدمر مؤلفات فيلون وساكونياتن :

عاش أوزيب (أوسيبوس) بين 264 — وحوالي 390 م . ولم يعرف أصله وأسرته ، حتى اعتقد كثير من المؤرخين بأن هذا الاسم مستعار لشخصية لم تعرف من هي تحديدا . قيل فيه آراء متناقضة : فمنهم من قال إنه خرج على الإيمان ، وسجن في قيصرية ، ولكنه لم يعذب أو يعدم ، وقيل إنه كان صديقا حميما لقسطنطين ومعجبا به ومتحمسا له ، حتى إنه كان يجلسه عن يمينه ، وعهد إليه بمهمة افتتاح مجمع نيقيا ، وعينه اسقفا لقيصرية ، وحضر تدشين أول كاتدرائية في صور ، ووصفها في كتابه .

وضع أوزيب عدة مؤلفات تاريخية من بينها " التاريخ الكنسي " فاعتبر أول مؤرخ للكنيسة . وقد كتب أيضا في فلسفة المسيحية وفي أسماء الأشخاص والأماكن المذكورة في العهد القديم . وقد كتب كتابا يرد فيه على ملك السوري (برفيريوس) ، كما وضع كتاب " الاستعداد للحياة الإنجيلية " وقد تمكن من أن يلازم بامفيلوس الفينيقي الشهير وينال ثقته في قيصرية في جنوب سوريا . وصار ينتسب إليه إمعانا في الوصول إلى غايته ، فصار يدعى أوزيب البامفيلي . ثم تمكن من أن يحصل على مؤلفات ساكونياتن وفيلون من مكتبة بامفيلوس بعد موته ، ثم أخفاها بعد أن انتحل لنفسه كثيرا منها وطمس الباقي . ولولا محاولته على الرد على فيلون وبرفوريوس وساكونياتن في أحد كتبه ، وسعيه إلى التشهير بهم وإلى الخط من فكرهم وأقوالهم ومعتقداتهم في مؤلفاتهم لما تمكننا من أن نعرف شيئا عنهم ، ولاندثر ذكرهم كما اندثرت مؤلفاتهم التي كانت — كما تظهر من خلال تلك الشذرات المتبقية — كنوزا حضارية عالمية بحق . لكنه ومن

خلال تعريضه بآرائهم ، ومن خلال التزير اليسير من الاستشهادات التي يسوقها يبدو على حقيقته : القزم أمام العمالقة . وليس هذا فحسب ، بل هو يذكرنا من خلال أقواله بالمثل القائل " يكاد المريب يقول خذوني " .

وحرصا منا على بقاء هذه الشذرات وعلى انتشارها ، وشعورا بأهميتها الفائقة ، وما يمكن أن تقول لكل أولئك الذين يدرسون تاريخنا ، فقد رأينا أن نستعرض ما جاء فيها مما يخدم الفكرة الرئيسية في البحث الذي نحن بصده .

وقبل هذا لا بد من القول إن " أوزيب " واحد من أولئك اليهود المتعصين الذين فشلوا في إثبات وجودهم في الواقع الحضاري السوري المتقدم ذي الصبغة العلمانية العالمية من موقع اليهودية القبلية المتعصبة بكل تخلفها العشائري . فخلع عنه الجبة اليهودية ، وتجلب بالثوب المسيحي هو وكثيرون غيره في الوقت الذي كان هذا هو الحل الأمثل . وتحت ستار التعصب لقيم الدين الجديد خلعوا على هذا الدين الجديد الكثير من نبات أفكارهم ، وصبوا جام أحقادهم على التراث العربي السوري الأدبي والعلمي والديني فأحرقوه ودمروه ، وسنوا القوانين ووضعوا الأحكام من أجل ملاحقة وتصفية كل العناصر السورية النشيطة بحجة الكفر والهرطقة . لقد التقى أوزيب ويوسيفوس وغيرهما من الكهنة اليهود في ذلك مع الحكام البيزنطيين الذين كان لديهم الشعور بـ "العقدة السورية " يتضخم يوما بعد يوم مع التعرف على عظمة تراث السوريين . إن ذلك بالذات هو ما قربه من قسطنطين ، وليس حب أحدهما أو كلاهما للمسيحية وإخلاصه لها . فقد أكدت جميع المصادر أن أوزيب أقم بالهرطقة وبالخروج على الإيمان في عهده ، ونال عقوبة السجن شكليا وسرعان ما أخرج منه وقربه إليه قسطنطين وأجلسه عن يمينه ، ثم عينه أسقفا ، علما أن قوانين الاضطهاد الديني التي سنّها قسطنطين نفسه ضد السوريين كانت تجعل مثل تلك التهمة كافية لإعدام الشخص المتهم ايا كان هو أو موقعه ⁽¹⁾ .

(1) انظر : "نظرية التكوين الفينيقية " يوسف الحوراني ، ص 20

أما قسطنطين نفسه ، الذي يؤكد كثير من الباحثين أنه ادعى المسيحية لأغراض سياسية بحتة موجهة ضد سوريا ، فقد وجد في أوزيب وغيره من الكهنة اليهود أدوات جاهزة لاستخدامهم ضد المسيحية من جهة ، وضد السوريين عموماً من جهة أخرى . لقد كان كهنة اليهود وزعمائهم - كعادتهم دائماً - يبحثون عن قوة ما ترضى باستخدامهم في المنطقة حراساً لمصالحها وخطوط التجارة ، وتجعل منهم عيوناً وجواسيس على كل التحركات المعادية لها لقاء عمولة وامتيازات معينة . فقد جربوا ذلك مع الدولتين العربيتين في مصر وسوريا ، ثم عرضوا خدماهم على الفرس إبان احتلالهم للمنطقة . وهامهم أولاء يرى فيهم المحتلون البيزنطيون ضالتهم المنشودة إبان احتلالهم لسوريا . لقد رأى فيهم قسطنطين أداة حقيقية لتحقيق مآربه وأطماعه الاستعمارية في سوريا . فعن طريق الانخراط في صفوف المسيحية التي جاءت رد فعل عربي سوري حضاري على كل التحديات الممجية والتعصبية التي جاهت المجتمع السوري . وتحت شعار التعصب لقيم الدين الجديد كان يبغى هزيمة سوريا بمسيحياتها الجديدة ، وبفكرها وتراثها الحضاري الكبير ، بضربة واحدة معاً . علاوة على قطع أي طريق آخر لكل من خصميه ومنافسيه على المنطقة شابور ملك الفرس والإمبراطور الروماني .

"ولابد من أن نذكر عن الإمبراطور قسطنطين أنه لئن احتضن المسيحية وسعى لنشرها لكنه لم يترع عنه لقب "الكاهن الأعظم" اللقب الوثني الذي يجعله حامي الدين ، لذلك لم يغلق من الهياكل الوثنية سوى التي أقفرت حين تنصر أتباعها وذووها ، والتي كانت مصدراً للرجس والعهارة . ولكي لا يجرح أحاسيس الوثنيين الكثيرون العدد في رومية نقل عاصمته إلى بيزنطية سنة 330 حيث وسّعها فنسبت إليه وصارت عاصمة القياصرة المسيحيين وارتأى بعضهم بأن قسطنطين لم يتقبل العماد المقدس حتى سنة 337م أي قبيل وفاته لمدة قصيرة ، وكان عمره آنذاك خمساً وستين سنة . فطوّبّه بعد موته المسيحيون ، وألهه الوثنيون ، لأنه أفاد الأولين ولم يسيء إلى الآخرين " (1) .

(1) انظر : مار أغناطيوس زكا الأول عيواص بطريرك أنطاكية وسائر المشرق في كتابه "سيرة مار أفرام السرياني" ص 13-14 .

إن حماسة قسطنطين إذن لنصرة حملة الدين الجديد ، واضطهاد وتصفية مناوئهم ، كانت مقتصرة على سوريا والسوريين فقط ، كما أن حماسة ذلك الرعيل من اليهود المنتصرين ظاهريا الذين حماهم قسطنطين وقرهم إليه وأنعم عليهم بالألقاب والامتيازات ، كانت تنصب بكليتها ضد التراث السوري وليس ضد التراث الوثني الروماني أو البيزنطي .

إن واقع العمالة للأجنبي هو ما انفردت وتميزت به عشائر اليهود المتخلفة في سوريا القديمة ، بعد أن انزلت بعصبيتها العشائرية التي لم تبلغ مستوى القبيلة ، فتنافست فيما بينها من أجل الحصول على المكاسب من كل غاز أو محتل للمنطقة . وهكذا نرى أنه في زمن الاحتلال الروماني أيضا تتكرر النغمة ذاتها ، ويجد المحتلون الرومان في كهنة اليهود أدوات جاهزة من ذي قبل للاستخدام ضد أبناء وطنهم وقوميتهم العربية الواحدة لقاء بعض العملات والامتيازات التافهة . " فكانوا في عهد الأباطرة معفيين من الخدمة في الجيش ومن الطقوس الواجبة نحو الإمبراطور . فلم يطلب منهم المساهمة في عبادة الحاكم الروماني المقرونة بتقديم القرابين له .

" وحصل الصدوقيون الذين كانوا يمثلون الفئة الأرستقراطية ويحتكرون الوظائف على تأييد روما " ⁽¹⁾ وبالفعل كان الرومان يستخدمونهم كوكلاء في بعض المدن أو المناطق أو على خطوط التجارة تماما كما استخدمهم السوريون والمصريون والفرس . " وعندما عهد إلى أنطونيوس بشؤون الشرق أهل الأسرة المكابية* ووضع مكانها الأسرة الهيرودية ، وكان مؤسس هذه الأسرة سياسيا أدوميا** ماهرا وهو يهودي وقد منح الرعوية الرومانية وعينه يوليوس قيصر وكيلا للجباية عندما زار سوريا ⁽²⁾ . ولا بد من الإشارة هنا

(1) فيليب حتي ، "تاريخ سوريا " ومن ضمنها لبنان وفلسطين " الجزء 1 ، ص 375 .
* نسبة إلى بلدة "مكاب" في منطقة جيزان من جنوب غرب شبه الجزيرة العربية .
** نسبة إلى أدوم وهي جبل سعيير شرق بلاد زهران ، وأدوم هو الاسم الآخر لعيسو أخي يعقوب .

(2) المصدر السابق ، ص 311 .

إلى أن هذه الوكالة هي على الخط التجاري في شبه جزيرة العرب ، والمكابيون نسبة إلى مكاب جنوب أهما شرقي البحر الأحمر .
أما النصوص التي نوردتها في هذا الصدد مما كتبه "أوزيب" نفسه ، فسوف نوردتها في معظمها ، تاركين أمر التعليق عليها إلى ما بعد العرض .

الفصل الحادي عشر

التمهيد للحياة الإنجيلية

القسم الأول

المدخل إلى سانشونيانتن

كتب أوزيب في الجزء الأول من كتابه "التمهيد للحياة الإنجيلية" فقال :

.....

(أوزيب)

— إن تعدد الآلهة ، هذا الضلال الذي أخذت به الشعوب ، ابتداءً عند الفينيقيين والمصريين ، وانتشر عن طريقهم إلى الشعوب الأخرى حتى وصل إلى اليونانيين . والتاريخ منذ الأزمنة القديمة يحمل البرهان على ذلك . وقد آن الأوان لأن نمنع النظر فيه بادئنا بالفينيقيين .

إن سانشونيانتن شخصية من العهود القديمة ، نستطيع أن نقول عنه ، إنه قبل زمن طروادة ، إذا شئنا تعيين الزمن الذي كتب فيه تاريخ فينقيا . وهو يقص الأمور نفسها في تاريخه .

وقد قام فيلون الجبيلي ، وهو ليس فيلون اليهودي ، قام بترجمة جميع تاريخ سانشونيانتن من لغة الفينيقيين إلى اللغة اليونانية ، وبذلك جعله معروفا .

وقد ذكر بورفوريوس ، الذي يكتب الافتراءات ضدنا ، ذكر في كتابه الرابع هذه الأشياء ، مرددا كلمة فكلمة الشهادة التالية لسانخونيانتن .

(بورفيروس)

— "سانخونيائين البيروتي يقص ، مع الحرص الكبير على الحقيقة ، جميع ما له علاقة باليهود ، لأنه لم يغير الأمكنة أو الأسماء⁽¹⁾ . وقد كانت بين يديه مذكرات ألفها جيروم بعل ، كاهن الإله جينو ، و جيروم بعل كان قد قدم تاريخه لأبيعل ملك بيروت ، فتلقاه هو وجماعة كلفت بفحصه والنظر إلى ما فيه من حقائق . وزمن هؤلاء الناس يعود إلى ما قبل حرب طروادة ، وهو يقارب الزمن الذي عاش فيه موسى ، كما يدل على ذلك تعاقب ملوك فينيقيا⁽²⁾ .

أما بخصوص سانخونيائين الذي يعني صديق الحقيقة بلغة الفينيقيين ، فقد جمع جميع التاريخ القديم في المعابد الموجودة في كل مدينة ، وصنف تاريخه منها . وهو عاش في زمن سميرا ميس ملكة الآشوريين . ويقدر أنه في سنوات سابقة لها ، أو على الأقل تتوافق مع زمن حوادث اليون* (طروادة) وبالنهاية فإن فيلون الجبيلي ترجم إلى اللغة اليونانية كتابات سانخونيائين"

(أوزيب)

— هذا ما شهد به المؤلف المذكور نحو حقيقة ذلك اللاهوتي وقدمه .

وهو نفسه يتابع فلا يحدثنا عن إله متعال ، ولا حتى عن آلهة سماويين بل عن رجال ونساء فانيين . بل وليس عن أولئك الذين يتمتعون بميزات أخلاقية بارزة ، تجعلهم مشار الإعجاب ، بما لديهم من فضائل ، فيكونون نماذج تحتذى ، بروحهم الفلسفية ، لكن عن كائنات تنوع بما تحمل من فساد وشر ومخجلات . ويتفق أن يكون هؤلاء أنفسهم ، ومنذ ذلك الزمن لا يزالون معتبرين كآلهة من قبل جميع الناس بحسب المدن والأمكنة . ولناخذ البرهان من خلال مقتطفات من كتابه ذاته . وفيلون الذي وزع مجموعة سانخونيائين في تسعة كتب يعرفنا به مقدما إياه بهذه الكلمات في مقدمة الكتاب الأول :

* يتضح أنه كان لطرودة اسم عربي سوري هو "إيليون" ، نسبة إلى مؤسسها السوري إيليون .

(فيلون الجبيلي)

— إن الأشياء هي هكذا : سائخونياتن شخصية جادة جداً ، ونشيطة جداً . وأراد
فوق كل شيء ، معرفة ما هي مبادئ الأشياء ومما يتكون كل ما هو موجود .
وقد بحث بإصرار كبير في تطبيق كتابات تاوتس بعد أن علم أن بين جميع
الأشخاص الذين ظهروا تحت الشمس كان تاوتس هو الأول الذي ابتكر الحروف ،
والفتح مشروع الكتابة على المعابد ، وهكذا يكون قد جعلها أساساً لجميع ما كتب ،
وهذا هو نفسه الذي يدعوه المصريون تحوت Thoyt والإسكندريون Thoth
ويترجمه اليونانيون بهرمس "مركور" .

(أوزيب)

— وبعد قول هذه الأشياء يكتب فيلون ضد جميع المستحدثات التي جاءت بعد هذه
الكتابات ، وأدخلت قهراً ، وضد كل حقيقة ، استعارات وتفاصيل فيزيائية ونظريات
في الأساطير المتعلقة بالآلهة ، ويضيف

(فيلون الجبيلي)

— " إن اللاهوتيين الحديثين قد أتلقوا كل اثر للأمور التي حدثت عن أصول الأشياء ،
وذلك باختراع الاستعارات في الأساطير لغاية جعلها تتناسب مع حركات الكون ،
وعلى هذا النسق أنشأوا طقوس الأسرار Mysteres ونشروا هكذا ، ظلمة كثيفة
فوق جميع هذه الأشياء ، بحيث لم يعد من السهل تمييز ما حدث بالواقع ولكن هذا
(سائخونياتن) كان اكتشاف في المعابد الكتابات المقدسة للأمونيين ، حيث كانت
محفوظة هناك ، وقلائل هم الذين كانوا يعرفونها ، وهو انكب على دراستها في جميع
ما تحتويه ، ثم قام بهذا المشروع فأنجز خطته بإقصاء القصص المبنية على العناصر
والاستعارات ، حتى وصل إلى الذي حدث في الأزمنة التي أعقبت الكهنة الذين شأؤوا
إخفاء الحقيقة وإحلال هذه الخرافة الشريفة مكانها ، أصل السر ، وهي التي لم تصل
بعد إلى الإغريق " .

(أوزيب)

— ويتابع بعد ذلك :

(فيلون الجبيلي)

— "نحن اكتشفنا هذه الأشياء برغبة حقيقية ثابتة في تعريف تاريخ فينقيا وذلك بعد بحث مواد مختلفة ، وعند غير الإغريق ، لوجود التناقضات وسيطرتها في كتابتهم التي تم إنشاؤها بروح الجدل أكثر من أن تكون حبا بالحقيقة "

(أوزيب)

— وبعد تأملات أخرى يتابع :

(فيلون الجبيلي)

— "إني باق على اقتناعي بأن دراسات سانخونيان تستحق الثقة ، مع الأخذ بعين الاعتبار جميع تبين آراء الإغريق التي كانت أتاح لي فرصة لتأليف موضوع في ثلاثة كتب بعنوان "من التاريخ العجيب" .

(أوزيب)

— وبعد ملاحظات جديدة ينهي قوله :

(فيلون الجبيلي) :

— " إنه من الضروري الإعلان سلفا ، وبكل صراحة ، ومن أجل المعرفة الجزئية لجميع ما تلا ذلك ، أن أقدم الشعوب (صارت في طبقات لاحقة " البرابرة ") ، وبخاصة الفينيقيين والمصريين الذين كانوا كمرشدين لجميع الناس الآخرين ، كانوا يرون أن الآلهة الكبار هم أولئك الذين حققوا اكتشافات لمساعدة وجودنا ، أو الذين عمموا الخير ، مهما تكن طبيعته ، بين الشعوب . وقد دعي هؤلاء محسنين ، بسبب أعمال الخير الكثيرة التي يدين لهم الناس بها ⁽³⁾ . وقد عبدوهم كألهة ، ولهذا الغاية كرسوا لهم هياكل ، كما هي الآن بالتوارث ، كما أقاموا لهم أنصابا وسواري عبدوها باحترام كبير . وقد احتفل الفينيقيون بأكبر أعيادهم على اسم هؤلاء ، كما بنوع خاص تيمنوا باسم ملوكهم الذين كان يعتبر بعضهم كألهة ، لأنهم لم يعترفوا بآلهة

طبيعية غير الشمس والقمر والنجوم والكواكب ، وكل ما يدخل في نظام الأفكار
هذه : حيث كان لهم آلهة فانون وآلهة خالدون " .

(أوزيب)

— وبعد أن يقوم فيلون بهذه الإيضاحات النافعة في مقدمته ، ينتقل مباشرة إلى ترجمة
سانخونياتن الذي يعرض تطور اللاهوت الفينيقي قريبا من هذا .

القسم الثاني

لاهوت الفينيقيين

[لما كان اللاهوت ليس موضوع حديثنا هنا فإننا نتجاوز الفقرات التي يوردها أوزيب نقلا عن فيلون الجبيلي و سائخونياتن ، لندخل مباشرة في صلب موضوعنا من خلال الفقرات التي لها مساس مباشرة به — المؤلف] .

.....
.....

IV

(أوزيب)

وقال بعد ذلك :

(سائخونياتن)

— " ومن الريح كوليا *Kolpia* ، ومن امرأته بأو *Baau* التي يترجمها ليل *Nuit* ولد الإنسانان الفانيان أيون *Aeon* وبروتوجون *Protogone* وقد اكتشف أيون الغذاء الذي تقدمه الأشجار وهذان أهل جينو *Genos* وجينا *Genea* اللذين سكنا فينيقيا ، حدث جفاف كبير فمدا أيديهما نحو السماء والشمس " .

تلخيص أوزيب :

— قال بأنهم كانوا يرون هذه كالإله سيد السماء ، وقد سموها " بعل سمين " وهذا يعني عند الفينيقيين " سيد السماء " وهو زيفس (جوبيتر) عند الإغريق وبعد ، يهاجم فيلون ضلال الإغريق :

(فيلون الجبيلي)

" ولا نقوم بهذا التمييز بدون أساس ، بل لإقامة المبدأ الحقيقي الذي عليه يتم احتقار هذه الأسماء المستعملة للأشياء ، وهذا ما جهله الإغريق وأخذوه على وجه آخر ، بعد أن ضللتهم أخطاء الترجمة " .

(أوزيب)

— ثم يتابع :

(سانخونياثن)

— "ومن جنوس ابن آيون وبروتوجون ولد أبناء آخرون فانون ، وقد دعوا فوس وبير
Pyr وفلوكس Plox (النور والنار واللهب) ، وهؤلاء هم الذين ابتكروا النار بحك
قطع من الخشب ، الواحدة على الأخرى . وعلموا هذه الطريقة للآخرين . وكان لهم
أبناء ذوو عظمة وسيادة بارزة ، وقد أعطوا أسماءهم للجبال التي كانوا حكاما بها .
ومنهم جاءت أسماء كاسيوس ، ولبنان ، وأنتيلبنان ، وبراثي Brathy ومن هؤلاء
دق يوم سممرومس Samemroumos وهو هيسورانيوس "

(تلخيص أوزيب)

— وقد لاحظ أن الرجال ينسبون لأمهاتهم ، وأن النساء يستسلمن بدون خجل لأول
عابر سبيل قال متابعاً :

(سانخونياثن)

— "إن هيسورانيوس سكن صور ، وابتكر أكواخ القصب والخيزران والبردى . وقد
تشاجر مع أخيه أوزوس الذي تخيل جمع جلود الحيوانات التي يحصل عليها ليعمل منها
دثاراً لجسده . وحدثت أمطار شديدة ورياح عاصفة ضربت صور وكسرت الأشجار ،
واشتعلت النار في الغابة فأحرقتها .

أخذ أوزوس شجرة ، وجردها من أغصانها ، وغامر بها في البحر ، فكان أول من فعل
ذلك . وقد أقام نصبين : واحدا للنار والآخر للريح وعبدتهما بنشره هناك دماء الحيوانات
التي اصطادها .

(تلخيص أوزيب)

— ولما مات هؤلاء ، قال بأن أولئك الذين خلفوهم أوقفوا نصبا وسواري قاموا أمامها
بمراسم العبادة ، وأقاموا الأعياد السنوية على شرفهم .

(ساخونياتن)

— وقد انقضت قرون منذ عصر هبسورانيوس حتى ولد اغروس *Agreus* واليوس *Ileos* اللذان ابتكرا صيد البحر وصيد البر . وقد أعطى هذان اسميهما لهاتين الحرفتين . ومنهما وجد أنخوان مبتكران للحديد ، ولكل المصنوعات التي تعتمد عليه . وأحدهما وهو كراسر انكب على تأليف الخطابات وعلى السحر والنبوءات ، بينما هيفستس *Hephoestus* هو الذي أوجد الصنارة والطعم وقصة الصيد والطوف .

(تلخيص أوزيب)

— وقد أبحر كل الناس ، ولذلك ، بعد موته ، عبد كاله ، ودغي زوس ميشيوش *Zeus Michius* . وهم يقولون إن إخوته ابتكروا البناء بالآجر — ويتابع بعد ذلك أن من هذه السلالة خرج فتیان دعي الواحد منهما تقنيتس *Technites* وهو محترف ، والآخر (أرضي) أوتوكتون *Auto chtone* . وهذان تخيلا مزج الصلصال المبلول بالقش ، وجعلوه يجف بالشمس ليصنعوا منه لبنات البناء ، كما اهتموا كذلك إلى إشادة السقوف " .

(ساخونياتن)

— "وجاء منهم آخرون بينهم اسم اغروس *Agros* ثم اغرويوس *Agroueros* واغروتس *Agrotes* الذي لتمثاله ومعبده الخفيف الحمل والنقل احترام كبير في فينيقيا ويعتبره سكان جبيل ، على الأخص ، أكبر الآلهة . وهؤلاء هم الذين عرفوا فكرة الباحات أمام المنازل ، وعملوا تصويينات وكهوبا ، وهم الذين تحدر منهم الصيادون ذور الكلاب ، ويدعونهم قبائل تائهة ، وتيتان *Titans* .

وهؤلاء خلفوا أمونون *Amunon* وماغون *Magon* اللذين خططا القرى والمراعي التي منها ولد ميسور *Misor* وصديق *Sydic* ، أي المتحرر والعاذل ، واكتشفوا صناعة الملح ومن ميسور ولد تآوتس الذي اكتشف الكتابة وصاغ ، أولا ، الحروف،⁽⁴⁾

ويدعوه المصريون ثور *Thoor* والإسكندريون ثوث والإغريق هرمس (مركور) .
ومن صديق ولد الديوسكورس ، أو كبيرس *Cabires* ، أو كوريانتس *Corybentis*
أو ساموتراس *Samothras* ، وابتكروا ، أولا ، السفن .
ومن هؤلاء ولد رجال آخرون ، وجدوا عقاقير طبية لشفاء العضات السامة واخترعوا
كلمات السحر "

ix

(ساخنونياتن)

— " وفي عصر هؤلاء ، ولد واحد يدعى عليون *Hypsistos Elioun* وزوجته تدعى
بيروت ، وهي في إقليم جبيل ومن هذين ولد إبيجيوس *Epigeios* أو اوتوكتون ، وقد
دعى منذئذ أورانوس *Uranos* السماء ، وباسمه سمو الكائنات الموجودة فوق
رؤوسنا ، والتي يضيف عليها جماله . وله أخت من الأبوين نفسيهما ، وهي تدعى "غايا"
Ghe (الأرض) . ولجمالها — يقول — سموا مثلها ما يوافق أسمها باللفظ وهبستوس
والد هؤلاء بعد أن أنهى أيامه في مخاطرة مع الحيوانات المفترسة ، تلقى من أبنائه شرف
التأليه ، وقدموا له التقدّمات والأضحيات ، وبعد أن حصل أورانوس على تراثه تزوج
أخته "غاية" فرزق منها بأربعة أولاد : ايلوس *Ilus* (إيل) ، أي كرونوس ، وبتيل
Betyl وداغون الذي يدعى سيتون *Siton* . وأطلس .

وكان لأورانوس أيضا زوجات أخريات أعطوه نسلا كثير العدد وقد أثارت الغيرة
" غاية " فبحثت عما يضر بأورانوس إلى حد افتراق واحدما عن الآخر .
كان أورانوس ، إذن ، مفترفا عنها ، وكان يواصلها بالعنف في كل مرة ، عندما تكون
لديه الرغبة . وينتهي بمفارقتها من جديد ، وقد حاول القضاء على أولاده منها وحتمهم
غايا مرارا بمساعدة معاونيها الذين جمعتهم حولها .

وعندما أدرك كرونوس سن الرجولة عهدت به إلى هرمس العظيم ليرشده ويحميه ، وقد
غدا أمين سره ، وساعده على دفع والده ، منتقما لوالدته .

(سانغونيأتين)

— "ولكرونوس من البنات بروسرين ومنيرفا . الأولى ماتت وهي عذراء ، وبإشارة من منيرفا وهرمس صنع كرونوس من الحديد منجلا وحرية . ثم إن هرمس تلفظ بكلمات سحرية على أتباع كرونوس ، فألهم فيهم الرغبة في القتال ضد أورانوس ، انتقاما لشرف "غايا" . وهكذا شن كرونوس الحرب على أورانوس ، وطرده من مملكته وخلفه في السلطة .

وفي القتال كانت محظية أورانوس المحبوبة قد أسرت وهي حبلى فأعطاهما كرونوس كنزوجة لداغون . وولدت طفلا عرفت أنه من أورانوس ودعته دمارون .

وفي غصون ذلك أحاط كرونوس منزله بسور ، وأنشأ أول مدينة في فينيقيا التي كانت جبيل . وبعد ذلك أتهم أخاه أطلس ، بتحذير من هرمس ، فطمره في أعماق الأرض وأقام فوق جسده كومة من التراب . وحوالي هذا التاريخ كان أولاد ديوسكورس (50) نظموا جميع أجزاء الأطواف والمراكب ، وابتدأوا بالإبحار ، واندفعوا صوب جبيل كاسيوس ، فأقاموا هناك معبدا

وقد دعي أتباع (إيل ، كرونوس) إيلوم* *Eloim* وذلك استجابة للكرونيين وقد دعوا بذلك نسبة لكرونس

وكان لكرونوس ولد يدعى سديد *Sadid* ...

ومع الزمن أرسل أورانوس من مكان لجوئه ابنته عشتارتا *Astaste* مع اثنتين من أخواتها هما رحيا *Rhea* وديوني *Deoni* للقضاء على كرونوس بنصب كمين له ولكن كرونوس اتخذهما زوجتين له ..

وعرف أورانوس بما حصل لمشروعه ، فوجه ضد كرونوس حمارين وهورا مع أتباع آخرين . ولكن كرونوس عرف كيف يصلحهما ويحتفظ بهما قربة .

• صيغة جمع كنعانية ، يقابلها " ألويين " في العربية الفصحى ، وهي نسبة إلى " إل " أو " عل " — أي أتباع إيل .

(تلخيص أوزيب)

ويقول أيضا : " إن الإله أورانوس ابتكر وركب حجارة حية " .

.....
.....
.....

وضعت عشتارنا على رأسها كإشارة للملك رأس ثور ، وعند تجولها في العالم وجدت نجما يشق الهواء ، فالتقطته وكرسته في جزيرة صور المقدسة .
... وكرونوس عند تجوله في العالم أعطى لابنته أثينا مملكة أتيكا .
وقد انتشر طاعون وموت كثير ، فضحى كرونوس أضحية لوالده أورانوس وختن نفسه وأجبر أتباعه على فعل ذلك .

وبعد زمن قليل كرس ابنه الذي ولد من رهيا بعد موته ، وكان يدعى "موت" ...
وبعد ذلك أعطى كرونوس الإلهة بعلت Baaltis وهي نفسها ديوني ، أعطاها جييل .
وبيروت لبوزيدون ، وللكبيرين فلاحين وصيادي سمك ، وهؤلاء هم الذين كرسوا بقايا بونت في بيروس :

" وقبل هذه الأشياء ، كان تآوتس قلد أورانوس ، ورسم بالحفر تعابير وجوه الآلهة :
كرونوس وداغون وآخرين ، الذين هم السمات المقدسة للحروب .
وتخيل أيضا ، بفضل كرونوس ، رمز الملكية ، ... وعندما جاء كرونوس إلى بلاد الجنوب Midi* أعطى مصر بكاملها للإله تآوتس لتكون مملكة له .

.... وبعد ذلك كان ثابيون أول كاهن عظيم من بين جميع أولئك الذين كانوا في فينيقيا ، والذين ترجم لهم بواسطة الاستعارة في مجموعهم ، وتم اختلاطهم بحركات العالم الطبيعية فانتقلوا إلى مديري حفلات المجون** Orige وإلى أنبياء الأسرار وهؤلاء ،
رغبة في زيادة الغموض في جميع هذه التقاليد ، أضافوا إليها ابتداعات جديدة علموها لمن خلفهم ، ولمن أشركوه معهم في طقوس الأسرار .

* إن أرض ميدي ما تزال جنوب جيزان على البحر الأحمر
** من الفعل "أرج" في السريانية والفينيقية ويعني رغب ، شوق ، أثار ، هيج ، اضطرب ، متع ،
لئذ ...

ومن هذه الجماعة كان أوزيريس مبتكر الحروف الثلاثة وأخ قناء 'Chna' الذي كان أول من غير اسمه إلى فينيقي .

Xvii

(أوزيب)

وبدون توقف يتابع أيضا :

(فيلون الجبيلي)

— " إن اليونان البارزين بين جميع الشعوب بخيالهم البارع قد انسجموا مع معظم هذه الأشياء ، وأضافوا إليها توشيات مختلفة ليعطوها صبغة دراماتيكية وقد استهدفوا سحر الخرافة ، فمسحوا معالمها مسحا تاما .

...لقد ألفت آذاننا منذ سنواتنا الباكرة سماع مروياتهم الكاذبة، ونفوسنا التي تشربت هذه الأباطيل منذ قرون تحفظ هذه الخرافات المصطنعة كأنها كثر ثمين ، كما قلت عندما بدأت .وقد جاء الزمن فقوى مؤلفهم، وجعل هذا الاختلاس قوي المركائز تقريبا إلى درجة تظهر معها الحقيقة وكأنها هذيان وتظهر المرويات الصيبانية مكان الحقيقة " (5)

(أوزيب)

ولتقف هنا عند نهاية نصوص مؤلف سانشونياتن الذي ترجمه فيلون الجبيلي ، والذي عرف جيدا بعد الفحص بشهادة الفيلسوف بروفوريوس وفيلون نفسه في كتابته عن الشعب اليهودي يورد ما يأتي عن كرونوس :

(فيلون الجبيلي)

— " إن ثاوتس الذي يدعوه المصريون تحوت ، وقد سيطر بعقريته على جميع الفينيقيين ، كان أول من نظم العبادة التي استخرجها من غشامة العامة وعمل منها خبرة واضحة مفهومة . وبعد عدة أجيال قام الإله صور موبيلس وثورو الملقب كوسارتيس الذي مشى على خطاه بوضع العلم الإلهي لثاوتس بكل ما له من بريق ، وهو ما اختفى ولفه الغموض بدخول المعميات " (6)



والآن لنستعرض معا بعض نقاط هذا النص :

(1) : " ساخنونياتن البيروتي يقص ، مع الحرص الكبير على الحقيقة جميع ما له علاقة باليهود ، لأنه لم يغير الأمكنة أو الأسماء " — هذا ما يقوله المؤرخ العربي السوري "ملك" الذي لقب بـ "المكسو بالأرجوان الملكي" أو "برفوروريوس" الذي عاش ما بين 233 — 305م ، وأحرقت أكثر مؤلفاته بصورة علنية في عهد تيودوسيوس الثاني عام 448 م .

إن في هذا القول اعترافا صريحا من "أوزيب" بحرص ساخنونياتن على الحقيقة فيما كتب عن اليهود ، وإلا لما أورد مثل هذه العبارة على لسان المؤرخ والعالم الرياضي والفيلسوف النحوي البليغ "ملك" دونما أي تعليق . والأهم من هذا وذاك هو تلك العبارة التي تكاد تكشف الحقائق كلها ، والتي أوردتها "أوزيب" على لسان "ملك" (برفوروريوس) بسذاجة منقطعة النظير ، إنها عبارة "لأنه لم يغير الأمكنة أو الأسماء" . ففي هذه العبارة يكمن السر الكبير كله . إنها تلخيص عجيب لكل ما تعرض له تاريخ سوريا وجغرافيتها على أيدي كهنة التوراة و مترجميها الاثني والسبعين إلى اليونانية . لقد بدلوا في الأسماء ، كما بدلوا في المواقع . فلما كانت الكتابة العربية ، بكل أشكالها ، خالية من الأحرف الصوتية فقد كان سهلا على مزوري الأسماء تبديل قراءاتها كما يطيب لهم ، وبالتالي تغيير مواقعها . إن كلمة مثل "ءمن" مثلا يمكن أن تقرأ "ءمن" و "أمون" و "عمون" و "عمان" و "عمان" و "أمين" وغير ذلك من الكلمات والقراءات الأخرى .

إن "ساخنونياتن" ، إذن ، حرص على قول الحقيقة في كل ماله علاقة باليهود ، ويشهد على ذلك "برفوروريوس" الذائع الصيت بحرصه على الدقة والموضوعية ، فقد جاء في موسوعة أو كسفورد عنه أن أعظم خدمة قدمها "برفوروريوس" للفلسفة هي حرصه على ذكر الأسماء إلى جانب النصوص والأقوال التي كان يستعيرها من الآخرين ، إنه لم ينتحل ملك غيره ويجعله لنفسه في زمن كانت الكتابات فيه كلها تخلو تقريبا من أية إشارة إلى المصادر" . أما نقلة التوراة إلى اليونانية فقد غيروا الأسماء والمواقع الجغرافية لتلك الأسماء بشهادة "ملك" (برفوروريوس) نفسه . إن ذلك كان وحده سببا كافيا لأن تدمر جميع

مؤلفات سانشونيانتن ، وفيلون الجبيلي الذي ترجمها إلى اليونانية ، وفرفوريوس ، الذي كشف عملية التزوير الكبرى في التاريخ والجغرافيا عبر الترجمة "السبعونية" للتوراة . إن من المعروف أن جيلا متعصبا من الكهنة اليهود لبسوا لبوس المسيحية وبمساعدة السلطات البيزنطية المحتلة من أن يوجهوا ضربة كادت أن تكون قاضية إلى التراث الفكري العربي السوري تحت شعار " تدمير التراث الوثني " بعد أن عجزت عصبيتهم القبلية الضيقة عن الوقوف في وجه التيار الإنساني العالمي الرحب الذي خلفته الحضارة السورية ، وعملت على أن يشمل حوض المتوسط كله ثم العالم .

(2) إن هذه النقاط جميعها تؤكد ، بما لا يقبل الشك أو الجدل ، سعي سانشونيانتن خلف الحقيقة ، من جهة ، كما تكشف ذلك المستوى الرفيع الذي بلغته الحضارة العربية السورية في كتابة التاريخ منذ الألف الثاني قبل ميلاد المسيح ، المستوى الذي لم يصل إليه معظم المؤرخين الغربيين اليوم الذين أفرزتهم عصور الاستعمار

(3) إن هذا يؤكد صحة وجهة نظرنا التي سبق أن بيناها فيما يتعلق بطبيعة النظرة العربية القديمة إلى الأرباب أو الآلهة . لقد كنا قد أوضحنا كيف أن العربي ، من خلال تعلقه الكبير بالمناقب العظيمة ، كان يتعلق بأولئك الآباء الذين يجسدون تلك المناقب بصورة من الصور ، سواء أكانت في هيئة سلوك أخلاقي رفيع متميز ، أو في هيئة إنجاز علمي ، أو اجتماعي ، أو حقوقي ، أو غيره مما قد يساعد الناس جميعا في عملية ارتقائهم في حالة أدنى من التطور إلى حالة أعلى . وقد كنا قد خطأنا النظرات القائلة بأن العرب كانوا يعبدون أجدادهم وقلنا إن تلك العبادة لم تكن تمضي إلى أبعد من الاجلال والتعظيم والتقديس ليقبوا — فيما جسدوا من إنجازات أو قيم — أمثلة تحتذى ، أحياء في الذاكرة ، خالدين . إنه الخلود نفسه الذي توصل إليه جلعامش في رحلته الشاقة الطويلة بعد موت صديقه انكيدو البطل .

(4) إن هذا يؤكد مرة أخرى ما أجمعت عليه كل المصادر والأبحاث التاريخية اليوم من أن العرب كانوا من اخترع الكتابة وكذلك الأحرف الأبجدية ، كما أنه يؤكد أقوال المؤرخين العرب الكلاسيكيين أمثال الطبري ، وابن الأثير ، والمسعودي ، وغيرهم الذين

أجمعوا على أن ملوك مصر (العشيرة) ، كانوا من العرب السوريين (العماليق) ، أما "تحوت" هذا فقد ذهب من غرب شبه جزيرة العرب إلى مصر وادي النيل ، ونقل معه الكتابة . وجريا على عادة كل العرب فقد جرى تقديسه في مصر ، كما صار يتيمن به مقرونا مع أسماء الأشخاص ولاسيما الملوك منهم ، وأحل فيما بعد محل الأرباب العظام بالمفهوم الذي كنا قد أوضحناه من قبل . وليست الأسماء مثل " تحوت مس " و "تحوت عنخ أمون" وغيرها سوى شاهد على ما صار يتمتع به "تحوت" هذا من قدسية لدى قدماء المصريين .

(5) إن فيلون الجليلي يضع فكر بلاده الديني في موقع المناقض لكل تلك الأساطير التي يتدعها الآخرون سواء من اليهود ، أو من غيرهم بحيث صار الزيف يطغى على الحقيقة ، والوهم على ما يجري في الواقع . إن في ذلك دلالة كبيرة على ما كان يتمتع به العرب السوريون من روح علمية في نظرهم إلى الأشياء من حولهم ، بعكس ما قد أشيع في عصور الاستعمار عن العرب الذين يسيطر عليهم جو الوهم والخرافة من قديم الزمان وحتى اليوم . إن العقل العربي السوري يتجلى ، من خلال أقوال فيلون وغيره ، بأهـى صورة في مجال التعامل مع الواقع المحيط ، وفي مجال الإبداع أيضا ، وإن هذا العقل هو الذي كان يستغث من ضغوط الأوهام والخرافات التي حيكت من حوله وكادت أن تطفئه وتجهز عليه .

(6) وليس أدل على ذلك مما يقوم به سانخونياتن من جمع للمواد المتوفرة والمحفوظة في معابد أمون ، من أجل أن ينكب عليها ، وينجز خطته في إقصاء كل القصص المبنية على عناصر خرافية ، واستعارات غيبية لا أصل لها ، ويظهر بذلك حقيقة الأشياء جليلة ناصعة خالية من كل زيف . ومعابد أمون المنتشرة من شبه جزيرة العرب إلى وادي النيل كانت تحوي كنوز المعارف العربية القديمة .

أما قوله " حتى وصل (أي سانخونياتن) إلى الذي حدث في الأزمنة التي أعقبت الكهنة ، فإنه يؤكد أن سانخونياتن كان قد تحدث عن زمان موسى مفصلا ، لكن "أوزيب" أثر ألا يستعرض أي شيء مما كتبه سانخونياتن عن ذلك الزمن . حتى يبقى المجال خاليا من

أي عائق أمام إحلال " الحقائق " الجديدة المصطنعة أمام الحقائق الأصيلة بعد أن تدمر مؤلفات ساخونياتن وفيلون وفروريوس .

كان اليونانيون السوريون يطلقون اسم البرابرة على كل الشعوب الأخرى من غير اليونانيين الذين لا يتكلمون اليونانية التي هي العربية السريانية كما صار ثابتا اليوم ، كما كان العرب يطلقون اسم " العجم " على كل من لا يتكلمون العربية ، وإن العبارة التي تلي توضيح ذلك ، إذ اعتبر السوريين والمصريين معلمين ومرشدين للآخرين وليس العكس .

إن هذا يؤكد مرة أخرى صحة ما ذهبنا إليه في فهمنا لطبيعة القول حول عبادة العرب لأجدادهم ، كما يدحض ما قاله "أوزيب" في المقطع الثالث من هذه النبذ حينما يتعرض بالهجوم لأولئك الآباء " المؤهلين " الذين — كما يزعم — لا يتمتعون " بمميزات أخلاقية بارزة تجعلهم مثار الإعجاب بما لديهم من فضائل فيكونون نماذج تحتذى بروحهم الفلسفية " إن هذا القول يضع الفكر الديني العربي السوري في جانب والفكر الديني الذي يمثل الكهنة التوراتيون في جانب آخر مناقض . فالعرب السوريون عموما من بابل إلى شواطئ البحر الأحمر ووادي النيل . ومن الخليج العربي إلى البحر المتوسط ، الذين " كانوا كمرشدين لجميع الناس الآخرين (أي كانوا معلمين لجميع الناس) " ، كانوا يرون أن الآرباب الكبار هم أولئك الذين حققوا اكتشافات لمساعدة وجودنا ، أو الذين عموما الخير ، مهما تكن طبيعته ، بين الشعوب وقد دعي هؤلاء محسنين بسبب أعمال الخير الكثيرة التي يدين لهم الناس بها وقد قدسوهم كأرباب أي سادة ومعلمين . ولهذا الغاية فقد كرسوا لهم هياكل ، كما هي الآن بالتوارث ، كما أقاموا لهم أنصابا وسواري عبدوها باحترام كبير ... " إن هذا التقليد مايزال ساريا عند العرب ، كما عند غيرهم من الشعوب حتى اليوم . أما الآخرون من كهنة التوراة فقد عجزوا — بسبب بدواقم المتخلفة جدا بين مراكز الحضارة المتطورة الأخرى في شتى أرجاء الوطن العربي السوري — عن أن يجدوا تجسيدا ، لمثل هذا الفكر ، إذ أنه من الصعب جدا على

البدوي بعقليته المتخلفة أن يقفز فوق الإنجازات الحضارية السائدة ويدع خطوات ومنجزات أخرى أكثر تطوراً قبل أن يجتاز مرحلة طويلة من الاستقرار والتمدن . من المعلوم أن العرب ، منذ أقدم العصور وحتى اليوم ، اتبعوا في ممارسة تقديس الأجداد طقوساً معينة ، كان من أبرزها دائماً أن تجعل قبور أولئك العظماء على مرتفعات بارزة ، ويبني لهم أضرحة متميزة عن قبور غيرهم من البشر العاديين ، يزورها الناس ، ويذبحون عندها الذبائح ، يوقدون البخور ، وتسمى مزارات ، وقد تستنسخ منها أضرحة تحمل اسم الرجل العظيم صاحب الضريح ، وتدعى حينئذ مقامات ، وتنتشر هذه المقامات في شتى بقاع الوطن العربي .

إن هذه الظاهرة التي ما تزال حية حتى يومنا هذا ، لن يتمكن أحد من فهمها كما هي غير أبناء المنطقة وحدهم . ففي الوقت الذي يجد الباحثون الأجانب في كل قبة⁽¹⁾ أو مزار إلهاً ، ثم تملكهم الحيرة أمام كثرة الآلهة من جهة ، وأمام تحديد الشخصية التاريخية والموقع الجغرافي الأول لهذا الإله أو ذاك ، من جهة أخرى ، نجد أن الدارسين العرب هم الأقدر والأجدر في فهم هذه الظاهرة ، وإرجاع كل شيء إلى حقيقته الأصلية ، دون أن تملكهم عقدة النقص المدمرة أمام "علم الأجنبي" منذ بداية الحقب الاستعمارية وحتى اليوم ، إذ ثبت ، حتى الآن ، أن التاريخ الذي كتب من وجهة نظر أولئك لم يكن علماً في التاريخ بقدر ما كان علماً في التوصل إلى أقرب الطرق من أجل ضمان حياة الاستعمار ، وهيمنة النظم الاستعمارية على أطول فترة زمنية ممكنة .

وقبل أن نحاول دراسة أسماء الأجداد "الآلهة" ، الذين أوردتهم "وأبقى عليهم" "أوزيب" في دراسته النقدية لفيلون الجبيلي وساخونيّاتن ، من الناحية التاريخية والجغرافية ، نرى من المفيد هنا أن نسجل الملاحظات التالية :

1 — إن العرب السوريين كانوا مؤسسي علم التاريخ ، كما كانوا مؤسسي غيره من العلوم ، وها نحن نرى كيف أن أعدى أعدائهم يشهدون لهم بالعلمية ، والموضوعية

(1) إن كلمة "قبة" المستخدمة بكثرة اليوم للدلالة على قبور أولئك الأجداد هي نفسها كانت تستعمل قديماً ، وتلفظ "جب" بالجمع المصرية ، وتعني "قبر" أو "مقام" وليست "جبيل" إلا جب إيل أي "قبة إيل" "مقام إيل" الذي هو نفسه "قرونو" الذي قام ببنائها كما مرّ .

وتحري الدقة في تسجيل التاريخ منذ الألف الثاني قبل الميلاد . إن المؤرخ اليوناني هيرودت ، الذي عاش في القرن الخامس قبل الميلاد ، زار المنطقة العربية ، الممتدة من ساحل البحر المتوسط ، إلى سواحل البحر الأحمر ، ومصر ، وشبه جزيرة العرب ، وسجل ملاحظاته عن كثير من المواضع والمواقع ، وعن عادات الناس ، وطرق وأساليب عيشهم كما أشار إلى تقدمهم الحضاري والفني والثقافي والمعماري ، وقد ذكر كيف أن الكهنة المصريين أطلعوه في هياكلهم على مدى اهتمامهم بحفظ وثائق التاريخ ، كما أكد أن تاريخ فينيقيا لم يكتب بيد شخص واحد ودفعة واحدة ، بل كانت أخبار الوقائع الفينيقية تحفظ في المعابد ويقوم عليها الكهنة ⁽¹⁾ وأشار إلى ذلك أيضا بوسيفوس صاحب كتاب " التاريخ القديم لليهود " حيث ذكر أن الرسائل بين حيرام ملك صور وسليمان بن داود كانت لا تزال نصوصها محفوظة ⁽²⁾ .

وإذا ما علمنا أن يوسفوس هذا عاش في القرن الأول الميلادي فإن هذا يعني أن العرب السوريين كانوا يحتفظون بتلك الوثائق التاريخية منذ الألف الثاني قبل الميلاد ولمدة ألف عام متواصلة دون أن يفرطوا بها ، أو تتمكن يد البلى من أن تمتد إليها . وإن في ذلك دليلا ، ليس على فرط عناية السوريين بالعلم وبالوثائق وبالتاريخ فحسب ، بل وعلى مناعة بلادهم ومدتهم ضد المحتلين والغزاة الذين لم يكن ثمة ما يشغلهم غير القتل والحرق والنهب والتدمير . وهذا ما يثبت عكس كل ما كان يحكيه ويكتبه الدارسون . ثم إن يوسفوس هذا ذكر في مؤلفه " التاريخ القديم لليهود " ترجمات لتاريخ السوريين سبقت ترجمة فيلون لسانخونيان ، وقد نسب بعضها لمرجم آخر اسمه " ميناندر " ونصوصا أخرى نسبها للمؤرخ اسمه " ديون " ⁽³⁾ ، أما " ملك " (برفيريوس) فإنه يذكر لنا مؤلفا آخر

(1) هيرودت ، الكتاب 2 : 145،44 .

• لم يعرف تاريخ مدينة صور اللبنانية ملكا بهذا الاسم ، بينما عرفت جبيل ملكا باسم أحيرام (وليس حيرام) ، وهذا دليل على أن صور المقصودة في التوراة وليست في لبنان . كما أن " صور " التوراتية هي اسم عشيرة تنتمي إلى صور من أبناء مدين بن أبناء إبراهيم من زوجته قطورة (يشوع 13 : 21) .

(2) يوسفوس ، الكتاب 8 : ف 2 .

(3) المصدر نفسه ، الكتاب 8 ف 2 ، 9 ف 14 .

اسمه "جيروم بعل" الذي اعتمد سانخونياتن في حديثه عن كل ما له علاقة باليهود على التاريخ الذي كتبه جيروم بعل في شكل مذكرات . كان قد تقدم به إلى "اييعل" ملك بيروت "فتلقاه هو وجماعة كلفت بفحصه والنظر إلى ما فيه من حقائق . وزمن هؤلاء الناس يعود إلى ما قبل حرب طروادة ، وهو يقارب الزمن الذي عاش فيه موسى ، كما يدل على ذلك تعاقب ملوك فينيقيا " .

فالتاريخ عند قدامى العرب السوريين لم يكن يكتب عشوائيا ، ولم يكن يخضع لترعات وأمزجة كتبه ، كما هو حادث اليوم . لقد كانت كتابة التاريخ مهمة علمية ، تخضع للفحص والتدقيق من قبل لجان مختصة قبل أن تحظى المادة المكتوبة بالاعتراف ، ومن ثم تصبح مادة علمية حقيقية تحفظ كجزء من التراث العلمي والحضاري ، ويحافظ ويعتمد عليها .

إن هذا بالذات هو ما جعل كلمة "التاريخ" العربية تتضمن كل ذلك الفرق بين ما هو واقعي حقيقي ، وبين ما فهمه الاغريق منها تحت كلمة "استوريا" (الأسطورة)* وإن هذا هو ما جعل خصما متعصبا مثل " أوزيب" غير قادر على أن ينكر على أولئك المؤرخين المؤسسين الأوائل لعلم التاريخ فهمهم العلمي والموضوعي ، يعمد إلى إخفاء مؤلفاتهم أو إلى تدميرها .

لقد تعرض ذلك التاريخ إلى الانكار والتزوير من جهات شتى، بدءا من الكهنة اليهود ، إلى الرومان ، إلى المسيحيين البيزنطيين الأوائل المتعصبين ضد كل ما دعو به التراث الوثني ، إلى عصر الاستعمار الأوروبي الحديث ، ثم بدأت الاكتشافات الأثرية تبشر ببعث الحقائق من جديد .

إن من المؤرخين الذين أفرزهم العصر الاستعماري انطون مورتغات . يقول انطون مورتغات في كتابه "تاريخ الشرق الأدنى القديم" في صدد حديثه عن سانخونياتن : " لقد ذكر الأب الكنسي اوزيوس بعض المقاطع من مؤلف فيلون الجليلي ، حيث كان —

* كنا قد شرحنا معنى واشتقاق كلمة (تاريخ) التي جاءت من (يرخو) ومعناها هلال . وبدأ التاريخ بالأشهر القمرية للأحداث .

كما يقال — ترجمة يونانية لعلم السماء الفينيقي ، الذي كان شخص يدعى سائخونياتن قد دونه لأول مرة في عصر الحروب الطروادية ، كان العلم قد شك في صحة هذا الأمر ، واعتبر أكثر الأحيان أن هذه الترجمة من ابتداء فيلون الجبيلي . بيد أن آثار "رأس شمرا" (أوغاريت) التي تعود إلى عصر الحروب الطروادية ، قد فتحت الآن المجال ، لينظر إلى مؤلف فيلون على أنه يتصف بشيء من الصحة"⁽¹⁾

2 — إن أوزيب يورد شهادة بروفورس (ملك) بسائخونياتن دون أي اعتراض من جانبه . فسائخونياتن البيروتي " يقص ، مع الحرص الكبير على الحقيقة ، جميع ما له علاقة باليهود ، لأنه لم يغير الأسماء أو الأسماء " . إن في هذا القول دليلا واضحا على أن الذين كتبوا تاريخ اليهود غيروا في الأسماء وفي المواقع . وإذا ما علمنا أن يوسفوس اليهودي هو الذي كتب " آثار اليهود : و " الحرب اليهودية " وقد عاش في القرن الأول الميلادي ⁽²⁾ ، أي بعد سائخونياتن ، الذي عاصر أهم أحداث تاريخهم وحروبهم في غرب شبه جزيرة العرب ، بحوالي ألف وخمسمائة عام ، ولم يتطرق إلى ذكر سائخونياتن أو غيره ، بل إنه لم يشير إلى تلك الوثائق الكثيرة المحفوظة في المعابد السورية التي رآها هيرودوت ، وتحدث عنها . وإذا ما أضفنا إلى هذا وذاك أن أوزيب نفسه ، الذي يقربان سائخونياتن تحدث عن كل ما له علاقة باليهود ، في مؤلفه " الذي عرف جيدا بعد الفحص بشهادة الفيلسوف بروفوريوس " — على حد تعبير أوزيب نفسه — ولم يتطرق إلى ذكر أية حادثة من ذلك التاريخ ، ولم يورد أية نبذة منه ، فإنه لن يبقى ثمة أدنى شك لدينا في أن "ملك" (بروفوريوس) كان يقصد بقوله ذاك يوسفوس (ولد حوالي 37م) وغيره من كهنة اليهود ، الذين كتبوا تاريخ اليهود ، وترجموا التوراة إلى اليونانية ، وبدلوا في صيغ الأسماء والمواقع أيضا ، مما ألهب الحماسة لدى فيلون الجبيلي (حوالي 61 — 141م) السوري ، للدفاع عن تاريخ شعبه وبلاده — فعمد إلى ترجمة تاريخ سائخونياتن إلى اليونانية من أجل التصدي للكهنة اليهود ، الذين دأبوا على صناعة التزوير

(1) انظر مورتغات ، (تاريخ الشرق الأدنى القديم) ص 254 .

(2) انظر : فيليب حتي ، وتاريخ سوريا ومن ضمنها لبنان وفلسطين ، الجزء 1 ، ص 352 .

في التاريخ ، كما زورا التوراة نفسها ، وللإغريق الذين مسخوها بأساطيرهم حقيقة تاريخ سوريا وديانتها التعليمية ، فأخذوا منها القشور ، وانسجموا معها وأضافوا إليها توشيات مختلفة ليعطوها صبغة دراماتيكية ، وقد استهدفوا سحر الخرافة فمسخوها معالمها مسخا تاما .

إن هذا هو ما جعل فيلون الجبيلي يقول في احتجاج صارخ :
"لقد ألفت آذاننا منذ سنواتنا الباكرة سماع مروياتهم الكاذبة . ونفوسنا التي تشربت هذه الأباطيل منذ قرون تحفظ الخرافات المصطنعة كأنها كثر ثمين ، كما قلت عندما بدأت .
وقد جاء الزمن فقوى مؤلفهم ، وجعل هذا الاختلاس قوي الركائز تقريبا إلى درجة تظهر معها الحقيقة وكأنها هذيان ، وتظهر المرويات الصبائية مكان "الحقيقة" (النبذة

(XVII

3 — إن العرب عموما والسوريين خاصة هم مؤسسو الدولة والعلوم والفنون والديانات في مصر ، كما أن منهم جميع الحكام والملوك ، وهذا ما يدحض قطعاً كل الفرضيات التي دأب المؤرخون الذين أفرزهم عصر الاستعمار على تأليفها وترسيخها في أذهان الأجيال حول الحضارة "الفرعونية" المتميزة والتي لا علاقة لها بالعروبة . إن هذه الحقيقة يؤكدنها المؤرخون العرب الأقدمون ، الذين أسسوا التاريخ كعلم قائم بذاته يقف بفضلهم هم على قدمين ثابتتين مع جميع فروع العلم الأخرى منذ أربعة آلاف عام ، وإن هذا هو ما تؤكدهُ اليوم كل المكتشفات الأثرية في المنطقة العربية كلها .

4 — إن العرب السوريين كانوا أساتذة ومرشدين على درب الحضارة . فلقد وضعوا تاريخهم ، وربطوه بالجغرافيا في هيئة بناء بسيط ساحر ، سهل فهمه على عامة الناس .
وحينما أقاموا نظام تقديس العظماء من أجدادهم فلنما وضعوا اللبنة الأولى في تكريس الإنسان القدوة ، الإنسان العالم ، الذي يأتي بمنجزات تسمو بشمول خيرها فوق كل حدود العشيرة والقبيلة والجغرافيا الضيقة ، لتعم الإنسانية كلها . " وكان لهم أبناء ذوو عظمة وسيادة بارزة ، وقد أعطوا أسماءهم للجبال التي كانوا يحكمونها " (النبذة V)
فضمّنوا بذلك تربية الإنسان العربي السوري منذ الزمن السحيق على المناقبة السامية

ذات المفهوم الإنساني العالمي للخير . ولما وضعوا نظام العبادة كانوا يقصدون من ورائه برنامجا تعليميا للشعب ، يفهم من خلاله أسرار بعض العمليات الطبيعية والكونية المحيطة به ، كما تجعله ينخرط في هذا الكون بمحبة وألفة ، ويشعر من أعماقه بأنه جزء منه لا ينفصل . ومن هنا فقد كانت تلك الأسماء رموزا — في الوقت نفسه — لقوى طبيعية هي ما نسميها اليوم بالقوانين . وكان لابد من تمييز بعضها عن بعض بواسطة الأسماء ، لتسهيل عملية تمييز أفعالها وتأثيراتها ، مما يسهل بالتالي عملية الحياة نفسها ، ويجعل السيطرة على الطبيعة فكرة متقدمة وممكنة . ان هذا بالضبط هو ما قصده فيلون الجبيلي في قوله: " ولا نقوم بهذا التمييز بدون أساس ، بل لإقامة المبدأ الحقيقي الذي بناء عليه يتم احتقار هذه الأسماء المستعملة للأشياء " . إن هذا كان يمثل قفزة جد كبيرة في الفكر العالمي حققه العرب السوريون . وان هذا بالذات هو ما قصر الإغريق في فهمه ، فاعتبروا أسماء الآباء العظماء أسماء لآلهة حقيقيين ، ما لبثوا ان ادعوا لأنفسهم بعد ان خلطوا بينها وبين الخرافات والأساطير وصارت آلهة يعبدونها . " وهذا ما جهله الإغريق و أخذوه على وجه آخر ، بعد ان ضللتهم أخطاء الترجمة " .

5 — ومن اجل دراسة تاريخ أولئك الأجداد في الزمان والمكان الصحيحين علينا ، إذن ، ان نبحث عنهم في أسماء الجبال الباقية من ذلك الزمن كما لابد من أن ننتبه إلى أن ما بقي من نبد التاريخ المكتوب القديم إنما وجد في ترجمته اليونانية ثم البيزنطية زمن أوزيب . وبالتالي فان علينا أن نعرف مدى التغيير اللفظي في مناطق الأصوات إبان كل ترجمة من العربية بكل لهجاتها إلى لغة أخرى . ومن المعروف أن اللغة العربية تتضمن جميع الأصوات الطبيعية التي تنطق من الحلق والحنجرة ، بينما تقتصر اللغات الأخرى على صوت حلقي واحد او اثنين . هذا إلى جانب عمليات الإبدال والإضافات الأخرى ومنها أسماء أولئك الأرباب .

6 — إن كثرة "مزارات" أولئك الأجداد ، وسعة انتشارها في الوطن العربي ، وتعدد المواقع ، ولا سيما الجبال ، التي تحمل أسماءهم تفسر ظاهرة استنساخ الأضرحة في " مقامات " متعددة على امتداد الرقعة الجغرافية التي يشغلها الشعب العربي ، كما

تؤكد وحدة هذا الشعب العرقية* والثقافية ، واللغوية ، والفكرية منذ اقدم العصور .
كما تؤكد ، أيضا ، صحة المنطق الذي انطلقنا منه في فهم التسميات الجغرافية على أنها
أسماء لأناس بارزين من الأجداد العرب الأوائل ، وليس العكس، عندما تحدثنا عن
النسب عند العرب وعن القبيلة العربية.

فأين هي مواقع أولئك الأجداد ، إذن ، الذين يستشهد بهم أوزيب من كتاب سائخونياتن
في التاريخ العربي وفي الجغرافيا العربية ؟ ثم وبناء على ذلك، أين هي مواضع التزوير في
الأسماء والمواقع الجغرافية ؟

* طبعا لا نقصد هنا صفاء ونقاوة العرق ، بل وحدة الانتماء السكاني بوجه عام إلى الجنس
العربي وثقافته ولغته .

العرب هم أبطال سانخونياتن

والمكان - المنطقة الجنوبية - الغربية من شبه جزيرة العرب

يقول أوزيب نقلا عن لسان سانخونياتن في النبذة الخامسة:

"... وكان لهم أبناء ذوو عظمة وسيادة بارزة ، وقد أعطوا أسماءهم للجبال التي كانوا يحكمونها .

ومنهم جاءت أسماء كاسيوس ، ولبنان ، وانتيلبنان ، وبراثي *Brathy* ، ومن هؤلاء دقيوم سمرومس ، وهو حبسو ارانيوس *Hypsoranos* " . (النبذة V) .

وقبل أن نفتش عن الاسم العربي لهذه الأسماء ولغيرها ، لابد من التذكير بالنهايات اليونانية واللاتينية للأسماء ، " وس " ، وبأن كثيرا من الأصوات الحلقية كانت تنتقل مع اللهجات العربية نفسها من صوت حلقى إلى آخر (كالقاف والجيم ، والجيم المصرية ، والكاف وغيرها) . كما ان السين تبدل شينا والشين سينا الخ

إن "كاسيوس" هو في الأصل "جاسيو" ويعني القاذف ، الكاسر ، الزآر ، البركان ، وهو في جنوب شبه جزيرة العرب ، وكان - حسب هيرودوت - يمثل الحد بين سوريا ومصر (تاريخ هيرودوت ، الكتاب الثاني 158 ص 183) وليس جبل قاسيون في دمشق إلا نسخا له . وكذلك جبل "القشاشية" اليوم إلى الشمال من مكة حيث بلدة القشاشية على سفحه الغربي ، والعشاش إلى سفحه الشرقي . وليس هو الجبل الأقصر في شمال اللاذقية كما يحاول الجغرافيون التوراتيون القول بصورة تدعو إلى السخرية والذهول في آن معا .

" لبنان " (وانتي لبنان) هما جبلان متقابلان شرقي مكة: لبن الأعلى ولبن الأسفل ، وليس المقصود بهما سلسلة جبال لبنان الشرقية والغربية ، إنهما جبلان في جنوب جزيرة العرب ، وهي جبال اللبان أي البخور والصنوبر ، وتوجد أيضا قمتان شمالية وجنوبية في جبل واحد قرب مكة من الجانب الشرقي . وهذا الجبل ذكره الجغرافيون العرب ،

ومنهم ياقوت الحموي ، وقالوا " هو جبلان قرب مكة يقال لهما لبن الأسفل ولبن الأعلى " . وقد ذكر الطبري هذين الجبلين في حديثين عن ابن عباس روى فيها أن آدم حينما قدم إلى مكة وأمر ببناء البيت " بنى البيت من خمسة أجبل : من طور سينا ، وطور زيتون ، ولبنان ، والجودي "⁽¹⁾ . فكلمة " طور " في جميع اللهجات العربية تعني جبل . وما زالت السريانية تحتفظ بها إلى يومنا هذا (طورو = جبل) . فطور سينا هو جبل سينا ، في برية سينا شرقي بلاد زهران في غرب شبه جزيرة العرب . حيث الجبل الذي دعته التوراة " جبل حوريب " وكلمة " حوريب " في السريانية تعني الخرب كما تعني العليق ، العوسج وكذلك الأمر بالنسبة لـ " سينا " في السريانية وجمعها " سيني " وتعني العليق ، العوسج . وحيث يسكن المديانويين . يبلغ ارتفاع الجبل 1480 مترا ، وتغر من على جانبه الشرقي والغربي طرق القوافل الدولية منذ القدم ، كما توجد أطلال مدينة على سفوحه مما يؤكد ان المنطقة كانت عامرة ، وأن يثرون الكاهن المدياني حما موسى الذي استأجره ليرعى مواشيه كان يسكن هناك بين المديانيين المنتشرين في تلك الرقعة . وإلى جانبه الشرقي يجري وادي طوى الذي يحتفظ باسمه حتى اليوم ، وهو ينبع من السفوح الواقعة إلى الشرق من جبل إبراهيم ، ويمر بالقرب من جبل حوريب ليصب في وادي كارا . وقد ورد ذكر هذا الوادي في القرآن الكريم في سورة طه :

﴿ وهل أتاك حديث موسى ، إذ رأى نارا فقال لأهله امكثوا ، إني آنست نارا لعلني آتيكم منها بقبس أو أجد على النار هدى . فلما أتاها نودي يا موسى إني أنا ربك فاخلع نعليك إناك بالواد المقدس طوى ﴾⁽²⁾

فطور سينا ، إذن هو جبل العليق . وطور زيتون هو جبل الزيتون في أرض الخثيين الكنعانيين في بلاد غامد ، ولبنان هما جبلا لبنان الأسفل والأعلى قرب مكة ، وبغير ذلك لا يصح حساب " الأجبل الخمسة "

والجودي هو جبل جودة جنوب غرب الطائف . أما أن يبنى البيت من هذه الجبال

(1) تاريخ الطبري ، الجزء الأول ، ص 83 .

(2) سورة طه ، الآيات 8 - 12 .

الخمسسة فليس المقصود فيه قطعاً البيت بمعنى " المنزل " بل البيت " المقام " و " الأبناء " وبالتحديد مقام السيد الرب وأبنائه كما سبق أن شرحنا سالفاً.

وبالتالي فإن البيت الذي بناه آدم هو في أبنائه الذين دعوا إلى عبادة الله الواحد . وإن مما يؤكد ذلك هو ظهور موسى وعيسى ومحمد في حدود هذا الحرم ، هذه الأرض المقدسة عينها.

ونشير هنا إلى أن غمة لبنان آخر هم اسم للجبال الواقعة شرقي بلاد غامد حيث منابع نهري رنية وشواص وحيث بلدة لبنة الواردة في التوراة .

وعودة إلى قول ساخنوياتن.

أما كلمة " براثي " فهي جمع " برث " وتلفظ بوراش، ويقابلها الجمع بالعربية الحديثة " بورواث " وهو جبل رملي شمال شرق الليث* .

ثم إن جبل " دقيوم " هو ذقية أو " داكّا " اليوم بعد التخلص من نهاية الاسم الذي ينحدر منه اسم ذقية شرقاً، ووادي " ضيقا " شمالاً ليلتقي بوادي " عورانا " القادم من جبلي لبنان . وهو مجاور لجبل جودة . أما اسمه الثاني " حبسو أورانيوس " فقد جاء من كلمتي " ابسو " و "عرانة " فكلمة " ابسو "، أو حبسو " تعني — كما مر معنا عند السومريين — الغمر أو المياه الجوفية ، أو مياه الينابيع في بطون الجبال ، و " أرانة " أو "عرانة " هو مجموعة جبال تمتد من جبل " الجودة " إلى جبلي لبنان شرقي مكة ، حيث يجري وادي "عرنة " Urana مخالفاً في اتجاهه لبقية الأنهار ، و "عرانة" في السريانية يعني العاصي ، المتمرد ، وللسبب نفسه دعي نهر العاصي في سوريا بهذا الاسم . ويصبح معنى الكلمتين معاً الينابيع المتدفقة من الجبال " ، أو " حوض المياه الجوفية في الجبال " ، وهذا ما ينطبق على وادي ذقية شرقاً ووادي الليث غرباً اللذين ينحدران من سفوح تلك الجبال . كما أنه يوجد جبل "عرنة " في المنطقة التي ينبع منها وادي رنية شرقي بلاد غامد ، ونرجح أن يكون المقصود بذلك عدة مقامات لرجل واحد هو " ذقية " أو "حبسو عورانو"

* لقد حافظت العربية الحديثة على معناه إذ نجد أن "البرث" تعني الأرض السهلة ، أو الجبل في الرمل السهل

"إن حبسو أورانيوس سكن صور، وابتكر أكواخ القصب والخيزران والبردي، وقد تشاجر مع أخيه أوزس الذي تخيل جمع جلود الحيوانات التي يحصل عليها ليعمل منها دثارا لجسده. وحدثت أمطار شديدة عاصفة خربت صور وكسرت الأشجار، واشتعلت النار في الغابة فأحرقتها.

أخذ أوزوس شجرة، وجردها من أغصانها، وغامر بها في البحر، فكان أول من فعل ذلك. وقد أقام نصيين: واحدا للنار والآخر للريح، وعبدتهما بنشره هناك دماء الحيوانات التي اصطادها". (النبذة V) .

ويعلق أوزيب : " ولما مات هؤلاء قال بأن أولئك الذين خلفوهم أوقفوا نصبا وسواري قاموا أمامها بمراسم العبادة " .

إن " حبسو عورانو " الذي سكن صور ، وابتكر أكواخ القصب والخيزران والبردي " لا يمكن أن يكون من سكان شواطئ البحار، وهذا دليل على أن صور المقصودة ليست مدينة صور الفينيقية على ساحل المتوسط ، إذ إن القصب والخيزران والبردي هي نباتات تنمو في أحواض الأنهار في المناخ الحار والرطب وليس على شواطئ البحار. ومما يؤكد أن مدينة " صور " هذه هي مدينة جبلية وليست ساحلية كونها تقع وسط الأحراج والغابات ، وقد نرجح أن تكون غابات صنوبرية ، إذ هي القابلة لأن تشتعل في حريق ضخم نتيجة للصواعق " ضربت صور وكسرت الأشجار ، واشتعلت النار في الغابة فأحرقتها " . إن مثل هذه المدينة قد تنطبق على صور العمانية قرب جبال اللبان أي البخور إذ أن كلمة " لبنان " هي

جمع " لبان " Leban في لهجات تلك المنطقة ، واللبان هو شجر من الصنوبريات ، وإن كلمة " بحر " ليس ضروريا أن تكون قد ترجمت بصورة صحيحة إلى اليونانية ، إذ ، كما بينا سالفا، إن كلمة " يم " تعني البحر والنهر، والغرب والجنوب. والبحر في اللغة العربية بشق لهجاتها تعني كل ماء كثير . " وإن " أوزوس " الذي يسكن صور، يأخذ شجرة ويصنع منها قاربا، إن مثل هذه الأشجار التي تصلح لأن تجوف وتجعل منها قوارب هي الأشجار البلوطية والصنوبرية ، وكلتاها أشجار جبلية لا ساحلية. وإن مغامرة عوص

هي إلى جزيرة صور أي إلى جزيرة " مصيرة " مقابل صور الجبلية في عمان. . ثم إن جمع عناصر النار والرياح ودماء الحيوانات المصطادة من البرية في عملية طقسية للعبادة تعبق برائحة البرية والجبل معا " وقد اقام نصيبين : واحدا للنار وآخر للرياح، وعبدهما بنشره هناك دماء الحيوانات التي اصطادها" وإذا كانت هناك عدة مدن تحمل اسم صور ، سواء في شبه جزيرة العرب، أو في غرب سورية فإن هذا ليس من شأنه إلا أن يبرز مرة أخرى ظاهرة تعددية الأسماء لدى الشعب الواحد وفي الأرض الواحدة .

أما "اغروس" و " إليوس" و " اغروتس" الذين جاؤوا بعد انقضاء قرون فليس ضروريا — بعد هذه القرون — أن يكونوا في المنطقة ذاتها. فنحن نجد في منطقة شمالي صنعاء اليوم بالفعل المدن والجبال التي تحمل مثل هذه الأسماء وهذا يتفق مع ما أورده المؤرخون العرب .

يقول سائخونياتن

"وقد انقضت قرون منذ عصر هبسورانيوس ، وحتى ولد اغروس Agreus واليوس Alieus اللذان ابتكرا صيد البحر وصيد البر ... وجاء منهم آخرون ، بينهم اسم اغروس Agros، ثم اغرويرس Agrueros واغروتس Agrotos الذي لتمثاله ومعبدته الخفيف الحمل والنقل احترام كبير في فينيقيا ، ويعتبره سكان جبل ، على الأخص أكبر الآلهة " (النبذة VII)

إن اغروتس هو الذي تسمى به جبل حجرة الذي ينحدر منه وادي حجرة ، ويشكل مع انهار أخرى كثيرة وادي العليب . أما اغرويرس فهو وادي قرارة إلى الشمال من وادي حجرة . وهو ينحدر من جبل بجالة ويسير محاذيا لنهر الليث صوب البحر ليلتقي بوادي عيار قبل مصبه جنوب مدينة الليث .

ونحن نجد في منطقة جيزان قرب البحر فعلا مدينتين تحمل إحداها اسم "الحجرة" وفوقها إلى الشمال مباشرة مدينة "عليا" ثم " إقرار " إلى الشمال الغربي منها قرب " الدرب " . وقد كثر هؤلاء وتنقلوا ، لاشك ، في أرجاء الأراضي الخصبة والغنية في بلاد زهران وغامد حيث جاء آخرون يحملون الأسماء ذاتها " هؤلاء هم الذين عرفوا فكرة

الباحات أمام المنازل ، وعملوا تصوينات وكهوبا ، وهم الذين تحدر منهم الصيادون ذوو الكلاب " . إن الفرع الذي تحدر منه الصيادون ذوو الكلاب "وعملوا تصوينات وكهوبا " أي اتخذوا من المغاور مساكن لهم هم — كما نرجح — أبناء " أجروس " الذي هو في الأصل السرياني "عجرو" وتعني الكلمة : الخشن ، الأحمق ، الجاهل ، وهم الذي صار يطلق عليهم فيما بعد " العجر " لأن صوت الغين لا يوجد في السريانية ، وكان ينوب منابه صوت العين مثل عاب = غاب ، عارو = الغار ، شجر الغار .

"وهؤلاء خلفوا آمنون Amunon وماغون Magon اللذين خططا القرى والمراعي التي منها ولد ميسور Misor وصديق Cydic واكتشفوا صناعة الملح " .

إن امونون هو نفسه أو " أمون " الذي انتقل فيما بعد إلى مصر وادي النيل مع من انتقل من الآباء السوريين الآخرين وتقدس هناك . ويعني بالسريانية : الخالد ، الدائم ..

وإن "أمون" هو جد " ميسور" أيضا ، مما جعل أحفاده من الملوك الذين حكموا مصر وادي النيل فيما بعد يقدسونه هو دون غيره ، ويقرنونه بألقاهم (توت عنخ آمون ، مثلا و أمون محب وغيرها...) ، كما أن أولاده و أولاد صديق أبناء عم ، وقد تعاونوا في حكم وادي النيل ، كما تعاون الملك " زوسر " و "أمون محب " الذي هو " صقلاب " .

وقبل ذلك كان سانخونياتن قد ذكر أنه "من الريح كولبيا" Kolpia ومن امرأته Baau ولد الإنسانان الفانيان " أيون" Aeou وبروتوجون Pratagone وقد اكتشف "جون" الغذاء الذي تقدمه الأشجار وهذان كانا أهل جينوس Genos وجنيا Genea اللذين سكنا فينيقيا" (النبة IV) .

إن " كولبيا " أي المتقلبة ، هي صفة من صفات الريح ، وقد بقي الاسم على مدينة " قليبيا" الواقعة شمال جيزان على الساحل بين "عرضة " التي هي أرضي ، وقديما "ارعر" ، (أو اوتوكتون أيضا) و"الجارية" *

* مازال في اللغة العربية الحديثة كلمة "الجارية" تحافظ على معناها القديم الذي هو من الصفات الملازمة لعشتار فالجارية تعني الفتية من النساء ، والحية والشمس ، والنسمة (زوجة النعمان) والجارية والجرى تعنيان الصبا والفتوة . ومن "الجرى" اشتق اسم "زاغروس" أي رب الصبا والفتوة .

(التي هي "اغروتس") ، وهي من أسماء عشتار ومقامها ، هو "أ - غاريت" أي مقام الجارية . وبه سميت المدينة على الساحل السوري أما "أيون" أو "جون" فثمة مدينة "عائية" Aina شمال "قرار" (اغرويرو Agroeros) ، وإلى الشرق من "قرار" يوجد "وادي جوان" ، والكل في منطقة جيزان . أما "بروتوجون" فمن الكلمة الفينيقية "برث" أي "ابنة" . لكن "جن" و "جينا" فهما من الآباء الفينيقيين الأوائل ، وقد يكونان أعلى الآباء المعروفين ، مثلهما مثل آدم وحواء في فرع عربي آخر ، ويدل اسمهما في اشتقاقه على "الجنة" و "الجن" . بمعنى القطاف ، وهذا يشير ، بصورة ما إلى اعتمادهما آنذاك على التقاط القوت مما تنتجه الطبيعة وحدها من ثمار وبقول ونبات دونما كدح ، أي أنهما كانا في مرحلة "الجنة" الطبيعية ، وهذا بالضبط ما أكدته النص عند سانخونياتن حيث ذكر انه "من الريح قلبيا ومن امرأته باعو ولد الإنسانان الفانيان أيون وبروتوجون . وقد اكتشف أيون الغذاء الذي تقدمه الأشجار ، وهذان كانا أهل جينوس Genos وجينا Genea اللذين سكنا فينيقيا" (النبعة IV). تلك هي الحال مع آدم وحواء ، إذ أن اسم حواء يعني السواد يشوب الخضرة من شدة الخصب ، واحוות الأرض واحواوت انخضرت ، وكذلك الأمر مع جنت .

أما رمز هذا الأب القديم "جن" عند الفينيقيين فكان الكبش . ومقامه ، أو بيته (أولاده) صار يدعى "أ - جن" أو "أ - جنوم" أو "بيت جن" ، وما زالت كثير من البلدات والقرى في سوريا الطبيعية تحمل هذا الاسم حتى اليوم . وبعد انتقال السوريين القدامى إلى مصر وادي النيل نقلوا معهم تقديس هذا الأب بصيغته السريانية القديمة "أ - جنوم" (مقام جن) ، وانتشرت مقاماته في كل مكان من مدن مصر وادي النيل . وقد ساعد الاعتقاد لدى قدماء المصريين بأن "أجنوم" قدم إليهم من الأعالي* (جبال السراة) بعد أن عبر بزورقة مياه البحر (البحر الأحمر) . وقد حافظت منذ ذلك التاريخ كلمتها "كبش" و "فينيق" على معنى واحد ، وصارتا مترادفتين إذ تعني كل منهما : السيد ،

• أخطأ كثير من الباحثين في تفسير كلمة "الأعالي" واعتقدوا أن المقصود بها أعالي نهر النيل ، أي عند منابعه .

القائد ، الفحل ، المرفه ، الضخم ، المدلل ، المنعم .

أما أبناء أمون و"ميسور" و"صديق" فقد سكنوا المنطقة الوسطى في بلاد غامد وزهران والجنوبية قرب عمان واليمن فمن ميسور ولد تأوتس (تحت ، توت ، تور) وأبناؤه في بلاد زهران .

" ومن صديق ولد الـ "كبيرس" وابتكروا ، أولا ، السفن" (النبتة VII) .

لاشك أن القارئ يلاحظ معنا هذه القفزات بين المناطق الثلاث : من غرب شبه جزيرة العرب (منطقة الحجاز التي تشمل مكة ويثرب والطائف) ، والمنطقة الوسطى التي هي بلاد غامد وزهران ، والمنطقة الجنوبية منطقة جيزان ، وشمال صنعاء فيما بعد وصور العمانية ، وليس ذلك إلا نتيجة لطبيعة المصدر الذي بين أيدينا الذي يورد شواهد ونبذاً من تاريخ سائحونياتن ، دون أن يستعرضه لنا بصورة سلسلة . لكن هذا ، رغم كل شيء ، يلقي ضوءاً كشافاً قوياً على المناطق التي سكنها الأبناء العرب القدامى ، ويؤكد صحة المصادر العربية حول هذا الموضوع .

إن "الكبيرس" هم أولاد "الكبير" وقد احتفظ باسمه في الترجمة اليونانية كما هو ، أما على خارطة شبه جزيرة العرب فهناك جبل شرقي مكة يسمى "السيال الكبير" يبلغ ارتفاعه 1240م ، وينحدر منه نهر يدعى وادي "كبير" ومن الواضح أن الكلمة هنا تأتي كاسم وليس كصفة إذ أنها بقيت كما هي دون تحريف "وادي كبير" (Wadi Kabir) . أما "أورانوس" فله ثلاثة مواقع ، أحدهما الأصل ، والآخرا مقامان عن طريق الاستنساخ ففي المنطقة الجنوبية (منطقة جيزان) يوجد جبل العوراء . والنص يفيدنا بأن لأورانوس أختاً من الأبوين نفسيهما ، وهي تدعى "غايا" .. وبعد أن حصل أورانوس على تراثه تزوج اخته "غاية" فرزق منها بأربعة أولاد : ايلوس (أي كرونوس Gronus نفسه) ، وبثيل Betyl ، وداغون (الذي يدعى سيتون Siton ، وأطلس والأخت في العربية بكل

•• لقد نقل السوربيون عبادتهم إلى مصر وادي النيل أيضاً ، ويذكر هيرودوت أن تماثيل الآلهة الكبيرس في المعبد المقدس في ممفيس كانت نسخاً مماثلة للبعل ، أي للرب الفينيقي الواسع الانتشار كما يذكر أنه عندما دخل الملك الفارسي قمبيز معبد الكبيرس في مصر ، وهو معبد مقدس ، يلاحظ أنه كان محظوراً الدخول إليه لعامة الناس من غير الكهنة (هيردوت 3 : 37)

لهجاءها تعني الشقيقة كما تعني القرية ، بنت العشيرة ، بنت القبيلة ، الراهبة) .
ونحن إذا ما نظرنا إلى خارطة المنطقة الجنوبية نجد أن "غايا" هو اسم المدينة حتى اليوم
جنوب جبل العوراء ، ومعنى هذا أن منطقة السكن الأولى ، أو الأصل ، لـ "عورن"
كانت في الجنوب . لكن "عورن" أخذ أولاده ، وتخلّى عن زوجته ، وابتعد عنها ، وهذا
قد يكون رمزاً لمقاميه الآخرين في جبال عبسو أرانيو ، في منطقة غامد ، وعرّانة في جبلي
لبنان شرقي مكة حيث يجري وادي عرانة . وليس من شك في أن معبدين (أو مزارين ،
أو مقامين) قد أقيما له في تينك المنطقتين .

ولما كانت كلمة "غاية" تعني المتعظمة ، المتكبرة ، فإن عرّانة تعني المتمرد ، العاصي . ثم
صارت "غايا" رمزاً للأرض المنخفضة ، كما صار "عرّان" رمزاً للسماء أي للأرض
المرتفعة ، للجبل . وصار لقاءه بها ، رغم الفراق وبعد المسافة بينهما ، لقاء اغتصاب من
أجل الاخصاب والولادة ، بين الفينة والأخرى ، كما تتصل السماء بالأرض من أجل
إخصابها .

ولقد انتقلت هاتان الكلمتان إلى اليونان ، وتحولت كل منهما هناك إلى الإله أورانوس
إلى السماء وجيا (قبة) إلهة الأرض .
ويتابع سانخونياتن :

" وبعد أن حصل أورانوس على ترائه تزوج أخته "غاية" فزرز منها أربعة أولاد : إيلوس
(أي كرونوس) ، وبتييل ، وداغون الذي يدعى سيتون ، وأطلس " .

ونظرة إلى الخارطة ترينا جبل بتييل شمال شرق الطائف على الحد الشمالي لحرّة حضن .
ويقع بالقرب منه وبصورة متاخمة تماماً جبل بيرام (البيرين) . أما داغون ، أو داجون ،
فهو رب الزراعة والقمح ، ثم الغذاء ، والطعام ، ثم صار هو نفسه الطعام ، أو القمح أو
الخبز ، وهذا ما وجد استمراره ذاته في المسيحية فيما بعد ، إذ إن الخبز هو جسد السيد
المسيح . ومن الطريف أن نذكر هنا أن سكان الأرياف في الساحل السوري ما يزالون
يستخدمون اسم هذا "الرب" بمعنى الخبز أو الطعام حتى اليوم ، فيقول أحدهم : "إني ما
ذقت الدجن هذا اليوم ، أو ما تدجنت " . وإن السيد "دجن" هو من أكثر الأجداد

العرب شعبية وانتشارا ، إذ يغطي تقديسه ، كما تغطي معابده جميع مناطق الوطن العربي ويذكر لنا سانخونياتن أن "داجون" هذا يدعى "سيت" (سيتون في مصر) وقد ورد اسم "داجون" في ملحمة "البعل وعناة" الأوغاريتية مرارا كثيرة ، كان يوصف فيها بأنه ابن داجون . وهذا يجعل مرتبته معادلة لمرتبة "إيل" الذي هو كرونوس نفسه . وقد دعي في مصر "سيتاخ" أو "سيتاع" ، وهو الاسم الذي كان يطلقه المصريون على الرب السوري ، كما كانوا يسمون الرب السورية "هاتورت" (الثورة ، البقرة) ⁽¹⁾

أما "كرونوس" أوقرون (قرونو بالسريانية ، أي الأقرن الحاجبين أو الجبل ذا القمتين) فقد عاش بعيدا عن أمه "غايا" في الشمال . وكان قريبا من أبيه ، لكنه "وانتقاما لشرف أمه" غاية "شن الحرب على أبيه أورانوس ، وطرده من مملكته .

ونحن نجد على الخارطة الجغرافية لمنطقة الطائف جبل قرنايط ، وهي بلفظها العربي القلم Karnayth تعني الأقرن . وهو يجاور جبل "دقيوم" أو "داكا" الذي هو جبل "عرانية" نفسه ، كما يقول سانخونياتن ، ومن هؤلاء "دقيوم" وهو "حبسو أورانيوس" أي "حبس عرانية" أي "حبس مياه السيل" . وهكذا يكون موضع الأب "أورانيوس" مجاورا لموضع الابن "كرونوس" فعلا . وفي القتال الذي دار بين الأب "عرانيو" والابن "قرونو" كانت محظية "عرانيو" المحبوبة قد أسرت وهي حبلى ، فأعطاهما "قرونو" كزوجة لداجن ، وولدت طفلا عرفت أنه من أورانوس ، ودعته دومارون .

إن هذا الاسم مركب من "دو" ومن "مر" بعد حذف النهاية ، وتصبح "رب مر" قبل تحريك الكلمة الأخيرة بالصوتيات . وإذا نظرنا إلى شمال الطائف على الخارطة نجد وادي مرع Mura الذي ينحدر من جبل السيل الكبير ، وهو "عرانيو" و"قرونو" في منطقة واحدة مجاورة لمكة والطائف معا ، علما أن اللهجة المصرية كثيرا ما كانت تضيف حرف "ع" إلى نهاية الاسم ، وهو نسخ لموقع "ذمار" اليمنية .

يقول سانخونياتن : "وحوالي هذا التاريخ كان أولاد "كبيرس" (الذي هو ديوسكورس) نظموا جميع أجزاء الأطواف والمراكب ، وابتدأوا بالإبحار ، واندفعوا صوب جبل

(1) انظر : شوقي عبد الحكيم ، "الفولكلور والأساطير العربية" ، ص 49 .

كاسيوس ، فأقاموا هناك معبدا " (البند VIII) .

إن هذه الأطواف والمراكب ليست إلا زوارق نهرية اندفعوا بها في مجرى وادي "اليمينة" الذي ينحدر من سفوح جبل السيل الكبير ليلتقي بوادي " الشامية" المنحدر من جبل "برائي" وعيون بئر باثي قبل أن يصلا إلى بلدة عكر Akar ، ومنها يتقدم المجرى المتحد إلى القشاشية حيث جبل كاسيوس . (إننا نلاحظ الاسم الواحد بـ "جبل كاسيوس" و"القشاشية") .

أما "سدد" أو "سداد" الذي هو ابن "قرونو" (كرونوس) والذي قتل على يد أبيه فهو "شداد" الذي يقابل جبل عرفات من الجنوب . وهناك على سفوحه الشمالية مدينة "شداد" حيث ياتقي وادي "ضيقة" القادم من جبل "دكا" بوادي النعمان . وعند نهاية وادي النعمان يقوم جبل "أبو شداد" أيضا قرب وادي الدم.

ويقول سانخوتياتن :

" ومع الزمن أرسل أورانيوس من مكان لجوئه (محبته) ابنته عشتارتا مع اثنتين من أخواتها هما رهيا Rhea وديوني Dione للقضاء على كرونوس بنصب كمين له " (النبذة XIII)

وفهم من هذا القول ، دون شك ، أن "عرانيو" الذي طرده ابنه "قرونو" من جواره التجأ إلى مكان ما واختبأ هناك ، ثم إن "حبسو عرانيو" ، كما سبق وأسلمنا يعني مكان حبس الماء " أو المياه الغائرة في جوف الأرض ، وأن "عرانيو" جاءت من "عرانية" ومعناها " المتعرد ومد السيل" . وإذا ما نظرنا على الخارطة إلى المنطقة الواقعة شمال بئر باثة من شمال الطائف لعثرنا على جبل " أم عشورة " الذي تنحدر منه روافد وادي الشامية . وإذا انحدرنا منها إلى الجنوب الشرقي قليلا وجدنا جبل عشيرة الذي تنحدر منه عدة وديان باتجاه الطائف ، وليس من شك في أن عشتار المقصودة هي إحدى هاتين كما أن ديوني هي الأخرى ، إذ إن ديوني مرادفة لها ، ثم إذا ما صعدنا نحو الشمال قليلا أيضا نعثر على مستنقع كبير في حوض الجبال يدعى "خبر عرن" . ولما كانت كلمة "خبر" تعني حرفيا منقع الماء في الجبل ، فإنه لن يبقى لدينا شك في أن منقع الماء هذا في جبل "عرن" إنما هو المقصود بالمكان الذي لجأ إليه "عرانيو" هربا من ابنه ، فأنحبس هناك

في حضن الجبل . والطريف أن الجبل الذي يجبس هذا المتنع المائي الكبير من الشرق يدعى جبل "أم الغيران" فقد جمع في هذا الاسم حقيقة تسميته الأصلية "عُرن" (ومن الشائع كثيراً الإبدال بين العين والغين) إلى جانب حالته النفسية ! والعين في السريانية تحل محل الغين بالفصحى .

ولما فشل "عُرانيو" (أورانوس) في خطوته هذه ، "وجه ضد قرونو الحسنانوين "هيمارمين" و"حورا" Hora مع إتباع آخرين . ولكن قرونو (كرونوس) عرف كيف يصلحهما ويحفظهما قربه " .

ونحن إذا ما صعدنا بضعة كيلو مترات قليلة إلى الشمال الغربي من أم عشورة لوجدنا بلدة أم حمة الواقع في سفح جبل حمة الذي ينحدر منه وادي حمة . وليس من شك في أن "حمة" هذه هي "حمة رمين" (أي حمة العليا ، أو القادمة من الأعالي) . وإلى الجنوب منها مباشرة بحيث يكاد يتصل بوادي حمة نجد وادي "حوراء" الذي يصب في الوادي الكبير الناتج عن لقاء وادي الشامية مع وادي اليمنية ، ويتحد مع هذين الوادين عند المبارك قبل وصولهما إلى القشاشية .

و"حوراء" هي الكلمة العربية "حوراء" مفرد "حور" ، والحوراء ، والحورية ، هي الواسعة العينين ، وشدة سوادهما مع شدة بياضهما ، وشدة سواد الشعر مع شدة بياض الجسم . وتقترن كلمة "حوراء" في العربية بكلمة "عيناء" وكذلك جمعها ، كما أوردتها دائماً القرآن الكريم "الحور العين" فالحوراء كان العرب يشبهونها بالمهابة أو البقرة الوحشية ، لشدة اتساع عينيها وجمالها في شدة سوادها وشدة بياضها معاً . وتصف إلياذة هوميروس حيرا (الحرة ، الشريفة ، بنت النسب) بأن لها عينيْن كعينيْ المهابة أو البقرة الوحشية (الإلياذة 1 : 55) وهي ذات الذراعين البياضين (الإلياذة 14 : 277) ويبدو أن هوميروس أي الشاعر اقتبس أوصافها من الفينيقيين لأن شاعر الإلياذة نفسه كان سورياً .

ويقول سانخونيأتان في مكان آخر : " وولد له بنات من ديوني وولدان أيضاً من عشتارتا هما بوئوس وإيروس (الرغبة ، والغريزة الجنسية والغيرة) .

ولما كانت البنات — على ما يبدو — تمثل الأنهار والوديان ، والبنون يمثلون الآبار والينابيع ، فإن عشيرة ، التي ينحدر منها سبعة وديان بالفعل باتجاه الطائف، هي ديوي ، وإن أم عشورة ، التي يجاورها بئر باثة هي عشتار، خاصة إذا ما علمنا أن كلمة "البائة" ما تزال حتى يومنا هذا تحتفظ بمعناها الذي هو " الإثارة " . أما "ايروس" (الحب والجماع والغيرة) فقد احتفظ بها (وكأن ذلك زيادة في الطرافة) بالاسمين والمعنيين معاً في وادي عُران أو الغيران" (شمال مكة . وقد سجل على الخارطة الاسمان كلاهما !

وتتابع مع سانخونياتن في النبذة الثالثة عشرة :

" وفي السنة الثانية والثلاثين من حكمه وعملكه ، قام ايلوس ، الذي هو كرونوس نفسه ، بمفاجأة والد اورانوس بكمين في مكان وسط الأراضي . فقبض عليه وسلبه رجولته قرب ينابيع وأنهار ، في المكان الذي أنشئت فيه عبادته، فلفظ آخر أنفاسه ، والدم الذي سال من جروحه تقطر في عيون الماء وفي مياه الأنهار. ولا يزال المكان معروفاً حتى اليوم". ونحن إذا ما نظرنا إلى الخارطة جنوب مكة وغرب الطائف سوف نلتقي بوادي الدم وبئر الدم حتى اليوم .

وإن ما يؤكد صحة وجهة نظرنا هو ما يذكره لنا الكاتب السوري لقيان السميساطي (حوالي 125م) في كتابه "الربة السورية" إذ يقول تحت عنوان "نهر أدونيس وتربة لبنان القانية" مايلي : "وتوجد في جبيل أعجوبة أخرى ، وهي نهر ينحدر من جبل لبنان (لاحظ أنه لم يقل من جبال لبنان) ، ويصب في البحر ، وقد أطلق عليه اسم " أدونيس " . إن مياهه كل عام تصبح حمراء بلون الدم ، فيتبدل لونه ، وعندما يصل إلى البحر يصبغ بلونه مياه البحر إلى مسافة بعيدة واسعة . هذه الظاهرة بالنسبة لأهالي جبيل هي الإشارة ببدء الحداد . وتقول الأسطورة إنه في هذه الأيام جرح "أدونيس" في لبنان ، وإن دمه الذي يجري في النهر يبدل لون الماء فيه ، وأنه هو الذي أكسب النهر اسمه الثاني ، تلك هي الرواية الشعبية في ذلك . إلا أن رجلاً من البلد ، بدا في ذلك أنه يقول الحقيقة ، قدم لي تفسيراً آخر للظاهرة ، وهذا ما قاله لي : إن نهر " أدونيس "

• ما تزال الكلمة تحتفظ بمعناها وهو الجماع وشدة الرغبة فيه حتى اليوم .

نهر غريب ، ويمر في لبنان ، إلا أن في لبنان أراضي ذات تربة حمراء قانية ، وإن رياحاً عاتية تهب في تلك الأيام تدفع إلى النهر هذه التربة المحملة بالحمرة ، وإنما هي التي تكسب النهر ذلك اللون الأحمر . وليس الدم إذن ، كما يقولون ، وإنما طبيعة الأرض هي سبب هذه الظاهرة، هذا هو التفسير الذي قدمه لي ذلك الرجل من جبيل .

إن لقيان السمسياطي لا يتحدث لنا هنا عن "جبيل" المدينة الساحلية اللبنانية التي لا تطل على أي نهر لـ "أدونيس" أو لغيره ، وإنما هي تطل على البحر فقط ثم إننا إذا ما نظرنا إلى الخارطة إلى منطقة وادي الدم في جنوبي مكة لرأينا أن نهرًا يجاورها من الشمال يسمى "وادي النعمان" النعمان ، كما هو معروف ، هو أحد أسماء "الرب" السوري أدونيس ، الذي ظهرت دماؤه في زهر شقائق النعمان بعد مقتله . وإذا ما تتبعنا مجرى هذا النهر صعوداً لرأينا أنه يتألف فعلاً من رافدين : أحدهما وادي عُرنَة Urana الذي ينبع ويمر في جبل لبنان شرقي مكة ، والآخر هو وادي ضيقة ، القادم من جبل دكا، وكبكب ، والحارثي* (الذي هو أغرتو) . وهذا النهر أصبح اليوم يفيض في الرمال البحرية قبل أن يصل إلى موقع مصبه القديم في البحر الأحمر . أما كلمة "النعمان" فهي تحوير عن "النحمان" التي تعني القائم من الموت، المبعوث حياً، وهي صفة ملازمة لرب الخصب ، وهي من الفعل "نحم" في السريانية ، أي بعث ، قام من الموت .

وعودة إلى سائغونياتن

"وبعد ذلك أعطى كرونوس للإلهة بعلتيس (بعلة) ، وهي نفسها ديوني أعطاهها جبيل . وأعطى بيروت لبوزيدون ، وللكبكيس فلاحين وصيادي سمك "

إن جبيل هي أول مدينة — كما يقول سائغونياتن — بناها أولئك الأجداد وتحديداً إيل الذي هو "قرونو" في فينيقيا وجبيل تعني "قبة إيل" أي أنه مات وقبر منها إنها جبيل على الخليج العربي التي تم استئساخها فيما بعد إلى جنوب الحجاز ، وفي منطقة جيزان وشمال اليمن ، إلى أية منطقة ما حيث منابع تلك الأنهار ، كما سوف يتبين لنا موقع

* كبكب (وتلفظ جبجب "بالجيم المصرية) تعني المرأة الثقيلة العجيزة . أما الحارثي فمن معانيها الكثيرة الجماع .

الفينيقيين لاحقاً . وهي مدينة جبلية كما رأينا وليست على ساحل البحر ، وبالتالي فإن مدينة جبيل اللبنانية على ساحل المتوسط ما هي إلا استنساخ آخر للاسم . إن جبيل التي أنشأها "قرونو" الذي حمل اسم "إيل" وسميت باسمه تقع على ساحل الخليج العربي ثم نسخت في شمال وادي أضم (الذي هو وادي الليث) . ونحب أن نشير هنا إلى أن نهر الكلب في لبنان الذي يصب جنوب خليج جونيه ليس إلا صورة أخرى من الاستنساخ للأسماء والمواقع العربية الكثيرة . إن كلمتي " الكلب " و " الليث " هما كلمتان مترادفتان لمسمى واحد هو الكلب .

و " الكلب " تطلق على كل أنواع السبع المتوحشة ، وكلمة السبع كذلك ، والليث من أسماء السبع والكلب . وإن أسطورة الكلب تعود في الأصل إلى نهر الليث غرب شبه جزيرة العرب وليس إلى أي "كلب" آخر على نهر الكلب اللبناني .

يقول فيليب حتي في شرح سبب تسمية النهر بهذا الاسم : " سمي كذلك بسبب كلب محفور في الصخر ظل قائماً لمدة عدة قرون كحارس للمضيق* فأبي مضيق هذا في لبنان ؟ وتقول الأسطورة إن صراخه حين اقتراب العدو كان مرتفعاً حتى أنه كان يسمع في كل منطقة . وقد قذف المسلمون الذين يكرهون التماثيل هذه الصورة المنحوتة في النهر . وقد أخرج الأستراليون في عام 1942 ما يمكن أن يكون الكلب الأصلي ، وهو ذئب موجود الآن في المتحف الوطني في بيروت " . والحقيقة هي أن أسطورة الكلب تعود في أصلها إلى شبه جزيرة العرب ، حيث نهر الليث (الذي هو نهر الكلب) ينبع من جبل كلب النعد ، والنعد هي الناذ ، وهذا الإبدال كثير في اللغة العربية بين الهمزة والعين ، وتعني الداهية . وجبل كلب النعد يجاور جبال جودة وقرنايت ودكا من الجنوب ويطل على طريق القوافل الدولي القديم الذي يمر عند قاعدة سفوحه الشرقية صعوداً إلى الطائف ، كما يطل من جهة الغرب على الوديان الكثيرة والغزيرة التي ترفد نهر الكلب (الليث) ، وعلى وديان ومنطقة سوق الربوع الخصيبة من الجنوب.

* إن هذا مؤكد حقيقة كونه حارساً لخط القوافل المضيق بين الجبال جنوب الطائف وليس لأبي مضيق عند جبيل في لبنان المتوسطي

لقد كان " الكلب " حارسا "للمضيق عند فم الخليج ، ثم لطريق القوافل الضيق شرق السراة ثم نسخ في سوريا المتوسطة .
أما بيروت فقد أعطاها قرونو لبوزيدون .

وإذا علمنا أن بيروت هذه تعني الخصب ، وهي في الأصل "فيروت" ، فإن هذه التسمية يمكن أن تلتقي بها في كل ثلاثة كيلومترات مربعة من الأرض في شبه جزيرة العرب . لكن المنطقة الجغرافية التي نحن بصدها الآن هي منطقة وادب الليث (أو نهر الكلب) ، إننا نرى على الجانب الشمالي لوادي الليث أحد روافده الكبيرة ويدعى وادي "بيرين" هي بالأمورية تقابل "بيروت" بالسرانية ومعناها الخصب ، وهذا يعني أن "بيروت" المقصودة هنا تقع على هذا الوادي ، ومما يزيد في دعم ترجيحنا لهذه الأمور هو أن بيروت هذه أعطيت لـ "بوزيدون" وبوزيدون هذا ليس إلا ملك الجبل الواقع على الضفة الأخرى لوادي الليث، والذي مازال حتى اليوم يدعى بجبل بني يزيد ، ويصب وادي بيرين (بيروت) في وادي الليث عند قاعدة هذا الجبل تماما . وقد أخذ السوريون في صيغته السورية الأصلية " فوصيدون " أي مفجر المياه والينابيع وجعلوه إله للعواصف البحرية وللزلازل. لقد وصفه هوميروس في "الإلياذة" بأنه إله الزلازل (الإلياذة 15 : 205) وأنه ابن كرونوس من رهيا ، وأنه يشترك في بناء أسوار "أليون" (طروادة) مع أبولو ، ولكن لاوميدون لا يدفع له أجرته ، ويهدده باستعباده (الإلياذة 21 : 442 — 446) ، وهو يعبد كإله للبحر والمياه في جميع المناسبات . ونبتون (النبت) هو النسخة الرومانية لبوزيدون ، ويبدو من اسمه أنه عربي فينيقي أيضا ، إذ هو في الأصل "نفتون" ويعني المخصب والكلمة في القاموس السرياني أو الفينيقي من الفعل "فتي" بمعنى أخصب، أكثر. ونجد في النبذة 14 لساخونياتن :

"و كرونوس عند تجوله في العالم أعطى لابنته أثينا مملكة أتيكا " فأثينا هي أيضا إحدى بنات " إيل " الذي هو "قرونو" أيو السنين . وينقل هيرودوت في تاريخه كيف أن فتيات من قبائل " المحلية والأوس" كن يقمن بمناورة قتال سنويا على شرف أثينا في أحد الأعياد ، وذلك وفق عادة قديمة لإلهة تتفق مع صفات أثينا ، وربما تكون هي "عناة"

الفينيقية المحاربة انتقلت مع بحارة الفينيقيين إلى بلاد البحر المتوسط (هيرودوت 4 : 18)
أما أتیکا فهي مستعمرة سورية في شرق بلاد اليونان تكثر فيها المعادن والرخام وكان
السوريون أول من عرف التمدن وطرق المعادن وصناعاتها والاتجار بها . وإن اسمها لا
يخرج عن الاسم العربي القديم — عتيقة — وقد استوطنها السوريون بعد "أتیکا"
(العتيقة) التي سبق أن أسسوها في تونس .

3 — العرب يؤسسون حضارة مصر :

وبعد أن برع تآوتس "تحوت" أو "توت" (بعد سقوط الحاء باليونانية بأعمال الحفر،
أخذ يقلد بالحفر تعابير وجوه الآلهة ويصنع لهم التماثيل . "وعندما جاء كرونوس إلى
بلاد الجنوب أعطى مصر بكاملها للإله تآوتس لتكون مملكة له "
وببلاد الجنوب هذه هي أرض ميدي Midi كما ذكر سانخونياتن ، وهي ما تزال إلى
اليوم جنوب أما التي تعني الجنوب بالسريانية حاليا . وهي تتاخم أرض "مصر" ونجفي .
و"نجفي" في السريانية تعني الجنوب .

إذن "تحوت" يستقر الآن في بلاد ميسور، يصنع تماثيل وأبنية ومنحوتات لتخليد أولئك
الآباء العظماء . و"الكبيرس السبعة" أبناء صديق كانوا أول من التزم بهذه الأعمال من
بين جميع الرجال ليحتفظوا منها بالذكرى ، وكذلك أخوهم الثامن اسكليبيوس ، كما
رسم لهم ذلك "الرب" (السيد) تآوتس الذي من أسمائه التراثية أيضا إدريس وهرمز .
وبعد ذلك "كان ثايون أول كاهن عظيم من بين جميع أولئك الذين كانوا في فينيقيا ،
والذين ترجم لهم بطريق الاستعارة في مجموعهم ، وتم اختلاطهم بحركات العالم الطبيعية،
فانتقلوا إلى مديري حفلات المحون وإلى أنبياء الأسرار . وهؤلاء ، رغبة في زيادة
الغموض في جميع هذه التقاليد أضافوا إليها ابتداعات جديدة علموها لمن خلفهم ، لمن
أشركوا معهم في طقوس الأسرار"

" ومن هذه الجماعة كان أوزيرس مبتكر الحروف الثلاثة وأخ قئا (Chna) الذي كان
أول من غير اسمه إلى فينيقي " و" قئا " في القاموس السرياني تعني الأحمر وهو القانيء أما

"فينيق ، أو فونيق " فتعني السيد المرفه ، المنعم والكلمة في العربية السريانية والفصحى من الفعل " فنى " أي تنعم ، ترفه ، عاش عيشاً راغداً ، وعيش مفائق عيش رغيد ، والجنواري الفنى الناعمات والمنعمات .

وهكذا نرى أن أوزيريس وقناه ، أو قاني ، أو فينيق ، إنما هما أخوان . إن أسطورة أوزيريس ترتبط ارتباطاً وثيقاً بمدينة جبيل . وتقول الأسطورة إن "سيت" (وهوداجون) أخا أوزيريس هو الذي قتله ، ولعل سيت هذا ، أو "شيث" (أو سيتخ ، أو ستاع* كما دعاه المصريون) هو نفسه قناه الذي قتل أخاه أوزيريس ، وغير اسمه إلى فينيقي بسبب الصراع على العرش كما تروي الأسطورة . وترتبط القصة اسم "تحتوت" نفسه بدور ما في هذه المؤامرة ، وتتهمه بتدبيرها مع "سيت" . و"تحتوت" (تأوتس) هو الذي نسب إليه سانخونياتن اكتشاف الحروف والكتابة وبدأ فن الحفر . وإذا ما رأينا أيضاً أن أوزيريس وضع الحروف الثلاثة ، علمنا أن التنافس كان قائماً من أجل عرش السيادة على بلاد "ميسور" و"قناه" وكانت النتيجة أن ذهب أوزيريس ضحية لذلك التنافس .

أما قصة ابتكار الحروف الثلاثة فليست إلا عملية ابتكار النظام الثلاثي في كتابة اللغة العربية بكل لهجاتها ، أي إرجاع جميع الكلمات إلى أحرف صامتة ثلاثة ، إنه النظام العربي في الهندسة والمنطق والفلسفة والدين والسياسة والاجتماع ، إنه نظلم الأب والأم (السيد والسيدة) والابن . إنه تجسيد للنظرة العربية السورية في تقديس الآباء ضمن هذا الثلاث الذي يؤكد وجود الابن ، يؤكد الخصوبة . لقد عثر في أريحا على تمثال لرجل وامرأة وطفل يعود إلى الألف السابع قبل الميلاد ، وكان يستعاض عن الثلاثة بالأم وطفلها ، إذ في ذلك ما يكفي لتأكيد خصوبة الأم والأب ، ثم صار يستعاض عن أحدهما أو كلاهما بالصليب (الذي هو رمز الخصب) يحمله أحد الوالدين ، أو بالزوبعة التي هي رمز الرغبة الجنسية الجارحة البدائية الأولى والقوة الإخصابية حقاً ، حينما

• هناك ما يزال على الساحل الشرقي للبحر الأحمر الجبل الذي يحمل اسمه قرب حرة الدم ، وهو جبل سطاخ .

وقعت "الريح المعتمة العاصفة" ، في زمن كأنه امتداد ، في حب مبادئها الخاصة حيث حصل قران .. هكذا كان مبدأ خلق جميع الأشياء " (النبتة I) .



الرب أمون وفي يمينه
الصليب السوري
رمز الخصب

عشتار تنوج
رأسها الأفعى





كليوباترا على هيئة الربة إيزيس تضع تاجا مكونا من قرني البقرة المقدسة حتحور (أي راهبة حور)

إن هذا النظام الثلاثي في التقديس أسقط ذكر الكثير من الآباء العرب مثل "مر"، "سر"، "رب"، "نو"، "تو"، "رم"..... إلا مع أبنائهم : آ — سر ، ع — رب ، أ — نو ، أ — تو ، أ — رم ... الخ ، ثم أصبح ظاهرة عربية صميمة عامة لا يخرج عنها مذهب اجتماعي أو سياسي أو ديني أو فلسفي منذ ذلك التاريخ الموغل قي القدم وحتى يومنا هذا .

من المفيد أن نذكر هنا بأن جيل الفينيقية كان اسمها الفينيقي الأول "نجا" وهي على شاطئ الخليج أسسها إيل (كرونو ، قرون ، أبو السنين) كأول مدينة فينيقية (النبذة X) ويقول "كونتنو" في كتاب الحضارة الفينيقية ضمن مجموعة "آسيا والحضارة المصرية" : " كان المصريون يدعونها "نغا" ويدعون إلهها أدونيس "هابي تو" (أبو الخصب) ، وذلك في الألف الرابع قبل الميلاد ⁽¹⁾ .

كما أنه من الجدير أن نذكر بأن "نجا" (زوبعة الإخصاب الكونية) كان أحد أسماء عشتار ، وتعني السيدة العلية. الرغبة الجنسية والإخصاب الكوني معا والمنجية أو المخلصة. وهكذا نرى أن الأرباب " الآباء العظماء" وفن النحت ، والكتابة التصويرية إنما دخلت مصر عن طريق العرب السوريين الذين يؤلف القناعيون (الفينيقيون) أحد فروعهم ، وأن شبه جزيرة العرب ، أو المناطق الجنوبية السورية — و الشمالية المتوسطة — كانت المهدي الأول لتلك العبادات ، وأن أولئك الآباء العظماء من العرب الأوائل ، أمثال تلوت (تحوت أو توت) وسيت ، وفونيق ، وأوزير ⁽²⁾ (من آزر، وتعني المساعد ، المعين ، الشفيع) وغيرهم ، إنما كانوا مؤسسي الحضارة العربية المصرية القديمة .

هذا ما أكدته المؤرخ العربي السوري سانخونياتن الذي عاش في الألف الثاني قبل الميلاد ، وهذا ما يؤكده المؤرخون العرب الكلاسيكيون ، فماذا تقول المكتشفات الأثرية الحديثة؟ إن النبذ القليلة التي بقيت لنا من تاريخ سانخونياتن لا يمكن لها أن تغطي تاريخ جميع الآباء العرب الأوائل الذين ابتكروا الأشياء الجديدة في حضارة الانسان ، فخلدهم

(1) هنري فرانكفورت ، " فجر الحضارة في الشرق الأدنى " ، ص 101 .

(2) راجع: يوسف الحوراني ، نظرية التكوين الفينيقية ، ص 71/ح .

أبناءؤهم وقدسوههم كما تقُدس الأرباب . فهناك مينا (مينوس) مثلا ، الذي يؤكد لنا هيرودوت في رواية يعتبرها هنري فرانكفورت جدية ويمكن الأخذ بها ، أن "مينا" هذا هو مؤسس مدينة ممفيس⁽¹⁾ . وقد بنى سدا عبر القسم الغربي من وادي النيل شمال الفيوم ، مرغما بذلك فرعا من فروع النيل أن يعود إلى مسيره الأساسي ، ومستصلحا بذلك خمسين ميلا من الوادي . فكان أول من أدخل فنون زراعة الأرض المتطورة من سوريا إلى مصر ، والتي برع فيها العرب السوريون ، وهو يذكرنا بـ "مردوك" الفلاح البابلي ، علما أن لقب "مينا" يعني ، بجميع اللهجات العربية القديمة ، "الفلاح" ، أبو النسل والذرية . وعلى الأرض التي أحياها بنى قصرا ملكيا إلى الجنوب من القاهرة الحديثة قليلا . وكان يدعى "الجدران البيضاء" وقد كان الأبيض هو لون الربة الأم "نخبت" . حارسة مصر العليا وبيت الملك . ومن الجدير أن نذكر أن النبع الذي ما يزال يحمل اسمه (وهو بئر مينوس) يقع قرب مدينة الليث على شاطئ البحر الأحمر ، كما أن اسم "نخبت" ما تزال تحمله مدينة "نخب" قرب مدينة الطائف .

لقد نقل مينا "مينوس" فن البناء واستصلاح الأراضي الذي كانوا قد برعوا فيه إلى مصر . وجريا وراء تقديس كل المبدعين فقد صار قصره "الأبيض" مكانا يحج إليه المصريون ويتقدسون به عن طريق الطواف حوله . وصار كل ملك جديد يجيء إلى ممفيس للاحتفال بـ "اتحاد البلاد" للقيام بالطواف حول الجدار الأبيض كما يظن أن مينس فعل عندما شيد قصره الملكي⁽²⁾ . لقد نقل مينا معه إلى مصر هذا التقليد العربي القديم في العبادة ، والمتمثل بالطواف ، وقد درجوا عليه منذ عهد آدم وحتى اليوم .

(1) هنري فرانكفورت ، " فجر الحضارة في الشرق الأدنى " ، ص 101
 • ان نخبت " هو أحد أسماء عشتار ربه الخصب والجنس والجماع ، وما تزال اللغة العربية الحديثة نحافظ على هذا المعنى : فنحن نجد أن نخب المرأة ينخبها أي جامعها . واستنخبت المرأة طلبت أن تجامع ، والنخب الشربة العظيمة من الخمر يشربها الرجل لصحة حبيبته أو عشيره .

(2) الدكتور محمد حرب فرزات " محاضرات في تاريخ الشرق الأدنى القديم " ، و " مصر وحضارتها " ص 93 نقلا عن غيره .

وإذا كانت القصص العربية المصرية القديمة تقول إن "سيت" هو قاتل أخيه أوزيريس ، وجاء إلى مصر ، فإن القصص العربية السورية في جبيل تؤكد أن أوزيريس قتل ودفن في مدينة جبيل نفسها حتى لا يعود ثانية إلى مصر بعد أن صارت شعبيته هناك تشكل خطرا على غيره وأن معبد أدونيس هو معبد أوزيريس نفسه . إن هذا هو ما يرويه — على الأقل — المؤرخ السوري لقيان السميساطي على لسان أحد سكان جبيل في القرن الثاني الميلادي وليس هذا إلا استنساخا لمواقع القصة الأصل .

يقول لقيان السميساطي في كتابه "الربة السورية" :

" ويوجد جبيلييون يزعمون أن أوزيريس المصري قد دفن عندهم . وأن هذا الحداد ، وتلك الولائم العامة لا تقام على شرف أدونيس ، وإنما جميع هذه الاحتفالات تؤدي على شرف أوزيريس" . ويؤكد أدولف إيرمان في كتابه "ديانة مصر القديمة" أن قبر إيزيس في بلاد العرب . وأن كتابة على قبر أوزيريس أكدت أنه ابن قرونو⁽¹⁾ .

وحينما قتل أوزيريس على يد أخيه سيت ، حسب الروايات المصرية ، قدم سيت ، وملك في مصر وادي النيل ، فلحقه حور (الذي هو "حر" وتعني الباشق ، الصقر ، الطير الحر) إلى هناك . وما زال حتى اليوم ثمة جبل عند مصب نهر الدم في البحر الأحمر يدعى جبل "سطاع Sita" ، ونحن لا نشك في أن هذا الاسم تحور لفظا فقط من اسم "سيت" بفعل اللهجة العربية الحديثة فيما بعد ، وأنه هو نفسه "سيثخ" أو "سيتاع" المصري . وتدل الوقائع أن "حور" تمكن من أن يفرض وجوده هناك فعلا ، وصار "حورس" هو لقب ملوك الأسرة الأولى . كما ظهرت دلائل تشير إلى حدوث تنازع ما بين أنصار عبادة "حورس" وبين أنصار عبادة "سيت" مما ترك آثاره إلى زمن الأسرة الثانية . ومن الطريف أن نشير هنا إلى أن "سيت" هذا هو أحد أجداد العرب السوريين العماليق في منطقة "إيل سيت" التي اسمها الآن "الصوت" (شرقي جبل إبراهيم في شبه جزيرة العرب والذين دعوا فيما بعد "الهكسوس") .

(1) أدولف إيرمان ، "ديانة مصر القديمة" ، مطبعة مصطفى البابي الحلبي ، وأولاده بمصر ، ترجمة عبد المنعم أبو بكر ومحمد أنور شكري ، ص 473 — 474 .

ثم إن من أعظم ملوك المملكة القديمة ، أو عصر ممفيس وبناء الأهرام ، جاسر صاحب الهرم المدرج في صقارة ، والذي اشتهر في التاريخ ببراعته الهندسية والتقنية الفذة . فقد قام ببناء مجموعة من المدافن التي تضم مدفنه القائم على شكل هرم يتألف من ست مصاطب متوضعة بعضها فوق بعض لتصنع مدرجا يرتفع ستين مترا . وقد ساعد الملك وزيره امنحوتب الحكيم ، الذي كان طبيبا وكاهنا ومعماريا طبقت شهرته الآفاق ، وقد دعاه الإغريق "اسكليپوس" ودججوا بينه وبين إله الطب . وشهدت مصر في عهده ثورة عمرانية ، وتطورا ثقافيا سجلته الآثار الأدبية المصرية في العهود التالية .

و"جاشر" أو "جائر" هو نفسه العربي السوري في شبه جزيرة العرب الذي ورد اسمه "جاشر" مقرونا مع "خاسس" (قاسي) كاثنين من الصناعيين التقنيين الفينيقيين في محفوظات أوغاريت ، فقد أورد البغدادي في كتابه "سبائك الذهب في معرفة قبائل العرب" أن ثمة "جائر" من أبناء أرام بن سام بن نوح . وهذا يعني أن هذا الاسم كان من الأسماء العربية البارزة في غربي شبه جزيرة العرب في تلك الفترة أيضا . وتذكر محفوظات أوغاريت (مقام الجارية "عشتار") أن "جائر" (جاشر) ذهب إلى مصر ، وأقام هناك مباني وقصورا وجسورا ، ثم استدعي من هناك إلى أوغاريت ليبنى بيتا للبعل⁽¹⁾ ، والاسم بالعربية السريانية هو جاشار وجاشور ويعني البناء ، الجسار ، الذي يعقد الجسور والبيوت وكل ما يوتر بالأعمدة . و"أجاريت" المقصودة كانت أوغاريت الأخرى في شبه جزيرة العرب ، وهي حاليا "الجارية" ، أما "دوسر" فيعني "السيد" "رب المرتفع" أو "رب الجبل" وقد استعير عنه في موطنه الأصلي أحيانا بكلمة "عل" (إيل بدلا من "ذو" وصار الاسم "عل سر" (رب الجبل) ، ثم اعتبرها اللغة العربية فيما بعد تعريفا وجمعتها فصارت "السراة" ، وهي الجبال المعروفة في غرب شبه جزيرة العرب ، ونحن لا نشك في أن نهر "الدواسر" ليس إلا صيغة عربية حديثة من صيغ جمع التكسير لكلمة "داسر" أو "داسر" ، علما أن جميع روافده تنبع من تلك الجبال وتنحدر شرقا لتكون ذلك الوادي العظيم الذي ظل صالحا للملاحة حتى الخليج العربي آلاف

(1) انظر : يوسف الحوراني "نظرية التكوين الفينيقية" ص 101 ح .

السنين . و"دوشر" أو "دوشر" هو نفسه " ذو الشرى " كبير آلهة الأنباط فيما بعد ، وانتقل إلى الثموديين وإلى العموريين بالصيغة العربية الآرامية "دوشرا" ثم بالصيغة العربية المتأخرة " ذو الشرى " . وقد اقترن اسمه القديم عند الآراميين باسم " أعرا " فسمي أيضا "دوشرا ، أعرا " ولما كان الإبدال بين اللهجات العربية بين العين والغين كثيرا ، فقد سمي أيضا "دوشرا ، أعرا " . و" أعرا " هذه هي نفسها عشتار ، إذ إن " أعرا " هو أحد أسمائها . و" أعرا " المقصودة هنا ليست إلا بلدة " الحجر " في "ميسور" في بلاد زهران والتي صار اسمها صوعن ، ثم " صان الحجر " ، وهي مدينة العنابر لفرعون ملك مصر ، حيث استخدم يوسف بن يعقوب . أما صان فهي " صن " ، وهي "صين" البرية التوراتية شرق زهران يقول فيليب حتي في كتابه "تاريخ سوريا ومن ضمنها لبنان وفلسطين " :

" وكان على رأس مجموعة آلهة الأنباط الإله دوشارا (ذو الشرى ، أو دوساري Dusares) وهو إله الشمس الذي كان يعبد بشكل مسلة ، أو حجر أسود غير منحوت له أربع زوايا . وقد بقي في أنقاض معبد نبطي في خربة التنور جنوب شرقي البحر الميت مزار على شكل صندوق شبيه بالكعبة ، ربما بني في القرن الأول قبل الميلاد ⁽¹⁾ فتقديس الملك "زاسر" ، إذن مرتبط بإدخال عبادة الشمس إلى المصريين من قبل عرب شبه جزيرة العرب السوريين الذي يقول سانخونياتن عن آبائهم الأوائل : " وقد اكتشف — جون وبرثاجون (ابنته) الغذاء الذي تقدمه الأشجار ، وهذان كانا أهل جينو وجينيا اللذان سكنا فينيقيا . حدث جفاف كبير ، فمدا أيديهما نحو السماء والشمس "

وذو الشرى ، إذن ، كان رمزه حجر أسود من بقايا نيزك . وهذا ما فعلته عشتار — كما يتحدثنا سانخونياتن — حينما تجولت في العالم و" وجدت نجما يشق الهواء فالتقطته ، وكرسته في جزيرة صور المقدسة " ⁽²⁾ . لقد اشتهر العرب بتقديس هذه الحجارة الساقطة من السماء في العهد القديم ، وبعد ظهور الأديان السماوية الثلاثة أيضا . فمن المعلوم أنه

(1) فيليب حتي ، تاريخ سوريا ومن ضمنها لبنان وفلسطين ، الجزء ، ص 428 .

(2) إنها جزيرة " مصيرة " الحالية قبالة مدينة صور العمانية .

قد تصل إلى الأرض أجزاء من الشهب والنيازك قبل أن يتم احتراقها ، وقد حظيت هذه الحجارة بتقديس الأقدمين ، واشتهر من هذه الأحجار السوداء المقدسة: حجر عشتار في جزيرة صور ، وحجر الأنباط ، وحجر حمص ، وحجر مكة .

وقد كان الحجر النيزكي في حمص يمثل بعل إله الشمس . وعندما تزوج سبتيمو سفيرو القائد الفينيقي الليبي من الفتاة الحمصية جوليا دومنة ، بنت كاهل بعل حمص ، وصارت إمبراطورة روما ، أمرت بنقل الحجر المقدس عام 217م في عربة خاصة إلى روما وفرضت عبادته على جميع الرومانيين .

أما اسكليپوس الذي هو ابن صديق — كما يحدثنا سانشونيأتين — فهو الطبيب "أشيمون" نفسه وهذه الكلمة هي في الأصل السرياني "حكيمون" أي الحكيم ، الطبيب ، وهي بالعربية الفصحى "حكيم" وصارت باليونانية "أكيمون" وباللاتينية "أشيمون" إذ تحولت "الكاف" إلى "شين" كما في "ميكائيل" و"ميشيل" . وفي الإلياذة هو إنسان فاني وطبيب ماهر ، هو وأبناؤه (الإلياذة 2: 731) ، وترمز له الأفعى التي أصبحت رمز الدواء في العالم المعاصر . وقد انتشر تقديسه في معظم أنحاء العالم القديم ، لكنه لم تنسب إليه معجزات خرافية ، وهذا ما يتماشى مع المبدأ العربي السوري في تقديس الأبطال . ويرينا سانشونيأتين أن هذا "السيد" كان رجلاً حقيقياً موهوباً بمعالجة المرض . وبينما لا نجد لاسمه أصلاً في اللغة اليونانية ، نجد بالمقابل أن الأصل العربي للكلمة هو "آسي كل آفي" أي طبيب كل الأمراض .

إذن ، لقد كان أعظم ملوك الأسرة الرابعة القديمة في مصر "الملك ذاسر" ، وهو عربي من الذين سكنوا القسم الغربي من شبه جزيرة العرب .

وتدل الوقائع والمعطيات أن أولئك العرب الأوائل الذين حكموا مصر ، ونقلوا إليها الحضارة العربية السورية المتقدمة في منطقة الهلال الخصيب ، إنما جاؤوا عن طريق البحر الأحمر إلى الموضع الذي يمتد بين ميناء القصير وأم الروس ، ثم تقدموا من هناك إلى وادي النيل عند قفط ، حيث بنوا أول مواقعهم . وبدأت إنجازاتهم الحضارية العمرانية بالظهور لتبقى شاهدة على مدى تقدم هذه الفنون لديهم على مر العصور . لقد اتخذ الملك

"جاسر" لنفسه ، أول الأمر ، عاصمة قرب "أبيدو" وبني هناك مقبرة على شكل مصطبة ذات درج يؤدي إلى بناء مؤلف من اثني عشرة حجرة ، لكنه سرعان ما تخلى عنه لينتقل إلى موقع أكثر قربا من العاصمة منفيس ، وبني هناك هرم صفارة المدرج والجدير بالذكر أن الاسم "منفيس" هو في السريانية "منفيس" ويعني : الخلاص ، النجاة ، المتنفس ، الحياة ، النمو ، كما يعني الهرم ، القبة ، المدفن .

يقول فيليب حتي : " كانت أول مدينة احتلت مكانة رئيسية في العلاقات المصرية السورية مدينة Gubal (جبيل) ، وكان المصريون يعرفون هذه المدينة باسم Kupan وهو اسم غير سامي حوله الفينيقيون بعد احتلالها إلى جبلة ، وبقي اسمها السامي في جبيل الحديثة"⁽¹⁾ ، إن فيليب حتي يقرر مثل هذا القول — لاشك — معتمدا على أقوال غيره من الجاهلين باللغات عامة وبالعربية خاصة ، وأمن المغرضين الذين جعلوا دأهم في كتابة التاريخ العربي خلق كل الحواجز العرقية والثقافية بين مناطق هذا التاريخ الواحد ، وعزل تجمعاته البشرية الواحدة عن الأخرى . فقد كنا قد أوضحنا أن "جبيل" تعني "قبة إيل" أي "قبر إيل" ، أو "ضريح إيل" الذي هو "قرونو" أبو السنين نفسه . وإن التسمية باللهجة العربية المصرية لا تخرج عن هذا المعنى سوى أنها تضع "عان" (الذي عرفنا باسم "آنو" عند السومريين) مكان "إيل" ويبقى معناها باللهجة العربية المصرية "قبة آنو" . ومازال اسمه يحمله جبل "عان" قرب جبل "سك" شرق الطائف و "سك" هو الذي يحمل اسمه مؤرخنا العظيم "سكونياتن" (أي سك يعطي) والذي نحن في صدد دراسة كتاباته .

ويضيف فيليب حتي : " واسمها اليوناني بيبلوس Byblus الذي صار يعني "بابيروس" أو "كتاب" قد بقي في لفظه Bible (الكتاب المقدس أو التوراة) . وقبل أن تصبح جبيل الميناء الذي يصدر منها البابيروس فإنها كانت مركز تصدير أرز لبنان المرغوب كثيرا إلى وادي النيل . وهناك استخدم الأرز في بناء المعابد والقصور

• "أبيدو" تعني "مقام بيذا" ويحمل اليوم هذا الاسم جبلان : أحدهما "بيدا" في سراة زهران ينحدر منه وادي بيذا إلى الشرق من زهران ، والثاني "جبل أبيض" شمال الليث Abid وهو المقصود . (1) فيليب حتي تاريخ سوريا ومن ضمنها لبنان وفلسطين " الجزء 1 ، ص 136 .

والسفن وفي صنع التوايت والأثاث الفاخر . وقد استورد الفرعون "سنفرو" (حوالي 2650 ق.م) محمول أربعين سفينة من الأرز لأعماله العمرانية ... وكانت تصدر الخمر والزيت أيضا لأجل التحنيط من جبيل . وكانت المدن الفينيقية تستورد — لقاء ذلك — الذهب ، والمصنوعات المعدنية ، ومادة الكتابة (البابيروس أو ورق البردي) .

وقد نقش خوفو Cheops (حوالي 2600 ق.م) باني الهرم الأكبر المشهور اسمه على آنية من الالباستر وأرسلها كهدية إلى سيدة جبيل ⁽¹⁾

والحقيقة أنه ليس ثمة علاقة بين لفظتي "بيلوس" و"بابيروس" . وكلمة "ببعل" التي صارت Bible، أي الكتاب المقدس ، هي كلمة عربية سريانية تعني "معجزة إيل ، معجزة الرب وآياته " وقد حافظت حتى هذا اليوم على معناها في الكلمة العربية "بابية" التي تعني المعجزة ، وفي "الباباة" التي تعني الغاية، والقصد ، وسطور الكتاب .

أما الربط بين تسميتها وبين تصدير ورق البردي ، ففي ما مر من القول تناقض صارخ ، إذ إن جبيل تستورد هذه المادة ، والبلاد لا تشتهر بما تستورد ، بل بما تنتجه وتصدره . وكنا قد أشرنا سابقا عند التمييز بين مدينتي جبيل اللبنانية ، وجبيل في شرقي البحر الأحمر وعلى الخليج العربي ، إلى أن الحديث كله يدور حول "جبيل" شبه جزيرة العرب حتى الآن .

أما الملك "سنفرو" فقد كان أول ملوك الأسرة الرابعة ، ويدل اسمه على أصله العربي من شبه جزيرة العرب . وليس اسم الشاعر العربي الكبير "الشنفري" إلا دليلا على رسوخ هذا الاسم في شبه جزيرة العرب ، (والكلمة تعني ثمرة الإله سين ، إله القمر أو سين أثمر ، أخصب) ، لقد افتتح "سنفرو" عهدا زاهرا ، وأقام منشآت عمرانية عظيمة ، فأنشأ ثلاثة أهرامات : اثنين في دهشور* ، وواحد في ميدوم ⁽²⁾ كما أنشأ معابد ، وحصونا ، وقصورا ، حسبما تذكر الحوليات المحفوظة في متحف بالرمو .

(1) المصدر السابق ، ص 137 .

• هي بني ثور الحالية .

(2) "ميدوم" كان يقصد بها منطقة الجنوب في شبه جزيرة العرب وهي الآن ميدي ، نقل السوريون الاسم معهم إلى "ميدي" على ساحل البحر الأحمر بين اليمن الشمالي وجيزان ثم إلى مصر وادي النيل .

وقد خلفه ابنه خوفو Cheops (الذي هو "كوفو" بالعربية الفينيقية والسريانية ويعني العزيز والنيع) . وجعل — على مايدو — عاصمته في الجزيرة ، حيث بنى هرمه الكبير ، وثلاثة أهرامات صغيرة لأفراد أسرته . وقد اتبعت المملكة في عهده سياسة تهدف إلى استثمار مناجم النوبة ، وذلك لتغطية النفقات الباهظة لبناء الأهرام . وبعد فترة انتقلت فيها العاصمة إلى أبو رواش* عادت إلى الجزيرة مع خفرع (عزيز الإله الراعي " الشمس") والذي بنى هرما خاصا به ومعبدين ، ونحت له التمثال الضخم المعروف بأبي الهول ، ويحمل رأسا ملكيا ، هو على الأغلب رأس الملك ، وجسم أسد رابض كأنه يحرس الأرض ومن عليها بنظرة فيها الإشراق والثقة ، وتعكس طمأنينة الدولة ومثانة دعائمها .

وبإمكان القارئ أن يميز هنا بسهولة الخلط الحاصل بين أخبار الملوك في جزيرة العرب وأخبار ملوك مصر وادي النيل .

ومما يدل على أن جولان العرب بين الجزيرة ووادي النيل يرجع إلى زمن موغل في القدم هو أن المصريين سجلوا في نقش عثر عليه في منطقة بني حسن* على نهر النيل ، على بعد حوالي مائتي ميل جنوب القاهرة ، صورة ملونة جميلة لأسرة سامية عربية مهاجرة من جزيرة العرب إلى وادي النيل . وقد نقش هذا التصوير الذي يرجع إلى زمن الملك "سيرا ستار" (الربة هي عشتار) الثاني على جدران مقبرة الحاكم "خانم هاتيب" (حنا الطيب) . ويمثل المنظر رئيس قبيلة عربية (فينيقية أو عمورية) يسمى ابيشاي ، وأفراد عائلته ، وأتباعه وقد جاؤوا من جزيرة العرب إلى مصر . ولقد ورد اسم أبيشاي كاسم عربي في التوراة بصفته أخ أحد قواد داود ، وهو يعني " أبو يسي " (أو أبو ياسين فيما بعد) وتعني السيد أبو هو رب القمر ، ويشاهد في النقش موظفان مصريان يتقدمان الكوكب ليقدا الجماعة إلى الحاكم المصري . وقد ورد في الكتابة الهيروغليفية التصويرية

•• إن اسم " أبو رواش" هو استنساخ لاسم "جبل أبو رواث" الذي مازال حتى اليوم على السهل الشرقي للبحر الأحمر شمال مدينة الليث .

• وهذا الاسم استنساخ لاسم "أل حسن" شرقي عردة في زهران ، وهو مأخوذ من اسم جبل كاشي قرب البلدة الباقية باسم "أل حسن" حتى اليوم .

التي حملها أحد هؤلاء الموظفين بيده أن هذه الجماعة هي من سكان شبه الجزيرة العربية، وقد جاءت إلى مصر ، وهي مؤلفة من 36 شخصا من نساء وأطفال ورجال ، يرأسها الشخص المسمى أبيشاي ، وقد جاؤوا بهدايا معهم إلى الحاكم ، منها كمية من "الكحل" الذي نكحل به أهداب العيون هدية منهم إلى زوجة الحاكم .



رهيا والأفعى

ربة الخصب السورية
واقفة على أسد
وتصحبها حيتان



أقراط ذهبية
لربة الخصب



ويعتقد جماعة من علماء الآثار بأن العرب انتشروا من شبه جزيرة العرب إلى وادي النيل بكترة منذ الألف الرابع قبل الميلاد واستقروا فيه . ولقد جاؤوا عن طريقين ، إما عن برزخ السويس ، أو عن طريق باب المندب ، وحملوا معهم حضارة أرقى مما كان في مصر . فقد جاؤوا بفن التحنيط ، وبالكتابة التصويرية (الهيروغليفية) ، وأدخلوا معرفة المعادن وبخاصة النحاس ، وديانة الخصب ، وعبادة الشمس ، والفنون ، والنظم الاجتماعية والسياسية ، وعمموا لغتهم في مصر وصبغوها بصبغتهم كما هو ظاهر من النقوش المصرية ، وقد حافظت لغتهم على هذه الصبغة بالرغم مما طرأ عليها مع مرور الزمن من تغيير وتبدل باختلاط السكان ⁽¹⁾ .

ويقول ل.و كينغ : " إن الساميين نزحوا إلى مصر من عهد قديم جداً . ويؤخذ من الاكتشافات الآتارية الأخيرة أن العصر الحديدي بمصر يبدأ بدخول الساميين إليها ، أي أن المصريين لم يكونوا يعرفون الآلات الحديدية قبل دخول الساميين ، فأتاهم الساميون بالحدادة منذ أقدم أزمنة التاريخ المصري .. ومما يستدل به على قدم نزوح الساميين إلى مصر أن "بتاح" أقدم آلهة المصريين والفينيقية تلفظ " P " في أغلب الأحيان .

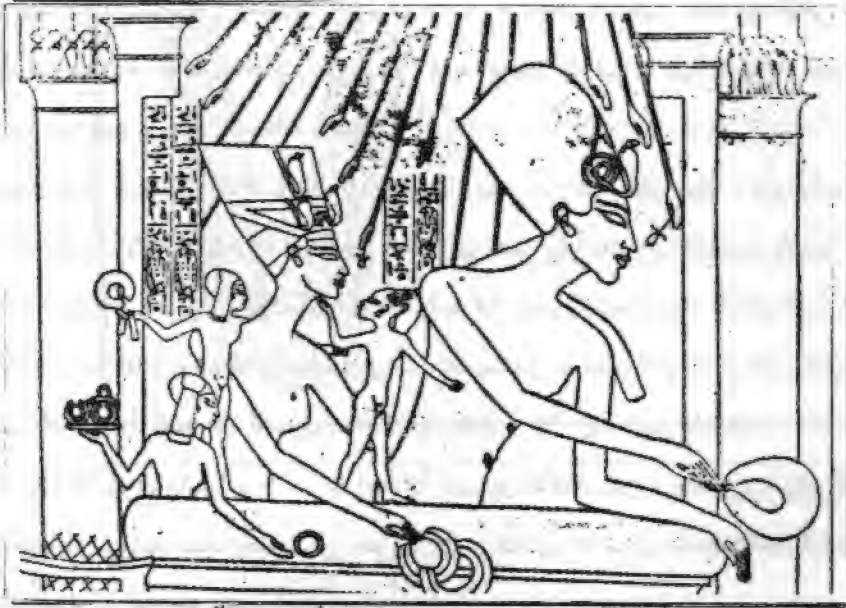
وقال المؤرخ ماسبيرو : " إن لعروق المصريين الأقدمين ، والعرب ، والفينيقيين والكنعانيين روابط تشد بعضها إلى بعض ، وليس المصريون سوى ساميين انفصلوا عن مهد الساميين قبل غيرهم " ⁽²⁾

وإن " الهرم " هو تحوير " الحرم " في اللهجة المندائية في وسط شبه جزيرة العرب التي تلفظ الحاء هاء ، وقد ذهبت إلى الحبشة أيضاً ، ولقد لاحظ بعض الباحثين وحدة التصوير في نظام العمارة عند العرب السوريين في سومر وبابل حيث الزقورات ، وفي وادي النيل حيث الأهرام ، مما يدل على أن مستوى التفكير الحضاري مصدره واحد في كلا المنطقتين ، إذ كلاهما كان يصبو إلى الارتقاء إلى الأب "شمس" في السماء ، راعي جميع

(1) انظر : بروسند " تاريخ مصر من أقدم العصور إلى الفتح الفارسي " غوستاف لوبيون " الحضارة المصرية " غوستاف جيلي " تاريخ المدينة المصرية " بارتون " نبذة عن الأصول السامية " الدكتور محمد عزة دروزة " تاريخ الجنس العربي " جزء 1 ، 2 .

(2) L.W King , "Egybt and Western Asia in the Light of Recent Discoveries " London , P.62 .

الكائنات "رع" . لقد اعتبر المصريون القدامى رب الشمس "رع" ملكا ، كما اعتبروا الملك ربا ، أي أن الملك والرب واحد ، وقد انتقل ذلك التقليد إلى وادي النيل مع العرب الذين يقدسون أجدادهم المتفوقين ، ويجعلونه في مرتبة قريبة من الآلهة . إن كلمة "رب" العربية تعني السيد والمعلم كما تعني الإله ، وإن ترجمتها إلى اللغات الأجنبية دائما بمعنى الإله ضرب آخر من ضروب التزوير التي تعرض لها تاريخ العرب القديم .



أخناتون وزوجته نفرتيتي تتوج رأسيهما الأعلى
وأمام وجه كل منهما الصليب السوري رمز الخصب

إن المملكة الأولى القديمة ، وكانت فترة تأسيسية في تاريخ الحضارة العربية في وادي النيل ، نتجت عن دخول العرب القادمين من جنوب سوريا في شبه جزيرة العرب ، وانتهت في حدود عام 2200 ق.م وكانت عاصمتها ثيبة (طيبة) . ويدل اسم العاصمة العربي السوري على هوية الحكام . إنه الاسم الذي اختاره قدموس فيما بعد للمدينة التي بناها في بلاد الاغريق أثناء بحثه عن شقيقته أوروبا (المزيدة ، المكثرة ، المخصبة ، المربية ، المعلمة ...)

"وأما قدموس فلم يأس ، بل فكر وذهب إلى معبد دلفي واستشار الإله أبولو ، أحاب أبولو : "لا تجهد نفسك بالبحث عنها ، وبأمر والدك أن لا تعود بدونها . بل أسس لنفسك مدينة جديدة . عندما تخرج من هنا ستجد "عجلة" فتتبعها إلى حيث تتوقف العجلة لتستريح . هناك تبني المدينة . هكذا أسس قدموس قلعة قدميا ومدينة طيبة"⁽¹⁾ .

"وكان ساكنو "طيبة" في مصر يسمونها أيضاً "إيزى" (Iza) و"نو" . وهما من أسماء عشتار الربة السورية ، الأم العربية ، ثم الأم العالمية والكونية الكبرى . وقد اقترنت بالقمر وبكوكب الزهرة . ومن أسمائها "عزى" و"إيزيس" ، وقد أدخلت إلى مصر مع العرب السوريين هذا الاسم الذي كان منتشراً في منطقة غرب شبه الجزيرة العربية حتى ظهور الإلهام .

فقد أطلق البابليون اسم "عشتار" على كوكب الزهرة ، ولم يكن يعرف إلا بهذا الاسم ، والكنعانيون أطلقوا عليه اسم "عستارت" واليونان "أفروديت"⁽²⁾ التي هي ربة سورية بنت الإله "عَرَن" (أورانوس) .

يقول ف . غويران في كتابه "الميثولوجيا الاغريقية" : " يجمع دارسو الميثولوجيا الاغريقية على أن اسم "أفروديت" يرجع إلى أصول سورية ، وأن عبادتها انتقلت من قبرص إلى سائر بلاد اليونان والرومان ، وإنها كانت ، في الأصل ، إلهة لخصب الأرض والطبيعة بكل مظاهرها ، ثم اقتصرت وظيفتها على الحب بشئ أنواعه"⁽³⁾ .

إن قصة مولد "أفروديت" تحكي عن أصلها العربي السوري إذ تقول : "إن الإله "قرونو" (كرونوس الذي هو إيل) تمرد على أبيه "عَرَن" (أورانوس ، المرتفع ، السامي ، السماء) وقام بمساعدة أمه "غايا" على إخصاء الأب ، ورمى بأعضائه التناسلية في البحر

(1) الدكتور وديع بشور ، "الميثولوجيا السورية" ص 334 .

(2) يذكر هيرودوت أصل "أفروديت" الفينيقي ، فوصف معبداً لها في عسقلان (في بلاد غلدم) باسم "أفروديت أورانيا" وهما نجد نسبتها إلى "رنيا" أي الرانية ، الشمس ، وحيث جبل رنيا ووادي رنيا ومدينة رنيا إلى اليوم في بلاد غلدم . كما يذكر أن معبد عسقلان هو أقدم معبد لها ، وأن معبدها في قبرص مأخوذ عنه ، وإن معبدها في "كثيرا" بناه الفينيقيون أنفسهم أبناء عسقلان (هيرودت 1 : 150) .

(3) F. Guirand , " Greek Mythology " .PP.63.64 .

فأخصبت الماء المالح مكونة زيدا أبيض انبثقت منه أفروديت التي خرجت إلى الشاطئ
تمتختر في أهى شكل أثوي يقع عليه بصر " . والاسم السرياني مؤلف من " أف "
و"روديت" ويعني : وجه الخصب كما يعني تجسيد المني .

ثم استمر اسم " إيزا " (الرمزي) عند العرب مرتبطا بكوكب الزهرة ، وكانوا يعبدونه
ويتفاءلون بظهوره وبقدرته على جلب الحظ في الأعمال اليومية وفي الحب .

وتروي الأساطير العربية المتأخرة إلى فترة ما قبل الإسلام أن كوكب الزهرة كان امرأة
جميلة فاتنة تعيش على الأرض قبل أن تصعد إلى السماء ، وتتحول إلى ذلك الكوكب
الأحمر المتوهج البراق . ومن جملة أسمائها أيضا "عاتكة" التي تعني من جملة ما تعنيه
من أوصاف عشتار ، الحمراء المتوهجة ، العصية على الامتلاك الجنسي .

لقد استمد الطبري في تفسيره من تلك القصص التي كانت شائعة واستخدمها القرآن
دوغما تفصيل ، فذكر ، مثلا ، بخصوص هاروت وماروت ، أن الملائكة قد أخذت
تشكو فجور البشر وضلالهم على الأرض بعد آدم ، فأراد الله أن يتلي الملائكة . فأرسل
ملكين من أكثرهم نقاوة ، هما هاروت وماروت وأنزلهما إلى الأرض ليأمرأ باللعروف
وينها عن المنكر . لكن امرأة فائقة الحسن والجمال عرضت لهما ، فأقبلا عليها ،
وراودها عن نفسها ، فأبت واشترطت عليهما الخروج عن دينهما ، وعبادة الأوثان ،
فامتنعا . ثم أتياها ثانية فتمنعت ، واشترطت عليهما ارتكاب إحدى معاص ثلاث :
فإما عبادة الأوثان ، أو قتل النفس ، أو شرب الخمر ، فاختارا شرب الخمر . فسقتهما
حتى لعبت برأسيهما فواقعاهما . هنا مر بهما رجل فخافا افتضاح أمرهما ، فقتلاه . ثم
إنهما أرادا العودة إلى السماء فما استطاعا ، فطلبت منهما المرأة تعليمهما الكلام الذي
يصعدان به إلى السماء ، ففعلا ، فعرجت ، ولكنها بقيت معلقة هناك على هيئة
كوكب الزهرة ⁽¹⁾ .

إن الحكاية التي يرويها الطبري عن المرأة هي حكاية عشتار — الزهرة ، ربة الحب
والخصب العربية الكبرى . إنها إيزيس (أو العزى) التي ارتبطت عبادتها بهذا الكوكب .

(1) تفسير الطبري ، سورة البقرة ، الآية 102 .

وكان العرب يعتقدون بإثارتة للحب ، وإضرامه لنار الرغبة الجنسية بين الذكر والأنثى .
وكان أربعة من ملوك المملكة القديمة يسمون "أمون محات " وثلاثة منهم يسمون " سينوستارت " التي تعني سين القمر عشتار . " وجميعهم كانوا ملوكاً تقدميين عظاماً ، وعلى كثير من الحيوية والعزم وبعد النظر . فبعد أن قضوا على سلطة رجال الاقطاع ، راحوا يعملون على توحيد البلاد ، وتوسيع رقعتها عن طريق التوسع العسكري وتركيز السلطة في يد الحاكم . ومثال على ذلك الاستيلاء على بلاد النوبة .. ويعزى إلى سنوستار طرق الملاحة بين البحر الأبيض المتوسط والبحر الأحمر .. ومما زاد في تحسين الحالة الاقتصادية وفي ازدهارها تجفيف مقاطعة الفيوم ، وهو عمل من الأعمال المائية الباهرة التي قام بها الإنسان القديم ، والحملات التجارية إلى بلاد بونط (أي المضيق) ، وذلك للحصول على العاج ، وخشب الأبنوس ، وجلود الفهود والنمور ، والبخور . ومما يدل على ازدهار هذه الفترة جمال البناء ورقي الفن " (1) .

وبلاد بونط ، هي المنطقة التي نزلها أبناء بونط في البلاد الساحلية عند مضيق باب المندب . يقول سائغونيأتين في تاريخه من خلال ما وصلنا منه : "وبونت كان والد صيدون الذي بامتياز صوته كان أول مكتشف أغانسي الترنيمة ... وفي هذه الأثناء جدد "غرانو" (أوررانوس) الحرب ضد بونت ، حيث إنه بعد ابتعاده عنه تعلق بدمارون ، وبدأ دمارون المهجوم ضد بونت " (النبذة 13)

إن هذا يعني أن بونط أو بونت هو من العرب في غرب شبه جزيرة العرب الجنوبي ، حيث ما تزال بلدة "صيدون" (زيدون) حتى الآن في شمالي الحدود اليمنية تسيطر على الطريق الدولي الموازي للحدود أما "بونط" فتعني القنطرة ، المعبر ، المضيق ، الممر . لقد اخترع العرب السوريون فن الكتابة ، والنحت ، والتصوير ، والمعادن ، والعمارة بالطوب ثم بالحجر ، والأعمال الزراعية المتطورة بالري ، وعملية استصلاح الأراضي ، وتطوير وتنوع المحاصيل ، وتأسيس الماشية ، بعدما كان الفلاح القديم من النوبيين — كما يصفه المؤرخون — ينتظر فيضان النيل وانحسار الماء ليرش البذار ثم يسوق قطعان الخنازير

(1) فيليب حتي ، " خمسة آلاف سنة من تاريخ الشرق الأدنى " ص 58 .

فوق الأرض المرشوشة بالبذار ، فتطمره ، وبعد فترة تنتش الحبوب وتنمو .
ولقد لفت شونيفرت أنظار العلماء إلى تلك الحقيقة وهي أن الشعير ، والذرة الرفيعة ،
والقمح ، وتأنيس الماشية والمعز والضأن ، وإن ظهرت كلها في مصر وفي بلاد ما بين
النهرين منذ أقدم العهود المدونة ، إلا أنها لا توجد في حالتها البرية الطبيعية في مصر ، بل
في بلاد آسيا الغربية ، وبخاصة في بلاد اليمن وبلاد العرب القديمة ، وهو يستدل من هذا
على أن الحضارة — وهي هنا زراعة الحبوب واستخدام الحيوانات المستأنسة — قد
ظهرت في العهود القديمة غير المدونة في بلاد العرب ، ثم انتشرت منها في صورة "مثلث
ثقافي" إلى ما بين النهرين (سومر وبابل وآشور) ، وإلى مصر ⁽¹⁾ .

إن إدخال فنون الزراعة والري إلى مصر من قبل العرب السوريين تجسده ، قبل كل
شيء ، وأكثر من كل شيء ، قصة أوزيريس ، الذي هو الوجه الآخر لأدونيس .
يقول فيليب حتي في هذا الصدد : " ويتضح التأثير السوري في أقدم قصة مصرية ،
وهي آلام أوزيريس الذي قطع جسمه إرباً ، ووضع تحت شجرة الاثل في جبيل ويظن
البعض أن الجثة المشوهة وضعت في مصر . وقد تكون عبادة أوزيريس برمتها مأخوذة
من الساحل السوري في تاريخ قديم جداً . وقد أدخل الرب حورون ، وهو الرب
الرئيسي في بينة إلى معابد مصر في أيام امنحوتب الثاني (حوالي 1450 — 1420 ق.م)
ويظهر في اسم حور محب مؤسس السلالة التاسعة عشر . ويمكن الاستدلال على عبادة
عشتاروت في منتصف القرن الثالث عشر (باسمها) من أن أحد أبناء رمسيس الثاني
وهو ميرى أستروت ، أي (رَبِّي) عشتروت . وكان يوجد في نوكراتس الذي ربما
كانت مستعمرة فينيقية معبد لأفروديت — عشتاروت . وهيراكلس التي كرس له هيكل
في كانوبس — وهي أيضاً مستعمرة فينيقية ، كان بدون شك الإله الفينيقي لمقارت ⁽²⁾ "
وتشهد الآثار المتأخرة في مصر عن كثرة المحاصيل السورية في عهد الملكية الحديثة
وغناها . وكان الصناع السوريون ينتجون أسلحة ثمينة مزخرفة ، وثياباً مزركشة ،

(1) Clide , Ancient East .P.216.

(2) انظر فيليب حتي ، " تاريخ سوريا ومن ضمنها لبنان وفلسطين " الجزء 1 ص 14 .
Herodotus , Bk li, Ch.113

وأواني أنيقة ، وأثاثاً ، ومركبات مرصعة بالذهب والفضة ... والسوريون كانوا أول من فكر بوضع الزهور الاصطناعية في أوان معدنية ⁽¹⁾ .

ولاشك أن فيليب حتي يطلق على سوريا المتوسطية اسم "بلاد كنعان" التي أقحمت مؤخراً في سوريا المتوسطية . إن قصة أدونيس ، أو أوزيريس ، بدأت في جيبيل على الساحل الشرقي من شبه جزيرة العرب ثم انتقلت إلى سوريا المتوسط .

ولقد أدخل العرب السوريون زراعات إلى مصر لم تكن معروفة من قبل مثل القمح (بالمصرية Gmhu) ، والكرمة (بالمصرية Krmu) والصوف الفينيقي (القطن) وغيره . ثم صار أوزيريس يعلم المصريين الزراعة . "فبعد أن اكتشفت إيزيس القمح ، أعطت باقاته الأولى لأوزيريس الذي قام بتعليم البشر زراعتها" . وقد ابتدأ أوزيريس مهمته في أرض مصر ، فأبطل العادات الممجية القديمة ، وعلم الناس كيفية صناعة الأدوات الزراعية واستعمالها في استنبات القمح والشعير ، وعلمهم أكل الخبز ، وشرب النبيذ والجمعة ، وبناء البيوت . وهو الذي أسس الديانة الأولى ، وعلم البشر عبادة الآلهة ، واستخدام الآلات الموسيقية . وبعد أن قام بنشر الحضارة في مصر ، غادرها إلى آسيا وبقية أنحاء المعمورة ، متابعاً مهمته في نشر الحضارة العربية السورية ، مستملاً إليه الناس بالرفق والمحبة والموسيقى ، ثم عاد إلى مصر ليحكمها بالعدل ، ولكن إلى حين . ففي السنة الثامنة والعشرين من حكمه قام ضده أخوه الشرير "سيت" (داجن) الذي نام على حسده وغيرته وضغائنه فترة طويلة ، فقتله غيلة ووضع جسده في صندوق خشبي أغلقه بإحكام ورماه في النهر . حملت مياه النهر الصندوق ، فطاف على غير هدى حتى استقر عند مدينة جيبيل ، حيث أمسكت به أغصان شجرة الطرفاء النحيلة ، التي ما لبثت أن نمت بشكل غير مألوف بعد أن لامسها التابوت المقدس ، واحتوته بكامله داخل جذعها فلما رآها ملك جيبيل أعجب بها أشد العجب ، وأمر أن تقطع لاستعمالها كعمود يزين قصره ويدعم به سقفه . وما أن نصبت الشجرة عموداً حتى أخذت تتضوع طياً

(1) **Piere Montet: Les Reliques L' art Syrien Dans L' Egypt de Nouvel Empire, Paris , 1937, P.179**

نفاذاً ذاع صيته في كل البلاد ، حتى وصل أسماع إيزيس في مصر ، وقد كانت في حداد مقيم منذ غياب زوجها . فأدركت ببصيرتها سر الشجرة ، وطارت لتوها إلى جيبيل ، حيث تنكرت في هيئة امرأة عادية ، ودخلت القصر الملكي كضيفة على الملكة "عشتاروت" وصارت مربية لابنها . ثم ما لبثت أن أعلنت عن نفسها ، وطالبت باستعادة أوزيريس من الشجرة ، فكان لها ما أرادت . شقت إيزيس الشجرة ، وأخرجت الصندوق ، وفتحته ، وأخذت تبكي ما شاء لها البكاء فوق جثة زوجها المسجاة ، ثم حملته وطارت به إلى مصر ، حيث خبأته مؤقتاً في مستنقعات الدلتا ، خوفاً من أن يعثر عليه أخوه "سيت" لكن "سيت" يجد الصندوق ، فيفتحه ، ويمزق جسد أوزيريس إلى أربع عشرة قطعة ، يوزعها في طول البلاد وعرضها . غير أن هذا لا يفت من عضد إيزيس التي تعود للبحث عن أوزيريس وتزرع الأرض منقبة عن أجزائه المبعثرة ، فتعثر عليها قطعة بعد قطعة ، ما عدا عضو الذكورة . ثم تجمعها وتنفخ فيها الحياة مستعيدة حبيبها من عالم الموتى . لكن أوزيريس بعد بعثه يفضل قضاء بقية حياته في العالم الأسفل (الحياة الدنيا في مصر السفلى) ليصبح سيداً له ، ويتابع ابنه من إيزيس "حورس" مقارعة عمه "سيت" فوق الأرض في الأعالي (في منطقة الجبال الغربية من شبه جزيرة العرب) .

إن الأسطورة بكامل عناصرها ، هي قصة أدونيس الفينيقية . فأوزيريس يولد ولادة ثانية من الشجرة ، كما ولد أدونيس ، وهذه الولادة تحصل في مدينة جيبيل الفينيقية ، المركز الرئيسي لعبادة أدونيس . كما خبأت عشتاروت أدونيس في صندوق ووضعت في عهدة برشفوني ، ثم عادت إلى العالم الأسفل تحاول استرجاعه ، كذلك هو حال أوزيريس الذي وضع جسده القليل في صندوق راحت إيزيس تبحث عنه حتى وجدته في قصر ملكة جيبيل ، التي تطلق عليها الأسطورة اسم "عشتاروت" . وهذا التطابق بين اسم الملكة واسم الربة ليس من قبيل الصدف ، بل هو بقية باقية من أسطورة أدونيس التي ارتحلت في تاريخ مبكر من فينيقيا إلى مصر السفلى . أما قصة عشتار وأدونيس فقد كان

مسرحتها شبه جزيرة العرب ، وهذا ما حافظت عليه الرواية حتى زمن الكاتب السوري الروماني "أوفيد" في كتابه "التحولت" .

أما اللغة " فكلما رجعنا إلى الوراء في درس اللغة المصرية القديمة زاد ما نجد فيها من صلات بينها وبين لغات الشرق الأدنى السامية . " ويبدو أن الكتابة التصويرية التي كان المصريون يستخدمونها قبل عصر الأسر الحاكمة قد انتقلت إلى مصر من بلاد السومريين⁽¹⁾... وليست عجلة الفخار معروفة في مصر قبل عهد الأسرة الرابعة ، أي بعد أن ظهرت في بابل بزمان طويل ، ولعلها جاءت إلى مصر من أرض النهرين مع العربات والعجلات⁽²⁾ ورؤوس الصوالم المصرية لا تفتقر في شيء عن البابلية⁽³⁾ . وتبين الآثار المصرية التي ترجع إلى عصر ما قبل الأسر ، والتي عثر عليها في جبل الآراك* سكين من الطران جميل الصنع ، عليه نقوش بارزة هي بعينها نقوش أرض الجزيرة السورية من حيث موضوعها وطرزها⁽⁴⁾ . ولعل صناعة النحاس قد نشأت في غربي آسيا ثم انتقلت بعدئذ إلى مصر . وتشبه الهندسة المعمارية المصرية الأولى هندسة أرض الجزيرة في استخدام النقوش القليلة البروز لتزيين الجدران المتخذة من الآجر وفخار عهد ما قبل الأسر المصرية ، وتماثيله الصغيرة ، وموضوعات زينتها تشبه مثيلاتها في أرض الجزيرة السورية في كثير من الأحوال أو شديدة الصلة بها بلا ريب . ومن بين الآثار المصرية الباقية من ذلك العهد تماثيل صغيرة لآلهة لا يخطئ الإنسان في إدراك أنها من أصل آسيوي⁽⁵⁾ .

ويحاول بعض المؤرخين الذين أفرزهم الاستعمار أن يصروا على "استقلالية" الحضارة المصرية عن العربية القديمة في سوريا الطبيعية ، التي شملت الهلال الخصيب وشواطئ البحر الأحمر ، ليجعل منها عالما مناقضا لأمتة العربية . ومن أمثال أولئك المؤرخين الأمريكي

(1) Ibid ,372 .

(2) Ibid ,255,263,581 .

(3) Ibid ,579 .

• هذا الجبل استنساخ لجبل أراخ في القسم الشمالي الشرقي من زهران ، حيث يبدأ وادي أراخ.

(4) Ibid ,579.

(5) ول ديورانت ، "قصة الحضارة" الجزء 2 ، ص 44 .

برستد ، والانكليزي اليون سميث ، اللذان رفضا آراء المؤرخين الآخرين المعتمدة على الوثائق الآثارية التي لا تدحض ، وصارا بينان فرضيات لا أساس لها حول إدخال النباتات الزراعية الأساسية من بلدان إفريقية — غير عربية — كاثيوبيا مثلا ، ثم أخذ السوريون — ومنهم السومريون طبعاً — يقتبسون فنون الزراعة من مصر !

لكن مثل هذه الأقوال ما لبثت أن سقطت من تلقاء ذاتها دون أن تتمكن من الصمود حتى لدى قائلها بفضل المكتشفات الآثارية التي أخذت تتوافر بكثرة يوماً بعد يوم . ونحن لا نشك في أن استكشاف المنطقة الغربية من شبه جزيرة العرب سوف يخرج كنوزاً تدفع بالمعرفة العالمية عن حضارة العرب القديمة أشواطاً جديداً مختلفة ومتقدمة .

وينقل ول ديورانت أقوال غيره من المؤرخين في هذا الصدد فنقرأ في كتابه " قصة الحضارة " : " ويرجح أن الغزاة أو المهاجرين الذين وفدوا من غرب آسيا قد جاؤوا معهم بثقافة أرقى من ثقافة أهل البلاد .. ثم تكونت مملكتان واحدة في الجنوب وأخرى في الشمال ، ولعل هذا التقسيم كان صورة أخرى من النزاع القائم بين الأفريقيين أهل الجنوب والمهاجرين الآسيويين أهل الشمال " (1) .

" ولم تكن أعظم شخصية حقيقية عرفها التاريخ شخصية ملك ، بل كانت شخصية فنان وعالم ، وتلك هي شخصية أمنحوتب الطبيب والمهندس وكبير مستشاري الملك زوسر (حوالي 3150 ق.م) وكان له على الطب المصري من الفضل ما جعل الأجيال التالية تعبدته وتتخذة إلهاً للعلم ومنشئ علومها وفنونها . ويلوح في الوقت نفسه أنه هو الذي أوجد طائفة المهندسين التي أمدت الأسرة التالية بأعظم البنائين في التاريخ .

" وتقول الرواية المصرية إن أول بناء من الحجر قد أقيم بإشرافه ، وأنه هو الذي وضع تصميم أقدم بناء مصري قائم إلى هذه الأيام وهو هرم سقارة المدرج ، وذلك الهرم بناء مدرج من الحجر ظل عدة قرون الطراز المتبع في تشييد المقابر . ويلوح كذلك أنه هو الذي وضع تصميم هيكل زوسر الجنازي وأعمدته الجميلة الشبيهة بزهرة اللوتس ، وجدرانها المكسوة المقامة من حجر الجير ، وفي هذه الآثار القديمة القائمة في سقارة ،

(1) ول ديورانت ، " قصة الحضارة " الجزء 2 ، ص 66 .

والتي تكاد تكون بداية الفن المصري في العهود التاريخية .

" ولسنا نعلم حقيقة الأحوال التي جعلت الأسرة الرابعة أهم الأسر الحاكمة في تاريخ مصر قبل الأسرة الثامنة عشرة .. قد تكون قوة خوفو* أول ملوك هذا البيت الجديد⁽¹⁾ وقد ترك لنا هيرودوت ما قاله الكهنة المصريون عن منشئ أول هرم من أهرام الجيزة فقال : " وهم يقولون لي الآن إن العدالة ظلت توزع بالقسطاس ، وأن الرخاء عمّ جميع أنحاء مصر إلى أن حكم كيوبس (كوفو = خوفو) فارتكب كل أنواع الخبائث ، ذلك بأنه أغلق جميع الهياكل ... وسخر المصريين لخدمته وحده .. فعين طائفة منهم لقطع الأحجار من المحاجر في جبال العرب* ونقلها إلى النيل ، وأمر طائفة أخرى باستقبال الحجارة بعد أن تنقل في البحر على سفن ... وكان يعمل منهم مائة ألف في كل نوبة ، وكل نوبة تعمل ثلاثة اشهر ، وظل هؤلاء يكدحون عشر سنين في إنشاء الطريق الذي كانت تنقل عليه الحجارة ، وهو عمل أرى أنه لا يقل مشقة عن تشييد الهرم نفسه⁽²⁾ وسقارة بالسريانية تعني الأحمر .

والطريف أن هيرودوت ينقل لنا اسم كل من الملكين خوفو ، وخفرع بلفظهما العربي السرياني (كوبوس ، وكفرن) . وكنا قد أوضحنا معنى الأول ، أما الثاني فيعني عزيز "رن" إله الشمس الرائي الناظر ، البصير ، الرقيب ، الراعي ، وهو مرادف لـ "رع" . و"رن" هو الجبل في منطقة الجبال التي تتبع منها روافد نهر رنية في سرة زهران المسماة باسمه . وإن تسمية " زهران" نفسها الباقية هناك حتى اليوم ليست إلا التسمية القديمة "بلاد زاهي رن" . وقد وردت في كتابة الكهان على لسان الإله آمون حامي تحوتس في شكل أغنية للنصر بعد أن غزا تلك المنطقة من أرض كنعان* إذ جاء فيها :

• بالفينيقية "كوفو" وتعني العزيز المنيع ، وقد دعاه المؤرخ هيرودوتس "كيوبس" وكان الإبدال بين الكاف والخاء شائعاً بين الفينيقيين .

(1) ول ديورانت "قصة الحضارة" الجزء 1 ، ص 67 - 69 .

• هذا دليل على أن أصل تلك الأسرة الحاكمة يعود إلى العرب السريان في غرب شبه الجزيرة العربية ، إذ كان الملك يتصرف دون أن يعتبر ذلك عدواناً ، بل وكان البلدين بلد واحد .

(2) هيرودت II : 124 .

• لقد خلط المؤرخون بينها وبين سوريا المتوسطية ، وهذا ما سوف نتناوله لاحقاً بالتفصيل في كتابنا الثاني .

"لقد عبرت مياه المنحنى العظيم لنهارين

في النصر والقوة اللذين منحتها لك

إنهم يسمعون صرختك للحرب ، ويزحفون إلى أوكارهم

إنني أنزع من منخرهم نسمة الحياة ، وأجعل

رهبة جلالتك تخرق قلوبهم

لقد أتيت لاجعلك تدوس زعماء زاهي

إنني أطرحهم تحت قدميك في البلاد كلها "

ثم إن "رن" إذا ما أضيف إليها المقطع "أ" أو "عَـ" الذي يعني — كما سبق أن

أوضحنا من قبل — "بيت" أو "مقام" أو "أبناء" ، يصبح معنى "أرن" أو "عرن" مقام

الأب (السيد ، الرب) "رن" وعرشه وبيته ، ثم نقله الفينيقيون إلى اليونان وصار باليونانية

"أورانوس" وعبداه اليونانيون ، رباً للسماء أو الشمس .

أما "منقرع" فقد دعاه هيرودوت باسمه السوري الفينيقي الأصل "ميسورني" على اسم

جده ميسور الذي زرع وبني القرى مع ماجون في بلاد زهران . وكنا قد ذكرنا كيف

أن أمون محب مساعد الملك "ذوسر" هو الذي دعاه اليونان "اسكليبيوس" من اسمه

الفينيقي صقلاب المرادفة لفينيقي ، وقد دعا نفسه في مصر "أمون محب" ، وهو الذي

يتحدث إلينا في أحد النقوش القديمة بقوله :

"كنت رجلاً زرع البذور وأحب إله الحصاد

وحياي في النيل وكل وديانه ،

ولم يكن في أيامي جائع ولا ظمآن ،

وعاش الناس في سلام بفضل ما عملت وتحذثوا عني "

إن هذا القول يكشف عن الطريق الذي سلكته الزراعة في مصر ، ويؤكد الأصل العربي

السوري لأولئك الرواد الحضاريين العمالقة الأوائل ، كما أن تموز رب الحصاد كان

رفيقهم .

ومما يدل أيضاً على إحساس أولئك الملوك والمهندسين الجبابرة الأوائل بأنهم لم يرسخوا أقدامهم بعد في أرض وادي النيل ، رغم حرصهم على تطبيق العدالة ونشر كل أسباب الحضارة التي من شأنها أن تجلب الخير العميم للناس ، مثلهم في ذلك مثل آبائهم الأوائل ، الذين تمجدوا بمكتشفاتهم الحضارية ، فتقدسوا ، وعظموا في سوريا حتى صاروا في مرتبة الآلهة . إنهم كانوا يعبرون عن الغربة التي كانوا ما زالوا يشعرون بها في ذلك العهد . ومن الأمثلة على ذلك تلك النصيحة التي خلفها أمون محب نفسه لابنه في ملف من ورق البردي ، كتبها بالعربية الأكادية جاء فيها :

استمع إلى ما سأقوله لك ،

حتى تكون ملك الأرض ... ،

وتزيد فيها الخير .

"اقسُ على جميع من هم دونك .

فإن الناس لا يعنون إلا بمن يرهبون ،

ولا تقترب منهم بمفردك ،

ولا تملأ قلبك بالمودة لأخ ،

ولا تعرف صديقاً ...،

وإذا نمت فاحرس بنفسك قلبك ،

لأن الانسان لا صديق له في أيام الشر" (1)

ومن ملوك المملكة القديمة "ساخورع" (ساكورع) ويعني اسمه "الرب ساكو" هو رع إله الشمس ، (والرب ساكو رب سوري فينيقي ، يكفي أن نشير للدلالة على ذلك إلى اسم المؤرخ السوري "ساكونياتن" أو "سانخونياتن" ومعناه (الرب ساكو يعطي) والملك "أون" (عون ، عان ، عين — كلها تعني الشمس) والطريف بالأمر أن في شرقي الطائف يقف جبلان متلاصقان أحدهما جبل "سك" والثاني جبل "عان" ما يزالان حتى اليوم .

(1) J.H.Breasted, "Development of Religion and Thayght in Ancient Egypt"
P.203.

أما لقب تھوتس فهو مشتق من الاسم العربي للفنان النحات تأوت الذي حفر أشكالاً لقرونو (كرونوس) وغيره من الآباء العرب السوريين الذين تمجدوا بأفعالهم وتقدسوا ، ثم أعطاه "قرونو" مصر كلها (جنوب بلاد زهران وأعلى وادي شعره) حينما ذهب إلى أرض الجنوب "ميدي" أما "موس" و"موسى" فتعني المخلص .

ولقد ذكر المؤرخون أن جميع هؤلاء الملوك كانوا يتخذون زوجات لهم من الأسر المالكة فقط ، أي من السوريين العماليق والفينيقيين ، مما جعل التميز سهلاً وواضحاً بين ملامح الأسر الحاكمة في الشمال وبينها في الجنوب . فمن المعروف أن نفرتي هي عربية سورية ثم إن الفرعون الذي قتل في حربه ضد الآراميين في شبه جزيرة العرب عند كركاميش على نهر ثرات شرقي بلاد زهران (وليس في شمال سوريا عند الفرات كما درج جميع المؤرخين على القول حتى الآن) وكتبت أرملته إلى الملك الكنعاني ، ملك بني حث في بلاد زهران ، تقول : "لقد مات زوجي وليس لدي ابن لي ، ويتحدث الناس عن أبنائك الكثيرين ، فلو تقدم على إرسال أحد أبنائك لي لأتخذت منه زوجاً لي ، هذا ولا أريد الزواج بأحد خدمني مهما كان الأمر ، لأنني أحتقر أن أجعل منه زوجاً لي ⁽¹⁾ " إنما هو فرعون مصر في شبه جزيرة العرب وليس توت عنخ أمون كما يفترض بريستد . إنها تطلب لنفسها زوجاً من أرومة الأسرة المالكة في كنعان العماليق في شبه جزيرة العرب ، وهي تعتبر الشعب الذي تحكمه خادماً لها ، وترفض الزواج منه .

لقد أكد المؤرخون جميعاً هذه الظاهرة ، كما انعكست في الآثار المكتشفة : "وهذه الرسوم والتماثيل تمثل الطبقات العليا نخيفة القوام ، طويلة في هيئة ، ذات وجوه بيضاء ، وجباه منحدره منتظمة ، وأنوف طويلة مصفحة ، وعيون نجل . وكانت بشرتهم بيضاء وقت مولدهم (تشهد بأنهم من أصل آسيوي لا إفريقي) ولكنها سرعان ما تلفحها شمس مصر فتسمر ... أما الرجل من عامة الشعب فكان يمثل الصورة التي نراها في تمثال شيخ البلد ، قصير القامة ، ممتلئ الجسم ، كاسي القصب ، وكانت ملامحه خشنة ، وكان أفطس الأنف أخشمه ، ذكياً ، ولكنه خشن الطباع ، ولربما كان الشعب

(1) انظون مورتغات ، " تاريخ الشرق الأدنى القديم " ص 226 .

وحكامه من سلالتين مختلفتين ، شأهم في هذا شأن كثير من الشعوب : فلعل الحكام كانوا من أصل آسيوي ، وعامة الشعب من أصل افريقي ... ويرجح أن لغتهم قد جاءت من آسيا وشاهد ذلك أن أقدم نماذج منها بينها وبين اللغات السامية شبه كبير⁽¹⁾

وهناك دليل آخر يسوقه مونتيه ، وهو أن جميع النصوص المصرية القديمة تسمى أبا الهول "حرم أخيس" أو "حورم تحت" وتعني بالفينيقية حور أخيش أو لخيش ، أو العرين ، أو

(1) ول ديورانت ، "قصة الحضارة" الجزء الثاني ، ص 101 ، 102 ، 107 .
* إن الدارسين المصريين ما زالوا يعتمدون أقوال بعض المؤرخين الأجانب الذين يجهلون اللغة العربية القديمة بلهجتها الثلاث ، وينطلقون من منطلق أن العروبة حديثة ، وإن الحضارة المصرية القديمة لا علاقة لها بالعروبة ، فيفسرون عبارة "حرم أخيس" بمعنى "حور في الأفق" ! إن "حرم" تعني : المقدس ، المحرم ، الممنوع . فعندما اختار هضبة الجزيرة كمكان للدفن لأول مرة في الدولة القديمة لاحظ وجود صخرة ضخمة متجهة نحو الشمس في أسفل الهضبة تأخذ شكل أسد رابض فأمر نحاتيه بأن يكملوا عمل الطبيعة ويشكلوا من هذه الصخرة أسدا ... غير أن هناك احتمالا في أن يكون هرمز (إريس تحت) قد أكمل ملامحه ، فجاءت ملامحه مشابهة لوجه تحتوت .

أما اليونانيون فيسمونه سفينيكس (أصل الفينيق) باسمه الفينيقي نفسه .
ولو أننا استعرضنا بعض أسماء وألقاب البيوت المالكة في مصر وادي النيل لوجدناها جميعا عربية فينيقية من عماليق شبه جزيرة العرب . فزوجة خوفو الأثيرة لديه كان اسمها "مريت أت" (سيدة أت) أي ربة الخصب . أما امه فكان اسمها حتب حرت (راهبة الربة) ، وأبوه كان سنفرو (الشفري) ويعني = ثمرة سين اله القمر . وكانت هناك حتب حرس الثانية حفيدة حتب حرس الأولى ، وبالقرب من مصطبتها يوجد مصطبة لابنتها الشقراء الأمير "مرس عنخ" (مرث عنخ = ربة الصليب ، ربة الخصب) . ومن الأسماء الحقيقية لخوفو "سوريد" وهو مؤلف من "سر" و"يد" ومعناها رب الوادي أو سيده بالسريانية ، وبهذا الاسم دعاه المؤرخون والجغرافيون العرب . وقد عثر في "الخرطوش" الذي يحمل اسمه بالفعل على هذه الصيغة لاسمه "سوريوس خوفوي" وهذا يؤكد صلته بالسوريين في غرب شبه الجزيرة ، وكان العرب الرعاة يرمزون إلى سيد السراة بالكيش المقدس واسمه "سورث" وكان أوزير يرمز له في مصر "بعجل أو بكيش ، وحور بصقر أو بازي ، وحتحور (أخت حور أو راهبته) ببقرة ...
أما الأرباب من بني الانسان فقد جاءت إلى مصر في وقت متأخر كثيرا ولعلها جاءت هدايا من غرب آسيا .

لكن عشتار " الأم السورية الكبرى " ثم العالمية الكبرى ، فقد كان رمزها الحيوانسي العجلة والأسد والكلب ترضعهما القوة من ثدييها العاريين دائما . ومن هنا كانت تسمية التهر الذي تقع عليه مدينتها "الجارية" و"جبل" بنهر اللبث أو نهر الكلب .
ومن المفيد أن نذكر أن العالم المصري محمود باشا الفلكي ، الذي يعتبر من خيرة العلماء الذين أنتجهم مصر في القرن التاسع عشر ، قام بناء على تكليف من الحكومة المصرية ، بإجراء قياسات وأرصاء فلكية على هرم الجزيرة الأكبر وقت الاعتدال الربيعي في مارس (آذار) 1862 أثبت فيها علاقة الهرم بنجم الشعرى اليمانية ، وعبادة رب الشعرى كانت منتشرة في غرب شبه الجزيرة ، والشعري (أو سيرا) من أسماء عشتار ، وهو العزى .

بيت الأسد . وإذا ما تذكرنا أن الاسم المفضل عند الهكسوس كان أخيش (بيت الأسد) ، وأن من أهم مراكزهم في غرب شبه جزيرة العرب كانت مدينة لخيـش وأن هيرودوت وصف تمثال أبي الهول في مدينة أغرتوس (إغاريت ، الجارية) في شرقي البحر الأحمر قبل أن تدمرها الزلازل ، أدركنا مدى عمق الأصول السريانية (أو العربية) في سلالات حكام مصر وادي النيل . ولابد هنا من الإشارة إلى أن محفوظات أوغاريت عند تعريفها لبلاد الرب " إيل " تعرّف مصر بأنها "كرسي موطنه وأرض ميراثه " ، وإلى كثرة ترداد الاسم الفينيقي المصري "ثور" كصفة للرب "إيل" .

لقد اكتشف علماء مصر خوفو سر السنة الشمسية ووضعوا تقويمهم الشمسي . وكان ذلك بأن ربطوا بين حركة الشمس وحركة النجم سوتيس أو سيروس (الشعري اليمانية) ألمع النجوم في السماء ، وهو نجم ايزيس ، وقد ورد اسمه لأول مرة في نصوص الأهرام بالأسرة الخامسة . ولكن ثمة نص مصري متأخر يصفه بأنه حامل الفيضان أي إن ظهوره يقترن بفيضان النيل .



صورة الملك خفرع ، باني الهرم الثاني من أهرام الجيزة
وخلف رأسه "حُر" (الصقر السوري رمز حدد وهو الطائر الحر)



تابوت من الحجر الجيري لجثمان الملك أشمون عازار ملك صيدا . وهو الآن في متحف اللوفر

لقد بقي التفاعل الحضاري بين سكان وادي النيل الأصليين من العرب الحاميين وبين أبناء عمومته العرب الأوائل المتفوقين حضارياً ، والذين ملأوا أرجاء سوريا الطبيعية بمظاهر الحضارة الأخاذة الرائدة ، وجعلوا منها مركز الحضارة العالمية التي أخذت ترسل إشعاعاتها عبر الحرف والكتابة والمنجزات الزراعية والصناعية الأخرى إلى شتى أرجاء المعمورة ، بقي هذا التفاعل يتأرجح بين المد والجزر حتى استقر نهائياً في صورته المنسجمة الشاملة إبان عملية التحرير الكبرى التي قادها العرب المسلمون ، فتم تحرير كل أرجاء الوطن العربي الكبير وتوحيده .

إن "خوفو" إذن ، هو بالعربية السريانية "كوفو" وتعني العزيز .
و"خفرع" هو بالسريانية "عزيز رع" الراعي إله الشمس ، وهو في أوغاريت "راعوم" .
و"منقرع" تعني بالسريانية "مَ - نجا - رع" أي "المنجى المخلص الراعي ، الحامي .
ومنقرع هذا هو الذي كان اسمه السوري الأصلي "ميسرني" وقد ذكر ذلك هيرودوت في تاريخه⁽¹⁾ ، كما سبق أن أشرنا .

أما أبو الهول فهو في أساسه رمز سوري فينيقي ، واسمه الأصلي "أس فينيق" أي أصل الفينيقي ، أو رمزه ، أو أساس بنائه ، أو بيته — أو عشه فكلمة أشو"العربية الفينيقية تعني أساس الشيء ، وأصله ، وبيته ، وقاعدة بنائه . وكان ذلك يرمز إلى أن البناء العربي السوري يقوم على حكمة الشيوخ وشجاعة الشجعان وهو شعار السوريين منذ القدم . وتمثل في النظام الاجتماعي بمجلسين : مجلس الشيوخ . مجلس الشباب . ومثلوا ذلك الشعار بالأسد رمز القوة و الشجاعة ، والذي يمتلك رأس إنسان شيخ حكيم ، ذي لحية ، ينهض على رأسه عش طائر الفينيقي الذي هو رمز للبناء كله .

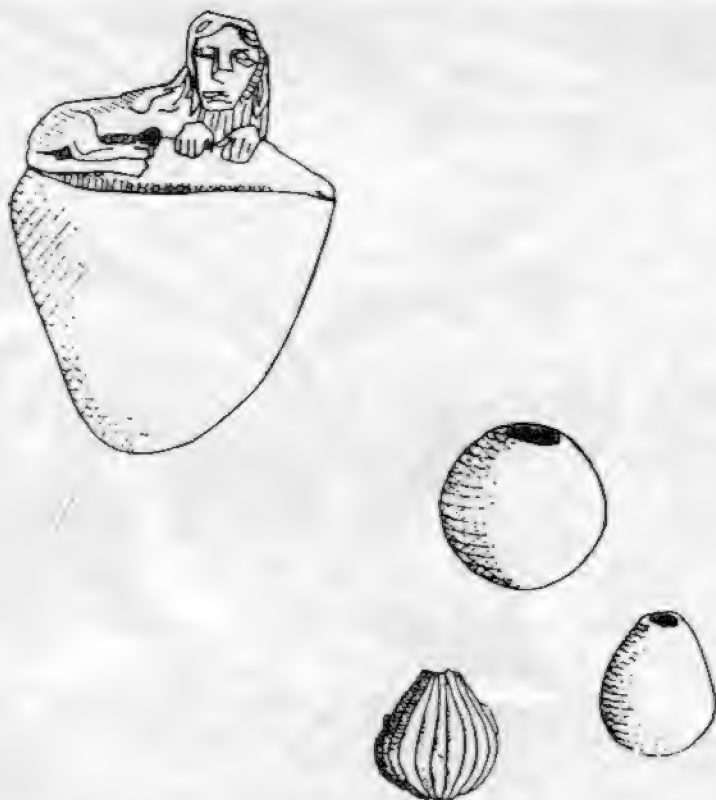
وكلمة "عش" العربية الحديثة ليست إلا تطوراً للكلمة القديمة مع إبدال الهمزة بالعين كما هي العادة . ولما كانت الأسطورة السورية القديمة "أسطورة طائر الفينيقي" تعبر

(1) انظر : ول ديورانت ، "قصة الحضارة" الجزء 2 ، ص 73/ح
• كان تمثال " أبو الهول " في مصر ملتجئاً كباقي النماذج السورية الأخرى ، لكن طلقة مدفع من مدافع المماليك حطمت أنف التمثال وحلقت لحيته " (ول ديورانت ، "قصة الحضارة" الجزء 2 ، ص 130)

عن واقع السوريين وحضارتهم التي تعرضت كثيراً لضربات طبيعية مدمرة كالزلازل والبراكين بدءاً من مواقعهم شرقي البحر الأحمر إلى شمال مرسين على شاطئ المتوسط فكان يتحول كل شيء دفعة واحدة إلى رماد ، ثم ما يلبثون أن يعيدوا بناء كل شيء من جديد أفضل مما كان ، فيبعثون من الرماد تماماً مثل "عش طائر الفينيقي الذي يحترق بالبرق ويتحول إلى رماد . والطريف في الأمر أن كلمة "أس" و "أش" العربية الحديثة نفسها ما تزال تحافظ على هذا المعنى، إذ هي تعني من جملة ما تعنيه "بقايا الرماد" ومن هنا فقد كان اسم " أبي الهول " قديماً "أس فينيقي " ، وباليونانية إسفينيكس . وقد انتشر وجود هذا التمثال الرمزي في جميع أرجاء سوريا القديمة ، من تل حلف شمالاً إلى ماري ، إلى معبد حدد* في دمشق ، إلى أوغاريت في غرب زهران في شبه جزيرة العرب، إلى وادي النيل .

أما اسم " أبو الهول " فهي تسمية سورية قديمة وتعني أبو الخلق ، أبو الهيولي الأولى ، إذ إن " هولا " في القاموس السرياني تعني : الهيولي ، العنصر الأول ، المادة .

* معبد حدد وعشتار في موقع الجامع الأموي بدمشق اليوم





سفينكس أبو الهول ، الدمشقي ، عثر عليه في معبد حدد في دمشق
(الجامع الأموي فيما بعد)

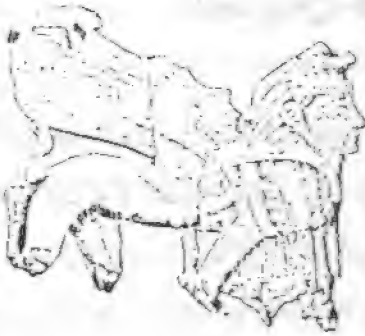


سفينكس سوري برأسين ، شمال سوريا . من البازلت في متحف أنقرة



سفینکس سوري في إقليم الحلبور

سفینکس سوري على قطعة عاج وجد في
أحد قصور آشور



سفینکس سوري مزدوج ، شمال سوريا ، متحف ستانبول

الفصل الثاني عشر

الشعب العربي السوري

السريان والآراميون

كنا قد أوضحنا كيف أن الشعب العربي مارس حياته كشعب منذ بدء التاريخ ، ضمن إطار الدولة لا القبيلة ، وعلى رقعة الأرض — الوطن* ، الممتدة من شاطئ الخليج الشرقي وجبال زغروس شرقاً إلى البحر المتوسط غرباً، ومن البحر الأسود شمالاً إلى بحر العرب جنوباً ، وقد برع في فنون الزراعة والري والعمران ، واخترع الكتابة ، وتمكن من أن يخلق مجتمعاً حضارياً مزدهراً زراعياً ، وصناعياً ، وتجارياً ، وثقافياً ، منذ الألف الرابع قبل الميلاد ، كما برع في صناعة المعادن ، وطرقها ، واستخدامها ، وفي صناعة

* يزعم البعض ممن يسعون خلف التعاريف "الجاهزة" لبعض المفاهيم أن "الوطن" بمفهومه الحديث لا ينطبق على الزمن القديم ، وإن كلمة "وطن" هي ، في حد ذاتها ، مصطلح حديث كل الحداثة ولم يعرفه الآقدمون . ونحن يدورنا ، نقول لهؤلاء : إن الوطن هو المكان الذي يولد فيه الإنسان ويسكنه ويمارس فيه حياته المادية والروحية ، ويحن إليه ، ويبقى الشعور بضرورة العودة إليه يلزمه كلما ابتعد عنه . وإذا ما اضطر إلى التخلي عنه لأسباب وظروف معينة إلى مكان آخر كان هذا المكان الآخر هو "الوطن الثاني" . وليس في مقدور أي تعريف للوطن ، سواء أكان سياسياً ، أو جغرافياً ، أو اجتماعياً ، أو فلسفياً ، أن يخرج خارج نطاق هذه الكلمات البسيطة التي تعرف الوطن . فممن أن بدأ الإنسان عملية الاستقرار الأولى بدأ يعيش هذا المفهوم بصورة تلقائية ، ثم أخذت فكرة "الوطن" تقم بمضامين الحياة الاجتماعية عبر التشكيلات الاجتماعية — الاقتصادية التي مرت بها المجتمعات البشرية المستقرة . وإن كلمة "الوطن" وجدت مع الإنسان العربي مع وجوده في أول مجتمع له مستوطن أو مستقر ، وهي ما تزال تحافظ على معانيها الأساسية حتى اليوم . إننا نقرأ اليوم في المعاجم حول كلمة "وطن" ما يلي : وطن بالوطن وبالمكان بطن أقام به وطن البلد توطنياً اتخذه محلاً ومسكناً يقيم به وأوطن بالوطن وبالمكان ابطناً أقام به وبالبلد اتخذهُ وطناً . واتطن البلد اطنناً واستوطنه استبطناً اتخذهُ وطناً . والوطن منزل إقامة الإنسان ، ومقره ولد به أم لم يولد ج أوطان ، والموطن الوطن . أما الوطن بالنسبة للجماعة فهو لا ينفصل عن عملية التواصل التاريخي لوجود الشعب في الأرض وجوداً متواصلاً غير منقطع . وإذا ما أصبر البعض على ربطه بمفهوم "الدولة" و"الشعب" فليس العيب في الشعب العربي السوري الذي بنى دولته ، وطبعها بطابعه اللغوي والسياسي ، والاجتماعي ، والجغرافي ، والحقوق ، والقانوني ، والثقافي ، منذ الألف الرابع قبل الميلاد على الأقل .

الأدوات المعدنية منذ الألف الثالث قبل الميلاد ، حيث بلغ إحدى ذروات التطور المادي والثقافي بالنسبة لذلك الزمن ، وأوجد بذلك مفهوما للدولة والوطن والمواطن ، الذي ترتبت له حقوق وعليه واجبات ، تشمل كافة نواحي الحياة الاجتماعية ومجالاتها السياسية والاقتصادية والعسكرية .

وكنا قد تحدثنا كيف أن عرب ذلك الزمان كانوا ينقسمون من حيث نمط العيش إلى قسمين رئيسيين : مدينيين زراعيين ، يشغلون منطقة الخليج العربي وأحواض الأنهار ، والسهول الساحلية الخصبة ، وبدو رحل ، يعيشون على الرعي والتنقل في "عربة" أو مناطق شبه جزيرة العرب الداخلية . ولقد انقسمت اللغة العربية منذ ذلك الزمن الموعظ في القدم — كما صارت تدل كل المكتشفات الآثارية الكتابية — إلى ثلاث لهجات رئيسية : عربية زراعية شرقية ، وهي السريانية ، وشغلت منطقة الخليج العربي والحوض الأدنى للجدلة والفرات الممتد من شمال بابل إلى منطقة الخليج وفي جبال السراة ، وعربية زراعية غربية ، وهي الأمورية ، وتشمل حوض الفرات الأعلى والمنطقة الغربية كلها وصولاً إلى شاطئ المتوسط ، وعربية جوف شبه جزيرة العرب ، وهي العربية العرباء ، أو العاربة ، أو النقية .

أما سبب تسمية الأولى "السريانية" فلم يتضح لنا بعد من خلال المكتشفات الآثارية الموقع الزمني لذلك الجد الأعلى "سر" الذي نسبت إليه فيما بعد المنطقة كلها والشعب كله . لكنه ثمة حقيقتان ثابتتان : أولاهما أن كلمة "سرن" من حيث اشتقاقها اللغوي جاءت من "سري" التي تعني "السيدة" وهي مؤنث "سر" ومنها أتت التسمية للمنطقة كلها "سوريا" (بعد إضافة الصوتيات إلى الكتابة) ، وأما الصيغة المؤنثة الأخرى — "سر" فهي "سرت" وتعني السيدة أيضاً ، وهي "سارة" بعد إضافة الألف الصوتية وتعني السيدة ، الملكة ، الربة ، ومنها أتت التسمية "سورية" (بعد إضافة الصوتيات إلى الكتابة أيضاً) . وبقيت هذه الأسماء محافظة على مضامينها الأولى حتى هذا اليوم . فكلمة "سر" القديمة تعني العالي ، المرتفع ، السيد ، الشريف ، وجمعها "سراة" ، و"سروة" بمعنى قمة وارتفاع ، و"السرو" الفضل ، والمروءة والسخاء ، والشموخ ، ، ومن ذلك أطلقت

على نوع من الشجر المعروف بتشائخه إلى فوق ، و " أبو السرو " البخور . ومن هنا أيضا اقترن وجود تمثال عشتار الجبل بامرأة بارعة الجمال تقف على قمة جبل مكلل بأشجار السرو (العرعر) ، وقد كشفت عن هديها الممتلئين العاريين يحرسهما أسد من كل جانب . و " سرن " هي " السوربون " بعد إضافة الصوتيات .

والحقيقة الثانية هي أن أولئك السكان العرب الزراعيين والبدائيين في تلك المناطق تحديدا كانوا يسمون بـ " السريان " وليس أدل على هذا من " أن الرسول العربي محمدا (ص) ، كان قد أطلق هذا النعت على آدم الرسول وبعض فروعه . فحينما قال في حديث أوردناه من ذي قبل " أربعة (يعني من الرسل) سريانيون : آدم وملك ونوح وخنوخ " ، فإن في هذا تأكيدا بما لا يقبل الجدل على وجود أولئك العرب السريان في منطقة الخليج أو جبال السراة قبل وجود آدم الرسول الذي هو أحد الآباء العظام المقدسين في سلسلة النسب العربي .

وإذا ما تتبعنا خط النسب بعد آدم إلى آرام ، فإننا نلتقي بواحد من كبار الآباء العرب ، وهو سوريان ، أحد أحفاد آرام ، الذي أنجب إحدى السلالات التي حكمت بابل . يقول المسعودي في تاريخ "مروج الذهب" :

"ذكر أهل العناية بأخبار ملوك العالم أن أول الملوك ملوك السريانيين بعد الطوفان ، وقد تنوزع فيهم وفي النبط : فمنهم من رأى أن السريانيين هم النبط ومنهم من رأى أنهم أخوة لودماش بن نبيط ، ومنهم من رأى غير ذلك .

وكان أول من ملك منهم رجل يقال له "شوشان" ، و كان أول من وضع التاج على رأسه ، وانتادت له ملوك الأرض ، وكان ملكه ست عشرة سنة ، باغيا في الأرض ، مفسدا للبلاد ، سفاكا للدماء" (1)

ويقول في مكان آخر بصدد حديثه عن بعض ملوك الآشوريين :

* وقد سميت باسمه تشوسان "عاصمة إقليم عيلام (عريستان) وتلفظ أيضا شوشان ، سوسان ، سوسا ، سوزا ، سوسة ، والسوس حاليا .

(1) مروج الذهب للمسعودي ، الجزء 1 ، ص 207 .

"وكان أول ملك بنى هذه المدينة (نينوس) ، وسور سورها ، ملك عظيم قد دانت له الملوك ، ودانت له البلاد ، ويقال له نينوس بن بالوش* ، فكانت مدة ملكه اثنتين وخمسين سنة ، وكان بالموصل ملك آخر محارب لهذا الملك ، وكان بينهما حروب ووقائع ، ويقال إن ملك الموصل كان في ذلك العصر "سابق بن مالك" رجل من اليمن (وكانت نينوى أخرى تقع على شاطئ بحر المياه العذبة الذي كان يغطي صحراء الربع الخالي ثم اندثرت تحت الرمال) .

ثم ملك أهل نينوى بعده امرأة يقال لها "سميرون" (سميرا ميس) فأقامت عليهم أربعين سنة ... وملكها من شاطئ دجلة إلى بلاد أرمينيا ومن بلاد أذربيجان إلى حد الجزيرة والجودي والبتيل .. وكان أهل نينوى ممن سمي نبيطا وسريانيين ، والجنس واحد ، واللغة واحدة ، وإنما بان " النبط " عنهم بأحرف يسيرة في لغتهم ، والمقالة واحدة"⁽¹⁾ .

وفي "سبائك الذهب في معرفة قبائل العرب" للبغدادى نقرا في حلقة " آرام" ما يلي :
" ومن بني أرم هذا السريان ، فإنهم من بني سوريان بن نبيط بن ماش بن أرم بن سام ، وقال ابن الكلبي هم بنو نبيط بن ماش بن أرم بن سام ، وقال ابن سعيد : هم من بني نبيط بن آشور بن سام "⁽²⁾ .

فهؤلاء السريان هم بنو سوريان الآراميون أو الآشوريون الساميون العرب . إذ من المعروف أن الآراميين والآشوريين إخوة ، وكلاهما من أبناء سام بن نوح . فقد ولد سام : عيلام ، وآرام ، وارفحشاد ، ولاوذ ، وآشور ، وحينما يختلف الرواة في أن يكون سوريان من أبناء آرام أو من أبناء آشور فإنه ليس في الأمر ما يضيف شيئا أو ينقص شيئا ، لأن البحث هنا ليس في دقة تحديد تفرعات الفروع ، كما أن المجتمع آنذاك لم تكن العشيرة أو القبيلة هي التي تحدد هويته أو طابعه . فالشكل الاجتماعي السائد آنذاك هو شكل الدولة بكل ما تحمله هذه الكلمة من معنى ، يرأسها ملك

• هكذا ورد الاسم في صيفته اليونانية ، وهو "سين بن بعل " .

(1) المصدر السابق ص 206

(2) سبائك الذهب في معرفة قبائل العرب للبغدادى ، ص 13 .

عربي ليس مهما أن يكون سريانيا أو حتى آراميا ، كما تدل المصادر . فها هو الملك "سابق بن مالك " الذي يحكم قبل سميرا ميس ، عربي من اليمن ، وإن كل المصادر تدل على أن الملكة سميرا ميس هذه نفسها إنما هي عربية من المنطقة التي صارت تدعى اليوم بـ "بادية الشام" .

إن العامل الحقيقي الذي يمنح السكان والحكام معا هويتهم في ذلك الزمن ، ليس الانتماء إلى هذا الفرع أو ذاك من فروع النسب القبلي ، وإنما هو اللغة . لقد بقيت اللغة العربية ، على اختلاف لهجاتها ، هي الهوية الحقيقية للإنسان العربي التي يتعرف بها ومن خلالها على ماضيه وتراثه ، كما يجد فيها كل عناصر وجوده الاجتماعي الأخرى ، التي يشاركه فيها الآخرون . فيصبحون اخوته من خلالها ، لا من خلال رابطة الدم والنسب ، منذ ذلك الزمن الموغل في القدم . لقد كان وعي العربي المبكر لهذا الأمر هو أحد العوامل الرئيسية التي جعلت اعتزازه بعروبه بعيدا عن أي تعصب عرقي . لقد كان أولئك العرب الأوائل يشعرون — لاشك — على اختلاف مشاربهم من الغرب أو الشرق أو من شبه جزيرة العرب ، أن شيئا ما يجمعهم ويشدهم الواحد إلى الآخر أسمى من رابطة الدم والنسب ، لأن اللغة ، في شتى تلك الأجزاء ، ورغم اختلافها إلى لهجتين أو ثلاث ، هي واحدة . أما اللهجة البابلية والآشورية ، فهي واحدة أيضا ، إنها العربية السريانية السائدة منذ الزمن القديم ، وهذا هو بالضبط ما قصده المسعودي في عبارة " والمقالة واحدة " : " وكان أهل نينوى ممن سمينا نبيطا وسريانيين ، والجنس واحد ، واللغة واحدة ، وإنما بان النبط عنهم بأحرف يسيرة في لغتهم ، والمقالة واحدة " .

إن البروز المبكر لهذا العامل الاجتماعي التاريخي الثقافي ، الذي هو اللغة كان له الفضل الكبير في الانتقال المبكر بالمجتمع العربي من القبيلة إلى الشعب ، وفي سرعة تجاوز

* يقول لقبان السمساطي الذي عاش في القرن الأول الميلادي في كتابه " الرتبة السورية" . وحسب غيرهم ، كانت (سمير اميس) ملكة بابل ، والتي يرجع إليها الفضل في تشييد عدد كبير من الأبنية في آسيا هي التي بنت هذا المعبد ، وخصصت ، ليس لـ(هيرا) ، ولكن لامها المسماة ديركيتو . وقد رأيت أنا نفسي ، في فينيقيا تمثيلا لـ(ديركيتو) ، إنه صورة فريدة ، إنه امرأة بنصف جسدها فقط في حين أن القسم الذي يذهب من الفخذين إلى الأسفل يمتد على شكل سمكة . (النبذة 14).

التأثيرات القبلية عند كل عملية توحيدية كان يمر بها هذا الشعب عقب كل انتكاسة ، مما تحول إلى تراث وتقليد ذلك الفهم للعروبة وللانتماء إليها . ثم زاد من ترسيخه وتثبيتته في أعماق الوعي بهذه الصورة تعريف الرسول العربي محمد(ص) للعروبة فيما بعد حينما قال " ليست العربية بأحدكم من أب ولا أم ، وإنما هي اللسان ، فمن تكلم العربية فهو عربي " (1)

إن هذا الفهم للعروبة ، البعيد عن التعصب القبلي ، هو الذي كان يسود القطاع الرئيسي الموجه في عملية التطور للمجتمع العربي إبان الدولة البابلية والآشورية ، وهو الذي كان يتيح لأي مواطن فرصة الانتقال من شتى أرجاء الدولة وأقاليمها دون أن يشعر بالغربة بين القبائل المختلفة .

ومن هنا فإن في إمكاننا القول إن تسمية "السرّيان" ليست تسمية قبلية بقدر ما هي مبنية على أساس اللهجة في اللغة ، التي دعاها المسعودي بـ "المقالة" ، وهذه اللهجة كانت موجودة قبل أن يوجد السرّيان من بني سوريان النبطي الآرامي بزمن طويل . إذ أجمعت كل المصادر العربية على اعتبار آدم الرسول وكثيرين من أحفاده سريانيين . ومن هؤلاء الأحفاد كان إبراهيم الآرامي وابنه إسماعيل اللذان اعتبرتّهما المصادر العربية من العرب المتعربة نتيجة للهجتهما السريانية قبل أن يستقرا تماما في وسط المنطقة الغربية من جوف شبه جزيرة العرب . ولما كان إبراهيم العربي الآرامي ، الذي دعتة التوراة بـ "الآرامي التائه" سريانيا ، بينما أبناء آرام الآخرون ، ممن يسكنون شبه جزيرة العرب ، أبناء جدّيس وطسم ، وعيبيل ، وثمرود ، وجاثر ، وعاد ، وغيرهم يعتبرون من العرب العاربة (أي الأنقياء الشديدي العروبة) ، وكلاهما ينتمي إلى أصل واحد هو العربي الآرامي ، فإن في ذلك دليلا آخر على أن اللهجة التي كان يتكلم بها أولئك العرب كانت هي التي ترسم الحدود بين التسميات الثلاث : عرب ، وسريان ، وآموريين .

(1) انظر : ابن عسّاكر "تهذيب تاريخ دمشق" دمشق 1982 ، الجزء 2 ، ص 189 ، ومصطفى الشهابي ، القومية العربية " ص 34.

فالسريان المتأخرون ، من حيث الأصل والنسب ، هم أيضا آراميون ، وينتسبون إلى سوريان بن نبيط بن ماش بن آرام ، لكنهم ليسوا كل الآراميين . وإلى جانب هذا فإن جميع سكان منطقة الخليج العربي ، والحوض الأدنى لدجلة والفرات (منطقة سومر وأكاد وبابل) هم عرب سريان من حيث لهجتهم اللغوية التي تميزت بها تلك المنطقة من قبل آدم الرسول منذ عهد الأب "سر" الأول الموعظ في القدم .

ينتج عن هذا أن السريانية ، والأمورية ، والعربية هي لهجات شقيقات ثلاث للغة واحدة فما اسم هذه اللغة إذن ؟ إنها — دون جدال — العربية العرباء ، التي هي الفصحى . فكيف تكون العربية هي اللغة الأم وهي إحدى لهجات هذه اللغة الأم في آن معا؟

كنا قد أوضحنا كيف أن السريان الأوائل الذين عرفناهم إنما هم العرب السوريون أبناء "سر" الذين انتشروا في كل أنحاء الأرض العربية ، وقد شغل أشقاؤهم العرب الأموريون المناطق نفسها أيضا ، وقد تميز العرب السوريون (أبناء سر) عن العرب الأموريين (أبناء مر) ليس قبليا ولا بالمكان الذي يشغله كل منهما وإنما باللهجة ، فأبناء "سر" وأبناء "مر" الذين يسكنون المنطقة الشرقية غلبت عليهم لهجة معينة بحكم تأثيرات الجغرافيا والوسط المجاور . ومن سكن منهم المناطق الشمالية والغربية غلبت عليهم لهجة أخرى . وليس من الضروري ، قطعاً ، أن يكون وجود الإنسان البدائي الرعوي (ما قبل الزراعي) مرتبطاً بالبادية ، كما يفضل كثير من الباحثين القول ، ثم يستدلون من خلال ذلك على أن الوجود العربي كان في صحراء شبه جزيرة العرب قبل أن يعرف الإنسان العربي الاستقرار والزراعة. ثم بدأت "الهجرات" التي سبق ودحضنا فكرتها ، إلى مناطق الهلال الخصيب . فليس ضرورياً أن يوجد إنسان ما قبل الزراعة في مناطق صحراوية لا تصلح للزراعة . فالتطور لم يكن رهنا بالجغرافيا فقط . إن الإنسان البدائي قد تخصصه الطبيعة بمناطق خصيبة ، يتوفر له فيها كل ما يشتهي من الثمار والنبات والحيوان دونما كد . وتلك كانت جنته البدائية ، حينما كان يعتمد في قوته على التقاط الثمار ، وما تنتجه له الأرض دونما جهد يذكر . وإن شبه جزيرة العرب بالذات كانت — كما يصفها المؤرخون ويؤكد الباحثون وذكرنا من قبل —

إحدى البقاع الجغرافية التي تعج بالغابات والثمار والمزروعات والحيوان والأهوار .
إن هذا بالتالي ، يؤكد أن إنسانها البدائي كان من الصيادين الذين يتجولون في فردوس
يحوي مختلف الأنواع مما تنتجه الأرض من نبات أو حيوان . فالبداية ليست مرتبطة
بالبادية حتما ، وإلا كانت تسمية جغرافية محضة ، بينما هي تسمية نمطية تعكس
أسلوبا معنا في العيش . ولهذا فإننا لا نقول — كما يردد الآخرون — إن اللغة العربية
هي الأصل بين جميع ما دعي بـ " اللغات السامية " ، لأنها — أي العربية — لغة
أهل البادية التي منها خرج الساميون العرب ، خاصة وأن آثار أولئك " الساميين " في
مناطق الهلال الخصيب الزراعية تعود إلى ما قبل الألف الثامن قبل الميلاد ، كما تدل
المكتشفات الآثارية ، وذكرنا سابقا ، أي إلى قبل وجود سام نفسه بخمسة آلاف سنة
على الأقل .

وقد كانت شبه جزيرة العرب — كما سبق أن بينا أيضا — لا تقل خصوبة وغنى عن
باقي المناطق ، بل قد تكون أكثر صلاحية منها للزراعة في ذلك الزمن ، وبالتالي ، فلم
يكن ثمة داع للخروج منها إلى باقي المناطق طلبا للخصب .

لكن الأمر الذي قد يتيح لنا إمكانية التأكيد بأن عربية شبه جزيرة العرب هي اللغة الأم
هو أن وجود السريان و الأموريين على التخوم العليا المجاورة لغيرهم من الشعوب
والقبائل في الشمال والشرق ، جعلهم معرضين لكثير من عمليات الغزو والاحتلال من
جهة ، بالإضافة إلى عملية الاحتكاك اليومية الدائمة ، ولاسيما عن طريق التجارة ، مع
غيرهم من الشعوب المجاورة القريبة والبعيدة ، من جهة أخرى . إن ذلك كان لابد
من أن يترك آثاره الكبيرة أو الصغيرة ، في هذه المرحلة التاريخية أو تلك ، بهذا القدر أو
ذاك على اللغة الأم ويخلق فيه إمكانية نشوء لهجة محلية مختلفة بعض الشيء عن اللهجة
النقية الأم ، بينما يبقى سكان منطقة شبه الجزيرة المعزولة حتى ثلثيها بواسطة البحار ،
والمتصلة بقسمها الباقي بالعرب وحدهم ، بعيدة عن أي تأثير لغوي خارجي على مدى
تلك الآلاف من السنين ، مما حافظ على نقاوة اللغة الأم ، فحافظت على اسمها الحقيقي
وأدرك أبنائها ذلك على مدى عصور التاريخ ، فصاروا يطلقون على عرب باقي

المناطق الزراعية الشمالية والشرقية أسماء ، هي أسماء لهجاتهم اللغوية فأثبتوا مرة أخرى أن عصبيتهم ليست لأب ولا لأم ، إذ هم يميزون بعضهم بلهجاتهم فقط .

فاللغة العربية هي اللغة الأم ، واللهجات العربية الأساسية ثلاث : السريانية ، والأمورية (وقد تأثرتا بما يجاورهما وبفعل عوامل أخرى كثيرة ، فظهرت على وجهيهما بعض النموش التي لن تقلل من طلاوة الأصل ...) والعربية النقية (أي العرباء) التي حافظت على نقاوتها في شبه جزيرة العرب .

وهكذا فالسريانية لا تنقسم ، أو تتفرع ، عن العربية أو الآرامية كما ينقسم أو يتفرع سوريان عن نبيط وآرام . إن الابن يبقى محافظا على لغة أبيه ، ولو أنه تفرع عنه ، طالما أنه وإياه في منطقة واحدة . ومن هنا كان يجب الانتباه إلى عدم الخلط بين تفرع اللهجات وتفرع النسب ، هذا الخطأ القاتل الذي سقط فيه جميع المؤرخين حتى اليوم . إن السريان المتأخرين ، من حيث النسب هم امتداد لسوريان حفيد آرام ، لكن السريانية ليست امتدادا للغة الآرامية كما يزعم نولدكه مثلا ⁽¹⁾ . إن الآراميين عموما فرع من الفروع العربية ، وقد انتشروا من منطقة إلى أخرى في أواسط وأطراف شبه جزيرة العرب . لكن هذا لا يعني أن للآراميين لغة غير العربية التي كانت سائدة ومنشرة في كل تلك المناطق بمختلف لهجاتها . إن الآراميين السريان النبطيين الذين شغلوا بعض مناطق شبه جزيرة العرب كانت لغتهم العربية القديمة بلهجتها السريانية ، وهي اللهجة التي تكلم بها سكان سومر وأكاد وبابل وآشور وحملت نكهة الحضارة العربية السورية في أوج عنفوانها ، كما حملت نكهة العظمة التي بناها الآباء أمثال أوركاجينا ، وسرجون ، وحمورابي ، وسميرا ميس ، وغيرهم .

وإن الآراميين الذين انتشروا في شبه جزيرة العرب انقسموا حسب المواقع التي شغلوها إلى لهجات تراوحت ما بين السريانية الشمالية الشرقية ، وبين الكنعانية التي هي مزيج من اللهجات الثلاث وبين عربية شبه الجزيرة العرباء .

(1) انظر : الدكتورة زاكية محمد رشدي "السريانية نحوها وصرفها" ص 9 :نولدكه ، ص 31 من المقدمة

وهكذا فقد صار في إمكاننا أن نميز لهجات الآراميين من خلال مناطق سكناهم ، وليس من خلال تفرعاتهم في النسب ، ومثلهم في ذلك يكون مثل غيرهم من الفروع العربية الأخرى .

إن آرام حينما ولد لم يتدع لغة ، ولم تخلق معه لغة مع ميلاده . لقد تكلم لغة أبيه وأمه ، لغة آبائه . والأمر نفسه مع سوريان ، وغمود ، وعاد ، وطسم ، وجديس ، وجاسم ، وعبيل وغيرهم . وكل ما في الأمر أن بعض هؤلاء كان ينتقل من منطقة لهجة عربية إلى أخرى (أو ينتقل أبناؤه من بعده) إبان تغيير منطقة سكناه وتوطنه . وبناء على هذا كله فإن من الأخطاء التي شاعت واستمرت حتى يومنا هذا هو اعتبار الآرامية لغة في حد ذاتها غير العربية ، وكذلك السريانية . فإذا كانت اللغة تتميز إلى لهجات ، فإن ذلك أمر طبيعي ، لكن اللهجة تبقى لهجة طالما أنها تعيش ضمن منطقة اللغة الواحدة ، وطالما أن هذه اللغة حية صامدة لا تنقرض . وفي مثل هذه الحال فقط يمكن لأي من لهجاتها المتعددة أن تنمو وتتسع وتحل محل اللغة الأم ، لكن ذلك كله يبقى ضمن حقيقتها التاريخية حين دراستها ، ويلزم الدارسين بالقول إنها كانت إحدى لهجات اللغة الأم ، ثم تمكنت من أن ترتفع إلى مستوى اللغة الأم وتحل محلها بعد انقراضها أو تلاشيها . إن كثيرا من اللغات لم تتمكن من الاستمرار إلا من خلال إحدى لهجاتها ، وهذا أمر طبيعي . وفيما يتعلق باللغة العربية الأم فقد بقيت محافظة على وجودها ، صامدة على مدى العصور ، وإلى جانبها بقية لهجاتها الكبيرة والصغيرة . وحينما جاء الآراميون ، كفروع من فروع الشعب العربي ، وجدوا أنفسهم ضمن هذا البحر المتلاطم الكبير من لغة الآباء الذي يشمل سوريا كلها ، وشبه جزيرة العرب ، ووادي النيل ، وشريطا كبيرا من الشمال الأفريقي .

وهكذا ، فقد انقسم الآراميون ، ككل العرب الآخرين ، بين اللهجتين العربيتين الأساسيتين ، حسب المناطق التي شغلوها : السريانية في الشمال الشرقي ، وعربية شبه الجزيرة العربية . ولو اتسع انتشار الآراميين في تلك الفترة ليشمل المناطق الغربية من سوريا لظهرت بينهم اللهجة العربية الأساسية الثالثة ، التي هي الأمورية دونما ريب .

لكن هذا لا يعني قطعاً أن الآراميين هم الذين أوجدوا هذه اللهجات . إن تلك اللهجات المتشكلة تاريخياً هي الأساس ، هي الأصل ، مثلها مثل الأرض ، تستوعب كل مواليد الشعب العربي وتتطور بتطورهم ، وتحمل بصمات أفعالهم وإنجازاتهم عبر القرون .

الكتابة :

ذلك ما يتعلق بأمر اللهجات ، أما فيما يخص الكتابة فموضوع آخر ، لكنه لا يكاد يختلف كثيراً عن موضوع اللهجات .

من المعروف أن الكتابة اختراع واع ، قد يشترك فيه فرد أو مجموعة أفراد ، يتم تعميمه عن طريق الاتفاق ، أو قد يفرض فرضاً . والكتابة ليست إلا طريقة لرسم اللغة المحكية مادياً على الصخر أو الطين أو الجلد أو الورق ، دون أن يكون لذلك أية علاقة في أصوات اللغة . إنها محاولة لرسم تلك الأصوات لا لاختراعها . فأنا قد اخترع أشكالاً شتى لرسم موضوع ما كالبيت مثلاً ، وقد أتفق مع الآخرين على تعميم شكل أو عدة أشكال للبيت ، وقد أفرضها عن طريق القوة ، لكن جميع هذه الأشكال ، أيا كانت ، تبقى في اللفظ المنطوق ، في اللغة المحكية "بيتاً" ، ولا يمكن أن تلفظ أو تقرأ "رجلاً" . ونحن نرى أن كثيراً من الشعوب كانت تلجأ إلى استعارة طرق الكتابة من الآخرين لتسجيل لغتها . وقد تنتقل من كتابة إلى أخرى بين مرحلة تاريخية وأخرى ، دون أن يؤثر ذلك على جوهر اللغة في شيء . والأمثلة من حولنا كثيرة ومعروفة : إن كتابة الأفغان ، والفرس ، والباكستانيين ، والأذربيجانيين والأتراك وغيرهم لغاتهم بالأحرف العربية لم يغير شيئاً من تلك اللغات ، كما أن انتقال الأتراك ، مثلاً ، إلى الكتابة بالحرف اللاتيني فيما بعد ، لم يغير في شيء من اللغة التركية ، ولم يأت للأتراك بلغة جديدة . وإن كتابة اللغة العربية بالرسوم التصويرية ، ثم بالأبجدية المسمارية ، ثم بأبجدية الحروف البسيطة التي تطورت إلى خطوط كثيرة منها الخط السرياني والنبطي والتدمري والعربي الحديث ، لم يغير شيئاً من جوهر اللغة العربية المحكية التي ظلت تنابع مسيرة تطورها مع لهجاتها ضمن القوانين العامة الشاملة النازمة لتطور اللغة بوجه عام عبر مسيرة

شعبها التاريخية . وليست كل تلك الخطوط إلا طرقا لرسم اللغة أو بعض لهجاتها في مختلف مراحل ذلك التطور .

مما تقدم نخلص إلى أن الآرامية ليست لغة وليست لهجة ، وأن العرب الآراميين ، مثلهم مثل باقي الفروع العربية المتفرعة الأخرى مع الزمن ، يتوزعون حسب مناطق سكناهم وتوطنهم بين اللهجات العربية التي كانت موجودة قبلهم واستمرت في وجودها من بعدهم . وهذه اللهجات هي — كما سبق وبيننا — ثلاث : السريانية في الشرق والشمال الشرقي ، والعمورية (الآمورية) في الشمال الغربي والغرب ، واللهجة العرباء في وسط شبه جزيرة العرب .

وإن اللهجة العربية السريانية التي ورثها الآراميون أبناء سوريا بن نبط هي نفسها اللهجة الأساسية لكل من سومر وأكاد وبابل وآشور ، وقد طرأت عليها تغيرات محلية ، دون ريب ، تبعاً لمناطق تواجد السكان المتكلمين بها ، ولظروف محيطهم واحتكاكهم الحياتي اليومي ، مما كان يجعل السريانية في منطقة سومر وغيلام تتضمن كلمات أخرى غريبة ، بينما كانت هذه اللهجة في منطقة آشور في الشمال تتضمن كلمات من مصادر مختلفة أخرى .

لقد أفعمت هذه اللهجة السريانية برائحة أمجاد شعبها ، وبإبداعات سومر وأكاد وبابل . وحوث كثيراً من عزائم أولئك الأباء العظماء الذين لم يكن يضاهيهم في زمنهم أحد . فأخذت تهرل متقدمة بثقة عجيبة في كل الأنحاء . فاكتمحت فارس وتغلغلت شرقاً إلى الهند والصين ، ثم امتدت شطر نواحي آسيا الصغرى ، وزحفت عبر وادي الدواسر إلى قلب شبه جزيرة العرب ، وأخذت تضغط على اللهجة الكنعانية في منطقة غامد وزهران وجنوب شبه جزيرة العرب ، وتوقفت ، مثلما في كل المرات ، عند حدود اللهجة العرباء في منطقة شمال اليمن ، وفي جنوب الحجاز حول مناطق يثرب والطائف ومكة .

إن الآرامية ، إذن ، ليست لغة وليست لهجة . وإن الآراميين توزعوا ، ضمن اللغة العربية الواحدة والأرض الواحدة ، إلى اللهجات القائمة أصلاً حسب مناطق تواجدهم . فبينما كان الآراميون في منطقة بابل المحطة يتكلمون باللهجة السريانية ، كان الآراميون في

ممالكهم الصغيرة عند حوض نهر " ثرات " الأدنى ، أي عند منطقة التقائه بوادي رنيسا ، يتكلمون اللهجتين السريانية والكنعانية الغربية ، وكذلك الآراميون في منطقة صوبا وذومسك عند حدود بلاد زهران وغامد الكنعانية . أما الآراميون الذين سكنوا مناطق اللهجة العرباء في مناطق مكة شمالا ، والمنطقة التي بنيت فيها صنعاء فيما بعد جنوبا ، فقد تكلموا العرباء وتخلوا عن اللهجة السريانية الشمالية الشرقية .

قد يخيل للإنسان ، لأول وهلة ، إن اختلافات كبيرة تفصل اللهجة الواحدة عن الأخرى ، وترسم بينها حدودا . إن الأمر على العكس من ذلك . فقد دلت المكتشفات الأثرية ، على أن سكان سومر الذين يفترض أنهم يتكلمون اللهجة السريانية الشرقية ، إنما كانوا خليطا ، حتى في لهجاتهم ، من الشرقيين و الأموريين الغربيين ، وقد دلت على ذلك أسماء كثير من ملوكهم كما سبق وأشرنا من ذي قبل . وفي بابل رأينا كيف أن الشيخ نبلان الأموري الغربي حكم إحدى المدن إبان فترة الصراعات المصرية الكسرى قبل حمورابي ، ثم رأينا كيف أن حمورابي الأموري الغربي كان أبرز حكام الدولة العربية السورية التي عاصمتها بابل ، عاصمة اللهجة السريانية ، ورأينا أيضا كيف أن الملك سابق بن مالك ، وأصله من اليمن ، حكم قبل سميرا ميس ، وأن سميرا ميس نفسها حكمت بابل وآشور وهي تنحدر قي أصلها من البادية السورية ، كما تدل كل المصادر ، وإن إبراهيم وأسرته ينحدرون من حران على حوض نهر " ثرات " الأعلى في شبه جزيرة العرب ، وانتقل ، دونما لأي ، إلى أور في الكلدان ، ثم إلى منطقة كنعان في جنوب بلاد زهران وعسير ، وإلى منطقة مكة ، دون أن يجد أية صعوبة في التفاهم مع سكان هذه المناطق الذين ، كما تؤكد كل المصادر ، كانوا يستقبلونه بالاحترام أينما حل هو وأفراد أسرته . وقد أكرمهم بنو حث الكنعانيون في مغارة حبرون في بلاد زهران وأسكنوه فيما بينهم ، وأصر عفرون الحثي الكنعاني على أن يهب له حقله ومغارة المكفيلة التي هي حبرون نفسها دون مقابل حينما طلب إبراهيم أن يبيعه المغارة ليدفن زوجته سارة . ولم يشير أي من المصادر إلى أن إبراهيم كان بلهجته العربية السريانية يلقي أية صعوبة في التفاهم مع أبناء تلك المناطق . وإن عيسى المسيح نفسه ، العربي

الآرامي في النسب ، ولد وعاش مع الكنعانيين في منطقة واحدة ، هي منطقة غامد وزهران ، وتكلم لهجة آبائه السريانية الكنعانية الخليط — إذا صح التعبير — ولم يكن ثمة لغة أخرى أو لهجة أخرى . ومع هذا فلم تجد أمه السيدة مريم أية صعوبة في التفاهم مع جيرانها المصريين (أنباء مصرام) حينما انتقلت به إلى هناك في الجنوب زمنا ثم عادت إلى منطقة كنعان .

إن اللهجة العربية السريانية لم تفرق بين القوى والتحزبات المتصارعة إبان الصراعات الكبرى في بداية الألف الثاني قبل الميلاد بين آشوريين وبابلين وآموريين وأكاديين وسومريين وغيرهم . ولما انتصر حمورابي ، وهو الأموري الغربي ، في الصراع على السلطة في بابل في القرن التاسع عشر قبل الميلاد لم تكن اللهجة لتقف حائلا دون انتصاره وتسلمه زمام أمور الدولة العربية السورية كلها من البحر الأدنى (بحر العرب) إلى البحر الأعلى (البحر الأسود) .

وإذا عظم نفوذ اللهجة العربية السريانية فإنما بتعاضد نفوذ أبنائها المتمثل في نفوذ الدولة العربية السورية البابلية زمن حمورابي ، علما أن لهجة حمورابي الأصلية لم تكن سريانية ، لكن أحدا لم يتمكن من أن يسجل فرقا في قصر حمورابي بين سريانية شرقية وأمورية غربية . إن الازدهار السياسي والاقتصادي والعسكري الذي تمتعت به الدولة العربية السورية زمن حمورابي هو الذي منح اللهجة العربية السريانية ذلك الزخم وتلك القوة في الاندفاع حتى صارت تحتل المكانة الأولى بين سائر اللهجات في العلاقات الدولية . ثم ما إن منحها الأشقاء الفينيقيون في الغرب أبجديتهم الساحرة البسيطة حتى أخذت تغطي على كل الشعوب الأخرى .

والجدير بالذكر أن اللغة العربية ، بلهجتها السريانية هذه ، وبأبجديتها الساحرة ، ظلت اللغة الرسمية للدولة حتى في زمن سقوط الدولة العربية البابلية على أيدي الفرس ، وصارت اللغة الرسمية للإمبراطورية الفارسية⁽¹⁾ ، كما صارت لغة التجارة والعقود والمواثيق الدولية لجميع شعوب الزمن القديم في تلك المنطقة رغم سقوطها السياسي . إن

(1) انظر فيليب حتي ، "تاريخ سوريا ومن ضمنها لبنان وفلسطين " الجزء 1 ص 245.

الثقة الكبيرة التي أعمت بها هذه اللغة نتيجة لتاريخ شعبها الحضاري الكبير جعلت منها لغة كل الأوساط الحضارية دونما منازع ، كما شكل لدى أبنائها مناعة ذاتية تاريخية ، أخذت تقوى وتتعاظم عبر القرون ، فتجعلهم مؤثرين حتى في زمن يحتل بلادهم أكثر من تأثرهم به بفعل قانون الكثافة والتخلخل الذي تكتنف فيها عطاءات الانسان العربي الحضارية دهورا طويلة ، كانت ، عند كل عملية احتكاك مع غيرها ، تنقل مما تحمله في ذاتها من مضامين فكرية وحضارية مكثفة إلى اللغات الأخرى التي تمثل مناطق التخلخل قليلة الكثافة ، فتغدق عليها مما بها زمنا طويلا إلى أن يقترب زمن التناسب فيتوقف ذلك الارتشاح أو يكاد . إن هذا بالضبط هو ما حدث فعلا في ذلك الزمن ، وهو ما حدث فيما بعد إبان الاحتلال التركي للبلدان العربية . إن هذه الظاهرة نفسها هي التي حدث بمؤرخ مثل ريمون فايل إلى أن يقول : "إن أبرز ميزات هذا الشعب أنه كان دائما يطبع غزاة بلاده بطابعه الخاص ، فيجعلهم منه عوضا عن أن يكون هو منهم"⁽¹⁾

ثم إن هذه اللهجة شهدت عملية نفوذ كبرى إبان وحدة الدولة العربية السورية منذ منتصف القرن الثاني عشر قبل الميلاد ، وفي زمن حكم الآشوريين فيما بعد للدولة . وقد طرأت عدة تطورات على هذه اللهجة السريانية الشرقية بعد المسيح سوف يكون لنا معها حديث آخر في موقع آخر . أما فروع آرام الأخرى الذين نزلوا شبه جزيرة العرب فهم : حديس وعبيل ، وعوص ، وعبد ضخم ، وجاثر⁽²⁾ . ومنهم كان قوم عاد وثمود . و"هذان الحيان من ولد أرم بن سام بن نوح ، وهو عاد الأول ، وكانت مساكنهم ما بين الشحر وعمان وحضرموت بالأحقاف . فكانوا جبارين طوال القامة لم يكن مثلهم .. وأما ثمود فهو ولد ثمود بن جاثر بن أرم بن سام ، وكانت مساكن ثمود بالحجر بين الحجاز والشام . وكانوا بعد عاد قد كثروا وكفروا وعتوا ، فبعث الله إليهم صالح بن عبيد بن أسف بن ماشح بن عبيد بن جادر بن ثمود"⁽³⁾ . وتشير المصادر العربية

(1) انظر : ريمون فايل ، "فينيقيا وسوريا المجوفة" و : أسد الأشقر ، تاريخ سورية " الجزء 1 ، القسم 1 ، ص 59 .

(2) سبائك الذهب في معرفة قبائل العرب للبغداد ص 14 ، 15 .

(3) الكامل في التاريخ لابن الأثير ، الجزء 1 ، ص 47 - 48 .

جميعها إلى أن هؤلاء جميعا غلب عليهم اسم أبيهم أرم ، "فكان يقال لعاد في دهرهم عاد أرم ، فلما هلك عاد قيل لثمود أرم ، فلما هلكت ثمود قيل لسائر بني أرم أرمان فهم النبط ، فكل هؤلاء كانوا على الإسلام (أي موحدين) وهم ببابل حتى ملكهم نمرود بن كوش بن كنعان بن حام بن نوح ، فدعاهم إلى عبادة الأوثان ، ففعلوا ، فأمسوا وكلامهم السريانية ، ثم أصبحوا وقد بلبل الله ألسنتهم .. ففهم الله العربية عادا وعييل وثمود وجديس وعمليق وطسم وأميم وبني يقطن بن عابر بن شالخ بن أرفخشذ بن سام بن نوح"⁽¹⁾ . ولابد من الإشارة مرة أخرى إلى أن بابل المقصودة هنا هي بابل المخطئة على طريق القوافل على وادي الثرات ، وليست بابل عاصمة الدولة .

وأوضح أن المقصود من القول " ثم أصبحوا وقد بلبل الله ألسنتهم " هو رحيلهم إلى مناطق أخرى وتوطنهم فيها حيث توجد لهجات أخرى . فبعد أن توزعوا من منطقة بابل نزل جماعة منهم مختلفة مناطق من شبه جزيرة العرب ، وكان من نزل منهم في منطقة اللهجة العرباء حول مكة أو في شمال اليمن أنه تخلى عن لهجته السريانية الشرقية وتحول إلى اللهجة العرباء ، أو أن بنيه من بعده تحولوا إليها فيما بعد . " ويقال إن عمليق أول من تكلم بالعربية حتى ظعنوا من بابل ، فكان يقال لهم ولجرهم وثمود وجديس ابني عابر بن أرم بن سام بن نوح ، وعاد وعييل ابني عوص بن أرم بن سام بن نوح ، العرب العاربة "⁽²⁾ .

ولقد صار كثير من المؤرخين العرب ينسبون شعوب العرب البائدة جميعا إلى أرم ويسمونها بالأرمان . فقد ذكر حمزة الأصفهاني في كتابه " تاريخ سني الملوك " إن " العرب العاربة عشرة : عاد ، وثمود ، وطسم ، وجديس ، وعمليق ، وعييل ، وامييم ، ووبار ، ورهط ، وجاسم ، وقحطان فكانت هذه الفرق تؤرخ بسني أرم إلى أن بادت كلها الواحدة إثر الأخرى . وبقي منهم بقايا يسيرة وكانوا يسمون الأرمان "⁽³⁾ .

(1) تاريخ الطبري ، الجزء 1 ، ص 143-144 .

(2) المصدر السابق 143 .

(3) حمزة الأصفهاني ، " تاريخ سني الملوك " ، طبعة بيروت ، 1921 ، ص 105 .

فالآراميون ، إذن ، كانوا ، من حيث منشأهم ، جميعا سريانيين بلهجتهم ، ثم توزعوا حسب المناطق التي أخذوا يحلون بها إلى اللهجات الأخرى ، مثلهم قى ذلك مثل باقي فروع الشعب العربي الأخرى . ومن بين هؤلاء الآراميين الذين وجدوا وعاشوا في شبه جزيرة العرب يمكن أن نغيز ففتين :

1— الفئة الأولى : وتمثل بأولئك العرب الآراميين الذين تتبعوا مجرى وادي الدواسر من مصبه في الخليج العربي إلى منطقة التقائه بوادي "ثرات" ، ثم صعدوا مع مجرى الثرات إلى شرقي بلاد غامد وزهران . وقد أقاموا على هذا الشريط تجمعات آرامية بدءا من آرام نهرن (آرام الأنهار) عند ملتقى رنية و الثرات ، ومركزها حران ، ثم فدان آرام ، وفي شرقي بلاد غامد وزهران عند منابع الثرات هناك أيضا آرام صوبا وآرام دومسك .

لقد كان هؤلاء الآراميون ، من ذوي اللهجة السريانية البابلية في الأصل يمثلون حلقة الوصل بين السريانية في الشمال الشرقي ، والكنعانية في الجنوب الغربي وفي منطقة غامد وزهران ، والعرباء في شمال اليمن جنوبا وحول مكة والطائف شمالا ، وإن موقعهم الذي يقطع طريق القوافل والتجارة الدولي القادم من جنوبي اليمن ، والصاعد إلى شمال شبه الجزيرة وبلاد الشام من جهة ، وإلى الخليج العربي وأور في منطقة بابل من جهة أخرى ، ساعد على أن تلتقي اللهجات العربية الثلاث الأساسية في تلك المنطقة .

إن هذه الظاهرة نفسها أسهمت أيضا في بروز اللغة العربية بجميع لهجاتها على مسرح الدولة العربية السورية كلها كلغة واحدة لشعب واحد ، مما جعل كثيرا من الباحثين والمؤرخين يعتبرون الآرامية هي العربية القديمة . إن الدولة العربية السورية المزدهرة في بابل من جهة ، وإن انتشار الآراميين الرعاة على تلك الرقعة الشاسعة من شبه جزيرة العرب جعل اللغة العربية تبرز وكأنما فجأة على امتداد الساحة كلها ، وما كان ليتنبه إلى وجودها أحد من قبل إلا من خلال تسميات مجزأة ومتفرقة .

إن هذه الظاهرة بالذات هي التي أدهشت ، وكأنما بصورة مفاجئة ، أولئك الباحثين أمثال "هوميل" الذي كتب يقول :

"إن الآراميين الذين يرجعون إلى أقدم الأزمان ، والذين ورد ذكرهم في الكتابات القديمة ، كانوا ينتمون إلى العرق البدوي الخالص ، وهم يحملون الأسماء نفسها التي نجدتها في التسميات العربية ، لذلك فإننا لا نكون قد جازفنا في الكلام عندما نؤكد أن الآراميين في الألف الثانية قبل الميلاد ، بل وحتى في العصور التالية التي تمتد إلى زمن ازدهار الإمبراطورية الآشورية ، كانوا هم والشعب العربي العظيم شعبا واحدا ، من عنصر واحد متماسك الأجزاء " (1)

مما تقدم كله يمكن أن نستخلص ما يلي :

إن الآرامية فرع سكاني عربي ، وليست لغة أو لهجة .

إن لهجة الآراميين هي السريانية نفسها ، التي جعلت محمدا (ص) يقول عن " آدم وملك نوح وخنوخ " بأنهم سريان .

إن العرب منذ أقدم العصور ، ومنذ أن أقاموا دولتهم الأولى الما قبل سومرية لم يكونوا يميزون فيما بينهم على صعيد المؤسسة بروابط القبيلة والدم ، بل كانت التسمية تتبع اللهجات العربية المحكية في هذه المنطقة أو تلك . وإذا كان ذلك هو الطابع العام للعلاقات السائدة على مسرح الدولة ومؤسساتها ، فإن هذا لا يمنع ، بالطبع ، وجود جميع أنواع العلاقات والروابط الأخرى ، من قبلية وغير قبلية ، ضمن البيئة الواحدة ، والمنطقة الواحدة ، والاجتماع ككل .

إنه لم يكن ثمة حدود ضمن المنطقة الواحدة بين لهجة وأخرى . فالسريانية الشرقية ، التي يتكلم بها السومريون وسكان منطقة الخليج أصلا ، كانت تعيش مع الأمورية الغربية ، والعربية العرباء بصورة متداخلة — كما سبق ومر معنا — ضمن حدود الحقل الواحد والقافلة الواحدة ، والمعبد الواحد ، والمؤسسة الواحدة ، والمجلس الواحد ، والقصر الواحد . وقد أربكت هذه الظاهرة كثيرا من المؤرخين الذين لم يكونوا قادرين على فهم هذه الظاهرة بحقيقتها كما هي . فأدهشهم وجود سرجون العربي الأموري الغربي ذي المنشأ الفقير الوضيع على رأس السلطة في مناطق سومر وأكاد قبل أن تدهشهم دولته

(1) F.Hommel .” The Ancient Hebrew Tradition”

العربية السورية الممتدة إلى المتوسط غربا وإلى بحر العرب جنوبا . وأهشهم حمورابي ،
العربي الأموري الغربي على رأس السلطة في بابل بالصورة ذاقها ، وأدهشتهم سميراميس
السيدة العربية الفقيرة المتحدرة من أواسط البادية تقف على رأس دولتها العربية السورية
في بابل بعد أن وحدت جميع أجزائها ، وأعادت بناء مدينة بابل ، وضربت الشعوب
والقبائل الهمجية التي كانت تهدد الدولة من الشرق ، ووصلت إلى نهر الهندوس ،
وكانت تقول في آخر أيامها : "لقد أعطيتني الطبيعة جسم امرأة لكن أعمال أعمالي
الرجال العظماء ، فقد أنشأت إمبراطورية نينوى التي تلامس الهندوس شرقا ، وبلاد
البخور والمر (أي جنوب اليمن) جنوبا ، وبلاد النيل غربا ، قبلي لم ير أي آشوري
البحر . أما أنا فقد رأيت أربعة بحار لم يشاهدها بسبب بعدها أحد قبلي . وقد طوعت
الأهـر ، وجعلتها تجري حيثما أشاء ، وفضلت أن تجري في أراض تفيد منه ، فخصبت
الأراضي القاحلة بريها ، بنيت القلاع المنيعة ، وشققت بالحديد الطرقات بين الصخور
الصعبة المسالك ، وفتحت أمام عرباتي طرقات لم تسلكها حتى الحيوانات البرية نفسها .
ووجدت خلال أعمالي أوقاتا للهو مع الأصدقاء " وقد قدسها شعبها وحاك حولها
الأساطير ، مما جعل بعض المؤرخين ، الذين لم يتمكنوا من فهم هذه الظاهرة عند قدامى
العرب السوريين ، يشكون في وجودها .

إن هذه الظاهرة ظلت تترك جميع الباحثين الذين لم يرغبوا في الاعتراف بالحقيقة : وهي
أن الوجود السكاني في الوطن العربي السوري منذ أقدم العصور إنما هو وجود عربي ،
وأن جميع الفروع السكانية ، التي قد تصادف متداخلة هنا وهناك وعلى امتداد رقعة
الأرض العربية السورية كلها لم تكن تعني بأية حال أنها ظواهر شعوبية أو لغوية ، إنما
فروع سكانية لشعب واحد ، يتكلم لغة واحدة ولهجات مختلفة . ويغير هذا الفهم
يستحيل استخلاص أية حقيقة تاريخية . إن نظرة واحدة نلقيها على نماذج مما يكتبه
بعض الدارسين تجمعنا نضع أيدينا على مكان الخطأ والارباك لدى أولئك جميعا .

يقول كليي : " أطلق البابليون تسمية "أمورو" على جميع بلاد سوريا ، كما أطلقوا على
البحر المتوسط اسم "بحر أمورو العظيم" ، ويرى بعض الخبراء أن الأموريين كانوا قد

انتشروا في جميع المنطقة الممتدة من ساحل البحر المتوسط إلى الفرات ، ومن ضمنها فلسطين ، منذ الألف الرابعة أو الخامسة قبل الميلاد ⁽¹⁾ .

إن هذا من شأنه أن يؤكد وجهة نظرنا ، ويكشف عن حدود اللهجة العربية الغربية (أو الأمورية) لا عن حدود هذا الفرع السكاني أو ذاك من الشعب العربي السوري . لكن هل هذا يعني أن ثمة شعبا يدعى "الأموري" يسكن ويعيش ويحكم ضمن حدود هذه اللهجة؟ نقرأ ما يقوله الباحثون على ضوء المكتشفات الآثارية :

" وقد كشفت التنقيبات الفرنسية التي أجريت في تل الحريري منذ عام 1933 عن آثار حضارة من عصور ما قبل التاريخ ، ومن عصر فجر السلالات في الألف الثالثة قبل الميلاد حيث وجدت تماثيل سومرية ومعبد للربة عشتار ، كما كشفت عن برج مدرج ، وقصر عظيم من العهد البابلي القديم ، من القرن العشرين قبل الميلاد ... وقد عثر فيه على مجموعة من الألواح الطينية بلغ عددها 24 ألف لوح ، وهي تشتمل على أنواع مهمة من الوثائق والسجلات الملكية الخاصة بأخر ملك من سلالة ماري الأمورية المدعو "زمرلي ليم" (1799 — 1761 ق.م) ... وقد أظهرت التنقيبات الآثارية أن سلالة سومرية بزعامة لوجال زاجيسي ملك الوركاء (2400 — 2461 ق.م) حكمت في ماري قبيل أن يضمها إلى دولته المركزية سرجون الأكادي (2371 — 2316 ق.م) وقد تمكن العموريون بعد سقوط الإمبراطورية الأكادية سنة 2235 ق.م ، أن يتغلغلوا في سوريا الوسطى وفي لبنان ، ثم أسسوا بين سنة 2100 — 1800 ق.م ، عدة دويلات في وادي الرافدين تمتد من آشور شمالا إلى لارسا جنوبا ، منها سلالة ايسن التي قامت على أنقاض سلاسة أور الثالثة ، وقد ظلت هذه الدويلات مزدهرة إلى أن قضت على استقلالها سلالة بابل الأولى التي اشتهرت بـ "دولة حمورابي" صاحب الشريعة المشهورة ، وهي من أصل أموري أيضا ويرجع أن السلالة المهمة التي

(1) H.T. Clay ,” Amuru The Home Of The Northern Semites 1909;”The Empire of the Amorite”1919 .

تأسست في بلاد آشور واشتهرت بملكها "شمسي أدد" (1814 — 1782 ق.م) أصلها من الأموريين أيضا ⁽¹⁾ .

إننا نلاحظ من خلال هذا النص كيف أن أغلبية الحكام البارزين في إدارة الدولة العربية السورية الواحدة ، إنما كانوا من العرب الأموريين الغربيين ، وقد حكموا من عواصم تقع جميعها في منطقة اللهجة العربية السريانية الشرقية سواء في أكاد ، أو بابل ، أو أور ، أو نينوى ، أو آشور . إن هذه المدن الشرقية جميعا عاشت وازدهرت كعواصم للدولة العربية السورية الواحدة وإن أبرز حكامها في أوج ازدهارها كانوا من العرب الأموريين .

إن الحدود بين الآرامية والسريانية لم ترسمها المسيحية ، كما درج كثير من الدارسين على القول . فالآرامية ، كقوم ، فرع من العرب الساميين ، منهم من توطن منطقة بابل المخططة ، وهم النيبطيون بنو ماش بن آرم وبنوهم وأحفادهم ، ونخص منهم بالذكر بني سوريان بن نبيط بن ماش بن آرام ، الذين دعوا بالسريان نسبة إلى سوريان بن نبيط ، ومنهم أيضا من توطن في مناطق مختلفة من شبه جزيرة العرب ، وهم العرب العاربة والبائدة ، وآرام نهرن ، وفدان أرام ، وآرام صوبا ودومسك وغيرهم . والآراميون ، من حيث لهجتهم اللغوية ، لم يكونوا سريانا كلهم ، لقد توزعوا بين مناطق اللهجات العربية الرئيسية الثلاث : السريانية في المنطقة الشمالية الشرقية ، والعرباء في جوف شبه الجزيرة العربية ، هذا بالإضافة إلى اللهجة الوسيطة المزيح ما بين هذه اللهجات جميعا وبين الكنعانية ، والتي تتمثل في أواسط شبه الجزيرة على حوض نهر الثرات ومنطقة زهران وغامد وفي الجنوب ، وجميع هذه اللهجات أقدم من الآراميين بدهر طويل .

لقد صار في الإمكان الآن أن نتصور كيف أن العرب الجابرة من العماليق ، الذين يسكنون ويعمرون المناطق الشديدة الخصوبة في وادي الليث وبلاد زهران وغامد ، والذين تميز منهم بنو ميسور وبنو قاني (فونيق) في فنون الزراعة والبناء ، والهندسة ،

(1) انظر : الدكتور أحمد سوسة ، مفصل العرب واليهود في التاريخ ، ص 155 .

والنحت ، وصناعة المعادن ، نقلوا مسرح نشاطهم الزراعي والعمراي إلى وادي النيل ، وكذلك جميع فروع العرب الحاميين من كنعانيين ، وكوشيين ، وفلسطينيين (فلسطين) ومصريين (مصر) وحثيين أبناء الكنعانيين الحاميين وغيرهم ممن يسكنون ويتوزعون المناطق الزراعية والجبلية في جنوب وغرب شبه الجزيرة ، إنما كانوا جميعا ينظرون بعين القلق إلى الأفواج السكانية التي أخذت تعج بها البراري الشرقية الممتدة من سفوح الجرد الشرقية إلى ضفاف وديان تليلث والدواسر والرمة ، ومن براري مكة والطائف شمالا إلى حدود عمان وحضرموت في الجنوب الشرقي ، فتهدد بحركتها تدريجيا جميع خطوط القوافل والتجارة الداخلية . وقد كان لها في البداية من وحدة لهجتها السريانية القادمة من مراكز الدولة ومناطقها في بابل ما يجعلها تبدو ، لأول وهلة ، حركة سكانية مليئة بالمخاطر بالنسبة للمصريين والكنعانيين في جنوب عسير وبلاد غامد وزهران . ولو أن تلك الحركة السكانية تمت دفعة واحدة وبصورة منظمة وهادئة لاجتاحت جميع المناطق في شبه جزيرة العرب دوغما ريب . لكنها ، وكغيرها من التحركات السكانية الأخرى ، كانت تتم على شكل دفعات من الأسر أو العشائر ، التي تضع كل منها نصب أعينها أهدافا خاصة بها ، كما أن شيئا لم يكن يجمعها أو يوحد فيما بينها غير اللهجة السريانية التي قدمت بها . أما من حيث البنية الطبقية فقد كانت في معظمها من الفئات الانتقالية التي لم تقطع صلاتها بحياة الرعي المتنقلة ، كما لم تترسخ لديها حياة الاستقرار بعد . وكانت تضم كثيرا من الأسر والفئات الفقيرة والمسحوقة التي تعمل لدى رؤساء العشائر وأفرادها الميسورين في الرعي أو غيره لقاء تأمين قوتها . وإذا ما علمنا أن ظروفًا خاصة طارئة سياسية ، وعسكرية ، واجتماعية ، واقتصادية بل وطبيعية (كالزلازل مثلا) ألّت بمناطق بابل في بداية الألف الثاني قبل الميلاد ، يصير من السهل أيضا أن نفهم أسباب تحرك كثير من الأسر الميسورة والزراعية إلى المناطق الخصيبة من شبه جزيرة العرب . ولما كان ذلك التحرك ذو اللهجة العربية السريانية الواحدة قد غطى مناطق واسعة من بقاع شبه الجزيرة العربية الداخلية فقد انطبقت في تلك الفترة التسمية اللغوية على القبليّة ، وصارت السريانية والآرامية شيئا واحدا . أما حينما كثرت تلك المجموعات بأصولها

القبلية المختلفة في منطقة واحدة وغلب على بعضها الاستقرار ، وعلى بعضها الآخر الجولان صار التمييز في التسميات الأصولية — على ما يبدو — ضرورة اجتماعية ، فصار اسم " القحطانيين " المستقرين في اليمن و " اليمنيين " شيئاً واحداً ، كما صار " الاراميون " المتنقلون من بقعة إلى أخرى و " البدو " و " العبرانيون " و " الخابيرو " و " الأخلامو " شيئاً واحداً .

يقول البغدادي : " ... وذلك أن ولد نوح كثروا في الأرض حتى امتلأ منهم سهلها وجبلها ، وبرها وبحرها ، فاحتشت تلك الأرضون بهم ، وشحنت بكثرتهم ، وكان كلامهم السريانية وهي لغة نوح .. فتفرقوا حينئذ ، وسار كل منهم إلى جهة .. ثم سار بنو عاد ، وكانوا لا يحصون كثرة ، وكان مسيرهم يوم الأحد ، فسلكوا مسلك بني يافث ... ثم مالوا يمنة حتى صاروا إلى أرض اليمن . ثم سار ثمود في ولده وولد ولده ، فسار يقفو آثار عاد ، فلحقه وقد غل في بلاد اليمن ، فكره مزاحته فيها ، فحال إلى الحجر . ثم سار صخار بن آرم في ولده وولد ولده فنزل في تمامه وأقام بها . ثم سار جاثم في ولده ونزل بالحجاز . ثم سار طسم في ولده فنزل بأعلى ما يلي عمان والبحرين . ثم صار جديس في ولده وولد ولده فترل في أسفل مما يلي اليمامة ثم سار وبار فترل فيما بين شمر إلى تخوم صنعاء ، وهي تسمى إلى اليوم أرض وبار"⁽¹⁾ .

من هذا القول يمكن أن نستنتج أن من بين الأسباب التي دعت إلى تسمية أولئك القوم بنسبهم الآرامي ، استيطان آخرين في منطقة اليمن تحديداً في تلك الفترة ذاتها ، وهم القحطانيون . وإذا كانت السمة التي ميزت القحطانيين تتجلى في استقرارهم ومركزهم الكبير في جنوب شبه الجزيرة العربية في اليمن ، فإن الانتشار المتحرك كان الطابع الذي غلب على الوجود الآرامي . وهذا بالذات هو ما جعل التسمية الآرامية أكثر انتشاراً وأتاح لها أن تعيش جنباً إلى جنب مع التسمية العربية وترادفها فترة من الزمن ، حتى صارت كلمة " أعراي " و " آرامي " اسمين لمسمى واحد في إحدى المراحل . وهذا مما حدا بالباحث " كروهمان " إلى القول : " ومن المؤكد أن العنصر العربي البدوي في شبه

(1) سبائك الذهب في معرفة قبائل العرب للبغدادي / انظر فالغ .

جزيرة العرب هو ، على الأرجح ، مصطلح مرادف لتسمية "آرام" و"عبرو" و " خبيرو" وجد في الأصل في المنطقة التي تمتد بين سوريا وبلاد ما بين النهرين* والتي تعد أقدم مركز للساميين⁽¹⁾ .

الأوضاع السياسية في بابل إبان جولان إبراهيم :

يكاد يجمع المؤرخون على أن انتقال إبراهيم الخليل من أور الكلدانيين إلى حران كانت في القرن العشرين أو التاسع عشر قبل الميلاد دون أن يذكر أحد منهم أي دليل على ذلك . وكان كل ما لديهم من الحجج يقوم على الفرضية القائلة بأن إبراهيم كان أول من دعا إلى عبادة إيل** كإله واحد نتيجة للحداثة الشهيرة التي رواها الكتب الدينية بينه وبين أطراف الشرك وعلى رأسهم نمرود . إن هذا الرأي هو ما بدأه التوراتيون دوغما سند على أية وقائع أو براهين تؤيد ذلك . إن كل الأمور يمكن أن تشير إلى عكس ذلك . فالقرآن الكريم ذكر كثيراً من الآباء والأنبياء العرب الموحدين قبل إبراهيم ، بدءاً بآدم ، ومروا بإدريس ، وملك ، ونوح ، وصالح ، وهود وغيرهم . ثم إن المدونات التاريخية القديمة التي اكتشفها الآثاريون تؤيد صحة ما أوردته المصادر العربية .

"ففي بعض الألواح التي عثر عليها المنقبون في منطقة بابل ما يوضح جلياً أن هناك ثلاثة ملوك يؤلفون سلالة بابلية سامية حكموا ما يقرب من قرن كامل في المنطقة الجنوبية من بابل ، وهؤلاء نادوا وجاهروا بعقيدة التوحيد ، إلا أن الوثنيين أسقطوا الملك الثالث ونفوه من البلاد ... إن أسماء الملوك الثلاثة ، وهي أسماء عربية سامية ، مقترنة بفكرة الإله الواحد . فاسم الأول "ايلوما ايلوم" Iluma Ilum ومعناها " إيل هو الإله الأوحد" ، أما الملك الثاني فاسمه " اتي إيلي نبي" Itti Ili Nibi ومعناها " أنت يا إيل ربي" . وهذا الاسم مشابه تماماً لأسماء ملوك جنوب الجزيرة العربية . وأهم ما في الأسماء

* من الأسماء الجغرافية الموضوعة على الأساس الخاطئ للتفسير الجغرافي للتوراة وسنتحدث عنها مفصلاً فيما بعد .

(1) A. Grohman , "The Arabs", The Enc. Of Islam New ed P.255.

** إيل (عل) هو الله أو الإله الأوحد عند العرب منذ آدم وحتى اليوم . وقد اقترن بأسماء أولاد آدم قابيل ، هابيل ، مهلايل ، بتونيل ، مخونيل ... وقد استخدمته التوراة في صيغة الجمع "إيلوهم" وذلك دليل على عدم رسوخ عقيدة التوحيد عند قوم موسى . وهو نفسه "الله" في و مايعده .

الثلاثة هم اسم الملك الثالث " ياثي إيل Yathi Il ومعناها كما ترجمه Daughty صديق إيل ، خل إيل = خليل"⁽¹⁾ . والحقيقة أن المعنى هو : أكثر يا رب ، هني يا الله !
إننا نلاحظ كلمة " إيل " مستخدمة في المنطقة منذ القرن التاسع عشر قبل الميلاد ، أي قبل وجود إبراهيم بأربعة قرون على الأقل .

لقد دأب المؤرخون أن يجعلوا وجود إبراهيم في تلك الفترة بالذات ، لكن هذا ينلقض كل الحقائق والوقائع والمعطيات :

إذا كان إبراهيم قد عاش في القرن العشرين أو التاسع عشر قبل الميلاد ، وكان موسى قد عاش في القرن الثالث عشر أو الثاني عشر قبل الميلاد فإن هذا يعني أن ستة أو سبعة قرون تفصل ما بين الاثنين ، علماً أننا لو تتبعنا سلسلة نسب موسى كما أجمعت عليها المصادر التوراتية نفسها وبقية مصادر الأنساب العربية لوجدنا أنه موسى بن عمران بن يصهر بن قاهت بن لاوي بن يعقوب بن اسحق بن ابراهيم ، أي أن بينه وبين إبراهيم ستة آباء فقط . وإذا ما علمنا أيضاً أن من يتزوج وهو ابن عشرين عاماً ثم ينجب أولاداً ويعيش حتى الستين على سبيل المثال ، إنه وهو في الستين ، يعيش حفيده الذي يكون عمره عشرين عاماً أيضاً أي في السن الذي تزوج فيه أبوه وجده . إن هذا يعني أن إبراهيم الذي عمر طويلاً كان قد عاش حفيده لاوي ، وإن هذا كان قد عاش حفيده عمران على الأقل ، والمسافة الزمنية في ذلك لن تتجاوز 120 — 200 عام بين إبراهيم وموسى .

إن هذا بالضبط هو ما ينسجم مع معطيات الأحداث التاريخية في المنطقة من جهة ، ومع ما تذكره المصادر التاريخية العربية .

فالأحداث التاريخية تشير إلى أن بابل سقطت في أيدي قبائل الكاشيين — أو الكوشيين وهم أبناء كوش بن حام — الهمجية الذين انقضوا عليها بعد أن دمرتها الزلازل وأعملوا فيها الحرق والنهب والتقتيل ، وذلك في عام 1595 ق.م إن هذا على الأقل هو ما يرويه لنا المؤرخون . ولما كانت تلك القبائل رعوية فهي لم تكن لتوفر عملية سلب الرعاة

(1) انظر : الدكتور أحمد سوسة " مفصل العرب واليهود في التاريخ " ص 519 .

قطعانهم ومواشيهم ومقتنياتهم إلى جانب تعريضهم لأقصى أنواع القتل والسي . في هذا الظرف بالذات كان لابد لعشائر الآراميين الجواله حول أور في جنوب بابل ، والتي ارتادت المنطقة ذات المراعي القريبة من شطوط الأنهار لمواشيها ، وابتعدت عن مراكزها في قلب البادية العربية ، من أن تعود أدراجها إلى مراكزها ، فبتبعد عن موقع الخطر المتمثل في الغزو الكوشي المدمر ، وتبحث عن مواقع ومقايض جديدة في الغرب صوب بلاد غامد و زهران .

إن هذا هو ما حدث فعلاً لكثير من عشائر الآراميين ، ومن جملتهم إبراهيم وجماعته . إنها الفترة نفسها التي يصفها الاخباريون والمؤرخون العرب بأنها توافقت بمحدث زلازل ، وحروب وانقسامات كثيرة في المنطقة . "ولما قبض الله ساروج قام بعده ناحور بن ساروج مقتدياً بمن سلف من آباءه . وحدث في أيامه رجف وزلازل لم تعهد فيما سلف من الأيام قبله ، وأحدثت في أيامه ضروب من المهن والآلات وكانت في أيامه حروب وتحزيب الأحزاب" (1) .

في تلك الفترة بالذات حدثت نزوحات لكثير من الأسر ، ولاسيما تلك التي تنتمي للنمط الانتقالي في العيش من البداوة والتنقل إلى حياة الاستقرار في المدن أو الأرياف ، وجرفت معها كثيراً من الفئات المعدومة التي تبيع عملها ، في الرعي بصورة خاصة ، مقابل تأمين القوت والحماية ، ومع تلك الأسر هاجرت أسرة إبراهيم الذي لقب بالخليل . وإذا كانت تلك الفترة تعتبر بداية النزوح السرياني الآرامي من منطقة جنوب بابل إلى شبه جزيرة العرب ، فإن هذا النزوح كان من الضعف والشحوب إلى درجة أنه لم يكن ليلحظ على المسرح السكاني لشبه جزيرة العرب آنذاك . ولولا أن اسم إبراهيم ارتبط بفكرة توحيدية دينية ، ثم قيض له فيما بعد من يدون له سيرته وأعماله وممارساته ، مع سير بعض أبنائه وأحفاده ، لما عرفت أو سمعت به الأجيال التالية .

إن الوجود الآرامي في شبه جزيرة العرب ظل يأخذ طابعاً متصاعداً حتى القرن الخامس قبل الميلاد . وقد تمكنت تلك الجماعات الفقيرة النازحة الجواله من أن تقلق

العرب الآخرين المستقرين في المناطق الخصيصة من شبه الجزيرة ، كما كانت تقوم بالضغط عليها بين فترة وأخرى ، فتغير على المدن أحيانا ، وتسيطر على طرق القوافل أحيانا أخرى ، مما وجد له إنعكاسا في مراسلات حكام تلك المدن والمناطق ، بين الفترات ، واستنجد بهم كل بسيدة ، مرة بملك مصر ، وأخرى بملك بابل أو آشور ، من أجل إنقاذهم من هجومات أولئك الاراميين الذين يهددون ويقطعون خطوط التجارة والقوافل .

يقول الطبري في تاريخه :

" ثم ولد لعمران موسى ، وكانت أمه يوحابد وقيل كان اسمها ناهيد وامراته صفورا ابنة يثرون وهو شعيب النبي ، وولد موسى جرشون وإيليعازر وخرج إلى مدين خائفا وله إحدى وأربعون سنة وكان يدعو إلى دين إبراهيم وتراءى له الله بطور سيناء وله ثمانون سنة ، وكان فرعون مصر في أيامه قابوس بن مصعب بن معاوية صاحب يوسف الثاني ، وكانت امرأته آسيا بنت مزاحم بن عبيد بن الريان بن الوليد فرعون يوسف الأول . فلما نودي موسى أعلم أن قابوس بن مصعب قد مات وقام أخوه الوليد بن مصعب مكانه وكان أعنى من قابوس وأكثر وأفجر"⁽¹⁾ .

إن هذا يؤكد صحة وجهة نظرنا في أن نزوح أسرة إبراهيم الخليل كانت في حوالي القرن الخامس عشر قبل الميلاد ، وليست قبل ذلك بأية حال ، وإلا لما تمكن حفيده يوسف بن يعقوب من أن يعاصر أحد الفراعنة وهو قابوس الذي استبدل الفرعون الذي قبله في أواخر أيام يوسف والذي عاصره موسى ايضا ، وقد كاد يجمع المؤرخون على أن خروج بني اسرائيل مع موسى من مصر العشيرة كان في القرن الثالث عشر قبل الميلاد .

(1) تاريخ الطبري الجزء 1 ، ص 271 .

الآراميون والعبرانيون

لقد رأينا كيف أن من التقاليد العربية التاريخية أن ينتسب هذا الفرع السكاني أو ذاك إلى أحد الآباء المتفوقين مما كان له انعكاس في الحياة الاجتماعية اليومية ، ولاسيما القبلية ، بين جماعات البدو الرحل ، وليس في الحياة السياسية العامة على صعيد الدولة ككل . وإذا ما عدنا وألقينا نظرة على التوزيع السكاني ما بين بابل وغرب شبه الجزيرة العربية فإننا لن نجد كبير عناء لنميز مركزين زراعيين مدنيين كبيرين ، تطبعهما حياة الاستقرار الزراعي والتجاري والصناعي والعمراني من الجانبين ، ولو كان ثمة فارق بين المستويين . إذ إن منطقة بابل تبقى مركز الدولة العربية السورية كلها حيث تتكثف كل منجزات السكان وإبداعاتهم الحضارية . ثم إن ثمة طبقة أخرى من النمط المعيشي للسكان تحيط بكل من هذين المركزين إلى مسافة معينة ، تمثل في حد ذاتها ، على الأغلب ، المرحلة الانتقالية من حياة الرعي المتنقل إلى حياة الاستقرار المدني والزراعي . ثم إن هاتين الفئتين الانتقالتين تلتقيان بالنمط المعيشي البدوي المتحرك على الدوام ، وهذا النمط يكاد يملأ جوف شبه جزيرة العرب . لكنه ، وكما سبق أن أشرنا آنفاً ، ليس ثمة مناطق أنماط معيشية خالصة لنمط دون آخر ، إذ المقصود دائماً في مثل هذه الحال هو الطابع الغالب على معيشة هذه الشريحة من السكان أو تلك . إن من المعلوم أن البدو قد يتغلغلون إلى أعماق القرى والمدن ، وإن لهم من المصالح التبادلية والتجارية ، بوجه الخصوص ، ما يجعلهم يتواجدون في كل المناطق الزراعية والمدنية تقريباً ، دون أن يؤثر ذلك على حقيقة الطابع العام لنمط المعيشة في هذه البقعة الجغرافية أو تلك .

وقد رأينا كيف أن الفرع العربي الآرامي كان ، مثل غيره من الفروع ، يتوزع بين هذه الأنماط جميعاً ، من حياة المدينة في بابل ومناطقها ، إلى حياة المرحلة الانتقالية المحيطة بها من صوب البراري والبادية ، إلى حياة التنقل والرعي بين السهوب والمراعي المتاخمة للبادية . والآراميون يرجعون نسباً إلى آرام بن سام بن نوح ، ولهجتهم الأصلية هي التي كانت سائدة في مناطق وجودهم الأولى ، أي السريانية ، ثم اختلفت لهجتهم مع المناطق التي حلّوا بها ، ما بين السريانية الشرقية ، والعرباء النقية ، وغيرها .

ولما كان الآراميون الذين نزحوا من جنوب العراق ، في معظمهم ، ممن ينتمون إلى نمط الرعي ونمط المرحلة الانتقالية كما يقول منطق علم السكان الاجتماعي ، فإن أولئك النازحين سوف لن يجدوا بقعة يمكن أن تستقبلهم مع مواشيهم غير مراعي السهوب الداخلية المنتشرة على حدود الصحراء ، وعند ضفاف الوديان الواسعة . وإن في إمكاننا أن نتصور عملية التكاثف السكاني في تلك المراعي عبر الزمن ، مما يجعل الأخ ينفصل بمواشيه عن أخيه ، ويضرب بوجهه في اتجاه آخر عبر الفياض والسهوب الواسعة ، كما حدث مع أبناء عاد وثمود وطسم وجاثم وغيرهم ، وسبق الإشارة إليه ، وكما حدث مع إبراهيم وابن أخيه لوط أيضا فيما بعد :

" ولوط السائر مع إبرام كان له أيضا غنم وبقر وخيام . ولم تحتلها الأرض أن يسكنا معا . إذ كانت أملاكهما كثيرة . فلم يقدر أن يسكنا معا فحدثت محاصمة بين رعاة مواشي إبرام ورعاة مواشي لوط ، وكان الكنعانيون والفريزيون حينئذ ساكنين في الأرض ، فقال أبرام للوط لا تكن محاصمة بيني وبينك وبين رعائتي ورعائك لأننا نحن أخوان . أليست كل الأرض أمامك اعتزل عني . إن ذهبت شمالا فأنا يمينا ، وإن يمينا فأنا شمالا . فرفع لوط عينيه ورأى كل دائرة الأردن* أن جميعها سقي قبلما ضرب الرب سدوم وعمورة كجنة الرب كأرض مصر حينما تجيء إلى صوغر . فاختار لوط لنفسه دائرة الأردن وارتحل لوط شرقا فاعتزل الواحد عن الآخر. أبرام سكن في أرض كنعان ولوط سكن في مدن الدائرة ونقل خيامه إلى سدوم "(1).

إن هذا يعكس لنا مدى ضيق المساحات الرعوية في المناطق المستقرة زراعيا بحيث لا تتسع لأخوين ، أو لأسرتين مع مواشيهما، فكيف تتسع لقبيلة من البدو الرعاة ؟ ولهذا

* إن هذه الأسماء الجغرافية هي في منطقة غامد وزهران من شبه جزيرة العرب كما سوف نبين لاحقا ودائرة الأردن تعني مجموعة الجرد والسفوح الشرقية والمخاضات في بلاد غامد (يردن بالآرامية جمع يرد وهي الجرد . ويلاحظ الابدال بين الجيم والياء حتى اليوم ، ففي منطقة الخليج يلفظون حتى اليوم كلمة "ريل" بدلا من "رجل" وقد أخذت اللغات الأخرى عن العربية هذا الابدال ، ولاسيما اللاتينية إذ نجد الابدال بين "جاكوب" و"ياكوب" (يعقوب) و"جاسمين" وياسمين ويوردان وجوردان (الأردن) وغيرها. كما أنها تعني المخاضات ، وهي في هذه الحال جمع يردا وتعني المخاضة ،، الجدول .

(1) تكوين 13 : 5 - 13 .

فقد كان أولئك السكان الزراعيون يرقبون بعين التوجس والحيطه تحركات البدو الجماعية الكبيرة ، ويتعاونون في دفعها إلى الورااء كلما عنّ لها أن تزحف باتجاه الأراضي المزروعة (وهذا بالضبط هو ما حدث فيما بعد — كما سنرى لاحقاً — مع جماعة موسى) ومن هنا أيضاً فقد أخذ مجرى نهر الثرات (الفرات) المتحد بوادي رنية يشكل حاجزاً فاصلاً بين الشرق والغرب ، بين بوادي نجد وسهوبها الممتدة إلى الربع الخالي شرقي النهر وبين طلائع الأراضي الزراعية على وادي الفرات الأعلى وصولاً إلى مصر وكنعان غرباً في بلاد غامد وزهران ووادي الليث . ومن هنا أيضاً تبرز أهمية عبور هذا المجرى المائي (الثرات) من قبل عشائر البدو . لقد بقي يؤلف حداً فاصلاً بين البراري في الشرق والأراضي الزراعية على سفوحها الغربية وما يليها في الغرب .

والجدير بالذكر أن تاريخ الوطن العربي ، أو جغرافيته ، لم يدلنا على أية مجموعة سكانية كان لها دور تاريخي ودعي باسم "العبرانيين" كما أن تاريخ اللغة العربية ، وكل المكتشفات من المدونات الآثارية لم تشر من قريب أو بعيد إلى وجود جماعة سكانية ذات لهجة لغوية معينة أطلق عليها اسم "العبرانية".

فمن هم أولئك العبرانيون إذن ؟

إذا ما نظرنا إلى شجرة الأصول والفروع في النسب الذي أوردته لنا مدونات التوراة ، وأخذنا عنها الدارسون الغربيون والعرب ، فإننا نجد أن "عابر" هو أحد أحفاد أرفحشاد بن سام بن نوح . فهو عابر بن شالح بن أرفحشاد بن سام بن نوح ، ثم إن خط النسب يستمر من بعده إلى فالج ، ارغو، سروج، ناحور ثم تارح ، وأبرام . فـ"عابر" هذا ، وحسب التقاليد العربية ، لم يعرف عنه أنه كان متميزاً في شيء حتى يشتهر كأحد الآباء العرب الكبار المقدسين فيجري الانتساب إليه ، كما أن أحداً من أحفاده على خط السلسلة التي أوردته التوراة حتى إبراهيم لم يتميز بشيء أيضاً . فالذي اشتهر وتقّس من هذا الخط ، أي من عابر إلى إبراهيم ، هو إبراهيم وحده ، فكيف يشتهر إبراهيم إذن بجده السادس عابر ولم يشتهر به غيره؟ ثم إن شجرة النسب التي أوردتها المصادر الكلاسيكية العربية ترينا أن "عابر" هو أبو قحطان الذي اتفق عليه جمهور العلماء

بأنه أصل عرب اليمن الذين غلبوا في ذكرهم كل من سبقهم من العرب ، وإليه انتسب القحطانيون ، كما انتسب إلى إسماعيل بن إبراهيم فيما بعد العدنانيون ، وهما الدعامتان الأساسيتان ، والجدان الأعظمان اللذان تلتقي عندهما معظم القبائل العربية هناك فيما بعد. إن قحطان بن عابر ، إذن ، كان أعظم من أبيه ، وأكثر شهرة ، وقد عرف الأب بابنه ولم يعرف الابن بالأب ، فكيف تكون تسمية إبراهيم ، وهو الحفيد السادس لعابر ، بالعبراني ، نسبة إلى جده السادس عابر فجأة ، ودون أن نسمع بأن هذه التسمية لحقت أحدا من آبائه قبله ؟ إن أيا من المصادر لم يشر إلى أن أيا من فالج ، وارقو ، وسروج ، وناحور ، و تارح قد ألصقت به هذه التسمية "عبراني" . ولو صح ذلك للحقت هذه التسمية بقحطان وبنيه ، ولكان — على هذا الأساس — جميع العرب العاربة اليوم ، من قحطانيين وعدنانيين ، عبرانيين . ولو كان في "عابر" هذا ما يلفت أنظار أولئك العرب المتشبهين بمناقبية الأجداد لبرز ، دونما ريب، مثل غيره من الآباء ، بل وأكثر من غيره ، نظرا لبروز أحد أبنائه المباشرين على الأقل ، وهو قحطان ، في ميدان الأنساب العربي . إن بروز قحطان بن عابر في النسب بين الآباء المتميزين يلغي تميز أبيه عابر دون ريب .

فإبراهيم ، نتيجة لذلك ، لم يدع عابريا (أو عبريا أو عبرانيا) نسبة إلى جده عابر ، ولو صح غير هذا لكان دعي جميع العرب القحطانيين والعدنانيين بـ "العبرانيين" ، ولما بقيت هذه التسمية ملصقة بإبراهيم دون سواه .

هذا من جهة ، ومن جهة أخرى فإن "عابر" هذا هو أحد أحفاد ارفحشاد بن سام بن نوح ، وليس أحد أحفاد أرام بن سام بن نوح ، إنه عابر بن شالخ بن ارفحشد بن سام ، وبالتالي فهو ليس آراميا ، فكيف يكون حفيده ، الذي هو إبراهيم ، آراميا ؟

لقد وقع مدونو التوراة في تناقض صارخ حينما وضعوا إبراهيم في شجرة النسب واحدا من أحفاد عابر بن شالخ بن أرفحشد ، ثم اعتبروه آراميا ، " آراميا تائها كان أبي فأنحدر إلى مصر وتغرب هناك في نفر قليل "⁽¹⁾ . فهو إذن عبراني أو (عابري) وآرامي معا .

لكن عابر بن شالح بن ارفحشد ليس آرامياً ، فهل ثمة "عابر" آخر آرامي ينتسب إليه إبراهيم ؟

يقول الطبري في تاريخه : " ويقال إن عمليق أول من تكلم بالعربية حين ظعنوا من بابل ، فكان يقال لهم ولجرهم العرب العاربة . وثمود وجديس ابنا عابر بن ارم بن سام بن نوح ، وعاد وعييل ابن عوص بن ارم بن سام بن نوح"⁽¹⁾ ويتضح من قول الطبري ان من بين أولاد آرام عابر وعوص ، فعابر ولد ثمود وجديس ، وعوص ولد عاد (وهي عاد الأولى) وعييل . إن هذا الـ "عابر" آرامي ، وقد ظعن مع اخوته وبنيه من منطقة بابل ، كما تؤكد المصادر العربية الكلاسيكية . وإن التوراة تؤكد ان إبراهيم ظعن من أور البابلية الآرامية ، وقد دعيت بـ أور الكلدانيين . والكلدانيون هم سريانيون لهجة ونسباً ، إذ ينتسبون إلى سوريان بن نبيط بن ماش بن آرام . ومدونات التوراة تؤكد على الصلة العبرانية الآرامية القديمة ، وجعلت اسرة إبراهيم تأتي من مركز الآراميين في أور إلى مركز الآراميين في شبه جزيرة العرب ، " ومات هاران قبل تارح أبيه في أرض ميلاده في أور الكلدانيين ، واتخذ ابرام و ناحور لأنفسهما امرأتين . اسم امرأة ابرام ساراي واسم امرأة ناحور ملكة بنت هاران أبي ملكه وأبي شبكة"⁽²⁾ . وإن مدونات التوراة أصرت على جعل النساء العربيات الآراميات أمهات لأبناء إبراهيم .

وهكذا فإن أسلاف أبناء يعقوب هم آراميون من جهة الأم ، أيضاً ، " وكان أسلاف الشعب العبراني* يتكلمون الآرامية قبل استقرارهم في فلسطين واقتباسهم اللهجة الكنعانية المحلية"⁽³⁾ .

وتدل المدونات والمكتشفات الآثارية على أن العرب انتشروا من اليمامة عبر البادية إلى وادي الثرات ، وإلى البرية في شرقي بلاد زهران . فطسم وجديس أبناء عابر بن آرام نزلوا اليمامة أولاً ، ثم اقتتلوا ، وانتقل جديس (تلفظ بالجيم المصرية) إلى البرية الممتدة

(1) تاريخ الطبراني ، الجزء 1 .

(2) تكوين 11 ، 28 - 38 .

* نحن هنا لسنا في صدد مناقشات الكلمات أو المصطلحات الواردة في هذا القول سواء ما تعلق منها بـ "الشعب العبراني" أو بـ "فلسطين" وسوف يأتي ذلك لاحقاً .

(3) فيليب حتي ، "تاريخ سوريا ومن ضمنها لبنان وفلسطين" الجزء 1 ، ص 177 .

في شرقي بلاد زهران ، حيث ما تزال أطلال "قديس" التي سميت ، لاشك ، باسم "جديس" ** .

وما يزيد من قناعتنا في الموضوع أن أطلال بلدة عبله واكتينا ما تزالان في المنطقة نفسها على وادي رنيه . فعبلة هي البلدة الآرامية المسماة على اسم "عبل" (أو عيبل) بن عوص بن آرام ، واكتينا هي ما دعت بـ "قطنة" وفسرت خطأ على أنها "المشرفة" اليوم في منطقة حمص السورية .

وأما عوص فكان أيضاً اسماً لأحد الأرباب* في شبه الجزيرة العربية قبل الإسلام ، وعرفت به أيضاً مدينة آرامية في نواحي الفرات** ، ويرد أيضاً في التوراة اسم علم لأحد أحفاد "سعير الحوري" "... .. هذا ابنا ديشان عوص وآران .." (1) .

ثم إن يعقوب — كما تؤكد التوراة — حينما هرب من أخيه عيسو لجأ إلى أخواله العرب الآراميين في منطقة حران في الصحراء العربية : " .. وهب يعقوب إلى صحراء آرام .." (2) .

إن ذلك كله يجعل من إبراهيم وبنيه عرباً آراميين ، لكن التسمية الأخرى "عابري" أو "عبري" أو "عبراني" التي هي — كما جرى التأكيد حتى اليوم — نسبة إلى جده عابر ، تبقى ضعيفة ومتناقضة ، وليس ثمة ما يؤكدها .

•• ان "قديس" أو "جديس" كانت تكتب "جدس" قبل ادخال الأحرف الصوتية في الكتابة ، وإن الجيم والقاف كانا ، وما يزالان ، في تلك المنطقة يلفظان كالجيم المصرية ، وقد جرى الإبدال بين السين والشين بصورة شاملة بين اللهجات العربية القديمة والحديثة وبناء على ذلك فبتنا نرجح أن تكون "جديس" هذه هي البلدة التي دارت عندها المعركة بين فرعون مصر وسكان المنطقة من الحثيين الكنعانيين ، وسميت باسمها "معركة قادش" وليس أي قادش آخرى على نهر العاصي كما يظن الباحثون لأنه لا وجود لهذا الاسم في سوريا المتوسطة كلها .

• كنا قد أوضحنا أن المؤرخين درجوا على أن يستخدموا كلمة "الآلهة" بدلاً من الآباء القديسين وقد شرح ذلك بكثير من الوضوح المؤرخ العربي السوري ساتخونياتن ومررنا على (أقواله) .

** "الفرات" هو نهر "الثرات" الذي ينحدر من جبال زهران ويتحد مع وادي رنية ليصبأ معاً في وادي الدواسر . والإبدال شائع في العربية بين الفاء والطاء إلى اليوم .

(1) انظر: تكوين 26 : 28 والدكتور توفيق سليمان ، نقد النظرية السامية، الجزء 1، ص 168

(2) يوشع 12 : 012

ففيما يتعلق بالجد "عابر" بن شالح بن ارفحشد كنا قد ألغينا النسبة إليه ، لضعفه بين الآباء ، أولا ، ولكونه غير متصل بالنسب إلى آرام ، ثانيا ، علما أن كل المعطيات تؤكد "آرامية" إبراهيم وبنيه سواء من حيث الآباء أو الأمهات . فينتقض بذلك خط شجرة النسب الذي وضعه مدونو التوراة ، ويتنفي معه انتساب إبراهيم إلى عابر حفيد ارفحشد . خاصة وأن أحدا قبل إبراهيم لم ينتسب إليه أو يشتهر به .

أما عابر بن آرام فليس لديه نقاط أشد سطوعا من عابر الآخر ، وقد بقي أحد الآباء النكرات الذين لم يتميزوا بشيء ، وقد طغى عليه أبوه آرام وأخذ لنفسه النسبة كلها حتى الأحفاد والفروع المتناهية في البعد، كما طغى قحطان على عابر الآخر ، فكيف يبرز فجأة انتماء إبراهيم وحده من بين كل أبناء آرام ، إلى عابر بن آرام ، علما أن "الآرامية" طغت عليه وعلى بنيه من بعده ولم تترك مجالا لأي انتماء آخر في خط النسب لغير آرام الذي اكتسح الساحة كلها وحده !

من أين أتت هذه التسمية "عابري" أو "عبراني" إذن ؟ هل هي لقب لإبراهيم العربي الآرامي دون غيره ، وبدأت عنده ؟ هذا ما سوف نحاول الإجابة عنه .

<< العبرانية >> ظاهرة اجتماعية آرامية في فترة محددة وليست نسبا :

قبل أن نبدأ في تحديد المقصود من التسمية ، نرى أن من المفيد أن نستعرض نماذج من تفسيرات الباحثين والمؤرخين لهذه التسمية لنضع القارئ في صورة المتناقضات العجيبة التي يمكن أن تخضع لها تحت أقلامهم مثل هذه الظاهرة الصغيرة .

يقول المستشرق "تورير ثوردارسون" ، أستاذ اللاهوت في جامعة ايسلندا : " إن إبراهيم كان شبه بدوي ، ينتمي إلى القبائل القديمة المسماة بـ "العبيرو" ولعله ينحدر من هذا العرق القبائلي نفسه" (1)

فـ "العبيرو" هنا هي عرق قبلي !

• مرة أخرى تلفت النظر إلى أن أصل كل هذه التسميات هو "عبر" في اللهجات القديمة قبل ادخال الصوتيات في الكتابة ، وبالتالي كان بالإمكان أن تقرأ في أشكال مختلفة كثيرة .
(1) دائرة المعارف البريطانية، 1925، ص45 .

ويقول جورج بوست في مصنفه "قاموس الكتاب المقدس" إن لقب أبرام العبراني لم يقصد به الاسرائيلي ، وإنما يمكن تفسيره بأبرام النازح أو المهاجر" .

فـ "العبراني" هنا صفة لحالة مؤقتة أو طارئة ، وليست عرفاً ، أو جنساً ، أو انتماء .
"وتدل التحريات على أن الخابيرو Habiro تمكنوا من احتلال مدينة أريحا قبل عصر موسى بحوالي قرنين من الزمن" (1) .

فـ "الخابيرو" هنا هم جماعة من الناس لا يعرف لهم جنس أو انتماء ، وقد احتلوا بلدة أريحا وحدها مما يجعل صفة التمرد أو الانتفاضة تغلب على حركتهم ، أي أنها حركة في المكان الواحد ، إذ إنه لم يذكر أنهم وفدوا من أي مكان آخر .

ويعلق فرويد على مسألة "العبيرو" بقوله : "ونحن نعرف أخبار هؤلاء المحاربين من الرسائل المكتشفة عام 1886 في سجلات مدينة العمارنة المتهدمة ، فهي تسميهم باسم "عابيرو" وقد أطلق هذا الاسم فيما بعد ، ولسنا ندري كيف ، على الغزاة الجدد اليهود ، "العبرانيين" الذين ما كان في استطاع رسائل العمارنة أن تذكرهم ، لأنهم جاؤوا في زمن لاحق" (2)

فـ "العابيرو" عند فرويد إذن ، جماعة من المحاربين دون تحديد جنس لهم ، وفي رسائل تل العمارنة هم أقدم من العبرانيين الذين ألصقوا بإبراهيم علماً أن الكلمة الواردة في تلك الرسائل هي "خابيرو" وليست "عبيرو" .

و"كانت هذه الكلمة (عبر أو عبراني) تطلق في نحو الألف الثانية قبل الميلاد ، وفيما قبل ذلك ، على طائفة كبيرة من القبائل العربية في شمال جزيرة العرب وفي بادية الشام ، وكانت لغة هؤلاء العبريين آنذاك لغة أهل فلسطين الكنعانية ، ولغة كثير من القبائل في

• من المفيد أن نشير إلى أن هذا التفسير قد حذف من الطبعة الجديدة لقاموس الكتاب المقدس لعام 1971 ، بل حذفت منه جميع الدراسات العلمية التي قام بها العلامة جورج بوست ووضع مكانها خلافاً لما جاء في المقدمة ما يؤكد ربط اليهود بعصر إبراهيم انسجاماً مع ما تبذله الحركة الصهيونية لجعل إبراهيم أباً لكل اليهود . ويلاحظ أن هذا القاموس بطبعته الجديدة يدعم النظرية الصهيونية الحديثة التي تعتبر جميع الأسماء الواردة في التوراة من أسماء الأشخاص وأماكن أسماء عبرية أي يهودية .

(1) T.H.Gartes , Enc .Brit.1965,Vol 4 P.727 .

(2) فرويد ، "موسى والتوحيد" ، الترجمة العربية ، ص 47 .

طور سيناء ، وفي شرقي الأردن ، ومنهم العمالقة والمديانيون وغيرهم من الأقوام العربية في المنطقة ، حتى صارت كلمة "عبري" مرادفة لابن الصحراء أو ابن البادية بوجه عام⁽¹⁾

فالعبرانيون هنا مجموعة قبائل عربية بدوية .

"ثم أصبحت كلمة "عبري" تشمل جميع الآراميين ، وكلهم عرب نزحوا من موطنهم الأصلي في شبه جزيرة العرب قبل أن يكون لليهود وجود"⁽²⁾

فيكون العبريون هم العرب الآراميون .

وهذه هي الأحكام التي تضع أمامهم ، إذا اشترت عبدا عبرانيا فست سنين يخدم ، وفي السابعة يخرج حرا بجانا . إن دخل وحده فوحده يخرج"⁽³⁾

هذا ما تقوله وصايا التوراة وأحكامها ، ثم لم يتطرق إلى الأحكام في شراء عبد آخر من غير العبرانيين ، وإن دل ذلك على شيء فإنما يدل على أن "العبرانيين" كانوا جماعة من الفقراء المهينين للاسترقاق أكثر من غيرهم ، وهم من غير بني إسرائيل ، لأن بني إسرائيل "عبيدي الذين أخرجتهم من أرض مصر لا يباعون بيع العبيد ... وأما اخوتكم بنو إسرائيل فلا يتسلط إنسان على أخيه بعنف .. وإذا بيع أخوك للغريب المستوطن عندك أو لنسل عشيرة الغريب فبعد بيعه يكون له فكاك يفكه واحد من اخوته"⁽⁴⁾

فالعبرانيون — كما هو واضح — لا علاقة لهم ببني إسرائيل .

ويوضح "درايفر" أستاذ اللغة العبرية في أكسفورد ، في مقالة له في دائرة المعارف البريطانية ، حول أصل كلمة "عبري" كيف أن التوراة ، حينما تحدثت عن لغة جماعة موسى ، لم تقل "لغة العبرانيين" بل دعتها بـ "شفة كنعان" أي لسان كنعان ، ثم "يهوديت" بعد أن اقتبسوها وأخذوا يتكلمون بها ، ثم "لسون حقوديس" أي اللسان المقدس في وقت لاحق ، إذ وجد هؤلاء الحاخامون اليهود أن أفضل طريقة يمكن اتباعها

(1) الدكتور أحمد سوسة "مفصل العرب واليهود في التاريخ" ص 494 — 495 .

(2) ولغفسون ، "تاريخ اليهود في بلاد العرب" ، ص ز .

(3) خروج 21 : 1 ، 2 .

(4) لاريون 25 : 42 ، 47 — 48 .

لربط تاريخهم بأقدم العصور ، واعتبار عصر اليهود متصلا بأقدم الأزمنة هو استعمال مصطلح "عبري" أو "عبرو" للدلالة على اليهود بوجه عام .

وبذلك يكون تاريخ فلسطين ، تاريخا واحدا متصلا ومرتبطا منذ أقدم العصور بالشعب اليهودي⁽¹⁾ .

"وكان الكنعانيون يشكلون معظم السكان عندما أتى الرواد* أسلاف الشعب العبراني من بلاد الرافدين . وكان الأموريون يسكنون المرتفعات التي لم يحتلها جماعة مستقرون بصورة كثيفة .. وكانت توجد أقوام أقل شأنا في أماكن متفرقة وبعيدة . وتزوج السكان الجدد مع جميع هؤلاء ، وكانت النتيجة هي الشعب** العبراني الذي اتصف بأصول عرقية متنوعة تضم عناصر سامية وحورية وحثية ، وغير ذلك من العناصر*** غير السامية⁽²⁾ .

لقد عثر في تل العمارنة ضمن الرسائل المكتشفة على ست رسائل من أحد رؤساء القبائل العربية الكنعانية يقول فيها : " لم يبق في أرض مولاى الملك شيء ... هُلب الخبيرو" كل البلاد من سيدي الملك .. البلاد وقعت في أيدي "العبرو" . ويعقب بارتون على ذلك بقوله : " من الواضح هنا أنه لا يمكن أن يكون "العبرو" الذين ورد ذكرهم في هذه الرسائل هم اليهود"⁽³⁾ وهذا قطعاً صحيح ، إذ إن فترة تلك

(1) "G.R.Driver , Hebrew Language" Enc.Br, 1965,Vol 11.P.279 .

• يلاحظ هنا استخدام تعابير الحركة الصهيونية التي هي بنت النصف الثاني للقرن التاسع عشر الميلادي وسحبها إلى عصر ابراهيم الخليل وكان انتقال العربي الآرامي من بقعة إلى أخرى مع مواشيه طلباً للانتجاع والرعي ضمن الأرض العربية الواحدة مثله مثل تهجير الصهيونية لليهود من شتى بقاع العالم إلى فلسطين من أجل تحقيق غاياتها الاستعمارية الاستيطانية ، فأخذت تطلق على أوائل المهجرين الاستيطانيين اسم "الرواد الأوائل" .

•• يلاحظ أن الدقة في استخدام المصطلحات تصبح لا أهمية لها حينما يتعلق الأمر بمصلحة اليهود أو الصهاينة ، لقد أصبحت أسرة ابراهيم بعد أن تزوج أبناؤه بحويات وكنعانيات (اسماعيل وعيسو) "شعباً" فحرقوا بذلك كل المراحل من العشيرة ، إلى القبيلة ، إلى اتحاد القبائل ، إلى توفر اللغة الخاصة والأرض الخاصة بهم ، وصولاً إلى الشعب !

••• في الحقيقة ان اعتماد المؤلف على أقوال غيره دون البحث فيها وفي مصادرها ، وغياب الحقائق الجغرافية الصحيحة عنه جعله يردد ما يقوله غيره من المؤرخين المغرضين بمثل هذه السذاجة ، علماً أن التوراة نفسها تؤكد أن الحوريين عموريون ، وأن الحثيين من أولاد كنعان . (2) فيليب حتي " تاريخ سوريا ، ومن ضمنها لبنان وفلسطين" الجزء 1 ص 190 — 391 .

(3) G.H.Barton,"Archaeology and the Bible" Phil, Pp.403-406

الرسائل — كما هو معروف — تعود إلى مرحلة حكم أختاتون ، أي في القرن الرابع عشر قبل الميلاد . وكنا قد ذكرنا أن الكلمة التي وردت في نصوص تل العمارنة هي "الخبيرو" وليست "العبيرو"

<< العبيرو >> و << الخبيرو >>

ويذكر فيليب حتي الناقل كعادته أن اسم "الخابيرو" أطلق لأول مرة على الحاربيين في عهد نارام سين في نحو 2170 ق.م .. وكما يبدو فإنه ليس اسما عرقيا ، وإنما تسمية أطلقت على جماعات من الرحل والأجانب والأشقياء المستعدين للانضمام إلى صفوف أي جيش لقاء أجره ، أو بدافع الحصول على الغنائم ⁽¹⁾ " فالخابيرو ، هنا ، هم المعدمون الذين يؤجرون عملهم .

ويقول أيضا : "ويظهر الخابيرو لأول مرة في الحوليات الخثية في عهد مرشالش* الأول (حوالي 1600 ق.م) الذي استأجرهم ، وفي رسائل تل العمارنة نرى الخابيرو يتعاونون مع المتمردين ضد الفراعنة ، وفي 1367 ق.م يستولون على شكيم .. وفي جميع هذه الوثائق يبدو الخابيرو كجماعة متعددة العناصر ، وبدون أوصاف مشتركة ، ومعبأة ، بلا شك ، في بلاد الرافدين ... "

ويذكر أيضا : " ... وبينما كان الجيش الخثي في فترة العمارنة يقوم بأعماله الحربية في الشمال كان جماعة من المرتزقة الأجانب الذين يسمون في الكتابات المسمارية الخابيرو Khabiro يجتاحون البلاد من الجهة الجنوبية وقد اعتبر بعض العلماء هذه الكلمة الأكادية معادلة للكلمة العبرية "عبري" و "عبراني" التي تترجم عادة بالذي يأتي من الجانب الآخر أو بمعنى "العابر" ⁽²⁾ .

(1) فيليب حتي ، تاريخ سوريا ومن ضمنها لبنان وفلسطين " الجزء ١ ، ص 173 .
* ليس مرشالش ملكا خثيا في شمال سوريا (تركيا اليوم) كما يصوره المؤرخون ، وإنما هو أمير خثي من العرب الكنعانيين في جنوب بلاد زهران ، واسمه يعني أمير (أو سيد بلده شالش الواقعة هناك) .

(2) المصدر السابق نفسه .

فإذا ما علمنا أن شكيم هي في أرض كنعان ، وهي نسبة إلى شكيم بن حمور كما ورد ذكرها مرارا في مدونات التوراة ، علمنا أن بلاد الرافدين هي — مرة أخرى — الترجمة الخاطئة لكلمة (نهر) التوراتية التي تعني النهرين (أو الأنهار) والتي دعتها الترجمة السبعونية للتوراة إلى اليونانية ، ميزوباتاميا Mesopotamia ، ثم ترجمت إلى العربية بـ "ما بين النهرين" أو "بلاد الرافدين" ، فأضيف خطأ على خطأ ، وهي ليست إلا منطقة الأنهار (الثرات ورنيه وروافدهما) شرقي بلاد غامد و زهران كما سبقت الإشارة . وبهذا يكون تحرك أولئك "الخابرو" في المنطقة الجنوبية من بلاد الكنعانيين في بلاد غامد ، حيث قرية شكيم ولا يفصلها عن "النهرين" غير المخاضات (يردن) وشكيم هو شكيم بن حمور الذي اعتدى على دينة بنت يعقوب .

ويأتي ذكر "الخابرو" في وثائق نوزي في القرن الخامس عشر قبل الميلاد بأهم "عبيد أصبحوا كذلك باختيارهم" ⁽¹⁾

وفي ذلك تظهر حقيقة أولئك الناس الطبقية : إنهم المعدمون الذين يبيعون عملهم مقابل قوتهم ، وبكلمة أخرى معاصرة : إنهم "بروليتاريو" ذلك الزمن . وهكذا فإننا نرى كيف أخذت هذه التسمية تنحو منحى مستقلا عن التسمية الأخرى "العبيرو" ، وتصبح ذات طابع طبقي أكثر وضوحا من ذي قبل ، ومما هو عليه مع "العبيرو".

<<العبيرو>> و <<الخبيرو>> و <<الأحلامو>>

ثم مالبث أن أخذت تظهر على الساحة تسمية أخرى لتقترن بالوجود العربي الآرامي في المنطقة ذاتها هي "الأحلامو" ولتستخدم من قبل الدارسين في شكل فوضوي دونغا أن تبذل أية محاولة حقيقية لفهم هذه الظاهرة ضمن نطاق التطور السياسي والاجتماعي — الاقتصادي في المنطقة في تلك المرحلة .

(1) المصدر السابق .

* "الأحلامو" تعني بكل اللهجات العربية القديمة "الرفاق ، الأصديقاء ، الأصحاب" ، وقد حافظت حتى اليوم على معناها ، إذ نجد في "محيط المحيط" مثلا ، إن الخلم هو الصديق والصاحب ، جمع أخلام . وخالمة مخالمة صادق . واختلمه وخلمه اختارته ، والمخالمة الصديق والصاحب .

"وكان الآراميون مكونين من جملة عشائر وقبائل ، فيهم فرع ورد اسمه بصيغة "أخلامو" ، وهي تسمية شاملة وردت في الكتابات القديمة لجماعة من القبائل البدوية في شمال الجزيرة العربية وقد أصبح "الأخلامو" في العهد الأخير مرتبطين كلياً بالآراميين في صدد الغزو الآشوري . ونظراً لشهرة هذه القبائل صار اسمها كثيراً ما يطلق على جميع الآراميين . وقد ورد ذكر جماعات أخرى مع "الأخلامو" سميت بـ "الخبيرو" أو "الهبيرو" أو "العبيرو" ، وهي كلمة كانت تطلق على القبائل العربية الرحل التي كانت تجوب الجزء الشمالي من الجزيرة العربية أيضاً . وقد انضمت إلى القبائل الآرامية ، وصارت هذه الكلمة ، بعد أن صحفت إلى "عبري" و"عبراني" تطلق على أتباع موسى بعد ظهورهم ، باعتبارهم من القبائل الرحل ، لأنهم لم يكونوا قد وجدوا بعد ، عندما كانت هذه الكلمة تستعمل لتعني البدو الرحل ، أو المهاجرين ، أو العابرين"⁽¹⁾

يتضح من خلال هذا القول كيف أن بعض السمات المشتركة بين "الخبيرو" و"العبيرو" و"الأخلامو" جعلت الباحثين والمؤرخين لا يعرفون كيف يميزون فيما بينهم ، فهم جميعاً من العرب الآراميين ، البدو أو الفقراء بوجه عام ، ويتحركون في منطقة واحدة من شبه جزيرة العرب .

استثناء اللغة حول هذه التسميات

إن كل ما فيه هو أن لفظة "عابري" أو "عبري" أو "عبراني" أو "عبيرو" أو غيرها إنما كانت تكتب جميعها في صيغتها الثلاثية الصامتة "عبر" ، إذ من المعروف أن الصوتيات لم تكن قد أدخلت في الكتابة بعد ، ومن هنا فقد نجم مثل هذا التعدد في قراءات هذا الشكل المكتوب "عبر" ، ولا سيما عند نقله إلى لغات أجنبية. أما معناه فواضح ، وقد أجمع الدارسون على أن المقصود بتلك التسميات إنما كان معنى واحداً وهو "العابر" ، أي القادم من الجانب الآخر . ولما كانت بلاد المصريين (مصر) وكنعان في جنوب بلاد غامدو زهران من أخصب مناطق شبه جزيرة العرب وأكثرها سكاناً وعمراناً ، ولا يفصلها عن

(1) الدكتور أحمد سوسة ، " مفصل العرب واليهود في التاريخ " ص 160 - 161 .

"برية العرب" التي هي سهوب البادية الممتدة حتى جنوب أور في أعلى الخليج ، غير سلسلة جبال عسير أو السراة الممتد على تخومها الشرقية من الشمال إلى الجنوب ، مما يجعلها بمثابة سور أو سياج تتخلله فتحات أو معابر معروفة في مواضع معينة أهمه عند مدينة بني سار الحالية قرب اركو (أريحا) القديمة، فقد كان أي عبور جماعي من الشرق البدوي إلى الغرب الزراعي والعمراني عبر تلك الجرد أو المخاضات "يردن" يعني لأولئك السكان شيئاً واحداً هو الغزو . وكان ذلك يحفز سكان تلك القرى والمدن والأرياف ورؤساءها فيتنادون إلى توحيد جهودهم ودفع موجات البدو شرقاً إلى خارج السور الجبلي ، وبعيدا إلى عمق البرية . وهذا بالضبط هو ما حدث مع جماعة موسى . أما أن يكون العابرون في شكل أسرة ، أو مجموعة أسر ، فقد كان ينظر إليهم كأضياف أو لاجئين ضعفاء يستحقون الحماية والرعاية ، وهذا بالضبط هو ما حصل مع إبراهيم وأسرته .

من هنا كانت هذه الظاهرة " العبور " ذات أهمية بالغة بالنسبة إلى أولئك السكان الزراعيين . ومن هذه الأهمية بالذات صارت جزءاً من الحياة اليومية اللغوية ، حتى صارت إحدى المفردات الشائعة عند الكبار والصغار ، بحيث يمكن لأي إنسان أن يعرف كل قادم من الشرق عبر تلك الجرد بـ "العابر" مثلما تقال اليوم في منطقة الجبال الساحلية السورية كلمة "شريقاوي" أو عريباوي على كل قادم من منطقة السهول الشرقية إلى تلك الجبال .

ولما كانت تسمية "العابر" لا تدل على أية مواصفات أخرى غير القدوم من الجانب الآخر ، فقد ظلت لفظة عمومية بعيدة عن تحديد أية خصائص اجتماعية أو طبقية ، إلا إذا اعتبرنا أن أولئك العابرين كانوا في معظمهم من البدو الرعاة ، لكن هذا لم يمنع أن يوجد بينهم أمراء وأغنياء ومالكو قطعان كبيرة كما عرف عن إبراهيم .

أما "الخايرو" ، ومن خلال كل الأقوال التي استعرضناها عنهم ، فإنهم جماعة أفرزتها الحياة الاجتماعية الطبقية في الدولة العربية ، حيث — كما سبق أن أشرنا — أتاحت مجالات واسعة للثراء الفاحش منذ ما قبل عهد سرجون ، وبدأت الفوارق الطبقيّة

الحادة تبرز مما أرغم سرجون وحمورابي على القيام بإصلاحات اقتصادية كبيرة . ثم إن فترة الصراعات والنزاعات السياسية الطويلة كانت تزيد في كل مرة من استبداد المتسلطين واستئثارهم الجشع بالثروات ، ومن عدد الفقراء المعدمين الذين أخذ يلقي بهم المجتمع في دورته الاقتصادية على هامش حياته الاقتصادية والاجتماعية . وإن في إمكاننا أن نتصور انتشار هؤلاء الناس بين المدن والأرياف يبحثون عمن يستخدم عملهم لقاء قوتهم ، وكانت منطقة كنعان المزدهرة زراعيا إحدى المناطق المرغوبة التي يمكن أن تعج بأمثال هؤلاء العمال الهائمين .

ولما كانت لغتنا العربية الفصحى اليوم ، هي العربية العاربة والسريانية في شبه جزيرة العرب التي عممت بفضل القرآن الكريم فيما بعد ، فقد كانت مفرداتها أكثر قربا من الأحداث اليومية في شبه الجزيرة ، وحملت لنا ، بالتالي ، ظروف خلق ونشوء وتطور هذه التسمية أو تلك . ونحن إذا ما بحثنا عن معاني كلمة "خبير" في معاجمنا اليوم نجد أنها ما تزال تحفظ لنا مضمون الكلمة الحدث ، الظاهرة . فهي الوحيدة القادرة على أن تكتشف لنا بصدق عن الحقائق التي ما تزال تكثرها في صدرها حتى اليوم . إننا نجد في معنى "خبير" مايلي :

"وخابره مخبرة آكره وزارعه يبعث ما يخرج من الأرض كالنصف أو نحوه والخبير الزرع ومنقع الماء في الجبل ، والسدر . والخبير أن يزرع الزارع على النصف أو نحوه . والخبيرة أيضا النصيب تأخذه من لحم أو سمك ، وما تشتريه لأهلك كالخبز والطعام واللحم ، وماقدم من شيء أو طعام يحمله المسافر في سفرته " وفي السريانية نجد أن كلمة "خبير" تعني الرفيق والشريك .

لقد صار في الإمكان الآن أن نميز بين من دعوا بالـ "عبير" وبين من دعوا بالـ "خبير" . فالتسمية الأولى أطلقت على جميع الفئات والأفراد الذين اختاروا منطقة غربي الجبال ، فعبروا إلى أرض كنعان ، وبهذا فقد كانت التسمية تشمل الأغنياء من العرب الآراميين مالكي القطعان ، كما تشمل الفقراء والمعدمين الذين هم الغالبية الساحقة في كل الأحوال . أما "الخابيرو" فقد أجمعت كل المصادر على أنهم من

المعدمين ، الذين لا يملكون إلا جهدهم فيؤجرون للعمل في الأرض ، أو للرعي ، أو للخدمة ، أو في القتال ، مقابل قوتهم .

ثم إن هؤلاء المعدمين أنفسهم ، الذين لم تكن تتوفر لهم فرص بيع جهدهم كانوا يتحولون ، من أجل الحفاظ على وجودهم إلى منظمات عصابية ، تسطو على الممتلكات السهلة ، وتقوم بنهب المحاصيل والثروات للأفراد والجماعات في المدن أو الأرياف ، أو على محطات وخطوط القوافل ، وهي التي دعت بـ "الأخلامو" . إن الكلمة في العربية السريانية هي "حلمو" وتعني الرفيق ، وفي العربية العرباء التي هي الفصحى نجد أن الخلم هو الرفيق . وقد استمرت ظاهرة "الأخلامو" (الرفاق) ، التي سبق أن شرحنا معناها في اللغة ، في مراحل التاريخ العربي اللاحقة ولاسيما في موطنها الأصلي شبه جزيرة العرب دهرًا طويلا ، ولم تكن تنظيمات العرب الصعاليك فيما بعد إلا أحد أشكال تجليات هذه الظاهرة نفسها في المجتمع العربي .

من هو إبراهيم الخليل؟

بعد أن ميزنا بين التسميات الثلاث "عبرو" و "خبירו" و "أخلامو" وكان قد درج كل المؤرخين على الخلط فيما بينها وجعلها مترادفات تطلق على بعض القبائل العربية أو كلها ، كما اعتبرها بعضهم تسميات أجنبية ، صار من السهل ، أن نجزم بأن تسمية إبراهيم بالعابري ، أو العبري ، أو العبراني ، لم تكن تعني ، بأية حال ، أنه من "الخبירו" أو "الأخلامو" أيضا . فهو ، كما أكدت كل المصادر ، كان واحدا من أولئك الأمراء البدو الذين يملكون القطعان من المواشي ، ويؤجرون عدد من الخدم أو الرعيان .

أما تسمية "العابري" فقد التصقت به نتيجة لعبوره الجرود أو المخاضات (يردن) إلى أرض كنعان عند وادي الفرات (الثرات) شرق بلاد غامد .

وإن إبراهيم لم يدع بـ "العابري" نسبة إلى أحد الأجداد . فلم يبق أمامنا إلا أن نفترض أو نقر بأن هذه التسمية إنما لحقت به كأي فرد آخر ممن عبروا الجرود أو المخاضات إلى أرض كنعان . وأكثر من هذا ، إننا نرجح أن يكون هذا اللقب هو الذي طغى على اسمه

الحقيقي ومحا من الذاكرة ، ثم لم يعد يعرف إلا بلقبه في منطقة سكنه الجديدة . وإذا ما علمنا أن العرب هم أكثر الأقوام استخداما لعادة تغليب الألقاب على الأسماء لأسباب تختلف بين وسط اجتماعي وآخر ، زال بذلك استغرابنا للأمر . لقد رأينا كيف أن جميع الأفراد المتميزين على صعيد المعبد أو الإدارة ، أو الحكم ، كانوا يعرفون بألقابهم لا بأسمائهم ، وقد استمرت هذه الظاهرة حتى ما بعد الخلافتين الأموية والعباسية بزمان طويل . وفوق هذا فإن في إمكاننا أن نتصور كيف أنه في الأوساط الدنيا والفقيرة من المجتمع يكون الاسم عادة معرضا لأن يهزم ويختفي أمام أي لقب مفاجئ في مكان الإقامة أو التوطن الجديد . وقد يغلب اسم المهنة التي يزاولها الفرد ، أو أية صفة أخرى من الصفات المميزة ، على اسمه الحقيقي فيشتهر به ، ثم ينسحب من بعده على أولاده* .

ولو أننا أخذنا هذه التسمية "عابري" أو "عبري" التي كانت تكتب بأحرفها الثلاثية الصامتة فقط "عبر" لرأينا أن اسم "أبرام" قد يكون أحد اشتقاقاتها وتعني "العابر" علما أن "الميم" إحدى نهايات الأسماء المفردة بالعربية السريانية والأمورية ، مثل عمار ، مريم ، إليسم ، كلتم ، يحيم ، إلخ .. كما أن الهمزة والعين أكثر أحرف العربية تبادلا في المواقع . فإذا صح هذا هل تكون الصيغة الأخرى للاسم "إبراهيم" هي الجمع منها وتعني "العابرين" إذ أن النهاية "يم" هي علامة جمع المذكر في العربية الكنعانية ، فتدل بذلك على بيت أبرام ككل ؟

إننا نرجح ذلك ، خاصة وأنها إذا ما عدنا إلى أسفار التوراة فإننا نعتز على ما يؤكد صحة وجهة نظرنا هذه . لقد ظل "أبرام" يدعى في التوراة بهذا الاسم طيلة الفترة التي لم ينجب بها ولدا ، وتحديدًا حتى الآيات الأولى من الإصحاح السابع عشر من سفر التكوين . ثم ما إن يولد له إسماعيل حتى يتغير اسمه في التوراة مباشرة من "أبرام" إلى "إبراهيم" . لنقرأ إذن الإصحاح السابع عشر من سفر التكوين .

* كما انتشرت بعض الألقاب لتحل محل الأسماء الخاصة مثل :
الحداد ، النجار ، الطيان ، الشامي ، المصري ، البغدادي ، الشمالي ، الشريقي ، الأعرج ،
الأصفر .. إلخ

"ولما كان أبرام ابن تسع وتسعين سنة ظهر الرب لأبرام وقال له أنا الله القدير . سر أمامي وكن كاملا فاجعل عهدي بيني وبينك وأكثر كثيرا جدا فسقط أبرام على وجهه . وتكلم الله معه قائلا : أما أنا فهو ذا عهدي معك وتكون أبا لجمهور من الأمم . فلا يدعى اسمك بعد أبرام بل يكون اسمك إبراهيم . لأنني أجعلك أبا لجمهور من الأمم . وأثرك كثيرا جدا وأجعلك أمما وملوك منك يخرجون ، وأقيم عهدي بيني وبينك وبين نسلك من بعدك في أجيالهم عهدا أبديا . لأكون إلهك ولنسلك من بعدك ..

وقال الله لإبراهيم وأما أنت فتحفظ عهدي ... " (تك 17 : 1-9)

واعتبارا من هذه الآية وحتى نهاية أسفار التوراة يرد الاسم بصيغة "إبراهيم" فقط . وهكذا فإننا نصل إلى نتيجة حاسمة ، هي أن أبرام ليس اسما بل لقبا وتعني " العابر " أو " الذي عبر " ، وأن " إبراهيم " ليست إلا صيغة الجمع بالكنعانية لـ " أبرام " وهي تعني "العابرين" أو "بيت أبرام" (بيت العابر) ، وأن " أبرام " أو " إبراهيم " وكل أفراد أسرته ، وأفراد بيته من بعده ، هم عرب آراميون ، مثلهم مثل كل العرب الآخرين الذين يملأون الساحة العربية منذ آلاف السنين ، لم ينتموا إلى "شعب خاص" غير انتمائهم العربي ، ولم يكونوا شعبا خاصا ، ولم يخلقوا شعبا خاصا . وهجرته مع زوجته وابن أخيه لوط وحواشيهما إلى أرض كنعان غربي الجرد (يردن) لم تحدث " هجرة سامية " جديدة ، كما يحلو لكثير من كتبة التاريخ الفج أن يرددوا دون كلل . وإذا كان ثمة يهود دينيون يصرون على تنفيذ العهد بين الرب وإبراهيم بأن يجعله " أبا لجمهور من الأمم " وأن ملوكا منه يخرجون " ، فقد حدث الوعد وأنجز* : إن جميع العرب العدنانيين هم أبناء اسماعيل بن إبراهيم ومن بينهم الرسول العربي محمد بن عبد الله القرشي الهاشمي وقد ملكوا حتى صاروا سادة العالم كله لفترة طويلة إبان الدولتين العربيتين الأموية والعباسية ، وعثا تحاول الصهيونية اليوم أن تجعل من صيغة هذا الوعد الذي وضعه مدونو التوراة أساسا لإيديولوجيا استعمارية في القرن العشرين بعد

• إن هذا بالطبع مدعاة للسخرية وليس ردنا عليه إلا من قبيل السخرية أيضا .

ميلاد المسيح ! خاصة وأن اليهود أعراق شتى لا يجمع فيما بينهم غير اعتناقهم لليهودية كدين . إن الشعوذة لن تقوى على النهوض بهذا العبء الثقيل .

لقد طغى اللقب "أبرام" "إذن و"إبراهيم" على اسم الرجل ، حتى أزاله نهائيا ، فمن هو أبو إبراهيم ؟

وبالرجوع إلى ما أورده القرآن الكريم حول إبراهيم وأبيه عثرنا على الآية التي تقول : ﴿ وإذ قال إبراهيم لأبيه آزر اتخذ أصناما آلهة ﴾⁽¹⁾ . ولكن المفسرين اختلفوا في هذه الآية كما اختلف فيها القراء ، دون أن نرى فيها أي مبرر للاختلاف أو الجدل . إن الآية تنص صراحة على أن آزر هو اسم أبي إبراهيم مهما اختلفت فيها القراءات . وإننا نعتقد أن الباعث الحقيقي لمثل هذا الخلاف ليس ناجما إلا عن الجهل باللغة العربية القديمة وبلهجاتها الثلاث* أولا ، وبالموقع في أحوال تزوير الكهنة اليهود للتوراة ولتفاسيرها ثانيا .

(1) الأنعام ، 74 .

• يقول الأستاذ الشيخ أمين الخولي مساعد أستاذ بجامعة القاهرة حول هذا الخلاف : "إن إطلاق القول بأن آزر اسم أبي إبراهيم في هذه الآية غير صحيح ، لأن الآية قرنت قراءات مختلفة اختلفت بها معاني كلمة آزر باختلاف أعرابها . ففي بعض هذه القراءات يتعين ألا تكون آزر اسما لأبي إبراهيم وفي بعضها يحتمل ذلك وإليك طرفا من بيان هذه القراءات والأعراب : كتبت الكلمة في المصحف هكذا "آزر أتخذ أصناما ..." وقرنت "آزرا" بالنصب مع التنوين ، و"آزر" بالنصب بلا تنوين و"آزر" بالضم ، ففي القراءات الأولى تفسر الكلمة على أنها عربية بمعنى القوة ، والهمزة الأولى للاستفهام الإنكاري ، والمعنى : لأجل القوة تتخذ أصناما آلهة كقوله تعالى "أيبتغون عندهم العزة" (النساء 139) وإن ، فسرت "آزر" في هذه القراءة باسم علم لم يقل إنه أبو إبراهيم وعلى قراءة النصب بلا تنوين قد تعرب نعتا ، فلا تكون "آزر" علما بل صفة فليست كذلك اسم أبي إبراهيم وقد تعرب بدلا أو عطف بيان فتحمل أن تكون اسما له ، وعلى قراءة الضم للنداء تحتمل كذلك أنه اسمه ." (انظر : "عبد الوهاب النجار" ، "قصص الأنبياء" ص 94 - 95) . ونحن نرى أن هذه القراءات لاسم "آزر" العربي القديم ليس إلا نوعا من الاستمرار لطرق لفظه باللهجات العربية الأساسية الثلاث التي سبق أن تحدثنا عنها فاللهجة العرباء في شبه جزيرة العرب الداخلية والتي وصلتنا أخيرا وعممت كلغة فصحي بواسطة القرآن ، كانت تلفظ الاسم دونما زيادة حرف على آخره مثل جبر ، آزر ، وقد ورد الاسم في المصحف باللهجة العرباء "آزر" ولما كان هذا الاسم معروفا لدى كل العرب ، من العراق ، إلى سوريا ، إلى الشمال الأفريقي ، بكل لهجات لفظه وابدالاته : (آزر ، آزرا ، ازور ، عزرا ، عازر ، عزار .. الخ) فإن القراء ، على اختلاف مشاربهم ، لن يجدوا غضاضة في لفظه كما عرفوه دون أن يكون في ذلك أية اساءة للاسم أو للآية . وإن هذا بالذات يؤكد حقيقة معينة ، وهي أن القراء بتصرفهم هذا ، إنما كانوا يدركون أن "آزر" هو اسم ، وهذا ، بالتالي ، من شأنه

وهكذا يتضح لنا ، أخيراً ، أن إبراهيم لم ينتسب إلى جد غير أرام ، وأنه حينما لقب بـ " العابر " ثم دعي بيته بـ "العابرين" أو "العبرانيين" كان هذا اللقب مقتصراً عليه وعلى أفراد بيته أثناء حياته . وأن "العابرين" ممن عبروا الجردود أو المخاضات (يردن) كانوا كثيرين غيره ومن كل القبائل ، ولا علاقة لهم به ، كما لا علاقة له بهم ، إذ هو لم يتزعم أحداً غير أهل بيته ، وبالتحديد امرأته سارة وابن أخيه لوط . ثم إننا نرى كيف أن أبناء من بعده لم ينتسبوا إليه ، فأبناء إسماعيل دعوا بالاسماعيليين نسبة إلى إسماعيل ولم يدعوا بالعابرين أو العبرانيين نسبة إلى إبراهيم . ثم إن أولاد يعقوب (اسرائيل) دعوا بالأسرائيليين نسبة إليه ، ولم ينسبوا إلى إبراهيم . لقد ألصقت ، إذن ، تسمية " العبرانيين " بإبراهيم وأهل بيته أثناء حياته ، وماتت معه بعد موته ، وبالتالي فلم يبق من " العبرانيين " شيء غير الظاهرة التي استمرت مع استمرار العبور ، يقوم بها أناس وجماعات شتى من أبناء القبائل العربية وعشائرها دون أن يكون ثمة أي جامع فيما بينها غير صفة العبور ، إذ هي أشتات من قبائل عربية وليست فرعاً واحداً . ومن هنا تسقط مقولة "الشعب العبراني" أو "اللغة العبرانية" من منطق التاريخ ، إذا ما أريد لهذا التاريخ أن يكون علماً لا شعوذة .

جولة إبراهيم ، والطريق التي سلكها إلى << كنعان >>

لقد خضعت رحلة إبراهيم من أور الكلدانيين (الآراميين) في جنوب بابل إلى أرض كنعان في بلاد غامد وزهران من شبه جزيرة العرب ، كما خضع غيرها من الأحداث التاريخية ، إلى عملية تزوير كبرى ، بقيت ، رغم بشاعتها ورغم بروزها المفصوح المنافي لأي منطق في التاريخ أو في الجغرافيا ، تتناقلها الأجيال ، والمؤرخون ، والدارسون قرابة ألفي عام ، وتحديداً منذ أن فرغ الكهنة من تدوين أسفارهم التي أطلقوا عليها فيما بعد اسم "العهد القديم" .

أن يزيل كل اختلاف في تفسيره ، لا أن يخلق الخلاف . وهذا بالضبط هو ما يجعلنا نقول واثقين إن سبب ذلك الخلاف ليس إلا الجهل باللغة العربية القديمة وبلهجاتها .

وقبل أن نتحدث عن هذه الرحلة ، كما تناقلها المؤرخون حتى اليوم نرى أن من المفيد التوقف قليلا عند عمليات التزوير التي كانت تجري مرحلة بعد أخرى حتى رسخت مدونات التوراة المتداولة اليوم ، لأن ذلك سوف يلقي الضوء ، ليس على جغرافية جولان إبراهيم فحسب ، بل وعلى كل أحداث التاريخ القائم على أساس الجغرافيا التوراتية .

إن "التوراة" هذا الكتاب الذي دعي بـ "العهد القديم" والتصق بالإنجيل بعد أن دعي هذا بـ "العهد الجديد" وهو الجزء المسيحي من الكتاب المقدس لتشارك معه في مظلة قداسته ، ولتكون في حرز من الهجومات بعد أن افتضح أمرها ، وصار من الشائع والمعروف واقع الانتحال والتشويه والتزوير الذي تعج به صفحاتها ، يختلف اختلافا كليا عن كتب الأديان السماوية الأخرى .

ونحن هنا لسنا بصدد دراسة هذا الكتاب وتفنيده ، إلا أننا نرى أن من الضرورة هنا أن نشير إلى أن الإنجيل أو ما دعي بـ "العهد الجديد" وضع بشكله النهائي خلال فترة قصيرة جدا نسبيا تلت نشوء المسيحية ، وإن تاريخ القرآن الكريم معروف بدقة متناهية آية بآية زمن محمد (ص) نفسه مما لا يدع أي مجال للتأويل أو الاجتهاد أو الخطأ . أما "العهد القديم" الذي نعرفه باسم التوراة فإن أول تحرير معروف له إنما هو "الترجمة السبعينية" المعروفة باللغة اليونانية والتي تعود إلى القرن الثالث والثاني قبل الميلاد . وهذه التي دعت بـ "الترجمة" والتي وضعها اثنان وسبعون من الكهنة اليهود ، لم يعرف أكانت ترجمة حقا أم تأليفا ، لأن المترجمين لم يتركوا لنا أية إشارة إلى النص الأصل ، الذي لم يعثر له على أي وجود ولقد دعت بالسبعينية (أو السبعونية) لأنه ، كما قيل ، اشترك في إنجازها سبعون ، أو اثنان وسبعون كاهنا من اليهود ، (سنة عن كل عشرة من العشرات الاثني عشرة) ، واستغرق زهاء مائة عام تقريبا . وقد بقيت مسألة الأصل قائمة وملحة فترة طويلة من الزمن دون جدوى ، إلى أن نسيها أو تناساها كثير من الناس ، لكنها عند البحث الجدي ما تلبث أن تستثار من جديد .

ولقد تحدثنا آنفا عن مصير مؤلفات سائخونياتن وترجمتها على يد أوزيب الكاهن اليهودي الذي تظاهر مع الملك قسطنطين بالتنصر ، وعمل معه — تحت ستار المسيحية — على تدمير التراث العربي السوري الثقافي وإحراقه بحجة أنه تراث وثني .

أما النص المعمول به اليوم " فلم ينته تحريره سوى في القرن الثامن للميلاد" ⁽¹⁾ . ولذلك فقد بقيت مسألة المطالبة بالأصل ماثلة وملحة لدى جمهور الناس ولدى الباحثين . ولكن مثل هذه المطالبات والمباحكات الشفوية كانت سرعان ما تخمد مع الزمن دون أن تترك أي أثر ، مما شجع الكهنة على وضع المؤلفات التي تتطابق مع معطيات الترجمة السبعونية ، وكان على رأس أولئك الكاهن اليهودي فلايوس يوسيفوس الذي وضع عدة كتب في هذا المضمار كان أشهرها " الحرب اليهودية" وفيلون الاسكندراني ، وأوزيب ، وجميعهم في القرن الأول للميلاد وبعده .

إن يوسيفوس الذي تحدث في كتابه " حرب اليهود" عن الأحداث والمواقع التي عاشتها جماعة موسى في عهد موسى ومن بعده ، لم يأت على ذكر كتاب تاريخ سائخونياتن الذي أرخ تلك الأحداث وعاصرها في بدايتها زمن موسى ، وبالتالي في زمن عنفوانها . وبقيت مسألة التزوير في التاريخ والجغرافيا هممة ماثلة ، رغم كل ما بذله الكهنة اليهود ، كما بقيت مسألة عدم وجود الأصل الذي ترجمت عنه التوراة إلى اليونانية ، تلك الترجمة " السبعونية " المعروفة ، تهمة كبيرة أخرى كان جميع الناس من شتى الأوساط يوجهونها بإزدراء إلى " علماء اليهود دون أن يحير أولئك جوابا على مدى القرون ، خاصة وأن هذه التوراة تتحدث عما بعد موسى بألف عام من أحداث . وقد ترجمت التوراة إلى جميع اللغات الأخرى ومنها العربية السريانية أو الآرامية ، عن النص السبعوني اليوناني وفجأة وفي القرن العشرين بعد ميلاد المسيح ، أي في عصرنا اليوم ، يعلن عن " نصوص التوراة " المكتشفة بـ " العبرية " في كهوف قمران عند البحر الميت . فكانت بمثابة تغطية الفضيحة بفضيحة أكبر ، إذ ما لبث أن اكتشف العلماء أمر تلك المخطوطات ، وأهملت للفور ، رغم كل وسائل الدعاية والترويج والضجة المفتعلة التي رافقتها ، ولقد

(1) سهيل ديب ، " التوراة بن الوثنية والتوحيد " ص 23 .

انطلقت هذه " اللعبة " على كثير من الناس ، من يهود أو سواهم ، كما أسهم في عملية الاقتناع والإقناع المقصود بها كثير من الناس الآخرين .

يقول سهيل ديب في كتابه "التوراة بين الوثنية والتوحيد " :

" وقد أثبتت مكتشفات البحر الميت أن النصوص المعمول بها اليوم صحيحة "⁽¹⁾

" والمخطوطات المكتشفة هي بلغات متعددة منها العبرية القديمة وعبرية أحدث واليونانية والآرامية والنبطية "

" وأهمية هذه اللغائف تكمن في أنها أقدم مخطوطات عثر عليها للعهد القديم بالعبرية "⁽²⁾ والمؤلف لا ينسى أن يقدم لنا سردا تاريخيا موجزا فيقول :

" وكانت قد مرت القرون الطويلة دون أن يتمكن أحد من التحقق من الأصول التوراتية الحقيقية :

— فالنص السبعيني أتى باللغة اليونانية ، ولو قيل عنه إنه قد ترجم من العبرية إلا أن هذا الأصل العبري مفقود .

— وبعد ذلك بخمسة قرون — خمسمائة سنة بالتمام والكمال — ظهر نص عبري ، لكن كاتبه يوناني ، ولا أحد يعلم من أين أخذه .

— بعد ذلك بقرن آخر ظهر النص اللاتيني المسمى فولغاتا ، لكن هذا النص اعتمد على النص السبعيني " .

— أثناء ذلك باشر العلماء اليهود الماصوريون بتحرير العهد القديم باللغة العبرية ، لكن هذا التحرير لم ينته إلا في أواخر القرن الثامن من الميلاد والنسخة الوحيدة المتبقية من النص الماصوري الأصلي يعود تاريخها إلى العام 985م ، لكن هذا النص لم يكتشف إلا في أواخر القرن التاسع عشر⁽³⁾ .

(1) سهيل ديب ، "التوراة بين الوثنية والتوحيد" ص 23
" من المعروف أنه لم تكن ثمة لغة أو حتى لهجة ، تدعى بالعبرية ، واليهود كانوا يتكلمون اللهجات العربية التي يتوزعون فيما بينها . واللغة التي بدعونها بالعبرية القديمة ليست إلا اللهجة العربية الكنعانية أو الآرامية .

(2) المصدر السابق ، ص 87

(3) المصدر السابق ، ص 83 — 84 .

"..والذين قالوا إن فئة وادي قمران كانت من القرائن اعتمدوا على وثيقة معينة اكتشفت في المغارتين 4 و 6 . وقد وجد فيها ثلثي نسخ على درجات مختلفة من الحفظ ، وهي المعروفة تحت اسم "وثيقة دمشق..."

"وكانت مجموعة من العلماء التوراتيين اليهود وبعض العلماء اللاهوتيين المسيحيين قد أكدت ، بين الأعوام 1913 و 1936م ، أي قبل ربع قرن من اكتشاف نفس الوثيقة في كهوف قمران ، أن أصل الوثيقة هو قرائي من وضع أتباع عدنان بن داود . وعند اكتشاف نفس الوثيقة بين لفائف البحر الميت قال أحد هؤلاء العلماء ، وهو الأستاذ زائتلن Zeitin في فيلادلفيا إن كافة وثائق البحر الميت هي من أصل قرائي وتعود للقرن العاشر من الميلاد ، وقد وضعها القرائيون في مغاور قمران للتمويه ولكي يثبتوا أن حركتهم قديمة جدا وتعود للقرون الأولى من المسيحية وقبل ذلك"⁽¹⁾

لكن كاتبنا الأديب ، سهيل ديب، يبقى ، رغم هذا ، مصرا على أن يكمل استنتاجاته بطريقته الخاصة ، فيقول :

"وإثناء ذلك ، وحتى ظهور لفائف البحر الميت ، بقي الشك قائما لدى المتصلبين من العلماء من يهود وغيرهم ...

لكن لفائف وطوامير البحر الميت أزالته هذا الشك الأخير وتنفس العلماء الصعداء"⁽²⁾

والحقيقة لم تكن هذه هي النتيجة المنطقية لمثل هذا السرد الذي أورده الكاتب . فالعالم كله الآن يعرف أن " لفائف قمران " المزعومة أهملت فورا من قبل العلماء ، بل والعلماء اليهود أنفسهم ، بعدما تبين أمر حقيقتها المفتعلة ، والتي لم تتمكن من أن تخمد أو تخفف من شدة وقع السؤال — التهمة الذي ظل يجبه حاخامات اليهود طيلة عمر الديانة اليهودية : أين النص العربي الكنعاني أو الآرامي الأصل للتوراة إن كانت " السبعونية " ترجمت فعلا عن أصل ما ولم تؤلف وتوضع مباشرة باليونانية؟

و : Dipony – sommer, Op.Cit,PP,404-405

(1) المصدر نفسه ، ص 94

(2) المصدر نفسه ، ص 84 — 85 .

إن العالم والباحثة الفرنسي الشهير "بيروسي" في كتابه "مدينة ايزيس ، التاريخ الحقيقي للعرب " " يحاول فعلا إعادة كتابة التاريخ العربي بل الانساني عامة " على حد تعبير حسين عمر حمادة في كتابه " مخطوطات البحر الميت " إذ يقول : " وإنه من الحمق أن يعطي هؤلاء العلماء لأنفسهم الحق انطلاقا من وثائق لا وجود لها ، أو مشكوك فيها ، أولا معنى لها في المادة والحياة لعصور كانت مفقودة في ليل الزمان . وعوضا عن إعادة النظر في التفسير التوراتية تحت ضوء اللغة والثقافة العبريتين فإن مدرسة سكولاستيكية مصطنعة قد اهارت لصالح رؤية منعشة للعهدين القديم والجديد ، لأن " أصالة " النص السبعيني الاغريقي أربكت علماء اليهوديات ، والنص العبري للتوراة اليهودية لم يثبت إلا في وقت متأخر جدا بين القرنين التاسع والعاشر الميلاديين من قبل علماء مدرسة طبرية الماسوريين الذين استعملوا أربعة مصادر هي : النص الاغريقي السبعيني وترجمة القديس جيروم اللاتينية عنه ، والنص الآرامي ، وعناصر اللغة السريانية التي لا تزال تدرس حتى اليوم . وقد أثبت منذ عدة سنوات ضجة حول اكتشاف مخطوطات البحر الميت في خربة قمران . ولقد كنا في ذلك الوقت في غمار العمل الصهيوني في فلسطين والأمم المتحدة وفي مجالات الرأي ، وكانت لهم آنذاك فائدة في التفتيش عن إثبات توراتي للعملية العسكرية " الاستيطانية " . إن فرصة الاكتشاف ظهرت مشبوهة ، ولما استشير العلماء في قيمتها الوثائقية كانوا حذرين جدا ..

فما هي الأسباب التي جعلت العالم الغربي حجة في بحوثه الشرقية ، بينما يجد تحت تصرفه لغة عربية موثوقا بها كأداة تعبير أمينة عن عدة آلاف من السنين المتواصلة لإيضاح العصور القديمة بسهولة ؟

لقد كان زيفا وضلالا باسم السامية المزعومة فصل العرب عن المجموع الثقافي المصري ، الكنعاني ، البابلي الذي كان مكتملا . ومرد ذلك إلى الخرافة التي تريد إعطاء مكان خاص للغة العبرية في حين أنها ليست إلا فرعاً متأخراً من اللغة العربية ، والعبرية حتى الآن تنتسب إلى عالم صغير مغلق من العلماء ، وهي لا وجود لها بالمعنى الشعبي والتاريخي ...

"إن الحدود المرسومة عسكريا أو سياسيا حسب مقتضيات آراء الأساتذة أو علماء الآثار لا تتجاوز بالضرورة قلوب الناس . وإنما عندما نؤكد من خلال نظرة شمولية، أن الشرق يتعين من خلال ثقافة عربية في مساحة عربية فإننا لا نخترع شيئا، إنما لا نفعل شيئا جديدا سوى جمع وإحكام العناصر الجغرافية والثقافية الموطدة واحدها إلى الآخرة" (1)

والحقيقة إن جميع الأوساط العربية ، المثقفة والعادية ، منذ ظهور الطبعة اليونانية السبعونية ، كانت تدرك كل الأدراك حقيقة الكتاب المدعو بالتوراة . وكانت أوساط البدو في شبه جزيرة العرب تعلم أن الأسفار الحقيقية التي تحكي قصة جهاد موسى مع قومه من أجل إيصالهم إلى فكرة الله الواحد دونما جدوى قد تم إخفاؤها أو إبادةها ، وتم تأليف مجموعة الأسفار أو الكرايس باللغة اليونانية ، وزعم أنها كانت ترجمة عن الأصل ، ثم بدأت عملية نقلها إلى اللغات الأخرى ، مضيفة تغييرا في حقيقة يعرض الأسماء والمواقع إلى عمليات التزوير التي أخضعت لها "السبعونية" في تلك الأسماء والمواقع منذ البداية ، والتي أساءت كثيرا إلى أولئك الآباء العرب مثل إبراهيم وأولاده .

لقد كان ذلك كله يشكل ظاهرة معروفة جدا في تراث شبه الجزيرة العربية مما حد من انتشار الديانة اليهودية بين ربوعها ، وجعل البدوي العربي ينظر إلى معتنيها نظرة مفعمة بالشك وعدم الثقة ، في الوقت الذي عرف عن هذا البدوي أنه يمكن أن يتخلى عن أي شيء في الأرض من أجل فكرة حقيقية صادقة (2) . لقد وردت إشارات في القرآن الكريم إلى هذه الظاهرة في أكثر من موضع نذكر منها : ﴿ يا أهل الكتاب فداكم رسولنا بين لكم كثيرا مما كنتم تخفون من الكتاب ﴾ ، (المائدة 15) . ﴿ وما قدروا الله حق قدره ، إذ قالوا ما أنزل الله على بشر من شيء ، قل من أنزل الكتاب الذي جاء به موسى نورا وهدى للناس يجعلونه قراطيس تبدونها . وتخفون كثيرا ﴾ (الأنعام 91)

(1) انظر : بيبير روسي ، "مدينة ايزيس - التاريخ الحقيقي للعرب " منشورات وزارة التعليم العالي دمشق 1980 ، ص 21 - 31 .

وحسين عمر حمادة ، "مخطوطات البحر الميت " ص 131 ، 132 .

(2) انظر : لورانس "أعمدة الحكمة السبعة" وجان وولف "يقظة العالم العربي" ص 14 .

لقد وجدنا أنه لن يمكن الحديث بصورة مقنعة ومتكاملة عن كل الظواهر والأحداث التاريخية التي شغلت حيزا ضخما من تاريخ العرب القديم . بدءا برحلة إبراهيم الخليل ، والكشف عن حقيقة الأسماء والمواقع التي جرى تبديلها على امتداد ساحة الجغرافيا العربية ، دون المرور على مثل هذا العرض الموجز للمراحل التي تمت بها عملية " تصنيع " مدونات التوراة . هذه العملية التي استمرت (من القرن الثالث قبل الميلاد إلى القرنين الثامن والتاسع الميلاديين) .

وعودة بنا ، بعد هذا العرض الموجز إلى جولة إبراهيم

لقد مررنا على الظروف السياسية والاجتماعية التي سادت الدولة البابلية وسببت نزوح كثير من البدو وأنصاف المستقرين إلى برية العرب . ولم يكن إبراهيم إلا واحدا من أولئك الذين قرروا الرحيل بقطعانهم وممتلكاتهم ليتحولوا — كعادة أهل البادية جميعا — إلى منتجع آخر أكثر أمنا بسبب ما ساد منطقة جنوب بابل آنذاك من كوارث طبيعية (الزلزال) وسياسية واجتماعية ، التي تجلّت في الحروب والمنازعات الطويلة ، واحتياح قبائل الكاشيين (أبناء كوش بن حام) .

ولو أننا استعرضنا أسماء المواقع والمواضع الجغرافية التي اقترن ذكرها بجولة إبراهيم التي ذكرها مدونات التوراة ، ثم نقلتها عنها كل المصادر الأخرى ، (لأن مدونات التوراة كانت المصدر الوحيد الذي اهتم بسرد قصة حياة إبراهيم مفصلة ، وكل الروايات الأخرى ليست ، في حقيقتها ، إلا نقلا بصورة أو بأخرى ، عن رواية التوراة) ، لوجدنا أنها تنحصر في الأسماء الرئيسية التالية : أور الكلدانيين ، حران ، أرض كنعان ، مصر .

وإذا ما تتبعنا الرحلة مفصلة ، كما وردت في التوراة ، نجدها كما يلي :

1 — من أور الكلدانيين في منطقة بابل إلى حران :

"وأخذ تارح أبرام ابنه ولوطا بن هاران ابن ابنه وساراي كتنه امرأة أبرام ابنه ، فخرجوا معا من أور الكلدانيين ليذهبوا إلى أرض كنعان ، فأتوا إلى حاران وأقاموا هناك ... ومات تارح في حاران " (تكوين 11 : 31)

2 — من حاران إلى أرض كنعان :

"وقال الرب لأبرام اذهب من أرضك ومن عشيرتك ومن بيت أبيك إلى الأرض التي أريك . فأجعلك أمة عظيمة وأباركك وأبارك اسمك ، وتكون بركة وأبارك مباركيك ولاعنك ألعنه ، وتبارك فيك جميع قبائل الأرض . فذهب أبرام كما قال له الرب وذهب معه لوط وكان أبرام ابن خمس وسبعين سنة لما خرج من حاران . فأخذ أبرام ساراي امرأته ولوطا ابن أخيه وكل مقتنياهما والنفوس التي امتلكا في حاران ، وخرجوا ليذهبوا إلى أرض كنعان . فأتوا إلى أرض كنعان" (تك 12 : 1 — 5) .

3 — في أرض كنعان :

"واجتاز أبرام في الأرض إلى مكان شكيم إلى بلوطة مورة . وكان الكنعانيون حينئذ في الأرض . وظهر الرب لأبرام وقال لنسلك أعطي هذه الأرض . فبنى هناك مذبحا للرب الذي ظهر له . ثم نقل هناك إلى الجبل الشرقي بيت إيل ونصب خيمته ، وله بيت إيل من المغرب وعاي من المشرق . فبنى هناك مذبحا ودعا باسم الرب " (تك 12 : 6 — 9)

4 — من أرض كنعان إلى مصر :

"وحدث جوع في الأرض فانحدر أبرام إلى مصر ليتغرب هناك . لأن الجوع في الأرض كان شديدا . وحدث لما قرب أن يدخل مصر أنه قال لساراي امرأته إني قد علمت أنك امرأة حسنة المنظر فيكون إذا رآك المصريون أنهم يقولون هذه امرأته ، فيقتلونني ويستبقونك ، قولي إنك أختي ، ليكون لي خير بسببك وتحيا نفسي من أجلك " .

"فحدث لما دخل أبرام إلى مصر أن المصريين رأوا المرأة أنها حسنة جدا ورآها رؤساء فرعون ومدحوها لدى فرعون ، فأخذت المرأة إلى بيت فرعون فصنع إلى أبرام خيرا بسببها ، وصار له غنم وبقر وحمير وعبيد وإماء وأتن وجمال . فضرب السرب فرعون وبيته ضربات عظيمة بسبب ساراي امرأة أبرام . فدعا فرعون أبرام وقال ما هذا الذي صنعت بي . لماذا لم تخبرني أنها امرأتك . لماذا قلت هي أختي حتى أخذتها لي لتكون

زوجتي . والآن هو ذا امرأتك خذها واذهب . فأوصى عليه فرعون رجالا فشيّعوه
وامراته وكل ما كان له " (تك12 : 10 — 20) .

5 — من مصر إلى أرض كنعان :

"فصعد أبرام من مصر هو وامراته وكل ما كان له ولوط معه إلى الجنوب وكان أبرام
غنيا جدا في المواشي والفضة والذهب . وسار في رحلته إلى الجنوب إلى بيت إيل إلى
المكان الذي كانت خيمته فيه في البداية بين بيت إيل وعاي . إلى مكان المذبح الذي
عمله هناك أولا . ودعا هناك أبرام باسم الرب " (تك13 : 1 — 4)

6 — في أرض كنعان :

"ولوط السائر مع أبرام كان له أيضا غنم وبقر وخيام . ولم تحتملها الأرض أن يسكنها
معا ، إذ كانت أملاكهما كثيرة ، فلم يقدر أن يسكنها معا . فحدثت محاصرة بين رعاة
مواشي أبرام ورعاة مواشي لوط وكان الكنعانيون والفرزيون حينئذ سالكين في الأرض
فقال أبرام للوط لا تكن محاصرة بيني وبينك وبين رعائي ورعاتك ، لأننا نحن أخوان .
أليست كل الأرض أمامك اعتزل عني . إن ذهبت شمالا فأنا يمينا وإن يمينا فأنا شمالا .
"فرفع لوط عينيه ورأى كل دائرة الأردن أن جميعها سقي قبلما أخرج الرب سدوم
وعمورة كحنة الرب كأرض مصر حينما تجيء إلى صوغر فاختر لوط لنفسه كل دائرة
الأردن وارتحل لوط شرقا . فاعتزل الواحد عن الآخر . أبرام سكن في أرض كنعان ،
ولوط سكن في مدن الدائرة ونقل خيامه إلى سدوم ...

"وقال الرب لأبرام بعد اعتزال لوط عنه . ارفع عينيك وانظر من الموضع الذي أنت
فيه شمالا وجنوبا وشرقا وغربا لأن جميع الأرض التي أنت ترى أعطيها لك ولنسلك إلى
الأبد ... قم امش في الأرض طولها وعرضها لأنني لك أعطيتها فنقل أبرام خيامه ،
وأتى وأقام عند بلوطات ممرا التي في حبرون بنى هناك مذبحا للرب " (تك13 : 5 — 18)

هناك حدث عدوان من عصابات زعامات المضارب المحاورة على لوط فأخذوه مع نسائه وممتلكاته ، وتبعهم أبرام مع مجموعة من عبيده واسترجع منهم لوطا وجماعته .

"وحدث في أيام امرافل ملك شنعار وأريوك ملك الاسار وكدر لعومر ملك عيلام وتدعال ملك جويسم أن هؤلاء صنعوا حربا مع بارع ملك سدوم وبرشاع ملك عمورة وشنآب ملك أومة وشمثير ملك صبوئيم وملك بالع التي هي صوغر جميع هؤلاء اجتمعوا متعاهدين إلى عمق السلم الذي هو بحر الملك اثني عشرة سنة استعبدوا لكدر لعومر والسنة الثالثة عشرة عصوا عليه . وفي السنة الرابعة عشرة أتى كدر لعومر والملوك الذين معه وضربوا الرفائيين في عشتاروت قرنائم والزوزيين في هام و الايميين في شوى قريتام والخوريين في جبلهم سعيير إلى بطمة فاران التي عند البرية . ثم رجعوا إلى عين مشفاط التي هي قادش . وضربوا كل بلاد العمالقة وأيضا الساكنين في حصون تامار .

"فخرج ملك سدوم وملك عمورة وملك أدمه وملك صبوئين وملك بالع التي هي صوغر ونظموا حربا معهم في عمق السلم ... فهرب ملكا سدوم وعمورة وسقطا هناك . والباقيون هربوا إلى الجبل فأخذوا جميع أملاك سدوم وعمورة وجميع أطعمتهم ومضوا ، وأخذوا لوطا ابن أخي أبرام وأملاكه ومضوا . إذ كان ساكنا في سدوم .

"فأتى من نجح وأخبر أبرام العبراني وكان ساكنا عند بلوطات ممرا الأموري أخي أشكول وأخي عابر . وكانوا أصحاب عهد مع أبرام فلما سمع أبرام أن أخاه سبي جر غلمانسه المتمرنين ولدان بيته ثلاثمائة وثمانية عشر وتبعهم إلى دان وانقسم عليهم ليلا هو وعبيده فكسبرهم وتبعهم إلى حوبة التي عن شمالي دمشق . واسترجع كل الأملاك واسترجع لوطا أخاه أيضا وأملاكه والنساء أيضا والشعب " (تك 14 : 1 - 16) .

• تجدر الإشارة إلى أن كلمة "ملك" كانت تطلق على كل من يتزعم ثلاثة فأكثر بصورة من الصور بدءا من زعامة أسرة إلى زعامة عصابة من الرجال أو قطاع الطرق وحتى ملك البلاد حاكم الدولة البابلية . وهذا سوف يمر بصورته الواضحة المفصلة عند الحديث عن داود وصراعه مع ملوك العصابات ، ثم لن يدهش القارئ حينما يجد لاحقا أن "مملكة داود" لم تتجاوز هذا المفهوم الصغير الذي هو نطاق عصابة ، أو زمرة من "البطالة" أو قرية ، أو مجموعة كهوف ، أو مضارب خيام .

لاحظ كيف أن الأمكنة هي منازل لأشخاص أو مضارب لخيامهم كما يمكن ملاحظة استخدام مضرب دان زمن إبراهيم ، علما أن دان هو ابن يعقوب بن اسحق بن إبراهيم ولم يكن إسحق قد ولد بعد .

وبعدما حبلت هاجر وولدت إسماعيل "صغرت مولاتها في عينيها . فقالت ساراي لأبرام ظلمي عليك ، أنا دفعت جاريتي إلى حضنك ، فلما رأت أنها حبلت صغرت في عينيها . يقضي الرب بيني وبينك ، فقال أبرام لساراي هوذا جاريتك في يدك . افعلي بها ما يحسن في عينيك . فأذلتها ساراي فهربت من وجهها ، فوجدها ملاك الرب على عين الماء في البرية ، على العين التي في طريق شور" (تك 16: 4 — 8) . "وقال لها ملاك الرب ها أنت حبلتي فتلدن ابنا . وتدعين اسمه اسماعيل لأن الرب قد سمع لمذلتك ... وأمام جميع اخوته يسكن . فدعت اسم الرب الذي تكلم معها أنت إيل رئي .. لذلك دعيت البئر بئر لحي رئي . هاهي بين قادش وبارد" (تك 16: 11 — 13) .

"وظهر له الرب عند بلوطات ممرا وهو جالس في باب الخيمة وقت حر النهار" (تك 18: 1)

"وقالوا له أين سارة امرأتك ، فقال هاهي في الخيمة" (تك 18: 9) .
"ثم قام الرجال من هناك وتطلعوا نحو سدوم وكان إبراهيم ماشيا معهم ليشيعهم" (تك 18: 15) (وسيدوم مغارة والكلمة تعني المرمية ، المقذوفة ، المنسوخة ، المدمرة ، وهي بالسريانية "شدموم")

"فجاء الملاكان إلى سدوم مساء وكان لوط جالسا في باب سدوم" (تك 19: 1)
من السهل ملاحظة أن سدوم اسم لمغارة ، ولوط يجلس في بابها .

وقبل أن يقلب الملاكان سدوم بالبراكين طلبا من لوط أن يهرب إلى الجبل لئلا يهلك " ولما طلع الفجر كان الملاكان يعجلان لوطا قائلين قم خذ امرأتك وابنتيك الموجودتين لئلا تهلك باثم المدينة .." فقال لهما لوط لا يا سيد هوذا عبدك قد وجد نعمة في عينيك وعظمت لطفك الذي صنعت إلي باستبقاء نفسي . وأنا لا أقدر أن أهرب إلى الجبل ، لعل الشر يدركني فأموت . هوذا المدينة هذه قرية للهرب إليها وهي صغيرة

أهرب إلى هناك أليست هي صغيرة . فتحيا نفسي فقال له إني قد رفعت وجهك في الأمر أيضا أن لا أقلب المدينة التي تكلمت عنها . أسرع أهرب إلى هناك . لأنني لا أستطيع أن أفعل شيئا حتى تجئ إلى هناك

" وإذا أشرقت الشمس على الأرض دخل لوط إلى صوغر فأمطر الرب على سدوم وعمورة كبريتا ونارا من عند الرب من السماء . وقلب تلك المدن وكل الدائرة " (تك 19: 25 — 25) (وصوغر تعني بالكلدانية التي هي السريانية الصغيرة ، الحقيرة ، كما تعني العار والفضيحة وهي إحدى المغاور) .

"وبكر إبراهيم في الغد إلى المكان الذي وقف فيه أمام الرب . وتطلع نحو سدوم وعمورة ونحو كل أرض الدائرة ونظر وإذا دخان الأرض يصعد كدخان الأتون " (تك 19: 27) "وانتقل إبراهيم من هناك إلى أرض الجنوب وسكن بين قادش وشور وتغرب في جرار" (تك 20: 1) .

7— وهناك حدث مع ابيمالك ملك جرار فيما يتعلق بسارة ما حدث مع فرعون مصر ، وقال ابيمالك لإبراهيم : "ماذا فعلت بنا وبماذا أخطأت إليك حتى جلبت علي وعلى مملكتي خطية عظيمة . أعمالا لا تعمل عملت بي ... ماذا رأيت حتى عملت هذا الشيء فقال إبراهيم إن قلت ليس في هذا الموضع خوف الله البتة ، فيقتلونني لأجل امرأتي . وبالحقيقة أيضا هي اختي ابنة أبي ، غير أنها ليست ابن أُمي ، فصارت لي زوجة . وحدث لما أتاهني الله من بيت أبي أن قلت لها هذا معروفك الذي تصنعين إلي في كل مكان نأتي إليه قولي عني هو أخي . فأخذ ابيمالك غنما وبقرا وعبيدا وإماء وأعطاها لإبراهيم . ورد إليه سارة امرأته .

قال ابيمالك هوذا أرضي قدامك . اسكن في ما حسن في عينيك . وقال لسارة إني قد أعطيت أخاك ألفا من الفضة " (تك 20: 9 — 16)

وبعد أن طلبت سارة من إبراهيم طرد هاجر وابنها حتى لا يرث مع ابنها اسحق " بكر إبراهيم صباحا وأخذ خبزا وقربة ماء وأعطاها لهاجر واضعا إياهما على كتفها والولد وصرفهما فمضت وتاهت في بيرة بئر سبع . ولما فرغ الماء من القربة طرحت الولد

تحت إحدى الأشجار . ومضت وجلست مقابله بعيدا نحو رمية قوس أنها قالت لا أنظر إلى موت الولد . فجلست مقابله ورفعت صوتها وبكت . فسمع الله صوت الغلام . ونادى ملاك الله هاجر من السماء وقال لها مالك يا هاجر . لا تخافي لأن الله قد سمع لصوت الغلام حيث هو . قومي احملني الغلام وشدي يدك به لأني سأجعله أمة عظيمة . وفتح الله عينها فأبصرت بئر ماء فذهبت وملأت القربة ماء وسقت الغلام . وكان الله مع الغلام فكبر وسكن في البرية وكان ينمو رامي قوس . وسكن في برية فاران . وأخذت له أمه زوجة من أرض مصر" (تك21: 14 — 22) .

"وماتت سارة في قرية اربع التي هي حبرون في أرض كنعان ... وقام إبراهيم من أمام ميتة وكلم بني حث قائلا : أنا غريب ونزير عندكم . أعطوني ملك قبر معكم لأدفن ميتي من أمامي . فأجاب بنو حث إبراهيم قائلين له : اسمعنا يا سيدي ، أنت رئيس من الله بيننا ، في أفضل قبورنا ادفن ميتك لا يمنع أحد منا قبره عنك حتى لا تدفن ميتك . فقام إبراهيم وسجد لشعب الأرض لبني حث وكلمهم قائلا : إن كان في نفوسكم أن أدفن ميتي من أمامي فاسمعوني والتمسوا لي من عفرون بن صوحر أن يعطيني إياها في وسطكم ملك قبر . وكان عفرون جالسا بين بني حث . فأجاب عفرون الحثي إبراهيم في مسلمع بني حث لدى جميع الداخلين باب مدينته قائلا : لا يا سيدي ، اسمعني . الحق وهبتك إياه والمغارة التي فيه لك وهبتها لدى عيون بني شعبي وهبتك إياها ادفن ميتك" (تك23: 1 — 12) .

تلكم هي جميع أسماء الأماكن الجغرافية التي اقترنت بحياة إبراهيم من خلال مدونات التوراة من أور الكلدان إلى أرض كنعان .

ومن أجل سهولة التعرف عليها لابد لنا من أن نميز فيها بين الأسماء الصغيرة (الجزئية) جدا كالجبل ، والبئر ، والعين ، والبلوطة ، والبيت .. وبين الأسماء الأخرى مثل أور الكلدانيين ، حاران ، أرض كنعان ، مصر ، وفلسطين ...

وفوق هذا ، وقبل أن نبدأ بدراسة هذه الأسماء والتعرف على مواقعها الحقيقية لابد من تسجيل الملاحظات المساعدة التالية:

1 — إن كلمة "ملك" كانت تستخدم دونما حدود — وقد بينت النصوص التي أوردناها ذلك — بحيث تشمل بمفهومها رئيس زمرة قد تبدأ بثلاثة أشخاص ثم لا يكون لها حدود في الاتساع ، فتشمل رئيس الجماعة ، والعصابة ، والحارة ، والمزرعة ، والقرية ، والبلدة ، والمدينة ، والدولة ، وهي أحد أسماء السيد الرب ، أو رب الأرباب . لقد قصت علينا التوراة كيف أن " الملك " شاول كان يطارد داود من كهف إلى كهف ، ومن جبل إلى جبل ، ومن صير غنم إلى آخر ، حتى نزل في مغارة عدلام ، وهناك "اجتمع إليه كل رجل متضايق ، وكل من عليه دين ، وكل رجل مر النفس ، فكان عليهم ملكا " (صموئيل الأول ، 22 : 1) وبعد موت الملك شاول ، سأل داود الرب إن كان يصعد إلى إحدى المدن ، فقال له الرب أن يصعد إلى قرية أربع (التي هي حيرون وهي مغارة المكفيلة) ، " فصعد داود إلى هناك هو وامراتاه .. وأصعد داود رجاله الذين معه كل واحد وبيته وسكنوا في مدن حيرون وأتى رجال يهوذا ومسحوا هناك داود ملكا على بيت يهوذا " (صموئيل الثاني ، 2 : 2 — 4) .

هكذا نجد أيضا أن البيوت المتناثرة أو الخيام أو مغارة أربع (حيرون) تدعى مدنا . ولما ترك حيرون ، وذهب إلى ييوس لم يسمح له سكانها بدخولها هو أو من معه ، فابتعد عنها إلى حصن صهيون وسماه مدينة داود وأقام فيه مع جماعته . "ذهب الملك ورجاله إلى أورشليم إلى اليبوسيين سكان الأرض ، فكلموا داود قائلين لا تدخل إلى هنا ما لم تترع العميان والعرج . أي لا يدخل داود إلى هنا . وأخذ داود حصن صهيون . هي مدينة داود " (صموئيل الثاني 5 : 6 — 7) .

ثم ذهب ابشالوم بن داود إلى قرية أربع (حيرون) وأعلن نفسه ملكا هناك . (إنه ملك على القرية المغارة) . "وانطلق مع ابشالوم مائتا رجل من أورشليم ... فأتى مخبر إلى داود قائلا إن قلوب رجال إسرائيل صارت وراء ابشالوم فقال داود لجميع عبيده الذين معه في أورشليم قوموا بنا هرب لأنه ليس لنا نجاة من وجه ابشالوم فقال عبيد الملك للملك حسب كل ما يختاره سيدنا الملك نحن عبيده . فخرج الملك وكل الشعب في أثره وكانت جميع الأرض تبكي بصوت عظيم وجميع الشعب يعبرون . وعبر الملك وادي

قدرون ، وعبر جميع الشعب نحو طريق البرية .. وأما داود فصعد في مصعد جبل الزيتون
كان يصعد باكيا ورأسه مغطى ويمشي حافيا وجميع الشعب الذين معه غطوا كل واحد
رأسه . وكانوا يصعدون وهم ييكون " (صموئيل الثاني 15 : 11، 14 — 16، 30) .

"...ولما جاء الملك داود إلى مجوريم إذا برجل خارج من هناك من عشيرة بيت شاول
اسمه شمعي بن جيرا ، يسب وهو يخرج ويرشق بالحجارة داود وجميع عبيد
الملك داود وجميع الشعب وجميع الجبابرة عن يمينه وعن يساره . وهكذا كان شمعي يقول
في سبه أخرج يا رجل الدماء ورجل بليعال . وقد رد الرب عليك كل دماء بيت شاول
الذي ملكت عوضا عنه وقد دفع الرب المملكة ليد ابشالوم ابنك وها أنت واقع بشرك
لأنك رجل دماء (صموئيل الثاني 16 : 5 — 8) .

ذاكم كان مفهوم الملك والمدينة ، وتلكم هي الصورة التي ملك بها داود حسب مدونات
التوراة . وإن بإمكان أي إنسان الآن أن يتصور أن أي رب أسرة في أية قرية كان
بإمكان أن يجمع عددا من البطالين ، أو المشردين ، أو الهاربين من القانون ، أو قطاع
الطرق ، أو من أفراد أسرته نفسها ، ويفرض بهم نفوذه على قريته أو على من حوله
فيسطو ، ويسلب ، ويغنم ، أو يرأس ويتسلط كان يسمى ملكا بلغة ذلك الزمان في
ذلك الوسط البدوي .

فلنقرأ معا : " وذهب اييمالك بن يربعل إلى شكيم إلى أخوة أمه . وكلمهم وجميع
عشيرته بيت أبي أمه قائلا تكلموا الآن في آذان جميع أهل شكيم أيما هو خير لكم . أن
يتسلط عليكم سبعون رجلا جميع بني يربعل أم أن يتسلط عليكم رجل واحد .
واذكروا أني أنا عظمتكم ولحمتكم . فتكلم أخوة أمه عنه في آذان كل أهل شكيم
بجميع هذا الكلام . فمال قلبهم وراء اييمالك لأنهم قالوا أخونا هو وأعطوه سبعين شاقلا
فضة من بيت بلع بريث فاستأجر بها اييمالك رجالا بطالين طائشين فسعوا وراءه . ثم
جاء إلى بيت أبيه في عفرة ، وقتل اخوته بني يربعل سبعين رجلا على حجر واحد .
وبقي يرثام بن يربعل الأصغر لأنه اختبأ فاجتمع جميع أهل شكيم وكل سكان القلعة
وذهبوا وجعلوا اييمالك ملكا عند بلوطة النصب الذي في شكيم " (قضاة 9 : 1 — 6)

(إنه ملك على عشيرة صغيرة يقعد على "العرش" تحت بلوطة) وحينما سطا جدعون (أبو ايمالك) برجاله على إحدى قرى المديانيين ونهبوا أهلها " قال رجال اسرائيل لجدعون تسلط علينا أنت وابنك وابن ابنك قد خلصتنا من يد مديان . فقال لهم جدعون لا أتسلط أنا عليكم ولا يتسلط ابني عليكم . الرب يتسلط عليكم . ثم قال لهم جدعون : أطلب منكم طلبة ، أن تعطوني كل واحد أقرط غنيمته ، لأنه كان لهم أقرط ذهب لأهم إسماعيليون " (قضاة 8 : 22 — 25) . (لاحظ كيف أن مضارب خيام بني إسماعيل أي بني إسماعيل بن إبراهيم وخيام بني إسرائيل الذي هو يعقوب ابن أخي إسماعيل في منطقة واحدة بل في موضع واحد ، فكيف صار بنو إسرائيل الذي هو يعقوب بن اسحق بن إبراهيم في جنوب سوريا وبنو إسماعيل بن إبراهيم قرب مكة !)

2 — إن اسم "مدينة" قد يطلق على أي تجمع سكاني مستقر ، سواء أكان في مغاور ، أم في مضرب للخيام أو في بضعة بيوت ، أم في قرية ، أم في بلدة ، أو في مدينة وقد رأينا قرية أربع (حبرون) مثالا على ذلك .

ثم هاكم مثالا آخر أشد وضوحا : " ثم قالوا هوذا عيد الرب في شيلوه من سنة إلى سنة شمالي بيت إيل شرقي الطريق الصاعدة من بيت إيل إلى شكيم وجنوبي لبونة . وأوصوا بني بنيامين قائلين امضوا واكنموا في الكروم ، وانظروا ، فإذا خرجت بنات شيلوه ليدرن في الرقص فاخرجوا أنتم من الكروم واخطفوا لأنفسكم كل واحد امرأته من بنات شيلوه واذهبوا إلى أرض بنيامين فإذا جاء آباؤهن أو اخوتهن لكي يشكوا إلينا نقول لهم تراءفوا عليهم لأجلنا لأننا لم نأخذ كل واحد امرأته في الحرب لأنكم أنتم لم تعطوهم في الوقت حتى تكونوا قد أثمت . ففعل هكذا بنو بنيامين واتخذوا نساء حسب عددهم من الراقصات اللواتي اختطفوهن ، وذهبوا ورجعوا إلى ملكهم ، وبنوا المدن وسكنوا بها " (قضاة 21 : 19 — 24) .

إن "المدن" هنا لا تتجاوز في معناها البيوت إطلاقا أو المغاور وهذا لا يتنافى مع المعنى الأصلي لكلمة "المدينة" التي هي مكان الإقامة . إذ نجد في القاموس مدن بالمكان أي أقام فيه . أما "شيلوه" نفسها فتعني بالسريانية المغارة . و" شليو" المعتزل ، ساكن المغارة ،

وأورشليم هي حوراشليم تعني مغارة النساك المعتزلين

3 — لابد عند دراسة تحرك بيت إبراهيم ولوط من مكان لآخر من الأخذ بعين الاعتبار الأمور التالية :

إن التحرك يضم رجالا ونساء ، وشيوخا .

إن التحرك هو مع كل الممتلكات والمقتنيات من قطعان ومواش وأمتعة .

إن القطعان والمواشي فيها الكبير والصغير ، العشار والمرضعات والمواليد الصغار .

إن التحرك رعوي ، أي إن الماشية تتقدم وهي ترعى ، ثم تقيل وتستريح ، أو أنها تنفق في الطريق .

إن قطعان إبراهيم ليست من النوع الذي يقطع الفيافي ، والمسافات الطويلة إلا على مراحل جد صغيرة وبسيطة ، فالأنعام لا تصلح أبدا للانتقال عبر المسافات .

ثم إنه لابد أيضا من أن نضع في الاعتبار أموراً أخرى من خلال استعراضنا لمضامين الحركة في البنود السبعة الماضية ، وهي :

1 — في البند الأول من أور الكلدانيين إلى حاران تجدر ملاحظة أن حاران هي مركز آرامي بدوي ، وقد رأينا آنفاً أن الآراميين البداءة هم في شبه جزيرة العرب ، وأن السريان منهم هم حكام بابل المحطة . إن حاران ، إذن هي في شبه جزيرة العرب ، وليست في أي مكان آخر ، وفيها أهل إبراهيم ، وبيت أبيه وعشيرته . وإن إبراهيم ينزح من حاران نزوحاً نهائياً .

وهي على وادي الفرات (الثرات) شرقي غامد .

2 — في البنود الثالث والخامس والسادس تبرز أمامنا حقيقة التعامل مع الأشياء التفصيلية البسيطة كالخيمة والبلوطة والجبل ، وعين مشفاط ، وبطمة فاران والعين التي في طريق شور .. الخ ، وهذا مما ينسجم فعلاً مع طبيعة تحرك بيت إبراهيم .

3 — مما يلفت النظر أن الملك الذي تصل إليه أخبار امرأة عمجوز ، ويطلبها إلى بيته ، ويتحدث إلى بدوي كإبراهيم ويعتذر عن فعلته ليس ملك مصر وادي النيل الذي تمتلئ قصوره بالحسنات ، ويصعب الوصول إليه ويستحيل أن يأخذ زوجة له بمثل

تلك الطريقة التي وصفتها مدونات التوراة ، كما أنه لم يكن يجوز له أن يتزوج إلا من البيت المالك كما سبق أن مر معنا . وبالتالي فإن الملك المقصود هو أحد "ملوك" العشائر من النماذج التي تحدثنا عنها . إنهم من نماذج "ملوك المدن" الذين هاجموا لوط ، وأخذوه مع نسائه وممتلكاته ولحقهم إبراهيم بثلاثمائة من عبيده ، وهزمهم ، واسترجع لوطا ونسائه وممتلكاته .

4 — إن الجوع الذي تعنيه مدونات التوراة في هذه المواضع هو جوع المواشي وفقدان المراعي ، إذ إن البدو أصحاب المواشي هم الذين عانوا الضائقة وغادروا الأرض ، وليس السكان الزراعيون . إن بني حث الكنعانيين الذين كان ينزل إبراهيم بينهم ، بينما رعايته وعبيده يرعون مواشيه في البرية ، لم يتأثروا بذلك "الجوع" كما هو واضح ، ولم تذكر النصوص أن أحدا منهم غادر أرضه أو قريته .

5 — إن الأرض التي تتلف نفس إبراهيم للإقامة فيها ، ويجد ذلك تعبيرا له في وعد الرب إبراهيم بأن تكون له ولأولاده من بعده ، هي البقعة بين السفوح ، حيث ينصب خيمته وعلى مرمى بصره وحركته ، وقد قام ومشى بها ، ونقل خيمته فيها من مكانها الأول — حسب أمر الرب — إلى عند بلوطات ممرا في مغارة أربع (حبرون) وليس معقولا أن يرى إبراهيم من النبل إلى الفرات وهو واقف تحت بلوطته!

وهكذا فقد تكشفت عملية التزوير في تفسير جغرافية الأسماء والمواقع باللغة اليونانية وأثار غضب المثقفين والمؤرخين السوريين ، الذين انبروا لفضح أكاذيب مفسري ذلك النص ، وبقيت تدوي صرخة فيلون الجبيلي في تقديمه لترجمة تاريخ ساخنونياتن وتنتظر حينما قال :

"ساخنونياتن البيروتي يقص ، مع الحرص الكبير على الحقيقة ، جميع ما له علاقة باليهود ، لأنه لم يغير الأمكنة أو الأسماء " ولقد هتف يسوع المسيح في وجه كهنة اليهود و " أنبيائهم " قائلا : " الحق أقول لكم إني أنا باب الخراف . جميع الذين أتوا قبلي هم سراق ولصوص " .. (انجيل يوحنا 10 : 7 ، 8) ، وكان ارميا قد طفق به الكيل ، ولم يعد يطبق أن يحتمل كذب أولئك الكهنة الذي درجوا عليه ، فصاح يقول : " يا ليت لي

في البرية مبيت مسافرين فأترك شعبي وأنطلق من عندهم لأنهم جميعا زناة ، جماعة خائنين يمدون ألسنتهم كقسيسهم للكذب . لا للحق قوا في الأرض ، لأنهم خرجوا من شر إلى شر وإياي لم يعرفوا يقول الرب . احترزوا كل واحد من صاحبه وعلى كل أخ لا تتكلوا ، لأن كل أخ يعقب عقبا وكل صاحب يسعى في الوشاية ، ويختل الإنسان صاحبه ولا يتكلمون بالحق علموا ألسنتهم التكلم بالكذب وتعبوا في الافتراء . مسكنك في وسط المكر.." (ارميا 9 : 2- 6) ، " كيف تقولون نحن حكماء وشريعة الرب معنا ، حقا إنه إلى الكذب حولها قلم الكتبة الكاذب" (ارميا 8 : 8) ، " وإذا سألك هذا الشعب أو نبي أو كاهن قائلا ما وحي الرب فقل لهم أي وحي . إني أرفضكم هو قول الرب .. أما وحي الرب فلا تذكره بعد لأن كلمة كل إنسان تكون وحيه ، إذ قد حرفتم كلام الإله الحي" (ارميا 23 : 33 ، 36) وأخيرا جاء القرآن الكريم ليؤكد حقيقة التزيير لهذا المؤلف "التوراة" حيث جاء في سورة الأنعام ﴿ قل من أنزل الكتاب الذي جاء به موسى نورا وهدى للناس يجعلونه قراطيس تبدونها وتخفون كثيرا ﴾ (أنعام : 91)

مع ذلك كله فقد بقي المؤرخون الذين أفرزهم عصر الاستعمار والصهيونية يكتبون تاريخنا ، ويسمون جغرافيتنا ، بناء على الأساس المزور وعلى التفسير الصهيوني المزور لأحداث التوراة وجغرافيتها .

إن نظرة واحدة إلى الأسماء الجغرافية التي تضمنتها رحلة إبراهيم من أور الكلدان إلى أرض كنعان ، والأسماء التي ورد ذكرها من خلال إقامته هناك ، تجعلنا نميزها إلى فئتين : الفئة الأولى : هي الأسماء القابلة لأن تعرف مثل أور ، حاران ، أرض كنعان ، مصر ، قادش ، والفئة الثانية : هي أسماء التضاريس المحلية التفصيلية ، والمواقع الجزئية المحيطة بإقامة الفرد أو الأسرة مثل البئر ، عين الماء ، الجبل ، الوادي ، موقع الخيمة ، بلوطة ممرا ، بطمة فاران ... الخ ، التي تسحيل معرفتها .

وبناء على التبديل في أسماء الأماكن والمواقع ، الذي حدث منذ التوراة السبعونية اليونانية ، فقد درج المؤرخون على اعتبار حاران في أعلى الفرات في شمالي سوريا ، وبلاد كنعان هي سوريا المتوسطة كلها ، وأن مصر المقصودة هي مصر وادي النيل ، وأن فلسطين

هي الجزء الجنوبي من سوريا المتوسطة ، وبناء عليه فإن الأرض التي وقف إبراهيم يتملاها بعينه . ويتمشى فيها ، ونقل بها خيمته من تحت شجرة إلى أخرى ووعدته الرب بأن يجعلها ملكا له ولنسله من بعده هي الأرض الممتدة من الفرات إلى النيل ! يقول الدكتور أحمد سوسة في كتابه "مفصل العرب واليهود في التاريخ" حول الطريق التي سلكها إبراهيم في هجرته إلى كنعان :

"يتفق الخبراء على أن إبراهيم سلك طريق الفرات الأيمن في رحلته من أور إلى حران . وهي نفس الطريق التي كانت تسلكها القوافل وكانت مع إبراهيم الخليل جماعته وممتلكاته من قطعان الأغنام والمعزى والحمير والجمال ، فيكون قد قطع في هذه الرحلة 560 ميلا (900 كيلومتر) بين أور وحران . فمر أولا بمدينة "ماري" السامية وهي عاصمة العموريين الذين ظهرت منهم السلالة البابلية الأولى والملك حمورابي الشهير ، وقد كانت هذه المدينة آنذاك تتمتع بأوج ازدهارها ثم ذهب منها إلى حران ، وبعد ذلك غادر حران متوجها إلى دمشق بطريق تدمر ، ومنها إلى فلسطين قاطعنا مسافة حوالي 600 ميل (960 كيلومتر) أخرى بين حران وكنعان . أما الطريق الذي سلكه في سفرته إلى مصر فهو اختراق صحراء شبه جزيرة سيناء ، حيث القبائل المديانية والقينية" .

"وقد ذهب الأستاذ لورد إلى أن الطريق التي سلكها إبراهيم الخليل كانت بمحاذاة الجانب الأيسر من نهر الفرات ، وهذه الفرضية غير مقبولة لكثرة العوارض في هذا الجانب فضلا عن أن جميع المدونات القديمة تشير إلى أن الطريق العام ، طريق القوافل ، كان يسير بمحاذاة الجانب الأيمن من الفرات مارا بمدينة هيت وعانة ، ثم ببلدة ماري عاصمة العموريين الشهيرة ، وبعد أن يمر بمدينة البوكمال والميادين ودير الزور يعبر الفرات عند الرقة ، ثم يصعد شمالا مع نهر البليخ حتى يصل إلى حران"⁽¹⁾

إن هذا النص يعتبر نموذجا لما يرد في كتب التاريخ جميعها دونما استثناء . وإن مناقشتنا للجغرافيا التي يطرحها هي مناقشة لكل المؤرخين الذين اعتمدوا الجغرافيا التوراتية المزورة

(1) انظر : الدكتور أحمد سوسة ، "مفصل العرب واليهود في التاريخ" ص 514 - 515 .
و: Rev,F.T.Lord ,The Story Of The Bible Vol . I ,P.32

حتى اليوم . وما تزال الكتب المنقولة والمترجمة والموضوعة تتدفق على الأسواق العربية ،
لا لتفعل شيئا غير أنها تزيد من ترسيخ هذه المفاهيم المنافية لكل منطق في التاريخ وفي
الجغرافيا على حد سواء . ولنبدأ بمناقشة هذه الأماكن .

حاران

حينما درسنا العرب الأموريين رأينا كيف أن هؤلاء كانوا في الدرجة الأولى ، يشغلون
سوريا الغربية ، أي التي تسمى اليوم سوريا ولبنان وفلسطين وشرقي الأردن ، وأن
"السهل السوري العظيم" الممتد من حوض الفرات الأعلى إلى منطقة حلب وإنطاكية ،
اعتبره كثير من المؤرخين المهة الأول للحضارة الزراعية ، وأن ماري هي عاصمة الدولة
الأمورية المزدهرة منذ الألف الثالث قبل الميلاد ، وبالتالي ، فإن المنطقة هي منطقة استقرار
زراعي مديني متقدم في مضامير التطور ، وأن البيئة بعيدة عن أن تكون بيئة لتجمعات
القبائل البدوية الرعوية ، الجواله في السهوب والبراري الداخلية المتاخمة لمناطق الاستقرار
الزراعي في الهلال الخصيب .

وحينما تحدثنا عن الآراميين رأينا كيف أن انتشارهم كان في شبه جزيرة العرب الداخلية
من الحجاز إلى اليمن وصعودا إلى برية غرب الفرات في جنوب بابل .
ولقد تأكد لنا أيضا ، ومن خلال كل المصادر ، أن حاران (أو حران) كانت أحد
مراكز العرب الآراميين في البادية، وهي مركز مضارب حاران أحد أحفاد أرام بن سام،
وأن سكانها جميعا كانوا من الرعاة وأصحاب المواشي الذين يمارسون التجارة في البادية
أيضا . وتأكد لنا ، ومن خلال جميع المصادر أيضا ، أن من دعوا بـ "الخبيرو" كانوا
يقترنون دائما بالعرب الآراميين سكان البادية في شبه جزيرة العرب .

ولقد أجمع المؤرخون على أن إبراهيم كان أحد رؤساء البدو الأغنياء ، الذين يملكون
القطعان الكبيرة من الماشية ، كما يستخدمون عددا كبيرا من الرعاة والخدم . وأن مثل
هذه القطعان الكبيرة لا مكان لها في وسط زراعي متطور مثل حوض الفرات الأعلى
الذي بقي يعتبر إحدى الجنات على الأرض حتى زمن متأخر من الخلافة العباسية .

ثم إن حاران كانت مقر بيت أبي إبراهيم وأهله الذين عادوا إليه جميعا حينما ضاقت بهم الأحوال في بركة أور غربي الفرات وجميعهم من العرب الآراميين ، وقد أخذ منهم زوجته سارة ، وهكذا فعل أبنائهم من بعده ، كانوا جميعا من أصحاب الماشية الذين يمتنون الرعي .

أما من حيث المنطق الجغرافي ، فقد ذكر الدكتور سوسة أن المسافة التي قطعها إبراهيم من حاران إلى تدمر ، فدمشق ، وفلسطين (وقد توخى أقرب طريق) " كانت 960 كيلومترا " ، إن مثل هذه المسافة تستغرق ممن يريد أن يقطعها سيرا على قدميه قرابة الشهرين ، لأن من يقطعها مشيا لا يمكن أن تتجاوز سرعته العشرين كيلومترا يوميا ، ولاسيما وأن عليه أن يقطع بوادي رملية وسهوبا محجرة وعرة ، وأن جل وقته سوف يكون ما بين التيقظ والمراقبة والاستراحة . ومع هذا فإننا نجد أن يعقوب يقطعها في نصف يوم سيرا على قدميه ، لنقرأ معا :

"فدعا اسحق يعقوب وباركه وأوصاه وقال له لا تأخذ زوجة من بنات كنعان . قم اذهب إلى فدان أرام إلى بيت بتوئيل أبي أمك وخذ لنفسك زوجة من هناك من بنات لابان أخي أمك ...

"فخرج يعقوب من بئر سبع وذهب نحو حاران . وصادف مكانا وبات هناك لأن الشمس كانت قد غابت . وأخذ من حجارة المكان ووضعها تحت رأسه فلهبطع في ذلك المكان ونام .. وبكر يعقوب في الصباح وأخذ الحجر الذي وضعه تحت رأسه وأقامه عمودا وصب زيتا على رأسه . ودعا اسم ذلك المكان بيت إيل ، ولكن اسم المدينة أولا كان لوزة .. ثم رفع يعقوب رجله وذهب إلى أرض بني المشرق . ونظر وإذا في الحقل بئر وهناك ثلاثة قطعان غنم رابضة عندها لأنهم كانوا من تلك البئر يسقون القطعان والحجر على فم البئر كان كبيرا . فكان يجتمع إلى هناك جميع القطعان فيدحرجون الحجر على فم البئر ويسقون الغنم . ثم يردون الحجر على فم البئر إلى مكانه . فقال لهم يعقوب يا أخوتي من أين أنتم . فقالوا نحن من حاران . فقال لهم هل تعرفون لابان بن ناحور . فقالوا نعرفه . فقال لهم هل له سلامة . فقالوا به سلامة ،

وهوذا راحيل ابنته آتية مع الغنم . فقال هوذا النهار بعد طويل . ليس وقت اجتماع المواشي . اسقوا الغنم واذهبوا ارعوا . فقالوا لا نقدر حتى يجتمع جميع القطعان ويدحرجوا الحجر عن فم البئر ، ثم نسقي الغنم .

"وإذا هو بعد يتكلم معهم أتت راحيل مع غنم أبيها لأنها كانت ترعى فكان لما أبصر يعقوب راحيل بنت لابان خاله وغنم لابان خاله أن يعقوب تقدم ودحرج الحجر عن فم البئر وسقى غنم لابان خاله . وقبل يعقوب راحيل ورفع صوته وبكى . وأخبر يعقوب راحيل أنه أخو أبيها وأنه ابن رفقة فركضت وأخبرت أباها ، فكان حين سمع لابان خبر يعقوب ابن أخته أنه ركض للقاءه وعانقه وقبله وأتى به إلى بيته " (تكوين 38

1: 10، 3 — 02 ، 16 — 20 ، 1 — 14)

لقد قطع ، إذن ، يعقوب المسافة من بئر السبع إلى حاران سيرا على قدميه ، في بضع ساعات ، ولنفترض أن ذلك استغرق معه يوما كاملا ، بل يومين ، فإن هذا يعني أن المسافة التي قطعها لا تجاوز 40 — 50 كيلومترا بأية حال .

إن هذا الرأي الذي نجزم به تؤكدُه أحداث أخرى من مدونات التوراة ذاتها ، فيعقوب الذي قام في بيت خاله يرعى له قطعانه قرابة خمسة عشرة عاما لقاء أن زوجه ابنته ليفة ثم راحيل ، ثم لما رأى أن نفس خاله لابان تغيرت نحوه بعدما أخذ أجرته من الغنم ، قرر أن يهرب بزوجتيه وجارتييهما وأولادهن جميعا وبغنمه ومقتنياته إلى أرض كنعان : " فأرسل يعقوب ودعا راحيل وليفة إلى الحقل إلى غنمه . وقال لهما أنا أرى وجه أيبكما أنه ليس نحوي كأمس وأول من أمس .. وأنتما تعلمان أبي بكل قوتي خدمت أباكما . وأما أبوكما فغدر بي وغير أجرني عشر مرات ..

" فأجابت راحيل وليفة وقالتا له أننا أيضا نصيب وميراث في بيت أبينا . ألم نحسب منه أجنيبتين ، لأنه باعنا وقد أكل أيضا ثمننا . إن كل الغنى الذي سلبه الله من أبينا هو لنا ولأولادنا . فالآن كل ما قاله لك الله افعل .

" فقام يعقوب وحمل أولاده ونسائه على الجمال وساق كل مواشيه وجميع مقتناه الذي كان قد اقتنى . مواشي اقتنائه التي اقتنى من فدان أرام ليحجى إلى اسحق أبيه إلى أرض

كنعان . وأما لابان فكان قد مضى ليجز غنمه فسرفت راحيل أصنام أبيها . وخدع يعقوب قلب لابان الآرامي إذ لم يخبره بأنه هارب . فهرب هو وكل ما كان له وقام وعبر النهر وجعل وجهه نحو جبل جلعاد . فأخبر لابان في اليوم الثالث بأن يعقوب قد هرب . فأخذ اخوته معه وسعى وراءه مسيرة سبعة أيام . فأدركه في جبل جلعاد " (تك 31 : 4 — 26)

وهكذا ، فقد كانت عودة يعقوب هذه المرة من حاران إلى أرض كنعان مختلفة ، إذ معه النساء والأطفال ومقتنياته من الأغنام التي لا يمكن أن يسوقها سوقا ، بل يوجهها وهي ترعى في اتجاه واحد هو أرض كنعان ، ووجهه على جبل جلعاد . وقد استغرقت منه المسافة عشرة أيام فقط من الرعي وليس من السير . ومن المعلوم أن الأغنام لا يمكن أن تقطع أكثر من خمسة كيلومترات في اليوم وهي ترعى ، فتكون المسافة التقديرية هي نفسها خمسين كيلومترا لا أكثر . ويؤكد كلامنا هذا أن عيسو حينما علم بمقدم أخيه يعقوب بعد هذا الغياب الطويل خرج للقاءه . وبعد أن سأله عن نسائه وأولاده وأغنامه وأبقاره قال له : "لنرحل ونذهب وأذهب أنا قدامك . فقال له سيدي عالم أن الأولاد رخصة والغنم والبقر التي عندي مرضعة . فإن استكدوها يوما واحدا ماتت كل الغنم . ليجتز سيدي قدام عبده ، وأنا أستاذ على مهلي في أثر الأملاك التي قدامي وفي أثر الأولاد حتى أجيء إلى سيدي .. ثم أتى يعقوب سالما إلى مدينة شكيم التي في أرض كنعان حين جاء من فدان أرام . ونزل أمام المدينة وابتاع قطعة الحقل التي نصب فيها خيمته من يد بني حموir أبي شكيم بمئة قسيطة (تك 23 : 12 — 20)

فمن هو ذاك الرجل الذي يرعى غنمه وبقرة المرضعة في أعالي الفرات ووجهه على جبل جلعاد في فلسطين ! ثم يقطع بها وبأولاده " الرخصة " مسافة ألف كيلومتر في عشرة أيام ! إنه الموقف نفسه من الجغرافيا يتكرر : إبراهيم ينظر من خيمته تحت البلوطة إلى الأرض التي أمامه فيرى من نهر الفرات إلى نهر النيل . وهاهو يعقوب يقف في حاران في أعلى الفرات ووجهه على جبل جلعاد في فلسطين ! وكان من ذي قبل قد رفع رجله وذهب إلى أرض بني المشرق " وليس إلى أرض الشمال حينما قصد حران .

وقبل أن نحدد موقع كل من حران وأرض كنعان في شبه الجزيرة العربية لابد أن نتحدث عن العلاقة الجغرافية بين مصر وكنعان ، أولا ، من خلال مدونات التوراة نفسها ، حتى تتضح العلاقة الجغرافية الشاملة لكل المواقع التفصيلية الأخرى .
فلنبدأ بـ "مصر" التوراتية.

مصر

لقد رأينا ، من خلال دراستنا لتاريخ ساخونياتن ، أن هنالك أرض ميسور وصديق في غرب شبه جزيرة العرب ، اللذين خرجا من القرى والمراعي التي خططها أمسون وماجون ، وأن "ميسور" هذا "ولد تأوت" الذي اكتشفت الكتابة وصاغ ، أولا ، الحروف . ويدعوه المصريون ثور Thor ، والاسكندريون تووت والاغريق هرمس (النبذة VIII) وهم من العرب الجبابرة الذين جاء منهم أبناء قانئ Chna ، أخي أوزيريس ، "والذي كان أول من غير اسمه إلى فينيق" (النبذة XVI) .

ورأينا أيضا أن أولاد حام هم كوش ، ومصرام ، وفوط ، وكنعان . وقد انتشروا بصورة رئيسية على السواحل الجنوبية (من سواحل عمان إلى سواحل الحبشة والبحر الأحمر) ، وأن القبط الذين سكنوا وادي النيل هم من أولاد مصرام ، وقد سكنت بعض هذه الفروع الحامية متلاصقة في منطقة غامد وزهران الخصيبة ، إلى جانب الكنعانيين الآخرين وازدهرت زراعا ، وصار محط أطماع وأنظار الفروع القبلية البدوية الأخرى في برية العرب ، والتي لا يكاد يفصلها عنها غير سلسلة الجبال والجروود أو المخاضات (يردن) الممتدة من الشمال إلى الجنوب بمحاذاة البحر الأحمر .

أما بنو مصرام الذين استقروا في جنوب بلاد غامد وزهران من شبه جزيرة العرب فهم الذين جاؤوا أبناء عموماتهم من كوش وكنعان في بقعة واحدة ثم انتشروا إلى السواحل الجنوبية باتجاه الحبشة . وهم الذين تقصدهم مدونات التوراة إذ تقول : " ومصرام ولد لودم وعتاميم ولهاييم وفتوحيم وفتروسيم وكسلوحيم الذين خرج منهم فلشثيم وكفتوريم " (تك 10 : 13 ، 14) .

ونحن إذا ما نظرنا إلى الخارطة المفصلة اليوم لشبه الجزيرة العربية نرى أن مصر (المصريين) هذه ما تزال تحملها مصرين ومصريون في سرة غامد ، وآل مصري إلى الشمال منها في منطقة الطائف والمصرمة قرب خميس مشيط .

أما من حيث العلاقة الجغرافية من خلال مدونات التوراة فإننا نسجل النقاط التالية :
أولا : حينما عاد إبراهيم من مصر إلى أرض كنعان لم يتجه شمالا ، كما هو المفروض فيمن يتجه من مصر وادي النيل إلى فلسطين ، وإنما اتجه جنوبا إلى بلاد كنعان : " فأوصى عليه فرعون رجلا فشيعة وامراته وكل ما كان له فصعد أبرام من مصر هو وامراته وكل ما كان له ولوط معه إلى الجنوب " (تك: 12: 20 ، 13: 1) وإذا ما عرفنا أن أرض الجنوب ترجمة لكلمة " ميدي " كما مر في نص سائخونياتن أو لكلمة نجحي التي ما تزال إلى اليوم على الخارطة جنوب جرار (قرار) اتضح لنا كل شيء .

ثانيا : حينما يموت يعقوب في مصر ، يقرر يوسف واخوته وكل بيت أبيه تنفيذ وصيته ودفنه في أرض كنعان . إن في إمكان أي منا أن يتصور إن كان يمكن أن يدور في خلد أحد أن يعبر صحراء سيناء حاملا ميتة من مصر إلى فلسطين من أجل أن يدفنه . وإذا علمنا أن من يقطع مثل هذه المسافة التي لا تقل عن ألفي كيلومتر ذهابا وإيابا هي كمن يقرر أن يذهب إلى الاتحاد السوفييتي اليوم سيرا على قدميه أدركنا أن فلسطين ومصر وادي النيل لا شأن لهما بإبراهيم أو يعقوب أو يوسف . وليس هذا فحسب ، فإن نصوص التوراة تبين لنا كيف أن أولئك الذين خرجوا مع الجنازة تركوا أولادهم وغنمهم وبقرهم ترعى في البرية إلى أن يفرغوا من دفن يعقوب ويعودوا ، مما لا يترك لنا أي مجال للشك بأن مصر المقصودة ليست إلا قرية مصر ، أو كما تسميها التوراة "عشيرة مصر" ، وأن أرض كنعان هي قطعة الأرض التي تناخها وتسكنها جماعة أو أسر كنعانية ، وقد يفصل بينهما واد أو سفح جبل ، وحيث توجد قرى الكنعانيين ، كما يجب ألا يغيب عن الذهن أن كلمة فرعون هي تسمية كنعانية محلية قديمة لكلمة

"فرعه" وكانت تعني ملك قرية في غرب شبه الجزيرة كواحد من أعوان الملك ولم تطلق على أي حاكم أو ملك في مصر وادي النيل . وهؤلاء "الفراعين" كان يتم تعيينهم من قبل الجهة التي تسيطر على مناطق خطوط التجارة في تلك المنطقة وتجعلهم وكلاء لها وحراساً عليها وكنا قد أوضحنا ماذا كان يقصد بكلمة "ملك". ولما كان بنو اسرائيل قد عاشوا بين ظهرائي الكنعانيين فقد اقتبسوا هذه الكلمة واستخدموها في مدوناتهم ، ومنها انتقلت إلى كتب التاريخ بعد الانتشار الكبير لترجمات التوراة إلى عشرات اللغات عن السبعونية اليونانية .

تقول التوراة : " فصعد يوسف ليدفن أباه ، وصعد معه جميع عبيد فرعون شيوخ بيته وجميع شيوخ أرض مصر ، وكل بيت يوسف واخوته وبيت أبيه غير أنهم تركوا أولادهم وغنمهم وبقرةهم في أرض جاسان .. فأتوا إلى بيدر أطاد الذي في عبر الأردن وناحوا هناك نوحاً عظيماً وشديداً جداً ، وصنع لأبيه مناحة سبعة أيام . فلما رأى أهل البلاد الكنعانيون المناحة في بيدر أطاد قالوا هذه مناحة ثقيلة للمصريين ، لذلك دعي اسمه إبل مصر لم الذي في عبر الأردن . وفعل له بنوه هكذا كما أوصاهم حملة بنوه إلى أرض كنعان ودفنوه في مغارة حقل المكفيلة التي اشتراها إبراهيم مع الحقل ملك قبر من عفرون الحثي أمام سمرا . ثم رجع يوسف إلى مصر هو واخوته وجميع الذين صعدوا معه لدفن أبيه بعدما دفن أباه " (تك 50 : 7 — 15) .

ثم ما حاجة القادمين من مصر إلى فلسطين لأن يعبروا نهر الأردن ؟ وما هي تلك الـ "مصر" التي يخرج جميع شيوخها ووجهائها وجميع عبيد ملكها الذي هو "فرعون" من أجل دفن ميت في مغارة ؟ أيمكن أن تكون مصر وادي النيل إحدى أكبر مراكز

• ما تزال القرى التي اسمها "فرعة" منتشرة في غرب الجزيرة العربية من منطقة مكة إلى سراة زهران إلى وادي بيشة . وقد ملك على بني إسرائيل أحد سكان قرية "فرعة" هذه التابعة لقرى المصريين التي كانت تنتشر في منطقة غربي الشلف من بلاد زهران : وقضى بعده لإسرائيل عبيدون بن هليل الفرعوني وكان له أربعون ابناً وثلاثون حفيداً يركبون على سبعين جحشاً قضى لإسرائيل ثماني سنين " (قصة 12 : 13 — 15) .

ونحن نجد في قواميس اللغة حتى اليوم ان كلمة "فرع" القوم علام بالشر أو بالجمال — وبالرياسة ، والفرس باللحم كبحه ، وفلان القوم ركبهم وعلام . والفراع أحد أعوان الشيطان وجمعها فرعة .

الحضارة القديمة في العالم زمن يعقوب ؟ إن التوراة في الواقع ، لا تلبث أن توضح لنا صورة "مصر" العشيّرة ، لا مصر البلاد الواسعة على ضفاف النيل .
فلنقرأ :

" ثم قام ملك جديد على مصر لم يكن يعرف يوسف . فقال لشعبه هوذا بنو اسرائيل شعب أكثر وأعظم منا . هلم نحتال لهم لئلا ينموا فيكون إذا حدثت حرب انهم ينضمون إلى أعدائنا ويحاربوننا ويصعدون في الأرض " (الخروج 1:8 — 11) .

أهذه حقاً هي مصر وادي النيل التي كان تعداد جيش رعمسيس فيها وحده في ذلك الوقت يعد مئات الألوف ، بينما : " وهذه أسماء بني اسرائيل الذين جاؤوا إلى مصر . مع يعقوب جاء كل إنسان وبيته . رأوبين وشمعون ولاوي ويهوذا ويساكر وزبولون وبنيامين ودان ونفتالي وجاد وأشير . وكانت جميع نفوس الخارجين من صلب يعقوب سبعين نفساً ، ولكن يوسف كان في مصر " ! (الخروج 1: 1 — 6)

ثالثاً : إن ملوك مصر وادي النيل ، كانوا يرفضون تزويج الأميرات أو الأمراء منهم إلا من أفراد الأسرة الحاكمة نفسها . بينما نجد أن غلاماً صغيراً يفرّ من وجه داود من أرض مديان إلى مصر ، فيزوجه ملك مصر أخت زوجته : " وحدث لما كان داود في أدوم عند صعود يوأب رئيس الجيش لدفن القتلى وضرب كل ذكر في أدوم ، لأن يوأب وكل اسرائيل أقاموا هناك ستة أشهر حتى أقنوا كل ذكر في أدوم ، أن هدد هرب هو ورجال أدوميون من عبيد أبيه معه ليأتوا مصر . وكان هدد غلاماً صغيراً ، وقاموا من مديان وأتوا إلى فاران وأخذوا معهم رجالاً من فاران وأتوا إلى مصر إلى فرعون ملك مصر ... فوجد هدد نعمة في عيني فرعون جداً وزوجه أخت امرأته أخت تحفنجيس الملكة فولدت له أخت تحفنجيس جنويث ابنه وفطمته تحفنجيس في وسط بيت فرعون " (الملوك الأول : 15 — 20)

مرة أخرى نجد أن غلاماً صغيراً يفرّ من وجه داود في أرض كنعان إلى مصر وكأنما يفرّ من بيت أبيه إلى بيت خاله في القرية الواحدة . والحقيقة أن الأمر لا يتعدى كوننا نتعامل مع قرى وزعماء قرى أو عصابات أو عشائر أو أسر فنحن نجد في هذا النص أن

جيش "الملك داود" وكل اسرائيل صعدوا إلى قرية أدوم من أجل قتالها ، وأدوم هو نفسه عيسو أخو يعقوب . ولما فرّ غلام صغير من وجه داود لن يتعدى فراره الانتقال من داخل القرية إلى البرية ، أو السفوح ، أو الأحراش ، أو القرى المجاورة ، حيث لكل قرية "ملك" ، ولو عاش مثل هذا الغلام اليوم في عصر الطيران ، وفرّ من خصومه في فلسطين لما استقل طائرة وهرب إلى مصر ، ولما تجاوز فراره الأردن ، طالما أنهم يعتبرون أدوم مجاورة للضفة الشرقية من نهر الأردن !

والحقيقة هي أن كل مدونات التوراة ، رغم كل ما بذله المزورون الجغرافيون ، ما تزال تحكي أن مصر قرية متاخمة لقرى كنعان ، تتبع لها مجموعة من القرى أو المنازل الأصغر ، وقد كان لكل بلدة أو قرية ملك لقبه "فرعون" ومن هنا كان كلما اضطر واحد من الناس ، الصغار منهم أو الكبار ، إلى الفرار من خطر ما أو مواجهة معينة ، لم يكن يخطر له أي شيء من الجوار غير "مصر" . وهذا يجعلنا نتصور أن هذه الـ "مصر" لم يكن يفصلها عن قرى كنعان إلا ما يفصل القرية عن الأخرى ، من وادٍ أو جبل أو ما شابه ذلك .

وها نحن نقف أمام حادثة أخرى من هذا القبيل : إن يربعام عبد سليمان يهرب منه إلى مصر ، حينما عزم على قتله ، لا إلى غيرها : وطلب سليمان قتل يربعام ، فقام يربعام وهرب إلى مصر إلى ششبق ملك مصر . وكان في مصر إلى وفاة سليمان (الملوك الأول 11 : 40) .

رابعاً : وهاهو موسى يأخذ امرأته وأطفاله (ويقطع صحراء سيناء !) بين مديان ومصر ، وكأنه ينتقل بهم من قرية إلى أخرى ، علماً أن مسافة صحراء سيناء تقارب الألف كيلو متر ، وهذا يتطلب اليوم عشر ساعات كاملة على طريق دولي وبسيارة سريعة حديثة . بينما مثل هذه المسافة قد تتطلب أشهراً لموسى وأطفاله ، مع حساب أوقات الراحة والمبيت ، علماً أن أحداً لم يكن يغامر حتى في الخيال بقطع تلك الصحراء التي كانت الجيوش بعرباتها وخيولها تعتبرها من المغامرات المفزعة .

خامساً : وحين خروج بني إسرائيل بقيادة موسى من مصر إلى فلسطين التي هي أرض كنعان ، حسبما يرى الجغرافيون التوراتيون ، نراهم يسلكون طريقاً إلى أرض كنعان بعدما داروا من خلف أرض الفلسطينيين ، تفادياً لأي صدام معهم ، فستكون صدمة لبني إسرائيل ، فيمتنعوا عن الرحيل ويعودوا إلى مصر من جديد : " وكان لما أطلق فرعون الشعب ، أن الله لم يهدم في طريق أرض الفلسطينيين مع أمها قرية ، لأن الله تعالى قال لثلاثين الشعب إذا رأوا حرباً ويرجعوا إلى مصر ، فأدار الله الشعب في طريق بركة بحرسوف . وصعد بنو إسرائيل متجهزين من أرض مصر " (الخروج 1 : 17 ، 18) .

والمذهل في الأمر أن جميع المؤرخين يقولون إن خروج موسى بجماعته من مصر كان في حوالي القرن الثالث عشر أو الرابع عشر قبل الميلاد ، وإن جماعات "الفلسطينيين" بدأت تتوافد نحو سوريا في القرن الثاني عشر قبل الميلاد ، "وقد سمح لها ، بعد أن هزمها رعمسيس الثالث ، أن تنزل بصورة دائمة في ساحل سوريا الجنوبية الذي صار يسمى فلسطيناً" (1) .

"وكانت فلسطين الجنوبية البلد الوحيد الذي كان عدد المهاجرين الایجین فيه كافياً لاحتلاله وتأليف أمة منهم . وهكذا استطاعت قبيلة كريتية عرفت باسم الفلسطينيين* أن تحجز لنفسها مقاماً وتبني عدداً من المدن الزاهرة في القرن الثاني عشر" (2)

فكيف يخرج جماعة موسى في القرن الرابع عشر أو الثالث عشر قبل الميلاد ، ويتفادون المرور من أرض الفلسطينيين ، الذين سوف يفدون من البحر بعد قرن من الزمان على الأقل ، في طريقهم إلى أرض كنعان؟ ثم كيف يفد هؤلاء الفلسطينيون من كريت أو إيجيه كشعوب بحر في القرن الثاني عشر وكان إبراهيم قد تغرب عند أيمالك ملك الفلسطينيين في جرار ، وأثم مع امرأته سارة هنالك؟ وهل هذا غير توطئة لإلغاء شعب فلسطين من أجل تهجير اليهود وتوطينهم في أرض بلا شعب " كما تدعي

(1) انظر فيليب حتي : تاريخ سوريا ، ومن ضمنها لبنان وفلسطين - الجزء 1 ، ص 196 .
 • لسنا الآن في صدد مناقشة صحة هذه المزاعم التي أجمعت عليها حتى الآن كل كتب التاريخ أنها اعتمدت منذ الأساس على تفاسير صهيونية مزورة . وهما الآن التركيز على تناقض هؤلاء المؤرخين فقط وسوف نتناول هذه المواضيع عند مناقشتنا للفلسطينيين .
 (2) الدكتور جايمس هنري براست "العصور القديمة" ص 278 .

الصهيونية ؟ ثم أليست أرض الفلسطينيين — كما يجمع أولئك المؤرخون أنفسهم — هي السهل الساحلي من كنعان ؟ فكيف يكون هذا السهل إذن فاصلاً بين مصر وأرض كنعان مما اضطر الموسويين للدوران من حوله ؟ ثم أية أراضٍ للفلسطينيين قرية من مصر بحيث يصطدمون بها فور خروجهم من مصر ، ولماذا هي قرية وأرض كنعان بعيدة ؟ إن الجواب على هذا هو أن الخروج كان من أرض المصريين في جنوب بلاد زهران في منطقة الأنهار المنحدرة باتجاه السفوح الغربية . وأن أرض الفلسطينيين هذه ليست إلا أرض سكان فلسة وما حولها . وكان اسمها "فلشة" وسكانها كانوا يسمون "فلشتيم" . وهي جنوب بلدة الشعف الحالية في بلاد زهران . وإلى الجنوب منها تمتد بلاد كنعان جنوب بلاد زهران وغامد .

سادساً : لقد اعتاد كهنة بني اسرائيل أن يسموا أنفسهم أنبياء . وكان كل منهم يسعى إلى وصف ما حدث في عهده بناء على نبوءة كان قد تنبأ بها وتحققت : فحينما حدث أن قدم نبوخذ نصر بجيشه من بابل المخطئة من أجل ضرب العصابات ممن أخلوا بأمن تلك المنطقة الحساسة بالنسبة للدولة العربية السورية ومركزها في بابل ، بأعمال القتل والسطو والنهب وقطع الطرقات ، مما هدد خطوط القوافل والتجارة الدولية ، وبالتالي ، وصول كل السلع الثمينة القادمة من جنوب شبه الجزيرة ومصر وساحل إفريقيا إلى مركز الدولة ، وقام بضرب كل الفئات المخلة بأمن هذه التجارة ، انبرى أولئك "الأنبياء" للدعاء بأنهم تحدثوا بها قبل حصولها : " في السنة العاشرة في الثاني عشر من الشهر العاشر كان إليّ كلام الرب قائلاً يا ابن آدم اجعل وجهك نحو فرعون ملك مصر وتنبأ عليه وعلى مصر كلها . تكلم وقل هكذا قال السيد الرب . هاأنذا عليك يا فرعون ملك مصر ، التمساح الكبير الرابض وسط أنهاره .. بذلتك طعاماً لوحوش البر ولطيور السماء . ويعلم كل سكان مصر إني أنا الرب من أجل كونهم عكاز قصب لبيت اسرائيل . عند مسكهم بك بالكف انكسرت ومزقت لك كل كتف ، ولما توكأوا

• اما كانت (يم) هي علامة للجمع المذكور بالكنعانية فإن "فلشتيم" تعني بالعربية "الفلسطينيين" بعد إبدال الشين سيناً كما هي القاعدة بين الكنعانية والعربية العبرية (أو الفصحى) ومن هؤلاء من ذهب إلى الحبشة بعد أن ضرب نبوخذ نصر المنطقة هناك فيما بعد ودعوا الفلشة .

عليك انكسرت وقلقلت كل متوهم .. لذلك هاأنذا عليك وعلى أثمارك . وأجعل أرض مصر خرباً خربة مقفرة ... لا تمر فيها رجل إنسان ولا تمرّ فيها رجل بهيمة ولا تسكن أربعين سنة واجعل أرض مصر مقفرة في وسط الأراضي المقفرة ومدّها في وسط المدن الخربة تكون مقفرة أربعين سنة . واشتت المصريين بين الأمم وأبددهم في الأراضي . لأنه هكذا قال السيد الرب عند نهاية أربعين سنة اجمع المصريين من الشعوب الذين تشتتوا بينهم . وأرد سبي مصر وأرجعهم إلى أرض فتروس إلى أرض ميلادهم ويكونون هناك مملكة حقيرة تكون أحقر الممالك " (حزقيال 29: 1 — 4 ، 5 — 15) . " ويأتي سيف على مصر ويكون في كوش خوف شديد عند سقوط القتلى في مصر ، يأخذون ثروتها وتهدم أسسها . ويسقط معهم بالسيف كوش وفوط ولود وكل اللقيف وكوب وبنو أرض العهد " (حزقيال 30: 4 — 6) . وأجعل الأنهار يابسة وأبيع الأرض ليد الأشرار وأخرب الأرض ... وأبيد الأصنام وأبطل الأوثان من نوب . ولا يكون بعد رئيس من أرض مصر . وألقي الرعب في أرض مصر . وأخرب فتروس وأضرم ناراً في صوعن وأجري أحكاماً في نو واسكب غضبي على سين حصن مصر واستأصل جمهور نو وأضرم ناراً في مصر . سين تتوجع وتوجعاً ونو تكون للتمزيق .. شبان أون وفيسته يسقطون بالسيف وهما تذهبان إلى السبي ، ويظلم النهار في تحفنجيس عند كسري أنيلر مصر .. أما هي فتغشاها سحابة وتذهب بناهما إلى السبي " (حزقيال 30: 12 — 20) . " وكان في السنة الثانية عشرة في الشهر الثاني في أول الشهر أن كلام الرب صار إلي قائلاً يا ابن آدم ارفع مرثاة على فرعون ملك مصر وقل له .. اندفعت بأثمارك وكدرت الماء برجليك وعكرت أثمارهم .. سألقي لحمك على الجبال " (حزقيال 30: 2، 3، 5، 6) واضح هنا كيف أن عشيرة مصر عند أعالي الأنهار التي تجري إلى أرض العشائر الأخرى . وكان في السنة الثانية عشرة في الخامس عشر من الشهر أن كلام الرب كان إلي قائلاً : يا ابن آدم ولول على جمهور مصر .. قد نزلوا اضطجعوا غلفا قتلى بالسيف . هناك آشور وكل جماعتها قبوره من حوله . كلهم قتلى ساقطون بالسيف .. هناك ما شك وتوبال وكل جمهورها حول قبورها . هناك أدوم وملوكها وكل رؤسائها الذين مع

جبروهم قد ألقوا مع القتل بالسيف فيضجعون مع الغلف ومع الهابطين في الجب . هنالك أمراء الشمال كلهم وجميع الصيدين الهابطين مع القتلى برعهم .. يراهم فرعون ويتعزى عن كل جمهوره " (حزقيال 32 : 17 ، 18 ، 22 ، 29 ، 30)

إن في هذه النصوص المقتطفة من سفر واحد تأكيداً على الأمور التالية :

1 — إن مصر المقصودة تقع على أنهار وليس على نهر النيل . وهي في منطقة جبلية وليست في منطقة منبسطة . وقد غزيت مع من غزي ممّا حولها من القرى والمدن ، وصارت مدينة خربة بين كل المدن الخربة ممّا حولها .

2 — إن "مصر" تعرضت للحرق والسبي ، وقد شتت أهلها كما سي وتشتت بنو اسرائيل . وهذا كله ليس له أية علاقة بمصر وادي النيل .

3 — إن وثائق وادي النيل أكدت أن مصريي وادي النيل يَحْتَنُونَ منذ الألف الثالث قبل الميلاد بينما مصريو العشيرة التي ستدمر غلف .

4 — إن من المدن التي خربت من حول "مصر" وشاركتها مصيرها نفسه آشور⁽¹⁾ ، وماشك⁽²⁾ ، وصيدون ، وآدوم⁽³⁾ ، فكيف يمكن أن تكون هذه هي مصر وادي النيل ؟ .. وتلك أسماء أشخاص آباء عشائر في التوراة .

5 — إن مدن مصر المذكورة في النص لا علاقة لها بمصر وادي النيل . وهذه الأسماء مثل فتروس ، نو ، سين ، أون ، فيبيسة ، تحفنجيس ، نوف ، وغيرها ، ليست إلا القرى المغاور ، والمضارب التابعة لمصر في أعالي الجبال بين الأنهار في غرب وجنوب زهران ، وأهم تلك الأنهار دوقة وسيحور والشعف .

سابعاً : وفي أيام الملك يوشيا "صعد الفرعون نخو ملك مصر إلى ملك آشور على نهر الفرات . فصعد الملك يوسيا للقائه "فقتله في مجدّو حين رآه . وأركبه عبيده ميّاً من

(1) آشور : هم بنو آشور بن ددان بن يقشان بن إبراهيم من زوجته قطورة (تك 2 — 3) .

(2) "ماشك" و"فوماشك" مركز آرامي في منطقة قرب الظفير الحالية . وهي التي تحولت في الترجمات التوراتية إلى دمشق . بينما "ماشك" التوراتية اسم عشيرة (حزقيال : 27 — 13) .

(3) آدوم هي قرية أو مضارب بني عيسو أخي يعقوب شرق بن زهران .

مجدو وجاؤوا به إلى أورشليم ودفنوه في قبره . فأخذ شعب الأرض يهوا حاز بن يوسيا ومسحوه وملكوه عوضاً عن أبيه " (الملوك الثاني 23 : 29، 30) .

إن ملك مصر وادي النيل لم يحدث أن صعد إلى آشور . وأن آشور مركز الدولة العربية السورية على الدجلة وليست على الفرات . أما نهر الثرات (الذي يلفظ أيضاً "الفرات") فهو ينبع فعلاً من منطقة بني سار "آشور" بين غامد وزهران . وأن هذا يوضح أن موقع مجدو هو غرب بني سار وليس في فلسطين التي لم يعثر لها هناك على أثر إطلاقاً ، رغم كل الجهود المضنية المكثفة التي بذلتها سلطات الاحتلال الصهيوني . وبعد تلك المعركة "لم يعد ملك مصر يخرج من أرضه لأن ملك بابل أخذ من نهر مصر إلى نهر الفرات كل ما كان لملك مصر" (الملوك الثاني 24 : 7) . إن هذا يعني البقعة من الأرض ما بين سار على الثرات ونهر شيحور غربي زهران .

ثامناً : حينما هاجم نبوخذ نصر أورشليم فسي قسماً وترك قسماً ، نصح ارميا الباقيين فيها ألا يغادروها ، وهم في معظمهم من الشيوخ والنساء والأطفال ، لكنهم رفضوا جميعاً وخرجوا سراً إلى "مصر" ! لقد قالوا له : "أنت متكلم الكذب ، لم يرسلك الرب إلينا لتقول لا تذهبوا إلى مصر لتتغربوا هناك . بل باروخ بن نيريا مهيجك علينا لتدفعنا ليد الكلدانيين ليقتلونا وليسبوننا إلى بابل" وهكذا ذهبوا جميعاً "الرجال والنساء والأطفال وبنات الملك وكل الأنفس الذين تركهم نبوزرادان رئيس الشرط مع جدليا بن اخيقام .. فجاؤوا إلى أرض مصر لأنهم لم يسمعون لصوت الرب وأتوا إلى تحفenchيس " (ارميا 43 : 2، 3، 6، 7) ؟

ومرة أخرى أمام الظاهرة نفسها . وهي أن هؤلاء النساء والأطفال لم يعبروا أكثر من بعض الوديان والسفوح في بلاد زهران إلى أراضي المصريين ، وأن التفكير في سيرهم من فلسطين عبر صحراء سيناء المرعبة (حتى في سيارة في هذا العصر) ضرب من الغباء لا يوصف . كما أن بابل الكلدان هي بابل المحطة وليست عاصمة الدولة .

تاسعاً : وهاهو ارميا يقول لمصر شامتاً بعد أن دمرها ملك بابل وسبى أهلها مثلها مثل أورشليم : " اصعدي إلى جلعاد وخذي بلسانا يا عذراء بنت مصر . باطلاً تكثرين

العقاقير . اخبروا في مصر واسمعوا في مجدل واسمعوا في نوف وفي تحفنخيـس . قولوا
انتصب وتهيأ لأن السيف يأكل حواليك " (ارميا46: 11 ، 14)

إن جبل جلعاد* هذا هو شرق بني سار في منطقة الآراميين ، وليس شرقي نهر الأردن،
وفي كلتا الحالتين فإن "عذراء مصر" لن تخرج من وادي النيل إلى جبال فلسطين لتجتمع
البيلسان من أجل أن تداوي جروحها . أما بنات مصر في زهران فيخرجن إلى منطقة بني
سار وكأنما من قرية إلى قرية ، أو من جبل إلى آخر .

عاشراً : ناحوم يخاطب أورشلـيم (قرية يـوس) قائلاً "هل أنت أفضل من نـوامـون
الجالسة بين الأنهار حولها المياه التي حصن البحر ، ومن البحر سورها . كوش قوتها مع
مصر وليست نهاية . فوط ولويـم كانوا معونتك . هي أيضاً قد مضت إلى المنفى
بالسي ، وأطفالها حطمت في رأس جميع الأزقة وعلى أشرافها ألقوا قرعة وجميع
عظماؤها تقيدوا بالقيود " (ناحوم 3 : 8 — 12) .

واضح أن المقصود هنا هي قرية "مصر" التي على الأنهار ، والمجاورة لكوش والتي سبـاها
ملك بابل مع سيي أورشلـيم .

حادي عشر : وفي العهد الجديد نحد أن "ملاك الرب قد ظهر ليوسف ، في حلم قائلاً قم
وخذ الصبي وأمه واهرب إلى مصر . وكن هناك حتى أقول لك (إنجيل متى 2) ، فقام
وأخذ الصبي وأمه ليلاً وانصرف إلى مصر " (إنجيل متى 2 : 15)

ونحن هنا لسنا في صدد الحديث عن معجزات ، علماً أن أحداً لم يتحدث عن هذه
الحادثة كإحدى معجزات عيسى الطفل ، لاسيما وقد رأينا عدداً لا يحصى من الأطفال
الذين ذهبوا قبله من أرض كنعان إلى مصر . وبالتالي فليست أرض كنعان في فلسطين
التي خرج منها يوسف النجار مع الطفل وأمه السيدة مريم ، وليست مصر التي ذهب
إليها ليلاً هي مصر وادي النيل . لقد ذهب من قرية كنعانية إلى قرية أخرى مجاورة

• جلعاد اسم عشيرة ، وهو جلعاد بن ميخائيل بن يشيشاي بن يحدو بن بوز (أخبار الأيام
الأول 5:14)

مصرية في بلاد زهران " فلما مات هيرودس إذا ملاك الرب ظهر في حلم ليوسف في مصر قائلاً قم وخذ الصبي وأمه واهب إلى أرض اسرائيل " (إنجيل متى 2 : 20)
ثاني عشر : لنقرأ في سفر أشعيا حول مصر : " في ذلك اليوم يكون في أرض مصر خمس مدن تتكلم بلغة كنعان .. في ذلك اليوم تكون سكة من مصر إلى آشور فيجيء الآشوريون إلى مصر والمصريون إلى آشور ويعبد المصريون مع الآشوريين ، في ذلك اليوم يكون اسرائيل ثلثا لمصر ولآشور بركة في الأرض بها يبارك رب الجنود قائلاً مبارك شعبي مصر وعمل يديّ آشور وميراثي اسرائيل " (اشعيا 19 : 23 ، 25) .
أليس في ذلك تأكيد على صحة ما قلناه حتى الآن ، وهو أن مصر ، وآشور وكنعان في منطقة ضيقة واحدة في جنوب بلاد غامد وزهران ، وليس في هذه أية إشارة إلى مصر وادي النيل ؟

ثالث عشر : يقول ارميا مخاطباً اسرائيل : " والآن مالك وطريق مصر لشرب مياه شيحور . ومالك وطريق آشور لشرب مياه النهر " (ارميا 2 : 18) . إنه لم يقل " لشرب مياه النيل ولشرب مياه الدجلة " وبالتالي فإن المقصود ليس مصر وادي النيل بل "مصر" القرية أو المدينة على نهر شيحور ، وليس عاصمة الدولة السورية على الدجلة بل بني آشور بن يقطان بن مدين بن إبراهيم .

وهذا بالضبط هو ما أدهش جماعة موسى حين خروجهم من مصر ووصلوا إلى نهر الفرات شرقي بلاد زهران ونعتوه بـ "النهر المقلوب " .

رابع عشر : وعند تدشين المعبد الذي بناه سليمان بمساعدة حيرام ملك صور المجاورة له (وليست صور على المتوسط) حضر كل جمهور الناس ، من مدخل حماة إلى مدخل مصر . إن في إمكان الحالم فقط — لا المؤرخ — أن يتصور تلك الجماهير رجالاً ونساء ، شيوخاً وأطفالاً ، يتدفقون من وادي النيل عبر صحراء سيناء ، ومن سوريا المتوسط عند حماه يدبون عبر السهول والجبال والوديان ، عبر سوريا ولبنان وفلسطين ، من أجل أن يشهدوا حفل تدشين المعبد! إن الكاتب لم يقل "حضره ملوك أو ممثلوهم" . وإنما جمهور الشعب . فلنقرأ : " وعيد سليمان العيد في ذلك الوقت وجميع اسرائيل معه

جمهور كبير من مدخل حماة إلى وادي مصر أمام الرب إلهنا . سبعة أيام وسبعة أيام أربعة عشر يوماً . وفي اليوم الثامن* صرف الشعب فباركوا الملك وذهبوا إلى خيمهم فرحين وطيبين القلوب " (الملوك الأول 8: 65) ، فهل بقي هنا ثمة شك ؟ .. إنه لم يقل : عاد الشعب إلى مصر وإلى حماة ، ولكنه قال ما هو أفصح وأوضح بكثير — لقد "ذهبوا إلى خيامهم" . إذن فقد جاؤوا من خيامهم في قرى مصر وأرام و إسرائيل ، وكأنما من قرى متجاورة ، وفرحوا وعيدوا أربعة عشر يوماً ، ثم عادوا إلى خيامهم أو مضارهم في مصر وحمتا الذي هو أخو حث أحد أبناء كنعان وليس حماة .

خامس عشر : ويذكر المؤرخ اليوناني هيرودوت⁽¹⁾ حين زيارته لشبه جزيرة العرب "أن العمونيين بين مصر وكوش" وإذا كان جغرافيو التوراة قد جعلوا العمونيين في شرقي الأردن ، إذ اعتبروا أن إبراهيم حينما انفصل عن ابن أخيه لوط بقي في أرض كنعان (فلسطين) وأما لوط فاختر "دائرة الأردن" في سدوم ، ولما كان عمون وموآب هما ابنا لوط من بناته حسب رواية التوراة فقد جعلوا إقامتهما هناك أيضاً ، أي شرقي نهر الأردن ، وإن كوش هي الحبشة ، ثم إنها بين مصر وكوش! أي أن شرقي الأردن تقع بين مصر وأثيوبيا! أو لم يكن في هذا وحده ما يستحق الوقوف عنده ؟

ومن خلال النصوص التوراتية حول إقامة إبراهيم في أرض كنعان تبرز مسألة أخرى هي مسألة الحثيين ، التي لم يعتمد المؤرخون إساءة فهمها فحسب ، وإنما اتخذوها ذريعة لتهريب الوجود العربي الحضاري من منطقة سوريا الغربية والأمورية إلى القبائل الهمجية في الشمال ، كما فعلوا بالقسم الشرقي من سوريا ، وألصقوا إنجازات شعبها في تلك المنطقة ، بعد أن فصلوها عن قسمها الغربي بحاجز مصطنع وهمي ، بالقبائل الشمالية الشرقية الهمجية أيضاً ، والمجهولة الأصل والهوية حتى يومنا هذا ، ثم لم يتورعوا عن تسميتها زوراً بـ "السومرية" .

• واضح ان الحساب بالأسبوع . والمقصود في اليوم الثامن أي بعد الأسبوع الثاني .
(1) هيرودوت : 2 : 43 .

سادس عشر : إن المؤرخين والاختبارين العرب تفادوا ، على ما يبدو السقوط في مثل هذا الخطأ الفادح ، فقد ذكر الطبري في تاريخه أن موسى "خرج إلى مدين خائفا وله إحدى وأربعون سنة ، وكان يدعو إلى دين إبراهيم .. وكان فرعون في أيامه قابوس بن مصعب بن معاوية . وكانت امرأته آسية بنت مزاحم بن عبيد بن الريان بن الوليد فرعون يوسف الأول" (1)

إن في ذلك دليلا آخر ، على أن مصر المقصودة ليست مصر وادي النيل بل هي اسم العشيرة في شبه جزيرة العرب ، وأن فرعون موسى ليس رعمسيس الثاني كما يخمن المؤرخون وإنما فرعون قرية "مصر" في غرب جنوب زهران ، ووكيل ملك مصر وادي النيل أو عميله عليها ، وهو من العماليق أبناء عمليق بن لاوذ بن سام .

الحيثيون العرب الكنعانيون

رأينا كيف أن إبراهيم ، بعد موت زوجته سارة ، في أرض الكنعانيين ، "كلم بني حث قائلا أنا غريب ونزيل عندكم . أعطوني ملك قبر معكم لأدفن ميتي من أمامي" (تك 23 : 3) وقد بذل له عفرون بن صوحر مغارة المكفيلة التي طلبها إبراهيم والحقل الذي هي في طرفه دون مقابل ، وأصر إبراهيم أن يدفع الثمن . ولقد رأى المؤرخون ، الذين أفرزتهم الحقب الاستعمارية ، والذين جعلوا دأهم تشويه وتمزيق صورة الشعب العربي الحضارية ، في بني حث هؤلاء الذريعة والوسيلة من أجل "تهريب" الحضارة العربية السورية ، وطمس الوجود العربي السوري في سوريا الغربية المتوسطة . لقد تم ذلك على مرحلتين : الأولى نقل التسمية "بلاد كنعان" من البقعة الضيقة في منطقة من جنوب غامد وزهران في شبه جزيرة العرب إلى سوريا المتوسطة كلها . والثانية نقل أحد فروع العرب الكنعانيين ، وهم الحثيون ، إلى الساحة السورية المتوسطة ، وجعلهم هند وأوروبيين مزعومين وإصاق الحضارة بأولئك الهمج ، وجعلهم سادة الساحة في سوريا الغربية ، تماما كما حدثت عملية تهجير الحضارة السورية السومرية (العمورية

(1) تاريخ الطبري ، الجزء 1 ، ص 271 .

الشرقية) إلى القبائل الهمجية الأخرى ، التي قد تعود إلى أصل مغولي .
لقد حدث ذلك كله في إطار من الاستهانة بالعلم والمنطق ، بل وبقول كل البشر ،
وكان الأمية ، فعلاً ، مطبقة على العالم من حولهم .
إننا ، إذا ما استعرضنا جميع كتب التاريخ التي بين أيدينا ، لوجدنا أنها جميعاً تتفق على
حذف ذاك الذي اسمه سوريا ، في الوقت الذي يبقى هذا الاسم أقدم من كل الأسماء
الجغرافية والحضارية معاً . وقد قامت على أرضها أقدم دولة ذات نظام إداري وسياسي
واقتصادي وعسكري وحقوقى متكامل في العالم ، وهي الدولة العربية السورية أيام
سرجون ، ونارام سين ، وشولجي ، وحمورابي ، التي امتدت من شرق جبال زغوس إلى
البحر المتوسط ومن البحر الأسود إلى بحر العرب وأعالي وادي النيل . وأن جميع كتب
التاريخ هذه توزع هذه البقعة الجغرافية من الوطن العربي إلى بقع وأجزاء : فهي تفصل
المنطقة الشرقية عن الغربية ، في الوقت الذي كانت هذه الدولة التي مركزها "أكلد" أو
"بابل" أو "آشور" تمتد إلى شطآن المتوسط بصورة دائمة ضمن نظام سياسي واقتصادي
وقانوني واحد ، وفي الوقت الذي كان أبرز ملوك هذه الدولة التي عاصمتها في الشرق
يأتون من قسمها الغربي مما يؤكد وحدتها . لقد جعلوا قسمها الشرقي منفصلاً في
تكوينه ونشأته الاجتماعية والسياسية والقومية والحضارية عن قسمها الغربي . ثم
ربطوا أصول حضارته بأقوام همجية لا يعرف لها أصل يدعوها زوراً بـ "السومرية"
علماً أن السومريين جزء من الشعب العربي . ثم ربطوا القسم الغربي بشعب همجي

• لم تكن مثل هذه الأراء والأحكام السخيفة الباطلة لتعيش هذا الزمن كله ، دون أن تجد من
يتصدى لها ، لولا نقشي الأمية القاتلة فعلاً بين أبناء الأمة العربية ممن "ينقلون" لنا التاريخ
المزور ويدعونه ، في زهو ، لأنفسهم ويكرسونه "علماء" لأجيالنا الصاعدة .
وبهذه المناسبة فإننا نغتنم الفرصة لإثارة مثل هذه الأسئلة : لماذا تعيش جامعاتنا العربية ،
وأقسام التاريخ منها تحديداً ، على فتات ما يلقيه إليها أولئك المؤرخون الاستعماريون في الوقت
الذي يحتكرون فيه لأنفسهم وبين أيديهم ، كل وثائق تاريخنا القديم ؟ لماذا يسأل الباحث عن
نسخة بلغته الحديثة أو القديمة لوثائق من تاريخه على غاية من الأهمية مثل رسائل تل
العمارنة ونصوص وثائق أوغاريت ووثائق مكتبة آشور باتييال ولا يجدها إلا في متاحف لندن
وباريس أو غيرهما من العواصم الأخرى ؟ لماذا لا تعتمد وزارات الثقافة والأعلام العربية على
نشرها وتسهيل الحصول عليها وتداولها بين شبيبة أجيالنا الناهضة ؟ لماذا تبقى مصرين على
ألا نرى بعيوننا ونفكر بعقولنا ، ونكتب فكرنا بأيدينا وإلى متى؟

آخر لم يعرف له أصل حتى اليوم دعوه بالحثيين بعد ما عثروا على اسم " الحثيين " في مدونات التوراة ، وجعلوا الوجود العربي الحثي في أرض كنعان في بلاد غامد من شبه جزيرة العرب ، وجوداً حثياً ، آرياً ، أو هندوأوريا ، في سوريا المتوسطة ، بعد تسميتها بأرض كنعان ، بناء على التفسير المزور للجغرافيا التوراتية .

ولسنا نجد ضرورة في استعراض كل أقوال المؤرخين حول هذه المسألة ، فهي جد مشابهة ، إن لم نقل متماثلة تماماً ، ويكفي أن نستعرض بعضاً منها لنبداً المناقشة . يقول الدكتور جايملس هنري براستد :

" وترك الحثيون علامتهم الفارقة ، الأنف الأفنى ، على وجوه مجاورهم في العالم الايجي والهلل الخصب . ووجود هذه العلامة الفارقة في وجوه اليهود دليل على أن الحثيين هاجروا من بلادهم وقطعوا الطريق الغربي من الهلال الخصيب فساقتهم الأقدار إلى فلسطين ، حيث تركوا هذا الأثر في الوجه اليهودي ⁽¹⁾

ولما اقتبس الحثيون المدنية المصرية من مدن شمال سوريا لم يتلکأوا عن الانتفاع بها ⁽²⁾ ... وكانت إحدى الممالك الحثية الواقعة إلى الشرق من نهر هاليس تزداد قوة ومنعة . وفي هذا العصر (1500 ق.م) قويت شوكة الحثيين واتسع نطاق ملكهم من عاصمتهم "خطي" إلى كل جهة . فعنا لسطانهم سائر الممالك الحثية الأخرى التي لموا شعنها وألفوا منها إمبراطورية كبيرة كانت تشتمل على جزء كبير من آسيا الصغرى ودامت دولة هؤلاء الحثيين نحو قرنين ونصف قرن (من 1450 — 1200 ق.م) ثم انقرضت ⁽³⁾

" وفي سنة 1200 ق.م ألجأ زحف الهندوأوروبيين من الشمال الايجيين إلى الفرار ، فقطعوا البحر ونزلوا على الشواطئ الجنوبية الشرقية من البحر المتوسط وكان هؤلاء الايجيين الفارين اليد الطولى في قلب الإمبراطورية المصرية المتداعية الأركان .. وكانت فلسطين الجنوبية البلد الوحيد الذي كان عدد المهاجرين الايجيين فيه كافياً لاحتلاله وتأليف أمة منهم . وهكذا استطاعت قبيلة كريتية عرفت باسم الفلسطينيين أن تبرز

(1) الدكتور جايملس هنري براستد "العصور القديمة" ، ص 260 .

(2) المصدر السابق ص 261

(3) المصدر السابق ص 264

لنفسها مقاماً وتبني عدداً من المدن الزاهرة في القرن الثاني عشر ... وإننا لم ننس بعد كيف أن الفلسطينيين كادوا يسحقون الأمة اليهودية الفتية التي كانت أتخذ آخذة بالظهور . ومن العجب أن يكون هؤلاء الايجيون الفارون هم الذين أعطوا فلسطين اسمها الحالي⁽¹⁾ وكان من اختلاط الحثيين بسكان الهلال الخصيب أن الحثيين حصلوا على الذرائع الأولى التي أوصلتهم إلى مدنية أعلى ، من أهم مظاهرها الكتابة . فإن القوافل البابلية كانت منذ أيام حمورابي أو قبلها تؤم آسيا الصغرى مارة بالفرات صعداً ، لمآرب تجارية محضة ، ومعها صكوك ووثائق تجارية مكتوبة بالخط المسماري على ألواح من آجر . وبهذه الطريقة تعلم الحثيون الكتابة المسمارية كما تعلمتها شعوب أخرى غيرهم في الغرب . وكان ذلك سنة 2000 ق.م أو قبلها . وقد كشفت لنا أعمال التنقيب والحفر في آسيا الصغرى قطعاً من الآجر هي بقايا معاجم أو قواميس استعملها الحثيون قديماً في تعلمهم التهجئة والكتابة باللغة المسمارية⁽²⁾ .

ويقول الدكتور انطون مورتغات : "إن محور النزاع المباشر كان هنا بلاد امورو مع عاصمتها مدينة قطنا* . ولم يكد رعمسيس الثاني يتربع على العرش حتى أصبح من المؤكد وجوب بدء الصراع الفاصل من أجل تبوء مركز الزعامة على بلدان الساحل الشرقي للبحر المتوسط . ومن ناحية ثانية فقد كان على عرش "حاشوشا" ابن مورشيلي الثاني ، وهو موت ايلي ، الذي أدرك أيضاً بدوره حول ماذا تدور الدوائر ، فاستعد كذلك مثل رعمسيس لهذا الصراع الكبير الفاصل بكل حذر وتخطيط ودقة ، مستغلاً ومجنداً كافة إمكانياته وقوة سائر حلفائه . أما برنتيشين ، ملك بلاد أمور ، فقد كان لابد له في ذلك من أن ينحاز إلى أحد الجانبين في هذا الصراع ، فكانت هذه المرة الجبهة المصرية .. غير

(1) المصدر السابق ص 278 - 279 .

(2) المصدر السابق ص 261 .

* يلاحظ هنا أن بلاد امورو (سوريا الغربية) تصبح موحدة في كتابة المؤرخ مورتغات ، لا ليثبت وحدة المنطقة سكتياً وحضارياً ، وإنما ليثبت أن سيطرة الحثيين على سوريا الغربية كانت كاملة . فهم يوجدون المنطقة حينما يشاؤون لأغراض تخدم مقاصدهم فقط . وقد جعل عاصمتها "قطنا" التي يزعم أنها "المشفرة" عند حمص ، علماً أن قطنا أو المشفرة لم تكن في يوم من الأيام عاصمة لأحد .

أنه أخطأ الخيار . وهكذا بدأت المعركة في قادش للسنة الخامسة من حكم رمسيس حيث دحر بها واهزم ، فاستطاع بذلك ، على الأقل ، النجاة بحياته ، عائداً إلى مصر ليؤلف عند وصوله إليها تقريراً مطولاً عن انتصاراته . بينما نجد بالمقابل المصادر الحثية تحدثنا من جهة أخرى عن مطاردة العدو الهارب حتى دمشق⁽¹⁾

ويقول الدكتور فيليب حتي : " وكان الحثيون الذين تبدو ملاحظتهم على الآثار شبيهة بملاحم الحوريين شعباً أناضولياً في الأصل يسكن منطقة نهر الهاليس Halys وكانوا يسمون بلادهم خاطي ، وعاصمتهم خطوشش وهي اليوم بوغاز كوي على بعد تسعين ميلاً شرقي أنقرة ويأتي الاسم الإنكليزي من كلمة حث Hitti العبرية . ولا يزال موقع عاصمتهم القديمة كوشار مجهولاً وفي حوالي 2000 ق.م تغلب الغزاة الهنود الأورييون على القبائل الخاطية ونتج عن تمازج السكان الأصليين الأناضوليين بالفاتحين الهنود الأورييين الخاطيون في آسيا الصغرى ... وكان أول ظهور للخاطيين في عملية حربية كبرى نحو 1595 ق.م حين نهب ملكهم مرشلش الأول مدينة بابل بنتيجة غزوة لها .. وكان مرشلش نفسه قد فتح حلباً (حلب) وهدمها وسبى سكانها .. وكانت حلب مركزاً ليس لعبادة حدد فحسب ، وإنما لمملكة اسمها يمحاض كان يحكمها قبل هذه الفترة بقليل يريم ليما الذي كان يسيطر على عشرين من صغار الملوك . وتوغل أحد خلفاء مرشلش في أراضي الهكسوس جنوباً حتى دمشقون Damshunus التي تشبه لفظاً دمشق ... دامت المملكة الحثية أو الأمباطورية الثانية من حوالي 1450 حتى 1200 ق.م وقد حصل بنتيجة تقدمه في ميتاني على مركز ثابت في شمالي سوريا ، وتمكن من انتزاع منطقة تمتد حتى جنوبي جبل من المصريين . وفي نهاية حكمه كانت إمبراطوريته قد أصبحت أقوى دولة في غربي آسيا ودخل الهكسوس والميتانيون والحوريون في دولة يمكن أن نسميها الآن حثية . وأصبحت كركميش المعقل الرئيسي جنوبي جبال طوروس .

لم يعتمد شوبيلو ليوما فقط على استخدام السلاح . فقد لجأ إلى إثارة الاضطراب ضد مصر في مقاطعتها الآسيوية ، وإقناع أمير أوغاريت أن يتخلى عن حليفه فرعون ، ونجح

(1) الدكتور انطون مورتنغات ، تاريخ الشرق الأدنى القديم "231 - 232 .

في ذلك كله . واستخدم الزعيم الأموري عبد عشرتا وابنه أزيرو " كطابور خامس" ، وأخذ أزيرو بمساعدته يستولي على مدن فينيقيا الساحلية . وفي الوقت نفسه كان أزيرو يكتب إلى أختاتون عن أسفه البالغ بأن مهمته في مقاومة الغزو الحثي لم تسمح له بالحصول على شرف الاجتماع بالموفد من فرعون⁽¹⁾ . وبعد معركة قادش بين رعمسيس الثاني وموت إيلي الحثي عام 1296 ق.م ، وتوقيع الميثاق أو المعاهدة فيما بينهما حوالي عام 1280 ق.م ، " اعترف الميثاق بأن سوريا الجنوبية بما فيها فلسطين تحت الحكم المصري . واحتفظ بنسخة من الميثاق الأصلي منقوشة على لوح فضي باللغتين المصرية الهيروغليفية والبابلية المسمارية . وبعد فترة من الانحطاط سقطت الامبراطورية الحثية حوالي 1200 ق.م بتأثير هجمات من جهة أخرى وهي منطقة بحر إيجه ... وقامت في شمالي سوريا على أنقاض الإمبراطورية الحثية ممالك وطنية صغيرة مراكزها كركميش وحلب وحماة . وكان الآشوريون يسمونها ممالك حثية . وكان قيامها في عصر توسع الإمبراطورية الآشورية الناشئة نحو الغرب التي كانت دوماً تهدد كيائها . وسقطت الواحدة بعد الأخرى فريسة للدولة المتوسعة من الشرق . وكان فتح كركميش في عام 717 ق.م على يد سرجون الثاني عنوان انتهاء آخر دولة حثية مستقلة"⁽²⁾

" وبعد الفتح الحثي الميثاني أصبح الحوريون مشمولين باسم "حثي" المبهم⁽³⁾ ويأتي الاسم الإنكليزي من كلمة حطي Hitti العبرية"⁽⁴⁾

"وكان في الجماعات التي تألف منها خليط الهكسوس جماعة الحورين وهم شعب لا سامي ولا هندي أوروبي ولا يزال أصله مجهولاً . وكانت حضارتهم من أكثر العناصر حيوية في أواخر عصر الهكسوس والفترات التالية مباشرة . وقد أتى الحوريون من المرتفعات الواقعة شمال شرقي الهلال الخصيب بين بحيرة أورمية وجبال زاغروس ، وفي

(1) فيليب حتي ، تاريخ سوريا ومن ضمنها لبنان وفلسطين " الجزء 1 ، ص 166 .

(2) المصدر السابق ص 168 .

(3) المصدر السابق ص 165 .

(4) المصدر السابق ص 166 .

أواخر القرن الثامن عشر غزوا شمالي بلاد الرافدين وسكنوها ، ومنها اتجهوا إلى سوريا الشمالية حيث أسسوا إحدى الممالك القوية في الشرق الأدنى . وكان الأموريون قبل ذلك قد سكنوا ذلك القسم من سوريا . وقد يكون ظهور الحوريين في بلاد الهلال الخصيب متصلاً بالحركة العامة التي أتت بالهنود الإيرانيين إلى فارس والهند والتي فرضت نزول الكاشيين من زاغروس إلى بلاد بابل . وقد نجح الحوريون حوالي 1500 ق.م في تأسيس مملكتهم هناك وتسمى مملكة ميتاني التي بلغ من قوتها أن امتد حكمها من البحر المتوسط إلى مرتفعات ميديا . وتضم بلاد آشور .. وكان يعرف المصريون ميتاني باسم نهارين .. وكان دوشراتا أشهر الحكام الميتانيين . وقد وجدت تحارير كثيرة في تل العمارنة موجهة منه إلى امنحوتب الثالث (توفي 1375 ق.م) و إلى امنحوتب الرابع (توفي 1358 ق.م) والتحارير مكتوبة بالأكدية .. وكانت إحدى شقيقات دوشراتا بين نساء امنحوتب الثالث كما أن إحدى بناته تزوجت امنحوتب الثالث ومن بعده امنحوتب الرابع .. وقد هوجم دوشراتا الصديق الموالي لمصر قبل انتهاء حكمه من قبل الفاتح الحيثي العظيم شوبيلوليوما الذي تابع فتوحاته أثناء حكم موتي اوزا بن دوشراتا .. ثم أصبحت قسماً من الإمبراطورية الآشورية المتوسعة في عهد شلمنصر الأول (1273 ق.م) وهكذا زالت دولة كانت في أحد العصور تشارك مصر والدولة الحيثية السلطة العالمية⁽¹⁾.

وفي الحقيقة إن نظرة متأنية على هذه النصوص النماذج التي تنقل لنا صورة الحيثيين كما ركبها لنا أولئك المؤرخون ترينا حجم التشويه والتناقض والتزوير في التاريخ . لقد خرج " الحيثيون " في هذه الصورة المركبة مخلوقاً شائها لا شكل له ، ولا هوية ، كتلة مرقعة من الهمجية والمدنية المتقدمة اختلطت في وجهه كل خرائط الجغرافيا كما ارتسمت فيه كل تشوهات الإنسان الغربي المتعصب ، فلم يعد يبين له موضع .

(1) المصدر السابق ص 161 - 163 .

ثم إن هذه المقتطفات البسيطة تثير أماننا — على قلتها — عدداً لا يحصى من المسائل الصغيرة التي تختلط فيها بأعجوبة ، وبصورة تبدو مثل كبة من الخيطان الملونة المتشابكة ، يصعب فرز الخيط فيها عن الآخر .

فلنستعرض بعض هذه المسائل:

1 — الحثيون قبائل لا يعرف لهم أصل ولا اسم . وقد جاءت تسميتهم من الإنكليزية Hitti المأخوذة بدورها عن مدونات التوراة ، أي من بني حث وهذا ما جعل الاسم " مبهماً " ، عند المؤرخين . فكيف جاءت التسمية من التوراة والحثيون فيها أبناء كتعان بن حام بن نوح ، وفي الوقت نفسه هندو أوروبيون مقاتلون أشاوس !! والأ نكي من هذا أن انحصار ذكر هذا الاسم " حثي " في التوراة يعني أن الآثار لم تأت لهم على ذكر ، فكيف نصنع امبراطورية حضارية قوية تتقاسم المنطقة مع مصر وادي النيل والتوراة نفسها لا تتحدث إلا عن عشائر من البدو الرعاة في قلب شبه جزيرة العرب ! .

2 — إن هذه القبائل تظهر بقوة على الساحة الدولية منذ 1500 ق.م ، إذ قويت شوكة الحثيين واتسع نطاق ملكهم من عاصمتهم " خطي " إلى كل جهة . وخضع لسلطانهم سائر الممالك الحثية الأخرى التي لموا شعثها وألفوا منها إمبراطورية كبيرة ... ودامت دولة هؤلاء الحثيين نحو قرنين ونصف قرن (من 1450 — 1200 ق.م) . وفي الوقت نفسه تماماً فإننا نجد أن الحوريين " قد نجحوا حوالي 1500 ق.م ، في تأسيس مملكتهم هناك وتسمى مملكة ميتاني التي بلغ من قوتها أن امتد حكمها من البحر المتوسط إلى مرتفعات ميديا (في فارس) وتضم بلاد آشور " ونرى أن هذه المملكة " الإمبراطورية " استمرت طيلة فترة وجود الإمبراطورية الحثية " أي حتى أواخر القرن الثالث عشر قبل الميلاد .

وليس هذا فحسب ، ففي الوقت الذي تسيطر فيه هاتان الإمبراطوريتان على سوريا الشمالية كلها ، واعتباراً من دمشق وجبيل إلى أعلى الفرات شمالاً والبحر المتوسط غرباً وجبال ميديا شرقاً ، (وتجدر الإشارة هنا إلى أن " ميدي " المقصودة في الرسائل هي ميدي التي ما تزال على الخارطة جنوب أهما شرقي البحر الأحمر إلى اليوم) وفي آن معاً

وكانما تنطبق إحدى "الإمبراطوريتين" على الأخرى ، نرى أيضاً أن تحوتمس الثالث 1536 — 1490 ق.م يسيطر هو الآخر على هذه المنطقة في أوج عنفوان تينك "الإمبراطوريتين". وفوق هذا وذاك ، فإن الإمبراطورية الميتانية " تسيطر من ميديا حتى البحر المتوسط في الوقت الذي تكون فيه مدمرة من قبل تحوتمس الثالث .

لنقرأ : " كانت الحملة الثامنة التي أسفرت عن انضمام منطقة الفرات من أعظم حروب تحوتمس في آسيا . وقد توج هذه الحملة بإقامة لوحة للحدود شرقي الفرات الذي عبره غالباً عند كركميش ، ولوحة أخرى في جوارها قبل تلك التي أقامها والده تحوتمس الأول . ونهب بلاد ميتاني في طريقه . وعندما كان يتقدم باتجاه مجرى النهر كان ينهب المدن ويخرها ، ويقطع أشجار البساتين ، ويقتلع الذرة ويترك الأرض قفراً ، وربما قام بأكثر من حملة على نهارين . وفي إحدى هذه الحملات بنى زوارق من خشب الأرز في الجبال شرقي جيبيل ونقلها في عربات تجرها الثيران حتى الفرات ، لكي ينقل الجيوش إلى نهارين . وفي طريق عودته ، بينما كان يصطاد في المستنقعات غربي هذا النهر صادف قطيعاً من الفيلة وكان أحدهما على وشك قتله بضربة من نابيه لولا يقظة امنحوتب الذي أسرع لقطع خرطوميه بضربة من سيفه "(1)

إن تحوتمس الثالث ، إذن ، دمر ميتاني ، لكن ميتاني موجودة ، وقوية ، وإمبراطورية ، وإن تحوتمس الثالث أخذ كركميش ودمرها ، لكن الحثيين في الوقت نفسه إمبراطورية ، وفي كركميش ، وكركميش عاصمتهم ولم يمسسها أحد . الإمبراطوريات قائمة ومدمرة في آن معاً ، والآشوريون يدمرون مملكة ميتاني ، التي استمرت حتى عهدهم ! إن هذه الشعوذات التاريخية هي التي حملت مؤرخاً مسخاً مثل مورتغات يكتب قائلاً :

• الحقيقة إن واحدنا يشعر مع هذه النصوص كمن يمشي في حقل من الألفام الكبيرة والصغيرة . كما تراودني صورة من طفولتي حينما كنا نجمع بعض النباتات لإطعام خرافنا . ونمر بحقل من نبات الثيل (التين أو النجيل) فكأنت تدهشنا تلك الظاهرة : وهي انه ما إن تمسك بإحدى نباتات التين وتشدها من الأرض حتى ترى الأرض من حولك تنقلب ، ولتدرك معها إن جميع نباتات النجيل تتشابك شروشها مع بعضها تحت الأرض وتتصل وإنه من العسير أن تقتلع واحدة بمفردها .

(1) انظر المصدر السابق ص 141 ، 142 .

"إنه لمن المستحيل إعطاء صورة حية ذات تفاصيل وافية عن الشعوب المختلفة لتاريخ الشرق الأدنى خلال الحقبة الواقعة ما بين 1500 — 1200 ق.م وأن نتعقب ، بنفس الوقت ، تشابك الحوادث الدولية والحقائق لنجعل منها وحدة تامة ، ذلك لأننا نرى التوازي الزمني للروايات التاريخية يتحول إلى ترادف فيها . وهكذا لم يبق أمامنا — مع الإشارة إلى الخطورة في تكرار الحوادث التاريخية — سوى مخرج واحد ، وهو معالجة تاريخ كل دولة أو شعب قيادي على حدة"⁽¹⁾

ولكن هل كان هذا هو المخرج فعلاً ، وهل أدت دراسة مورثغات التاريخية لكل شعب على حدة الغرض؟

الحقيقة أن مورثغات — على ما يبدو — لم يهرب من هذه التناقضات المتشابكة إلى الحديث " عن كل شعب على حدة" من أجل أن يوضح الحقيقة أو يبحث عنها ، وإنما كي تتاح له فرصة ممارسة النزعة العرقية في التاريخ ، حيث لابد من أن تنتفخ أوداج الروح الآرية المختلفة في أعماقه كلما أحس بأن شيئاً ما "آرياً" قد يكون في أساس عرق هذا الشعب أو ذاك ، فتتحول كتابة التاريخ إلى خطاب لتمجيد العرق والعسكرية فلنسمع : "وقد بلغ من شدة تأثير الحورين في هذه المنطقة درجة استطاعوا معها فعلاً تطعيم الشعب الآشوري عرقياً ، والتغلغل حتى جبال إيران . وقد يدفع هذا كله ، مع عوامل أخرى ، ببعض للظن أحياناً أن حكام الهكسوس غزاة مصر حوالي 1700 ق.م إنما يتحدرون من أصل حوري ، ومهما يكن الأمر فإن الحورين يبقون كقوة سياسية شعبية أكبر عظمة حية توسعية عرفتها الألف الثانية قبل الميلاد ، قوة قدر لها أن تمتد من بلاد فارس حتى فلسطين ، ولو افترضنا جدلاً عدم استطاعة البرهنة على هذه النظرية"⁽²⁾...

شيء مذهش!

3 — إن تلك التي دعيت بـ "الإمبراطورية الحثية" لم يعرف لها حتى الآن مركز أو عاصمة . فمرة نقرأ أن عاصمتها القديمة "كوشار" وموقعها ما يزال مجهولاً ، ثم

(1) انطون مورثغات ، "تاريخ الشرق الأدنى القديم" ص 178 .

(2) المصدر نفسه ص 174 .

إنها "خاطي" أو خطوشش ، ويفرضون أنها ينبغي أن تكون "بوغازكوي" الحالية ، ومرة يدخل الهكسوس والميتانيون والحيوريون في دولة يمكن أن نسميها حثية ، وأصبحت كركميش المعقل الرئيسي لها جنوب طوروس⁽¹⁾

أما "الامبراطورية الميتانية" فمرة يؤكدون لنا أنها والحيورية شيء واحد ، ومرة أخرى ، كما ورد أعلاه ، نجد أن الميتانيين والحيورين شعبان مختلفان ، ومرة ثالثة فإن "هذه الإمبراطورية الضخمة لم يستطع أحد حتى الآن أن يعرف اسم عاصمتها أو يعثر عليها"⁽²⁾

4 — ثم نجد أن المصادر جميعها التي وفرت ما بين أيدينا من معلومات عن الميتانيين أو الحثيين هي مصادر عربية : فهي إما أن تكون مخلفات من آثار الأكاديين والبابليين والآشوريين — كما ورد من خلال أقوال برستد — مما يثبت مرة أخرى أن تلك المنطقة الممتدة من ديار بكر إلى شمال مرسين إنما هي جزء من الدولة العربية السورية دون اختلاق وجود حثي أو حوري فيها . وقد رأينا كيف أنه نشأ تقليد لدى حكام الدولة السورية منذ أيام سرجون أن يقوموا بجولة عسكرية سنوية لتفقد تلك المنطقة وحماية الخطوط التجارية الدولية التي تمر فيها إلى الأناضول . "حتى أنه في الألف الأول كان اقتحام الجيش الآشوري السنوي جبال أرمينيا ثم اتجأه نحو الغرب محاولة منظمة مركزة ... ومنذ عهد سرجون الأكادي أدرك الملوك ضرورة الاحتفاظ بدولة موحدة ومركزية . لقد كان لابد من السيطرة على الحدود سيطرة تكفي لمواجهة العدوان هناك"⁽³⁾

وقد دلت جميع المكتشفات بالفعل ، وكل المصادر تؤكد ذلك ، على أنها آثار عربية سورية : كالنسر السوري البابلي ، وقرص الشمس أو القمر المنح أو ذي القرنين ، وربة النينوع "تیشوب — عشتاروت" التي اكتشفت عبادتها في عbla (إبلا) ، والرسائل المكتشفة المرسلة من أطراف سوريا الجنوبية إلى عاصمة الدولة ، كل شيء باللغة

(1) انظر : فيليب حتي، "تاريخ سوريا ومن ضمنها لبنان وفلسطين" الجزء 1 ، ص 167.

(2) انطون مورتغات ، تاريخ الشرق الأدنى القديم" ص 208 .

(3) هنري فرانكفورت ، فجر الحضارة في الشرق الأدنى

الأكادية وبالكتابة المسمارية الأكادية . وقد هرب أولئك المزورون إلى جعل اللغة المكتوبة بالتصويرية والتي لم تعرف حقيقتها أو هويتها ، ولم يفرغ الدارسون من فك رموزها حتى اليوم ، لغة تلك الشعوب الهندو أوروبية المختلفة . وقد أظهرت التنقيبات في نوزي مجموعة من الألواح باللغة الأكادية لغة وكتابة . أما المعاجم والقواميس المكتشفة فهي من أجل تعليم السكان العرب السوريين لغتهم بمختلف كتاباتها . وقد وجدت مثل هذه القواميس في " إيبلا " أيضاً . وهذا كله هو ما أرغم مؤرخاً مثل مورتغات على القول في شيء من الاستغراب : " وفجأة تبرز صورة هذا العالم الموحد : فإلى جانب تلك الصفات المشتركة في الحقوق الدولية والأشكال الاجتماعية لعالم الشرق الأدنى خلال الألف الثانية قبل الميلاد نجد أموراً فكرية وراثية أخرى نشأت عن جذور مشتركة ، تبدو أيضاً وكأنها تصبغ الشرق القديم بطابع الوحدة . ويكفي أن نفكر فقط في أمر الأكادية لغة الديلوماسية والعلم ، وكذلك في أمر الكتابة المسمارية التي استخدمت حتى في المراسلات الخارجية مع مصر " ، " اما ديانة الحوريين فقد اقتبست بعض العناصر من العالم السومري — الأكادي ، بينما تسرب إليها القسم الآخر من منابع ذات صفة سامية غريبة" ⁽¹⁾

وبكلمة مختصرة ، إذن ، إن كل ما يخصها إنما هو عربي شرقياً كان أم غربياً . وإذا ما تفحصنا أسماء جميع المدن والمواقع المتبقية في المنطقة حتى يومنا هذا لوجدناها تعود جميعاً إلى أصول عربية قديمة . إن " أدنة " (أضنة) سميت على اسم الأب " أدن " الذي صار أدونيس ، و"مرسين" هي مر — سين وتعني السيد أو الرب سين إله القمر العربي ، الذي غطت عبادته كل أصقاع الوطن العربي القديم ، و"طوروس" هي "طورو" بعد حذف النهاية اليونانية ، وتعني الجبل أو الجبال ، وملطية هي ميليثا أي المعينة ، وهي من أسماء الربة عشتار . و"شتال هيوك " تعني مزرعة الربة أو مزرعة الحبق والريحان أيضاً لأن هاريوك بالسريانية تعني الحبق والريحان كما تعني النظيرة .

وذكرت كتابات سرجون أن الفضل في سيطرته على البلاد العليا يعود إلى دجن إله توتول . ويذكر حفيده نارام سين (2150 ق.م) إن الرب دجن هو الذي فتح له الطريق أمام المناطق الشمالية الغربية⁽¹⁾ . أما "هيوك" فهي إحدى صفات الأم الكبرى ذات الأعضاء الأثنوية المضخمة ، والمفرجة ما بين ساقها (وقد سبق أن شرحناها) ، وهذا ما يوضحه تمثالها المكتشف هناك (انظر قطر المحيط) .

والجدير بالذكر أن موقع " شتال حيوك " قد اكتشف مؤخراً في سهل قونية على بعد 320 كيلومتراً إلى الجنوب من أنقرة .

ولقد دلت الفحوص الراديوكربونية على أن المدينة عاشت بين (6250 — 5400 ق.م) ودلت فحوص جذوع الشجر على أنها ازدهرت فيما بين سنة 7200 — 7100 ق.م ، أو فيما بين سنة 6400 — 6300 ق.م ومعنى هذا أن حضارة مزرعة "شتل هيوك" عاصرت مراكز الحضارة الزراعية الأخرى في سوريا سواء في أريحا أو تل المريط أو تل الغسول . ومهما حاول " الدارسون " اليوم " تهريب " الهوية الحضارية لمدينة "شتل هيوك" العربية السورية فإنهم لن يفلحوا إلا كما افلحوا في تهريب غيرها . إنهم سوف يجدون أنفسهم في نهاية المطاف أمام مخرج واحد لنكران الهوية الحضارية والسكانية فيها، وهو أنهم حينما يقنطون من العثور على ما يربط أولئك السكان وحضارتهم بجيرانهم من القبائل الهمجية في الشمال التي لم يكن لها وجود بعد ، والتي كان همها السطو والسلب والتدمير بعد أن ظهرت ، وكثيراً ما كانت تكلف ملوك الدولة السورية وقادتها منذ الألف الثالث قبل الميلاد القيام بحملات عسكرية منظمة من أجل حماية المناطق الزراعية المستقرة وخطوط التجارة الدولية، فإنهم (أي الدارسين) سوف يلجأون إلى التصريح بأن أحداً لا يعرف هوية هؤلاء السكان ، لكن حضارتهم سابقة لكل حضارات المنطقة . لقد اعتدنا على مثل هذه اللازمات التي تتكرر مع اكتشاف كل موقع أثري حدودي أو تحت الاحتلال اليوم . غير أن ما تسرب من معلومات حتى الآن عن مكتشفات موضع "شتال حيوك" يؤكد الحقائق التالية :

(1) انظر المصدر السابق نفسه ص 34 — 35 .

1 — لقد كان سكان "شتال هيوك" يتقنون الزراعة ويمارسونها بشكل واسع وتشمل زراعتهم عدداً كبيراً من الحبوب الغذائية ، بالإضافة إلى القمح والشعير .. كما عرفوا زراعة الخضار ، وأولوا زراعة الفاصولياء — نوعين منها بالذات — جل اهتمامهم ... وعرفوا كذلك العنب والجوز والفسق الحلي وغير ذلك .. وأقبلوا على زراعة هذا وذاك على نطاق واسع ، حتى بلغت محاصيلهم من الوفرة ما فاض عن حاجتهم ، فعمدوا إلى تصديرها . وقد كانوا يبيعون هذه المحاصيل إلى المدن المجاورة في سهل قونية ، "وكانوا يستوردون بالمقابل الأخشاب والمعادن والزجاج البركاني والرخام والأصباغ والصوف والمصنوعات الخشبية من جبال طوروس ومن سوريا وسواحل المتوسط ..." (1)

إن هذا يؤكد علاقة "شتال" الاقتصادية بالوطن الأم سوريا ، كما تأكدت علاقتها السياسية وارتباطها من خلال عمليات التوحيد التي قام بها سرجون ومن أتى بعده .

2 — يؤكد الباحثون أن التشابه العرقي وفي الهياكل العظمية بين سكان "شتال هيوك" والسوريين القدامى أن أهل "شتال" ليسوا من أهل منطقة الأناضول الأصلاء ، وقد دلت آثارهم على أن مرض فرط غو العظم تفشى بينهم ، وهذا مرض يزيد من سمك عظام الجمجم . لكنه ينتقل بواسطة بعوض الملاريا الذي لا وجود له في إقليم شتال هيوك الجبلي البارد ، ويرجحون أنهم هجروا مدينتهم في حوالي 5400 ق.م ، ويتساءلون إن كانوا قد عادوا إلى ما بين النهرين ، حيث ازدهرت حضارة سومر ، أو إن كانوا أسلاف السومريين (2)

إنها اللازمة نفسها : المهم ألا تكون "شتال" امتدادا لحضارة السورين القدامى الذين تدل المكتشفات يوما بعد يوم أنهم أول من بنى المنازل ودجن الحيوان وزرع الأرض ، بل أن تكون هذه الحضارة قد وفدت إلى سوريا من الخارج . ففي سومر أتت بها القبائل الممجية التي تعود في أصلها إلى أسلاف المغول! وفي سوريا الغربية لا بد أن تكون بعض القبائل الممجية الأخرى قد أتت بها من الشمال . المهم أن تخلق مدينة شتال حيوك من

(1) انظر : "حضارات ازدهرت ثم اندثرت" "مجلة العربي" العدد 328 مارس (آذار) 1986 .

(2) المصدر السابق .

فراغ ، ثم ينقل أهلها إلى بلاد السوريين كلها أصول الحضارة ، ولو كان ذلك النقل عن طريق وباء تفشى في سكان المدينة وقضى عليهم أو كادا!

3 — إن جميع المكتشفات الآثارية تؤكد وحدة الحضارة والدين والمعتقد مع السوريين القدامى . فالإلهة الأم الكبرى عشتار ربة الخصب السورية تظهر بين المكتشفات بشكلها المؤلف بين اسدين . ويحتل الثور الذي هو رمز القوة الإخصابية الكونية لدى السوريين مكانا مرموقا بين مواضيع جميع الرسوم واللوحات المكتشفة . وإذا كان الرب البعل الذي يرمز له بالثور هو ابن الأم الكبرى ، فقد يجسد ذلك تجسيدا له في بعض اللوحات التي تظهر الأم الكبرى وهي في حالة وضع ومخاض ، كما ظهرت في البعض الآخر وهي تلد رأس ثور ، أي أم الإله .

وهكذا فإن النتيجة ، التي يتحاشى قولها ويتجنبها كثير من الباحثين لابد من أن تفرض نفسها أخيرا من خلال المنطق والعلم وما تقوله وتؤكد المكتشفات ، وهي أن "شتال هيوك" (مزرعة الربة ، المثيلة ، النظرية) ليست إلا شاهدا جديدا على عراقية الحضارة السورية التي كان حوض قونيا وشمال مرسين جزءا منها لا ينفصل . وقد ظل الملوك السوريون بعد قيام الدولة الموحدة المركزية الأولى منذ عهد سرجون يحرصون على حماية هذا الجزء وضمه إلى الوطن الأم ، كما ظل سكانه محافظين على هويتهم العربية حتى يومنا هذا .

أما المصدر العربي الثالث لتلك المعلومات المزورة فهو رسائل تل العمارنة المكتشفة في مصر ، والتي لم تأت على ذكر أحد خارج نطاق المنطقة الجنوبية من شبه جزيرة العرب ، وسوف نفصل في ذلك لاحقا .

أما المصدر العربي الرابع فهو مدونات التوراة . وإن كل مدونات التوراة بما فيها من قصص وآداب وامثال وحكم إنما هي تراث عربي بحت ، كما أن جميع أسماء الملوك والقبائل والمدن والأماكن هي أسماء عربية وضمن منطقة واحدة من جنوب غرب شبه الجزيرة العربية . وسوف نتناولها مفصلا من الناحية الجغرافية وناقشها كما ناقشنا

"مصر" وسنين مواضع التزوير في الأماكن الجغرافية التي افتعلتها دوائر التفسير المزور ، ثم نقلت منها إلى باقي اللغات واعتمدها المؤرخون .

4 — من خلال هذه النصوص المتقطعة عن الحثيين يظهر تناقض آخر :

فنحن تارة نرى أن سوريا الغربية كلها مملكة موحدة عند مورثغات يطلق عليها اسم بلاد أمورو ويجعل عاصمتها قطنة . ثم لم يعد يذكر هذه المملكة وهذه العاصمة ، بل يأتي ذكر مملكة يحماض التي يتبعها عشرون من صغار الملوك ، وتبرز مدينة حلبا وكركميش ، و نعرف أن هناك دمشق وأوغاريت وفجأة أيضاً نجد أن الزعماء الآموريين "طابور خامس" في المنطقة ! .

5 — تبرز مجموعة من الأسماء الجغرافية التي لا بد من إجلاء حقيقتها وفك تشابكاتها من خلال هذه النصوص ، وهذه الأسماء هي نهر هاليس ، كوشر ، كريت ، قطنة ، دمشق ، حلبا ، قادش ، كركميش ، نهارين ، ميتاني ، جبيل ، الفرات ، وما قد يبرز منها مجدداً .

6 — وقبل ذلك كله لا بد من استجلاء أولئك الذين دعوا بـ "الحثيين" وبـ "الهوريين" والذين حيروا المؤرخين فلم يعرفوا من أين أتت إليهم مثل تلك التسميات ، ولو أن فيليب حتي ينقل عن غيره ما يؤكد أن تسمية الحثيين أتت من اللفظة الإنكليزية التي جاءت بدورها من العبرية ، أي من مدونات التوراة . ومن خلال الحديث عنهم فإننا سوف نتعرف على حقيقة أسماء ملوكهم ومدنهم أيضاً .

الحثيون في مدونات التوراة بحسب الكنعانيين

1 — فهم من حيث النسب أبناء حث بن كنعان "وكنعان ولد صيدون بكره وحثاً و اليوسي و الأموري و الجرجاشي و الحوي و العرقي و السيني و العراي و الصمّاري و الحمي . وبعد ذلك تفرقت قبائل الكنعاني " (تك10: 15 ، 18)

2 — لقد حلّ إبراهيم بين الحثيين الكنعانيين في قرية أربع (حبرون) الحثية الكنعانية وهناك ماتت زوجته سارة ودفنت : "وماتت سارة في قرية أربع التي هي حبرون في أرض كنعان فأتى إبراهيم يندب سارة ويكي عليها وقام إبراهيم من أمام ميتة وكلم بني

حث قائلا: أنا غريب ونزيل عندكم أعطوني ملك قبر معكم لأدفن ميتي من أمامي .
فأجاب بنو حث إبراهيم قائلين له : اسمعنا يا سيدي ، أنت رئيس من الله بيننا . في
أفضل قبورنا ادفن ميتك" (تك2:23 — 6) ولما كانت سارة قد دفنت في مغارة
المكفيلة فإن قرية أربع أو حبرون هي اسم آخر للمغارة نفسها يتغير حسب الساكن .
فإبراهيم ساكن في قرية أربع الكنعانية ، ومالكو الأرض هم من بني حث أولاد كنعان ،
فهو إذن ساكن بين بني حث دون إخوتهم الكنعانيين الآخرين .

3 — وهو حينما يريد زوجة لابنه اسحق يرفض أن تكون من بين الحثيات الكنعانيات ،
ويرسل أحد عبيده إلى بيت أبيه وعشيرته الآراميين في حاران : " واستحلفني سيدي قائلا
لا تأخذ زوجة لابني من بنات الكنعانيين الذين أنا ساكن في أرضهم بل إلى بيت
أبي تذهب وإلى عشيرتي وتأخذ زوجة لابني" (تك24: 37 — 38) .

4 — وبعد أن تزوج عيسو بن اسحق اثنين من بنات حث الكنعانيات اشتكت أمه رفقة
منهما "وقالت رفقة لاسحق مللت حياتي من أجل بنات حث إن كان يعقوب يأخذ
زوجة من بنات حث مثل هؤلاء من بنات الأرض فلماذا لي حياة . فدعا اسحق يعقوب
وباركه وأوصاه وقال له لا تأخذ زوجة من بنات كنعان . ثم اذهب إلى فدان أرام إلى
بيت بتوئيل أبي أمك وخذ لنفسك زوجة من هناك من بنات لابان أخي أمك "
(تك27: 46، 28: 1، 2) .

وهاهو حزقيال يخاطب أورشليم قائلا : " هوذا كل ضارب مثل يضرب مثلا عليك
قائلا : مثل الأم بنتها . ابنة أمك أنت الكارهة زوجها وبنيتها . وأنت أخت أخواتك
اللواتي كرهن أزواجهن وأبناءهن . أمكن حثية وأبوكن أموري وأختك الكبرى
سمرا هي وبناتها الساكنة عن شمالك . وأختك الصغرى الساكنة عن يمينك هي سدوم
وبناتها .. قبل ما انكشف شرك كما في زمان تعبير بنات أرام وكل من حولها بنات
الفلسطينيين اللواتي يحقرنك من كل جهة . وذيلتك ورجاستك أنت تحملينها يقول
الرب" (حزقيال 16: 44 — 46، 56 — 58)

فها هي ييوس (أورشليم) سكانها عرب كنعانيون وعموريون ، والمدن والقرى الآرامية والفلسطينية تحيط بها من كل جانب . إنها الصورة الواقعية لتواجد الفروع السكانية للعشيرة العربية الكنعانية المتداخلة فيما بينها في بقعة من الأرض ضيقة واحدة .

والحوريون أيضا — في مدونات التوراة — عرب من بني سعيم : " هؤلاء بنو سعيم الحوري سكان الأرض . لوطان وشوبال وصبعون وعني وديشون وايسر وديشان هؤلاء أمراء الحوريين بنو سعيم في أرض أدوم وكان ابنا لوطان حوري وهيمام وكانت تمناع أخت لوطان . وهؤلاء بنو شوبا علوان ومناخة وعيبال وشفو وأنام وهذان ابنا صبعون أبيه . وهذا ابن عني ديشون .

وأهو لييامة هي بني عني . وهؤلاء بنو ديشان : حمدان وأشبان ويثران وكران . هؤلاء بنو ايسر : بلهان وزعران وعقان هذان ابنا ديشان :عوص وأران . هؤلاء أمراء الحوريين . أمير لوطان وأمير شوبال وأمير صبعون وأمير عني ديشون وأمير ايسر وأمير ديشان هؤلاء أمراء الحوريين بأمرائهم في أرض سعيم " (تلك36: 20 — 21) .

المدن والمواقع التي افترنت بالحثيين

• نهر هاليس

هذه هي صيغة اسم النهر كما نقلت عن اليونانية . ولما لم يجد الباحثون أثرا لهذا الاسم في كل البقاع الممتدة من شمال سوريا إلى البحر الأسود ، فقد افترضوا وجوده شمال أنقرة . يقول جيمس برستد : "وكانت إحدى الممالك الحثية الواقعة إلى الشرق من نهر هاليس تزدد قوة ومنعة"⁽¹⁾ . ثم لا ينسى أن يوضح أن نهر "هاليس" يعرف حاليا باسم نهر "ديس" ، وهو يقع إلى الشمال الشرقي من أنقرة ، ويشكل أحد روافد نهر "قيزيل ارمق" الذي يصب في البحر الأسود" .

(1) جايملس هنري براستد ، "العصور القديمة" ص254.

والحقيقة أن نهر هاليس هو نهر "حلي Hali في منطقة القنفذة ، ينبع من مرتفعات جبل سودة ، ويرفده نهر دوغا ونهر بقرة ، ويشكلان معه واديا غزيرا ينشر من حول ضفافه الخصب ويصب جنوب القنفذة في البحر الأحمر.

• كوشار

إنها إحدى صيغ الاسم "جوشر" و "جائر" و "جوشور" و "جشور" وعشا يبحث الدارسون عن هذه البلدة في غير موقعها في شبه جزيرة العرب . وقد ورد اسمها في مدونات التوراة في صيغة "جيشور" (بالحيم المصرية) وهي المدينة التي هرب إليها أبشالوم بن داود بعد أن قتل أخاه أمنون : " فهرب أبشالوم وذهب إلى تلماي بن عمي هو ملك جشور . وكان هناك ثلاث سنين " (صموئيل الثاني 13 : 37، 38) وقد كان " الملك " بمفهومه الضيق في غربي شبه جزيرة العرب ، يسمى باسم القرية أو العشيرة التي يملكها ، قد سبق أن أوضحنا ذلك ، ومن هذا الفهم للدلول كلمة "ملك" يجب أن ننظر إلى ملوك " كوشارا " ولم يكن أولئك "الملوك" الصغار ليغيبوا عن ذهن سلطة الدولة السورية المركزية في بابل أو آشور . لقد كانوا يتولون حراسة مصالح الدولة كل في موقعه ، وتأمين سلامة خطوط التجارة الدولية غربي شبه جزيرة العرب . وحينما كان يحدث ما من شأنه أن يضر بحركة التجارة ، أو يهدد سلامة وصول السلع عبر تلك الخطوط إلى شتى أنحاء الدولة ، وعلى الأخص مركزها أو عاصمتها ، فلم يكن الملك المركزي يتردد في توجيه الحملات لإخضاع تلك الممالك الصغيرة المتمردة أو الطامعة إلى الانفصال أو الاستغلال طمعا بالتسلط على الثروات المتدفقة عبر تلك الخطوط . فيعزلون "ملكا" وكيلا ، وينصبون آخر ، ويعتمدون مرة العرب الحثيين ومرة أخرى العرب العموريين وكلاهما عشيرتان من أبناء كنعان . وكثيرا ما كانوا يتنازعون السيطرة على تلك المنطقة من خلال "ملوكها" الصغار مع حكام مصر وادي النيل ، ولاسيما إبان ضعف الدولة السورية ، أو انهماكها في إخماد الفتن الداخلية ، أو في ضرب القبائل الغازية من الشمال والشرق .

وقد استمرت هذه العلاقة مع منطقة غربي شبه الجزيرة التي كانت تضم أهم الطرق الاستراتيجية التجارية في ذلك الزمن ، حتى الزمن اليوناني والروماني . إذ استمر تقليد تنصيب الحكام أو الوكلاء من زعماء المدن أو البدو المحليين على تلك المناطق من أجل حماية القوافل التجارية المتدفقة والسلع الثمينة النادرة من إفريقيا والهند وجنوب بلاد العرب .

إن هذا الاهتمام المركزي بتلك المنطقة هو بالذات الذي يفسّر لنا كل تلك الوثائق والرسائل المتعلقة بـ " الملوك الوكلاء " لتلك المواقع الصغيرة ووفرّها سواء في الوثائق البابلية ، أو الآشورية ، أو الأوغاريتية* ، أو الإيلائية، أو في رسائل تل العمارنة .

إن عدم تمكن المؤرخين والدارسين من استيعاب أو تصور فكرة وجود دولة عربية سورية مهيمنة على كل الرقعة الممتدة من البحر الأسود إلى بحر العرب وجنوب البحر الأحمر منذ ذلك الزمن جعلهم يقعون في مثل تلك الأخطاء الفادحة في دراسة تاريخ المنطقة ، علاوة على الترعات الأخرى . وليس ثمة ما يقنع أحداً بأن العرب البابليين والآشوريين والمصريين كانوا يحتفظون بوثائق وسجلات لقبائل شمالية مجهولة الأصل والهوية واللغة والمركز (العاصمة) . بينما كل المصادر تؤكد أن تلك الوثائق كانت تخص العرب الحثيين والحوريين و العموريين في غرب شبه الجزيرة العربية دون غيرهم .

أما ملوك الحثيين فجميع أسمائهم — كما وردت في الوثائق الآشورية — عربية ، لنقرأ في سيرة أولئك الملوك عند أنطون مورتغات :

" لقد كان الوريث الشرعي هو أورك تيشوب بن موت إيلي لزوجته الثانية . إنه أول ملك حثي يحمل اسماً حورياً إلى جانب عمه الطموح حثوش إيلي وزوجات جده شو بعلو إيلوم (شوبيلوليوما) اللواتي يعدن إلى أصل حوري⁽¹⁾ ... إن جوهر حياة (شوبيلوليوما) وجميع أعماله وانتصاراته إنما هي تدبير الربة عشتار العلية ، والذي كان هو نفسه كاهنا، بحيث كان يضع يدها ، التي تسيّر وتقدر كل أمره ، فوق كل

* نرجح ان تنعكس أهمية منطقة غرب الجزيرة وخطوطها التجارية في وثائق إيبلا بعد الفراغ من دراستها .

(1) انطون مورتغات ، "تاريخ الشرق الأدنى القديم"، ص 231 — 231 .

شيء . فمن بين أربعة أطفال لأبيه ، وهم ثلاثة ذكور وابنة واحدة ، كان حاثوش إيلي* أصغرهم سنا ، وبعد مرض خبيث أصابه في شبابه طلبته الربة عشتار العلية من والده حيث يحدثنا " وهكذا أخذني والدي — أنا الصغير — وسلمني إلى الربة لخدمتها " وبعد وفاة الوالد ، واعتلاء الأخ الأكبر سنا "موت إيلي" العرش "أصبحت عندئذ لدى أخي قائدا لمعسكر الجيش . كما منحني أخي أيضا شرف منصب "المشيد الكبير" حتى أعطاني أيضا البلاد العليا لإدارتها وهكذا وضعت البلاد العليا تحت تصرفي . وكان "ابن زيدا" قد أدار قبلي هذه البلاد ، ولأن الربة عشتار قد حمتني ، وقربني أخي إليه ، قام فحسدني الناس لذلك " ، غير أن وشاية " ابن زيدا " دفعت بـ "موت إيلي" لبدأ بتحقيق ضد أخيه، إلا أن الربة عشتار قامت وأنقذت حبيبها من المحاكمة ...

" وإذا ما ساءت أحوالي يوما ما ، رأيت عظمة قدرة الربة ، بكل وضوح ، خاصة أثناء مرضي ، حيث ساندتني الربة بكل وضوح ، إذ أمسكت سيدي الربة بيدي في جميع المناسبات وفي كل أمر ولأنني كنت رجلا لقي مساعدة بمثل هذا القدر ، علم بقدرة الربة ، لم انطلق قط في عملي من التصرفات الشريرة للبشر ..."⁽¹⁾ إلا أن "موت إيلي" قام فعفا عن أخيه وأسماء قائدا لمعسكر الجيش ، وآمرا لسلاح محاربي العربات . " وهكذا فقد نصرته عشتار على سائر أعداء الإمبراطورية الحثية فعندما رافق أخاه أثناء الزحف ضد مصر قاد بنفسه القوات المساعدة في المناطق التي أدارها بنفسه غير أن "بن زيدا" حاول الوشاية ضده ، لذا قام "حاثوش إيلي" فاستغل المناسبة في طريق عودته من مصر ليحرر نفسه ومدينة الربة " العلية " من القذارة التي لحقت بهما على يد عدوه القديم "ولقد قمت بالطقوس المرعية للربة ، وتزوجت بابنة "بيتي بشاري" كاهن عشتار استجابة لرغبة الربة"⁽²⁾ " .

• حاثوش وتعني المثبت ، المقوي والاسم يعني المثبت ربي ، أي بحول الرب .

(1) المصدر السابق ، ص 234 — 235 .

• لقد وردت الكلمة هنا في الأصل وفي الترجمة كاسم للمدينة بين أقواس ، وليس كصفة لعشتار (2) المصدر السابق .

نعتقد أن ليس ثمة داع للقول بأن جميع أسماء بيت الملك عربية سورية وأن اقترانهم بالإله العربي "إيل" واضح كل الوضوح ، كما هو دور الربة عشتار أيضا ، وأن مدينة عشتار التي دعت بـ " العلية " عبثا يصمت عنها الباحثون . ونحن إذا ما نظرنا إلى خارطة شبه جزيرة العرب نجد أن مدينة " العلية " هذه ما تزال قائمة ، وهي واقعة بين غامد ووادي "حلي Hali " شرقي جبل الظلما على طريق القوافل الدولي .

إن كثرة الآثار الدينية ، والفنية ، والكتابية ، في بوغاز كوي وما حولها ، التي تدل في معظمها على أنها آثار عربية سومرية ، أو أكادية ، أو بابلية ، أو آشورية ، جعلت المؤرخين يقفون حيارى : فهم ، من جهة ، في صدد الحديث عن " إمبراطورية حثية " هندو أوروبية مزعومة ، وهم ، من جهة أخرى ، أمام وقائع المكتشفات الأثرية العربية . إن ذلك لم يجد تفسيراً عند مؤرخ مثل مورتغات غير أن يعتبره "تسامحا فكريا الذي هو أشد ما يميز الحياة الدينية للإمبراطورية الحثية" (1) ! ...

وفي أيام الملك الآشوري " تغلات فلاسر " (تجلات بعل أزر) وأثناء قيامه بإعادة توحيد الدولة السورية في عام 1094 ق.م تقول المصادر إنه "بعد أن اجتاز الجبال (طورو) إلى بلاد الحثيين ادعى الحصول على ولاء جبل وعراد وصيدا وغيرها من المدن الفينيقية كوريث الحثيين في سيطرتهم على سوريا" (2)

أية مفارقة جغرافية في مثل هذه الأقوال : تغلات فلاسر* يدخل بلاد الحثيين شمال طوروس حسب تفسيرهم المزور ويتنزح ولاء المدن الفينيقية هناك من أرواد إلى صيدا ! والحقيقة هي أنه ، واستمرارا لعملية التنافس بين الوكلاء المحليين في المنطقة نفسها ، فقد أسرع تغلات فلاسر وعبر طورو (الجبل) ، وليس جبال طوروس ، إلى أرض الحثيين الكنعانيين في بلاد غامد وزهران وهو اسم الولد البكر لكنعان وليس في الأناضول ، وحصل فعلا على وكلاء من جبلا (قبة إيل) ، (والتي يعتبرونها حتى اليوم

(1) المصدر السابق ، 243 .

(2) المصدر السابق .

* إن "تغلات فلاسر " هذا هو ملك عشيرة "أشور" في شرق زهران وليس ملك سوريا ، وقد اجتاز الجبال الجرد إلى أرض الحثيين غربا في غامد وزهران وليس جبال طوروس شمالا كما يتخيل المؤرخون .

جبل اللبنانية المتوسطة خطأ)، وعراد ، على وادي عرادة في بلاد زهران ، وكتبت باليونانية Arados واعتبرت خطأ أرواد الجزيرة السورية المتوسطة ، وصيدا التي هي صيدون في الجبال في بلاد غامد و زهران وليس في لبنان المتوسطة ، وقد حددت مدونة التوراة موقعها بأنها شمال جبيل ، وأنها من مدن الجبل وليست على الساحل ، وذلك عكس مدينة صيدا اللبنانية المتوسطة .

والآن لنستعرض بعض أسماء الأماكن أو المدن التي ارتبطت بحركة الشعب الذي دعي باسم " الحثيين " :

• نهارين

لقد وردت في المدونات الكنعانية " نهرن " أي " الأنهار " ووردت لأول مرة من قبل في الترجمة السبعونية باليونانية تحت اسم ميزوبوتاميا Mesopotamia أي " وسط الخصب " ، ثم أخذت الترجمات الأخرى ، ومن بينها الآرامية ، والسريانية ، والعبرية (الحديثة) ، عنها هذه التسمية ، ثم جرى تغيير المكان ، كغيره من الأمكنة التوراتية ، إلى أماكن أخرى معروفة في المنطقة الشمالية من سوريا ، حيث يسهل التصور أن المقصود بـ " النهرين " دجلة والفرات . ثم ظهرت على أساسها التسمية الأخرى " بلاد الرافدين " . وإذا عدنا إلى مدونات التوراة بحثنا عن الصيغ التي وردت بها هذه التسمية " أرم نهرم " ، أي " أرام النهرين " ، نجد ما يلي :

1 — لقد رفض إبراهيم أن يتزوج ابنة اسحق واحدة من بنات الكنعانيين المقيم بينهم ، فأرسل أحد خدمه إلى حاران في أرام النهرين من أجل أن يأتي بواحدة من بنات أقربائه زوجة لاسحق . " ثم أخذ العبد عشرة جمال من جمال مولاه ومضى وجميع خيرات مولاه في يده . فقام وذهب إلى أرام النهرين إلى مدينة ناحوم . وأناخ الجمال خارج المدينة عند بئر الماء وقت المساء عند خروج المستقيات " (تك 24: 10) . وناحور هو اسم شخص أي إلى مضرب خيامه .

وقد كنا بينا من قبل أن المسافة بين حاران وأرض كنعان حيث يقيم إبراهيم وأهل بيته لا تتعدى 40 — 50 كيلو مترا قياسا على الطريقة والزمن الذي تستغرقه سفراهم

إليها ومنها . ومما يؤكد صحة ما قلناه من قبل بخصوص حاران ، التي هي في " آرام النهرين" ، كل النصوص الأخرى التي وردت فيها عبارة "آرام النهرين" في مدونات التوراة . فلنقرأ :

" لا يدخل عموني ولا مؤابي في جماعة الرب . حتى الجيل العاشر لا يدخل منهم أحد في جماعة الرب إلى الأبد . من أجل أنهم لم يلاقوكم بالخبز والماء في الطريق عند خروجكم من مصر . ولأنهم استأجروا عليك بلعام بن بعور من فتور آرام النهرين لكسي يلعنك " (تثنيه 23: 15) . إن في إمكان أي إنسان أن يسخر من مثل هذه الجغرافيا : بنو إسرائيل يخرجون من وادي النيل إلى أرض كنعان في فلسطين ، لم يستقبلهم سكان مؤاب في شرقي الأردن بالخبز والماء في الطريق عند خروجهم من مصر ، بل استأجروا عليهم واحدا من منطقة دجلة والفرات لكي يستزل عليهم لعنة الرب!

قد يقول قائل إنه ليس ضروريا أن يكون بلعام بن بعور مقيما آنذاك في آرام النهرين ، أي في منطقة دجلة والفرات ، وإنما قد يكون المقصود بذلك هو أنه في أصله ينتمي إلى أسرة من تلك المنطقة ، أي أنه من فتور آرام النهرين وليس مقيما فيها آنذاك . وكلا يبقى مجال للشك في عدم جدوى مثل هذا الافتراض نعود إلى أحداث هذه الواقعة ذاتها كما سردتها مدونات التوراة " وارتحل بنو إسرائيل ونزلوا في عربات مؤاب من عبر الأردن أريحا . ولما رأى بالاق بن صفور جميع ما فعل إسرائيل بالعموريين فزع مؤاب لشيوخ مديان : " الآن يلحس الجمهور كل ما حولنا كما يلحس الثور خضرة الحقل . وكان بالاق بن صفور ملكا لمؤاب في ذلك الزمن . فأرسل رسلا إلى بلعام بن بعور إلى فتور التي على النهر في أرض بني شعبه ليدعوه قائلا هوذا شعب قد خرج من مصر هوذا قد غشى وجه الأرض وهو مقيم مقابلي . فالآن تعال والعن لي هذا الشعب " (عدد 22 : 1 — 6) .

فتصوروا الخارطة التي يتعامل بها التوراتيون والمؤرخون اليوم . ملك قرية مؤاب في شرقي نهر الأردن مقابل أريحا يقول لشيوخ مديان التي هي — في زعمهم طبعاً — في شمالي البحر الأحمر عند التقاء قرنيه (خليج السويس وخليج العقبة) ، من أجل أن يرسلوا

رسلا إلى بلعام في شمال سوريا ، في حاران ، ما بين الفرات والبلخ كي يأتي وبلعن تلك الجماعة البدوية التي تريد أن تمر بأرض مؤاب !

ولقد جاء في المزامير : "لامام المغنين على الشوسن . شهادة مذهبه لداود للتعليم — عند محاربته أرام النهرين وأرام صوبه " (مزامير 60 : 1) فداود الذي لاحقه " الملك " شاول من قبل⁽¹⁾ ، وجعله يهرب من مغارة إلى مغارة ، حتى صار يطلب أن يكون عبدا عند الفلسطينيين ويقاتل معهم إلى جانبهم ضد جماعته⁽²⁾ إذا بنا نراه فجأة ، يقاتل من مغارته أو خيمته أو بيته في فلسطين ، أرام النهرين في شمال سوريا!

لكن سكان " أرام النهرين " الذين يحاربهم داود نراهم يتحولون إلى سادة لبني اسرائيل : " فحمي غضب الرب على اسرائيل ، فباعهم بيد كوشان رشعتائم ملك أرام النهرين ، فعبد بنو اسرائيل كوشان رشعتائم ثمان سنين " . (قضاة 3 : 8)

إن أحدا لن يخطر له أن الآراميين في أعالي الفرات استعبدوا بني اسرائيل في فلسطين ! على أية حال نحن كنا قد بينا كيف أن حاران مركز " أرام النهرين " ليست في شمال سوريا ، وإنما هي على نهر الفرات شرقي الجرود (يردن) ، شرقي بلاد زهران في شبه جزيرة العرب ، وأن مصر التوراة ليست مصر وادي النيل ، وإنما هي بلاد المصريين في جنوب غرب زهران ، وأن أرض الحثيين والكنعانيين هي في جنوب بلاد غامد وزهران ، وبالتالي فإن فلسطين هي في أرض كنعان هناك ، لأنها أرض الفلسطينيين سكان بلدة " فلسة " وقراها .

(1) صموئيل الأول 22 : "فأذهب داود من هناك ونجا إلى مغارة عذلام"
(2) " وقال داود في قلبه إني سأهلك يوما بيد شاول فلا شيء خير لي من أن أفلت إلى أرض الفلسطينيين فيبأس شاول مني .. فقال داود لأخيش إن كنت قد وجدت نعمة في عينك فليطوني مكانا في إحدى قرى الحقل فأسكن هناك . ولماذا يسكن عبدك في مدينة المملكة معك . فأعطاه أخيش في ذلك اليوم صقلع . لذلك صارت صقلع لملوك يهوذا إلى هذا اليوم . وكان عدد الأيام التي سكن فيها داود في بلاد الفلسطينيين سنة وأربعة أشهر .. وكان في تلك الأيام أن الفلسطينيين جمعوا جيوشهم لكي يحاربوا إسرائيل فقال أخيش لداود أعلم يقينا أنك ستخرج معي في الجيش أنت ورجالك فقال داود لأخيش لذلك أنت ستعلم ما يفعل عبدك فقال أخيش لداود لذلك أجعلك حارسا لرأسي كل الأيام " (صموئيل الأول 1 : 27 ، 28،5 : 2،1) .

ومن المفارقات التي لم تجد حلا عند الباحثين — كما سبق أن ألقينا — أن تحوتمس الثالث كان يحتل منطقة الفرات العليا ويدمر ميثاني في الوقت الذي اعتبر فيه المؤرخون أن "الإمبراطوريتين" الحثية والميتانية كانتا في عنفوان التوسع والقوة والازدهار .

" كانت الحملة الثامنة التي أسفرت عن انضمام منطقة الفرات من أعظم حروب تحوتمس في آسيا ، وقد توج هذه الحملة بإقامة لوحة للحدود شرقي الفرات الذي عبره غالبا عند كركميش . ولوحة أخرى في جوارها قرب تلك التي أقامها والد تحوتمس الأول . وهب بلاد ميثاني في طريقه . وعندما كان يتقدم باتجاه مجرى النهر كان ينهب المدن ويخربها ، ويقطع أشجار البساتين ويقتلع الذرة ويترك الأرض فقرا وربما قام بأكثر من حملة على هارين وفي إحدى هذه الحملات بنى زوارق من خشب الأرز في الجبال شرقي جبيل ونقلها في عربات تجرها الثيران حتى الفرات لكي ينقل الجيوش إلى هارين . وفي طريق عودته كان يصطاد في المستنقعات غربي هذا النهر صادف قطيعا من الفيلة وكان أحدها على وشك قتله بضربة من نابيه لولا يقظة أمنمحب الذي أسرع لقطع خرطوميه بضربة من سيفه"⁽¹⁾

إن في هذا القول ثلاث نقاط أساسية لابد من إبرازها . هذه النقاط هي :

1 — بينما تؤكد كل المصادر التزويرية قوة وتوسع ما دعي بـ "الإمبراطوريتين" الحثية والميتانية في القرن الخامس عشر قبل الميلاد ، حتى صارت كل منهما تسيطر غربا حتى البحر المتوسط ، وجنوبا (تسيطر الحثية) حتى دمشق ، نرى أن تحوتمس الثالث (1490 — 1436 ق.م يحتاج سوريا كلها حتى يصل إلى أعالي الفرات ، وينهب ميثاني ، دون أن تشير المصادر إلى أي ذكر لمقاومة من أية جهة حثية كانت أم ميتانية أم غيرها . وتبرز بذلك إمبراطورية ثالثة في المنطقة نفسها وفي الزمن نفسه ، دون أن تستوقف مثل هذه الظاهرة العجيبة اهتمام أحد من أولئك الباحثين ، طالما أن النتيجة أو المحصلة من مثل هذا " الخطأ " هي طمس الوجود العربي السوري .

(1) Breasted, Ancient Record , vol. II 588

و: فيليب حتي ، " تاريخ سوريا ومن ضمنها لبنان وفلسطين ، الجزء 1 ، ص 142 .

2 — يشير النص إلى أن تحوتمس "بنى زوارق من خشب الأرز في الجبال شرقي جبيل ، ونقلها في عربات تجرها الثيران حتى الفرات لكي ينقل الجيوش إلى هارين " ! لتتصور معا العمل العسكري ، والجغرافيا : جيش تحوتمس في لبنان ، شرقي بلدة جبيل التي تقع على ساحل المتوسط ، يقطع خشب الأرز ، ويبني الزوارق ، لا ليركب البحر المتوسط ، بل لينقلها في عربات تجرها الثيران عبر جبل لبنان . ثم عبر جبال سوريا وسهولها ، وصولا إلى هارين التي تقع على الفرات . وهنا يجري إنزال الزوارق من على العربات إلى النهر الذي لا يتجاوز عرضه بضعة أمتار ، ويعبر الجيش نهر الفرات ! أية شعوضة هذه التي بقيت قرابة ألفين من السنين يتناقلها المؤرخون ، وتدرس في الجامعات دون أن تدور في خلد أحد عبارة بسيطة كهذه : غير معقول !

والحقيقة هي أن جبيل هذه على نهر الليث (الكلب) لا على شاطئ المتوسط وإن نقل الزوارق منها إلى منطقة بني سار عند نهر الثرات (يلفظ أيضا " الفرات " للإبدال الشائع بين الثاء والفاء) تبقى فكرة معقولة عسكريا ، ومن هناك ، يمكن أن ينتقل الجيش من وادي الثرات شرقا إلى آرام نهرن إذ المسافة ، كما سبق أن ذكرنا لن تتجاوز خمسين كيلومترا ، لكن الانحدار في الزوارق مع مجرى النهر في هذه المسافة أيسر من اقتحام البراري والغابات ، إذ إن المنطقة كانت ، كما تشير المصادر ، كلها منطقة غابات مكتظة بالحيوانات والوحوش .

3 — أما النقطة الثالثة التي تستلفت النظر فهي الحديث عن وجود قطعان الفيلة في منطقة الفرات ! إن من المعلوم أن شبه جزيرة العرب كانت في ذلك الزمن تعج بالغابات والحيوانات والوحوش الكاسرة ، وقد سبق أن استعرضنا ذلك وأوردنا بعض ما قاله المؤرخون والدارسون عن أن هذه الأودية كانت في الحقيقة أنهارا في يوم من الأيام ينبض فيها عرق الحياة ... وأن المنطقة الواقعة بين مكة وعرفة كانت حتى القرن السادس عشر الميلادي مغطاة بالأشجار والعوسج والسلم ، حتى إن اللصوص كانوا يتخذونها مخبأ يهاجمون منها القوافل ... وأنه كان يعيش في شمال إفريقيا وفي جزيرة العرب حيوانات

من نوع ما يوجد الآن في زيمبابوي وروديسيا ⁽¹⁾. أما أن تصادف قطعان الفيلة في شمالي سوريا على نهر الفرات ، فهذا لا يقره ولن يقره أحد .

إن من المعروف أن السوريين أدخلوا الفيل إلى البلاد لأول مرة في العهد السلوقي . فقد استقدموا مجموعة من الفيلة الهندية مع مجموعة من الرجال المدربين على القتال بها من أجل مقابلة الخيول الإفريقية في المعارك ضد البطالمة . ويصف لنا المؤرخون لقاء تلك الفيلة مع الفيلة الأفريقية "في ساحة المعركة في مغنيزيا ورافيا . وانتصرت الهندية التي كانت تتفوق بعددها على الإفريقية في المعركتين مما لا يمكن تبرير الاستنتاج بأنها كانت أقوى" ⁽²⁾. "كان يقود فصيلة الفيلة في ساحة المعركة ضابط خاص .. وقد استخدمها السلوقيون أيضا من أجل اقتحام موقع حصين . ويعتبر الفيل من هذه الوجهة دبابة العصر القديم" ⁽³⁾. وكانت تعتبر الفيلة في هجومها على المشاة أعداء مميتة للفرق التي تواجهها لأول مرة ويزول تأثيرها أمام المشاة المحررين . وعندما علم الرومان بوجود عدد كبير من الفيلة الحربية في سوريا أرسلوا في عام 163 ق.م بعثة للقضاء عليها . وأثار القضاء على هذه الحيوانات الداجنة والنادرة أحد مواطني اللاذقية بحيث طعن رئيس البعثة طعنة مميتة حين كان يتطيب من الحمناز يوم بتلك المدينة . وبعد ذلك بوقت قصير استحوذ شخص سلوقي على فيلة أحد البطالمة ، ولكن أحد منافسيه جرده منها . وهذا آخر ما نسمع عنها" ⁽⁴⁾

وكلمة مختصرة إن قطعان الفيلة كان يمكن أن تصادف في بعض مناطق شبه جزيرة العرب ، لا في شمالي سوريا في سهول الفرات !

ثم إن لائحة الغنائم التي غنمها تحوتمس الثالث في غزوته تلك تقف شاهدا آخر على البلاد المعنية لا علاقة لها قطعاً بسورية المتوسطة ، أو بمنطقة الفرات الشمالية . فلقد "سجل تحوتمس انتصاراته على جدران معبده في طيبة ، وذكر أسماء المدن التي فتحها .

(1) انظر: تشايلد ، "الشرق القديم" ، طبعة سنة 1964 ، ص 15-16 سومر (1949) ج 2 ، ص 130: دكتور جواد علي "تاريخ العرب قبل الاسلام" ج 1 ، ص 97 - 102 .

(2) انظر : Livy .BK .XXX Vil.ch.39.13 polily ,BK , V, ch.84

(3) W.H.Tarn "Hellenistic Military and Naval Development" P.95

(4) فيليب حتي ، " تاريخ سوريا ومن ضمنها لبنان وفلسطين " الجزء 1 ، ص 292 .

وتشيد لائحة الغنائم التي حملها معه من عاج ، وأبنوس ، وحلي ، وفضة ، وحجارة كريمة ، وخشب الخرنوب المطلي بالذهب ، بغنى البلاد وحضارة سكانها الرفيعة⁽¹⁾ . إن مثل هذه الغنائم ليست غنائم أساسية في منطقة الفرات ، وإن وجدت إنما تكون نادرة ومستوردة من جنوب شبه جزيرة العرب وإفريقيا والهند . وقد أكدت المكتشفات نادرة وجود العاج والأبنوس في شمال سوريا . ومما يزيد الأمر وضوحاً هو ما سجله الكهنة على لسان الإله آمون حامي تحوتس بشكل أغنية للنصر :

"لقد عبرت مياه المنحنى العظيم لنهارين

إنهم يسمعون صرختك للحرب ويزحفون إلى أوكارهم

إنني أنزع من منخرهم نسمة الحياة وأجعل

رهبة جلالتك تحترق قلوبهم

لقد أتيت لأجعلك تدوس زعماء زاهي

إنني أطرحهم تحت قدميك في البلاد كلها⁽²⁾ .

فبلاد زاهي هي عند نهارين إذن ، وقد درج المؤرخون على اعتبار "نهارين" بلاد مساين النهرين Mesopotamia فتكون بلاد زاهي هي إذن بلاد ما بين النهرين . لكن المؤرخين أنفسهم يقولون "إن السهل الفينيقي وفلسطين ، كانا يسميان زاهي Zahi"⁽³⁾ وبالطبع لا بد من هذه الأكذوبة لإتمام اللوحة المزورة .

فكيف يطلقون اسم "زاهي" على مناطق مختلفة في سوريا الطبيعية كلها فتصبح هذه التسمية شاملة للعراق ولبنان وفلسطين الحالية ؟

الحقيقة هي أن الخلط في أسماء الأماكن والمواقع الجغرافية هو الذي أدى بهم إلى هذه النتائج .

إن بلاد زاهي تشمل أرض الكنعانيين والفلسطينيين فعلاً ، لكن في شبه جزيرة العرب ، وليس في أي مكان آخر . إنها بلاد زهران قرب "نهرن" الآرامية على نهر الثرات . إن

(1) المصدر السابق ص 142 .

(2) المصدر السابق .

(3) المصدر السابق ، ص 138/ح .

كلمة " زاهي " تعني المشرق ، وكانت تكتب قبل التصويت " زه " وإن كلمة " زهران " مؤلفة من كلمتي " زه " و " رن " . وإن " رن " هي من أسماء إله الشمس وتعني : السيد ، الناظر ، العين ، المرتفع . الذي يرى ويرعى ويراقب كل شيء . وقد سميت باسمه منطقة الجبال والوديان (رنيا) التي ما تزال قائمة حتى اليوم . ومن مرادفاتها أيضا " رع " . الإله الراعي ، واسمه بالكنعانية " راعوم " ، وهو إله الشمس عند الكنعانيين وفي وثائق أوغاريت⁽¹⁾

إن بلاد " زاهي " هي إذن بلاد " زه رن " (زهران الحالية) . وتعني بلاد الشمس المشرقة أو مشرق الشمس . وإن تحوتمس لم يدخل البلاد السورية المتوسطة إطلاقا : إنه لم يدخل فلسطين ، أو لبنان ، ولم ينقل الزوارق على عربات تجرها الثيران من جيبيل في لبنان إلى شاطئ الفرات في شمال سوريا من أجل أن يعبر مخاضة عرضها بضعة أمتار ، ولم يلتق بقطعان من الفيلة هناك ، ولم يغنم العاج والأبنوس من هناك ، وباختصار : لقد كانت حملته إلى منطقة طرق القوافل شرقي البحر الأحمر في شبه جزيرة العرب ضمن حملاته التأديبية للملك المخطات . هذا إن كان حقا هو من قام بتلك الحملة وليس وكيله على الحطة .

وعندما تحدثنا عن " الخاييرو " قلنا إن التسمية وصفية طبقية ، وأن هؤلاء كانوا يتواجدون بصورة مكثفة في المناطق الزراعية من بلاد " نهرن " وكنعان ، ويسطون على القرى والمزارع ويحثون عن عمل . وقد دأب المؤرخون على اعتبارهم موجودين في ما دعي بـ " بلاد الرافدين " رغم كل الارباقات والاشكالات والتناقضات التي تبرز أمامهم في النص الواحد .

يقول فيليب حتي : " ويظهر الخاييرو لأول مرة في الحوليات الحثية في عهد مرشلش الأول (حوالي 1600 ق.م) الذي استأجرهم . وفي رسائل تل العمارنة نرى الخاييرو يتعاونون مع المتمردين ضد الفراعنة وفي 1367 ق.م يستولون على شكيم . وقد وجهت ستة من هذه التحارير (رقم 258 — 290) من عبد خييا تابع فرعون في

(1) انظر : 'بيللا - عبلاء ' ، ترجمة قاسم طوير ، ص 56 ، 58 .

أوروسالم إلى اخناتون يعبر فيها عن ولائه ويطلب المساعدة ضد الخابيرو الذين يهددون . وفي جميع هذه الوثائق يبدو الخابيرو كجماعة متعددة العناصر وبدون أوصاف مشتركة ومعبأة لاشك في بلاد الرافدين⁽¹⁾ "

التناقض واضح ومكشوف : الخابيرو معبأون في بلاد الرافدين (في العراق) أو في شمال سوريا ، ويحتلون شكيم في فلسطين وهو كما سبق أن مرر معنا شكيم بن حمور ، ويرسل عبد خيبا ، وكيل ملك مصر ، من أور وسالم في فلسطين يشكو من تصرفاتهم .

ومرشلش الملك الحثي يستأجرهم كل هذا دفعة واحدة وفي بضعة أسطرا وفي الوقت الذي تتكشف فيه الحقائق ، وتجمع فيه المصادر والمكتشفات الآتارية جميعاً — كما رأينا — على أن " نهارين " ، هي آرام النهرين وبالتالي ، فهي مركز عربي آرامي ، وهذا ما أكدته أيضاً مدونات التوراة في كل المواضع التي ورد فيها ذكر " آرام النهرين " فإننا نجابه — رغم ذلك كله — بعملية الخلط بين سكان آرام النهرين والخوريين من جهة ، وبين سكان القبائل الهند وأوروبية أو الآرية — كما يشتم مورتغات — خلف حدود سوريا الشمالية من جهة أخرى : " وكان يعرف المصريون ميتاني باسم نهارين .. وكان الخوريون في ميتاني يشكلون اكثرية السكان ، ولكن الأرستقراطية والملوك كانوا هنوداً أوروبيين . وكان ملوك ميتاني في معاهداتهم مع جيرانهم يتوجهون إلى ميثرا وفارونا وغيرها من الآلهة التي تعبد في الهند ، وأسماء الملوك مثل دواشرتا هي أسماء هندية أوروبية واضحة !

" وكان توشراتا (ذو شراتا) هذا أشهر الحكام الميتانيين . وقد وجدت تحارير كثيرة في تل العمارنة موجهة منه إلى امنحوتب الثالث (توفي 1375 ق.م) وإلى امنحوتب الرابع (توفي 1358 ق.م) والتحارير مكتوبة بالأكادية وهي اللغة الدولية في ذلك العصر . غير أن تحريراً واحداً كتب بالخورية لغة الدولة الرسمية ، وكانت إحدى شقيقات توشراتا بين نساء امنحوتب الثالث ، كما أن إحدى بناته تزوجت امنحوتب الثالث ومن بعده امنحوتب الرابع .

(1) فيليب حتي ، "تاريخ سوريا ومن ضمنها لبنان وسوريا" الجزء 1 ، ص 173 .

ويخاطب توشرانا امنحوتب الثالث في إحدى رسائله بهذه الكلمات :

"إلى ميموريا الملك العظيم ، ملك مصر ، أخي ،
صهري الذي يحبني والذي أحبه ،

هكذا يقول توشرات الملك العظيم ، هموك ،
إنني في حالة حسنة ، عسى أن تكون في حالة حسنة ، وبيتك ،
وشقيقي ، وسائر نسائك وأولادك ،
ومركباتك وخيولك ، وجيشك ،

وبلادك وجميع ممتلكاتك ، ليكثر السلام عليك"⁽¹⁾

إننا نلاحظ كيف اختلط الآراميون سكان "آرام النهرين" بالحوريين سكان المشنة شرقي
زهران بالقبائل الهندو أوروبية المختلفة . فلما كان موقع الحوريين على الطرف الشمالي
الشرقي لبلاد كنعان في زهران ، فقد نقلوا جغرافيا إلى الزاوية الشمالية الشرقية من
سوريا الطبيعية ككل . إن كل هذه التناقضات لم تكن لتستوقف أحدا من المؤرخين
طيلة هذه القرون الطويلة : فالميتانيون هم حوريون ، الحوريون أكثرية السكان ،
والملوك هندو أورييون ، والدليل ذو شراتا . لكن "ذو شراتا" هذا أو "توشراتا" هو
اسم عربي خالص وليس "هندو أوروريا" خالصا كما يقول حتي ، إنه ذو الشرى ،
وهو رب السراة أي الجبال في شبه جزيرة العرب .

لقد وقع المؤرخون في المزالق التوراتية الكبيرة . ومن هذه المزالق كلمة "ملك"
و"مملكة" ولقد كنا أوضحنا أن هذه الكلمة كانت تطلق على كل من يتزعم عصبة من
الناس ، أو قرية ، أو مزرعة ، أو حي ، أو بلدة ... الخ ، وفجأة نرى تلك المزارع
والقرى والعشائر التوراتية الصغيرة تتحول إلى ممالك بل إلى إمبراطوريات . لقد عرفنا
أن ميتاني هي بلدة مثنان أو المشنة شرقي زهران ، وقد "عرفها المصريون أيضا باسم
نهارين" و"نهارين" نفسها هي آرام النهرين التوراتية التي مر إيضاحها ، غير

(1) فيليب حتي ، تاريخ سوريا ومن ضمنها لبنان وسوريا" الجزء 1 ، ص 162 - 163 .

أننا نراها فجأة تتحول إلى ما يدعى بـ " مملكة ميتاني " عند بعض المؤرخين ،
وإلى " الإمبراطورية الميتانية أو الحورية " عند بعضهم الآخر لنقرأ :
" كانت مملكة ميتاني خلال القرن الرابع عشر في وضع قلق حيث كانت محصورة بين
الدولة الحثية الناشئة والإمبراطورية المصرية الآخذة في التوسع في الجنوب . وتفيدنا
الوثائق المصرية السابقة لهذا العهد أن تحوتمس الأول وتحوتمس الثالث وامنحوتب الثاني
قاموا بحروب موفقة ضد همارين"⁽¹⁾ . فعلاوة على هذا التصور "السريالي " للجغرافيا
الذي يضع الميتانيين (الذين من المفروض أنهم في شمال شرق سوريا) في الوسط بين
الحثيين والمصريين فقد رأينا كيف أنه في هذا الوقت بالذات توجد ثلاث
" إمبراطوريات " على رقعة واحدة من الأرض في "شمال سوريا" ، وها نحن نلتقي
بها ثانية دون أن يخطر ببال أحد من المؤرخين أن هذا التقاطع على أرض واحدة في زمن
واحد ، علاوة على الوجود الآشوري أيضا ، إنما لا يعدو في حقيقته وجود الحثيين (بني
حث بن كنعان في زهران) ، والمصريين (بني مصرلم في غرب زهران) ، والآشوريين
(بني آشور بن ددان أحفاد مدين بن إبراهيم بين غامد وزهران) ، والحوريين (من
أمراء بني سعيير في جبال زهران) ، والميتانيين (سكان بلدة ميتانة في شرق بلاد زهران) .
والطريف في الأمر ، بل الغريب فيه ، أن العواطف العرقية لم تتمكن من ألا تعلن عن
نفسها لدى بعض المؤرخين ، مثل مورتيغات ، عندما ظن أن هؤلاء الحوريين قد يمتنون
إلى العرق الآري المختلق بصلة ما . وبالرغم من أنه لم يعثر على أي مكتشف خلفه
أولئك الحوريون في شمال سوريا ، فقد بقي التاريخ يدون ، بطريقة ما ، لحساب تلك
القبائل التي لا يعرف عنها أي شيء لنقرأ : " وبالرغم من أن الحفريات لم تستطع أن
تقدم لنا شيئا أثريا من قلب هذه المنطقة ، فإننا نلمس في كل خطوة نخطوها ، على
عكس العالم الكاشي ، قوة الحياة الديناميكية الجبارة تحدد هذا الشعب وطبقته الحاكمة
لتغير معالم الحياة الحضارية لكافة مناطق شمال ما بين النهرين ، بما في ذلك بلاد آشور
وشمال بلاد الشام ، وذلك من خلال الكثر الحضاري الذي خلفوه لشعوب الشرق الأدنى

(1) المصدر السابق ص 163 .

في كافة المجالات الحضارية الخصب الغزيرة . ومن ناحية أخرى فلا يمكننا البت فيما إذا كان الفضل الأول والكبير في ذلك يعود إلى الشعب الحوري نفسه ، أم إلى طبقته القائدة من الهنود ، والتي تنتسب إليه السلالة الميتانية المالكة .. في الوقت الذي لا نعلم فيه شيئا عنهم سوى أن آلهة القسم عندهم كانت: اندرا ، ميترا ، فارونا ، نازاتيا ...⁽¹⁾ هكذا يكتب مورثغات لنا التاريخ . إنه واحد من " النماذج " الكثيرة التي نرسل أبناءنا ليتعلموا على أيديهم في الخارج من أجل التعرف على تاريخنا !

هكذا يكتب المؤرخون تاريخنا ، وهكذا يسقط كل العلم ، والموضوعية ، والمنطق ، والتاريخ في لحظة واحدة ! ألا يذكرنا هذا بإصرار أولئك المؤرخين جميعا على إلصاق الحضارة العربية السومرية بقبائل المغول الهمجية ، والتي صاروا ، دونما أي وازع من علم أو منطق ، يدعوها بـ " السومرية " ؟ فبالرغم من أنهم لا يعرفون عنهم شيئا سوى أنهم (أي تلك القبائل المجهولة الاسم) كانوا يحلفون بآلهة هندية فإن " هذا الكثر الحضاري " عند شعوب الشرق الأدنى لابد أن يكون من مخلفاتهم ! ولابد هنا من القول أن جميع هذه الأسماء التي اعتبرها هندية هي عربية سريانية وليس لها أي معنى بأية لغة أخرى .

• كركميش

تتألف الكلمة من " كرك " بمعنى " حصن " ، وأميش وتعني حوض المياه وبه اقترن لقب ملك أوروك جلجامش (مؤلفة من جلج . بمعنى كاشف السر وأميش وتعني الحوض . أما كمش و " كموش " فهو من أسماء تموز حين موته في الصيف وتعني اليباس والانكماش والذبول) وقد امتد تقديسه من جزيرة العرب إلى (إيبلا) غربا⁽²⁾ ، وقد كان إله بني مؤاب في غرب شبه جزيرة العرب، في شرق زهران .

(1) انطون مورثغات ، " تاريخ الشرق الأدنى القديم " ص 215 .

(2) انظر : إيبلا - عبالا ، ترجمة قاسم طوير ، ص 38 .

وقد ورد ذكره في التوراة وقدم له الملك سليمان الذبائح ، و"عمل سليمان الشر في عيني الرب ولم يتبع الرب تماما كداود أبيه ، حينئذ بنى سليمان مرتفعة لكموش رجس المؤابيين على الجبل الذي تجاه أورشليم"⁽¹⁾

وقد أكدت جميع المصادر على أن كركميش قريبة حثية ، يحيط بها الآراميون من كل جانب تقريبا . وقد نتج عن سوء تفسير الأماكن التوراتية أن المؤرخين اعتبروا موقع كركميش هو موضع مدينة جرابلس الحالية في شمال سوريا ، بينما هي في الحقيقة على نهر الثرات شرق زهران ، وبينها وبين أراضي الكنعانيين في بلاد غامد تقف جبال لبنان* التي ينبع منها رنية وروافد الثرات .

يقول فيليب حتي نقلا — كعادته — عن غيره : "يستدل من هذه المدونات الآشورية البابلية وغيرها أن قسما كبيرا من بلاد الرافدين وسوريا الشمالية والوسطى قد اجتاحتها في خلال القرنين الرابع عشر والثالث عشر جماعات سامية ، وأن هذه المناطق بدأت تتخذ صفة آرامية باستثناء جيوب حثية قليلة منها كركميش . وقد أدى ضغط الآراميين المتواصل إلى طغيانهم التدريجي على الأموريين والحوريين والحثيين في وادي العاصي والمنطقة التي تليها في الشمال وإلى امتصاص هؤلاء وطردهم . وكان جبل لبنان عائقا في طريق هذا التوسع نحو الغرب واستمر فيه ازدهار الجماعات الحثية والأمورية بينما بقيت المدن الكنعانية في السهل الساحلي بدون أن تمس . وأصبحت دمشق** ، وهي ، مركز دولة آرامية فيما بعد ، يسكنها الآراميون في 1200 ق.م"⁽²⁾

وليس عسيرا أن نلاحظ كيف يضطر المؤلف إلى "التزحلق" على الجغرافيا من شمالي سوريا إلى دمشق من أجل أن يخلق حدا أدنى من منطق العلاقات بين المعطيات التي أمامه ، وتذهب كل جهوده سدى في كل ما ينقله عن غيره دون تمحيص . ففي الوقت الذي

(1) الملوك الأول 11 : 6 - 7 .

- كنا قد أوضحنا موقع هذا الجبل الذي يلي "أرحو" (أريحا) إلى الجنوب حتى شمال جذانة تقريبا وكلمة لبنان جمع لبان ويعني شجر اللبان أو الصنوبر أو البخور أو العرعر
- وردت في رسائل تل العمارنة بصيغة ذومشكا ، وذو مشاكا ، وتيمشجي ، وهي قرية ذو مسك شرق غامد .

(2) فيليب حتي ، " تاريخ سوريا ومن ضمنها لبنان وفلسطين " الجزء 1 ، ص 175 .

عرفنا من قبل عن تراكم أربع امبراطوريات "منضدة" بعضها فوق بعض في الزمان الواحد والمكان الواحد ، وهي الحثية ، والميتانية ، والمصرية ، والاشورية ، نراه يفاجئنا بطغيان الوجود الآرامي على المنطقة برمتها (باستثناء كركميش) ، فيتوضعون بدورهم فوق " الامبراطوريات " الأربع في الوقت نفسه . فهو يعرف أن الآراميين يتواجدون في ممالكهم على الفرات (بناء على التغيير الذي حدث من ثرات إلى فرات) ، ويتقدمون إلى دمشق ، لكنه لا يعرف أن دمشق هذه هي الترجمة الخاطئة لكلمة " ذو مسك " الواقعة شرقي غامد ، مما اضطر إلى أن " ينزلق " بهم من حاران في شمالي سوريا إلى دمشق وعلى طول وادي العاصي حسب تصوره) . ولما لم يتمكن الآراميون من عبور الجرود الجبلية (يردن) إلى أراضي كنعان في بلاد غامد بسبب مقاومة السكان الزراعيين هناك يفصلهم عنهم جبل لبنان فعلا ، وجد المؤلف أن عليه أن ينزلق جنوبا قليلا أيضا ويجعل جبال لبنان المتوسطة حائلا عن تقدم الآراميين غربا إلى أراضي كنعان ، متجاهلا هذه المرة أن أراضي كنعان كان ، هو وغيره ، قد اعتبرها في فلسطين وليس في لبنان ، لكن الأمر استعصى أمام جبال لبنان بالذات ، ولم يعد يرى مجالا آخر للالتحاق جنوبا ، سواء أكانت أرض كنعان في الجنوب أم في جنوب الجنوب !

• الأردن ولبنان

ولقد أشارت التوراة إلى موقع جبل لبنان هذا في أكثر من موضع . لقد وقف يشوع بجماعته عند بوابة أريحا في الجرود الجبلية وأمام المخاضات (يردن) من أجل عبورها إلى أرض كنعان . ونظر ودعا ربه قائلا : " دعني أعبر وأرى الأرض الجيدة التي في عبر الأردن هذا الجبل الجيد ولبنان " ⁽¹⁾ فلبنان هو إذن في غرب الأردن " يردن " أي المخاضات التي عليه أن يعبرها مع جماعته إلى أرض كنعان ، مع أوديتها ومخاضاتها التي تملأها عادة مياه السيول بين فترة وأخرى . وما أن عبروا حتى رأى يشوع نفسه عند أريحا : " وكانت أريحا مغلقة مقفلة بسبب بني إسرائيل . لا أحد يخرج ولا أحد يدخل ،

(1) تثنية 3: 25 .

فقال الرب ليشوع : انظر قد دفعت بيدك أريحا وملكها جابرة البأس⁽¹⁾

" ووقفت المياه المنحدرة من فوق .. انقطعت تماما ، وعبر الشعب مقابل أريحا"(يشوع : 3 ، 16) إنها مياه السيل إذن التي كما تتدفق فجأة تنقطع فجأة .

إن جبل لبنان ، إذن ، مقابل أريحا ، حيث عبر يشوع مع جماعته إلى أرض كنعان ، فكيف يصح هذا مع لبنان وفلسطين شرقي المتوسط ؟ وينتج عن هذا أن كركميش أيضا هي في المنطقة ذاتها . إن هذا وحده هو الذي يفسر كل الأحداث التاريخية التي لها علاقة بتلك المناطق الجغرافية دونما أي لبس أو تناقض .

أما جبل "لبنان" فكانت تطلق هذه التسمية على كل الجبال التي تغطيها فصيلة الصنوبريات ، وهي جمع لبنان أي الصنوبر ، الكندر ، العرعر ، المر

• قادش

كانت تكتب قديما "قدش" بدون تصويت وتعني "قدس" . وقد وردت في مدونات التوراة باسم "قدش برنع" (قادش برنيغ) ، وتعني قدس في رنيا (أو "رنيع" لاحتمال الإبدال بين الهمزة والعين) و"رنيا" هو الإله الشمس ، ورب المرتفعات في بلاد الشمس المشرقة . وباسمه تسمى وادي رنيا المنحدر من هذه الجبال نحو الشرق ليتحد بنهر الثرات الذي ينبع هو أيضا من هذه الجبال . وإذا ما دققنا في موقعه الجغرافي من خلال مدونات التوراة نجد الآتي :

1 — حينما هربت هاجر من وجه سيدتها سارة زوجة إبراهيم وجدها " ملاك الرب على عين الماء في البرية . على العين التي في طرق شور فدعت اسم الرب الذي تكلم معها أنت إيل رئي لذلك دعيت البئر بئر لحى رئي هاهي بين قادش وبارد"(تك 16 : 7 ، 13 ، 14) .

فإذا كان إبراهيم وزوجته مقيما في قرية أربع (حبرون) التي جعلت فيما بعد الخليل في فلسطين ، وإذا هربت هاجر من هذه القرية من وجه مولاتها ، فهل يخطر في بال أحد أنها سوف تخرج وحيدة إلى برية شور التي حددها جغرافيو التوراة على الجانب

الشرقي من خليج السويس ؟ علما أن موقع أحداث هاجر وابنها اسماعيل واضح في التراث العربي والاسلامي في شبه جزيرة العرب .

على أية حال ، لقد ورد ذكر قادش برنيع في عدة مواضع مقترنا بأسماء جغرافية أخرى يمكن أن تلقي الضوء أكثر . فعندما خرج موسى بجماعته من أرض المصريين إلى أرض الكنعانيين ، ودار من خلف أرض الفلسطينيين حتى لا يصطدم بهم ، وصل إلى أرض الأدوميين ، وكان الأدوميون من ألد أعداء جماعته ، لذلك فقد عارضوا ، هم وجيرانهم المؤابيون ، ولم يستجيبوا لرجاء موسى عن طريق رسله بالسماح لهم بالمرور في أرضهم عند صعودهم من مصر مما اضطر موسى وجماعته إلى الإقامة في قادش برنيع . ثم ساروا في القفر وداروا بأرض أدوم وأرض مؤاب .

" وأرسل موسى رسلا من قادش إلى ملك أدوم . هكذا يقول أخوك* اسرائيل قد عرفت كل المشقة التي أصابتنا .. وهانحن في قادش مدينة في طرف تخومك دعنا نمر في أرضك . لا نمر في حقن ولا في كروم ولا نشرب ماء بئر في طريق الملك نمشي لا نغيل يمينا ولا يسارا حتى نتجاوز تخومك . فقال له أدوم لا تمر بي لئلا أخرج للقائك بالسيف . فقال له بنو اسرائيل في السكة نصعد وإذا شربنا أنا أو مواشي من مائك أدفع ثمنه . لا شيء . أمر برجلي فقط فقال لا نمر . وخرج أدوم للقاءه بشعب غفير وبيد شديدة وأبى أدوم أن يسمح لإسرائيل بالمرور في تخومه ، فتحول اسرائيل عنه .

فارتحل بنو اسرائيل والجماعة كلها من قادش وأتوا إلى جبل هور . ولما سمع الكنعاني ملك عراد الساكن في الجنوب أن إسرائيل جاء في طريق أতারيم حارب اسرائيل وسبى منهم سبيا .

وارتحلوا من جبل هور في طريق بحر سوف ليدوروا بأرض أدوم .." (عدد 20: 14، 16

— 22، 21: 1، 4)

في هذا النص نجد أن "قادش" تقترب بالأسماء الجغرافية التالية علاوة على اقتراها بيرية شور ورنيا : أرض أدوم ومؤاب ، جبل هور ، عراد ، الجنوب . إن "قادس" تتبع بلاد

• باعتبار أن عيسو (الذي هو أدوم) أخو يعقوب (الذي هو اسرائيل) .

"رنيـا" أي زهران حاليا ، وهي في البرية ، أي من الشرق ، وعلى تخوم أرض أدوم التي تفصلها عن أرض كنعان عند بلدة "عراد" ، وعراد هذه هي البلدة التي تقع على وادي عرادة الذي احتفظ باسمه حتى اليوم ، ويخترق زهران الخصيبة من الجنوب إلى الشمال وقد ورد ذكرها باليونانية باسم Arados وترجمت تزويرا إلى اللغات المختلفة باسم "أرواد" أي الجزيرة السورية المتوسطة .

أما لفظة "الجنوب" التي قابلتها في الأصل اليوناني Midi فهي اسم مكان وليست دلالة على جهة ، وهي "ميدي" و"نجي" حاليا جنوب أهما .

إن وجود برية شور — حسب الجغرافيا التوراتية الفلسطينية — على الجانب الشرقي من خليج السويس ، ووجود الأدوميين هناك ، وفي الوقت نفسه فإنهم يحاورون المؤابيين ، والمؤابيون والعموريون وضعتهم الجغرافيا التوراتية التزويرية في شرقي نهر الأردن قبالة أورشليم (!) يخلق فوضى جغرافية وتاريخية لا مثيل لها : هاجر السيدة الحامل تخرج من خيمتها في مغارة أربع (حبرون) التي هي مغارة المكفيلة نفسها أيضا ، والتي دعوها فيما بعد "الخليل" من أمام وجه مولاتها ، وإذا بها على خليج السويس في برية شور عند قادش برنيع . ويتوقف موسى في قادش برنيع على تخوم سيناء ويقول لمن شرقي أورشليم في شرقي نهر الأردن : اسمح لي أن أمر على رجلي في أرضك لأعبر إلى أرض كنعان التي غرب النهر!

والأنكى من هذا كله هو أن بلدة "قادش" ما تلبث — كعادة المواقع الجغرافية التوراتية ، بعد أن تم نقلها — أن تتلقى شمالا ، ودفعة واحدة ، لتحط رحالها على نهر العاصي في سوريا الشمالية . ثم تشهد أعنف المعارك بين تحوتمس الثالث والهكسوس .

" ولم تتوطد سيادة مصر نهائيا في سوريا التي أصبحت جزءا من الإمبراطورية المصرية الناشئة إلا بعد أن قام المحارب المشهور في مصر القديمة وهو تحوتمس الثالث 1490 — 1936 ق.م بست عشرة حملة حربية . وتتصف الحملة الأولى ، وهي أهم الحملات ،

بسقوط مجدو* في عام 1468 ق.م حيث اصطدم الجيش المصري بحلف مؤلف من 350 أميرا . وكان الهكسوس الذين طردوا حديثا من مصر العمود الفقري لهذا الحلف . وكان أمير قادش على العاصي رئيسه . وقد دارت رحى الحرب تحت أسوار المدينة المحصنة تحصينا قويا .. وتقدم تحوتمس نحو الشمال ، وفي خلال حملته الخامسة استولى على أرواد ، وقد استخدم فرعون في بيانه الحربي الذي أعلن فيه سقوط هذه المدينة البحرية العظيمة الواقعة في جزيرة أرواد العبارات التالية :

"انظر! إن جلالته قهر مدينة أرواد وما فيها من قمح ، وقطع جميع أشجارها الجميلة . انظر! لقد كان فيها محاصيل كل بلاد زاهي . لقد كانت جنائهم ملأى بشمارها وخمورهم كانت في معاصرهم كال مياه الجارية ، وجوبهم على الجلول كانت أكثر من رمال الساحل . وقد غمر الجيش بالحصة التي نالها"⁽¹⁾ وسوف نترك الحديث عن الهكسوس الآن ، لنكتفي هنا بالإشارة الى اقتران قادش وأرواد في هذا النص ، إذ يهزم تحوتمس أمير قادش التي على العاصي ويحتل جزيرة أرواد "ويضع سوريا كلها في قبضته" .

الحقيقة إن " تنفيد" الامبراطوريات فوق سوريا في زمن واحد ، كما سبق أن أشرنا ، صار لازمة لابد من ترديدها بعد أن تم تغيير الأماكن والمواقع الجغرافية التوراتية في ترجماتها ، دون أن يستوقف ذلك أحدا من المؤرخين رغم كل الشناعة التي يموت بها المنطق والعلمية والموضوعية في مثل هذه الأقوال المتناقضة التي صارت أقرب إلى الشعوذة منها إلى التاريخ .

وفوق هذا ، فإن اللوم كله يقع على المؤرخين ، أو بالأحرى على "نقلة" التاريخ ، من العرب الذين يعرفون ، أو هكذا يفترض على الأقل ، جغرافيا المواقع والبلدان والمدن

• يعلق فيليب حتي حول هذا الاسم قائلا : " إن السحر الذي يحيط بهذا الاسم مصدره آية غامضة في سفر الرؤيا 16:16 حيث يرد باسم ارمجدون Armgedon . وقد وضع الرومان جيوشا بقربها .

النظر : فيليب حتي ، "تاريخ سوريا ومن ضمنها لبنان وفلسطين" الجزء 1 ، ص 140/ح .
(1) انظر : "Ancient Records", Voll.ii, P461 , Breasted
و: فيليب حتي ، "تاريخ سوريا ومن ضمنها لبنان وفلسطين" الجزء 1 ، ص 141 .

المحلية . فجزيرة أرواد السورية لا يمكن أن تكون مدينة تغص بالأشجار والبساتين وبالثمار والحبوب . فهي أرض صخرية منذ أن وجدت ، ولا تصلح لشيء إلا للملاحة وصيد البحر . ثم إن الحبوب التي " على الجلول " " لا بد وأن تستلفت نظر أبناء المنطقة على الأقل . فالجلول هي قطع الأرض المستصلحة المتدرجة على سفوح الجبال بعضها فوق بعض ، وبالتالي فإن البلدة أو المدينة المعنية لا بد وأن تكون مدينة جبلية ، علاوة على ما تفيض به جنائنها بالثمار ، ومعاصرها بالخمور " كالمياه الجارية " . ثم إن كل محاصيل " بلاد زاهي " تتجمع فيها .. ولم يعد ثمة مجال للشك في أنها تقع في بلاد زهران . وأن تسميتها باليونانية تكشف عن حقيقة اسمها دونما حاجة إلى الاجتهاد ، أو الظن ، أو التحوير في الاسم . إنها Arados ، وبجذف النهاية اليونانية تصبح " أراد " التي هي " عراد " * على نهر عرادة المحافظ على اسمه حتى اليوم في زهران . أما آرام جدون ، " التي نقلت في الترجمة التوراتية باسم "مجدو" فهي على نهر قيشون (هو قيس حاليا) ، وتنحدر روافده من شمال شرق بلاد زهران "جاء ملوك، حاربوا . حينئذ حارب ملوك كنعان في تعنك على مياه مجدو . بضع فضة لم يأخذوا . من السموات حاربوا . الكواكب من حبكها حاربت سيسرا . نهر قيشون جرفهم " (قضاة 5: 19 — 21) .

وهكذا يتضح لنا مرة أخرى ، أنه لا " الحثيون " ولا " الميتانيون " ولا تحوتمس الثالث أو غيره ، احتل سوريا و أقام عليها لنفسه "امبراطورية" . إن هذا يثبت استمرار تراث الدولة السرجونية الموحدة على الأرض العربية السورية ، بعكس كل ما حاول تكريسه وترسيخه في الأذهان ، مزورو التاريخ والجغرافيا عبر كل هذه القرون الطويلة . غير أن مراحل الضعف التي كانت تنتاب هذه الدولة — كأية دولة أخرى قديمة أو حديثة — بين فترة وأخرى كانت تحد من فعاليتها في صد هجمات الشعوب والقبائل الغازية من الشمال والشرق التي كانت تنقض لتدمر وتقتل وتنهب ، ثم تعود إلى معاقلها خلف الجبال المنيعه عند أول تصد حقيقي من قبل الدولة . وكان ذلك من

• لقد وردت في جدول الملك شيشاتاق بهذه الصيغة "عردى"

شأنه أيضا أن يؤثر على درجة السيطرة على الجناح الجنوبي الغربي للدولة ، حيث خطوط القوافل والتجارة الدولية ذات الأهمية البالغة في غرب شبه الجزيرة العربية . وإن هذا كان يزيد من وقع وتيرة التنافس بين الملوك الكلااء على المحطات من أجل نهب خيراتها والاستئثار بها .

• دمشق

إن الشكل الذي يتخذه اسم دمشق في المدونات التوراتية "ماشك" "ذمشك" وفي رسائل العمارة وردت بصيغة دومشكا Dumshqa (رسالة رقم 107 سطر 28) دي مشكا Dimashqa (رسالة رقم 197 سطر 2) ، تيمشجي Timashgi (رسالة رقم 53 سطر 63) وهي كلها صيغ مختلفة لقرية "مسك" أو "ذو مسك" الآرامية ، شرقي زهران وهي بالتالي ، مجاورة لقرى الكنعانيين والآشوريين والكوشيين والمصريين والفلسطينيين ، وفي بقعة واحدة لا تتجاوز مساحتها بضعة كيلومترات مربعة . وقد تمت عملية الخلط في التفسير الجغرافي للتوراة بينها وبين مدينة دمشق السورية في المنطقة الغربية ضمن الاختلاطات الجغرافية الكثيرة الأخرى .

لقد حاول ملوك هذه القرية (مسك ، أو ذو مسك) مرارا عديدة أن يستغلوا الوجود الآرامي المتعاضم في البرية شرقي الجرود على ضفاف رنية والثرات من أجل أن يوسعوا دائرة نفوذهم على القرى الكنعانية المجاورة من جهة الغرب . وقد اصطدموا مرارا كثيرة بمقاومة الحثيين الكنعانيين في جواره ، كما خضعوا أكثر من مرة للهيمنة المصرية من الغرب ، وتحالفوا معهم مرارا كثيرة من أجل الاستقلال بالنفوذ في تلك المنطقة ضد التنافس القائم عليها بين ملوك وادي النيل من جهة وملوك الدولة السورية في بابل أو آشور من جهة أخرى .

وقد عكست مدونات التوراة كثيرا من جوانب هذه العلاقة : " وكان في السنة الثانية عشرة في الخامس عشر من الشهر أن كلام الرب كان إلي قائلا : يا ابن آدم ولول على جمهور مصر .. قد نزلوا اضطجعوا غلغا قتلوا بالسيوف يكلمه أقوياء الجبابرة من وسط الهاوية مع أعوانه . هناك آشور وكل جماعتها قبوره من حوله . كلهم قتلوا

ساقطون بالسيف .. هناك ماشك وتوبال وكل جمهورها حوله قبورها ، هناك أدوم وملوكها وكل رؤسائها الذين مع جيروهم قد ألقوا مع القتلى بالسيف فيضطجعون مع الغلف... يراهم فرعون ويتعزى عن كل جمهوره "(حزقيال 32 : 17 ، 18 ، 21 ، 22 ، 29 ، 30) .

إن من الواضح هنا مغزى هذه الإشارة إلى مصير ماشك ، وتوبال ، ومصر وآشور ، وأدوم في بلاد زهران وغامد على يد ملك بابل ، الذي كان — على عادة ملوك الدولة السورية — يقوم بين الفترة والأخرى بحملته التأديبية على أطراف الدولة في الشمال والشرق ضد القبائل التي تهدد الثغور وخطوط التجارة ، وفي غرب شبه جزيرة العرب ضد " ملوك " تلك القرى والمخيمات الذين باقتناهم من أجل السيطرة على قوافل التجارة وأتاوقها ونتيجة لشعورهم بالبعد عن مركز الدولة ، فقد كانوا يهددون سلامة التجارة الدولية التي تأتي إلى خزائن الدولة السورية بالذهب والفضة والسلع النادرة وبالأرباح الطائلة .

أما القرى التي تعددها مدونات التوراة وتجعلها تابعة لـ "دمشق" فهي : اماتس ، أرفاد ، ربلة ، باطح ، أحلب ، حلبا ، أفيق . وقد كان سهلا على واضعي جغرافيا التوراة أن يستبدلوا الأسماء الكبيرة الشهيرة بالأسماء الصغيرة المجهولة المشابهة بصورة من الصور . فجعلت مدينة " حلب " بدلا من قرية " أحلب " ومازال المشرفون على الآثار في سوريا يفتشون عن " أرفاد " قرب حلب ، وجعلوا مدينة حماة بدلا من عشيرة حمات أخي حث بن كنعان والتي وردت في الأصل "جي — عم — تي" وهي أرض ضمن أرض حث بن كنعان حسب التوراة نفسها . ولما كانت "دمشق" التوراتية (مسك) تقع على أنهار الكوشيين الذين صاروا " الأثيوبيين " في التزوير فإن ذلك يعني أن " دمشق " التوراتية كانت تسيطر من حلب شمالا إلى أثيوبيا جنوبا ! وهكذا تظهر على الساحة السورية إمبراطورية جديدة يتم " تدشينها " هكذا ، وبكل بساطة ، فوق الإمبراطوريات الخمس الأخرى التي مررنا على ذكرها في الزمان الواحد والمكان الواحد دون أن يستدعي ذلك وقفة تأمل بسيطة ، إن لم نقل مراجعة ، لهذه الجغرافيا التي بين أيدي

المؤرخين ، ولهذا التاريخ القائم على أساسها حتى اليوم .
فقد جاء عن " دمشق " في سفر اشعيا : " يا أرض حفيف الأجنحة التي في عبر أنهار
كوش المرسله رسلا في البحر وفي قوارب من البردي على وجه المياه ... قد خرقت
الأنهار أرضها إلى موضع اسم رب الجنود جبل صهيون " (أشعيا 18 : 1 ، 7)
إن دمشق هذه تقع على أنهار كوش ، ولم يذكر أحد من المؤرخين حتى الآن أن
الكوشيين كان لهم أي ذكر في سوريا المتوسطية ، وأن هذه الأنهار تخرق دمشق إلى
جبل صهيون ، وهذا القول ينطبق فقط على قرية " ذو مسك " جنوب شرقي الظفير
الحالية . ثم إن هذه الأنهار تحمل قوارب من البردي إلى البحر ، ومهما اختلفت
التفاسير في كلمة " بم " سواء اعتبرت نهرا أم بحرا أم جهة الغرب أم الجنوب ، فكل ذلك
لا يذكرنا بمدينة دمشق من قريب أو بعيد ، خاصة وقد جعلوا في تفسيرهم أن " كوش "
هي اثيوبيا ! .

الفصل الثالث عشر

أرض كنعان

لقد اعتبر المؤرخون الذين أسسوا تاريخهم المتناقض على التفسيرات المزورة للأسماء الواردة في جغرافيا التوراة ، أن المقصود بأرض كنعان هو ما يدعى اليوم بفلسطين ، كما دأبوا على إقناع العالم كله بأن الأرض التي جاء موسى بقومه إليها هي أرض فلسطين ، وأن الرقعة من القرى التي غزاها أو دمرها يشوع (حسب مدونات التوراة) هي في فلسطين . فلنقرأ في مدونات التوراة إذا ، عن هذه الأرض التي (ضربها) يشوع من ناحية الغرب من الأردن .

" وهؤلاء هم ملوك الأرض الذين ضربهم يشوع و بنو إسرائيل في عبر الأردن غربا : من بعل جاد في بقعة لبنان إلى الجبل الأقرع الصاعد إلى سعين ، وأعطاهما يشوع لأسباط إسرائيل ميراثا حسب فرقهم " (يشوع 12 : 7)

فلنتأمل معا هذه الجغرافيا التوراتية التي ظل المؤرخون وأساتذة التاريخ و ما زالوا يدرسونها ويأخذون بها حتى اليوم : نحن نقف على نهر الأردن مقابل أريحا (حيث عبر يشوع) و ننظر إلى أرض كنعان التي تمتد أمامنا غربا والتي ضربها يشوع "و أعطاهما لأسباط إسرائيل ميراثا " ، إذا بما تمتد من لبنان إلى الجبل الأقرع ، و بكلمة أخرى إنها أرض طرابلس و طرطوس و اللاذقية ! أما سعين فهو أحد أولاد أدوم الذي هو عيسو أخو يعقوب و قد دعي الجبل باسميهما معا : أدوم ثم سعين . وقد حدد الجغرافيون التوراتيون موقع "أدوم" على الجانب الشرقي من خليج السويس . فلنتأمل هذا " الجبل الأقرع " الذي يقع غرب نهر الأردن ، و يقع شمال لبنان وسوريا و "يتزل " إلى خليج السويس في مصر ! ثم إنه الجبل الأقرع في شمال اللاذقية .

أما القرى (الممالك) والمواقع التي تضمها هذه الأرض فهي " في الجبل والسهل والعربة والسفوح والبرية والجنوب : الحثيون والأموريون و الكنعانيون و الفرزيون

و الخويون و اليبوسيون : ملك أريحا واحد . ملك عاي التي بجانب بيت إيل واحد .
 ملك أورشليم واحد . ملك حبرون واحد . ملك يرموت واحد . ملك لغيش واحد .
 ملك عجلون واحد . ملك عراد واحد . ملك لبننة واحد . ملك علاّم واحد . ملك
 مقيدة واحد . ملك بيت إيل واحد . ملك تفوح واحد . ملك حافر واحد . ملك افيق
 واحد . ملك تشارون واحد . ملك مادون واحد . ملك حاصور واحد . ملك
 شمرون مرأون واحد . ملك أكشاف واحد . ملك تعنك واحد . ملك مجدو واحد .
 ملك قادش واحد . ملك يقنعام في كرمل واحد . ملك دور في مرتفعات دور واحد .
 ملك جوييم في الجلجال واحد ملك ترحته واحد . جميع الملوك واحد و ثلاثون "

(يشوع 12: 8 - 24) .



أسرة عربية في جزيرة العرب

إن هذه المواقع ليست إلا أسراً و مزارع صغيرة و بيوتا و منازل و مغاور و مضارب
 للخيام يتزعم كلا منها " ملك " . و لم يكن ملوك بني إسرائيل إلا من هذه الشاكلة لهؤلاء
 الملوك ، كما سوف نرى ، كما إن هذه الممالك لا تختلف عن قرية أربع (التي هي
 مغارة حبرون أو المكفيلة) ، التي نصب إبراهيم خيمته تحت شجراتها بين بني حث
 الكنعانيين إن لم تكن أقل شأنًا منها بكثير .

وهذه الأرض هي " عبر الأردن غربا " . وقد كنا قد أوضحنا أن الأردن ليس المقصود به " نهر الأردن " وإنما " يردن " (جرد - ن) أي الجرود الجبلية و أحيانا " يردن " . بمعنى المخاضات . التي تكثر فيها مياه السيول في أواخر الربيع و الصيف في شبه جزيرة العرب نتيجة للأمطار الموسمية . وتلك الحالة هي التي واجهها يشوع مع جماعته حينما عبروا مخاضات السيول المنحدرة من الجرود (يردن) عند أريحا . " والأردن ممتلئ إلى جميع شطوطه كل أيام الحصاد . وقفت المياه المنحدرة من فوق " (يشوع 3 : 15 ، 16) . كما أننا أوضحنا من ذي قبل حقيقة الأرض المعنية بالوعد لإبراهيم ، التي رآها بعينيه و تمشى فيها ، ونقل خيمته من موضع إلى موضع فيها .

وهكذا تصبح أرض الكنعانيين هي القرى المنتشرة في الأرض الممتدة من جبل جاد (الذي دعي مرة بعل جاد ومرة الجبل الجيد) الملاصق لجبل لبنان (أي اللبان والصنوبر) . إلى جبل صفون . و إن كل ترجمة أخرى لهذه البلاد إلى اسم " سوريا " أو " فينيقيا " أو فلسطين إنما هي إحدى عمليات الخلط الكبرى التي أضاعت حقائق التاريخ و الجغرافيا معا . علما ان جاد هو أحد أبناء يعقوب ، أي حيث كان يرعى أغنامه .

• فلسطين

يقول جيمس برستد : " و كانت فلسطين الجنوبية البلد الوحيد الذي كان عدد المهاجرين الایجيين فيه كافيا لاحتلاله و تأليف أمة منهم . وهكذا استطاعت قبيلة كريتية عرفت باسم الفلسطينيين أن تبرز لنفسها مقاما وتبني عددا من المدن الزاهرة في القرن الثاني عشر" (1) .

و يقول فيليب حتي ، والذي يكتفي دائما بالنقل مثله مثل معظم أساتذة التاريخ العرب : " و الفلسطينيون من المجموعات الخمس لشعوب البحر الذين أتوا من بحر إيجه . وبعد أن فتح العبرانيون المرتفعات الوسطى بقليل سيطر الفلسطينيون على البلاد

(1) الدكتور جايملس هنري براستد "العصور القديمة" ص 278 .

الساحلية، وقد أدت حركات غامضة للشعوب في آسيا الصغرى و البلاد الايجية في أواخر القرن الثالث عشر إلى تفرق قبائل بكاملها ، فبحثت عن موطن لها في مناطق أقل اضطرابا . وتوافدت جماعات من المهاجرين بينهم قبائل الفلسطينيين بطريق البر والبحر نحو سوريا و بعد تقويضها بعض الدول ، ومنها أوغاريت ، وصلت الساحل المصري . وقد هزمت هناك حوالي 1191 ق.م في معركة بحرية وبرية على يد رعمسيس الثالث ، ولكنه سمح لها أن تتزل بصورة دائمة في ساحل سوريا الجنوبية الذي صار يسمى فلسطينا .. امتد الساحل الذي استولى عليه الفلسطينيون بصورة دائمة من غزة حتى جنوبي يافا . وأهم المدن التي استوطنوها كانت غزة وعسقلان و أشدود و عقرون و جت ..

" وقد نظمت مدغم الخمس بشكل ممالك مدن ، كل منها تحت حكم "سيد" ولكنها جميعها كانت تشكل اتحادا .

" و كانت ذروة قوة الفلسطينيين في النصف الثاني للقرن الحادي عشر ، فقد كسروا العبرانيين حوالي 1050 ق . م . وأخذوا منهم تابوت العهد و حملوه إلى أشدود .. وكانوا متسلطين في عهد الملك شاول (توفي نحو 1004) على مدن بعيدة في الداخل مثل بيت شان . ولا يمكن أن يعني إلا أن الفلسطينيين كانت لهم اليد العليا بالنسبة لبني إسرائيل .

" والذي جعل الفلسطينيين متفوقين بصورة خاصة على أعدائهم هو تفوق سلاحهم الذي كان مصدره معرفة الصهر و استخدام الحديد لأجل أسلحة الدفاع و الهجوم .. " .. وهكذا فإن الفلسطينيين رفعوا ⁽¹⁾ الحضارة السورية من مرحلة البرونز إلى مرحلة أهم و هي عصر الحديد ، و كان ذلك أهم فضل لهم .. ومع الزمن تأثروا بالساميين واندمجوا بهم ، ولم يتركوا إلا اليسير جدا لمعرفة لغتهم و ديانتهم و عمارتهم وسائر مظاهر حضارتهم . وعندما كتب نحما في منتصف القرن الخامس ، لم يذكر الفلسطينيين بل ذكر " الأشدوديين " الذين كانوا يتكلمون بلسان أشدودي . ومن

(1) فيليب حتي ، " تاريخ سوريا ومن ضمنها لبنان وفلسطين " الجزء 1 ، ص 196 ، 198 .

أسماء الأشخاص النادرة التي وصلتنا اسم "أخيش" و من آلهتهم داجون إله الحبوب ، كما يعني هذا الاسم ، وقد اقتبس من آلهة الكنعانيين . وكان مركز عبادته أشدود ، ومقر رفيقته عشتاروت كان في عسقلان ⁽¹⁾.

إن هذه هي مجمل الصورة تقريبا التي يتناسخها المؤرخون حول " الفلسطينيين " . ويجدر أن نلاحظ فيها النقاط البارزة التالية :

- 1 — يفترض المؤرخون أن " الفلسطينيين " قبائل قدمت من البحر المتوسط من ايجة ، أو جزيرة كريت ، دون أن يعثروا على أثر يؤكد ذلك ، أو يتقدموا بأي دليل .
- 2 — تحتاج هذه القبائل المجهولة الأصل جميع " الإمبراطوريات " التي سبق ذكرها وتدمرها ، من الحثية شمالا إلى المصرية جنوبا في وادي النيل ، وفي وقت واحد .
- 3 — " الفلسطينيون " ليسوا دولة أو إمبراطورية ، وإنما هم جزء من مجموعة قبائل مجهولة .

4 — لا يشكلون في " فلسطين " دولة أو قوة موحدة ، وإنما هم موزعون على مجموعة مدن لكل مدينة ملكها المستقل وقد استوطنوا الساحل الذي سمي باسمهم في القرن الثاني عشر قبل الميلاد .

- 5 — " الفلسطينيون متقدمون في استخدام الحديد ، أشاعوا استخدامه في أرض كنعان ، و نقلوا الكنعانيين من عصر البرونز إلى عصر الحديد .
- 6 — " الفلسطينيون " كما ظهروا فجأة ، في أرض كنعان ، لم يخلفوا فجأة غير ما هو كنعاني أو سامي .

7 — آلهتهم آلهة كنعانية ، وأهمها داجون و عشتار .
و الآن لنناقش هذه النقاط .

أولا : إن عملية التبديل في الأسماء و المواقع التي وضعت الإنسان العربي الجاهل أصلا بجغرافيا المنطقة التفصيلية أمام أسماء تاريخية و جغرافية مزورة جاهزة كان عليه أن يعتمد عليها في وضع دراساته التاريخية للمنطقة خاصة و أنه لم يكن يتوفر أي مصدر آخر

يمكن الاعتماد عليه يتمتع بمثل تلك " السمعة " و ذلك الانتشار . وبعد أن أخذت الأرض العربية تتكلم عن نفسها بنفسها ، عن طريق إظهار مخبوءاتها الأثرية ، و كنوزها الحضارية أخذت تتكشف الحقيقة أمام عيون الباحثين يوما بعد يوم ، علاوة على ما تكشفه حقائق الجغرافيا نفسها من عمليات التزوير المفتعلة في الأسماء ، مما كان له انعكاس مدمر على صورة تاريخ الشعب العربي و على وحدته الجغرافية و الثقافية .

إن جغرافيا هذه الأسماء هي في شبه جزيرة العرب ، و في بلاد غامد و زهران تحديدا . فالحثيون هم سكان القرى المتاخمة شمالا للكنعانيين ، في أربع و حصرون و جوارهما ، وهم فصائل من الكنعانيين ، و الحوريون هم سكان جبل سدير (أدوم) شرق زهران ، و الميتانيون هم سكان بلدة ميثانة و جوارها شرق زهران أيضا . و المصريون هم عشيرة مصرا بن حام بن نوح و القرى التابعة لها : تحفنجيس ، نوف ، نو ، فتروس ، و غيرها في جنوب زهران ، أما الفلسطينيون فهم فخذ من عشيرة مصرا و سكان " فلسة " المجاورة للمصريين و للكنعانيين عموما من الجنوب الشرقي . و اسمهم في مدونات التوراة " فلستيم " وتعني " الغزاة ، المحاربين " ، و قد دمرت البراكين و الزلازل هذه القرية قبل القرن الخامس قبل الميلاد و وادي " غط " (جت) ما يزال قرب بصرة شرقي خميس مشيط .

أما كريت المقصودة في التوراة ، فهي منطقة وادي كريت شرق وادي حالي جنوب شرق سودا .

إن الحثيين الكنعانيين و الحوريين و الميتانيين ، سوف ينتقلون إلى شمال ارض كنعان و إلى مقربة من نهر الفرات في آن معا . وهذا مما جعل المؤرخين و الدارسين يقعون في حيرة و ارباكات علمية لا مثيل لها . فقد نبقت أمامهم فجأة مثل هذه الشعوب " و التسميات المبهمة " — على حد تعبير فيليب حتي — دون أن يعثروا على ما يؤكد هذه التسميات في تلك المناطق ، علاوة على أنهم صاروا أمام ضرورة طمس أو اجتياح المنطقة كلها الممتدة من فلسطين إلى الفرات .

إن أية غزوة يقوم بها أحد " ملوك " القرى الحثية الكنعانية ضد " ملك " عشيرة آشورية ، أو حورية ، أو ميتانية ، سوف يصير حكما ، أمام الجغرافيا الجديدة من الضخامة بحيث

يتحول إلى اجتياح حثي للدولة الآشورية السورية ، أو لـ " المملكة الميتانية " . وأكثر من هذا ، فإن اتجهت هذه الغزوة إلى أراضي الكنعانيين — و قراهم المتاخمة لهم جنوبا ، فإنها تفسر على خارطة الأسماء الكبرى ، على أنها اجتياح للبلاد السورية المتوسطية كلها ، التي يسمونها مرة سوريا ، وأخرى فينيقيا ، و ثلاثة بلاد كنعان ورابعة سوريا و لبنان وفلسطين .

و إذا ما حدث أن اتجهت إحدى هذه العشائر في غزوة صوب إحدى قرى المصريين المتاخمة جنوبا فإن هذه القرية الحثية أو الميتانية الغازية سوف تتحول فجأة إلى إمبراطورية تسيطر على الأراضي الممتدة من أعالي الفرات إلى مصر وادي النيل، بينما هي في الحقيقة لا تتجاوز عملية غزو أحد " ملوك " العشيرة الحثية لعشيرة مصرية مجاورة على تخومها ، قد لا يفصل بينهما أي فاصل غير واد أو سفح أو جبل . ومن حسن حظها أو من سوء حظها أن وجدت في بيئة متقدمة في فن التاريخ و الكتابة إذ يوجد دائما من يدون لها تلك الأحداث ، في مدونات التوراة .

و هكذا اختلطت الأسماء ، وتشابكت الحقائق ، وصارت سوريا ساحة تتنضد فوقها أحيانا أكثر من أربع إمبراطوريات دفعة واحدة في وقت واحد معا .

و ها نحن الآن في دراستنا للفلسطينيين أو " فلشستيم " سكان فلشة " التوراتية أمام الظاهرة نفسها . فإن غزوة هؤلاء الفلسطينيين* لبعض القرى الحثية أو الكنعانية أو المصرية المجاورة تصبح عند المؤرخين الذين اعتمدوا جغرافيا التوراة المزورة على الشكل التالي : الفلسطينيين قبائل ، أو مجموعة من القبائل ، ظهرت فجأة في بلاد الحثيين والكنعانيين والمصريين و اجتاحتها جميعا ، ودمرت الإمبراطورية الحثية والميتانية و مملكة أوغاريت و الممالك السورية كلها ، وصولا إلى مصر . وبعد حروب طويلة ضارية برية و بحرية مع المصريين تمكن رعمسيس الثاني من أن يدحرهم (و هذا أيضا افتراض صار ينقل كأنه حقيقة) ، لكنهم يستقرون في ساحل سوريا الجنوبية الذي دعي

• كان لابد من افتراض حدوث معارك برية كبيرة طالما أن التصور قائم على أن الفلسطينيين غزوا جميع الشعوب المنتشرة من غرب تركيا اليوم إلى مصر ، ولا يكون ذلك ممكنا إلا عن طريق البحر .

باسمهم "فلسطين" و بالطبع لم يكن أمام أولئك المؤرخين إلا أن يفترضوا أن قبائل تحتاج سواحل المتوسط الممتدة من شمال مرسين إلى مصر لا يمكن أن تأتي إلا من البحر ، ويجب أن تكون أوروبية متفوقة ! فأطلقوا عليها اسم شعوب البحر . و لما كان الفلسطينيون هم الفئة الغازية للقري الحثية و المصرية ، وكانت قد أشارت بعض المصادر إلى أن الحثيين و الفلسطينيين كانوا قد انتشروا من كريت إلى أرض كنعان ، فقد فسر المؤرخون ذلك بأن تلك الشعوب البحرية إنما قد تعود في أصلها إلى جزيرة كريت مرة و جزر بحر ايجة مرة أخرى . و الحقيقة هي أن ثمة واديان في جنوب بلاد غامد يدعيان بهذا الاسم : فهناك وادي كريت ، شرقي جبل سوده حيث ينبع نهر " حالي " Hali حيث تكثر القرى و المزارع في بقعة من أكثر مناطق شبه جزيرة العرب خصوبة ، وهناك وادي " قريت " جنوب " شمران " في منطقة القنفذة " و هو يتحد مع وادي " جت " (غط) ليكونا وادي ييا الذي يتجه غربا ليصب في البحر الأحمر . وقد ورد اسم وادي " جت " (ينطق بالجمع المصرية) مقترنا بكثير من الحوادث التوراتية .

إن غياب الأصل ، (إذ لا نعرف حتى اليوم لتلك الجماعات التي أطلقوا عليها اسم " شعوب البحر " أي موقع ، و لم يعثر لهم على ذكر إلا في مدونات التوراة) يقترن بغياب المنطق أيضا ، إذ لا يعقل أن تتمكن مجموعة من القبائل ، مهما كانت كبيرة ، أن تغطي المساحة الممتدة من الأناضول شمالا حتى وادي النيل جنوبا ، تكتسح في وقت واحد ، و قد يكون في يوم واحد ، أراضي الدولتين العربيتين الكبيرتين اللتين لم يكن ينافسهما أو يجزؤ عليهما أحد في شيء في ذلك الزمن ، وهما الدولة العربية السورية الممتدة من شمال المضائق حتى بحر العرب ، ومن عيلام و جبال زغروس إلى البحر المتوسط و الدولة العربية المصرية في وادي النيل . و فوق ذلك كله فقد غابت هذه القوة كما ظهرت دون أن تترك خلفها أي أثر ! إن هذا كله هو ما جعل المؤرخين يسردون الوقائع المبنية على التفسيرات التوراتية المزورة بعد ما جرى النقل و التبديل في الأسماء و المواقع الجغرافية و هم يواجهون ، في الوقت نفسه ، تلك الحيرة الكبيرة و ذلك الشك القاتل ، مما جعل أكثرهم تعصبا ضد التاريخ العربي يقف مشدوها أمام هذا

النقص العجيب في تقرير حقائق التاريخ .

يقول أرنولد تويني بهذا الصدد : " و قد دون تاريخ انسياح الشعوب في مصر في قيود معاصرة له . أما في غير ذلك من الأمكنة ، و ذلك باستثناء ما يمكن أن يؤخذ من المعلومات المصرية الموثقة التي قد تشير إلى مناطق خارج مصر ، فإن الدليل المعاصر هو أثري ، أما دليلنا الأدبي فهو رجعي الرواية . إذ أنه مستمد من روايات كانت قد مرت عليها ، في بعض الحالات ، أجيال عدة قبلما* دونت ، و في المنطقة الايجية ثمة تناقضات في عدد من الأمور بين الدليل الأثري و الرواية ، وهذا ينقص من قيمة الرواية ، لكنه لا يضع بين أيدينا المعلومات الإيجية الصحيحة . و تاريخ انسياح الشعوب في حوض البحر الايجي بين نحو 1250 و 950 ق.م يجانبها الكثير من الأحاجي التي لم يستطع الدليل الأثري أن يحلها إلى الآن⁽¹⁾ .

ثانياً : و نحن إذا ما تفقدنا المنطقة التي افترض المؤرخون أنهم نزلوا فيها و استقروا في نهاية القرن الثاني عشر قبل الميلاد بناء على نقل التسمية في " السبعونية " التوراتية من بلاد زهران إلى جنوب سوريا ، نجد أن تلك الموجة البشرية الهائلة التي غطت باجتياحها إمبراطوريات الشرق القديم كلها ، و تغلبت عليها ، و دمرت كثيراً منها ، تزل في خمس قرى صغيرة في جنوبي سوريا هي : غزة و أشدود و عسقلان ، و عقرون و جت و عو ، دون أن تطرد سكانها أو تضيق عليهم أو تشعرهم بوجودها و كأن شيئاً ما لم يكن ، تماماً كما لو أن أسرة ما حلت في ضيافة واحدة من تلك القرى ، و لم يسمع بها أحد و لم تترك أي أثر . إن أحداً لم يأت على ذكر المدن الكبيرة الشهيرة في هذه المنطقة .

ثالثاً : إن أولئك الفلسطينيين " ، إذا ، ليسوا إلا سكان بلدة " فلسة " (فلسة) في سرة زهران و القرى المحيطة بها ، يؤكد ذلك — علاوة على ما ذكرنا — الأمور الأساسية التالية :

• هنا إشارة إلى المصادر التوراتية .
(1) أرنولد تويني ، " تاريخ البشرية " ص 148 .

1— يجمع المؤرخون على أن ظهور الشعب الذي يدعى بـ " الفلسطينيين " يعود إلى القرن الثاني عشر ، وكل ما يعرفونه أنه اصطدم بالحثيين و الكنعانيين و المصريين ، ودمر ممالكهم في هذا الوقت ، لكنهم لا يعرفون أصله ، و لا أرض موطنه ، وكيف وصل وغزا ، وانتصر ، ، واختفى . و كل ما بين أيديهم تفسيرات مزورة لمدونات " التوراة اليونانية " (السبعونية) التي جعلت الأحداث كلها في شرقي المتوسط .

أما قضية ظهور هؤلاء الفلسطينيين في " فلسطين " لأول مرة في القرن الثاني عشر فهي تتناقض مع مدونات التوراة ذاتها . فقد أشارت إليهم مدونات التوراة في أكثر من موضع منذ القرن الرابع عشر أو الخامس عشر قبل الميلاد ، أي منذ زمن إبراهيم وابنه اسحق . (علماً أنهم أرجعوا زمن إبراهيم إلى القرن العشرين أو التاسع عشر قبل الميلاد أيضاً !) .

لقد كان تعامل اسحق المباشر مع ايمالك ملك الفلسطينيين في جرار ، فلنقرأ : " وكان في الأرض جوع غير الجوع الأول الذي كان أيام إبراهيم . فذهب اسحق إلى ايمالك ملك الفلسطينيين إلى جرار . وظهر له الرب وقال لا تنزل إلى مصر " (تكوين 26: 1-2) و " سأله أهل المكان عن امرأته . فقال هي أختي رفقة لأنها كانت حسنة المنظر . وحدث إذ طالت له الأيام هناك أن ايمالك ملك الفلسطينيين أشرف من الكوة و نظر وإذا اسحق يلعب رفقة امرأته . فدعا ايمالك اسحق و قال إنما هي امرأتك فكيف قلت لي هي أختي . فقال له اسحق لأنني قلت لعلي أموت بسببها فقال ايمالك ما هذا الذي صنعت بنا . لولا قليل لاضطجع أحد الشعب مع امرأتك فجلبت علينا ذنبا . فأوصى ايمالك جميع الشعب قائلا الذي يمس هذا الرجل أو امرأته موتاً يموت . وزرع اسحق في تلك الأرض فأصاب في تلك السنة مئة ضعف و باركه الرب . فتعاضم الرجل و كان يزيد في التعاضم حتى صار عظيماً جداً . فكان له مواش من الغنم ومواش من البقر و عبيد كثيرون . فحسده الفلسطينيون . وجميع الآبار التي حفرها عبيد أبيه في أيام إبراهيم أبيه طمها الفلسطينيون و ملأوها تراباً . و قال ايمالك لاسحق اذهب من عندنا لأنك صرت أقوى منا جداً . فمضى اسحق من هناك و نزل في

وادي جرار و أقام هناك . فعاد اسحق و نبش آبار الماء التي حفروها في أيام إبراهيم أبيه و طمها الفلسطينيون بعد موت أبيه " (تكوين 26 : 7-18) .

و يتضح من النص كيف أن الفلسطينيين هم من العرب الحاميين سكان المنطقة الذين عاش بينهم إبراهيم و أولاده . وهذا ما أكدت التوراة نفسها (تكوين 10 : 6، 12 - 14) . ولكن نقل الأسماء من جنوب زهران في شبه جزيرة العرب إلى جنوب سوريا المتوسطة في " التفسيرات " أضاع صواب المؤرخين الذين لم يكونوا يعرفون من جغرافيا البلاد العربية القديمة غير ما تقدمه تلك " التفسيرات المزورة " فكيف يعقل أن يغزو الفلسطينيون سوريا و يحتلون ساحلها الجنوبي ، في القرن الثاني عشر قبل الميلاد ، بينما هم موجودون في المكان نفسه ، وحسب مدونات التوراة ، منذ عهد اسحق ؟ ثم كيف يحتاج و يدمر الفلسطينيون مثل تلك " الإمبراطوريات " و نحن نرى أن اسحق مع عدد من رعاة مواشيه يكاد يصير أكثر منهم و أقوى .

3 — يعزو المؤرخون انتصار الفلسطينيين على بعض " ممالك " (قرى) الحثيين ، والكنعانيين ، والمصريين ، وكذلك على عشائر بني إسرائيل إلى تفوقهم التكنيكي ، فقد كانوا يستخدمون الحديد في أسلحتهم ، وصار " لهم الفضل في إدخال الحديد " إلى أرض كنعان . فقد وردنا ما ذكره فيليب حتي من أن " الذي جعل الفلسطينيين متفوقين بصورة خاصة على أعدائهم هو تفوق سلاحهم الذي كان مصدره الصهر واستخدام الحديد لأجل أسلحة الدفاع و الهجوم .. وهكذا فإن الفلسطينيين رفعوا الحضارة السورية من مرحلة البرونز إلى مرحلة أهم و هي عصر الحديد " (1)

هكذا هم دائما : يعزون كل تقدم في تاريخ المنطقة إلى كذبة مختلفة قادمة من الغرب ! لكن السوريين عموماً كانوا قد اشتهروا بصناعة النحاس والبرونز والحديد قبل غيرهم بمئات السنين ، ومثلهم مثل كل العرب في غرب جزيرة العرب ، يشهد على ذلك ما أورده المؤلف نفسه في مؤلفه نفسه إذ يقول: " و كان الكنعانيون* ، على الغالب ، لا

(1) فيليب حتي " تاريخ سوريا ومن ضمنها لبنان وفلسطين " الجزء 1 ، ص 196 — 198 .
• يطلقها المؤلف على السوريين عموماً .

ييارون في صنع المعادن في عصر البرونز المتوسط والأخير (نحو 2100-1200 ق.م) . فقد كانوا يصنعون النحاس والبرونز بكثرة . وقد أظهر التحليل الكيميائي لنصل فلّس من أوائل القرن الرابع عشر ، اكتشف في رأس شبرا ، ليس معرفة إذابة الحديد فحسب و إنما معرفة مزجه بمعادن أخرى لصنع مزيج الفولاذ . و كان هذا الأمر مجهولاً حتى ذلك الوقت . و اهتم الكنعانيون بالبحث عن المعادن لجعل الحديد قاسياً ، وعن القصدير لأجل مزجه بالنحاس لصنع البرونز . وعن الذهب والفضة ، ولذلك قاموا برحلات طويلة خارج بلادهم⁽¹⁾ .

هكذا ينقل فيليب حتي وكل "النقلة" العرب قولاً ، ثم ما يلبث أن ينقل قولاً آخر مناقضاً للأول دون تبصر! بصرف النظر عن الأخطاء القاتلة الأخرى في النقل كأن يجعل أوغاريت السورية التي تعود إلى الألف السادس قبل الميلاد كنعانية ! ثم إن من دعوا بـ "الهكسوس" و الذين تثبت الوثائق هويتهم العربية من شبه جزيرة العرب ، ومن شرق زهران تحديداً ، كما سوف نبين لاحقاً ، كانوا يتميزون بأسلحتهم الحديدية و عرباتهم المتقدمة . " وبين الأسلحة الجديدة الأخرى التي ظهرت أتى "الهكسوس" بالسيف الحديدي المنحني و القوس المركب الذي ظهر لأول مرة في بلاد الرافدين في سلالة أكادية في القرن الثاني والعشرين " . فكيف ، بعد هذا ، يكون "الفلسطينيون" القادمون في زعمهم من الغرب أول من أدخل صناعة الحديد إلى المنطقة ؟

إن السوريين عموماً كانوا أول من عرف صناعة التعدين ، وبدأ عصر النحاس ، والبرونز ، والحديد ، وأول من صنع الفولاذ ، وقد انتشرت صناعتهم في شتى أرجاء دولتهم من أعالي الفرات و طوروس إلى بحر العرب ، ومن زغروس إلى المتوسط . وإن أحداً لم يكن ليضاهي مجد دولتهم ، أو يدانيه في المجد غير شقيقتهما في وادي النيل . إن آلهة أولئك "الفلسطينيين" آلهة عربية سورية ، وأهمها داجون و عشتار . وإن أكثر الأسماء شيوعاً بينهم و عرفناها كان اسم "أخيش" و هو اسم عربي قديم مكون من

مقطعين : " آ " و تعني "بيت أو "أولاد " و " خيش " و تعني (خيس ، قيس) وتعني غاب الأسد ، ويكون معنى العائلة "بيت الأسد. وإن اسم " أيمالك " لا يحتاج إلى شرح!

4 — وفي أيام موسى (التي يفترض أنها في القرن الثالث عشر أو الرابع عشر قبل الميلاد) نرى أنه يتجنب المرور بأرض الفلسطينيين حين خروجه ويتجه بقومه من أرض كنعان ، تفاديا للصدام معهم . " وكان لما أطلق فرعون الشعب أن الله لم يهدم في طريق أرض الفلسطينيين مع أنها قرية . لأن الله قال لئلا يندم الشعب إذا رأوا حربا و يرجعوا إلى مصر " (خروج 17: 113) .

و بعد موسى ، وفي أواخر زمن يشوع ، تبقى دائرة قرى الفلسطينيين دون أن يقرها أحد إلى جانب قرى كثيرة .

" و شاخ يشوع . تقدم في الأيام ، فقال له الرب أنت قد شخت . و تقدمت في الأيام . و قد بقيت أرض كثيرة جدا للامتلاك ، هذه هي الأرض الباقية كل دائرة الفلسطينيين و كل الجشوريين من الشيحور الذي هو أمام مصر إلى تخم عقرون شمالا تحسب للكنعانيين أقطاب الفلسطينيين الخمسة الغزي و الأشدودي و الاشقلوني و الجشي و العقروني و العوين " (يشوع 13: 1 — 4) . وقد صار " وادي شيحور " الذي يعني بالسريرية الوعر ، المحجر ، صار في التزوير وادى النيل !

5 — وفي أيام داود " سمع الفلسطينيون أنهم قد مسحوا داود ملكا على إسرائيل ، فصعد جميع الفلسطينيين ليفتشوا عن داود . ولما سمع داود نزل إلى الحصن . وجاء الفلسطينيون و انتشروا في وادي الرفائين . فسأل داود من الرب فقال لا تصعد بل در من ورائهم و هلم عليهم مقابل أشجار البكاء (صموئيل الثاني 5: 17 ، 18 ، 22) .

فالفلسطينيون ، كما يظهر هنا ليسوا إلا سكان إحدى القرى ، والمعركة بينهم و بين داود تدور عند بضع شجرات . وهذا شاهد آخر و معركة أخرى :

" وكان لما قام الفلسطيني و مد داود يده إلى الكنف وأخذ منه حجرا و رماه بالمقلع و ضرب الفلسطيني في جبهته فارتز الحجر في جبهته و سقط على وجهه إلى الأرض . فتمكن داود من الفلسطيني بالمقلع و الحجر وضرب الفلسطيني وقتله . ولم يكن

سيف بيد داود فركض داود و وقف على الفلسطيني و أخذ سيفه و اخترطه من غمده وقتله و قطع به رأسه . فلما رأى الفلسطينيون أن جبارهم قد مات هربوا . فقام رجال إسرائيل و يهوذا و هتفوا و لحقوا الفلسطينيين حتى مجيئك إلى الوادي و حتى أبواب عقرون . ثم رجع بنو إسرائيل من الاحتماء وراء الفلسطينيين و نهبوا محلثهم . و أخذ داود رأس الفلسطيني . و أتى به إلى أورشليم . و وضع أدواته في خيمته " (صموئيل الأول 17: 48-55) . بإمكانك الآن أن ترى حجم تلك العشائر ! و بالأخص الفلسطينيين الذي دمروا " امبراطوريات " كبرى !

ولما خرج داود من حصن صهيون هاربا من وجه ابنه ابشالوم و عصابته . فقد خرج إلى جبل الزيتون ثم جاء إلى بحوريم : " و أما داود فصعد في مصعد جبل الزيتون كان يصعد باكيا و رأسه مغطى و يمشي حافيا و جميع الشعب الذين معه غطوا كل واحد منهم رأسه و كانوا يصعدون و هم ييكون .. ولما جاء الملك داود إلى بحوريم إذا برجل خارج من هناك من عشيرة بيت شاول اسمه شمعي بن جيرا . يسب و هو يخرج و يرشق بالحجارة داود و جميع عبيد الملك داود " (صموئيل الثاني 15: 330 ، 116 ، 5) .

و " بحوريم " هو جبل بھر " Buhur " حاليا شرقي " بني سار " حيث ينحدر نھر بھر " Buhur " أيضا .

6 — و بينما كنا قد رأينا أن أرض الفلسطينيين تقع بين مصر و أرض كنعان و بالأحرى على تخوم أرض مصر ، حيث كانت قرية جدا كما ذكر ، و قرر موسى أن يدور من حولها كيلا يصطدم بأهلها ، و يكون ذلك سببا لتقاعس أهلها عن الخروج إلى أرض كنعان ، إذ بها في أرض الكنعانيين أنفسهم " هذه الأرض الباقية . كل دائرة الفلسطينيين و كل الجشورين من الشيحور الذي هو أمام مصر إلى تخم عقرون شمالا تحسب للكنعانيين أقطاب الفلسطينيين الخمسة " (يشوع 13: 2) . و إذا كانت كل مدونات التوراة قد ركزت على الأصول القبلية و العشائرية في التعامل مع أولئك السكان و في تسمياتهم فإن ذلك ليس إلا انعكاسا لدرجة التطور التي كان يقف عليها

جماعة موسى ، والتي لم تكن قد تجاوزت بعد مرحلة العشيرة البدائية و المتخلفة حتى بين العشائر القريبة و المجاورة الأخرى ، في الوقت الذي كانت الدولة السورية قد بلغت شأواً بعيداً في شكل الدولة الكبرى المتطورة سياسياً حقوقياً ، اقتصادياً ، إدارياً ، عسكرياً وثقافياً . إن هذا بالذات كان أحد العوامل الرئيسية التي جعلت تلك الجماعة تفشل في معايشة السكان الآخرين في تجمعاتهم القروية و المدنية المتقدمة . لقد رأينا كيف كانت قرية أربع (حبرون) في أحد النصوص التوراتية التي وردت من قبل حثية ، لكننا نجدها في نص آخر أمورية : "فاجتمع ملوك الأموريين الخمسة ملك اورشليم ، وملك حبرون ، وملك يرموت و ملك لخيث و ملك عجلون " (يشوع 10 : 4) . و عمرا في التوراة هو أخوحت و من أبناء كنعان .

7— إن جماعات موسى البدوية تتعامل مع الجغرافيا ضمن بقعة جد ضيقة من الأرض ، بما ينسجم و حركة المواشي من جهة ، وعمليات السطو الصغيرة و الضيقة من جهة أخرى . إن مغارة مكفيلة التي هي قرية أربع (حبرون) مثلاً تصبح مدينة في مدونات التوراة و يحكمها ملك . وليس هذا فحسب ، بل إن جميع البيوت و مضارب الخيام شبه الثابتة و المستقرة التي يقيمها سكان مغارة حبرون من حولها تسمى في مدونات التوراة مدناً أيضاً : " وأصعد داود رجاله الذين معه كل واحد بيته و سكنوا في مدن حبرون . و أتى رجال يهوذا و مسحوا هناك داود ملكاً على بيت يهوذا " (صموئيل الثاني 2 : 3) .

8 — لننظر إلى بعض التفاصيل في هذه الجغرافيا و لنحاول أن نطبقها على ما درج تطبيقه المؤرخون في أرض سوريا الطبيعية ككل :

لقد درسنا قرية قادش وهي عين مشفاط و بينا موقعها شرق زهران . أما حسب الجغرافيا التوراتية، التي تعتبر الخروج كان من مصر وادي النيل ، و أن أرض كنعان في فلسطين ، فإن قادش هذه تجد نفسها مضطرة إلى أن تتوزع إلى ثلاث قرى لا تنطبق إحداها على الأخرى . لأنها لا بد أن تكون قرية من الكنعانيين والمصريين والآراميين في وقت واحد . فتظهر لنا مرة في بركة صين عند الطرف الشمالي للبحر الأحمر ، وأخرى في سوريا

الشمالية على نهر العاصي ، و ثالثة في الجليل . لنقرأ : " ثم ارتحلوا من عصيون جابر ونزلوا في بركة صين وهي قادش . ثم ارتحلوا من قادش و نزلوا في جبل هور في طرف أرض أدوم " (عدد 33 : 36) " فقدسوا قادش في الجليل في جبل نفتالي وشكيم في جبل أفرام وقرية أربع هي حبرون في جبل يهوذا " (يشوع 30 : 7) ولأخذ قيعة (أرض) (جي متيء) التي جعلها جغرافيو التوراة مدينة حماة في سوريا :

" وهكذا يكون لكم تحم الشمال . من البحر الكبير ترسمون لكم إلى جبل هور و من جبل هور ترسمون إلى مدخل حماة " (عدد 43 : 7).

لقد رأينا أن جبل هور شمال بركة صين ، أي شمال البحر الأحمر . فما هو هذا البحر الكبير الذي يشكل مع جبل هور الحد الشمالي للكنعانيين ؟ إن هذا يعني أن الكنعانيين — مرة أخرى — جنوب بركة صين و جبل هور ، و بالتالي في مصر وادي النيل . ثم كيف يمتد هذا الحد الشمالي من جبل هور على البحر الأحمر إلى مدينة حماة في وسط سوريا ؟ فالحد الشمالي ينبغي أن يكون ممتدا من الشرق إلى الغرب و ليس من الجنوب إلى الشمال .

9 — أما مملكة أوغاريت التي دمرها شعوب البحر " الفلسطينيين " فليست أوغاريت السورية المتوسطة . وإنما هي الجارية جنوب زهران . و الكلمة من أسماء عشتار و تعني السيدة الفتية الجميلة الدقيقة الخصر (وقد حافظت اللغة العربية الفصحى على هذا المعنى في كلمة الجارية و " غرث ") .

10 — أما الدمار الذي حل ببابل و بمدن الساحل السوري كله و غرب شبه الجزيرة العربية و مصر ، في تلك الفترة فلم يكن ناجما عن ما دعي بـ " اجتياح شعوب البحر " وإنما عن موجة الزلازل التي ظلت تضرب المنطقة بين فترة و أخرى طيلة تلك الحقبة الممتدة من القرن الثاني عشر قبل الميلاد إلى القرن السابع الميلادي . وتشاهد في جدران معبد الشمس المشهور في بعلبك آثار الاضطرابات التي سببتها الزلازل وكذلك الأمر في القلاع الباقية . ويشير تدمر أسوار أريحا المفاجئ في القرنين الثالث عشر و الثاني عشر قبل الميلاد إلى حصول زلزال . وعندما كان أنبياء بني إسرائيل وشعراؤهم و

مؤرخوهم يكتبون في وصف سلطة يهوه و قدرته ، فإنهم كانوا يعتمدون على مشاهداتهم الشخصية للهزات الأرضية التي ترافقها الأمواج المرتفعة . و يخبرنا العهد الجديد عن حدوث زلزال عند صلب المسيح و آخر عند قيامته⁽¹⁾ كما كانوا يعتمدون على مشاهدتهم للبراكين الكثيرة التي كثيرا ما كانت تحدث في غرب شبه جزيرة العرب ، وقد وصفها القرآن الكريم في أكثر من موضع .

" وقد كانت مثل هذه الأمواج التي يسببها المد عند حدوث الزلازل مخربة بشكل خاص في الساحل الفينيقي . ونال صورو صيدا الكثير من أذاها و من أذى الهزات . وتدل المنحدرات المتصدعة في لبنان و الوادي المتصدع الكبير الذي يستمر في منخفض الأردن و البحر الميت على وجود منطقة الزلازل هناك . وتبرز حوادث الزلازل في تاريخ سوريا أكثر من بروز البراكين في جغرافيتها . فقد أصيبت إنطاكية في طرف سوريا الشمالي بالزلازل خلال العصور و ضربتها في القرون الستة الأولى الميلادية لا أقل من عشر مرات"⁽²⁾

11 — و نحن إذا استعرضنا بعض هذه الأماكن الواردة في مدونات التوراة و التي أضنت سلطات الاحتلال الصهيوني في البحث عن أية آثار لواحد منها في سوريا الجنوبية دوغما جدوى ، فأخذت (هذه السلطات) تطلق الأسماء التوراتية عشوائيا على مسميات أخرى حديثة و قديمة . عليها تثبت في الأذهان و التاريخ و الجغرافيا مع تقادم الأعوام ، نجد أن كثيرا منها ما زال محتفظا باسمه القديم (أو بما يشبهه نتيجة التحولات اللغوية بين لهجة عربية و أخرى) حتى يومنا هذا في جنوب غامد و زهران . ونذكر من تلك الأسماء على سبيل المثال لا الحصر :

أرادوس — عراد في بلاد زهران (في الترجمة أرواد)

أرداتا — عردة في بلاد زهران (في الترجمة أرواد)

جي مت — غميط في شرق زهران (في الترجمة حماة)

(1) فيليب حتي ، " تاريخ سوريا ومن ضمنها لبنان وفلسطين " الجزء 1 ، ص 43 .
(2) Ellen C. Semple ، The Ggeography of the Mediterranean Region

بيت لحم — هي قرية أفراتة أو بيت لحم ، في سراة زهران قرب الخربة والبلطية ، توقفت في الطريق إليهما راحيل حين هروها مع زوجها يعقوب من بيت أبيها في حاران مع المقتنيات والمواشي والأطفال إلى قرية أربع . وولدت فيها بنيامين (ابن الجنوب) " ثم رحلوا من بيت ايل . " ولما كان مسافة من الأرض بعد حتى يأتوا إلى أفراتة ولدت راحيل و تعسرت ولادتها . و حدث حين تعسرت ولادتها أن القابلة قالت لها لا تخافي لأن هذا أيضا ابن لك . وكان عند خروج نفسها لأنها ماتت أنها دعت اسمه بن أوني . أما أبوه فدعاه بنيامين . فماتت راحيل و دفنت في طريق أفراتة التي هي بيت لحم " (تكوين 25: 16 - 20) .

ياهص — الوهصة في بلاد زهران

جازر — غزير في مرتفعات غامد

صور — قرية صر ، في جبال لبنان شرق غامد ، دمرتها البراكين و الزلازل و اختفت *

أريحا — (ورحو) قرية وراخ في بلاد زهران (ترجمت اريحا في سوريا الجنوبية) .

عربة — جبل غارب ووادي غارب في سراة زهران (ترجمت بحر العربة) . و " عربت " عموماً بركة شبه جزيرة العرب .

يوآب — الياب ، في بلاد غامد .

بحور — جبل بهر Buhur في شرق زهران .

• كنا قد أسلفنا أن بلدة صور التوراتية هي بلدة جبلية ساحلية ، كما ورد في تاريخ ساتخو تياتن ، و من خلال أوصافها من خلال مدونات التوراة و من خلال مخاطبة الرب لملكها عن طريق حزقيال النبي " على جبل الله المقدس كنت " (حزقيال 28 : 14) . والمدن التي من حولها و السكان الذين يتاجرون في أسواقها هم سكان ياون ، و توبال ، وما شك ، و بنو ددان و آرام ، و ذومسك ، و دان و العرب وكل رؤساء قيدار (من أبناء إسماعيل) ، و تجار شبا (من أحفاد إبراهيم من زوجته قطورا) ، و رعمة ، و حران ، و كنة ، و عدن و آشور ، و كلمد (حزقيال 27 : 13 - 12) . أما الذي أصاب " صور " فلم يصب غير سدوم و عمورة إذ ضربتها الزلازل و البراكين معا ، ثم خسفت الأرض " أصيرك أهوالا و لا تكونين و تطليبين فلا توجد بعد إلى الأبد " (حزقيال 26 : 21) ، " لأن ميازيب من العلاء انفتحت و أسس الأرض تزلزلت و انخسفت الأرض انسحاقا . تشققت الأرض تشققا . تزعزعت الأرض تزعزعا ترنحت كالسكران و تدللت كالعرزال و ثقل عليها ذنبيها فسقطت و لا تعود تقوم . لذلك احترق سكان الأرض و بقي الناس أناساً قلائل و دمرت قرية الخراب ، (اشعيا 24 - 20 ، 6 ، 10) .

بيوس — وادي ييس في بلاد غامد .

العين — العين ، بين غامد و زهران . وادي قدرون — في بلاد غامد .

جت — وادي غط (جت) شرق خميس مشيط .

صرعة — الزرعة ، في بلاد زهران . (فيها ولد شمشون) .

حبرون — الخربة ، في بلاد زهران .

لخيش — بني قيس ، في بلاد زهران

أدواريم — الدارين ، في بلاد زهران

بيت أيل — البطيلة ، في بلاد زهران

تعنك — الكعنة ، في بلاد زهران

منسى — المنشية ، في بلاد زهران

رأويين — الربيان ، في بلاد زهران

حويلة — حوالة ، من سراة غامد

كريت — وادي كريت (أو وادي قرية أيضا) ، جنوب بلاد غامد منطقة القنفذة .

جبل إبراهيم — شمال شرق بلاد زهران .

وادي طوى — شرق بلاد زهران ، قرب وادي أراخ

الفرات — الثرات ، شرق بلاد غامد و زهران .

12— لقد كان مألوفاً لدى كثير من عامة الناس من خلال التفسير المزور لمدونات

التوراة ، أن إبراهيم عاش في فلسطين ، و أن بيت الله الذي وضع لعبادته كان في بيت

المقدس ، وأن السيدة مريم العذراء اعتكفت فيه هناك للتعبد " و هناك أيضاً تمثل لها الملك

بشراً سوياً بشرها بميلاد المسيح . ولقد استمر بعض المسلمين في أول عهدهم يولون

وجوههم شطر بيت المقدس في الصلاة جرياً على التزوير في التفسير لتلك المدونات إلى

أن علم الله النبي محمداً أن مدونات التوراة مزورة ، وأن حاملها يعرفون أنها مزورة

ويكتمون ذلك ، فأخذ محمد (ص) يقلب وجهه بين الاتجاهات الأربع بحثاً عن وجهة

بيت الله حيث عبد آباؤه الله وحده :

﴿ سيقول السفهاء من الناس ما ولاهم عن قبلتهم التي كانوا عليها قل لله المشرق والمغرب يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم ، قد نرى تقلب وجهك في السماء فلنولينك قبلة ترضاها فول وجهك شطر المسجد الحرام و حيث ما كنتم فولوا وجوهكم شطره ، وإن الذين أوتوا الكتاب ليعلمون أنه الحق من ربهم و ما الله بغافل عما يعملون ﴾ (سورة البقرة : 141 — 143) .

و يبين القرآن الكريم بوضوح كيف أن كهنة التوراة يعرفون حقيقة المواقع لكنهم يخفونها ، ويتعتنون في إخفائها حتى لو أقام محمد لهم الدليل . إنهم يعلمون أن القبلة هي في الجنوب صوب البيت الحرام ، وليست صوب بيت المقدس ، لكنهم يتبعون أهواءهم و ليس يتبعون الحقيقة ، ويحذر الله النبي العربي من الوقوع في الخطأ مرة أخرى من بعد ما علمه حقيقة الأمر .

﴿ ولئن آتيت الذين أوتوا الكتاب بكل آية ما تبعوا قبلتك و ما أنت بتابع قبلتهم و ما بعضهم بتابع قبلة بعض . ولئن اتبعت أهواءهم من بعد ما جاءك من العلم إنك إذا لمن الظالمين . الذين آتيناهم الكتاب يعرفونه كما يعرفون أبناءهم وإن فريقا منهم ليكتمون الحق و هم يعلمون ﴾ (البقرة : 144 — 145) .

منطقة مسير و التنافس السوري — المصري

تحدثنا آنفا عن أهمية المنطقة الغربية من شبه جزيرة العرب الاستراتيجية و الاقتصادية ، و التجارية خاصة ، لحكام الدولة العربية السورية التي كان مركزها في أكاد أو بابل أو آشور . لقد كانت أحد أهم الرافدين العظيمين اللذين يتدفقان ذهابا و فضا على خزينة الدولة ، بينما كان الرافد العظيم الآخر يتمثل في المدن السورية المتوسطة ، و في تفوق العرب السوريين الغربيين الذين غلب عليهم اسم "الفينيقيين" في مجال التجارة البحرية ، حتى جعلوا من البحر المتوسط "بحيرة سورية" بالفعل .

و لقد كان السكان في المنطقة الممتدة من الطائف شمالا إلى وادي كريت في منطقة القنفذة جنوبا يتألفون — كما لاحظنا — من كل أنماط الفروع السكانية العربية ،

ويشكلون بذلك صورة التوضع السكاني المشترك لكل الفروع ، مما يجعلنا نقول جازمين بأن شكل التجمع في تلك المنطقة لم يكن تجمعاً قبلياً فقط على الإطلاق . ولقد حرص مدونو التوراة على التعامل مع السكان من خلال انتمائهم العشائري و القبلي ، لأن أبناء إسرائيل لم يكونوا قد تجاوزوا بعد مستوى النمط البدوي العشائري .

وإذا كانت تلك المنطقة تبقى في موقعها بعيدة نسبياً عن أنظار قادة الدولة المركزية في عاصمة الدولة ، تفصلهم عنها البراري و الصحراء العربية الشاسعة ، مع عدم توفر وسائل النقل والاتصال ، فإن ذلك قد هبأ الفرصة لـ " ملوك " بعض القرى أو العشائر الواقعة على خطوط التجارة و القوافل الاستراتيجية الدولية أو المتاخمة لها ، لأن يطمعوا في تنمية قوتهم الذاتية الصغيرة عن طريق السيطرة على من يجاورونهم من سكان المدن و الأرياف ، ثم يحاولون الهيمنة على تلك الثروات العابرة شمالاً و شرقاً ، والقادمة من أفريقيا و جنوب شبه الجزيرة ، و الاستئثار بها بين فترة و أخرى . وكان ذلك من شأنه أن يثير غضب قادة الدولة المركزية ، فيجهزون الحملات التأديبية ضد أولئك " الأمراء " و " الملوك " الصغار ، الذين يعتبرون متمردين خارجين على قانون الدولة العام ، ومهددين لاقتصادها و أمنها معا ، فينكلون بهم و يعيدون تلك المناطق إلى وحدتها في إطار الدولة المركزية الواحدة بعد أن نصبوا " وكلاء " للملك (ملوكا أو فراعين) على تلك المحطات و القرى ، تكون مهمتهم ضبط أمن المنطقة و خطوط سير القوافل و التجارة ، ومنع كل الطامعين من محاولة الاستفراد أو الاستقلال أو الانفصال أو التسلط على الثروات الجائزة خلال تلك الطرقات ، وجباية الأموال والإتاوات عن كل بضاعة تمر في ذلك الطريق . وكانت مثل هذه المهمات تشجع أولئك الصغار على أن يجمعوا من حولهم الأنصار من أقارب أو محالفين ، من أجل أن يتمكنوا من القيام بتلك الواجبات الملقاة على عاتقهم من قبل الملك رأس الدولة المركزية ، ويخلقوا هيئة تحول دون أن يطمح الآخرون بالخروج عن إطار الحدود المرسومة ويخرجوا النظام القائم .

لكن ذلك لم يكن ليديم طويلا حتى يعود الصراع من جديد بين أولئك " الملوك " الصغار أنفسهم ، يشجعهم في ذلك موقعهم الوسط بين دولتين عربيتين قويتين متنافستين من أجل السيطرة على المنطقة هما : دولة سوريا و دولة وادي النيل . وليس صعبا على الدارس أن يلاحظ كيف أن عشيرة المصريين في شبه جزيرة العرب (غربي زهران) كانوا يعتبرون أنفسهم وكلاء الملك وادي النيل لأنه يجمع فيما بينهم النسب إلى حام بن نوح . فما أن يتعد شبح الجيش السوري القادم من الشمال و الشرق ، ويسود الدولة هناك حالة من الارتباك أو الفوضى أو الصراع الداخلي على الحكم ، حتى يسارع حكام عشيرة مصر في الوديان الغربية إلى الصعود شرقا و شمالا لبسط السيطرة على المنطقة الممتدة من جنوبي الطائف حتى جنوبي بلاد غامد . فتتجح تلك المحاولات أحيانا في السيطرة على الكثير من القرى أو المدن الواقعة في الشريط عبر زهران و غامد المتاخمين لقرى المصريين . لكن تحالفات معاكسة في المنطقة ذاتها ما تلبث أن تقوم لينقض الحثيون و الآموريون و الآشوريون (من بني آشور بن ددان) في تحالفات كلية أو جزئية تشمل جميع أولئك الذين يعتبرون أنفسهم وكلاء للدولة العربية السورية في المنطقة ، ويهددون قرى و مدن المصريين ، وأحيانا يستولون عليها فعلا ، مما كان يضطر ملك وادي النيل لأن يجرد بالمقابل حملة تأديبية ضد تلك التحالفات ، فيعيد وكلاءه إلى مناصبهم ، ويضرب كل ما سولت له نفسه المساس بسلطتهم ، يخضع في بعض الأحيان " ملوك المدن " المعتبرين وكلاء سوريا ، مما يستدعي حتما قيام ملك الدولة السورية بهجوم مضاد بعد فترة لاعادة تثبيت سيطرته على تلك المنطقة ، وهكذا .

وإن جميع تلك الأحداث و الصراعات ، التي أبرزها المؤرخون نتيجة للارباكات التوراتية على أنها صراع بين إمبراطوريات ، لم تكن، في حقيقتها ، إلا بعضا من مظاهر هذا الصراع الجزئي التفصيلي على مستوى " ملوك " قرى و مدن المنطقة من جهة ، وانعكاسا لذلك التنافس القائم على المنطقة بين الدولتين العربيتين سوريا و مصر ، من جهة أخرى . ومن جملة هذه الأحداث "التفصيلية " على الخارطة الصغيرة للمنطقة ، والتي أخذت دورا و حجما أكبر بكثير مما هي عليه في الحقيقية و الواقع ، كانت حادثة

المحجوم الذي قام به سكان المنطقة الشرقية من بلاد زهران على مدينة المصريين الواقعة في الغرب ، و الذين دعوا فيما بعد بـ " الهكسوس " في مصر .

وقبل أن نتحدث عن أولئك الذين دعتهم كتب التاريخ بـ " الهكسوس " ، لا بد من لمحة سريعة عن الوضع الذي سبق ظهورهم " المفاجئ " - كما يقول المؤرخون - على ساحة الأحداث التاريخية في مصر .

ليس من العسير على الباحث أن يفهم كيف أن ملوك وادي النيل الأوائل لم يقطعوا الشواجع بالرحم الأم المتمثل في شبه جزيرة العرب . لقد انتقلوا منها (ومن المنطقة الغربية منها بالذات) عبر البحر الأحمر إلى وادي النيل ، وجسدوا هناك كثيرا من عبقرية شعبهم ، وعلومه و إبداعاته ، وإنجازاته العمرانية ، والفنية ، و الهندسية ، والأدبية ، وغيرها ، وأبقوا على ارتباطهم الوثيق مع منطقة شرقي البحر الأحمر في الحياتين الأولى و ما بعد الموت* .

ولقد ظلت بلدة جبيل على وادي الليث (صار في الترجمات و التفسيرات " نهر الكلب " رغم أن بلدة جبلة أو جبيل لا تقع على نهر الكلب في لبنان) تمثل أحد المراكز الرئيسية لهذا الارتباط العضوي الذي لم تنفصم عراه في تلك الفترات التاريخية القديمة من تاريخ وادي النيل . فعلاوة على جعل جبلة موطن أوزيريس ومثواه و " قبله " المصريين في وادي النيل أيضا . ثم ارتباطها المباشر بقصته مع ايزيس و سيت و حور ، فهي أيضا مسرح أحداث أدونيس و عشتار ، وهي المورد الرئيسي لخشب الأرز و السرو من جبال غامد و زهران عن طريق الأنهار إلى البحر الأحمر ، حيث يتم نقلها برا إلى (ابيدوس)** ، و من هناك تنقل على مياه النيل شمالا إلى مدن الدلتا و تشير المصادر إلى أن الملك سنfro

* كان قدامى ملوك مصر يحتفظون في مقابرهم بسفن أو زوارق خاصة لعبور البحر الأحمر إلى العالم الآخر حيث موطن الأجداد في غرب شبه جزيرة العرب .

** أول من أطلق هذا الاسم الملك مينا و هو منسوب إلى جبل "بيدا " في زهران حيث ينبع نهر "بيدا" وهناك إلى الشمال منه جبل " بيضان " ، جنوب جبل كلب النعد، ثم جبل " أبيض " Abid على الساحل الشرقي للبحر الأحمر قرب جبل روات الذي انتقلت تسميته إلى وادي النيل أيضا في منطقة أبيدو ذاتها .

فلم يبق ثمة مجال للشك في أن أبيد (بعد حذف النهاية اليونانية) التي في رواش " في مصر وادي النيل ليست إلا استنساخا لجبل أبيض Abid في منطقة روات شرقي البحر الأحمر .

(الشنفرى) الذي عاش حوالي 2750 ق.م . استورد محمول أربعين سفينة من الأرز لأعماله العمرانية . ومن جليل أيضا كانت تأتي الخمر و الزيتون لأجل التحنيط ، وكانت المنطقة الممتدة من جنوب غامد إلى شمال الطائف تشتهر بهذه الأنواع من الثمار المتوسطة ، وقد أكد ذلك القرآن الكريم في الآية : ﴿ و التين و الزيتون و طور سين و هذا البلد الأمين ﴾ علما أن طور سينا هو في شرق زهران قرب وادي طوى وليس في شمال مصر كما يسود الاعتقاد اليوم .

في تلك الفترة بالذات كانت الأمور تسير في مجراها الطبيعي دونما أحداث سياسية حادة نظرا لأن المنطقة السورية كانت موزعة إلى مجموعة من الممالك والمدن التي تنتهي مطامح كل منها عند حدودها الإقليمية الضيقة ، إلى أن بدأ عهد الدولة الواحدة التي أقامها سرجون في فترة حكمه الممتدة ما بين 2371 - 2316 ق.م فوضع بذلك يديه على جميع الطرق التجارية الدولية المحيطة بدولته من الشمال و الشرق و الغرب والجنوب ومن بينها — لا شك — كانت محطات غرب شبه جزيرة العرب أهم المناطق في الاستراتيجية التجارية الدولية لذلك الزمن .

إن هذا كان من شأنه أن ينه ملوك وادي النيل إلى أهمية المنطقة و إلى ضرورة السيطرة عليها إذا ما ساحت الفرصة ، ولم تكن هذه الفرصة لتسرح طالما كان ما يزال جيش سرجون القوي محافظا على حدود الدولة زهاء قرن كامل من الزمن بعد وفاته .

و ما أن تسرب الضعف إلى مركز الدولة السورية ، وضربها الزلازل ، و غزت قبائل الغوتيين العاصمة " أجادة " في أواخر القرن الثالث و العشرين بعد أن دمرتها الزلازل حتى تحرك ملوك وادي النيل من أجل السيطرة على منطقة شرقي البحر الأحمر ، الممتدة من الطائف شمالا إلى وادي كريث جنوبا .

1 — في هذه الفترة بالذات قام " عوني " قائد جيش الملك بيبي الأول بحملته على المنطقة ، ثم توغل إلى الشمال و الشرق ، وحارب " سكان الرمال " الآسيويين ، وهدم الحصون و قطع أشجار التين والكرمة ⁽¹⁾ .

(1) James Breasted ، "Ancient of Egypt" vol ، 1313 .

لقد أمتد تسلط الغوتيين على مركز الدولة السورية حتى عام 2120 ق.م. ثم أعقبت ذلك فترة عودة الممالك المدن ، وتميزت تلك الفترة بالتراع الكبير بين ايسن و لارسا ، وأخذت عملية الصراع تستقطب كافة القوى و الممالك حول اتجاhein رئيسيين : الاتجاه الوجودي الذي كان قد أرسى قواعده سرجون ، و الاتجاه الإقطاعي الديني الانفصالي المقاتل من أجل الحفاظ على مكاسب الأمراء الإقطاعيين و رجال الدين . و انتهى هذا الصراع بفوز الاتجاه الأول يمثلته حمورابي القادم بقواته إلى بابل من الغرب .

2 — لقد عادت سيطرة الدولة السورية المركزية على كافة المناطق ، ومن ضمنها غرب شبه الجزيرة العربية . و عمّ الأمن جميع خطوط التجارة المحيطة بأطراف الدولة .

3 — و في فترة التمردات و الفتن التي برزت رؤوسها في كثير من مدن سومر و عيلام بعد حمورابي ، وقبل أن تتقدم أية قوات أخرى من وادي النيل إلى المنطقة ، انقضت قوات الأمراء المحليين على جميع ممالك مصر و كنعان في غامد و زهران في القرن الثامن عشر قبل الميلاد ، ووضعتها جميعها في قبضتها لفترة تزيد عن مائة و خمسين عاما . و كان ذلك ما دعي بـ " حكم الهكسوس " في مصر .

الهكسوس

يقول المؤرخون إن كلمة " هكسوس " هي لفظة مصرية قديمة " حيكو شوست " وكان أول من استعملها المؤرخ العربي المصري* مانثيون من العصر المتأخر ، واعتبر أن معناها " الملوك الرعاة "⁽¹⁾. ولفظة "شوست" تذكرنا بلفظتين عريبتين قديمتين هما " سيوتو " و تعني رعاة الشياه ، أو الغنامين . و قد بقيت حتى يومنا هذا لفظة " شوايا " ومفردها " شاوي " أي راعي الشاء . أو الشياه ، كما تذكرنا بلفظة " سوسو " ومعناها بالعربية القديمة الحصان ، ومنها جاءت اللفظة العربية الحديثة

* من مصريي غرب زهران في شبه جزيرة العرب .
(1) فيليب حتي " تاريخ سوريا و من ضمنها لبنان و فلسطين " الجزء 1 ، ص 157.

"سائس" و سياسة، وما يزال وادي "شواص" جنوب شرق غامد يحتفظ بالاسم حتى اليوم .

فالكلمة تتضمن إذا مفهوم رعاة الخيل و الشياه . وهذا ينطبق مع التفسير الذي أجمع عليه الباحثون لتلك التسمية ، خاصة و أنهم اعتبروا " الهكسوس " أول من أدخل استخدام الحصان إلى مصر ، وهذا أيضا تزوير .

وإذا ما نظرنا إلى خارطة شبه جزيرة العرب ، وإلى منطقة غامد و زهران التي تعنينا في عملية البحث عن موطن هؤلاء ، لوجدنا أن المنطقة التي توغل فيها " عوني " قائد الملك " بيي " الأول في الشمال و الشرق ، و " حارب فيها سكان الرمال الآسيويين ، وقطع أشجار التين و العنب ، في طريقه إليها ، إنما هي المنطقة الواقعة شمال شرق زهران مباشرة ، على الطريق الدولي الصاعد إلى الطائف مقابل جبل إبراهيم . وفي هذه المنطقة بالضبط نلتقي بالبلدة القديمة التي ما تزال تحمل الاسم ذاته . وهي بلدة " الصوت As-Sot ومن هنا فقد تكون التسمية تعني حكام الصوت " أو ملوك الصوت " وكلمة " الصوت " مؤلفة في الأصل من " أل — سوت " وتعني رب الشياه و الخيل ، ثم تحول المقطع " ال " إلى " أل " التعريف الحديثة .

أما عن التركيبة السكانية يقول فيليب حتي : " كان الهكسوس بالأصل حشدا ، أو مجموعة لا تسمية لها من البشر قذفتها منطقة شرقي البحر المتوسط إلى مصر ، ثم أصبحوا يمثلون حركة تضم ، عدا عن الساميين ، الحوريين و الحثيين و الميتانيين وهم من غير الساميين ، كذلك كان جماعة الخابيرو بينهم " ⁽¹⁾

والحقيقة إنه الإشكال نفسه الذي كنا قد تحدثنا عنه . فالحثيون و الحوريون و الميتانيون ليسوا إلا من العرب الكنعانيين في بلاد غامد و زهران ، والمصريون هنا ليسوا إلا من العرب الحاميين في بلاد غامد وزهران. وكالعادة ، من أجل أن يبرر أولئك المؤرخون فرضيتهم حول قدوم الهكسوس ، الذي يضمون حثيين و حوريين من "شمال سوريا" إلى مصر وادي النيل ، فقد كان لا بد لهم من أن يحتلوا كل سوريا أولا في طريقهم ،

(1) فيليب حتي " تاريخ سوريا و من ضمنها لبنان و فلسطين " الجزء 1 ، ص 157 .

بصرف النظر عن أنهم لم يعثروا على أي دليل يمكن أن يشير إلى وجود الهكسوس في سوريا المتوسطة على الإطلاق ، فبقيت مقولاتهم التاريخية - كعادتها - نتيجة لسوء تفسير الأماكن الجغرافية ، هائمة على وجوها دون أن تستطيع الالتصاق بأي مكان من أرض الواقع .

ويضيف الدكتور حتي نقلا عن " انغبرغ" قائلا : " ويمكن الاستدلال على أن العنصر الرئيسي كان كنعانيا أو أموريا من أسماء حكامهم الأولين ، كما تظهر على الأبنية تماثيل الجعلان * . وهذه الحركة هي التي كانت سببا في قدوم عدد كبير من الحثيين و الحوريين و ربما من اليبوسيين و الفرزيين و غيرهم من غير الساميين جنوبا حتى فلسطين "(1) مدهش !

إن المؤلف هنا ينسى أن التوراة نفسها قد قطعت الطريق أمام أولئك الباحثين عن الأصول لعشائر التوراة في غير منطقة التوراة التي هي شبه جزيرة العرب ، وذكرت أن جميع هؤلاء إنما هم من أولاد كنعان : " و كنعان ولد صيدون بكره و حثا واليبوسي والأموري والجرجاشي والحوي والعربي والسيني والارادي والصماري والحمي : (تكوين 10 : 15) .

"و إلى جانب الحصان الذي أدخلوه إلى سوريا و منها إلى مصر فقد أتى الهكسوس بالركبة إلى كلا البلدين"(2) . إن من المعروف أن العربية قامت أساسا على صناعة العجلة أو الدولاب . و كان العرب السوريون زمن حمورابي أول من أوجد هذا الاختراع الذي عده العلماء فيما بعد أول ثورة تكنولوجية في تاريخ البشرية .

" وبين الأسلحة الجديدة الأخرى التي ظهرت أتى الهكسوس بالسيف الحديدي المنحني** و القوس المركب الذي كان قد ظهر لأول مرة في بلاد الرافدين في عهد سلالة أكادية

• كان الجعل الزاهي الألوان رمزا لرب "حفيرو" أي الحافرة أي النشأة الأولى في سوريا و عند عرب وادي النيل .

(1) المصدر نفسه .

(2) المصدر السابق ، ص 158 .

•• إن السيف المنحني هو السيف العربي منذ أن عرف السيف لأول مرة و حتى اليوم .

في القرن الثاني و العشرين . وكان تفوق الهكسوس في السلاح يرتكز ، فوق ذلك ، على استعمالهم البرونز الذي كانت تجارته في شمالي سوريا .. وتقدمت صناعة الحلي والخزف و العاج و النقش تقدما بارزا و كان الحفر على العظم معروفا في سوريا منذ العصر الحجري ، ولكن صناعة التنزيل أدخلت غالبا في هذا العصر .. و لا تزال صناعة التنزيل التي تقوم على إدخال قطع من العظم أو العاج بقصد الزخرفة في الصناديق الخشبية أو قطع الأثاث صناعة فنية مزدهرة في دمشق⁽¹⁾.

و يذكر المؤرخون أهم مدن "الهكسوس" في "سوريا" وهي قطنة "Qatna" و يعتبرونها عاصمتهم ، وقادش ، وكركميش ، وهازر ، وحصن شكيم ، و لخيش ، وشاروحن ، واريحا ، وبيت شمس .. و كنا قد تحدثنا من قبل عن هذه الأسماء العشائرية الضيقة وذكرنا أنه لاوجود لها في سوريا لا أسماء ولا مواقع . أما لخيش فقد سبق الحديث عنها مع حديثنا عن الفلسطينيين، و اعتبرت إحدى مدتهم، وهي أيضا في جنوب بلاد زهران. إن كل ما يذكره المؤرخون عن الهكسوس يثبت مقولة واحدة ، وهي أن من دعوا بـ "الهكسوس" ليسوا إلا مجموعة من السكان المحليين في شرقي بلاد زهران ، زحفوا بقيادة أمرائهم و استولوا على أراضي المصريين في المنطقة الغربية و الجنوبية من زهران نفسها فكان ذلك ردا على احتياح مناطقهم الشرقية على يد "أحمس" و "عوني" قائد جيش "بيي" الأول . و إن ما نسب اليهم من الحضارة لم يكن إلا جانبا من جوانب الحضارة العربية السورية ككل في ذلك الزمن ، إذ رأينا أنفا كيف أن السوريين كانوا أول من عمل بالتعدين ، وعرف صهر المعادن و طرقها و صناعتها و استخدامها في الأدوات ، و أول من عرف عصر النحاس ، ثم البرونز ، ثم الحديد ، وأول من اخترع العجلة ، بالتالي العربية . وقد أدخلتها سوريا إلى مصر فعلا لكن ليس بواسطة "الهكسوس" . وقد بقيت لفظة "عربة" كما هي في لغة مصر القديمة ، دليلا على هوية مخترعها هم العرب ، ولم تأت هي أو الحصان أو السيف الحديدي المنحني من أي مكان آخر خارج حدود الوطن العربي القديم . والغريب أننا كنا قد مررنا على قول آخر عند

(1) المصدر السابق ، ص 159 .

المؤلف نفسه يعزو فيه إدخال الحديد إلى المنطقة إلى الفلسطينيين في القرن الثاني عشر قبل الميلاد ! فجعل منهم روادا للحضارة إذ نقلوا المنطقة "من عصر البرونز إلى عصر الحديد " لا لشيء إلا لأن المؤرخين اعتقدوا أن الفلسطينيين قوم هندوأوروبيون قدموا من البحر إلى المنطقة و ليس لهم علاقة بالعرب أو بالساميين ، فكان لابد من عملية قُرب إلى أخرى لحضارة المعدن إلى جهة أخرى غريبة عن المنطقة !

أما المدن التي جرى الخلط بينها و بين مدن أخرى تنتشر على الرقعة الممتدة من شمالي سوريا إلى جنوب فلسطين ، فهي مجموعة القرى و المدن الصغيرة التي سبق أن تحدثنا عن معظمها ، والتي لا توجد فعلا إلا في البقعة الضيقة من شرق منطقة زهران .

وإذا كانت مصر وادي النيل قد شهدت تقدما في كثير من مظاهر الحضارة وجوانبها في تلك الفترة فليس يعني أن ذلك كان نتيجة لحكم الهكسوس أو غيرهم . فالهكسوس لم يدخلوا مصر وادي النيل ، ولم يتجاوزوا أرض المصريين في غرب زهران ، و في ظل ملوكهم في زهران عمل يوسف بن يعقوب في جمع القمح للملك (فرعون) من بيادر الفلاحين لا في مصر وادي النيل . ولقد أجمع المؤرخون و النسابون و الاخباريون العرب على أن ملك مصر أيام موسى بن عمران كان قابوس بن مصعب بن معاوية بن نعيم بن الليث بن حاران بن عمرو بن عمليق (وهو عريب) ، وأن زوجته كانت آسيا بنت مزاحم بن عبيد بن الريان بن الوليد بن ثروان بن آراشة بن حاران ابن عمرو بن عمليق بن لاوذ بن سام بن نوح . وقد دعت حاران مركز الآراميين باسم جدهم حاران هذا .

و كانت ألقاب ملوكهم كنعانية أو عمورية مقترنة باللفظة المحلية للجبل "هر" . فقد رأينا كيف أن موسى يطلب استطلاع المنطقة الكنعانية من على جبل "هر" (هور) ، وعلى الجبل "هور" يموت و يدفن هارون وإن كلمة "هور" هي تجسيد للهجة الحاميين في جنوب شبه جزيرة العرب ، وكنعان هو ابن حام . وقد بقيت هذه اللهجة الحامية مستمرة في الحبشة إلى عصرنا نحن . إن "هياسلاسي" هو "حيا ثلاثي" أي القوة المثلية . إنها اللهجة التي كانت وماتزال تحول صوت الحاء إلى هاء . وهكذا فإن "هور"

هو " حر ، حور " أي الصقر ، الحر ، السيد . وهي التي انتقلت إلى وادي النيل مع طفل إيزيس "حور" أو " حورس" . أما الكلمة الآرامية و السريانية للجبل فهي " طور " (طورو) . ونحن نرى بين ألقاب هؤلاء الملوك " عنات هور " و يعقوب هر " وكذلك " يعقوب ايل " و يعقوب بعل " (1) و كان الملك يدعى فرعون ، جريا على تقاليد المنطقة التي مررنا على ذكرها من قبل ، و ليس في كل آثار وادي النيل إشارة إلى أن ملوك وادي النيل كانوا يدعون بـ " الفراغة " ، علما أن هذه اللفظة وصلتنا عن طريق مدونات التوراة فقط .

يقول جيمس برواستد " إننا لا نعلم شيئا محققا عن هؤلاء الهكسوس ، لكننا نقول من باب الترجيح أن زحفهم إلى مصر كان فاتحة لحركة عظيمة قامت بها بعض الشعوب الآسيوية" (2) .

لقد نقل يوسيفوس عن الكاهن و المؤرخ العربي المصري (من مصر زهران) مانتثيون الذي عاش و كتب تاريخه حوالي عام 280 ق. م . قوله : " و اتفق على عهد "تيما" " أحد ملوكنا أن الإله غضب علينا ، فأذن لقوم لا يعرف أصلهم ، جاؤوا من الشرق ، و تجاسروا على محاربتنا ، و غلبونا على بلادنا ، و أذلوا ملوكنا ، و أحرقوا مدننا ، و هدموا هياكلنا و آلهتنا ، و ساموا الناس ذلا ، فقتلوا الرجال و سبوا النساء و الأولاد ، ثم نصبوا عليهم ملكا منهم واسمه " سلاط " .. أمام الحامية في المعقل لدفع الآشوريين .. و بسى مدينة " أورا " في ولاية صان " لهذه الغاية و حصنها بالأبراج و القلاع و الأسوار .. و كان يأتي إليها في الصيف لجمع الخنطة و دفع رواتب الجند و تمرينهم على شؤون الحرب . و بعد 13 سنة من حكمه خلفه ملك اسمه " بيان " و حكم 44 سنة ، و جاء بعده " أباخنا " الذي حكم 36 سنة و سبعة أشهر ، ثم ابوفيس "بانياس" . هؤلاء الستة أول من حكم من ملوكهم ، و لم يكفوا عن محاربة المصريين لأنهم كانوا يلتصقون إبادتهم . و كانت هذه الأمة تسمى هيكسوس أي ملوك الرعاة ، لأنها مؤلفة من "

(1) المصدر السابق ، 160.

(2) جيمس بروستد " العصور القديمة " ص 85 .

• لاحظ الاسم العربي المحلي لملك مصر " اتيمما " .

هيك "و معناها باللغة المقدسة ملك و "سوس" راعي ، ولكن البعض يقول انهم "عرب." (1) . ف" الهكسوس " غزوا مصر من الشرق ، بينما يفترض أن مدتهم — حسب تصور المؤرخين — تنتشر في فلسطين و سوريا و تركيا الحالية ، وقد أذلوا ملوك مصر (و مصر وادي النيل في الجنوب و كان يحكمها ملك واحد) : ولقد أحرقوا المدن ودمروا الهياكل و سبوا النساء والأولاد (وإن أحدا لم يسمع بتدمير مدن مصر) ، وقد أقاموا الحاميات لدفع الآشوريين (والآشوريون لم يكونوا قد ظهروا على مسرح الأحداث بعد) . وقد كان المقصود بهم عشيرة اشوريم من أبناء ددان بن يقشان بن ابراهيم بن غامد و زهران . ولقد بنوا مدينة (قرية) " أورا " (أفاريس باليونانية) وهي مدينة العنابر في زهران زمن يوسف بن يعقوب .. (ولم يعثر على ذكر أو أثر لهذه المدينة في مصر وادي النيل) وكلمة " أورا " هي في الأصل " حورا " أي المغارة .

إن كل ما في هذا القول من تفاصيل تؤكد صحة وجهة نظرنا في أن مصريي زهران هم المعنيون وخدمهم و ليس سكان وادي النيل .

أما عن دياناتهم فتؤكد المصادر على أن الهكسوس في " أورا " (" أفاريس " باليونانية) كانوا يعبدون الإله " سوتو " أو " سوتح " . و"ذكر أن الملك أبو فيس لم يسمح بعبادة إله آخر ، في البلاد كافة" (2) إنه " سيت " أو " سيتاع " أخو أوزيريس وقاتله .

و الجدير بالذكر أن مدينة " أورا " هذه هي التي سميت مدينة العنابر أو المخازن ، وهي التي عمل بها يوسف بن يعقوب ، وتقع على وادي ديان شمال شرق الشعف ، وتتبع لولاية " صن " أو " صان " حيث قادش ، وحيث خرجت هاجر في الطريق إلى البرية هربا من وجه مولاتها سارة . أما في المدن الأخرى فقد كانت تنتشر عبادة بعل وعشتار و عنات . وكلمة " مدينة " تطلق على المغارة ما دامت مكانا للسكن و الاستقرار.

(1) The Complete Works of Josephus ، by W. Whiston ، 547.

(2) ادولف أرمان " ديانة مصر القديمة " ص 120 .

و يعتقد المؤرخون أن أولئك الهكسوس هم الذي أدخلوا العلوم إلى مصر ، و لاسيما الرياضيات . يقول بريستد : " ويتضح أن دخول الهكسوس إلى مصر لم يكن شراً مطلقاً ، فأقدم مؤلف علمي وصلنا يرجع إلى عصر الهكسوس في مصر في القرن السابع عشر"⁽¹⁾ ، ويضيف ت. بيت على ذلك قائلاً : " وأعظم مساهمة في معرفتنا عن الرياضيات المصرية و ضعت في 1580 ق.م تحت حكم الهكسوس " ⁽²⁾ .

و الحقيقة أن أمثال هؤلاء الأمراء من البدو و أنصاف المستقرين لم يكونوا قادرين على أن يضيفوا شيئاً في عالم الإنجازات العلمية و الحضارية على البيئة الحضارية المتقدمة التي من حولها سواء في سوريا أو مصر وادي النيل . و إذ صادف أن حدثت تلك المنجزات العلمية في وادي النيل في الوقت الذي كان فيه الهكسوس يحكمون " مصر " العشرة شرقي البحر الأحمر فلأن الحضارة العربية المصرية كانت قد قطعت أشواطاً جد بعيدة و متقدمة في ركب الحضارة العالمية ، و كانت مهياة لأن تعطي في كل يوم مبتكرات و إنجازات جديدة ، مثلها مثل شقيقتها الكبرى ، الدولة العربية السورية . و الخطأ يكمن في تفسير الأسماء الجغرافية التي التصق بها المؤرخون و الدارسون ، كما قدمتها ترجمات التوراة ، ضارين صفحا عن كل التناقضات في المنطق و التاريخ و الجغرافيا ، التي نجحت و تنجم عنها .

نهاية حكم الهكسوس في نهر النيل

بعد عام 1580 ق.م تقريباً بدأ ملوك وادي النيل تحرّكهم الفعلي من أجل إعادة سيطرتهم على منطقة المصريين في شرقي البحر الأحمر ، مستغلين ضعف الدولة السورية و هجوم الكاشيين على بابل الذي بدأ في حوالي 1595 ق.م . لقد عبر أحسن الأول مؤسس السلالة الثامنة عشرة ، البحر الأحمر ، و قام بهجمات متكررة على " أورا " " أفاريس " تحقق له النصر في نهايتها ، مما اضطر قوات الهكسوس إلى الانسحاب

(1) J.H. Breasted " The Edwin Smith Surgical Papyrus " 2 vols . (Chicago 1930) .

(2) T. Eric Peet " The Rhind Mathematical Papyrus " .

إلى أرض الكنعانيين في غامد و زهران ، وأخذت تقاومه هناك في اتحاد من الأمراء في شاروحن . وكانت مقاومتهم عنيدة مما جعل حصار الجيش المصري لهذه البلدة يـُـدوم ثلاث سنوات (1).

ثم أخذ خلفاء أحـُـمس من الملوك يتابعون عملية مطاردة أمراء الهكسوس و دفعهم شرقا بعيدا عن بلاد زهران . و يذكر المؤرخون أن تحوتـُـمس الثالث (توفي عام 1447 ق.م) هو الذي سدد الضربات القاضية لسلطة الهكسوس في بلاد المصريين و الكنعانيين من بلاد زهران (و التي أخذ يدعوها المؤرخون باسم سوريا بدلا من أرض الكنعانيين على أساس التفسير الخاطئ ، للأسماء الجغرافية في مدونات التوراة) ، ولم تتوطد سيادة وادي النيل عل منطقة غامد و زهران إلا بعد معركة آرام جدون دون أن يعرف أحد شيئا عن هذا الاسم المبهـُـم — على حد تعبير فيليب حتي . فقد انتصر تحوتـُـمس الثالث أخيرا في 1468 ق.م في هذه المعركة التي اصطدم بحلف مؤلف من 350 أميرا .

و كان الهكسوس الذين طردوا من غربي زهران العمود الفقري لهذا الحلف ، وكان أمير قادش رئيسه* . ثم تقدم إلى بلدة عراد ، وقادش ، و نهارين الآرامية الواقعة شرقي زهران على نهر الثرات ، إلى كركميش .

وقد كنا قد بينا مواقع هذه المضارب جميعا في شرقي زهران ، وهكذا انتهت سيطرة هذا الاتحاد من الأمراء العرب المحليين على المنطقة ، وانتهت معها تلك النزعة الاستقلالية القوية التي برزت على الساحة و كأنما لتفرض هيمنة الدولة السورية المصرية معا ، ولتتمتع بالاستقلال عنهما بصورة من الصور . لقد ترك تحوتـُـمس الثالث في الكتابات ما يذكر بتلك الانتصارات على " زعماء زاهي " و اتبع سياسة جديدة إزاء تلك المنطقة من أجل ضمان ولاء أمرائها لمصر وادي النيل. لقد بدأ يأخذ أبناء الأمراء المحليين معه إلى

J.H Breasted " Ancient Records: vol. ii 13; and history of Egypt"، P.227 (1)

* درج المؤرخون حتى اليوم على اعتبار المعارك التي جرت في أراضي سوريا المتوسطية ، فجعلوا قادش تقع على نهر العاصي في سوريا . وكنا قد بينا موقع قادش شرق زهران . كما بينا أن تقدم تحوتـُـمس كان إلى مدينة عراد الواقعة على وادي عرادة في زهران و ليس إلى جزيرة أرواد السورية في المتوسط .

مصر ، وينشئهم على روح الصداقة و الولاء له ، ثم يعيدهم تدريجيا ليأخذوا مواقعهم " ملوكا " على تلك المدن ، و يحلوا محل الجليل القدم المعادي لمصر (1).

لكن ذلك لم يكن ليحقق نتائج حاسمة في عملية التنافس القائمة من أجل السيطرة على تلك المنطقة . فمن جهة كان الأمراء الموالون للدولة السورية يتحينون الفرصة حينما يقوى نفوذ هذه الدولة ، وتتخلص من ارباكاتها الداخلية و تفرغ من صد الهجمات القبلية من الشمال و الشرق . ليعلموا التمرد على سلطات مصر وادي النيل . ومن جهة أخرى فقد كان ثمة مجموعة من الأمراء الذين لا يكلون من العمل من أجل الاستقلال بالمنطقة عن مصر و سوريا معا ، لكنهم كانوا يخشون بطش المصريين ، فيلجأون إلى المداينة و المراوغة، مما خلق ظاهرة جديدة في السياسة على صعيد أحداث تلك المرحلة ، صار يدعوها المؤرخون بـ " النفاق الدولي " ، وهي في حقيقتها ، لم تكن تتعدى سلوك بعض أمراء المحطات (الوكلاء ، الفراغة) في منطقة غامد و زهران .

5 — وهكذا فقد بدأت مرحلة جديدة تميزت بتشابك المنافسات المحلية و الدولية معا ، فبعد أن أخذ تحوتمس يرسل أبناء الأمراء من "عملائه" لتسلم زمام أمور المدن ، وليصبحوا وكلاء لمصر وادي النيل في المنطقة ، مضموني الولاء ، تحرك الحثيون الكنعانيون ضد هذه الظاهرة . و بدؤوا يضيّقون الخناق على أولئك " الوكلاء " ، مبقين على الصلات مع الدولة السورية في الشمال و كان الاموريون ، أبناء عمور أو عمرو بن كنعان ، من بين أولئك المؤيدين لسوريا ، وقد فرضوا سيطرتهم على قسم كبير من جبال لبنان شرقي غامد و زهران ، حتى ذو مسك شمالا و على مجموعة من المدن و القرى في السفوح الداخلية و كان عبد عشترا أحد هؤلاء الأمراء الأموريين المعينيين من قبل ملك مصر وادي النيل . ، كما كان أحد أبرز أولئك الوكلاء الذين انتهجوا أسلوب " النفاق " مع جميع الأطراف من أجل أن يحقق لنفسه المكاسب . إنه لم يكن يتورع عن ترديد كل تلك الألفاظ التي ربي و نشأ عليها في قصر الملك ، كما

أظهرت رسائله المكتشفة في تل العمارنة . ففي إحدى رسائله التي كتبها بلغة أكادية ركيكة إلى الملك المنحوتب الثالث (توفي عام 1375 ق.م) جاء فيها:

" إلى الملك الشمس سيدي ، هكذا يقول عبد عشرتا عبدك وغبار قدميك . عبد قدمي الملك و كلب بيته ، وجميع أمور و احرسها للملك سيدي"(1)

كان عبد عشرتا عند كتابة هذه الرسالة في بلدة " عرقة " Arqt الكنعانية ، وهي تقع على وادي عرقة الذي دعي باسمها ، وهو أحد روافد نهر تليلث شرق عسير . وكان قد ساعد الحثيين على استرجاع " عمقي " (عميقة حاليا في زهران) . لكنه كان يخادع كل الجهات من أجل التوسع لحماية سهل العمق شرق وادي عرقة في وسط شبه جزيرة العرب و بلاد غامد و زهران . وقد تمكن ، بالفعل ، من أن يوسع دائرة ملكه ، فاستولى على مجموعة من القرى و المدن ، و هب بعضها بالتعاون مع ابنه ازيرو ، وكان يرضي بعض التابعين لمصر و يرشوهم ، ويتخلص من بعضهم الآخر ، فاحتل " قطنة " على نهر الثرات شرقي زهران ، و " جمتي (الغميط) " شرق غامد ، و بعض القرى حول ذومسك ، شرقي زهران ، وصعد إلى عردة في زهران ، و شيفاتا و بترونا . وفصلها عن " جبيل " على نهر الليث ، فلم يعد " ملك " جبيل " قادرا على تزويد مصر وادي النيل بالأخشاب من الجبال ، و تعذرت مهمة " ملكها " التابع لمصر ، فأخذ يرسل الرسائل واحدة في إثر الأخرى إلى المنحوتب ، حتى بلغت خمسين رسالة ، هي أهم دفعة من رسائل تل العمارنة(2) ، ملأها بالشكوى من " خيانة " عبد عشرتا " الكلب " و ابنه ازيرو ، و تضرع إلى سيده بحجارة من أجل أن يرسل له المساعدات ، لكن دون جدوى . وقد تحرك المنحوتب الثالث في إحدى المرات ، وأرسل مجموعة من الجنود - بدلا من أن يأتي بجيش كامل تحت قيادته كما كان يفعل سلفه تحوتمس - و تمكن من أن يوقف أهيار نفوذه قليلا ، لكنه ما لبث أن تفاقم الوضع ضده أمام نجاح الحثيين الكنعانيين في التقدم معتمدين على نصره الدولة السورية.

(1) S.H.mercer ، Tel-el amarna tablets ، toronto، No-60

(2) C.O.Londer (The Tel – El – Amaena) 2Ed·nd (2) وبعضها محفوظ في لندن والأخرى في برلين

ثم إن موت عبد عشترا لم يغير من الأمر شيئا . فقد تابع ابنه أزيرو أعماله مستخدما أساليبه نفسها . وقد شجعه وصول امنحوتب الرابع (أخناتون) إلى العرش في مصر ، و كان هذا منهما في حياته المثالية مع زوجته المحبة الجميلة " نفرتيتي " و في برنامج الديني و الأخلاقي ، وفي نظم الأشعار . " وبينما كان أزيرو و أخوته و حلفاؤه يستولون على المدن المختلفة كان رب عدي يبعث بتحاير الشكوى عما كان يحدث إلى الملك و عماله . وقد كتب بالمسمارية على ألواح خزفية . و مما قاله في تلك التحاير : " إن ملوك كنعان عندما كانوا يرون مصريا كانوا يهربون من أمامه ، ولكن أبناء عبد عشترا قد أخذوا بعض الناس و الضباط و أعطوهم لبلاد " سوري " suri كرهينة ، وسقطت أولازا Ullaza و أرداتا Ardata و مدن أخرى على يد أزيرو بعد مدة وجيزة . واسترجعت حميرا و هدمت " لمنع وقوعها في أيدي الحثيين " كما ادعى أزيرو . وعندما طلب الملك إعادة بنائها و عد ازيرو بأن يفعل ذلك خلال سنة ، لأنه كان " جد منشغل في الدفاع عن مدن الملك ضد الحثيين " . و لهذا السبب نفسه ، كما ادعى في مناسبات أخرى ، لم يتمكن من الاستجابة لأمر الملك و الذهب إلى البلاط المصري ليشاهد " وجه سيدي الجميل " ويعطي تقريرا عن أعماله . ومهما يكن فإن أزيرو " ذهب فيما بعد إلى مصر بعد أن انتزع من مندوب الملك إيمانا بأنه سوف لا يصاب بأذى ، ولكنه عاد و جدد ولاءه للغازي الحثي و اسمه شوبيلو ليوما . وفي هذه الأثناء نجد أن " رب عدي " الذي شعر بأنه أصبح " كعصفور في شبكة " أخذ يفقد أمله . وقد أرسل أخته وأولادها ليلتجئوا إلى صور التي كان ملكها أبي ملكي غير منضم إلى جماعة الأمراء الناقمين ، بل كان يسترسل في توجيه تحاير الشكوى إلى مصر كما كان يفعل " رب عدي " . وأما " رب عدي " نفسه فقد هرب فيما بعد من جبيل* إلى بيروت** ولكن نساءه وأبنائه سلموا إلى " أزيرو " . وعندما أصبحت بيروت

• التي هي جزيرة العرب على النهر
 •• هي في الأصل فبرين .

في خطر تابع هربه إلى صيدون** التي بخلاف منافستها صور (اسم أب لعشيرة من أبناء سعيير الحوري) كانت قد تحالفت مع الأموريين . وهنا أدركه أخيرا " أزيرو " فوقع في قبضته . " وهكذا فقد اضطرت مصر للتخلي ليس عن شمالي سورية*** فحسب وإنما عن فينيقيا**** أيضا التي كانت مصدرا هاما لمواردها الخام " (1)

6 — في الوقت الذي كان فيه الأموريون يتغلغلون بين مدن و قرى غامد و زهران من الوسط و الغرب ، وكان الحثيون يوسعون دائرة نفوذهم في الوسط و الشمال و كانت جماعات آرامية بفئاتها الثلاث التي سبق أن تحدثنا عنها (العابرين ، و الخبيرو ، والأخلامو) تضغط من جهة الشرق على القرى و المدن الواقعة في سفوح الجرد (يردن) الشرقية ، وتتوغل إلى الداخل . وكانوا يتميزون بترعتهم إلى الانفصال و الاستقلال عن نفوذ أي من الدولتين السورية البابلية و المصرية في وادي النيل . ولهذا فقد أخذوا يؤسسون مراكز آرامية تنتشر على طول حوض الثرات ، وفي منطقة شرقي غامد و زهران ، معتمدين على انشغال الجيش السوري البابلي بحسم أمور الصراع على السلطة في بابل ، وعلى انشغال دوائر الحكم في مصر وادي النيل بتصفية تركة اخناتون الدينية و السياسية .

7 — في هذا الطرف بالذات طمع بعض شيوخ المديانيين (أبناء مدين بن إبراهيم من زوجته قطورا) المنتشرين شمال شرق زهران ، في المنطقة المحصورة بين وادي كارا و عردة و بلدة الصوت ، بأن يكون لهم حصّة في تلك الأراضي الخصيبة في زهران و غامد ، والتي تطلق التوراة عليها اسم أرض كنعان " أرض اللبن و العسل " . فالمنطقة تكاد تكون هبا بين القوى المحلية المتنافسة من جهة ، كما أن الدولتين الكبيرتين في سوريا و مصر وادي النيل منهنكتان في أمورهما الداخلية ، وليس ينقص أصحاب

** هي في الأصل "ردن" وليست صيدا اللبنانية على المتوسط وربما المقصود صيدون بكر كنعان .

*** التعبير يأتني كتخمين من قبل كتبة التاريخ

**** هي تخمين آخر لا علاقة له بالنص الأصلي .

(1) فلييب حتي ، " تاريخ سوريا و من ضمنها لبنان و فلسطين " الجزء 1 ، ص 77 - 79

المطامح الكبيرة غير جماعة من الناس تنضوي تحت قيادتهم ليغزوا بها جزءاً من تلك الأراضي " التي تفيض لبنا و عسلا " ، ويغنموها لأنفسهم و لأولادهم من بعدهم ، وبدأت تحاك خيوط العملية بين موسى الهارب من أرض المصريين في غرب زهران إلى بني قومه في مديان و بين حميه يثرون المدياني الذي تمكن - لا شك - من إقناعه بضرورة إخراج أبناء عشيرته الذين يعملون في : " أورا " (أفارس) عند فرعون المصريين في جنوب و غرب زهران ، وقيادتهم من أجل غزو بعض أراضي الكنعانيين هناك .

8 — في حوالي عام 1290 ق.م خرج موسى بجماعته من أرض المصريين في جنوب زهران و سلك الطريق التي ذكرتها مدونات التوراة مفصلاً إلى أرض كنعان . وبدأت الصدامات المعروفة بين جماعة موسى البدوية الغازية و سكان الأرض الزراعيين . وليس عسيراً علينا أن ندرك كيف أن الدولة السورية كانت تنظر إلى أي انتصار يمكن أن تحققه جماعة موسى إنما سيكون بمثابة تهديد لنفوذها في المنطقة و لأمن الشريان التجاري هناك . و يعتبر بعض المؤرخين والباحثين أن موسى لم يكن إلا من رجالات فرعون مصر ، تربى و نشأ في بيته ، ومنهم فرويد . ونحن نضيف انه كان في مصر زهران لدى فرعوها وتربى ، و ليس في قصر ملك مصر وادي النيل ، ويخطئ كل الذين حسبوا أنه وقومه كانوا في مصر وادي النيل . إن كل مدونات التوراة تؤكد هذه الحقيقة ، وقد أوردنا جزءاً غير يسير من هذه المدونات . علماً أن فرعون مصر (المصريين) في عسير كان وكيلاً للملك وادي النيل على الخط التجاري الدولي في المنطقة .

9 — في حمأة التزاحم و الاقتتال بين القوى المحلية من أجل السيطرة على تلك المنطقة في غياب فعل الدولتين الكبيرين سوريا و وادي النيل في تلك الفترة من القرنين الثالث عشر و الثاني عشر قبل الميلاد ، نهض سكان " فلشة " و القرى التابعة لها في جنوب زهران ، وهم الذين دعوا فيما بعد بـ " الفلسطينيين " ثم بـ " الفلسطينيين " ، و هم في الحقيقة الفلاشة ، وتصدوا لعصابات بني إسرائيل البدوية التي أخذت تعيث قتلاً و سطوا ونهباً في قرى كنعان الداخلية ، تنهزم هنا ، لتسطو على قرية هناك : مما أحدث بلبلة في منطقة غامد و زهران ، صارت تهدد أمن التجارة و القوافل ، وبالتالي خزينة الدولة السورية .

و كان " فراعنة " مصر زهران يرقبون هذه النزاعات في هيئة المتفرج متحينين الفرص ليسيظوا سيطرتهم على المنطقة كلها .

لم تكن حملة رعمسيس الثاني (1301 - 1234 ق.م) آخر ملوك السلالة التاسع عشرة إلى الساحل الشرقي للبحر الأحمر وصعوده إلى " بئروت " على نهر الليث " (الكلب)* وتوغله شرقا في أرض زهران لتخدم في شئ أكثر من أنها شجعت موسى على الخروج بجماعته من مصر زهران الى ارض كنعان ، لعله ، تحت مظلة هذه الأحداث يتمكن من اغتصاب قسم من أراضي كنعان الخصبة بمعونة فراعنة المصريين في جنوب زهران . ولا بد أن نوضح هنا أن الصراع في المنطقة لم يكن بين " الحثيين " في الأناضول وبين مصر وادي النيل من اجل السيطرة على سوريا و اقتسامها كما يزعم جميع المؤرخين اليوم . إن هذه الصورة تتضح أكثر من خلال المعاهدة التي تم توقيعها بين فرعون مصر زهران وحتوسيل ملك الحثيين ، إذ تتكشف أمامنا ، من خلال بنود الاتفاق ومحمل الأسماء الواردة ، حقيقة هذه الأحداث التاريخية و مسرحها الجغرافي وفيما يلي نصها :

المعاهدة المصرية الحثية هي بين " مصريم و بني حث فيي " نامد وزهران

مدخل :

العام 21، الشهر الأول من فصل الشتاء ، اليوم 21، في عهد جلالة ملك مصر العليا ، ومصر السفلى دوسر مات** سيت بن سري ابن رع ، رعمسيس ميري أمون ، المعطى

• يعتقد الدارسون ، بناء على الجغرافيا التوراتية ، أن رعمسيس الثاني قد يكون صاحب النقش غير المقروء على الصخور عند مصب نهر الكلب في لبنان . والواقع أن رعمسيس و غيره من ملوك مصر وادي النيل لم يدخلوا مرة لبنان أو فلسطين في حروبهم ، ولم يذهبوا بجيوشهم إلى أبعد من السواحل الشرقية للبحر الأحمر الذي أطلق عليه في زمن رعمسيس الثاني الخليج العربي . وقصة النقش غير المقروء على صخرة عند نهر الكلب و نسبته إلى رعمسيس ليست إلا مجرد فرضية طائشة ما لبث واضعو الكتب ان ردوها كحقيقة (دون أي دليل) .

** يبدو واضحا أن المعاهدة وقعت في عهد فرعون مصر زهران (وكييل رعمسيس في المنطقة) فهو الذي خاض الحرب ، وهو الذي وقع المعاهدة . كما أننا نتعرف على اسم هذا الفرعون الحقيقي (دوسر ما سيت بن سري) ، ولا جدال في أن الاسم بكامله عربي سوري يعود

حياة أبدية و إلى مدى الدهور ، حبيب أمون رع ، و حرختي و فتاح في جنوب سور ،
وسيد عنخ تاو ، وموت سيدة عشرو ، وقانصوه نفر هو تيب ، المرتقي عرش حورس
الحي ، كأبيه حرختي ، إلى الأبد و مدى الزمان .
هذا اليوم الذي كان فيه جلالته في مدينة بي رعمسيس ميري أمون من رعمسيس ميري
أمون ، بتاح من رعمسيس ميري أمون ، وسيتاخ الشجاع ابن موت " .
و يعن واضعو هذا المدخل في التبجيل و التعظيم حتى التأليه ، فإذا بالأعياد تتوالى من
الشمال إلى الجنوب ابتهاجا بانتصار فرعون ، و إذا بالآلهة تضمن للشعب ألوف الأعوام
من السلام و الازدهار و السعادة و المناطق الجبلية تسجد على قدمي الملك العظيم ،
وتلثم نعليه .. بعد هذا كله نعلم أن مندوب فرعون ، ومندوب الملك الحثي قد التقيا ..
وأن الحثي حمل من سيده لوحة فضية إلى فرعون ، يطلب فيها السلام ، ثم نعلم ، في
ختام هذا التمهيد العجيب ، أن فرعون ، مع ألقابه الاثني عشر هو " ثور الملوك الذي
يضع التخوم حيث يشاء ، في كل بلاد العالم " ، وفي هذا مرة أخرى ، تأكيد على أن
المقصود هو فرعون مصر زهران و ليس مصر وادي النيل .

1 — العنوان :

المعاهدة التي كتبها على لوحة من الفضة الملك الحثي حتوسيل القوي ، ابن مرسيل ،
عظيم الحثيين القوي و ابن ابن سويلو ليوما عظيم الحثيين القوي ، وأرسلها إلى دوسر
مري ست بن سري عظيم مصر القوي ابن معن مري ملك مصر العظيم القوي .
وهذه معاهدة سلام و إخاء ، تمنح السلام والأخوة بيننا ، بين الحثيين و مصر إلى الأبد .
2 — الوضع السابق :

في ما يخص بالزمان الغابر ، ومنذ الأزل كان الوضع بيد ملك مصر العظيم و الملك
الحثي العظيم ، على أن الإله أزال كل خصومة بينهما ، بفضل معاهدة . ولكن في عهد
موت ايلي ، ملك الحثيين ، أخي قاتل هذا رعمسيس ، ملك مصر العظيم . أما الآن ،

أصله إلى غرب شبه جزيرة العرب . ولم يوقع المعاهدة رعمسيس بل أبرمت في عهده من قبل
وكيله في زهران كما يؤكد النص و هو فرعون مصر ايم . وصار من الثابت أن الملوك الوكلاء
على المحطات كانوا ينتحلون اسم سادتهم من ملوك الدولة المركزية و يتصرفون بالنيابة عنهم .

وابتداء من هذا اليوم ، فها إن حتوسيل ، ملك الحثيين العظيم ، قد وضع معاهدة ليستمر ذلك الوضع الذي اقره " فري " و الذي أوجده سيتخ إله العاصفة من أجل مصر وعلاقتها بالحثيين ، بحيث لا يتاح نشوب الخصومة بينهما منذ اليوم و إلى الأبد .

3 — معاهدة :

ها إن حتوسيل الملك الحثي العظيم قد وضع ، هو نفسه ، معاهدة مع سروي سيني بن سري ملك مصر العظيم ابتداء من هذا اليوم ليقيم سلاما حسنا وأخوة جيدة بيننا إلى الأبد . فالملك المصري هو في حالة سلام معي ، وحالة أخوة معي ، و أنا في حالة أخوة معه ، وحالة سلام معه ، و إلى الأبد . ومنذ أن ذهب أخي موت إيلي ، الملك الحثي العظيم إلى قدره ، ومنذ أن حل حتوسيل محله رئيسا كبيرا على الحثيين و على عرش أبيه ، ها أني أصبحت مع رعمسيس ، ملك مصر العظيم ، في ظل سلامنا وأخوتنا ، وهذا أفضل و كحالة السلام و الأخوة التي كانت تسود في بلادنا في ما مضى . وها أنا ، ملك الحثيين الكبير ، مع رعمسيس ميري أمون الكير ، ملك مصر ، في حالة حسنة من السلام و الأخوة . و أبناء أبناء الملك الحثي سيكونون في سلام و أخوة مع أبناء أبناء رعمسيس ميري أمون ، ملك مصر العظيم ، ما دمنا في وضعنا الأخوي وحالة السلام التي تسودنا . وبلاد مصر و الحثيين ، هي في سلام و أخوة مثلنا ، و إلى الأبد ، و لن تنشأ خصومة بينهما إلى الأبد .

4 — شرط عدم الاعتداء :

إن رئيس البلاد الحثية الكبير لن يدخل أبدا في بلاد مصر لينهب منها شيئا . ودوسر ماري سيني بن سري لن يدخل بلاد الحثيين لينهب منها شيئا .

5 — تحديد المعاهدات السابقة :

و بشأن المعاهدات القانونية التي كانت قائمة في عهد سويلوليوما ، الملك الحثي العظيم ، كما بشأن المعاهدة المعقودة في عهد موت إيلي ، الملك الحثي العظيم ، أخي ، فإنني أحافظ عليهما . و ها أن رعمسيس ميري أمون يحافظ على السلام القائم بيننا منذ هذا اليوم ، و ستتصرف بحسب هذا الوضع القانوني.

6 — معاهدة دفاعية :

إذا جاء عدو إلى بلاد دوسر ماري سيتي بن سري ، ملك مصر العظيم و أرسل يقول للملك الحثي العظيم " تعال معي ، و ساعدني عليه " فإن الملك الحثي سيأتي مع فرعون و يقتل عدو مصر ، وإذا لم يشأ الملك الحثي أن يأتي شخصيا فإنه يرسل جنوده و مركباته و يقتل عدو فرعون .

7 — عمل مشترك ضد العصاة :

إذا غضب رعمسيس ميري أمون على أبناء رعيته ، و إذا أساء إليه أحد منهم ، و سار لقمع المتمردين عليه ، فإن الملك الحثي يعمل معه ليقضي على كل من استحق غضب فرعون .

8 — مقابل الدفاع المشترك :

إذا جاء عدو ما ليقا تل الملك الحثي ، و طلب مساعدة ملك مصر ، فإن فرعون يساعده على قتل العدو . وإذا لم يشأ رعمسيس أن يأتي شخصيا ، فإنه يرسل جنوده و مركباته للقضاء على عدو الحثيين .

(هنا شرط استدراكي يتيح لكل من الملوك خيارا آخر ، إلا أنه غير واضح في النص الأصلي ، و قراءته متعذرة كليا) .

9 — مقابل العمل المشترك ضد العصاة :

إذا أثار أحد من رعايا الملك الحثي فإن رعمسيس يرسل جنوده و مركباته للقضاء على العصاة .

10 — ضمانه الخلافة الملكية : (هذا النص غير واضح في نسخة حتوسيل و نسخة رعمسيس . ولكن هذا البند العاشر يتعلق بوراثه العرش الحثي في حال تمرد الشعب عليها و رفضه الاعتراف بشرعيتها) .

11 — إخراج اللاجئين :

إذا هرب أحد الكبار من بلاد مصر ، وجاء بلاد ملك الحثيين لاجئا ، وإذا لجأت مدينة،

أو تابعة ، أو منطقة مصرية إلى الحثيين ، فإن الملك الحثي يرفضها جميعا ، ويقودها إلى رعمسيس صاغرة .

12 — إخراج المصريين اللاجئين:

إذا هرب رجل أو رجلان غير معروفين ، وجاءا البلاد الحثية ليعرضا لغير سيدهما ، فلا يجوز إبقاؤهما لاجئين ، بل يجب إعادتهما إلى سيدهما رعمسيس .

13 — إخراج اللاجئين الحثيين :

إذا هرب كبير حثي و لجأ إلى فرعون ، و إذا انحازت إلى مصر مدينة ، أو تابعة ، أو منطقة حثية ، فإن رعمسيس يرفضها جميعا ، ويعيدها إلى ملك الحثيين.

14 — إخراج اللاجئين من أبناء الرعية الحثية :

إذا هرب رجل أو رجلان غير معروفين ، وجاءا البلاد المصرية ، ليعرضا لغير سيدهما ، فلا يجوز إبقاؤهما لاجئين ، بل يجب إعادتهما إلى سيدهما ملك الحثيين.

15 — الآلهة شهود المعاهدة :

يشهد على هذه المعاهدة المنقوشة على لوحة من الفضة الآلهة المصريون و الحثيون ، الذكور و الإناث ، ومنهم ألف إله ذكر و ألف أنثى : ربة الشمس ، شمس مدينة — رنيا ، وإله العاصفة ، سيد السماء ، و إله العاصفة الحثي في ذو بعل نعدا ، وبيت جاريك ، وهيساشابا ، وسريسا ، وحلبا ، ولحزينا ، والربة عشتار الحثية ، و ربة صور ، وربات الأرض .. والجبال ، والأهوار .. و أمون رع ، وفري ، و سياتا .. و آلهة البحار و الرياح و الغيوم .

16 — شرط معاقبة من لا يحترم بنود المعاهدة :

هذه الكلمات المكتوبة على لوحة فضية في بلاد الحثيين و بلاد مصر ، من لا يحترمها و يطبقها يدمر بيته ألف إله حثي و ألف إله مصري ، و يدمرون بلاده ، و يقتلون خدمه ، و على نقيض ذلك ، فإن من يحترم هذه الكلمات و يطبقها ، أكان حثيا أم مصرية ، و من لا يهملها ، ينل من الآلهة الحثيين و المصريين ، الصحة و الحياة ، و عمران البيوت و سلامة البلاد و الخدم .

17 — عقد من المصريين المبعدين عن البلاد الحثية :

إذا هرب أحدهم من مصر ، أو هرب اثنان أو ثلاثة ، و لجأوا إلى الملك الحثي ، فإن هذا يعتقلهم ويعيدهم إلى رعمسيس ،

على أن يعفو فرعون عنهم ، ويبقي على بيوتهم و نسائهم و أبنائهم ، فلا يقتلهم و لا يجرحهم في العين ، أو الأذن أو الفم ، أو الساق ، و لا يوجه إليهم أقل اتهام .

18 — العفو عن الحثيين المبعدين عن مصر :

كذلك إذا هرب أحدهم من بلاد الحثيين أو هرب اثنان أو ثلاثة ، و لجأوا إلى فرعون ، فإن هذا يعتقلهم ويعيدهم إلى الملك الحثي، على أن يعفى عنهم ويبقى على بيوتهم ، و نسائهم ، و أبنائهم ، فلا يقتلون ، و لا يجرحون في العين ، و الأذن ، و الفم ، و الساق ، و لا يوجه إليهم أقل اتهام .

وقد اكتشفت لوحات فخارية تحمل وصفا دقيقا للوحة المعاهدة الفضية ، يستفاد منه أن تلك اللوحة تحمل على أحد وجهيها صورة الاله المصري سيتخ ، يعانق الملك الحثي ، وقد نقشت حولهما العبارة التالية : " ختم سيتخ ، رب السماء ، خاتم المعاهدة ، صنعه حيوسيل ، الملك الحثي العظيم ، القوي ، لبن مرسيل ، الملك الحثي العظيم... " و على الوجه الآخر صورة ربة حثية تعانق ربة حثية أخرى ، وقد نقشت حولهما العبارة التالية : " خاتم شمس مدينة أ- رنيا ، سيدة البلاد ، ختم بودو ه- يابا ، سيدة البلاد الحثية بنت كيسودونا ، كاهنة المدينة ، ملكة البلاد ، خادمة الربة .. "

1 — أن نظرة سريعة على مضمون هذه المعاهدة يكشف لنا ما يلي :

إن جميع الأسماء سواء كانت للأرباب أم للملوك أم للمدن هي أسماء عربية سورية تخص منطقة غامد و زهران تحديدا حيث رنية مدينة الشمس و إلباب (رب - ياب) ما تزالان حتى اليوم.

2 — إن شروط المعاهدة الخاصة باللاجئين و الهاريين توضح أن المتحاريين إنما هم في بقعتين من الأرض متجاورتين و متداخلتين ، كما هي الحال مع مصر زهران و أرض الحثيين الكنعانيين في غامد و زهران . و ليس معقولا أن يخطر في ذهن أحد المصريين من

وادي النيل أن يفر لاحقاً إلى أرض " الحثيين " المفترضة في الأناضول ، والعكس أيضاً صحيح .

3 — إن أسماء الآلهة الشهود تحدد المنطقة تماماً : فالشمس ربة السماء شمس مدينة أرنيا (وهي -"رن" كما سبق و مرمعنا من ذي قبل) ، و إله العاصفة الحثي زو بعل الند (رب جبل النعد الذي هو شمال زهران) ، و حلبا ، التي هي شرق بلاد غامد، والربة عشتار ، وربة صور (إذ من الواضح أنها صور (صر) في بلاد غامد الجبلية وليست صور الساحلية المتوسطة التي لا علاقة لها بأرباب الحثيين و لا بأرباب المصريين)، و أمون رع و سيتخ (الذي هو سيتع و يحمل اسمه الجبل عند حرة الدم شرقي البحر الأحمر) .

4 — إن شروط التعاون ضد تمرد بعض الناس أو القرى أو المدن يوضح التصاق المملكتين و تجاورهما و سهولة التصرف ، بعكس الواقع الذي ينجم عن الفرضية التي درج عليها المؤرخون حتى اليوم باعتبار فرعون المصريين هو ملك مصر وادي النيل وملك الحثيين هو ملك القبائل الهندو أوروبية المزعومة في الأناضول . علماً أنه في جميع وثائق وادي النيل يوجد لقب " ملك " ولاذكر للقب "فرعون" .

5 — لم تتطرق المعاهدة إلى ذكر سوريا ، رغم كونها أعظم دولة في ذلك الزمن ، ومصر مدنها الشهيرة على طول الرقعة المترامية الممتدة من أعالي الفرات إلى شواطئ البحر الأحمر و جنوب سيناء، مما يدحض الزعم القائل بأن المعاهدة إنما كانت بين حثيي الأناضول المزعومين " و مصر وادي النيل .

6 — لقد كتبت المعاهدة باللغة العربية بلهجتها السريانية الشرقية (التي هي لهجة جبال السراة في شبه جزيرة العرب أيضاً) ، تشهد على ذلك صياغة نهايات الأسماء ، وبالخط المسماري ، و ليس بأية لغة أو كتابة أخرى .

وهكذا ، وفي فترة نهاية حكم السلالة التاسعة عشرة و بدء حكم السلالة العشرين من ملوك مصر وادي النيل كانت منطقة غامد و زهران موزعة بين تلك القوى على النحو التالي : كان الحثيون الكنعانيون قد وطدوا أقدامهم في زهران الشمالية و الوسطى ،

وكان الآراميون قد توغلوا إلى أرض كنعان و بدأوا ضغطهم عليها عبر الجحود (يردن) ، وكان الفلسطينيون قد وسعوا دائرة سيطرتهم على قرى و مدن المصريين جنوب زهران و غامد ، وأخذ جماعة بني إسرائيل البداة يجولون من مكان إلى آخر بين أولئك جميعاً حيث تسنح لهم فرصة السطو و النهب . وصارت الجزيرة التي كانت تفرض على "ملوك" المدن المسيطرة على خطوط التجارة من قبل حكام سوريا أو مصر تذهب فهاً بين أيدي أولئك المتسلطين الصغار . وتشير رسائل تل العمارنة إلى أن الفلسطينيين كانوا قد خرجوا عن طاعة فرعون مصر بصورة تامة قبل موت أخناتون .

إن انخراط السيطرة المصرية خلال السلالة العشرين استمر . ولدينا من نهاية هذه الفترة قصة حية تتخذ شكل تقرير سلمه إلى فرعون حوالي 1100 ق.م . موفده "ون آمون" الذي أرسل إلى منطقة الجبال هناك لتأمين الأخشاب اللازمة لبناء زورق آمون المقدس . وترينا المعاملة المزرية التي نالها على يد أمير جبلة " (جبيل) أن ممثل مصر لم يعد بإمكانه فرض احترامه على حاكم محلي هناك ، علماً أن "جبيل" كانت أكثر المدن ارتباطاً بمصر وادي النيل وولاء لها، كونها تمثل المصدر الرئيسي لتجارة مصر مع المنطقة ، و المورد الرئيسي للأخشاب و غيرها من بضائع و منتجات شبه الجزيرة العربية . يقول " ون آمون " في معرض روايته لما حصل : " لقد صرفت تسعة عشر يوماً في مرفأه ، وكان يرسل إليّ كل يوم و بدون انقطاع من يقول " اذهب من مرفأي " . وأصبح " ون آمون " عاجزاً أمام " زكر بعل " الحاكم المحلي على المدينة " وقد يئس من بعثته وصار يخاف على حياته . وكان يجلس هناك على الساحل و يتحسر بسبب مصابه . وكان معه ذهب و فضة ، ، ولكن أوراق الاعتماد اللازمة لم تكن معه . وفي وقت ما أرسل له الأمير مغنية مصرية لتروح عنه . وأخيراً يرق قلب زكر بعل . وعند عودته من الطقوس الصباحية في الهيكل يمنح المندوب التعب القلق مقابلة و هو " جالس في غرفته العليا مسنداً ظهره إلى نافذة " و يعلن الحاكم أثناء المقابلة " أما أنا فإنني لست بخادمك ولا بخادم الذي أرسلك . وإذا ناديت جبال لبنان فإن السماوات تنفتح و تأتي الأخشاب

إلى هنا " .. وأخيراً يسمح زكر بعل بالتخلي عن الأخشاب بعد تسلم مبلغ أكبر من المال " (1) .

10 — في الفترة الممتدة ما بين 1100 - 950 ق.م يستمر الفلسطينيون (الفلسطينيون) في مطاردة عشائر بني إسرائيل البدوية السارحة عند جبال غامد و زهران . و " خرج إسرائيل للقاء الفلسطينيين للحرب . ونزلوا عند حجر المعونة . وأما الفلسطينيون فترلوا في أفيق . واصطف الفلسطينيون للقاء إسرائيل و اشتبكت الحرب فانكسر إسرائيل أمام الفلسطينيين ، وضربوا من الصف في الحقل نحو أربعة آلاف رجل فجاء الشعب إلى المحلة . وقال شيوخ إسرائيل لماذا كسرنا اليوم الرب أمام الفلسطينيين . لنأخذ لأنفسنا من شيلوه تابوت عهد الرب فيدخل في وسطنا و يخلصنا من يد أعدائنا . فأرسل الشعب إلى شيلوه وحملوا من هناك تابوت عهد رب الجنود الجالس على الكروبيم و كان هناك أبناء عالي حفني و فينحاس مع تابوت عهد الله . وكان عند دخول تابوت عهد الرب إلى المحلة أن جميع إسرائيل هتفوا هتافاً عظيماً حتى ارتجت الأرض ، فسمع الفلسطينيون صوت الهتاف . فقالوا ما هو صوت هذا الهتاف العظيم في محلة العبرانيين . وعلموا أن تابوت عهد الرب جاء إلى المحلة . فقالوا : تشددوا و كونوا رجالاً أيها الفلسطينيون لئلا تستعبدوا للعبرانيين كما استعبدوا هم لكم . فكونوا رجالاً و حاربوا . فحارب الفلسطينيون و انكسر إسرائيل و هربوا كل واحد إلى خيمته . وكانت الضربة عظيمة جداً .. فأخذ الفلسطينيون تابوت الله و أتوا به من حجر المعونة إلى أشدود " (2) . وكان بنو إسرائيل يلاحق بعضهم بعضاً و يقتتلون من أجل فرض الهيمنة على الزعامة والاستئثار بأموال النهب و السلب . واستمرت هذه الحالة حتى عهد "الملك" سليمان . " فلما سمع شاول تبع داود إلى بركة معون . فذهب شاول عن جانب الجبل من هنا وداود و رجاله عن جانب الجبل من هناك و كان داود يفر في الذهاب من أمام شاول . وكان شاول و رجاله يحاوطون داود و رجاله لكي يأخذوهم .. و لما رجع شاول من

(1) فيليب حتي ، "تاريخ سوريا ومن ضمنها لبنان وفلسطين " الجزء 1 ، ص 145 .

(2) صموئيل الأول 4 : 12 ، 5 : 1 .

وراء الفلسطينيين أخبروه قائلين هو ذا داود في بركة عين جدي . فأخذ شاول ثلاثة آلاف رجل منتخبين من جميع إسرائيل و ذهب بطلب داود و رجاله على صخور الوعول . و جاء إلى صير الغنم التي في الطريق . وكان هناك كهف فدخل شاول لكي يغطي رجله و داود و رجاله في مغابن الكهف⁽¹⁾

وفي هذه المرحلة أيضا انقسم بنو إسرائيل على أنفسهم . داود في أورشليم شرقي غامد قرب طريق التجارة والقوافل . وابنه أبشالوم في حيرون (قرية أربع) ، ثم صار الانقسام يتبلور بين مجموعتي أورشليم وميولها إلى السوريين عموما ، وقرية السامرة التي ربما تكون اسما لجبل وأخذ الصراع بين المجموعتين يتفاقم ، وكل منهما تحاول أن تستأثر لنفسها بالعمالة في المنطقة سواء للدولة السورية أو المصرية في وادي النيل .

وقد ظلت سلطة كل من هذين المركزين أورشليم و السامرة لا تتعدى بعض المضارب الصغيرة ، كما أن السكان الكنعانيين في المنطقة لم يكونوا ليشعروا بوجود أي منهما لولا عمليات السطو و النهب التي تتم من فترة لأخرى ، كما هي العادة مع أية جماعة من البدو الرحل المتنقلين بين الجبال و الوديان ، والذين لا تربطهم أية رابطة بالأرض إلا ما قد توفره من غنائم ومراع و أسلاب دونما كدح .

وهكذا بقيت كل من الجماعتين تتسلل من واد إلى واد متوارية ، في أغلب الأحيان ، عن أنظار السكان الأصليين سكان السهول و الجبال و عن بعضها . و لولا مدونات التوراة التفصيلية التي اتخذت طابعا دينيا فيما بعد لما سمع بذكر تلك الجماعات أحد .

إن هذه المرحلة هي مرحلة القضاة و الملوك حتى سليمان . ففي عهد القضاة نزل بنو إسرائيل في تلك الأرض . وتنقلوا فيها ، يسطون مرة و يطاردهم السكان مرة أخرى . وحينما اقتسموا الرقعة الصغيرة الشرقية من بلاد غامد فيما بينهم و التي تضم مجموعة من المغاور والمضارب الصغيرة و المواضع مثل جبل دان و جازر و ييلعام و دور و بيت شان و قطرون و غيرها ، فقد كانوا وسط السكان الأصليين الذين — على ما يبدو — لم يبالوا كثيرا بوجودهم فيما بينهم .

(1) صموئيل الأول 23: 25 ، 27 : 24 ، 1 - 3 .

" ولم يطرد منسى أهل بيت شان و قراها و لا أهل تنك و قراها و لا سكان دور و قراها و لا سكان يلعام و قراها و لا سكان مجدو* و قراها . فعزم الكنعانيون على السكن في تلك الأرض .. وأفرايم لم يطرد الكنعانيين الساكنين في جازر فسكن الكنعانيون في وسطه في جازر و زبولون لم يطرد سكان قطرون و لا سكان نهلول فسكن الكنعانيون في وسطه، و لم يطرد اشير سكان عكو و لا سكان صيدون واحلب و اكزيب و حلبة و افيق و رحوب . فسكن الاشيريون في وسط الكنعانيين سكان الأرض. و نفتالي لم يطرد سكان بيت شمس و بيت عناة و حصر الأموريون بني دان في الجبل لأنهم لم يدعوهم يتزلون إلى الوادي (القضاة 1: 27 — 34).

وفي عهد الملوك الأول شاول و داود و سليمان رأينا كيف يطارد بعضهم بعضا من جبل إلى جبل و من مغارة إلى أخرى . أما في عهد الملوك الثاني فإننا نجد أنه في عهد يهو آش ملك أورشليم لم تتعد سلطته هذه المغارة الواقعة جنوبي معبر أريحا في جروف الجبال بين غامد و زهران ، قرب طريق القوافل الصاعدة إلى عشيرة إذ " أن المرتفعات لم تنتزع ، بل كان الشعب لا يزالون يذبجون و يوقدون على المرتفعات " (الملوك الثاني 12 : 3) . وفي عهد امصيا بن يواش بقي الملك في أورشليم " إلا أن المرتفعات لم تنتزع بل كان الشعب لا يزالون يذبجون و يوقدون على المرتفعات " (الملوك الثاني 14 : 4) . وفي عهد الملك فتح بن رمليا ملك في إسرائيل على السامرة عشرين سنة " إلا أن المرتفعات لم تنتزع بل كان الشعب لا يزالون يذبجون و يوقدون على المرتفعات " (الملوك الثاني 15 : 35) . و في عهد " الملك " آحاز بن يوثام " ملك " يهوذا " (لم يعمل المستقيم في عيني الرب إله كداود أبيه . و ذبح و أوقد على المرتفعات و على التلال و تحست كل شجرة خضراء . حينئذ صعد رصين ملك آرام و فتح ابن رمليا - ملك إسرائيل إلى أورشليم للمحاربة فحاصروا آحاز و لم يقدرُوا أن يغلبوه . في ذلك الوقت أرجع رصين

* هي "مر مجدو" نفسها ، أي مرتفع مجدو ، أو جبل مجدو ، وقد ورد اسمها في رسائل العمارنة " هار مجدو " (أي جبل مجدو) ، وقد ورد ذكرها أيضا عند الحديث عن غزوة تحوتمس الثالث للمنطقة والتحم بالقوات الثائرة عند "هار مجدو" .

ملك آرام إيلة* للآراميين وطرد اليهود من إيلة و جاء الآراميون إلى إيلة و أقاموا هناك إلى هذا اليوم " الملوك الثاني 16: 2 - 6)

11 — بعد أن تمكن داود من أن يتغلب على ابنه ابشالوم ، ويقتل هذا على أيدي رجاله تصبح قرية السامرة و ما حولها تابعة لسيطرة داود في أورشليم ، ويصبح بالتالي ، داود زعيم عصاة لها سطوة محلية على الطريق التجاري ، ويمكن لإحدى الدولتين مصرر أو سوريا أن تجعل منه عميلا لها ، تعتمد عليه في جباية الأموال المترتبة على مرور القوافل ، كما تؤمن له في المقابل الحماية و الدعم . وحينما تسلم ابنه سليمان من بعده تنبه المصريون و السوريون معا إلى أنه صار في الإمكان التعامل مع هذه الجماعة التي يتزعمها سليمان و الاعتماد عليها مما أثار غضب " ملوك " الآراميين في المنطقة ، وقد كانوا يتطلعون إلى الاستقلال و بالسيطرة لهم دون سواهم . فرأى الكنعانيون أن يدعموا سليمان في وجه الآراميين ، وقد وجدوا فيه ملامح كنعانية أكثر مما كان يحمل من بدادة بني إسرائيل . فأمه كنعانية حثية و أفكاره و معتقداته جميعا كانت تنزع إلى أخواله بني كنعان . وتزوج منهم نساء كثيرات ، " فالتصق سليمان هؤلاء بالحبة ، وكانت له سبع مئة من النساء السيدات وثلاث مئة من السراري فأملت نساؤه قلبه . و كان في زمن شيخوخة سليمان أن نساءه أملن قلبه وراء آلهة أخرى و لم يكن قلبه كاملا مع السرب إله كقلب داود أبيه . فذهب سليمان وراء عشتروت آلهة الصيدين وملكوم رجس العمونيين . وعمل سليمان الشر في عيني الرب و لم يتبع الرب تماما كداود أبيه . حينئذ بنى سليمان مرتفعا لكموش رجس المؤابيين على الجبل الذي تجاه أورشليم و لمولك رجس بني عمون . وهكذا فعل لجميع نساؤه الغريبات اللواتي كن يوقدن و يذبحن لألهتهن " (الملوك الأول 11 : 2 - 8) . و وجدها حرام " ملك " صور فرصة لتثبيت ولاء سليمان و جماعته ، و لاعتماده دريعة في وجه الآراميين . فقرر أن يثبت وحدة بني إسرائيل تحت حكم سليمان . وأشار عليه ببناء معبد في أورشليم من أجل أن

* واضح هنا أن إيلة هي قرية في شرقي بلاد غامد و ليست " إيلات " على خليج العقبة التي دعاها الصهاينة حديثا بهذا الاسم و كانت تسمى من قبل " أم الرشراش "

يشد إليه أنظار كل بني إسرائيل ثم لا ينفصلون عنه في السامرة و يقعون في ظل " عمالة " أخرى لمصر . وأخذت القوافل تمر قرب أورشليم محملة ببيضاة أفريقيا و الهند و جنوب شبه الجزيرة من فضة و ذهب ، وعاج ، و أبنوس ، و صندل ، و قردة ، و طواويس ، و مر ، و لبان ، و عطور ، و توابل ، و بهارات ، و غيرها . و صارت أورشليم (مغارة ييوس) ، التي هي في طريق القوافل تتحكم بكل ما يصل إلى بلاد المصريين في غرب زهران ، وإلى جيلة على وادي الليث ، وبالتالي صار في إمكانها أن تفرض الضريبة التي تريد على مرور تلك السلع . وزوده الكنعانيون بالمراكب و المركبات لإيصال تلك الشحن من البضائع لقاء عمولات باهظة كانوا يتقاسموها معه في غياب نفوذ الدولتين الكبيرين السورية و المصرية في وادي النيل .

" وكان وزن الذهب الذي أتى به سليمان في سنة واحدة ست مئة وستين وزنة ذهب .. ما عدا الذي من عند التجار و تجارة التجار و جميع ملوك العرب و ولاة الأرض .. و جعل الملك الفضة في أورشليم مثل الحجارة و جعل الأرز مثل الجميز الذي في السهل في الكثرة . وكان مخرج الخيل التي لسليمان من مصر .. وكانت المركبة تصعد و تخرج من مصر بسبب مئة شاقل من الفضة و الفرس مئة و خمسين . وهكذا لجميع ملوك الحثيين و ملوك آرام كانوا يخرجون عن يدهم " .

(الملوك الأول 14/10 ، 27-29)

و حاول فرعون مصر زهران التقرب من سليمان بعدما لمسه من تعاظم نفوذه نتيجة لدعم الكنعانيين الذين اعتبروه " وكيلا " لهم و منهم ، ولغياب التدخل المصري من غرب البحر الأحمر ، فقرر أن يسترضيه و يستميله إلى ناحيته فزوجه بإحدى بناته ، و غزا بلدة جازر الفلسطينية و قدمها "مهرًا " لابنته زوجة سليمان* "وصاهر سليمان فرعون ملك مصر ،

* مثل هذا المهر لا يقدمه ملك مصر وادي النيل ، إن " ملك " قرية أو مدينة هو الذي يغزو قرية أخرى و يقدمها مهرًا لابنته .

وأخذ بنت فرعون وأتى بها إلى مدينة داود* إلى أن أكمل بناء بيته وبيت الرب " (الملوك الأول 3 : 1) . و في زمن قمة المجد** الذي بلغته "مملكة داود" التي أورثها لأبنه سليمان كان جميع بني إسرائيل ما يزالون جماعات من البدو يسكنون الخيام كما استمروا على ذلك زمن ابنه رحبعام من بعده : " فلما رأى كل إسرائيل أن الملك لم يسمع لهم، رد الشعب جوابا على الملك قائلين أي قسم لنا في داود ، و لا نصيب لنا في ابن يسي . إلى خيامك يا إسرائيل . الآن انظر إلى بيتك يا داود . وذهب إسرائيل إلى خيامهم . وأما بنو إسرائيل الساكنون في مدن يهوذا فملك عليهم رحبعام " (الملوك الأول 12 : 16 — 18).

12 — اغتنم ملوك المصريين في غرب زهران الشقاق الذي حدث بعد موت سليمان بين ابنه رحبعام و عبده يربعام ، وناصروا العبد بعدما أغاثوه وآووه ضد رحبعام ثم أعادوه ليملكوه على بني إسرائيل . وانضم إليه كل عشائر بني إسرائيل . ما عدا واحدة بقيت إلى جانب رحبعام . وبرز نفوذ المصريين في المنطقة يتعاظم على الساحة من جديد" ثم أرسل الملك رحبعام أدورام الذي على التسخير فرجه جميع إسرائيل بالحجارة فمات . فبادر الملك رحبعام و صعد إلى المركبة ليهرب إلى أورشليم . فعصى إسرائيل على بيت داود إلى هذا اليوم . ولما سمع جميع إسرائيل بأن يربعام قد رجع أرسلوا فدعوه إلى الجماعة ملكوه على جميع إسرائيل . لم يتبع بيت داود إلا سبط يهوذا وحده " (الملوك الأول 12 18 - 20) .

و حينما هرب رحبعام من قرية شكيم إلى أورشليم وجد في المعبد ، الذي بني في عهد أبيه ، وسيلة لتوحيد بني إسرائيل من حوله ، اغتنمها بسرعة واستعد لمحاربة باقي الإسرائيليين الذين من حول يربعام . فخاف هذا من لقاء رحبعام ، واعتمد على "سيده"

* مدينة داود هي الكهوف الصخرية في صهيون و ليست اورشليم : " حينئذ جمع سليمان شيوخ إسرائيل و كل رؤوس الأنبياط رؤساء الأباء من بني إسرائيل إلى الملك سليمان في أورشليم لاصعاد تابوت عهد الرب من مدينة داود هي صهيون " (الملوك الأول 8 : 1).
** لم يكن هذا المجد غير أكوام الذهب و الفضة و مجموعة كبيرة من النساء الجميلات التي شغل الكنعانيون بها سليمان من أجل أن تستمر خطوط الذهب و الفضة و السلع الأخرى في دفعها على أمراء كنعان دون سواهم .

شيشنق ملك مصر في غرب زهران . الذي كان قد آواه بعدما هرب من وجه سيده الملك سليمان ، ولما مات سليمان أرسله ليملك على بني إسرائيل و يكون " عميلا " له لا للكنعانيين .

13 — هنا بدأت المرحلة التالية ، فقد خرج شيشنق بجيشه إلى أورشليم " وأخذ خزائن بيت الرب وخزائن بيت الملك . وأخذ كل شيء ، وأخذ جميع أتراس الذهب التي عملها سليمان " (الملوك الأول 14: 25، 26) .

و كان ذلك بداية لفترة جديدة من الصراعات و التحالفات المحلية التي سببت في النتيجة تهديدا للتجارة الدولية و لخطوطها الرئيسية في تلك المنطقة . لقد حاولت جماعة أورشليم خطب ود الأمراء الآراميين في صوبا و ذومسك عن طريق الهدايا و الأموال لإشراكهم معهم في القتال ضد جماعة السامرة . ولما لم يفض ذلك كله إلى نتيجة حاسمة ، أخذ رئيس جماعة أورشليم ("ملك أورشليم") يعرض "خدماته" على ملك آشور (عشيرة أشوريم) في جنوب شرق زهران . فلما رأى أحاز " ملك يهوذا " أن رصين ملك آرام ضرب اليهود في إيلة و أعطاهما للآراميين ، و شعر أنه لم يعد قادرا على قتال " ملك السامرة " تراجع عن فكرة العمل مستقلا مع الكنعانيين المحليين ، وقرر أن يعرض " عمالته " على الآشوريين . " وأرسل أحاز رسلا إلى تغلث فلاسر ملك آشور قائلا : " أنا عبدك و ابنك . اصعد * و خلصني من يد ملك آرام و من يد ملك إسرائيل القائمين علي . فأخذ أحاز الفضة و الذهب الموجودة في بيت الرب و في خزائن بيت الملك و أرسلها إلى ملك آشور هدية . فسمع له ملك آشور و صعد ملك آشور إلى دمشق و أخذها و سبأها إلى قير و قتل رصين " (الملوك الثاني 16: 7-10).

و " في السنة الثانية عشرة لآحاز ملك يهوذا هوشع بن إيلة في السامرة على إسرائيل تسع سنين .. وصعد عليه شلمنأسر ملك آشور فصار له هوشع عبدا و دفع له جزية . و وجد ملك آشور في هوشع خيانة لأنه أرسل رسلا إلى سوا ملك مصر و لم يؤد جزية

* لا يقال للآشوري القادم من وراء الجبال على نهر دجلة في الشمال عبارة " اصعد وخلصني " بل يقال لمن تحت سفوح الجرود (يردن) في المنطقة نفسها .

إلى ملك آشور حسب كل سنة فقبض على ملك آشور و أوثقه في السجن وصعد ملك آشور على كل الأرض و صعد إلى السامرة و حاصرها ثلاث سنين* . في السنة التاسعة لهوشع أخذ ملك آشور السامرة و سبا إسرائيل إلى آشور و أسكنهم في حاح و خابور و نمر جوزان " (الملوك الثاني 17: 1-7) . ثم إن هؤلاء الآشوريين أتوا بجماعة من القرى المحيطة و التابعة لهم و أسكنوهم في السامرة بدلا من بني إسرائيل : " وأتى ملك آشور يقوم من بابل و كوث و عوا و حمتا و سفروايم و أسكنهم في مدن السامرة عوضا عن بني إسرائيل . فامتلكوا السامرة و سكنوا في مدنها " (الملوك الثاني 17: 24) . وواضح أن المقصود بـ " بابل " هي المحطة و ليست عاصمة الدولة .

14 — بعد أن تخلص " ملك يهوذا " من منافسة " ملك السامرة " بفضل الآشوريين ، أراد أن يحاول اللعب بين القوتين المحليتين اللتين برزتا على ساحة الصراع و المنافسة في تلك المنطقة : قوة المصريين في غرب و جنوب زهران و قوة الآشوريين في شرق زهران . ففي عهد " الملك " حزقيا بن آحاز ملك يهوذا ، عمل هذا على تكتيل بني إسرائيل من حوله ، و أعد العدة لأن يلعب لعبته و يخرج من تحت " العمالة " لصالح الآشوريين و تقدم الجزية و الأموال لهم ، فجهز لنفسه قوة و ضرب بها بعض قرى الفلسطينيين محاولا توسيع سطوته و هيئته ، ثم ما لبث أن أعلن العصيان على ملك آشور . " و كان الرب معه و حيثما كان يخرج كان ينجح و عصى على ملك آشور و لم يتعبد له .. و في السنة الرابعة عشرة للملك حزقيا صعد سنحاريب ملك آشور إلى لخيئش يقول قد أخطأت . ارجع عني و مهما جعلت علي حملته . فوضع ملك آشور على حزقيا ملك يهوذا ثلاث مئة و زنة من الفضة و ثلاثين و زنة من الذهب .. فدفع حزقيا جميع الفضة الموجودة في بيت الرب و في خزائن بيت الملك . في ذلك الزمان قشر حزقيا الذهب عن أبواب الهيكل و الدعائم التي كان قد غشاها حزقيا ملك يهوذا و دفعه إلى ملك آشور . و أرسل ملك آشور ترتان و ريساريس و ريشاقي من لخيئش إلى

* إن هذا يؤكد أن المقصود ليس الدولة السورية التي عاصمتها آشور ، إذ أن قرية مثل السامرة تخاف أن تقابل عصابة من قرية أخرى (كما حدث مع يريبعام أمام رحبعام) لا يمكن أن تصمد أمام أقوى جيش في ذلك الزمن ثلاث سنوات.

الملك حزقيا بجيش عظيم إلى اورشليم فصعدوا و أتوا إلى اورشليم . ولما صعدوا جاؤا وقفوا عند قناة البركة العليا التي في طريق حقل القصار . ودعوا الملك فخرج إليهم الياقيم بن حلقيا الذي على البيت و شينة الكاتب و يواخ بن أساف المسجل ، فقال لهم ربشاقى : قولوا لحزقيا هكذا يقول الملك العظيم ملك آشور ، ما الاتكال الذي اتكلت .. والآن على من اتكلت حتى عصيت على . فالآن هو ذا قد اتكلت على عكاز هذه القصبة المروضه ، على مصر ، التي إذا توكأ أحد عليها دخلت في كفه و ثقتها ، هكذا هو فرعون مصر ملك مصر لكل المتكئين عليه . والآن راهن سيدي ملك آشور فأعطيك ألفي فرس إن كنت تقدر أن تجعل عليها راكبين . فكيف ترد وجه وال واحد من عبيد سيدي الصغار و تتكل على مصر من أجل مركبات و فرسان .. فقال ألياقيم بن حلقيا و سبنة و يواخ لربشاقى كلم عبيدك بالآرامي لأننا نفهمه و لا تكلمنا باليهودي في مسامع الشعب الذي على السور . فقال لهم ربشاقى هل إلى سيدك و إليك أرسلني سيدي لكي أتكلم بهذا الكلام ، أليس إلى الرجال الجالسين على السور ليأكلوا عذرتهم و يشربوا بولهم معكم " (الملوك الثاني 18 : 13 - 24 - 26 - 28) .

إن هذا النص يوضح كيف أن المتخاطبين ابنا اللهجتين المتجاورتين الآرامية في شرق غامد و زهران و خميس مشيط و الكنعانية التي تكلم بها (اليهود) في غرب الجرد (يردن) في قرى كنعان و أن الآشوريين هم في لحيش قرب آشور عند وادي غط (جت) شرق خميس مشيط التي اعتبرت إحدى مدن الفلسطينيين كما اعتبرت إحدى مدن الهكسوس من قبل . لقد قضى الآشوريون على محاولات بني إسرائيل في إقامة أي كيان لهم مستقل عن القوى المتنافسة في المنطقة ، وجعلوا منهم " عملاء " لهم في اورشليم يفرضون المبالغ على مرور الشحنات و البضائع و القوافل و يدفعونها سنويا لملك آشور .

15- في تلك الأثناء ، وبعد أن انتقلت الثروات كلها إلى يد الآشوريين المحليين في شرق زهران ، تملك الغضب فرعون مدينة نخو جنوب زهران فجرد جيشا من المقاتلين و صعد إلى اورشليم فأسر " ملكها " يهوآحاز في ربلة في أرض جي متي (التي دعيت حماة

خطأ) ، وأخذه معه لئلا يملك في أورشليم ، " وغرم الأرض بمئة وزنة من الفضة ووزنة من الذهب . وملك فرعون نحو ألياقيم بن يوشيا عوضا عن يوشيا أبيه ، وغير اسمه إلى يهوياقيم . وأخذ يهوياحاز و جاء إلى مصر فمات هناك . ودفع يهوياقيم الفضة والذهب لفرعون إلا أنه قوم الأرض لدفع الفضة بأمر فرعون . كل واحد حسب تقويمه فطالب شعب الأرض بالفضة و الذهب ليدفع لفرعون نحو " (الملوك الثاني 29: 33-36) .

16 — كان ذلك في أواخر القرن السابع و بداية القرن السادس من قبل الميلاد ، وهو زمن قيام الدولة البابلية الجديدة في سوريا ، فما أن توطدت أمور الدولة في العاصمة بابل ، حتى التفت نبوخذ نصر إلى إعادة توطيد سيطرة الدولة على المنطقة الغربية من شبه الجزيرة العربية ، وليضمن الازدهار لخطوط التجارة الدولية .

" و ترددت يهوذا بعد ذلك بين سياسة الخضوع للدولة الجديدة ... وبين سياسة التحالف مع مصر . واتبع يهوياقيم (608 – 597 ق.م) أو الياقيم بن يوشيا السياسة الأخيرة . وكان بالأصل قد عين من قبل نحو فرعون مصر زهران وكييل مصر وادي النيل ، فتحدى نبوخذ نصر .. وكان نبوخذ نصر (وكييل الملك المركزي وقد تسمى باسمه) ، وهو لا يزال قائدا في جيش أبيه ، قد أعطى برهانا على مقدرته الحربية بكسر نحو في كركميش عام 605 شر كسرة ، وانتزاع جميع الممتلكات الآشورية التابعة لمصر . وكان ذلك الانتصار من الحوادث الحاسمة حيث انتهى به النزاع الطويل لأجل السيادة في غربي آسيا . واتضح أن بابل تحت حكم الكلدانيين أصبحت الدولة السائدة غير المنازعة في شؤون تلك المنطقة " (1)

17 — و كما كان المصريون يلجأون إلى أسلوب تربية الأمراء و تنصيبهم " ملوكا " على المدن و كلاء أو عملاء لهم ، فقد كان للسوريين عملاؤهم أيضا ورجالهم في بني إسرائيل . وأهم هؤلاء كان أرميا " النبي " الذي لقي كثيرا من ضروب الهوان من بني

(1) انظر فيليب حتي ، " تاريخ سوريا و من ضمنها لبنان و فلسطين " الجزء 1 ، ص 218 — 219 ، و الملوك الثاني 23: 24 ، أخبار الأيام الثاني 36: 4 وما يليه 24: 7 .

عشيرته لقاء نضاله فيهم من أجل أن يتخلوا عن حياة المكر والكذب والنفاق والعداء والسطو ، و يندمجوا مع أولئك السكان الحضاريين الزراعيين ، لأنه لن يعرفوا سلاما في الحياة إلا عن هذا الطريق .

"في ابتداء ملك يهوياقيم بن يوشيا ملك يهوذا صار هذا الكلام إلى أرميا من قبل الرب قائلا: هكذا قال الرب لي... هكذا قال رب الجنود إله اسرائيل . هكذا تقول لسادتكم: إنني أنا صنعت الأرض والانسان والحيوان الذي على وجه الأرض بقوتي العظيمة وبذراعي الممدودة وأعطيته لمن حسن في عيني والآن قد دفعت كل هذه الأراضي ليد نبوخذ ناصر ملك بابل عبدي وأعطيته أيضا حيوان الحقل ليعلمه . فتخدمه كل الشعوب وابنه وابن ابنه حتى يأتي وقت أرضه أيضا .. ويكون أن الأمة أو المملكة التي لا تخدم نبوخذ ناصر ملك بابل والتي لا تجعل عنقها تحت نير ملك بابل أتي أعاقب تلك الأمة بالسيف والجوع والوباء يقول الرب حتى أفنيها بيده . فلا تسمعوا أنتم لأنبيائكم وعرافيتكم وحالميتكم وعائفيكم وسحرتكم الذين يكلمونكم قائلين لا تخدموا ملك بابل لأنهم إنما يتنبأون لكم بالكذب (أرميا 27 : 1 - 11) ثم أرسل أرميا إلى شيوخ السبي في بابل (وهي بابل المحطّة) رسالة جاء فيها : " هكذا قال رب الجنود إله اسرائيل لكل السبي الذي سبيته من أورشليم إلى بابل ، ابنوا بيوتا واسكنوا واغرسوا جنات وكلوا ثمرها . خذوا نساء ولدوا بنين وبنات وخذوا لبنيتكم نساء واعطوا بناتكم لرجال فيلدون بنين وبنات وأكثروا هناك ولا تقلوا . اطلبوا سلام المدينة التي سبيتكم إليها وصلوا لأجلها إلى الرب لأنه بسلامها يكون لكم سلام ، لأنه هكذا قال رب الجنود إله اسرائيل . لا تغشكم أنبياءكم الذين في وسطكم وعرافوكم ولا تسمعوا لأحلامكم التي تتحلمونها لأنهم إنما يتنبأون لكم باسمي بالكذب أنا لم أرسلهم يقول الرب" (أرميا 28 : 4 - 10)

وهكذا ، فقد حسمت تلك الصراعات الصغيرة والكبيرة في غرب شبه الجزيرة العربية لصالح الدولة السورية البابلية على يد الملك نبوخذ نصر ووكيله نبوخذ نصر الذي يأخذ اسمه — كعادة الوكلاء ، في تلك المنطقة — في بابل المحطّة ، والذي أجرى عملية نقل في

السكان ، وأخرج أرميا من السجن ووطد أمن الناس جميعا والمصالح التجارية والزراعية ، وأعاد هيمنة الدولة على تلك البقعة المفصلية من خط القوافل التجاري الدولي أهم شريان اقتصادي في ذلك الزمن .

الفصل الرابع عشر

العرب الفينيقيون

بعد أن أوضحنا في كل ما تقدم حقيقة وأسباب الاختلاطات الكثيرة التي حدثت في التسميات ، وكشفنا حدود الخطأ والصواب — ما استطعنا إلى ذلك — فيها ، صار واضحا الآن أن تعبير " أرض كنعان " ليس — في حقيقته — مرادفا لكلمة " سوريا " أو " فينيقيا " أو " بلاد الشام " أو " فلسطين " أو غير ذلك من التسميات الأخرى .

ونحن هنا لن نتحدث عن " الفينيقيين " بالطريقة التي اعتاد المؤرخون أن يتحدثوا عنها كـ " شعب " أو كـ " أمة " . إننا سوف نعرض على الشاطئ الشرقي للبحر المتوسط لا لتعرف على تاريخ " الفينيقيين " ، فهم لم يكونوا في يوم من الأيام إلا جزءا من الشعب العربي السوري الذي ملأ أرضه الممتدة من الخليج شرقا إلى المتوسط غربا بإنجازات حضارية واحدة ، بل لتعرف فقط على حقيقة التسمية التي احتار في أمرها الباحثون ، حتى صارت تتراوح في فرضياتهم ما بين " الشعب السوري " كله ، و " أمة فينيقية " خاصة لا علاقة لها بالعرب أو بالساميين ، وبين تسمية أجنبية أطلقت عشوائيا على مجموعة من سكان الشواطئ .

لقد كنا بينا كيف أن من السمات المميزة لوجود العربي هو أنه يخلع اسمه على اسم المكان الذي يحل فيه وليس العكس بوجه عام ، ولو أن هذه القاعدة لا تخلو من حادثة شاذة هنا أو هناك . وإن ما يدعى بـ " الأساطير " القديمة حول الأرباب الأقدمين لم تكن إلا تسجيلا تعليميا خاصا هادفا لسيرة بعض الآباء المتميزين الذين تعظموا وتقدسوا ، فجرت عملية تخليدهم عن طريق إطلاق أسمائهم على أسماء الجبال والمناطق الأساسية في جغرافيا الوطن العربي . وأي فهم لتلك الأسماء يتجاوز هذا المدلول إلى غيره يكون إما ناقصا مقصرا ، أو شاطئا مبتعدا عن الحقيقة . ولم تكن الدراسة التي قدمناها

عن جغرافيا الأسماء التي أوردها فيلون الجبيلي ، في بقايا ترجمته لتاريخ سانشونيانت ، إلا مثالا شاهدا على صحة ما نذهب إليه .

أصل التسمية :

1— رأينا في النبذ الباقية من تاريخ سانشونيانت إنه كان من بين الآباء الأوائل المتميزين اسم قناء Chna ، الذي كان أول من سمى نفسه بـ " الفينيقي " وهو أخو أوزيريس ، أي إن زمنه وبالتالي زمن هذه التسمية يعود إلى نهاية الألف الرابع قبل الميلاد.

2 — يقول بونفانت " : (Bonfante) لقد اشتق اسم فينيقي من اليونانية Phoinix أي أحمر ارجواني ، ليشير إلى صناعة الأرجوان التي اشتهر بها الفينيقيون وبعد أن أطلق اليونان هذا الاسم على الكنعانيين الذين تاجروا معهم فإن كلمة فينيقي أصبحت حوالي 1200 ق.م مرادفة لكنعاني⁽¹⁾

3 — وقد اشتهرت سوريا بنشاطاتها التجارية التي كانت تمارسها بكفاءة منقطعة النظر مستفيدة من موقعها الجغرافي الفريد الذي يقع على الطرق الرئيسية التي يربط بلدان آسيا عبر الصحارى العربية ، مع بلدان أوروبا وشمال إفريقيا عبر البحر المتوسط ، في تنمية الحركات والعلاقات التجارية ، فاحتكر السوريون الطرق البحرية وأقاموا لهم مستعمرات تجارية في قبرص ، وصقلية ، وسردينيا ، وكورسيكا ، ومالطا ، وفي شمال إفريقيا ، وفي أسبانيا وأنشأوا المستودعات والمصارف في مرسلية ، وروما ، وكولونيا ، وبريطانيا ، ومصر ، وتدمر . وكانت قرطاجة الواقعة في جوار تونس الحالية أهم المراكز التجارية الفينيقية ، فقد اتسع نفوذها في البحر المتوسط حتى قيل " لا يقوى الرومان على غسل أيديهم بماء المتوسط إلا بإذن من قرطاجة"⁽²⁾ . وقد اشتهرت صور بثرائها حتى قال المؤرخون إن الفضة كانت مكدسة في أسواقها مثل التراب ، والذهب كوحل الطرقات ، وان بيوتها أعلى من بيوت روما على حد قول سترابو ، وقد حافظت مع بسالة

(1) R.B. Smith, Carthage and the Carthaginians .

(2) العفيفي ، المستشرقون ، ج 1 ، ص 19 .

أهلها على استقلالها حتى قضى عليها الاسكندر الكبير⁽¹⁾

4 — " وقد سمي الاغريق تلك الفئة من السكان الذين كانوا يتعاملون معهم تجاريا بـ "فينيكس" أي الارجوانيين الحمر ، وذلك نسبة للون النسيج الذي كان الفينيقيون يبيعونه أو يقاضوهم عليه . ومعظم أولئك التجار كانوا من البلاد التي نسميها اليوم بالشاطئ اللبناني .. ولا بد أن يكون أجداد الكنعانيين القدماء قد احتلوا المنطقة بأسرها منذ مطلع الألف الثالث قبل الميلاد⁽²⁾

والحقيقة هي أن جميع أقوال المؤرخين حول تعريف الفينيقيين لا تتعدى مثل هذه التصورات : فهم الكنعانيون ، سكان سوريا الغربية ، أو جزء من الكنعانيين ، وقد أطلق عليهم هذا الاسم الإغريق .

فما هو وجه الصحة أو عدمها في تلك الأقوال؟

1 — إن تسمية سكان سوريا الغربية بـ "الكنعانيين" هي تسمية خاطئة قائمة في أساسها ، على تبديل الأسماء والمواقع في جغرافيا التوراة منذ أن ظهرت "السبعونية" باللغة اليونانية . وحينما ذكر المؤرخون الكلاسيكيون العرب أن بعض العرب العماليق قدموا إلى الشام ومنهم الجبارة الذين صاروا يدعون بالكنعانيين " إنما لم يجانبوا الحقيقة في هذا القول ، فالأقوام الوافدة هم العرب العماليق ، لكن إلى "الشام" التي كان يقصد بها الشمال ، وشمال المركز تحديدا وليس إلى سوريا التي أخذت هذا الاسم فيما بعد . وحتى يومنا هذا لم يعثر على أي أثر أو مكتشف من شأنه أن يدل أو يقول ، أو يؤكد ، أو يشير ، إلى أن "الكنعانيين" كان اسم الشعب الذي سكن سوريا الغربية ، التي ندعوها أحيانا المتوسطة .. أما عملية الخلط في الأسماء ، بعد ظهور التزويرات في تفسير الجغرافيا التوراتية ، فقد طمس حقيقة تسمية السكان العرب السوريين ، وأخذت تستخدم عوضا عنهم تسميات تورانية عشائرية مصطنعة زورت الجغرافية ، وبدلت في مواقع الأسماء .

(1) V.A.Look, "Phoinicians "Enc .Br 1965.Vol 17 .P.P 763 –769 .

(2) فيليب حتي : "خمسة آلاف عام من تاريخ الشرق الأدنى" ص 119 — 120 .

2 — كنا قد تحدثنا عن العرب الأموريين الذين غطوا الساحة العربية السورية منذ أقدم العصور ، ولم يكن سكان سومر ، وبابل ، وماري ، وايبلا وأوغاريت ، وأريحا ، ودمشق ، وغيرها منذ خمسة آلاف سنة على الأقل غير أولئك السكان العرب العموريين الذين صار المؤرخون يدعونهم بالكنعانيين استنادا إلى التفسير الخاطئ لجغرافيا التوراة . يقول الدكتور مورتغات : " إننا نعلم من خلال الحفريات التي أجريت في جبيل في وسط ساحل بلاد الشام ، وبالأستناد إلى المراسلات الملكية في مدينة ماري ، ومن موجودات الطبقات السفلى في تل العطشانة (ألسخ) بالقرب من إنطاكية أن أناسا ساميين غربيين قد قطنوا بلاد الشام على الأقل منذ نهاية الألف الثالثة قبل الميلاد . وإن هؤلاء كانوا على قرابة مع تلك الفئة السامية التي حكمت بلاد ما بين النهرين منذ سلالة حمورابي . أما من ناحية التسمية الخاصة فنطلق على هؤلاء الساميين في بلاد الشام اسم الكنعانيين . ولغتهم يجب أن تكون نفس اللغة التي اقتبسها أولئك اليهود الذين نزحوا إلى الأرض المقدسة من السكان الأصليين قبلهم هناك أي من الكنعانيين وكذلك ينتسب الفينيقيون الأوائل ، أي سكان السهل الضيق ما بين لبنان والبحر ، إلى هذه المجموعة السامية الغربية أيضا" (1)

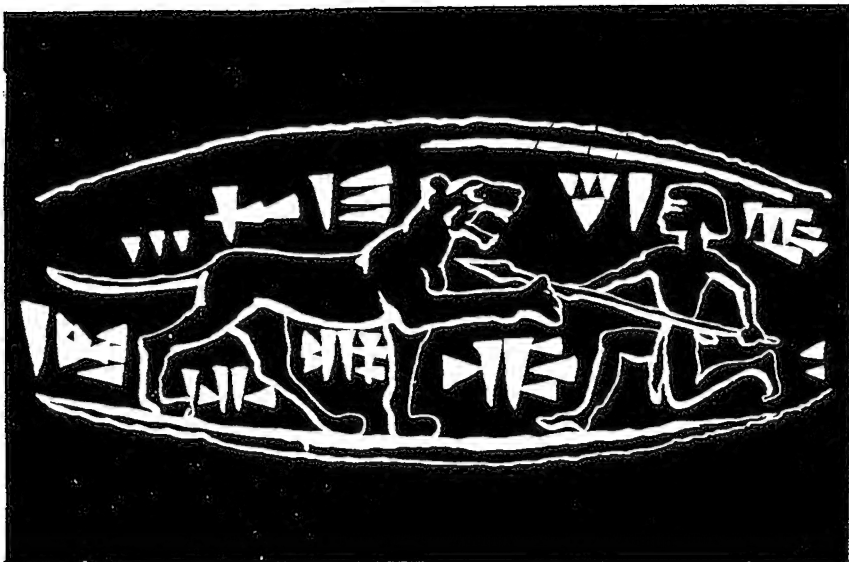
إن هذا القول الذي يكاد يردده المؤرخون والباحثون جميعا يثبت أمرين : أولهما ، أن سكان سوريا منذ خمسة آلاف عام كانت تجمعهم ثقافة ولغة وحضارة وأواصر قرى واحدة ومشاركة : وثانيهما ، أن تسميتهم بالكنعانيين هي من ابتداء المؤرخين أنفسهم ، وليس بناء على حقائق موضوعية ، أو مكتشفات أثرية ، وإنما جريا خلف الأفكار التوراتية التي ظلت تهيمن على المؤرخين الذي أفرزتهم حقبة الاستعمار زمننا طويلا . وإن على المؤرخين والدارسين العرب السوريين يقع العبء الأكبر اليوم في إرجاع الحقائق إلى مواضعها والأشياء إلى مسمياتها بعد أن أخذت المكتشفات الأثرية في القطر العربي السوري تقول كلمتها الفصل* .

(1) انطون مورتغات ، " تاريخ الشرق الأدنى القديم " ، ص 250 .
• يجدر التنبيه هنا إلى أنه ، نتيجة لتأكيد المكتشفات الأثرية في ماري وأوغاريت وايبلا على عدم وجود أي أثر للتسمية الكنعانية في تاريخ سوريا المتوسطة ، فقد أخذ ممثلو "الفكر

3 — أما تسمية "الفينيقيين" فلن نبحث عن مصدرها إلا في مدونات العرب السوريين أنفسهم . والكلمة عربية قديمة حديثة وهي في القاموس السرياني أو الفينيقي من الفعل "فثق" ويعني ترفه ، تنعم ، ساد . وفي "محيط المحيط" نجد : فنق ، تنعم ، ترفه ، وعيش مفائق عيش راغد ، والجواري الفنق الناعمات . إن الشعب الذي علم العالم كله فن الملاحة البحرية ، وصناعة السفن والأبجدية ، والتعدين ، وخلط المعادن ، وابتكر العجلة ، وأبدع في الزراعة وفن البستنة ، وتوصل إلى ديانة التوحيد ، وأبدع في الصناعات اليدوية الدقيقة ، والزجاج ، وفي علم الحساب والنجوم ، والأبراج ، واكتشف كروية الأرض ، ودار حول إفريقيا ، واستخدم " النجم الفينيقي " (نجم القطب) في الملاحة ، وفوق هذا كله " كانوا أول أمة في التاريخ تاجرت في البر والبحر ..

ترتبط موانئهم على البحر المتوسط بمراكزهم على الخليج (العربي) ، حيث كانت لهم مدن تحمل الأسماء نفسها مثل أرواد وصور وصيدا ⁽¹⁾ ... ان مثل هذا الشعب لم يكن نكرة عند الشعوب الأخرى المتخلفة بالنسبة إليه ، ولم يكن ينتظر ، بدون اسم ، حتى " يتصدق " عليه الإغريق أو غيرهم بتسمية من عندهم ، في الوقت الذي ما تزال فيه شطآن المتوسط كلها تحتفظ بعدد كبير من الأسماء العربية التي منحها لها منذ آلاف السنين .

التوراتي " سواء عن قصد أو عن غير قصد ، يخلطون خلطة جديدة زاعمين أن العموريين هم الكنعانيون والتسميتان مترادفتان في محاولة منهم يائسة وأخيرة للتستر على فضيحة كذب المصطلحات التوراتية السائدة حتى اليوم .
(1) فيليب حتي : " تاريخ سوريا ومن ضمنها لبنان وفلسطين " الجزء 1 ، ص 107 .



خاتم ملك أوجاريت

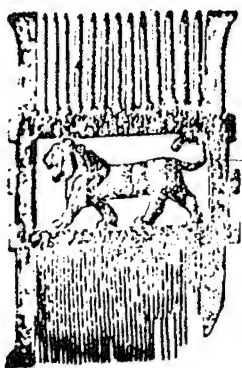


حلة فينيقية كان اسمها "كتون"
اتخذها اليونانيون لباسا لهم
وصار اسمها "ختون"

لقد ذكرنا آنفا كيف أن من طبع العربي أن يضفي أسماء آبائه المتميزين على المعالم البارزة في المكان . وكثيرا ما كان يحفظ هذه العملية في الذاكرة في هيئة قصة أو أسطورة ، برع ، منذ الزمن السحيق ، في دمج الواقع فيها بعناصر الخيال والغرض التعليمي التربوي ، مما جعل " أساطيره " القديمة تتفوق من حيث قيمتها التاريخية والفكرية . وإذا لم نكن الآن بصدد البحث في إنتاج هذا الشعب الأدبي والفني ، الذي سرق في معظمه ، واعتبر انتاجا إغريقيا ، فإننا نذكر بأن من بين ذلك الإنتاج الرائع الذي لم يقدر الباحثون الأوروبيون على أن يتخلصوا من عصبيتهم إزاءه فاعتبروه إغريقيا ، كانت أسطورة " أوروبا " . ونحن نجد أن لا مندوحة لنا من استعراض بعض مضمون هذه القصة — الأسطورة التي تلقي الضوء على مصدر تسمية بعض سكان سوريا المتوسطية ، فماذا تقول الأسطورة ؟

مشط فينيقي

من العاج



إسطورة أوروبا

تقول القصة — الأسطورة إنه في إحدى ليالي الربيع القمرية ، والأرض موشاة بأجمل الزهور يفوح عبيرها في أجواء سوريا الساحرة ، كانت الأميرة السورية أوروبا بنت أجينور ملك صور ترقد في سريريها ، لكن كابوسا أزعجها وأقلق نومها ، إنها لم تحلم باله أحبها ، بل بامراتين (قارتين) تتنازعان ملكيتها . رأت القارتين في هيئة امرأتين : آسيا ، تقول "إني أملكها لأني أنا ولدتها" والأخرى تقول — ولانعرف اسمها — إنها ستملكها . لأن الرب زيوس سيهبها لها ، وقد وعدا بذلك .

أفاقت الصبية الأميرة باكرا مع الفجر ، وكثيرا ما حققت الآلهة أحلام الفجر . نادى صديقاتها ولداتها من الأميرات النيبالات ، وخرجت الصبايا في نزهة بين المروج ليس بعيدا عن شاطئ البحر ، وبقرّب مصب أحد الأنهار كانت كل صبية منهن تحمل سلة لتجمع فيها الزهور . وكانت سلة " أوروبا " من قصب الذهب تزخر بها النقوش والصور مصورة لمشاهد من حياة الآلهة منها صورة الربة " ايو " وقد مسختها غيرة " هيرا " إلى بقرة . ويقترب منها زيوس ، ويمد يده المقدسة ليعيدها امرأة كأجمل ما تكون النساء . وكم كانت جميلة سلة أوروبا الذهبية . ولم يكن أجمل منها إلا تلك الأزهار التي ملأها وفاح عبيرها : كان منها النرجس والخزامى والبنفسج وزهور البرية الحمراء . كانت الصبايا ينتقلن كالنحل من زهرة إلى زهرة يملأن السلال وكل واحدة منهن آية بين البنات ، لكن أجملن جميعا كانت أوروبا وكأنها عشتار في فتنها .

في الأعالي كان زيوس يستلقي متكاسلا يرقب ما يجري على الأرض . وما أن رأى الصبايا على المرجة ، ولمح فتنة أوروبا ، حتى لعبت أفروديت وإيروس لعبتهما ، وأطلقا سهما في قلب زيوس فألهباه بحب أوروبا ، وكأن هيرا كانت في غفلة عما يفعل زوجها . إنها الربة الزوجة الغيور التي كان من ضحاياها الكثيرات ممن أحبهن زيوس . بسرعة تقمص زيوس شكل ثور قبل أن يظهر نفسه لأوروبا . لقد كان الثور الإلهي أجمل من أي ثور ، كستنائي اللون ، تحيط بقرونه دوائر فضية كالهلال في مطلع الشهر كما بدا لطيفا وديعا ، فما تحشاه الصبايا ، بل تجمعن حوله يداعبنه ، ويتشمنن

منه العطر السماوي الأزكى من عطر الزهور .

اقتربت منه أوروبا ، وما أن لمستته حتى أعطى خوارا موسيقيا أجمل من عزف قيثار ، وانحنى أمامها ، فاعتلت ظهره العريض . نادى رفيقائها ، لكن الثور نهض فجأة ، وقفز بها نحو البحر ، ثم أخذ يركض فوق الماء والموج ينخفض أمامه . وكان البحر قد أصبح سهلا ، وخرجت من الأعماق جماعة من آلهة البحر تركب الدلافين وتصوت بالأبواق يقودهم بوزيدون نفسه وهو إله البحر وشقيق زيوس .

خافت أوروبا من المخلوقات البحرية العجيبة ، ومن عمق المياه تحتها فتشبثت بأحد قرنيه بيد ، وأمسكت رداءها باليد الأخرى ، وقد نفخه الريح كأنه الشراع . فكرت أوروبا ما عساه يكون هذا الثور ، ورجته ألا يتركها تسقط في المياه . فهم زيوس أفكارها ، وتكلم الثور وطمأنها قائلا : "إن فكرك صحيح ، فأنا زيوس أعظم الأرباب ، وقد دفعني حيي لأصنع ما ترين" .

لقد اختطفها وذهب بها إلى جزيرة كريت ، إنها جزيرته ، والأرض التي خبأته فيها أمسه عندما هربته من أبيه كرونوس (قرونو ، وهو "ايل" أبو الرب العربي الإله العربي العام نفسه ، وتقول القصة إن قرونو كان يقتل أبناءه وبجيلة ما أنقذ زيوس) .

وصلا إلى كريت ، وقفز الثور إلى اليابسة ، والتقى الحراس والأعيان في حفل الزفاف ، لقد أنجبت من زيوس أولادا أشهرهم "مينوس" و"رادا منتوس" (يذكرنا هذان الاسمان بـ "ميناء" أول أمير في شبه جزيرة العرب عبر البحر الأحمر إلى مصر وادي النيل وصار ملكا ثم تقدس وكان اسمه مينا أبيض ، أو صاحب قصر أبيض (نسبة إلى جبل أبيض قرب أبو رواث) كما ما تزال قرية مينا البيضاء شمال اللاذقية تحمل اسمه ، وبجبال الأردن أو الجرود في منطقة زهران) . وقد اشتهر مينوس و رادامنتوس بالعدل فأوكل إليهما محاكمة الأموات ، لكن اسم أوروبا بقي أشهر الأسماء .

عندما اختطف الثور أوروبا جمع أجيونور (أو "أشنار") أولاده "فينيق ، وقدموس ، وكيليك ، وجاليان ، وأمرهم بالبحث عنها في كل مكان ، وألا يعودوا من دونها . هام الأشقاء الأربعة على وجوههم يبحثون في كل مكان دون جدوى ، إلى أن أخذ اليأس

يدب في قلوبهم ، وانقطع لدى بعضهم أمل اللقاء ثانية بشقيقتهم أوروبا . فاستقر كيليكس في أرض هي أبعد إلى الشمال فعرفت باسم كيليكيا نسبة إليه ، واستقر فينيق في الشمال على الساحل فعرفت البلاد باسم فينيقيا نسبة إليه ، أما قدموس فلم يأس ، بل فكر وذهب إلى معبد دلفي واستشار الرب أبولو* .

أجاب أبولو " لا تجهد نفسك بالبحث عنها والالتزام بأمر والدك بالبحث عنها وبألا تعود من دونها ، بل أسس لنفسك مدينة جديدة . عندما تخرج من هنا ستجد " عجلة " فتتبعها إلى حيث تتوقف العجلة لتستريح ، هناك تبني المدينة " هكذا أسس قدموس قلعة قدميا ومدينة ثيبا (طيبا) بمساعدة خمسة فصائل من عشيرة الأخيين الذين كانوا قد سبقوه إلى هناك من سوريا وسميت المنطقة المحيطة بها أرض بويوثيا أي أبناء العشيرة .

وهكذا ، وبعض استعراضنا لبعض أحداث القصة صار من الواضح أنه لا ينبغي البحث عن مصدر التسمية " فينيقيا " إلا بالطريقة التي ينبغي أن نبحث فيها عن تسمية كل من كيليكيا ، وأوروبا ، وقدموس ، الأشقاء الثلاثة أبناء الملك الصوري أجيور** .

وبقدر ما تعكس هذه القصة — الأسطورة من حقيقة الحلم الذي ظل يراود العرب السوريين على مدى التاريخ يجعل البحر المتوسط بحيرة عربية سورية . فالأسطورة في مرحلة من المراحل ، كانت تمثل أدب وفكر ومطامح وإعلام فئة ما ، أو طبقة ما في مجتمع أو جماعة ما . وهي إما أن تكون من إنتاج الفئات المتنورة الرائدة في المجتمع ، المعبرة عن طموحاته السياسية والفكرية والاقتصادية والاجتماعية ، وتعكس أحداثا بطولية ملهمة للجماهير وإما هي من إنتاج أحد أفراد الكتلة الجماهيرية ، فتنتشر في روايات شفوية ، تفقد شيئا وتكتسب شيئا آخر في حركتها من إنسان إلى آخر ، ومن وسط إلى آخر ، لتخرج في النهاية قطعة اجتماعية فيها نكهة الواقع كله ، وطعم الحياة الاجتماعية التي تعيشها الجماهير الواسعة في فترة من فترات تطورها التاريخي ، وتظهر

* أبولو أصله سوري أيضا ويعني وجه الرب ، وهو الأخ التوأم لأوثيميس .
** ومن أسماء هؤلاء الأشقاء كما أوردتهم شوقي عبد الحكيم في كتابه "الفولكلور والأساطير العربية" ص52: قلموس ، فينيق (أوفينيكس) كيليلو ، سور ، تاس ، سيبول ، فيني ، دريال ، أوروبا .

آنذاك كإنتاج شعبي عام .

إن العرب السوريين الذين شغلوا الشاطئ الشرقي للمتوسط من خليج مرسين وإيسوس شمالاً إلى جنوب سيناء جنوباً ، كانوا يمثلون زخم ذلك التفوق الحضاري في الدولة العربية السورية ، واندفاعته صوب المجال الأرحب ، مجال البحر المتوسط . إن موقعهم في منتصف العالم القديم ، وعلى أهم الطرق التجارية الدولية في العالم كله ، جعلهم يتفوقون في مضمار التجارة والفهم الاستراتيجي للمنطقة منذ أقدم العصور . إن هذا الاندفاع الحضاري عبر شطآن المتوسط غرباً هو ما دعاه المؤرخون بـ " ظاهرة نداء المتوسط " لأولئك السوريين الذين كانوا أول من تنبه إليه ، ووعى أهميته ، وأعطاه بعده الاستراتيجي ، فمهدوا بذلك لقيام ما دعي فيما بعد بـ " العالم العربي " .

إن الأسطورة في بنيتها الهيكلية هي عربية سورية يتجلى ذلك في أسماء أبطالها ، أولاً ، وفي مضمونها ذي الصبغة الحضارية السورية التي يطمح أصحابها إلى نقلها إلى عالم المتوسط الغربي ثانياً . إن فينيق وكيليك سكنا الساحل السوري ، فسكن فينيق الأرض الممتدة من جنوب صور حتى شمال أوغاريت ، فسميت هذه المنطقة باسمه ، وسكن كيليك المنطقة التي تليها شمالاً والتي دعت كيليكيا ، أما قدموس فقد انطلق من الساحل السوري * إلى كريت ومالطا ، ثم إلى اليونان ، حيث أسس مدينة طيبا (ثيبا) وتل الأكربول ** فيها ، واسمه يعني بالسريانية والفينيقية : المقدم ، البطل ، وقد نقل الأبجدية معه إلى اليونان . أما أخته أوروبا فقد أطلق اسمها على البلدان الواقعة على الشواطئ الشمالية للمتوسط .

وتجدر الإشارة هنا إلى أن والدة الملك أجينوز كانت تسمى " ليبيا " ، وقد خلع السوريون اسمها على الشمال الإفريقي كله .

إن من الخطأ الفادح أن ننظر اليوم إلى قصص الأقدمين وأساطيرهم على أنها خرافات ليس لها من الواقع شيء . لقد ثبت بما لا يقبل الشك أن أساطير الشعوب القديمة ،

• ما تزال تحمل اسمه بلدة "القدموس" في منطقة باتياس على الساحل السوري .
• هي في الأصل عكروبولي وتعني بالفينيقية حصن الأمراء ، نسل الأمراء .

وعلى الأخص الأساطير العربية ، كانت تدور في معظمها حول أبطال واقعيين من ملوك أو حكام أو أشخاص متميزين من جماهير الشعب ، تحاك حولهم هالات البطولة ، وتمزج أحيانا دماؤهم بدماء الأرباب (أي السادة وليس الآلهة) لتقريبهم من قلوب الناس ، ولتبرير خرقهم لما هو مألوف ليساعد في النتيجة ذلك كله في تقبل الأفكار المراد نشرها في أذهان العامة من الناس . وليس الفرق كبيرا — كما قد يتصور البعض — بينا اليوم وبين أولئك الناس من هذه الزاوية . إن طريقة تفكير أولئك الناس حول الإنسان والطبيعة والآله هي نفسها القاعدة التي بنت عليها جميع الأديان تصوراتها حول الإنسان والطبيعة والكون والآله . وإن تلك المعايير التي كانت تنتصب راسخة في قلب وذهن ذلك الإنسان القلم إنما هي نفسها التي تبرز أمامنا عندما نفتح باب أي عالم روحي اليوم لأي شخص منا وجربنا أن ننظر بجرأة إلى ما في داخل نفوسنا . إن شيئا مالا ينهض على فراغ . وإذا ما عزلنا علوم اليوم الملتصقة بـ "جسد " الروح لن نلبث أن نعثر على صورة لتمثال من الفكر المثقب القلم يمتد عمره إلى زمن ميلاد أول إنسان على الأرض .

فكما وجد رجل اسمه نوح وعاش قصة الطوفان ، وكما كان ملك اسمه جلجامش في أوروك في زمن الملحة ، فإن ملكا سوريا كان اسمه أجينور وكان لديه من الأولاد فينيق ، وكيليك ، وقدموس وأوروبا . وقد أكدت المكتشفات الأثرية واقعية هؤلاء الأبطال .

" إن التنقيبات الأثرية التي بدأت عام 1963 بينت أن المدينة "طيبا" قد دمرت قـي أواخر القرن 13 ق.م كما ألفت ضوءا على القصة القائلة بأن قدموس قد أتى من سوريا إلى تلك المنطقة قبل الاسبارطين بعدة أجيال . وقد وجدت في "طيبا " مجموعة من الأختام السورية (البابلية) في الطبقة المحروقة منذ أن هدمت المدينة تعود إلى القرن الرابع عشر قبل الميلاد ، ويرجح الباحثون أنها تعود لعائلة قدموس الملكية . كما نسب لقدموس أيضا إدخال عبادة "أثينا" إلى بلاد اليونان بعد أن أقام لها مذبحا في طيبا ، وأن الكاهن البيروني "سانخونياتن" (كما ذكر فيلون الجبيلي) ذكر أن الربة أثينا هي ابنة

إيل (ومثل عنة البتول المحاربة كانت أثينا بتولا) ، وإن الميثولوجيا الإغريقية هي وحي فينيقي⁽¹⁾

وتؤكد جميع القصص الإغريقية أن مؤسس مدينة طيبا إنما هو قدموس الأمير السوري من صور ، ابن اجينور (أشنار) وشقيق أوروبا ، وإن قلعتها القديمة سميت " قديميا Cadmia " نسبة إليه ، ثم خربت نحو عام 1230 ق.م .

وحين وفاة المفكر والفيلسوف السوري " زينون " الصيداوي مؤسس المدرسة الرواقية في الفلسفة ، والتي اعتبرت أعظم ما أنتجه ذلك العصر على الصعيد الفكري ، واعتبرته أثينا " أنبل رجال عصره " اختتم المرسوم الذي رافق ما منحته إياه أثينا من التكريم بالكلمات التالية : "لقد جعل حياته نموذجاً اتبعه الجميع لأنه كان يعمل بموجب تعاليمه " وكتب أحدهم عن زينون في شعر على قبره في أثينا ما يلي :

"وإذا كانت بلادك الأصلية هي فينيقيا

فهل يجب أن يضربك شيء؟

ألم يأت قدموس من هناك

الذي أعطى لليونان كتبها وفن كتابتها؟"

البحر المتوسط والتوسع العربي السوري

كان الفينيقيون (السوريون العموريون أو الغربيون عموماً) يبنون ويؤسسون أينما ذهبوا . لقد أدخلوا النشاط في عالم كان يبدو فيه الجمود ، ووسعوا آفاقه المعرفية والتطبيقية . لقد اشتهر عنهم بناء المحطات أو " العساقل " في رحلاتهم البحرية الطويلة على طول الشواطئ ، ثم تطورت تلك "العساقل" إلى مراكز تجارية يتبادلون فيها بضاعتهم بالذهب والفضة من السكان المحليين ، ثم تطورت تلك المراكز التجارية إلى مراكز سكنية تعج بالحياة ، ثم ما لبثت أن تطورت إلى مستعمرات . واتصلت هذه

(1) انظر يوسف الحوراني ، نظرية التكوين الفينيقية وأثارها في حضارة الأوغريق ، والدكتور وديع بشور ، "الميثولوجيا السورية" ص333.

المستعمرات بعضها ببعض وبالمدن الأصلية الأم بطرق الملاحة . وانتشرت من شمالي الدلتا المصرية إلى سواحل فينيقيا وكيليكيا واليونان والشمال الإفريقي . ثم إلى شواطئ المتوسط الشمالية وإلى جميع الجزر المنتشرة في حوضه ، فجعله أولئك العرب الأوائل بحرا عربيا سوريا بحق . ويمكن الاعتقاد بأن مستعمراتهم في شرقي البحر المتوسط ومنها قبرص أسست قبل مستعمرات صقلية وسردينيا في وسط البحر المتوسط ، وان هذه الأخيرة أسسها الفينيقيون قبل مستعمراتها في إفريقيا الشمالية الغربية وأسبانيا . ويرجع نزولهم في جزر أواسط البحر المتوسط إلى منتصف القرن الحادي عشر إن لم يكن قبل ذلك . وأسست قادش (اليوم Cadis) ، في أسبانيا ، وعاتكة Atica في المنطقة المسماة اليوم تونس حوالي عام 1000 ق.م وتعتبران من أقدم المؤسسات في تلك المناطق . ولم تكتشف حتى الآن كتابات فينيقية أثرية في سردينيا وقبرص أقدم من القرن التاسع قبل الميلاد . والكتابة المشهورة المكرسة لبعل لبنان والتي اكتشفت في قبرص وكانت سابقا تعتبر أقدم مثال للكتابة الفينيقية ترجع إلى منتصف القرن الثامن قبل الميلاد . أما قرطاجة (قرت حدثت = القرية أو المدينة الحديثة) سليطة صور وأعظم المدن الفينيقية في حوض المتوسط الآخر فإنها تعود إلى نحو 814 ق.م حسب تقدير المؤرخين وهي أحدث من زميلتها في الغرب "هيو" التي كانت مقرا ملكيا ، وفيما بعد أصبحت أسقفية القديس اغسطين ، وتؤكد جميع الأساطير الأغريقية أن "ليبيا" نقلت بالأصل عن الفينيقيين ، وهي زوجة بوزيدون وأم أجنور .

" لقد بلغ هذا النشاط التأسيسي في غربي البحر المتوسط ذروته ، كما يبدو بين منتصف القرنين العاشر والثامن ويشير نجاحه العظيم إلى وجود طبقة أقدم من المستوطنين العرب السوريين في شمالي إفريقيا وربما في جنوبي شبه جزيرة ايبيريا . " وقد تكون الهجرة التي حملت الساميين في الألف الرابع قبل الميلاد إلى مصر قد استمرت إلى أبعد من ذلك ، وهنالك ذكريات غامضة لمرويات تجعل الساميين القدماء موجودين في مناطق غربي البحر المتوسط واحتفظت بها الكتابات الكلاسيكية والعربية⁽¹⁾

إن هذا القول ينسجم مع قواعد العلم والمنطق ، لأنه يدحض فكرة إمكان قيام شعب أو ظاهرة على فراغ . فلو لا وجود الأساس العربي منذ أقدم الأزمنة في تلك الأصقاع — وهذا ما أكدته الكتابات العربية القديمة جميعا — لما تمكن السوريون (الفينيقيون) من أن يوطدوا أقدامهم ويسخروا وجودهم فيها ، كما أنه كان من المستحيل أن تثبت عروبة تلك المنطقة إلا كما ثبتت "عروبة" أسبانيا إبان الدولة العربية الأموية ثم العباسية فيما بعد .

لقد أدى تأسيس قادس وراء أعمدة هرقل* إلى دخول السوريين إلى المحيط الأطلسي . وأسفر عن اكتشاف الأوقيانوس بالنسبة للعالم القديم . ويعتبر هذا الاكتشاف من أعظم ما قدمته الحضارة السورية للتقدم البشري . لقد عرف هوميروس وهيسيود عن وجود الأطلسي لأول مرة من السوريين ومن الصعب معرفة مدى توغل السوريين في هذا الأوقيانوس الذي دعاه فيما بعد أحفادهم من العرب السوريين "بحر الظلمات" . وأما وصولهم إلى كورنوال في انكلترا في بحثهم عن القصدير فقد أكدته بعض الثقات . ويؤكد سسترايو الذي كتب عام 7ق.م بأن الكاستندريوس تحوي القصدير والرصاص ، وأن السكان يبادلونها بالخزف والملح والأواني النحاسية .

وكان الفينيقيون وحدهم في العصور الأولى يقومون بهذه التجارة من قادش ويكتمون الطريق عن الناس ويضيف سسترايو بأن السفن الرومانية مرة تعقبت سفينة فينيقية لكبي تجعد هي أيضا تلك الاسواق . ولكن قائد السفينة الفينيقية قذف بسفينته عمدا إلى اليابسة وقبض من دولته ثمن الحمول الذي فقده . وهذا يثير إلى احتكار حقيقي لتجارة

* هو الاسم الآخر لـ"ملكارت" ويعني ملك القرية . ويرينا هيرودوت أنه قام ببحث شخصي حول شخصية هرقل فتبين له أن في صور معبدا لهرقل ، عظيم القداسة ، وإن الكهنة قالوا أن المعبد قديم قدم مدينة صور التي كان قد مضى على تأسيسها 2300 سنة قبل هيرودت ، لكنه أشار إلى وجود معبد آخر لهرقل التعزي ، وقد سافر إلى تعز (تاروس) ليجد معبدا لهرقل كان أسسه الفينيقيون في الجزيرة ، وكان هيرودت يعتقد ، أن عبادة هرقل دخلت إلى بلاد الإغريق بطريق هجرة مصرية (2 : 43) ، لكن انتشار معابد هرقل في المستعمرات الفينيقية في غربي المتوسط وفي مدينة قالدش على الأطلسي مع تسمية مضيق المتوسط بـ "أعمدة هرقل" ، من قبل الفينيقيين تثبت الأصل الفينيقي لهرقل ، ثم إن هوميروس في الإلياذة يجعل هرقل ولد في مدينة طيبا الفينيقية (الإلياذة 14 : 231) ويعرفنا بملك سارديا فيقول أنه حفيد هرقل ، وأنه زعيم قبيلة الهرقليين ، وأن بين أجداد هذه العائلة من يدعى "بعل" وهو اسم سوري (هيرودت 1 : 7)

القصدير وإلى نوع من الضمان من قبل الدولة⁽¹⁾ ولقد اكتشفت كتابة فينيقية في الجزر البريطانية⁽²⁾.

وفي اسبانيا كانت معظم المستعمرات الفينيقية تقع في ترشيش Tartessus ، وخاصة في المنطقة بين قرطجنة وقادس . وهذه الأسماء العربية القديمة للأماكن شائعة جدا ، نراها على نقود بقيت حتى اليوم . وكانت مدينة طرسوس في كيليكيا التي ولد فيها القديس بولس تحمل الاسم نفسه ، كما انها كانت مدينة سورية . وطقوس عبادة البعل فيها كانت هي الطقوس المتبعة في صور وقرطاجنة . وسميت قرطاجنة باسم المدينة الأم قرطاجنة في الشمال الافريقي . ومدينة "مالاجا" تعني الدكان أو المعمل الذي يباع ويعمل فيه السمك* وكانت قرطبة تحمل حروفا فينيقية استبدلت فيما بعد بالفينيقية القرطاجية وقد جمع منها هملقار برقة والد هانيبال (حنا بعل) ، كما جمع من سائر المدن الاسبانية ، جيوشا لأجل حملته ضد روما .

وفي اليونان فإن عاصمة جزيرة مينورقة الحالية هي "ماهون" وهي نفسها "ماجون" الاسم العربي القدم الذي مررنا به في تاريخ سائحونياتن مقترنا بالاسم الآخر "ميسور" الذي عمل معه في زراعة الأرض ، كما أن ماجون هو اسم لقائد قرطاجي شهير مع هانيبال . وكانت للفينيقيين مراكز في جزر الباليار ، وكانت لهم أيضا مراكز في كورسيكا وسردينيا ، ومدينة باليرمو** في صقلية مبنية على موقع فينيقي قديم وفي اليونان أيضا يشهد وجود العديد من أسماء للآلهة والمواقع على التأثير والوجود السوري القدم ، إلى جانب أصول الأساطير ، ومن المواقع اليونانية التي لها أسماء سورية قديمة أتیکا ، أثينا ، أولمب ، اسبارطة ، ساموس ، رودس ، ساموس (شمس) وكريت ، وكان لساموس

(1) فيليب حتي ، تاريخ سوريا ومن ضمنها لبنان وفلسطين " الجزء 1 ، ص 112 .

(2) المصدر السابق .

• الحقيقة هنا فيليب حتي لايعطو كونه ناقلا . أما المعنى الحقيقي لكلمة "مالاجا" فهو معمل الاسمسك وهي من الفعل السرياني والفينيقي - ملح" أي نوع ، قطع الرأس ، من الفعل السرياني والفينيقي "ملح" أي نزع قطع الرأس ، قشّر ، بشر ، سلخ ، خراط . وقد اشتهرت مالاجا بصناعة السمك فعلا .

•• وتعني بعل العلي المرتفع .

وكريت مركزان متميزان في ذلك الزمن . ولقد ثبت من الدراسات الأثرية التي أجريت في جزيرة ساردينيا بأن المستوطنات السورية في هذه الجزيرة كانت قد انتشرت في الركن الجنوبي منها وكانت أهم مدنها الفينيقية "نورا" التي بنيت على شبه جزيرة ، وتمتع بأهم ميناء في الجزيرة على الإطلاق . وقد عثر المنقبون الاثريون في مدينة "نورا" على بقايا أثرية من بينها نصب تذكاري وجدت عليه كتابة فينيقية ثبت بعد فك رموز كتابتها بأنها تعود إلى نهاية القرن التاسع قبل الميلاد ، وهي بذلك معاصرة لبناء مدينة قرطاج⁽¹⁾.

ويرى بعض المؤرخين ان نزول الفينيقيين في جزيرة ساردينيا يعود إلى حوالي نهاية الألف الثاني قبل الميلاد ، ثم إن جميع البقايا الأثرية في القسم الغربي من جزيرة صقلية ذات طابع فينيقي ، لكنه أضحي من الثابت اليوم أن الوجود العربي السوري في الشمال الإفريقي يعود إلى الألف الخامس قبل الميلاد .

وبعد هذا كله ألا يحق لنا أن نتساءل : كيف يقبل المؤرخون بإرجاع معظم التسميات في حوض البحر المتوسط إلى أصول عربية فينيقية ، ثم يغضون بالتسمية الأصل " فينيقيا " وحدها ، ويعيدونها إلى أصل أجنبي ، واغريقي تحديدا ؟

يقول موسكاتي مشيرا إلى هذه النقطة عنها : "يؤخذ على المؤرخين الاغريق والرومان عند تناولهم للتاريخ في غربي البحر المتوسط تحيزهم لشعوبهم ضد الوجود السامي في المنطقة ، وذلك نظرا للتنافس الاقتصادي والصراع السياسي الذي كانت تخوض غماره شعوبهم ضد سكان المغرب وهذا بدوره يجعلنا ندرك جيدا بأن كتابتهم لا تخلو من المبالغة ، وتحقير سكان المنطقة ثم وصفهم بالوحوش أحيانا ، وبالقراصنة أخرى⁽²⁾ .

إن هؤلاء "القراصنة" هم الذين "ا اخترعوا السفينة" واهتدوا إلى صناعة الزجاج ، ووضعوا نظام الحساب وهم الذين اخترعوا أبجدية الكتابة المختزلة بالنسبة للخط المسماري والهieroغليفى فلا غرو أن أصبحت كتابتهم أساسا لجميع خطوط العالم المتمدن في

(1) من أجل معلومات أكثر تفصيلا واتساعا انظر : محمد الصغير غانم ، " التوسع الفينيقي في غربي البحر المتوسط " .

(2) Moscati , Histoire et Civilization des peuples Semitique Payot, Paris .

الشرق والغرب⁽¹⁾ وهم الذين نقلوا حتى على السفن حضارتهم الزراعية إلى الغرب فعلموه أرقى الزراعات وفنون الزراعة "وكان محمول سفنهم في العصر الهرميري يضم نباتات ومحاصيل مثل الورد ، والنخيل ، والتين ، والرمان ، والمر ، والخوخ ، واللوز ... نشروها في بلاد البحر المتوسط كلها⁽²⁾

إن الدولة العربية السورية التي كان يختفي اسمها تارة تحت مجموعة من الأسماء الشظايا لتفتت وحدتها والإساءة إلى دورها الرائد في الحضارة البشرية ، وخلف جملة من الأسماء الغريبة والمبهمة من أجل طمس هويتها العربية تارة أخرى ، تعود اليوم ، حتى من خلال تلك الأسماء الشظايا التي تحاكي شظايا الماس في عراقها ونقاوتها وصلابتها ، بكل الزهو لتعلن كلمتها من خلال بعث الحقائق . وبصرف النظر عما يستخدمه البعض من أسماء مثل : شرقي المتوسط ، بابل ، آشور ، الساميون ، الشرق ، الشرق القديم ، الشرق الأدنى ... الخ فإن ما يهمنا هو وجه الحقيقة الذي ينبثق رغم كل شيء ، من خلف هذه الأسماء — السدود الاصطناعية .

"ماذا فعل الشرق للجنس البشري في هذه الحقبة الطويلة ؟ لا مرأى في أنه حبا العالم بالصناعات الأولى البالغة درجة عالية من الاتقان ، كالصناعات المعدنية ، والنسيجية ، والزجاج ، والورق ، وغير ذلك من ضروب الصناعات وبناء أقدم السفن . وقد سبق " الشرق " أهل الأرض طرا في رفع الأثقال ، والإقدام على تشييد المباني الكبرى . " فالشرق القديم " قد نفح العالم باختراعات جمة مهمة لا يفوقها إلا اختراعات هذا العصر . لقد أخذ الغرب عن الشرق القديم أقدم المباني الحجرية الفنية ، والأروقة المعمدة ، والأبراج اللولبية الشكل ، وأقدم المنحوتات المكلمة الصنعة من الصور والتماثيل الهائلة إلى الأختام النفيسة .. وأخذ عنه أيضا الكتابة وحروف الهجاء ، وأقدم الروايات المنشورة المعروفة ، والقصائد الشعرية ، والأسفار التاريخية والمباحث الاجتماعية ، حتى الروايات الشعرية التمثيلية ، وتقويم السنين الذي لا يزال الغرب

(1) الدكتور ونفسون "تاريخ اللغات السامية" ص 52 .

(2) فيليب حتي ، " تاريخ سوريا ومن ضمنها لبنان وفلسطين " الجزء 1 ص 112 .

يستخدمه حتى اليوم ، ومبادئ الحساب ، والفلك ، والطب ، وقد نظم الشرق أول حكومة كبيرة من أمة واحدة عظيمة⁽¹⁾

يقول هولند نلسن أستاذ التاريخ سابقا في جامعة بيروت الأمريكية : "لا تزال دماء الذين دانوا لسلطات الفراعنة ، وملوك بابل ، وأباطرة آشور ، وبلاد الحثيين ، وأمراء الحكومات المدنية في فلسطين وسوريا ، تجري في عروق الشعوب الذين يقيمون في تلك البلدان التي كانت فيها كلمات أولئك الأقبال العظام شرائع تجب الطاعة لها . والأخلاق والعادات الراسخة فيهم والظاهرة في حياتهم وأفكارهم تمتد أصولها إلى أزمان مترامية في القدم . وقد عجزت العوادي الدينية والسياسية عن أن تحت تلك الأصول . ونقول ، ولا نخشى الخطأ ، إنه لو أقام سكان بلاد الشرق الأدنى الآن في مدن آشور أو فينيقيا أو مصر التي قد مر على قيامها أربعة آلاف سنة لشعروا بأنها وطنهم أكثر مما يشعر الجرمان أو الفرنسي أو الإنكليزي بأن المدينة التي يقيم فيها ولم يمر على وجودها أكثر من ألف سنة هي وطنه . ولنا في هذه الحقيقة الناصعة أقوى حجة على طلبه العلم الشرقيين لوجوب مسارعهم إلى البحث والتنقيب عن تاريخ وطنهم — الشرق القديم"⁽²⁾.

"فمن بابل لا من مصر جاء اليونان الجوالون إلى دويلات مدغم بالقواعد الأساسية لعلوم الرياضة ، والفلك والنحو ، وفقه اللغة ، وعلم الآثار والتاريخ والفلسفة . ومن دويلات المدن اليونانية انتقلت هذه العلوم إلى روما ومنها إلى الأوروبيين والأمريكيين . وليست الأسماء التي وضعها اليونان للمعادن ، والأبراج ، والموازين ، والمقاييس وللآلات الموسيقية ، ولكثير من العقاقير ، ليست هذه كلها إلا تراجم لأسمائها البابلية ، بل إنها في بعض الأحيان لا تعدو أن تكون بديلا لحروفها من الأحرف البابلية إلى اليونانية"⁽³⁾.

وفي سوريا اخترع المحراث والدولاب ، وجرى تقسيم الزمن إلى سنة مؤلفة من اثني عشر شهرا ، وإلى أسبوع مؤلف من سبعة أيام ، ونقلوا إلى اليونان مع تقسيم الزمن قضبان الظل والساعات الشمسية لقياس مرور الساعات ونظاما للتنبؤ عن الخسوف

(1) الدكتور جيمس هنري براستد ، "العصور القديمة" المقدمة ص6

(2) ج . بريسيد ، "العصور القديمة" ، المقدمة ص6 .

(3) انظر: Jastrow ، 185 ، ونول ديورانت ، قصة الحضارة الجزء 2 ، ص 267 .

والكسوف ، وعلامات الأبراج الاثني عشر الموجودة لدينا الآن ، وكثيرا من أنظمة الموازين والمقاييس⁽¹⁾ . "وكان الصناع السوريون ينتجون أسلحة ثمينة مزخرفة ، وثيابا مزركشة ، وأواني أنيقة ، واثاثا ومركبات مرصعة بالذهب والفضة ، وهم الذين جعلوا من توت الفريز ، والكرسنة ، والسوسن ، والختمية ، نباتات زخرفية ، وهم الذين كانوا أيضا أول من فكر بوضع الزهور الاصطناعية في أوان معدنية ، واخترعوا الآلات الموسيقية المعروفة كالقيثار ، والعود ، ومنهم انتقل العود إلى مصر ، والأهداب الثقيلة التي عليه هي سورية في شكلها ، وتظهر القيثارة لأول مرة مع البدو الساميين في عهد السلالة المصرية الثانية عشرة ، وكانت سوريا مصدر الرصاص الذي أصبح شائعا في عهد السلالة الثامنة عشرة"⁽²⁾ .

"وكان السوريون الفينيقيون ، على الغالب ، لا ييارون في صنع المعادن في عصر البرونز المتوسط والأخير (2100 — 1200 ق.م) فقد كانوا يصنعون النحاس والبرونز بكثرة ، وقد أظهر التحليل الكيميائي لنصل فأس من أوائل القرن الرابع عشر اكتشف في رأس شمرا ليس معرفة إذابة الحديد فحسب ، وإنما معرفة مزجه بمعادن أخرى لصنع مزيج الفولاذ ، وكان هذا الأمر مجهولا حتى ذلك الوقت .. وتشيد أشعار هوميروس بصناعة المعدن وبالفتون الفينيقية ، وقد ذكرت أن صحنا من الفضة عمله بدهاء الصيدوايون المهرة في الصناعات اليدوية الدقيقة هو في جماله أحسن شيء من نوعه في العالم كله" .. وكانت صناعة الزجاج من الصناعات الأخرى التي تفوق فيها السوريون .. وكانت صناعة الغزل والنسيج من الصناعات الاعتيادية لديهم .

وقد وجدت آثار مغازل من الحجر والعظم وأثقال من الحجر تستخدم لأجل الأنوال ، وترجع إلى أوائل الألف الثالث قبل الميلاد ، وتذكر وثائق "نوزي" الصوف الفينيقي (القطن) .. وانفردوا بصناعة الصباغ الأرجواني ، واقتنرت الثياب الأرجوانية بالحياة المرفهة وبالملوك ، وكانت كيلو باترا وهيلين طروادة مولعتين بها "⁽³⁾

(1) فيليب حتي "تاريخ سوريا ومن ضمنها لبنان وفلسطين" الجزء 1 ، ص 156 — 157 .

(2) المصدر السابق ، ص 147 — 148 .

(3) المصدر السابق ، ص 96 ، 99 ، 147 ، 148 .

وقد حقق الفينيقيون الدوران حول افريقيا قبل البرتغاليين بأكثر من ألفي سنة⁽¹⁾... ونقلوا حضارتهم إلى جزر المتوسط ، وأطلقوا عليها أسماء عربية سورية ، وقد جعلوا من كريت مركزا للحضارة قبل أن تكون هنالك حضارة في البر الأوروبي⁽²⁾ . "وقد أكد ديودوروس أن سكان مالطا — واسمها سامي بدون شك — كانوا فينيقيين ، وأنه كان لهذه الجزيرة مرفأ من أحسن مرافئ البحر المتوسط ، ولا عجب إذا سميت "ملجأ" . وكان يوجد في تراقيا مناجم للذهب ، " وتروي القصص أن أول من استثمرها هو قدموس الصوري شقيق "أوروبا" الذي أرسله والده للبحث عن شقيقته . وقد اشتغل عمال المناجم الفينيقيون في هذه المنطقة بحثا عن الذهب حتى القرن السابع قبل الميلاد . ومن الأمور التي تنسب إلى قدموس بناء مدينة "ثيبة" وتل الأكروبول فيها الذي اسمه "قدميا" وقد سمي بالنسبة إليه . كذلك فقد أنجب ولدا سماه " إيل إيروس " (إيل شمس ، رغب) وتسمت باسمه الليريا (إيل إيريا) (وهي بلاد ألبانيا اليوم تقريبا) . والواقع هو أن المدن كانت من أصل صوري ، كما ان فن العمارة اليوناني القديم الذي منه أتت أشكال كلاسيكية مدين لسوريا باستخدام الأعمدة وتيجانها .

ولابد من الإشارة إلى تفوق أولئك السوريين الفينيقيين في البر والبحر معا وليس في الملاحة البحرية فقط كما يقول بعض الدارسين . لقد صار من المسلم به اليوم أن السوريين كانوا أول من زرع الأرض ، وأقام المدن ، واستخدم المعدن ، وأوجد فن البستنة ، وأسس علم الزراعة ، والفلك ، والجغرافيا والحساب ، والطب ، والنحت ، وغيره من العلوم والفنون الأخرى ، نشير هنا إلى نصوص تقارير رحلتي حنون وخملكان الفينيقيين من قرطاجة . وقد ترجم التقريران من الفينيقية إلى اليونانية ثم إلى لغات العالم الأخرى . " وإلى " كتب الموسوعات الزراعية التي ألفها القائد ماغون ، والتي أمر مجلس الشيوخ الروماني بترجمتها للاستفادة منها في ميدان الزراعة " . وقد تأثر بها كل من كاتون Caton وفرجيل Virgil وغيرها .

(1) المصدر السابق ، ص 108 .

(2) المصدر السابق ، ص 114 .

" وقد بلغ الأسطول الفينيقي التجاري أقصى ازدهار في شرقي البحر المتوسط منذ القرن الحادي عشر ق.م في عهد صيدا وصور .. وبالرغم م أن الفينيقيين كانوا لا يعرفون البوصلة فإنهم كانوا يعتمدون في أسفارهم على النجم القطبي الذي سماه اليونان بـ نجم "الفينيق" (1) .

"وكانت بعل وعناة _عشتار تمثل كمسرحية على الساحل السوري قبل أن يفكر اليونان بالمرسحبة بعدة قرون " (2) .

وهكذا فإن الفينيقيين ليسوا إلا جزءا من العرب السوريين الذين سكنوا قطعة من الساحل السوري بين ظهري السوريين تمتد من جنوب صور إلى غرب أنطاكية . وقد سموا بهذا الاسم نسبة إلى أحد آبائهم فينيق أخي أوزيريس ثم إلى شقيق أوروبا ، وإن الوجود العربي السوري في حوض المتوسط ، وفي الشمال الافريقي تحديدا ، يعود إلى زمن موغل في القدم ، منذ حوالي الألف الخامس قبل الميلاد ، ويلي مباشرة الوجود العربي في حوض النيل أو تزامن معه كما دلت كل المكتشفات الآثارية .

ولولا حرص مدوني التوراة ، الذين لم يكونوا قد تجاوزوا في التطور مرحلة شكل العشيرة ، على التفصيل في التسميات العشائرية في منطقة واحدة من الأرض العربية هي منطقة غامد وزهران في غرب شبه جزيرة العرب ، ثم سحبها على المنطقة كلها في عملية تزوير كبرى ، لما التصقت بالذاكرة أي من تلك التسميات التفصيلية الصغيرة في وقت كان فيه الوجود العربي السوري قد حقق قفزة هائلة في تاريخ البشرية من شكل الدولة القومية الحضارية ، إلى نشر المبادئ والقيم والمفاهيم ذات الطابع العالمي بدءا من التوحيدية إلى نظم السلوك اليومي .

(1) The Cambridge Anliet History ,Volume 3,P7,138 .

(2) Johm . H. Pattoon , Canaanite Parallels in the bool of psalms راجع
(Baltimore, 1944) " Cyrus H.Cordon,The loves and Wars of Baal Anat
"(princeom,1943) .

لقد بقي ذلك التوهج الحضاري العربي السوري يطفئ على ما حوله حتى في زمن
الاحتلالات مما جعل الآخرين في موقع المتأثر لا المؤثر ، وشكل ذلك ، في حد ذاته ،
ظاهرة فريدة من نوعها في تاريخ الشعوب .

ولسنا نجد ، أخيرا ، من كلمات ننهي فيها بحثنا أكثر ملاءمة مما قاله كل من "فيلودي" و"ملاغر" الشعارين السوريين :

"ولقد وقعت في حب "إنسان" من باخوس — وليس في الأمر ما يدهش ، ثم أحبيت
"إنسانا" من ناكسوس ، ولم تعد القضية مجرد نكتة ، وفي المرة الرابعة أحبيت "إنسانا"
من أرغوس ، ويبدو أن الأقدار ذاقها قد أسمتني "محب الناس" (فيلودي) لأنني أشعر دائما
برغبة ملحة لشخص اسمه "الانسان" .

الشاعر السوري الملقب بـ "فيلودي" من جدرة (أم قيس)

"صور كانت مربيتي ، وجدرة التي هي أتيكا ولكنها تقع في سوريا ولدتي ... فإذا
كنت سوريا أين هي الغرابسة ؟ أيها الغريب ، إننا نقطن بلدا واحدا هو العالم ، وشيء
واحد أنبت كل البشر " .

الشاعر السوري "ملاغر"

نتائج

1- إن الحديث عن الأرض ، التي يشغلها شعب من الشعوب أو أمة من الأمم ، ليس حديثا عن منطقة أو رقعة أو عقار ، تنتقل ملكيتها من جماعة إلى أخرى ، ومن شاغل إلى آخر ، إنه الحديث عن الرحم والجنين ، بكل ما بينهما من وشائج الحياة : التنفس والغذاء ، الهواء والدم ، النمو والولادة ، المحبة والحنين ، إنه الحديث عن وعاء نشاط الشعب أو الأمة ، ومسرح حركتهما وحيويتهما في شتى مجالات العيش والنمو والتطور والعطاء .

ومن هنا لا يمكن الحديث عن الأرض في معزل عن الشعب ، كما لا يمكن الحديث عن الشعب (أو الأمة) في معزل عن الأرض لما لكل منهما من أثر بالغ في تحديد ملامح الآخر وسماته التاريخية المميزة . فكما أن الشعب يطبع الأرض بطابعه ، يغير شكل وجهها زراعيًا ، وصناعيًا ، وعمرانيًا ، ويترك عليها بصمات ثقافته ، وفنه ، وفكره ، ومراحل تطوره ، ونهوضه وانحطاطه ، وأفراحه ، وأتراحه ، بحيث تصبح مرآة لشخصيته وجزءًا منها ، فإن الأرض أيضا ، موقعا وتضاريس ، ومناخا ، وثروات ، ومياها .. تترك ، هي الأخرى ، آثارها واضحة في تقاسيم إنسانها وملاحمه ، وتطلعاته ومزاجه ونشاطاته ، وتوجهاته ..

إن الأرض العربية هي البقعة التي شغلها الشعب العربي واستقر فيها منذ أقدم العصور وحتى اليوم . إنها الأرض التي كانت دون غيرها ، مسرحا لجولان القبائل العربية الرعوية بأمديتها البعيدة والقرية ، الواسعة والضيقة ، فطبعها بطابعه وخلع عليها أسماءها ، وصار العربي يجد أينما حل ورحل فيها لغة محكية مشتركة . ثم لما أخذ التجمع شكل الشعب قفز الإحساس بالارتباط بهذه الأرض إلى مرتبة أعلى ، وصارت جزءا من أراضي الدولة المتوجب حمايتها والدفاع عنها ، قدر المستطاع ، وبقدر ما توفره وسائل ذلك الزمن ضمن المساحات المترامية . كان ذلك منذ الألف الرابع قبل الميلاد على الأقل ، أي

منذ الفترة التي دعاها بعض المؤرخين ، ومنهم صموئيل كيرمر ، بـ " فترة الإمبراطورية العربية — الإيرانية الماقبل سومرية " .

2 — إن ما دعي بـ "الهجرات السامية" فكرة خاطئة منافية للعلم والمنطق من جهة ، وفيها إساءة بالغة لشعبنا العربي الحضاري ومفهوم الأرض العربية من جهة أخرى . إن شكل الوجود العربي في الأرض العربية منذ أقدم الأزمنة كان الوجود الذي يملأ الأرض كلها بحركته الدائبة المستمرة التي أخذت شكل "جولان" لا شكل هجرة . وقد دلت المكتشفات الآثارية والدراسات العلمية الحديثة على أن الوجود العربي الحضاري في ما يدعى بمنطقة "سوريا الطبيعية" يعود إلى الألف العاشر قبل الميلاد في قاع الخليج العربي ، وإلى ما قبل الألف الثامن قبل الميلاد في سوريا الغربية (أريحا مثلاً) . ولقد كان هذا الجولان ينطلق دائما وأبدا في كل الاتجاهات على امتداد رقعة ما دعي فيما بعد بالوطن العربي دون أن يتعداه إلى غيره ، فحدد جولان القبائل بذلك حدود الوطن العربي منذ آلاف السنين . ثم تأكدت وحدته على مر العصور ، دون أن تتمكن من أن تقف في طريق الجولان أو تحد منه كل الحدود المصطنعة التي كان — وما زال — يقيمها المحتلون والمستعمرون بين مختلف بقاعه وأقطاره . لقد شكلت هذه الحركة السكانية الداخلية دورة تغذية بشرية لكل أصقاع الوطن شبه خفية ، غير ظاهرة لأول وهلة . وإذا كانت الحكومات في البلدان العربية منذ فجر التاريخ وحتى اليوم ، هي التي تبرز على مسرح الأحداث التاريخية ، فإن ثمة عملية نسج خفية للناس والمجتمع تتم بصمت ودونما أية ضجة ، وبدأب متواصل تصعب ملاحظته ورصده إلا لمن يتتبع العملية قاصدا . وإن في إمكان أي منا أن يتخيل هذه الصورة ذاتها قبل ألف ، أو ألفين ، وثلاثة آلاف ، وخمسة آلاف عام . فإن قيام حكومة هنا في ماري ، أو في دمشق ، أو إيبلا ، أو هناك في بابل ، أو أكاد ، أو سومر ، لم يكن يعني مطلقا خلو بقية الأرض العربية التي كانت تعج بحركات تلك القبائل وجولائها ضمن إطار الوطن العربي الكبير الذي ما فتئت ترسمه في حركتها وجولائها ، وتحافظ عليه ، وترسخ فيه هويته العربية .

3 — إن جميع ما وصلنا من تسميات لدول وممالك بأسماء القبائل وفروعها إنما يعود في أصله إلى مدونات التوراة . وتلك بدورها لم تكن إلا انعكاسا للمستوى العشائري الذي لم يكن بنو إسرائيل قد تخطوه بعد .

وإن تسمية " السامية " في حد ذاتها إنما هي تسمية حديثة وضعها عالم اللاهوت النمساوي شلوترز Schlöger في القرن الثامن عشر بعد جدل طويل حول أصول " اللغات " في الشرق العربي عبر أعمال المشرين والاستعماريين في المناطق العربية . فقد وضع " نظريته السامية " حول أصل " اللغات " (اللهجات العربية القديمة) معتمدا على مدونات التوراة نفسها التي اعتبر لغتها مقدسة نزولا عند رأي علماء التوراة . وهكذا التقى علماء اللاهوت الاستعماريون التبشيريون مع علماء التوراة على رصيف واحد : وهو طمس أي ذكر للغة العربية في الدراسات والمكتشفات ، واعتبر ما دعوه بـ " اللغة العبرية " لغة مقدسة ، وأنها " أم " بعض اللغات الشرقية ، أي أنها أصل ما دعوه أيضا بـ " اللغات السامية " ! .

وهكذا فإن ما دعي بـ " اللغات السامية " تسمية لا تمت إلى العلم بصلة ، إذ أن سام ليس إلا أحد الآباء العرب الذين أبرزتهم مدونات التوراة ، وليست لغة سام إلا لغة آبائه وأجداده . إنها اللغة العربية بلهجاتها الثلاث : السريانية الشرقية ، والعمورية الغربية ، والعرباء في وسط شبه جزيرة العرب . إن على جميع الباحثين والدارسين العرب أن يسقطوا استخدام مصطلح " السامية " من جميع أبحاثهم ودراساتهم ، ويعودوا إلى تسمية الأشياء بأسمائها الحقيقية . فكما أن سام كان يتكلم لغة آبائه وأجداده ولم يتتدع لغة لنفسه ، فإن أبناء سام ، الذين لم يكونوا غير أحد الفروع العربية السكانية التي لا حصر لها في المنطقة ، لكن التوراة أبرزته بتسجيلها له ، كانوا دونما ريب يتكلمون لغة الآباء والأجداد أيضا .

إنه لمن المؤلم حقا أن ندرس تاريخنا وتاريخ اللغة العربية دون أن نقرب من تلك الجذور الكنوز التي يدعوها اليوم في الخارج بـ " اللغات السامية " ، ثم نتعرف عليها من خلالها . إن أيا من شبابنا اليوم سوف يدهش ، لاشك ، حينما يتعرف على تلك " اللغات " عن

كتب ويكتشف أنها لغته العربية نفسها ، وأن الفرق بين أي منها وبين اللغة العربية اليوم ، رغم مرور آلاف السنين ، لا يكاد يتجاوز الفرق بين لهجتين لسكان منطقتين من مناطق بريطانيا اليوم . إنه سوف يدهش حينما ينظر في معجم* سرياني عربي ويفاجأ بأنه أمام لغة واحدة بفصحائها وعاميتها معا ، وأكثر من هذا ، إنه سوف يجد أن جميع كلماتنا العامة اليوم إنما هي كلمات عربية سريانية .

4 — إن الحضارة العربية السورية الماقبل سومرية لم تأت دفعة واحدة ، بل جاءت نتيجة لعملية طويلة استغرقت آلاف السنين من بدء الانسان العربي لحياة الاستقرار عند أحواض مياه الأنهار . وإن الوجود العربي هو الوجود الأصيل الوحيد الذي شغل الأرض العربية منذ الألف العاشر قبل الميلاد الذي بدأت تشهد به الآثار المكتشفة بدءا بضاف الخليج العربي ومرورا بحوض الدجلة والفرات إلى سوريا الغربية . وإن الاكتشافات لم تجد أي ما من شأنه أن يدل على وجود غريب عن وحدة هذه المنطقة بشريا ولغويا وجغرافيا وحضاريا . وكلما عمد بعض الباحثين إلى تجزئة هذه

• إن كلمة "معجم" لم تعد صالحة للاستعمال وخاصة في مثل هذه المواضع ونقترح كلمة أخرى بديلة لها مثل : المقرن أو المقارن ، أو المفسر ، إذ إن كلمة المعجم تفيد إخراج المقابل العربي للكلمة العجمية . ولما كانت جميع اللهجات القديمة من سريانية وعمورية (وكنعانية أيضا) وغيرها هي لهجات أعجمية للغة واحدة هي العربية ... فإنه صار الواجب اليوم شرح ما كان يقصد بهذه الكلمة : أي أنه غير معرب . وبهذه المناسبة نود أن نلفت نظر القارئ على أمور تدريس اللغة العربية في المدارس والجامعات العربية إلى ما درجوا عليه في الأعراب من اعتبار جميع الأسماء العربية القديمة الأعجمية مثل : ماري ، آشور ، بابل ، عيلاء ، حلب ، دمشق ، نبوخذ نصر ، إبراهيم ، اسماعيل ، يوسف ، اسحق ، يعقوب ، سميرا ميس ، مريم ... وغيرها كثير ، غير عربية لأنها جميعا ممنوعة من الصرف ، المتع من الصرف "العلمية والعجمة " ، إننا بهذا — ولدون أن ندرى — نلقن أطفالنا ما يريد الأعداء منا ، وهو أن كل ذلك التراث الحضاري الكبير إنما هو تراث أجنبي لا علاقة له بالعروبة . إن أطفالنا يتعلمون مثلا أن إبراهيم ممنوع من الصرف لأنه اسم علم وعجمي أي (أجنبي غير عربي) في الوقت الذي يحدثنا الرسول العربي محمد عن أبيه في النسب اسماعيل بن إبراهيم ، كما يحدثنا القرآن الكريم عن ملة "أبينا إبراهيم" ، وفي الوقت الذي يدرك الناس جميعا أن العرب العدنانيين هم أحفاد اسماعيل بن إبراهيم ! إنه لقد آن الآوان لأن نصحيح هذا الخطأ " والمتع من الصرف العلمية والعجمة " ونستعير عنها بعبارة " العلمية والعربية القديمة " وهذا هو الصحيح فعلا ، إذ أن النحو والصرف (اقتصر على العرباء أي الفصحى وتطور في عهد خلافة علي بن أبي طالب بعد ما بلغه مما صار يصيب اللغة العربية من اعوجاج في القول ، فوضع بعض أسس هذا النظام وقال لأبي الأسود الدؤلي " اتح هذا النحو " وهكذا يتضح أن جميع الأسماء العربية القديمة لم تكن خاضعة لمثل هذا النظام الذي سمي "تحوا " .

المنطقة حضاريا وسكانيا ولغويا جاءت الاكتشافات لتدحض هذا السعي ولتؤكد وحدة المنطقة الحضارية ، مما جعل باحثا مثل موسكاتي يكتب أخيرا قائلا : " إن المناطق الثلاث — الجزيرة العربية وسوريا — ومن ضمنها فلسطين وما بين النهرين — كلها تكون وحدة جغرافية متماسكة الأجزاء كانت في تلك الأزمان مسرحا رئيسيا للنشاط البشري ، وإن الأقوام الذين مثلوا هذه الأحداث المسرحية للدور المعد لهم بحكم طبيعة أحوالهم ، صهرتهم هذه الوحدة الجغرافية في مصير مشترك بحيث أن أية صدمة أو حركة تصيب القطاع الواحد يمتد انعكاسها إلى الأقطار الأخرى .. وإن الأقوام الذين استوطنوا هذه الأصقاع هم وحدهم الذين رسموا شكل تاريخها وحضارتها في ضوء أحوال يبيتهم الطبيعية " .

5 — إن الحضارة لم تأت إلى المنطقة من الخارج ، بل العكس كان دائما هو الصحيح . وإن كل الغزوات التي نكبت بها المنطقة من الشمال والشرق إنما كانت غزوات همجية تدميرية لا غزوات حضارية ، أما اليونان فقد ثبت أنهم نقلوا كل شيء من سوريا .

6 — إن ظاهرة تمجيد الآباء المتميزين تقليد عربي قديم مازال مستمرا حتى اليوم وليست القباب والأضرحة والمقامات الكثيرة المنتشرة على كل المرتفعات في البلاد السورية إلا شاهدا على ذلك . إن على الباحثين أن يفهموا هذه الظاهرة كما هي بالضبط ليس أكثر . إن تعظيم الشعب للمتفوقين من أبنائه الذين قدموا له خدمات في ميادين مختلفة ، قد تكون إنجازات أفادت منها الإنسانية كلها ، كان لابد من أن يأخذ طابع التقديس ، وبالتالي طابعا دينيا معينا ، لأن العامة يسهل عليها إجلال الأفراد بربطهم بقوى علوية خيرة معينة ، أكثر من فهم طبيعة الأعمال وحقل النشاط الذي تفوقوا فيه .

وإن ظاهرة اعتزاز العربي وتمسكه بالانتساب إلى مثل هؤلاء الآباء ، الذين اشتهر كثير منهم على نطاق البشرية كلها ، إنما هي جزء من شخصيته . هذا العربي الذي يقس المناقب والمناقب الرفيعة ، وليس فيها ما يمت إلى العنصرية أو العرقية بأية صلة . وإن أية دراسة للإنسان العربي من دون هذه الظاهرة تحدث خللا كبيرا في عملية فهمه على النطاقين الخلقي والاجتماعي معا ، إنما إحدى السمات التي تميز شخصيته عن غيره

وتسهم في إبرازها .

أما من ناحية مدى إمكانية اعتماد لوائح النسب كمصادر في كتابة التاريخ فإننا لسنا ممن يرى فيها شيئا ما ذا أهمية متميزة ، كما أننا لسنا من أنصار إهمالها ، إذ أن خريطة توزع تلك الأنساب ، مهما بدا فيها الكثير من الثغرات والنواقص ، تبقى ذات دلالة في خطوطها العامة على شكل توزع السكان واختلاف نشاطاتهم ، كما تخدم ، في كثير من الأحيان ، في حل ألغاز سكانية كثيرة ، وتشير ، دون ريب ، إلى الهوية العربية لأولئك الناس منذ الزمن الموعغل في القدم . وجدير أن نؤكد أن وجود ظاهرة النسب في أية بقعة كانت في حد ذاتها دليلا للباحث على وجود سلالة عربية .

7 — إن السومريين عرب سوريون . وإن حضارتهم هي حضارة عربية خالصة ، وإن القبائل التي كان يصير المؤرخون على تسميتها بـ "السومرية" لم تكن إلا قبائل همجية غازية ، تطراً على المنطقة ثم تختفي دون أن تخلف وراءها أي أثر غير آثار الدمار ، وهي قد تعود في أصلها إلى أسلاف المغول ، ولم يعرف لها أصل أو موطن مؤكد حتى الآن .

8 — إن عيلام إقليم عربي سوري ، تدل على ذلك المكتشفات الآثارية منذ الألف الرابع قبل الميلاد . كما أن اللغة ، والديانة ، وأسماء المدن والآلهة وكل المظاهر الأخرى تنتمي إلى عائلة واحدة هي العروبة . وقد كانت عيلام دائما جزءا من الدولة العربية السورية المركزية منذ عهد سرجون في الألف الثالث قبل الميلاد ، وقد حافظت على هويتها العربية حتى اليوم (وهي اليوم إقليم عربستان) .

9 — إن ما دعي بـ "أرض كنعان" هي جنوب في بلاد غامد وزهران من شبه جزيرة العرب ، وليست في فلسطين أو أي مكان آخر من سوريا الغربية المتوسطة . ولم تكن فلسطين أو سيناء في يوم من الأيام إلا جزءا من الدولة العربية السورية ، ولم تسميا بهذين الاسمين إلا بعد بدء عملية التبديل في الأسماء والمواقع الجغرافية التي تنهاها المحتلون وعملائهم في المنطقة من الكهنة والمؤرخين التوراتيين .

10 — إن كلمة "الفلسطينيين" ليست إلا تحويرا لكلمة "الفلسطين" الذين كانوا

يسمون "فلشتيم" باللهجة الكنعانية ، وهم سكان بلدة " فلشة " في جنوب زهران ،
وهم أبناء مصرام (المصريين) الذين يجاورونهم في المنطقة نفسها .

إنهم عرب حاميون كنعانيون مصريون ، وقد بقي هذا الاسم يطلق على الفلشة في
الحبشة ، وهم بقايا العرب الفلسطينيين الذين بعثهم نبوخذ نصر مع المصريين (مصرام)
وبني اسرائيل ، واستوطنوا بعض مناطق الحبشة منذ ذلك الزمن . أما سكان جنوب
سوريا فهم عرب سوريون أموريون .

11 — إن الحثيين هم بعض أبناء العرب الكنعانيين في بلاد زهران . وإن من دعي
بـ"الحثيين" في شمال سوريا (في تركيا اليوم) إنما هو اختراع لا أساس له .

12 — وإن الحوريين هم عرب كنعانيون وآموريون في شرق زهران . وإن من أطلق
عليهم خطأ اسم "الحوريين" أو "الميتانيين" في شمالي سوريا ليسوا إلا عملية تزوير أخرى
نتيجة للتزوير في تفسير الأسماء والمواقع التوراتية .

13 — ينبغي التمييز بين عشيرة الآشوريين (آشوريم) من أبناء ددان حفيد إبراهيم من
زوجته قطورا وتوابعها في زهران وبين الدولة السورية التي صار مركزها مدينة آشور
على نهر الدجلة .

14 — إن ملوك مصر وادي النيل هم من العرب الذين قدموا من غرب شبه جزيرة
العرب . وإن حضارة مصر لم تكن إلا استمرارا للحضارة العربية ككل في منطقة الهلال
الخصيب وشبه الجزيرة . وإن العرب هم مؤسسو الدولة والعلوم والفنون والديانات
والمدن وفن العمارة والنحت في مصر ، كما أن منهم جميع الحكام والملوك . وهذا ما
يدحض قطعاً كل الفرضيات التي دأب المؤرخون الذين أفرزهم عصر الاستعمار على
تربيتها في أذهان الأجيال حول الحضارة " الفرعونية المتميزة " ، والتي لا علاقة لها
بالعروبة ، وكأننا هبطت من السماء ، أو خرجت من جنوب القارة الافريقية ، وليس ثمة
طريق آخر ، مثلها في ذلك مثل الحضارة السورية في سومر ، التي اقتطعوها من جسدها
العربي ، فلم يبق من حولها غير الأقوام البدائية المتخلفة الأخرى لتنتسب إليها . لقد بقي
التفاعل الحضاري بين سكان وادي النيل الأصليين من العرب وبين أبناء عموماتهم من

العرب السوريين (أبناء " سر ") المتفوقين حضاريا ، والذين ملأوا أرجاء سوريا الطبيعية بمظاهر الحضارة الأخاذة الرائدة ، وجعلوا منها مركز الحضارة العالمية ترسل إشعاعاتها عبر الحروف والكتابة والزراعة والصناعة والعمران والفنون إلى شتى أرجاء المعمورة ، بقي هذا التفاعل يتأرجح بين مد وجزر حتى استقر نهائيا في صورته المنسجمة الشاملة إبان عملية التحرير الكبرى التي قادها العرب المسلمون ، فتم تحرير كل أرجاء الوطن العربي وتوحيده .

15 — لقد حافظت سوريا على وحدتها طيلة فترة العهود القديمة . وإن ما دعي بالاحتلال الحثي ، والحوري (أو الميتاني) ، والمصري ، لم تكن إلا أخطاء تاريخية فادحة سقط بها كل من اعتمد التفسير المزور لجغرافيا الكهنة التوراتيين ، ثم لم يعد أحد يفكر بإعادة النظر مرة أخرى .

فإذا كان العرب موجودين في شتى أطراف الوطن العربي السوري من سومر و عيلام شرقا ، إلى ماري وأعالي الفرات شمالا ، إلى توتال (شاتال) ومرسين وصور وأريحا وعمريت وسوكاس وأوغاريت غربا منذ آلاف السنين ، تدل على ذلك آثارهم المكتشفة ذات الطابع الحضاري والسكاني والثقافي واللغوي الواحد ، كما تدل على ذلك أسماء مدنهم القديمة الأولى ، فقد كان من المؤكد أن القاعدة السكانية العامة في كل من هذه المناطق كانت تتمتع بمواصفات عامة مشتركة في انتمائها إلى أصل واحد ، ولغة واحدة ، وأنماط معيشية واحدة تتراوح بين البداوة العربية والمدنية العربية بكل تراث وتقاليد الأولى ، وإبداعات وتفوق الثانية .

فعلاوة على ما سبق أن بيناه من فداحة في الأخطاء المرتكبة بحق تاريخ سوريا والتي جعلت من سكان بعض القرى العربية في شبه جزيرة العرب ممالك كبيرة ، بل وإمبراطوريات أجنبية ، تتنضد بعضها فوق بعض في الزمان والمكان ، وتحتل جميعا سوريا في وقت واحد ، فإن ثمة دلائل منطقية أخرى كثيرة تؤكد بطلان مثل هذه المزاعم والتصورات . لأن اندفاع السوريين غربا عبر شطآن المتوسط وصولا إلى الجزر البريطانية في الأطلسي لكي يعودوا محملين بالقصدير والفضة والذهب والسلع الأخرى فتفيض بها

أسواقهم ، ما كان ليحدث لو أن بلادهم ومدنهم ومنازلهم خلف ظهورهم كانت محتلة من قبل الأجنبي . إنهم لو شعروا مرة واحدة بأن جهودهم سوف تذهب إلى خزائن الأعداء المحتلين للأرض والديار ، لما فكروا بالعودة بأكداس الذهب والفضة إلى أسواق مدنهم حتى صارت " كأكوام التراب " . وإن كل ما أورده كتب التاريخ المتداوله من أقوال واهية متناقضة حول بقاء الأراضي السورية تحت الاحتلال الأجنبي قبل القرن الخامس قبل الميلاد لم يعثر له على دليل واحد حتى اليوم . ولقد بنيت هذه التصورات جميعا بكل تناقضاتها وإرباكاتها على أساس من تبديل الأسماء والمواقع في الترجمات التوراتية التي لم يعثر لها على أصل ، وإن ما أصاب المدن السورية من دمار كان بفعل الزلازل المتعاقبة في معظم الأحيان .

16 — إن الموقع الفريد لسوريا ، وطرقها التجارية الدولية ، وغنى وخصوبة أراضيها ، جعلت منها مركز جذب لكل الأقوام الهائمة ، ولكل القادة المغامرين الطامحين إلى الغزو والتوسع والسلب ، مما ألقى بدوره على كاهل العرب السوريين منذ أقدم الأزمنة مهمتين رئيسيتين : الإنجاز والإبداع الحضاري في إطار الدولة المركزية الواحدة ، التي يحيط بها البدائيون من الشمال والشرق ، وهذا بالتالي ألقى عليهم المهمة الثانية وهي جعلهم مصدا تاريخيا أمام كل غزوات الأقوام والشعوب التي لم تكن لتأتي إلا من الشمال والشرق والغرب لحماية بقية أجزاء الوطن العربي . إن هذا الدور هو نفسه الذي استمر فيما بعد إبان الغزو الأوروبي الاستعماري الذي دعي بالصلبي ، ثم إلى غزو المغول والتتار والأتراك ، والإنكليز والفرنسيين ، إلى الغزو الاستعماري الصهيوني الاستيطاني في عصرنا الراهن .

17 — إن الدولة العربية السورية كانت منذ نشأتها في الهلال الخصيب وشبه جزيرة العرب نواة الوطن العربي . وإن اندفاع السوريين عبر شطآن المتوسط منذ ما قبل فجر التاريخ هو الذي صنع ما عرف فيما بعد بـ " الوطن العربي " ثم عملوا على ترسيخه مرتين : مرة قبل المسيح ومرة أخرى زمن القائد العربي موسى بن نصير أيام حروب التحرير الكبرى زمن الدولة العربية الأموية .

18 — إن ظاهرة ما دعي بـ " العبرانية" هي كلمة حديثة ليست ظاهرة لشعب ، أو لغة ، أو فرع من السكان ، أو قبيلة ، أو أي شيء آخر من هذا القبيل . إنها تسمية لغوية حديثة لظاهرة اجتماعية ميكانيكية قديمة ليس لها أي مضمون . إنها اشتقت من " عبر " و " عابر " وكانت تطلق على كل من عبر الجردود أو المخاضات (يردن ، جرد — ن) في جبال عسير والسراة إلى أرض كنعان في بلاد غامد وزهران ، إنها تعبير محلي فيه وصف للقادم من جهة الشرق إلى تلك الأرض ، وقد أطلقت على أحد الآراميين فصارت له اسما " عبرم " — " أبرم " (قبل دخول الحروف الصوتية) . أما " الخابيرو " فقد كانت تسمية ذات مضمون طبقي لفئة من الناس لا تملك غير عملها الذي تؤجره من أجل الحصول على القوت .

ومن هؤلاء " الخابيرو " انبثق تنظيم " الأخلامو " ويعني " الرفاق أو الأصدقاء " ، الذي جاء تعبيرا عن درجة أرقى من الشعور بالظلم الاجتماعي والاقتصادي . فتحول هذا الشعور من اللاوعي إلى الوعي على هيئة تنظيم يمكن الحصول من خلاله على تأمين القوت اليومي عن طريق العنف .

19 — إن الطريق التي سلكها إبراهيم الخليل في رحلته إلى أرض كنعان هي كما يلي : من أور الكلدان جنوب بابل ، إلى حاران على بعد حوالي خمسين كيلو مترا شرقي زهران ، إلى أرض الكنعانيين في الجزء الشرقي من زهران نفسها ، ومنها إلى بلاد المصريين (مصرام) في غرب وجنوب زهران ، ثم إلى الموضع نفسه (قرية أربع أو حيرون) في القسم الشرقي من زهران .

20 — أما خروج موسى بقومه إلى أرض كنعان فكان على النحو التالي : كان في البدء مقيما في عشيرة المصريين في جنوب غرب زهران ، إلى أن تورط في حادثة قتل المصري ، فهرب شرقا إلى مضارب المديانيين حول جبل حوريب ، تعني بالسريانية جبل العليق ، وبعد أن ظهر له " الرب " في وادي طوى الذي يرفد وادي كارا شمال شرق العقيق ، ويحتفظ باسمه حتى اليوم ، عاد إلى أرض المصريين ليخرج عشائر الاسرائيليين عنه يستولي بهم على بعض أجزاء أرض كنعان " التي تفيض لبنا وعسلا " وسلك بهم

الطريق التالي : لقد خرج بهم من أرض المصريين في غرب زهران ، ومروا ببحر سوف (هو نهر سوف ، والشعف حالياً) ، وداروا بأرض سكان فلسة هناك (وهم الفلسطينيين الذين دعوا مؤخرًا بالفلسطينيين) ، واتجهوا شمالاً إلى جبل قاسي (الذي صار يسمى خطأً بالأقرع) ثم عادوا مع مجرى النهر إلى برية ثور (شور) وهي اليوم غرب الطريق الدولي جنوب بلدة الطاولة ، ومنها إلى برية سين جنوب وادي جت . ثم داروا بأرض أدوم (الذي هو عيسو أخو يعقوب) بعد أن صدّهم ملك بلدة عراد الكنعاني ، وأوغلوا شرقاً إلى أرض مدين (ابن ابراهيم من قطورا) إلى جبل حوريب (جبل العليق) عند وادي طوى . هناك استقبل موسى حموه مع زوجته وطفليه ، وأمضى وقتاً طويلاً . تلقى موسى هناك أمور الشريعة إلى جانب أمور تنظيمية وإدارية أخرى لقنه إياها حموه يثرون كاهن مدين وعلمه كيف ينظم أمور جماعته وكيف يكون موقعه منها ، وكيف يفصل في الخصومات⁽¹⁾ .

ثم تحرك بالجماعة بمحاذاة طريق القوافل جنوباً إلى موضع العقيق ، وحاول الصعود بهم بمحاذاة الطريق نفسه إلى بلاد غامد ، لكن الكنعانيين الساكنين هناك صدوهم ومنعوهم ، وكذلك فعل الأموريون ، ثم وصلوا إلى عربات مؤاب مقابل جبل أورخ (أردن أريحا) ، وهناك عبروا الجروف ، ومخاضات السيول إلى أورخ (يرنحو) ، ودعيت بالترجمة أريحا) بقيادة يشوع وذلك جنوب الباحة من بلاد غامد .

21 — إن كلمة " ملك " كانت تطلق على كل من يتزعم عصابة من الناس ، أو قرية ، أو عشيرة ، أو حي من عشيرة . ولم تكن " مملكة داود " في عنفوان " مجدها " تتخطى هذا المفهوم للكلمة . وفي عهد سليمان لم يغادر بنو إسرائيل مضارب خيامهم في هذا السفح أو ذاك حول هذه القرية أو تلك بين السكان الأصليين ولم يتمكنوا من تجاوز بداوتهم ويندججون بالعرب الزراعيين الآخرين في المنطقة . وإن ما دعي بـ " مملكة داود أو سليمان " لم تتجاوز مفهوم السيطرة بالوكالة على مجموعة من القرى على طريق

القوافل والتجارة الدولي الذي يمر في القسم الشرقي من بلاد غامد وزهران في المنطقة الغربية من شبه جزيرة العرب .

22 — إن كل الدور الذي طمح إليه بنو إسرائيل أيام داود وسليمان هو أن يتمكنوا من أن يرتفعوا بقواهم الذاتية إلى مستوى يؤهلهم للقيام بدور العمالة للأشوريين أو للمصريين (بنى مصرام) في غرب زهران ، فيقومون على حراسة ممر القوافل ، وجباية الأموال عن كل البضائع الجائزة في تلك الطرق ويقدمونها بنسبة معينة لهذا الجانب أو ذاك . وإن اللعب بين القوتين العربيتين الكبيرين آنذاك سوريا ومصر وادي النيل من أجل المحاولة بالانفراد في الهيمنة على خط القوافل الحيوي لسوريا بصورة خاصة أدى إلى تصفية دورهم نهائيا في تلك المنطقة الحساسة واستبدال سكان عرب آخرين من المنطقة ذاتها بهم بعد أن تم نقل كثير منهم ومن بني مصرام إلى بابل المحطة على يد الملك السوري نبوخذ نصر .

إن من جملة أسباب فشل العرب الاسرائيليين في القيام بذلك الدور هو درجة تخلفهم القاسية عن النمط المعيشي للسكان الذين تجاوزوا مرحلة التجمع القبلي بزمان طويل ، وصارت كل قرية تعبيراً عن نمط معيشي لا عن أحد فروع القبائل . لقد رأينا كيف كانت قرية أربع (حبرون) التي رحبت بإبراهيم الآرامي حثية في أحد النصوص التوراتية . بينما نجدها في نص آخر أمورية " فاجتمع ملوك الأموريين الخمسة ملك أورشليم ، ملك حبرون ، وملك يرموت ، وملك لخيخ ، وملك عجلون " (يشوع 10 : 4) . وكذلك الأمر بالنسبة لقرية أورشليم التي كان أبوها آموريا وأما حثية على حد تعبير التوراة .

23 — إن " التوراة " بكل محتوياتها هي نتاج عربي ، بقصصها ، وأدبها ، وأشخاصها ، وأبطالها ، وجغرافيتها وعلى المثقفين العرب أن يعمدوا إلى دراستها وتنقيتها من كل عمليات الخلط والتبديل والتزوير ، وإرجاع كل نص إلى أصله بدءاً من نظرية التكوين ، ومروراً بقصة الطوفان ، ثم بالأمثال ، وبالحكم ، وبالأناشيد ، وبقصة أيوب ، وبالأنساب ، وبالمزامير ، التي هي في مجملها تراث عربي سوري ، وقد اكتشفت أصولها

القديمة كلها سواء في مكتبة أوغاريت أو في مكتب آشور بانيبال ، أو من خلالها الألواح التي اكتشفت عليها ملحمة جلجامش بما فيها قصة الطوفان . وإن إعادة هذا التراث إلى موقعه الحقيقي من التراث العربي ، ودراسته ضمن إطاره الصحيح مهمة قومية وعلمية تقع على عاتق جيلنا اليوم ، ونقصد بـ "إطاره الصحيح" الإطار التاريخي والجغرافي والثقافي معا . أما اليهودية فهي دين وليس ليهود العالم أية علاقة بالنسب بعشيرة بني إسرائيل العربية الآرامية .

24 — لقد تميز الوطن العربي السوري بوحدة الأرض ، والشعب ، واللغة (بلهجتهما الثلاث) ، والديانات ، والفكر ، والأسطورة ، كما نعم لفترة طويلة جدا ، لم تتوفر لغيره في ذلك الزمن ، بوحدة نظام الدولة الاقتصادي ، والضريبي ، والحقوقى ، والسياسي ، والقانوني ، والعسكري منذ الألف الثالث قبل الميلاد . وإن كانت بوادر الدراسات الأولى لمكتشفات "عبلا" (إيبلا) تدل على شيء ، فإنها تدل على وحدة هذا الشعب ، وبعده منذ آمام طويلة عن أشكال التجمع القبلي . إن مجموعة الآباء العرب المقدسين في إيبلا التي ضمت جميع الأباء من كل أطراف الوطن العربي السوري لأكثر دليل على وحدة هذا الشعب ، وبعده عن التعصب القبلي . إن نظرية واحدة نلقيها على نظام الأعياد الرسمية فيها تبين لنا مدى تمسك سكانها بوحدة جميع الآباء العرب المقدسين الذين يتمجدون فيها كما يتمجدون في كل بقاع الوطن ، وإن تخليدهم عن طريق الاحتفال بذكرى لكل منهم كان أحد التقاليد الرائعة التي امتاز بها العرب السوريون في سبيل تمجيد آبائهم المتفوقين كما سبق أن شرح ذلك كل من سانخونياتن وملك وفيلون الجبيلي . وإن أي فهم لهذه الظاهرة خارج هذا النطاق فيه من الخطأ والإجحاف بحق هذا الشعب الكثير .

وهذه صورة عن بعض أولئك الآباء المحجدين في " إيبلا " الذين ما ينفك الدارسون — للأسف — يعتبرونهم آلهة حقيقيين ، جريا على ما درج عليه غيرهم من ذي قبل :
أدما — وهو آدم ، تقدس في سوريا كلها بما فيها منطقة الهلال الخصيب وشبه جزيرة العرب .

أدومتوم — السيدة أدمة (أدماء) ، قد تكون زوجة آدم ، أو حواء ، جرى تقديسها في سوريا كلها .

عمو — وتعني أبو القبيلة ، في الهلال الخصيب وشبه الجزيرة .

حدد — في كل بقاع الهلال الخصيب وشبه الجزيرة .

أنو — (عانو ، عان ، عين) في الهلال الخصيب كله حتى وادي النيل ، وفي شبه جزيرة

العرب . وما تزال كثير من القرى والجبال مسماة باسمه في شتى البقاع والمناطق .

إيل — (أل ، عل ، كرونو — قرون ، أبو السنين ، السيد العلي) في الوطن العربي كله .

بردو — في منطقة الهلال الخصيب وشبه الجزيرة .

دجن — في منطقة الهلال الخصيب وشبه الجزيرة .

دينجر — في منطقة الهلال الخصيب وشبه الجزيرة .

انكي — في منطقة الهلال الخصيب وشبه الجزيرة .

دامو — في منطقة الهلال الخصيب وشبه الجزيرة ويرجح أن آدم سمي باسمه ، إذ إن اسم

آدم يعني مقام السيد دم (الذي هو دامو) أو بيته أو ابنه ..

نيد أكرول — في منطقة الهلال الخصيب كله وشبه جزيرة العرب . ولا يزال بين زهران

والطائف جبل الكلب النعد حيث ينبع نهر الليث (أو الكلب) يحمل اسمه حتى اليوم .

عيلام — في الجناح الشرقي وشبه الجزيرة .

كاميش — في جوف شبه جزيرة العرب .

كوشار — في منطقة الهلال الخصيب وشبه الجزيرة .

رشف — في منطقة الهلال الخصيب وشبه الجزيرة .

اوتو — في منطقة الهلال الخصيب وشبه الجزيرة .

بعل — في منطقة الهلال الخصيب وشبه الجزيرة .

وإذا نظرنا إلى الكلمات الواردة في أحد النصوص المكتشفة في وثائق إيبلا منذ الألف

الثالث قبل الميلاد لتبين لنا كيف أن الاختلاف بين اللهجات العربية السائدة اليوم يزيد

كثيرا ، رغم كل وسائل النقل والاتصال ، عن الاختلاف مع لهجة إيبلا القديمة .

من کیا ؟ من کیا، من مثل ایا ؟

من ك ایل : من ك ایل ، من مثل ایل ؟

اسماعیل : اسماعیل

حیره : منزله ، بستانه . ما تزال تستخدم في الساحل السوري إلى اليوم .

راعینا حدد : راعینا حدد

آدم ملك : رجل ملك

دبیحة ملك : عبد أضحی الملك

عبد — سب : عبد الرحم ، الأم

هو أب : هو أب

ید دامو : ید الرب دامو

البكر : الابن البكر

تدبیرو : تدبیر

یدو : ید

أكلم : أكل

نفستم : نفس ، حياة ، روح

أم : أم

كلماتو : كلمات ، مزاح ... الخ

"ولقد أبانت مكتشفات إيبلا الأمرين التاليين :

آ — إن سكان هذه المملكة هم قوم يتكلمون بدوات اللغة العربية الحديثة .

ب — إن هذه المملكة كانت زاهرة ومتقدمة وكان لها علاقات واسعة تجارية وسياسية

مع أكاد وآشور وماري ومع مدن سوريا الداخلية والساحلية . وكان لها نفوذ سياسي

أحياناً على ماري وأكاد" ⁽¹⁾ .

(1) الدكتور عفيف بهنسي ، "وثائق إيبلا" ص 140 .

25 — إن تسمية الفينيقيين — ككل التسميات العربية — ينبغي ألا يبحث عن أصلها عند الشعوب الأخرى وإنما في المعاجم والقواميس العربية وبين الآباء العرب المتميزين الذين هم بعض العرب السوريين ، سكان الوطن السوري القديم . والكلمة من الفعل " فتق " أي تنعم ، ترفه ، عاش عيشا راغدا .

26 — إن كل ما يذكره المؤرخون عن دعوا بـ "الهكسوس" يثبت حقيقة واحدة ، هي أنهم ليسوا إلا مجموعة من السكان العرب المحليين من بلدة الصوت في شرقي بلاد زهران ، زحفوا بقيادة أمرائهم واستولوا على أراضي المصريين (مصرام) في المنطقة الجنوبية من زهران نفسها ، فكان ذلك ردا على اجتياح مناطقهم ومدنهم الشرقية على يد "أحمس" و"عوي" قائد جيش "بيي" الأول الذي رفع من شأن المصريين في المنطقة . وإن ما نسب إليهم من الحضارة لم يكن إلا جانباً من جوانب الحضارة العربية ككل في ذلك الزمن . وإذا كانت مصر وادي النيل قد شهدت تقدماً في كثير من مظاهر الحضارة وجوانبها في تلك الفترة فليس يعني أن ذلك كان بفضل حكم الهكسوس . فالهكسوس لم يدخلوا مصر وادي النيل ، ولم يتجاوزوا أرض المصريين في غرب زهران ، وفي ظل ملوكهم عمل يوسف بن يعقوب في جمع القمح للملك (فرعون) من بيادر الفلاحين لا في مصر وادي النيل . ولقد أجمع المؤرخون والنسابون والأخباريون العرب على أن ملك مصر أيام يوسف بن يعقوب كان الريان بن الوليد وأن فرعون موسى كان قابوس بن مصعب بن معاوية بن غنم بن الليث بن حاران بن عمرو بن عمليق (وهو عريب) ، وأن زوجته كانت آسيا بنت مزاحم بن عبيد بن الريان بن الوليد بن ثروان بن اراشة ابن حاران بن عمرو بن عمليق بن لاوذ بن سام بن نوح .

27 — إن هذا من شأنه أن يحفز الباحثين ، والمشرفين على شؤون الآثار في قطرنا ، على توجيه منحي الدراسات والبحوث في الاتجاه الأصيل الصحيح الذي يعكس وحدة المنطقة الحضارية ، ومن أجل أن يتخلوا عن تلك النظرة التقليدية العقيمة الشوهاء لحضارة المنطقة ، التي اعتادوا مع المستشرقين أن ينظروا إليها من خلال "حضارة" البقعة ، التل ، والمدينة ، والقرية ، المكتشفة وضمن حدودها فقط . إن تقديس هؤلاء

الآباء العرب جميعا الذي يغطون ساحة الوطن العربي القديم في إيبلا* من شأنه أن يدفع أولئك الدارسين والباحثين إلى افتراض وجود العلاقات بين إيبلا وكل المدن العربية المعروفة آنذاك ، ولا سيما ما يقع منها على طريق القوافل التجاري الدولي في غرب شبه جزيرة العرب . إننا من هذا الباب ومن هذا الفهم بالذات لواقع المنطقة الحضاري ، لا نستغرب أبدا أن تكون مدون وردت في مكتشفات إيبلا أمثال كركميش ، وحران ، وزهر ، وابشو ، ولبان ، وأشار (ربما — بني سار) .. وغيرها ، هي فعلا على طريق القوافل الدولية في غرب شبه جزيرة العرب التي كانت بمثابة الشريان التجاري الرئيسي للمنطقة الداخلية بأسرها ويجدر البحث عنها في تلك المناطق قبل أي مكان آخر .

المراجع العربية

1. ابن عساكر ، تهذيب تاريخ دمشق " ، 1982 .
2. أسد الأشقر ، " الخطوط الكبرى في تاريخ سوريا ، ونشوء العالم .
3. أسد الأشقر ، " تاريخ سوريا " ، 1978 .
4. ابن الكلبي ، كتاب الأصنام ، تحقيق أحمد زكي ، الدار القومية للطباعة ، القاهرة ، 1965 .
5. أدولف إيرمان ، " ديانة مصر القديمة " . مطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده بمصر .
6. ابن الأثير ، " الكامل في التاريخ " دار الكتاب العربي ، بيروت 1983 .
7. ولتر أوندري ، " آثار هيكل عشتار القديم في آشور " ليزغ ، 1922 .
8. حمزة الأصفهاني ، " تاريخ سني الملوك " طبعة بيروت ، 1961 .
9. جاك بيران ، " حضارات قديمة "
10. جايكس هنري بريستد ، " تاريخ مصر من أقدم العصور إلى الفتح الفارسي " .
11. بارتون ، " نبذة عن الأصول السامية " .
12. الدكتور وديع بشور ، " الميثولوجيا السورية " ، مؤسسة فكر ، 1981 .
13. أندريه بارو ، " ماري " ، ترجمة د . رباح نفاخ ، دمشق 1979 .
14. جايكس هنري بريستد ، " العصور القديمة " ، ترجمة داود قربان ، مؤسسة عز الدين للطباعة والنشر ، بيروت 1983 .
15. البطريق أفرام الأول برصوم ، " اللؤلؤ المنثور في تاريخ العلوم والآداب السريانية " .
16. سبائك الذهب في معرفة قبائل العرب ، للبغدادى ، بيروت .
17. الدكتور وديع بشور ، " سومر وأكاد " دمشق ، 1981 .
18. الدكتور عفيف هنسي ، " وثائق إيبلا " ، دمشق ، 1984 .

19. أرنولد توينبي، "تاريخ البشرية"، ترجمة نقولا زيادة، الأهلية للنشر والتوزيع ، طبعة ثانية ، 1983 .
20. تشايلد ، "الشرق القديم ، طبعة عام 1964 .
21. ثوركيلد جاكوبسن، الصراع المزعوم بين السومريين والساميين في تاريخ ما بين النهرين القديم " ، مجلة الجمعية الشرقية الأمريكية ، عدد 59 ، 1939 .
22. ثوركيلد جاكوبسن ، "الأصول البشرية " ، دراسة تمهيدية عامة في الانثروبولوجيا ، سلسلة القراءات المختارة رقم 2 ، شيكاغو 1946 .
23. غوستاف جيلي ، " تاريخ المدينة المصرية " .
24. فيليب حتي ، " تاريخ سوريا ومن ضمنها لبنان وفلسطين " ، ترجمة جورج حداد وعبد الكريم رافق، دار الثقافة ، بيروت 1982.
25. فيليب حتي ، "خمسة آلاف سنة من تاريخ الشرق الأدنى".
26. نظرية التكوين الفينيقية وآثارها في حضارة الأغريق ، ترجمة وتعليق يوسف الحوراني .
27. حسين عمر حمادة ، "مخطوطات البحر الميت" ، دار منارات للنشر عمان 1982
28. ياقوت الحموي ، "معجم البلدان "
29. دريني خشبة ، "أساطير الحب والجمال عند اليونان " ، دار أبعاد للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت 1983 .
30. ول ديورانت ، "قصة الحضارة " ، ترجمة الدكتور زكي نجيب محمود ، 1949
31. الدكتور محمد عزة دروزة ، "تاريخ الجنس العربي" ، المكتبة العصرية ، صيدا وبيروت ، 1959 .
32. الدكتور محمد عزة دروزة ، " العرب والعروبة " ، دار اليقظة العربية بدمشق . 1959
33. الدكتور محمد عزة دروزة ، "اليهود في القرآن الكريم" ، "دار الجليل، 180 .

34. الأب جرجس داود داود ، "أديان العرب قبل الإسلام" ، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع ، بيروت ، 1981 .
35. الدكتور عبد العزيز الدوري ، " التكوين التاريخي للأمة العربية ، بيروت 1984
36. سهيل ديب ، " التوراة بين الوثنية والتوحيد " .
37. زاكية محمد رشدي ، "السريانية نحوها وصرفها " رسالة دكتوراه في جامعة القاهرة .
38. بيار روسي، "مدينة إيزيس، التاريخ الحقيقي للعرب"، منشورات وزارة التعليم العالي، دمشق 1980 .
39. أحمد وصفي زكريا "عشائر الشام" ، 1 — 2 دار الفكر ، 1983 .
40. الدكتور أحمد سوسة ، "ري سامراء" .
41. الدكتور أحمد سوسة ، "مفصل العرب واليهود في التاريخ" .
42. الدكتور أحمد سوسة ، " فيضانات بغداد في التاريخ " .
43. لقيان السميساطي ، "الإلهة السورية" .
44. الدكتور توفيق سلمان، "نقد النظرية السامية". الجزء الأول، داردمشق للطباعة والنشر ، دمشق ، 1982 .
45. صفية سعادة ، " أوغاريت " ، مؤسسة فكر ، بيروت 1982 .
46. قاسم الشواف ، "مع الكلمة الصافية" .
47. مصطفى الشهابي ، " القومية العربية " .
48. الدكتور عبد العزيز محمد الشناوي ، " الدولة العثمانية دولة إسلامية مفترى عليها " مكتبة الأنجلو المصرية ، 1980 .
49. الدكتور هشام الصفدي ، " تاريخ الشرق القديم " ، الجزء الأول ، مطبعة طربين 1984 .
50. الدكتور كمال صليبي ، " التوراة جاءت من جزيرة العرب " ، جريدة القبس الكويتية ، من العدد 4805 تاريخ 1985/1982 وما يليه .

51. تاريخ الطبري.
52. الطبري ، تفسير الطبري ، المطبعة الميمنية ، القاهرة .
53. الدكتور محمد أسعد طلس ، / "تاريخ العرب" ، دار الأندلس ، 1979 .
54. الدكتور جواد علي ، " المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام " ، دار العلم للملايين ، بيروت 1969 .
55. نبيه عاقل ، " تاريخ العرب القديم وعصر الرسول " ، جامعة دمشق 1968 .
56. العقيقي ، " المستشفون .
57. شوقي عبد الحكيم ، " الفولكلور والأساطير العربية" . دار ابن خلدون . بيروت ، 1978 .
58. مار أغناطيوس زكا الأول عيواص "سيرة مار أفرام السرياني " .
59. محمد الصغير غانم ، "التوسع الفينيقي في غربي البحر المتوسط" .
60. الدكتور محمد حرب فرزات، " موجز في تاريخ سورية القديم " ، المطبعة الجديدة دمشق 1983 .
61. الدكتور محمد حرب فرزات ، "محاضرات في تاريخ الشرق الأدنى القديم" .
62. هنري فرانكفورت ، "فجر الحضارة في الشرق الأدنى " ، ترجمة ميخائيل نخوري، منشورات دار مكتبة الحياة .
63. سيغموند فرويد ، "موسى والتوحيد " الترجمة العربية .
64. الدكتور أنيس فريجة ، "دراسات في التاريخ " ، دار النهار ، بيروت ، 1980 .
65. جورج كونتنو ، " الحضارة الفينيقية " .
66. الدكتور جاك كوفان ، " الوحدة الحضارية في بلاد الشام " ، تعريب قاسم طوير، مطبعة سورية ، دمشق ، 1984 .
67. صموئيل نوح كرم ، " أصل المجتمعات المتحضرة " ، ترجمة لمعي المطيعي ، الدار القومية للطباعة والنشر .
68. غوستاف لوبون ، " الحضارة المصرية " .

69. لورنس ، " أعمدة الحكمة السبعة " .
70. ميديكو ، "الآليء من النصوص الكنعانية "، ترجمة مفيد عرنوق ، دار الفكر ، بيروت ، 1980 .
71. باولو ماتيه ومجموعة من الباحثين ، "إيلا — عبلا" ، ترجمة قاسم طوبر ، مطبعة سورية ، دمشق ، 1984 .
72. م.ا.ل.مالوان ، " حفريات في براك " .
73. المسعودي ، " مروج الذهب ومعادن الجوهر " .
74. الدكتور أ. مورتغات ، "تاريخ الشرق الأدنى " .
75. عبد الوهاب النجار ، "قصص الأنبياء "، دار الجليل ، بيروت ، 1985 .
76. ب. ب. هوويل ، " مجلة الإنسان " ، عدد 144 — 1947 .
77. صموئيل هنري هوك ، " منعطف المخيلة البشرية " ، ترجمة صبحي حديدي ، دار الحوار ، اللاذقية ، 1983 .
78. هوميروس ، "الإلياذة " .
79. ولنفسون ، " تاريخ اليهود في بلاد العرب " .
80. الدكتور ولنفسون ، " تاريخ اللغات السامية " .
81. جان وولف ، " يقظة العالم العربي " .
82. التوراة .
83. دائرة المعارف البريطانية ، 1965 .
84. مجلة العربي ، العدد 328 — مارس (آذار) ، 1986 .
85. القاموس الكلداني العربي ، المطران يعقوب أوجين منا .
86. الدكتور يولي بركوفيتش تسيركين ، الحضارة الفينيقية في إسبانيا ، ترجمة الدكتور يوسف أبي فاضل ، بيروت 1988 .
87. مجلة الحوليات الأثرية في سوريا .

المراجع الأجنبية

1. C. Autran , " Pheniciens", Paris .
2. Apuleius , " The Golden Ass" , translated by R. Graues , Penguin , London 1980
3. F . Bradel , " The Mediterranians and the Mediterranean World" , (Eng. Tr .from French , 2nd ed .)London , 1971 .
4. G . Bonfante , " The Name of the Phoinicians " . Claccical Philosophy . Vol XXXVI .
5. A. Berthalet , "Histoire de la Civilization d'Israel" , Fr. Tr
6. Bulletin , "American Schools of Oriental Research " No 99 .
7. J.H .breasted , "Development of Religion and Thaught in Ancient Egypt .
8. G.A.Barton , " Archaeology and the Bible " .
9. J. Breasted , "Ancient Records " .
- 10.J .Breasted , "The Eduin Smith Surgical Papyrus" , 2 vols (Chicago , 1930)
- 11.Claude R.Conder, "Cupian Stone- Lore" . London .
- 12.Carleton S. Coon , "The Races of Europe" .
- 13.Alberet T.Clay , "Amuru ; The Land of the Northern Semites ; "The Empire of the Amorites".
- 14.Childe , " Ancient East" .
- 15.V.A.Cooke , "Phoinicians", Enc .Br.1965 .
- 16.Conteneau, "Civilization d'Assur et Baby lone", Paris 1951.
- 17.Couvin, Jaques. Religions Neolytique, Centre de Recheaches d' Ecologie et de Prehistoire , Paris 1972 .
- 18.Childe , "de la Prehistoire' L'Histoire".
- 19.Campell , J." Primitine Myth ology , "enguin Books , London , 1977 .
- 20.Cauvin, Jacques , Les Premiers Villages se Syrie-Palestine, Maison de L'Orient ,Lyon , 1978 .
- 21.G.R.Driver , "Hebrew Language" , Enc .Br . 1965 .

22. James Frazer , "The Golden Bough " , New york , 1971 .
23. A.Grohmann, "The Arabs" ,The Ens .of Islam ,New ed .
24. F.Guirand , "Greek Mythology"
25. H.R.Hall, "The Ancient History of the Near East " ,8th ed .
(New York).
26. Herodotus .
27. Keller , "the Bible as History " , 1957.
28. L.W.King , "Egypt and Western Asia the Light of Recent Discoveries" .London .
29. Kramer , S.N "History begins sumer " , Doubleday , New york , 1959 .
30. Kramer , S.N "Sumerian Mythology", Harper and Row , New York , 1961 .
31. Diogenus Haertius , " Lives of Eminent Philosophers " , tr .R .D.Hicks, (London) .
32. Lods , "Israel " .
33. Moor , Andrew, " North Syria in Neolythic in Prehistoire de Levant", CNRS, Paris , 1981 .
34. Khaled Mohieddine, Temps Modernes.
35. S.Moscatti , "Ancient Semetic Civilization " , London , 1957 .
36. O.Maspero , "Dawn of Civilization".
37. Piere Mantet : les Reliques de l'Art Syriens dans l'Egypt de Nouvel Empire , Paris, 1937 .
38. S.A.BMerces, "The Tel-El-Amarna Tables", Toronto .No60
39. Lewis B.Patan , "The Early History of Syria and Palestine", NewYork
40. T.Eric Peet, "The Rhind Mathematical Papyrus", (london,1923)
41. Armo Poebel , "History Texts"
42. Ricciot , "History d'Israel"
43. Rogers, "Cuneiform Parallels to the Old Testament, 1942"
44. Strabo , "Geography".
45. Schaeffer, "Ugaretica".
46. Smith , "Historical Geography"
47. R.B.Smith, "Carthage and the Cartaginians".

48. Carlc.Seletzer ,”the racial characteristics of syrians and armanians”.
 49. A.smith ,”staats wissenschaftliche beitrage. Die Sumerische templestadt”,N4,1920.
 50. Ellen c.semple , :the geography of the Mediterranean Region”.
 51. W.w.taru ,”hellenistic and naval development”
 52. Vincent,”canaan d’ apres l’ explotation recente’.
 53. W.h.ward, “the seal cylinders of westerm aria “,1910.
 54. A.wheeler , “pre-historic india”1952.
 55. Woolley , c.l.”the sumerians”.
 56. The complete works of josephus bu w.whiston.
 57. L’orient-le jour 6X.1974.
- و.ف فافيلوف وسيمتوفسكس ، "سوريا" الطبعة الروسية ، موسكو ، 1975 .

فهرس

5	مقدمة الطبعة الثالثة
11	مقدمة الطبعة الثانية
15	مقدمة الطبعة الأولى
31	مدخل إلى دراسة التاريخ

الفصل الأول

الأرض العربية

الأرض العربية والشعب العربي

63	المؤرخون وفكرة الأرض العربية والشعب العربي
73	"الهجرات السامية"
88	الجولان وليس الهجرة
95	عشيرة "عنزة" مثال على الجولان
112	أصول التسميات القبلية عند العرب
125	آدم وحواء في النسب عند العرب
146	الوطن العربي السوري والوطن العربي

الفصل الثاني

الوطن العربي السوري

149	وحدته الحضارية في مراحل تشكله
150	الحضارة السورية في وادي نظوف
172	تل حسونة
172	تل حلف
173	تل العبيد
174	بدء التاريخ

174	اوروك
175	جمدة نصر
181	عصر المعدن
184	عصر الكتابة

الفصل الثالث

الوطن العربي السوري

1 - الجناح الشرقي

189	السومريون عرب سوريون
189	سومر عند صموئيل كريمة
200	سومر في المصادر العربية القديمة
203	سومر في بعض المصادر الأخرى

الفصل الرابع

الوطن العربي السوري

2 - الجناح الغربي

208		
209	العرب الكنعانيون في المصادر العربية
220	كنعانيون أم أموريون في سوريا الغربية
222	الكنعانيون في المصادر الأجنبية

الفصل الخامس

الوطن العربي السوري

الأموريون

239		
240	الأموريون في سومر
252	السوريون : أصل التسمية ، مناطقهم
262	الأموريون في سوريا ومرحلة تأسيس الدولة
270	مسألة عبادة الأجداد عند العرب السوريين
272	العرب الأموريون في نسيج الشعب العربي السوري العام وليسوا قبيلة

العرب الأموريون مؤسسو الدولة العربية السورية

- 287 نواة الدولة العربية الكبرى
289 العرب السوريون والعقل الاستراتيجي

الفصل السادس

الدولة العربية الأولى في سوريا

- 302 سرجون العظيم رجل التحرير والتوحيد
306 الأحوال الاجتماعية والسياسية السائدة قبل سرجون
317 التناقضات الطبقية وتحديد وجهة سير التطور
318 حركة أوركا جينا الإصلاحية
324 سرجون وعصر الوحدة والتحرير
324 ميلاد سرجون ونشأته
338 سرجون ومسيرة الإصلاح الاجتماعي — الاقتصادي

الفصل السابع

الدولة العربية السورية بعد سرجون

- 365 لمحة سكانية
الصراع بين الاتجاهين: الوحدوي الرأسمالي المركزي
369 الجديد ونظام المدن — الدويلات الإقطاعي البائد

الفصل الثامن

- 398 جمهوري المشرع والقائد العربي السوري العظيم
402 جمهوري المصلح ورجل الدولة

الفصل التاسع

الدولة العربية السورية بعد حمورابي

- 418 الوضع العام في المنطقة العربية

الفصل العاشر

بوابة كنعان

- 431
444 أوزيب اليهودي المنتصر يدمّر مؤلفات فيلون وسانخونيّاتن

الفصل الحادي عشر

التمهيد للحياة الإنجيلية

- 449 القسم الأول

القسم الثاني

- 454 لاهوت الفينيقيين (بين 453- 454 تدخل الخارطة)

العرب هم أبطال سانخونيّاتن

- 472 والمكان — المنطقة الغربية في شبه جزيرة العرب

- 488 العرب يؤسسون حضارة مصر

الفصل الثاني عشر

الشعب العربي السوري

- 528 السريان والآراميون

- 555 الآراميون والعبرانيون

- 561 "العبرانية" ظاهرة اجتماعية آرامية في فترة محددة ، وليست نسباً

- 565 "العبيرو" و "الخبيرو"

- 566 "العبيرو" و "الخبيرو" و "الأخلامو"

- 567 استفتاء اللغة حول هذه التسميات

570	من هو إبراهيم الخليل؟
574	جولة إبراهيم
595	• حران
599	• مصر
612	• الحثيون — العرب الكنعانيون
627	• الحثيون في مدونات التوراة عرب كنعانيون
629	• المدن والمواقع التي اقترنت بالحثيين
629	• نمر هاليس
630	• كوشار
634	• نمارين
645	• كركميش
647	• الأردن ولبنان
648	• قادش
653	• دمشق

الفصل الثالث عشر

656	أرض كنعان
658	• فلسطين
675	منطقة عسير والتنافس السوري المصري
680	الهكسوس
687	نهاية حكم الهكسوس في غرب زهران
694	مصرنايم وبنو حث في غامد وزهران

الفصل الرابع عشر

714	العرب الفينيقيون	
715	أصل التسمية
721	أسطورة أوروبا
726	البحر المتوسط والتوسع العربي السوري
737	نتائج
754	المراجع العربية
759	المراجع الأجنبية
763	الفهرس